







العدد ٥٦ أكتوبر ١٩٦٩





مجلة الفكر المفاصر

رئيس التحرير:

د. فؤاد زكريا

مشار والتحرير:

د. أسامة الخولى

أنيس منصور

د. عبد الغفار مكاوي

د. فوزى منصور

سكرتير التحرير:

جلال العشري

المحرر الفني:

صفوت عباس

تصدر شهرياً عن:

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر

ه شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت ٩٠١٦٤٨/٩٠١٢٩٩/٩٠١١٩٧٠

صفحة

تيارات فلسفية :

- الاشتراكية والقيم الأخوية د ٠ فؤاد زكريا ٤
- بين ياسبرز ونيتش د ٠ حسن حنفي ١٢

فكر اشتراكي :

- دور الاعلان في مجتمعنا الاشتراكي د ٠ سمير حسين ٢٤
- ماذا جرى للعلم الأمريكي ؟ محمد علي بركات ٣١
- روزا لوكسمبورج وحركة الفكر الاشتراكي معي الدين خطاب ٣٩

كتب جديدة :

- علم النفس الصناعي في حياتنا المعاصرة عرض د ٠ سيد محمد غنيم ٥١
- التخطيط التربوي في البلاد النامية د ٠ سعيد اسماعيل ٦٠

اتجاهات النقد الجديد :

- الزمن التراجيدي عند جيمس جويس سعد عبد العزيز ٦٨
- التكنولوجيا وتوازن البيئة الانسانية عبد الواحد الامبابي ٧٦

ندوة الفكر :

- مع برتراند رسل شيخ الفلاسفة المعاصرين ترجمة : سليم الاسيوطي ٨٣

تيارات فلسفية

الاشتراكية.. والقيم الروحية

د. فؤاد زكريا



هذا التصور الذي أعترض عليه يمكن التعبير عنه ، في صيغة موجزة ، بقولنا : إن الاشتراكية والقيم الروحية تسيران جنباً إلى جنب حتى مرحلة معينة ، ثم تفترقان بعد ذلك . وبعبارة أخرى ، فالاشتراكية تظل غير متعارضة مع القيم الروحية مادامت معتدلة ، أما إذا تطرفت ، فإنها ترفض هذه القيم الروحية ، ويفترق طريقاهما إلى الأبد .

وتجد هذه الدعوى تأييداً قوياً من ذلك الميل الطبيعي في ذفوسنا إلى قبول شكل من أشكال « نظرية الوسط » التي وضعتها أرسطو في

في أذهان كثير من المثقفين تصور للعلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحية أود أن أعلن ، منذ بداية هذا المقال ، أنني أرفضه من أساسه ، بل أنني ما كتبت هذا المقال إلا لكي أفنده وأثبت أن الاعتقاد النظري به ينطوي على استنتاجات ومتناقضات عقلية ، على حين أن التطبيق العملي له يجر وراءه من التشبث في السلوك ، والتردد والتعثر في العزم والقصد ، مالا تملك أمة تسعى إلى الأخذ بأسباب النهوض أن تترك نفسها فريسة له .

وعلى الرغم من أن هذه المناقشة لا تتصل اتصالاً كاملاً بالموضوع الذي نعرض له في هذا المقال ، فإن بلوغها بنا إلى هذه النتيجة يمكن أن يكون مقدمة مفيدة غاية الفائدة ، تساعد على تحقيق الهدف الذي نرمى إليه . ذلك لأن الكثيرين منا يعتقدون أن مبدأ « خير الأمور الوسط » هو مبدأ يصدق بصفة كلية على كل شيء ، ولا يتصورون أن هناك « أمورا » معينة ينبغي على الإنسان ألا يكتفى فيها بالوسط . أوهم ، بتعبير آخر ، لا يدركون أن اتخاذ الموقف الوسط ، أو التزام جانب الاعتدال ، في أمور معينة ، يعني مهادة الشر والرديلة ، والتخلي عن قدر كبير من الفضيلة ، هو ذلك القدر الذي نتركه جانبا بحجة أنه يمثل حد « التطرف » .

ولو نظرنا إلى الاشتراكية بمعنى أنها «العدالة الاجتماعية» تظهر بوضوح أنها واحدة من تلك الأمور التي لا يكفي فيها اتخاذ الموقف الوسط ، إذ أننا جميعا ، دون شك ، نود أن يتحقق من العدالة الاجتماعية أعظم قدر يمكن تحقيقه ، ونحس بقصور سلوكنا لو أننا اكتفينا منها بحد « الاعتدال » ونعتمدنا ألا نحققها كاملة حتم لا نصل إلى حد « التطرف » . فكيف إذن يقال إن هذا التحقيق الكامل لمطلب أساسي عزيز على الإنسان ، يتعارض مع القيم الروحية ؟ وكيف شاع - بين كثير من مفكرينا العرب على وجه الخصوص - ذلك الاعتقاد الذي تصبغ فيه الاشتراكية أشبه ما تكون بالخمر ، قلل منها يصلح « معدة » المجتمع ، وكثير منها يفسد المجتمع ويصيبه بعال أولها فقدان الإحساس بأهمية القيم الروحية التي هي أسس غاية يتطلع إليها البشر ؟

إن المرء لا يحتاج إلى تفكير طويل لكي يدرك أن هناك فئة من القائلين بالتعارض بين الاشتراكية - إذا تطرفت - وبين القيم الروحية ، لا تؤكد هذه الفكرة إلا أنها كراهية ، أصلا ، للاشتراكية . هذه الفئة لا تستطيع أن تجهر بالعداء لمبدأ الاشتراكية حين يصبح هذا المبدأ سياسة رسمية للدولة ، فيكون الحل الذي تلجأ إليه هو أن تحد من نطاق الاشتراكية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وأبسط وسائل هذا الحد هو أن تؤكد اصراء « التطرف » ، وتقيم تعارضا مزيفا بينه وبين القيم التي يعتز بها المجتمع ، وبذلك تضمن أن المبدأ الذي هي في صميمها كراهية له كراهية شديدة ، وإن كانت غير معلنة ، قد ظل حبيس إطار محدود لا يخرج عنه ، وتضمن في

الأخلاق ، والتي تعبر عن نفسها في أمثال شعبية مثل « خير الأمور الوسط » . هذه النظرية تذهب إلى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : كالشجاعة التي هي وسط بين الجبن والتهور ، أي أن هناك خطأ ممتدا ، يتميز بالاستعداد والتكثيف التدريجي لصفة ما ، وهذا الخط يبدأ من رذيلة وينتهي إلى رذيلة ، بينما تقع الفضيلة في موقع ما عند الوسط أو بالقرب منه . وعلى ذلك فإن الإفراط في الفضيلة ، شأنه شأن التفريط فيها ، ينقلب إلى رذيلة . وبهذا المعنى يكون الإفراط في الاشتراكية - تبعاً لهذا الرأي الشائع - رذيلة تؤدي إلى ضياع القيم الروحية والتفكير لها .

ولعل أول ما ينبغي أن نشير إليه ، ونحن في معرض مناقشة هذه الدعوى ، أن مبدأ « خير الأمور الوسط » ليس مبدأ مطلق الصحة في كل الأحوال . ففي حالة فضائل معينة ، لا تكون الحالة المثلى على الإطلاق هي أن يكون لدينا من هذه الفضيلة قدر معقول فحسب . فهل الأفضل ، مثلا ، أن يكون المرء معتدلا في نزاهته أم مفرطا فيها ؟ وهل المجتمع الأمثل هو ذلك الذي يسوده قدر معقول من العدالة ، أم عدالة كاملة بلغت أقصى حدود « التطرف » ؟ وهل يعد الغش صفة يستحسن أن يكون لدى الإنسان « قدر » منها ، مهما كان بسيطا ، أم أن التفريط الكامل في هذه الصفة أمر مستحب ؟ من الواضح أن « نظرية الوسط » لا تسرى آليا على كل الفضائل ، وإن هناك صفات معينة يكون المرء أكمل من غيره لو أنه تحلى بأكبر قدر ، أو بأقل قدر منها .

الوقت ذاته أنها ، بدعوتها هذه الى تقييد المبدأ الذى ينفذه ، قد اتخذت مظهر المدافع المخلص الفيور عن أسى ما يملكه الإنسان من قيم .

ولكن لا أود أن أثرب طويلا لمناقشة موقف امثال هؤلاء المعكرين . ذلك لأن المعارضة الصريحة للاستشراكية اشرف ، في رأى ، من ذلك الانتاف من حولها بغير طعن من الخلف . والمعارض الصريح ، وإن كان يرتكب خطأ عمليا افدح ، يتسم على الأقل بمستوى اخلاقى أرفع من مستوى هؤلاء الاعضاء المتنكرين في ثياب الاصدقاء ، فضلا عن انه قابل للاقتناع اذا كان امينا ، وإذا لم تكن لعدائه اسباب خفيه مرتبطه بالمصالح الشخصية . ومن هنا فاني أود أن اتوجه بحديثي الى المعارضين الامناء ، لا المنافقين ، وأن اناقش معهم ذلك المبدأ الذى يأخذونه قضية مسلما بصحتها ، مبدأ التماض بين القيم الروحية وبين الاشتراكية ، اذا سارت حتى آخر مدى يمكن تصوره لها .

ما هي « الروحية » ؟

إن قدرا كبيرا من سوء الفهم يرجع الى الافتقار الى الدقة في تحديد معنى «الروحانية» . فالكثيرون يتصورون ان الروحانية هي الاعتراف انظرى بعبادة معينه ، واداء تسمعاتها وقوسها . مثل هذا المعنى شكلي بحت ، وهو لا يمثل الا المسطح انهائى مما تدل عليه الروحية الصحيحة . وقد يظن من يعترف نظريا بمثل هذه العقيدة ، ويؤدى شعارها ، انه قد حقق بذلك القيم الروحية في نفسه . ولكن هل من الصحيح أن مثل هذا المسلك يوفى القيم الروحية حقها ؟

إن أبسط تفكير يقنعنا بأن الروحية هي ، قبل كل شيء ، جهاد وكفاح ومغالبة . وذلك الذى يقتصر على الاعتناق بالشكل للمقائد لم يتافع ولم يغالب شيئا . ولو وضعت مصالحه الحقيقية في كفة ، وجوه عقيدته في كفة أخرى ، لسعى بكل قواه الى ترجيح الأولى . على أن جانب الخطورة لا يتمثل في الوجه الفردى لهذه الظاهرة ، بل يكمن في وجهها الاجتماعى . ذلك لأن المجتمع بنوده يقر مثل هذا السلوك ويعده أمرا طبيعيا لا غبار عليه . خذ مثلاً ذلك التاجر الذى يؤدى فروض الدين كلها كاحسن ما يكون الأداء ، ثم يعلم ان بضاعة مخزنه لديه قد شحت في الأسواق ، فلا يتردد لحظة واحدة في رفع سعرها ، مثل هذا السلوك الفردى ينطوى على

تجاهل تام للروحانية الحقيقية ، ولكن الأهم من ذلك أن المجتمع لا يجد في هذا المسلك مأخذا . فسلوك هذا التاجر ، في نظر المجتمع ، مشروع ما لم يكن الأمر متعلقا بسلعة محددة السعر ، وهو في نظر معارفه دليل على الفطنة وبعد النظر ، ولا تماض بينه على الإطلاق وبين المظهر « الروحى » الخارجى الذى عرف به صاحبه بين الناس .

على أن هذا الفهم الباطل للروحانية قد انخذل في عالمنا المعاصر مظهر أخطر بكثير ، هو المظهر الأيديولوجى ، الذى أصبحت فيه الروحانية وسيلة لمقاومة الاشتراكية في صورها المكتملة . وهذا المظهر الأيديولوجى هو الذى ينبغى التنبيه اليه وتحليل أسبابه وتحديد مدى البطان فيه .

ذلك لأن من أعجب المفارقات في عالمنا المعاصر أن الدفاع عن القيم الروحية أصبح هو الشعار الذى تنادى به أشد النظم الاجتماعية اغراقا في الماديات ، وابعدها عن كل ما تسمى به الروح وتزهو به الفضيلة والأخلاق . ففى عالمنا هذا تنكر ، مرة أخرى ، قصة التاجر الذى يترك عجلاده ، ويظهر أمامهم برغم ذلك ، بمظهر الفيور على التقوى والايمان . فكيف وصل فكرنا الى الوقوع راضيا في مثل هذا التناقض ؟

إننا نعلم جميعا أن أشد الدول الرأسمالية اغراقا في استغلال الانسان ، داخل بسلادها وخارجها ، وفي العدوان على كل القيم التى تمتز بها البشرية ، تنبأى من الوجهة الأيديولوجية على القيم الروحية التى تقضى عليها الاشتراكية

المتطرفة ، وتعمل على البسطاء والسذج ان هذه القيم لا حياة لها الا في ظل نظامها الاجتماعى والاقتصادى الخاص . وفى كل يوم يتفاخر **الأمم** ، **الايديولوجيون** **النظام** **الرأسمالى** **بتميزهم** عن « **الماديين** » من **الاشتراكيين** ، و**يتباهون** بأن « **الروحانية** » لا حياة لها الا بين **ظهوراتهم** ، وربما عقدوا مخالفات صريحة او ضمنية مع هيئات دينية - كالكثيسة الكاثوليكية مثلا -

يضفون بها على هذه المزاعم بركة « سماوية » .
وانك لتجد الجندى الأمريكى يشل النساء والاطفال فى فيتنام ، ويأوى الخيلة البرية فى هيروشيما ، وينقض على ثورات التحرر فى أمريكا اللاتينية . ثم يذهب الى الكنيسة يوم الأحد راضيا ، دون أن يشعر بوجود أى تناقض بين هذا المسلك وذاك . وقد يكون هذا نفاقا تمليه المصالح الخاصة لشعب او لنظام اجتماعى معين ، ولكن العجيب حقا هو أن تبادر هيئات دينية واسعة النفوذ الى الاعتراف بأن القيم الروحية لا تجز من بحميتها الا بين انصار النظام الاجتماعى الذى يرتكب كل هذه الشرور ، والأعجب من هذا وذاك أن يصدر هذه المزاعم قطاع لا بأس به من **الرأى العام** فى العالم ، بل وفى عالمنا العربى بنوره ، فيسلم بانتهائى بين القيم الروحية وبين الاشتراكية الكاملة التحقق .

فما هى القوة التى تحرك الجسد النجيل الهزيل لتجعله يصارع أضخم حيازة الأرض ؟
ايستطيع أحد أن يزعم لحظة واحدة أن قوة المادة هى التى تمنح الفيتنامى القدرة على الصمود والانتصار على أشد أجهزة القتل والدمار كمالا ، وتعطى عقله البسيط المباشر مقدرة التفوق على أدهى ما تتفقت عنه أذهان محترفى العسكرية ، مقترنة بأعقد خطط العقول الالكترونية ؟ ان الفيتنامى الفرد ، فى هزاله وضآلة جسمه وفقره وبساطة حياته ، ما هو الا كتلة متحركة من القيم الروحية - بارفع ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معسان - تقف بأصرار وأباء أمام جبروت المادة وتفقرها دون عناء ، لأن الروح المتغاية أقوى ، فى نهاية الأمر ، من كل مادة **فجة غاشمة** .

وقل مثل هذا عن افراد كثيرين عاشوا فى عالمنا هذا مثالا للتفانى فى سبيل اسمى ما تعتز به البشرية من القيم : هوشى منه ، الذى يابى الا ان يكون عظيما حتى بعد لحظة مماته ، فيطلب فى وصيته الا يقام له الا جنازة بسيطة قصيرة ، « حتى لا يكون فى ذلك مضیعة للجهد والمال » !

ولكى تكتمل لدينا صورة الزيف الفكرى الذى يسيطر على أذهان كثير من الناس فى عالمنا المعاصر ، ينبغى أن نأمل نماذج من سلوك أولئك الاشتراكيين « المتطرفين » ، الذين يشيع وصفهم بأنهم أعداء القيم الروحية ، وبأنهم لا يبنون سلوكهم الا على أساس من المادية والا انسانية .

خذ مثلا سلوك شعب فيتنام . يشك أحد فى أن البطولات الأسطورية التى يسجلها هذا الشعب الصغير ضد اعتي جهاز عسكري وحربى عرفه الإنسان طوال تاريخه ، هى انتصار قاطع وحاسم للروح على المادة ؟ ان السلاح الحديث ، الوفر ، الذى تدعمه أعظم البحوث العلمية ، والأموال التى تصل الى أرقام فلكية ، والثراء ، وكثرة العدد ، وضخامة الأجسام ، وحسن التغذية ، والعقول الالكترونية ، كل هذه تقف عاجزة خائرة أمام شعب فقير ، ضئيل العدد ، قليل العدة ، يحيا حياة ريفية بسيطة ، ولا يعتمد فى تدبير أموره الا على موارد شحيحة لا تكفى سكان بلدة متواضعة فى أشد ولايات أمريكا تاخرا .



بين الخبز والروح :

ان شعار « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان هو الكلمة السحرية التي يرددها انصار « القيم الروحية » بمعناها القسبي ، ويؤمنون أنهم يفهمون بها خصوصهم ، ويشنون حرسهم على انسانية الانسان . وردا على هذا الشعار ، أكد الكثيرون أنك لا تستطيع ان تقنع به الفقير الجائع الذي تدور معدته في خواء . فهل يعني ردهم هذا أنهم ينكرون ان في الحياة الانسانية ما هو اسمى من الخبز ؟

الحق ان مشكلة العلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحية انما يكمن حلها في الرد على هذا السؤال البسيط . ذلك لان الانسان لا يحيا حقا بالخبز وحده ، ولكنه لا يستطيع ان يطبق هذا المبدأ الا حين يتوافر لديه الخبز . وهذا هو لب الموضوع . فحين يمز الخبز على الانسان ، يصبح هو الغاية القصوى ، بل الوحيدة ، لكل سلوك يقوم به . وتلك بلا ريب حالة من الضعة اشبه ما تكون بحالة الحيوان الأعجم . ومن عجيب أمور الفكر البشري ان ذلك الذي يدعى الى توفير الخبز للجميع انما يهدف الى ان يرتفع

وجيفارا ، الذي يأخذ على مائه تحقيق رسالة الثورة ضد الظلم في كل مكان ، ويترك جبه الحكم ونفوذه ونعمه جانبا ليمود مرة أخرى مناضلا بسيطا يحارب في اقصى الظروف التي يمكن ان يتصورها انسان .

ومع ذلك فان هؤلاء المناضلين جميعا ، الافراد منهم والجماعات ، يمكن ان يحسبوا ، في نظر البعض ضمن « خصوم » القيم الروحية ، لانهم يؤمنون بنوع من الاشتراكية « المتطرفة » التي يعدها الكثيرون متعارضة مع تلك القيم . فهل هناك دليل ابلغ من ذلك على ضيق نظرة هؤلاء الى القيم الروحية وقصور فهمهم لمعناها ان من هؤلاء من هم مخلصون ، بلا شك ، لمعنى الروحانية ، حريصون على توطيد اركانه ، ولكن ما أجدر هذا الفريق بان يراجع تفكيره في هذا الأمر مراجعة شاملة ، وانا على ثقة من أنه لو فعل فسوف يتبين له أنه ضيق من نظره الى الروح والى قيمها أكثر مما ينبغي ، وأنه أخرج من مجالها أنواعا من السلوك لا يستطيع أحدا أن يشك في صدورها عن دوافع روحية خالصة .

بالإنسان فوق مستوى التفكير الدائم في الخير والانسحاق الذي لا ينقطع به ، حتى يستطيع ان يتفرع لما هو ارفع منه ، على حين ان ديب الذي يولد - في ترفع وتسام - ان الانسان يحيا بما هو اسمى من الحيز ، قد يودى دعوته هذه الى ان يتجاهل الناس مشكله الخبز ، فتكون النتيجة ان يظلوا اسرى لها الى الابد ، ويعجزون بالتالي عن بلوغ مستوى الخبز ومستوى ما فوق الخبز معا .

ولو شئنا ان نترجم هذا الكلام الى اللغة الفلسفية ، لعلنا ان الدافع عن المسألة كثيرا ما يكون ، في حقيقته ، دفاعا عن الروح بمعناها الحق ، على حين ان الدافع عن آكل الروحانية تنبها ما يحول ، بين طيانه ، اتساع النزعات المادية عنها وقسوة . ومن المؤكد ان لفظي « المادية » و « المثالية » مستولان عن قدر كبير من الغالطات التي يمينش الانسان المعاصر ضحية لها .

ذلك لان لكل من هذين اللفظين معنى عقليا خالصا ، او نظريا فلسفيا ، ومعنى آخر عمليا او اخلاقيا . وفي تفكير معظم الناس خطف دائم بين هذا المعنى وذلك . فحين يتحدث أحد عن المادية ، بالمعنى النظري الفلسفي وحده ، ينصرف الدهن لتعاليا الى المادية بمعناها الاخلاقي ، وهي شيء فيجيب ينفر منه كل انسان لديه ذرة من حب الخير والجمال . وحين يتحدث آخر عن المثالية ، بمعناها العقلي البحت ، ينصرف الذهن أيضا الى المثالية بمعناها الاخلاقي ، وهي شيء رائع يسعى اليه كل من يقدر العيم الرفيعة .

ومع ذلك فان تاريخ الفكر البشري حافل بأمثلة الفلسفات التي جمعت ، دون أي تناقض ، بين المادية النظرية والمثالية العملية او الاخلاقية ، والفلسفات التي ارتبطت فيها مثالية الفكر النظري بأقبح مظاهر المادية في السلوك العدلي . وتكاد هذه ان تكون قاعدة مطردة ، او قانونا يحكم العقل البشري ، ومع ذلك فما أسهل الغالطة حين يكون الأمر متعلقا بالجمع بين معان بلغت كل هذا الحد من التضاد !

على انه ، اذا كان هذا هو الاصل الفلسفي للفهم الباطل لمعنى الروحانية (التي هي وثيقة الارتباط بالمثالية) ، فاننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى الخوض في أعماق بحر الفلسفة كيما ندرك أن « الدفاع عن الروح » قد أسىء فهمه ، وأسء

استخدامه ، في علمنا هذا الى حد يؤدي الى احراق الأضداد بقضية الروح ذاتها . ولا أشك لحظة في أن الأمثلة المموسة التي قدمتها في موضع سابق من هذا المقال ، كقيلة - اذا ما تعمقنا فهم دلالتها - بتبنيه هذه الأذهان الى خطورة الالتباس الذي وقعت فيه .

ان فهمنا لطبيعة القيم الروحية ومجالها يحتاج الى مراجعة جذرية ، تؤدي بنا الى الا تقتصر على المعنى الشكلي لهذه القيم ، بل نضم اليه اهم المعاني جميعا ، وهو المعنى الجوهرى للروح . والحق أننا لو شئنا ان نموذجنا صارخا ، في هذا الصالح الذي نعيش فيه ، للفهم الشكلي للروحانيات ، لكان هذا الانموذج هو الايديولوجية الصهيونية . فهذه الايديولوجية ترتكز على الاستمساك المريض بحرفية عقيدة تعتقد انها هي وحدها العقيدة الروحية المقدسة ، وكل ماتقدمه هذه الايديولوجية لتصرفاتها من تبريرات يرتكز على دعائم من هذه العقيدة الروحية . ومع ذلك ، فما أعظم التباين بين ادعاء الدفاع عن عقيدة روحانية ، وبين المسالك الاجرامى الذي تحبذه هذه الايديولوجية وتدفع اتصارها الى القيام به دون وازع من مبدأ أو



هو شى . منه

ضيق . ومنذ ان كانت لليهود حياة متميزة محددة المعالم ، كان هذا ازدواج العجيب بين التمسك بالعتيدة وبين الجرى للآلهت وراء الماديات ، هو السمة المميزة لحياتهم . وما هذه ، فى رايى ، سوى النتيجة القصوى للتمسك الشكلى بالبحث بالروحانية ، دون اكترات بجوهرها ومعناها العميق .

ان القيم الروحية ، اذن ، ليست شكلا فارغا، او اطارا من التسمان والافوال التى تتردد آليا على الألسن ، بل هى قبل كل شئ سلوكه عملى فى الحياة . والحريص حقا على القيم الروحية ليس ذلك الذى يردد الفاظا او يؤدى طقوسا ، بل هو ذلك الذى يثبت بسلوكه فى الحياة انه يتخذ لنفسه هدفا رفيعا ، ويضحي من أجل تحقيقه بكل ما يملك .

امام ثنائى الأخطاء التى ينبغى ان تؤدى بنسب التفكير الجاد فى هذه المشكلة الى التخلص منها، فهو الاعتقاد بان القيم الروحية لا تعدو ان تكون تراثا قديما يتمين علينا ان نحفظ به سلبيا . ذلك لان القيم الروحية ، وان تضمنت هذا المنصر من غير شك ، تتجاوز هذا النطاق بكثير:

فهى فى اساسها خلق متجدد فى ميدان العمل . وهى مرشد يهديننا فى محاولتنا بناء مستقبل افضل ، وليست مجرد أثر من آثار الاناضى يتمين علينا ان نكرس حياتنا لخدمائته من عوادم الزمان . ان القيم الروحية تختنق لو أصبحت مجموعا من المبادئ الموروثة ، ونحيا ونزدهر إذا استحالنا الى قسوة دافعة توجه المرء فى حاضره ومستقبله . وان يخدم القيم الروحية فى شئ ذلك الذى يقتصر على اختزان مبدىء التراث فى صندوق مقفل خشبية ان تمتد اليها يد لتختطف منها شيئا ، بل ان خادمها الحقيقى هو ذلك الذى يجددها ، ويخلق منها المزيد فى كفاحه من أجل حياة افضل للناس جميعا .

لو قمنا بهذه المراجعة ، بصدق واخلاص ، لما عاد هناك تعارض بين الاشتراكية ، أيا كان المدى الذى تلبسه ، وبين القيم الروحية ، ولاختفى نهائيا ذلك الوهم الذى صور لبعض الناس ان هذه القيم تهتك بيد الاشتراكية حتى منتصف الطريق - وربما ريع الطريق أو عشره - ثم تفرقت عنها الى غير رجعة .

فؤاد زكريا

● لم يكن غرض ياسبرز من تفسير نيتشه تفسيراً مسيحياً دفاعاً عنه وإرجاعاً له الى حظيرة المسيحية ، بل دفاعاً عن المسيحية التاريخية ضد هجمات نيتشه عليها مع أن نيتشه لم يبلغ الا تصفية الايمان مرة واحدة وإلى الأبد .

يحق لنا أن نتساءل : لم خصص ياسبرز جزءاً كبيراً من جهده على فترات متباعدة من حياته لدراسة نيتشه أكثر من مرة ؟ بل ولا يخلو مؤلف من مؤلفاته من إشارة اليه بالتأييد أو على الأقل تدلل على تقدير ياسبرز له ومعرفته لكأنه في الفكر المعاصر . هل يؤمن ياسبرز بالفعل وهل يقدر رسالته ودعوته أم أنه يتسلق عليه ليحتويه وليقفى على جذته وليجمع موافقه وبذلك يصيب الد أعداء المسيحية أشد اسدافانها ، ويتحول أكبر داعية للإلحاد الى أكبر نصير للإيمان ، ويصير فيلسوف القوة وإرادة الحياة والإنسان المتفوق فيلسوف الخضوع والاستسلام والتبرير ؟

مؤلفات ياسبرز عن نيتشه :

كتب ياسبرز عن نيتشه كتابين : الأول « نيتشه » سنة ١٩٣٦ وهو كتاب ضخم يتضمن بالموضوعية والتاريخ الدقيق حياته وفلسفته مما يثير في القارئ الملل والسأم ، يحاول فيه احتواء نيتشه وتفريقه من مضمونه الثوري في تصوره للحياة والمقيدة ، والثاني « نيتشه وأنشيعته » سنة

بين ياسبرز ونيتشه

٢٠٠٩



د. حسن حنفي

١٩٤٦ وهو كتاب صغير يكشف فيه ياسبرز عن نيته صراحة من هذا الحوار المستمر مع نيتشه وهو إعادة تفسير نيتشه تفسيراً مسيحياً واعتبار فلسفته نتيجة لدوافع مسيحية أصيلة : غرض ياسبرز من دراسته إذن هو انتقاد المسيحية من الد أعدائها ثم تحويله الى أشد أنصارها وبذلك يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً . ويقوم بهذه المهمة أشد أنصار



نيتشه يمتنح الطيبى النفس القديم الذى اتبته فى « علم النفس الرضى العام » سنة ١٩١٣ مع أنه قد مارس العمل الفلسفى بعده فى « علم تصورات العالم » سنة ١٩١٩ (وكان ما زال مشغوباً بعلم النفس) وفى العظيمة بأجزائها الثلاثة الكبار سنة ١٩٣١ ، اعتبر ياسيرز نيتشه حالة مرضية تقريباً (وقد لاحظ ذلك أيضا حين قال فى تقديمه للترجمة الفرنسية للكتاب) وخصص حياته وعرضه سؤال

المسيحية فى التفكير المعاصر ، ويتم له ذلك عن طريق تمبيح فلسفة نيتشه فى مذهب متشقق مع نفسه وعرض تحليلاته للانسان ونظراته فى الحقيقة وآرائه فى العصر الحاضر والسياسة وتفسير العالم فى صورة أفكار ونظريات متمسكة حتى يتحول الثائر من عاصلة على العصر الى فيلسوف يؤلف مذهبا أكثر مما هو « شوكة فى البين » على مايقول كيركجارد - ولكن يبدو أن ياسيرز قد فشل فى محاولته لأنه قام بدراسة

تحلل الله من نفسه ، ولكنه عندئذ يحرله ... ستروله فوق الحيز والر (نيشة ص ١٢٤) ومن ثم يجعل ياسبرز السلب هو الإيجاب ، والتحلل هو الحلق ، والإعدام هو الانساج .

يرفض ياسبرز التفسيرات الفلسفية والتاريخية والرمزية والنفسية لنيشة ويطلب يتطبع ينيش النشاة génétique أي يتبعس يبدأ بنواة ينسج حولها حتى يتم إعادة بناء فكر الفيلسوف ، ولا يفتقر هذا التفسير كثيرا عن التفسير النفسي الذي يجعل للأشياء ظاهرا وباطنا أو التي يجعل لكل فكرة أساسا نفسيا . يؤدي التفسير النفسي إلى تأكيد أن نيشة لم يكن له اتباع وإن تابع نيشة هو من يتبع نفسه : « كن أنت لنفسك » فقد سمى نيشة نفسه « تيمزلي القلب » لانيلا لدين أو داعيا لطائفة أو مؤسسا لفرقة ، وبالتالي لن يفهمه إلا مبارقة القلب مثله . يجعل ياسبرز نيشة فردا ، وحيد عمره ليس كمثل أحد استثناء ، حتى يجعل فلسفته هي شخصه وتحول الفلسفة إلى صناعة للتمثيل ! ولا يتحدث ياسبرز كثيرا عن نظريات نيشة في فقه اللغة والتي جعلت من نيشة استادا للغة اللغة وهو في الراهة والمشرين ولكنه يطيل الحديث عن عزله وشذوذه وعرضه ويجونه حتى يضمف اللغة في أرائه أو على الأقل يجعل أفعاله تعبيرا عن أزماته النفسية والأمراض البدنية (مرض عضوي في الخ أدنى به إلى الشلل) ويجعل محور فلسفته « أن الله قد مات » تعبيرا عن إحدى آفات الجنون ! مع أن هذه القضية هي المحس السيطر على أعمال نيشة الأخيرة إذ يقول « أما إن يميثنا هذا الدين أو نبيت نحن هذا الدين » واني أومن بهذه العبارة التي قالها قداما الجرمانيين : « يجب أن تموت جميع الآلهة . (نيشة ص ٢٤٧) ، كما يقول أيضا « أين هو الله ؟ سأقول لكم ، لقد قتلناه أنا وأنتم ! » يجعل ياسبرز الحاد نيشة الحادا ذاتيا وجوديا نتيجية كما لازمة نفسية لا الحادا موضوعيا نتيجة لتدليل الطبيعة كما هو الحال في عصر التنوير في فرنسا في القرن الثامن عشر ، بل أن ياسبرز يجعل الحاد نيشة إيمانا مقننا لأنه بحث من اله العصر والقوة والحياة والإنسان التوفيق .

ويدافع ياسبرز عن نيشة ضد منتقديه واتهامهم له بالتناقض وبمصاداته للعلم نتيجة لنقص في ثقافته العلمية ويفرديته والحالة ، ويخصص ياسبرز الفصل الأخير من كتابه الكبير للدفاع عن تيمة الإحاد وإعادة تأويل عبارات نيشة الصريحة مثل : « الإيمان بالله صيب للعالم » أو « أن الله مجرد التراب » أو « الله أكبر خطرا » أو « الله يجب أن يموت » بأن ذلك يعني رغبة الإنسان في البحث عن موجود أسى وغاية أعظم ! كما يحاول تفسير رفض نيشة للعلم بأن أنه إيمان بنوع من العلم المكبر في النفس ! وبالتالي يخلف ياسبرز من حجة نيشة وجديته ، ويقضي على انفعاله ، ويمضي فسيه ، ويجعله لا فرق بينه وبين كبرجارد

ربيع الكتاب حتى يقضي على عقلانية ملهه وحتى يوحى بأن دعوة نيشة هي مجرد صدى لأزماته النفسية والأمراض العصبية والبدنية ولجنونه الأخير لا تحليلا لتوابع العصر والثورة عليه . وقد فشل الكتاب أيضا من حيث منهجه في التأليف إذ أنه يضم مجموعة حائلة من التصوص ربط ياسبرز بينها بعبارة أو عبارتين كما يفعل طلابنا في أوائل سنوات دراستهم الجامعية عندما يظنون أن مادة البحث هي البحث نفسه ولا يفرقون بين مادة البحث وإخراج مدلولاتها . جمع ياسبرز أكبر عدد ممكن من العناوين حول الموضوعات الرئيسية في فلسفة نيشة وربط بينها حتى أصبح من الصعب قراءة الكتاب أو تتبعه ، ويعترف ياسبرز في سيرته الذاتية بأن كتابه كان دراسة تاريخية محضة من أن ما يهيمه كان الفلسفة لا التاريخ (١٨٦) . ولكن ما أن طغى هذا الحجم الكبير من التصوص والوثائق على الهدف المزدوج المتناقض من تعامل ياسبرز مع نيشة وهو تفسير نيشة كحالة مرضية وفي نفس الوقت التي أن نيشة فيلسوف صاحب مذهب وتبين نظرياته في صور متوازلة ومتعادلة حتى كشف ياسبرز عن غرضه الحقيقي من هذا الحوار في كتابه الصغير عن « نيشة والمسيحية » والذي يثبت فيه ببساطة ثامة مع الاتجاه إلى بعض التصوص المتفرقة - أن نيشة في فلسفته كان يتبع دوافع مسيحية أصيلة وبالتالي لما يظنه الناس أنه أعداء المسيحية هو في الحقيقة أحد أبنائها المخلصين !

ويكشف منهج ياسبرز في كتابه الكبير « نيشة » عن قصد وذلك بإعلانه أن فهم الفيلسوف يتطلب رؤيته من خلال وجهات من النظر أكثر اتساعا وقسولا بحيث يمكن أن تضم وجهات نظر الفيلسوف الجزئية ، أي أن ياسبرز يريد أن يلم شتات نيشة المبعثر حتى يعطينا تصويره النهائي من وجهة نظر أشمل وهو نيشة المؤمن بالرفم مما يصف به نيشة نفسه من الحاد وإعلان موت الله . ويعتمد منهج ياسبرز هذا على ما يسميه « التفسير الوضوعي من خلال التشعيع التي نلقم » الذي يقوم على التسليم بوجاهة متفاوتة في اللهم أو بدرجات مختلفة في العمق كما هو الحال في تأويلات الصوفية والباطنية - فالحقيقة لها درجات : أن كان الظاهر هو الحاد نيشة فقد يكون الباطن هو إيمانه ، وإن كان الظاهر هو رفض نيشة للعلم فقد يكون الباطن هو رغبته الكرمية في إثبات هذا العلم ، أي أن الحقيقة بها التباس اشتباه وغموض ، فهي جمالة أوجه ، وبهذا المنهج يستطيع ياسبرز أن يقلب الحق باطلا والباطل حقا بمعنى تفسيرات على درجات متفاوتة من العمق ، وعلى هذا النحو يحق لياسبرز أن يحول السلب إلى إيجاب والإيجاب إلى سلب ، فكل حكم سلبي يقوم على حكم موجب . فمثلا : « إن الله قد مات » قد تعني « لا إله حي » . لأن نفى الله معناه خلقه من جديد بصورة أخرى . ويجه . ياسبرز نصيا لنيشة يؤيده في منهجه هذا إذ يقول نيشة « يسعون ذلك (موت الله)

وارغمطين وبسكال ، وبذلك يتحول فيلسوف المذموم الى فيلسوف الوجود أو على الأقل ينتهي ياسبرز الى التصادل في القضية ويعلم أن لا يوجد أي برهان على وجود الله كما لا يوجد أي برهان على الإلحاد (نيتشة ص ٤٣٨) . وكفاء نصرا أن يثبت أن نيتشة ليس كما يظنه الناس ملحدًا وأن كل فكره يدور حول موضوع واحد وهو «دين الوصي» وهو فكر لا يقود الى الله ولكنه لا يبعد عنه (ص ٤٤٠) الى آخر هذه العبارات التي لا تقول شيئاً لان نصفها الثاني يدلي نصفها الأول والتي تدل على براعة غائقة في التسمية . ومادام نيتشة يتفلسف أمام الإلحاد فإنه لا يكون ملحدًا خالصًا (ص ٤٤١) ، وإن كان نيتشة ملحدًا فإن الإلحاد يرفض أن يكون نيتشويًا !

ومع أن نيتشة لم يقرأ سطرًا واحدًا من كيركجارد (لأن مؤلفاته لم تكن قد ترجمت بعد الى الألمانية) وعلى ما ينفرد ياسبرز بنفسه فإن ياسبرز ذكر نيتشة ذكر مهم كيركجارد ويعطى لكل منهما نفس الدور في الإيقاظ حتى يوحى بأنه يتحدث عن أهم مفكرين وجوديين في المسيحية على السواء لا فرق لديه بين كيركجارد ونيتشة ، أي بين مؤمن وملحد على ما هو متعارف عليه ، أي أنه يستعمل كيركجارد للتعمية ولا يصد من ذكره إلا تمجيح مواقف نيتشة وتحويل الهجوم على المسيحية الى دفاع عنها . وإذا كان ياسبرز يحاول أن يثبت أن إلحاد نيتشة هو إيمان مقنع فالحقيقة أن إيمان كيركجارد هو إلحاد مقنع لأنه يرفض كل العقائد المسيحية الرسمية التي يطلق عليها اسم «التنصص» في مقابل المسيحية الباطنية . ولكن ياسبرز يجعل كليهما تابعا للمسيحية ، فكلاهما تأتي بشوينهور ، نيتشة في أول حياته وكيركجارد في آخر حياته ، وكلاهما فكر في سقراط فاعتبره كيركجارد معلمه واعتبره نيتشة معلمه ، وكلاهما عارض المعرفة العقلية وآثر تحليل الوجود الإنساني ، كلاهما عدو لهيجل الذي فتح مالا جديدًا في الفلسفة ووضع لغة جديدة في الفكر الأوربي . كلاهما شاعر ، هيرقلى الفن ، نبي ، قدس . وهكذا يجعل ياسبرز من نصير المسيحية عدوا لها ومن عدو المسيحية صديقًا لها ، ويجعل من قال « إن الله قد مات » كمن قال « إن الله إمامي أواه » ، كلاهما يرفض المعرفة الموضوعية ، يضع كيركجارد ملحدًا الإيمان ، ونيتشة ارادة القوة ، كلاهما فيلسوف الأمكانية ، كلاهما فيلسوف الزمان يجعله كيركجارد في اللحظة ، ونيتشة في المود الأبدى ، الإنسان عند كيركجارد تلميذ للمسيح ومعاصر له وعند نيتشة هو الإنسان المتفوق - وينادي نيتشة بالاستجابة للحياة وينادي كيركجارد بتكرار اللحظة . كلاهما فيلسوف الحلول وكلاهما يرفض الملو الديني . كلاهما فيلسوف انصافي ذاتي يرى الحياة صراعًا من أجل الموت . بل أن ياسبرز يجعل نيتشة أكثر مسيحيًا من كيركجارد لأن كيركجارد تعلم المسيحية من أبيه وبخاصة في اللاهوت

أما نيتشة فقد شعر بالمسيحية بقلبه وانتهى الى أمعاء اللاهوت بنفسه ، أي أنه قطع شوطًا أطول مما قطع كيركجارد . على أية حال يجعل ياسبرز كلا من كيركجارد ونيتشة كوكبين لامعين يتوارى في أغشائهما فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين مثل هيجل (كيركجارد ص ١٨٤) فقد ظهرا فجأة واستحوذوا على اهتمام العصر وأن لم يكونا قد كشفنا لنسبنا الطريق . يتيتان فينا العناصر الأساسية في الموروث القديم دون أن يقدمنا فلسفة متخصصة كما فعل فلاسفة القرن الماضي (ص ١٨٧) . لقد ظلا في ميدان الاشياء والائتساف والمعوض ويتيران الطريق ويضلان في نفس الوقت ، يتيران الجدل والهزل ، يكشفان الحقيقة ويمحيانها ، يدعوان الى تأكيد الذات والى العدمية (ص ١٨٢) . إن ما يميز العصر الحاضر هو اكتشاف كيركجارد ونيتشة بعد أن لم يكتشف اليها أحد ، وبدء الفلسفة التابعة لهيجل في التوارى عن الأنظار (نيتشة ص ١٠) . لقد ظهر كيركجارد ونيتشة في فترة كانت الانسانية فيها على مفترق الطريق على ما يقول ياسبرز في كتابه «هن الحقيقة» ، كلاهما استثناء ، كلاهما نبي العصر (الروح الأوربية ص ٢٥) ، كلاهما أعلن الإفلاس للمسيحية: فقد أعلن كيركجارد « لم تعد المسيحية إلا مظهرًا » وأما نيتشة « إن الله قد مات وبدأت العدمية » . إن كيركجارد ونيتشة هما بالفعل البنيان الذي استوى منهما المفكرون للمصارون مثل هيجرل وجايريل مارسل وسارتر نظرائهم . فإذرة الوجود عند ياسبرز هي تصود نيتشة الحقيقة بنائها اكتشاف الوجود أو اكتشافات له أو فك لرموزه وتحليل كيركجارد للوجود الإنساني وأوصف هيجرل للعدم والقلق والوجود من أجل الموت ، وقد سئل هيجرل مرة عن أهم حدثين لفلسفتين في هذا القرن فأجاب : ظهور الطبيعة الكاملة الألانية لمؤلفات كيركجارد سنة ١٩١٤ وظهور كتاب « الوجود والزمان » سنة ١٩٢٧ !

ولا يوجد عمل واحد لياسبرز الا ويشعر فيه الى نيتشة بصرف النظر عن ذكر كيركجارد هم أم لا ، ويجعله من أصعدة الحضارة الأوربية (شروط وامكانيات انسانية جديدة ص ٧٩) . ويتحدث عن إحدى سيره الذاتية عن نيتشة قائلا : « لم تظهر لي أهمية نيتشة بالمسبة لي الا متأخرًا ، عندما كشف لي كشفا عظيمًا وهو العدمية وجوب تجاوزها » وقد كنت أجتنب نيتشة في شبابه وألغى منه لا فيه من لطرف «السكر والبرقة» (حول فلسفتي ص ١٤٠) فيجعله من بين مثل المسألة الألانية مثل نيتشة وميجل وشلنج (الإيمان الفلسفي ص ٣٢) . كما لا ينسى الاستشهاد بأقواله في المرض وطرق العلاج (العلاج النفسي ص ٢٥) ويستشهد بفقرة طويلة منه تنادى على الطبيب (المعالج النفسي) بد فكل القادة الروحانيين ، فالمعالج النفسي هو الأقدر على مخاطبة القلوب ، ويستشهد ياسبرز بثورة نيتشة في شبابه على تصود القرن التاسع عشر لعلم الانسان وحالي



الفلسفة الأكاديمية وتبنيها مناهج العلوم الطبيعية وبعدها عن الحياة وبأخذها حجة لمهاجمة المطلب العلمى ذاته وكما يبدو عند فرويد وماركس (الموت والخيال في عصرنا ص ٧٦) .
 ويقارن ياسبرز نيتشة بجوته ويحمل كليهما نموذج الإنسان الحديث : الإنسان المتعمد الجوانب ، إنسان فترة ما بعد الحقل لا ما قبلها (السانية جوته ص ٢٥٤) ، يؤرخ ياسبرز المصور بتطور نيتشة (المدخل الى الفلسفة ص ١٧٠ ص ١٩١) ولكنه يفعل ذلك ليبين أنه لا يوجد فيلسوف أوربي في الغرب بما يفهم نيتشة قد كون فلسفته غافلا عن الثورة (الإيمان الفلسفى ص ١٤٨) أى أن الغرض من إشارة ياسبرز الدائمة الى نيتشة هو إثبات أن نيتشة هو أحد مناهج التفكير المعاصر فى تأويله لحسابه الخاص حتى يجعل منه فيلوسوفيا مسيحية أو على الأقل ليس عدو للمسيحية بالمعنى الشائع إذ أن حب الإنسان وكرمه لشيء واحد هو نفس الشيء . وقد سئل برجسون مرة عن سبب معاداةه المشتركة لعلم النفس فأجاب : لآنى أحبه ؟

منهج ياسبرز فى عرض موقف نيتشة من المسيحية :

يتلخص هذا المنهج الذى وضعه فى كتابه الصغير

« نيتشة والمسيحية » فى جمع أكبر عدد ممكن من النصوص وتفسيرها لبيان المسيحية الكامنة فى النص بالرغم من المعنى الظاهر له الذى يدل على عداة نيتشة لها . يليق ياسبرز الى التأويل واعتبار رفض المسيحية هو المعنى الظاهر للنص والدافع المسيحى هو المعنى الباطن له . ويكثر ياسبرز من ذكر النصوص حتى يوحى بأنه لا يفتشى من نيتشة شيئا وبأنه يعرض أفكاره بنصوصه بكل هدوء وطمأنينة لا يحاول أن يخفى منها شيئا . يبدأ ياسبرز بمرش أهم النصوص المعادية للمسيحية عند نيتشة عرضا موضوعيا فى أول كتابه الصغير حتى يخصص الفأريه ثم ينتهى فى النهاية الى أنه بالرغم من هذا العداء الظاهر للمعنى بالنصوص فإن نيتشة قد أخذ هذا الموقف يدافع مسيحى أصيل !

يقول نيتشة مثلا : « لو علمت أن لأحد اليوم اتجاهها مائلا بالنسبة للمسيحية فاني لن أعطيه متقال ذرة من لفتى إذ أن الاتجاه الوحيد الصحيح فى هذا الموضوع هو الرفض المطلق . ولكن ياسبرز يجعل من هذا النص كسفا للمسيحية وإزالة للتقالع عنها وبالتالي يكون كسفا من الحقيقة . والمسيحية فى جوهرها كشف عن الحقيقة إن لم تكن هى الحقيقة نفسها ، ومن ثم لا يبعد نيتشة فى هذا النص كثيرا عن المسيحية بل يتبع أحد الدوافع المسيحية الأساسية : لا وهو البحث عن الحقيقة ! ويقضى على ما يقصده نيتشة بالعلم من المعنى الواضح للنص الذى يراه ياسبرز تكرارا لأفكار قديمة معروفة للفلاسفة سابقين مشهورين بمداهمهم للمسيحية ، فالمعنى الظاهر ليس بالمجديده والمعنى الباطنى فيه نصرة للمسيحية ! بل انه يذكر نصا آخر من إحدى رسائله يتحدث فيها نيتشة عن إيمانه بالمسيحية عندما كان طفلا وبأخذه

ياسبرز دليلا على تأييد نيته للمسيحية كما يذكر نصا آخر على أثر المسيحية في تربية الشعوب الأوربية ويجعله دليلا على أن نيته من أضرار التربية الدينية :

وفي نفس الوقت الذي يعتبر فيه نيته القس اقتراما شريرة « (من جنس الطفيليات) » (من حلت عليهم لعنة الملائكة) « (مناكب سامية) » « (أهمل المتأخرين نفاقا) » (نيته والمسيحية ص ٩) يذكر ياسبرز سمات أخرى لهم ذكرها نيته في سياق آخر حتى يخفف من حدة النصوص الأولى ويعارض بعضها بالبعض الآخر حتى يجمع موقف نيته ، فيذكر أن نيته يعتنق بمظمة نفوس القسيسين ويدمج هذه الأرواح النبيلة الطاهرة اللطيفة البسيطة الجادة ، ويذكر أن نيته يعتبر نفسه من سلالة أكرم عنصر بشري لأن جديده كان راهبين بروستنتيين ، كما يذكر فضل المسيحية في تهذيب الأخلاق وتقرير الشخصية ، يجمع ياسبرز كل هذه النصوص التي يذكرها نيته في هذا المعنى والتي ذكرها نيته على محفل السرورية والتهكم ويعبرها عن سياقها .

فإذا تحدث نيته عن الكنيسة واعتبرها العدو المميت بكل ما هو كرم على الأرض والداعية لآخلاق المييد والرافضة لكل علمة النسائية وأنها لا تنتمي أن تكون مؤسسة من المرض تقوم بتهريب العصابات الزائلة (نيته والمسيحية ص ١٠) فإن ياسبرز يذكر حديث نيته عنها أيضا بأنها وسيلة للسيطرة ترفع الناس إلى أعلى درجات من الروحية تؤمن بقدرة الروح وتعلم بالاتجاه إلى العنف وبالتالي فهي مثل الدولة مؤسسة كريمة . ويعد أن يصارح ياسبرز بنصوص نيته بعضها بالبعض الآخر يحاول تفسير هذا التضارب المقصود بالاتجاه إلى تاريخ حياة نيته وتربيته الدينية حتى يفرغ النصوص من معناها ويجعلها مسمى لأزماته النفسية في الظلمة المكرة ، وبالتالي فهي لا تدل على فكر صائب يهدف إلى تغيير شيء بقدر ما تدل على عقدة نفسية يجب حلها ، أي أنه يرجع النصوص إلى الأراء ويجعلها صادرة عن تاريخ نيته النفسي بدل أن يضعها في الأمام ويجعلها حلا لكثير من مشاكل العصر التي عبر عنها نيته في مواقفه الفكرية والفنانية .

وبالإضافة إلى معارضة النصوص بعضها بالبعض الآخر يلجأ ياسبرز إلى منهج التحليل النفسي ويتعامل مع نيته كمحلل نفسي يرى أن عداؤه للمسيحية نشأ عند الصغر عندما وجد أن المسيحيين ليسوا مسيحيين كاملين وأن هناك تضاربا شديدا بين ما تتطلبه المسيحية من حياة فاضلة وبين ما يراه من واقع مرير ، بين المثل الأعلى كما تتصوره المسيحية وبين حياة الأوربيين ، وأن شئنا بين الرسالية والمسيحية والمادية الأوربية ، بين السلام المسيحي والزعة الحربية الغربية ، بين المحبة المسيحية والعداء الأوربي ، بين الإيثار المسيحي والأثرة الغربية ، لما نشأ الفيلسوف في طفولته

على التسليم بالعقائد التي إلى الشك والرفض والا أدوية . والحقيقة أن عداؤه نيته للمسيحية لم يكن ارتباطا منه بها أو استجابة لاحتياجاتها كما يقول ياسبرز بل رد فعل عليها . لم يكن موقف نيته منها موقف المتجاوز لها على ما يقول ياسبرز بل موقف الرفض لها .

ويقر ياسبرز قول نيته « لم نعد مسيحيين » بأن نيته أصغر هذا الحكم لأننا نريد أن نكون أكثر مسيحية مما نحن عليه الآن ، ولأننا أكثر تطوبا للتقوى وأقوى نزوعا نحو الخير مما نراه الآن . ويقر رفض القيم الأخلاقية المتوارثة فيما وراء الخير والخير بأنه طلب لقيم خلقية أقوى مستهدفا بقول نيته « نريد أن نكون دولة الأخلاق بعد أن تقضى على الأخلاق » ، أي أن ياسبرز يستعمل المحبة الحقيقية التسمية المشهورة بأن الرفض للشئ مؤمن به لأنه يتحدث عنه ويفكر فيه ، فالرفض لله الذي يصوره الناس مؤمن بالله الذي ليس كمثل شيء ، وبذلك يكون الملحون هم المشتاقون حقا لله على حد قول أحد كبار الصوفية (أنظر مقالنا أوتامون والمسيحية للماصرة » الفكر الماصر ، العدد ٤٧ ، يناير سنة ١٩٦٩) ولكن الذي يتبع هذا المنهج لا بد أن ينتهي إلى أن الإلحاد هو الإيمان الحقيقي لأنه هو الإيمان الخاص من كل مظاهر الوثنية التي تشوب إيمان النوام . أما ياسبرز فلا ينتمي إلى هذه النتيجة ويعمل من إرادة القوة دينا مسيحيا !

إن عداؤه نيته للمسيحية ومعرسته ضدها قد ولد أوتورا روحيا على ما يقول ياسبرز ولكن هذا القلق ليس مسيحيا كمثل بل كرد فعل ، وبهذا المعنى تظل المسيحية « (شوكة في الجسد) » على ما يقول كيركجارد تترك الفكر الأوربي وتدفعه لمناقضتها ورفضها والعمل ضدها . وبهذا المنهج يمكن إعادة تأريخ الفكر الأوربي كله : بدء الفلسفة الحديثة ونشأة العلم وخروج موجات الإلحاد على أنه رد فعل على المسيحية لا على أنه فعل له وآلي من الآله على ما يقول ياسبرز .

يحاول ياسبرز لتفسير نيته تفسيراً مسيحياً على مراحل ثلاثة أسمى في صيغة تساؤلات ثلاثة :

أولا : هل قضي لتفسير نيته لتاريخ المسيحية على المسيحية كاتجاه نفسي ؟

يعرض ياسبرز لتاريخ المسيحية كما يفسره نيته بطريقة تراجعية أي أنه يحلل أزمة العصر الحالي ثم يرد هذه الأزمة إلى المسيحية ثم يحاول وضع تاريخ عام للمسيحية مبينا نشأتها وتطورها .

تلخص أزمة العصر الحاضر عند نيته - كما يتصورها ياسبرز - في انهيار الحضارة والمدينة إذ لم يبق منها إلا مجرد الجير المسطح الذي لا جدور له ، وفقدان الفن لجوهره وتضيض ذلك في التصنع والتمية وتحول الحياة إلى

وأحب من ناصبه العدا • ويسمى نيشة هذا الموقف « **الموقف القزويني** » لأن مناصبة العدا بالعداء فيه قضاء على الذات أما اتخاذ موقف الحب من العدا ففيه محافظة على الذات وإبقاء عليها • وهو الموقف الذي يختلط فيه الجليل والمحبة والصبراني • وهو موقف بعيد كل البعد عن البطولة أو البهائية كما يدعي البعض بل هو أقرب إلى موقف « **الأبله** » في رواية دوستوفسكي »

يرى نيشة أن موقف الانهيار هذا موقف صادق بلا نفاق أو مداراة يصدر من غريزة تدفع نحو المدم ولكنه موقف نفسي لا تاريخي لأنه يستحيل معرفة **صحيح التاريخ** كما قال النقاد من قبل (روبنسون مثلاً) ولا يمكننا إلا معرفة **صحيح الدعوة** • يرى نيشة أن صورة **المسيح في الأنجيل** صورة مشطربة متناقضة فهو يظف على الجبل وهلى البحيرات وفى المرعى • ويشبه تجليه ماضى ليوذا • وهو في نفس الوقت مناض متعصب • عدو لدود للأوثان والقس • فالصورة الأولى -المسيح الطيب- أقرب إلى المسيح الحفيظ • أما الصورة الثانية فهي إضافة من التاريخ ومن الجماعة المسيحية الأولى • فالمخلص لا يكون متعصباً أبداً • لا يمكننا إذن أن نأخذ **الأنجيل** كوثاق تاريخي صحيح نأخذ منها صورة **المسيح التاريخي** كما أننا لا نستطيع أن نعتبر الأساطير التي ينسجها الشعب حول الأولياء والقديسين مصادر تاريخية عنهم • لا تعلى الأنجيل إلا **صحيح الدعوة** • أى المسيح كما فهمته الجماعة المسيحية الأولى أى مبعها نفسياً بضع مسيحية لا تصح الا فى الحياة الخاصة وللتعرض متفلساً منزلاً لا شأن له بالسياسة ولا تليق الا بالاديرة •

لم يحاول يامبرز تطوير هذه الملاحظات التي أبداهها نيشة ومقارنتها **بنتائج علم النقد الحديث** وبالدراسات المقارنة عن نشأة المسيحية • خاصة وأنه على دراية بالموضوع كما وضع في رده على يولثمان بشأن منهجه في **القضاء على الأساطير** في تفسير الكتب المقدسة • بل ينتهى الى هذه النتيجة اجابة على السؤال الأول المطروح وهي ان **قضاء نيشة على مسيح التاريخ** لم يقلص على المسيح **كثولوج للحياة** وبالتالي تظل المسيحية ممكنة كقديرة وتصور • ويكون كبار الصوفية مثل فرنسوا الاسمى وكبار المؤمنين من أمثال بسكال • يكون هؤلاء على حق عندما يتحدثون عن الإيمان المسيحي وعن الطريق المسيحي الى الله • وبالرغم من قضاء نيشة على العقائد واعتبارها انحرافاً عن المسيحية الأولى تظل المسيحية - في رأى يامبرز - ممكنة باعتبارها **حافاً روحياً قلبياً خالصاً** وهو ما قاله كانط من قبل (أنظر مقالنا عن « الدين في حدود العقل وحده لكانت » تراث الإنسانية » المجلد السابع • العدد الثانى » أغسطس سنة ١٩٦٩ »)

٢ - يرى نيشة أن المسيحية قد انحرفت عن المسيح • ولم يكن في التاريخ مسيحى إلا شخص واحد وهو المسيح وقد مات على الصليب • وكل ما ألقى به بعد ذلك كان نتيجة

« كان • أى فقدان الثوم نفسه والاتجاه الى اللث وضياح اليمين والوقوف في الشك • كما يبدو انهيار المص في اللث والهروب منه في السكر والغربة والضييق والكذب الروحي والجلبب النفسى • كل انسان يتحدث ولا أحد يسمع • الكل يمشي كلماته • خيانة لكل شيء • روح تبحث عن الفاتنة • ينشر فيها الدم وتظهر آثاره في الآلية • في آلية العمل وسيادة الدماء • إن الله قد مات • هذا هو الجدي الذي أتى به نيشة والذي لم يفهمه الأوربيون حتى الآن • لم يقل نيشة « لا يوجد اله • أو « لا اعتقد في وجود الله » لأنها قضية تتعلق بالوجود لا مجرد حكم نفسى • لقد مات الله عند نيشة بسبب المسيحية التي قضت في الإنسان على أهم مكانيه الأولى : **تاريخياً** الحياة التي عرفها الطبيعيون الأوائل السابقون على سقراط والتي وضعت المسيحية بدلها الأرواح : الله • نظام العالم الخلقى • الخلود • الحقيقة • الفضل الإلهي • الفداء ... الخ • حتى تأتي لحظة تتحول فيها البنية الصادقة التي تتطلبها المسيحية إلى استمزاز من كذب وبلاتن كل تفسير مسيحى للعالم • عندئذ ينخر المدم في عالم المسيحية الرومى • فالمعلمية هي النتيجة المنطقية لكل القيم والمثل •

يعرض يامبرز نيشة وموقفه من المسيحية على صفحا النحو عرضاً موضوعياً ولكنه لا يقصد به كيف ينخر المدم في الوجود بسبب التصور الدينى للعالم بل يقصده منه كيف تستحيل الحياة إلى جحيم بسبب الكار وجود الله • **يجعل نيشة وجود المسيحية علة الدعية بينما يجعل يامبرز غياب المسيحية علة الدعية !**

١ - ان تاريخ المسيحية في ألقى عام هو **أن تاريخ** ماسة طويلة تدل على **الانحراف المسيحية عن مسيحها الأولى** • وتاريخ المسيحية هو تاريخ ماسة الانحراف • **والمسيح** نفسه ليس مسؤولاً عن هذا الانحراف ولا شأن له بما حدث باسمه في التاريخ • **المسيح مجرد تعولج من البشر** له تفسيره من الناحية النفسية فقد قدم المسيح طريقة جديدة في الحياة ولم يعط معرفة جديدة أى أنه دعا الى تحول ذاتي لا الى عقيدة جديدة • تتلخص هذه الحياة الجديدة في البحث عن السعادة التي تكون في استقلال العالم الداخلي للإنسان عن أى ضغط خارجي • وكل ما قاله المسيح في ذلك كان مجرد رموز • فالسعادة هي الوافقة الأولى تند عن الصياغة ولا تكون الا حياة معاشة أقرب الى الغريزة منها الى الصياغة العقلية كل ما يؤوله السيد يكون رمزا وكل ما يفعله يجابه به العالم لأنه لا يقاوم ولا يرفض بل يسلم بكل شيء • وهذا هو ما أطلق عليه المسيح لفظ « **الحب** » - وما أن يفقد العالم واقعيته حتى يفقد الموت واقعيته أيضاً • ويصبح مجرد تنظرة الى عالم آخر بل يحمي وجوده على الإطلاق لأن الحياة الزمنية لا وجود لها عندما يعيش الإنسان في الخلود • وقد أكد المسيح ذلك بوثوقه وبوقفه من القضاء وبروقفه أمام الصليب • لم يقاوم ولم يدافع عن نفسه بل صلى وتأم

المصادفة التاريخية المحضة أو الموائع ومآرب شخصيه ، المسيح هو المسيحي الوحيد أما الجماعة المسيحية الأولى فهي عدوة للمسيح ، ويتشبه نفسه عدو للمسيحية وعدو للمسيح بالرغم من إخلاصه ومصدق ، وعدو للجماعة المسيحية الأولى ابتداء من الحوارين حتى آباء الكنيسة ، ليس المسيح إذن مصدرا للمسيحية بل نواة لها استغلقتها المسيحية لنسج مجموعة من العقائد التاريخية الصرفة تحتها الظروف والحوادث ، لقد انهارت المسيحية بعد المسيح وانهار الغرب بعد تفنل المسيحية فيه ، ويبدو الانحراف عند يشبه في تحويل المسيحية من قاعدة للحياة الى اعتقاد ، مع أن المسيح مثل يوحنا رجل عمل لا رجل عقيدة ، ثم تحويل الاعتقاد الى عقيدة اى واقعة مغلقة يحتلظ فيها الهوى والظن والحوادث التاريخية في ثوب رمزي مثل أسطورة الفداء التي تسجت حول بعض الألفاظ مثل « الآن والى الأبد » أو « هنا وفى كل مكان » ومثل آيات المعجزات حول بعض الرموز النفسية كشفا المرحى وأسطورة الخلود حول تأكيد المسيح لفناء كل ماهى شخصى وفردى ، أو اللغة كنيسة تدعو لله وتبشر بملكوته وجناته أو بآبن له يكون الشخص الثانى فى التشليح ، كل ذلك مجسوة من الرموز المرافضة حولت المسيحية الى تقيضا ، لمبدأ الناس الشيطان بدل الاله ، لقد انخرعت المسيحية عنصرا تحولت من مجرد إيمان قلبى فردى الى عقائد تاريخية هى فى الحقيقة رموز تدل على هذه الحقائق الروحية البسيطة ، فلا إيمان يعنى الشعور، وإله الإنسان يعنى أن التفسير الوحيد لله محو الإنسان وبالتالي الاعتراف بالإنسان كواقعة مكتفية بذاتها أو كحقيقة أولى ، وبالتالي يكون الالتصاق بالرموز انحرافا للبشرية : « ألم تفصل الإنسانية طريقها الى عام يسدا الوهم ؟ »

كان يمكن لياسبرز إحصاء من هذا التحليل التاريخي للمسيحية الذى قام به نيتشه تنبج تاريخ المسيحية وكيف انها أصبحت رومانية مغلقة ، فاصبح القيص هو البابا ، والعبه هو الكنيسة ، والعلوس قداسا كما فعل هانز فاله فى « جوهف المسيحية » وهو ما أثبت لوثى قبل ذلك بخمس قرون وأصبح من الحقائق التى تعترف بها جميع الطوائف المسيحية وجميع الاتجاهات اللاهوتية محافظة كانت أم متحررة ، ولكن ياسبرز يصور نظريات نيتشه فى نشأة المسيحية وتطورها وانحرافها على أنها اصطاف من أزمة نفسية كبرى على التاريخ ، وبالتالي يلقى على صدقها وموضوعيتها ويحملها مجردوى أو جتون مع أن نظريات نيتشه ، وإن كانت قائمة على الجنس السريع ونفاد البصيرة ، لا تفرق كثيرا من نظريات دارسى تاريخ المسيحية خاصة فى القرن التاسع عشر الذين تبنوا نشأة المسيحية وتطورها فى خط مواز لنشأة العقيدة وتطورها ولاهما فى خط مواز ثالث لنشأة النص الدينى نفسه وتطوره مع آيات انحراف المسيحية التاريخية من المسيحية الأولى واختلاف العقائد الكنسية المتأخرة من الدعوات الخلقية الأولى وعدم احتواء النصوص الدينية لكل مآقله المسيح واحتوائها للإنشاء أخرى غيرها حدثت من بعد فى الجماعة المسيحية الأولى منذ

نشأتها وفى تطورها حتى القرن الرابع حين بدأ ظهور التانجيلس الأرمية فى مجموعات متنسقة مرتبة عن « أقوال المسيح وأعماله » كما يذكر مؤرخو المسيحية الأوائل من أمثال بابليسا والقدريس ايرينييه وأدوب السيزارى .

٣ - ويشأ الانحراف التاريخي - على مايفكر نيتشه - من التصور بالقدح الذى يتولد عنه عسبد الفاضلين وهو الشعور الذى دوسه هاكمي شيلر بعد ذلك بالتفصيل ، ويعنى به يشة الهذ الناشء عن المعز عن ارادة القوة ، وقد يكون خالفا للقيم والمثل ، فالعاطفة الخلقية تدل على رغبة فى الاستملاء ، والعادلة تدل على رغبة مكتوبة للاتظام ، والمثل العليا قد تشبه الى معركة كامنة ضد من يحتلون المناصب العالية ، فهذه الدوافع التى تظهر فى مطير روحى عال تتحول على انحرافات شديدة ، وقد تدل صادته الطبع على ثورة وقسوة ، كما كان كبار السفاحين يخافون منظر اللعاب ، وكثيرا ما كان يتم ذبح المحرم باسم الله والحق والعدل ، وقد يكون المؤمن قاسى الطبع لأنه يطمئن الى شرعية أفعاله ، وهذا يسر لنا كيف أصبح الايمان المسيحي فيها بعدايعانا أيقوريا وكيف تحولت المسيحية عدوة الوثنية الى وثنية صديقة للمسيحية ، وكما ولدت الوثنية اليونانية من قبل اتجاهات مصادية لها عند مسقراط والفلاتون كانت المسيحية وليدا طبيعيا لظروف العصر القديم ، وأخذت لحسابها كل الأسرار القديمة والربيبات فى الحلاس والكار التفضيصة واتجاهات الزهد وفلسفات السلام الآخر ، كما احتوت على عبادة مترا mitra ، وكانت المسيحية قد فعل على اليهودية ففى ظاهرة يهودية ، إلى اليهود اختيار الوجود على العدم وانقلبت الآية فى المسيحية التى تحتم فيها اهد العدم وتترك الوجود كرد فعل على الاختيار الأول ، وكان الشن تزييفكل شيء من قيم ومثل وأخلاق ، وبالتالي خلقت غريزة الهذ عالما جديدا تصبح الانسجاية فيه للحياة شرا ، ويلفس نيتشه اليهودية كما يفسر المسيحية بفريزة الهذ ، ففى أن اليهودية قد أدانت القوة والسيطرة والنجاح فى الأمور الدنيوية ولذا الحياة مما اضطر اليهود الى انكار الوقائع والتصل من تاريخهم الماضى الى الحروب والمغامرات .

ذلك تسرب حب الحياة الى اليهود من معرات سرية داخلية ، ويهمل المنى تصبح المسيحية هى اليهودية فى أبعد حدودها ، لقد أصبحت اليهودية مسيحية وقشت على آخر صورة لها وهى القسب المختار ، ومع هذا الانحراف التاريخي ينشأ التعوىفى الخلقى من المعز وتنشأ الأخلاق المثالية لتفطية هذا المعز فتجند فى تصور المسيح ميلادا وصليا رغبة فى الانتقام ا

ومع أن تفصي نيتشه يصدق على المسيحية أكثر من صدقه على اليهودية لأن اليهودية تختلف عن المسيحية فى جوهرها ، فلم تكن ديانة روحية أبدا ، ولم تدع التوداة الى الروح المجردة والمطاهرة كما هو الحال فى المسيحية بل كانت دعوة الى القوة والارتباط بالأرضى وهو ما تفصح على تاريخ بنى اسرائيل القديم - مع أن تفصي نيتشه قد يصدق على المسيحية إلا أن

ياسبرز لا يرفضه ككل لأنه يسمح بإرجاع كل مظهر من مظاهر الحياة الأوربية إلى مسيحية مقبولة أي إلى أحد أوجه المسيحية وهو ما يريد اثباته .

٤ - وقد استمرت المسيحية في تطورها تغزو النفوس المتوسطة التي انحرفت منذ اللحظة الأولى : تقتنمها وتظل في صراع معها حتى تنشأ **التشكلات الكاذبة** للمسيحية تزدثر في الشعور الأوربي بالرغم من رفضها لها ، ويمتيز نيتشه **فرقة الجزويت** أيضا من هذه التشكلات الكاذبة فالدخول في العالم وهو ما يميز الجزويت رد فعل على الخروج عنه وهو ما تتطلبه المسيحية .

ويتضح هذا التشكل الكاذب أيضا في **وسائل نشر المسيحية** . فتخلت من الحقيقة وقضت إلى الواقعية ، فإذا كانت الأمانة العقلية تنقصها كما هو واضح في القائد فانها تلجأ إلى عدم الصدق للتأثير على الناس ولإثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المثبتة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة ، إذ أنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل القتل والفلسفة والحكمة والشك وتصر إصرارا عنيدا على أن المعيدة من عند الله وأنه لا مجال إذن للنقد والنقص بل للتسليم والاعتقاد ، وتبث روح التعصب والفرد لدى الفقراء وتصلبهم بأنهم « حسي الأرض وملحها » على مايقول الانجيل ، وتتعامل مع التناقضات وكل مايشير الغربة والدمعة وتبيحده الاضطهاد وخدمة الآخرين .

والعجب أن الأقوياء قد تملأوا أيضا هذه القيم لأنها تصلح لكل مظاهر الجبن ولكل مظاهر الفرد على السواء ، يجد فيها الضمير التصويفي والسكينة ويجسد فيها القوى الغلبة والسلطان ، يصارعها الضعيف أن أرادت الإبقاء على حالته ويصارعها القوى أن أرادت الحد من قوته .

وبغلا من الجزويت ظهرت التشكيلات الكاذبة في بعض الاتجاهات المعاصرة مثل **الليبرالية** و**الاشتراكية** و**الديموقراطية** كردد فعل على المسيحية وللقتضاء عليها في نفس الوقت ، فهي صور للمسيحية المهترئة بعد أن خارت قواها وبرزت أشكالها أخرى تمشي من خلالها بطريقة الانسواء والمخاداة ، وكذلك الفلسفة والإخلاق وكل مثل العصر الحديث في المساواة - كل ذلك قيم **مسيحية مخففة** : مساعدة الضعيف من حيث هو موجود بيولوجي يصرف النظر عن غيائه أو ذكائه ، رفض استعمال العنف ، كل ذلك **انحرافات أصلية** من اليهودية والمسيحية في **صورها القديمة** ، تظل هذه المثل دليلا على النفاق وبسطة عن الواقع فإذا انهدمت انتكشت المدنية كآسار لكل شيء ، فالمدنية نتيجة للمسيحية التي انحرفت مسد نساها لا لمسيحية المسيح .

ومن مظاهر التشكل الكاذب أيضا عقيدة **الموت السعيد** Burhanasie التي تمنعها البرجوازية التي تود أن تموت في سعادة وهناء ورضا وسكينة بعد أن مدفع الزكاة على

ماكنته وجعلت في كل عقار صلي في الدور الأرضي وهي تعتقد أنها في السماء ستعال خلودا فرديا متميزا كما كانت متميزة على الأرض .

لذلك يجب رفض كل الاشكال الكاذبة من أخلاق وفلسفات مثالية باعتبارها مادية للحياة وعلى أساس هذا الرفض يقوم التصور الجديد للحياة .

وأخيرا ، تساعدنا المسيحية على فهم **تناقضات العصر** : القوة والعجز ، الانهيار والصعود ، السيد والعبد ، القسيس والعلماني ، الوجود والعدم ، وهي التناقضات الموجودة أيضا في فترات أخرى من التاريخ في الإسلام أو في المانوية . ولكن **التناقضات في المسيحية دعامة لا بثامة** فقد قصت على الامبراطورية الرومانية ، وحمت من انتشار الإسلام وجاء لوتر القضاة مكاسب عصر النهضة وهو العصر الذي نهض فيه الإنسان الحقيقي . لقد أرادت المسيحية كثيرها من طواهر التاريخ خلق الإنسان المتفوق فهي إذن حلقة في تاريخ الإنسانية العام . ولما كان العصر الحاضر هو عصر المدنية تستطيع المسيحية أن تكون له بشابة الخطر أو المرون .

ويوافق ياسبرز على هذا العرض الذي يقوم به ليتشمة لتاريخ المسيحية ولكنه يؤوله لحسابه ويقول أن هذا العرض ولو أنه يقضي على تاريخ المسيحية إلا أنه لا يقضي على المسيحية ذاتها التي تظل مهالاً حضاريا للغرب وسببا من أسباب توتره النفسي وكفاه بذلك فلا !

ثانيا : هل هناك دوافع مسيحية في تصورات نيتشمة لتاريخ وللإنسان وللعلم ؟

على الرغم من قضاء نيتشمة على القائد بصراحة ووضوح فإن ياسبرز يحاول البينات أن نيتشمة قد اتبع في ذلك دوافع مسيحية أصيلة ويرى وضوح هذه الدوافع في نظرة نيتشمة لتاريخ العام وفكرته عن الإنسان كوجود نالص وتصوره للعلم باعتباره أداة لا حدود لها للمعرفة وهو التصور الذي كان أحد أسباب عدائه للمسيحية .

١ - يرى ياسبرز أن تصور نيتشمة للعود الأبدي هو نفسه النظرية المسيحية الشهيرة عن **الحقيقة والقداء** ، وأن هذه النظرية الشاملة للتاريخ صارت ممكنة بفضل النظرية الشاملة المقابلة التي تعطيها المسيحية . يرى نيتشمة أن التاريخ يعيد نفسه وأن ما يحدث في كل العصور وأن هناك عودا مستمرا للأحداث يوجد علاقة ثابتة بين الخلود والزمان وكان الأشياء كانت على حالتها هذه منذ الأول وستكون كذلك إلى الأبد ، وهذا مايفسر لنا تكرار الطواهر والمواقف . وهذا التصور لا يعني بالضرورة التصور المسيحي للخطيئة والفساد فقد كان هو التصور السائد لدى القدماء في فلسفاتهم والتاريخ كما هو الحال عند اليونان والرومان في التصور الدائري لحركة التاريخ ، فهو تصور موجود قبل المسيحية ثم تسرب إلى المسيحية في تصورها لتكون بحرته ، حركة الهبوط وحركة

الصعود ، الهبوط الذي تملكه الخطيئة والصعود الذي يمنحه الله ، وهو التصور الأفلوطيني للكون ، يحرّك **الذهب** **Aller** وال**إياب** **Retour** على مايقول بيرسون شارحا أفلوطين ، وهو التصور الذي خلده أوغسطين في مدينة الله وصراخ مدينة الأرض التي تمثل الهبوط والطرء والخطيئة مع مدينة السماء التي تمثل الرفع والخلاص والقداء عن طريق الأبياء حيث يتم بالفعل على يد المسيح . هذا التصور ليس مسيحيا بالضرورة بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية وبمدها ، وهو التصور الذي ساد الحضارة الإسلامية والذي خلده ابن خلدون أيضا في تصوره لمورث التاريخ من البداوة للحضارة ثم البداوة من جديد . لم ينشأ تصور التاريخ كسهم يرمز للتقدم إلا في العصور الحديثة ابتداء من فلسفات التاريخ في القرن الثامن عشر عند كوتنبرسيه وليكو وتودجو وفي القرن التاسع عشر عند هيجل وكوتنو . كان التصور القديم للحضارة هو الكهف على مايقول شينجلر وهو التصور الذي ساد قبل المسيحية وبمدها وقد نشأ نيته هذا التصور نظرا لعدمته لا لأنه يتنبع دوافع مسيحية أصيلة على مايقول

ياسبرز الذي يعتبر أيضا فلسفة التاريخ في العصور الحديثة عند هردر وكانط ولشنته وهيجل وماركس تصورات مسيحية تصد عن دوافع مسيحية أصيلة مع أن التصور المسيحي للتاريخ يتخلص في حركتي **اللغة** و**الفرقان** أي في حركتي **الصعود** و**الرجوع** لا في تصور السهم الذي يرمز للتقدم والذي يعتبر مكسبا أصيلا من مكاسب العصور الحديثة .

ومع أن **التصور التراجمي للحياة** ليس تصورا مسيحيا صرا فقد عرفه **الشعراء اليونانيون** من قبل كما عرفته الأساطير السومرية وبعض الفلسفات مثل فلسفة الألاتون وعرفه **الرومانسيون** في عواظهم وانفالاتهم والمصورون في أحاسيسهم بالقلبي والتوتر (أومانو مثلا) خاصة نيته بعد قلبه للقيم وانتهاه إلى العدمية - فان ياسبرز يرى أن هذا التصور التراجمي للحياة تصور مسيحي مخفي يتبع دوافع مسيحية كامنة ... مع أن نيته نفسه يعتبر التصور التراجمي للحياة سابقا على المسيحية وموجودا في العصر التراجمي في الفلسفة اليونانية قبل سقراط ثم إبهارت الفلسفة اليونانية بعد ذلك ، فقد ساعدت المسيحية على هذا الانهيار .

ولا يتراءى **ياسبرز** نيته حتى يجعله مسيحيا لا فرق بينه وبين أوغسطين أو سكال. فساد كان نيته من انصارا لنظرته الشاملة للتاريخ فهو مسيحي لأن المسيحية تعطينا أيضا هذه النظرة ، وإن كان من أنصار النظرة الفردية للتاريخ فهو مسيحي كذلك لأن المسيحية تعترف أيضا بالزمان الفردي والحياة الزمنية المحددة باليلا والوقت . فإذا لم يكن نيته بالنظرة الكلية الشاملة للتاريخ وأراد أن يوجهه أيضا واكتفت المسيحية بانقاذ الفرد وحده واعتبار التاريخ أحد المحطات الموجودة سلفا والتي لا يمكن ترجيحها فان نيته قد استبدل بالله مسيحيا - في نظر ياسبرز - مع أن نيته قد استبدل بالله **خالق الإنسان** **خالق** **و** **جعل الإنسان** **دون الله خالقا للتاريخ** **ومعينا** **لجده** .

وعندما يشعر ياسبرز بمعارضه تصور نيته والمسيحية الحاريجي فإنه يدافع عن التصور المسيحي باعتباره الأصل الذي خرج منه تصور نيته حتى وإن كان معارضا له ، فإذا كان لبنيته نظرة شاملة في التاريخ العام فان ياسبرز يرى أن هذه النظرة مستحيلة لأن المسيحية تصمما في « الكل » **Tout** دون أن تعرفه وكل معرفة للكل تكون مجرد افتراض ، فإذا كان تصور نيته للتاريخ مسيحيا من حيث رد الفعل « أن تصور ياسبرز له مسيحي من حيث الفعل لأن « الشامل » **Englobant** من حيث هو أصل الذات بالموضوع أقرب إلى الواقع والتجربة وبالتالي فهو تصور مسيحي لأنه لا ينفك الحياة في النظرة الشاملة للتاريخ كما يفعل بنيش . وإذا كان نيته من أنصار توجيه السلوك للحاريجي الصام فان ياسبرز يرى أنه من المستحيل السلوك طبقا لخط شاملة تضم التاريخ الإنساني كله لأنه ينقض المصلحة به وهذا مستحيل إذ لا يتم السلوك إلا في زمان ومكان معينين أي في موقف محدد كما لا تتم المعرفة إلا من باطن النفس لا من الخارج »

٢ - يرى ياسبرز أن تصور نيته للإنسان على أنه موجود ناقص ، مبهم ، ساقط ، هو نفس **التصور المسيحي للخطيئة الأولى** ولكن هذا التصور موجود أيضا عند الفلاسفة الوجوديين الحاصرين الذين يرفضون المسيحية ، فالإنسان عند هيجل وجيد للموت ينقذ فيه العدم من خلال الفترة وحس الاستطلاع والاشتباه والقوط والهديان ، والإنسان عند سارتر دودة في لمة كما هو عند نيته « مرضي الأرض » ، يشرب إلى العدم من خلال النفي وسوء النية والشك والتساؤل ، يصبح أن الخطيئة الأولى عند كيركسارد « مصلد لا كراهه من التلق ولكنها عند نيته وسارتر ويمدج شعور بالعدم وهو شعور ناشئ من **روح العصر لا من** **تراث الآباء** . يفسر ياسبرز هذا الإنسان الناقص الذي

لا يسريد أن يعا على ذاته بأنه السلوك الديني المروء السجين فيه ، **وفرق بين الطول الديني والتعال الديني** (ويدل لفظ **Transcendence** عليها ما) **فالعلمو الديني** هو البات موجود مفارق للعالم خارج عنه ، وهو وقوع في التصور الأفلوطيني لله ، وكان رفضه أساسا رد فعل على هذا التصور الأفلوطيني الديني وإيمانا بالحلول وبالطبيعة - **أما** **التعال الديني** **والفلسفي** هو ما يقصده الفلاسفة الحاصرون فيمن أن تتعال الذات على نفسها وبالتالي تتعال على الموضوع لأن الذات ليست موضوعا ، وهو رد فعل على الموضوعية في العلوم الإنسانية خاصة في علم النفس وعلم الاجتماع. هذه الموضوعية التي أرادت تحويل الذات المعرفة إلى موضوع للمعرفة ، ولكن ياسبرز يفسر **التصال الفلسفي على أنه العلم الديني** (ص ٢١٠) **الملك** **اللا** **وقيلته الدينية** ، وهكذا **يفسح** **ياسبرز** **الله** **وراء** **نيته** في تفسيره **للتاريخ** ، وفي داخله في تفسيره **للفلسفة** ، ومن فوكه في تصوره **للإنسان** **سواء أراد** **ذلك** **نيته** **أم لم يرد** ، وبالتالي يصبح الإنسان المنقوذ من نيته

— على حد قول ياسبرز — انسانا يتطلع نحو الكمال ، والله هو الكمال الحق !

٣ — يرى ياسبرز أن رغبة نبش في العلم وفي الحقيقة مطلب مسيحي أصيل مع أن نبش يرى أن المسيحية عدو للعلم إذ أنها لا تركز على الواقع الذي يصدر العلم عنه ، ويرى أن الإيمان المسيحي ممرض للعلم خاصة **لعلى التفسير والطب** اللذين يمكن بواسطتهما القضاء على كل الخرافات والتصور الدينية: **التفسير** لأنه يبين نشأة النص وتطوره وأنه بغير من معتقدات الجامعة المسيحية الأولى ولا يخفى على أي كلام للمسيح ، **والطب** لأنه يبين أسباب الشفاء التي طنها المسيحيون معجزات ، ومع ذلك يصير ياسبرز على أن رغبة نبش في العلم نحو العلم واقع مسيحي أصيل لأن المسيحية بحث عن الحقيقة والعلم كذلك !

يريد نبش الحقيقة نفسها دون أغلفة من الرواة أو من التاريخ ويستعمل لذلك **مناهج النقد الحديث** ولكن ياسبرز يرى أن هذه الإرادة نابعة من الأخلاق المسيحية التي نمت على العلم والحرفة ، لذلك طهر العلم الحديث بسنوله ووجدته في الغرب وحده ، في وطن المسيحية ، أما العلم اليوناني — في رأى ياسبرز — فكان علما خاصا ينضه التفكير المنهجي لإقامة رأى شامل كما هو واضح في **طب أبو قراط** أو نظرات عامة كبا هو واضح في العلوم الرياضية عند **أقليدس** و**أوتشيدس** ، وذلك لأن اليونان تنقسم الدوائر الروحية واليوغات الخلقية ! ظل العالم لديهم مغلقا وظل هذا التصور عند **أرسطو** و**دويموقريطس** و**توما الاكويني** و**ديكار** ، ولكن التصور الحديث للعلم — أيضا في رأى ياسبرز — يرى في العلم مجسوة كبيرة من الخبرات نتيجة لتصور المسيحية لخلق العالم حتى استطاعت عقلانيته أن تواجه كل ماهو لا عقلاني وأصبح أساس العلم هو خالقه ، ولما كان الله خالقا للعلم وصرفا عنه فُشحت نظريات **العسك** **الاله** تحت حل البحث وتغير العواطف وعرفى السكنة والطبانية ودعاة مسير **أيوب** .

وهكذا يصير ياسبرز العلم الحديث على أنه بحث عن الله وعن تدبير في العالم المخلوق ، مع أن العلم الحديث لم يتشأ إلا بعد أن انصل عن اللاهوت وأعطى العالم استقلاله وللعبية **قوانينها الذاتية** . ينهز ياسبرز فرصة هجوم نبش على العلم اليوناني النظري وتفضيله التراجيديا فيها علم العلم اليوناني أيضا المنفصل عن الله ويضلل العلم الحديث **ويغصه تفسيرها الهيا** . كما أن تصور نبش لإرادة الحياة باعتبارها باعتا على العلم ليس تصورا للعلم الحديث كما يظن ياسبرز بل تصور فلسفي يحض يقوم على أساس حيوي وبيولوجي ولا شأن له بتصور العلم . كما أن **«قضية نظريات الجدل الهيا** في تيرير **اثر في العلم** . كما هو الحال عند **ليبنز** و**ألبات** **طية الله** . **المطلبة** وليس البحث على البحث وإثارة العواطف **والا** **ما** **تار** **مناوتز** على **يرتشليخ** آخر ممثلي المثالية والتجاوز الألماني في فرنسا في هذا القرن .

يتصور ياسبرز العلم الحديث قائما على ثلاثة أفكار: **فكرة الخلق** ، **صورة الألوهية** ، **مطلب الحقيقة** ؛ وتظهر هذه الأفكار كدوافع باطنية تحرك العلم حتى ولو اهتد بالإنسان التقليدي كما حدث أبان عصر النهضة . لقد استلخ اليونان تأسيس العلم بقدر ما سمحت لهم الحرية الطبيعية ولكن الغرب استطاع تأسيس العلم — في رأى ياسبرز — بدافع لا نهائي وهو البحث عن الحقيقة كدافع مسيحي أصيل وهو العلم الذي يأتيه « الشامل » موضوع له يغموس فيه الموضوع والذات معا — تصور ياسبرز للعلم هو التصور اللاهوتي الذي يجعل العلم وسيلة لكشف الذات الباطنة حتى يجد الله قابعا فيها أي أنه علم الأخلاق **علم الطبيعة** والعلوم المتصوف التي تؤدي إلى الله لا علم الأصول الذي يشرع للواقع كما هو الحال عند المسلمين . يريد ياسبرز القضاء على أهم مكاسب عصر النهضة والعصور الحديثة وهو تصور العلم الطبيعي وتأسيسه على العقل والتجربة . يمكن القول أن العلم الغربي هو بحث عن العقلانية والتنظير بعد أن أشاعها اللاهوت وهو كشف للواقع بعد أن غلغله اللاهوت برعوزه وعقائده وأن الفلسفة الغربية كشف للعقل النظري وقدرة على الإدراك **والطاف** **نظرة** **حلولية** **للطبيعة** **ورفض كل علو وتجاوز** ، ولكن العلم الحديث يرفض تسمية مكاسبه بالمسيحية الدينية القديمة **والا** **ولغت** في التصور اللاهوتي للعلم **Theologisme** ، ويرفض اعتبار توتره دائما دينيا كاليا ولا يرضى إلا بفهمه الجديدة العقلانية الشاملة المفتوحة . يريد ياسبرز بدل أن يفتح العالم بعينه على الطبيعة أن يقيم علما وجوديا يدرس أبعاد الذات وبدل أن يتكشف قوانين الطبيعة بضع قواعد للسلوك في الحياة . يتهم ياسبرز العلم بأنه قد ألقى الله من حساباته حتى يظل العالم بلا خالق ولا يكون أمام الانساني حيث لا احتمالات ثلاثة : الأول للبحث العلمي وللعالم المكشوف بذاته دون أن تكون له أي أساس خارجي ، أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة في البحث عن الحقيقة دون الحصول عليها والانتهاء إلى العدمية أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة في البحث عن الحقيقة والحصول على منه يقيني ، وهذا الاحتمال الثالث هو الذي يعمل ياسبرز على تحقيقه ويراه في التصور المسيحي العام !

ثالثا : هل فلسفة نبش فلسفة مسيحية ؟

عرض ياسبرز فلسفة نبش بطريقتين : **طريقة الأولى** التي يرفض فيها نبش كل أخلاق وكل حقيقة ه تفقد الأخلاق مستوى رفيع من الأخلاق ، والتجار الأخلاق مطلب خلفي اسمي ، والشك في كل حقيقة لعل صادق ، **وطريقة الثانية** التي وهو في رأى ياسبرز طريق نبش الحقيقة بضع فيه تصورا جديدا للعالم لا يبعد كثيرا عن التصور المسيحي ، يحاول ياسبرز عرض هذا التصور في عدة نقاط موضوعية ومنهجية يفسرها تفسيراً مسيحياً خالصاً وينتهي إلى أن نبش ، بالرغم من عدائه الظاهر للمسيحية ، فإنه يتبع في الحقيقة في كل مايقوله دوافع مسيحية أصيلة ، استعمل هذه الدوافع للصرار مع المسيحية ثم رفض كل العناصر الإيجابية التي توصل إليها لممارسة المسيحية ، وأهم هذه النقاط هي :

١ - يرى ياسبرز أن المسيح هو نيتشة وإن نيتشة هو المسيح
ولا كان نيتشة هو ديونيزوس يصبح المسيح هو ديونيزوس ،
وديونيزوس هو المسيح ، كان المسيح مخلصا لقواعه السلوك
في الحياة وكذلك كان نيتشة ، كلاهما لم يرد أن يكون بطلا ،
كلاهما قضى على الأخلاق وجعل الله نيبا وراء الخمر والشر ،
كلاهما بحث عن السعادة ، وجدها نيتشة في المود الأبدى أى
فى انكار الغالية التي يؤمن بها المسيح ، ومع ما يبدو من
عدواة ديونيزوس للمسيح ونيتشة ما فإن نيتشة في نهاية
حياته في إحدى بويات جنونه كان يسمى نفسه « ديونيزوس
المصلوب » . والحقيقة أن التعارض بين نيتشة والمسيح ، وبين
ديونيزوس والمسيح أكبر من أن يستطيع ياسبرز الفأه ،
فموت المسيح على الصليب يرمز لنهاية الحياة ويكون اتهامها
لها أما تطهير ديونيزوس أربا فانه يرمز إلى الحياة المتجددة
بلا انقطاع ويشير إلى عصر الدراما في الحياة الإنسانية .
وبمنهج ياسبرز هذا يستطيع كل فرد أن يكون هو المسيح
سواء كان معه أو ضد .

٢ - يرى ياسبرز أن نيتشة ينتهى من صراعه مع المسيح
إلى الاتحاد به وهو خصمه بالفرغم من صبيحة نيتشة ، امحقوا
هكذا الوضيع ! ، ومن لم لا يبتئ خصما له ويصير
نيتشة وخصمه شخصا واحدا ! وبهذا الضئ تكون الماء
نارا والملك شيطانا .

٣ - بعد أن يعرض نيتشة مجموعة الأشياء المتعارضة ينتهى
برفضها أو التوفيق بينها وجمع المتناقضات في شيء واحد وهو
ما يتصف به الفلسفي مثل : الله والإنسان ، الإلادة والبرادة ،
الموت والبعث ، القيصر والمسيح ! يرى ياسبرز أن هذا الاتحاد
يتم لحساب الله والإلادة والبعث والمسيح ويرى العصر الحاضر
أن هذا الاتحاد يتم لحساب الإنسان والبرادة والموت والقيصر .

٤ - يرى ياسبرز أن نيتشة في نفس الوقت فيلسوف
التطرف وفيلسوف الوسط التاسع . هو من أنصار التطرف
لأن التعارض يؤدي إلى التطرف يحتاج إليه الضعفاء ولذلك
كان الله « أرضا متطرفا للغاية ليبدأ إليه الضعفاء » (نيتشة
والمسيحية ص ١٠٥) ، أما أنصار الوسط فهم لا يحتاجون إلى
شئ من عقائد الإيمان ولا يحتاج وائفة الأخلاق إلى أي كذب
أو تصح بالأخلاق والدين ، وهكذا يبقى ياسبرز على دعوة
نيتشة ويجعله من أنصار أنصاف الحلول والسلام والسكينة
وبالتالى يمكن تقبل المسيحية باعتبارها حلا وسطا تضع الله
والإنسان معا في حسابها .

٥ - بعد أن جعل ياسبرز نيتشة من أنصار الاعتدال
نصب إليه مذبحا شاملا يجمع كل شيء ولا يفضل المسيحية
على العدمية أو العدمية على المسيحية ، ويحتج لذلك بأن عمله
لم يتم نظرا لمرضه وموت المبكر . ولكن نيتشة هو الحركة
نفسا أى الفكر الذى لا ينتهى إلى نتيجة ما ، يتجول فى كل
مطلق ، يقصر ياسبرز نيتشة على هذا النحو ليبرر علم وضع
نيتشة لقيم ومثل جديدة وليخفف من قلبه القيم والاعتناء
إلى العدمية .
٦ - يفرق ياسبرز بين فلسفة نيتشة الفاهرة التى هي

أقرب إلى التحليل النفسى الذى يهدف إلى اراحة الأتمة وبين
فلسفته الباطنة التى يمكن التعرف عليها بعد جمع العبارات
لتناثرة حول موضوع واحد حتى ولو كانت متعارضة للتعرف
على طريقة التفكير ووضع المشاكل . ومن ثم يتضح أن عداء
نيتشة للمسيحية ليس كعداء غيره بل يعوم على دوافع فلسفية
قوية - لذلك لا يجب الوقوف على نظريات نيتشة الواحدة بعد
الأخرى بل يجب التعرف على مسار فكره . يطالب ياسبرز
بعدم الالتفات إلى نقد نيتشة للمسيحية ويكتفى لذلك مسار
فكره العام وعلى هذا النحو يكون نيتشة أقرب إلى الدفاع
عن المسيحية من الهجوم عليها !

٧ - تترسب الدراسة على هذا النحو صوبتان : الأولى
العبارات المتناثرة التى قد تحتوي أحداها على بيان إيمان
نيتشة بالمسيحية ، والثانية أعماله الفلسفية التى تعبر عن
موقفه وعن انفعالاته العادة ومن لم يكن الشك في جدتها
وأصالتها النظرية وبذلك يصعب الخروج منها برأى واحد
لنيتشة من هذا الضخم المتناثر . ولكن كركجاد وبسكال
وأوغسطين فلاسفة من نفس الطابع وأمكن الوصول إلى
نظريات متشقة فهم وليس نيتشة بدعا بينهم .

٨ - لا يعتبر ياسبرز نيتشة نموذجا للفلاسفة بل استثناء
وبالتالى نكلا ما يقوله يكون نيتشة شاذا عجيبا
غريبا لا يتفق عليه الجميع ولا يصدر من عقل ! وهؤلاء الأفراد
يعبرون الضالم معهم إلى كارثة على مايقول ياسبرز ! فنتيشة
لديه مفار يرش نفسه للأضمار دون حماية كافية ، دواة
لا تهدأ تلاحق ، لا يريه إلا التوتر مثل دسوتيفسكى
ولاور . فبعد أن جعل ياسبرز نيتشة شاذا على القاعدة يأتى
له نظاره ليتفنى فرضه وهو التشكيك فى شخصه كفيلسوف
وفى أعماله ككاتب وفى آرائه كملك وفى آثاره كنبى للصمر .
٩ - يذكر ياسبرز أنه مثل نيتشة وله مثل تجاربه ولكنه
ليس من أتباعه أى أنه يريه أن يقاسم نيتشة في الثناء عليه
من أنصاره لم يعجب الهجوم عليه من أعدائه .

١٠ - كل من يعكف على نيتشة لابد أن تكون لديه الثقة
الكافية بنفسه وأن تكون له الحرية التى يستطيع بها مقاومة
اغرائه لأن نيتشة يوقع في الفتاوى وصيب اللغة : يقرأ :
« لا أريد أن أكون نورا لأناس اليوم » ولا أريد منهم أن
يسموني نورا بل أريد أن أقتبأ أعينهم ، بريق حكنى
يقطعها » وهكذا يحذر ياسبرز القراء من نيتشة الذى جعله
مسيحيا رغم أن أنه حتى لا يقموا في غرايته وحتى يحافظوا
على إيمانهم بالبراث القديم بكل ما فيه من عقائد وقيم متوارثة .
لم يكن غرض ياسبرز من تقصير نيتشة مسيحيا دافعا عنه
وارجاعا له إلى حقارة المسيحية بل ودافعا عن المسيحية التاريخية
عند هجمات نيتشة عليها مع أن نيتشة لم يبع إلا تصفية
الإيمان مرة واحدة وإلى الأبد بعد أن حاولت الفلسفة الحديثة
إصلاحه مع الإبقاء عليه .

ولأسمننا أخيرا ألا أن نقول أن الفرق بين موقف نيتشة
وياسبرز من المسيحية هو الفرق بين المصراة والشفاق .

حسن حننى

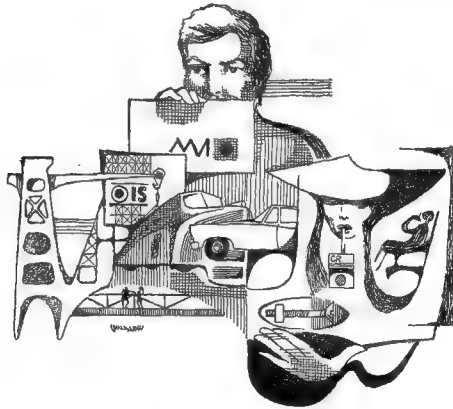
دور الإعلان في مجتمعنا الاشتراكي

د. سمير حسين

شهدت السنوات الأخيرة التي أعقبت التحول الاشتراكي في مصر عام ١٩٦١ خلافاً فكرياً بين خبراء الاقتصاد والإعلان فيما يتعلق بالدور الذي يمكن أن يقوم به الإعلان في المجتمعات النامية التي تتبع الأسلوب الاشتراكي مثل جمهوريتنا ، بل بالنسبة لضرورة وجود الإعلان أو عدم ضرورته ، وانقسم هؤلاء الخبراء إلى فريقين متعارضين يذهب الفريق الأول منهما إلى أن الإعلان ليس ضرورياً في الدول الاشتراكية النامية لأنها تعتمد على التخطيط وتتوازى أو تقل فيها كمية الإنتاج عن الاستهلاك ، كما أن ظروف الدول الاشتراكية النامية - خصوصاً في المراحل الأولى من عملية التنمية - تحتم زيادة في العمالة، يستتبعها زيادة في الأجور . وبالتالي زيادة في الاستهلاك ، مما يخلق في هذه المجتمعات موقفاً يكون فيه العرض أقل من الطلب ، وتصبح المشكلة مشكلة ندرة ويصل هذا الفريق من الخبراء إلى نتيجة مؤداها أن الإعلان في مثل هذه الظروف ينتفي دوره ، ويعتبر - في حالة اتباعه - تبديداً للموارد في وظيفة ليس لها هدف ثابت أو مؤكد. في هذه المرحلة من النمو .

والخارجية التي يتوقع تصريف الزيادة في الإنتاج فيها ، ومن هنا ينبع المنطق القائل بأن مشكلة الدول النامية هي مشكلة انتاج وليست مشكلة تسويق أو دراسات تسويقية ، وهو نوع المنطق الساذج المتضارب ، إذ أن من أولى مقتضيات زيادة الإنتاج القومي وضروراته تحديد نمط الزيادة المرغوبة في الإنتاج ووضع أو تخطيط التوقيت الزمني لأحداث هذه الزيادة على أساس دراسة الأسواق الداخلية والخارجية ، وتقدير احتياجاتها ، وقياس مدى قدرة الجهاز الانتاجي الحالي والمستقبل على استيعاب هذه الاحتياجات .

ويذهب الفريق الثاني من هؤلاء الخبراء الى أن الاعلان في المجتمعات الاشتراكية النامية ضرورة من ضرورات تحقيق التنمية الاقتصادية ، وأن الاعلان جزء من وظيفة التسويق التي تقوم بها الدولة الاشتراكية النامية لتصرف منتجاتها في الداخل والخارج بطريقة تؤدي الى احداث التوازن بين الانتاج السريع والمتزايد في ظل ظروف التنمية السريعة ، وبين امكانية تسويق وتصريف هذه المنتجات في الأسواق الداخلية والخارجية ، ومضالوة التحكم في التغيرات العديدة التي تطرأ على هذه الأسواق وتتحكم فيها ، والرغبة الدائمة في توسيع رقعة هذه



ومن هنا تبدو أيضا ضرورة الاهتمام بوظيفة التسويق ومعالجة مشاكلها بنفس الأهمية التي نعالج بها مشاكل الإنتاج حتى نضمن توجيه الموارد حسب الطلب الحالي والمستقبل ، لكي لا يزيد العرض على الطلب زيادة كبيرة ومتراكمة فينشأ عنه تعطيل الطاقة الانتاجية وضباب الجهد والتكاليف التي تؤدي الى خسارة

الأسواق لتفادى ازمات تراكم المخزون التي تهدد عملية التنمية الاقتصادية التي تقوم بها الدولة .

ويذهب هؤلاء الخبراء الى أن معظم الدول النامية تنجه الى تركيز جهودها في زيادة الإنتاج القومي ، ويصاحب هذا التركيز عادة قلة الاهتمام بأجراء دراسات للأسواق الداخلية

المشروعات أيضا من جراء فقدان الإرباح التي
كان يمكن تحقيقها إذا وصل الإنتاج إلى حجم
الطلب .

وينتهى هؤلاء الخبراء إلى ضرورة وضع
تخطيط تسويقي في مجتمعنا يهدف إلى ضمان
اشباع حاجات ورغبات الأفراد الموجوده
 والمستقبلية من الطاقات الانتاجية الموجودة
 والمستقبلية أيضا باعتبار أن ربط الخطة
 التسويقية بالخطة الانتاجية أمر أساسي
 وجوهري يسر على المستهلكين استيعاب الانتاج
 المتزايد ، فيسهم بطريق مباشر في دفع عجلات
 الانتاج .

**والواقع أن الصراع بين هذين الرأيين يجعلنا
نتساءل عن حقيقة الدور الذي يلعبه الإعلان في
الجمتمع الاشتراكي ، ومدى فعالية هذا الدور ،
والشكل والمضمون اللذين يجب أن يتخذهما
الإعلان لتحقيق الأهداف التي تسمى الدولة
الاشتراكية ومنشآت الانتاج والخدمات
والتوزيع بها إلى تحقيقها .**

وفي تقديرنا أن النظرة السلبية إلى الإعلان
من بعض الخبراء ناتجة من الخلط بين النظر
إليه باعتباره غاية في حد ذاته أو باعتباره وسيلة،
ذلك أن الإعلان في حقيقة الأمر ليس غاية ولكنه
وسيلة لتحقيق عدد من الغايات والأهداف وعلى
هذا الأساس فلا يعتبر الإعلان أداة راسمالية
أو أداة اشتراكية ، وإنما يعتبر - في حقيقة
الأمر - أداة محايدة يمكن استثمارها
استخدامات تحقق الأهداف التي يسعى إليها
المجتمع ككل والمنشآت العلنة فيه وفق الظروف
والسياسات العامة .

وبالتأمل في سجل التطبيق في عديد من الدول
ذات النظام الاشتراكي يمكن أن نحدد ثلاثة
اتجاهات متعاقبة حكمت نظرة هذه الدول إلى
الإعلان وأمكانية استخدامه في النظم الاشتراكية

**ويرتبط الاتجاه الأول ببداية مرحلة التطبيق
الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي والدول
الاشتراكية الشرقية بوجع عام حيث كانت النظرة
السائدة إلى الإعلان في المرحلة الأولى نظرة سلبية
للدور الذي يمكن أن يقوم به ، باعتباره أن الإعلان
يقتزن بالراسمالية وبالتالي فإن نظرة السياسة
الحكومية له لا تعدو واعتباره ظاهرة أو وسيلة
راسمالية لا محل لها في المجتمع الاشتراكي .**

أما الاتجاه الثاني فمرتبط بالمرحلة المتوسطة
في عملية التطبيق الاشتراكي حيث دلت سجلات

هذا التطبيق في الدول الاشتراكية على أنه في
الوقت الذي عارضت فيه السياسة الحكومية
مبدأ الإعلان التجاري عموما واجهت تجربة
التطبيق الاشتراكي عددا من المشكلات
كالاحتناقات ، والاختلال في التوازن في بعض
الأسواق ، والصعوبة في الوصول إلى أهداف
معينة ، وميول بعض الجماعات الساعمة في
اتجاهات لا تحللي خطه التنمية الاشتراكية ،
ولم يكن من سبيل لمواجهه هذه المشكلات إلا
بالاستعانة بالإعلان وبأسلوب الحملات الاعلانية
المركزية التي تعوم بها الدولة ، وعلى هذا يمكن
القول بأن راسمي السياسة الاشتراكية في هذه
الدول - على مستوى الإيديولوجية - اعترضوا
في بادئ الأمر على الإعلان كأداة ، ثم اكتشفوا
بعد دخولهم في غمار التطبيق الاشتراكي
ومواجهتهم لمشاكل التنفيذ حاجتهم إلى الإعلان
في شكل سلسلة متلاحقة من الحملات لمواجهه
هذه المشكلات ، وذلك بفرض القضاء على
الاسراف مثلا ، أو لضغط استخدامات معينة
من المواد الخام النادرة ، أو للتأثير على سلوك
المستهلكين أو العاملين في اتجاهات معينة ، أو
لتشجيع أنواع معينة من الاستهلاك لمواجهة
مشكلات معينة تتمثل في تراكم أنواع معينة
الواضح لبدء الإعلان التجاري ، واستبدت
من المخزونات .

**أما الاتجاه الثالث - وهو الاتجاه الحديث
في النظرة إلى الإعلان - فمرتبط بحركة الإصلاح
الإداري في هذه الدول ، ويسود فيه القبول
الواضح لبدء الإعلان التجاري ، واستخدام
الإعلان كأداة أساسية من أدوات التخطيط
الاشتراكي ، مع تحديد الاستخدامات الجديدة
للإعلان كأداة من هذه الأدوات .**

دور الإعلان في مجتمعنا الاشتراكي :

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن ظروفنا
الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تتطلب
ضرورة تغيير الدور الذي كان الإعلان يقوم به
في مجتمعنا قبل عام ١٩٦١ واستخدامه
- كوسيلة - استخداما رشيدا في خدمة أهداف
خطة التنمية مع الإيمان بأهميته باعتباره أننا
قد بدأنا التطبيق العملي للاشتراكية في وقت
متأخر نسبيا عن التجارب الاشتراكية الأخرى
في العالم ، مما يتيح لنا فرصة الميزة النسبية
لن يتخلف في الاستفادة من أخطاء الآخرين

واستخدامها وبالتالي تحقيق التوازن بين السلع المنتجة وتسهيل توزيع هذه السلع .

٢ - الإعلان يعمل على زيادة التصدير :

تهدف الدولة الى زيادة صادراتها الى الخارج ، وتوسيع رقعة الأسواق الخارجية التي تتعامل معها ، وارتداد أسواق خارجية جديدة الى جانب الأسواق التقليدية التي تتعامل معها .

ويلعب الإعلان دورا هاما في الدعاية لمنتجاتنا في الخارج ، وتقديمه للشركات المستفيدة بالاستيراد في الدول الأجنبية ، وتقوية مركز منتجاتنا العربية في الأسواق الخارجية سواء التقليدية منها أو الجديدة أمام السلع الأجنبية المنافسة لنا - عن طريق الحملات الاعلامية المنظمة - ومحاولة فتح أسواق جديدة أمام صادراتنا .

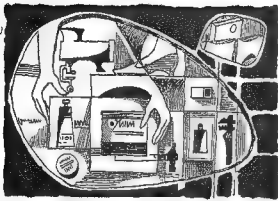
ولا شك ان هذا الدور يزداد أهمية أمام عدد من المتغيرات من أهمها اختلاف ظروف السوق الخارجية عن ظروف السوق الداخلية بالنسبة لأنواع المنتجات المطلوبة ، وخصائص المستهلكين ومستويات التسعير وطرقه ، وأشكال ودرجات المنافسة وطرق الترويج المستخدمة وظهور التكتلات الاقتصادية الناشئة الأوروبية المهيمنة وغيرها قبل أن تتمكن لمنتجاتنا فرصة توطيد أقدامها في البلاد المنتجة الى هذه الأسواق ، فضلا عن ذلك فان مركزنا بالنسبة لأسواق البلاد المستفلة حديثا - ومعظمها من البلاد المتخلفة اقتصاديا - لا يتمتع بنفس القدرة التنافسية التي تملكها البلاد الصناعية المتقدمة ، مع الأخذ في الاعتبار بالجهود التي تبذلها إسرائيل في النشاط التجاري والتفلفل الاقتصادي في أسواق أفريقيا وبعض دول آسيا بغرض عرقلة النشاط التجاري العربي وفرض سيطرتها على معظم هذه الأسواق .

وقد اوصى مؤتمر الإنتاج بعدة توصيات بشأن تنمية الصادرات من أهمها ضرورة اضافة سلع جديدة الى السلع التي يتم تصديرها حاليا ، وضرورة تخصيص حصص من انتاج كل شركة - كلما أمكن - للتصدير وعلى ان يوجه جانب منها الى أسواق العملات الحرة ، وهذا ليس فقط بغرض زيادة حصيلة صادراتنا وإنما أيضا لتطوير المنتجات المحلية وجعلها في مستوى الانتاج العالمي من حيث الجودة والسعر .

وبالتالى في النظر الى الاعلان النظرة الصحيحة - التي اخطأتها التجارب الاشتراكية الأخرى في بداية التطبيق - منذ البداية وتوجيهه الى الاستخدامات التي تتفق واحتياجات مرحلة التنمية التي يمر بها مجتمعنا ، ويتطلب هذا بالضرورة رسم حدود معينة للدور الذي يمكن ان يقوم به الاعلان في مجتمعنا بما يتماشى مع الأهداف القومية التي رسمتها الدولة في تخطيطها القومي اقتصاديا واجتماعيا ، وسياسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتبعة ويمكن ان نيلور حدود الدور الذي يمكن ان يقوم به الاعلان في مجتمعنا في الوظائف التالية :

١ - الاعلان يؤدي الى تطوير الانماط الاستهلاكية وترشيدها الاستهلاك :

يقصد بالانماط الاستهلاكية الطريقة التي تنفق بها كمية من النقود على أنواع السلع والخدمات ، ويقصد بتطوير الانماط الاستهلاكية تغيير تركيب الإنفاق الاستهلاكي الكلي بمعنى زيادة الإنفاق أو نقصانه على مجموعة من مجموعات السلع والخدمات بشكل يساعد على زيادة معدل التقدم الاقتصادي ، ويؤدي تطوير الانماط الاستهلاكية أو ترشيدها الاستهلاك الى تحقيق عدة أهداف اولها توجيه الانماط الاستهلاكية - خاصة القوة الشرائية الجديدة - الى أنواع أخرى من السلع والخدمات التي لا تقبل عليها ، بغرض أحداث التوازن بين مجموعات السلع والخدمات التي تقدمها الدولة ، وبما يؤدي الى تقليل حدة الانفجار الاستهلاكي بالنسبة لمجموعة معينة من السلع أو الخدمات كالسلع الغذائية مثلا ، وثانيها توسيع الافاق الاستهلاكية بمعنى تعريف مجموعات السكان التي تعيش تحت ظروف معينة بظروف الامية وتقليل الصادات والتقاليد كما هي الحال في الريف المصري بالأنواع الجديدة من السلع والخدمات بما يتيح لهم إمكانية استخدامها ، وادراك قيمتها ، والمنفعة المترتبة على استعمالها . وثالثها توجيه الاستهلاك الى المنتجات العربية التي تحمل محل الواردات الأجنبية ، مع العمل على تلميم الثقة بهذه المنتجات ، خاصة بعد قفل باب الاستيراد بالنسبة لمعظم مجموعات السلع والمنتجات الأجنبية ، بما يؤدي الى تدعيم حركة التصنيع المحلي ، وابعاد حل بعض مشكلات تراكم المخزون بالنسبة لأنواع معينة من السلع والمنتجات عن طريق زيادة الاعلان عنها بما يؤدي الى توجيه المستهلكين الى اقبال عليها



ومن هنا يبرز الدور الهام الذى يمكن أن يؤديه الإعلان في زيادة صادراتنا وفتح الأسواق الخارجية أمامها .

٣ - الإعلان يحقق عوائد اقتصادية :

تتمثل أهم العوائد الاقتصادية التي يمكن أن يحققها الإعلان في عائدتين أولهما سرعة وسهولة تصريف المنتجات مما يؤدي إلى عدم إحداث فجوة زمنية بين الإنتاج والتوزيع بحيث يقل من فترة التخزين ومصاريفه ، كما يقلل من نسبة الاضرار الناتجة عن تراكب المخزون ، أما العائد الثاني فيتمثل في زيادة توزيع المنتج وزيادة رقم المبيعات مما يؤدي إلى تخفيض ثمن الوحدة المباعة نتيجة لتوزيع التكاليف الثابتة على عدد أكبر من الوحدات ، ويؤدي التخفيض في تكاليف الإنتاج إلى تخفيض سعر السلعة للمستهلك ، وبالتالي إلى زيادة الاستهلاك بالنسبة للسلع عامة، وللسلع التي يمكن تصديرها بصفة خاصة إلى درجة تسمح بجعل الإنتاج المحلي اقتصاديا لدرجة تمكن من التصدير وتضمه في مركز ممتاز بالنسبة للسلع الأجنبية المنافسة .

٤ - الإعلان يساعد القطاع الخاص على تلبية دوره في خطة التنمية : -

نص الميثاق الوطني على أن الأهمية الكبرى المعلقة على دور القطاع العام لا يمكن أن تلغى وجود القطاع الخاص ، أن القطاع الخاص له دوره الفعال في خطة التنمية من أجل التقدم ولا بد له من الحماية التي تكفل له أداء دوره ، والقطاع الخاص الآن مطالب بأن يجدد نفسه، وبأن يشق عمله طريقا من الجهد الخلاق ليعتمد - كما كان في الماضي - على الاستغلال الطفيل .

وقد رسم الميثاق دور القطاع الخاص في الأنشطة الاقتصادية على أساس أن يسهم في الصناعات الخفيفة وأن يتحصل عليه ربع الصادرات ، أما بالنسبة للتجارة الداخلية فيتحصل عليه ثلاثة أرباعها ليكون المجال فسيحا في ميدان التجارة الداخلية للنشاط الخاص والتعاوني .

والواقع أن قيام القطاع الخاص إلى جانب القطاع العام أمر ضروري لخلق جو من المنافسة البناء بين القطاعين تستهدف زيادة الإنتاج وتحسينه وتنويعه وخفض التكاليف والأسعار، وهكذا نجد أن الإعلان يلعب دورا كبيرا في إمكان

قيام القطاع الخاص بالمنافسة المطلوبة ، والتطوير اللازم ، خاصة وأن مجال التصدير - الذي يسهم فيه بنسبة الربع - يستدعي ضرورة القيام بالحملات الاعلانية المستمرة للدعاية لمنتجاتنا في الخارج ، وتثبيت أقدامها أمام المنافسة الأجنبية، وفتح الأسواق الجديدة أمامها .

ولما كان القطاع الخاص يضغط بثلاثة أرباع التجارة الداخلية ، والتي تمثل سلع الاستهلاك اليومية والشائعة الاستعمال والسلع المعمرة فإن الاعلان يعتبر - بالنسبة له - من الزم الضرورى لتسهيل تصريف هذه السلع وتسويقها ، ومد الخدمة التسويقية في مجال التجارة الداخلية إلى معظم أنحاء الجمهورية .

٥ - الإعلان يؤدي إلى زيادة المدخرات :

يمثل نقص المدخرات القومية مشكلة من أهم المشكلات التي تعاني منها الاقتصاديات المتخلفة - ومنها الاقتصاد المصري - كما يعتبر توفير المدخرات اللازمة شرطا أساسيا للقيام بعملية التنمية الاقتصادية حتى يمكن القول أن عملية

التنمية تعتبر - بصفة أساسية - عملية تراكم المدخرات ، وأن نظرية النمو لا تقوم أن تسكون بصفة نسبية نظرية لتراكم رأس المال .

وإن إحدى الشعب الحيوية التي تشكّر المعادلة الصعبة هي كيف يمكن أن نزيد المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة ، والإعلان - إلى جانب الوسائل الإجرائية الأخرى التي تقوم بها الدولة - يمكن أن يؤدي دورا تعليميا كبيرا في هذا المجال عن طريق توعية الجماهير على الادخار ، وبيان الفائدة التي يمكن أن تعود على الفرد والمجتمع نتيجة زيادة المدخرات ، وتدل البيانات التي خلصنا إليها من أحد البحوث الميدانية لنا عن تحليل الاتفاق على الإعلان في الصحف على ازدياد نسبة الاتفاق الاعلاني على الادخار سواء في قطاع التأمين أو البنوك ، أو صندوق توفير البريد ، مما استتبع زيادة المدخرات بنسبة كبيرة ، مما يؤكد أهمية الإعلان وفعاليتها في إمكان زيادة المدخرات .

٦ - الإعلان في المجتمع الاشتراكي يؤدي وظيفة اعلامية :

لا يقتصر الدور الذي يقوم به الاعلان في مجتمعنا على الاعلان عن السلع والمنتجات والخدمات فقط ، وإنما ينبغي أن يتعدى ذلك إلى اعلام مختلف فئات الشعب للمشروعات الجديدة التي تنشأ ، والمصانع الجديدة التي تفتتح ، والتطوير المستمر للمشروعات القائمة، ومدى ماتسهم به هذه المشروعات في تقدم المجتمع ونموه ورفاهيته ، وهكذا يسهم الاعلان الاعلامي في توصيل فلسفة العمل الوطني التي ينص الميثاق على أنها يجب أن تصل إلى جميع العاملين في الوطن في كافة المجالات ، بل يجب أن تصل إليهم بالطريقة الأكثر ملائمة لكل منهم ، والإعلان - بوسائله المختلفة من صحف ومجلات ودوريات وكتيبات ونشرات وسينما وراديو وتليفزيون وملصقات وبريد مباشر - يؤدي إلى توصيل هذه الفلسفة بالطريقة الملائمة لجمهور المواطنين في مختلف أنحاء جمهوريتنا .

اخطاء سياسة الاعلان الحالية :

هذه بصفة عامة هي الوظائف الأساسية للإعلان في المجتمعات الاشتراكية النامية ، وهي نوع الوظائف التي تقابل احتياجات أو مشكلات معينة مثل تلك التي يتعرض لها مجتمعنا في فترة تحوله الاشتراكي .

على أن هناك إلى جانب ذلك مجموعة أخرى من الاعتبارات الأساسية التي تتمثل في كون القطاع العام في مصر هو المعلن الأول في وسائل النشر المختلفة . وإن استخدامه للإعلان يتزايد باستمرار نظرا لقيامه بالمعبء الأكبر في الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، وأن الدولة - بإصدارها قانون تنظيم الصحافة - قد نقلت ملكية الصحف الكبرى من الملكية الفردية إلى الملكية العامة بفرض تحرير الصحافة من سيطرة رأس المال واعطائها الحرية الكافية لممارسة نظرية المسؤولية الاجتماعية مع غيرها من وسائل الاعلام الأخرى، فضلا عما دلت عليه التجارب السابقة في النظم الاشتراكية من أن الدولة هي التي تنوّل الإعلان وفق سياسات مركزية تتمشى مع أهداف خطة التنمية بعكس الإعلان في المجتمع الرأسمالي الذي يتولاه الأفراد وأصحاب رؤوس الأموال وفق سياسات المشروع الرأسمالي وأفراده .

فإذا نظرنا إلى الحقائق المسابقة مجتمعة سنجد أن الدولة هي التي تضع خطة التنمية على المستوى المركزي وتشرف في الوقت نفسه على إدارة القطاع العام بفرض تنفيذ هذه الخطة عن طريق التنظيمات الخاصة به ، فضلا عن إشرافها على الصحف وتوجيهها لها وفق ما تقتضيه المصلحة العامة في إطار من نظرية المسؤولية الاجتماعية التي تنتهجها الصحافة .

ولما كان الاعلان وسيلة من وسائل الاسراع في تنفيذ خطة التنمية ومعالجة بعض العيوب التي تعترض تطبيقها ، فضلا عن الاستخدامات الهامة له ، فلقد وجب أن تقوم الدولة بنفسها بالإشراف على الاعلان وتوجيه الوجهة الصحيحة التي تتيح الاستفادة من الاستخدامات الجديدة له وفق سياسات مركزية ، ولكن الملاحظ أنه حتى الآن لم تبادر الدولة إلى تنظيم الاعلان وتوجيه استخدامه - كما تفعل في سائر الأنشطة الأخرى كالصناعة والزراعة والتجارة والمال وغيرها - مما يدل على قصور السلطة المركزية لدينا من ادراك أهمية الاعلان ودوره في هذه المرحلة التي يمر بها مجتمعنا . ونحن بهذا لا نطالب بالحد من الاعلان أو تقييده ، بل على العكس نطالب بتغيير مفاهيمه وبعض وظائفه ، واستخدامه بطريقة ملائمة ومركزة ومتوازنة للاسهام بدوره كوسيلة هامة وفعالة . فقد لاحظنا أن الاعلان يتعارض في بعض الحالات - مع أهداف خطة التنمية ومع قيم مجتمعنا كان يدعو إلى اغراء المواطن بمزيد من الاستهلاك

تحقيقها للنتائج المتوقعة أو قصورها وانحرافها عن الدور المرسوم للخطة الاعلانية .

أما دور الشركة فيتمثل في تنشيط الطلب الثانوي أو الاختياري على مجموعة السلع أو الخدمات التي تقدمها وذلك بإبراز المزايا والفوائد الخاصة بالمراكز الممينة التي تنتجها أو بنوع الخدمة التي تقدمها وذلك في إطار الأهداف العامة للخطة العامة والخطة التفصيلية دون جنوح بإعلان إلى استخدامات تتنافى مع هذه الخطط أو تريد الاستهلاك بدوئة أكبر من الإنتاج المتاح ، مع التزام الاعلان باخلاقيات معينة تستهدف عدم التفرير بالاستهلاك وعرض المزايا الحقيقية للسلعة أو الخدمة دون التهويل في هذا المجال مما قد يخلف انرا عكسية لدى المستهلكين .

أما وسائل الاعلان - وأهمها الصحافة - فإنها تحتل الجانب الأقوى في العلاقة مع المعلنين، وبهذا تستطيع أن تفرض عليهم بعض المبادئ أو الأخلاقيات التي يجب أن تتوافر في الاعلانات المنشورة أو المداعة ، فتمتطيح وسائل الاعلان - على سبيل المثال - أن تنفق فيما بينها على الاعراض عن نشر اعلانات المناسبات - الأي في بعض الحالات التسادسة - والأعراض عن نشر بعض الاعلانات الاعلامية المبالغ فيها والاعلانات التي تنتخذ الطابع الراسمالي في تحريرها ، فضلا عن اعراضها جميعه عن نشر الاعلانات الخاصة بالملن الذي يحاول ان يفرض آراءه على أية صحيفة أو وسيلة اعلانية منها أو أن يتحكم في سياستها التحريرية بشكل أو آخر .

كما نضيف إلى ذلك ضرورة وجود قسم بكل وسيلة اعلانية للرقابة على الاعلان والتأكد من صحتها ما جاء به من بيانات أو معلومات قبل نشره حتى لا يصبح الاعلان وسيلة للخداع أو الاحتيال أو ابتزاز الأموال ، فكما تتأكد الصحيفة من صحة الاخبار السياسية والاجتماعية قبل أن تنشرها ، عليها أن تتأكد ايضا من صدق الاعلانات التي تنشرها باعتبار ان الاعلان هو اخبار التجارة والمال والاقتصاد في الصحيفة . وعلى هذا الأساس يمكن أن يتكامل الجهد التخطيطي والتنفيذي والرقابي على الاعلان بين الحكومة والمؤسسات والشركات ووسائل الاعلان كل في مجاله في حدود الاطار العام لدور الاعلان في مجتمعنا الاشتراكي ، وفي ظل نظرية المسؤولية الاجتماعية التي يجب أن تعمل وسائل الاعلان والاعلام في اطارها .

سليم حسين

بالنسبة لبعض السلع والمنتجات في الوقت الذي ندعو فيه الدولة إلى الحد من الاستهلاك منها وتوجيه الاستهلاك نحو سلع بديلة أخرى، بالإضافة إلى زيادة الاعلانات المكاسبات ذات الصبغة الشخصية على حساب الاعلانات التجارية مما يتنافى مع مبادئ الاعلان وأهدافه ويؤدي إلى انفاق المال العام في غير المصلحة التجارية للمشروع، هذا فضلا عن اتخاذ الاعلانات الاعلامية نمطاً في التحرير يختلف عما يجب أن تهدف إليه من نشر الجفائق عن المشروع المعلن عنه ، واصطفاها في عدد كبير من العاديات بالصبغة الشخصية دون الموضوعية مما يقلل من فعالية الاعلان إلى حد كبير ، ويؤدي إلى فقد ثقة الأفراد في مثل هذه المروصلات وهو عكس ما يستهدفه الاعلان الاعلامي .

وعلى هذا فإن واجب الدولة إذن أن تتدخل في رسم سياسة الاعلان وتوجيهها مثلما تتدخل في رسم سياسة التخطيط والتنمية وتوجيهها بحيث تر تبط السياسة الاعلامية بسياسة التخطيط الاقتصادي والاجتماعي للدولة - سواء التخطيط طويل الأجل أو قصير الأجل - بالأهداف التي ترمي الدولة إلى تحقيقها من ورائه والتي تسهم في الاسراع في تنفيذ الخطة ومعالجة بعض العيوب والانحرافات التي تصادفها أثناء التطبيق .

ونتطلب نجاح هذه الخطة المركزية ضرورة تضافر جهود المؤسسات العامة والشركات واجهزة الاعلان في هذا المضمار ، بحيث تقوم المؤسسات العامة بالاعلانات الجماعية والتي تستهدف تنشيط الطلب الاولى على مجموعة السلع والخدمات التي تقوم الشركات التابعة لها بإنتاجها وتقديمها بدلا من اقتصاها على القيام باعلانات المناسبات أو الاعلانات الاعلامية أو الرسمية ، بالإضافة إلى دورها في رسم خطة جزئية للاعلان بالنسبة لكل شركة من شركاتها بحيث تتكامل - في النهاية - الخطط التفصيلية للاعلان في مختلف الشركات التابعة للمؤسسة في خطة واحدة ترتبط أيضا بالأهداف المرسومة للمؤسسة لكي تتولى تحقيقها ضمن اطار الخطة القومية الشاملة ، هذا فضلا عن الدور الرقابي الذي يجب أن تقوم به المؤسسة على اعلانات شركاتها من حيث نوعية الاعلان ومدى ملائمة الوسيلة الاعلامية المستخدمة وكثافة الحملة الاعلامية ، ولا يعني ذلك تدخل المؤسسة في تفاصيل الاعلان في شركاتها ، وإنما يستهدف تقييم الجهود الاعلامية التي قامت بها ومدى

في اللحظة التي وطأت قلم « أرمسترونج »
 أول انسان أمريكي يهبط فوق القمر سطحه ،
 ترك العلم الحديث والتكنولوجيا بصماتهما عليه ،
 وأخرج الرائد لوحة عليها عبارة مختصرة لتكون
 دليلا على سلامة نية القادمين الى الكوكب ، وتصبح
 قولاً ماثورا يبقى مع آثار الامكانيات العلمية
 المتروكة ، وهي « لقد اتينا في سلام من اجل

ماذا جرى للحلم الأمريكي ؟

محمد علي بركات

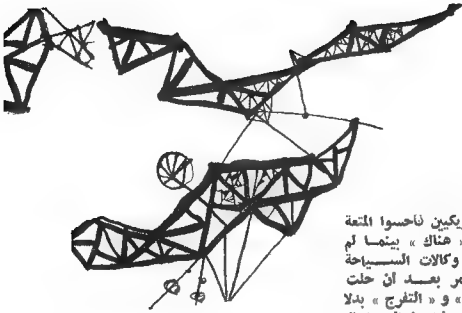
البشرية جمعاء » ، وذلك جريا مع العرف الأمريكي
 الذي اعتاد خلق الأقوال الموجزة المخصصة لتجربة
 كبيرة في الفاظ قليلة تبسّط الأمور ، ومن ثمة
 قال وهو يهم بالهبوط « انها خطوة قصيرة للانسان
 ووثبة عملاقة بالنسبة للبشرية » ، وبذلك رمزوا
 لتجاوز العلم والحكمة .

وكان ما حدث في حقيقته تحقيقا لأحد جوانب
 الحلم الأمريكي ، وكشفا عن طبيعة عصر
 التكنولوجيا الذي يعيا في ظله ، ويخضع لسلطانة
 المواطن الأمريكي .

ان حلم الأمريكي في الوصول الى القمر صادق ،
 وهو أحد التوقعات التي كان يتطلع اليها عبر
 المستقبل ، والتي نسجت خيوط الحلم العبر
 عن آمال لا حدود لها .

لقد أمكن رواد الفضاء أن يقوموا « بمغامرة »
 دون « مخاطرة » ، وحينما هبط رائد الفضاء
 فوق الكوكب ، كانت معهم وسائل التكيف
 والتأقلم والاهزة التي نشروها وسرعان ما صار
 المكان « متامرا » ، ونقلت شاشات التليفزيون





في صورة شاب قوى العضلات ممشوق القوام
جذاب الطلبة الخارجية ، خاو وسطحي الأعماق ،
يلهث وراء المال ، يرمز للمثل الزائفة المنهارة
التي طفت على القيسم الثميلة الصادقة وقامت
مجلها .

فاذا كان هذا تفسير « الحلم الأمريكي » عند
« ادوارد البي » ، فإن باحثا أمريكيا يقدم كتابا
يتضمن دراسة فاحصة يوقص فيها أغوار المجتمع
الأمريكي ، ليستخرج أسباب الخداع والزيف الذي
يسوده ، وعنوان كتابه « الصورة أو ماذا جرى
للحلم الأمريكي ؟ » .

والمؤلف يواجه بصراحة عيوب مجتمعه ، ويجهز
بمثالبه ، فتعنى في عرضه أنه « دواسة اعترافية »
يعبر فيها عن حقيقة حال شعب في جرة ونزاهة
ودون مواربة أو طمس حقيقة . ويمحص خداع
الذات الأمريكي ، وكيف يخلق رجال الصحافة
أخبارا لا وجود لها ، وتقدم السينما أبطالا
« مثيرين » ، وتعد وكالات السياحة مقامرات دون
مخاطرة ، وتضخم الإعلانات « اللاشي » لتجعل
منه « أي شيء » ويتحول التكرات الى أعلام
ومشاهير .

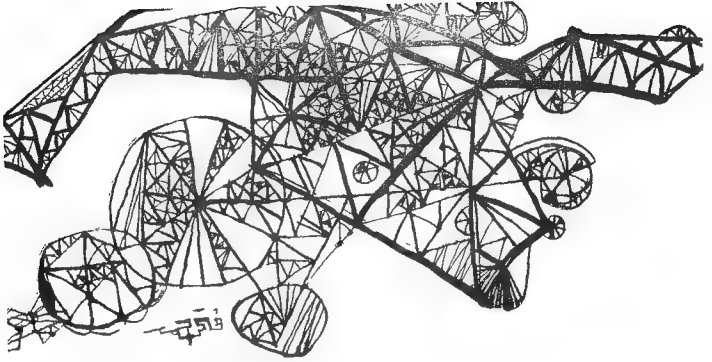
والكتاب تحليل من الداخل لعقلية المجتمع
الأمريكي التكنولوجية ، حيث يبذل المواطن طاقته
لتوفير الوسائل التي يبتدع بها ذاته ، ويشترك
في خلق « الصور » التي تكونها الصحف ،
والتليفزيون ، والسينما ، والإعلانات ، والكتب
المختصرة ، والمجلات المتخصصة وغيرها .

ومؤلف الكتاب دانييل ج. بورستين ، استاذ

البحث العلمي في جميع الأمريكيين نأحسوا المتعة
والسمعة لأنهم انتقلوا الى « هناك » بينما لم
يجزوا أماكنهم لزيارة القمر بعد أن حلت
« السياحة » محل « الرحلة » و « التفرج » بدلا
من « الاستكشاف » ، حيث يذهبون الى هناك
ويشاهدون ما توقعوا أن يشاهدونه ، وكانهم على
معرفة مسبقا بما سرون . وخرجت الصحف تحمل
أنباء الحدث في انفعال ، بعد أن دان على العالم
سكون ورتابة وخلو من الشيق المثري ، وطول ألف
لأخطار الأرض ومنازعاتها ، فتكفلت التكنولوجيا
الأمريكية بخلق الحدث الحرك للفضول والمثير
للانتباه ، والمفجر للحماس ، وخرجت « النيويورك
تايمز » بأكبر حروف لعناوينها منذ صدورهما
قبل ١١٨ عاما لتحمل نبأ هبوط الإنسان على
القمر . وحل « أومسترونج » في ذبوع الاسم
وانتشاره محل آخرين ، وبدا صنع للتبرة
أخرى مشهورة من المشاهير ليحل في المجتمع
الأمريكي محل البطل العظيم بالمعنى التقليدي ،
وعمت الفرحة الجميع لأنهم عاشوا هذا الحدث ،
ودخلوا « الصورة » فصار لهم حق المباهاة
والتفاخر بأنهم عاصروا هذه اللحظات ،

لكن ماذا وراء التكنولوجيا التي تحمل الإنسان
على اقتحام الفضاء والهبوط فوق القمر ؟ ما رد
فعل الإمكانيات الحديثة الوفيرة على عقل السواطن
الأمريكي ووجدانه ؟ هل تحققت آماله ؟ أشبعت
تطلعاته ؟ هل « الصورة » التي يعلم بها
اكتملت ؟ هل تحققت الحلم الأمريكي أم ماذا جرى
للحلم الأمريكي ؟ .

هذا التساؤل طرحه يوما « ادوارد البي » الذي
اتخذ منصة يضع فوقها أمراض المجتمع الأمريكي
ويسلط عليها قلمه ليظهر التسلخ والتهافت ، فإلى
مسرحيته « الحلم الأمريكي » يتناول بعض جوانب
الحلم الأمريكي الخادع ليعين الانقسام الفكري ،
والانشطار الوجداني ، ويستخر من المثل العاطفية
الكاذبة في الأسرة الأمريكية ، ويجسد الحلم الأمريكي



الكاتب ، ولكنها واجب القارئ ، وإذا لم يستطع أن يزِيل بعض الضباب ، فإنه ربما استطاع مساعدة القارئ على كشف طريقه بنفسه ورؤية المنظر ليشق طريقه الذي يختاره .

آمال جسعة

إن المجتمع الذي يترك أطعامه تمتد دون حدود ويتطلع إلى المستحيلات ، يفتي به الأمر إلى تضخيم آماله ، واستفحال تطلعاته ، ومن ثمه يندفع في تهور سعيه وراء أشباع الطامع ، ويسوده الخداع والوهم الذي يتواطأ الجميع على اغماض الطرف عنه ، والمؤلف يعترف بذلك حينما يقول « اننى اصف علما من صنعتنا ، وكيف استفدنا من ثروتنا ، وورثتنا ، وتكنولوجيا ، وتقدمنا ، في خلق الاباطيل التي ساقنسا الى خداع انفسنا بشتى الوسائل ، التي تساعد على نمو اوهامنا الثابتة من آمالنا الجسعة والسرفة التي تتجاوز حدود العقل والاعتدال . اننا نتوقع أن نجد أشياء كثيرة في العالم ، نريد أن نتوقع بالأخبار لحظة بلحظة ، من الجرائد في الصباح ، والراديو في سيارتنا ومكاتبنا ، وأن يكون بيتنا مأوى للندى والراحة والاستمتاع بالموسيقى والهوايات . نريد أن يكون المكان الذي نرحل اليه بعيدا عن وطننا « متأمرا » ، ونرى أبطالنا كل موسم ، وتلفه أدبية كل شهر ، وعرضنا دراميا كل أسبوع ، ونأمل أن تكون أثرياء وأقوياء ورحماء ومتناحرين ، وتاكل بشراسة ، وتحافظ

التاريخ الأمريكي في جامعة شيكاغو ، وشغل عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ منصب أستاذ كرسى مادة التاريخ الأمريكي بالسوربون . وعمل محررا في المعارف البريطانية ، ويشرف على نشره « تاريخ الخسارة الأمريكية » ، وحصل على جائزة « نانكروفت » مؤلفه « أمريكا وتجربة الاستعمار » ، وله مصنفات هامة مثل « قانون العلم الفاض » ، و « عالم توماس جيفرسون المفقود » ، وغيرها ، وكلها أثارت الجدل عند صدورها . وهيات له زيارته لمختلف الدول أن يصطبغ فكره بالعالمية ورايه بالموضوعية التي مكنته أن يقف من أمريكا موقفا غير متحيز .

والمؤلف يبحث عن جلور الاباطيل التي تصمم المجتمع ، ويحلل أنواع الزيف والخداع التي تقدم للمواطن الأمريكي ملبية وغباته ، ومشبعة تطلعاته ويحدد موضوع كتابه ومقصده ، انه « خداع الذات ، وكيف نؤايد الحقيقة عن انفسنا ، اننى لست في حاجة لأن أكون طبيبا لأعرف أن شخصا ما مريض ، ولكننى أعرف حالة الوهم عند عرضها أمامي ، وأميز الصورة الزائفة حينما أراها » .

فالكتاب محاولة لكشف الخداع والغش ، وتحليل أخلاق المواطن الأمريكي الذي يرى العالم من خلال انعكاسات مرايا الأجهزة الإعلامية التي تخلق « الصورة » وتمسخ « الحقيقة » .

إن عملية افساد مفعول السحر ليست مهمة

الفنون فيما يطلق عليها للؤلأ ، والتي شملت الرسم والنحت والتصوير والطباعة والنشر ، وظهرت مخترعات هامة مثل التليفون (١٨٧٦) والفونوغراف (١٨٧٧) وبكرة الفيلم (١٨٨٨) وكاميرا كوداك (١٨٨٨) والراديو (١٩٠٠) ، وازدياد أهمية التليفزيون تجاريا عام ١٩٤١ ، فرضت الحوادث المزيفة أهميتها ، وتحوّل النقاط وجمع الأخبار إلى صناعتها ، حتى يمكن أن تستمر هذه الأجهزة مع تطورها في عمل مستمر .

وإذا كان « ابراهام لنكولن » قال : « يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت ، وتخدع بعض الناس كل الوقت ، إلا أنك لن تستطع أن تخدع كل الناس كل الوقت » ، فإن المواطن الأمريكي يعيش في عالم احيال فيه أكثر من الحقيقة ، والصور أكثر من الواقع ، بحيث أصبح من المعتاد عليه التمييز بين الحقيقة والمزيف الذي يعيش فيه كل المواطنين كل الوقت .

من الأبطال إلى المشاهير

ونتيجة للبهتان والتضليل الذي يسمى اليه المواطن الأمريكي امتدت صناعة المزيف واتّخذت إلى عالم البطولة والشهرة . وإذا كان « شكسبير » قسم عظماء الرجال إلى ثلاث أنواع الذين ولدوا عظماء ، والذين يكتشفون العظمة ، والذين تهبط عليهم العظمة ، فإنه لم يذكر الذين يستاجرون خيـراء العلاقات العامة ، والسكرتيرين الصحفيين ليظهروهم في مظهر العظمة . وهذا يرجع إلى القدرة على احباط الانسان بهالة الشهرة ، بعد أن مضى الوقت الذي كانت فيه الشهرة تعني العظمة ، ولم يكن الرجل يصير مشهورا إلا إذا تعلّى ببعض الصفات البطولية من شجاعة وبلى وقدر على اتيان الاعمال العظيمة ، وكانت الشهرة تتحقق ببطله ، ولكن في أمريكا اليوم يمكن الفرد أن يصير مشهورا بين يوم وليلة ، عن طريق « فبركة » الشهرة التي يساعد على نشرها التلفزيون ، والسينما ، والإذاعة والمصحف . وإذا كان في الإمكان اضفاء الشهرة على أي رجل أو امرأة ، إلا أنه لا يمكن عدمهم من العظمة ، إذ يمكن صناعة الشهرة ، ولا يمكن صناعة الأبطال لأنهم يصنعون أنفسهم .

والإنسان الذي يبلغ الشهرة يجد هوى في نفس المواطن الأمريكي لأنه يرغب في القراءة عنه ، ومشاهدته في التلفزيون ، والاستماع إلى صوته . وهكذا بعد أن كان البطل يتميز بانجازاته ،

على وشاقتنا ، وننعم بالعزلة بين جيراننا . أن آمالنا تجمع بين التناقضات والمستحيلات ، وتسوفنا إلى طلب الوهم الذي يؤدي إلى خداع أنفسنا ، وندفع الآخرين كي يخدعونا . وأصبحت صناعة الأوهام « مهنة » أمريكية من أعظم الأعمال احتراما . أنا نعيش أوهامنا التي ألفناها وأصبحت هي الحقيقة ، إنها عالمنا الذي صنعناه ، إنه عالم من « الصور » التي حلت محل « الحقيقة » .

أحداث مزيفة

في عرض المؤلف لأنواع الأوهام التي يعيشها المجتمع الأمريكي ، والتي تشكل « الصور » التي تغطي الحلم الأمريكي ، يتساءل الحوادث المزيفة التي ترتبت على الانتقال من انتقال الأخبار وجمعها إلى صناعتها . فقد انقضى الزمن الذي كان فيه قارئ الصحيفة يعبر عن سخطه وضيقة إذا لم يجد فيها جديدا بقوله « كم هو عالم سخيف وممل اليوم ! » ، وأصبح يقول : « يا لها من صحيفة سخيفة ومملة ! » . وبعد أن كان المسئول عن وجود الأخبار القدر أو الشيطان ، أصبح المسئول عن اضفاء الآثارة والتسلية على العالم هو الصحفي فإذا لم تكن هناك أخبار بالفعل ، كان على الصحفي أن يصنعها . وصناعة الحوادث المزيفة تشغل مكانة هامة في تقديرات الأوهام ، حتى يصير العالم أكثر ملامة ، وعلى الصحفي ألا ينتظر الظروف المواتية ولكن واجبه خلقها .

وصناعة الحوادث المزيفة تدخلت في أكثر الأمور اعتمادا على التلقائية كتقل الاستقبالات الشعبية للقادة والزعماء بالتلفزيون ، إذ يصاحب الكاميرا أخصائيون في إثارة التفاعلات الجماهير ، وتنفق الكاميرات في أماكن متعددة ، حتى تنقل اللقطات « الدرامية » المشحونة بالحماس والحركة والصياح ، وهي تكون غالباً تعبيرات صادرة من جمهور يركز اهتمامه على الكاميرا ذاتها حتى يظهروا على شاشة التلفزيون ، وسرعان ما يعودون مهسولين إلى بيوتهم حتى يشاهدوا أنفسهم ، وهكذا يستترك المواطن نفسه في صناعة الحوادث المزيفة التي تمتعه أكثر من مشاهدة الواقع الذي يتعارض مع ما يتوقعه فالمواطن لم يعد في حاجة إلى أن يكون مثيلاً محترفاً كي يرى نفسه في مشهد غوغائي ، أنها ليست غوغاية ، بل يخطط لها وتعد لتتحول إلى مادة صحفية ، ويقاس نجاحها بمدى اهتمام الصحافة والناس بها ، وهي غامضة لا تعطى تفسيراً كاملاً لكل شيء . ومع ظهور الثورة في

صار المشهور يتميز بصوته أو علامته التجارية •
فالبطل انسان عظيم ، والمشهور اسم كبير ،
والمشهور اليوم يولد فوق الصحف ، وهي التي
تقتله وتقتض عليه ، بينما موت البطل يحقق له
الخلود ، ويصير أكثر حياة فوق صفحات الزمن ،
والمشهور يمكن أن يتحول في حياته الى شيء من
الماضي ويخمد اسمه بسرعة ليظهر محله عسند
كبير من المشاهير •

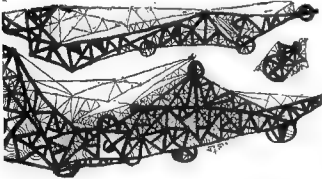
من الرحلة الى السياحة

ثم ينتقل المؤلف الى تحليل اثر التطورات
التكنولوجية على مفهوم «المغامرة» و « الرحلة » ،
فيقول : لقد حسبنا أن التكنولوجيا ستقذفنا
من الملل والرتابة ، وتصورنا أنه بفضل الآلات
الحديثة سيمكننا أن نطوف العالم في رحلات •
ولكن كلمة « مغامرة » التي كانت مقترنة برغبة
الانسان في رؤيته للأشياء لأول مرة ، واكتشافها
ومشاهدة ما هو غير مألوف ، وحرية اختيار
الاماكن ، أصبحت فارغة من مدلولها الأصلي ،
فالمغامرة تتم وفق خطة تخلو من المصادفات
والمخاطر • ان كثيرا من الامريكين يرحلون خارج
اوطانهم ، ولكن رحلاتهم أكثر التصاقا بوطنهم ،
ذلك أن كل ما تقدمه لهم وكالات السياحة يقوم
على الحوادث المزيفة التي تهوى للمواطن الامريكي
مشاهدة اشياء غريبة ، ومألوفة في وقت واحد ،
ويعيش مخاطر دون أخطار حقيقية وفعلية ،
ويجد الراحة التي يلقيها في بيته تنتظره في
ادغال افريقيا •

ان المواطن الامريكي يطلب رؤية عالم قد اعد
على مسرح مجموعة من الحوادث المزيفة • لقد
كان الرحالة فيما مضى إيجابيا يتعرض له أخطار
حقيقية ، ومواجهته المصاعب ، وصراعه اليقظ
للتغلب عليها ، واليوم أصبح سلبيا وتحول الى
مجرد مشاهد ، وابتعد عن الأخطار والمصادفات
التي تعكر صفوه وتقضي على الجهد ، وتحمل
القليل من المشقة ، وانهار عصر « الرحلة » لينبأ
عصر « السياحة » • والسائح يقوم برحلته
لللمعة ، والرحالة يشغل شيء ما يتكبد في سبيله
المتاعب • واليوم تقدم كافة التيسيرات للقيام
بالسياحات منذ أن قام « توماس كوك » (١٨٠٨ -
١٨٩٢) في الأربعينات من القرن التاسع عشر
بتنظيم أول سياحة جماعية • وفي الغالب
يشاهد السائح أماكن لا تعنيه ، لمجرد أن وكالات
السياحة ضمنتها برامجهما أشهرها ، وانعلمت
الأخطار في الرحلات • وكان الرحالة يلتقي

بالمواطنين ، فأصبحت مهمة الوكيل السياحي
أن يحول دون ذلك • ولم يعد السائح الامريكي
يواجه أية متاعب ، أو يلقى مشاقا ، فحيثما
يحل يجد نفسه في فندق سياحي يتوفر فيه كل
الوسائل المرفهة ، ولذا فانه مهمتها تعددت الفنادق
التي ينزل بها فكلها على الطراز الامريكي الحديث
سواء اكان في الكاريبي هيلتون أو استنبول
هيلتون ، فكلها لا يمكن التمييز بينها من حيث
التصميم الداخلي ، كانك في شركة خطوط جوية
أمريكية ، ما عدا المناظر التي تروها من النوافذ ،
والتي لولاها لا عرفت أين أنت •

وتقوم الشركات السياحية « بلبسركة »
الأخطار ، وتصميمها ، وتخطيطها ، وجعلها شيئا
حيا يعاش ، ويقبل التصديق ، وبذلك تلعب
الحوادث المزيفة دورها في طرد التلقائية ، والقفوة
وتوفر الأخطار في سلام ، والمتاعب في أمان ،
ثم تلتقط الصور التي تعبر عما توقع السائح
الامريكي مشاهداته ، ولذا فكانه ينظر في المرآة ،
ويرى نفسه ، وصارت السياحة تحصيل حاصل



ذوبان الأشكال الأدبية

ان المجتمع الامريكي يسوده احساس بالقدرة
على سيادة عالم من طبع ، يسهل تشكيله وفق
الأرادة ، وحسب مشيئته ، ويمكن صبه في
القالب المحقق للأشكال الجشعة ، والتطلعات النهم •

والمؤلف يكشف عن التغيرات التي ترتبت على
هذا الوهم • ف يرى أن الجهود اتجهت في أول الأمر
الى جعل الفن والأدب في متناول ادراك العامة ،
حتى يمكن لمن لا يعرف اللغات القديمة أن يعثر
على المؤلفات المبسطة التي تعينه على القراءة ،
فظهرت قصص هـ تشكسبير عام ١٨٠٧ من اعداد
تشارلس لامب ومادى لامب ، وقدم توماس
بودلي عام ١٨١٨ عشر مجلدات لأعمال تشكسبير
لتقرأ في وسط العائلة بصوت مرتفع ، ثم «لتحلل



اصطناع حوادث الزيف، إذ كانت الريدزديجست تطلب من بعض الكتاب نشر مقالات معينة في المجلات، ثم تقوم بتليخيصها كمادة سبق نشرها، ومن ثمة انتفت العنوية في الموضوعات التي تكتب، وتواترت التلقائية في اختيار المادة، وأصبح الأمر يعتمد على المقالات المزيفة.

والمختصرات تقدم للقارئ - في الغالب - الأفكار الأساسية دون الاهتمام بالقضايا أو الشكل، وبالتالي تعرض الأعمال الأدبية بطريقة غير أدبية وأففي ما يعرض في مجلات المختصرات والمخلصات إلى نوع من التلاشي والتلويح للأشكال والقوالب الأدبية التي تصاغ فيها الأفكار، كما افتقدت المهارة الأدبية في أعمال العلماء كما عهدناها في أعمال دارون ووليم جيمس وفرويد. ثم أصبح التلخيص مشكلة نظراً لزيادة عدد الكتب الموضوعات المطلوب تلخيصها، وتضخم عدد الكتب التي تصدر، ولذا اخترع هـ. بيتر - لوهرن جهازاً حاسباً «للتلخيص الذاتي»، يقوم بتحليل احصائي للمعاني التي يحتويها المقال أو الكتاب، ويحذف الكلمات الزائدة «إذ» و«ولكن»، وبعد ذلك يقوم بجمع الجمل ذات المعاني المركزة وبالتالي يتم التلخيص الذاتي. ولما كانت الترجمة لها أهميتها، وكثير من الأعمال تكتب بلغات مختلفة ولها قيمتها، فقد اُحِق بجهاز التلخيص

وسقوط الامبراطورية الرومانية «جييون في صورة مبسطة».

واشتقت من اسم Bowdler كلمة Bowdlerize بمعنى التهذيب في النصوص، وحذف الصعب، واستبعاد ما لا يليق.

وامتد الاتجاه نحو نشر الأعمال الأدبية وجعلها شعبية إلى الأعمال الفنية.

وأدى التنافس بين المجلات مع تطور الطباعة إلى نشر السلسلات الروائية بها، ثم صدرت في ملاحق خاصة، وصار في الأماكن بملارات قليلة شراء اللوحات الفنية، واقتناء نماذج معدنية، وبلاستيكية لقطع مصرية أثرية و«مائية» ومكنت الثورة في الفنون من الانتاج بالجملة للأعمال المقلدة والفرق بين التقليد والأصل في السعر، ولا يمكن تبينه إلا لعن الحبير، وقيمة العمل في مدى انتشاره والاقبال عليه، وتيسير اقتنائه.

ولم تكن الرواية الإنجليزية حتى القرن الثامن عشر ذات شعبية، أو واسعة الانتشار، ولم يكن من التيسر الحصول عليها إلا بأسعار غالية، ولطيفة معينة، ونقل أحداث الروايات بمشاهدتها ومعاركها على المسرح أو السينما كان متعذراً.

ولكن كاميرا السينما حظمت العليات التي فرضت على الأعمال الروائية أن تظل حبيسة الوق، ملتصقة بالحروف، ومصاد للسينما مكاتها في نقل المشاهد الفخمة منذ أن قدم «جراييت» الفيلم السينمائي «ميلاد أمة» (١٩١٥) الذي جلب الملايين، وعقب الرئيس «ويلسون» على الفيلم بعد مشاهدته عرضه في البيت الأبيض بقوله: «إنه مثل كتابة للتاريخ بالأضواء».

ومنذ ذلك الحين أمكن نقل كثير من الروايات ذات القيمة الأدبية إلى السينما، كما يسر المسرح والتلفزيون مشاهدة روائع الأعمال الأدبية، وانتشارها.

وأدى «الابجاز» و«التلخيص» الذي كان يعتبر يوماً ما شكلاً أدبياً رفيعاً إلى وواج المختصرات والمخلصات الشعبية لأعمال كبار الكتاب والأدباء.

وشعر المواطن الأمريكي مع كثرة عدد المجلات وازدياد عدد الكتب التي تنشر، بحاجة إلى تلخيص ثقافة العالم وأفكاره وأحداثه، وتدأقت المختصرات والمخلصات مع تأسيس «الريدزديجست» عام ١٩٢٢ وأصبحت أوسع المجلات انتشاراً لاعتمادها على المخلصات التي هي مورد الأصول. ولم تغل المختصرات من

هو فرق بين تفكيرنا قبل وبعد الثورة في الفنون والمثل تتعارض مع الصور ، ويصعب تصديقها ، أما الصور فتقد على قدنا لتكون وسائل لنا فيها مأرب .

وخلال القرن العشرين ظهرت الصور واضمحلت المثل ، تلك الصور التي كونتها الصحافة ، والإذاعة والتلفزيون ، والسينما ، والمختصات ، وساعد على انتشارها وفرة الاعلانات في الطرقات والميادين الواسعة حيث تخطف الأبصار وتصيب في وعى الانسان .

اننا لا نجرو على الاعتراف باننا نخدع أنفسنا ولذا نبحت عن تهمة بخداعنا وغشانا .

والاعلانات في تاريخ أمريكا نوع من الحوادث المزيلة ، فيها أن كان الإعلان يعتمد على التلقائية صار يعتمد على صناعة الأخبار ، وتميزت الاعلانات الناجحة بأنها ذات صيغة اخبارية .

اننا نسعى الى صناعة اشياء كاذبة لتبدو حقيقية . انه في اخفاء الحقيقة واختراع الزيف ، وابتكار وسائل جديدة للخداع ، والجهود تبذل لجعل الحلم الأمريكي وبها وليس حقيقة . ورجال الاعلانات المهرة يصنعون وهمنا ، ثم يجعلونه يأخذ صورة الحقيقة .

فالثورة في الفنون ساوت بين الاعلانات ، وخلق الاخبار ، وصناعة المشاهير ، ووكالات السياحة ، وافلام السينما .

ونؤمن بان ما يقنمه المعلن هو الحقيقة ، وهو يجيد تكتيك النبوءة التي تحقق المطامع الدائمة ، ونقرأ الإعلان لتزويد رغبتنا ونكتشف ما نريده وكما لا نعرفه على وجه التحديد .

ومع السعي نحو تلبية الرغبات والاحتياجات زادت الصور ، ودفعنا الى الاهتمام بالرأى العام واتجاهاته .

ويؤرخ لكلمة الرأى العام بنهاية القرن التاسع عشر عندما استخدمها « جيلرسون » ولكن ما نشر على أنه رأى عام في الواقع لا يعبر عن رأى كل فرد ، ولكنه بعض السمات ، التي يؤخذ بها لتدل على الحقيقة .

وفي كتاب «الرأى العام» (١٩٧٢) « لوكاز ليمان » تعريف للرأى العام يوضح الأمر عندما يقول : « ان الصور داخل عقول الناس ، صور أنفسهم ، وصور الآخرين ، وصور احتياجاتهم ، واهدافهم ، وعلاقاتهم ، كل هذه تشكل الرأى العام . هذه الصور تفرض سيطرتها جماعة من الناس ، أو فرد يمثل الجماعة » .

الداتي جهاز آخر هو « جهاز الترجمة الداتية » ومهمته أن ينقل من اللغات المتعددة الى الانجليزية وان كانت انجليزية رديئة تذهب ببلغة اللغات الأخرى ، الا انها تعبر عن المعنى وتؤديه . واصبح لا يهم القارى ، أيضا قراءة الروايات مطبوعة ما دامت تعرضها السينما ، وهذه الروايات تشد المتأرجح لأنها تستمد نجاحها من نجوم الافلام ، وشهرتهم التي تقوم على ذبوع الاسم وشعبيته . وليس على المهارة في التمثيل ، والمتنجون ينفقون بسخاء على « صورة » النجم لتظل محتفظة بجاذبيتها وهذا يدفعهم الى استغلال نجومهم الى ابط مدى ، واصبح التركيز على شهرة المثل لا على قيمة عمله أو اجادته ، وشمل ذلك التقييم عالم الكتب فالقارى يبحث عن الكتاب المشهور الذي تضمنه قائمة الكتاب الطائر أو احسن الكتب رواجاً « ست سيلر » ، وهذا الكتاب ينشر في هذه القائمة لا لقيمته الجمالية أو الاخلاقية . وهنا يظهر دور الحوادث المزيفة ، أذ يلجأ الناشر الى تخفيض سعر الكتاب عند صدوره في طبعة الأولى ، وبيعته بخسارة ، حتى يكتب له الرواج والانتشار ، وبالتالي الشهرة ، فاذا تحققت اقبل عليه القراء ليتباهوا بانهم حصلوا على هذا الكتاب .

ولم تسلم الموسيقى من التزييف الذي ساد الفنون ، فيعد أن كان المستمع يجد لذة في الاستماع الى الموسيقى من فرقة موسيقية يقودها الموسيقار العظيم ، طارت اجهزة التسجيل تؤدي المهمة ، وامكن تسجيل القطعة الواحدة على فترات واختيار المناسب من التسجيلات ثم توصل بعض مكوناتها الموسيقية واصبح عدد الذين يشترون التسجيلات الموسيقية اضعاف الذين يشترون الكراسات الموسيقية المطبوعة .

من المثل الى الصور

وبعد أن يستعرض المؤلف وهم المجتمع الأمريكي وخداعه في كسوته على « فبركة » الخبرات والأخبار والمشاهير ، والمغامرات ، والاشكال الفنية والأدبية يقول « ان القيم التي هي اخلاق المجتمع خلت من المضمون ، فالمثل التي صدرها التقليد ، والعقل والله ، حلت محلها «الصور» كما حلت «المختصرات» محل «الأصول» . تلك الصور المركبة ، والتي يتخطى لها لتخدم غرضاً معيناً ، صارت مصدقة لدى كل شخص ، وحقيقة لأنها عامة ، وترضى من يحاول أن ينسجم معها . و « الصورة » هي مصدرها اللاتيني مشتقة من « التقليد » و « المثل » من « الفكر » ، وهي تصور شيئاً في اكمل حالاته والفرق بين التفكير في المثل ، والتفكير في الصورة

أنفسنا ، لأننا اعتدنا أن نعيش في عالم من الحوادث المزيفة .

اننا نعيش في عالم من صنعنا ، ونريد أن يعيش الآخرون في عالمنا اننا نعيش في عالم تعدد حدوده حواف من المرايا التي تعكس صورتنا . اننا نبحث عن المشاهير بين الرجال والنساء ، وكذلك بين الكتب والمسرحيات والأفلام ، وكل خبراتنا مصدرها القراءات المختصرة ، حيث نقرا فقط ما نريد أن نقرأه نحن ، وليس ما يريد أي شخص أن يكتبه .

اننا نعانى من « الترجسية الاجتماعية » التي أوقعنا في حب « صور » ذواتنا ، وهي من صنعنا ، وصار عالمنا مجرد مرآيا عاكسة والصور أصبحت انعكاسات ظلال مرآيا ، وكلها تشكلها الروايات ، والتلفزيون ، والأذاعة ، والكتب الفكهة ، والطريقة التي تصور بها أنفسنا عبارة عن استجابات لانعكاسات المرايا .

وفي ختام الكتاب يحاول المؤلف أن يكشف الطريق الذي يخلص المجتمع الأمريكي من أوهامه وإباطيله ، ويقرر أن الحل هو الوهمية أن تستطيع أن تشفى وتعالج أوهامنا . ولكن على منا أن يؤاخذ نفسه ، ويطلق سراجه من قيود الأوهام ، لأننا نشترك الآخرين في صناعة الوهم الذي نخضع به أنفسنا . ومن الخطأ علاج الأوهام باخلائها ، وعلاج أمراض الاعلانات بابتكار مزيد منها ، ويجب أن يتوقف المواطن الأمريكي، وبعد نفسه لاستقبال رأى العالم فينا ، إذ أن هناك علما خارج عالمنا ، كما يجب ألا يستغرقنا الانشغال بتصدير الصور الأمريكية، وإغراء الآخرين لمشاركتنا أوهامنا التي من بينها وهما بالايمان في العلاج بينما لا يوجد علاج ، بل فرص للشفا ، وعلينا أن نستيقظ قبل أن نسير في الاتجاه الخطأ ، ونكشف أوهامنا قبل أن نستيقن من أننا كنا نسير نياما . والأهم أن نؤمن بقدرة كل منا على أن يخترق غاية الصور الكشيفة التي تمارس فيها حياتنا اليومية . ومن ثمة يمكننا أن نكتشف أين تنتهي الأحلام ، وأين تبدأ الأوهام .

تري هل يمكن أن يخرج المجتمع الأمريكي من الكهف الذي حفره لنفسه ، وأصبح لا يرى فيه من معالم العالم الخارجى الا الظلال ، ومن نفسه الا الصور ، هل يمكن أن يحطم الاصنام التي صنعها يديه ، ثم آمن بها ، فعبدها ، واتبعها لأنها تهب القوة اللامتناهية الموهومة ؟

محمد علي بركات

والصحافة تروج لحلق الصور التي تقول عنها فيما بعد انها الرأى العام . وبالتالي صار الرأى العام نوعا من الحوادث « المفتركة » يدفع بها إلى الوجود ، حتى تكتب عنها التقارير . وإذا لم يكن هناك رأى تلقائي ، فإن المسئولين يصنعون الآراء ، حتى يكتب عنها المتابعون لاتجاهات الرأى العام ، فالرأى العام أصبح المادة التي تعد سلفا لتسرى بين الناس ، وبذلك تكون كمن ينظرون إلى أنفسهم في المرايا .

من الحلم إلى الوهم
ثم يتساءل المؤلف ، أمكتوب علينا أن نحول أحلامنا إلى أوهام ؟ وفي اجابته يقرر أن الحلم رؤيا أو الأهم يمكن مقارنته بالواقع . والأحلام التي تكون عادة مشرقة ، ونضرة ، تنبئنا أن الواقع مقارب للأحلام . وكانت أمريكا أرضا « للأحلام ، حيث رحل إليها كل حالم بالثروة ، والملكية والارستقراطية وحرية الرأى ، ثم حاولوا أن يحولوا الحلم إلى حقيقة .

ولكننا فوجئنا باننا مهددون بخطر احلال الوهم الأمريكي محل الحلم الأمريكي ، والصور محل المثل . ونحن أكثر الشعوب وهما في العالم ، ولا نجرؤ على العيش دون أوهام ، لأنها تبثنا إلى نعيش فيه ، وهي اخبارنا ، وإبطالنا ، ومشاهيرنا وأشكالنا الفنية ، وخبرتنا .

اننا نعيش بالصور ، بينما تعيش الشعوب بالمعتقدات ، ومع ذلك نريد أن نسقط صورنا على العالم .

لقد أصبحنا مشغولين بخلق « الصور » المحبوبة والرغوبة والمقبولة ، لأمريكا ، ونحاول نشرها خارج امتنا ، بشرائنا ، وتكنولوجيايتنا ، وكلماتنا والأقلام الجديدة ، ورغم ما يبذل لنشر الصور المشرقة فإن النتيجة تأتي عكسية ، ولذا يجب علينا أن نشاطر الآخرين البحث عن أمريكا .

وهنا أهم المقبات التي تخول دون ذلك ، إيماننا المسرف بنفوذنا ، وسلطاننا ، وسطوتنا ، وهيبتنا التي نبذل الجهد للمحافظة عليها ، ونأمل من العالم أن تجذبه صورتنا ، وأن « تزعغل » عيون أبنائه الشعوب الأخرى .

وتجاوزت كلمة « الهيبة » حدود معناها ، وفي أصلها اللاتنى تعنى الوهم والتماع ، والشخص ذو الهيبة عادة لديه نوع من الافتتان بذاته ؛ ويكون في حالة عماء ، و « زغلة » بصورته . وحديثنا عن هيبتنا في الخارج ، حديث عن أنفسنا ، وجاذبية صورتنا ، واختلطت الصورة بالحقيلة . اننا نحاول اصلاح الصورة بدلا من

روزا لوكسمبورج

وحركة الفكر الاشتراكي

سمى الربرع خطاب

في مثل هذا العام منذ خمسين عاما ، أي في سنة ١٩١٩ ، لقيت روزا لوكسمبورج مصرعها في طرقات برلين برصاصات غادرة من بعض الضباط الألمان الرجعيين . ويقول المؤرخ الاشتراكي الكبير ج. هـ. كول في تعقيبه على هذا الحدث : « كان لقتلها وقع مؤلم في جميع أنحاء أوروبا ، وتحدث الناس عنه باعتباره عملا فظيحا » . وقيل ذلك مباشرة يقول : « كانت روزا لوكسمبورج مخلصه باستمرار « للثورة » وعاشت من أجلها ، وفي ألمانيا كانت هي القوة الفكرية الكبرى الوحيدة في الجانب الثوري ، وكذلك كانت الشخصية النبوية الكبيرة الوحيدة في الجيل الشاب من الاشتراكيين ، وإلى جانب تفوقها السياسي والاقتصادي كانت أيضا امرأة لها اهتمامات ثقافية واسعة وعميقة » . وهو بعد هذا يقيّمها بوجه عام فيقول : « إن روزا لوكسمبورج من بين جميع الاشتراكيين الثوريين هي وحدها التي يمكن مقارنتها بلينين » (تاريخ الحركة الاشتراكية ، مجلد ٣ ، ص ١٦٧) .

كذلك فإن لينين ، الذي وقع في خلاف حاد معها في وقت من الأوقات ، قد وصف حادث اغتيالها ، في خطابه أمام المؤتمر الأول للدولة الشيوعية في مارس ١٩١٩ ، بأنه « حدث تاريخي عالمي الأهمية » ووصفها ، هي والاشتراكي الألماني الشهير كارل لينبخت الذي اغتيل معها ، بأنهما « زعيما الدولة الشيوعية البروليتارية بحق ، وخير ممثليها » (مختارات لينين مجلد ٣ ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج قد قامت بدورها الثوري الحاسم ، وجولاتها الفكرية الكبرى ، في ألمانيا ، ولقيت مصرعها في هذه البلاد ، إلا أنها لم تكن ألمانية الأصل ، فقد كانت بولندية هي موطنها الأصل ، وهي التي شهنت بأكورة نشاطها الاشتراكي ، كما ظلت تستقبله باستمرار بعد نزوحها عنها ؛ ومن ثم فعلينا أن ندخل إلى تاريخها من خلال بولندا ، أو بالأصح ، من خلال الحركة الاشتراكية البولندية .

اشتراكي يمثلها ويقود كفاحها ، ولكنه اضطر الى الفرار الى الخارج لمحاربة السلطات القضاة القبض عليه ، ثم عاد الى وارسو ، سنة ١٨٨١ ، ليؤسس هناك منظمة اشتراكية تحت اسم « بوليتاريا » ، مقبلا أسلوبها في الكفاح ضد النظام الاجتماعي القائم على دفع العمال باستمرار الى القيام بالاضرابات ، واثارة القلاقل من كل نوع في مختلف مؤسسات هذا النظام ، مما يؤدي الى خلعته وانهاية في النهاية ٠٠ وكان في ذلك مخالفا أسلوب المنظمة الروسية الثورية المشهورة « نارودنايا فوليا - ارادة الشعب » ، التي كان على صلة وثيقة بها ، وهو أسلوب الاغتيال والارهاب ٠ ولكنه لم يلبث حتى قبض عليه ، سنة ١٨٨٣ ، ثم مات في السجن بعد ست سنوات من هذا التاريخ ٠

وقد تمكنت السلطات الروسية ، في سنة ١٨٨٥ ، من تسديد ضربه فاصحة الى هذه المنظمة ، لم تنف منها الا بعد ثلاث سنوات ، حين عادت من جديد تزاول نشاطها في اثاره العمال والتخريض على الشعب والاضرابات ، على ان المنظمة قد شهدت في سنتي مجنتها هذه ، وبالتحديد في سنة ١٨٨٦ ، حدثا كبيرا ، وان لم تشعرب به في ساعتها ، وذلك هو انقسام فتاة في سن السادسة عشرة الى صفوفها ، كان اسمها روزا لوكسمبورج ٠



كانت فتاة جمة النشاط ، مشتتة الحماس للقضية الاشتراكية ، فباشرت عملها على الفور كعضو عامل في المنظمة ، وفامت بدور كبير في احياء نشاطها ، الى حد ان صدرت اذام السلطات بالقبض عليها ، فطرت الى سويسرا ، سنة ١٨٨٩ ، واستقرت في مدينة زيورخ للدراسة في جامعتها . وهناك تعرفت الى عدد من الزعماء الاشتراكيين الروس ، من بينهم جورجي بليخانوف (١٨٥٦ - ١٩١٨) ، الذي اخذت على يديه المذهب الماركسي وصارت من اشد المؤمنين به ، كما التقت ايضا برفيقي كفاحها المستقبل الاشتراكيين البولنديين ليوبو جيشس وادولف وارسكي ٠

وعندما تم بولندا ، سنة ١٨٩٢ ، اندماج القوى الاشتراكية ، بما فيها منظمة بوليتاريا ، في تنظيم واحد تحت اسم « الحزب الاشتراكي البولندي » بزعامة يوجينيس وارسكي ، فوض

كانت بولندا حتى الحرب العالمية الاولى مقسمة الى ثلاثة اجزاء خاضعة لثلاث دول كبرى: مملكة بولندا وتخضع للحكم الروسي ، واقلية بوزان ويخضع للحكم الالماني ، واقلية غاليسيا ويتبع الامبراطورية النمساوية المجرية ، الا ان مملكة بولندا كانت كبرى الاجزاء وأدلهها على الوطن البولندي - وسنذكرها في هذا الحديث باسم بولندا مجردا ، مع ذكر الاقليمين الآخرين باسمائهما السالفة ، كما كان المتبع في ذلك الوقت ٠

ولم يكن للاشتراكية ، كحركة منظمة ، وجود داخل بولندا حتى السبعينات من القرن الماضي ، فقبل ذلك كان الاشتراكيون فيها قد مبعثرة فرادى او جماعات صغيرة وليس لها من النشاط أو الأثر ، سواء في ميدان الحياة العامة أو في مجال العمل الثوري ، مما يستوقف النظر ، كما لم يكن للأفكار الاشتراكية من النفوذ في الأوساط الفكرية البولندية سوى الشيء القليل الصادر عن المفكرين الاشتراكيين اليوتوبيين ، خاصة الفرنسي شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧) ، الذي تأثر به كثيرا يواكيم لويل (١٨١٦-١٨٦١) ، أبرز دعاة الاشتراكية في بولندا فيما قبل السبعينات ، والذي نفر من بولندا سنة ١٨٣١ ، وأنفق عمره دون أن يتمكن من تأسيس حركة اشتراكية بها ، رغم نشاطه الوافر في منفاه ببلجيكا وتأثيره الكبير على الفكر الاشتراكي هناك ٠

وانما بدأت الاشتراكية تظهر كحركة شعبية لها وزنها في بولندا في سنة ١٨٧٨ ، عندما قامت الطبقة العاملة في هذه البلاد بتنظيم صفوفها وتحديد أهدافها في ضوء المبادئ الاشتراكية ٠٠ وكان معظم الفضل في ذلك يرجع الى لودفيج وارينسكي (١٨٥٦-١٨٨٩) ، الذي تشرب المذهب الاشتراكي في روسيا أثناء دراسته في جامعة بطرسبرج ، ولما عاد الى وطنه بولندا سعى بكل ما استطاع من وسائل الى بث الوعي الثوري في طبقتها العاملة وانشاء تنظيم

جديدا ، باسم « الحزب الاشتراكي الديموقراطي للملكة البولندية » ، تحت رعاية يوجينس (١٨٦٧ - ١٩١٩) .

وبلغ هذا النزاع بين الاشتراكيين البولنديين ذروه موسمي في المؤتمر الاستراتيجي الدولي الذي عقد بلندن ، سنة ١٨٦٦ ، حينما اتهم مندوب الحزب الاشتراكي البولندي روزا لوكسمبورج ووارسلي بانها عميلان للسلطة الفيصريه او دلت اليهما مهمه بخريب اخرله الاشتراكيه البولنديه من الداحل ، وبنتهما يرتان من عبده انتهيه ، واشتركت روزا لوكسمبورج في المؤتمر لعملة لبونندي بوران . الا ان حزبهما ، الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، قد عرض لاصطهاد شديد في ذلك الوقت داخل بولندا ، ورج بعدد كبير من اعضائه في السجن ، مما تسبب في انهيار نشاطه وتوارى نفوذه لسنوات اعتدت حتى سنة ١٨٩٦ .



وكانت روزا لوكسمبورج لا تزال خارج بولندا منذ ان فرت منها . وقد اصيحت تقيم في فرنسا بصفة رئيسية منذ سنة ١٨٩٦ . وفي سنة ١٨٩٨ اخرجت أول مؤلفاتها الهامة وهو رسالة للدكتوراه عن نمو الصناعة في بولندا . وفي نفس العام تزوجت برجل ألماني ، يدعى جوستاف لوبيك ، حتى تكتسب الجنسية الألمانية وتستطيع اطلاق نشاطها داخل ألمانيا ، مركز القوة والكفاح الاشتراكيين وقتئذ .

وهاجرت فور زواجها الى ألمانيا ، وانضمت الى الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني ، وعملت بهمه كبيرة في نشاطه ، وظهرت مقالاتها في التسو في عديد من الصحف الاشتراكية الألمانية ، وسرعان ما أصبحت الكاتبة الرئيسية لصحيفة الاشتراكيين في ساكسونيا .

وقد دارت مقالاتها في هذه الفترة ، بصفة رئيسية ، حول أهمية جلب النقابات العمالية الى الطريق الكفاحي وصهرها في الحركة الاشتراكية . . . وذهبت في ذلك الى نية التفرقة الشائعة بين النقابة العمالية والحزب الاشتراكي ، التي اقيمت على اعتبار أن النقابة لاتمثل سوى فئة معينة من العمال تعبر عن مصالحها الخاصة دون أن تهتم بما عداها من مصالح سائر الفئات العمالية او قضايا العمال العامة بينما الحزب يحمل الرسالة

الحزب الجديد روزا لوكسمبورج أن تمثله في « المؤتمر الاشتراكي الدولي » الذي عقد في زيورخ سنة ١٨٩٣ ضمن وفد أرسله لهذا الغرض ، وبالرغم من أن الاشتراكيين البولنديين المنفيين ، الذين افلوا لانفسهم تنظيميا خاصا هو « اتحاد الاشتراكيين البولنديين في الخارج » ، أنكروا حق هذا الوفد في حضور المؤتمر ، ونجحوا بالفعل في ابعاد معظم اعضائه عنه ، الا أن المؤتمر سمح لروزا لوكسمبورج بصفة خاصة بحضوره ، وكلفها بتقديم تقرير عن الموقف الداخلي في بولندا اليه ، وانتهزت روزا هذه الفرصة لتسيطر أمام المؤتمر آراءها الخاصة بصدد الحركة الاشتراكية في بولندا : فدعت الى تكوين حزب ثوري منظم على أساس ديموقراطي ، يعمل على بث روح الثورة في نفوس العمال ، وخلق حركة تضالعية جماعية بينهم ، على أن يحتوى الحزب هذه الحركة بثبنيته لمطالب العمال الاقتصادية وتنظيمه لاضراباتهم ، ودعت الى أن يشارك الحزب في الوقت نفسه في الكفاح السياسي من أجل تحقيق الحريات الديموقراطية ، حتى تنهيا له حرية العمل على أوسع نطاق ، ولكن على ألا يكون ذلك سببا لأي تحالف أو تهادن بينهم وبين الأحزاب البرجوازية ، التي كانت تكافح هي الأخرى من أجل هذا الهدف .

وكانت روزا لوكسمبورج تهدف بهذا التشديد على الانفصال عن الأحزاب البرجوازية الى ابعاد حركة العمالية البولندية عن الاتصال بالحركة القومية ، التي تطالب باستقلال بولندا عن روسيا ، وتتبناها هذه الأحزاب . . . فقد كن رايها أن التمسك الاشتراكي عموما ينبغي أن يكون بمنأى عن النزعات والامكان القومية ، وأن نضال الاشتراكيين البولنديين ينبغي ان يسير موجدا مع نضال العمال الروس وسائر اقصى العمالية الاشتراكية في مختلف ارجاء الدولة الروسية للقضاء على النظام الرعجي الفيصري بشوة دولية الطابع والشعارات لا أثر فيها لنزعة او عصبية قومية من أي نوع .

وبهذا الرأي وقتت روزا لوكسمبورج ، ومعها يوجينس ووارسكي - اللذان كانا يتفقان وايها تماما فيما ذهبت اليه - موقفا سافرا العداء والتناقض من موقف « اتحاد الاشتراكيين البولنديين في الخارج » الذي كان يؤيد بكل قواه الحركة القومية البولندية ، كما أحدث هذا الموقف انقساماً داخل الحزب الاشتراكي نفسه ، انتهى بانفصال مؤيديه عن هذا الحزب وتأليفهم حزبا

الصحف الألمانية الاشتراكية ، وتراسل بمغالانها الصحف الاشتراكية في بولندا . أما الهدف الرئيسي لكتاباتهما وتثنت فكان اليمينيون من أعضاء الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني ، الذين كانت آراؤهم تشير في ذلك الوقت أزمة حادة داخل الحزب ، وداخل الحركة الاشتراكية جمعا ، فتصدت لهم هي بحملة عنيفة الى أقصى حدود العنف .

وكان هؤلاء اليمينيون يطالبون بأن تقلص الاشتراكية عن فكرة الشيوة في الانتقال من النظام الرأسمالي الى النظام الاشتراكي وأن تستبدل بذلك أسلوب التحول السلمي التدريجي من هذا النظام الى ذلك . وكانوا قسطين : الاصلاحيين ، والتمنعين . أما الاصلاحيون ، ورواند حرنهم هو جورج فولار (١٨٥٠ - ١٩٢٢) ، فكان اهتمامهم يدور أساسا حصول السياسة العملية للحزب ، فدناوا يطالبون بأن يتعاون مع الأحزاب البرجوازية الليبرالية ، وأن يتعامل مع الدولة العالمة بفتحها على إصدار التشريعات التي تحسن من احوال العمال ويصاح من الأوضاع الاجتماعية السائدة . وأما المتفحون ، وأحيانا يشكون بالمراجعين أو التحريمين - وهم الأشد خطورة - فكانت حركتهم مستهدفة لهم عدد من المبادئ الأساسية للمذهب الماركسي ، منها حتمية انهيار الرأسمالية ، وحتمية تركيز رأس المال ، والدكتاتورية الطبقية للبروليتاريا ، وكان منح هذه الحركة ادوارد برنستاين (١٨٥٠ - ١٩٣٢) ، الذي زاد على مذهب اليه اتهامه الماركسي بالدوجماطية وبأن همه كان منصبا على تكييف الوقائع العملية مع القالب النظري الذي ارتضاه بدءا أمره . وليس تجرى هذه الوقائع على ما هي كائنة عليه واخضاع هذا القالب النظري لحكمها .

من هؤلاء وقفت روزا لوكسمبورج موقفا معارضا متشددا الى أبعد الحدود ، ذاهبة الى أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على المجتمع الرأسمالي ، وأن التحول التدريجي الى الاشتراكية مستحيل لاعتبارات كثيرة أبسطها أنه سيجرى في ظل الدولة القائمة ، وهي دولة برجوازية : فهذه الدولة لا تعرف الا مصالحها ، وهي ان أقدمت على بعض الاصلاحات أو التنازلات ، فما ذلك الا لتخدير الطبقة المستغلة واطفاء مشاعرها الثورية ضدها ، أي لتعزيز مركزها هي وحماية سيطرتها . واذا ما حدث

التاريخية للبروليتاريا ويكافح من أجل الطبقة العاملة ككل دون ما ارتباط بمصلحة فئة معينة من هذه الطبقة . ومع أن هذه التفرقة قد وردت في البيان الشيوعي - الذي كتبه ماركس وإنجلز ، الا أنها رفضت بشدة أن تكون أساسا للسياسة الاشتراكية : فالحركة البروليتارية في اعتبارها لن تكتسب وتكتسب الفاعلية الا بالتوحيد بين هذين الطرفين ، أي الحزب الاشتراكي والنقابة العمالية ، وذلك يتم عن طريق تبني الحزب لأهداف النقابات ، كتقليل ساعات العمل ورفع الأجور ، من جانب ، وإشراك النقابات في الكفاح الاشتراكي وجعلها القاعدة العريضة للحزب من جانب آخر ؛ فهذا التوحيد ، كما كانت تجزم ، شرط لازم كي تتمكن الدعوة الاشتراكية من نفوس العمال وتجذب جماهيرهم في طريقها الثوري ، وكي تتمتع جذور الأحزاب الاشتراكية ويتأكد صوتها البروليتاري ، وكذلك كي تتمكن هذه الأحزاب من السيطرة على الاضرابات العمالية وتوجيهها بما يتفق وقضية الثورة التي تعمل من أجلها . واجمالا ، كانت روزا لوكسمبورج ترى الاندماج الكامل بين الحركة الاشتراكية والحركة النقابية العمالية . وكان هذا الرأي أساسا جوهريا من بين الأسس التي أقامت عليها فكرها الثوري كله ، كما كان من أبرز اسهاماتها في حقل الفكر الاشتراكي .

ولم تدم إقامتها في ساكسونيا طويلا ، فقد أدى موقفها المادي من العناصر اليمينية في الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني الى الخلاف بينها وبين رئيس تحرير الصحيفة التي تعمل بها ، وكان يميني الميول ، فاستقالت من منصبها في الصحيفة ، ورحلت الى برلين .

وفي برلين تعرفت الى كارل كاوتسكي (١٨٥٤ - ١٩٣٨) فيلسوف الحزب ، والمنظر الأول للدولة الثانية ، وجعلت تكتب بانتظام في صحيفة الحزب المذهبية الرئيسية « دي نوي زيت » - الإزمئة الحديثة - التي يرأس كاوتسكي تحريرها ، كما كانت تكتب أيضا في غيرها من

الحزب بهانوفر . سنة ١٨٩٩ ، ووجه اليه اللوم للطريقة التي عبر بها عن آرائه ، الا ان روزا لوكسمبورج لم تقتنع بهذا ، وأصرّت على أن يتخذ الحزب ضد هؤلاء ، خاصة برنشتاين ومشايخه ، اجراء حاسما هو طردهم من صفوفه ؛ فكان ذلك سببا لاصطدامها ببابل ، الذي خشي أن يؤدي هذا الاجراء الى تفتيت جبهة الاشتراكيين . وأخذ الحزب برأيه ، فابقي على برنشتاين وسائر اليمينيين في عضويته ، رافضا طلب روزا لوكسمبورج . ومع ذلك ، فقد أصبحت روزا لوكسمبورج منذ ذلك الوقت إحدى القوى الكبرى داخل الحزب الألماني ، وأصبحت زعيمة الجناح اليساري فيه والتحدت الأول بلسانه .

وما لبثت روزا لوكسمبورج بعد ذلك حتى دخلت في صدام جديد كان طرفه المضاد هذه المرة كارل كاوتسكي ، وذلك حول مسألة : غاية من الاهدبية هي : كيفية قيام الثورة الاشتراكية ؟ . فقد ذهب كاوتسكي الى امكان أن تكون هذه الثورة « ثورة سلمية » تتم بالوسائل القانونية ، ودعا على أساس ذلك الاشتراكيين أن يلتزموا في نشاطهم بالطريق الدستوري . ويؤجلون ثورتهم المزعمة الى ما بعد حصول الحزب الذي يمثلهم ، على الأغلبية البرلمانية ، فتتم الثورة حينئذ بهدوء ، فلا تكلفه أكثر من التفاوض مع النظام القديم على الاستسلام . أما روزا لوكسمبورج فكان للثورة الاشتراكية عندها كيفية واحدة هي « العنف » ، وقد ردت على كاوتسكي بأن الأقرب احتمالا من الاستسلام السلمي الذي يتوقّعه للنظام البرجوازي أن ينقض هذا النظام على الاشتراكيين حالما يلوح له أنهم سيفطرون بتلك الأغلبية ، فيضربهم بوسائله البوليسية ، أو بقوانين تحظر نشاطهم ، أو يبعد نظام الانتخاب بما يكفل الهيمنة دون طفرهم بتلك الأغلبية . وكل هذه الاحتمالات لها سوابق عملية ترجحها بل وتجزم بها ، وعليه فالواجب الأول والآخر للاشتراكيين في رأيها أن يركزوا عملهم في الأعداد للثورة الحقيقية ، الشيوعية ، أعددين بالسبل غير القانونية التي تتطلبها هذا الأعداد ، وأن يقوموا بها بلا توان حالما تواتيهم الفرصة على ذلك .

على أن ذلك لا يعنى أن روزا لوكسمبورج قد أصبحت تقصر اهتمامها بالحركة الاشتراكية على ألمانيا وحدها ، فقد كانت تتابع مجريات هذه الحركة في كل مكان توجد فيه ، وقد هاجمت بعنف زعماء الاضراب البلجيكي العام ، سنة

وسارت الأمور حقا في غير صالحها ، فلديها سلطتها ، من جيش ورجال أمن . فتبسط بمهدديها وتعيد كل شيء الى نصابه الأول . فمن المحال أن تتنازل هذه السلطة عن سيادتها ومصالحها طواعية ؛ ومن ثم فليس للاشتراكي أن يتحدث الا عن قلبها عنوة ، ودفعة واحدة ، أي بطريق الثورة ، وإقامة دولة البروليتاريا على أنقاضها . فهذا هو فقط ، في نظرها ، الأسلوب الوحيد الممكن للتحويل الى النظام الاشتراكي .

وكانت في هذا الاصرار على مبدأ الثورة ، ومحاربة آراء الاصلاحيين والمنعفين الذاهبه الى الاستعاضة بمبدأ التحول التدريجي ، ما تقفه موقف موحدا مع كل من أوجست بابل (١٨٤٠ - ١٩١٣) - زعيم الحزب - وكارل كاوتسكي .

وقد اشتركت معها أيضا في مهاجمه رأى الاصلاحيين في التعاون مع الأحزاب البرجوازية الليبرالية ، على أساس ان تعاون الحزب الاشتراكي مع احزاب غير اشتراكية من شأنه أن يضعف معنويته ، ويقلله طابعه الطبقي وأصالته الكعابية ؛ وكذلك في مهاجمة رأيهم الداعي الى تشجيع الاشتراكيين للدولة القائمة على اصدار تشريعات اصلاحية ، على اعتبار أن هذا العمل من شأنه أن يغير من الملامح الرجعية لهذه الدولة ازاء الجماهير الخاضعة لها ، كما يونسج من وظائفها وسلطاتها فتزداد بذلك قوة ورسوخا ، الأمر الذي يؤخر من انهيارها ويزيد من صعوبة العمل الاشتراكي ضدها .

وكذلك نزلت مع باييسل وكاوتسكي ساحة المعركة ضد برنشتاين ، ممثل حركة التلقيع ، واشتركت وإياهما في تنفيذ مجيحه ، ونعتة بالانتهازية وخيانة المذهب الماركسي . وأصدرت ، سنة ١٨٩٩ في الرد عليه كتابها : « الاشتراكية الضملاحة أم ثورة » ، وتناولت فيه - ضمن ما تناولت ، موضوع انهيار الرأسمالية ، الذي انكره برنشتاين ، فأصرت على حقيقة حلولة ولكنها ذهبت في ذلك مذهبا مجددا خرجت فيه عن الأسلوب الماركسي التقليدي بهذا الصدد ، اذ ذهبت الى أن هذا الانهيار سيكون متعمدا عن التنافس الامبريالي بين الدول الرأسمالية أكثر مما سيكون متولدا عن متناقضات الرأسمالية الداخلية .

وقد هزم الاصلاحيون مرّات عديدة في مؤتمرات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ، كما منى برنشتاين بهزيمة ساحقة في مؤتمر

بين الدول الكبرى ، وما سيؤدي اليه حتما من اندلاع الحرب فيما بينها ، وضرورة تعبئة جهود العمال وتوجيه كفاحهم في مواجهة هذه الظروف . . . وقد ترك هذا كله انطباعا عميقا في اذهان أعضاء المؤتمر ، وكان أثره مباشرا في القرارات التي أصدرها هذا المؤتمر .



ودخلت روزا لوكسمبورج السجن في ألمانيا، سنة ١٩٠٤ ، بتهمة إهانة الإمبراطور ، ثم أُصلح سراحها في أوائل العام التالي . فانضمت الى هيئة تحرير صحيفة « ثورواويس - الى الامام » لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، التي تصدر في برلين . وبمساهمة سي برين ، اندلعت ثورة سنة ١٩٠٥ الروسية . سببت حماسا لها ، ولكن المرض أضعفها عن الاشتراك فيها ، فوجدت بعض أسلوبي في كتابه نشرين، صندوتا مع نشرة ثالثة فيها بعد تحت عنوان : « الثورة دعت : ماذا بعد ذلك ؟ » ، لأجله، معالم هذه الثورة وتعريف الشعب الألماني . وما أن وانتهى شيء من العوة ، في ديسمبر من ذلك العام، حتى عبرت الى بولندا للاشتراك في الثورة التي نشبت هناك ، صدى للثورة الروسية ، ولكنها ما إن بلغت وارسو حتى وجدت التوار هزموا والثورة اُخمدت .

والحقيقة أنها لم تفاجأ بهذه النتيجة ؛ فقد كان حكمها مسبقا بالفشل على الأسلوب الثوري الذي كان ينتهجه الحزب الاشتراكي البولندي - مثل هذه الثورة ، وهو أسلوب التمرد المسلح ، أي قيام جماعات مقاتلة بأعمال ضد الدولة شبيهة بأعمال حرب العصابات ؛ فعندها أن الجماهير هي وحدها الأساس الحقيقي للثورات الثورية ، ومن ارادتها الثورية الجماهيرية فقط ينطلق العمل الثوري الذي يقدر له النجاح .

والواقع أن روزا لوكسمبورج كانت تعمل على الحركة الذاتية للجماهير العاملة في قيام الثورة الى أقصى الحدود ، مما عرضها لانتهاك من جانب بعض زملائها الاشتراكيين بأنها تتجسس نحو مذهب المفكر الفوضوي ميشال باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) في « تلقائية » الثورة الجماهيرية ، وقد اتهمها زينوفيف (١٨٨٣ - ١٩٣٦) بقسوة بأنها تنكر أهمية الدور الثوري للحزب - الاشتراكي طبعاً - وحاجة الجماهير الى زعامة

١٩٠٢ ، وعلى رأسهم اميل فاندلر فيله (١٨٦٦ - ١٩٣٨) زعيم حزب العمال البلجيكي، وحملتهم جزيرة فشله لعدم طبعهم اياه بطابع ثوري وانجرافهم الى التفاهم مع الليبراليين ؛ وعضدت كينين بقوة في الحملة التي شنتها ، فيما بين سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ ، ضد « الاقتصاديين » ، وهم جماعة منشقة من الاشتراكيين الديمقراطيون الروس ذهبوا الى حصر المهمة النضالية للطبقة العاملة في المجال الاقتصادي وحده واعتبار أن النضال السياسي من شأن الأحزاب البرجوازية الليبرالية .



وخلال هذه المجادلات الحامية ، التي دامت حتى سنة ١٩٠٤ ، حضرت روزا لوكسمبورج المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي عقد بباريس ، سنة ١٩٠٠ ، كممثلة عن اشتراكيي بولندا ، وقد شاركت خلال انعقاده ، بحماسة كبيرة ، في الحملة العنيفة على الاشتراكي الفرنسي ألكسندر ميليران (١٨٥٩ - ١٩٤٣) لاشتراكه ، دون تصريح من حزبه ، في حكومة والدك روسو البرجوازية . . . وكانت في ذلك لا تعارض فقط. اشتراك الاشتراكيين في الحكومات الرجعية ، بل كانت تعارضه ، بصيغة مطلقة ، دخول الاشتراكيين في أية ائتلافات وزارية ، سواء مع رجعيين أو تقدميين . حيث أن قبول الاشتراكيين لمبدأ الائتلاف الوزاري إنما يعني مباشرة قبولهم لمبدأ أنصاف الحلول ، وتخليهم عن مفهوم الثورة الاشتراكية الذي يتضمن تركيز السلطة في أيدي ممثلي البروليتاريا وحدهم .

والى جانب هذا طرحتم روزا على المؤتمر موضوع النزعة العسكرية ، التي كانت ريعها تهب على أوروبا في ذلك الوقت . واثارت مناقشة كبرى بين أعضائه حول الواجبات التي ينبغي على الاشتراكيين القيام بها. في مواجهة هذه النزعة ، كما تحدثت باستفاضة عن التناقض الامبريالي

حزبية تقود كفاحها وتوجهه . لكن هذه الاتهامات في الحقيقة لم تكن صحيحة ، فهي كانت تؤمن بضرورة وجود حزب منظم قوى يعمل كراس حربة للحركة الجماهيرية ويرسم لها خططها الثورية ، لكن بشرط أن يكون هذا الحزب حزبا ديموقراطيا مسئولا مسئولا مباشرة أمام أعضائه جميعا ، وبوساطتهم ، أمام جمهرة الطبقة العاملة ؛ كما كانت تعتنق فكرة دكتاتورية الحزب في الدولة البروليتارية ، ولكن على ألا يكون الحكم في هذه الحالة حكما للحزب على الجماهير وإنما حكما للجماهير ممثلة في الحزب الذي لا تتجاوز مهامه تنفيذ رغباتها .

وكانت تعتقد أن الجماهير تنطلق إلى الثورة بوح من مشاعرها الغاضبة واحساسها بالاضطهاد لا عن طريق أوامر مفروضة عليها سواء كان مصدرها حزبا أو زعماء ؛ وفي اعتبارها أن السلاح الثوري الحاسم الذي تمتلكه هذه الجماهير إنما هو الاضراب الشامل ، ذلك الذي يثير القفلة والفوضى في جميع مرافق الدولة ومؤسساتها الصناعية والحياة .. فبانتفاضة الجماهير على هذا النحو تبدأ حق الثورة ؛ إما دور الحزب في الثورة فيأتي كخطوة تالية ، أو مصاحبة ، لهذه الانتفاضة ، فعليه أن ينتهز ، بلا توان ، جو الاضطراب الناجم عنها ، وفق مخطط مرسوم سلفا ، في الاستيلاء على السلطة السياسية باسم هذه الجماهير .. ونلخص هذه النظرية الثورية في عبارة صغيرة هي : الجماهير أولا والحزب ثانياً - وهي تصد من مآثر روزا لوكسمبورج الكبرى في الفكر الاشتراكي .

أما بالنسبة للثورة في بولندا ، فقد كان لروزا لوكسمبورج مفهوم خاص عنها يختلف فيه أساسا مع مفهوم الحزب الاشتراكي البولندي ؛ إذا كان هذا الحزب يعتبر أن هذه الثورة ثورة قومية مهمتها في المقام الأول التخلص باستقلال بولندا ؛ ومن ثم فهي موجهة قبل كل شيء ضد السيطرة الروسية على بولندا ، دون أن يغير من طبيعتها هذه أن يكون قي روسيا حكم رجعي أو حكم اشتراكي ؛ فالشيء المطلوب على جميع الأحوال واحد ، وهو انفضال بولندا عن روسيا .

أما روزا فكانت تنظر إلى الثورة البولندية من خلال الثورة البروليتارية العالمية ، فكانت تبناها عملا طبقيا تقوم به الجماهير الكادحة المستغلة ضد مستغليها وضد الدولة البولييسية التي تحمي هؤلاء المستغلين ، وأنها بذلك ليست ثورة ضد

روسيا ، وإنما ثورة ضد الحكم الرجعي القسائم فيها ، والذي يرسف في أغلاله كلا الشعبين البولندي والروسي ، ومعها سائر الشعوب التي تدخل في إطار هذه الدولة ؛ ومن ثم فليست القضية هي انفصال هذا الشعب أو ذاك عن هذه الدولة ، وإنما اشتراك هذه الشعوب جميعا ، أو بعبارة أدق طبقاتها المستغلة ، في كفاح ثوري موحد للقضاء على النظام القيصري الرجعي القائم بها وإبداله بنظام اشتراكي تتولى فيه البروليتاريا زمام الحكم لصلحة الجماهير العاملة .

ولم يكن اعتراف روزا لوكسمبورج بالقومية البولندية في الواقع إلا نتيجة لانكارها وازدراءها فكرة القومية من أساسها ؛ فقد كانت « العالمية » موضع إيمانها الوحيد ، وكان المجتمع العالمي الذي ينعم فيه البشر جميعا بالمساواة والأخاء منشدها وعهدتها الذي لم تعد عنه قط عيلة حياتها .

وكانت تدعو بشدة إلى مقاومة الحركات القومية ، على اعتبار أنها تحول دون وحدة الطبقة العاملة في العالم ، بل ويولد بطور التشايق والصراع بين صفوفها ؛ وكان مبدأها ، النابع من مذهبها الماركسي ، أن القومية من أخطر عوائق التضامن الطبقي ، وأن تحطيمها أمر جوهري لا غناء عنه لانتصار البروليتاريا في كفاحها ضد البرجوازية وفي تكوين مجتمع عالمي تسوده الاشتراكية .

ومن هذه النقطة الأخيرة ننقل إلى موقف روزا لوكسمبورج من « مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها » .. هذا الموقف الذي أوقعها في خلاف حاد ، بلغ حد العراك العلني ، مع لينين ، فقد رفضت رفضا باتا الفكرة التي يعملها هذا المبدأ ، مقيبة رأيها في هذا الشأن على أن الانقسامات الطبقية هي العامل الجوهري في تصنيف الناس وليس تلك الناجمة عن الاختلاف في الجنس أو اللغة ، وأن التطلع الكفاحي ينبغي أن يتجه رأسا نحو بناء سلطة عمالية دولية تنوب تحتها الحبيد القومية وتختفي المشاعر الوطنية .

أما عن هذا المبدأ ، فقد تضمنته الفقرة التاسعة من برنامج حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي (الشيوعي فيما بعد) ، الذي كان للينين اليد الطولى في صياغته .. وقد أنكرته روزا لوكسمبورج منذ أن كان مشروعا في هذا البرنامج ، وطالب أنصارها من الاشتراكيين الديموقراطيين البولنديين الذين شهدوا المؤتمر

والحق ، بعد هذا ، أن لينين كان يزدري
النزعة القومية كما تزدريها روزا لوكسمبورج ،
وهو لم يرفع شعار تقرير المصير القومي إلا لأسباب
تكتيكية بحتة ، هي الظفر بتأييد القوميات المختلفة
الحاضنة للدولة الروسية وجذبها الى كفاح مشترك
معه لاسقاط الحكم القيصرى فى هذه الدولة .



ونعود الى بولندا حيث تركسنا روزا
لوكسمبورج . فقد طهر فشل أسلوب التمرد
المسلح ، ادى كان يحبذ الحزب الاشتراكي
البولندى للكفاح الثورى ، بانحسار الموجة
الثورية فى الدولة الروسية عقب قمع ثورة ١٩٠٥
ونتيجة لهذا حدث ، سنة ١٩٠٦ انقسام
داخل هذا الحزب ، فذهب فريق منه الى
الايمان بضرورة توحيد العمل مع الثوريين الروس
وانضم الى صفوف الحزب الاشتراكي الديموقراطى
الذى قرر فى العام نفسه الاندماج فى حزب
العمال الاشتراكي الديموقراطى الروسى ، أما
الفريق الآخر من الحزب الاشتراكي البولندى فقد
ظل مشايخا جوزيف بلسودسكى (١٨٦٧ -
١٩٣٥) حادى كانت زعامة الحزب قد آلت اليه
فى التزامه بالنزعة القومية والأسلوب التمردى
فى الكفاح ، متخذاً لنفسه اسم : « الحزب
الاشتراكي الثورى البولندى » .

وكان الحزب الاشتراكي الديموقراطى
البولندى حتى عام ١٩٠٥ ضعيف الشعبية الى حد
كبير بالمقياس الى الحزب الاشتراكي ، ولكن تأييده
للاضراب العام الذى وقع فى وارسو يوم ٦ نوفمبر
سنة ١٩٠٥ ، وهو الذى عارضه الحزب الاشتراكي
اكسبه عددا ضخما من الأصهار ، خاصة بين
عمال المضانع ، ثم ازداد قوة فى الصمام الثانى
بانضمام جانب من الحزب الاشتراكي اليه على نحو
ما ذكرنا .

وقد جدا ذلك بروزا لوكسمبورج الى المكوث
فى بولندا تحت اسم مستعار . وراحت تسعى
بكل قواها الى تأليب الفلاحين على الاقطاعيين
وجذبهم الى الحركة الثورية ، الى جانب حث العمال
على القيام بالاضرابات ، فالقى القبض عليها ، هى
و زميلها يوجيخيس ، فى مارس ١٩٠٦ . وكتبت
فى سجنها عدة نشرات ثورية هربت الى الخارج
غير أن انهيار صحتها الى جانب جنسيتها الألمانية
أدى بالسلطات الروسية الى اخلاء سبيلها بعد
ضبعة أشهر من القبض عليها . بينما أرسل

الثانى للحزب الروسى ، سنة ١٩٠٣ - ولم تكن
روزا قد حضرته - باستبعاد الفقرة التى تحتوى
هذا المبدأ ، ولكن المؤتمر لم يستجب لهم وأقر
البرنامج كله بما فيه هذه الفقرة ، فجاءوا بعد
ذلك أن يحملوه على تعديلها على نحو يبعد ذلك
المبدأ عن المفهوم السياسى للقومية ، ولكنه لم
يستجب أيضا :

وقد عادت روزا لوكسمبورج فى سنة ١٩٠٨
... وكانت حينئذ منتمة الى حزب العمال
الاشتراكي الديموقراطى الروسى - الى التنديد
بالمبدأ المذكور ، وكتبت فى ذلك مقالا مطحولا
نشرته فى بولندا تحت عنوان : « مسألة القوميات
والحكم الذاتى » ، عبرت فيه بحدة عن وجهة
نظرها آزاء هذا المبدأ ، وقدمت الحجج على رجعيته
ومنافاة لروح الماركسية ، وفى ثانيا ذلك قذفت
بهذا الاتهام الخطير : « الاعتراف بحق تقرير
المصير انما يعنى تأييد التحصيص القومى
البرجوازي » . وهنا انبرى لينين لها بعنف
وأصدر كتابه « حق الأمم فى تقرير مصيرها » فى
تفنيد ومهاجمة حججها بصدد هذا الأمر . وكان
لينين قاسيا بحق فى رده عليها ، وقد دار قلبه
بعضوت شتى فى مهاجمتها ، ولكن الشيء الذى
لم يحاول ، ولو بمجرد إيماءة ، هو التشكيك
فى إخلاصها أو صدق كفاحها للقضية الاشتراكية .

بطل الله ، وفق نفس المؤلف ، هاجم الحزب
الاشتراكي البولندى « لسيخف المحاولات التى
يلجأ اليها أنبياء الاستغلال خلافتنا مع روزا
لوكسمبورج فى مهاضة الاشتراكية الديموقراطية
البولندية » . « وقد ظل لينين » . وقم هذه الواقعة ،
محتفظا بتعاونه مع روزا لوكسمبورج واكبارها لها
كبكافة ومفكرة . وقد استشهد بأقوالها كثيرا
فى معركة الحامية الوحيدة مع كاوتسكى بعد
قيام الثورة البلشفية ، وكان كثير التنويه بموقفها
الصلب ضد اليمينيين والوسطيين من أعضاء
الحزب الاشتراكي الديموقراطى الألماني . كما كان
لا يكف عن وصفها بأنها من أعظم وأبرز قادة
الحركة الاشتراكية العالمية .

زميلها الى سيبيريا حيث تمكن من الفرار بعد فترة وجيزة . ثم سمح لها بمفادرة بولندا ، فذهبت الى فنلندا ، حيث كتبت رسالة هامة عن «الاضراب الجماهيرى ، والحزب ، والنقابات » تناولت فيها بالشرح نظريتها - التى سبقت الاشارة اليها - عن الثورة الجماهيرية وصلة الحزب بها .

وقد اشتركت روزا لوكسمبورج فى المؤتمر الاشتراكى الدولى الذى عقد فى مدينة شتوتجارت سنة ١٩٠٧ ، كعضو فى الوفد الروسى - الذى كان لينين ايضا من أعضائه ، وقامت بدور رئيسى فى المناقشات التى دارت فى هذا المؤتمر حول واجب الاشتراكين والحركة الاشتراكية فى البلدان الأوروبية فى حالة قرب اندلاع الحرب فيما بينها أو اندلاعها بالفعل ، وعينها المؤتمر عضوا فى لجنة الفها للاستقرار على قرار مؤجل له بهذا الصدد بعد أن تضاربت مشروعات قرارات الوفود فى هذا الأمر ، واذا استقر رأى اللجنة على مشروع قرار بابيل - المنسوب الالمانى فى المؤتمر - تقدمت هى ولينين ومارتوف باسم الاشتراكين الديموقراطيين الروس بتعديلات وإضافات عليه ، كانت تدور فى جوهرها حول إبراز دور التنافس على التسليح فى قيام الحرب ، والتأكيد على النواحي التربوية فى نشاط الاشتراكين . لطبع النشء باليسادى ، والأفكار الاشتراكية ، وواجب البروليتاريا عند نشوب الحرب فى استغلال الأزمات الاقتصادية والسياسية التى تنجم عن هذه الحرب فى إثارة طبقات الشعب الدنيا ضد الحكم البرجوازى القائم والعمل سريعا على إسقاطه . . . وقد صادفت هذه الملاحظات قبولا لدى وفود الأحزاب الاشتراكية المتجمعة ، فأقرها المؤتمر وأصدر بها قراره النهائى .

وفى سنة ١٩٠٨ عادت روزا لوكسمبورج الى ألمانيا لتتخاض فى الاقتصاد السياسى فى مدرسة انشائها الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى لتنمية وعى وثقافة العمال المتتمين اليه ، وإلى جوار ذلك ظلت تمارس دورها بنشاط كبير داخل الحزب الالمانى ، ولكن من موقع اليسار المتطرف ، الذى كاد عمله وقتئذ يتحصر فى معارضة سياسة الحزب التى كان يوجهها المعتدلون ممثلو الوسط .

والواقع أن الأحوال قد تغيرت كثيرا داخل هذا الحزب ببروز روزا لوكسمبورج فى محيط

زعامته . فقد كان هذا الحزب لا يعرف منذ سنة ١٨٩٠ غير جناحي اليسار واليمين ، يتزعم الأول بابيل وكاوتسكى والثانى فولمار وبرنشتاين . ولكن آراء وشخصية روزا لوكسمبورج لعبتا دورا جوهريا فى خلق جناح أكثر تطرفا ، أخذ ينمو ويشمتد ويجتذب الانصار من أعظم الرجال والنساء حتى احتل ، حوالى سنة ١٩٠٥ ، المركز اليسارى فى الحزب وانزل اليسار القديم الى مركز الوسط ، فأصبح الحزب بذلك منقسما الى يسار ثورى ويمين اصلاحي ووسط معتدل .

وكان الوسط هو المسيطر على الحزب ، الا أنه أخذ ينزلق يوما بعد يوم فى اتجاه اليمين ، فأخذت بالتالى شققة الخلاف تتسع بينه وبين اليسار ، وأدى تطور الأمور على هذا النحو الى أن أصبح اليسار يقف فى جانب والحزب كله فى جانب آخر ، ومع ذلك فلم يفكر الحزب فى التخلص من يسارييه هؤلاء . . . اذ كان عليه أن يحسب حساب فقدان أعلام مثل كارل ليننخت وكلازا زتكين وجورج ليدبيور وفرايز ميهرنج بالاضافة طبعاً الى روزا لوكسمبورج . وقبل هذا ما سيتهدد قوته وشعبيته عندما يعهد هؤلاء اليساريون الى تكوين حزب اشتراكى جديد أكثر منه ثورية وأشد تعصبا للمبادئ الماركسية .

وقد جاءت أزمة الحقوق الانتخابية فى بروسيا ، سنة ١٩١٠ ، لتكشف الى أى مدى أصبح التناقض بين تفكير روزا لوكسمبورج المتطرف وبين سياسة الحزب المعتدلة : اذ دعت روزا لوكسمبورج الى تنظيم اضراب عام للطبقة العاملة لارغام الحكومة البروسية على تطبيق حق الانتخاب المتساوى لجميع أفراد الشعب ، فرفض الحزب طلبها خشية أن يؤدى به الى صدام بالدولة يدفعها الى إعادة القوانين التى سبق أن استنضها بسمارك لحظر النشاط الاشتراكى فى ألمانيا ؛ ثم لم تلبث ، فى نفس العام ، أن دعت الحزب إلى أن يجهر بمعارضة النظام الملكى المرفوع شعار «الجمهورية الديموقراطية» ، ولكنه رفض ذلك أيضا للسبب السالف .

وتوالى المصادمات على هذا النحو بين روزا لوكسمبورج وبين الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى . وتوترت العلاقة بينها وبين كاوتسكى ، زعيم الوسط ، بصفة خاصة ، الى درجة أنه رفض أن ينشر إحدى مقالاتها فى جريدة « نوى زایت » ، فانصلت عنها ، وأسسست بالاشتراك مع فرانز ميهرنج (١٨٤٦ - ١٩١٩) جريدة

الرأسمالي المرتقب ؟ ، أين مجرد بؤاده ؟ ، بل كيف حدث العكس فازدادت الرأسمالية قوة وازدهارا ؟

ذلك كله كان صدمة لأولئك الذين كانوا موقنين بالتحقق الآلي للتنبؤات الماركسية ، هذا اليقين الذي جعل مؤتمر الدولية الاشتراكية في سنة ١٨٩٦ يصدر نداءه المشهور الى عمال العالم بأن يدربوا أنفسهم على اساليب ممارسة السلطة السياسية لقرب وقوع الرأسمالية في الأزمة الحاسمة التي تطيح بها . كما كان دافعا لماركس مثل برنشتاين الى تقليب النظر من جديد في المذهب الماركسي كله ، وانكار حتمية انهيار الرأسمالية ، بالصورة التي قدمها ماركس .

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج لم تتخل قط عن ايمانها بحتمية انهيار الرأسمالية بفعل تناقضاتها الداخلية كما بين ذلك ماركس ، وبالرغم من موقفها الصارم - الذي سبق أن اوضحناه - ضد برنشتاين وحركته التنقيحية ، الا أنها ذهبت الى أن ماركس قد وقع في خطأ كبير حينما لم يأخذ بالاعتبار الكافي إمكانيات الرأسمالية وقدراتها التوسعية ، الأمر الذي جعله يخطئ التقدير في تبين مستقبلها والتعرف على مدى صلاتها وقدرتها على مقاومة أزماتها . وقد ذهبت في كتابها « تراكم رأس المال » في تفسير خروج الرأسمالية طافرة من هذه الأزمات، الى أن الرأسمالية تستطيع باستمرار أن تتوسع وتستحدث وسائل للتنفس كلما أوشكت على الاختناق ، وذلك عن طريق غزو المناطق المتخلفة، واستبدال الأساليب الأكثر بدائية في الإنتاج، كاساليب الحرفيين والفلاحين ، فتنشئ بذلك استثمارات جديدة ، وتخلق أسواقا جديدة تصرف فيها انتاجها المتزايد الذي لا تستوعبه السوق المحلية ، كما أن التقدم الفني الرهيب ووسائل الإنتاج سيمنح الرأسماليين من جني أرباح طائلة تمكنهم بدورها في المستقبل من فتح آفاق جديدة لرؤوس أموالهم ، كلما ازدادت تراكما ، ولانتاجهم ، كلما ضاقت عن استيعابه الأسواق القائمة . ولكنه بالرغم من أن هذه التنبؤات المستجدة للرأسمالية ستتيح لها التغلب على أزماتها الى وقت طويل ، فإنها ستعجز من جانب آخر عن زيادة حدة وخطورة هذه الأزمات : ذلك أن الرأسمالية ستعجز معها متناقضاتها في كل مجال تطرقه أو مكان تحل فيه ، وتبعا لتوسعها وتضخمها ستتوسع هذه المتناقضات وتتضخم ، وينعكس أمرها هذا في

جديدة خاصة باليسار ، ظهر العدد الأول منها في سنة ١٩١٣ . وفي تلك السنة أيضا ظهر مؤلفها الأشهر « تراكم رأس المال » ، الذي أثار جدلا كبيرا بين الماركسيين لما عدوه منه مراجعة لنظرية ماركس عن « أزمات الرأسمالية » .

والحق أن نظرية أزمات الرأسمالية هذه ، وهي المذهبية الى أن الازدياد المستمر في الانتاج الرأسمالي يقابله بالضرورة شيق مستمر في سوق الاستهلاك مما يوقع الاقتصاد الرأسمالي في أزمات دورية تزداد عنفا على مر الأيام الى أن تؤدي بالنظام الرأسمالي بأسره في النهاية ، هذه النظرية قد أثارت الكثير من الجدل بعد وفاة ماركس ، ليس فقط من جانب المفكرين البرجوازيين ، الذين كانوا يؤكدون عكسها ، وإنما أيضا من جانب العديد من المفكرين الاشتراكيين : ذلك أن الأحداث اللاحقة قد صارت في طريق معاكس لما ذهبت اليه هذه النظرية ، إذ أخذت هذه الأزمات تتباعد وتقل حدة بدلا من أن تتفاقم ويستفحل خطرها كما تقرر هذه النظرية .

بل ، وإلى جانب ذلك ، كانت ثمة مشاهدات تتعلق بجوانب أخرى في المذهب الماركسي حار في أمرها الماركسيون قبل غزيم : فلماذا جنتحت أجور العمال الى الارتفاع بدلا من أن تسير الى الانخفاض كما جزم بذلك ماركس ؟ ولماذا أخذت أحوال العمال عموما في التحسن ، فقلت ساعات عملهم وبدأوا يحصلون على الرعاية الاجتماعية والقانونية ، بدلا من أن تسوء هذه الأحوال كما كان منتظرا ؟ ولماذا ينتعش البرجوازيون الصغار بدلا من أن ينحدروا الى مستوى الطبقات الدنيا ؟ ولماذا زاد عدد أصحاب رؤوس الأموال، وكثر أصحاب المشروعات الصغيرة كثرة هائلة ، وإن كان ذلك بصورة جديدة هي صورة « حملة الأسهم » ، وذلك بدلا من أن يحدث العكس ؟ ولماذا يرتفع المستوى العام للمعيشة بدلا من أن يتدهور ويلوح شبح « الافقار التام » ، وعليه : أين الانهيار

الولايات المتحدة على المسرحين السياسى والاقتصادى عقب الحرب العالمية الثانية لابتلعت الاشتراكية أوروبا بأكملها وفى انزها العالم بلا استثناء .

وهذا الكتاب ، تراكم راس المال ، رغم أهميته القصوى فى تجديد الفكر الماركسي ، كان سيء الحظ الى حد كبير عند ظهوره . فقد ظهر والحرب العالمية الأولى على الأبواب ، والانتباه كله ، بما فى ذلك انتباه الاشتراكيين ، متجه نحوها . فلم يأخذ حظه من الانتشار أو النواصة الدقيقة . . . ومن بين الذين قراوه من المنظرين الماركسيين حينئذ وحيد به نفر قليل بينما عدته الماركسية الغالبة مراجعة غير مقبولة للنظريات الماركسية الا أنه عاد لفرض الاهتمام به بعد نحو خمسة عشر عاما ، حينما تعرفت الرأسمالية لازمتها الكبرى فيها بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ، وتقلبت عليها ، الأمر الذى دعا الماركيزين الاشتراكيين الى إعادة النظر جديدا فى نظرية ماركس الخاصة بازمات الرأسمالية والرجوع على ذلك ، بصفة أساسية ، الى كتاب روزا لوكسمبورج المذكور .



وقامت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ . ولكم الم روزا لوكسمبورج وقتئذ تراجع الاشتراكيين الأوربيين - باستثناء قلة - عن سابق موقفهم حيالها ، فاذا بهم بدلا من أن يقاروموها كما يستغلونها فى إسقاط النظام الرجعية بدولهم كما وطدوا العزم من قبل ، يسارعون الى منسادة حكوماتهم فيها ، ويوافقون على الاعتمادات المطلوبة لها . . . وذلك بدعوى « حماية الوطن » .

لقد علت روزا لوكسمبورج هذا الموقف من جانب الاشتراكيين - وهو الموقف الذى حصل فى الواقع نهاية عصر الاشتراكيات الديوقراطية وأعلن وفاة الدولة الثنائية - خيانة للمبادئ الاشتراكية وجريمة لا تقفتر فى حق الانسان ، ووقفت ، بالاشتراك مع كارل لينبخت ، داخل الحزب الاشتراكى الديوقراطى الألمانى ، الذى أيد هو الآخر سياسة حكومة دولته فى دخول الحرب ، على رأس اليساريين المتطرفين الذين كانوا يمثلون ، الى جانب كارتسكى وبرنشتاين ومشايبيهما ، الأقلية المناهضة للحرب داخل الحزب ، ووضعت لهم خطة عمل بعنوان : « مهمات الاشتراكية الديوقراطية الدولية » أكدت فيها الأهداف اللاقومية للاشتراكية وركزت على ضرورة استغلال البروليتاريا فرصة الحرب الدائرة فى تسديد الضربة القاضية الى النظام الرجعية والاستيلاء على مقاليد الحكم .

الازمات ، التى هى وليدة هذه المتناقضات . . . وفى النهاية ، عندما تكون الرأسمالية قد بلغت آخر مراحل توسعها ، واستنفدت كافة وسائل تنفسها ، وتكون متناقضاتها بالتالى قد بلغت غايتها من العمق والاستفحال ، تنفجر الأزمة الأخيرة ، رهيبة مروعة ، على نطاق عالمى شامل ، فتتسبب النظام الرأسمالى ، بجميع صوره الاقتصادية والاجتماعية ، من العالم برمته . لكن روزا تكرر دائما أن هذه النهاية ، أى نهاية الرأسمالية بفعل تناقضاتها ، مازالت جد بعيدة ، وأنه ينبغي النظر اليها دائما بهذا الاعتبار ، وأن ماركس قد جانبه الصواب فى تصوره للمرحلة التى ستحل بها .

ولكن هل معنى ذلك أن الرأسمالية ستعمر حتى تواميا هذه النهاية ، أو هذه الميتة الطبيعية ؟ . . . هنا تخرج روزا لوكسمبورج بنظرية جديدة فى انهيار الرأسمالى ، مؤدعا أن هذا انهيار سيقع ، رغم ما تقدم ، عاجلا ، ولكن ليس نتيجة لازمات اقتصادية كما ذهب ماركس ، وإنما نتيجة لعامل آخر هو المنافسة الاستعمارية والتجارية بين الدول الرأسمالية : فتتنافس هذه الدول على غزو المناطق المتخلفة واحتكار أسواقها ومواردها سيضفى الى نتيجة لازمة هى : الحرب فيما بين هذه الدول ؛ وستكون حربا هائلة مدمرة تصارع فيها الأطماع الرأسمالية قد صرعت نفسها بنفسها ، ولن تفعل الثورة العمالية ، التى ينبغي أن تنطلق وقتئذ ، أكثر من مواراتها التراب وحلال النظام الاشتراكى محلها ونعيد التعبير عن هذه النظرية فى كلمات قليلة هى أن انهيار الرأسمالية لن يتم عن طريق موتها وإنما عن طريق انتحارها .

ولقد صحت هذه النظرية بصورة مدهشة فى الحربين العالميتين السابقتين : فالانثتان قد نشأتا بين الدول الرأسمالية بسبب منافساتها الاستعمارية والتوسعية ، وأحدثت كل منهما آثارا مدمرة على اقتصاد وقوة هذه الدول - باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية التى دخلتها متأخرة وكانت أرضها بمنزل عن ساحاتها - وكان من جراء ذلك أن ترنحت النظم الرأسمالية فى معظم أرجاء العالم ، فنشطت الحركات الاشتراكية ، واندلعت ثوراتها ، وحقققت انتصاراتها الحاسمة ، هذه الانتصارات التى جعلت للاشتراكية الآن معسكرا عالميا راسخا يضم ٣٥٪ من سكان العالم أى أكثر من ألف مليون نسمة ؛ ومن الحقائق الثابتة أنه لولا وجود

متجاوبا معها في ذلك • واستشهد بمقالها في هذا الموضوع ، الذي نشر في العدد الثالث من جريدة « روته فاينه » في خطابه أمام المؤتمر الأول للدولة الشيوعية ، وأيد بأصرار ذلك الذي ذهب إليه •

وفي ديسمبر من سنة ١٩١٨ قررت روزا لوكسمبورج وزملاؤها في عصبة اسبارتاكوس تحويل العصبة إلى «الحزب الشيوعي الألماني» ، وأخذوا يملكون عدتهم للقيام بثورة بروليتارية في ألمانيا على غرار الثورة الروسية •

وفي ٦ يناير من سنة ١٩١٩ بدأوا الثورة ، بالاشتراك مع سائر الجماعات اليسارية ، فنظمو اضرايا عاما في برلين ، استجابت له الطوائف العمالية ، وكونوا لجنة ثورية عسكرية لقبادة العمليات المسلحة ، واحتل ثوارهم مركز الشرطة في برلين ، ومكاتب الجريدة الناطقة باسم الحكومة ، وعددا آخر من مباني المرافق الهامة في الدولة • وقاومت الحكومة الثورة بعنف شديد ، بوساطة « الفرق الحرة » ، التي كونتها من الضباط والجنود السابقين ، فغادر القتال في شوارع المدينة ، واستطاعت هذه الفرق أن تقتحم مراكز الثوار ، وتدمر المباني التي استولوا عليها • وما وافى يوم ١٣ يناير حتى انتهى القتال وتم اخاد الثورة •

وفي الكثير من زعماء الثورة من برلين ، وآنزوي في المخايين ، من آثروا البقاء ، وكان من هؤلاء الآخرين روزا لوكسمبورج • وفي يوم ١٥ يناير ، ألقت سرية من الفرق الحرة القبض على روزا لوكسمبورج وكارل لينبخت ، ولم يرق لضباطها أن يدعوا أمرهما للقضاء في المحاكم ، فأطلقوا عليهما الرصاص أثناء اقتيادهما إلى السجن ، فقتل لينبخت في الفور ، ولفظت روزا أنفاسها بعده بساعات قليلة ، ثم أُلقيت جثتها في إحدى الترع ، ولم تنتشل منها الا بعد أيام عديدة •

وبهذه الصورة البشعة كانت خاتمة حياة هذه الشخصية الفذة • التي مهما اختلفت المواقف من آرائها ، فإنها تتحد في التسليم بأنها كانت مفكرة أصيلة ، فاقية النظر ، تركت آثارها جليلة بارزة في تاريخ الفكر الاشتراكي ، وبأنها كانت مكافحة عظيمة ثلاثت في الكفاح من أجل مبادئها بصورة لا تكاد أن يوجد شبيه لها في التاريخ الإنساني بأمره •

محبي الدين خطاب

وتد ألقت روزا في الأيام الأولى تلك الحرب خطية ملتهبة فضحت فيها الأطماع الاستعمارية للسياسة الألمانية وحرضت الجنود جهرا على التمرد وعصيان الأوامر الصادرة إليهم بالقتال ، فحكم عليها بالسجن لمدة عام ، ولكنها وإصنعت خطبها على هذا النحو ، وأخذت تشتد يوما بعد يوم في مهاجمة الحرب واستنهاض العمال والجنود للثورة ، فأودعتها السلطات الألمانية السجن أخيرا في فبراير سنة ١٩١٥ •

ولبت في سجنها حتى أطلقت سراحها الثورة الألمانية ، التي أطاحت بالإمبراطور وأقامت الجمهورية ، وذلك في أوائل نوفمبر من سنة ١٩١٨ • وعلى الفور من ذلك أسست مع كارل لينبخت جريدة « دي روته فاينه » - الرابة الحرة - لتتطرق باسم « عصبة اسبارتاكوس » - وهو الاسم الذي أطلقه اليساريون المتطرفون الألمان على أنفسهم في إبريل سنة ١٩١٧ عندما انفصلوا عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي - وفيها عبرت عن ترحيبها الشديد ، وفرحة عصبتها ، بانتصار الثورة البلشفية في روسيا •

ولكن روزا لوكسمبورج ، رغم ترحيبها هذا ، كانت تساورها الشكوك في سلامة بعض جوانب السياسة التي انتهجتها الثورة الروسية ، وقد أوردتها كتابها « الثورة الروسية » الذي نشر في سنة ١٩٢٢ ، إذ كانت تخشى أن تؤدي دكتاتورية الحزب إلى إقصاء الجماهير العاملة عن الاضطلاع بمسئولياتها وطمس المعنى الحقيقي لدكتاتورية البروليتاريا ، وكانت تتخوف تخوفا جديا من أن يؤدي التركيز المستمر للسلطة داخل الحزب إلى قيام بروقراطية محترقة تخضع الجماهير لحكمها ومصالحها باسم « الثورة » •

الا أنها قد ساهمت بصورة ايجابية مجدية ، رغم قصر المدة التي أتاحت لها فيها هذه المساهمة ، في شؤون هذه الثورة ، وكان من أبرز ذلك معارضتها انشاء « سوفياتات الفلاحين » ومطالبتها بأن ينشأ بدلا منها « سوفياتات الأجراء الزراعيين وفقراء الفلاحين » • وكان لينين

علم

النفس

الصناعي

في

حياتنا

المعاصرة

حرص المؤلف الدكتور السيد محمد خيرى في مقدمة كتابه أن يوضح للقارىء أن مادة كتابه ليست مجرد جمع للحقائق والدراسات والبحوث التى تزخر بها الكتب والمراجع الاجنبية ، وانما تحوى بالإضافة الى ذلك الجهود العقلية فى كل مجال من مجالات علم النفس الصناعى . ولقد أفاد من الخبرات والجهود التى ساهم بها فى عمليات الاختيار والتدريب فى كل من المجال الوظيفى (الادارى) والصناعى حيث عمل عضوا فى الهيئة الفنية لمراقبة الاختبار والتدريب بديوان الموظفين منذ نشأته فى أوائل الخمسينات ، كما عمل مستشارا لمراقبة الاختبارات السيكولوجية بمصلحة الكفاية الانتاجية منذ نشأتها كمركز للكفاية



تأليف : د . السيد محمد خيرى

عرض : د . سيد محمد عثيم

كل قسم بالاعمال التي تناسبه تمسما بدلا من
اللقاء عبه العمل والقدر الاكبر من المسؤولية على
العمال .

كما أشار أيضا الى جهود جلبرت ، تلك الجهود
التي تعتبر حلقة هامة في سلسلة الاهتمام بالعمال
الانساني في الصناعة . وقد اهتم جلبرت اساسا
بالبحث عن « الطريقة المثلى للاداء » بمعنى
الوصول الى الطريقة التي تحقق لكل من صاحب
العمل والعمال أكثر ما يمكن تحقيقه من فائدة
وراحة . كما اهتم أيضا بتطبيق أسس الادارة
السيكولوجية ودراسة الحركة خلال الحرب العالمية
الاولى في تدريب المجندين وتأهيل مشوحي الحرب
واختيار أنسب الاعمال لكل منهم .

وقد تضمن هذا الفصل الاول بالإضافة الى
ما تقدم تحديد ميادين هذا الفرع من فروع علم
النفس وقد حددتها بالمجالات الآتية :

١ - دراسة حاجات المهن واعتماد تطبيق
الاختبارات المناسبة لتحقيق الاختيار العلمي
للعمال ثم التوجيه الصحيح للأفراد ومعاونتهم على
اختيار مهنة الحياة اختيارا صحيحا .

٢ - دراسة خير الطرق لاستخدام الطاقة
البشرية فيما يتعلق بالتخلص من الحركات غير
اللازمة والتوزيع المنهج لفترات الراحة وتقليل
الرقابة الملحة في العمل تحقيقا لزيادة الاهتمام
والثقل .

٣ - الوصول الى الشروط المتعلقة بالإضافة
والتهوية والضوضاء وغيرها مما يؤدي الى أكبر
قدر من الصحة والراحة وصالح العمل بوجه عام
ثم المتعلقة بطرق رفع الاجور وتمثيل العمال . الخ
التي تؤدي الى أفضل العلاقات بين العمال
والادارة .

٤ - تدريب العمال تدريبا فنيا ويتضمن
تطبيق الاسس السيكولوجية في عمليات التعلم
وتكوين العادات الصالحة بين المبتدئين وتدريب
المشرفين .

٥ - دراسة العوامل المؤثرة على بيع المنتجات
كإعلان والدعاية والتخطيط الخ .

وقد أوضح المؤلف أهمية علم النفس الصناعي
في الدول المتقدمة التي استفادت منه أكبر فائدة
في العمل والانتاج والجهود التي كرست لهذا
الفرع والمؤلفات والمجلات العلمية لنشر أبحاثه
ودراسته وخاصة في الولايات المتحدة الامريكية

الانتاجية حتى اليوم ، كما أنشأ قسم الاختبارات
السيكولوجية والإشراف الاجتماعي الذي يضم عددا
من الاختصاصيين السيكولوجيين والاختصاصيين
اجتماعيين والتي قام باعداد وتقنين عدد من
بعاثات الاختبارات للحرف المهنية المختلفة . ومن
هنا جاءت مادة الكتاب مزودة بالدراسات
والبحوث والخبرات المحلية بالإضافة الى الدراسات
والبحوث والخبرات الأجنبية .

والكتاب الذي تقدمه يقع في ٥٣٣ صفحة من
القطع الكبير نشرته دار النهضة العربية ويحتوي
على عشرة فصول يعالج كل فصل منها موضوعا
من موضوعات علم النفس الصناعي .



والفصل الاول يضم نبذة عن نشأة علم النفس
الصناعي من حيث هو أحد المجالات التطبيقية لعلم
النفس . فتمتد بحوث كربلن في أواخر القرن
الماضي عن التعب والتدريب ومدى تأثيرهما على
الانتاج في مراحل زمنية مختلفة ، قامت سلاسل
من الدراسات تبحث العمل في جميع مظاهره
يهدف الوصول الى حقائق عامة ونظريات تتعلق
بالعمل بوجه عام وتفسير دوافعه ومراحله وتطوره
مهما اختلفت ظروفه واختلفت القوانين به .
فشملت الدراسات المتعلقة بفترات الراحة واثري
عدها او تنوع النشاط الذهني والبدني الذي
تستغل فيه هذه الفترات ، وكذلك اثر تغير طول
ساعات العمل اليومي على الانتاج وتغير كمية
الانتاج ونوعه بالتقدم الزمني أثناء العمل وكذلك
منحنيات العمل او منحنيات التعلم التي توصلت
اليها هذه الدراسات ، الى غير ذلك من الموضوعات
المتصلة بطبيعة الاعمال الروتينية والابتكارية
وتجارب التعب وقياسه وانتقال اثر التدريب
والتعب الذاتي وتذبذب الانتباه الخ .

وقد أشار أيضا الى الجهود التي قام بها كثير
من علماء النفس الصناعي في هذا الصدد . فأشار
الى دراسات تايلر والاسس العلمية التي اقام
عليها هذه الدراسات والتي تتلخص في الدراسة
العلمية لكل عنصر من عناصر العمل الذي يقوم
به الانسان واختيار أنسب العمال لكل عنصر من
عناصر العمل وتنظيم برنامج تدريبي للعمال بناء
على دراسة المعسل ثم اشاعة جو من التعاون
المخلص بين الادارة والعمال أثناء قيامهم بالاعمال
التي يكلفون بها مما يعطي فرصة كافية لعمل كل
من الطرفين لصالح الطرف الآخر ثم تقسيم الاعمال
تقسيم متعادلا بين الادارة والعمال حيث يقوم

تنظم القدرات في توزيعها بين مختلف الأشخاص في إطار عام أم إنها تتوزع حسبها اتفق دون أن تجتمع تحت نسق عام ، ثم ما متى التفاسير الموجودة بين مختلف الشخصيات في أية سمة أو قدرة معينة . كما أوضح أيضا أن هذه الفروق ليست قاصرة على الفروق بين الأفراد بل وتنشع أيضا داخل الفرد الواحد . ذلك أن إمكانيات الفرد الذهنية والانفعالية ليست كلها في مستوى واحد . فلكل منا جوانب يتميز فيها على باقي الجوانب الأخرى . ومن الثابت أن الجوانب المختلفة في شخصية الفرد ليست في مستوى نسبي واحد . وهذا لا يتعارض مع وحدة الشخصية وتمايزها عن غيرها . وهذا الاختلاف في المستوى النسبي لمختلف جوانب الشخصية هو الذي يجعل لكل فرد أسلوبه المميز في سلوكه وأسلوب تفاعله مع غيره ، وهو الذي يحدد درجة نجاح الفرد في مختلف الأعمال ويضفي على أسلوب سلوكه انتظاما واستقرارا ، وهذا ما يساعد على إيجاد وحدة الشخصية وتمايزها .

وهذا الاختلاف في الجوانب المختلفة من حيث المستوى النسبي للفرد الواحد قد أوحى للباحثين تخطيطا واحدا لكل شخصية توضح هذه الفروق بحيث تسهل المقارنة بين المستويات المختلفة في الشخصية الواحدة مما أدى إلى استخدام ما يسمى باسم الصفحة النفسية أو البروفيل النفسي الذي هو تخطيط يوضح الوضع النسبي للفرد (بالنسبة للعينة المثلة لمجمعه) في مختلف جوانب الشخصية بحيث يستطيع الاخصائي من نظرة مباشرة فاحصة لهذا التخطيط الوقوف على نواحي القوة والضعف وبهذا يتسنى له إجراء عملية الاختيار والتوجيه على هذا الأساس .

وقد تطلب الأمر معالجة بعض المفاهيم الإحصائية التي تتصل بهذه النواحي كالدرجات الخام والدرجات النسبية وجداول المعايير ، وكيف أن المعيار الذي تنسب إليه أية درجة من الدرجات الخام يتوقف على طبيعة الاختيار وطبيعة عينة التقنين ، وكيف أن تقييم الفروق الفردية عن طريق الاختبارات والمقاييس السيكولوجية إنما هو تقييم نسبي وليس مطلقا وهو في هذا يختلف عن المقاييس المادية المستخدمة في أي فرع من فروع المعرفة الأخرى كالطبيعة والكيمياء .

وقد تضمن هذا الفصل الثاني أيضا إشارة إلى أهم أنواع الاخطاء التي تعترض لها تقديرات

وانجلترا وألمانيا والاتحاد السوفيتي . كما أشار أيضا إلى الجهود التي تبذل في الدول النامية لإفادة من هذا الفرع وخص الجمهورية العربية المتحدة بالذكر . وقد ركز على مجالين فقط من عديد من المجالات التي استخدمت فيها الأساليب السيكولوجية على نطاق واسع وهما جهود ديوان الموظفين ومصحة الكفاية الانتاجية بوزارة الصناعة . فديوان الموظفين منذ نشأته عام ١٩٥٢ قد ركز على هذا الجانب الهام وضمن أقسامه إدارة عامة للاختيار والتدريب هدفها الاختيار السليم للموظفين بناء على أسس علمية سليمة متبعة أحدثت الاختبارات التي اقتبست والتي أعدت لتحقيق هذا الهدف . أما مصحة الكفاية الانتاجية فقد اتسعت اهتماماتها لتشمل ميدانين هامين من ميادين علم النفس الصناعي هما :

١ - التدريب المهني ويشمل مراقبة الاختبارات السيكولوجية والإشراف الاجتماعي ومراقبة مراكز التدريب ومراقبة الإشراف والتتبع .

٢ - ميدان الكفاية الانتاجية وتشمل مراقبة الإدارة العامة ومراقبة المشروعات النموذجية ومراقبة الأمان الصناعي ومراقبة التكاليف الصناعية ومراقبة الاستعلامات الفنية والعلاقات الصناعية .

وإذا كان علم النفس الصناعي يهتم بالعمل والانتاج ، فمن الطبيعي أن يركز أساسا على دراسة الإنسان العامل . وأول ما يلفت النظر في هذه الدراسة مسألة الفروق الفردية الموجودة بين العاملين في أدائهم لما يطلب إليهم القيام به من أعمال من حيث السرعة والدقة والانتقان . ولذا اختص الفصل الثاني من الكتاب بدراسة الفروق الفردية وطبيعتها ومداها . فلكل منا شخصية فريدة لا يعادله فيها أحد . وهذه الشخصية تنعكس في سلوكه وتفاعله مع غيره ، في استعداده الذهنية وميوله وغير ذلك من المميزات القسورية والنفسية التي تؤثر تأثيرا مباشرا أو غير مباشر في إنتاجه . وكان من الطبيعي أن يقوم علم النفس الصناعي في أغلب بحوثه وحققاته التي يصل إليها على الاعتراف بهذا البعد أساسا . وقد أشار المؤلف إلى حقيقة هذه الفروق الفردية ونشأتها وتطورها وكيف أن أهمية الاعتراف بها في ميدان الصناعة والعمل لا يمكن اغفالها في عمليات الاختيار والتوجيه والتدريب . وقد عالج بعض المشكلات المتصلة بطبيعة هذه الفروق الفردية وهل هي فروق كمية أم نوعية ، وهل

الفروق الفردية فأشار الى الخطأ الثابت الذي يعبر عن ميل الإحصائي نحو إعطاء تقديراته لمختلف الأشخاص في اتجاه معين كالميل الى التشدد أو التساهل في إعطاء التقديرات ثم الى خطأ الهالة الذي يتضح في انتقال الانطباع العام الذي يحدثه الشخص لدى الإحصائي الى تقديره في سمات نوعية محددة . فالشخص اللبق الذي يحسن التعبير عن نفسه كثيرا ما يستطيع التأثير على تقديرات الإحصائيين له في جوانب محددة من جوانب الشخصية كالذكاء والقدرة على التعاون والأمانة مثلا .

وقد احتوى هذا الفصل أيضا تعريفا بأهم أنواع طرق التقدير حيث ميز أربعة أنواع منها هي :

١ - طريقة الترتيب وتشير الى عدد الأفراد الذين يتفوق عليهم أو يتخلف عنهم وإن كانت هذه الطريقة لا تشير بوضوح الى درجة التفوق أو التخلف .

٢ - طريقة قياس التقدير حيث يطلب من الإحصائي وضع المختبر في فئة معينة من عدد - الفئات التي تعطى له وقد تكون هذه الفئات عديدة على مقياس متدرج أو نوعية منفصلة .

٣ - طريقة قائمة الصفات حيث يوضع أمام المقدر عدد من الصفات أو السمات ويطلب اليه أن يضع علامة أمام الصفات التي يرى انها تنطبق على الشخص الذي يقوم بتقييمه ويراعى أن تتضمن العبارات مختلف الجوانب التي يتخذها أساسا للتقييم وعلى درجات مختلفة من القبول والرفض بالنسبة لهدف التقدير .

٤ - طريقة الاختيار التفضيلي حيث تقدم للإحصائي مجموعات من العبارات كل مجموعة تتكون من عدد محدد من العبارات قد تكون عبارتين أو ثلاثة أو أربعة وعلى المختبر أن يضع علامة أمام العبارات التي تنطبق على المختبر بدرجة أكبر .

وإذا كانت عملية الاختيار تتضمن تحليل الشخص الى مواصفات أساسية للكشف عن مدى ملائمة لكل عمل ، فمن الضروري أيضا أن تحليل العمل نفسه الذي يتقدم له الشخص بحيث نقف على أقل قدر من العوامل المتطلبية التي تعطى صورة كاملة وكافية عن كل ما يحدد متطلباته وظروف العمل فيه . وهذا ما اشتمل عليه الفصل الثالث من الكتاب حيث نجد دراسة مستفيضة لتحليل العمل . ومن الطبيعي أن يصعد المؤلف أهداف

تحليل العمل حيث لحصا في الاهداف الآتية :

١- إيجاد مقاييس لكفاءة العامل في عمله - تنظيم الاعمال - تقييم الاعمال - اختيار العمال الجدد - تحسين أساليب العمل - تحسين الادوات والاجهزة - اعداد برامج التدريب - تهئية جو للعمل يؤدي الى توفر الأمن الصناعي .

ومن الطبيعي أن يشير المؤلف الى أهم المصادر التي يستقى منها محلل العمل بياناته فأشار الى بعضها وهي ملاحظة العمال أثناء أداء أعمالهم وهذا هو المصدر الأول والطبيعي للحصول على بيانات تحليل العمل ثم المقابلات الشخصية التي تتم مع العامل ثم المقابلات مع المشرفين ثم الاستبيانات ثم النشرات والكتيبات والمطبوعات المتعلقة بالعمل .

وقد أوضح المؤلف أيضا أهم الوسائل التي تتبع في تحليل العمل ف أوضح ان الاسلوب المستخدم في تحليل العمل والكيفية التي يؤدي بها توقف الى حد كبير على نوع العمل الذي يحلله وطبيعته . فالاعمال اليدوية تختلف اختلافا واسعا في طبيعتها ودرجة سهولتها وتقيدتها . كما ان نقطة التركيز في أية عملية من عمليات التحليل تختلف تبعاً لذلك . وقد أشار المؤلف الى أهم الوسائل المستخدمة في تحليل العمل في النواحي الآتية :

١ - تحليل الحركات وهذه ليست بالمهمة السهلة لان تتابع الحركات في أي عمل يكون عادة أسرع من قسدة المحلل على متابعة التحليل والتسجيل وخاصة في الاعمال المعقدة المنظمة وهنا أشار المؤلف في هذا الصدد الى دراسات جلبرت .

٢ - تحليل الواجبات والمواقف واساليب العمل .

٣ - تحليل العامل نفسه بقصد (أ) تحليل الحد الأدنى للإمكانات اللازمة للنجاح في العمل (ب) تحديد مدى الأهمية النسبية لمختلف الاستعدادات والسمات والمهارات وغير ذلك من خصائص الفرد . وهنا يشير المؤلف أيضا الى أولى المحاولات التي بذلت في تحليل قدرات العامل وهي التي قدمها فينليس .



في أوائل العقد الثاني من هذا القرن والذي ظلت طريقته في هذا التحليل متبعة بعد ذلك حتى اليوم . ومن النواحي الهامة التي أشار اليها المؤلف في هذا الفصل استمارة تحليل العمل وقد

قدم نموذجا لهذه الاستمارة المستخدمة في القسم
السيكولوجي بمصلحة السكفاية الانتاجية والتي
تتضمن جواب أهمها نشاط العامل والحجرة
السابعة والتدريب وعلاقة العمل بغيره ومدته على
تحمل المسئولية وتفهم العامل للعمل ومدته على
التصرف العلي وما لديه من مهارة ودعة في العمل
ثم وصف الاجهزة والادوات ثم تعريف بالمصطلحات
والتطلبات البدنية للعمل ثم تعليقات عامة .

كما قدم نموذجا آخر محليا ايضا هو استمارة
تحليل العمل التي استخدمت في ديوان الموظفين
والتي تتضمن نواحي عامة مثل وصف لعمل
الوظيفة ووصف تحليل لخطوات العمل والمميزات
الخاصة بالوظيفة والادوات التي تستخدم في
الوظيفة ونوع التعليمات التي تصدر في العمل
من الموظف وليه ومدى الدقة المطلوبة في أداء
العامل ومدى حرية الموظف في التصرف ومدى
الإشراف على أعمال الوظيفة ورقابة الموظف على
أعمال الغير والوظائف التي لها صلة مباشرة بتلك
الوظيفة .

وقد أشار المؤلف أيضا الى نواحي احصائية
عامة نظرا لما يعترض عملية تحليل العمل من اثر
ذاتي اذ يلزم حساب درجة ثبات التقديرات قبل
الاعتماد على عملية التحليل في العمليات
السيكولوجية التنبؤية ومعرفة مدى الانفاق أو
التباين بين تقدير الاخصائيين المختلفين لدرجة
أهمية السمة للنجاح في العمل .



أما الفصل الرابع فقد تضمن دراسات الزمن
والحركة وهي دراسات تحتل جانبا هاما في علم
النفس الصناعي . وتهدف هذه الدراسات الى
تتبع أداء الأعمال بأساليبه المختلفة للوصول الى
الإداء الفعال بأقل قدر من الحركات وأقل قدر من
الزمن وذلك لتوفير القدر الأعظم من السكفاية
الانتاجية . ويرجع الفضل في هذا النوع من
الدراسات الى تلك البحوث التي قام بها جيلبرت
وتايلور . وقد استخدمت الوسائل الحديثة في
هذه الدراسات ، فتمكن استخدام الادوات الحديثة
في تسجيل الحركات الدقيقة كما استخدمت
الكاميرات المجسمة للحصول على تسجيل ثلاثي
للبعد والحركة .

وقد عرض المؤلف لبعض النقاط الهامة كدراسة
خاصية ثبات السلوك أو تغيره ثم المحكات اللازمة
لصلاحية العمل وأوضح ان المحك الاساسي الذي
تضمه دراسات الزمن والحركة في اعتبارها عند



تقرير الطريقة المثلث هو سرعة الانتاج كما أشار الى أسس الاقتصاد في الزمن والحركة . كما أشار الى تقسيم بارنز للأسس المتعلقة باستخدام جسم القائم بالعمل ثم الأسس المتعلقة بتنظيم مكان العمل ثم الأسس المتعلقة بتصميم الآلة والأدوات المستخدمة .

وقد أمكن للمؤلف في ضوء الدراسات التجريبية المتعلقة بالزمن والحركة الوصول الى أسس عملية تساعد في أداء أى عمل لحصها في النقط الآتية :

١ - أن نحدد منذ البداية المنطقة من الجسم وما يحيط به والتي يستطيع الشخص أداء العمل فيها دون إرهاق . ويمكن استخدام هذه القاعدة في جميع أنواع الأعمال سواء كانت صناعية أو مكتبية .

٢ - ترتيب الأدوات ووضعها في الوضع المناسب قبل القيام بالأداء .

٣ - الاستفادة قدر الامكان من حركة اليدين معا وما تؤديانه من انتاج .

٤ - ادخال التوقيت في الحركات

٥ - استسقاط الانتاج المنتهى عند التسليم يساعد كثيرا على استغلال مساحة مكان العمل في الأعمال المنتجة .

٦ - إعادة تصميم الآلات والمعدات المستخدمة كليا من وقت على استخدامها بصورة ثابتة .

٧ - وضع خريطة مرسومة للأداء توضح تسلسل العمليات اللازمة للأداء خطوة خطوة .

ولم يغفل المؤلف في هذا الفصل أيضا البحوث المحلية في دراسات الزمن والحركة فقدم أمثلة لها بالبحوث التي أجراها المتخصصون في مصلحة الكفاية الانتاجية لتقليل الحركات اللازمة والزمن المستغرق في بعض العمليات كصناعة الجوانات وكذلك البحوث التي أجريت في شركة إيسترن للدخان ثم ما قام به مهندسو قسم دراسة العمل بأحدى شركات الفزل والنسيج الكبرى فيما يتصل بدراسة قسم طباعة الاقمشة بغرض زيادة نسبة الانتفاع من ماكينات القسم وقد شملت هذه الدراسة ناحيتين الاولى عمل دراسة لنسبة الاعطال للماكينات للوصول الى نسب الانتفاع من الماكينات وسبب العطل والاخرى دراسة طرق تخطيط ومراقبة الانتاج بالقسم ومحاولة تحسينها ثم اخيرا الدراسات التي أجريت في قسم تنظيف

المسبوكات بأحدى شركات الفزل الكبرى .

ويضم الفصل الخامس من هذا الكتاب مشكلة من أهم المشكلات التي تقابلنا في ميدان علم النفس الصناعي ونعني بها مشكلة الاختيار المهني . وفي هذه المشكلة حل لكثير من المشكلات التي تواجهنا في مجال الانتاج والعمل . فوضع العامل المناسب في المكان المناسب الذي يتفق وقدراته واستعداداته يعتبر مطلباً هاماً من مطالب الانتاج والعمل وما يترتب على ذلك من نتائج مثل الزيادة في الانتاج والزيادة في الدخل القومي الى غير ذلك من المشكلات التي تعاني منها الدول النامية .

وليس من شك ان الاختيار السليم يؤدي الى حسن توافق العامل في عمله واحساسه بالكفاية والصحة النفسية . فوضع الفرد في العمل الذي يناسبه جسدياً ونفسياً أهم ما يسبب له التوافق النفسي وأهم ما يجعله مستعداً لأقصى ما تؤهله طبيعته وامكانياته من انتاج . ولذا فسر الاختيار يؤدي بالتالى الى سوء المواءمة وسرعة فقدان التوازن النفسي وسرعة الاستئثار والشعور بالارهاق واضطراب العلاقات النفسية والاجتماعية بين



المكان المناسب وكان من أهم نتائجها زيادة إنتاج المصنوع أو المؤسسة • وقد أشار المؤلف إلى الأسس العلمية التي يقوم عليها الاختيار المهني والتي تهدف إلى إحلال كل فرد في الحرفة التي يستطيع أداؤها والحرفة التي يستطيع أن يتوفق منها توفقاً انفعالياً والحرفة التي تجعله يشعر بمركز اجتماعي مناسب • وضرب لنا أمثلة بخطة الاختيار في مصلحة الكفاية الانتاجية وأساليب الاختيار المتبعة فيها • وليس من شك أن عملية الاختيار تعترضها الكثير من المشكلات التي أصعبها العدد المتقدم والعدد المطلوب وفرص الترقى وتقدم المختارين في سلم الترقى ثم انترقي بين الخبرة السابقة والقدرة على أداء العمل الجيد ونقل القوائم بالعمل إلى عمل آخر ثم صدق أسلوب الاختيار وانتقاء المحك المناسب •

وبالإضافة إلى عمليات الاختيار والتوجيه عاجل المؤلف عملية أخرى هي عملية التأهيل المهني ويقصد بها توجيه الشخص لعمل جديد يتفق وحالته الجديدة التي تغيرت عن حالته السابقة بدرجة جعلته غير صالح للقيام بعمله السابق كتأهيل المرضى والمعوقين والمسنين • وبذلك يهدف

العامل والمحيطين به، وما قد يبدو عليه من أعراض نفسية وسيكوباتية ومظاهر سلوكية مضطربة ، وما قد يصبح ذلك من نتائج أخرى تتضح في نقص الكسب المادي نتيجة التغييب والتمارض والإصابة في العمل وكثرة التنقل من عمل إلى آخر ومن مؤسسة إلى أخرى، وما يصبح هذا التنقل من شعور بالخيبة واليأس وضعف الثقة بالنفس وبقدرة الفرد •

ولعل أهم ما يقنع صاحب العمل بأهمية الاختيار المهني هو الانتاج فهو النتيجة المادية الملموسة التي توضح القيمة العلمية لاتباع الأساليب السيكولوجية في عمليات الاختيار • والحقيقة أنه عندما يقتنع صاحب العمل أن ما ينفق من مال ووقت وجهد في عمليات الاختيار يعوضه ما يعود عليه أو على المؤسسة من جراء زيادة الانتاج وتحسينه ، فإن هذه تكون أولى المبررات التي تجعله يرحب باتباع هذه الأساليب ، ومن هنا رحبت الكثير من المؤسسات والمصانع بإجراء البحوث العلمية في هذا الصدد • وقد أجريت الاختبارات السيكولوجية والمهنية العديدة التي كان من أهم أهدافها حسن اختيار العامل ووضعه في

مستوى من الكفاءة فيما يكلفون به من أعمال وخاصة وأن أعمال التصنيع في تجدد مستمر .
ولذا عالج في الفصل التاسع مشكلة التدريب المهني . وقد أوضح المؤلف أهداف التدريب والتي تتلخص في :

١ - الارتقاء بمستوى مهارة العامل في أدائه لمستوى عمله حتى يرتفع بذلك انتاجه كما ونوعا وبذلك يهدف التدريب الى زيادة سرعة الاداء او دقته .

٢ - اكساب افراد قدرا اضافيا من المعلومات الجديدة اما عن المؤسسة او الشركة التي يعمل بها كما يحدث عادة في حالات العمال الجدد او عندما يحدث تغيير جوهري في نظام المؤسسة او اهدافها .

٣ - تعديل العادات المتبعة في أداء العمل ويرتبط هذا الهدف بالهدف الاول ارتباطا وثيقا لان تعديل العادات المتبعة أثناء الاداء يهدف عادة الى اهداف تتعلق بالانتاج وبالعامل نفسه .

٤ - وأخيرا تعديل الاتجاهات ويتعلق هذا انهدف بالعلاقات الانسانية والعلاقات العامة مما يؤدي الى رفع الروح المعنوية وتحسين العلاقات المتبادلة داخل المؤسسة الصناعية .

وقد أوضح المؤلف الاسس السيكولوجية لعملية التدريب واسلوب التدريب ثم مشكلة الدوافع والحوافز في عملية التدريب كما رسم الخطوات العملية للتدريب من تحديد اهداف البرنامج ووضع برنامج التدريب واختيار المدربين واعداد الظروف المناسبة لتنفيذ برنامج التدريب من حيث الميزانية والفترة الزمنية للتدريب ومكان التدريب ثم اختيار المدربين وما ينبغي أن يتوافر فيهم من حيث الخبرات التي يجب أن ينقلها الى المدربين ثم قدراتهم على نقل الخبرة ثم أخيرا تقييم التدريب ومتابعته والاساليب التي يمكن أن تتبع في هذه الصلة - استبيانات لاستطلاع رأى المدربين أو استطلاع رأى المشرفين والمدربين أو مقارنة الاداء الفعلي للدارسين قبل التدريب وبعده .

ولقد اختتم المؤلف حديثه عن التدريب المهني بالتطبيقات المحلية . فإشار الى عينة من الجهود التي تبذلها الدولة في مجال التدريب المهني وتناول ميدانين أساسيين من ميادين العمل في الدولة هما الميدان الوظيفي الإداري ثم ميدان

التأهيل المهني الى تحويل هؤلاء الاشخاص العاجزين او الذين يشعرون بحجزهم وتخلّفهم عن ركب الانتاج الى فئة صالحة للعمل قادرة على الانتاج والكسب والاعتماد على أنفسهم .

أما الفصل السادس والسابع والثامن فقد خصصت لدراسة الوسائل المختلفة التي تستخدم في عملية الاختيار والتوجيه والتأهيل المهني .
فدرس في الفصل السادس استمارة الالتحاق أو الصحيفة الشخصية وكيفية تحليل استمارة التقديم وعملية تقدير الاستجابات وتقييم استمارة التقديم . كما اختص الفصل السابع بدراسة الاختبارات السيكولوجية وقد قام المؤلف بدراسة واسعة لهذه الاختبارات من حيث خصائصها ومن حيث هي وسيلة للتنبؤ ، كما أشار الى عمليات تقنين الاختبار وعمليات الثبات والصدق والاساليب التجريبية لحساب معامل الصدق ومعامل صدق بطارية مكونة من عدد من الاختبارات ثم تحليل الوحدات واختيار الوحدات وصعوبتها . وقدم نماذج من الاختبارات المهنية المستخدمة في الجمهورية العربية المتحدة . كما عرض نماذج أخرى من اختبارات الذكاء والاختبارات العملية التي تستخدم في المجال الصناعي وكذلك اختبارات السمات الانفعالية في الشخصية والاختبارات الاسقاطية الخ .
أما الفصل الثامن فقد قصره على دراسة المقابلة الشخصية وهي إحدى الوسائل الهامة التي تستخدم على نطاق واسع في مجال الصناعة وفي غيرها من المجالات ، وهي من الوسائل التي يرضى عنها الاخصائي السيكولوجي ورجل الاعمال الذي ليست لديه خبرة سيكولوجية معينة على استخدام غيرها من الاساليب الاخرى للاختبار . وقد أشار ايضا الى ضرورة اخضاع المقابلة للأساليب العلمية من مقاييس للدقة والصدق والثبات كما ينبغي أن تكون مبنية على تخطيط علمي سليم يليها من أخطاء الملاحظة العابرة وأخطاء الاستنتاج المتسرع . ولذا ينبغي أن يقوم بالمقابلة خبير سيكولوجي مدرب على الملاحظة العلمية والاستنتاج السيكولوجي والتقدير العلمي لمختلف السمات بنسبة على هذه الملاحظة وتلك الاستنتاجات .

أما الفصل التاسع فقد عالج فيه مشكلة من أهم المشكلات التي تواجه الادارة في أية مؤسسة صناعية وهي مشكلة احتفاظ العاملين بها بأعلى

آلات معقدة ويتداول آلات حادة ودقيقة وحسين يستعمل في هذا كله مواد تحتاج إلى حرص زائد وحذر في استخدامها كالواد الحادة أو الحادة وحسن يعرض أثناء عمله لضغوط فيزيكية غير ضمنية تجعل بيئة العمل عليه تتساقط بالصوت والضوضاء والروائح الحادة وغير ذلك مما تضعه ظروف العمل في مواقف تعرضه أكثر من غيره للاصابات والحوادث ولا يمكننا ان نعتبر ان حلول الصابات في المجال الصناعي انها هو محض صدفة . فمثل اصابة بطبيعة الحال عوامل واسباب يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها والكشف عن هذه الاسباب ومدى اسهامها في حدوث الإصابة أو الحادثة كل هذا امر يحتاج إلى دراسة علمية من متخصصين فنيين وهذه هي وظيفة سيكلوجية الأمن الصناعي . ولقد كشف المؤلف بالإرقام حجم المشكلة في الجمهورية العربية المتحدة وكيف ان حوادث العمل تتزايد بشكل واضح في السنوات الأخيرة كما يزداد معدل الصابات الناشئة تكراراً وشدة . وقد قدم المؤلف في هذا الفصل دراسة واسعة للحوادث والصابات وتصنيفاً للصابات تبعاً لشدة الإصابة ومكان الإصابة وعرض كذلك للاسباب الذاتية والبيئية للإصابة واختتم حديثه بدراسة تلك الظاهرة التي نلمسها لدى بعض العاملين والتي تعرف باسم الاستهداف للإصابة : فهناك أشخاص أكثر استهدافاً للصابات عن غيرهم من الأشخاص وعرض في هذا الفصل لبعض الدراسات المحلية التي أجريت عن حوادث سائقى اتوبيسات النقل العام .

ولعلنا نكون قد قدمنا للقارئ صورة عن هذا الكتاب الذى استحق مؤلفه عليه جائزة الدولة التشجيعية . ولا يغنى التلخيص عن قراءة الكتاب لمن أراد الاستزادة في هذا المجال الحيوى مجال العمل والانتاج . فالدراسات التى يضمها الكتاب والبحوث المحلية والاجنبية التى عرض لها تخدم مجالاً هاماً من مجالات الحياة وترسى الاسس العلمية والسيكلوجية التى يجب ان تتم في مجال الصناعة . ان التقدم التكنولوجى يعتمد أساساً على الدراسات العلمية والبحوث السيكلوجية لكل من العامل والعمل والعلاقة التى تربط كل من هذين المتغيرين أحدهما بالآخر .

سيد محمد غنيم :

الصناعة . ففي الميدان الاول نجد الجهود التى يقوم بها حالياً الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة والذى كان الهدف من انشائه « تطوير مستوى الخدمة المهنية ورفع الكفاءة الانتاجية وتحقيق العدالة في معاملة العاملين والتأكد من مدى تحقيق الأجهزة التنفيذية لمسئولياتها في ميدان الانتاج والخدمات » . كما أشار إلى ما يقوم به معهد الإدارة العليا من جهود والذى كان الهدف من انشائه أيضاً « إعداد الموظفين العموميين أعداداً علمياً وعملياً على نحو يكفل الارتفاع بمستوى الإدارة » . كما أشار أيضاً إلى الجهود التى يقوم بها المعهد القومى للإدارة العليا الذى كان الهدف من انشائه « القيام بالبرامج العلمية والتدريبية وغيرها من أوجه النشاطات التى تخدم هدف تنمية الإدارة وتأهيل المديرين على مختلف المستويات وفي مختلف التخصصات ورفع مستوى الكفاءة الإدارية في كل من القطاعين العام والخاص في الجمهورية العربية المتحدة والقيام بالبحوث في ميادين إدارة الأعمال بما يؤدي إلى زيادة المعرفة بإمكانات استخدام الطريقة العلمية في الإدارة والتنظيم وتقديم خدمات الاستشارات والخبرة بما يساهم في حل المشاكل الإدارية الفعلية في مختلف الميادين الوطنية وتقديم الخدمات والمعلومات الفنية في هذه المجالات للدول التى تشارك الجمهورية العربية المتحدة في علاقات تتصل بأغراض المعهد » .

أما التدريب في مجال الصناعة فقد أشار المؤلف إلى قسمين رئيسيين فيه هما التدريب المهني ويتضمن انشاء مراكز للتدريب المهني تتبع نظام التلمذة الصناعية لتدريب التلاميذ الذين أتموا المرحلة الإعدادية والقياس بعمليات تدريب سريع لأعداد عمال نصف مهرة متخصصين في نوع معين من الأعمال . أما النوع الثاني فيشمل تدريب المشرفين وأعداد برامج خاصة بهم في العلاقات الانسانية وتوجيه التعليمات وتبسيط العمل وسلامته .

ويختتم المؤلف كتابه بفصل في غاية الأهمية بالنسبة للصناعة ونعني به « سيكلوجية الأمن الصناعي » . وهو موضوع من موضوعات الصناعة له اثره البالغ على الانتاج كما ونوعاً ، كما له اثره البالغ على نفسية العاملين في المؤسسات وشعورهم بالاستقرار الانفعالي والأمن فالعامل حين يعمل على

التخطيط الزبدي في البلاد النامية

د. سعيد اسماعيل

لحاله في المراحل التي يجتازها خلال سعيه لتحقيق أمانيه . أو هو عملية مناقشة عوامل الانتاج في المجتمع بشتي صورها وألوانها بقصد تفسير الصالح منها وتدعيمه وتوجيهه لتحقيق أهداف معينة ، وبغرض النهوض بمستوى المعيشة ، فهو على هذا الأساس وسيلة إلى غاية . وهو يتكون من مجموعة من الأفكار والتدابير والخطوط والأساليب التي تدور حول بضعة مثل وآمال ، تسيطر على ذهن الفرد أو تسيطر على عقول الجماعة وتأخذ بها الدولة أو الهيئة المسئولة ، أو الفرد صاحب العلاقة أو الفرد صاحب المصلحة لكي تصاغ - إن كانت ذات نفع وفائدة - في قوالب هي المشروعات التي تحال ثانية إلى خطوات تنفيذية حتى تصبح حقيقة واقعة .

وفكرة التخطيط الشامل أو التخطيط للدولة ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، وظهرت بوضوح أكثر بعد الحرب العالمية الثانية . ومن أولى الدول التي وضعت لنفسها مخططا كانت روسيا ،

من الطبيعي أن يكون لكل فرد منا قيم وأهداف وتطلعات ، وإن تكون له مشاكل تعترض طريق حياته . والتخطيط في أبسط صورة له هو التنسيق بين ما يرغب الفرد أن يحققه لنفسه أو لاسرته أو للجماعة التي ينتمي إليها ، وبين إمكانياته وما يقع تحت يده من قدرات مادية وبشرية ، بالإضافة إلى الظروف البيئية والزمنية التي يمكن أن تتحكم فيه - وذلك في حدود فترة زمنية معينة يهيئ خلالها لنفسه نفعا أو مصلحة أو يحقق له ولغيره حياة أفضل أو مركزا أرقى أو غنا من نوع معين . فالتخطيط هنا هو محاولة من الفرد لاستثمار موارده إلى أقصى حد ، بغرض تحقيق أهداف معينة في فترة زمنية معلومة مع السعي المتواصل لتنمية قدراته وموارده لتحقيق مزيد من الأهداف .

والتخطيط في صورته الأكثر تفصيلا رسم لصورته المجتمع في حياته المستقبلية ، وتقدير

إن التطور المفتوح السريع
يخلق حاجات جديدة ، ويريد
الحاجة إلى العلماء والفنيين
والإداريين ، كما يورث إلى
تغير واضح في توزيع الطاقة
العالمية على بوالاثر النشاط
الاقتصادي المتخلفة .



عدم النمو في نواحي التصنيع ؟ هل هو صفر متوسط دخل الفرد ؟ لقد كان متوسط دخل الفرد في الكويت - مثلاً - يزيد منذ ست سنوات بمقدار ٤٠٠ دولار سنوياً عن متوسط دخل الفرد في الولايات المتحدة - فما هو المقياس للدلالة على أي البلدين أكثر تقدماً من الآخر ؟

إن التربية والتعليم من أهم معايير التقدم الاجتماعي ، ومن أنجح الوسائل المؤدية إلى النهوض الاقتصادي * فرفع مستوى الحياة من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية متوقف أولاً وقبل كل شيء على التعليم * أي على تعهد الثروة الطبيعية الكامنة في البشر بالكشف والاستنباط والتجميع والتهديب والتدريب والتوجيه إلى الوجهة الإيجابية البناءة التي تبني لصالح المجتمع وتبني في نفس الوقت لصالح الفرد *

وإذا كان هذا يعد مبرراً كافياً يبين أهمية التخطيط التربوي وضرورته في أي بلد وفي أي

ولعل هذا هو أحسن الأسباب السيكولوجية القوية التي خلقت نوعاً من المقاومة اللاشعورية عند الكثيرين في بداية الأمر ضد التخطيط قبل أن تأخذ الاتجاهات الاشتراكية مكانها في البلاد النامية * ولكن التخطيط لا يخرج عن كونه أسلوباً علمياً سليماً للبحث والتفكير والعمل الهادف *

في الوقت نفسه نلاحظ مع الحركة الهائلة في ركب التحرير من الاستعمار ، وهي الحركة التي بدأت في الثلث الأول من هذا القرن ، ثم اتسعت أولاً في آسيا ثم في إفريقيا ، نلاحظ مع نيل الاستقلال اتجاهنا نحو النمو الاقتصادي والاجتماعي وهذا النمو الاقتصادي والاجتماعي لا بد أن يكون سريعاً ، لأن الدول الحديثة الاستقلال دول متخلفة ولأن الدول المتقدمة تسير في التقدم بسرعة هائلة والسرعة المطلوبة في النمو مع التعدد الهائل في العوامل وتنوعها وتشابكها ومرتبتها هي التي تجعل التخطيط أمراً لا بد منه * ولكن ما معنى التخلف ؟ هل هو هبوط مستوى الحياة ؟ هل هو

طريق هذا الاعداد أن نلبى حاجة مجتمعنا المتزايدة الى العلماء والفنيين والاداريين ونعيت نستطيع أن نتكيف مع ظاهرة انتقال الطاقة العاملة وتوزعها توزيعاً جديداً ، ومثل هذا التغير في طراز الاعداد التربوي كما وكيفاً يتطلب تخطيطاً تربوياً يقيم وزناً لهذه الحاجات المستجدة .

وقد بدأ التخطيط التربوي يأخذ مكانه بالفعل منذ سنوات في البلدان النامية . ونستطيع أن نعتبر عام ١٩٦٠ نقطة تحول في هذا المجال ، فمعظم الخطط التربوية في البلاد العربية تبدأ في ذلك العام أو قبله بقليل أو بعده بقليل :

— الخطة التونسية العشرية تبدأ عام ١٩٥٩ / ١٩٦٠ وتنتهي عام ١٩٦٨ / ١٩٦٩

— والخطة التربوية الأولى للجمهورية العربية المتحدة تبدأ عام ١٩٦٠ وتنتهي عام ١٩٦٥

— والخطة للتربوية الأولى في الجمهورية العربية السورية تبدأ أيضاً عام ١٩٦٠ وتنتهي عام ١٩٦٥ .

— والخطة التربوية للجمهورية السودانية (وهي الخطة الواردة ضمن الخطة العشرية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية) تبدأ عام ١٩٦١ / ١٩٦٢ وتنتهي عام ١٩٧٠ / ١٩٧١ .

— والخطة التربوية الأولى للمملكة الاردنية الهاشمية (وهي أيضاً واردة ضمن برنامج السنوات الخمس للتنمية الاقتصادية في الأردن) تبدأ عام ١٩٦٢ وتنتهي عام ١٩٦٧ (وقد استبدلت بها منذ عام ١٩٦٤ خطة سبعة جديدة) .

— ومشروع السنوات الخمس للتعليم في المملكة العربية السعودية (وهو لا يأخذ تماماً شكل الخطة) يبدأ عام ١٩٦٠ وينتهي عام ١٩٦٤ .

كذلك نرى الاهتمام بالتخطيط التربوي متشعلاً في انعقاد مؤتمرات عدة تتعلق بالبلاد النامية . فبالنسبة للدور البارز الذي تلعبه التربية بالنسبة للتنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي دعت منظمة اليونسكو ، بالاشتراك مع اللجنة الاقتصادية لافريقيا الى مؤتمر عقد في أديس أبابا فيما بين ١٥ - ٣٥ مايو سنة ١٩٦٦ لدراسة حاجيات التربية والتعليم في افريقيا ولوضع برنامج لسد هذه الحاجيات في السنتين التاليتين . هذا وقد اشترك في هذا المؤتمر ممثلون عن ٣٥

عصر ، فان نظرة الى ما أحرزه المجتمع من ثغرات واسعة هائلة نحو الأخذ بأسباب العلم مما أدى الى تقسم اجتماعي واقتصادي مذهل ، يقدم لنا سندا آخر يبرز ضرورة مثل هذا التخطيط ويوجبه . ومن هنا كان اهماله مؤدياً الى مشاكل وشور لا حد لها . وفي هذا المجال يقول الفيلسوف الانجليزي الكبير « برتراند رسل » « ان العلم يتقدم بخطى العملاقة ، وهو في كل يوم يصوغ مصير الانسان اكثر فأكثر . انه يغير انماط حياته ويصيبه حتى في استجاباته العميقة على غير علم منه . ومع ذلك ما نزال نفكر ونعمل كأن شيئاً لم يكن ولم يحدث منذ نصف قرن » . وما قاله السير « دافيد اكليس » وزير التربية البريطاني في مارس سنة ١٩٦١ معبراً عن نتائج أعمال التربية في بريطانيا لحاجات التقدم العلمي السريع ، في عصرنا وعن آثار ذلك على التنمية الاقتصادية « ليس نقص المال هو الذي يحد من النمو الاقتصادي لبريطانيا ان ما نشكو منه اليوم هو التربية الناقصة التي كلن يتلقاها ٩٠ ٪ من أطفالنا قبل الحروب العالمية الأخيرة . ان اهمالنا الشامل للعلم جعلنا نهمل التكوين التقني . . ينبغي أن يداخل



الصناعة والتجارة ايمان عميق بالتربية وازادة عبادة من أجل تحسين التكوين المهني . وليس لنا أمل غير هذا اذا أردنا أن نحفظ بمكاننا في العالم .

ان التطور العلمي والتقني السريع يخلق حاجات جديدة ويزيد الحاجة الى العلماء والفنيين والاداريين كما يؤدي الى تغير واضح في توزيع الطاقة العاملة على مجالات النشاط الاقتصادي المختلفة ، الأمر الذي يتطلب تغييراً واضحاً في طراز اعدادنا التربوي للطاقة العاملة ، بحيث نستطيع عن

دولة افريقية ، كما حضره مراقبون من بعض الدول الأوروبية .

● المؤتمر الدولي للتخطيط التربوي - باريس من ٦ - ١٤ أغسطس سنة ١٩٦٨ .

● حلقة اقليمية للمساعدة الفنية حول الاستشارات في حقل التربية في البلاد العربية في بيروت ، سبتمبر سنة ١٩٦٨ . وكان موضوع هذه الحلقة واسعا ، اذ شمل الجوانب الآتية : دراسة النفقات التعليمية - تحليل التكلفة في التعليم - مشكلات تمويل التعليم .. الى غير ذلك من مؤتمرات وحلقات واجتماعات .

وبهنا أن نركز الحديث على كتاب ظهر في لندن ١٩٦٢ عن التخطيط التربوي في البلاد النامية وهو الكتاب الذي اقتبسنا منه عنوان هذا المقال وهو من تأليف هـ . ل . جريفت ، ويقع الاصل في ١١٨ صفحة من القطع الصغير . ومضمون الكتاب اشيق من أن يفي بعنوانه فهو محاولة موجزة للحد من بعض المشكلات التي تواجه التخطيط التربوي لا سيما في بلدان افريقيا ، وليس فيه اشارات وافية عن مناهج التخطيط التربوي ووسائله . كما أنه لا يشير الى أي خطة موضوعية بالذات . والكتاب في مجمله كما يقول مؤلفه في تصديره موجه الى عامة الناس لا الى الاختصاصيين في التربية ومن هنا كان اختيارنا له كموضوع لهذا المقال . ومع ذلك ففيه تنبيهات واشارات تقيد الأستاذة والمربين .

وقد اضطلع بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية الأستاذ محمد نبيل نوفل الذي يعد الآن رسالته للدكتوراه في التخطيط التربوي من الاتحاد السوفيتي ، وراجعه الدكتور عبدالفتاح جلال المدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس .



يرى المؤلف لأنه لما كانت الخطة التربوية الناجحة هي التي لا تبقى على الورق ، بل تأخذ طريقها الى التنفيذ بسرعة وكفاءة ، فإنه من الضروري لكي يتم هذا :

١ - أن تكون نتيجة الأهداف مفهومة فهما واضحا .

٢ - أن تنال هذه تأييدا قويا ليس فقط من

الزعماء القوميين . بل أيضا من معظم الآباء والمدرسين .

٣ - أن تكون نتيجة الكثير من التفكير المضي الشاق ، اذ أن طرق وسائل تنفيذها تحتاج الى التفكير العميق .

لذلك قسم المؤلف فصول الكتاب بحيث تغطي هذه الجوانب ، وقدم له بفصل يشرح فيه الخطة التي سينهجها في كتابه .

أما الفصل الثاني ، فقد خصصه لمعالجة الأفكار الرئيسية التي سترد في فصول الكتاب حتى يكون القاري على بينة بالمعاني المقصودة للمصطلحات المختلفة . وتحديد المصطلحات أمر له أهميته القصوى ، بل هو شرط أساسي لابد من توافره من المجال المعلوم الانساني حتى نأمن من الزلزل واضطراب الفهم والتفكير . فالتربية من الموضوعات التي يجد كل واحد نفسه مستعدا للجدل فيها . وليست أوجه الخلاف التي تنشأ نتيجة لحلافات حقيقية ، بل قد ترجع الى استخدام كلمات في معان مختلفة ، فقد يستخدم أحد الناس مصطلح « التعليم الثانوي » قاصدا به « التعليم الثانوي العام » بينما يستخدمه آخر قاصدا به أي نوع من التعليم يتلقاه الأطفال بعد الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة .. الخ .

ثم قسم المؤلف باقي الكتاب الى بابين : الباب الأول تناول فيه قضية « الأهداف » أما الباب الثاني فقد عالج فيه قضية « الوسائل » .

فبالنسبة للأهداف نجد ان «الدول النامية تعلق الأمل على التعليم في تحقيق مطلبين رئيسيين أولهما يتعلق بالوظائف (أو اعداد القوى البشرية المدربة) وتتمنى بهذا المطلب أن على المدارس أن تخرج الاولاد والبنات الصالحين ليس فحسب لممارسة الانواع الكثيرة من الوظائف والأعمال الموجودة اليوم ، بل ولممارسة ما يجد من أنواع ومهارات اذا استخدموا ما درّبوا عليه بذكاء . ولأن تتمكن المدرسة من تخريج هذا النوع الا اذا كان ما تقدّمه من تدريب من النوع الواسع الاق ، وفي نفس الوقت يعتمد على قاعدة متينة من التعليم العام .

أما المطلب الثاني ، فيتعلق بالوحدة والتماسك القومي ، وتعني به أن على المدارس أن تخرج أولادا وبنات يفهمون الحاجات لبلدهم ويتعاونون على

الخطوة الثانية بعد تقدير القوى البشرية المطلوبة هي تقسيم الاحتياجات من القوى البشرية الى مستويين ، قيادي ومتوسط . ولاعداد الافراد للرازمين لهذين المستويين من الضروري ملاحظة ان التعليم الفني والعلمي يكلف أكثر من تعليم المواد غير العملية . ويؤكد الأستاذ « هاريسون » هذه الحقيقة بما هو الحال في مصر ، ففيها يبلغ نصيب الدراسات الجامعية من هيئات التدريس والنفقات في ميادين العلوم والطب والهندسة والزراعة والطب البيطري ما يزيد عن ثلثي المجموع الكلي ، بينما لا يزيد عدد الطلاب في هذه الفروع كلها على ثلث المجموع الكلي لأعداد الطلاب في الجامعات . كذلك ينبغي ملاحظة أن الدراسة النظرية فقط لا تكفي في الاعداد لمعظم الوظائف ، بل لابد أن يمر المتدرب بخبرة عملية تحت اشراف خبير .

أما بالنسبة للمطلب الثاني ، فإننا نجد أن الخدمة التي تؤديها التربية للأمة بتعليم وتدريب القوى البشرية اللازمة لشغل الوظائف والقيام بالأعمال المختلفة واضحة الأهمية . أما الامر الشديد الصعوبة فهو أن تصرف كيف تستطيع التربية تدعيم الوحدة القومية . وترجع هذه الصعوبة الى عاملين :

١ - أن الوحدة القومية لا تأتي نتيجة للمعرفة وحدها ، وإنما تأتي كذلك نتيجة للمشاعر التي تفوق أهميتها المعرفة في المكان المضمار . والتأثير في مشاعر الناس أكثر صعوبة من تزويدهم بالمعرفة .

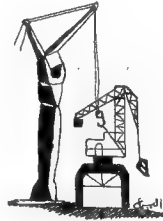
٢ - أن الوحدة القومية لا تكفي وحدها لإيجاد بلد قوي ، وإنما لا بد أن يوجد في إطارها قدر كاف من الحرية يشعر الناس معه بأنهم أصحاب قرار في التعبير عن آرائهم وبأنهم قادرون على مقاومة الفساد والظلم والمدرسة التي ينفى أن يعمل على تعليم التلاميذ التفكير والعمل دون خوف إطلاقاً قبل تعليم أي شيء آخر . وتكمن الصعوبة هنا في معرفة القدر من الحرية الذي يمكن النازل عنه في سبيل الوحدة القومية والصالح العام .

ورغم هذه الصعوبات ، فقد استغفلت بعض البلاد المدارس بشكل قوى لتدعيم الوحدة القومية ويعترف المؤلف بأنه من الصعب أن نجيب على السؤال التالي : « كيف تستخدم المدارس

تحقيقها » وفي هذا الجانب تحتاج المدرسة الى أن تقدم لتلاميذها المشاعر الصحيحة والمعلومات الصحيحة .

ومن هنا فقد خصص المؤلف الفصلين الثالث والرابع لمعالجة هذين المطلبين .

وأول خطوة لا بد من القيام بها لتحقيق المطلب الأول هي « تقدير القوى البشرية المطلوبة » والحق أنه كان من الصعب على البلاد الحديثة النمو في الماضي أن تقدر حاجاتها من القوى البشرية لسببين :



١ - أنها كانت تعتمد عادةً بشكل تام على محصول أو اثنين يضمنان لارتفاع وانخفاض الأسعار في الأسواق العالمية . ولذلك لاستطيع الدولة أن تتنبأ بقدرتها على توفير المال لمشروعات التنمية في السنوات القليلة المستقبلية . وقد تحسن الوضع الآن نتيجة للمساعدات الدولية، ونتيجة لتنويع المحاصيل وانقضاء الصناعات الحديثة .

٢ - أن هذه البلاد كانت تنقصها المعلومات الدقيقة عن المالية والتنمية الاقتصادية التي يجب أن تقوم عليها تقديرات البشرية . وهذا أيضاً يتحسن الآن . وعلى ذلك فمن الممكن بالنسبة لمعظم البلاد وعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقبلية من القوى البشرية .

كل التصعب عند الجماهير فقط ، ولكن بالطبع يمكن أن يوجد جهل وتصعب لدى المخططين كذلك، ولذا ينبغي أن تكون لديهم معلومات وافية كما ينبغي أن يتخلوا عن أى تعصب . ثم إذا وجد اتصال قوى بين المخططين والجماهير ، فسوف يستفيد المخططون كما سيفيدون . ومع أن الكتاب ليس كتاباً في العلاقات العامة ، فإن الموضوع من الأهمية بحيث فرض عليه أن يوضح بعض النقاط الأساسية لنجاح أى خطة تعليمية .



أهم هذه النقاط نشر المعلومات التي تتعلق بموضوع الخطة مبكراً ، وإتاحة الفرصة لمناقشتها على نطاق واسع وإجراء المشاورات مع الخبراء والمختصين . وبدون المعلومات والمناقشات يصبح الاختلاف أكثر رجحاناً ، كما أن التصعب قد يجلب الفشل للخطة .

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى محاولة للوصول الى اتفاق حول مشكلتين بصفة خاصة ، هاتان المشكلتان . تتعلقان بالوظائف والتمويل . وقد تبين ان تعاون الآباء فيهما متعذر أحياناً .

وبنهاية الفصل السادس ينتهى الباب الأول ليبدأ الباب الثاني الخاص بالوسائل وقد خصص المؤلف الفصل الأول من هذا الباب وهو الفصل السابع من الكتاب لمناقشة مسألة الأولويات . ذلك أنه لا يمكن مناقشة وسائل تنفيذ الخطة دون مناقشة موضوع الأولويات ، أى ينبغي أن ننظر فيما نضعه في المحل الأول، وما نضعه في المحل الثاني

لتدعيم الوحدة القومية في هذا البلد أو غيره ؟ فهذا أمر لا يستطيع أن يقرره أحمل البلد أنفسهم ، وغاية ما يمكن أن تقوم به هو توضيح أربعة سبل ربما تؤدي الى تقوية الوحدة القومية وهي :

- ١ - مدارس حكومية للجميع .
- ٢ - مدرسة واحدة للمتفوق والضعيف .
- ٣ - المعرفة للجميع .
- ٤ - الاشراف على التعليم .

ويؤكد المؤلف أن التأييد الشعبي للخطة التعليمية أمر جوهري لنجاحها لأن عدم توافر هذا التأييد قد يؤدي الى فشل بعض أنواع التدريب المهني - كالزراعي مثلاً - كما قد يؤدي الى التأثير في عمل المدرس . فإذا علم المدرس مثلاً أن الآباء يظنون أن بعض أجزاء المنهج ليست الا مضيعة للوقت ، فلربما أدى هذا الى عدم تحمسه في تدريسها . وقد يعرف الزعماء السياسيون جيداً أنواع التعليم والتدريب المهني التي تحتاج اليها البلد بشدة ، ولكنهم بالرغم من ذلك قد يضطرون الى تغيير خططهم رغبة في الاحتفاظ بتأييد الجماهير لهم . واذن فهناك أسباب كثيرة تحتم بذل كل جهد لضمان فهم الجماهير لخطيط السياسة التعليمية وتعاونها في تنفيذها .

والاول ما ينبغي عمله لضمان التأييد الشعبي للخطط التربوية هو معرفة وجهات نظر الجماهير ورغباتها ، ولهذا فقد تناول المؤلف في الفصل الخامس وجهات نظر طائفتين هامتين من أفراد الشعب والتي يمكن أن تختلف عن وجهة نظر المخططين . هاتان الطائفتان هما : آباء التلاميذ ثم المدرسون الذين يعلمونهم .

أما الفصل السادس فقد ركز المؤلف فيه الدراسة على بعض الاقتراحات التي تؤدي الى تعاون الآباء والمدرسين . وهنا يذكر المؤلف أن المشكلة اذن من ناحية في كيفية نشر المعلومات اللازمة عن حاجات البلد من القوى البشرية ، وعما يستطيع التعليم أن يفعله أو لا يستطيع لمواجهة هذه الحاجات . من ناحية أخرى في كيفية التغلب على تعصب بعض الناس ومساعدتهم على تكوين وجهات نظر حكيمه . ولا يعني هذا كله أنه كل الجهل

وهكذا • فالمال الكافي للتعليم لا يوجد أبداً ، ولا يملك أى بلد من بلاد العالم المال الذى يريده مخططة التعليمية ، ولذلك يضطر كل بلد الى أن يتنازل عن شيء مما يريد تحقيقه •

• وإذا نظرنا فيما ينبغى أن يأخذ أولوية التنفيذ فى ميدان التربية لوجدنا أن الأمر صعب لاسهل الوصول فيه الى اتفاق عام ، ومن هنا تتضح أهمية وضع مبادئ عامة تساعد على عملية الاختيار مثل : الحاجات الملحة للعلاج للبلد - الحاجات العامة طويلة الأجل - العجز المالى - الاقتصاد القوى والاقتصاد الضعيف •

فى الفصول الأربعة التالية نجد أنها تعالج النقاط الآتية :

- المال اللازم للتعليم •

- المدرسون المطلوبون •

- الوسائل اللازمة لمزيد من التطور •

- إجراءات الطوارئ •

فبالنسبة لعملية التمويل التى خصص لها الفصل الثامن ، نجد أن التعليم يجد لزاماً عليه أن ينافس الحاجات الأخرى الهامة لى يحصل على نصيبه من المال ، فإذا كانت المستشفيات والأطباء والمشرّفون الزراعيون والشرطة والمؤلفون والاداريون ومئات من الهيئات والناس الآخرين لهم مطالبهم من الأموال التى ينبغى أن توفرها الحكومة فأين يقع التعليم فى هذه القائمة ؟ وإلى أى حد هو مهم ؟

هناك طريقتان مختلفتان للنظر الى التعليم ، فبعض الناس ينظرون اليه على أنه خدمة اجتماعية بينما ينظر الآخرون اليه على أنه نوع من الاستثمار والزاوية التى ننظر منها الى التعليم تؤثر تأثيراً كبيراً على خصّة المال التى يجب أن تخصصها له •

والمصادر التى تحصل بهيأ على المال اللازم للتعليم يحصرها المؤلف فى : زيادة الضرائب + المصروفات المدرسية • + التبرعات + مساعدة التلاميذ لأنفسهم + المساعدات الدولية •

• وبالنسبة للنقطة الثانية التى خصص لها الفصل التاسع تحت عنوان « المدرسون » نجد أنه إذا كان الكثير من الناس يوافقون على أنه ليس من المقبول أن نصمم خطة تعليمية دون أن

تكون لدينا فكرة ما عن مصادر تمويلها ، فإن المنصر الجوهري الآخر لتجراح أى خطة تعليمية هو هيئة التدريس المناسبة •

وفى معالجة المؤلف لهذا الجانب تناول النقاط الخاصة ببيئات التدريس التى لا بد من بحثها تحت عناوين :

١ - مؤهلات المدرسين ، حيث حاول الإجابة على السؤالين الآتيين :

- الى أى حد ينبغى أن يصل علم المدرس ؟

- وهل اتقان معرفة الموضوع الذى يقوم بتدريسه هو كل ما يحتاج اليه المدرس ؟

٢ - ظروف العمل ، حيث حاول أن يجيب عن السؤال الآتى :

- كم من التلاميذ يستطيع المدرس أن يعلمهم فى وقت واحد ؟ (أو بعبارة أخرى : ما هو الحد الأقصى الذى ينبغى أن يراعى لعدد التلاميذ فى الفصل ؟) هذا بالإضافة الى بعض الاسئلة الأخرى التى تتعلق بالإدارة والكتب والمقررات •

أما الوسائل اللازمة للتطوير التى تحتل الفصل الحادى عشر تحت عنوان « عاجل جداً » سنجد مدى دلالة هذا العنوان الطريف • فالتعليم - والحق يقال - بالنسبة للبلاد حديثة الاستقلال أمر عاجل جداً ، ومن هنا نجد البلاد الأفريقية تبذل جهوداً ضخماً لتطوير نظمها التعليمية بحيث تصبح حديثة • ويشكل هذا عبئاً ضخماً عليها حيث أنه « عاجل جداً » ، بالإضافة الى عدم وجود المال الكافى لمواجهة مطالبها مما يشعرها بالحاجة الى سعة الاتفاق أثناء التفكير فى حلول المشكلات ، والحاجة الى عزم التقيد بالطرق القديمة فى تنفيذ الأمور •

ويناقش المؤلف فى هذا الفصل كذلك ثلاثاً من المشكلات الرئيسية التى تنشأ من جراء العملية فى أمور التعليم :

• أين نركز جهود التطوير فى المحل الأول ؟

• من أين نحصل على المدرسين ؟

• ما الذى نفعله فيما يتعلق بالمستويات التعليمية ؟

وقد حقّق المؤلف بالكتاب ملحفاً يتضمن خطة

تربوية مع بعض الاسئلة عليها ، وبهذه الحطة ، ينتهى الكتاب .

والقارىء للكتاب سيلمس من غير شك ما بذل من جهد كبير فى ترجمته ، ولكن هذا لا يمنع من أن نبدي الملاحظات الآتية :

١ - اذا كنا فى حاجة شديدة الى ترجمة ونقل الكتب الأجنبية الهامة وعيون التراث العالمى ووجهات نظر الثقافات العالمية الى ثقافتنا ، فهل يمكن أن نكتفى بأن تكون ترجماتها مجرد صور فوتوغرافية لأصولها الأجنبية أم أنه من الضرورى أن يتم مع الترجمة نقد وتعليق وتبصير بما قد يعد افتئاتاً على الحقائق الخاصة بنا ، أو يعقد المعارنات التى يمكن أن تلقى مزيداً من الضوء على واقعنا ومشكلاتنا .

إن ذلك اذا كان ضرورياً بصفة عامة ، فإنه - فيما اعتقد - أشد ضرورة بالنسبة لنا كبلد نام حتى لا تقع تحت تأثير ما ننقل وترجم ، ويتم اقتباسنا ونقلنا منه بوعى وبصر . بيد أننا ينبغي أن نلفت النظر هنا الى أن هذا ما نحتاج اليه بالنسبة للكتابات التى تصالـج المواد الانسانية وتمس الجوانب القومية .

وقد قام مراجع كتابنا بالفعل بشئ من هذا كما نرى فى ص. ٣٠ و ص ٢٤ وص ٦٩ فهنا - مثلاً - يزعم المؤلف أن ادارات المستعمرات البريطانية قد تعودت أن تستشير الزعماء عن طريق موظفيها ، وأن هذا الامر قد أصبح يتم بعد ذلك عن طريق المجالس التشريعية ، ومن ثم كان لفت المراجع لنظر القارىء الى مفالة المؤلف فى هذا القول، وتاريخ الاستعمار البريطانى فى بلادنا حافل بالأمثلة التى تكذب قول المؤلف ، فعندما تقدم بعض النواب فى مجلس شورى القوانين الذى أقامه الاستعمار « كصورة » للحياة النيابية يطلبون أخذ رأيهم فى القوانين واللوائح الخاصة بالتعليم ، فكان رد وزارة المعارف « لا حاجة لعرض البروجرام على المجلس لأن نظارة المعارف لا تألو جهداً فى جملة كافلا لفرض الأمة وإفيا بحاجة البلاد » (انظر جريدة اللواء فى ٢٦/٣/١٩٠٢ العدد / ٧٥٠) ، كذلك أصدرت الجمعية بجلستها العمومية فى ١٦/٣/١٩٠٢ قراراً بمطالبة الحكومة بعرض مناهج التعليم بالمدارس الأميرية على مجلس شورى القوانين ، وكان هذا هو أول قرار أصدرته الجمعية العمومية فى هذا الشأن . وقد أجابتها الحكومة بتاريخ ١١/١٦ من

نفس السنة « أن بروجرامات التعليم الابتدائى والتانوى وقوانين المدارس العالية والخصوصية والتعديلات التى ترى النظارة لزوم ادخالها عليها جاء التصديق عليها من اللجنة العلمية الادارية ومجلس المعارف الأعلى ومجلس النظار ، ولذا فلا محل لعرضها على مجلس شورى القوانين الذى تخفى عليه تماماً تلك المسائل نظراً لهيئة تشكيله ولاختصاصاته القانونية » (محاضر جلسات الجمعية العمومية جلسة ١ - ٤ - ١٩٠٨) . ومعروف أن المجالس المشار اليها كانت خاضعة تماماً لراى المسئولين عن الاحتلال .

ومع ذلك فهناك كثير من النقاط التى كانت تحتاج الى تعليق ولم يشر اليها ، فالمؤلف يذكر فى ص/٣٢ أن نيجيريا هى « أولى الدول الافريقية التى قامت بعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقلة من القوى البشرية . فاذا كان ذلك قد بدأت دراسته فى عام ١٩٥٩ كما يذكر المؤلف (ص ٣٣) فإن الجمهورية العربية المتحدة كانت قد بدأت فى ذلك العام أيضاً القيام بشئ من هذا اعداداً للخطة التى بدأ تنفيذها سنة ١٩٦٠ . وعلى ذلك لا نستطيع القول بأن نيجيريا هى أول الدول الافريقية فى ذلك .

ورغم أن الكتاب عن « التخطيط التربوى فى البلاد النامية » ، فإن المؤلف فى معرض دراسته لكيفية تدعيم التربية والتعليم للوحدة القومية ، وإن أحد السبل الى ذلك هو « الاشراف على التعليم » كما أشرنا ، فهو لا يضرب أمثلة من واقع البلاد النامية وإنما يقتصر الى فرنسا وروسيا والولايات المتحدة . فها هنا أيضاً فرصة كان ينبغى اغتنامها لسد هذا النقص والاشارة الى الطريقة التى هيمنت بها الدولة هنا فى بلادنا على التعليم تحقيقاً لبدأ « ما دام الشعب هو الذى يمول المدارس فيبدو من المقول أن يقرر الشعب ما يدرس فيها » . الخ .

وبعد .. فإن الكتاب بما يحويه من المعلومات التى تتعلق بموضوع هام مثل « التخطيط التربوى » وما بذل فيه من جهد لنقله الى اللغة العربية يعد مغنياً غنمته المكتبة العربية وإذا كانت قد شابت بعض العيوب فهى بالقياس الى ما يحمله من فوائد ومزايا يمكن ألا تذكر لتبقى بعد ذلك فكرة التخطيط التربوى وأهميتها وضرورتها بالنسبة للبدان النامية .

سعيد اسماعيل

الزمن التراخيدي

عند

خمسة حواريين

ليس من قبيل المكابرة اذا تصورنا ان العمل النقدي انما هو عمل شاق يستنزف جهدا جهيدا .. بل لا نقالي اذا قلنا ان هذا العمل انما تفوق صعوبته صعوبة الخلق الفني .. ذلك لان الفنان يبدع فنه بايعاز من احساسه الخاص ، وهو يزاول نشاطه الخيالي بطريقة تلقائية تجعله لا يعي تماما تلك الحركة التي تسري في سياقه الفني ، دافعة بعناصر هذا السياق الى التفاعل ، والتجانس ، والاتساق .. فكل ما يستوحيه هنا انما يأتي عفو الخاطر ، وكل ما يبدعه انما هو قبس من نفسه وبعض من تجاربه ، فهي تستجيب له طواعيه وفي يسر .. صحيح ان الفنان قد يلقي

سعد عبد العزيز



ذلك الزمن التراجيدي

تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن نضعها نصب أعيننا حين نقصص لكاتب شهير مثل جيمس جويس .. ولعلنا نعي هذه الحقيقة تماما ، ونحس بوقمها الحاد علينا حين يركز اهتمامنا في هذا الصدد على مفهوم الزمن .. فنتخذة محورا لتفكيرنا ، وبحسنا ، ودروسنا .

وواضح أن الزمن عند جيمس جويس ليس زمنا ميكانيكيا ، وإنما هو تلك الحالة الشعورية التي تعبر عن طبيعة حياتنا الداخلية ، والتي يمكن أن تتقنع بذلك الشكل الذي يفصح عن مادة ذكرياتنا وأحلامنا ، وتخيلاتها .. فلا غرابة أن يرمي الزمن عند كاتبنا ، بالفوض ، والميوعة ، والسيولة ، والنسبية .. الأمر الذي يجعله يفلت

— حين يمارس إبداعه — شيئا من الممازاة والمجامدة ، لكن ذلك سرعان ما يستحيل عنده إلى نوع من التفرج ، والتطهير ، وإحساس باللذة ، والارتياح .. أما موقف الناقد فيختلف عن ذلك تماما ، فهو يتناول العمل الفني تناولا ذهنيا موضوعيا ، فنراه ينتقل من مجال الذات إلى مجال الحقيقة الواقعة .. وهو يتجاوز انفعاله بهذا العمل ، لكي يركز اهتمامه على طبيعة بنائه ، وتشكيله ، وبالتالي لكي يبرز ما يمتاز به من ملامح خاصة ، ومقومات جمالية ، وإنسانية . ومن ثم فممارسة النقد على هذا النحو ، إنما يحتاج إلى قدرة على المماناة الذهنية التي تكمن في عمليات التحليل ، والتجريد ، والتأمل ، والاستبطان ، الأمر الذي يتحتم معه بذل مزيد من الجهد ، والعناء ، والمثابرة .

من سيطرتنا وإدراكنا ، فلا نستطيع أن نفرض عليه تعريفاً أو تحديداً ٠٠ ومع هذا فبما لا شك فيه ، أننا كائنات توجد في الزمن ٠٠ فنحن نولد فيه ، ونحيا في جوفه ونظل في قبضته سجناء ، فلا يطلق سراحنا الا حين نكون حطاما ٠ وبذلك يكشف الزمن عن وجهه المأساوي ٠٠ فهو بالنسبة للبنا يمثل قوة مدمرة ، تنشب أظفارها فينا ، وتطبع آثارها علينا ، وتدمغنا بالتغير ، والتحول ، والازوال ٠٠ وهو أيضا يفصح عن سر ضعفنا ، وحدودنا ، وتناهيها ٠

وإذا كانت حياتنا انما هي رحلة قصيرة عبر الزمن ، رحلة لا نكاد نحقق فيها امكانياتنا ووجودنا ، فلا غرابة ان نصبح في صراع مستمر ضد الزمن، فنسعى جاهدين من أجل إيقاف تياره المتدفق ، ونبدل كل ما في وسعنا من أجل تكتيف لحظاته ، واسترجاع هذه اللحظات في شكل طاقات فنية معبرة ٠

ومن أجل هذا ، صار الزمن بالنسبة للفنان المعاصر ، مدرا حيا ينتجت من خلاله إحاسيسه ، وأفكاره ، وينسج في ضوئه خيوط صوره ، وأشكاله ٠٠ فقد استطاع هذا الفنان أن يستعيد ما فقدته من صور وأفكار ، وخواطر ، وأن يسترجع ما أضاعه في ثنایا الماضي من خبرات وتجارب اذ أدرك أن الزمن لا يعود أن يكون حركة شعورية تدفع تيار الذكريات الى أن ينثال بالصصور المختزنة ، والخبرات المتراكمة ٠٠ فالماضي يمتد بتمامه في الحاضر ، ويظل فيه حاضرا ، ومؤثرا ، وهو يضغط تلقائيا على الحاضر، ويدعو الى انبثاق صور جديدة ٠٠ صور بصرية، وحسية ، وسمعية تزيد من خصوصية الحياة ، وتراثها ٠

ذلك هو الاتجاه الفني الذي يسمود الرواية المعاصرة والذي يلتزم فيه الكاتب بالرؤية الباطنية للأشياء فقد تحول اهتمامه هنا من الخارج الى الداخل ٠٠ فصار لا يربنا ما هو منظور ، وانما يجعل ما لا نراه منظورا ٠٠ وصار يتخذ من الحياة الداخلية ، بدلا لمعنى البطولة الذي يسود رواية القرن التاسع عشر التقليدية ٠٠ وهو يستعيز عن الأحداث الخارجية بما يتواتر اليه من صور السوعي أو اللاوعي حيث يؤلف من خيالاتها تشكيلاته ، وانماطه في عالم الرواية ٠ وعلى هذا ، يصبح الكون الاكبر الذي نعيش فيه انما هو عقلنا ، ووجودنا الداخلي ، وبالتالي يصبح الزمن شيئا ذاتيا محضا ٠٠ فهو يمثل الشخصية الرئيسية التي تعد ركيزة العمل الروائي ، والتي

لا تخضع في مسارها لقانون عضوي أو ميكانيكي فالعود الى الماضي ، وتجاهل العالم الخارجي وتحطيم الحبكة ، وانعدام النظام المنطقي ، هذا كله انما يعتبر من السمات البارزة التي يتميز بها البناء المعماري لرواية القرن العشرين ٠ وفي ضوء ما سبق يتضح لنا أن الرواية التحليلية الزمنية تبدو وكأنها مقطوعة الصلة بروايات هـ . ج . ويلز ، وديكنز ، وبلزاك ، وجورجي ، التي تنطق بطبيعة الحياة في القرن التاسع عشر ، وما يجول فيها من تصورات ، وتجارب ، ومشكلات ٠٠ ولقد جاء في أعقاب هؤلاء كل من مارسيل بروست ، وجيمس جويس ، وفرانس كافكا ، وفرجينيا وولف ، ووليم فوكتز ، فكانت كتاباتهم أصدق مثال عن عالمهم الداخلي ٠ وما يعج به من إحساسيس ، وأفكار ، وأصوات ٠ والوان ٠



ج . جويس

وينهمك في دراسته ، عاكفا على إتقان عدد من اللغات الأجنبية التي مهدت له الطريق لاتساع معرفته ، وزيادة اطلاعه .

وجدير بالذكر أن كاتبنا لم ير « دبلن » في حياته الا مرة واحدة ، وذلك حين جاءت به برقية تنبئه بوفاة والدته . فهرع الى مسقط رأسه في زيارة قصيرة . وهناك تعرف على الفتاة « نورا » التي تزوج منها فيما بعد . وغادر « جيمس جويس » دبلن عام ١٩١٢ ، ولم يعد اليها فظل متغيبا عن وطنه طوال حياته ، متنقلا بين إيطاليا ، وسويسرا ، وفرنسا . وكان أول عمل يبذعه هو ذلك الديوان الذي يضم نخبة من أشعاره ، والذي نشره في لندن في عام ١٩٠٧ تحت عنوان (موسيقى الحجر) ، ولقد أعقبه بنشر كتاب آخر في عام ١٩١٤ باسم « ناس من دبلن » ضمنه مجموعة من القصص القصيرة .

وبعد « جيمس جويس » كاتبا طليعيا ، ورائدا من وراء حركة التجديد في الرواية . فهو ينأى في أساليبهم عن الوصف ، والسر ، والتسجيل ، ويستخدم وسائل مبتكرة في تجسيم عالمه اللاشعوري الذي يمثل عنده القوة الحقيقية التي تشكل حياتنا ، وما تنطوي عليه من تهويم ، وأحلام ، وذكريات . . . ويعني آخر نجد كاتبنا ينسج خيوطه من خلال تلك المادة التي تعبر عن صدى الأشياء في أعماقنا .

ومعروف عن « جيمس جويس » أنه أيرلندي الأصل ، فقد ولد في مدينة دبلن عام ١٨٨٢ ، وتلقى تعليمه في مدارس الآباء اليسوعيين ثم التحق بجامعة أيرلندا الكاثوليكية ، وما إن تخرج عام ١٩٠٢ حتى رحل الى باريس لدراسة الطب ، لكنه لم يوفق في ذلك ، الأمر الذي جعله يقطع دراسته ليتجه الى الأدب . . . فراح ينهل من معينه،

منها تجربته الفريدة ، مستعينا في ذلك بخبرته الفنية الواسعة ، ومهارته اللغوية الماتكة . . وواضح أن كاتبنا قد سجل روايته في مليون لمة ، وقضى في تأليفها أربع سنوات ، فدان ينشرها تباعا في مجله « المجلة الصغيرة » وكان جويس يعاني ضيقا شديدا في ذلك الوقت فلم يجد بدا من أن يؤجل وجهه عام ١٩١٥ الى سويسرا حيث مكث حتى عام ١٩١٩ . . ومن الضروري ان نذكر أن «أوليس» لم تلق - في بادئ الامر - الترحيب اللائق بها ، فقد حجبت عن النشر في دل من إنجلترا ، وأمريكا لكن أصدقاء الكاتب في باريس سرعان ما اولوها اهتماما بالغا ، فعملوا على ترجمتها الى الفرنسية ، واستمعناوا باحدى دور النشر على نشرها . . ولقد أحدث ظهور « أوليس » رد فعل عنيفا لدى القراء ، والباحثين ، والدارسين . . حتى أن بعض النقاد ينظر الى قيمتها في مجال النشر على أنها تستوى «والارض الخراب» لاليوت في مجال الشعر . . بل يذهب هؤلاء الى القول بأن « س اليوت قد تأثر الى حد بعيد بتكنيك هذا العمل الرائع حين ابدع « الأرض الخراب » .

وينبؤ . . اوليس ، لأول وهلة ، وكأنها خلو من النظام ، والشكل المحدد . . والحق أن هذا يجانب اصواب ، فلو عرفنا أن صياغة « أوليس » اما هي اقرب الى الصياغة الشعرية الحرة ، ولو عرفنا ان معطيات هذا العمل لا تصحح بالضرورة بحدوث المباشر ، فهي تنطق بانموذج ، والاشارات والامساعات التي لا تخبرنا عن مجرى الواقع ، بفقر ما توحى اينما يصدى هذا الواقع ، وردود فعله ، لادرنا تماما بطبيعته الشئلي الذي ننتمي اليه هذه الرواية . . فالحلمات هنا انما تنفجر في شئله هاله من الضوء تشع بالاشكال ، والالوان ، والاسام . . وبالتالي فهي بمنحنا رؤية مركزة لهذا العالم الصغير الذي يمتلئ ان تمثله في مدينة دبلن . . والكلمات تنسج شخصيات تلك المدينة في ضوء الزمن الذي لا يتعدى امتداده الثماني عشرة ساعة . . فانزمن هنا يأخذ حالته الانية فلا يتوقف تدفق نحو الماضي أبدا . . وهو يستحيل الى ماضي بمجرد أن يفرض حصوله من مسطور ومزنيات وأحداث داخل وعينا ، وإدراكنا . . وبهذا المعنى استطاع « جويس » أن يشق طريقا الى الزمن ، وأن يسيطر على حركته ، ويحكم الاغلاق عليه داخل اطار من الكلمات . . وبالتالي استطاع أن ينقل الزمن من مجاله المتناهي الى مجال لا ينتهي أبدا . . فقد صارت الثماني عشرة

ولقد استطاع « جيمس جويس » بفطسه تمكنه من لغات عديدة - أن يفتح أمامه مجالات مختلفة من الثقافة ، والادب ، والفن . . فتكاد رويته هنا تتسع لجميع التصورات ، والمؤثرات التي تدور في هذا الصدد . . ولقد كان يعي عاما ما يجري في عصره من تيارات فلسفية ، وادبية ، وفنية . . ومن ثم فهو يتعاطف وأفكار «برجسون» ويجعل منه مثله الاعلى . . ومعروف ان «برجسون» قد اوحى اليه بفكرة الزمن المعنى ، التي استطاع كاتبنا - فيما بعد - ان يطوعها ، ويصبغها بالصيغة التراجيدية في مجال تعبيره الادبي . . على أنه لا يفوتنا أن نرى الضوء على مصدر آخر من المصادر التي كان لها ابلغ الانر في توجيه كتابات « جويس » وتشكيلها على النحو الذي يتميز به . . فقد صادفته حين كان في العشرين من عمره - رواية فرنسية دانت مثلا صادقا للحركة الرمزية التي بلغت أوج نضجها آنذاك . . وهي رواية « أشجار القار المغلوقة » للكاتب « ادوار دي جاردان » وهي تحكي عن شاب يعاني من حبه لفنائة نعمل بالتمثيل ، فقد ظل يسيطر عليها كالبساط ، فيفقد عليها الطهارة ، ويفرقها بالهدايا ، ويرناد معها الطعام ، ودور المهر ، لكن ذلك كله كان دون جدوى ، فلم يزل منها سوى الدهان المصطنع ، والوعود الكاذبة . . ولقد استطاع الكاتب هنا بمهارته الفنية أن ينقلنا من حيز الزايق الخارجى الى ما يجول في نفس البطل من أحاسيس ، وصراعات ، وأوهام ، فقد اطلعنا على تلك الحركة الداخلية التي يتجسم من خلالها الزمن ، والتي يمكن أن تمثلها في ضوء نوعين متناقضين من الاحساس : الاحساس بالقصور الذي يستولى على البطل كلما توهم انه يكاد يقترب مما يصبو اليه من ناحية ، والاحساس بالكلد الذي يداهم حين يفيق من خدره على اثر اكتشافه للحقيقة من ناحية أخرى . . ومن خلال الصدام بين الوهم والحقيقة . . وبالتالي من خلال الصدام بين ما يصوره البطل ممكنا من جهة ، وما يصوره في نفس الوقت مستحيلا من جهة أخرى . . يتولد احساسنا الدرامي بالزمن . . ذلك الاجساس الذي يفصح عن شكل ومضمون التجربة الفنية .

تجربة أوليس

ولم يكن أحده يتنبأ أن هذه الرواية التي لم تنل حظا من النجاح ، يبلغ تأثيرها على «جويس» ما يجعله يستوحى منها عملا ابداعيا فذا مثل « أوليس » . . فواضح أن «جويس» قد استطاع أن يمعن النظر في تجربة «دي جاردان» ويستنبط

ساعة بمثابة زمن خالد في تاريخ الزمن... وفي كل العصور .

ومن المؤكد أن تجربة « أوليس » انما نفوس في قيمتها الفنية جميع التجارب الأولى للرواية التحليلية الزمنية .. فاذا كان «مارسيل بروست» قد أمكنه أن ينقل إلينا من خلال (البحث عن الرمن الضائع) صورة حبه لما يتواتر في ذهن فرد يعينه من أفكار ، وخواطر ، وأوهام ، فإن « جيمس جويس » في « أوليس » كان قادرا على أن يستوعب عددا من الشخصوس من خلال ذلك المشهد الذي يضمها جميعا .. فتجده في هذا المشهد ، يقوم بالتركيز على الجزئي لكن يستخلص منه المعطيات الدرامية التي ترتبط بالنسيج الكلي لهذا المشهد .. فقد أمكنه أن يفوس في عوالم هؤلاء الذين تجمعوا في مكان واحد كي يشاهدوا مركب الملك أثناء عبوره أحد شوارع المدينة . ورغم أن كل شخص يبدو في هذا الموقف وكأنه ذرة مفقطة ، منفصلة ، إلا أن « جويس » استطاع أن يجمع هذه الذرات داخل تلك البؤرة التي تمثل وعينا ، وأن يفجر ما تحمله من شحنات شعوريه وتوترية دفعة واحدة .

ديناميكية التعبير

وعلى هذا ، يمكن القول بأن ديناميكية التعبير عند «جويس» انما تأتي إلا أن تدفع المتلقي إلى أن يجري ، ويلهث باستمرار .. فهو يلوح مع الكاتب في كل مكان حتى يصيبه اللوار .. وهو يتحرك بين المرنيات بسرعة مذهلة .. ويخترق وعي عدد من الشخصيات ، وكأنه يخترق عباب دوامة هائجة تموج بالأحاسيس المضطربة ، والاصوات الصارخة ، والألوان الحادة .. ومن هذه الشخصيات : الأب « كوني » الذي صار صديقا لستيفن ديدالوس ، والآنسة «دن» التي تعمل على الآلة السكاتية ، والتي تتراسل مع « ليوبولد بلوم » رغم انها لم يلتقيا أبدا ، و «باتريك أويسوس ديجنام» الذي دفن والده في صباح ذلك اليوم ، «وليوبولد بلوم» الذي تقارده صورة زوجته أينما ذهب ، و «ستيفن ديدالوس» الذي يهجم على وجهه في الطرقات بأحسا عن هدف يحققة .. و «ماريون بلوم» وهي زوجة ليوبولد بلوم التي يشملكها احساس بالشسويق لا تجسده منه مخلصا .. فكل هذه الشخصيات تتواتر إلينا ، وتتحرك في ضوء ذلك المسار الذي يعبر عن إيقاع الحياة في مدينة بأسرها ،

غير أن « أوليس » انما تقوم أساسا على ثلاث شخصيات هي : ستيفن ديدالوس ، وليوبولد بلوم ،



م . بروست



ج . جويس



ف . ديدالوس

وماريون بلوم .. ويبدو «ستيفن» وكأنه تجسيم للعقل، والفكر، والخيال .. وهو يتناقض في ذلك مع «ماريون» التي تمثل الجسد، والغريزة .. أما «بلوم» فهو يمثل بطبيعته المعتدلة الحد الأوسط بينهما، فيلتقي فيه العقل، والغريزة ..

وستيفن هو ذلك الشاعر المتمرد المتخذل الذي يتطوى على نزعات عدوانية كثيرا ما يستغلها حين ينال من خصومه .. فيبدو عدوانيا في طريقة اقحامه لهم بحجابه المنطقي الصارم، وفي أسلوبه اللاذع الذي يخلط فيه بين الجلد والهزل، والذي لا يخلو من هجاء، وسفسطة ..

ويبدو «ستيفن» وكأن لا وطن له .. فهو ينفي نفسه عن وطنه، وأهله، وأصدقائه، وهو لا يتحرك طوال الثماني عشرة ساعة إلا في ضوء عالمه الداخلي، فنجد، طول الوقت، رهين هذا العالم الذي يمثل ماضيه، وحاضره، ومستقبله .. فهذه الاشياء التي تترى عليه أثناء تجواله في شوارع «دبلن» إنما تتحول الى منبهات، ومثيرات، تدفع كوامن شعوره، ولا شعوره، الى أن تطفو فوق السطح .. فلا غرابة اذا رأينا دأب الارتداد الى الماضي الذي يشكته وقعه عليه حين تتداعى صورة أمه في خياله، فيمزقه الشعور بالذنب، ذلك لأنه رفض أن يصل من أجلها حين كانت تحتضر ..

الزمن المتوتر

لقد ظلت هذه الصورة تتسلط على ذهن «ستيفن» طوال رحلته، فهي تصحبه في حراته وسكناته، وهي تطارده حين يهيم على وجهه في شوارع دبلن، وحين يتراد الحانات، والمكتبات، ودور الدعارة وتوعز اليها حركة ستيفن اللذنية التي أنهكت قواه بما كان يمانيه من صراع ضد الزمن .. فهو هنا لا يقوى على تحطيم ذلك الحصار الذي يفرضه عليه الماضي .. فلا الشهر، ولا الجدل، ولا الحمر، ولا التسكع .. لاشئ من هذا كله استطاع أن يخلصه من الشعور بالآلام، وبالتالي من الشعور بتوتر الزمن الذي يتجسم في صورة أمه المحتضرة ..

ومع هذا، فقد استطاع ستيفن أن يجد عزاءه في النهاية في «ليوبولد بلوم» قسما أن التقى به حتى نظر اليه وكأنه يمثل ذلك الأب الذي يفقده ويريد أن ينتهي اليه .. ولم يسع

«بلوم» بدوره إلا أن يرحب بهذا اللقاء؛ فقد أحس أن «ستيفن» ليس غريبا عليه ذلك لأنه أثار في نفسه ذكرى عزيزة عليه .. فهو يشبه ابنه «رودي» الذي مات حين كان طفلا .. الأمر الذي دفعه الى أن يحنو عليه، ويرعاه، فقد اصطحبه الى منزله لكي يفيقه من حالة السكر التي جعلته غائبا عن وعيه .. وواضح أن شخصية «بلوم» ليست بالشخصية البسيطة، الساذجة، كما أنه لم يكن على جانب كبير من الثقافة، والفهم .. فهو يتميز بذهن يشبه تلك العلية المكسدة بالخبرات، والتجارب التي لا يتفاعل بها، ولا يستجيب لمؤثراتها .. وبقي «بلوم» يومه خارج بيته، فهو يبرحه عند الصباح ولا يعود اليه حين ينتصف الليل، وفي ذلك الوقت نراه يدور في شوارع «دبلن» متقلبا بين أحيائها، فهو يزور المكتبة، والمستشفى والجبانة والحانة حيث يطلق لذهنه العنان فتنتال خواطره، وذكرياته، وأحلامه حتى تنتهي رحلته ..

وتعتبر «ماريون بلوم» محور الصراع في عالم «ليوبولد بلوم» فهي هنا مشار قلقة، وتمزقه، وضياعه كما أنها مصدر خوفه، وبلبلته، وتوجسه .. وبالتالي فهي لا تعدو أن تكون تجسيدا حيا لمأساته .. فرغم علمه بخيانتها، ورغم أن هذا يسبب له إحساسا بالأهانة، والمرارة، فقد ظل في قبضتها أسيرا لا يقوى على الفرار .. بل ظل ينظر إليها على أنها تمثل بالنسبة اليه بيته ووطنه، ومصيره ..

وتبدو «ماريون» في ثسايا الرواية امرأة سيطرت عليها أحلام اليقظة .. فهي تسلم نفسها دائما للسرطان، والشroud، والتهويم .. وهي امرأة شبقية بالدرجة الأولى .. فهذا القطار الذي تتردد بصورته في مخيلتها، بين حين وآخر، وهو يمرق أمامها بمخترقا أذنيها بصوته الهادر إنما يوعز بذلك الاحساس الشبقى الذي يسيطر عليها تماما ..

وقد يلاحظ البعض أن «جيمس جويس» إنما يقف من كل شخصية في روايته موقف المحلل النفسي من المريض .. فكل الشخص في «أوليس» إنما تطلق خواطرها .. وأفكارها بطريقة عفوية دون أن يعترضها أي مؤثر خارجي يحول دون حريتها، وتلقائيتها .. وبذلك تبين هذه الشخصيات وكأنها حالات مجسمة من الاستغراق الذاتي، والاستبطان العميق .. لكن ذلك غير صحيح .. فواضح أن «جويس»

آيات الابداع بعد شكسبير ، وملتون .. ويكى
أن تشير في هذا الصدد الى «سبين ديدالوس»
حين تترامى الى اذنيه تلك الصيحة التي نثمت
من الطريق فستسوى عنده ، وصيحة الله في
انكون .. وعلى هذا ، يصبح الكلفة هنا هي
الشيء ، أو الصوت ، أو اللون ، أو الرائحة .

فكرة المكان

وإذا كان «جويس» قد قام بالتركيز على الزمن ،
وجعل منه المادة التي ينحت منها تجربته الفنية ،
فانه لا يقوته أن يبرز تأثير المكان ودوره في تنظيم
عمله الفني .. معروف أن « دبلن » هي المكان
الذي يضم عالم جويس ، وهي التي يمكن أن
ندركها ادراكا كفيًا .. فكل ما تحتسويه من
شخص ، وأشياء ، وأحداث ، وصراعات ، انما
يستحيل عند «ستيفن» ، «ويلوم» ، «هارويون»
الى صور ، وأشباح ، وأصوات ، وألوان ، وروائح .

وبذلك يصبح «المكان» في تصورها ، وسعلا
ديناميكيا تتجسم من خلاله تلك الشخصيات التي
تأخذ في مسارها خطا مزدوجا متناقضا .. فهي ،
حينما ، تبدو في حال من التدخل ، والتشابك ،
وحينما آخر ، تتنافر ، وتتباعذ ، فتبدو في شكل
وحدات درامية منفصلة ، توحى بمدى ما تتميز
به كل شخصية من استقلال ، واكتفاء .. وبالتالي
فهي رهينة عالمها الخاص ، وتجربتها الانسانية
الفريدة .. وبعد فإن «أوليس» تعتبر كشفا لعالم
آخر بالحياة .. الحياة بما فيها من جمال ،
وقبح ، وخير ، وشر ، وأمل ، وبأس .. ولقد
حاول «جيس جويس» أن يبرز هذه الحقيقة
بوجهيها المتناقضين .. فهو لا يدعونا الى الاعراض
عن الحياة ، أو الإقبال عليها .. وهو لا يدفعنا
الى الحكم بادانتها ، أو تبرئتها .. وانما كان كل
هमे هنا أن يتركنا أحرارا في تصورها ، وادراكها ،
واختيارنا .

سعد عيد الغريز

لا يتخذ من «التحليل» وسيلة للكشف عن مواطن
الداء في شخوصه ، كما يفعل المحلل النفسي .
وانما نراه يستغل عملية التحليل في توليد
عناصره الانفعالية ، والخيالية ، والصورية التي
يؤلف من خلالها مركبا جماليا نابضا بالحياة ..
صحيح أنه في الإمكان أن تنصور شخوص الكاتب
وكانها ترجمة صادقة لعملية اطلاق التيار
اللاشعوري الى أقصى مدى .. لكن «جويس» يعي
تماما أن العمل الروائي لا ينبغي أن يكون قاصرا
على التذاعي الكثر ، أو النزعة التلقائية فحسب ،
والا استتعال الى ضرب من الفوضى لا يخضع
للتشكيل أو الاتساق .

الشكل السيمفوني

ومن ثم نلاحظ أن شخوص « أوليس » انما
تخضع في مسارها اللاشعوري لسيطرة الكاتب ،
فهو يسلك بزمامها ، ويصنع على كبح جماحها ،
لكنه في الوقت نفسه ، لا يدخر سعا من أجل
اطلاق حريتها ، وتلقائيتها في حدود عالمها الخاص
الذي تعيش فيه .. وبذلك استطاع «جويس» أن
يقدم «أوليس» في شكل محكم ، متماسك ،
مكتمل .. بل لا نفالي اذا قلنا ان هذا الشكل
انما يقترب في جودته ، واتقانه ، من الشكل
السيمفوني في عالم الموسيقى .. ولعل ذلك
ينبئنا بمدى ما يمتاز به جيس جويس من خبرة ،
ودراية في مجال الموسيقى .. فقد استطاع أن
يصوغ هذه الرواية في ضوء إيقاع من النغم الأدبي
المركب .. فهو يجرّد الكلمات من صلابتها ،
وخشونتها حتى تبدو ليثة ، طيعة ، بل تكاد
تسيل أمامنا ، تساما كما يسيل اللون في يد
الرسام ، وهي تستحيل الى أصوات صافية توحى
بالانسجام .. فقد استطاع جويس أن يمزج بين
المسموع ، والمثلوث ، وبالتالي استطاع أن يعبر
عن الأشياء المسموعة بأذان قد تبلغ في رهاقتها ،
وحساسيتها أدور ما عرفه الادب الانجليزي من

قارئ الفكر المعاصر

على موعد مع :

قضايا العلوم الإنسانية

عدد خاص تشترك في تحريره

الطبعة المثقفة من الكتاب والكتاب

والعلماء وأسئلة الجامعات

يصدر قريباً

التكنولوجيا

وتوازن البيئية الإنسانية

● مادعا مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجي ، وحريصين في نفس الوقت على حماية حركة التطور البشري ، فان واجبا يتركز في خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمفاهيم بعيدة الامد .

عبد الواسع الإبراهيم

سجل التفوق التكنولوجي الذي حققه الانسان بوصفه الى انفسه ميلاد مرحلة تطور جديدة في تاريخ الجنس البشري . وبعد انقار هذا الانجاز العلمي الخطير كثيرا من التساؤلات لدى الناس، البعض يرى في هذا الانتصار مقدمة حاسمة لظهور عهد سيطرة الانسان على مصادر الكون وفترته الكاملة على استغلالها وتوجيهها على النحو الذي يريد ، والبعض الآخر ينظر اليها على انها تجربة فذة ورائعة ولكن نتائجها من حيث ما ستحققه لانسان الارض من خير لا تتعامل مع ما بلل فيها من جهد ومال ، وفريق ثالث ومعتد بهم من المشتغلين بقضايا الفكر والفلسفة يكاد يجمع على ان هذا الحدث العلمي الجديد سيعرض من غير شك تأثيرات جذرية في مجال العلاقات الاجتماعية يترتب عليها بالضرورة تغيير واضح في تقدير الناس لبعض القيم التقليدية التي ظلت فترة طويلة موضع الاعتراف والشبث في مجتمع



ما قبل العصر القمري الجديد .

ان معظم الحاصلات التي قام بها الانسان لاستغلال الطبيعة جلبت له معها الكثير من المتاعب والشدود ، ويمكن القول بصفة عامة بان امكانيات الطبيعة التي تتوفر للانسان قبل القرن الثامن عشر لم تتجاوز في تاريخها نطاق البيئة المحلية ، وفي نفس الوقت كانت معظم الاختراعات من طاحونة وشرع ودولاب ماء تحاول استغلال الطبيعة في رفع ودون ارجاع لها .

ويظهر الثورة البخارية والصناعية بدأت عمليات السلب والعدوان على البيئة ثم اراد عفا وحده خلال القرنين الاخيرين بعد ان ربيد النمو السريع للسكان وارتفعت الاذوات تطالب بضرورة الاستفادة من التقدم التكنولوجي لحل مشاكل الجماهير الأساسية ، وغاب الكثيرين ان أي تقدم تكنولوجي يأتي دائما على حساب حياة الانسان وبيئته . فقد استمع بن ونستفيد من بناء السدود واقامة محطات القوى الضخمة وصناعة الطائرات التي تجوب الفضاء اسرع من الصواريخ ، ولكننا ننسى ان كل شيء في الكون يجب ان يعمل في تناسق مع البيئة بنسائها وحيواناتها ونباتاتها وهوائها ومائها أخ لأن البيئة شديدة التعقيد ومناعها متداخلة على نحو يؤدي أي اضطراب في أي عنصر منها الى احدثات سلسلة من التغيرات تشمل ماعداها .

وقد ثبت ان فشل التكنولوجيا في تحقيق هدفها في مشروع من المشروعات يكون راجعا الى اغفال هذه الحقيقة سواء عن جهل بها في بعض الأحيان أو عدم ائترات لها في أحيان أخرى ، فسد الكاديا الذي اقيم على نهر ازميرزي في افريقيا عمل رائع مافي ذلك من شك ، وقد تم بناؤه تحت ظروف صعبة للغاية ، ويقوم اذن بإداء وظيفته المحددة له في حجز المياه داخل بحيرة تعد من اعظم ما صنع الانسان من بحيرات في العالم ، غير ان هذه البحيرة بعد ان امتلأت بالماء افرقت اعدادا كبيرة من الحيوانات ، وكان هذا متوقعا ، ولم يكن امرا ذا بال على المدى البعيد ، كما انها غطت مساحات واسعة من الاراضي الزراعية ، وكان مقررا ان يتحول مزارعوها الى صيادين . ولكن الكثيرين منهم رفض ممارسة هذه المهنة وربما كان هن أيضا متوقعا ، لكن الشيء الذي لم يكن متوقعا هو ان تفشل كل المحاولات التي بذلت لتخزين البحيرة بالابهاك وان تغطي الحشائش مساحات واسعة من سطحها المائي فتصبح غير صالحة لمجليات الصيد أو مرور القوارب أو الاستفادة منها في

اما الفريق الرابع فيبدو متشككا في موقفه . اعتصما على تجارب تكنولوجية أخرى سابقة جعلت لتشاؤمه أكثر من مبرر . وإلى جانب هذه المواقف أيضا برزت وجهات نظر أخرى عديدة ومتنوعة كان لا بد ان تتوقع وجودها : لأن الحدث في حد ذاته خطوة مبدئية في ميدان صراع الانسان مع الطبيعة تستحق أن تتعدد وتنوع تفسيرات الناس لها ، غير أن هناك فريفا آخر دفعه هذا الحدث التكنولوجي القوي الى القيام بعمل تقييم شامل لكل المنجزات الإنسانية في مجال العلوم التكنولوجية والكشف عما أحدثته من تأثيرات ايجابية أو سلبية على حركة التطور البشري ، وكانت هذه القضية هي مركز الحوار بين عدد من رجال الفكر واساتذة العلوم في كل من أوروبا وأمريكا خلال الاسابيع التالية الماضية

مستقبل التقدم التكنولوجي

كان أول من أثار الجدل حول هذه القضية ويدار بالدعوة الى مناقشتها - فيما نعرف - عالم بريطاني مشهور هو الدكتور « بيتر لوري » Peter L'Orrey الذي يشغل الآن محررا للشئون العلمية بصحيفة الصاندي تيمز الانجليزية . لقد طرح هذا العالم السؤال المحدد التالي : « ما هي - بالقطع - الأرض الحقيقية التي ولها التقدم التكنولوجي للانسان لكي يعجز مزيدا من الانصاعات في مسيرته نحو مستقبل افضل اذا كانت ثمة فرص على الإطلاق ؟

وأصر هذا العالم الصحفي وهو يطرح هذا السؤال على ان تأتي الاجابة عنه من واقع التأثيرات التي اكتشفها الانسان وهو يحاول الاستفادة من نتائج الابحاث التكنولوجية في خدمة قضية تطوره .

وكم كان مذهلا ان يتلوه في خلال المناقشة التي اشترك فيها عدد كبير من رجال الفكر والعلم راي موحد يقرر مبدأ غريبا بل نديرو شاذا في نظر أبناء عصر ام بحث للتكنولوجيا فيه الكلمة الفاصلة في حياتهم ، ولكنه - على أي حال - مبدأ اعتمد اصحابه في تبريره على الواقع نفسه وكلهم اهل ثقة فيما تصمدوا له من موضوعات ،

وجانب الشدود في هذا الرأى يأتي من اصراره على اذانة التكنولوجيا واتهامها بتعطيل حركة التطور البشري ،

يقول دكتور لوري ان واقع التجارب يؤكد

المواد الحديثة المبيدة للحشرات بحجة انها تحتوى على نسبة عالية من السموم الى الموت الذى لا تفرض فيه مثل هذه الرقابة على مواد كيميائية اخرى ليست اهل خطوره من هذه المبيدات . فالمخصبات الزراعية تسبب تدمير البيئة اكثر مما تسببه مبيدات الحشرات ، اذ يستخدم الفلاحون ملايين الاطنان من النترات والفوسفات نجرفها مياه الامطار حين تهطل لتلقى بها الى الانهار والى البحيرات فتقتل الاسماك بسمومها وتساعد على نمو الطحالب نموا اكثر من الطبيعى فتعوق السباحة ومرور القوارب ، وهذه الطحالب تسرق مادة الاوكسجين من الماء فضلا عن انها تصبغ هي الاخرى حاملة للسموم ، وقد ثبت ان نمو الطحالب على هذا النحو في بحيرة العاصفة بولاية ايوا قد قتل اكثر من ٨٠٠٠ طائر برى .

وفي عالم تكنولوجيا الطب برزت نتائج خطيرة أدت الى الاضرار بصحة الناس بدلا من تحسينها وعلاجها ، وفي هذا المجال ينبغي أن نشير الى ثلاث مشاكل أساسية :



أولا : العقاقير نفسها - وهي مادة العلاج - غالبا ما تكون سامة ، فالبنسلين مثلا يمكن أن يقتل الانسان الذى تصبغ لديه حساسية منه، وقد اثبتت بعض الاحصائيات التى أجريت عام ١٩٦٨ أمريكا أن ٥٪ من المرضى الذين كانوا يعالجون بالبنسلين لقوا حتفهم نتيجة السم الذى أصابهم من كثرة استعماله .

ثانيا : العقاقير التى يستعملها المريض للشفاء على مرض معين قد تساعد على الشفاء من هذا المرض ولكنها - وهذا ما يحدث كثيرا - تطرد من الجسم بعض المواد التى تحييه ضد أمراض اخرى ، فالعلاج بالمضادات الحيوية يؤدى الى تزايد العدوى بفطريات الفم وظهور التهابات حادة في الجلد وأجهزة التناسل وذلك بسبب القضاء على مواد الحماية والدفاع - فسدّها في الجسم .

اي غرض آخر ؟ يضاف الى هذا عدم وجود صناعة ضخمة تستخدم كل امكانيات القوى الهيدروكهربائية المتولدة من السدود ، وحيث لا توجد مثل هذه الصناعات تمتلئ البحيرة بالرواسب الطينية فيصبح السد عديم الجدوى . وقد حدث هذا ايضا في أماكن اخرى غير افريقيا ففي عام ١٩٢٠ تم بناء سد جبل طارق على النهر الواقع خلف مدينة كاليفورنيا ، وسرعان ما اتضح ان البحيرة قد امتلأت بالرواسب فاضطر المسؤولون الى اقامة سدود اخرى عند أعلى المجرى لمنع البقايا المتهدمة ، غير انه لم يعض الا اعمان فقط حتى امتلا هذان السدان كذلك بالرواسب ، ويمكن القول بان هذا المصير قد واجهه اكثر من ٢٠٠٠ من السدود الموجودة في الولايات المتحدة الامريكية وحدها .

وتعتبر مشاريع الري الكبرى احدى نفذات في البنجاب احدى عجائب الهندسة المدنية ولكنها اصابته بالباكستان بكارثة حين فصلت الاملاح عن الارض وركزتها على السطح فعملت منها منطقة غير صالحة للزراعة .

مثل آخر من امريكا ، كانت بحيرة كليز Clear التى تعتبر اخصب منتجع في ناليفورنيا واروع موقع من مواقع الجمال فيها مليئة بأسراب هائلة من البعوض المعروف بلسماته القارصة ، فتقرر التخلص منه باستخدام مادة الـ D.D.T. ، وهى من عائلة الـ D.D.T. ولكنها اقل خطرا من حيث سمومها على الاسماك وغير ضارة بالنسبة للطيور ، وفعلا اختفى البعوض لمدة سنتين ، وتقرر رش البحيرة مرة ثانية وتكررت هذه العملية مرة ثالثة ، وبعد هذه السنوات الست التى استخدم فيها رش البحيرة ثلاث مرات فوجيء أهالى المنطقة بموت كل الطيور التى كانت تعيش بين قصب الغاب .

وهذا المثال والامثلة السابقة ايضا نموذج لمنطق التكنولوجيا : « لم تكن نعرف » وهو منطق يفقد التقدم التكنولوجى اهميته فيصبح عامل تعطل لعملية التطور بدلا من دفعها الى الامام ، والسبب في هذا القتل واضع ، وهو ان رجال التكنولوجيا لم يدركوا اهمية التناسق الذى يجب ان يتوفر بين عناصر البيئة ، وان اى اختراع يجب الا يحطم هذا التناسق .

اداة التكنولوجيا

ومن المتناقضات المجدبة في مجتمعتنا المعاصرة ان بعض الحكومات تفرض رقابة صارمة على

الصلة الوثيقة بين وفاة كثير من الأشخاص ووجود ثنائي اوكسيد الكبريت في الهواء - الامر الذي دفع الحكومة البريطانية الى اصدار قوانين صارمة بتنقية الجو من هذه المادة - فان هؤلاء لندن لا يزال مشبعاً منه بكميات اكبر كثيراً مما كان موجوداً منذ عشر سنوات . وهذا راجع بالطبع الى ان اساتذة التكنولوجيا لم يحاولوا الارتفاع بقضية سلامة البشر فوق الاعتبارات الفنية ، لأنهم يتحركون في كثير من الأحيان في ظل منطق « لا يهتما »

وليس صحيحاً ان التكنولوجيا مفيدة دائماً حتى ولو وضعت في اعتبارها سلامة البشر لان البيئة - كما سبق ان قلنا - ليست مملكة الانسان وحده . بل هي مركز الحياة بالنسبة لكائنات كثيرة أخرى ، فهي مستقر الوجود للحيوانات والنباتات والطيور والمعادن الخ واستخدام التكنولوجيا استخداماً عنيداً ومطلقاً بعيداً عن كل قيد سيخلق حتماً عديداً من المشاكل الجديدة التي لا عهد لنا بها من قبل ، فسيؤدي استغلال المعادن والوقود الحجري على هذا المستوى الضخم الى ندرة وجود هذين المادتين من العالم ، لأن تزايد الطلب عليهما من مراكز التكنولوجيا يسدو وكان كوكبنا الأرضي لا يحتوي على معادن أخرى غيرهما ، وتقول كل الإحصائيات التي أجريت في السنوات الأخيرة الماضية ان استغلال البترول والفحم لو ظل

ثالثاً : استعمال بعض العقاقير لفترة طويلة يؤدي حتماً الى خلق نوع من المقاومة ضد هذه العقاقير ، وعلى الرغم من ان علماء الصيدلة يحاولون التغلب على هذه الحالات إلا ان المقاومة تعود لتظهر من جديد حتى بات هناك سباق لا يتوقف بين وجود مقاومة من جانب المريض واختراع عقاقير جديدة مضادة لهذه المقاومة . وقد وجد لدينا الآن بهذا الصدد ما يمكن ان نسميه بعمليه الانتحار القبيح ، فمنذ عدة سنوات وشركات العقاقير تعمل على اقتناع الزارعين بمزج غذاء الحيوانات انه صغيرة بعواد تحتوي على مضادات حيوية حتى تزرع فيها جراثيم المقاومة لما في جسم الإنسان من اسلحة . وما يثير الدهشة ان عقار الكلورمفينيكول الذي كان الى عهد قريب العقار الوحيد الفعال ضد التيفود أصبح اليوم عديم التأثير وذلك بسبب اعطائه للدجاج المصاب بالحمى ، وكثيراً ما يرى اطفالاً يموتون من التهابات معوية لم يعد من الممكن للتغلب عليهما بأي عقار حتى ولا الكلورمفينيكول .

قد تكون هذه الاخطار قد حدثت لأن علماء التكنولوجيا لم يكونوا يتوقعون حدوثها وهذا حدثت كان لها من غير شك تأثير ضار على مصلحة التطور البشري ، فهل يمكن لهؤلاء العلماء ان يتجنبوا ظهور ميثيسل لربما في مشروعاتهم المستقبلية ؟

صراع الانسان والتكنولوجيا

لقد توفر على دراسة بحيرة الفولسا في غانا فريق من خبراء الصيد والبحيرات لعدة سنوات ، على أمل تجنب الاخطاء التي حدثت في الكاديا . ولكن اخطاء أخرى ستجعل من هذا العمل الفني العظيم مشروعاً قليل الاهمية لو غاب عن ذهن المنفذين فكرة المحافظة على مبدأ التناسل الضروري بين عناصر البيئة دون ادنى اخلال باحداها .

ولقد حاولت التكنولوجيا توفير بعض رسائل الراحة للانسان بانتاج أجهزة التدفئة والتلاقيات والسيارات وفتاتها ان هذه الاجهزة تحدث نوعاً من الغازات تحتوي على حامض الكربون الذي يتحلل في رطوبة الجو ليتحول الى حامض الكبريت الذي يعتبر مسئولاً عن تآكل المباني والسيارات واحداث كثير من الضخائر تقصد سنوياً بمائة مليون جنيه استرليني في بريطانيا وحدها وعلى الرغم من ان الأبحاث التي أجريت في شتاء عام ١٩٥٨ - ١٩٥٩ اوضحت مدى



على معدله الحالي فمعنى هذا ان كل الكميات الموجودة منهما في الأرض سيتم امتصاصها تماماً خلال المائتي عام القادمة . وليس هذا بالامر الغريب ، فقد واجهت معادن أخرى كالصفيح والزنك نهايتها الأخيرة تحت ضغط والحاح الاحتياجات التكنولوجية . وليس هناك أمل في البديل الا في القوة النووية الجديدة التي يدعي التكنولوجيا انها ستعوضنا الكثير عن مصادر القوى التقليدية ولا ندرى حتى الآن ما اذا كان هؤلاء التكنولوجيا قد وضعوا في

أخطار على حياة الأرض بما فيها ومن عليها .

ان علينا ان نتوسع في تقدير أهمية التكنولوجيا ، ومن الخطأ ان نصورها في شكل صديق عملاق يكون دائما رهن اشارتنا حين نطلب اليه ان يطير الى ما وراء الحدود ليعود ومعه القطار الساحر لحل كل مشاكلنا وعلاج أمراضنا ، ان النظرة العاقلة لدور العلم هي نظرتنا الى صديق سفر يشاركنا ظهر سفينة فضاء راضية ، علينا ان ندرس ونمحس بروح النقد والتحليل نتائج ما يؤديه من عمل ..

ومن أعظم خيرات التاريخ ان رجال العصر الفيكتوري لم يكتشفوا سر الشطار الذرة ، لانهم لو اكتشفوه لحولوا المسالم بصرهم مفاهيم الاجتماعية الى مجرد صحراء مليئة ببقايا الدمار والخرائب .

اعتبارهم وهو يتحدثون عن هذه القوى اخوية مدى خطورة ما سيحدث نتيجة استخدام هذا المصدر الساحر ، فبعض الدراسات الاخيرة تؤكد ان التراب الذي يحتمل ان يرتفع الى طبقات الجو العليا نتيجة انفجار ٢٠٠٠ طن من القوى النووية سيكون كافيا لخلق عصر جليدي آخر على الارض .

ومن القصور ان ننصور ان مشكلة استغلال الفحم والبترون محصورة فقط في نطاق الخوف من مواد مخزونها فهاك اخطاء اخرى تحدثها هذه المشكلة وتعد من حيث تأثيرها المدمر على حياة البشر اخطر خطرا من مجرد نفاذ مادة او مادتين من ثروات الارض ، فقد ضاعف استهلاك الفحم والبترون في القرن الماضي من وجود ثاني اوكسيد الكربون في الجو يجعل بعدد ١/٧ ما كان موجودا منه بالفصل ، فاذا استمرت هذه الزيادة لمدة ٤٠٠ سنة او كما يقدرها الآخرون لـ ٢٠٠ سنة فان معنى هذا ان كمية ثاني اوكسيد الكربون التي ستوجد ستكون كافية لانقاص كمية من حرارة الشمس تساوى ما هو موجود من اشعاعها الآن في الفضاء ، وسيستع هذا ارتفاع في درجة حرارة الارض الى حد تدوب معه ميم الثلوج فتتهجر مياهها وتفرق الكثير من مدن العالم الكبرى .

ويمكن ان تحدث نفس هذه التأثيرات او قريب منها نتيجة استخدام الطائرات النفاثة لان هذه الطائرات تفرغ اطنانا من المياه التي سرعان ما تتبخر في طبقات الجو العليا ثم لا تلبث ان تتجمد في شكل بلورات ثلجية محدثة شحنات لبنية (Milky) ، ولهذا يعتقد بعض علماء الجو ان من المحتمل ان تختفي الفروق المناخية بين فصل الصيف وفصول السنة الاخرى لان السماء ستصبح في يوم من الايام موشاة بسحب كثيفة من هذه البلورات وتكون النتيجة اردابا هائلا في درجة حرارة الارض .

ان الذي يحتملنا من الاشعاع الشمسي فوق البنفسجي وهو اشعاع قتال ومدمر اربعون طنا فقط من الأوزون Ozone (نوع من الأوكسجين) منتشرة حول الكرة الارضية كلها، فلو امتزجت كميات مناسبة من الوقود الصاروخي في تفاعل مع هذا الأوزون لا نطلعت الاشعة فوق البنفسجية في هجوم عنيف تتحدى به وجود الانسان على الارض .. وهذا الاحتمال ربما يكون بعيد الحدوث ولكنه يعكس مدى ما يمكن ان يسببه التلوث في بعض العلوم من



أخطاء الجيل الشريف :

هناك أيضا أخطاء يخطئها مائسميه بالجيل الشريف ، فحين اخترعت س مثلا - أشعة أكس في نهاية القرن الماضي هلك الناس في كل مكان لانهم أحسوا ببعض نتائجها الطبية ، ولكنهم كانوا ينظرون اليها كما ينظرون الى جسد امرأة جميلة من خلال ثوب توبها الشفاف . فان احدا لم يكن يدرك أو حتى يتصور ان استخدام هذه الأشعة سيسبب في وجود اضرار بالغة تصيب العظام والمجنيات . ومن المؤسف ان مثل هذه الأخطاء لا تزال تحدث مما يهدد أمن البشرية ومستقبلها ، ويبدو انه من المستحيل ان يأتي الوقت الذي نعرف ما يجب ان نبحث عنه ، ففي عام ١٩٣٧ حاولت مجموعة من العلماء الأمريكيين الذين يعملون في لجنة الموارد القيمة التنبؤ بما ستكون عليه مواردهم خلال السنوات الثلاثين القادمة فبنوا دراساتهم على أساس الإمكانيات التكنولوجية التي كانت متوفرة لديهم يومذاك ، وضاعت أهمية هذه الدراسة بالطبع فيما بعد لانهم لم يضعوا في اعتبارهم اختراع الفلص الإلكتروني والانشطار الذري والرادار والترانزستور والمسابير والطائرات النفاثة ، لقد كانوا يعتقدون ان الطائرات مثلا ستكون حجما واكثر راحة وأمنا ولكنها ان أصبحت أكثر سرعة ..

والحقيقة الاخلاقية التي يجب ان نتعرف بها هنا هو ان العلم قد جعل مستقبل الجنس البشري شديد التموض والتعقيد .

وإدما مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجي وحريصين في نفس الوقت على حماية حركة التطور البشري فان واجبا يتركز في خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمفادرات بعيدة الامد . علينا ان نجتمع بين مصالح الطرفين المستفيدين من كل من هذين الاتجاهين، مصالح الجماهير ومصالح التكنولوجيين ويمكن ان يتحقق هذا التوازن لو تمت الاتجايزات التكنولوجية داخل اطار واسع من التعاون المتكامل بين كل الاطراف المعنية بشئون التطور، اذ ثبت ان كل الاخطار التي تحدثت من أي مشروع تكنولوجي تكون بسبب افراد جماعة متخصصة بتنفيذ المشروع دون الاستعانة بغيرهم من التخصصين في المجالات الأخرى ، وتوضيح هذا المعنى نتصور مثلا ان مهندسا من مهندسي الري ذهب الى منطقة يشكو أهلها من قلة المياه اللازمة لري أراضيهم ، ثم هثر فجأة على مكان

صالح لإقامة سد يوفر لهم كميات المياه المطلوبة وبعد ان وضع التصميم وحدد المسال اللازم نشرعه وجد ترحيبا من هؤلاء الأهالي نظرا لما يبدونه فيه من مصلحة عاجلة تعود عليهم بالفائدة ، فالتوقع في هذه الحالة بالطبع ان يبادر هذا المهندس بالعمل لانجاز المشروع . ولو اشار عليه احد ان يستعين قبل تنفيذ مشروعه بعلماء الأيكولوجيا (علم تأثير البيئة على الحيوان والنبات) وعلماء الحيوان وعلماء السلالات تسخر من هذه النصيحة لانه يتصور ان مشروعه لا يحتاج الى مساهمة احد من هؤلاء المتخصصين . اذ ينظر اليهم على انهم أصحاب مخاللات أخرى لا تمت الى عمله الفنى بصلة ، وهنا لا يتحقق التوازن بين الفوائد العاجلة والاطار الاجلة .

الآعباء الاجتماعية والانتاج التكنولوجي

هناك أيضا عامل آخر خطير يلعب دورا هاما في اضطراب عملية التوازن المطلوبة ويتخذ من سرية التكنولوجيا وسيلة للنجاح الخاص . هذا العامل يتجلى في السعي الجشع وراء الربح الهائل ، فبعض الشركات الصناعية الكبرى تحتفظ لنفسها بأسرار اختراعاتها حتى لا تترك فرصة للمنافسة أمام الشركات الأخرى ونخشى أيضا ان تبوح بهذه الأسرار حتى لا تتعرض لهجوم من جانب احد من العلماء الذين قد يكتشفون ما في انتشار هذه المخترعات من أخطار . وكثيرا ما ارتفعت شكوى بعض المحافظين في أمريكا من المارضة العنيفة التي تقف الشركات الصناعية الكبرى من ورأئها أثناء احتجاجهم على استخدام مبيدات الحشرات الحديثة .

ان معظم هذه المخترعات حين تفزونا لا نستطيع كمجاهير ان نكتشف ما فيها من خطر علينا الا بعد فترة طويلة من الزمن فلو أحسنا فجأة باخطارها مرة واحدة لتجنبناها على الفور وهذا هو جانب الخطورة في الموقف، وكما يقول الأستاذ اميرلنج « لو أن ضباب الدخان وصل فجأة الى سماه لوس انجيلوس لهرع الناس توا الى داخل التلال ولكنه يأتي تدريجيا فيتعلم الأسس كيف يتعايشون منه »

وقد ظل خبير الطيران السويدي بولانديرج Bolander يحذر الناس من أخطار الكونكورود ولكن احدا لم يعبا بتحيراته حتى اكتشفنا ذلك بانفسنا .

الدخل القومي - فقد تبين ان بعض المبررات الفنية التي يكتف بها كثيرا من النفقات دفعت القتل في النهاية بسبب ما أحدثته من أضرار برزت أثناء استخدامها، كما أن هناك مبررات تكنولوجية أخرى تسببت في أحداث خسائر اقتصادية تفوق أضعاف ما حقته من مكاسب، وقد سبق أن ذكرنا بعض الأمثلة لتأكيد هذه الحقيقة . أما في مجال القيم والملاقات الاجتماعية فإن أحدا لا يستطيع أن يتجاهل الأثر السوء الذي تركه التقدم التكنولوجي فيه، ولناخذ مثلا دور التكنولوجيا في ميدان انتاج الأسلحة الرهيبة . فقد أصبح السباق فيه اليوم على أشده بين الدول الكبرى ونكاد نشهد ونسمع حركة تطوير واسعة كل يوم بل كل ساعة تهدف هذه الدول من وراءها إلى جعل هذه الأسلحة أكثر فتكا وأبعد دمارا ، أن هذا السباق يؤدي حتما إلى زيادة حدة التوتر بين شعوب العالم وخلق حالة من التربص الدائم لديها ، وربما أفلت الزمام في لحظة إثارة ونضب أو في لحظة غرور قومي من يد القيادة المسؤولة، **ان النتيجة الحتمية في هذه الحالة وقوع الكارثة الشاملة التي ستدمر كل تراث الإنسان على الأرض وتفق باب المستقبل إلى الإبد .**

الجانب الإيجابي للتكنولوجيا

والآن قد يتصور البعض أن تقيم دور التكنولوجيا في ضوء جانبها السلبى فقط إنما يعكس مفهوما خاطئا ومختلفا ينتهى بصاحبه إلى معصاة كل تقدم يتحقق وتحويل جمهოდ العقل البشرى عند نقطة ثابتة لا تتحرك ، وليس هذا صحيحا على الإطلاق ، **فإن يوجد من يعارض التقدم التكنولوجى الا معنوه ابله لا يقتضى الى عالمنا المعاصر ،** إنما ندعو فى حاس عارم لا يهدأ الى استقرار حركة العلم بشرط ان تكون دائما في خدمة قضية التطور البشرى ، لا ان تكون عتبة في طريقها ، ولا يتحقق هذا الهدف الا اذا وضعت التكنولوجيا في اعتبارها دائما مبدأ التناسق مع البيئة بكل عناصرها وى تقدم تكنولوجى ينس أو يتناسق هذا المبدأ الأساسى لا بعد تقدما باى معنى من المعانى ، بل هو في تحليله الأخير ممول بدمر معيالم الطريق أمام حبركة التطور الإنسانى .

عبد الواحد الأمباري

وعند هذه المرحلة من الدراسة تكون قد وصلنا الى مواجهه قضيه لا بد من اوفرف عندها ، **تضيق الاهتمام بالأعباء الاجتماعية وقائمه ، على مستوى استئثار الإنتاج التكنولوجى** وفي هذا الصدد نرى التماسك الذى اوردته البروفيسور « أدوارد هيسنان »

في كتابه « تكاليف التمسو الاقتصادى » فهو يتخيل مدينة يعيش معظم أهلها على مشارفها بينما يكون مقر عملهم في وسطها ، ففي المرحلة (أ) تتوفر في المدينة خدمة كافية بالنسبة للمواصلات . إذ يوجد عدد من الأتوبيسات يكفي لربط أجزاء المدينة بعضها مع بعض . ومستر البيت الذى يعتبر نموذجا سطحيا لكل سكان المدينة يستخدم الأتوبيس يوميا في الذهاب الى عمله والعودة منه ولا يستغرق ذلك أكثر من عث دقائق . وفي المرحلة (ب) يشتري مستر البيت سيارة طاحنه يذهب بها الى عمله في خمس دقائق فقط ولا يبقى أكثر من عامين حتى يفصل كثير من مثله . وفي المرحلة (ج) وبسبب تزايد عدد السيارات تزيادا كبيرا تصبح حركة المواصلات صعبة للغاية حتى لا يستطيع البيت وزملاؤه ان يصلوا الى عملهم بسياراتهم الخاصة . قبل ربع ساعة ، فيبدأ البيت يشعر بأنه في المرحلة الأولى كان أحسن كثيرا ، ولكن الأتوبيس أصبح يقطع المسافة الآن في ٢٥ دقيقة وقد تضاعفت تعريفة النقل نظرا لقله عدد الذين يستخدمونه . وفي المرحلة (د) يصبح لكل شخص سيارة خاصة يضطر المسئولون الى إلغاء الأتوبيس نهائيا لعدم وجود ركاب ، ولان الأعباء الاجتماعية أى الأعباء المالية التي تتحملها الدولة لتوفير الخدمات الاجتماعية تتطلب ضرورة فرض ضرائب على المواطنين فان المسئولين يجدون أنفسهم مضطرين الى مضاعفة هذه الضرائب على ماعد كماليا بالنسبة لأساسيات الحياة الضرورية الأخرى ، **وفيس من شك في ان السيارات الخاصة اذا قيست بالخدمة الطبية تكون شبيها كماليا ، فتفرض الضرائب على اصحابها ،** فهل سيحدد فرض الضرائب التي يجب تحصيلها للانسفاق فيها على الأعباء الاجتماعية من توسع انتشار واستخدام السيارات الخاصة التي هى متاح للتقدم التكنولوجى ؟

نعتقد ان الرد سيكون حتى بلايجاب :

تقيم مسألة تأثير التكنولوجيا على مواردها الاقتصادية وخطورتها على ضياع جزء كبير من

ترجمة: سليم الأسيوطي

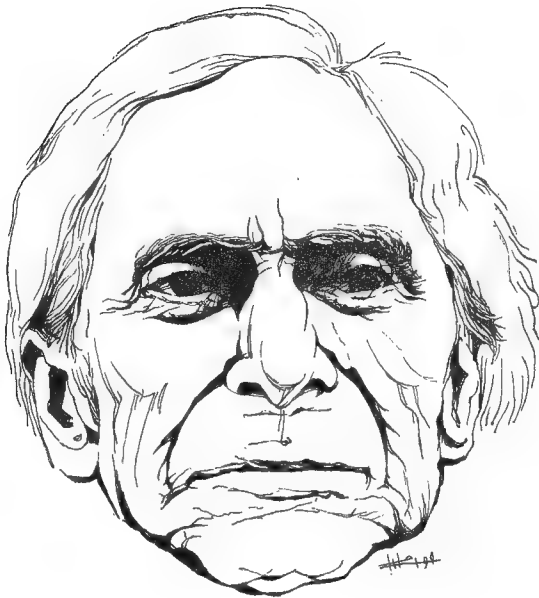
عقدت هيئة الإذاعة البريطانية ندوة دعت إليها نخبة ممتازة من رجال الفكر البارزين ، ناقشت حياة « لورد برتراند رسل » فقامت بعمل تقييم لحياته وأهميته بوصفه مفكراً عظيماً وفيلسوفاً كبيراً تمكن من تبسيط الفلسفة وتقريبها من ألمان الجماهير . كما تعرضت أيضاً لمواقفه من القضايا الهامة مثل تحرير المرأة ونصرتها للحركة النسائية عامة ، وكراهيته للانتخابات والسياسة والدعاية للحصول على أصوات الناخبين ، ودوره في الحياة الثقافية والفكرية .

ثم تناولت المناقشة تأثيره على الحياة العامة : هل شارك فيها بنشط وافر ؟ وهل كان ناجحاً في هذه المشاركة ؟ ولم يفت الندوة ذكر جهوده في ميدان السياسة والحديث عن مقصده الفالفة في الاتصال بالجماهير والشباب بصفة خاصة . كما خصت الندوة «سيرته الذاتية» بقدر ملحوظ من الحديث لا تلقبه من ضوء على جوانب حياته العامة والخاصة .

وقد اشترك في هذه الندوة :
ستيوارت هامبشاير S. Hampshire ، أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون . وهو مؤلف «الفكر والعمل» و «حرية الفرد» ... الخ

نورمان سانت جون - ستيفاس N. St. John Stevas
عضو مجلس العموم البريطاني ومحرر سابق في مجلة «الايكونومست» The Economist ، وتتضمن مؤلفاته المنشورة :
«الحياة والموت والقانون» و «القانون والأخلاق» .

البارونة ستوكس B. Stocks التي عملت في عدة لجان حكومية . وهي المستشار المساعد لجامعة ليفرپول ومن مؤلفاتها المنشورة : «الدولة الصناعية» و «تاريخ جمعية الأعمال التعليمية» .
روبرت كي R. Kee ، الذي تولى إدارة الندوة ، وهو مؤلف «الجمهور ليس صحبة» و «علامة الأزمات» .



ستيوت هامبشاير : أظن أنه مما لا يقبل الشك أنه واحد من أعظم ثلاثة فلاسفة أو أربعة يكتبون باللغة الانجليزية في هذا القرن ؛ وهو يقف ضمن تراث المذهب التجريبي البريطانى الذى يعود الى « لوك » و « باركلي » و « هيوم » و « ميل » .

ولبرتراند راسل ، من حيث هو فيلسوف

روبرت كى : أرجو أن نعمل نوعا ما من التقويم لأهمية حياة برتراند راسل المذهبة ، وأظن أنه بالحديث عن الرجل الذى أصر دائما بصورة تدعو الى الاعجاب على الصراحة بين الناس ليس ثمة حاجة الى الخوف من الحديث فى صراحة ، فكيف كان برتراند راسل هاما بوصفه فيلسوفا ، يا ستيوت هامبشاير ؟

كي : ولكن هل ترك أثره حقاً ، في الأسلوب الذي تقدم به المجتمع ونما ؟

سانت جون ستيغاس : لا أظن أنه قد ترك أثراً عميقاً خاصاً على الحياة العامة ، في زماننا هذا . انه شخصية تخلب لب الناس ، كما تخلب لبهم أمانته وصدقه . ولكن آراؤه تبدو لبعض الناس كأنها مجنونة جنونا طيفيسا . وأظن أن المكان الذي سيحتله في لتاريخ ، وبعد أن نترك جانباً ما أسهم به من نشاط فلسفي ، هو في معرض عظماء شواذ الانجليز .

« ضرر الغزلة »

هاميشاير : اعتقد أن ما وهبه الله من قدرة الاتصال بجمهور كبير ، وهي القدرة التي تظهر واضحة فيما يكتب وفيها يدع ، تنبع من سمه عميقة من سماته الخلقية ، تلك السمة التي قد أشار إليها في سيرته الذاتية : **أعنى ما يسميه هو ضرر الوحدة والغزلة** . فقد كانت الفلسفة عنده دائماً مسألة متعلقة بالاعتداء الى معنى الحياة ، والتغلب على هذا الاحساس بالغزلة التي شعر بها في طفولته . وهذا عند السواد الأعظم من الناس الاصل السيكلوجي للاهتمام بالموضوعات الفلسفية ، وهو شعور يدفعهم الى التساؤل : **هل أستطيع الاعتداء الى معنى الحياة ، أو الفرض من وجودنا هنا في هذه الدنيا ؟** لقد ذكرت ليدي ستوكس الآن أنه (برتراند راسل) رجل متدين بمعنى خاص ، فإذا ما كان هذا يعني الشخص الذي يتر هذا النمط من الاسئلة ، فإنه من الواضح إذن أنه متدين ، حتى ولو كان ينكر وجود الله ، ولكني أفضل أن أسمي هذا مزاجاً فلسفياً أصيلاً وهو يضرب لاصحاب الفكر الصريح الحر مثلاً يجذبونه متشعباً لهم ، حتى في المواضيع التي يصل فيها الى نتائج غير مقنعة . **وعلى هذا فاني أظن أنه قد أثر على هذا النحو تأثيراً عظيماً .**

كي : وما قولك في القضايا العظيمة والمحملات التي وقف بكل كيانه مسانداً لها ، مثل تحرير المرأة ، والاصلاح الجندي في المواقف والاتجاهات الجنسية ؟ **هل حدثت هذه ، في الواقع ، بسببه ، أم انها كانت معاصرة لافكاره فحسب ؟**

ليدي ستوكس : ان الذكرى الاولى التي أحملها له كانت بوصفه نصيراً للحركة النسائية ، يعمل بالاشتراك مع زوجته الاولى ، ومع حركة تحرير المرأة كلها . وأظن أن هذا كان جزءاً من

عظيم ، جانبان متميزان : فهو من جانب قد ابتكر ونشر بداية المنطق الرياضي بمعنى حديث وفي نطاق حديث . صحيح أنه لم يكن وحيداً في هذا الميدان ، ولكنه كان الشخصية المركزية الرئيسية . وثانياً ، فيما يتعلق بنظرية المعرفة والمشاكل التقنية للفلسفة فقد وضع القضايا التي ناقشها للفلاسفة الآخرون الذين نعتقد أنهم **أنداد له من مثل « مور » و « فيتجنشتاين »** . وقد حددوا موقفهم بالنسبة له ، واني أعتقد أن هذا يصدق على جميع العالم الناطق بالفلسفة الانجليزية . **انه افيلسوف العظيم الذي أسهم بابتكارات فنية نوعية متعددة في داخل الفلسفة ، هي مكاسب دائمة للمعرفة . وأخيراً ، فإنه قد ضرب المثل وقدم المبادئ التي يعمل عليها الآخرون ، واني لا أظن أن من المستطاع أن يتنازع احد في أنه مفكر عظيم .**

نورمان سانت - جون ستيغاس : اني افضل لو أضيف أنه - فضلاً عن كونه مفكراً عظيماً وفيلسوفاً متخصصاً عظيماً - عظيم أيضاً في ترويجه الفلسفة للجماهير وتقريبها من أذهانهم . واني لأظن أن أحد الأعمال الفلسفية التي نقرأ على اوسع نطاق في انجلترا هو كتابه **« تاريخ الفلسفة الغربية »** . واني لا أعتقد أنه ، بالإضافة الى ما يتمتع به من اندكاه الفنى والفكر الاصيل ، لديه قدرة نادرة على توصيل ما يقول الى القارئ ، فله هوية نشطة ليقدم الى الجمهور غير المتخصص أفكاراً فلسفية عامة .

كي : اننا نتقدم نحو الموضوع المشوق ، ألا وهو : **ما اذا كان تأثيره بوصفه شخصية شعبية يتناسب مع تأثيره الأكاديمي أم لا يتناسب ؟**

ليدي ستوكس : أظن أن له ذلك التأثير ، من جهة لأنه ، كما ذكر مستر سانت جون - ستيغاس ، فيلسوف يروج للفلسفة بين الجماهير ويقرّبها من أذهانهم . وأنا لست فيلسوفة ، ولكني حينما قرأت مقاله عن **« عبادة الانسان »** اخبرني شعرت أن به شيئاً أستطيع أن أفهمه هذا الشيء الذي يوضح اتجاهه كله في الحياة . واني لا أستطيع أن أتصور لماذا وصفه الناس بالأحاد . ان موقفه يبدو لي موقفاً دينياً - موقف الذي يعتقد بعدم كفاية العقل البشرى لفهم الوحي الالهي ، ولكنه بالتأكيد ليس ملحداً .

في لورد راسل أنه يريد ارادة مؤكدة واضحه
أن يشارك في الشئون العامة ، وأن هذه العاطفة
القوية هي التي كانت تدفعه قديما دائما :

ولكني لا أظن أن الشعب الإنجليزي يأخذ أقواله
مأخذ الجد في الشئون العامة والسياسة الإنجليزية
فلا أظن أن أعضاء مجلس العموم البريطاني ، مثلا
يسألون أنفسهم هذا السؤال : « ماذا قال
برتزاند راسل ؟ » نعم قد يكون له تأثيره من
حيث هو مظهر للضمير في ذاته . وقد يكون له
أيضا ، تأثيره في صورة سلبية اذ يستخدمه
آخرون لخدمة أغراضهم الشخصية ، ولكني لا أظن
أنه ربما كان بمقدوره الدفاع عن زعم بأن له تأثيرا
سياسيا عميقا في زمننا .

هاميشاير : ولكن هل ينبغي لنا أن نفترض
أن مكان الفلاسفة الصحيح ليس في الشئون العامة ؟
انني أعني بذلك أن الفلاسفة افلاطون ، وأرسطو ،



واسبينوزا ، وهيوم ، ولوك ، وغالبية الفلاسفة
انظم من أمثال ميل ، قد اختصوا أنفسهم
جميعا ، بقضايا أساسية متعلقة بالمسائل الاخلاقية
والشئون العامة . انه لمن الصعوبة بمكان أن
نتصور كيف يمكن أن ينفصل هذان الشيطان .

سانت جون ستيفان : ان الفلاسفة لم يحرزوا
نجاحا كبيرا جدا في مشاركتهم في الشئون العامة .
ولأضرب لذلك مثلا بالفيلسوف « ميل » فأظن أنه
ارتكب خطأ فاحشا بدخوله البرلمان ، فلم يكن
له تأثير في البرلمان في الشئون العامة ، وكل
ما جناه من حياته البرلمانية هو إنها صرفته عن

ميراثه الذي استمده من مذهب حزب الاحرار في
عصر الملكة فيكتوريا . وإذا ما قرأت خطابات أمبرلي
amberly فسيتكشف لك أنه لا يعرف أبويه
فلم تتح له الفرصة ليعرفهما ، ولكن قدرا عظيما
من واديه موجود فيه ، من كلا والديه : أبيه
وامه : هو ، الاتجاه المشكك ، وإيمانها العظيم
بالمساواة ، فقد كانا في الاصل ، ديموقراطيين ،
ورث هو عنهما ذلك وأظن أنه قد أضفى لونا من
الاحترام الاكاديمي على حركة تحرير المرأة . ولقد
ضحي بالكثير من أجل هذه الحركة ، كان يكره
الانتخابات الفرعية ، والسياسية ، والدعاية
للحصول على أصوات الناخبين ، وما شاكل ذلك .
ولكنه بهذا العمل كان يناضل من أجل قضية
عادلة .

« دور الانبياء في الحياة العامة »

سانت جون - ستيفان : ان دوره في الحياة
العامة ، كما يبدو لي ، كان دور النبي . فان
الطبيعة لم تهيه ما يسميه « ولفي باجوت » -
الملكات التي يتخصص بها طرقه نحو أهدافه ،
وهي ضرورية وأساسية اذا ما كنت تنشد التأثير
السياسي على الناس ، اذ يجب عليك أن تقوم
بمسلسلة من الترضيات والتسويات للقاء عند
نقطة أو نقاط تحسم المنازعات . أما هو فلم يكن
راغباً في القيام بهذه التنازلات مطلقة ، وهذا
يعطيه قوة عظيمة ، اذ يتيح له التمسك بمبادئه
دائما ، وهذا هو الشيء الذي لا يستطيع أي
سياسي أن يفعله حقا ، اذ أنك حين تكون سياسيا
لا تستطيع أن تكون نفسك الا الى حد محدود
فحسب .

كي : لقد كان ، على كل حال ، يطالب بأن
يأخذ الناس ما يقوله مأخذ الجد في الشئون العامة
فقد قال في مكان ما من « سيرته الذاتية » انه يمد
أن كتب « مبادئ الرياضيات » هجر الرياضة
والفلسفة الى الشئون الدنيوية . وكان ذلك سيكون
عمله الجاد . وانه لينبو عجيبا أن يكون رجلا
« مثل هذا العقل الجبار ، عديم التأثير الى هذا الحد
في مجال الشئون العامة » .

سانت جون ستيفان : اني لأجد غرابة في ذلك
مطلقا فان الانسان يتوقع من شخص قد جعل من
الفلسفة كل شأنه أن يكون غير مؤثر في الشئون
العامة . ولا يتوقع منه ، في الحقيقة ، حتى مجرد
أن يريد الاسهام في الشئون العامة . وإن المهم

عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، ويسمى « **الديموقراطية الاشتراكية** » واسمحل على أحسن مناقشة للنظرية الماركسية باللغة الإنجليزية .

اما الكتاب الثاني فكان عن « **أسس الهندسة** » والحق أن المرء ليخطئ كل الخطأ لو اعتقد أنه كان فيلسوفا عظيما !نصرف الى السياسة : منذ كان للاتين دائما عمق متساو في طبيعته ، فلم يكن راسل أكاديميا قط ، إذ لم يدخل جامعة ، فيما خلا فترات قصيرة جدا ، وهذا يحزره من التمسك بالنظم والشرائع القائفة في المجتمع ، ويمكنه من أن يتحدث كإنسان الى حشد عظيم من الناس ، ربما لا يكونون متفقيين معه ، ولكنهم يشعرون أن هذه ظاهرة مشرفة تعطيهم الأمل .



ليلى ستوكس : إن شيئا واحدا ، على حسب ظني ، يجب فيه الفكر للشباب العادي ، وهو أن يوسع أن يتحمس حماسا عازما لقضية من القضايا ويقول ما يبدو لكثيرين منا أشياء فيها شيء من الحماقة .

« **استاذ الاتصال الجماهيري** »

سانت جون ستيفاس : وهو ، بالطبع ، استاذ عملية الاتصال الجماهيري وعلى الرغم من أنه ذو شعور قوي واحساس فياض وعاطفة قوية ، فإن ذلك المشهور يعبر عنه من خلال أشكال أدبية تخضع لسيطرة دقيقة جدا ، والذي يصنف اليه في حديث اذاعي يتأثر بجمل اللغة ورقتها الى أبعد حد .

كي : لقد وجد د . هـ . لورانس في دعوته (برتراند راسل) للسلام والقضاء على الحروب مثارا للشك سيكولوجيا ، فكتب الى راسل يقول:

انقيام بالأعمال التي كان يحسنها ، والتي كانت نرى بفلسفته وتفكيره .

ليلى ستوكس : ولكنه ألف حقا كتابا : « **عن الحرية** » وحينما أعيد قراءة ذلك الكتاب فاني أعتقد أن هذه القراءة الثانية ، بصورة ما ، هي الكلمة الأخيرة حقا عن مفهوم الحرية السياسية والاجتماعية . وأنا أعني بذلك أن منذ . راسل كتب قد أصبح اليوم مرجعا أساسيا في هذا الموضوع .

سانت جون : حسن ، هل يمكنك أن تشيرى الى كتاب مشابه ، ألفه برتراند راسل ، تضعينه في تلك المرتبة مع كتاب « **عن الحرية** » لجون ستوروت ميل ؟

ليلى ستوكس : لا ، لا أستطيع .

سانت جون : وهل تستطيع أنت ، يا هامبشاير « **زيادة تبسيط المشاكل السياسية** »

هامبشاير : لا ، فلا أظن أن برتراند راسل قد حقق تماما هذا النمط من الصلة الوثيقة بالسياسة ، وإنني أوافق على أن به نمط يعمل الذي يسرف اسرافا عظيما في تبسيط المشاكل السياسية . فحينما يتجه الى معالجة موضوعات محددة فهو يفترض أنك تستطيع أن تكون موقنا مثلما توقن بالمسائل الرياضية أو القضايا المنطقية فمثلا ، برنامج « **وجهها لوجه** » ، حينما (١) يلح جون فريمان John Freeman .

(كان هذا التلميح في أربعينات القرن العشرين المتأخرة ، وهو أن الولايات المتحدة يجب أن تهدد روسيا بهجوم نووي لتمنعها من صنع قنبلتها الذرية) الى أن هناك شيئا غريبا في وجهة نظره عن القنبلة الذرية ، رد راسل بقوله : « **حسن ، انها مطابقة لوجهات نظري الأخرى** » وطرح هذه الفكرة : نقطة المتعلقة باتساق وجهات النظر بعضها مع البعض يبدو لي هنا مفتقرا الى التفكير السياسي الواقعي الى حد ما .

كي : وربما كان هذا فعلا ما جعله عديم افاعلية في الشئون العامة ، فربما كنت لا تستطيع أن تعمل عملا نافذ المفعول في ذلك الميدان بدقة تعدل التحليل الجراحي الدقيق في كل شأن من الشئون على حدة ، كما تفعل في الفلسفة .

هامبشاير : لقد كان أول كتاب ألفه ، عبارة

كانه قد هبط حقا بين ناس من بنى البشر العاديين
وهاهنا نوع من المفارقة ، لأنه بارع فى مخاطبه
عامه الناس • والعامه ممن هم على شاكله النزلا.
يجبون أن يكون بينهم أشخاص يشبهون الآلهه.

سانت جون ستيفاس : اليس هو الذى يقول
انه لا يمكن أن يعتبر نفسه والذين يؤيدون
القضايا التى يؤمن بها شخصا واحدا ؟ انى لأظن
للمرة الثانية أن ذلك تعبير عن هذه الفردية
الشديدة التى تجعله بمعزل عن الآخرين ، واذن
فلا تصنع فيه الزعيم والفائد السياسى الحقيقى
المستط للخدمة والعمل •

ليدى ستوكس : اظن أن ذلك ، بصورة أو
بأخرى ، كان إمانة عقلية من جانبى من
لناس يشعرون هذا الشعور حينما يدخلون
ممعان القضايا الشعبية مع أناس أوفى منهم
شهرة وأقل امتيازاً ، عقليا •

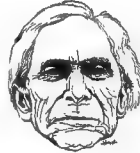
سانت جون ستيفاس : اظن أن أهميته تظهر
فى فصل « العقلية » وهو الجزء الثالث من مقدمة
« سيرته الذاتية » ، حيث يتحدث عن حثائه وعطفه ،
ولكن هذا الحديث ضرب من المشاعر التى يمكن
اخراجها عن دائرة السياسة المألوفة ، والحقيقة
التي لا مراة فيها هى أنه يؤكد شعوره القوى بهذه
القضايا - انه يشعر بالعطف الشديد على شعب
فيتنام الذى يعانى ويلات الحرب - وشعوره هذا
مشاركة نافعة واسهام مجد الى درجة كبيرة ،
يذكر الناس فى كل مكان بأن مأساة هذه
الصراعات السياسية هى ما فيها من آلام للرجال
العاديين والنساء العاديات •

ليدى ستوكس : اظن أن ذلك أعظم ما كتب ، وهو
يظهر واضحا جدا فى المجلد الاول من سيرته
« الذاتية » • وانى أذكر بصفة خاصة سلسلة
من الخطابات كتبها الى صديقة أمريكية له • كانت
قد فقدت أعز أصدقائها والصقهم بها كما كان
لها صاحب وزميل عمل • كانت تلك الخطابات
تجيش بالفهم وتحفل بالحنان • فهو حقا يحمل

« أنت مهمل » بالرجبات المكبوتة التى بلغت حد
الضراوة وأصبحت مضادة لكل ما هو اجتماعى
وتظهر فى صورة الحملان تدعو للسلام •
هل تظنين أن فى هذا القول معنى ما ؟

ليدى ستوكس : لا ، فأنى فى الحقيقة والواقع
لا أقيم وزنا لأى شىء قاله د.هـ • لورانس عن
أى شخص • لقد كان شخصا فضوليا ، معذبا
عليلا • فلم يكن له قط نمط الصلات العقلية
التي يتمتع بها راسل • ولم يكن يعرف ما اذا
كانت هذه الصلات •

سانت جون ستيفاس : اظن أنه قطعة من الهداء
على مذهب فرويد ، فحسب •



هاميشاير : انى أود أن أقول شبيها ما فى
صالح لورانس : انى أعتقد أنه ها هنا على شىء
من الصواب • ذلك لأن راسل يصف نفسه فى
« سيرته الذاتية » وفى مواضع أخرى أحيانا ،
مؤكداً ، بأنه قد هبط الى أرض البشر الفانين
العاديين كغيره ، ولكن فى حال أو وضع آلهى الى
حد ما • فهناك وصف له يصوره وهو يقيم
فى فندق ، وهو يعلق على بقية النزلاء فى هذا
الوصف الذى جاء ضمن رسالة كتبها الى شخص ما

المعبودات يخفى وراءه تشاؤما معينا أيضا، وليس نقاؤا فحسب ، يعطيه عمقا وأصالا يتجواب معها الناس . ففي اذاعاته تستطيع أن تسمع - تحطيمه للمعبودات ليس هو نمط التحطيم الذي يقوم به رجل ذكي ذو آراء نيرة وفكسار متمعة عن الاحداث الجارية . بل ان الامر على خلاف ذلك : فهناك احساس بأن من الصعب تماما الاحتفاظ بأي شكل من الحياة الإنسانية الطيبة المعتدلة وأظن أنه كان دائما يحس بهذا احساسا قويا .

سانت جون ستيفاس : ان العسالم سيخسر خمسة فادحة في المستقبل لو لم يتجنب شخصا آخر من طراز راسل . انه راديكالي جدا ودعما وهو واحد من أعظم مبررات الراديكالية .

هامبشاير : أظن أن عظمته تكمن في قدرته على اظهار ما يمكن أن يفعله الانسان : ان نشاطه للمدش الرائع وقوته الفكرية الابتكارية قل ان يوجد لها نظير .

ترجمة : سليم الاسيوطي

الشعور نفسه الذي تحمله هي . وأرى أن في هذه المقبرة يكن تأثيره العظيم اليوم على الشباب وربما كان بعضهم لا يوافق على الجلوس خارج السفارة الأمريكية وعلى الكثير مما يقوله عن سياسة الرؤساء الأمريكيين ، ولكنهم يشعرون بالتأكد ان هنا رجلا عجوزا يقترب نهاية حياته . يعني عناية فائقة جدا بهم وبالعالم الذي سوف يعيشون فيه ، هذا العالم الذي لن يهرى حتى يراه .

سانت جون ستيفاس : أظن أن ذلك صواب . وأنا يستهويني هذا التناول الذي لا تخمد جنوته أبدا وهذا ما يراه الشباب أنفسهم . وأيضا إذا ما جاز لي أن أضيف تفسيراً آخر إلى ما قد ذكرته ليدى ستوكس الآن ، فاني أظن أن برتراند راسل يستهوى الشباب ويجذبهم نحوه ، لأنه مثل محطم الأصنام وقاضح الأباطيل . والشبان يشبهون من يقذف المعبودات بالأحجار ، وخاصة إذا ما كان قاذفا قديرا يستطيع أن يضفي قدرا من الاحترام على قذفه الاحجار .

هامبشاير : نعم ، ولكن قذف الاحجار وتحطيم

قارى الفكر المعاصر

على موعد مع :

قضايا العلوم الإنسانية

عدد خاص تشترك في تحريره

الطبعة المثقفة من الكتاب والنقاد

والعلماء واساتذة الجامعات

يصدر قريبا

دار الكاتب العربي

تساهم في تطوير ونشر الفن الشعبي
وهذه بعض جهودها في هذا المجال

الأدب الشعبي

عام الفولكلور

تأليف: كراب

أحمد شدي صالح
التمن ١٠٠ قرش

الشعر الشعبي العربي

الظاهر بيبرس

في القصص الشعبي

تأليف

د. عبد الحميد يونس

التمن: قرشان

تأليف

د. حسين نصار

التمن قرشان



الفن الشعبي

عروسة المولد

تأليف

عبد الفتى الشيال

التمن ٦٠ قرشا

الفنون الشعبية

في النوبة

تأليف

سعد الحانم

التمن ٥ قروش

الفنون الشعبية

تأليف

أحمد شدي صالح

التمن قرشان



خيال الظل

خيال الظل والعرائس

في العالم

تأليف

محمّد السويدي

التمن ٤٠ قرشا

خيال الظل

تأليف

د. عبد الحميد يونس

التمن قرشان

خيال الظل

تأليف

ابن دانيال

التمن ٩٠ قرشا



التمن



الفكر المعاصر

العدد ٥٧ نوفمبر ١٩٦٩





مجلة الفكر المفاصِرُ

رئيس التحرير:

د. فؤاد زكريّا

منشأ والتحرير:

د. أسامة الخولي

أنيس منصور

د. عبد الغفار مكاوي

د. فوزي منصور

مكتبة التحرير:

جلال العشري

المترجم:

صفوت عباس

تصدر شهرياً عن:

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والنشر

هـ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت: ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١٦٤٨

ص

- ٤ ● حول فكرة الاتصال في تاريخ الفلسفة د . فؤاد زكريا
- ١٢ ● ألبرت لوتولي بعد عامين على مصرعه احمد فؤاد بليغ
- ١٩ ● من تاريخ الحرب النفسية د . خليل صابات
- ٢٨ ● نحو الدراسات الاجتماعية للظواهر الأدبية السيد ياسين
- ٣٤ ● حيرة الفن بين فلاسفة الفن جمال بدوان
- ٤١ ● سقوط الفلسفة التشاؤمية سمير كرم

كتب جديدة :

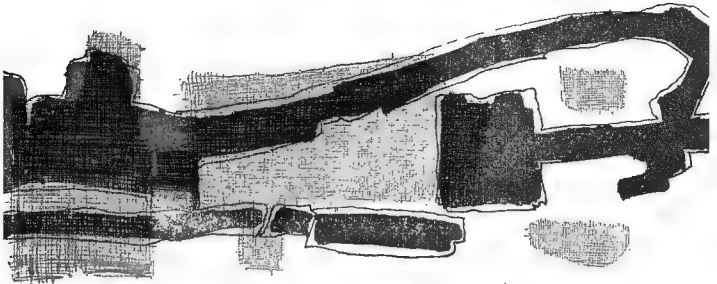
- ٤٨ ● محاولات جديدة لتفسير تراث ابن رشد د . محمد عاطف العراقي
- ٥٧ ● الفلسفة .. أو هذا الجنون المفقول ! مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ٦٣ ● رأى جديد في الشعر واللغة ابراهيم الصيرفي
- ٦٩ ● فايز صايغ .. بين الدبلوماسية والاعلام عبادة كحيله
- ٧٢ ● الاتجاه الكلاسيكي الجديد عند هيوم ماهر شفيق فريد
- ٨٠ ● الجنس ضد الجمال تاليف : د . ه . لورانس
- ترجمة : محمود عبد العزيز

حول فكرة الاتصال في تاريخ الفلسفة

د. خوارزكريتا

في مقال سابق بعنوان « تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم » (الفكر المعاصر ، العدد ٤٧ ، يناير ١٩٦٩) حاولنا تحديد بعض السمات المميزة لتطور الفكر الفلسفي ، بالقياس الى تطور العلم ، وانتهاء الى بعض النتائج التي اعتقد ان من المفيد إعادة عرضها بإيجاز قبل استكمال بحث هذا الموضوع:

١ - أولى هذه النتائج أن تاريخ العلم لا يؤلف جزءا أساسيا من العلم ذاته ، بل هو دراسة هامشية تنتمي الى مجال التاريخ عامة ، لا الى



مجال العلم . أما تاريخ الفلسفة فيتنمى الى صميم الفلسفة ، بحيث ان حركة الجدل التى يمثلها الحوار بين المذاهب الفلسفية فى مختلف عصور التاريخ هى جزء لا يتجزأ من عملية التفلسف ذاتها .

٢ - ويتربط على ذلك ان الاتصال والانتظام فى تاريخ العلم امر واضح لا تخطئه العين ، على حين ان تاريخ الفلسفة يبدو سلسلة من المحاولات المنفصلة التى لا تتراكم خلالها مجموعة ثابتة من الحقائق . بل ان هذه السلسلة تعد هى الطابع المميز للفلسفة ، وليست على الاطلاق مظهراً من مظاهر التصور والنقص فيها ، كما عاب عليها « كانت » .

حين يكون للظواهر التى تدرسها تاريخ حقيقى، بينما تصبح دراسة التاريخ أساسية فى حالة كل ظاهرة ليس لها تاريخ بالمعنى الصحيح .

على ان الأساس الذى قامت عليه هذه « النقيضة » هو الاعتراف بان تاريخ الفلسفة يتخذ طابع المحاولات الفردية التى لا يربط بينها خيط منتظم . وبالفعل يسود رأى واسع الانتشار ، يذهب الى أن صفة الانفصال هى الميزة لحركة الفكر الفلسفى ، وان المذهب الفلسفى انشاق فجائى ظهر فى ذهن عبقرى

٣ - ان هناك نوعاً من « النقيضة » فى دراسة تاريخ الفلسفة ، وديماً فى كل تاريخ بوجه عام . فالظواهر التى يكون لها تاريخ حقيقى ، أى التى تم بتطور يؤدى القديم فيه الى الجديد ويمهد له ، يمكن الاستغناء عن دراسة تاريخها دون أى انتقاص من درجة معرفتنا بها ، أما الظواهر التى لا يكون لها تاريخ بالمعنى الصحيح ، أى لا تتميز بتعاقب منتظم أو بترتيب منطقي حتمى ، فهى التى تؤلف دراسة تاريخها جزءاً لا يتجزأ منها . وبعبارة أخرى فدراسة التاريخ لا تكون لها قيمة

بفضل قدراته العقلية الخاصة ، وكان من الممكن أن يظهر - دون أى تغيير كبير - لو أن هذا الدهن قد قدر له أن يحيا قبل الفترة التى عاشها فعلا أو بعدها بزمان طويل .

تلك النظرة الفردية الى الفلسفة جزء من منظور فردى أوسع وأعم بكثير . فهى فى واقع الامر مظهر من مظاهر نظرة الى الحياة تجعل الظاهرة الفردية - فى تميزها واختلافها وطابعها الفريد - أساسا لتفسير كل شيء . وفى مثل هذه النظرة الى الحياة يكون التاريخ بأسره ، لا تاريخ الفلسفة وحدها ، مجموعة من الحوادث المتلاحقة التى يقوم بها « أفراد » متنازون ، ويسود الانفصال المطلق كل ظواهر الحياة الإنسانية ، ويكون الزمان الذى تجرى خلاله وقائع التاريخ زمانا آليا بحثا ، أى سلسلة متعاقبة من اللحظات ، وليس على الإطلاق خطا متصلا يهده أوله لآخره ، ولا يفهم اللاحق فيه الا على أساس السابق .

وجدير بنا أن نشير الى صفة مميزة للتاريخ الفلسفى ، تجعل ادراك عناصر الانتظام والاتصال فيه مهمة شاقة الى أبعد حد . فمن المعترف به - كما قلنا فى مقالنا السابق - أن العلوم الإنسانية بأسرها تعاني من هذه الصعوبة ، نظرا الى اعتد موضوعها وخفائه وصعوبة التزام الموضوعية الكاملة فيه . ولكن هذه المشكلة تزداد تعقيدا فى حالة الفلسفة لأن العرض التاريخي لها هو ، الى حد بعيد ، « إعادة خلق » . فالمشكلات القديمة لا تزال حية لم تندثر ، ولا توجد فى الفلسفة منذ ظهورها ايام اليونان حتى اليوم مشكلة يمكن أن توصف بأنها ذات أهمية «تاريخية» فحسب ، بل إن أبعد المشكلات من طريقة تفكيرنا الراهنة لا تخلو من عنصر تثير تفكيرنا وتدفعه الى أخذها مأخذ الجد . ومن هنا لم يكن مؤرخ الفلسفة مجرد راوية يسرد أحداثا لم تعد لها صلة به ، بل هو - بمعنى معين - أقرب الى الشاعر الذى يمثل مشاهداته ومعلوماته ويميد خلقها من جديد . وحين تكون

إعادة الخلق هذه ضرورة لازمة ، لا يعود هناك مفر من أن تتمدد نظراتنا الى تاريخ الفلسفة وتصوراتنا له . وبعبارة أخرى ، فحتى لو لم يكن تاريخ الفلسفة سلسلة من الإنشاقات الفكرية والمنفصلة فى ذهان صانعيه ، فإنه يفتدو على هذا النحو فى ذهان روايه وكتابه وشارحيه وحتى لو كانت طريقة صنع تاريخ الفلسفة متميزة بالاتصال والانتظام ، فإن طريقة عرض هذا التاريخ لا يمكن أن تخلو من عنصر الانفصال والعشوائية .

ولنضف الى العوامل السابقة عاملا آخر ربما كان هو أهم أسباب انتشار النظرة الفردية العشوائية الى تاريخ الفلسفة : ذلك لأن الكثيرين يتصورون أنهم يحطون من قدر الفلسفة والفلاسفة اذا تصوروا تاريخها على أنه خط متصل يتسم بأى نوع من الانتظام . أن الفلاسفة هم عباقرة العقل الانساقى ، والمبقرى لا بد أن يكون متفردا ، لا يفتضح لقانون حتمى ، يتحكم فى الأحداث ولا يبدعها تتحكم فيه . وأى نوع من « المنطق » المنتظم فى مسار التاريخ الفلسفى معناه أننا اخضعنا هذه الظاهرة المبقرية لقاعدة خارجة عنها ، وإنا بالتالى قد انتقصنا من قدرها . وربما كان أصحاب هذا الرأى على استعداد لأن ينكروا أهمية دور المبقرى الفرد فى التاريخ العام ، أما تاريخ الفلسفة فانهم لا يتصورونه الا تاريخ عقول فذة جبارة يصنع كل منها لتفكيره منطقه الخاص ، ولكنسه يتحدى كل منطق خارجى يفرض على تفكيره مسارا معينا ويحصره فى اطار لا يفهم الا من خلاله .

على أن مثل هذا الفهم ينطوى على قدر غير قليل من السذاجة : إذ يفترض أن عبقرية الفيلسوف لا تتجلى على حقيقتها الا حين يكون تفكيره ظاهرة فريدة منعزلة عما يسبقها وما يليها . وحسبنا أن نجرى مقارنة بسيطة مع ميدان آخر غير الفلسفة لندرك مدى خطأ هذا التصور : فمن المسلم به أن بيتوفن كان أعظم عباقرة الفن الموسيقى ، وأنه فى هذا المجال يمد

تاريخ العلاقة بين هذين الميدانين . وعلى ذلك فاصل الاشكال هو الاعتقاد بإمكان قيام نوع من الفلسفة يظهر تلقائيا من العقل البشرى دون أى تأثير يظروف عصره ، وبإمكان انفصال الفلسفة عن سائر ميادين نشاط هذا العقل — وهو اعتقاد باطل كل البطلان ، لأن الذهن البشرى وحدة لا تنقسم . وهى اية حال فان كشف التطور الفلسفى ، اذا كان امرا شاقا داخل نطاق الفلسفة ذاتها ، فانه يقود ايسر كثيرا اذا تأملناه من خلال التطور العام للتاريخ البشرى فى مختلف مظاهره الحضارية والثقافية ، وعندئذ يختفى التضاد الشديد بين طريقة تطورها وطريقة تطور العلوم ، ويكون من الواجب اتباع منهج مشابه فى الحالتين ، مع اعترافنا بان كشف مسار هذا التطور فى حالة الفلسفة اصعب كثيرا منه فى الحالات الأخرى .

الآراء المختلفة فى طبيعة التطور الفلسفى :

نستطيع ، فى ضوء التحليل السابق ، أن نستخلص رأيين أساسيين فى طبيعة التطور الفلسفى ، يمكن تلخيصهما بوجه عام بأنهما رأى يقول بان هذا التطور يفتقر الى كل النظام ، ورأى آخر يقول انه تطور منتظم . وسوف نعرض امثلة لكل من هذين الرأيين ، وتعد هذه الأمثلة بالفعل تطبيقا عمليا للمناقشة العامة السابقة .

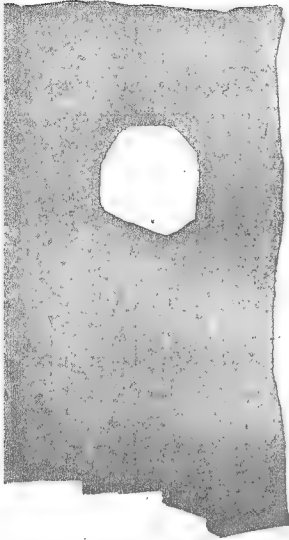
نظريات الانفصال :

الرأى القائل بعدم انتظام التاريخ الفلسفى يمكن ان يكون راجعا الى اسباب مختلفة ، من أهمها وأوضحها بطبيعة الحال عدم وجود معلومات كافية عن التطورات الفلسفية السابقة . وهكذا كانت الحال عند بداية الفترة الحديثة فى كتابة التاريخ الفلسفى فى عصر النهضة الأوروبية . فلم تكن هناك من المواد ، أو من الدراسات النقدية ، ما يسمح بتكوين نظرة جامعة الى التاريخ السابق ، أو بادراك الخطوط الكبيرة التى يسير فيها التطور الفلسفى . وهكذا كانت دراسة الفلسفة فى ذلك الحين هى دراسة لشيع أو

اصدق ممثل للظاهرة الفردية التى يستحيل أن تتكرر . ومع ذلك فمن المسلم به — بنفس المقدار — ان بيتهوفن يمثل فى تاريخ الموسيقى مرحلة محددة لا تفهم الا فى ضوء ما سبقها وماتلاها . ولا يمكن ان ينقص من عبقريته على الاطلاق ادراكنا لموقعه التاريخى ، وفهما لفنه على انه مرحلة فى تاريخ متصل يتسم مجراه بنوع من الانتظام .

ولا بد ان تؤدي النظرة الموضوعية ، التى تطو على الرومانتيكية الساذجة عند اصحاب نظرية « العبقرية الفردية » ، الى الاعتراف بنوع مماثل من الانتظام والاتصال فى تاريخ الفلسفة ، وان كان من المستحيل — كما ذكرنا فى مقالنا السابق — ان نتصور مثل هذا الانتظام على انه يسير فى خط واحد مستقيم متصل متدرجيا ، كما هو الحال فى تطور العلم .

فما هو اذن مصدر هذا الانتظام ، الذى نعرف بانه شديد التعقيد الى حد قد يختفى معه فى كثير من الاحيان من الاعين تماما ؟ ان مصدره هو الانتظام فى تدرج حياة الانسان نفسها ، واستحالة فصل التاريخ الفلسفى عن التاريخ الانسانى العلم . وهكذا يتعين علينا فى هذه المرحلة ان نصحح ما يقال من وجود تقابل شديد قاطع بين طريقة تطور الفلسفة وطريقة تطور العلوم الدقيقة . فهناك بالفعل اختلاف كبير بين الطريقتين ، ولكن هذا الاختلاف لا يصل الى حد الانفصال أو التضاد التام . ولو اعترفنا بهذا الانفصال لكان فى ذلك تفتيت لوحدة العقل البشرى ، الذى يستحيل ان يسير تبعا لمنهج دقيق فى بعض ميادينه ، ويسير دون أى منهج على الاطلاق فى بعضها الآخر . فلابد من الاعتراف بوحدة فى الظواهر البشرية ، ولابد من تأكيد التأثير المتبادل بين هذه الظواهر . ولو كان العلم هو وحده الذى يسير بانتظام ، والفلسفة لاتتبع أى نظام ، لكان معنى ذلك اننا لا نعرف بوجود أى تأثير للعلم فى الفلسفة ، أو للفلسفة فى العلم ، وهذا خطأ يمكن اكتشافه بسهولة اذا تتبع المرء



طوائف منفصلة ، وكانت طريقة عرض الفلسفات السابقة هي طريقة السرد أو الرواية . ومن الواضح أن هناك تشابها بين هذه الطريقة وبين الطريقة القديمة في كتاب التاريخ بمعنى العام : إذ كان المؤرخون القدماء ، كما هو معروف ، يسردون الوقائع في تتابعها الزمني دون أية محاولة لاستخلاص تيارات عامة فيها ، ودون كشف للعلل التحكّمية في مسار هذه التيارات ، أما الطريقة الحديثة في بحث التاريخ ، فتحتاج إلى مقدار من التعمق ، وكذلك إلى قدر من المعلومات والوقائع ، لا يتوافران لدى المؤرخين القدماء .

ومن الواضح أن هذه النظرة التجريئية إلى تاريخ الفلسفة تؤدي إلى الخط من مكانه الفلسفات السابقة : إذ أنه كلما تعددت المذاهب وتناقضت ردودها واجاباتها ، كان ذلك مؤديا إلى المزيد من الشك في قيمتها ، ما دامت كل منها تعد منفصلة تماما عن الأخريات . وهكذا كان الكثير من مؤرخي الفلسفة في هذه الفترة ، بل من الفلاسفة أنفسهم ، ينتهون إلى اتخاذ مؤلف الشك في قيمة الفلسفة بوجه عام (هونتني، بيكن) .



على أن هذا القول يهدم انتظام مسار التاريخ الفلسفي لم يكن راجعا فقط إلى العجز من تكوين نظرة عامة بسبب قلة المواد المعطاة أو نقص المعلومات المتوافرة ، وإنما يمكن أن يكون له سبب مضاد : فإذا توافرت المواد أكثر مما ينبغي ، وإذا ازداد التخصص بحيث يركز الباحث جهوده كلها على فترات محدودة قصيرة الأمد ، أو على مشكلات خاصة ضيقة النطاق ، فعندئذ ينصرف بطريقة الحال عن إصدار الأحكام المسماة الشاملة على فترات تاريخية كبيرة ، ويرى في هذه الأحكام خروجاً من روح البحث العلمي الدقيق ، بالمعنى الذي يفهمه لهذه الكلمة . ولهذا الاتجاه أهمية كبيرة في الفترة الحالية من تاريخ الأبحاث الفلسفية ، حيث يزداد التخصص بين الباحثين ويعد في كثير من

زيادة أو نقصان ، ولا يمكن أن تعدل أو تقوم ،
يمضي الزمان ، وإنما تظل لها على الدوام قدرتها
على الإحياء . فكل فلسفة كاملة في نطاقها
الخاص ، لأنها نتاج أصيل لوجود حر تلقائي .
وفي هذه الحالة لا يكون للفلسفة من قيمة إلا
من حيث تعبير ذاتي ، له في حدوده الخاصة قيمته
المطلقة ، التي لا تستمد من أية علاقة له بغيره
من التعابير ، أي أن كل فلسفة تبعاً لهذا
الرأي ، مقفلة على نفسها ، ولا تقبل أن تكون أي
مركب مع غيرها من الفلسفات .

نظريات الاتصال

هناك مجموعة أخرى من النظريات تذهب إلى
عكس النظريات السابقة تماماً ، فتؤكد أن في
تاريخ الفلسفة نوعاً من الانتظام الذي قد يكون من
الصعب إدراكه لأول وهلة ، ولكنه موجود على
أية حال ، وكل ما علينا هو أن نبذل الجهد الكافي
لكي نهتدي إليه .

وكان من الطبيعي أن ينحس لفكرة التطور
الفلسفي المنتظم والمتصل دعاة التقدم من
الفلاسفة عند نهاية القرن الثامن عشر . فهم
يروون أن الفلسفة ، شأنها شأن كل نشاط
عقلي أو مادي آخر للإنسان ، قد سارت في
طريق التقدم التدريجي ، ابتداء من الفلسفة
اليونانية التي بلغت قمته عند سقراط وأفلاطون
وأرسطو ، حتى العصر الحديث الذي بلغ أعلى
نقطة في تطوره عند ديكارت ، مارة بالمصور
الوسطى التي كانت تمثل نكسة للفلسفة .

وظهرت في القرن التاسع عشر عوامل متعددة
تؤدي إلى تقوية هذا الاتجاه ، أهمها دون شك
التزعة التاريخية التي كانت تميل إلى تفسير
كل الظواهر من خلال تاريخها ، لا على أن لها
طابعاً مطلقاً يفهم بذاته . وهكذا ظهرت في ذلك
القرن محاولات متعددة لإظهار الانتظام في مجرى
التسارخ الفلسفي ، من أهمها محاولتنا
كونت وهيغل .

ففي فلسفة أوجست كونت اتجاه إلى ربط
الفلسفة بالمجري العام للتاريخ الإنساني . وهو
يؤكد استحالة فصل المراحل العقلية الحالية

الأحيان شرطاً أساسياً للبحث السليم . وكلما
أراد المرء التعمق في إبحاثه ، وجد نفسه مضطراً
إلى تضييق نطاق هذه الأبحاث ، بينما ينظر إلى
الأبحاث الواسعة النطاق على أنها سطحية .
وحتى لو أتيح له التعمق في عدة مذاهب تنتمي
إلى فترات مختلفة ، فإن هذا التعمق ذاته
كفيل بأن يكشف له عن اختلافات أساسية بينها
يستحيل ردها إلى عنصر مشترك ، ويجعله
يخشى إصدار الأحكام العامة التي قد يكون فيها
تزييف للتاريخ وضياح للدقة التي اعتادها في
بحثه .

وهناك أخيراً سبب ثالث لامتناع الباحثين
عن القول بوجود انتظام في التاريخ الفلسفي .
ذلك السبب هو **التزعة الثورية** . ففي الفترات
التي تمشد فيها الثورة على القديم ، يقلل
المفكرون من شأن الماضي ويؤكدون أن من الواجب
تركه جانباً ، وتكون أبغض الأفكار إلى أذهانهم
هي الفكرة القائلة بوجود ارتباط سببي بين
الماضي والحاضر ، لأنهم يريدون أن تظهر أفكارهم
في صورة خلق جديد تماماً ، يثور على الماضي
ولا يكمله . وهذه هي الصفة التي كانت تتميز
بها نظرة الفلاسفة في أوائل العصر الحديث ،
مثل ديكارت وبيكون ، إلى التسارخ الماضي
للفلسفة .

ومثل هذا يقال أيضاً على كل اتجاه فردي
حديث ، يدعو إلى الثورة على القوالب الجامدة
في الفلسفة ، والتخلي عن الروح التعميمية المفرطة
ففي مثل هذه الاتجاهات ، تكون الفلسفة
الحقيقية وثيقة الصلة بالشخصية الفردية ،
وتعد مظهراً من مظاهر النشاط الباطني للنفس ،
بحيث أن أية محاولة لكشف اتصال واستمرار
في تاريخها تكون محاولة متعلقة بالسطح الظاهري
للفلسفة ، لا بكنائنها الباطني الأصيل . ومن أوضح
الأمثلة لهذه النظرة إلى طبيعة التطور الفلسفي ،
رأى فيلسوف وجودي مثل يامبرز . فعنده
أن كل فلسفة لها أصالتها المطلقة ، ولها طابعها
الفردى التام . وهي لا تتكرر ، ولا يطرأ عليها

هذا من خلال مصطلحاته الخاصة ، فيقول ان تاريخ الفلسفة انما هو نمو روح حية واحدة ، تدرك ذاتها بالتدريج ، وهو يكشف خلال الزمان عما تكشفه الفلسفة ذاتها بطريقة اذلية خالصة .

أى أن من وراء التطور الزمنى للتاريخ الفلسفى توجد روح تكشف عن نفسها بالتدريج ، وتوجه مراحل هذا التاريخ بانتظام . وهكذا يتعين على المرء أن يكون فيلسوفا لكي يستطيع البحث فى التاريخ الفلسفى ، اذ أن كشف الروح الكامنة من وراء هذا التاريخ لا يتسنى الا للفيلسوف . وكما أن هناك عقلا واحدا ، لا عقول كثيرة ، كذلك لا توجد الا فلسفة واحدة ، لا فلسفات كثيرة ، وهذه الفلسفة الواحدة لا تتكشف الا للفيلسوف نفسه فى مراحلها ابتعاقية ، وفى غايتها الواحدة .

ونستطيع أن نعلق على فكرة هيجل هذه بقولنا انه اذا كان يقصد بذلك أن من واجب الباحث فى التاريخ الفلسفى أن يكون لديه حس فلسفى سليم ، فان رايه هذا يكون معترفا به من الجميع . اما اذا كنن يقصد بذلك انه لا بد للمرء من أن يكون لنفسه فلسفة كاملة قبل أن يستطيع البحث فى تاريخ الفلسفة ، فان هذا بالطبع أمر لا تؤيده التجربة ذاتها ، لأن المرء يستطيع فهم تاريخ الفلسفة بالحس الفلسفى وحده ، وليس تكوين فلسفة كاملة بالشرط الضرورى لهذا الفهم .

ومن الواضح أن هيجل قد أكد الاستقلال الذاتى للفلسفة ، وانفصالها عن سائر مظاهر النشاط الروحى أو العقلى ، بحيث أن تطورها يتكسب معنى ودلالة مستمدة من منطقها الداخلى ذاته . ولكن محاولته تخفف لهذا السبب ذاته : اذ انها تفترض مقدما إيمان المرء بفلسفة هيجل نفسها ، وتفسره للتاريخ الفلسفى كله على أساس انه يتجه الى تحقيقها . اما بالنسبة الى أى مفكر آخر لا يؤمن بالفلسفة الهيجلية فلا بد أن يكون انتظام التطور الفلسفى راجعا الى سبب آخر .

عن المراحل الماضية ، بل انها كلها ترتبط سويا فى خط واحد ، تكون كلها فيه خطوات نحو تحقيق التقدم البشرى العام . وهكذا تنكر هذه الفلسفة حدوث تحولات أساسية فى الفكر البشرى من اتجاه الى اتجاه مضاد ، وانما تفسير المذاهب الفكرية كلها فى طريق متصل ، تؤدي فيه كل مرحلة الى المرحلة التالية بالضرورة ، ولا يمكن أن يرجع الى الوراء ، ويبلغ الأمر بكونت الى حد تأكيد أن فلسفة العصور الوسطى أعقق وأكمل من الفلسفة اليونانية القديمة ، وهو رأى يخالف دون شك ما اتفق عليه معظم مؤرخى الفلسفة .



على أن أشهر هذه المحاولات لليات وجود انتظام فى مجرى التاريخ الفلسفى هي دون شك محاولة هيجل . فييجل لا يرى فى كثرة المذاهب الفلسفية مظهرا من مظاهر ضعف الفلسفة ، أو دليلا على تهافت هذه المذاهب ، وانما لا يوجد فى نظره تعارض بين هذه الكثرة فى المذاهب وبين وحدة الروح البشرية . فتاريخ الفلسفة يكشف فى رايه عن فلسفة واحدة ، تمثل المذاهب المختلفة مراحل متباينة لنموها . وهكذا تكون كل فلسفة متأخرة ، فى رايه ، نتيجة لجميع الفلسفات التى سبقتها ، وتتضمن فى ذاتها كل ما تنطوى عليه تلك الفلسفات من مبادئ . وعلى حين أن القول بفلسفات كثيرة منفصلة يؤدي حتما الى انكار قيمة هذه الفلسفات أو الشك فيها ، فان القول بفلسفة واحدة لها مراحل متباينة فى نموها ، يؤدي الى الاعتقاد بضرورة كل مرحلة من هذه المراحل ، وبحتمية هذا التاريخ السابق الذى يستحيل فهم احدى حلقاته دون الأخرى . وبذلك تصبح للمذاهب كلها ضرورتها وقيمتها فى التطور الفلسفى العام . ويعبر هيجل عن رايه

نفس المنهج ، بالنسبة الى نفس المذهب الفلسفى ، الى تفسرين متناقضين عند اثنين يصف هذا المذهب بأنه تقدمى ، والآخر يصفه يصف هذا المذهب بأنه تقدمى ، والآخر يصفه بأنه رجعى ، أو خليط من هذا وذلك ، وربما لم يكن ذلك راجعا الى قصور فى منهج التفسير نفسه ، بقدر ما يرجع الى أن هذا المنهج يفترض - قبل الشروع فى تطبيقه - معرفة وافية بكل جوانب الاطار الاقتصادى والاجتماعى الذى يظهر المذهب فى داخله ، وهى معرفة كثيرة ما يكون الوصول اليها أمرا عسيرا ، فيكتفى الشارح بجزء غير واف منها ، ويقدم بذلك المذهب الفلسفى تفسيرا لا يدعمه أساس كاف من المعلومات .

وعلى أية حال ، فإن رأى الماركسى القائل بوجود نوع من الاتصال فى التاريخ الفلسفى ، يقدم لنا الجانب الآخر من العملة ، الذى كان يفتقر اليه رأى الهيجلى ، واعتنى به ألفريد بين الفلسفة وبين مسائل أوجه الحياة المعينية للانسانية . فكما أن هيجل أكد ضرورة الربط بين الفلسفة وبين جوانب الحياة الروحية فى كل العصور ، فإن الماركسيين ينهون ، من زاويتهم الخاصة ، الى أن الفلسفة لا تفهم الا داخل الاطار الشامل لحياة الانسان المادية العينية .

وسواء أكان القارئ ممن يفضلون هذا الرأى أو ذاك ، فالأمر المؤكد هو أن الاتجاه الحديث يميل على وجه العموم الى رفض النظرة القائلة ان الفلسفة تتطور بقواها الذاتية الخاصة .

فهى لا يمكن أن تكون ظاهرة منفردة ، وإنما هى تعكس ، وتلتخص ، الجرى العام لحياة الناس وتفكيرهم فى أى عصر من العصور ، وبذلك ينبغى أن تسرى عليها القوانين العامة التى تتحكم فى تطور هذه الحياة ، وإن تكن علاقتها بالظواهر الأخرى للحضارة تبلغ من التعقيد حدا لا يكون من السهل معه ، فى كثير من الأحيان ، إدراكه ارتباطها بهذه الظواهر على نحو مباشر ، ورغم علمنا بأن هذا الارتباط موجود على الدوام .

فؤاد زكريا

لذلك كان من الواجب - كما أشرنا من قبل ، ان يحرص المرء دائما على الربط بين الفلسفة وبين مجموع المظاهر الأخرى للنشاط العقلى ، وعندئذ لن يعود من الصعب كشف الانتظام فى تطورها . فالفلسفة كانت دائما تستهدف إيجاد نظرة عامة الى مجموع المعارف العلمية للانسان، بل كانت أحيانا تزعم أنها علم شامل لتكون بأسره .

وهناك ارتباط وثيق بين الفلسفة وبين جميع مظاهر الحياة الروحية ، من علم وفن وسياسة واجتماع . وفى الفلسفة تتلخص القيم الروحية لأى عصر من العصور . صحيح أن الفلسفة ترتبط أحيانا بوجه معين من الحياة الروحية أكثر مما ترتبط بوجه آخر : فتهتم أحيانا بالعلم ، أو بالسياسة ، أو بالأخلاق ، وتتناثر بجانب من الحياة الروحية أكثر مما تتأثر بجانب آخر ، ولكنها على الدوام متصلة بالمجموع العام للحياة الروحية فى عصر معين .

وأخيرا ، فإن للماركسية رأيا معروفا فى الربط بين الفلسفة وبين المرحلة التى يمر بها المجتمع فى علاقاته الانتاجية . ومن الطبيعى أن تؤكد الماركسية اتصال التاريخ الفلسفى الذى يعد فى رأيها ، انعكاسا لعلاقات الانتاج على صفحة الوعى الانسانى ، والذى يعود بدوره فيؤثر فى هذه العلاقات تأثيرا تبادليا . فالمسار الجدلى الذى يمر به تطور العلاقات العينية بين طبقات المجتمع، هو نفسه المسار الذى تعبر به الفلسفة - نظريا - من هذه العلاقات . ومع ذلك فإن الرأى الماركسى ، وإن كان يؤكد من الناحية النظرية ان لكل فلسفة موقعا معينا داخل التطور العام للعلاقات البشرية ، فإنه يقتضى معرفة كاملة بـ

جوانب هذه العلاقات من أجل إصدار الحكم الصحيح على كل فلسفة بعينها ، وتحديد موقعها بدقة داخل المسار الديالكتيكى للتاريخ البشرى . ومثل هذه المعرفة الكاملة تكاد تكون مستحيلة فى معظم الأحيان ، ومن هنا كان التصارُب فى تفسير المذهب الفلسفى الواحد ظاهرة لا يمكن أن توصف بأنها غير مألوفة بين الشراح الماركسيين . فكثيرا ما يحدث أن يؤدي استخدام

البرت لوتولى ..

بعد عامين على مصرعه



أحمد فؤاد سليم

كانت قضاء وقتلوا ، وقد يكون الأمر كذلك ، بيد أن مسؤولية ذلك الحادث المروع ، الذي راح ضحيته أعظم زعيم في جنوب أفريقيا ، إنما تقع مسؤولية ولا شك على عاتق السلطات المصرية القابضة على زمام الأمور هناك . فقد ضعف سمع لوتولى وبصره في الفترة الأخيرة من حياته ، ولم تكن العناية الطبية متوافرة في معزله القبلي ، كما أن السلطات تلكات طويلا قبل أن تسمح بنقله

في ٢١ يولييه ١٩٦٧ كان الرئيس البرت لوتولى يسير فوق جسر للسكك الحديدية عبر نهر أومفوني بالقرب من منزله ، حيث كانت اقامته محددة ، بأمر من حكومة جنوب أفريقيا ، بمعزله القبلي في جروتفيل . وبينما كان على بعد امتار من نهاية الجسر صده أحد القطارات من الخلف . ونقل لوتولى الى مستشفى مستنجر القريب من مكان الحادث ، حيث توفي هناك . وقالت الأنباء ان وفاته

لاجرا، عملية جراحية في دربان على بعد أربعين
كيلو مترا من مكان الحادث ، بحيث كان الوقت
قد تأخر كثيرا .

شيء عن نشأته

وُلد الرئيس البرت جون لوتولي (١٨٩٨ -
١٩٦٧) بمزل جرونفيل باقليم ناتال بجمهورية
جنوب أفريقيا . وكان أبوه يعمل مترجما لدى
أحدى بعثات التبشير ، كما كان عمه الرئيس
المنتخب لأحدى قبائل الزولو . وقد تلقى تعليمه



لدى بعثة تبشير محلية ، ثم في كلية آدم ، وهي
مدرسة ثانوية تابعة لبعثة تبشير أمريكية ، حيث
تخصص في التدريس . وظل في كلية آدم يدرس
تاريخ الزولو وآدابهم .



١ . لوتولى

وفي عام ١٩٣٨ سافر الى الهند مندوبا عن المجلس المسيحي الى المجلس التيشيرى الدولى . وبعد ذلك بعشر سنوات سافر الى الولايات المتحدة لحضور المؤتمر التيشيرى لأمريكا الشمالية ، وفي جنوب أفريقيا عمل رئيسا للكنائس الملية التابعة للمكتب الأمريكى ، ورئيسا لمؤتمر التبشير بناتال، وعضوا تنفيذيا بالمجلس المسيحي لجنوب أفريقيا .

بعد أن حركة المقاومة السياسية للشعب الأفريقى كان من شأنها أن تفمر حتى عالمه القبل وبعد سنوات قليلة من الخدمة في مختلف لجان العلاقات العنصرية ، انضم لوتولى في عام ١٩٤٦ الى « مجلس ممثل الوطنيين » ، كما انضم في العام نفسه من الناحية الرمزية الى المؤتمر الوطنى الأفريقى لجنوب أفريقيا ، قلعة الانفصال الرئيسية ضد الحكم العنصرى في جنوب أفريقيا . وسرعان

وعند وفاة عمه التمس منه رجال القبيلة الأكبر سنا أن يشغل منصب الرئاسة الشاغر ، وتردد في القبول لمدة عامين ، عزوفا منه عن العودة الى العالم القبل الضيق . ومع ذلك ففي نهاية الأمر اغراه دينه ، والولاء الذى كان يحس انه يدين لشعبه ، على قبول هذا المنصب .

رئاسته لمزل جروتفيل

وظل لوتولى لمدة سبعة عشر عاما يحكم في جروتفيل : يترأس المجالس ، ويعد النظام الى حقول القصب ، ويزيد المحصول ، ويسوى المنازعات ، ويحصل الفرامات ، وينفذ القوانين . وبينما كان يقيث في صعب وأناة روح قبيلته المضغصة ، كان يقوى صلته بالمسيحية المنظمة .

ما وصل لوتولى الى رئاسة فرع ناتال الاقليمى التابع للمؤتمر .

وفي عام ١٩٥٢ شن المؤتمر الوطنى الافريقى بالتعاون مع المؤتمر الهندى لجنوب افريقيا حملة للعصيان ، كما نظم خرق ستة قوانين عنصرية مختارة احتجاجا على سياسة التفرقة العنصرية . وعلى الرغم من ان لوتولى قدم تاييدا علنيا للحملة ، وشجع شعبه على الاشتراك فيها ، الا ان الحكومة لم تلتج به فى السجن كما فعلت مع غيره من الزعماء .

زعامة للمؤتمر الوطنى الافريقى

قامت السلطات الحاكمة فى جنوب افريقيا باستدعاء الرئيس لوتولى الى بريتوريا فى أكتوبر ١٩٥٢ ، وطلبت اليه الاستقالة اما من المؤتمر او من رئاسة معزل جروتفيل ، ورفض لوتولى ان يفعل هذا او ذاك ، فاقدمت الحكومة على عزله من رئاسة المعزل فى الشهر التالى . وفى ديسمبر من العام نفسه انتخب لوتولى ليخلف دكتور مودوكا فى منصب الرئيس العام للمؤتمر الوطنى الافريقى . وفى الوقت نفسه حددت الحكومة اقامته فى معزله لمدة سنتين .

وعندما انتهت هذه تحسديد اقامته طار الى جوهانسبرج للاحتجاج على « مخطط ازالة المناطق القريية » بالمدينة ، وهو المخطط الذى فقد الافريقيون بمقتضاه ما تبقى لهم من حقوق تملك الارض فى جوهانسبرج ، فطلبت اليه السلطات ان يتزل صاحبة صوفيا ناون ، ليستوطن من جديد فى الموقع الحكومى الجديد فى ميلولا ند ومع ذلك منع من الخطابة ، وحددت اقامته لمدة عامين آخرين

وقد كان لوتولى ضمن من قبض عليهم بتهمة الخيانة العظمى فى ديسمبر ١٩٥٦ ، ولكن الحرج عنه بعد عام واحد . وفى مايو ١٩٥٩ قام برحلة خطابية فى اقليم الكاب الغربى ، حيث خاطب اجتماعات جماهيرية غفيرة شهدتها جموع يقضا كبيرة العدد بصورة غير متوقعة ، فقامت السلطات بنفيه الى قريته ، ومنعته من حضور جميع الاجتماعات لمدة خمس سنوات بمقتضى قانون مكافحة الشيوعية .

وفى ٢٦ مارس ١٩٦٠ ، بينما كان يبدل باقواه فى جوهانسبرج فيما يتعلق بقضية الحيانة ، احرق تصريح المرور الخاص به علانية ، ودعا الى اعلان ٢٨ مارس يوما للحساد الوطنى على ضحايا شاريفيل الذين سقطوا صرعى رصاص الشرطة يوم ٢١ مارس ١٩٦٠ خلال اجتماع للاحتجاج السلمى على حمل تصاريح المرور . واحتجزته السلطات بمقتضى حالة الطوارئ التى اعلنت يوم ٣٠ مارس .

المقاومة السلبية عند لوتولى

كان لوتولى ، على غرار غاندى ، الذى كان يعكس تأثره على شعبه من وجوه كثيرة ، يؤمن بالمقاومة السلبية لا كتكتيك للمعارضة السياسية فقط ، وانما ايضا كقوة روحية فى حد ذاتها . وهو كمؤمن متحمس بالمقاومة السلبية غير العنيفة ، كان يشعر بان المسيحيين لا ينبغي ان يطبعوا القوانين التى تنتهك كرامتهم وادميتهم ، وانه من الأفضل ان يذهبوا الى السجن عن ان يواجهوا العنف بالعنف . والحقيقة ان مكانة لوتولى ونفوذه كانا الى حد كبير ، خلال فترة ما ، قيادا على تحول الاحتجاجات الجماهيرية الافريقية ، فى ظل الحكم العنصرى الى انفجار منسق للعنف ، فخلال عام ١٩٥٩ عندما اندلعت مظاهرات الافريقين ضد الحكومة فى ناتال ، كانت نداءات لوتولى المتكررة بالعودة الى سياسة عدم العنف حاثلا لا ريب فيه دون انتشار الخرافات العمد الى ما هو ابعد من مجرد اعمال عنف تلقائية .

وبسبب ممارسته لوتولى لهذا التقيد كان يتعرض لتفهد متزايد من جانب بعض الراديكاليين الشبان داخل المؤتمر نفسه ، بيد ان الهبة التى كان يتحل بها ، والاحترام الذى كان يحظى به من جانب الافريقين الريفيين والحضرين على حد سواء - قد صانا مكانته الشخصية من التعرض لهجوم صريح . فهو كشخصية على قدر كبير من المهابة والجلال ، وذات قدرة بلاغية كبيرة ، ويتعم اعظم قدر من ضبط النفس ، كان من نواح كثيرة زعيما روحيا للافريقين فى جنوب افريقيا ، وكذلك رئيسا لحركتهم السياسية الرئيسية .

ومع ذلك لم تكن سياسة عدم العنف التى يدعو اليها لوتولى ، وبخاصة فى الفترة الاخيرة من

فقد كانت كل الجهود موجهة لانهاء الحكم الغريب والقهر العنصرى » .

اهتماماته الاخرى

كان لوتولى الى جانب تزعمه لنضال شعبه ضد التفرقة العنصرية يعمل في مجالات اخرى كثيرة ، تقام بتوحيد كل زواعى قصب السكر في ناتال . وكانت له اهتماماته فى سلسلة غير عادية من اوجه النشاط . فقد كان من عشاق كرة القدم ، ولعب دورا بارزا فى نشاط « الرابطة الافريقية لكرة القدم بناتال » . وربما يرجع الى ذلك التنظيم سر احتفاظ لوتولى بقدر كبير من الحيوية وبطاقة ضخمة على العمل والنشاط ليل نهار .

كذلك لعب الرئيس لوتولى دورا هاما فى « الرابطة الافريقية للمعلمين بناتال » ، وفى عدد كبير آخر من التنظيمات المسيحية والثقافية والتنظيمات المتعلقة بالنشاط القبل .

بعض منجزات عصر لوتولى

تحت زعامة الرئيس لوتولى حققت الحركة الوطنية الديمقراطية فى جنوب افريقيا ، وحركة المقاومة ضد التفرقة العنصرية ومن اجل جنوب افريقيا حرة ، انتصارات ضخمة كان من ابرزها مولد « ميثاق الحرية » فى عام ١٩٥٥ . فلي يونية من ذلك العام عقد المؤتمر الوطنى الافريقى ، تحت رعاية زعيمه لوتولى ، مؤتمرا فى « مدينة كليبتون » حضره اكثر من ثلاثة آلاف مندوب يمثلون الى

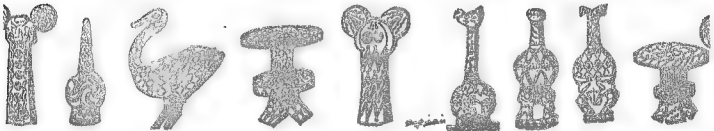
حياته ، مبدأ جامدا أو عقبة فى سبيل تطور الحركة الوطنية . فعلى ضوء المعرّاب الذى عمت الفسادة الافريقية فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، وبخمسنة فى الخمسينات ، ومع اكساح موجة الاستقلال لمعظم اجزاء القارة ، توصلت قيادة المؤتمر الوطنى الافريقى ، تحت زعامته ، بالاجماع الى أن الوقت قد حان لأن ينضاف الكفاح المسلح الى الاساليب التى كانت مستخدمة من قبل . وكان السبيل فى تكوين جيش التحرير أحد المنجزات اعظيمة لعصر لوتولى .

وقد حاولت الدعايات المفرضة أن تنتقص من مكانة لوتولى ، مدعية أن سياسته « السلمية المعتدلة » تتناقض مع نضاليته زملائه . فالحقيقة أن لوتولى كان على يقين تام بأن كل وسيلة ممكنة ينهى استخدامها على النضال ضد التفرقة العنصرية سواء أكانت سلمية أم عنيفة .

ولنتقل بضع فقرات من محاضرة لوتولى فى جامعة أوصلو فى ديسمبر ١٩٦١ ، بمناسبة منحه جائزة نوبل للسلام :

« ان قارتنا فى حالة ثورة ضد القهر . واسلام والثورة وجهان لعملة واحدة . فلا يمكن أن يكون هناك سلام حتى يطاح بقوى القهر والطغيان ... »

« ان هذا الهدف تسمى اليه الملايين من ابناء شعبنا بعزيمة ثورية ، عن طريق الكتب والمطبوعات والهيئات التمثيلية والمظاهرات ، وفى بعض الاماكن تحمل القسوة المسلحة التى استتارتها قسوة الحكم الابيض الأمل الوحيد للسلام فى افريقيا . ومهما كانت الوسائل التى استخدمت



« تحالف المؤتمر » ، لفقت السلطات في ديسمبر ١٩٥٦ تهمة « خيانة العظمى » ضد ١٥٦ من السادة السياسيين في البلاد ، وابتعد البض عليهم . وكان معقم المعبوض عليهم من زعماء « المؤتمر الوطني الأفريقي » ، ومن بينهم الرئيس لوتولوي نفسه . وكان كل البض الذين قبض عليهم بهذه التهمة من أعضاء « مؤتمر الديمقراطيين جنوب أفريقيا » .

وبعد أن استندت الحملة ضد الأحزاب الوطنية ، وحل هذه الأحزاب بمقتضى قانون الطوارئ ، تكونت في الخارج جبهة متحدة من « المؤتمر الوطني الأفريقي » ، « مؤتمر الجامعة الأفريقية » و « المؤتمر الهندي » ، « والاتحاد الوطني لأفريقيا الجنوبية الغربية » (سوانو) ، وذلك لمواصلة النضال ضد التفرقة العنصرية .

وقد كان التوصل الى انتهاز سياسة الكفاح المسلح أعظم منجزات عصر لوتولوي كما ذكرنا من قبل . وكان من نتيجة هذه السياسة ، في الفترة التي أعقبت وفاة لوتولوي ، تكوين الجبهة المتحدة من المؤتمر الوطني الأفريقي ، « والاتحاد الأفريقي لشعب زيمبابوي » ، « بروديسيا الجنوبية في مقابل الحلف غير القدس » ، حلف فوردستر - سميت - جيتانو . وتقود هذه الجبهة الآن الكفاح المسلح في روديسيا الجنوبية .

لوتولوي والشيوعيون

على الرغم مما كان بين لوتولوي والشيوعيين (ممثلين في الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا الذي تأسس في عام ١٩٢٢) من خلافات في الرأي والعقيدة ، كان شديد الصلابة في الدفاع عن حقوق في أن يخدوموا بلادهم داخل الجبهة المتحدة التي تضم كل المحيين للحرية ، وهي « تحالف المؤتمر » الذي انبثق عن « مؤتمر الشعب » في عام ١٩٥٥ وكان لوتولوي يتمسك بهوقفه هذا بأشد حزم ممكن على الرغم من الضغوط الهائلة سواء من جانب أعدائه ، أو من داخل تنظيمه . وقد صمد مع بقية أعضاء المؤتمر في وجه الضغوط التي مارسها الدولة على المتهمين في قضايا « الخيانة العظمى » لحملهم على تلطيخ وجه الشيوعية .

وكان لوتولوي يقر دائما بالمساهمات الفريدة التي قدمها الشيوعيون لاختلاف أجهزة « المؤتمر

جانب المؤتمر الوطني الأفريقي الأحزاب الثسلاته التالية : المؤبر ، همسي جنوب انريسيا ، مؤبر السعوب الملونه جنوب انريسيا ، مؤبر السعوب الملونه جنوب انريسيا ، مؤبر الديمقراطيين . وذلك الاتحاد الرئيسي لشعابات العمل الاسريقية جنوب أفريقيا المعروف بمؤبر نقابات العمال جنوب أفريقيا . كما كان هؤلاء المنسوبون يمثلون أيضا عددا من الهيئات والتنظيمات التنافسيه والتعليمية والرياضية والمهنية والدينية .

وقد شهد هذا المؤتمر مولد « ميثاق الحرية » ، الذي كان يعد تعبيراً واضحاً عن الاختار والمسللات التي تشغل شعب جنوب أفريقيا ، كما وضع أسس الديمقراطية الوحدية التي تهى الفرصة للشعب كي يحيا حياة كريمة . ويعتبر « ميثاق الحرية » أهم وثيقة سياسية في تاريخ جنوب أفريقيا . وقد أقر هذا الميثاق في المؤتمر السنوي لحزب « المؤتمر الوطني الأفريقي » ، الذي عقد في أورلاندو في ديسمبر ١٩٥٧ . ويبدأ الميثاق بالعبارة التالية :

« نحن شعب جنوب أفريقيا نعلن لبلادنا بأسرها وللدالم أجمع أن جنوب أفريقيا ملك لكل من يعيشون على أرضها ، سود وبض ، وأنه لا توجد حكومة يمكنها أن تزعم لنفسها السلطة عن حق ما لم تكن مستندة الى رغبة كل الشعب » .

كذلك يقر الميثاق ما يلي :

« ان تقييد ملكية الأرض على أساس عنصري سينتهى ، وكل الأرض سيعاد توزيعها على من يملكونها ، وذلك من أجل انقصاء على المجاعة واشتغال الأرض ،

« ان الثروة التومية لبلادنا ، تركة كل أبناء جنوب أفريقيا ، ستعاد الى الشعب ،

« ان الثروة المعدنية الموجودة في باطن الأرض ، والبنوك ، والصناعة الاحتكارية ، ستحول الى ملكية الشعب في مجموعه » .

وفي أعقاب النجاح الذي حققه « مؤتمر الشعب » والترحيب الحار الذي قوبل به « ميثاق الحرية » وما ترتب على ذلك من تشكيل تلك الجبهة الرافضة الموجهة ضد التفرقة العنصرية التي عرفت باسم

وقد علقت جريدة داي ترنسفال ، الناطقة بلسان « الحزب الوطني » (العنصري) في الترنسفال ، على منح الجائزة للوتول قائلة انها « ظاهرة مرضية لا يمكن تفسيرها » ، على حين اعتبرته داي برجر ، جريدة احزاب بمقاطعة الكاب ، « عملا فعا بصورة ملحوظة ، نظرا اليه ، بصمو بائسة » ، كما يعد قرارا غير غربي من الناحية الجنوبية . « ويوضح موقف هاتين الجريدتين العنصريتين مدى الانزعاج الذي احسنت به السلطات الحاكمة في جنوب افريقيا من ذلك الحدث الهام » .

لقد كان البرت جون لوتول زعيما من طراز فريد . وكان شديد الارتباط بشعبه ، يحب العيش وسط الناس ، وينتزه عن الترفع والتعالى . ولم يكن يحب العمل بمفرده ، أو ينفرذ بانغاذ القرارات ، بل كان شديد الايمان بالديمقراطية الجماعية والحكمة الجماعية .

وكان لوفاة لوتول صدى حزن عميق بين أبناء شعبه ، وعلى نطاق العالم أجمع ، فنكست الاعلام في تنزانيا ، ووقف اعضاء الجمعية الوطنية في كينيا دقيقتين حدادا على وفاته . كما اقيم قداس حداد بقاعة انزوتوجول في داد السلام تحت اشراف اسقف الماساي . وقد شهد هذا القداس زعماء الحكومة والحزب الحاكم في تنزانيا ، وكذلك اعضاء الهيئات الدبلوماسية وممثلات الوطنيين . واعقب القداس اجتماع تحدث فيه ا . ماشا عن التناو (الاتحاد الافريقي الوطنى لتنجانيقا) ، و دكتور ادواردو موندلاني زعيم فريليمو (جبهة تحرير موزمبيق الذى اغتيل في تنزانيا في مطلع هذا العام بتدبير من مؤامرات المانيا الغربية ، ومؤسس كوتانى أمين صلتوق المؤتمر الوطنى الافريقى وعضو الحزب الشيوعى لجنوب افريقيا .

كذلك اقيم قداس لتأبينه في لندن بكاتدرائية سانت بول . واقامت عدة هيئات سياسية في لندن حفلات لتأبينه . ونعاه ادريس كوكس احد زعماء الحزب الشيوعى الانجليزى .

وقد تقاطرت على مكاتب المؤتمر الوطنى الافريقى بريقيات التعزية من مئات الزعماء ورؤساء الدول في العالم .

احمد فؤاد بلبح

الوطنى الافريقى « وللحركة الوطنية كلها في جنوب افريقيا . كتب لوتول في الجريدة الهندية انديان اوبينيون ، التى تصدر في ناٹال ، يقول:

« يبدو ان الناس ينزعجون من وجود ما يسمى جناح يمينى ، وآخر وسطى ، وثالث يسارى ، داخل المؤتمر . ان ذلك بالنسبة لى علامة صحية »

لذا احس الحزب الشيوعى لجنوب افريقيا بالخسارة الفادحة التى لحقت بالحركة الوطنية في جنوب افريقيا بموته . وقد جاء في رسالة التعزية التى بعث بها الحزب ، عقب مصرعه ، الى المؤتمر الوطنى الافريقى :

« انها لماسة لشعبنا ان لوتول لم يعيش حتى يشغل المكان ، الذى كان مؤهلا له فى سمو وجلال كاول رئيس لدولة جنوب افريقيا الحرة » .

جائزة نوبل للسلام

فى بداية فبراير ١٩٦١ اقترح الاعضاء الاشتراكيون الديمقراطيون بالبرلمان السويدى منح البرت جون لوتول ، زعيم الحركة الوطنية بجنوب افريقيا ، جائزة نوبل للسلام . وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٦١ اعلنت « لجنة نوبل للسلام » موافقتها على منحه الجائزة عن عام ١٩٦١ ولذا كان اول افريقى يحصل على مثل هذه الجائزة . وقد تحدد يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦١ لتقديم الجائزة . له فى السويد . وارغمت السلطات فى جنوب افريقيا على السماح له بالسفر الى اوسلو بتسليم الجائزة .

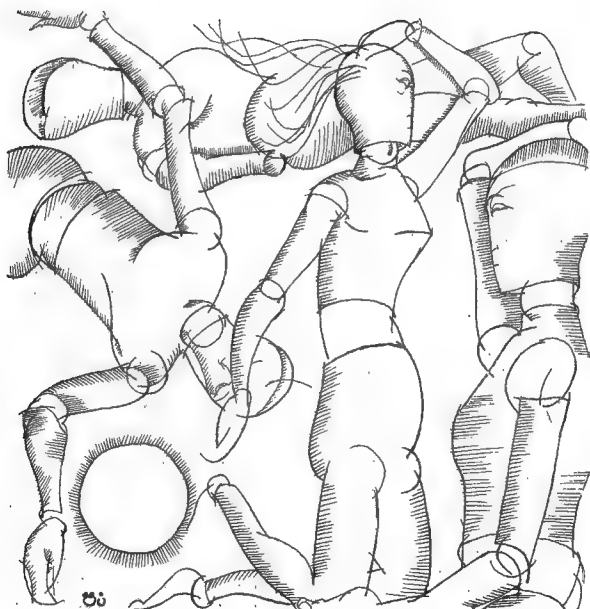
وقد جاء فى محاضرة لوتول فى قاعة جامعة اوسلو ، فى ديسمبر ١٩٦١ ، بمناسبة منحه الجائزة :

« نحن أبناء جنوب افريقيا نترك جيدا ان الحرية لا يمكن ان تقدم لنا هدية من الخارج . وقد كرس كل المحبين الشرفاء للحرية من شعبنا حياتهم لتحقيق هذه المهمة . وان ما نحتاج اليه هو الشجاعة التى تتصاعد مع الخطر .

« ومهما يكن مستقبل جهودنا من أجل الحرية ، فان قضيتنا هى قضية تحرير الشعب الذى اكرت عليه الحرية . ان نداء الساعة ، بالنسبة لنا جميعا ، هو اقتناء اسم وشرف امنا افريقيا . »

من نتائج الحرب النفسية

د. خليل صابات



الواقع أنه منذ ماكافالي وهوبز انتقل التهديد بالحرب الشاملة من المرحلة النظرية الى المرحلة العملية . لقد أتاح تقدم العلوم للانسان أن يستخدم الحرب النفسية ، هذه الحرب التي استفحل أمرها منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة أو قبل نهايتها بقليل .

من هو مبتكر الحرب النفسية ؟

يقول المؤرخون أن الخدع الحربية كانت موجودة منذ المجتمعات البشرية الاولى . وسواء تسلح الانسان بالكراهية أو بالخدمة ، فإن الحرب النفسية في المرحلة الطفلية من تطورها تبدو وكأنها بديل العنف المرتبط بالظاهرة التاريخية للحرب المحدودة التي ظلت قائمة حتى بداية القرن العشرين .

ومع ذلك ، وحتى في هذه المرحلة الاولى ، فإن الحرب كواقع اجتماعي يجب الانفصالها تماماً عن الحرب كراداة ، فهي أيضاً الحجة الأخيرة وسلاح السياسي . وما أن يقوم « السياسي » بتوجيه « العسكري » حتى تصبح الحرب نفسية ، بمعنى أن تقدم الجيوش ليس الا وسيلة للمفاوضة أو الردع . وما الحرب الخاطفة التي شنتها اسرائيل في ٥ يونيه ١٩٦٧ على الدول العربية الثلاث الا وسيلة الغرض منها فرض حل نهائي لمشكلة احتلال شعب اجنبي لفلسطين البلد العربي . وطرد أهله الاصليين . وحين قررت مصر قبل ذلك بإيام اغلاق مضيق تيران في وجه السفن الاسرائيلية المتجهة الى ايلات والقادمة منها ، كان الغرض من هذا الاجراء الشرعي اجبار اسرائيل على نقل حشودها العسكرية من على الحدود السورية بتصعيد الحرب النفسية القائمة بينها وبين العدو الاسرائيلي .

وحتى الحروب التي شنتها الأسرات الحاكمة بعضها على بعض كانت قائمة على الرأي العام ، بل في الاستطاعة أن يقال إنها كانت تسير وفق القواعد السيكلوجية . ومن باب أولى حين تسير الشعوب خلف ملوكها أو زعمائها أو حين تحل الأمة محل هؤلاء الملوك أو الزعماء ، فإن العامل الارادي يصبح سياسياً وروح الكفاح حتى الموت تعبىء معنويات المواطنين سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، وتفت في عضد العدو . وهنا تبرز الدعاية كوسيلة من وسائل الاستراتيجية وتطوير الحرب النفسية لضاعفة الطاقات الوطنية .



تتبع المصطلحات الحربية تطوّر تصنيف العلوم الحديثة ، فنحن نقول اليوم : الحرب الكيميائية والحرب البيولوجية والحرب النووية والحرب النفسية . وقد راج هذا المصطلح الأخير في نهاية الحرب العالمية الثانية .

ويعتبر البعض الحرب النفسية وسيلة مهمة للعمل الحربي ، في حين يعتبرها البعض الآخر نوعاً من السيمية . ويطلق عليها حساب من المؤلفين الذين يعنون بدراساتها : علم الحرب الشاملة والحقيقة أن الحرب النفسية لم يبتدعها أي عالم أو صاحب نظرية أو مفكر . إنها أبنة التاريخ ، تاريخ البشرية وصراعاتها التي لا تنتهي . وهي تنشأ أيضاً عن الثورات الايديولوجية ، وعن تصولات المجتمعات السياسية . وهي ثمرة من ثمرات التقدم الذي حققه علم النفس الاجتماعي في شتى ميادين نشاطه .

فالمشكلات التي تثيرها الحرب النفسية ليست اذن من طبيعة مخالفة للمشكلات النوعية للحرب بمعناها الواسع . ويتساءل المرء : هل الحرب النفسية سلاح تابع أو انها سلاح أساسي للحرب الشاملة ، مثلاً في ذلك مثل القنبلة الذرية ؟ وهل الحرب النفسية شرعية وإلى أي مدى ؟

ينبغي أن تتجه أولا وفي نفس الوقت للفرد والجمهير ، إذ لا يمكن أن تفصل العنصرين أحدهما عن الآخر : أن الدعاية لا تتجه بأى حال إلى الفرد وحيدا ومنفصلا عن الجماعة فالفرد لا يشكل أى فائدة في نظر رجل الدعاية ، ذلك لأن اقناع الفرد منفصلا أمر غاية في الصعوبة . كما ينبغي أن تكون الدعاية شاملة ولا بد لها أن تستخدم مجموعة الوسائل التقنية من صحافة وإذاعة وتليفزيون وسينما وملصقات واجتماعات ومقابلات شخصية . أن على الدعاية الحديثة أن تستخدم كل هذه الوسائل وغيرها مجتمعة ، إذ لا توجد دعاية طالما بلجا تارة إلى مقالة تُشر في صحيفة وتارة ثانية إلى ملصق وتارة ثالثة إلى الإذاعة وهكذا . . . أن عقد بعض الاجتماعات واللقاء بعض الخطب ولصق بعض الملصقات على الجدار أو تشويه الجدران بهذه الملصقات لا تعتبر دعاية . وتحاول الدعاية أن تحاصر الإنسان بكل الطرق الممكنة سواء بالعواطف والأفكار والتأثير على الإرادة أو على الحاجات ، بالمشعور واللاشعور ، بحضارة في حياته الخاصة وفي حياته العامة .

وينبغي أن تكون الدعاية إلى جانب ذلك دائمة ومستمرة وأن تملأ يوم للواطن بطوله بل أيامه جميعا . أن الدعاية تهدف لأن تجعل الفرد يعيش في عالم خاص ، فيجب ألا يمكن ، خلال لحظة تأمل ، من تحديد موقعه بالنسبة لهذه الدعاية . وهذا ما يحدث حين تكون الدعاية متقطعة . أن الفرد يفتل في هذه اللحظة من قبضة الدعاية التي تعتبر أداة الحرب النفسية الأولى .

هتلر والحرب النفسية :

يمكن القول بأن الحرب النفسية الماصرة بدأت بهتلر ، أي في الثلث الثاني من القرن العشرين . فنحن نقرا في كتابه « كفاحي » هذه العبارة : « أن الدعاية سوف تكون سلاحا رهيبا في يد الإنسان الذي سوف يعرف كيف يستخدمه » . لقد اعتبر هتلر الشعب الألماني ضعيفا فليخيانة متسنة ١٩١٨ . وكان هدفه المبحث عن تكامل مناسب للقوى (الإلزامية لإنصار العنصر الألماني) . وكان تمجيد الإنسان الألماني والاشياع به لا يعدها إلا الكراهية للاجنباس المنحلة التي تمثلها كل من لا يكون من عنصر

ولقد تطورت الحرب النفسية بهذا الشكل وعلى هذا الأساس البسيط خلال القرن التاسع عشر ووصلت إلى ذروتها في الحرب العالمية الأولى .

ولكن منذ ذلك العهد ، وعلى الرغم من أن قيام الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى حجب تصاعد الحرب النفسية أو تأخيرها ، فقد حدثت ثورة فيما كان يعرف بالتوازن الدولي أو العالمي . يضاف إلى ذلك أن تصارع الطبقات وثورة شعوب العالم الثالث وتقدم العلوم النفسية وظهور الأسلحة النووية ، كل هذه العوامل قد أتاحت حالة مستمرة وعامة من تصارع العقول أو بتعبير علمي أدق ، من الحرب النفسية .

وتتميز الحرب النفسية بثلاث ميزات أن صبح هذا التمييز . فهي أولا تضعف الفرق الواضح بين السلم والحرب ، وهي تستعين ثانيا بالطبائير الخامس بدلا من الحث مباشرة على التخاذل والتسليم ، كما تقوم ثالثا بتوعية الملقوب وقد ثبت عليه خطؤه أو ذنبه . وهكذا ينهار المبدأ الذي ينص مراعاة على عدم انتهاك الشخصية المعنوية لأسرى الحرب وعلى حمايتهم الدولية ، وخسب منطق هذا التطور ، فإن الحرب النفسية ينبغي أن تعتبر تنظيما للعنف .

الحرب النفسية كيدل للعب :

يمكن اعتبار منطقة شرق البحر المتوسط مهدا للحرب النفسية . ففي التوراة والباذة هوميروس أكثر من قصة ثبتت إلى أي حد كانت شعوب المشرق تستخدم الحرب النفسية . ويكفي أن نذكر القارئ بأسوار أريحا التي سقطت بفعل إرباب جيش يشوع بن نون . أما حصان طرواده المشهور فهو السلف الأسطوري للطبائير الخامس الذي أحسن الفاطميون استخدامه تمهيدا للدخول جيوشهم مصر ، وكانوا في ذلك أسبق من الأسيان بتسعة قرون (خليل صابات : الاعلام والدعاية في عصر الفاطمية ، جريدة الاهرام ، ١٠ ديسمبر ١٩٦٢) . وهكذا يمكن للمرء أن يذكر منذ البداية على وجود ما سوف يسمى بالحرب النفسية ، هذه التنبية التي تهب روح الشيقاق وتحطم المعنويات وتحمل الاعتداء السيكولوجي ، محل الاعتداء المسلح وتكتذ الدعاية أداة لها تتميز بها عن ارادة القوة . انهما كما سبق أن قلنا الطابع السياسي للحرب وإجلاء للعنف أو على الأقل أحلال الجدار محله . ويرى رجال الاعلام أن الدعاية الجديدة

وهكذا استمرت الروح المعنوية للشعب الألماني حتى النهاية . ولكن ما يؤخذ على قادة الحرب النفسية الداخلية أنهم خلطوا بين وسائل هذه الحرب (النفسية) وغاية الحرب كلها . وهو خطأ لم يقع فيه البريطانيون ولا السوفييت .

أما عن الحرب النفسية على الجبهة الشرقية، فقد قامت أساساً على مبدأ محاربة الشيوعية والأشهاد بالدور التحرري الذي تقوم به الجيوش النازية . وكان جوبلز يعتقد أن لا رجاء في نجاح الحرب في الجبهة الشرقية إلا بالتوسع للقوميات داخل الاتحاد السوفيتي بأمل الاستقلال ، وهي سياسة « اليد الممدودة » . بيد أن هذا السلاح ما لبث أن تحول قسداً مبتدعه ، ذلك أن وعود الدعاية كانت شيئاً والواقع السياسي كان شيئاً آخر . وهو خطأ آخر في المفهوم الألماني للحرب النفسية وقع فيه جوبلز وأعوانه .

وعندما أشرفت الحرب العمالية الثانية على النهاية وجدت الحرب النفسية الألمانية كلانا جديداً بقوله للشعب . فالعدو إذا تمكن من وضع أقدامه على أرض الوطن إذاق الشعب الأمرين . وحتى آخر لحظة من هذه الحرب كان نداء الدعاية الألمانية الوجه للأعداء الغربيين مركز على أن هزيمة الألمان سوف تؤدي بأوروبا كلها إلى البلشفة . وانهارات ألمانيا النازية وانهارات معها دعائتها . ويتساءل المرء ، وقد مضى على نهاية هذه الحرب قرابة ربع قرن ، لماذا قاتل الجنود الألمان حتى آخر دقيقة بهذا العناد الغريب؟ ويجب علماء الاتصال بالجماهير بأن شعور التفاني نحو هتار حتى نهاية الحرب واندماج المحارب التام في شخص الزعيم كانا العاملين الأساسيين لهذا الصمود الذي أثار دهشة كل من علماء الاجتماع وعلماء النفس .

الحلفاء يخوضون الحرب النفسية :

كيف حاول الحلفاء مواجهة حرب هتلر النفسية أو حرب الأصابع كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت ؟ لقد ظهر بعد إعلان الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ أن شعوب فرنسا وبريطانيا وسائر الدول الغربية لم تكن مهية نفسياً لهذا الصراع الدامي . لقد اكتفت فرنسا مثلاً بإعلان هذا الشعار : سوف تنتصر لأننا الأقوى . وقد أوحى هذا الشعار للفرنسيين بالتواكل والتكاسل بدلاً من أن يوحى إليهم بالقوة ، ذلك أن الحكومة

جرماني . وهكذا نجد أن مبدأ هتلر أو بالأحرى فلسفته تقوم أساساً على علم النفس وإن جدد كفاحه هي جدلية الحرب النفسية ، القائمة على الإشادة والهدم والكفاح الدائم في الجبهة الداخلية والخارجية وقيادة الأمة الألمانية المضطهدة والمحاصرة إلى الثورة المظفرة ضد قوى الشر وصاحب رأس المال الجشع ، وعلى الإخص اليهودي الذي يتحد ذاتياً آخر الأمر مع كل الدول التي تعادى توسع الرايخ الثالث ، تلك هي باختصار عقيدة هتلر .

وكانت آلة الحرب النفسية الألمانية حاضرة بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وهو حائل هام أمام كل تنظيم لحرب نفسية . وأن دكتاتورية هتلر بما لها من حول وطول لم تستطع أن تذل هذه العقيدة على وجه مرضي . وكانت الدعاية كما نعرف ، تابعة للدكتور جوبلز ووزارته . ولكن كان إلى جانب هذه الوزارة شبكات ميكولوجية طوال الحرب ، يمسك بأطرافها كل من فون ريبنترون في وزارة الخارجية والبوليس الألماني والجستابو والأقسام المخصصة للأميرال كناريس والأقسام الاقتصادية لجورنيج . وفضلاً عن ذلك ، فإن كانت أراضي الرايخ والأقاليم التي ضمت إليه تتبع من حيث البدء وزارة الدعاية، فإن الدعاية الموجهة إلى العدو وللأراضي المحتلة كانت من اختصاص الجيش الألماني نفسه .

وكانت وزارة الدعاية مقسمة إلى إدارات للصحافة والإذاعة والسينما والدعاية الإيجابية والتموين والمهمات . وكان مجهود هذه الإدارات منصبا أساساً على رفع معنويات الشعب في الداخل . وكانت فوق كل ذلك تعليمات جوبلز نفسه وتوجيهاته . فهو الذي رفع الشعار الذي يصم الانجلوسكوبين بالخيث . وكان غرض الدعاية في الداخل إذابة آلام الأمة وتضحيات المحاربين في بوتقة واحدة . وكانت الجبهة النفسية في الميدان أكثر الجبهات صموداً .

الفرنسية ، لم تكن في قرارة نفسها مقتنعة بان البلاد نخوض حربا فعلية ، واية ذلك ان الصحافة نفسها أسمتها « الحرب العجيبة ! » يضاف الى ذلك أن تخطيط الرقابة أدى الى ترويع الإشاعات الكاذبة عن الحرب . وما أن هل شهر مايو من سنة ١٩٤٠ حتى كانت الروح المعنوية للمواطن العربي ، العسكري والمدني ، في الحضيض . وهكذا لم يصعب على البانزر ديفزيون الالمانيه ولا على طائرات شتوكا المنفضة ان يدعى الاربع في بعوس العسكريين والمدنيين وتفنى على البقية الباقية من روحهم المعنوية . وسقطت باريس ووقع المارشال بيتان الهدنة مع المانيا النازيه . وفي اليوم التالي لهذه الهزيمة الساحقة انتقل مسرح الحرب النفسية من العارة الى لندن .

وكان على بريطانيا ، بعد ان أصبحت وحيدة في الميدان ولا حول لها ولا قوة حربية تستطيع بها مواجهة العدو الالماني الذي دانت له القارة الأوروبية عقب الحرب الخاطفة التي شنها ، كان عليها ان تفتصم بحرب دفاعية ، نفسية . وقد امتازت هذه الحرب بانها سارت جنباً الى جنب مع سياسة انجلترا الداخلية والخارجية، وهكذا استطاعت ان تحقق أفضل النتائج ، فقد تمكنت بريطانيا بفعل وزارة استعلاماتها من اقامة علاقات مع الشعب البريطاني والشعوب الحليفة والمحايدة ، اما الدعاية الموجهة الى بلاد العدو والأراضي التي احتلتها فقد تولت امرها ادارة مستقلة ذات طابع سرى تابعة لوزارة الخارجية . وكان هدف الحرب النفسية البريطانية اضعاف روح العدو المعنوية ورفع او دهم الروح المعنوية عند اعداء هذا العدو أو ضحاياه . ويقول بروس لوكهارت ان الحرب النفسية هي تطبيق الدعاية على احتياجات الحرب الشاملة . وتحاول الحرب النفسية بوساطة اخبار خاصة ان تنفادي وان تسبق نوايا العدو وان توجه نحو اهداف حربية تهم جمهور هذا العدو الذي لا تستطيع قواته ان تصل اليها ، وان تمسك روح الجياهي المعنوية ببرامج اذاعية تبثها محطات سرية يزعم ان رعايا الاعداء غير الراضين في داخل ارض العدو هم الذين يعلونها ، كما تقوم بدورها في تثبيط العزائم بمختلف الوسائل . ان هدفها الرئيسي هو تعبيد الطريق لتسهيل مهمة القوات المسلحة .

ويمكن أن يقال ان الحرب النفسية بهذا المعنى أو هذا المفهوم ، كانت موجودة ولا تزال

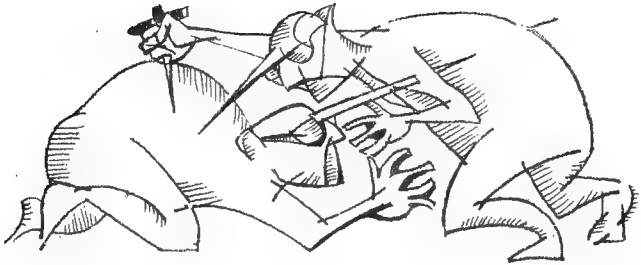
في كل زمان ومكان . الا ان الوقت والعلم قد اعطيا للعالم أدوات وتقنيات جديدة للعناية . فلولاً الاذاعة والمنشورات التي كانت طائرات الحلفاء تلقيها من الجو لانقطعت الصلة بين البلاد المحتلة والحلفاء . وخير ما وصل اليه العلم الحديث هو بلا شك التمكن من استنتاج نوايا العدو من دعاية هذا العدو .

ان الحرب النفسية ليست علما من العلوم الدقيقة ولا فنا مستقلا ، واكثر ما تستطيعه هو المساعدة على تخفيف حدة القتل أو الهزيمة والإبقاء على شعله الأمل في البلاد ، لتلي يحلها العدو . وتجد هذه الحرب امكانية عملها الحقيقي عندما تظهر بشائر مقاومة ناجحة .

ان الجهاز الذي يتولى توجيه الحرب النفسية سوف يظل دائما في خدمة السياسة الرسمية والاستراتيجية العسكرية . وينبغي في نفس الوقت أن يكون مرنا وأن تكون لديه القدرة على سرعة ادراك الأمور ، كما ينبغي عليه أن يتقن اوامره من مجلس الوزراء وروساء أركان الحرب، ان عليه في أغلب الأحيان ان يعمل بسرعة وبن جارف وان يسبق أحيانا قرار مجلس الوزراء .

وقد ينتج عن الحرب النفسية ضرر أكثر مما ينتج عنها نفع اذا لم يتم تنسيق دقيق بينها وبين أوجه النشاط الدبلوماسي والحربي . فالعامل في جهاز الحرب النفسية يجب ان يعتبر نفسه عضوا في التنظيم العسكري ، وكل ما يقوم به يجب ان يكون موضوع دراسة دقيقة داخل اطار الاستراتيجية العامة للحرب . فالحرب النفسية ليست سلاحا مستقلا ، وليست قادرة وحدها على صنع المعجزات . فقد يمكن ان تسفر عنها نتائج طيبة ان تم القيام بها على اساس انها مقدمة لسياسة محددة بوضوح تام وان كانت أوجه نشاطها مرتبطة بالعمليات الجارية الصادرة من مجلس الوزراء أو رؤساء أركان الحرب .

.. لقد وجد البريطانيون انفسهم غداة هزيمة فرنسا أمام مهمة غاية في الضخامة ويمتوس



أساسا من أنها - باعتبارها مساعدا يوميا ودقيقا للسلطة - لم تصعد بجدار السرية الذي تقيمه المصالح الحكومية الدائمة في وجه أجهزة الاعلام والدعاية عادة ، بل أنها عرفت كيف تستفيد من الاولويات التي خصتها بها الدولة ، لا سيما في مجال الاخبار .

ويرى البريطانيون أن الدعاية البيضاء ، وهي الدعاية المعروفة المصدر ، كانت أكثر فعالية من الدعاية السوداء ، وهي التي لا تعلن عن مصدرها الحقيقي ، وأنها الوحيدة القادرة على اسباع ارادتها أو تمديد الضربة القاضية . أما الدعاية السوداء فابها لا تستطيع الا زعزعة الثقة دون الوصول الى نتيجة نهائية ولجأ الانجليز أيضا الى الدعاية الرمادية ، وهي الدعاية المعروفة المصدر ولكنها لا تستخدم وسائل مباشرة في تحطيم الروح المعنوية لدى العدو ، ضد الألمان ، فقد أصدروا جريدة يومية خاصة هي النافريغتي فور تروين كانوا يسقطونها بانتظام من الجو على الأراضي الألمانية . وكانت هذه الصحيفة أية في الإخراج التحريري الصحفي . وعلى أمواج الأثر حاول الألمان على لسان « ألورد هاو هاو » أن يقاوموا إذاعة « اينز جوستاف سييغفريد » البريطانية ، ولكن الكلمة الأخيرة ظلت للانجليز الذين عرفوا كيف يستخدمون العنف البارد ويختارون الكلمات بعذ وزنها يميزانهم الدقيق .

ويمكن اعتبار الفترة الواقعة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٤ المرحلة الثانية للحرب النفسية التي شنتها الحلفاء خلال « الحرب العالمية الثانية » ، فبعد انقضاء بضعة أسابيع على نزول الحلفاء في

منها في وقت معا . ولم يجد المسؤولون من الحرب النفسية في بريطانيا ، ما هم الا أن يقولوا للعالم وللعدي أنهم مصممون تصميمًا لا يتزعزع دلي الا يعترفوا بجزيمتهم . لقد فهم الانجليز أيضا منذ اليوم الاول ان لا فائدة يمكن ان يجنوها من اخفاء الحقيقة أو تزويرها وأن لأشك في أنهم سوف يزعزعون الروح المعنوية للشعوب المحتلة التي وضعت فيهم أمامها أن هم استخدموا معها نظام الدعاية النكاذبة التي لا تنطلي الا على السذج والتي تؤدي الى عكس النتيجة ، اذا ما عرفت الحقيقة ، وغالبا ما تعرف .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٩٤١ و ١٩٤٢ فترة الحرب النفسية القائمة على العاطفة وبان يوجهها على موجات هيئة الاذاعة البريطانية اللاجئون الذين فروا من بلادهم قبل الغزو النازي أو انشده أو بعده . أما الانجليز انفسهم فقد نجحوا العاطفة جانبًا وحاولوا منذ اللحظة الاولى تسقط أخطاء العدو . ففي ١٠ أكتوبر ١٩٤١ ظهرت صحيفة الفولكشير بوختر الألمانية تحمل هذا العنوان الرئيسي باليط الكبير : « دقت الساعة العظيمة . القوات الروسية محاصرة . » انتهت الحرب في الشرق . وقد استغل الانجليز هذا الخطأ الذي وقع فيه النازيون بإذاعتهم خبرًا لم يكن قد حدث فعلا ولو أنه - على حد اعتقادهم - كان وشيك الحدوث . وقد حرص الانجليز وأجهزة دعائهم على الاحتفال سنويا بهذا التسرع الأرض طوال سني الحرب .

الا ان قوة الحرب النفسية البريطانية تنبع

سمان فرانسيسمو ، للمحيط الهسادي وآسيا والثاني في ميونخ لاوروبا وملحاتها . وكانت جمه هدا الحثب التعريف بوجه امريكا المحاربة واهدائها ، ولما كان هناك ايضا عدو واراض يحتلها هذا العدو - فقد اقامت الولايات المتحدة في حماس شديد خدمات خاصة بالأعمال الحربية اطلقت عليها (مكتب الخدمات الاستراتيجية) . وكانت هيئة اركان حربها تضم النخبه المتفاده من رجال الجامعة وعالم التجارة والمال ، غير انها اطلقت العنان للألوف من العملاء المرتجلين الذين فلما كانوا يحترمون ميذا تسميم المهام . وقد نتج عن هذه الثنائية أو هذه القوضي سياسات نفسية متنافسة . وكان هذان الكتبان يتبعان الرئيس الاميركي مباشرة . ولكن هيئة مستشاري الرئاسة كانت تعتقد بأنها تستطيع كل شيء . وهكذا وضع رجال الدعاية والاعلام في المقام الثاني .

ويمكن القول بان الحرب العالمية الثانية كانت في الحقيقه ميدانا صالحا لاختبار استخدام السلام النفسي في الحرب وتمتينه . وقد طبقت الخبرات الجديدة على مدى واسع بعد وضع اللصبات الاخيرة خلال الحرب الكورية التي بدأت كمرسح ممتاز لعمليات الحرب النفسية بصرف النظر عن مدى نجاحها .

واذا كانت الحرب النفسية التي خاضها الامريكيون في اوروبا قد نجحت لسبب أو لآخر . فان التوفيق لم يحالفهم عندما شبنوها على الشعب الياباني . والدليل على ذلك انهم اضطروا آخر الامر الى القاء قنبلتيهم الذريتين على هيروشيما ونجازاكي ..

في الاتحاد السوفيتي :

واذا تركنا الولايات المتحدة وبريطانيا جانبا وانتقلنا الى الاتحاد السوفيتي ، وجدنا ان كل نظام العمل السوفيتي ، سواء في الحرب أو في السلام ، قائم على الكفاح النفسى . ولما كانت الدعاية المركزية البلينيه هي حركة التاريخ نفسه . فان ادخال رسالتها في جهاز الحزب و بناء الدولة يكون اجراء تكامليا . ان كل شيء في هذه الدولة قائم على التوعية في الداخل ويسير نحو تحرير الشعوب في الخارج . فالنظام السوفيتي كله بشكل تسييجا كاملا . ففي القمة نجد اللجنة المركزية للحزب وتشمل القسم

شمال افريقيا اجتمع روزفلت بتشرشل في الدار البيضاء ، ودن هذا الاجتماع أو هدا المؤتمر غربة مسلم وجهتها الدعاية الانجلو امريكية ، الى العدو النازي . فقد صدر تصريح مشترك أعلن فيه العالم الانجلوسكسوني انه لن يضع سلاحه قبل ان يسحق عدوه . وكان على المستولن عن الحرب النفسية في بريطانيا ان يحاولوا يثنى الطرق تجنب نتائج هذه الصيغة الصلبة والدوران حولها . وقد استغلت دعاية جوبلر هدا الاعلان لمصلحتها حين قالت لشعوب اوروبا المحتلة « في وسعكم الا تحبونا نحن النازيين ، ولكن صلوا الى الله ان يعينكم اذا ما هزمنا واضطرتهم للخضوع لشروط السلام التي يتوى الحلفاء ان يفرضوها عليكم . »

وهكذا ابتداء من مؤتمر الدار البيضاء حدث تناسق بين كل من اجهزة الحرب النفسية الانجليزية والامريكية على الرغم من اختلاف مزاج الشعبين . ويمكن ان يقال ان هدا التناسق لم يتم على وجه مرض بين الجليفتين حتى نهاية الحرب .

وكان للهيئة العليا لاركان حرب قوات الحلفاء في اوروبا قسم للحرب النفسية تحت قيادة الجنرال ماك تاور . وكان على هذا القسم ان يفرق العدو بنوايا الحلفاء واهدافهم الحقيقية وان يحث الشعب الالماني أو جانباً منه على العمل ضد حكومته . وكان على هذا الجهاز ايضا ان يهيء الشعوب الصديقة في اوروبا المحتلة لاحتمال نزول قوات الحلفاء في اوروبا لم تقرب هذا النزول مع ابقاء الشك في ذهن العدو حول المكان أو الامكنة التي سوف يتم فيها هذا النزول .

ولا يمكن للباحث ، وهو يقوم بدراسة تطور الحرب النفسية خلال الحرب العالمية الثانية ان يفر بحثه على بريطانيا . فقد كان لكل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي جهاز للحرب النفسية .

كان للامريكيين ادارة اسموها (مكتب استعلام الحرب) ، وهو مقسم بدوره الى شعبتين ، الشعبية القومية والخدمة الخارجية . وتنقسم هذه الخدمة بدوره الى قسمين احدهما في

وبالنسبة للنقطة الثانية فانه مما يثير العجب انه خلال الشهور المألة لسنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ ركز ستالين كل طاقته على هدفه الوحيد الا وهو : الحرب . ويرى عدد من ناسا الغرب ان حل الكومنترن لم يكن الا تمويلا مجانيا ؟ الا ان قرار الحل هذا قد خدم في نفس الوقت المصالح التكتيكية للكرملين الذي اضطر ان يقصر مجهوداته على الضرورات العاجلة للموقف العسكري . وفيما يتعلق بالدفاع النفسى (السيكلوجى) فقد نجح ستالين ببراعته الفائقة الحد . في ابتناء سيطرته على المقاومة التى استطاعت بعد الاضطراب الذى اجتاحت الشعب السوفيتى فى الأسابيع الأولى من الهجوم الألماني ، ان تقف بلا رجح او شفقة ضد الارهاب النازى ، وان رجال المقاومة السوفيتية لم ينسوا لحظة واحدة انهم اعضاء فى الحرب ، خاضعون لنظامه ومكلفون على الخصوص بالنيل من معنويات العدو .

لقد كانت مهمة الاتحاد السوفيتى الاساسية اضعاف روح الايمان المعنوية . وقد وصلت هذه المهمة الى الذروة حيث تحولت العمليات الحربية عند ستالنجراد لصالح الشعب السوفيتى البطل . ولكن ان كان هجوم يونيه ١٩٤١ قد فاجأ السوفيت الى حد ما ، فان وجودهم السابق في جمهوريات البحر البلطى واسلاكهم الهوائية في البلاد الاسكندنافية . في الشمال ودخولهم بولندا . وسلوفاكيا وعلاقاتهم اليوغسلافية . في الجنوب ، كل ذلك قد اعطاهم امكانيات العمل خلف الخطوط الألمانية . وعندما احصر مد الجيوش النازية سيقط بين ايديهم اعداد هائلة من الاسرى القبايلين في معظمهم لتلوعية . ينبغى اذن ان نميز بين ثلاثة انماط من الحرب النفسية السوفيتية الا وهى : تأثير الاقسام الخاصة خلف خطوط العدو والتاثير التكتيكي للجيوش والتاثير السياسى على اسرى الحرب . ويبدو ان الشيوعيين الالمان الذين فروا الى الاتحاد السوفيتى هربا من هتلر وزيابته قد لعبوا دورا هاما في الحرب النفسية التى شنت على الالمان من الشرق . وقد كون هؤلاء المهاجرون « اللجنة القومية لالمانيا الحرة » .

بيد ان اهداف الحرب لم يكن لها المعنى نفسه عند الانجليز والامريكان من ناحية وعند السوفيت من ناحية اخرى . لقد نجح الثلاثة الكبار : ستالين وتشرشل وروزفلت في المحافظة

الادارى للدعاية الذى تحقق التركيز المطلق للتعبئة الدائمة للرأى العام لمصلحة الأهداف التى تحددها ادارة الحزب . وعلى هذا الضوء يمكننا ان نحلل ونفسر الميزات النفسية والمعنوية التى تجعل من الصحافة والاذاعة والسينما - على حد تعبير ستالين - سيورا لنقل الحركة بين الجماهير والحزب .

وفى بلد يقوم نظامه على هذا الاساس ، فان قسم الدعاية والادارة السياسية للقوات المسلحة لا يعرفان عبوديات الحرب النفسية على النمط الغربى . والسبب الاول ان ليس عليهما ان يهتما بمرحلة الانتفال من حالة السلم الى تنظيم الحرب . والسبب الثانى هو انهما غير مكلفين بتوجيه عمليات الحرب النفسية مادامت رسالتهما تقوم اولا على صيانة الوضع الثقافى والمعنوى للمواطن السوفيتى مذنبا كان ام عسكريا . فليس للجيش الاحمر رسالة تبشيرية مباشرة . ولا يوجد في الاتحاد السوفيتى سوى هيئات تابعة للادارات العليا للحزب .

ومع كل ذلك فان المفاهيم العملية للحرب النفسية ليست غريبة عن القادة السوفيت ، غير ان تفكيرهم المنهجي يستوحى اهتمامين يقومان على العقل الرشيد . فالاهتمام الاول ينصب على تكليف هيئات خاصة ذات طابع سرى بتوجيه الحرب النفسية . والاهتمام الثانى الا يكون ثمة انفصال بين العمل النفسى وبين العمل الاستراتيجى او التكتيكي العام والا يبدأ بهذه الحرب الا حين يكون جهاز القوة السوفيتية على اهبه الاستعداد او على قدم وساق كما نقول . وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ارتكزت سياسة الحرب النفسية على الشرطة داخل وزارة الداخلية . وان كان اختصاص الأعمال الداخلية والخارجية قد تحدد ادواريا منذ الحرب ، فان ربط الحرب النفسية بالاقسام الخاصة واتبائها اداريا بالبوليت بورو لا يغيران من طبيعتها شيئا .

على تفاهيمهم فيما يختص بهم أو الأساس ،
ائق الانتصار على ألمانيا انتصارا كاملا ، ولكن
خارج هذا الهدف المؤقت ، فإن كل ما تبقى
أصبح مصدرا لحرب نفسية أو حرب باردة بين
الغرب والنظام السوفيتي .

الحرب الباردة :

انفجرت الحرب الباردة غداة الانتصار
المشترك على ألمانيا النازية واليابان . ولكن بعض
الباحثين يعتبرون أن مؤتمر يالتا الذي عقد في
٥ يناير ١٩٤٥ كان بداية هذه الحرب . ومنذ
ذات اليوم لأن عي الاتحاد السوفيتي ان يعارب
في ميدانين . الميدان العسكري ضد ألمانيا واليابان
والميدان السياسي ، ضد الولايات المتحدة
وبريطانيا . ولما تحقق النصر كشف كل من
المسكرين عن نواياه وحاول كل منهما ان يجلب
اليه الجبابب الأكبر من الراي العام العالمي .

‘دخل الاتحاد السوفيتي ادن الحرب الباردة
مستخدما قائمه الخصاص ونائير الجمهوريات
التبعية والاحزاب الشيوعية والمثقفين الموالين
للنظام الشيوعي . وهو ينادى بالسلام ويدعو
لجماعه الى الكفاح من أجله والى الاستقلال
عن الرأسمالية الاجنبية . وهذا صدر نداء
ستروكولم بتحريم الأسلحة الذرية . وبعد وفاة
ستالين قام الاتحاد السوفيتي بالمناداة بالتعايش
السلمي . وتقول أجهزة اعلامه معلقة على ذلك،
ان الاتحاد السوفيتي يمارس التعايش السلمي
لأنه مقتنع بالنصر النهائي المحتوم للاشتراكية،
وكل دولة رأسمالية ترفض مبدأ التعايش
السلمي إنما تكشف النقاب عن طبيعتها الحقيقية
وتقر صراحة بأنها صانعه حروب ومحرضة
عليها .

وقد استفل الاتحاد السوفيتي تقدمه العلمي
والتكنولوجي ليقول للعالم أن هذا التقدم هو
ثمرة النظام الاشتراكي الذي يسير عليه والذي
يهدف الى تقدم البشرية وتحقيق أكبر قدر من
الرخاء للإنسان . ولم تتوان هذه الدولة
الاشتراكية عن مد يد المساعدة الاقتصادية
والتقنية لشعوب العالم الثالث لتشهدا على
حسب نيتها وسلامة نواياها .

وكان عني الولايات المتحدة الأمريكية ان
تبحث عن حجج تواجه بها هذا الأسلوب
الجديد من الحرب النفسية السوفيتية أو على

الأقل ، عن وسائل جديدة تكفل لها النصر .
وقد هذاها تفكيرها الى انتهاج سياسة المساعدة،
الاقتصادية للبلاد التي « تهددها الشيوعية »
وكذلك المساعدة العسكرية ضد « خطر الغزو
السوفيتي » وهكذا وضع ترومان اليونان
وتركيا تحت الحماية المسلحة للولايات المتحدة
وقدم في نفس الوقت الى الدول الأوروبية ،
بصرف النظر عن نظم الحكم فيها ، المساعدات
الاقتصادية . والخطا الذي وقع فيه الأمريكيون
في حربهم النفسية أو الباردة ضد الاتحاد
السوفيتي هو اعتقادهم بأن هناك خطرا شيعيا
يتهدد العالم وأنه لا بد من إيقاف هذا الخطر
بأية طريقه . وكان التهديد بالحرب في مقدمة
هذه الطرق . ولما كانت اشعوب لم تنس بعد
اهوال الحرب العالمية الثانية وبم جرت على
الإنسانية من خراب ودمار ، فقد نفرت من هذه
الوسيلة ومن الداعين اليها ، هذا بالإضافة الى
أن السياسة الأمريكية قامت منذ الحرب
العالمية الثانية على التفاهم مع اشخاص
لا يتمتعون في العادة بأية شعبية . وهكذا ذهبت
جهود الدعاية الأمريكية أو معظمها ادراج الرياح
لأنها عجزت عن التحدث بأسلوب الجماهير أو
بلغة الشعوب المغلوبة على أمرها .

وأخيرا هل الحرب النفسية مشروعة ؟

ان الحرب النفسية بوصفها تعبيرا عن الحركة
الأبدية للمجتمعات السياسية وظاهرة سلبية
لأرادة التنافس بين هذه المجتمعات ، لا يمكن
تخفيف حدتها . أنها من طبيعة الإنسان نفسه
ولا شك في أنها مفيدة لانطلاقته التاريخية .
وباعتبار أنها أداة للحرب الشاملة ، فإنها
لا تخالف قوانين الحرب الا ابتداء من اللحظة
التي تتحول فيها الى اعتداء على الإنسان المجرد
من السلاح ، فتلعب به على حساب إنسانيته ،
بل تجرده من هذه الإنسانية حين تجرده من
عقله وأرادته .

نحو الدراسات الاجتماعية للتطواهر الأدبية

السيد ياسين

• إن أى تاريخي للدين
أن يكونه اجتماعيًا ، وفي
نفس الوقت لا يمكن تصور
علم اجتماع غير تاريخي ،
ذلك أنه كل واقعة
اجتماعية واقعة تاريخية
والعكس صحيح .
• إن تغير الأشكال
الأدبية مثلثة مثل تغير
الذوايق لا بد من ربطه
بردم العصر والتغير
الذي يلمح بهما القيم
فئة المجتمع .

ولا شك - ظاهرة اجتماعية ، وهو بهذا الوصف
يشتبك مع عديد من التطواهر الاجتماعية الأخرى ،
بحيث يصح القول أنه لا يمكن فهم الأدب في
حقبة تاريخية محددة بغير تحليل دقيق للظروف
السياسية والاقتصادية السائدة في نفس الحقبة .

من الميسور للمتتبع للدراسات النقدية في
الفترة الأخيرة ، أن يلاحظ اتجاهها أخذ في التبدل ،
يدعو لتحديد الأسس المنهجية لدراسة الأدب
المصري المعاصر . وتبدو أصالة هذا الاتجاه في
ربطه للأدب بالمجتمع ربطاً عضوياً وثيقاً . فالأدب

ومن هنا يثور النقاش حول أسلم المناهج لدراسة التاريخ الأدبي .

والحقيقة أن هذه المشكلة الخاصة جزء من مشكلة أعم هي دراسة التاريخ بوجه عام . ولسنا في حاجة إلى أن نعرض في هذا المقام لكل الاتجاهات التي حاولت أن تتحدد أسس الدراسة التاريخية ، ولكن يكفي هنا أن نشير إلى أن الرأي الذي كاد يسود اليوم بين علماء التاريخ وعلماء الاجتماع ، أن أي تاريخ لا بد أن يكون اجتماعي ، وفي نفس الوقت لا يمكن تصور علم اجتماع غير تاريخي . ذلك أن كل واقعة اجتماعية - كما يقرر الفيلسوف الفرنسي لوسيان جولدمان - واقعة تاريخية وانعكس صحيح . وكل من التاريخ وعلم الاجتماع يدرس نفس الظواهر ، غير أن أيا منهما لا يستطيع أن يقدم سوى صورة جزئية ومجردة ، ولذلك لا بد لكل منهما أن يستعين بالآخر حتى تكمل الصورة .

إذا صدقت كل هذه المقدمات ، فمعنى ذلك أن التاريخ الأدبي لا بد أن يكون تاريخاً أدبياً اجتماعياً ، ما دام يبحث الأدب في مظاهره المختلفة ، والأدب كما قلنا ظاهرة اجتماعية .



ك . ماركس

التغير الاجتماعي والتغيرات الأدبية :

والحقيقة أننا إذا درسنا التحولات الكبرى في الأدب العالمية ، لأدركنا أنها لا يمكن تحليلها وفهمها وتفسيرها بمعزل عن التحليل الاجتماعي للعوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية . وبغير أن نقص في ضرب عديد من الأمثلة للتدليل على صدق ذلك ، نكتفي بأن نشير إلى الملاحظات الدكية التي أبدتها الكاتبة الإنجليزية

نورستر في مقدمته التي كتبها لدراسة هامه سبرت بالفلسفة الفرنسية في الأربعينيات بعنوان «جواب الادب الانجليزي من ١٩١٨ حتى ١٩٤٠» (شرت في عدد خاص من مجلة فونتين . عدد ٣٧ - ٤٠ - ١٩٤٤) . يذكر نورستر أن هذه الحقبة لا يمكن فهمه إلا برده الى جو الحرب الذي خيم على أوروبا في هذه الفترة ، وإذا كانت فترة ما بين الحربين يمكن اعتبارها - كما كان يطلق عليها - «اجاظة طويلة» سمحت للكتب والادباء ان يرتلوا بأبصارهم الى الماضي ، أو أن يحاولوا استشراف المستقبل ، إلا أن الكتب التي قد يبدو لأول وهلة أنها لا تلمس موضوع الحرب مثل كتب ليتون سترانشي وجميس جويس وتير جيتيا وولف ، لا يمكن للمصنف أن يتخطاه ما ترزخ به من ضروب الغزغ والقلق ، وهي لذلك تعد مثل الكتب الأخرى في نفس الحقبة ، نتاج حضارة واعية بشعور عدم الأمن الذي يحيط بها . ومعنى ذلك كله أن جو الحرب قد سيطر على كل الكتب والاعمال الأدبية التي ظهرت في هذه الحقبة . غير أن هناك بالإضافة الى الحرب كعامل اجتماعي أثر في نوعية الانتاج الأدبي والفكري ، ثلاثة عوامل حاسمة لا يمكن فهم هذا الانتاج إلا على ضوء تحديددها وتعيين آثارها . وأول هذه العوامل هو الحركة الاقتصادية التي قادت العالم من الزراعة الى الصناعة . ولا شك أن حركة التصنيع وما صاحبها من زيادة الاعتماد على العلم والتكنولوجيا قد أثرت في بناء المجتمع وانساقه المنعوية تأثيرات بالغة الشدة . فقد أصبحت الحياة انمادية هي الحياة التي تمارس داخل الورش والمصانع والمكاتب . وقد أدى ذلك الى تغيير جوهرى في الموضوعات التي يتناولها الادباء وفى اتجاهاتهم ذاتها ازاء هذه الظواهر الجديدة .

والعامل الثانى الحاسم هو الحركة السيكولوجية ، وبوجه خاص الاكتشافات التي وضع فرويد يده عليها في إطار التحليل النفسى . فيفضل نظريات فرويد بدأ الإنسان يعرف نفسه أفضل مما سبق ، وشرع في استطلاع تناقضاته نفسها . وكما أثرت هذه المعرفة في الفن والخيال والادب . فالعالم الخصب للشعور الكامن فى أعماق كل واحد منا ، وحالات ازدواج الشخصية ، وتفسير الاحلام ، وغيرها من الموضوعات الهامة كانت مجالاً فسيحاً للروائيين الذين أطلقوا أقلامهم لاستكشاف هذه الآفاق الجديدة . وقد استطاع الادباء المبدعون الذين تمثلوا بهذه الكشوف النفسية العميقة أن يبدعوا أعمالاً خالدة ، مثل بروسست وجرترودشتين و د . هـ . لورنس ،

وفريجنيا وولف ، وجيمس جويس ، و ت . س .
اليوت وغيرهم .

ونجد أخيرا العامل الثالث ، متمثلا في حركة علم الطبيعة الحديث ، التي يمكن أن تكون نظريات أينشتاين مثلا باؤا عليها . ولا شك أن الأدباء لم تكن عندهم القدرة على أن يفهموا نظريات أينشتاين العلمية فهما عميقا ، كما كان حالهم تماما بالنسبة لنظريات فرويد ، غير أنه مما لا شك فيه أن فكرة النسبية سيطرت - مثلها مثل فكرة اللاشعور - على المناخ الفكري ، وأدت الى نشوء اتجاهات جديدة وخاصة في مجال الادب الروائي . فالخير المطلق والشر المطلق الذي نجده في روايات ديكنز لم يعد له وجود . فالشخصية تكون خيرة أو شريرة وفق علاقاتها مع شخصية أخرى ، أو في تقاعها مع موقف معين . وأنت بذلك لا تستطيع أن تتخذ اتجاهات ثابتة ازاء الناس ما دام الإطار المرجعي نفسه غير ثابت ، بل هو يتسم بالتغير الدائم . ولعل خير مثال على تطبيق فكرة النسبية في الادب نجده لدى بروست . فحساسية شخصياته وإن كانت كريمة وتثير المقت ، إلا أننا لا نستطيع أن نلعبها جملة ، نظرا لأن بروست قد رسمها تحت تأثير فكرة النسبية فخرجت متعددة الابعاد .

ويؤيد الشاعر المعروف ستيفان سيبناد في ملاحظاته عن الشعر الانجليزي في نفس الفترة كل الملاحظات التي سجلها فورستر ، ويقرر أن الأدباء في هذه الحقبة انتهجوا نهجا سياسيا واجتماعيا أساسيا يمثل نقدا جوهريا للحضارة الغربية بعد عام ١٩٢٠ ، مثل النقد الذي وجهه لها اليوت في قصيدته الشهيرة «الارض الخراب» . ويضيف أن الأدباء تأثروا أساسا بنظريتين ، احدهما تحلل المجتمع وهي الماركسية ، والثانية تحدد العلاقات المتشابهة بين الفرد والمجتمع ، وهي التحليل النفسي .

إن هذا المثال الذي ضربناه عن أهمية التحليل الاجتماعي لفهم اتجاهات الادب الانجليزي في فترة ما بين الحربين وهي من أحرج فترات الحضارة الغربية ، ليس فريدا في ذاته ، بل أننا نستطيع أن نجد أمثلة أخرى عديدة مشابهة لو حاولنا دراسة أي أدب من الآداب القومية .

وقد التفت عدد من النقاد المشاهير لكل هذه الاعتبارات المنهجية ، وإن اختلفت آراؤهم بصدد المنهج الواجب الاتباع لتحقيق هذا الغرض . وقد

عرض لهذه المشكلة النقاد الفرنسيون الشهير جوستاف لانسون في دراسة ممتازة له بعنوان « منهج التاريخ الأدبي » ، حيث يقرر أن التاريخ الأدبي جزء من تاريخ الحضارة . وهو ككل تاريخ يسعى لكي يضع يده على الظواهر العامة ، ويعزل منها الوقائع المتمثلة ذات الدلالة ، لكي يربط ربطا سليما بين الجزئيات المتعددة ، سعيا وراء الوصول الى فهم كامل لظواهر الادبية . ومعنى ذلك أن الباحث في هذا المجال لا بد له من اصطناع المنهج التاريخي ، وإن كانت هناك فروق لا ينبغي اغفالها في الموضوع الذي يهتم به المؤرخ العام ، وذلك الذي يهتم به المؤرخ الأدبي .

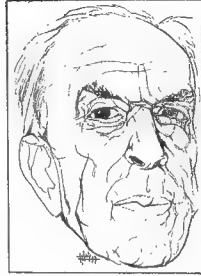
فموضوع المؤرخ العام هو الماضي ، ولكنه ماض لم ييسق منه سوى آثار يمكن بشيء من الجهد الاستعانة بها لإعادة تكوين ما سبق ، كان . غير أن الماضي الذي هو موضوع المؤرخ الأدبي ماض من نسوع خاص ، لأنه ماض باق متمثل في الآثار الادبية التي تنتمي للماض ، ولكنها أيضا تنتمي للحاضر . فهذه الآثار ليست مجرد أوراق باردة ، أو مستندات ميتة محفوظة في ملف أو أرشيف ، ولكنها آثار حية ما زالت قادرة على أن تبعث في الانسانية المشاعر الجمالية والمعنوية التي سبقت لها أن أثارتها في نفوس أجيال من المتذوقين .

وخلاصة ما نريد أن نركز عليه أن دراسة الادب لا يمكن أن تكون كاملة بغير الاستعانة بالعلوم الانسانية الاخرى وأهمها علم الاجتماع وعلم النفس .

دراسات في الادب المصري في ضوء منهج التحليل الاجتماعي :

هل يمكن أن ندرس الادب المصري المعاصر وما يحفل به من ظواهر متعددة في مجالات الشعر والقصة القصيرة والرواية والنقد الأدبي ، بغير أن نستعين بالتحليل الاجتماعي ؟

نستطيع أن نقرر - نظريا وعلى ضوء ما عرضناه - أن ذلك مستحيل . غير أنه من وجهة النظر التطبيقية تكفل عدد من الدارسين المصريين الرواد باتيات صدق هذا الاتجاه الذي ندعو اليه . ومن أبرز هؤلاء : ثلاثة : الدكتور عبد الحسن طه بدر الذي كتب رسالة دكتوراه في موضوع : « تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨) » (القاهرة : دار المعارف ، طبعة ثانية ، ١٩٦٨) ،



٢ . تونسي

أما الرسالة الثالثة فهي تلك التي أعدها الدكتور عبد الحميد إبراهيم ، وهي تكاد أن تكون تحليلاً اجتماعياً خاصاً للقصة المصرية . فإذا كانت الرسائل «السابقتان» تبدآن بالرواية أو بالقصة، وإن تعرضتا للظروف الاجتماعية والسياسية كخلفية لا بد من الإلمام بها حتى تمتد إلى الدراسة على أسس سليمة، فإن الرسالة الأخيرة تبدء من الاتجاه المضاد ، فتنتقل من تحليل المجتمع نفسه . ففي الباب الأول الذي عنوانه : « **موضوع القصص ومذاهب المجتمع** » ، صور الباحث جوانب المجتمع العامة في أربع فصول تناولت دراسة البيئات الأجنبية، والتناقض الطبقي ، والشخصية المصرية، والشخصية القومية . هذا مجرد مثال يدل على المنهج الاجتماعي الحاصل الذي اتبعه الباحث .

والحقيقة أن دراستي الدكتور بدر والأستاذ النساج - وهما ما اطلعنا عليه - تمثلان معالم بارزة في طريق اندراسة المنهجية للأدب المصري المعاصر . فما بذل فيهما من جهد ، وما تحصل من نتائج ليفتحان الطريق نحو دراسات أخرى تعارول أن تستكشف كل معالم الرحلة التي قطعها الأدب المصري المعاصر على ضوء منهج التحليل الاجتماعي .

والواقع أن منهج التحليل الاجتماعي يمكن عن طريق تطبيقه تطبيقاً واعياً فهم نفسة الفلواهر الأدبية المختلفة وتطورها وزوالها . فالأجناس الأدبية مثلاً والتطورات التي تلحق بها ، سواء كانت تطورات جزئية أو شاملة ، لا يمكن فهمها على أساس أنه يحكمها منطق التطور الداخلي لها فقط . بل لا بد من رد هذه التطورات إلى التغيرات الاجتماعية والثقافية التي لحقت بالمجتمع في فترة تاريخية محددة . وبغير هذا المنهج لا يمكن للباحثين أن يصلوا إلى نتائج سليمة في بحثهم للمشكلات المختلفة التي تعرض لهم . وقد يكون من المناسب أن نشير تدليلاً على رأينا إلى مشكلة التجديد في الأشكال الأدبية لنرى كيف يمكن لمنهج التحليل الاجتماعي أن يدرسها .

التجديد في الأشكال الأدبية من وجهة النظر الاجتماعية :

كثيراً ما تتور بعض الأسئلة الهامة حول بداية نشأة شكل جديد من الأشكال الأدبية . غير أن الحظورة أن يكون السؤال الذي هو أصل المشكلة قد وضع بطريقة خاطئة منذ البداية ، وبذلك

والأستاذ سيد حامد النساج الذي كتب رسالة الماجستير في موضوع تطور فن القصة القصيرة في مصر (١٩١٠ - ١٩٣٣) (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨) ، **والدكتور عبد الحميد إبراهيم** الذي كتب رسالة دكتوراه في موضوع : « **القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث من أول القرن العشرين إلى الحرب العالمية الثانية** » ، (ولم نطلع عليها ، وإن اطلعنا على عرض وجيز لمحتواها للدكتور أحمد الحوفي المصروف عليها ، راجع (المجلة) ، العدد ١٥٣ ، سبتمبر ١٩٦٩ ص ١٠٥ - ١٠٦) .

والدكتور عبد المحسن طه بدر - تقديرنا منه لضرورة التحليل الاجتماعي للدراسة الأدبية - بدأ رسالته بعرض الملامح الأساسية للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الفترة التي يتعرض لها بالدراسة (أنظر تمهيد دراسته من ص ١١ - ٤٨ ، بالإضافة إلى المواضيع المتعددة الأخرى في الرسالة) . وكذلك فعل الأستاذ سيد حامد النساج ، الذي عني في الفصل الأول من رسالته بتقديم تحليل اجتماعي للفترة التي درسها . ولم يفتن بذلك بل كان يربط دائماً بين مراحل الانتقال في القصة القصيرة وبين الحلفية السياسية والاجتماعية التي أثرت فيها وفي اتجاهاتها (راجع الفقرة الأولى من الفصل الثاني : **الشعور القومي وأثرها في الحياة الثقافية والاجتماعية** ، والفقرة الأولى من الفصل الثالث : « **أفكار ثورية ومفاهيم جديدة** ») .



١ . اينشتين

وأيا ما كان الأمر ، فهذا موضوع يستحق أن تفرد له دراسة مستقلة تحاول أن تستكشف كل أبعاده الجمالية والفكرية والاجتماعية . وكل ما أردنا أن نلفت النظر إليه هو ضرورة الدراسة الاجتماعية للأدب .

وإذا كان الناقد المعروف ودييه ويليك يذهب إلى أن هناك منهجين لدراسة الأدب ، أحدهما داخلي يدرس الأعمال الأدبية من الداخل ، ويعنى دراسة جمالية خالصة والثاني خارجي يدرس الأعمال الأدبية في علاقتها مع مختلف الظروف الخارجية المحيطة بها ، فقط أن لنا بعد أعمال طويل لهذا المنهج الخارجى في دراسة الأدب أن نطبقه فى دراساته وبحوثنا فى الادب المصرى .

وحين نعى أهمية منهج التحليل الاجتماعى ونتقن تطبيقه ، فلن يكون هناك مجال بعد ذلك لاثارة أسئلة ساذجة عن الرائد الأول للشعر الحر ، أو الرائد الأول للقصة القصيرة !!

إن التاريخ الأدبى ، مثله فى ذلك التاريخ العام ، لا يمكن أن يبنى على انجازات أفراد منعزلين . وليس معنى ذلك إنكار دور الفرد فى التاريخ ، أو الاقلال من أهمية العبقري فى الأدب . ولكن الفهم العلمى الصحيح لكل الحركات الفكرية والسياسية والأدبية لابد من أن يستند إلى تحديد العلاقة بين الأفراد والجماعات الاجتماعية التى ينتمون إليها ، واثرائها بالخلفية التاريخية والاجتماعية على نشأة وتطور المشازيع - الإبداعية الفردية . حتى أن بعض كبار الباحثين المحدثين مثل لوسيان

لا يستطيع الباحث - بعد بذل الجهد - أن يصل لاجابة صحيحة .

إذا تسامع باحث مثلاً : من هو الرائد الأول للشعر الحر فى البلاد العربية ؟

أو إذا تسامع باحث آخر : من هو الرائد الأول للقصة القصيرة فى مصر ؟

لعلنا أن نتسامع بدورنا : هل وضع المشكلة على هذا النحو صحيح أم لا ؟

والحقيقة أن حركات التجديد فى الأدب - فى رأينا - مثلها مثل الحركات الاجتماعية لا يمكن أن تأتى من الأحوال تنسبتها إلى فرد واحد معين . فالتجديد فى الأشكال الأدبية لا يأتى عادة بضربة واحدة خلافة من أدب عبقري ، بقدر ما يكون محصلة عشرات من التراكمات الجزئية التى تخلخل الأبنية القديمة وتفتح الطريق بذلك إلى ابتداع أبنية وأشكال جديدة . ولا يمكن أن يفينا من وضع مشكلات مزيفة من قبيل الأسئلة التى أشرنا إليها سوى تبنيها لمطور اجتماعى فى الدراسة . ومن المعروف أن التحليل الاجتماعى يهتم بالجماعات الاجتماعية أساساً ولا يهتم بالأفراد إلا فى علاقاتهم بأبنية أشمل وأعم اقتصادية كانت أو اجتماعية أو جمالية أو غيرها .

إن تغير الأشكال الأدبية ، مثله مثل تغير الأذواق ، لا بد من ربطه بروح العصر ، والتغير الذى يلحق بجهاز القيم فى المجتمع .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أنه نتيجة للتغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمع تظهر الحاجة إلى ابتداع أشكال أدبية جديدة ، للتعبير عن وجدان الجماعى . وهذا التجديد فى الأشكال الأدبية لا يتم عادة بطريقة فردية ، وإنما يتم « فى معية » إن صح التعبير . بعبارة أخرى حين تكون حتمية التغير طرأ موضوعياً يحدث أن تتلاقى معه « قووات » متعددة فى نفس الوقت حتى يغير اتفاق سابق . ولذلك تقدم جماعة من الأدباء على ابتداع الأشكال الجديدة ، بحيث لا يمكن تحديد واحد منهم بعينه على أساس أنه أول من ابتدع الشكل الجديد . فإذا لم نركن إلى تاريخ نشر المؤلفات الأدبية وهو معيار زائف للتأريخ لبداية التغير فى الأشكال الأدبية ، واستطعنا الحصول على مخطوطات أدباء متعددين فى نفس الحقبة ، لاستطعنا أن نرى كيف أنهم بدرجة كبيرة أو صغيرة مارسوا التجريب سعيًا وراء أشكال أكثر جدة .

الضوء على نوعية الاتصال بين الأديب والجمهور .
وأخيرا فإن مشكلة نجاح العمل الأدبي تشير
تساؤلات عن العوامل الاجتماعية المختلفة التي
تؤثر عليها .

هذا عرض موجز للنقاط الأساسية في برنامج
مقترح للدراسة الأدب المصري المعاصر . ويمكن
بغير شك لو لقي هذا البرنامج موافقة عدد من
النقاد والباحثين اعداد دراسات تفصيلية عن كل
جانب من جوانبه حتى يتحدد الموضوع بطريقة
واضحة .

ولعله مما يبحث على الفطة أن نرى نوعى
بأهمية التاصيل المنهجى للدراسات الأدبية فى
مصر يتبلور يوما بعد يوم . ويكفى بهذا الصدد
أن تشير الى المقال الذى كتبه الأستاذ سيد حامد
النساج عن « مشكلات فى دراسة القصة القصيرة »
(راجع الملحق الأدبى للأخبار ، العدد الثانى عشر ،
١٤ سبتمبر ١٩٦٩ ، ص ٦) وترد أهمية هذا
المقال الى أنه حصيلة خبرة واقعية لباحث جاد سبق
له أن قدم للمكتبة العربية دراسة أكاديمية أصيلة
عن القصة القصيرة فى مصر .

ولعل أهم ما فى هذا المقال - بالإضافة الى
تشخيصه لمشكلات البحث فى هذا الميدان - دعوته
لتشكيل فرق بحث من الدارسين ، ليس فى مجال
الأدب فقط ، ولكن فى مجال العلوم الإنسانية بوجه
عام .

والحقيقة أن هذا الوعى بأهميته دراسة الأدب
المصرى دراسة متكاملة ، يتفق مع ما انتهينا اليه
من دراساته التى سبق فيها أن عالمنا المشكلات
المنهجية والتطبيقية لعلم الاجتماع الأدبى .
(راجع مجلة الكاتب ، اعداد عام ١٩٦٨) . فقد
دعونا فى خاتمتها الى تشكيل فرق بحث من نقاد
الأدب ومن المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حتى
يمكن دراسة الأدب المصرى بطريقة منهجية
سليمة .

غير أن كل هذا لن يتاح له التنفيذ ما لم نؤمن
أن البحث العلمى الواسع المجال لم يعد اليوم
عمل فرد من الأفراد ، بقدر ما هو مهمة شاقة
وصعبة لا يمكن أن ينهض بها الا فرق متعددة من
الباحثين .

فهل آن الأوان لكى نتخلى عن عاداتنا الفردية
فى البحث ، لكى تتبنى الجماعة كشعار وتطبيق ؟
إن حدث ذلك ، فانه سيكون علامة أكيدة على سعيها
فى مضمار التقدم .

السيد ياسين

جولدمان يذهب الى حد القول ان العمل الأدبى
لا يعبر عن مؤلف فرد ، وإنما عن الجماعة التى
ينتمى اليها الأديب ، ويعبر عن رؤيتها للعالم سواء
بطريقة شعورية أو لا شعورية .

وخلاصة ما نريد أن نؤكد عليه ، أنه بغیر اتباع
منهج التحليل الاجتماعى لن يتاح لنا أن نفهم
مختلف الظواهر الأدبية التى يحفل بها تاريخ
الأدب المصرى المعاصر . ونستطيع بهذا الصدد أن
نعتمد على الأطار المثلث الجوانب الذى يرى عدد
من الباحثين صلاحيته كأطار مرجعى للدراسة
الاجتماعية للأدب وهو مكون من ثلاثة مجالات :
دراسة المؤلف ، ودراسة الأعمال الأدبية ، ودراسة
الجمهور .

وعلى ذلك نقترح برنامجا للدراسة الاجتماعية
للأدب المصرى المعاصر على النحو التالى :

أولا : الدراسة الاجتماعية للأدب :

ويدرس هنا بالنسبة للشعراء والروائيين
والقصاصيين والنقاد أوضاعهم الطبقيّة والمهنية
والاقتصادية وأثرها على إنتاجهم الأدبى . كما
يدرس فى هذا المجال الأدباء ، لا باعتبارهم أفرادا ،
ولكن باعتبارهم أعضاء فى أجيال أدبية .

وتثير فكرة الجيل الأدبى مناقشات متعددة ليس
هنا مجال الافاضة فيها .

ثانيا : الدراسة الاجتماعية للأعمال الأدبية :

ويدرس فى هذا المجال عدة موضوعات أساسية
أهمها :

الدراسة الاجتماعية للأجناس والأشكال الأدبية ،
الدراسة الاجتماعية للموضوعات ، والدراسة
الاجتماعية للطبائع والشخصيات ، وأخيرا للدراسة
الأدبية للأساليب .

ثالثا : الدراسة الاجتماعية للجمهور :

ويرى بعض الباحثين أنه من الأفضل أن
نتحدث هنا عن الجماهير ، لأن مكونات الجمهور
تختلف اختلافات جسيمة من وجهة النظر الاجتماعية
وعبر الزمن ، حتى أنه ليجب الحديث عن جماهير
متعددة لا عن جمهور واحد .

وتحدد هذه الجماهير وبرايز سماتها الاجتماعية
والنفسية مسألة بالغة الأهمية لفهم أسباب نجاح
وفشل الأعمال الأدبية . وهذا من شأنه أن يلقي

ليس العالم هو
 الذى ولد الفن ، ولكنه الفن
 ولد علما خاصا ، هو علم الجمال ،
 فالفن على هذا النحو هو روح الجمال ،
 عندما يطلع مخلصا لنفسه للعالم ،
 واذا ما أخضع للعالم ، فإنه يخلص
 لذلك العالم الذى خلقه بنفسه



حيرة الفن بين فلاسفة الفن

جمال بدراف

ان آفاق الفن قد ظلت رحابتها — منذ أزمنة
 حقيقية — مجال اغراء للغوص والتفكير ، بل
 وللثروة أحيانا عند بعض المتحمدين .. فى
 محاولات لتعريفه وتقنيته .. تارة بفوضى القول،
 وأخرى بالتعظيم له ، وثالثة بتصنيفه لوضعه
 تحت عنوان أو داخل اطار لا فكاك له منه .

**لكنه هذه الرحابة ان كانت مثارا لاختلاف
 الآراء وتعارضها ، فإنها كانت أيضا — ولا تزال —
 نبعاً لكل ابداع وتجديد يدور حولهما الحوار من
 جديد .**

ومهما اختلفت الآراء وتباعدت .. فى الامكان
 ارجاعها الى نقطة البدء أو المنطلق الذى خرجت
 منه .. فممن أن قسم لنا **أرسطو** نظريته فى
 الوجود ، وأقام فلسفته على مبدأ الصورة
 والهيولى .. شرع يضمن مفهومها مقولاته فى
 الفن .. التى نقرأها على أبواب الطبيعيات
 والسياسة والخطابة .. فوجدناه يفترض أن
 الشيء الفنى هو كالوجود تماماً تتحقق صورته فى
 هيولى ، مع استدراك للفارق الدقيق بين الاثنين ،
 ألا وهو وفود الصورة للشيء الفنى من خارج على
 عكس الموجود الذى تنبع صورته من داخل .
 لذلك فهو ينص على أن الفن هو « **الظهور لشيء
 داخل فى معرض خارجي** » .. هذا على الرغم
 مما شاع من قوله أن الفن محاكاة .. فمع ما فى
 هذا الاقتضاب من غموض ، فقد كان أيضا طمسا
 لمفهوم المحاكاة لدى **أرسطو** .. فهو تقليد لأفعال
 الطبيعة وليس يمكن أن تنتج .. « **ايجاد ما لم
 تستطع الطبيعة ايجاده** ، على النحو الذى يمكن أن
 توجده الطبيعة عليه لو أنها أنتجته » .

ولكى نزيد الأمر وضوحاً .. نجد أن **أرسطو**
 فى تناوله للفعل الفنى أو ما نسميه بالإبداع
 يفترض توافر عنصرين .. عنصر التفكير النظرى
 فى الشيء الفنى ، وعنصر الممارسة الفعلية أو
 الصنعة الفنية لهذا الشيء .. فهو — أى الفن —
 « **ايجاد ، بعد تفكير ، لشيء ملائم** » .

فإذا ماضينا هذه التعريفات المتناثرة لـ **أرسطو**
 عن الفن الى بعضها .. لوحدنا أن لكل عمل فنى
 جانبين .. أحدهما طاهر وهو الهيولى ولكن
 لوحة تشكيلية أو مقطوعة موسيقية أو قصيدة
 أو رواية الخ ، والآخر داخل أو باطن وهو الصورة
 أو المضمون بتعبيرنا العصرى أو المحتوى أو الأثر
 الفنى :

وفى قلب **أرسطو** قيمة الصورة على الهيولى
 فى الشيء الفنى اتساق طبيعى مع فلسفته آنذاك .

**لكن انقسمت آراء الفلاسفة والنقاد من وقتها بين
 مؤيد ومعارض ، وبين مفتت لكل من الهيولى أو
 الشكل الى مقاييس وانماط ، وبين مؤول لمعنى
 الصورة ومعدل لما صدقات المفهوم والمضمون ..
 فتباعدت المذاهب وتعارضت ، وظهرت أجيال من
 الموقفين بينها .. بالحذف تارة وبالإضافة أخرى .
 فتنبت مدارس جديدة ونظريات .**

لكن الفن كان خلال كل ذلك أعظم من أن
 يخضع قيادة لفيلسوف أو ناقد ، وأخذ من أن
 ينتهى عند تفسير مدرسة أو نظير قانون .

فالأمر أبسط من أن يختلف عليه اثنان ..
 ذلك لأن الوجود بمسا احتواه من طبيعة جامدة
 وطبيعة متحركة لا بد أن يتناولها الفن بالطبيعتين
 معا ، ولا بد أن يحاكيهما الفن فى الواقع وفى
 الممكن وقوعه على السواء ، ولا بد أن يعبر عنهما
 ويتأثر بهما فى كل آن وفى كل مكان ، ثم لا يلبس
 وهذا هو الأهم — أن تكون مهمة الخيال الفنى
 هى — كما يقول **كافكا** — « **تكثيف للواقع وتحويله**
 الى خلاصة مركزة » .

**فمن هو ذلك الكائن الذى يأخذ على عاتقه هذه
 المهمة ؟ .. انه الانسان لا ريب ، الانسان ولا
 أقول الفنان .. لأنه هو المنبع الذى ينبثق عنه
 ذلك الفنان .. هو الطبيعة المتحركة فى الوجود
 بعقلها ومشاعرها وحواسها ، هو القوة التى
 تخلق الجموع وتختار التنازل عن ذاتيتها أو
 الاحتفاظ بها داخل الجموع .. هو — كما يؤكد
 نيتشه — « **الطبيعة التى تفكر** والتى تستجيب
 بهذا التفكير الى وعى » .**

تتبع تطوراتها .. بمعنى أن تلك المبتكرات القديمة لا تشكل حوادث منعزلة ، بل سلسلة من الأوضاع المتصلة التي يمكننا أن نتتبع فيها نقاط الاتصال بين وضع وآخر .. لكن مراحل تنفيذ مثل تلك المبتكرات كانت تتعرض في ترتيبها لبعض التحريف أو حتى التشويه ، وقد يتوقف سير المتابعة بفعل عوامل خارجية لم يستدل عليها بعد .. وهنا يصعب رصد الاستمرار الزمني لها .. سواء في العمل الأصلي أم في النسخ المكررة له بين الأجيال التالية .

لكن يمكن الرد على ذلك بأن في تسجيل تراجع الفسائين وتحليل انتاجهم وتحديد ملامح هذا الانتاج ابرازا لنقطة البدء في كل ابتكار .. فمن تطور حيساء الفنان وإيقاعها نستطيع أن نعرف الكثير عن الوضع التاريخي الذي وجد فيه .. نعرف مثلا أن فنانا مثل سيزان هو كثيره من الرسامين الفرنسيين الذين اهتموا على وجه الخصوص بالنظام التركيبي للأشياء ، ولو تتبعنا لوحاته لوجدناها ذات امتدادات الى القرن السابع عشر ، بل الى أنماط من الرسوم أبعد من ذلك بألف سنة تقريبا .. موجودة على جدران Boscoreale و Herculaneum في

غير معروف لها صاحب .. ونستطيع أن نخرج من أمثال هذا النوع من الدراسة إلى رصد العصر الزمني لمثل هذه الأعمال بالتقريب .

ومع ذلك لا يمكن الاعتماد على دراسة هذه التراجم وحدها .. لأنها فضلا عن كونها تربطنا بالمعروفين من الفنانين دون غيرهم ، فانها تشدنا الى الفترة الأحدث دون الأقدم بسبب سهولة الحصول على معلومات عن الفنانين الحديثين .

ثم ان هذا الرد يتجاهل تماما الأعمال الفنية الثائرة التي تتسم بالخروج على القديم ، واليحيث عن أساليب جديدة ومضامين عصرية مبدعة .. نعم ان سلسلة التطور الفني لهذه الأعمال لا يمكن عزلها عن سابقاتها أو قطعها عنها ، لكن هناك علامات على طريق هذا التطور تكون من البروز بدرجة لا يمكن التغاضي عنها .. مثل الأعمال الرائدة لمايكل أنجلو قديما والأعمال المتحدية لشعرية التقاليد عند بيكاسو حديثا .. وهنا يحق لنا أن نقول ان مقياس الخلود في مثل هذه الأعمال الثائرة يرتبط باستمرار مدارسها الفنية التي سارت على نهجها ، واستطاعت أن تمتص كل اتجاه تآثر نبت في مجتمعات أخرى .. فاستتب ذلك وجود فنانين مكررين له ، حتى لو

فإذا ما عرفنا أن الانسان الفنان هو مكن الصورة ، الذي يمكنه أن يعبر عنها بصنعة الفنية .. وذلك بأن يصيها في الشكل أو الهيولى التي يجيد التأثير بها .. أصبح واجبا علينا الا نرجح قيمة أحد العنصرين على الآخر ، أو نفصل بينهما عند تقييم شيء فني .. وصار أوجب علينا أن نقيم وزنا للاعتبارات الحضارية التي تشترطها أذواق الجموع في كل حقبة .. من حيث نوعية القيسم في المضمون ، ومن حيث مقاييس الاجادة في التأثير من ناحية الشكل .

اعتراضات :

هنا يثور اعتراض خلود الأعمال الفنية الكبيرة ، وتذوق الأجيال لها في مختلف مجتمعاتها .. وفي الحق أن لا محل لهذا الاعتراض اذا ما تذكرنا أن درجة اجادة التطابق بين القيمة المتضمنة وبين الشكل الذي اتخذتها في توصيله للناس .. هي التي تكسبه ميزة الاستمرار بين الأجيال .. خصوصا اذا ما كالت مثل هذا الشيء الفني شتملا على ديناميكية تسمو على مجرد المتعة أو التلذذ ، وتلاصق شراوة الأبدية في نفس الانسان .. أي إنسانيته .

لكن اعتراضا آخر يثور على اعتراض خلود هذه الأعمال الفنية .. فانا ونحن في عصر العلم وازدهاره .. تلح حاجة قياس سرعة التغير التاريخي التي طرأت على شيء فني ما .. لنعرف مدى العمر الزمني لمصموده أمام تطور الأجيال وتقديسها ، وما هي الأعمال الفنية الأكثر خلودا تبعا لسرعة تغير المجتمعات التي أنتجت فيها .. ولما كان قياس هذه السرعة من الاستحالة بكان حتى الآن .. فان عنصر الخلود في الشيء الفني يظل متراجعا بين حتمية التغير التاريخي ، وبين العجز عن قياس سرعة هذا التغير .. فلو قلنا ان أبا الهول أخذ من الأكروبول مثلا .. لاقتضانا الأمر لتدعيم هذا القول أن تضع بجانب الفترة الزمنية لكل منهما حركات التغير الاجتماعي التي مرت بهما ، وسرعة كل منهما مع صمود كل من أي الهول والأكروبول بجلايهما الفني أمامها .. لاقتناع كل حركة تغير بهذا الجلال . لكن دقائق هذه السرعات لا يمكن رصدها في الماضي .. ومن ثم نطلق صفة الخلود على مثل هذه الاشياء تجاوزا .

ان هذا الاعتراض يبرز واضحا في المخلفات الفنية للجماعات البدائية التي يصعب على الباحثين

توصل الى وحدة لفئة لفلسفة الفن نابعة منهم
مثلما تتناغم لغات الفنون في موادها الوسيطة
لتشكل وحدة مؤثرة في حقبة من الحقبات ؟؟

حل نتخذ من الجمال فككرة أو حقيقة كلية
عند هيجل أساسا لهذه الوحدة الفلسفية في
فلسفة الفن ؟ أم نضم إليها المطلق ذاته المتأمل
في ذاته - على حد قوله - للوصول الى الحق ،
ومن ثم نجعل لقيمة الفن مفهوما أخلاقيا يمكن
من نسو المجتمع في الروح الكلية ، ويصبح
الانسان أخلاقيا بالأذعان الإرادي للمطالب التي
تراها الجماعة ضرورية ليجاد طراز اعل في حياة
الروح ؟

لكن النفاية للفن هي تقديم الحياة في صورة
حقائق لا المواجهة في تفسيرها بوصفها حقائق أو
في توجيهها بوصفها قيمة .. فهي غاية عظمى
الاهمية وفقا لمقتضياتها لأنها تكشف جانباً
حقيقياً وضرورياً في الحياة .. لا نركز به الى
عزلة المطلق أو المثال عن الحياة التي لا يرضاها
منطق الحياة أو يقلبها الأحياء .. فضلاً عن رفض
الادراك العلمي للأشياء لمثل هذه المطلقات أو
المثل .

قد يرى آخرون أن اللجوء الى الادراك العلمي
في فلسفة الفن تسعنا .. باعتبار أن الواقع الذي
يبخه العلم هو ذات وقوى لها خصائص مكانية
وزمانية قد قامت بتحديدتها تصورات طبيعية
رياضية ، ومن ثم ليس هذا هو الواقع الذي
يتضمنه الفن ، لكن واقع العلم ليس هكذا
دائماً .. إنه موضوعات لها صفات كثيرة من
حيث الكيف ، ومحددة تحديدا كاملاً ، وتبلغ
أهمية عظيمة فصادفها في التجربة العادية .. ألا
وهي الأحداث المكونة للنظام الواحد والشامل
للوواقع .. الذي يرجع إليه كل من الفن والعلم
على السواء .. ومن ثم نسميها أحداثاً أو وقائع
تمهد للحقائق والقيم التي تتلام معها وتكملها .

ويدفعنا التسحلت عن الفن والعلم الى كلمات
بيلينسكي في تعريفه لفن الشعر خاصة والفن
بوجه عام فيقول « ان القانون الأول في الإبداع
يقسوم على أن هذا الإبداع مطابق لغاية بدون
غاية ، وأنه واع بدون وعي طارحاً جميع النظريات
والمذاهب ، ما عدا تلك التي يحتويها في داخله،
والتي استنتجتها قوانين الفكر الانساني وتجاوب
المعصوم على الآثار الفنية ، وبالتالي ليس العلم
هو الذي ولد الفن ، ولكن الفن ولد علماً خاصاً
هو علم الجمال . فالفن على هذا النحو ، حق
وجمال عندما يظل مخلصاً لنفسه لا للعلم ، وإذا

أحدثوا فيه تعديلات أو تطويرات فتنزل في حدود
الطار العام لهذا الاتجاه التأثير بشكله ومضمونه
على السواء .

ولنا في الثورة الفرنسية وما فجرته من طاقات
فنية في مجتمعات أوروبا كلها لأعظم الأمثلة على
ذلك .. نجسد أن مونتسانت مثلاً قد اتخذ من
رواية بومارشيه - وهو أحد زعماء الثورة
الروحيين - المعروفة باسم « زواج فيجارو » نصاً
لأوبرا من أوبراته . كذلك وجدنا بيتهوفن
الالماني يتأثر بأوبرا الموسيقى الايطالي لويجي
كروبيرن الذي عاصر نابليون وعاش في فرنسا ..
تأثر في أوبراه « فيديليو » بأوبرا « اليومان » ، اذ
نשמع بسوررات فرح غريبة تربط بين الاثنتين
كنتيجة للتحرر من الخوف ، بل وجدنا أن صفاء
هذه الموسيقى الأخاذ ينطبع على لوحات فنان
تشكيليين فرنسي آخر هو أنجر فتسودها هذه
النغمة نفسها .

وهكذا تتكرر الاعمال مؤكدة صمود العمل
الفني الخلاق أمام التغيرات الاجتماعية التي تطرا
عليه .. حتى ولو تغيرت أنماطه .. ذلك لأن كل
فن يستخدم مادة وسيطة قد تم تشكيلها وفهمها
بالفعل بوصفها لغة .. فتتزع هذه اللغات الفنية
الى تكوين وحدة قد لا تترك مجالاً للتجديد أو
التفرد ، وما نحن نكاد نسمع كاندنيسكي وهو
يروى ذكرياته عن الاثر العميق لبرماتلث عليه
بقوله « اللوحات ديمومة ينبغي التناقد فيها
واكتشافها اكتشافاً دقيقاً ، ولهذا فهي تضم
عنصراً يبدو متعارضاً مع الرسم - ألا وهو
الزمن - فهو يستخدم الضوء القاتم ويقدم
أسطعاً ثانوية مع طريقة خاصة في رسم الألوان
.. لذلك فقد سيطرت على دائماً مشكلة جعل
المشاهدين يمشون داخل اللوحات » .

قيم المصامين :

لندع هذه التفاصيل التقنية والاماليب
المتعددة .. لأنها قد تنحرف بنا الى دهاليز
الشكل التي لا آخر لها ، فنقع فيها مقتصرين
عليها ، وننسى الشق الآخر من العمل الفني ..
ألا وهو القيم التي يتضمنها .. ولما كانت هذه
القيم هي التي تنبع من الانسان وتنتشر اليه
أيضاً .. أي أنه هو مبدعها لتخدمه في كل نمط
من أنماط حياته .. فإن فلاسفة الفن الذين عتوا
بهذا الاتجاه الحق هم قبلتنا في تعرف شروحهم
وتحسني دقائق الخلاف والاتفاق بينهم .. فهل



ارسطو

الوضع الطبيعي يجب أن يكون لا إعباء ، باعتبار أن دوره هو التعبير الموضوعي عن الحياة .

لكن أية حياة ؟ انها البيئة المحيطة بالفنان ، وهي خاصته النفسية التي تتركس العصر ولا تفسره . . . ذلك لأن تفسير المادية لنفسية مجتمع ما أو طبقة من الطبقات يستند إلى البيان الاجتماعي الذي يخلقه التوسع الاقتصادي . . . ومعنى هذا في نظر بليخانوف أن التأثير الاقتصادي على الفنان لا يتم بصورة مباشرة . . بل يحدث على مراحل مرتبة .



ف . هيجل

ما أخلص للعلم ، فإنه يخلص لذلك العلم الذي خلقه بنفسه . وأنه حقيقي أن العلم حاول دوماً أن يخضع للفن . ترى ماذا كانت النتيجة ؟ موت الفن ، كما يشهد على ذلك الأدب الفرنسي الكلاسيكي .

لكن بيلينسكي وهو يخلص الفن من رتبة العلم الطبيعي والرياضي ، ويمنحه حرية هي أقرب إلى وجهة النظر الرومانسية . . . يفترض - في الوقت نفسه - نظاماً على الفن أن يلتزمه . . . هو شعاره الشهير « لا واع مع الوعي » . . . والوعي هنا هو إدراك الفنان للعالم الذي فرضه عليه عصره . . . بمعنى أن الفن المعاصر لا يمكن أن يفرض بصورة واعية خدمة المجتمع والأنسان ، والفنان هنا لا يستوحى موضوعه من شيء ممل عليه ، وإنما من وظيفته الاجتماعية التي اختارها لنفسه .

بل إن بيلينسكي تهادى في تحديد هذا النظام فصاغه في خمسة قوانين هي :

١ - الفن حقيقة في قالب تامل ، ومنتجاته أفكار مجسدة أصبحت قابلة لأن تلمس ، فالفن والفلسفة لهما بالتالي مضمون واحد هو الحقيقة المطلقة .

٢ - ليس الجمال سوى شرط ضروري لكل تعبير مادي للفكرة . . . والبساطة هي جمال الحقيقة .

٣ - الأثر الفني هو التعبير العفوي عن فكرة مشخصة في شكل مشخص .

٤ - الأثر الفني هو الانتقال مما هو مضمون إلى ما هو واقع .

٥ - لا فن بدون وحدة في الفكرة ووحدة في الشكل ووحدة بين هاتين الوحدتين .

ويبدو تأثير هيجل واضحاً - وعلى وجه الخصوص - في القانونين الأول والثاني . لكن الحرية التي نشدها بيلينسكي للفن ما لبث أن وضع لها هذه القوانين التي كبستها . . . لدرجة أن مفكراً ملتزماً مثل بليخانوف لا يرضى للفن أن يضع لنفسه مجرد غاية حتى لا يفرض عبودية عليه . . . لذلك فهو في تحليله لأفكار بيلينسكي يدين عبودية الفن ، ولا يترشح إلى رؤية فن موجه خاضع للتأثير السياسي . نعم يعترف بليخانوف بالطابع الطبقي للفن ، ولكنه كماركسي . . يقصد طبقة البروليتاريا ، ويعتبر أن الفن في هذا

اولها ٠٠ حالة القوى المنتجة .

ثانيها ٠٠ العلاقة الاقتصادية المقيدة بهذه القوى .

ثالثها ٠٠ النظام الاجتماعي والسياسي القائم على قاعدة اقتصادية معينة .

رابعها ٠٠ الحياة النفسية للإنسان الاجتماعي التي يتحكم فيها الاقتصاد مباشرة من جانب ، والنظام الاجتماعي والسياسي القائم على الاقتصاد من جانب آخر .

خامسها ٠٠ مجموعة العقائد المختلفة التي تعكس هذه الحياة النفسية .

لكن هل تشبع هذه المراحل ظاهرة الابداع الفني وتغطيها من جوانبها كافة ؟

اننا نطرح جانبا فكرة التحليل النفسي وتفسير الفن تفسيراً نفسياً ٠٠ ذلك لأن فرويد جعله الأساس الأرواح للتفنن ، وبهذا المبدأ أيضاً لا نستطيع أن نقبل اقامة هذا التفسير على أساس التأثير الاقتصادي وحده ٠٠ لأننا كما سلمنا منذ البدء بأن آفاق الفن أرحب من أن تتوقع في آقبيه النفس أو أن تصير سلعة في سوق الاقتصاد ٠٠ فأننا نسلم أيضاً بأن السمة الفسائية على مجتمع من المجتمعات ليست بثابتة وتخضع لتطوراتها عبر القرون ٠٠ لذا قد تكون سمة الدين هي الغالبة كما قد تكون التقاليد أو الروح العسكرية أو الاقتصاد والعلوم غالبية في مرحلة تاريخية أخرى .

معنى هذا أن عوامل اجتماعية متداخلة تتفاعل معاً في تشكيل هذه المجتمعات ، وتشكل قوالب التفكير والابداع خلال الحركة الدائرية لهذه المجتمعات نحو التقدم ٠٠ حيث تبرز واحدة من الظواهر المكونة للمجتمع لتكسب قوالب تفكيره وإبداعه طابعها .

ومن ثم فإننا إن قبلنا تفسير بليخانوف للفن ، نقبله على أساس مرحلي يتحكم على مجتمع ما الموروث به ٠٠ ذلك لأن عملية الابداع وحيوية المجتمعات أقوى من أن تقف أو تجسد عند مرحلة من المراحل ٠٠ بل نستطيع القول بأن الفن هو المعبر عن هذه الحيوية لمجتمعاتنا ، وهو بالتالي الرابط بين مراحل تطوره ٠٠ هو كما يقول هيربرت ويد وسيلة للاتصال ٠٠ اتصال القيم الاجتماعية بين الإنسان ومجتمعه ، وبين المجتمع ومجتمعات أخرى ، ومن ثم يصبح هو المقياس لحركة التاريخ .

لكن حيوية المجتمعات لا يجب أن توحى لنا بحيوية جمالية مثل تلك التي قال بها سيناي وبرجسون ، وجعلها متوفرة في العمل الفني لا شيء إلا استرضاء انزعة العاطفية . فالمقصود بالحيوية هنا الظروف الجماعية للحياة ٠٠ لأنها هي كما يعرفها لالو « التي تحدد من بين الملكات والتفضيلات أو الاستعدادات الفردية ، تلك التي ستكون جمالية ، وتلك التي لن تكون كذلك ، وتطبع في الأشخاص المختلفين أشد الاختلاف اتجاهها شمساً كما يسود في الواقع اختلافات أمزجتهم ، وتقرر ما إذا كان يمكن الإفادة منها في هذا الميدان أو ذلك ، وما إذا كان سيكون لها هذه القيمة أو تلك » .

ومن هنا نلصق أن الظروف الجماعية تخلق الأساس بالرضا الجماعي المزود بالجزاء ، والاحساس بالتطور التاريخي أو الاجتماعي من خلال العمل الفني .

ومع ذلك لا يجب أن نتمادى مع لالو في نظرية النظرية لتجديد الحيوية الجماعية ، فلا نعترف معه بالانزعة العقلية أو الحسية أو العاطفية ، أملاً في علم جمال تجريبي ٠٠ ذلك لأن الجماعية ليس معناها اللانسانية ، بل هي الانسان في مجتمعه وفي تذوقه للجمال بكل وسائل ادراكه . اننا قد نجح في تناول هاووز الهادي لفلسفة تاريخ الفن باعتدالاً يتيح لنا فرصة الأداة العلمية للتأمل في الزام المجتمع لشتى بنياته ، وفي التزام الفن بمعايير مجتمعه ، الأمر الذي يمنع مبدئه قدراً أكثر من التميز على من عداه من فلاسفة الفن ٠٠ فها هو يقرر ٠٠ « محال علينا أن ننبذ وجهة النظر الاجتماعية في الفن إلا حين تزعم بأنها وجهة النظر المشروعة الوحيدة أو نخلط بين المفرد الاجتماعي للأثر الفني وقيمه الجمالية » .

فمنهج النظرة الاجتماعية - كأي منهج علمي - عماده التحليل والتبسيط ، وذلك على عكس الفن الذي يتطلب النظر إلى موضوعه ككل في تمامه ٠٠ فهو تركيبي لا يقبل التجزئة ، ولو حاول الانسان تفقيت موسيقى أو لوحة تشكيلية لدراسة ابداعها الفني ٠٠ لفقدت كل منهما تناغمها واتساق دقاتها ، ولتحول كل منهما إلى مسخ مثير للسخف لا للدهشة أو الانبهار ٠٠ فضلاً عما يستتبع اختلاف طبيعة كل من الباحثين من اختلاف اللغة التي يستخدمها كل منهما ، واختلاف مفاهيم نظرية الصديق بينهما . الأمر الذي يعود بنا إلى التباعد بين حقيقة معنى الفن وطبيعة الاجتماع .



د. كاتكا

فما الحل إذن ؟

هل نلقى بالفن بين تهويمات الفلسفة أم بين موضوعيات العلم ؟ أم ترى يتمكننا اليأس منها فما نفلخصه من كل ما علق به أقوال .. فنرفض تعريفاته الفردية والاجتماعية على السواء ؟

ليس الفن تظهرا أو لعبا ، وليس بعدا نفسيا أو استسلاما ذاتيا وسلبية ، وليس معرفة بغير ارادة أو تأملا أو تشكلا ، وليس لذة أو عاطفة هادئة ، كما أنه ليس أخلاقيا ولا اجتماعيا ولا اترا اقتصاديا .. ليس الفن كله أو بعضه ..
فما هو إذن ؟ لا نريد أن يدفنا اليأس الى تأييد **شوبنهاور** .. فنعتبر أن الموسيقى هي المشاكل التي يجب أن تحتذيه سائر أنواع الفنون .. باعتبارها بلغت حدا من التجريد جعلها تعبيرا موجدا لدى سائر الأفراد .. وبذلك وصل للفنان الموسيقى الى مستوى التوحد بينه وبين غيره .

صحيح أن الموسيقى بلغت قدرا من التعبير المجرد يقر بها من الرياضيات .. وهي في ترتيب العلوم قمتها ، لكن نشدان هذا التجرد الكامل لا يمكن تحقيقه كاملا في الموسيقى .. فهي عمل فني قبل كل شيء .. الأمر الذي يضطر فنانها الى اختيار وسيلة تعبيره اللامتناهية في حدود أصوات لحنية متناسقة تطرق الأسماع ، أي أن الموسيقى تتخذ لها شكلا مناسبيا يسبب للانسان ارتياحا أو اقتناعا من نوع خاص .. وهنا تخضع كعمل فني مجسم لذوق الإنسان .. قد يقبلها كما قد يرفضها ، ويبدو هذا واضحا في لوحات الفن ذات الاتجاه التجريدي .. انها قد تتضمن أملا

في عالم جديد لم يمكن تحقيقه ولا ما بعد الآن .. ولكن الألوان التي تقع العين عليها مفروض فيها أنها تخاطب مشاعر لأمنة في المشاهد قد عبر عنها الفنان بفرشاته .. الأمر الذي يكفي لشجب مفهوم التجرد .. لأن لحظات تذوقنا تبدو مرتبطة ارتباطا مباشرا بشئون الحياة ومهامها ، وتسوقنا الى قلب هذه الشئون .. سواء أكان تذوقنا لشيء مجرد أو على الأقل مظنون فيه التجرد أم لا ، وسواء أكان متضمنا لقيمة جمالية أم لا .

من كل هذا نلمس مدى حيرتنا مع الفن بين التجريد والوعي والاختيار ، وبين وحدة اسعير وتعدد المشاعر ، وبين وبين .. مع أن وحاج اسعير اوضح وأبسط من كل هذه التفسيرات !! انها رحاب يتلفى فيها الجميع راحة واطمئنانا لا حرة واضطرابا في المفاهيم .

فكل عمل فني يتضمن ثلاثة أنواع من القيم .. قيم وظيفية وأخرى صورية ولثنية تصويرية .

وظيفية .. بمعنى الاحاطة بالطابع الفعلي لأي شيء متميز مع العناية الشديدة بالصلات التي تربط هذا الشيء بغيره من الأشياء وبأنفسنا أيضا .

صورية .. بمعنى صدورها عن المادة الوسيطة في العمل الفني مثل الكلمات أو الأحداث أو الحجر أو اللون ، وعن صفات هذه المادة من قوام وثبات وتأثير حسي عنيف تجعل الفنان ينصاع لها مضحيا باستبصاراته هو .

وتصويرية .. بمعنى قدرة الفنان على ادراك ما في العالم من شيء متميز وإبرازه من خلال تجربته الفنية كما لو كان اكتشافا جديدا يقدمه للجماهير ، ومن ثم تتفاوت القدرة بين الفنانين من حيث التشبيه والتعبير في إبراز هذا النوع من القيم .

لذلك فإن الصور المتنوعة في عالم الفن تتزايد بفعل حقيقة امتزاج القيم الفنية في نسب متنوعة تنوع لا نهائيا ، ومن زاوية أخرى فإن عالم الفن تتفاوت صوره من حيث وضوح الاستبصارات التي تقدمها ودرجة تجردها من الواقع أو تمسكها به لاعادتنا الى الأشياء المألوفة ، كذلك تتفاوت الصور الفنية من حيث درجة الخصائص الحسية والقوام الصوري التي يحتويها مظهرها المجسمة فيه استبصاراتها .. فثثير فينا مشاعر السرور والارتياح .. كل هذه غايات يستهدفها الفن الصادق ، فهل نقضي بالتزام تحقيقها على هذه الحيرة الفلسفية المعرة ؟ لعل ..

جمال بدران

سُقُوطُ الفلسفة التشاؤمية

بسمير كرم

• « إننا الآن في الساعة
الخامسة والعشرين ، هي ليست
الساعة الأخيرة ، ولكن الساعة
الواحدة بعد الأخيرة ، والحضارة
الغربية الآن صارت في هذه
الاحتلة ، وهذه هي لحظةها » .



ينطلق تاريخ الإنسان الآن بصرته مذهلة . فلهذا استغرق الإنسان عشرات من القرون لا تتصل لكى ينتقل من العصر الحجري الى عصر استخدام الفاس الحديدية . ثم استغرق قرونا عديدة أخرى قبل أن يصنع أول آلة يدوية . ولكن مائتي عام فقط أو أقل تفصل بين ثورة الإنسان الصناعية الأولى وثورته الحالية ، الثورة العلمية التكنولوجية .

وفي هذا العصر المتفكك على أفاق لا أرحب منهيا من التقدم العلمى والثورة الاجتماعية والتفكر السياسى الشامل للإنسان تبرز ظاهرة غريبة كنظمة نشاز ولكنها عالية الرنين تدق اسباع الإنسان باصوات كثيفة كأنها اصوات أشباح مخيفة لا تعرف من قاعوس اللغة ومن معاني الفكر إلا اللغات والموت والضيق والعلم ..

والضرورة تلهم ارادة الحياة • 1

ويلتقف هارتمان الخيط من حيث انتهى شوينهاور ويفترض على مايسميه باقراسات التسلاث : مكان تحقيق السعادة على الأرض ، التقدم الاجتماعى ، السعادة فى الحياة الأخرى . ويقول أن تطور الألا وعى فى أساس السالم سوف يبلغ ذروته بعمار العالم ، وإن الهدف النهائي لتطور العالم هو التخلص من الألم الذى يرتبط ارتباطا ضروريا بالوجود .

وأما نيتشه فقد أعطى لنزغته



لقد ساد الوجدان المتشائم اركان النظام الرأسمالى فى الجهات التى لا يزال يعيش فيها رغم قوتها ماداية وجبروتها الآلى والآله الحربية الرهيبة .. ويسود الوجدان المتشائم ايدىولوجية هذا النظام بكل ابعادها ومظاهرها فى الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة . وفى مسان هذه الايدىولوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق فى عالم الغرب أفكار عن لا مقبولة الحياة وغيب الوجود ، واصبح المكرون المتشاكرون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر يؤمن بالتفوق الانسانى والتقدم الاجتماعى بصفة خاصة .

ولذلك صار للفلسفة وحلونها مثل شوينهاور هارتمان وينتشره مناهل فكرته للمبتغين المتهايرين فى الغرب نجده ان هؤلاء الفلاسفة كانوا « شرارة فلسفة التساؤل التى تيقض الإنسانية » « شوينهاور فى كتابه « العالم ارادة ولكر » - كما فى كتابه الأخرى - قد رفض جميع أشكال المذهب العقل والتقاليد ، وأعلن أن كل الآمال فى تحقيق أشياء أفضل آمال خادعة ونائى بظفرة أن « الحق

والعشرين .. هي ليست الساعة الأخيرة ، ولكنها الساعة الواحدة بعد الأخيرة . واخضاة الغربية الآن صارت فى هذه اللحظة . وهذه هي لحظةنا .

(جورجيو ، فيرجيل : الساعة الخامسة والعشرين - نيويورك ١٩٥٠ - ص ٤٩) .

وهكذا يسود المفهوم التساؤلى للعالم والحياة والتاريخ - باعتبارها كلها سلسلة من الأحداث التراجمية المؤلفات الفلسفية والاجتماعية فى الغرب . والمؤكد أن جذور الفلسفة

ن . بردىليف

التشاؤمية متغلغلة حتى فى الدم الفلسفات التى تقلل الى أدنى مستوى قيمة الوجود الفنىوى (النصى) وتصفه بأنه هباء وتصف الموت بأنه التخلص من عذابات الأرض ، وتنبئ عن الحقيقة فى حياة أخرى مفارقة متعالية فوق احس وفوق الطبيعة .

التشاؤمية اقصي حد من العدوانية والبغض للبشرية ، فكانت فلسفتها دلائل عن القمع الوحشى للوقى الثورية وعن استخدام العنف ضد الجماهير ..

سباق نحو الموت

وفى الوقت الحاضر - ربما أكثر من أى وقت مضى - تنهمر على العالم مشات يل آلاف من المؤلفات والكتب والمقالات كلها تصور « سباق العالم الانسانى نحو الموت » وتصور العالم على انه « يسبح فى جنازة الانسان » . فنجد « عالم » اجتماع أمريكى يقول : « اننا الآن فى الساعة الخامسة

فلسفة النظام المتساقط

وتكشف المعالجة الموضوعية لهذا الجانب من النظر الفلسفى عن أن التساؤل وتمهيد الموت مفهوم يسود - كقناعة عامة - فى الأوقات التى يركز النظام الاقتصاى والاجتماعى فى مرحلة الانحدار امام نظام اجتماعى

آخر أكثر تنظيماً وأكثر تفهماً من الناحية التاريخية . فإن النظام النهار ينظر إلى انبعاثه على أنه انبعاث للجمعية كنه وللحضارة كلها .

فسقوط النظام العبودي القديم أدى إلى ظهور نزعة تشاؤمية بالغة العمق في إيديولوجية المجتمع العيسوي . فاعتقد مفكر العصر أن العالم قد فقد بريقه ومعناه العالي ، وفقد حتى حق الوجود . وهذا ما يعبر عنه الفيلسوف الروافي الامبراطور ماركوس اوديليوس في قوله « البشرية كلها دخان . البشرية كلها لا شيء » .

ويتكرر نفس الشيء للإيديولوجية الاقطاعية في مرحلة انهيار النظام الاقطاعي . فمع اقتراب الانقراض من نهايته التاريخية نجد مفكره يطلقون التنبؤات المتشائمة عن مستقبل الانسان . ويصلون الأرض بأنها مسكن مؤقت على الطريق نحو عالم آخر مبارك . ويحذرون من الحساب الأخير . ومع ذلك فإن إيمانهم بهذا المصير وبالحساب الأخير أيضاً لم يكن يمنع الطبقة الاقطاعية الحاكمة من التمتع إلى أقصى درجة بهذه الحياة والانغماس في أحسن الملذات ، وكان الشعار الذي ساد وقتئذ « نحن .. وبعدها الطوفان » ، تردده طبقة الملكية الفرنسية داخل البلاط قبل وقت قصير من انهيار الثورة الفرنسية !

لقد كان الانقراض وقتئذ يفسر كل خطر يتعرض له بأنه خطر قاتل يهدد الحضارة كلها . ولذلك سادت في تلك الحقبة « فلسفة الخسر » والكآب . فوجدت لافلسفة الملكية الفرنسية - أمثال جوزيف ماري دي ميسستر ولويس جابريل امبرواز دي بونال - يعسفون الانتقال من العلاقات الاجتماعية الاقطاعية إلى العلاقات الاجتماعية البورجوازية بأنه خطر مميت على الحضارة وعلى استمرار وجود الجنس البشري !

وفي الوقت نفسه كان المفكرون الميرون من النظام الجديد يعنون لآلآكار متنافسة لهذا تماماً عن « التقدم »

وعن « الرخاء الأبدي » مع صعود التنظيم الراسمالي . فتجد الفكر الفرنسي جان انطوان كوندروسيه يكتب مقالاً ليثبت أنه لا حدود لمقبرة الانسان اخلاقية يقول فيه « ان ملكه التحسين لدى الانسان لا حدود لها حقاً . ومن ثم فإن تقدم هذه الملكة مستقل تماماً عن أية قوة قد ترغب في وقفها .

الوجوديون .. اخلص المتشائمين

وفي العصر الحاضر فإن الوجودية هي اخلص من « طور » الفلسفة التشاؤمية . وبلغ بها أقصى آمادها لافرق في هذا بين الوجوديين الإيمانيين والإلحاديين .. حيث لا سبيل إلى القول بأن فكرة « الخطيئة » المسيحية هي وحدها مصدر النزعة التشاؤمية لدى الوجوديين ..

كارل ياسبرز يقول بأن الانسان يواجه أربعة « مواقف أساسية » في العالم لا يستطيع أن يفترها أو أن يتجاوزها : « الموت » - « الألم » - « الصراع » - « الالم » . الموت عنده هو الذي يسم كل مايلمه بشايع التسيبة ، ومن ثم فإنه لابد لنا أن ننقله باعتباره الغاية القصوى لكل وجود تجريبي ، أو باعتبار أن حياتنا الزمانية لا يمكن أن تنوم إلى ما لانهاية . إن ادراكى حقيقة وجودى قد يكون الكليل باعهادى على أن حياتى مزيج من السعادة والشقاء وأنه لابد من أن نتراجع بين هذين القطبين . « فانا أحياناً دائماً فى شبه توتر بين الإرادة التى يقضها اميل إلى تقليل الألم » وذلك الضعف الذى يقضها لا أقوى على تقبله بخلص تام » .

جابريل مارسيل الوجودى المسيحي يقول : « اننى مقتنع بأننا نتقرب من نهاية التاريخ . فمن المحتمل تماماً أن كثيرين منا سوف يشهدون النهاية التى آتى الوحي بها » (مارسيل : الناس ضد الانسانية ص ١٦١) .

ويقول أيضاً « إن كُؤن حياتى

يعكن أن تظهر حياة بلا معنى هو جزء لا يتجزأ من بنائها ... فى عالم فقد الوجود الانسانى فيه وزنه الانطولوجى . (مارسيل : العالم المكسور - ص ١٤٤) .

مارتن هايدجر الفيلسوف الالحادى الوجودى ، لا يختلف الأمر عنده ، فهو يشعها صريحة قاطعة . تاريخ الوجود يبدأ بسقوط الوجود . « ان وجودنا فى صميمه متناه ، وهذا التناهى نفسه قد يكون أقرب إلينا من صميم ذواتنا ، وليس للتناهى من معنى سوى الفناء أو « قابلية الموت » . الانسان هو الوجود الوحيد الذى يدخل الموت فى صميم وجوده باعتباره أعلى ما لديه من امكانيات . فهذا الحد الأليم - حد الموت أو الفناء أو التناهى - هو الذى يعدد الوجود الانسانى ويميزه ، يعبره قد يكون من الممكن أن نقول بأن الوجود البشرى بطبيعته وجود للموت أو وجود « من أجل الموت » . نحن مجبولون للموت .. هذه واقعة جوهريية .. وربما كانت الحكمة أن يتقبل الانسان الواقع كما هو ، فيأخذ على عاتقه حياته الغالية ، ويبتذل للموت باعتباره أعلى امكانياتى وجود الالحادى . ان الوجود لا يبرز إلا من قراءة العلم ، كما أنه لابد أن يهوى إلى هوة العلم ، (نقل : الدكتور زكريا ابراهيم - المرجع السابق - ص ٩٥ - ١٠٤)

نيسكولاى بردياييف الفيلسوف الوجودى الروسى المهاجر ، ينقلنا إلى بعد آخر فى فلسفة التشاؤم . إن الموت والفناء عنده ليس قدراً ميتافيزيقياً كما هو عند ياسبرز وهايدجر مثلاً ، ولكنه موت وفناء « تصفنه التكنولوجيا » ! « ان أعظم خطر هو أن التكنولوجيا تهدد الانسان نفسه . ان قلب الانسان يشعمر ازاء برودة المعادن . لقد صالح الانسان مجتمعا منظما وهو يستخدم الآلات على نطاق واسع لتحقيق سيطرة كاملة على الطبيعة ، ولكن نظراً لجموعة رهيبة من الظروف يصبح الانسان عبداً أكثر وأكثر لما قام هو نفسه بخلقها .. ان رؤى مخيفه تراودنى : فسباتى وقت ستكون الآلات فيه من الكمال إلى حد

نهاية الطبقة .. أو نهاية الحضارة

يعترف توينبي هنا بأن الأمراض الغائلة للنظام البورجوازي هي مصدر الزعزعة التشاؤمية ومصدر الرعب الذي يعانيه المدافعون عن العالم القديم . ولكن من الواضح أنه يرى أن نهاية الطبقة الوسطى الغربية تحصل في طياتها نهاية الحضارة كلها .. لا يختلف في نظريته هذه عن نظرة الفيلسوف التشاؤمي الروماني في نهاية العصر العبودي ، أو الفيلسوف التشاؤمي الفرنسي قبل الثورة الفرنسية فسد الأقطاع .

وقد وجد الفلاسفة وأصحاب النظريات الاجتماعية التشاؤمية حجة أساسية لهم في القول بعنتية وقوع الحرب الدورية ، فالكتب تملأ العالم الغربي بالتنبؤات والأوصاف من «الجنون الذي أصاب البشرية» والذي سيتنتهى بها إلى حرب كلية شاملة تدمر كل شيء . ويركز هؤلاء كل جهدهم على إلغاء اللوم - في التشاؤم المسيطر عليهم - على «الطبيعة البشرية» أو مايسمونه أحياناً بالذائع الداخلي لدى

الإنسان لانهاء ذاته الناشء عن نزوعه الطبيعي للحرب ، ومن «الاختلاف التراجيدي بين مستوى تطوره العقلي ومستوى تطوره الأخلاقي» . وهم يعتبرون هذه المفارقة «أصل البلاء» ومصدر المتناقضات المتطاحنة في حياة الإنسان . ويعضون في محاولة إضفاء الصيغة العلمية على نزوعهم التشاؤمية إلى حد وضع تفسير بيولوجي صارخ في تصفه لهذا التشاؤم . فيقولون أن هناك حداً مقدراً لقدرة الجسم البشري على التكيف مع التغيرات العادية التي تحدث في الوسط الخارجى الذى يعيش فيه ! وهم يقصدون بذلك استناد سرعة انقباض الحياة والظروف التكنولوجية القاسية والجهد العصبى والتلون الدرى للأجواء والبحار وحتى أنواع الطعام والعبادات القلقة في تناوله . ولاشك أن كل هذه الانماط السلوكية والعوامل الاجتماعية موجودة ومؤثرة في حياة الملايين من البشر

أضعف منها إلى حد أنه قد يستقطب عبداً لاختراعاته .

ويدرك بعض فلاسفة الغرب ومفكره - حتى التشاؤميين منهم - أن مصدر التشاؤمية يكمن في أعماق النظام الرأسمالى نفسه، ويمكن أن نجد مثلاً لهذا الإدراك عند المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي . « إن مستقبل الطبقة الوسطى الغربية موضع تساؤل الآن في جميع البلاد الغربية . ولكن النتيجة ليست مجرد القلق على قسم ضئيل من الجنس البشرى يتأثر تأثراً مباشراً » لأن هذه الطبقة الوسطى الغربية - هذه

أنها ستمتل دون تدخل الإنسان تماماً وتكتسب في النهاية ملكية العالم . سوف تنتصر السيارات والطائرات على السرعة ، وستملأ أجهزة الراديو العالم بأصوات ممتة ، أما آخر الناس فسيصبحون كثيرين وعاجزين عن التنفس والعيش في هذه البيئة التكنولوجية ويموتون تاركين وراءهم عالمًا جديدًا من خلق عقولهم وأيديهم » .

(عن كتاب : ج . فولكوت : عصر الإنسان أو الإنسان الآلى ؟ موسكو - ١٩٦٧)



٢ . هيدجر

الأقلية الضئيلة - هي القصيرة التي اختار بها الكل في الأزمنة الحديثة والتي خلقت بذلك العالم الحديث . فهل يستطيع المخلوق أن يعيش بعد خالقه ؟ وإذا تحطمت الطبقة الوسطى الغربية ، فهل ينهار معها بنيان الإنسانية وهي تستقطب ؟ مهما كانت الإجابة على هذا السؤال المصيرى فمن الواضح أن ما هو أزمة لهذه الأقلية الرئيسية هو - بالغتم - أزمة أيضا لباقى العالم » .

(توينبي : الحضارة في التيزان ص ٣٠)

والسمة المشتركة بين فلسفات التشاؤم هي تجاهل الأبعاد الوضوعية « لثرود العالم » التي تحدثت هي نفسها عنها وتضلى عليها طابع الأشياء المطلقة ، فالتشائم القائم في العصور « موجد في الإنسان » ولكنهم في رأى هذه الفلسفات - ليس من صنع الإنسان . لقد تعلم إنسان القرن العشرين كثيراً في مجالات العلم والتكنولوجيا ولكن هذه المعرفة الواسعة في رأى الفلسفات التشاؤمية ، تخلق في وجهه مصاعب جديدة لا يستطيع أن يحلها . وفي زعمها أن الإنسان قد سلخ نفسه بقوى خارقة لصار هو

وصحتهم ، وهي في النهاية نثال من آمالهم في الحياة . وهي تضع أيدينا على حقيقة هامة هي أن الحقائق التي من شأنها أن تحقق الإنسان والحياء البشرية بالصفوف والمستخدمات النقة بالمستقبل عديدة . وهناك من يرجعها جميعا إلى «الألة» ويعتقد أن الألة قد انقلبت على صانعها - الإنسان - وأصبحت وحشا مدعرا يحاول أن يقف على عقل الإنسان وقلبه ويحيله إلى أداة طيعة . ولهذا تنتشر عناوين للكتب والمقالات والروايات مثل «عصر الإنسان الآلي» - «الإنسان تحت حكم الإنسان الآلي» - «تصور الإنسان اليكانيكي» ! ولهذا يعبر الكتاب الاجتماعيون واللاهوتيون الغربيون عن الرعب من عصر الألة . ويقول أميل برنر - وهو لاهوتي سويسري معروف في وصف عصر الألة .

«أن ملايين لاحصر لها من الناس تتجمع في مدن ضيقة خالية من الروح بروليتاريا بلا صلة بالطبيعة ، بدون جلود وطنية أو جيرة ، أنها تعنى حضارة الأسسكس والمقالب والمقاييس الوحيدة . أنها تعنى الرجال الذين خصلتهم الألة من التفكير والإرادة ، وتناولوا هم أنفسهم إلى خدمة الألة بإفئاع معد من قبل وبطريقة نمطية واحدة . أنها تعنى الضجيج والاندفاع غير المحتمل ، البطالة والاعدام الأمن في الحياة ، وتركيز النسوة الانتاجية والثروة والجساه في أيدي قليلة أو احتكارها بواسطة يروقراطية الدولة . (برنر : المسيحية والحضارة - بنويورك - المجلد ٢ - ص ١٠٠)

انكار التقدم الاجتماعي

على أن المصدر المباشر الذي ينبثق منه المفهوم التشاركي في التاريخ هو انكار التقدم الاجتماعي . فإن اتخاذ وجهة نظر تشاؤمية إزاء حياض الإنسانية ومستقبلها هو انكار لصعود المجتمع من الأدنى إلى الأعلى والأداء بان المجتمع ينزلق مع الزمن نحو الانقراض . على أنه ينبغي التنبيه إلى

أن انكار مقولة التقدم لم يكن جزءا من الفكر اليورجوازي الغربي عندما كانت اليورجوازية في اتجاه الصعود كنظام اجتماعي اقتصادي . وهذا مايعنيه الفكر الماركسي الفرنسي لافارج حين يقول : «أن فكرة التقدم والتطور كانت شائعة في أوائل القرن التاسع عشر عندما كانت اليورجوازية لاتزال في سكرة انتصارها السياسي ونمو ثروتها الاقتصادية إلى درجة مذهشة . فكان الفلاسفة والمؤرخون والأخلاقون والسياسيون والروائيون والشعراء يطمعون كساياتهم وخطهم يزخارف التطور المتطرد .. ولكن في منتصف القرن التاسع عشر اضطروا إلى الاعتدال في حماسهم غير المحدود . فان ظهور الطبقة العاملة على المسرح السياسي في بريطانيا قد أثار الشكوك بين اليورجوازية حول خلود سيطرتها الاجتماعية . لقد فقد التقدم بالنسبة لها قننته «الافارج : الحتمية الاقتصادية عند كارل ماركس .. باريس ص ١٦ و ١٧ .»

واليوم تشن اليورجوازية هجومها عنيفا على مفهوم التقدم ويهاجم (للفلاسفة الغربيون فكرة التطور الصاعد ويهاجمون منطق التاريخ وامكان المعرفة التاريخية من أساسها ، ولعلمهم كانوا يمتنون أن يستريحوا تماما من مفهوم التقدم يبرسوس كالذي اصدره بغير دوسيا نيقولا الأول بتحريم استخدام كلمة «التقدم» !

جنزبرج : «للم اكتشاف بعد اية قوانين جنزبرج : «للم اكتشاف بعد اية قوانين للتطور الاجتماعي ، وبالتالي للتقدم» وهو يؤكد أن مفهوم التقدم ينبغي أن يستعاض منه بمفهوم «التنقيح» الاجتماعي فالتنقيح الذي يكون للأعلى أو للأدنى ، ولايعبر عن الاتجاه النوعي ولايستلزم تقديرا صريحا ولا معيارا موضوعيا (جنزبرج : إعادة تقييم لفكرة التقدم لندن ص ٢٤٨) .

ويعان فلاسفة التشاؤم أن التقدم ليس مفهوما علميا وإنما هو تقييم

أخلاقي فحسب للوقائع يتميز بالذاتية التي تتميز بها كل التقييمات الأخلاقية . وحجتهم في ذلك أنه في المجالات الاجتماعية ليس هناك معيار واحد للتقدم وإن ما يعد من زاوية ما تقدم ما يعد من زاوية أخرى ارتدادا . ويقول عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر ريمون آرون « أن نظم الحكم السياسية المختلفة يمكن اعتبارها حلولاً مختلفة لمشكلة واحدة . والانتقال من حكم لآخر ليس انتقالا من شر إلى خير أو من أدنى إلى أعلى ، وإنما هو انتقال من حل لحل آخر ، كل منهما له مزاياه ومثالبه » (آرون : ١٨ درسا في المجتمع الصناعي . باريس - ١٩٦٢ - ص ٨٦) .

وهذا التدليل إنما يقوم على فردية ذاتية نسبية يمكن بها تبرير كل شيء كما يمكن بها استنكار كل شيء . لقد اخترع آرون معيارا خاصا به للتقدم هو يقول أنه « انتشار » هو فكرة يمكن التعبير عنها كليا . وهو لهذا لا ينكر التقدم في العلم وفي مجال القوى الإنتاجية وينكره فقط في المجال الاقتصادي . ولهذا أيضا يقول أن أكثر الاقتصاديات تقدما ليس بالضرورة أسسها ، وبشكل بالتحديد أنه لم يثبت أن ظروف عمل الإنسان تتحسن خطوة بخطوة مع تحسن الإنجاز بالنسبة لكل فرد من السكان . كما لم يثبت أن توزيع الخيرات المتاحة بين الناس يصبح أسهل بالفروقة مع أزيد الشروة الاجتماعية .

وتتخذ هذه التفرقة بين التقدم في المجال العلمي والتقدم في المجال الاجتماعي لتكتسب معنى أبعد عند ياسبرز الذي يشير إلى التقدم التكنيكي بقوله أنه في هذا المجال بالذات يمكن أن نعتبر أن التاريخ في صعود فظا « أما بالنسبة للبشرية من حيث هي بشريته ومن حيث أخلاقيات الإنسان ومن حيث عطفه وطفنته فانها لاتتقدم . ويمد ياسبرز هذا المفهوم التشاؤمي ليشمل

الحضارة كلها فيدل على عدم امكان تأكيد التقدم بالقول بأن حضارات اعلى كثيراً ما هزمتها حضارات اقل، بل ان « كل شيء عظيم يسقط ، وكل شيء صغير يدمر » ويؤكد ياسبرز أن « الصدام والإخلاق هما السمتان السائدتان في التاريخ » .

ولكن الحقيقة العلمية هي ان مفهوم الدينامية ليس مفهوما مجرد الحركة والتغير . ان العالم يعتره اكثر من مجرد التغير . فالتغير يتم فيه على مستوى اعلى والى جانب هذا فهو تغير موجه . ذلك ان مصالح الانسان واهتماماته الحيوية تدفعه الى تجاوز الانظمة الاجتماعية القديمة . ومن المسلم به في الفلسفة الجدلية انه في مراحل معينة من التطور الاجتماعي - اذا اخذت ككل - قد تكون هناك ظواهر نقوص . وانه على طول تاريخ المجتمعات الاستغلالية يكون هناك ملايل كل تقدم نقوص وارتداد نسبي . ويؤكد ماركس وانجلز هذا المبنى في قولهما « ان رخاء وتطور مجموعة ما يتم على حساب بؤس وكبت المجموعة الأخرى » .

ولكن الظواهر اللولبية والارتداد الجزئي في التطور التاريخي لاستبعاد التقدم الاجتماعي كاتجاه عام للتاريخ . « ان كل الانظمة التاريخية المتعاقبة ليست سوى مراحل التناحلية المتعاقبة ليست سوى مراحل المجتمع في المسار اللامتناهي لتطور المجتمع الانساني من الأدنى الى الأعلى (ماركس وانجلز : المؤلفات المختارة - المجلد ٢) - ص ٣٦٢ » .

نظرية البورة التاريخية

وتعتبر الفلسفة التشاؤمية في التاريخ من نفسها بصورة أخرى غير صورة الرفض الصريح لمفهوم التقدم . فان نظرية « الدور التاريخي » هي تعبير آخر عن هذه الفلسفة الرافضة للتقدم سواء بعدم الاعتراف بإمكانه

او بعدم الاعتراف بوجوده او بعدم الاعتراف باستمراره . ونذهب فكرة تكرار « الصورات التاريخية » الى ان الإنسانية تعود الى نقطة البداية بعد ان تمر ببعض المراحل حتى تكرر ما مرت به فعلا . وتتبع هذه الفكرة من تفكير يفضح لاحكام ميتولوجية ميسرة رغم احتواء نظرية الدور التاريخي في اساسها الى بعض الأفكار معقولة كانت تناسب بداية ظهورها .

وعلى سبيل المثال فان فلسفة التاريخ عند فيكو - في النصف الأخير من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر - كانت تربط بين الفكرة غير العلمية عن تكرار الدورات التاريخية والفرض العلمي بان القوانين التي تحكم التاريخ قوانين موضوعية . ولكن الدعوة في القرن العشرين لمثل هذه النظريات أمر يختلف تماماً . لأن التطور العلمي الهائل والتجربة التاريخية للإنسان يفتدان تصاميم فكرة تكرار الدورات . والفرض من هذه النظرية هو تكرار الراحل الاجتماعي وحسب وهرمان الإنسان من الانقراض بأمكان مستقبل افضل . ويعتبر شينجلر - وهو من المهدين للإيديولوجية النازية - من أبرز أنصار نظرية الدور التاريخي وأكثرهم حماساً لها . وهو يؤمن بأن الحضارات الإنسانية المختلفة لا تكاد تكون بينها أشياء مشتركة وانها تتطور مستقلة عن بعضها وانه ليست هناك حضارة تترى حضارة تخرى وإن دروب الحضارات لا تتطابق أبداً . ويتبنى شينجلر في كل هذا مع ثوبين رغم اختلاف تفسيراتهما السياسية والاجتماعية للمشكلات التاريخية . ويرى شينجلر انه لا تقوم أية حضارة بدون الشرف التاريخي للحضارة أخرى ، وهو بذلك ينكر مفهوم التطور الصاعد للتاريخ الإنساني . وهو يقول بالتحديد « أننى بدلا من الصورة الرتيبة لتاريخ كخط مستقيم أرى مرآة من الحضارات القوية ... كل من هذه الحضارات له فكرته الخاصة وأهواؤه الخاصة وحياته

الخاصة ، وأرادته وشعوره وموته الخاص ... فكل حضارة لها مسئوليتها الخاصة وتصيرها التي ينشأ وينضج ويؤدى ولا يتكرر مرة أخرى أبداً .. التي أرى في تاريخ العالم صورة بني وتغير أبدين ، نشوء واعتجازه وموت للاشكال العنصرية بينما المؤرخ المتأصل ينظر اليه على انه دودة شريطية تنضيف - بلا كل سطرة الى فترة » (انقياد الغرب : ص ٢٧ و ٢٨) .

وانكار العلاقة المتبادلة والآثار المتبادل بين الحضارات والثقافات المختلفة لإيقاع الحقائق الموضوعية فان الفلسفات والفنون والديانات القديمة الصينية والهندية - مثلا - تعد من المصادر الأيديولوجية للحضارة الأفريقية القديمة . كما ان حضارة الرومان بكل ملامحها المميزة قد ورثت كثيرا من القيم الروحية التي خلقها اليونانيون . وعلاقة الديانة المسيحية نفسها تربطها روابط تكوينية بالعالم الأفريقي الروماني والديانة اليهودية والكوشولوجيا الفارسية والحضارة المصرية القديمة . ومن الأمور الثابتة تاريخيا انه « حيثما جرى اتصال بين شعوب من سلالات مختلفة فانها لا تتبادل السلع فحسب ، بل تتبادل الأفكار أيضا . كما أننا نعرف من تطور التاريخ أيضا ان اقامة نوع ما من أساليب الإنتاج في أوروبا وأمريكا وأسيا وأفريقيا كان يولد نفس الأفكار والمؤسسات السياسية والاجتماعية ، ويؤد ظواهر متشابهة في مجالات الأخلاق والفن والآداب ، وفي بنية الحياة الاجتماعية ككل في جميع القارات ويمكن أن نلاحظ من مواقع التاريخ المعاصر ان انتصار النظام الرأسمالي في اليابان قد ولد ظواهر مادية وروحية تماثل تلك التي ولدتها انتصار هذا النظام من قبل في أوروبا . الحقيقة ان « التاريخ لا يفسح ، ولا شيء من الخبرة العقلية للجنى البشرى يمكن أن يذهب مع الريح » .

النظرية القدرية والتشاؤم

وهناك وجه آخر للفلسفة التشاؤمية في التاريخ ومسمى الإنسان .. ذلك هو الوجه الذي تمثله النظرية القدرية . ولعلها من أقدم النظريات الفلسفية وطبيعية ارتباطها بالوثيق بالبيولوجيا القديمة - اليونانية بمسلة خاصة - ففي الأسطورة اليونانية أن «موراى» إلهة القدر نسجت خيط الحياة الإنسانية وألقت به في مناهة اللايرنث ثم قطعتة ! ولايسكاد يفتلف التفكير الفلسفى القسام على أساس النظرية القدرية من هذه الأسطورة اخلافا كثيرا . فهو يلعب إلى أن كل الأحداث التاريخية - الحروب والثورات والكوارث والأقدار الناس - أمورا مقدرة من قبل بلعل قوة ما خارجية . فالتاريخ عملية أولية لا وجه لها تدفعها قوانين قدرية لا تحسم . ويعبر عن هذه النظرة عالم الاجتماع الفرنسى جوستاف لوبون . أن كل جهد الإنسان هباء . أنه معكوم بقوى خارجية مثل قانون الحتمية والبيئة وتأثير الماضي . وهى ماكان يسميه الأقدمون بالقدر . وقد نستطيع أن نلغى القدر ولكننا لاستستطيع أن نفلت منه .

وتعتقد النظرية القدرية في التاريخ أنه لا الشخصية التاريخية ولا الجماهير المندفعة تستطيع أن تؤثر في المسار القدرى للتاريخ . فالأفكار الإنسانية والمؤسسات الإنسانية بالمثل لاستطيع أن تفعل شيئا أكثر من أن تكيف نفسها مع العملية القدرية للتاريخ لأنها عاجزة عن التأثير فيها . وكل ماعمى من التاريخ كان لابد أن يكون على النحو الذى كان به ، وكل ما هو آت في الحياة الاجتماعية لابد أنه على النحو القدر له .

وهدف الفلسفة القدرية اجساما الإنسان على التوافق مع الشر القائم في العالم طالما أنه جزء لا يتجزأ من ماهية الإنسان وحياته ، وطالما أن كل حل الإنسان امود طبيعية لاقرار منها .

والغريب أن الفلسفة الاجتماعية

الدايائية التى ترفض الاعتراف بأى «النظام» في التطور الاجتماعى وتعرف الوعى الإنسانى أو الإرادة الإنسانية بأنها كيان حر في خلق العملية التاريخية تلتقى مع نقيضها الفلسفة القدرية التى تلغى كل حرية في الفعل الإنسانى وكل عرض لنشاط الإنسان .. الاثنان يتفقان في رفض عقلانية التاريخ والتقدم الاجتماعى ويلتقيان في معارضة المفاهيم الموضوعية والثورية للتاريخ .

السوى والإرادة البشرية في التطور الاجتماعى . بل تجعل مهمتها معرفة العلاقات الحقيقية بين العوامل الموضوعية والذاتية في المجتمع والتاريخ وتجعل هدفها على المستوى العلمى «تعلّم في تحديد الشروط التى تحقق فيها النجاح للنشاط الواعى والهادف للناس وللطبقات والتنظيمات» . والفلسفة العلمية لاتدع مجالا على الاطلاق للتشاؤم في جهود التنبؤ العلمى



ج . مارسيل

وعلى النقيض من النظرية القدرية ، ومن النظرة العلوية ، تؤمن الفلسفة العلمية بأن معرفة الضرورة التاريخية أمر جوهري لتوسيع حدود الحرية الإنسانية ، ودفع عملية دور الأفكار المتقدمة ونشاط الإنسان الغرضى في إعادة بناء الحياة الإنسانية والعلاقات الاجتماعية فيها . أن الفلسفة العلمية في التاريخ لاتنكر ولاتقلل من قيمة دور

التي تبذلها .. وهى تؤمن على المستوى الاجتماعى بأن التقدم العلمى وعصر استخدام الذرة وعصر «الكومبيوتر» والإنسان الألى يهدد النظام الرأسمالى ولا يهدد البشرية . يهدد القوى الاجتماعية المتهارة ولا يهدد القوى الاجتماعية الصاعدة ولايهدد مستقبل الإنسان .

سمير كرم

محاولات جديدة لتفسير تراث ابن رشد

في ليلة الخميس التاسعة من صفر عام خمس وتسعين وخمسمائة التي توافق العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨ م سكبت صوت فيلسوف من أشهر فلاسفة الإسلام ، سكبت صوت فيلسوفنا ابن رشد ، لقد حاول هذا الفيلسوف ما وسعه من الجهد دفع لواء العقل ، وبخاصة بعد تلك الطعنة القوية التي وجهها الفزالي إلى الفلسفة والفلاسفة ، جاعلا القلب المصدر والطريق الوحيد إلى المعرفة الحقة ، وداعيا بذلك إلى الطريق الذي يسلكه أصحاب التصوف .

فالفزالي قد أعلن هجومه على للذهب العقل حين رأى أنه ليس ثمة علاقة بين الأسباب والمسببات ، أما ابن رشد فإنه في تقريره لمبدأ السببية قد عبر أوضح تصحيح عن نظرية الفلاسفة العقلين في السببية . فالسببية عنده قائمة في حكم العقل ، وليست مجرد اقتران في الحدوث بين الملة والحلول ، بل أن هذا الاقتران نفسه يدل على أن وراءه رباطا عقليا . وهذا الرباط العقل هو جوهر السببية وصميمها وبذلك تكون حوادث العالم عند ابن رشد ترتبط كلها ارتباطا ملة بمعلول على وجه ضروري لا يشترك مجالاً للمصادفة أو الحوادث أو نحوها .

د. محمد عاطف المرافعة

واذا كنا في هذه الأيام نعيش في ذكرى وثلة فيلسوفنا العظيم ، فإن الأفضل ما نقتله إلى روح فيلسوفنا في هذه المناسبة - بعد أن اشتغلنا بتراث ابن رشد سنوات طويلة - أن نحاول تعريف القارئ بأسماء المؤلفات والشروح التي تركها ابن رشد ، والتي ما زالت موجودة بين أيدينا ، مع الإشارة ، إشارة موجزة ، إلى أهمية كل واحد منها وطبيعته المختلفة إذا كان مطبوعاً ، ورقم مخطوطاته إذا كان لم يؤل بعد حبيساً في عالم المخطوطات . بالإضافة إلى بياننا للدراسات المعاصرة لهذا التراث الرشدي ملقحين من جانبنا محاولة جديدة لتفسيره .

فعل الرغم من تزايد الاعتماد في عصرنا الحاضر بالبحث في تراث فلاسفة الإسلام ، وذلك عن طريق تكوين اللجان التي يهدأ إليها بتحقيق ما خلفه لنا هؤلاء الفلاسفة ، أو دراسة الآثار التي تنسب إليهم ، فإن الدراسة المركزة الهادئة للمؤلفات وشروح آخر لفلاسفة الإسلام أبو الوليد ابن رشد ، لم تتم بعد على الصورة التي يترقبها همة المشتغلين على هذا التراث الرشدي ، والمندرج لأهمية ما خلفه فيلسوف قرطبة .

صحيح أننا لو رجعنا إلى القوائم التي اهتمت ببيان مؤلفات وشروح فيلسوفنا ابن رشد أو إلى بعض الكتب التي تبحث في الفلسفة الرشدية ، وجدنا بياناً بأسماء الكتب التي تنسب لـ فيلسوفنا . ولكن يجب أن تأخذ في الاعتبار أن كل هذه القوائم سواء منها القديمة أو الحديثة لم تكن تهتم في الغالب إلا بأبواب أسماء هذه الكتب كما هي مدونة في سجلات المكتبات الكبرى الموجودة في أنحاء العالم شرقاً وغرباً كمكتبة الإسكوريال بأسبانيا والمكتبة الأهلية بباريس ، ودار الكتب بالقاهرة .

وهذا في الواقع يطالب إلى حد كبير ما ينبغي أن تكون عليه دراسة هذه المؤلفات التي عصفت بها حوادث الأيام ، والكتابات التي حدثت لـ فيلسوفنا ولغيره . إذ يجب فحص هذه المؤلفات واحداً واحداً حتى نستطيع القول بأن هذا المؤلف هو فعلاً لابن رشد ، وذلك المؤلف منقول على فيلسوفنا ، فلم نأطلعنا الدراسات النقدية الحديثة على أن هناك كتباً منقولة حشرت حشراً في عالم هذه المؤلفات التي تنسب لهذا الفيلسوف أو ذلك من فلاسفة العصر الوسيط على وجه الخصوص .

وهذا إن أدى إلى شيء ، فأنما يؤدي فيما نتقدم إلى صعوبة البحث في الفلسفة الرشدية . فالباحث في هذه الفلسفة عندما يبدأ ببحثه بمحاولة الحصول على مؤلفاته وشروحه ، يجد أنه من الصعب عليه الحصول عليها كلها ، أو حتى مجرد معرفة أسماء كل هذه المؤلفات والشروح ، فهي مبعثرة في بضع شتى سواء المطبوعة منها والمخطوطة ، ومنها ما هو موجود باللغة العربية ، وكثير منها لا يوجد إلا في ترجماته البربرية واللاتينية وهي الترجمات التي قام حولها نزاع طويل ، وذهب البعض إلى أنها لا تصبر عن فلسفة ابن رشد ، ولا تتسق في أفكارها مع مؤلفاته الأخرى الموجودة باللغة العربية ، بينما

استند إليها بعض الباحثين كنصوص أصيلة ، وحاول استخراج فلسفة لابن رشد منها ، وكان هذا في بعض الأحيان سبباً فيما ذاع في أوروبا من نظريات دخيلة على ابن رشد ، ولا تتفق مع تلك النظريات المبسطة في مسار مؤلفاته الأخرى .

وقبل أن نتناول بالتحريف والدراسة الموجزة ما ينسب لـ فيلسوفنا من مؤلفات وشروح هو موجودة فعلاً بين أيدينا ، نذكر بعض هذه القوائم وأهمها ، عليها تكون عوناً للباحثين في الفلسفة الرشدية ، وحتى يستطيعون المقابلة بين هذه القائمة أو تلك سواء كانت هذه القوائم قديمة أو حديثة أو معاصرة .

1 — E. Renan : Averroes et l'Averroïsme.

٢ — بالنبيا في كتابه : « تاريخ الفكر الأندلسي » وقد قام بترجمته الدكتور حسين مؤنس .



٣ — قائمة دائرة المعارف للبيساني - الطبعة الجديدة - مجلة ٣ - مادة ابن رشد التي كتبها الدكتور ماجد فخري ص ٩٣ - ١٠٣ .

٤ — قائمة ابن أبي أصيبعة في كتابه : عيون الألباء في طبقات الأطباء - مجلة ٣ ص ٢٨٨ - ٣٤٣ - طبعة بيروت .

٥ — قائمة اللهي الموجودة بملحق كتاب (ريشان) السالف الذكر ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

٦ — الرافعي (د . محمد عاقل) : قائمة ملحقة بكتاب النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد لكتاب هذه المقالة من ص ٣٢٥ إلى ص ٣٣٢ .

7 — Carl Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur, Teil. I, p. 833-835.

8 — E. Gilson : History of Christian philosophy in the middle ages, p. 642-643.

9 — S. Munk : Mélanges de la philosophie juive et arabe, p. 435-438.

10 — L. Gauthier : Averroes, p. 12-15.

11 — Quadri : La philosophie arabe dans l'Europe médiévale; des Origines à Averroès, p. 201-203.

بعد بيان أسماء أهم التوائم التي تضمنت بيان ما ينسب لفيلسوفنا من كتب ، نشرع في بيان أهمية كل كتاب من الكتب المتداولة والتي نأكدنا من وجودها سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة :

أولا - شروح وتلخيصات :

١ - تفسير مبادئ الطبيعة :

هذا التفسير من نوع الشرح الأكبر ، وهو الذي يعد حاسما يبين رشد دون غيره من الفلاسفة الذين ظهروا قبله ، والدليل لم يستعملوا في التفسير غير مانسيه بالتلخيص « أي مسهر النص بحيث لا يستطاع التمييز بين المتن والشرح » .

ولكي أزيد القارئ ايضا ، أقول أن ابن رشد قد شرح أرسطو ثلاثة أنواع من الشروح : شرح أكبر وشرح وسيط وشرح موجز أو تلخيص . والنوع الأول وهو الذي نجده في كتاب « تفسير مبادئ الطبيعة » نستحدث عنه بعد قليل . أما النوع الثاني فإن ابن رشد يورد نص كل لفظة بأكملها الأولى فقط ، ثم يأخذ في شرح بقية النص دون التمييز بين ما هو خاص به وما هو خاص باستاذ أرسطو . وفي النوع الثالث وهو الشرح الموجز أو التلخيص يتكلم ابن رشد باسمه الخاص دائما دون أن يمرض مذهب أرسطو بنصه ، بل حاذفا تارة ومضيفا تارة أخرى وابحاثا عما يكمل فكرته ويوضحها من خلال كتبه الأخرى .

هذا عن النوع الثاني والثالث . فما هو الحال في النوع الأول الذي نجده في تفسير مبادئ الطبيعة ؟ أن ابن رشد في هذا الشرح الأكبر أو التفسير يأخذ لفظة لفظة من كتابات أرسطو ويوردها بنصها ثم يأخذ في توضيحها جزءا بعد جزء ميزا النص الأصلي بكلمة « قال » وهو يعني بذلك أرسطو . وقد يكون ابن رشد كما يرجح رينان - قد اقتبس منه الطريقة من مفسري القرآن الذين يرفقون بقية النص الأصلي وبين ما هو خاص بالقاصح الذي يأخذ في تفسير النص وتوضيحه ثم التعليق عليه .

قلنا أن هذا الكتاب يعد تفسيراً أو شرحاً كبير لكتاب أرسطو « ما بعد الطبيعة » أو الميتافيزيقا والواقع أن هذا التفسير لا يحتوي إلا على أحد عشر حرفاً من الأربعة عشر حرفاً والتي يتكون منها كتاب الميتافيزيقا لأرسطو . فابن رشد لم يفسر حروف الميم والنون والكاف . وبذلك تكون الحروف أو المقالات التي فسرنا هي الألف الصغرى والألف الكبرى والباء والجيم والدال والهاء والزاي والحاء والطاء والياء واللام .

وهذا الكتاب المحال الذي يعد أهم ماتركه لنا ابن رشد على وجه الإطلاق ، قام بتحقيقه ونشره الأب موديس بويج تحقيقاً مستقلاً آية في الدقة ، في ثلاث مجلدات ، مع مجلد رابع يعد ملحقاً للمجلد الأول وهو خاص بالتعليق على نشرته

هذه وقد صدر هذا الملحق الممتاز عام ١٩٥٢ بعد وفاة بويج في ٢٢ فبراير عام ١٩٥١ .

وقد صدر المجلد الأول عام ١٩٢٨ ويتضمن تفسير الألف الصغرى والألف الكبرى والياء والباء والجيم ، وصدر المجلد الثاني عام ١٩٤٢ ويتضمن تفسير مقالات الدال والهاء والزاي والحاء والطاء . أما المجلد الثالث فقد صدر عام ١٩٤٨ ويحتوي تفسير مقالتي الياء واللام . وتزيد صفحات هذه المجلدات الثلاثة في نشرة الأب لويج على ألفين من الصفحات من القطع الكبير .

وجدير بالذكر أن ابن رشد إذا كان قد حصر جهده إلى حد كبير في أرسطو وبذل أقصى عناية في تفسير وتلخيص كتب استأذه ، فإن هذا الكتاب يمكن اعتباره من أهم والنفس الآثار الفلسفية التي بقيت لنا من تراث ابن رشد الضخم . إذ لا يتضمن تفسيره هذا ، مجرد شرح كتاب الميتافيزيقا لأرسطو أو إيراد الترجمة العربية القديمة لهذا الكتاب ، بل يتضمن آراء أكثر شراح أرسطو كثامسطيوس والإسكندر الأفروديسي ، وآراء الأشاعرة ، وآراء ابن سينا الذي طالما تمرش له فيلسوفنا بالقدح .

ومن الخطأ - فيما يبدو لنا - إعمال هذا الكتاب وغيره من تلاميذ أو تلاميذ حين دراسة مذهب ابن رشد استناداً إلى أن التفسير والتلخيص شيء ، والكتب الخاصة أي المؤلفات شيء آخر . إذ أن الدارس لهذا السفر الضخم سيجد كثيراً من النظريات الخاصة بفيلسوفنا بين تضاعيف شرحه هذا ، فهو يناقش ويحلل ويلين آراء بنت عنده خاطئة ، كما يستل في تفسيره جانباً إيجابياً من مذهبه كما قلنا .

وقد تأكد لنا أن شرحه وتلخيصه تعد جزءاً لا يتصل عن كتبه المؤلفة ، بحيث يكون من العيث خلال نظرية من نظرياته إلا إذا استخلصنا فهمها لها وتاويلها من خلال تلاميذه وشرحه ، وقد آن الوقت لكي يعيد المشتغلون بالتراث الفلسفي العربي ، النظر في مدى أهمية هذه الشروح والتلخيصات عند ابن رشد ، وإلى أي حد عبر فيها عن فلسفته ، وذلك حتى لا تبتس فلسفته بتراً يسى إليها ويقدمها في صورة لا تتردد في أن نقول من جانبنا أنها صورة خاطئة موهوبة .

٢ - تلخيص مبادئ الطبيعة :

يحتوي هذا الكتاب على أربعة مقالات لا خمسة كما يقول ابن رشد ، تبث المقالة الأولى في المصطلحات التي تستعمل في علم مبادئ الطبيعة كالوجود والهوية والجوهر والموجود والصورة والقوة واللعل واللباد والإستفسر ... الخ .

أما المقالة الثانية فتبث في مطالب ما بعد الطبيعة ، فتدرس أنواع الوجود ومبادئ الأجسام المخصوصة والكليات والصورة المفارقة .

والمقالة الثالثة عنوانها « في الواووق العامة لعلم مبادئ الطبيعة » وتدرس موضوع القوة والفعل وإيها يتقدم الأثر

سواء بالزمان أو السببية ، كما يبحث في الواحد والكثير والأضداد والعدم .

والتمالة الرابعة والأخيرة تمد أهم مقالات هذا الكتاب ، وموضوعها أشرف موضوعات الميتافيزيقا ، إذ تبحث في المحرك الأول ، وحركات الجرم السماوي ، وحل للأجرام السماوية عقول ، وكذلك تدرس مسألة العناية الإلهية وصلتها بالخير والشر الموجود في عالمنا الأرضي .

ولهذا الكتاب بعض النسخ الخطية منها نسخة موجودة بمكتبة الإسكوريال بإسبانيا ونسخة أخرى موجودة بالمكتبة التيبوروية ونسخة أخرى يدار الكتب المصرية بالقاهرة مع مجموعة تحت اسم « الجوامع » كما نجد له نسخة مصورة بطريقة الفوتوستات عن النسخة السابقة .

وقد نشر هذا الكتاب كارلوس كويروس وودريدغش بميدريد عام ١٩١٩ مع ترجمة إسبانية . كما أن له ترجمة لابينية موجودة بالبنديقية . وله ترجمة ألمانية قام بها فان دوسج نشرها بيلين عام ١٩٢٤ بعنوان

Die Epitome der metaphysik des averroes.

كما نشر هذا الكتاب بيجيرد أباد الدكن مع مجموعة كتب أخرى لابن رشد تحمل عنوان « رسائل ابن رشد » سنة ١٩٤٧ م . وقام بنشره في مصر مصطفى اللباني (بدون تاريخ) ثم قام بتحقيقه الدكتور عثمان أمين بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م (الطبعة الأولى) سنة ١٩٥٨ (الطبعة الثانية) .

٣ - تلخيص كتاب الشعر :

يمكن اعتبار هذا الكتاب من نوع الشرح الوسيط إذ لو رجعنا إلى ما سبق أن ذكرناه منذ قليل عما يميز الشرح الأكبر عن الشرح الوسيط عن التلخيص ، استطعنا اعتباره من الشرح الوسيط رغم أن ابن رشد يقول في مفتتحه : « الفرش في هذا القول تلخيص ما في كتاب أرسطو طاليس في الشعر في القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم ، أو للأكثر ، إذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة بأشعاعهم » .

وقد طبع هذا الكتاب وحققه فوسطو لزيديو في مدينة بيزا عام ١٨٧٣ م في جزوين ، يشمل أولهما النص الغربي ويحتوي الثاني على الترجمة المصرية لهذا الشرح . ثم قام الدكتور عبد الرحمن بدوي بتحقيقه عام ١٩٥٣ م اعتيادا على نسخة فوسطو لزيديو المائلت ذكرها (مكتبة النهضة المصرية) مع مجموعة كتب أخرى تفصل ترجمة في الشعر لأرسطو وشرح الفارابي وابن سينا عليه . ويقع شرح ابن رشد في ثمانية الدكتور بدوي في ص ٢٠١ إلى ص ٢٥٠ .

٤ - تلخيص كتاب البرهان :

لهذا الكتاب نسخة خطية يدار الكتب المصرية مع مجموعة . نسمت عام ١١٧٧ هـ . وهذا الكتاب يحتل جانبا كبيرا من الأهمية . وقد استطاع ابن رشد بحق الاستفادة من المبادئ

الموجودة في برهان أرسطو وتطبيقها على نظرياته في السببية واتساق الفن والشرع ، رتفضه للمبادئ البرهانية على غيرها من أنواع الأقيسة الأخرى الخطابة والمجدلية ، بحيث أنه يمكننا القول بأن مفتاح فلسفة ابن رشد يكمن في رفعه البرهان عما عداه . فهو يؤمن بالمبادئ اليعينية البرهانية وينادي بتطبيقها على الفلسفة واعتبارها محكا للنظر السليم . فهو يقول : إن الحكمة في النظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان ، وتطبيق ذلك عند ابن رشد ، ذهابه إلى أن أي رأى من الآراء لا يرتفع إلى مستوى البرهان ، يعد رأيا غير صحيح في المجال الفلسفي ، بل ينبغي أن يستبعد من هذا المجال .

وهذا الكتاب لم يحقق بعد تحقيقا علميا دقيقا رغم أهميته ، إذ ما زال حبيسا في ثغارات المخطوطات المظلمة . وقد شرعت في تحقيق هذا الكتاب عن النسخة الخطية بدار الكتب المصرية وأدجوان تظهر هذه النشرة قريبا .

٥ - تلخيص كتاب الحس والمحسوس :

يرجع جوتيه أن ابن رشد قد وضع التلخيص بعد عام ٥٦٥ هـ استنادا إلى أن ابن رشد لم يبدأ في عمل التلخيص والتلخيص إلا بعد مقابلة ابن رشد للسلطان أبي يعقوب يوسف سنة ٥٦٥ هـ .

وله حقق الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا الكتاب عن



مخطوطة يضى جامع باستانبول التي تحمل رقم ١١٧٩ . وقد طبع هذا التحقيق ضمن مجموعة كتب بعنوان : « في النفس لأرسطو » - مكتبة النهضة المصرية - عام ١٩٥٤ م .

وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة مقالات : المقالة الأولى في الحس والمحسوس ، والمقالة الثانية في الذكاء والتذكير وفي النوم واليقظة ، والمقالة الثالثة في أسباب طول العمر وقصره .

٦ - تلخيص كتاب الخطابة :

لهذا الكتاب أكثر من نسخة خطية منها نسخة ليدن ونسخة فلورنسة ، وله عدة نسخ مصورة منها نسخة مصورة بالفوتوستات بدار الكتب المصرية عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة فلورنسة . وطبع هذا الكتاب بمطبعة

كرديسان العلمية عام ١٩١١ - ثم قام بتحقيقه الدكتور
صمد الرحمن بدوي عام ١٩٦٠ م - القاهرة - مكتبة النهضة
المصرية (مجموعة دراسات اسلامية رقم ٢٤) .

٧ - تلخيص كتاب النفس :

لهذا الكتاب نسخة بخطوطه بدار الكتب المصرية تحت
رقم « ٥ حكمة وفلسفة » ضمن مجموعة تشمل السماع الطبيعي
وكتاب السماء والعالم وكتاب الكون والفساد وكتاب الآثار
العلوية وكتاب تلخيص ما به الطبيعة . كما أن له نسخة
مصورة بالفوتوستات عن هذه النسخة نفسها المحفوظة بدار
الكتب المصرية ، كما أن له نسخة مصورة موجودة بمكتبة
جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٣٣٤ ، ونسخة أخرى موجودة
بأسيابايا (نسخة مدريد) .

أما عن نشر هذا الكتاب ، فنجد أن نشرة جابر آباد
الدكن قد تمت عام ١٩٤٧ مع مجموعة رسائل تحت عنوان
« رسائل ابن رشد » ولكنها نشرة غير دقيقة وبها الكثير من
الأخطاء ولا تثبت الفروق بين مخطوطات هذا الكتاب . ثم قام
الدكتور أحمد فؤاد الأحماني بالقاهرة بتحقيق هذا الكتاب
تحقيقاً علمياً عام ١٩٥٠ (مكتبة النهضة المصرية) ، وقدم له
بقدمة طويلة . وقد اعتمد في هذا التحقيق على تلخيص
القاهرة ومدريد .

وجدير بالذكر أن هذا الكتاب يحتل مكانة كبيرة في
التراث الفلسفي العربي ، إذ أن ابن رشد لم يقتصر على
تلخيص كتاب أرسطو « النفس » بل نجد هذا التلخيص
قد تضمن عرشاً ولقد لا يزال من سبلوه كآين سيناء وابن باجه
وكذلك شرح أرسطو اليونان كثامسطيوس والاستكندر
الأفروديسي .

بالإضافة إلى أن ابن رشد يهدي لنا رأيه في مشكلة
لمبت دورا هاما في تاريخ الفكر الفلسفي (لأرضي وهي مشكلة
الاتصال . ويكاد يكون ابن رشد هو الفيلسوف الوحيد الذي
نقى ما تقول عنه « اتصال صوفي » متجهدا من تلك الشطحات
التي يزعمها المتصوفة لأنفسهم .

٨ - تلخيص كتاب السماع الطبيعي :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة
سبق أن أشرت إليها . كما أن له نسخة مصورة بالفوتوستات
عن النسخة السابقة بدار الكتب . ونشر هذا التلخيص جابر
آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ . ويقول ديتان أن لهذا
الكتاب ترجمة عبرية تمت عام ١٩٥٦ م .

وهذا التلخيص يحتل بدوره أهمية كبيرة بين التراث
الفلسفي الذي خلفه لنا ابن رشد . فكتيرا مانجد فيه تقبدا
دقيقا لأسلافه في الفلاسفة كآين سيناء ، والفراخ كثامسطيوس .

هذا بالإضافة إلى آرائه في قسم الجاهل واضافته دليل

أرسطيا يأخذ به للبرهنة على وجود الله . واما القطع بأن
الاتصاف على كتيبه المؤلفة يقدم لنا صورة ناقصة للكتاب الرشدي .
أوضح ذلك بالقول بأن ابن رشد اذا كان في معرض رده على
الغزالي في تهافت التهافت يقرر قضية القدم مفضلا إياها على
قضية الحدوث ، فانه في تلخيص السماع الطبيعي وفق تفسيره
الكبير لما بعد الطبيعة يضيف براهمين جديده تصنف من رأيه
مستندا كثيرا منها من استأذنه أرسطو وبذلك يعطينا تاليه
مع شروحه صورة متكاملة .

وفي مناهج الأدلة ، وهو في كتيبه المؤلفة ، نرى
فيلسوفنا يأخذ بدليلين للبرهنة على وجود الله ، وهما دليل
النهاية الإلهية والأسباب الغائية ودليل الاختراع . أما في هذا
الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه ، وهو تلخيص السماع
الطبيعي ، وهو كما قلنا في الكتب التي يشرح فيها أقوال
أرسطو ، نراه يأخذ بدليل آخر يضيفه إلى الدليلين السابقين
وهو دليل الحركة . وبذلك يكون من الخطأ الفصل بين دليلين
أخذ بهما في كتيبه المؤلفة ودليل ثالث اتجه إلى القول به في
كتبه الشارحة .

وقد سبق أن قلنا في موضع آخر ، أنه ليس من
لصواب الفصل فصلا تاما بين دليل الاختراع من
جهة ودليل الحركة من جهة أخرى ، والقول بأن الدليلين
الأولين هما دليلان للشرح ، والدليل الأخير هو دليل أرسطو
أو دليل الفلسفة ، إذ لا يخفى تأييد ابن رشد لدليل الحركة
تأييدا تاما . ويبدو ذلك في ربطه بين دليل الحركة والأدلة
على قدم العالم . وكذلك حين نقده لدليل ابن سيناء وتعديله
له . إذ أن هذا النقد والتعديل يقوم على ضرورة الوصول
من الحركة إلى محرك أول ، أي حور مشكلة الواجب
والمكن إلى مشكلة المحرك الأول وحركة العالم .

٩ - تلخيص كتاب السماء والعالم :

له نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة ،
ونسخة أخرى مصورة بطريقة الفوتوستات . وقد نشر هذا
الكتاب بجابر آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م .

وإبن رشد يتابع أستاذه أرسطو في هذا الكتاب
بالنسبة للموضوعات التي يبحثها . وكثيرا ما يتعرض
لآراء أفلاطون وثامسطيوس وابن سيناء بالنقد . كما أنه
يتلمس أدلة أخرى للتأكيد على قضية أزلية العالم وأبديته ،
والتي سبق أن أثبتنا في كتاب السماع الطبيعي .

أما عن الموضوعات التي يبحثها ابن رشد في هذا
الكتاب تماما أرسطو ، فقد حددنا في مفتتح كتابه قائلا :
غرضه - أي أرسطو - في هذا الكتاب المترجم بكتاب
السماء والعالم التكلم في الأجسام البسيطة الأولى التي هي
أجزاء الجاهل الأولية واليهما ينقسم . وفي اللواقح والإبراهيم
التي توجد لها وللعالَم بأسره مثل أنه واحد أو كثير ويمكن

السالف ذكرها • ونشر هذا التلخيص بجهد آباء الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م •

ولعل أخشى ما في هذا التلخيص على وجه الإطلاق ، نص يتعلق برأى ابن رشد في خلود النفس وكيف أن الأشياء تعود بأنواعها لا بأعيانها ولأشخاصها • فأرسطو في كتاب الكون والفساد يتساءل عما إذا كانت كل الأشياء تعود أيضا إلى أعيانها أو لا تعود • ومما إذا كان من الحق عودة بعضها بالفساد وبالشخص في حين أن البعض الآخر لا يعود إلا بالنوع • ويرى أنه بالنسبة للأشياء التي يظل جوهرها غير قابل للفساد في الحركة التي يلقاها يجب القول بأنها تبقى دائما عدديا متماثلة مادامت الحركة تلتصق بحينئذ المتحرك • أما الأشياء التي على الفقد من ذلك ، أي أن جوهرها قابل للفساد ، فانه يجب القول بضرورة أن تتم هذه الرجعي لا عدديا بل بالنوع فحسب • وعلى هذا النحو يأتي الله في الهواء ويأتي الهواء في الماء ، وهما من في نوع لكن لا هو ذاته عدديا • وإذا كانت في الأشياء ما يرجع عدديا أيضا بأعيانها ، فليست البتة هي التي جوهرها هو بحيث أنه يمكن ألا يكون •

هذا ما يراه أرسطو ، فلتلق الآن نصا لابن رشد ليرى كيف يستفيد من هذه الفكرة الأرسطية حتى يدل على ما سبق أن ارتآه في كتب أخرى له خاصة بمشكلة اليمت والخلود •

يقول ابن رشد في تلخيصه لكتاب الكون والفساد : « إن مثل هذا الكون الدائم ، أما دورانه بالنوع فضروري • وأما دورانه بالشخص فغير ممكن • وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد زيد بعينه بعد أن وجد حتى يكون يعود دورا ولا يمكن عن وجود هذا الفهم وجوده مرة ثانية دورا • وذلك أن الواحد يلزم أن يكون الموضوع له واحدا • وإذا فسد الموضوع ثم كان لهو ضرورة ثانيا بالعدد • ومسواه على ما يدعيه أصحاب الدورات فإن هؤلاء يقولون أنه إذا عادت النسيبة التي كانت لجميع أجزاء الملك حين وجد زيد عاد زيد بعينه وهذا محال مما بيناه • والإسكندر يرى في النصب والهبات التي توجد للملك في وقت ما أنها لا تعود بالشخص أبدا • ويقول أنا لو فرضنا الكواكب كلها في نقطة واحدة من فلك البروج كانك قلت في الخلق ابتداء كلها بتحريك السريع منها والبطيء لم يلزم ضرورة أن تعود كلها إلى تلك النقطة التي منها ابتداءت تحرك • إلا أن تكون أدوارا بعضها بقدر أقدار بعض حتى يكون مثلا متى تمت النسيبة دورة واحدة لم أقمز اثنا عشر دورة ، وكذلك يلزم أن تكون نسيبة دورات الشمس من واحد واحد من الكواكب • وحينئذ كان يمكن أن تعود كلها لموضع واحد • ولأى وضع فرشته • وقد لجد الأمر بخلاف ذلك ، فإن الشمس تطلع وإثرتها في ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم • والقمر يطلع وإثرتها في سبعة وعشرين يوما ونصف • وضربة وعشرين يوما ونصف إذا خروفت ، لا تلي ثلاث مائة وخمسة وستين يوما وربع • وإذا كان هذا هكذا ، وكان

أو غير مكن • وذلك أنه لما تكلم في الكتاب الذي قبل هذا - يقصد السماع الطبيعي - في الأمور العامة للموجودات الطبيعية على ما يقتضيه التعليم المنتظم ، ابتداء بالتكلم في الأمور الجزئية ، وابتداء من هذه ببساطة ، وهي أجزاء العالم وما يلحق ذلك •

١٠ - تلخيص كتاب الآثار العلوية :

هذا الكتاب كما هو والمسح في عنوانه من نوع التلخيص لا الشرح الوسيط أو الشرح الكبير • وله نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة • كما أن له نسخة مصورة بالفوتوستات عن النسخة السائلة • ونشر بختيار آباء الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م • وتضمن مجموعة جيدر آباء هذه ، بالإضافة إلى هذا الكتاب ، تلخيص السماع الطبيعي وتلخيص السماع والعالم وتلخيص الكون وتلخيص كتاب ما بعد الطبيعة •

وإذا كان ابن رشد في هذا التلخيص يحاذي النظام الذي أتبعه أرسطو ، ويؤيد الكثير في أقواله • إلا أن الجديد حقائده فيلسوفنا هو استناده إلى كثير من مشاهداته ومعارفه الشخصية • فطالما نجد في هذا التلخيص مناقشة وتعليلا لأراء أرسطو وتأييدا لها بالاستناد إلى مصادره هو



نفسه • ونوع ذلك بمثال واحد • فإذا كان أرسطو حين تحدث عن سبب الزلازل في كتابه «الآثار العلوية» قال أنه عرض في البلاد أن بيرة في تلك الجزر لم تزل تملو حتى تصدمت وخرج منها ربيع شديدة ألحقت بها وماء كثيرا وذلك أنه عرض لتلك البلاد أنها احترقت • فإن فيلسوفنا ابن رشد يذهب إلى أن هذا صحيح • إذ أن من شاهد الزلزلة الحادثة بقرطبة وجاهاها عام ستة وستين وخمسمائة للهجرة وقع له اليقين بذلك لكثرة ما عرض هناك من الأصوات والدوي • ولم أكن حاضرا بقرطبة • ولكني وصلت إليها بعد لسمعت أصواتا تنظم حدوث الزلزلة • •

١١ - تلخيص كتاب الكون والفساد :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة • وله نسخة مصورة بالفوتوستات عن النسخة

ثانياً - مؤلفات :

١٦ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه :

لهذا الكتاب القيم عدة طبعات منها طبعة استانبول ١٩١٥ م وطبعة القاهرة عام ١٩٥٠ م (مصطفى الحلي) في جزئين .

ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة في الفقه المالكي . إذ كثيراً ما تجند في كتب الفقه وكتب التراجم ثناء كبيراً على هذا الكتاب . بل أن من المؤرخين من ذهب إلى أن شهرة ابن رشد ترجع أساساً إلى الفقه أكثر من رجوعها إلى طبيه وفلسفته وشروحه على أرسطو . يقول ابن فريون في كتابه الديباج للنسب في معرفة أهل المنصب : لابن رشد تأليف جليلة الفائدة منها كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه » . ذكر فيه أسباب الخلاف وعمل ووجه فائده وأتمت به ، ولا يعلم في وقته أنفع منه ولا أحسن سياقاً .

ويقول ابن رشد في آخر كتابه هذا « الذي جاء ثمرة لدراساته العميقة في الفقه على يد أبيه وغيره من الفقهاء ، لموضعها أقسام الأحكام الشرعية وملخصاً أبوابه : ينبغي أن تعلم أن السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الطفال الإنسانية ، فيها مارجع إلى تعليم من يجب تعليمه وشكر من يجب شكره ، وفي هذا الجنس تدخل المبادات ، وهذه هي السنن الكريمة ومنها ما يرجع إلى الفضيلة التي تسمى عفة ، وهذه صفات : السنن الواردة في المطعم والمقرب والسنن الواردة في المنافع . ومنها ما يرجع إلى طلب العدل والكف عن الجور . فهذه هي أجناس السنن التي تقتضي العدل في الأموال ، والتي تقتضي العدل في الأبدان ، وفي هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والمقربات ، لأن هذه كلها إنما يطلب بها العدل . ومنها السنن الواردة في الأعراض . ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويتها ، وهي التي يقصد بها طلب الفضيلة التي تسمى السخاء ، وتجنب الرذيلة التي تسمى البخل ، والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه ، وتدخل أيضاً في باب الاشتراك في الأموال ، وكذلك الأمر في الصدقات ، ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط حياة الإنسان وحفظ فضائله العملية والمالية ، وهي المحير عنها بالرياسة ، ولذلك لزم أيضاً أن تكون سنن الأمانة والقوام بالدين . ومن السنن المهمة في حين الاجتماع والسنن الواردة في الحقبة والفضيلة والتعاون على إقامة هذه السنن ، هو الذي يسمى النوى عن المنكر والأمر بالمعروف ، وهي الحقبة والفضيلة : أي الدينية التي تكون إما من قبل الانحلال بهيئة السنن ، وإما من قبل سوء المتفكر في الشريعة .

١٧ - هل يتصل بالمثل الهولاني المثل العالم وهو متيسر بالجسم .

للعامل لايمرد بواحد بالهد ولا الهول يمكن فيها ذلك ، فقد تبين امتناع عودة الشخص من كل جهة ، وذلك ماوردنا أن نين . وكيفما كان الأمر فليس يمكن أن يعود الشخص .

١٨ - تلخيص كتاب القولات :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة أولي نسخت عام ١١٧٧ هـ . مع كتب أخرى هي : العبارة ، والقياس ، والبرهان لابن رشد . وقد قام بتحقيق هذا الكتاب تحقيقاً علمياً ممتازاً الأب موديس بويج عام ١٩٣١ م .

١٩ - تلخيص كتاب العبارة :

لهذا التلخيص نسخة خطية مودعة بدار الكتب المصرية مع المجموعة التي سبق لنا الإشارة إليها منذ قليل .

٢٠ - تلخيص كتاب القياس :

له نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع نفس المجموعة السابقة . وابن رشد في تلخيصه لكتاب القياس لأرسطو يحاول استخلاص محاذاة عامة ، ولا نجد آراء ذات شأن تصنيف جديد إلى فكر أرسطو .

٢١ - شرح أرسطو ابن سينا في الطب :

لهذا الشرح نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية . كما يوجد بنسخه العربي في مكتبات الإسكندرية وباريس وليفن والاسكوريال . ولم يصل إلينا علمنا أن هذا الشرح قد حقق بعد ، رغم أن صفحات مطبوعة القاهرة أخلة في التآكل والألفاظ بطل الزمن .

وابن رشد في شرحه لهذه الأرسطو ، لا يقتصر على مجرد عرض رأي ابن سينا ، بل يضيف بعض الآراء الجديدة الخاصة به ، شأنه في ذلك ، شأن ما يفعله في أكثر شروحه وتلخيصه على أرسطو أو غيره . كما أنه ينقد سلفه ابن سينا في بعض المواضع في هذا الشرح .

وقبل تناول ابن رشد - في معرض شرحه لهذه الأرسطو - دراسة العلاقة بين الطب والعلم الطبيعي وكذلك العلاقة بين العلوم والتجربة . فذهب - كما أكد ذلك في كتاب الكليات أيضاً - إلى أن الطب صناعة تؤخذ مبادئها في العلم الطبيعي . ولكن العلم الطبيعي يمد علماً نظرياً والطب علماً عملياً . وإذا تكلنا في شيء مشترك للعلمين فذلك يكون في جهتين . مثال ذلك أن صاحب العلم الطبيعي إذا كان ينظر في الصحة والمرض من حيث هما من أجناس الموجودات الطبيعية ، فإن الطب ينظر إليهما من حيث أنه يحتفظ أحدهما ويحيط الآخر ، أي يقي على الصحة ويزيل للمرضي .

واللهذا يمكن القول بأن صناعة الطب تتكون من مبادئ العلم الطبيعي ومن مبادئ صناعة الطب التجريبية . كما أنه لا بد من العلم - جمع التجربة - ، لأنه ليس يكفي في هذه الصناعة بالعلم دون التجربة . ولا التجربة دون العلم . ولذلك كان من شروط الطبيب أن يكون مع قيامه على علم الطب ، مؤزلاً لإعماله .

نشر هذه المقالة الأب مورانا عام ١٩٢٢ م ثم نشرها الدكتور أحمد فؤاد الأحراني مع تلخيص كتبه الفلسفية لابن رشد عام ١٩٥٠ م (القاهرة - مكتبة النهضة المصرية) .

وهذه المقالة على جانب كبير من الأهمية وقد طاق الجدل حولها وتشعب ، إذ أنها تعد محاولة من جانب فيلسوفنا للاجابة عن التساؤل الذي وضعه "أرسطو" في آخر كتابه النفس تاركا إياه بدون حل . يقول ابن رشد موضحا ذلك في مفتتح هذه المقالة : " الغرض من هذا القول أن نبيذ جميع الطرق الواضحة والبراهين الوثيقة التي توقف على المطلب الكبير والسادة الفلسفي ، وهو هل يتصل بالمثل الهولندي ، الفاعل ، وهو متمسك بالجسم ، حتى يكون في هذه الحال يصل الإنسان هو جوهره من كل جهة ، على شأن المفارقة أن تكون عليه ؟ وهذا المطلب هو الذي كان وعد به الحكماء في كتاب النفس ولم يصل إلينا قوله في ذلك .

ولكأن قطع من جانبنا بأن ابن رشد لم ينجح إلى القول بنوع من الاتصال ينحو منحى سوفي . بل إنه يكاد لا يعترف بما يعلم عادة من لفظة الاتصال ، بحيث يحورها ويحولها للبعد منها التزود بالملم والملمة النظرية أساسا . دليل هذا قول فيلسوفنا في خاتمة هذه المقالة : لما كان الإنسان هو الذي حتى به الكمال ، كان هو أشرف الموجودات التي ما هنا ، إذ كان هو الرابط والنظام الذي بين الموثوقات المحسوسة الناقصة ، أغنى التي تشوب فعلها أيذا القوة ، وبين الموجودات الشريفة التي لا تشوب فعلها أيذا أصلا ، وهي العقول المفارقة ، ووجب أن يكون كل مافي هذا العالم إنما هو من أجل الإنسان وخادم له ، إذ كان الكمال الأول الذي كان بالقوة في الهولندي الأول إنما ظهر فيه ، فما أظلم من يحول بين الإنسان وبين العلم الذي هو طريق إلى حصول هذا الكمال .

ويبدو أن هذه الرسالة هي بمثابة ما أدرجه ابن أبي أصيبعة في قائمة مؤلفات ابن رشد بعنوان : كتاب في المنطق ، هل يمكن العقل الذي ليسا ، وهو المنطق بالهولاني ، أن يحل الصور المفارقة بأخرة أو لا يمكن ذلك ، وهو المطلب الذي كان أرسطو وعدنا بالفحص عنه في كتاب النفس . ويقول رينان أن لهذا الكتاب ترجمة عبرية بعنوان : كتاب في العقل الهولاني أو في إمكان الاتصال . كما أن له ترجمة لاتينية .

١٨ - كتاب الكليات في الطب :

لهذا الكتاب نسخة منقولة بالتصوير الشمسي عام ١٩٢٩ وهي في منشورات معهد فرانكو (لجنة الأبحاث العربية الأسبانية) . ولم يحقق هذا الكتاب حتى الآن ، وللكتاب ترجمة لاتينية مطبوعة بعنوان colliget التي يرجع إليها المستشرقون عادة .

وقد اتفق أغلب المؤلفين على أن ابن رشد قام بتأليف هذا الكتاب قبل قيامه بشرحه على أرسطو وتأليفه لكتبه

الفلسفية ، بمعنى أن اشتغال ابن رشد بالطب إنما كان قبل اشتغاله بالفلسفة فضلا نجد Quadri في كتابه :

La philosophie arabe dans l'Europe médiévale, p. 199.

يقول أن ابن رشد قد ألف هذا الكتاب وهو في الشبان والفتل ، كما أن جوتيبي في كتابه " ابن رشد " يفسح كتاب كليات على أنه من الكتب المؤلفة بين عام ١١٦٢ م وعام ١١٩٩ م ، ويضع بقية كتبه بعد هذا التاريخ . وأيضا يقول رينان في كتابه " ابن رشد والرشدية " ص ٦٤ : أن ابن رشد ألف كتاب الكليات بعد عام ١١٦٢ م ، وبأن كتبه بعد هذا التاريخ . ويذكر (مونك) في كتابه : Mélanges de la philosophie juive. نفي التاريخ السابق . ذكره بالنسبة لكتاب الكليات . ويضيف قائلا : إن مما يدل على ذلك أن ابن زهر وهو الذي توفي في هذه السنة - سنة ١١٦٢ - قد ذكره ابن رشد في آخر كتابه على أنه مازال حيا معاصرا له .

فإذا رجعنا إلى موضوع هذا الكتاب الذي يقسم إلى سبعة أجزاء قلنا أن ابن رشد لم يدرس فيه الطب إلا كشيء من كل ، وهذا واضح من عنوان كتابه . أي أنه درس جميع أنواع الأمراض دراسة عامة دون أن يتطرق إلى التفصيلات الفرعية . فبقية إذن وصف عريض من الأعراض على وجه خاص . ولهذا نجد يوصي صدقة : أبا مروان عبد الملك بن زهر وهو من كبار أطباء عصره ، أن يضع كتابا في الأمور الجارية لتكون جملة كتابهما كتابا شاملا في صناعة الطب . يقول ابن رشد : فمن وقع له هذا الكتاب « الكليات » دون هذا الجزء ، ولجب عليه أن ينظر بعد ذلك في « الكليات » و « أروق الكليات » ، له ، الكتاب الملقب « بالتيسير » والذي إلفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر . وهذا الكتاب سألته أبا إياه وانتسخته . فكان سبيلا إلى خروجه . وهو كما قلنا كتاب الأناويل الجزئية التي قيلت فيه ، شديدة المطابقة للأناويل الكلية . إلا أنه شرح هناك مع العلاج العلامات ، وأعطى الأسباب على عادة أصحاب الكليات . ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا إلى ذلك ، بل يكفي ذلك مجرد العلاج . وبالجملة من تحصل له ما كتبه في الأناويل الكلية يمكنه أن يفهم على الصواب وأخلا من مداواة أصحاب الكليات في تشفير العلاج والتركيب .

ومن الجدير بالذكر أن المأثور لكتاب الكليات ، يجد ابن رشد لا يتردد في تأييد أرسطو ، ونقد آراء جالينوس . فإذا كان الأول وهو يفسر مصدو حركة الجسم ، يرى أن ينبوع ذلك في القلب ، وكان الثاني يرى مصدره هذه الحركة في الدماغ لا في القلب ، فإن ابن رشد يتحاذر إلى الرأي الأوسط الأول ، فهو يقول : أنه يظهر أن المأثور في حين شيعة وتنتشر في يده حواره لم تكن قبل ، والنص الذي من جهته أن تنتشر منه الحواره في جميع البلدان هو القلب لا شيء فيه .

الكلامية والفلسفية التي تعرض لها علماء الكلام والفلاسفة وهو يعد إلى حد كبير تطبيقاً للمنهج الذي أعلن عنه ابن رشد في فصل المقال .

وينقسم هذا الكتاب إلى خمسة فصول . يبحث الفصل الأول في البرهنة على وجود الله . ويتناول الفصل الثاني بالدراسة مسألة الوجودانية . ويبحث الفصل الثالث لبحث موضوع الصفات . ويتركز الفصل الرابع بحسه في موضوع التنزيه . وأشها يفحص الفصل الخامس في دراسة مشكلات حدوث العالم . يبحث الفصل السادس والقدر والجور والعدل والمعاد .

أما عن زمان تأليف ابن رشد لهذا الكتاب ، فيرجع كثير من الباحثين ومنهم رينان أن ذلك كان عام ١١٧٩م . ٢٣ - **تهافت التهافت :**

طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام ١٨٨٥ بالمطبعة الاحلامية . مع تهافت الفلاسفة للفرزاي والتهافت لحوجه زادة من مخطوطة الاستانة التي تمت اقسام مخطوطة للكتاب . ثم طبع بالقاهرة عام ١٩٠١ ثم عام ١٩٠٣ . ثم نشره الأب موديس بروج عام ١٩٣٠ م بيهود (المطبعة الكاثوليكية) . وتمت هذه النشرة من أدق وأهم النشرات لهذا الكتاب الهام في وجه الاطلاق ، شأنها في ذلك شأن كل مقام به هذا العالم المتنازل في ميدان التحقيق والنشر . ثم نشره بالقاهرة أخيراً سليمان دنيا بنشره سقيمة ، إذ لم يتسدد في نشرته على مخطوطات جديدة . كما تمت هذه النشرة أقل أهمية من نشرة بروج ، بل هي في الواقع لاتمدد عملية نقل عن نسخ وطبعات سابقة على هذه الطبعة ، أو النشرة اذا تجاوزنا القول . والأجدر بالتشغطين بالتراث الفلسفي العربي توجيه جدهم إلى المخطوطات التي لم تنشر بعد ، بدلا من نشر كتب سبق نشرها نشر آية في الدقة كتهافت التهافت هذا .

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية قام بها فان دنبرج عام ١٩٥٤ في مجلدين . ويشمل المجلد الأول الترجمة ، أما المجلد الثاني فيشمل الحواشي والتعليقات للمقدمة التي لا يستغنى عنها الباحث في الفلسفة الرشدية . كما أن له ترجمة ألمانية صدرت في بون عام ١٩١٣ قام بها ماكس هورتن . كما أن له ترجمة عبرية وترجمة لاتينية . وهذه الترجمة الأخيرة جانبته الصواب في بعض المواضع .

وهذا الكتاب في غنى عن التعريف ويكفي أن نقول ان فيلسوفنا حاول فيه تفكيك آراء الفيزيائي ، مرسياً دعائم الفلسفة من جديد . وكثيراً ما نراه يكشف عن آرائه بين تضاعيف رده على الفيزيائي ودفاعه عن الفلسفة بمد تلك الحيلة الظالمة الموهجة التي وجهها الفيزيائي إلى الفلسفة والفلاسفة ، والذي كان يحلو له توجيه الاتهامات والقائما دون مسند صحيح .

محمد عاطف العراقي

ولذلك متي طرا على الإنسان شيء يفرقه وانتفضت الحرارة الفيزيائية إلى القلب ، ارتشت ساقاه ، حتى أنه سقط ولم يقدر أن يتحرك .

١٩ - **ضمنية مسألة العلم القديم :**
نشر يوسف مولي هذه الرسالة في ميونيخ بألمانيا عام ١٨٥٩ م مع كتابي : فصل المقال ومناهج الأدلة تحت عنوان « فلسفة ابن رشد » . ثم نشرت في القاهرة بدار احياء العربيه .

ويتناول فيلسوفنا في هذا الكتاب بحث مشكلة العلم الأولي ، وهل هو علم نقي ككل فحسب ، أم أنه ادراك لكل الجزئيات جزئية جزئية . ولا يخفى علينا ما لبيتته مسنده المشيكلية من دور هام في تاريخ الدراسات الكلامية والفلسفية .

٢٠ - **فصل القبسال فيها بين الحكمة والشرعية من الانصاف :**

نشر يوسف مولي هذا الكتاب في ميونيخ بألمانيا عام ١٨٥٩ م وهو ذلك العلم الذي بدأ فيه نشر أول نص عربي لابن رشد . وقد نشره مولي مع مناهج الأدلة وضمنية مسألة العلم القديم وذلك اعتماداً على مخطوط وحيد وجد بمكتبة الاسكوريال . لم نشر بالقاهرة بدار احياء العربيه .

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية قام بها جورج حوراني في لندن عام ١٩٦١ م . وصدر لها بمقدمة ممتازة حبل فيها أهم عناصر الكتاب . كما أن له ترجمة عبرية موجودة في باريس .

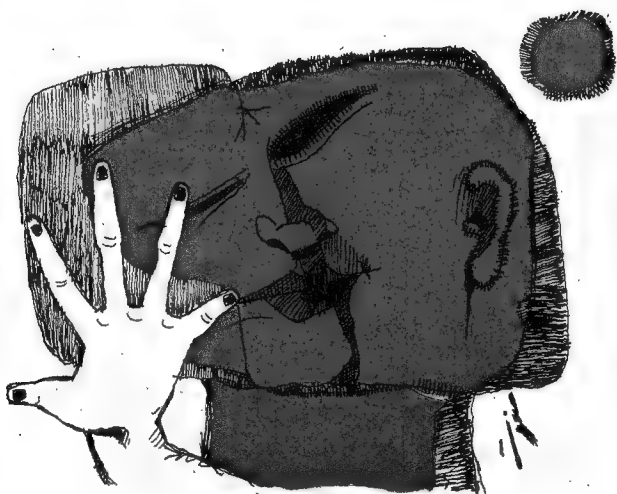
رصد هذا الكتاب المصدر الأرياسي في نظريته عن اتفاق العقل والشرع . يقول ابن رشد في مقدمته هذا الكتاب : ان الغرض من هذا القول أن ننص على جهة النظر الشرعي هل النظر في الفلسفة . وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور أم مأثور به . اما على جهة النبي واما على جهة الوجوب وإذا تقرر أن الشرع له أوجب للنظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتقاد ليس فيها من استنباط الجهول من المعلوم واستخراجها منه ، وهذا هو القياس أو بالتقياس ، فواجب أن نجعل نظراً في الموجودات بالتقياس العقل . وبين أن هذا الشعر من النظر الذي دعا إليه الشرع وحسب عليه هو أهم أنواع النظر بأنواع القياس المسمى برحانا .

٢١ - **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة :**
لهذا الكتاب ترجمة عبرية موجودة في المكتبة الامبراطورية وفي لندن أيضاً . وقد نشر نصح العربي يوسف مولي في ميونيخ بألمانيا عام ١٨٥٩ مع الكتابين السالف ذكرهما . ونشر في القاهرة عام ١٩٠١ ثم نشره الدكتور محمود قاسم عام ١٩٥٥ نشرة علمية دقيقة (مكتبة الانجلو المصرية) .

ويعرض فيلينا ابن رشد في هذا الكتاب آراء المتكلمين أولاً ثم يتقدم ليعلم عن مذهبه . ويختار فيه بعض المشكلات

الفلسفة ... أو هذا الجنون المعقول

جمال عبد النعم بالله



أصل التفكير يكون هذا من أجل أن تفقد
الأسباب الطبيعية أدبوت ويبدأ حين استفسار
لدينا : « يريد ابن نبتس عن المدسة في كلوبنا
ونقومنا لعرف أن نساها نزال فابرين عبي
معانها وأن نال في أسطنة الأسس اليوم أن
يسل ويسائل يائسي الحقيقى لهاين العامين »
(ص ٩٤) .. ومن ثم تكون دراسة الفلسفة
عامة نلى « تحرر » من قيد أعمال المالف ،
نهر معناه القديم نكسبه معنى جديدا .. ومن
ثم يكون الاندماهى فعل تحرر و « الذى هو أصل
اخرى » (ص ٩٧) .

وعندما يواصل الدكتور ميد الفغار مكاوى
رحلة تفلسفه حول المشكلات الفلسفية وحسول
بعض آراء الفلاسفه بظل خيط « التحرر » هو
الذى ينظم كتابه جميعه .. فعندما يتفلسف
حول معنى ليله « لا » يرى فيها العدة على
الرفض والاحتجاج فحسب ، بل القدرة أيضا
على المطالبة بالوحدة والكمال .. « وما أسهل أن
يقول الإنسان (لا) ولكن ما أضيعها أن لم نحاول
أن نشيت وراءها جميعه أو تؤكد قيمة أو تدافع
عن (نعم) » (ص ١٠٥) .. ومن هنا تكون
ال « لا » فعل « تحرر » مما يحط من شأن
الإنسان وكرامته ، من أجل رفع الزمانة الإنسانية
الى اللزوة .. ومن ثم جبالرفض والقبول يمكن
امكانية التفاهم والتلاقى مع الآخرين .. « وصعوبه
اقامة الحوار حتى لا يقطع الانحصار في الرضى
قول لا هي صعوبة أن تقول لنعم الوجود لا »
(ص ١٢٦) .. أن ال « لا » موجهة ضد الموت
والاخفاق والتهشم وتعجزيل الإنسان .. أنها فعل
« تحرر » من أجل إقامة مملكة الإنسان الكامل
القادر على الارتفاع فوق الرضى والقبول ..

والدكتور عبد الفغار مكاوى عندما يتحدث
عن العقل يريد أن يعقله فلا يشطط في قدراته
وذلك لأن « العقل هو مبدأ الاعتدال » (ص ١٢٨)
وليس هذا الاعتدال قيداً على العلم والبحث
والتفلسف « نحن لا نستطيع بالطبع أن نصف
جهود العقل في الكشف عن أسرار الطبيعة
بالتطرف أو طموح العلم الى حل المسألات
بالخروج من الحد . فروح الفلسفة والعلم في
السؤال ، ولا يمكن أن يكون هناك حد لهذا السؤال
ومع ذلك كثيراً ما قلت منا (الكل) حين نقصر
البحث على (الأجزاء) وكثيراً ما يكون سبوه
استغلال النظرة العلمية الدقيقة الى الظواهر سببا
في ضياع (روحها) و (معناها) وفقدان الصلة
الحقيقية التى كانت تربط الإنسان القديم بها

عندما يتناول الدكتور عبد الفغار مكاوى
هرفيلس لا يتفقت منه سوى خيط واحد هو
أن الطبيعة تحب أن تتخفى ، ومن ثم يكون فصل
الفلسف هو مساعده السببه على أن تريح
حجابها ومن ثم يصبح فعل « تحرر » من
التجيب حتى تسطع شمس الحقيقة .. وعندما
يتناول افلاطون يسره جميعه ولا يأخذ منه
سوى معنى التربية التى ليست هي مجرد
تلقين معلومات ، « فليست التربية أن نملأ النفس
بالمعارف التى لم تنهيا لها كما لو كنا نصبها في
وعاء فارغ . بل التربية الأصيلة هي التى تقهر
النفس وتحولها ، فتضع الإنسان في مكانه الحق
وتعوده على الحياة فيه » (ص ٢٧) .. ومن
ثم فإن التربية عند افلاطون هي فعل « تحرر »
من التسبب والتعولب والوجود حتى يصبح
الإنسان اسبباً لتحرر والتعولب والتعولب .. واداً
الذى نظره على فكر افلاطون ترك كل ما تعويه
(بأسواقه) ، ولم يجد الا ارحته الى الباطن
والإعماى .. رحله الصعود الى أسفل .. وهذا
الصعود عنده « في نفس الوقت (رجوع) وعودة
الى الأصل أو هو ما سيبناه » .. « بالانتاج الى
الباطن » وهو سر أصالة افلاطون وتفرده في تاريخ
افكر الغربى كله » (ص ٥٤) .. ومن ثم تصبح
الرحلة الى الإعماى فعل « تحرر » من السطوح
وانتفاخات والمظهر حتى يصبح الإنسان إنسان
الداخل والعمى والخير .. وهو عندما يظل في
فكر باسكال لا تسترعى انتباهه سوى : « تعلموا
أن الإنسان يعلو على الإنسان علواً غير متناه »
ويعبرك أن « مشكلة المعالى هي مشكلة المشكلات ،
ليست في الحقيقة مشكلة من مشكلات عديدة ،
بل هي (المشكلة) على وجه الإطلاق » (ص ٦٥)
.. وهو علو الى ما يعلو على الوجود والعلم ،
علو الى الكل وهو ما لا يستطيع الحديث عنه ،
وهذا ينقلنا « الى آخر حدود اللغة حيث يكون
العجز عن الكلام أصديق من كل كلام » (ص ٧٢)
.. وإلى ماذا ينقلنا هذا العلو ؟ « فإذا عدنا الى
سؤالنا الرئيسى : الى أين يؤدي بنا العلو فوق
كل شيء على الإطلاق ؟ استطعنا أن نجيب بقولنا :
الى الانفتاح » (ص ٧٦) .. ومن ثم تصبح عملية
العلو عملية « تحرر » من الانفصال والتوقع
والتزمت كلى نطاق الى الرحابة والتفتيح والاتساع
.. .. وعندما يلقى الضوء على الدهشة وانها

(*) هذا عركى نقدي لكتاب « مدونة الحكمة
للدكتور عبد الفغار مكاوى » الصادر عام ١٩٦٩ عن دار
الكتاب العربى .

الشجاعة يستوى بعد ذلك أن تكون هذه الشجاعة في سبيل الفسيحة أو المبدأ أو الوطن أو تحقيق رسالته العليا» (ص ١٦٩) .

ويوجه الدكتور مكاوي اهتماما خاصا بنيتشة فيغدر نه فصلين ، غير انه لا يهتم به ايضا الا من خلال منظوره الذي يخيم على افق كتابه « مدرسة الحكمة » الا وهو منظور « التحرر »

.. فيلتقط أولا من نيتشه قوله ان الفكر هو قدر المفكرين ، وهو قدر ضروري ومطلوب ، ومن ثم فان « تحرر » الفكر قائم في الا يتحرر من العدر ، بل ان يجعله مصره بدمك حريته ، وفي هذا « كان نيتشة انموذجا فريدا للفكر الذي يجعل من الفكر قدره ولا يهرب منه » حاول نيتشة ان يشرح للناس لماذا هو قدر ولقد عاش كالفرد واحب لل ما ساقه اليه القدر ووجد سعادته الاخرى في الرضا بالضرورة والقدر ودفع الثمن الذي لا بد ان يدفعه لل من يجد في العدر الشجاع الجاد مصره ومستوليته وقدره فعرض وتمدب وجن واحترق ولم يكن له مفر من ذلك لان قدر المعمرين حزين » (ص ١٦٥)

.. ثم ان الدكتور مكاوي يلتقط من نيتشة ثانيا فكرة العود الايدي فيبرز انها كانت لب كتاب نيتشة « هكذا تكلم زرادشت » والهدف من كتابته وليست فكرة الإرادة والقوة هي الاساس، بل الاساس فكرة العود الايدي و « عودة الشبيه الايدي هي اذن مذهب نيتشة في العالم ككل او رايه في كلية الوجود . وحديثه عن الايدي التي تتجاوز كل ما يجري في الزمان من أحداث وكل ما يشتمل عليه من معطيات تجاوزا لا نهاية له هو في حقيقته حديث عن العالم ، تردد كلماته معاني الاتساع والرحابة والشمول » (٢٠٨ -

٢٠٩) لكن اليس الحديث من العود الايدي الغاء للحرية ؟ هذا هو الظاهر ، اما الباطن فانها فكرة « تحرر » بدورها .. يقول الدكتور مكاوي : « ويمضي زرادشت في حديثه الى نفسه ، ويبين لها ان فكرة العود الايدي لا تلغ الحرية ، بل تحررها من القيد الذي رسفت فيه حتى الآن ، ألا وهو الاعتقاد بشيائ الماضي وحتميته . ولكن منسلما يكون الماضي كله هو في نفس الوقت المستقبل كله ، فان النفس تكون لها الحرية التي تسود بها هي (ما خلق وما لم يخلق) وينفتح الطريق امام الانسنان الخالق المبدع كما لم ينفتح أمامه من قبل وتتوقف الصلة بينه وبين العالم الخالق المبدع الذي يوجد كل ما هو

وما زالت تقرب الطفل والشاعر منها » (ص ١٦٦) ان التفلسف حول حدود العقل اذن فعل من أفعال « التحرر » من ربقة الجزئي والتفتيت الى الكل والشمولية ..

واذا كان الدكتور عبد الغفار مكاوي مهتما غاية الاهتمام بموضوع « التحرر » فانه بطبيعة الحال لن يهمل النظر في المسائل الاخلاقية لان هذه المسائل هي مبتهاة في نهاية الامر .. ومن هنا فانه يفرد فصلا لموضوع الشجاعة ، ولا يتتبع معناها تاريخيا بشكل أكاديمي أجوف ، بل يبرز ان هناك تيارين سادا في دراستها : تيار اعتبار الشجاعة قيمة اخلاقية ، وتيار اعتبارها قيمة وجودية بها تحقق الذات وجودها في مواجهة الاخطار ، وتعمق هذا الوجود .. « الشجاعة اذن هي تأكيد الذات الانسانية بالرغم من ... ونسال الآن بالرغم من أي شيء ؟ لا بد ان يكون الجواب: بالرغم من شيء يهدد تأكيد الذات او يحاول ان



الملاطون

يلفيه . أي ان الشجاعة التي وصفناها بشجاعة الوجود لا بد ان تواجه كل (عدم وجود) يحاول تهديدها سبواء على الصعيد الانطولوجي او الاخلاقي او الاجتماعي » (ص ١٦١ - ١٦٢) ومن هنا فليست الشجاعة مجرد فعل جسور ، بل هي « التحرر » من تقبل القيد والاخفاق والعدم ، تحرر من أجل الحرية والنجاح والوجود .. ولذلك فان الشجاعة تقاس عادة بمدى الاستعداد للعمل والتحمل ، بمدى القدرة على ملاقة الموت . ولذلك أيضا كائن الاستشهاد هو غاية الشجاعة وكانت شهادة الدم هي تاج

موجود في عود أبدى لا ينتهى . . . (ان) كل من يعرف حقيقة العود الأبدى يعرف أيضا كيف يتخلص من الأغلال التي تقيده بالموجودات وتجعله عبدا لها وكيف يرتفع بنفسه فوق كل ما يدخل في نطاق العالم من أشياء وموجودات - غير أنه لا يرتفع فوقها الا ليعود اليها عودة أصيلة ولا يتجاوزها الى العالم الرحب الشامل الا لكي يجدها من جديد » (ص ٢١٠) .

« وإذا ما انتقل الى تناول فكر « بواينبوس » ولخصي كتابه « عزاء الفلسفة » ركن على أن المفروض أن يكون هدف الإنسان الأقصى هو السعادة القصوى أو الخير الأقصى المائل في الله ، ومن ثم يجب أن يكون سعى الإنسان نحو الألوهية . . . ومن ثم فلا يجب أن يحزن لشر وقع له كان نتيجته تعرضه للسجن ظنًا « فمادمت تؤمن بأن حكمة الله لا الصدفة العشوائية التي تدبر الكون فلا شك أن شغافك غير مستجبل » (ص ٢٢٤) . . . إذن فإن الشر لا يدوم « ما من شيء مخلوق له صفة النوم » (ص ٢٢٦) وعلى هذا فلماذا أصاب الإنسان ظلم عليه أن يتماسك ، عليه أن « يتحرر » من التسييس المطلق « (لو امتلكت السيطرة على هذه النفس فسوف تمتلك تسبنا لا يصعب من ولا يستطيع القدر أن يسلبك إياه » (ص ٢٢٦) . . . وبالسيطرة على النفس « أى بالتحرر من امكانية الضياع يمكن للإنسان لا أن يركز على طلب الجزء ، بل طلب الكل ، السعادة الكلية ، الخير الأقصى . . . (لا بد من التسليم في آخر الأمر بأن السعادة الكاملة هي والألوهية الكاملة شيء واحد . ولنستعمل الآن بنوع من الاستدلال الذي يلجأ اليه الرياضيون . . . فلما كان الناس يتمتعون بسعادة حين يلفون السعادة وكانت السعادة هي الألوهية فمن الواضح أنهم يصلون الى السعادة حين يصلون الى الألوهية » (ص ٢٣٣) . . . ان « الخير هو السعادة ، والسعادة الحقيقية هم (الأليون) فيقدر ما يكف الإنسان عن فعل الخير ، بقدر ما يكف عن الوجود نفسه ويقتدر ما يشارك في الخير ترداد مشاركته في الكمال الإلهي » (ص ٢٣٦) . . . ومن هنا فإن العزاء الذي نقول به للفلسفة هو أن « تتحرر » من فعل الشر لأن في هذا تقويضا لنه لتبنا ، لجدارتنا ، تتحرر من أجل الخير الذي تكمن فيه كل هذه الأشياء » .

والدكتور منكوى في استقراره للوحة رفائيل عن مدرسة الحكمة يوضح أن التفلسف «تحرر»

من العصبية لجنى من الاجتناس أو عصر من المصور أو طبقة من الطبقات « فالفلسفة لا تعرف الغنى ولا الفقر ، ولا تميز بين السلطان والشحاذ . ان عينها النافذة لا ترى الرداء الخارجى بل تتجه الى الانسان ايما كان . كذلك لا تفرق الفلسفة بين المشوب والاجتناس ، معى الوحه يرى اليوناني والمصري ، والمفولى والعبرى » (ص ٢٥٧) . . . بل أنه وهو يعرض للخلاف الذى نشب بين سارتر وكامو حول كتاب الأخير « المتعذر » بمجد « التحرر » من التمسب للراى الواحد لأن الراى الواحد لا يملك الحقيقة كلها ، فنحن « لا نملك الا الاعجاب بهذا الخلاف الذى دارى صميمه حول الانسان وعذابه ومصيره فى عصرنا الحديث . وطبيعى أن الفرد الواحد لا يمكنه أن يملك الحقيقة كلها ، كما لا يمكن أيضا أن يكون كل ما يقول أو يفكر فيه خطأ كله . ولقد اظهرت هذه المناقشة . . . ان الخلاف هو الشرط الاساسى للقاء ، والحوار بين الاشخاص والافكار هو الدليل الاول على حرية الفكر والضمير » (ص ٢٧٦) . . . فالحوار عنده تحرر من الانغلاق وتطلع الى الانفتاح . . . ثم يخصم المؤلف معظم الانصارين الآخرين لهيجر بحديته عن الشيء وعن الفن . . . وبروز فكرة هيجر من أن الشيء هو الذى تتجمع فيه العناصر الاربع : الارض والسما والفلانين والخالدين لأن الشيء هو الذى يبرز الوجود من حاله . . . و « ليس وجود الانسان مجرد وجود على الارض وتحت السماء وامام الخالدين ولكنه كذلك وجود (مع) الاشياء . وفى الاشياء يتجمع الرباعى الفريد كما قلنا ، وعلى الانسان أن يشعر بهذه الوحدة الاصيلية للعناصر الاربعة وأن يبقى عليها فى الاشياء وذلك هو معنى وجوده وسكنه على الارض » (ص ٢٩٣) . . . وعلى هذا يجب أن « يتحرر » الانسان من النظر الى عنصر واحد فى الشيء حتى لا يفقد الوجود بكارته وامالته ووعشة خلقه الاولى ، عليه أن يعانقها فيه جميعا توصلا للجوهري ، أى « تحررا » من العزى . . . والفن عند هيجر هو ما من شأنه أن يجعل الوجود يظهر ويبرز تحجبه ، وفى هذا يقوم معنى الكلمة اليونانية « التخنى » techné « فاتخنى بهذا الفهم اليونانى اظهر للموجود من الغموض والخفاء بالمظهر الذى تراه العين منه و (التخنيس) ليس هو الصانع اليونى بل ذلك الذى يجعل الموجود يظهر على الحقيقة أو يجعل حقيقته تظهر فيه » وعلى هذا

فان الفن « يحرقنا » من التحجب وينقلنا الى « الا تحجب » .. يحرقنا من ظلام الجهل الى نور المعرفة .. يحرقنا من ظلام العدم الى شمس الوجود .. وعند هذه الشمس الساطعة ينتهي الكتاب بالطريقة عينها التي بدا بها وهو يتحدث عن الشمس الساطعة شمس الوجود عند هيراقليطس .

وهكذا يعزف الدكتور عبد الغفار مكاوي لحنا واحدا .. ومن خلف التنوع الشديد نجد نفمة واحدة هي نفمة « التحرر » تسرى في جميع المقالات خلف الكلمات كما تسرى الكهرباء خفية .. وكانت هذه النفمة وحدها كافية لتعطى وحدة لموضوعات الكتاب المتفرقة بدل تلك المحاولة - الباردة - وغير الضرورية - التي لجأ اليها المؤلف ليقيم وحدة من المقالات التي سبق له نشرها متفرقة وذلك باعطائه عناوين جديدة لكل مجموعة من المقالات كمحاولة تأليف وحدة بينها عندما يقول ان الفكر تطور وعلو وتحرر ودهشة واحتجاج وشجاعة وتواضع .. الخ .

وهذه النفمة الواحدة هي التي تعطي للكتاب نكهة حلوة بالنسبة للتأليف الفلسفي ، ليست المسألة ان نكتب عن ريسل او فنتجنشتين او ابي الحسن السابكي او الحسن بن الهيثم .. بل المسألة هي كيف نجعل من هذه الشخصيات اشكالا بالنسبة لنا ، كيف نحولها الى مشكلات تمس وضعنا الراهن وصميم وجودنا الحالي حتى لا يكون البحث الفلسفي مجرد « ارباسك » أكاديمي جميل حقا لكنه خال من الانفصال ، وبالتالي خال من النعمة الجمالية الحقيقة .. ان الدكتور عبد الغفار مكاوي - كما يتبدى من الكتاب - مفهوم يروح العصر ، مفهوم بالقيود التي يحيا فيها الانسان المعاصر : قيود الجور والعدم والألم والموت والتزمت والسطحية وتشبيهي الانسان .. ومن هنا كين حديثه عن العلو ورحلة الاءاء والرفض الايجابي والوصول الى الواحد الذي هو من العالم لكنه يعلو على العالم لانه يريد ان يجد الانسان الذي لا تزال لديه رغبة في تغيير العالم « هل بقي في زمن اصبح ينادي بالتعالى ويعانده بكل قوته - ربما لانه يخافه ويهرب منه - من لا تزال لديه المقدرة او الرغبة في العلو اليه ؟ وهل نجد بيننا من يتحمل مشقة العلو على العالم والمجتمع والعصر لا لانه يتعالى عليه او يفر منه ، بل لانه يريد ان يجرب الحياة كأنها ولد فيه .(العالم) من جديد



ف . بشارة

« التكنيك » لكنه ليس خروجاً عن جوهر الشعر الذى هو الإبداع ، ومن ثم لا يستطيع أى شاعر من شعراء الشعر الحر أن يتحلى عن البعيلة ، وهذا جوهرى للتعبير شعرياً ، وهنا لا حرية للشاعر ، الحرية المتبقية لديه هى ماذا يمكنه أن يفعله بالتعبيلة بنائياً انطلاقاً من تكيهه هو الخاص في الصياغة .. الشاعر حر في التكنيك ، لكنه ليس حراً في النوع الأدبي الذى يكتب تحت ظلاله .. والأمور كذلك في الفلسفة .. ليكون التعبير مصطبغاً بالصبغة الشعرية مليهاً بالحرارة والتدفق والاحاسيس الباطنية ذات التجنيح الخيالي ، لكن الذى سيظل قائماً هو «النسق» المتأخر .. الذى سيبقى هو الفكرة وهى تتنامى بالمفاهيم .. وربما كان هذا هو المسئول عن التقليل من عظمة فكر كيركجور ونتيشة وبعض كتابات جيريل مارسل .. وربما كان هذا هو المسئول لدى الدكتور عبد الغفار مكاوى عن « فضاضية » الكتاب الذى كان يمكن أن يختزل الى حجم أقل ..

وهذا يجزئنا أيضاً الى قضية متعلقة بالشكل الفلسفى الا وهى : هل يمكن التعبير عن الفلسفة بدون مصطلح فلسفى ؟ ليس معنى هذا ان الكتاب خال من المصطلحات الفلسفية ولكنها مستخدمة فى اتساق نطاق ، وربما كان هذا مسئولاً عن عدم بروز فكرة هيدجر من الشيء نظراً لفرام هيدجر بالتلاعب بالمصطلحات وهو غرام ليس له نصيب لدى المؤلف المصرى .

بل ربما كان اهتمامه بإيصال النكرة بأبسط عبارة للقارئ هو المسئول عن عدم تبيين حدود المؤلف من حدود المؤلفين ، الذين اعتمد عليهم .. حقاً لقد كان أميناً فى ذكر المصدر الأساسى الذى اعتمد عليه فى كل معال ، لكن داخل العرض نفسه ، لعدم وجود اقواس ، ساحت عبارات المؤلف مع العبارات الواردة فى الراجع التى اعتمد عليها ..

وبرغم هذا نظل الحكمة فى «مدرسة الحكمة» للدكتور عبد الغفار مكاوى متالفة لا كتور نسير على هديه بل كمصباح يدعونا الى أن نصنع بأنفسنا مصابيح أخرى قد تكون أقل عظمة او أكثر تالقاً ، لكنها ستكون مصابيحنا نحن ، وهذا هو هدف الكتاب الذى يظل حكمة دون مدرسة، والا وقع الكتاب فيما أراد المؤلف أن يفيه طوال صفحاته ..

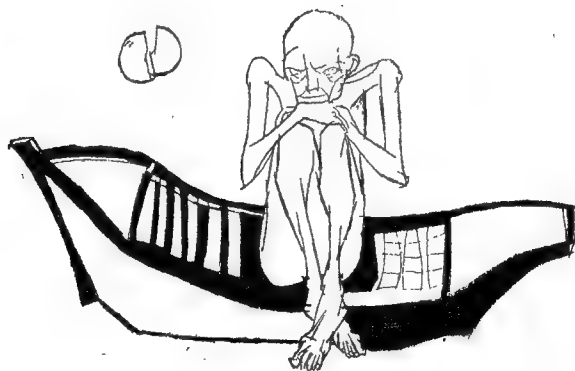
(مجاهد عبد التميع مجاهد)

ويبدل جهده لكي يحبه ويفهمه ويفوض بحق في جواره واندماجه « (ص ١٨٥) .. وفي هذا يدمن جهد المؤلف الفلسفى وتجديده لعنى الفلسفة ، فليست الفلسفة مذهباً ، حكمه ، مجموعة من الاقوال او التسامرات ، بل الفلسفة عنده بنفسه . « الفلسفة هى التفلسف » كما يصح التفلسف ضرورة باطنه ورسائه دائمة لا يستطيع الانسان ان يتخطى عن حمل أمانته ومسئوليتها الا اذا اراد التحلى عن حقيقته كإنسان « (ص ١٢) .. ومن ثم فصر المؤلف جهده فى كتابه على « تهديد الأرض الصالحة لفعل التفلسف نفسه وتطهيرها من كل ما يعوقه من عقبات تنجم عن التزمت أو الكسل أو الإغراق فى التفاصيل والجزئيات « (ص ١٦) ..

لكن .. اليس التوحيد بين الفلسفة والتفلسف مسالمة تحتاج الى اعداد بصر ؟ اليس هذا خلطاً بين التفلسف من حيث هو فعل من افعال التفكير والسلوك والفلسفة من حيث هى علم التعبير عن هذا الفعل ؟ اليس الخلط أو التوحيد بين العسمة والتفلسف خلطاً وتوحيداً بين اشكال والمحتوى ؟ يقول آخر ، لكى يمكننا التعبير عن فعل التفلسف يلزمنا شكل صلب فيه هذا التفلسف .. والاعشنا التفلسف ولم يعرف غيرنا ما اذا كنا قد عشنا هذا التفلسف ام لا .. ومن ثم تسقط القضية التى أوردها المؤلف عابراً من ان سقراط لم يكتب كتاباً فلسفياً بل عاش الفلسفة ، لقد عاش التفلسف ، لكننا قد عرفنا أنه قد عاش التفلسف عن طريق « الشكل » الذى أبرز به افلاطون وأكرينوفان « تعبيره » عن هذا التفلسف .. إن الدكتور مكاوى يوحد بين الاثنين .. هنا من جهة ، ثم من جهة أخرى هو يعد التعبير الفلسفى اقرب الى الشعر بالجوء الى الصور منه الى الفلسفة بالجوء الى المفاهيم . ويبدو ان الدافع فى هذا هو الخشية من جمود المذهبية ، لكن هناك فرقاً بين التزمت والجمود فى داخل المذهب ، والتعبير عن الفكر غير التزمت فى نسق وبناء متناسق من طريق مفاهيم والتصورات .. ولكن قد يقال « ربما يكون الامر مثالية تجديد فى التعبير الفلسفى .. ألم يسبق نيتيشة وكيركجور بالتعبير عن الفلسفة على شكل يوميات ومذكرات وقرات قصيرة متفرقة مزوجة بالصور الشعرية والخيال والتجنيح ؟ لكننا قد نفهم ما حدث هنا من خلط بين « التكنيك » و « الشكل » الفلسفى » بشكل أفضل اذا اخذنا نموذج الشعر الحر .. فالشعر الحر فى حقيقته خروج على

رأى جديد في الشعر واللغة

ابراهيم الصيرفي



من علاج . وهي من أجل ذلك ترفض كثيرا مما استقر في أذهان النقاد القديمي ومن قب لهم من دارسي الأدب المحدثين : من مبادئ وقضايا كان الفن الشائع أنها السبل إلى إدراك الشعر . وترفض المقدمة ما ذهب إليه « تين » في ثالوثه المركب من الجنس والبيئة والعصر . وتحدث المقدمة عن التاريخ والشعر ، أو عما في الشعر من تاريخ مشيرة إلى أن « تاريخه يغابر طريقة المؤرخين بما فيه من وجود استيطقي يردّه إلى كيانه حيث ينبغي أن يكون من وعي كل جيل على مدى العصور » .

ثم تعرض المقدمة بعد ذلك لوجهة نظر الفيلسوف الألماني « مارتين هيدجر » في رسالة عن هلاكن ماهية الشعر ، لتخلص بنا إلى قول هذا الفيلسوف عن علاقة الشعر باللغة : « فالشعر لا يتلقى اللغة قط مادة يصرف فيها كأنها معطاة ، من قبل بل الشعر هو الذي يبدأ بجعل اللغة ممكنة الشعر هو اللغة البدائية للشعوب والأقوام ، واذن ، فيجب خلافا لما قد تنوهم . أن نفهم ماهية اللغة من خلال ماهية الشعر » . وتؤكد المقدمة هذا الاتجاه بما ذهب إليه كاسر في كتابه « الأسطورة واللغة » وما ذهب إليه كل من كروتشمه وفيكو من قبل . واستتبع ذلك من الباحث أن يدخل بنا إلى التفرقة بين الدلالة الشعرية والدلالة الإنسانية عند كارل نوسلر ريتشاردز .

وتنتهي بنا المقدمة بعد تلك الملامح السريعة إلى هدف الباحث الدكتور لطفي عبد البديع من كتابه ، إلى قوله : « ونحن إذ نبحث عن اللغة في القصائد التي نعرض لها في هذه الفصول لا نبحث عما فيها من لفظ مستعار أو وجه من وجوه التشبيه ، بل हमنا الوقوف على الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة باعتبارها فكرا للشعر لا يلبث الشاعر معه أن يجد نفسه - على ما يقول مارلو يونتي - وقد احاطت به الكلمات من كل جانب » .

« وفي هذه الكلمات يخلق الشاعر عالما جديدا يقيمه على انقاض الغناء في المعركة الالهية بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والإنسان وإلى هذا العالم تلعب المعاني لتتناق مع غيرها لتدل على الوجود الشعري وتحققه . وفيه تتلاقى شتى الصور والتراكيب وقد تظاهرت جميعا لابرأز الدلالة الكلية » .

هل تظل الأشياء كما هي حين تغفو شعرا ؟ والكلمات .. إلى أي وجود تستحيل في دنيا الشعر ؟ أنظر في أصابرها المعجمية ، أم تستغنى وقد بحث فيها الشعر روحا من عنده ، وأخرجها من متعارفاتها الألفية اللوثيقة : هذا ما يحاول الدكتور لطفي عبد البديع أن يجيب عليه عمليا بتحليله لعدة قصائد تمتد في الزمن آلاف السنين .. من الحادر طرفة الجاهليين حتى شوقي وناجي وعلى محمود طه في القرن العشرين .

والدكتور لطفي عبد البديع ، ومعه نفر من نقادنا الجدد ، يطعم إلى رؤية في الشعر العربي غير تلك التي استقامت بها ذوقياتنا في التلقي والاسماع . فهو يطأ بنا بالمخاضة عن المألوف والمستقر من مفاهيم أرساها النقاد الاقدمون . هو ، ومن يهجون نفس السبيل ، يطأ بنا بالمزيد من الجهد والتأمل والعناء وادمان القراءة حتى تفتح لنا القصيدة بعض أبواب مدينتها . ولما لم تكن لدينا العدة إلى ذلك ، كان من أقرب الطرق لكم نربح أنفسنا من تلك الجماعة ، ومنهم الدكتور لطفي عبد البديع ، ومن عنايتهم ومعاناتهم أن نرفضهم ، حتى لا نلقى أنفسنا . وذلك ، كما يبدو للوهلة الأولى ، لون من ألوان الدفاع عن النفس . ولكنه في الحقيقة الدفاع عن موتها ، لا عن حياتها . انه الدفاع عن جمودها وتبلدها لا عن الفساح الطريق لانتفاضتها وتجددها وإنارة مسارها وتفتيح قدراتها .

وأغلب ظني أننا إذا ما غامرنا بالأصغاء المخلص المضمي إلى هذا النفر من نقادنا المخلصين خلصنا إلى عالم يبهرننا .. وإخذنا إلى وجوده الأرحب والأعق . فانت حين تلعب نفسك على القراءة وفق ذلك الاتجاه ، أيا كانت قدرتك وإدواتك ، وثق أنك بالمران صاقلهما ومنيهما ، ستبلغ ما يدخل إلى نفسك تلك المتعة العظيمة ، متعة التعرف والكشف والخلق . والا فتصحبك هؤلاء يقرأون لك .. ما دمت لا تستطيع أن تقرأ .. ولا تؤاخذني ، فتلك حقيقة تنطبق على النساس جميعا بدرجات مختلفة ووفق مجالات مختلفة .

الكتاب الذي أشرف بمحاولة عرضه هو كتاب « الشعر واللغة » للدكتور لطفي عبد البديع . والكتاب مؤلف من مقدمة وحيزة جبا ، خطرة جدا وقراءة تحليلية فنية لسبع عشرة قصيدة كما ذكرت والمقدمة تعالج في إيجاز شديد ما بين اللغة والشعر من انفصام ، وما يورده الكتاب لهذا

فلندخل معا الى عالم من تلك العوالم الشعرية ،
يرودنا اليه الدكتور لطفي عبد البديع • وليكن
العالم عالم الحادرة في قصيدته « بكرت سمية »
والدكتور لطفي عبد البديع ، شأن بعض نقادنا
المحدثين ، يمسك بالشعر ينامله ، بهزل عن كل
شيء الا انه شعر • ينظر في تجاور الكلمات ،
فيما تبته من وجود وما تفجره من خلق حين تصبح
شعرا • لا يقف منها موقف النحوي أو البلاغي
القديم • للأسماء والأفعال والصفات والخروف حين
تصبح شعرا دلالاتها الخارجة على مألوفها المعجمي ،
الإشاري ، لها فعاليتها الشعرية الخاصة •

ولكنه قبل أن يدخل بنا الى تلك القصيدة ،
يشاغبنا قليلا ، لا حبا في الشغب والمشاغبة ،
انما هو ينتهي من وراء ذلك أن يخلصنا من بعض
ما قد يكون مستقرا بداخلنا من أمور لا يجب لنا
أن ندخل بها على الشعر • فهو يقول لنا ان الحادرة
شاعر مقل ، فان كنت تظن ان الاقلال علامة
ضعف ، فالحادرة فحل ، ولقصيدته اسمعية
مفضلية ، وهو يقول لنا خلصوا انفسكم قبل
أن ندخل الى ذلك العالم مما استقر فيها مما
يسمى باغراض الشعر ، والا فانكم لن تروا في
القصيدة ، شأن من يلهجون بالاغراض الشعرية ،
سوى طرف من مذهب العرب في الفخر مهد له
الشاعر بالنسيب ، ثم تأوي منه بعد ذلك الى
الخر ومجلسها والناقة وصلتها ، هو اذن
يشاغبنا ، أو يحذرنا ان نفقد ما وراء ذلك من
غريز السارية (أرى الماء المنهم من سحابة سارية
لئلا) والنظاف (أى المياه الواحدة نقطة) والجنازة
التي لم ترفع والحياة التي تروى وتسمع وغير ذلك
من المعاني المتقابلة والكائنات المتباينة • ذلك
كله كما يقول الدكتور لطفي عبد البديع من الأمور
التي لاسوغ لها عند من يذهبون هذا المذهب سوى
أنها من قبيل الاستطراد والثوب بين المعاني ان
هذا ومثله مسوغ •

يحذرنا اذن أن نأخذ بما ذهب اليه القدامى من
انقسام القصيدة الى اغراض ، حتى لا يفوتنا
جوهر القصيدة ونخرج منها كما دخلناها • ثم
يعود فيلج في تحذيرنا ان نأخذ بما يقول به بعض
المحدثين من نقادنا من ان القصيدة انما تفتقر الى
وحدة الموضوع (ما دامت شتى اغراض) • فالوحدة
التي يقول بها هؤلاء صلاى وحدة نفسية •
يخلعها دعائتها على قصائد بعينها ثم يعجزون بعد
ذلك عن اجرائها على سائر الشعر ، فهي قلميما



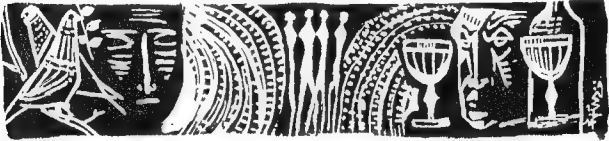
نظر الدكتور لطفي عبد البديع في تجاور
الكلمات ، الاسم والفعل والحرف ، ليرينا كيف
تفعل نار الشعر المقدسة بذلك كله . . . ووقف بنا
بعد ذلك عند أداة النفي . . . « لم » في « لم يربع »
لينتقل بنا الى اختها في البيت التالي :

وتزودت عيني غداة لقيتها
بلوى البينة نظرة لم تقلع

(اللوى متعرج الرمل ، والبينة موضع ، لم تقلع ،
لم تكف) ليقول لنا ان النفي احدى سمات هذا

تصدق عليه أو تستوعبه ، وانما الشأن فيها
كالشأن في أوجه النظر النسبية التي لا تصدق
الا على قدر محدود من الحقائق . ثم كيف يتأتى
لعميار واحد ان يفتح مغاليق الشعر على تباين منازعه
الاستيعابية واختلاف منابه الروحية ؟ اليس من
التصور التوقف عند ذلك والاستغناء به عما
تستوجبه طبيعة الشعر من ثراء ؟ »

ويحاذرنا ، كما جاء في المقدمة من قبل وحتى
لا ننسى ، ان نأخذ اللغة الشعرية مأخذ اللغة
الاشارية ، فالأسماء والأفعال والحروف والأصناف



العالم الشعري وهو ليس بالنفي المطلق الذي
يقترن بالاستسلام بل هو نفي مقترف بعزيمة
المغالبة . ذلك ان قول الشاعر « لم تقلع » يشبه
أن يكون معناه « لم أظفر منها بشيء سوى نظرة
لم أبلغ معها ما أريد » ولكنه ساق الفعل مساق
الالابات المارة للتوتر الذي يحدثه التضارب بين
التأمل في الشيء واقتضائه .

وكذلك يفعل بالنفي في « لم يربع » . ويغالف
الشراح في قول الشاعر :

وتصدفت حتى استبتك بواضح
صلت كمتصصب الغزال الأتلع

ليقول لنا ان « تصدفت » تذهب فيه سمية
كما ذهب من قبل في غدت وكما فصلت في
مفارق ، ثم نؤول بعده الى حركة شعرية محضنة
يتلاقى فيها العنق الناصع وصيد الغزال ومقلتنا
الحورية . وهكذا ينفي عن الصورة مجرد الوصف
والتشبيه ، ليدخل تلك العناصر في وحدة حياة
شعرية . فليس الشأن في « واضح صلت » ان
الشاعر أقام الصلة مقام الموصوف بل ان الشاعر
اسبغ على الصلة اسمية اقتنص فيها اشعاع العنق

تصبح ، حين تصير شعرا ، شيئا آخر . .
فسميته « ليست سمية الوجود الحقيقي الواقعي
انما هي سمية الوجود الشعري » . فكيف تأتي
هذا الوجود ؟

يقول الشاعر :

بكرت سمية بكره فتمتع

وغدت غمو مفارق لم يربع

اذا ما قرأنا هذا البيت ، فمتيح قصيدتنا ،
قراءة الدكتور لطفي عبد البديع له ، أدركنا
معه ان سمية لا تظهر في الصراع الأول الا
لتختفي في الصراع الثاني . واذا ما نظرنا الى
تجاور الصراعين ومجاورهما ، وجدنا ان هذا
الاختفاء تعق عليه اضافة (غمو) الى (مفارق)
يفرق في الإبهام الذي يجلبه التذكير ، ويوغل
في التذكير وكان حقه التأنث ، ثم لا يبقى لفعل
الامر (فتمتع) الذي صادفناه في الصراع الأول
من البيت الا ذلك الرنين الحزين الذي يلاحقه
النفي في قوله . « لم يربع » (من قولهم رجع بالمكان
اذا أقام) .

جوهره ويتنفس فيها لأنها روحه ، ولا يعرف
الفرح من يجهل الترح ، ولا يعانق الحياة من
لا يخوض غرات الموت .

على انني برغم تلك الاطالة البادية معترف اني
قد قصرت كثيرا حين قيمت بتلك العملية السبئية ،
عملية التلخيص .. فقد انسربت من بين يدي
لمحات غنية ، بحيث لا يتسع ما نقلت اليكم الا كما
تنقل الصورة الفوتوغرافية عن الأصل ، مع شيء
من المبالغة في هذنا التشبيه الجائز ، لذلك أرجو
مخلصا أن تعود الى ما كتبه الدكتور لطفي
عبد البديع نفسه ، عما لك أن تنتفع به وتستعد
وتجد نوعا من المتعة لا عهد لك به مع قراءة
شعرنا العربي القديم .. العظيم ، رد اليه هؤلاء
النفر من نقادنا عظمتهم اذ عرفوا كيف يدخلون اليه
من أبوابه .

ولكنني في النهاية أدري أن ما قدمه لنا
الدكتور لطفي عبد البديع من قراءات لتلك
القصائد من الشعر التي امتدت عبر الزمن بما
يربو على خمسة عشر قرنا .. ليست القراءات
الأخيرة ، أو الوحيدة ، وأنا أؤم أنه لا يرفض
ذلك وإنما يستشير به ويبحث له ، فهناك قراءات
أخرى لتلك القصيدة وغيرها من القصائد التي
قدم لنا الكتاب قراءات لها ، حياة ومتوقفة .
وأرجو أن أكون قد أثرت فيك شوقا الى التعرف
على عالم هذا الناقد الجليل . وشكرا له على ذلك
الاسهام الذي قام به في حياتنا الشعرية .

ولكننا بعد ذلك العرض السريع لمقدمة
الكتاب وقراءة الدكتور لطفي عبد البديع لقصيدة
الحادرة ، وقد ظننا وكلنا أمل أن يكون ظننا خيرا ،
اننا بذلك مقدمون للقارئ صورة عن ذلك الكتاب
القيم الذي نعرض له في تلك الكلمة ، نجد لزاما
علينا أن نقوم بمحاولة مبدئية لاعتصار لغة النقد ،
على يد الدكتور لطفي عبد البديع ، في مواجهة
الشعر .. وبذلك نكون قد قمنا للقارئ قطاعتين
قطعا راسيا وآخر اقلبا بهذا الكتاب .

الدكتور لطفي عبد البديع ، كما ألمحت على
ذلك كثيرا ، يهساك بالكلمات يتأملها ، حين نصبح
شعرا ، أو حين نقول كما نقول المقدمة وقصد
عادت إلى بكاريتها الأولى ، إلى صوت الضمير
الإنساني ، والوجود . يهساك بما في حالتهما
المختلفة من اسمية ووصفية وفعلية وحرافية ..

وخلوصه وإشراقه ، أما العنق ذاته فقد أخفا ،
دما أخفى جيد الغزال في (لمنتصب الغزال) .

وتجعلني حورا تحسب طرفها
وسنان حرة مستهل الأدمع

وهنا ينبع استحابة
بفرض سبارية أدوته الصبا
من ماء اسجر طيب المستنفع
ظلم البطاح له انهلال حريصة
قصفا النطاف بعيد المقلع
لعب السمول به فاصبح مأوه
غللا تقطع في أصول الخروع

ويكشف لنا الدكتور لطفي عبد البديع عن
العلاقة بين تلك العناصر بعضها ببعض ، وعن
علاقتها جميعا بالوجود الإنساني مولدا ورضاعة
وفناء . ثم ينتقل بنا الى ما يسمى بالفخر ..
ليقول لنا ، بعد كلمات شارحة موضحة معمقة
لفهم القصيدة ، ان الشاعر يستروح في ضمير
الجمع الذي يستند اليه افعال الخير (أنا نعل ..

ونلي بأن مالنا احسان) نحو في الذات التي
تكبر بتلاقيها مع غيرها . ثم ينتقل بنا ، مع
الشاعر ، الى مشهد الفتية الذين يشربون الخمر
صباحا بمرأى من الحياة ومسمع يقول لنا ان
الشاعر لم يبعد حين اتبع معاني الخير ، فيما يسمى
بالفخر في القصيدة ، بمعاني اللذة هذه التي
يخالطها ما يشبه الموت فان هذه سبيل من تلك
فهؤلاء الفتية كأنها يقفون عند حدود الموت والحياة
حيث تنتشق لذة الشراب عن طريقين : طريق
يحملهم الى حيث تراهم الحياة وتسمعهم وآخر
يلقي بهم في عالم الجمود والموت .

كل عناصر القصيدة تتراوح اصداؤها وتتجاوب
وتنصهر صورها وتتدامج كما قلت من قبل في
بوقة نار الشعر المقدسية . فسمة والغزال
والسحابة وما يسمى بالفخر ومشهد الفتية ، وأنا
أحذر ضمك أن تروها بالتفصيل كما يربنا إياه الدكتور
لطفي عبد البديع ، وتلك النوق السواهم ، في آخر
القصيدة ، نوق ذهب السفار بلحومها وشحومها ،
هذه النوق التي لا تروى من ظما ، هي ومن عليها
كائنات مجنونة لا تخطو الا فوق القبور . بيد أن
تلك الأرواح المجدبة التي تظالمك بها نهاية القصيدة
باب عن أبواب الظهارة التي ترمز لها اسمية
وسحابة هاربة من الأرض الى السماء لتندفق على
البسيطة عزا وإرادة يستند اليها المرء لأنها

انت مع اللغة بازاء معركة لا تهدأ بين ايجابية الوجود وسلبية العلم ، على ان ارادة الشاعر ، محققة بلغته الشعرية ، هي السمة الغالبة على قراءات قصائده الكتاب ، (ويمكنه تتبع هذه الارادة في عدة قصائد) .

والنفاة من اخطر الرموز والدلالات الشعرية حين تلتقي بها في الكتاب فهي « روح عاتية وقوة من قوى الكون ، والنوق ومن عليها ، في قصيدة الحادرة ، كائنات مجنونة لا تخطوا فوق القبور . ونافاة طرفة نافقة عكف الشاعر على اعضائها يتقصاها كما يعكف عابد الصنم على الصنم يسمح بانطرافه ، وكما يعكف العاشق على مشوقه بقلبه وبناطجه ، وهي عند المخيل السطحي في قصيدته « ذكر الرباب » ارادة تنبئ من اغوار البحر وجوف المصحراء ويتقي بها الظنون والالوهام .

ومن ابرز المصطلحات التي تعينك على فهم مغاليق قصيدة من الشعر ، في الغالب ، ذلك المصطلح الذي يقدمه لنا الدكتور لطفي عبد البديع عند قراءته لثوية ذي الاصبع العلواني ، وهو يحاول من خلاله ان يتعرف على عالم تلك القصيدة وهذا المصطلح هو ما اسماه « اثنيية الاطراف » التي تتألف منها الحقائق الشعرية ، وايسست اثنيية الاطراف هذه كما يقول الاستاذ المؤلف « ضربا معينا من التركيب ، كمرعاة النظر او الزاوجة او الجمع مع التفريق ورد المعجز على المصدر ، بل هي اعم من ذلك واشمل وتدخل فيها هذه الانواع جميعا » .

ويستمر الدكتور لطفي عبد البديع موضحا لاثنيية الاطراف هذه فيقول : « والاثنيية الاطراف والمتشاكلة بينهما قد تكون حرفية كالتركيز ، وقد تكون تركيبية وفكرية ، وبينها درجات شتى من التباين يؤثر الشاعر منها ما يشاء مما تتسق به المادة الشعرية » .

ثم يخبرنا انها ظاهرة عامة في سائر الاداب وعند شتى الامم منذ اقدم الآثار الشعرية عند البابليين وفي مزامير داود . . ومن قال ان الحياة صراع فقد قال انها ازدواج واثنيية .

ابراهيم الصيرفي

الخ ويمسك بها من حيث علاقاتها بالزمان والمكان ثم يقوم بتحليلها من خلال وجودها الشعري ومن خلال تجاورها وفعاليتها المختلفة تأثرا وتأثرا .

الشاعر قد يأتي بضمير الجمع ، في صيغ مما يسمى لدى التقليديين فغرا ، ولكن الناقد يواجه ذلك الاستخدام على ان الشاعر انما « يستروح في ضمير الجمع الذي يسند اليه افعال الخير نموا في الدات التي تكبر بتلاقيها مع غيرها والشاعر قد يستخدم أداة النفي على غير ما تعارف عليه اللغويون حتى ليأتي بنفي متنازع فيه مكرور عليه بعزيمة المغالبة لابطاله . وعباود الدكتور لطفي الكرة مع حروف النفي في قصيدة اخرى لربنا اياها وقد اطلق الشاعر من خلالها زفرات تنطلق لاهنات ، وملتقى به مرة اخرى في موقف من مواقف النفي ينفض دليلا على الالبات وينبئ عن المغالبة التي يقوم عليها الوجود الشعري في شتى كائناته . كذلك نلتقي بالنفي ، في قصيدة اخرى ، وهو يحمل الانتصار على النقيصة فوق اوجنته الى البطولة الخالدة التي لا تتأني الا بالنازعة والمغالبة . وعنده ان « لا النافية في موطن آخر ، بايقالها في النفي اقدر على اثبات الحقيقة الشعرية من سواها » ، لأن النفي عند الشاعر بمثابة ابطال الواقع الذي يصدر فؤاده . والصفات قد يسبغ عليها الشعر اسمية تخلص بها من الوصف الى عالم خاص اثري .

وللافعال بين حالاتها الزمنية المختلفة ، وفي مسافاتها الشعرية المتفردة ما يستحق ان يتامله الباحث عند الدكتور لطفي عبد البديع . . فالفعل المضارع في سياق شعري ما ، يجري مجرى السجين الذي يعاصر الشاعر ، ولافراد الافعال في سياق آخر وتكررتها ما يمثل لحظات الشك والالام التي تنتزى بالشاعر ، ولافرادها وجه آخر يدل على طبيعة العالم الشعري . وبطغيان الفعل تلتقد الاسماء لثابتها ، وتتجاوز حدودها الارضية الضيقة الى العالم العلوي الذي لا يعرف الحدود . وافعال الإيمى قد تفسيق الحنابق على صاحبها ، وقد تفتي افعال المضارعة به الى السعة ، ومن هنا نذكر ان افعال المضارعة قد تكون مرة سجنيا وقد تكون مرة اخرى سعة ، وذلك بحسب وجودها الشعري . وقد تغلب الادوات والحروف على ما عداها في قصيدة ما ، فتصيبها عند شاعر رد الانسية الى اصولها والرجوع بها الى كمالها ، (انظر قراءته لقصيدة ذي الرمة) .

فايز صايغ

بين الدبلوماسية والإعلام

عباده كليب



في الفترة من ٢٤ الى ٣١ أغسطس الماضي ،
وبدعوة من السيد/ محمد فائق وزير الارشاد
القومي زار القاهرة الدكتور فايز صايغ مستشار
وفد الكويت في الامم المتحدة . . والدكتور
صايغ فلسطيني الأصل ، تخرج في جامعة
بيروت العربية ، وحصل على الدكتوراه في
الفلسفة من جامعة جورج تاون الامريكية ،
واشتغل فترة أستاذا ومحاضرا بهذه الجامعة
وجامعات أمريكية أخرى ، ثم التحق بجهاز الاعلام
بجامعة الدول العربية . . وأصبح أخيرا مستشار
وفد الكويت لدى المنظمة الدولية .

وإذا كنا قد عرفنا الدكتور صايغ من خلال
المقابلة التلفزيونية المشهورة مع المعلق الصهيوني
مسكايند D. Susskind ، واعجبنا برده
المتزن الهادئ المقنع في الوقت نفسه ، أزاء
الاستفزازات التي وجهت إليه ، فإن هذه لم تكن

المرّة الأولى التي يواجه فيها الدكتور صايغ دعاوى الصهيونية ويفند هذه الدعاوى ، فإن له عشرات البرامج الإذاعية والتلفزيونية خلال عشرين عاماً ، اسهم بها اسهاماً مخلصاً وجاداً في الدعاية للقضية الفلسطينية .

وللدكتور صايغ ستة كتب صدرت عن مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ، هي :

- الامم المتحدة والقضية الفلسطينية
- حثّة من ضباب ؛ بحث في مفاهيم البورقيبية وشعاراتها
- جرائم في التربة ضد العرب داخل اسرائيل
- هل تعلم ؛ عشرون حقيقة أساسية حول القضية الفلسطينية
- الاستعداد الصهيوني في فلسطين
- الدبلوماسية الصهيونية

جميع هذه الكتب صدرت منها طبعات بالعربية والانجليزية والفرنسية والاسبانية .

يقدر الدكتور صايغ ان القاعدة العامة التي تحكم العمل الصهيوني على المستويين السياسي والدبلوماسي هي المرحلية . . . يقول « ان المرحلية مبدأ نهجي وليس مبدأ غائياً ، المرحلية ليست تمريناً تقوم به الصهيونية من أجل المتعة او حبابه لنفسه ، وانما هي نهج فرضته عليها طبيعة عملها من جراء البون الشاسع بين هدفها وبين واقعها ، وما دام الأمر كذلك ، فالمرحلية تظل سبيلاً تسلكه الحركة الصهيونية الى أن تبلغ نهاية سعيها في احضان هدفها الأخير . . . ان وجودها في حد ذاته نزوع ، وليس وجوداً قاعداً ، ولا يوقفها عن الامتداد طوق او سياج ، حتى ولئن هي تظاهرت بالقبول به مدة من الزمن . . . فقط بالقضاء على القاعدة الصهيونية قضاء تاماً تتعطل طاقات التحرك منها والامتداد المرحلي ، لان الحركية المرحلية الصهيونية لا تهدأ الا في احدى حالتين : حالة الاكتفاء التام الناشئ عن الشبع وبلوغ الهدف الأخير ، أو حالة الشلل الكامل الناشئ عن تحطيم قاعدتها » .

والنشط المرحلي هذا تتخذة عدة ضوابط هي ، الواقعية أي التوافق مع الظروف الموضوعية في مرحلة ما ، والمرونة من حيث اختيار الأساليب للوصول ، ثم الاتراجع وهو الحد الأدنى من

المطالب في كل ظرف ، وأخيراً التصاعد أي الانتقال الى مطالب جديدة مرحلية .

في ضوء هذا من الممكن أن نفسر ما يقال من أن هناك معتدلين ومتطرفين في اسرائيل ابتداء بهرتزل وانتهاء بديان ، هؤلاء جميعاً متفقون والخلاف في الظاهر فقط ، وهو خلاف في التوقيت أولاً وأخيراً ، ما يريد أن يحققه المتطرفون اليوم ، هو ما يريد أن يحققه المعتدلون غداً . .

الصهيونية إذن تنتقل من تحقيق غرضي تفرده اتفاقات الى تحقيق غرض لا تفرده اتفاقات ، وعلى الدبلوماسية أن تبرر هذا الانتقال ، وسألتها هنا تزييف المعنى الأصلي للاتفاقات السابقة ، والتراجع بين التفسير بالحرف وبين التفسير بالنيات ، ثم الذبذبة بين استناد صفة الالتزام الى بعض الاتفاقات وانكار هذه الصفة عن اتفاقات أخرى ، وتحويل معاني بعض الألفاظ ، واختلاق اتفاقات لم تعقد أصلاً . . . أخيراً قطع التمهيدات الرسمية مع نية النكث بها . . . هذه المعاني الستة يجمعها جميعاً عنوان واحد هو التضييل .

واذا جاز لنا البحث عن جدار فلسفي للدبلوماسية الصهيونية لقلنا ان نظرية العمل الدبلوماسي الصهيوني تتألف من ثلاثة مبادئ فلسفية هي **الشخصانية** ، باعتبار تأثير الأفراد في اقدار شعوبهم ، وخاصة اذا كان هؤلاء الأفراد في موقع سلطة ، وهذا يقتضي بالضرورة الاعتماد على الاتصالات الجانبية والسرية أساساً ، المبدأ الثاني **اللاعقلانية** ، من حيث ان الإنسان ليس مكوناً من عقل فقط ، وانما هناك أهواء وانفعالات وغرائز تحكمه ، ومن ثم يجب مخاطبة كل بلغة خاصة ، **ثالثاً** اللاأخلاقية ، أي أن تعمل الدبلوماسية في خدمة السياسة من أي طريق ، ولو أدى هذا الى التضحية بالأخلاق .

صدر هذا الكتاب قبل حرب يونيو بأيام . . . ولكن اذا كان هذا هو حديث الدبلوماسية . . . فإين إذن حديث الاعلام ؟

أجرى الدكتور صايغ في القاهرة أربع لقاءات حضرها عدد كبير من المثقفين وغير المثقفين ، وهذه ظاهرة صحيحة ، وعلامة على مرحلة جديدة وجادة في الطريق الى فلسطين ، الى جانب أنها تقدير واجب ازاء انسان عرفناه وأحببناه .

تمت هذه اللقاءات في معهد الارشاد ، حوار مفتوح ، الاتحاد الاشتراكي العربي ، المعهد الدبلوماسي .

والتزويد بالمعلومات ، وقملا حققت هذه المنظمات مكاسب عظيمة في الاوساط الجامعية ، ثم هناك ايضا المغتربون العرب ، وهؤلاء من الممكن أن يلعبوا بالنسبة للقضية العربية دورا يماثل الدور الذي يلعبه اليهود بالنسبة لاسرائيل ، ويجب استقدامهم وتقنيهم عربيا وفلسطينيا .

والدكتور صايغ لا يستنكف أن نستعين بغير العرب من أجل خدمة قضيتنا ، صحيح أن الحافز أقل لكن التأثير أكبر ، خاصة اذا عرفنا ظروف الاعلام العربي وتخلفه الواضح ، وليس عيبا أن نستعين بالاجانب ، لأن القضية الفلسطينية ذات ابعاد انسانية عامة الى جانب ابعادها القومية الخاصة ، وأبرز ما في هذه الابعاد الانسانية مشكلة اللاجئين ، وليس غريبا ان تعدد اسرائيل نفسها الى اثاره هذه المشكلة ، من أجل أنه تمتصها ، فتزعم ان الفلسطينيين تركوا اراضيهم بإرادتهم ، وإن الدول العربية تستخدمهم كالعوبة سياسية ، ثم هي تقارن بين احوال اللاجئين الفلسطينيين الى البلاد العربية واللاجئين اليهود من البلاد العربية !!

ان علينا واجب استقطاب المعلقين الامريكيين في الراديو والتليفزيون والصحف ، وهؤلاء هم الذين يشكلون - حقيقة - الرأي العام الأمريكي . ولكن الى أي مدى من الممكن أن يؤثر الاعلام - وفي أمريكا بالذات - في ممرتنا المصرية العسكرية في النهاية ؟

ان الدكتور صايغ يؤكد انه ليس ممكنا التفوق على الدعاية الصهيونية ، ولكن من الممكن كسر احتكارها أو الحد من مفعولها ، بحيث يؤثر هذا على الموقف الشعبي (التبرعات) والموقف الرسمي (التأييد) . . . وهذا كله سوف يؤثر بالتعبئة والضرورة على حجم القوة المادية للعدو ، فلا يجوز أن نستعدي من يمكن تحييده ، وإذا وجد هذا العدو ، فإنه يجب السعي الى تهيئته .

بعد مقابلة ساسكاياند وصلت الى الدكتور صايغ عدة مثبات من الرسائل كان ٩٧٪ من هجئه الرسائل تؤيد وجهة النظر العربية و ٣٪ تعارضها .

بعد ذلك يقول الدكتور صايغ :
« لا أتوقع أن يتبدل موقف أمريكا تبنيها ، ولا أتمنى هذا ، حتى لا تقول أجيال شوف ، ثاني بعد : انت خسرت معركة ، ثم جاءت أمريكا تساعدك فكتسبتها » .

عبادة كحيلة

يقدم الدكتور صايغ صورة سلبية للرأي العام في الغرب وبخاصة في الولايات المتحدة ، فكثير من الامريكيين يعتقدون أن فلسطين منذ انتزاعها هي وطن اسرائيل ، ويتساءلون باستغراب : ما الفرق بين أن ينصب العربي خيمته شرق نهر الاردن وبين أن ينصبها غرب النهر ؟ وهو يفسر هذا بعدم توافر المعلومات عند الانسان الامريكي العادي الى حد أن أقل من ١٪ من الامريكيين كانوا يعتقدون ابان حرب يونيو ان العرب على بعض الحق .

من الواجب اذن تغيير هذه الصورة خفية أن يتحول العداء الامريكي لنا من عداء عن جهل الى عداء عن علم . . . والفرصة متاحة أمامنا اليوم أكثر من أي وقت مضى الى صورة اسرائيل في ذهن الانسان الامريكي كبذل ضعيف صغير مسالم اهتزت بعد حرب يونيو . . . لقد حدث تقريبا نفس الشيء سنة ١٩٥٦ ، لكننا لم نحسن استغلال ما حدث .

ان تحولا حدث فعلا في الرأي العام العالمي والرأي العام الامريكي ، لكن هذا التحول كان نتيجة مباشرة لاختطاف اسرائيل (حادثة مطار بيروت مثلا) والمقاومة الفلسطينية التي كثيرا ما توصف بأنها حرب تحرير لا اهراب . . . أي أن هذا التحول لم يكن نتيجة جهد اعلامي عربي مباشر .

ما الحل اذن ؟

يجيب بأن الدعاية للقضية العربية يجب أن تتكيف حسب ظروف كل دولة ، بل كل مدينه وكل جماعة أو طائفة ، لأن الناس تختلف أهواؤهم ومشاربهم والانظمة الاجتماعية التي تحيط بهم . . . شيء غريب حقا أن يكون نص نشرة عربية واحدة في دولة معينه هو نفس النص في دولة أخرى ، بصرف النظر عن الظروف التي تعيشتها هذه الدولة .

تأتي بعد ذلك ضرورة انشاء معهد لتربية الدعاة ، يتضمن برنامجا نظريا عندما تم فترة تدريبية في الخارج ، من أجل التعرف على المناخ العام للنظر الذي سوف يدور مجسلا للدعاية العربية .

والدكتور صايغ بعد ذلك يهتم بالدعاية غير المباشرة ، أي الدعاية التي تقوم بها جهات عربية غير رسمية ، وأهم عناصرها المنظمات الطلابية العربية في الخارج ، تضم هذه المنظمات في الولايات المتحدة وحدها مسجلة آلاف طالب لاتنصهم الحباسة ، وإنما الذي ينقصهم التنظيم

أدراك هيلم ثمام الإدراك أننا بلغنا نهاية مرحلة فكرية معنية سادت لمدة أربعة قرون ، ومن خلال
هذا الإدراك ، مضاناً إليه تنبؤ به مقدم فاسفة في الحياة أشد نزوعاً إلى الطلق ، شكل أفكار جبريل جبريل.

الاتجاه الكلاسيكي الجديد

عن د هـ م

ماهر شفيق فريد



على الرغم من أن الشاعر ، والنقاد ، والفيلسوف الانجليزى توماس ارنست هيوم ليس بالاسم المشهور حتى بين طائفة المثقفين ، فإنه كان قوة من أهم القوى الثقافية التى شكلت أذهان الأدياب والمفكرين في مطلع هذا القرن . وكان نه فضل الريادة في نقد رومانتيكيه القرن التاسع عشر ، والدعوة الى ضرب من الكلاسيكية جديد ، تتحقق فيه أهمية القيم الشكلية، وتتوارى الميوعة العاطفية والانفعالية السهلة . فقد كان هيوم فى حياته وفكره على السواء نموذج الفكر العقلاني النافر من الابهام والتجريد والساعى وراء الدقة والوضوح . وقد تأثر بأفكاره جيل كامل حوى فيمن حوى اقرا باوند ، و.م.س. اليوت انلذين كتبنا عنه وأقرا بفضلهم عليهما . وكان هيوم هو مؤسس جماعة « التصويرية » التى ظهرت حوالى عام ١٩١٣ وأكدت أهمية الصورة الشعرية والقصد فى التعبير ، مما نرى صداه فى قصائد باوند واليوت وريتشارد الدنجتون وهيلداوليتل وايبي لويل ود . هـ . لورانس .

ولم ينشر هيوم أى كتب مؤلفة أثناء حياته . وانما ظهر له بعد موته كتابا «خواطر : مقالات عن النزعة الانسانية وفلسفة الفن» (١٩٢٤) و «ملاحظات عن اللغة والاسلوب» (١٩٢٥) وكلاهما من تحرير هربرت ريد . وكذلك ظهر له فى عام ١٩٥٥ كتاب « مزيد من التاملات » تحرير سام هاينز . وأعماله الشعرية لا تتجاوز خمس قصائد قصيرة . كذلك ترجم عن الفرنسية «مدخل الى الميتافيزيقا » لبرجسون (١٩١٣) و « تاملات عن العنف » لجورج سوريل (١٩١٦) .

حياة عاصلة

ولا شك فى ان الفضل الاكبر فى استنقاذ هذه الاعمال من غمرة النسيان انما يرجع الى السير هربرت ريد الذى تولى أوراق هيوم ، بعد وفاته، بالتنسيق والترتيب . ويحدثنا ريد عن حياة هيوم فيقول :

« ولد توماس ارنست هيوم فى السادس عشر من سبتمبر ١٨٨٣ فى جراتون هول ، انلون ، بتوت ستافورد شاير . وتلقى دراسسته فى المدرسة العليا ، نيوكاسل اندرايم ، وفى كلية القديس يوحنا بجامعة كامبردج . وفى مارس ١٩٠٤ طرد من تلك الجامعة ، مع بعض زملائه ، لاشتراكهم فى مشاجرة . وقضى العامين التاليين فى لندن ، يدرس على النحو الذى يهواه . وفى

يوليو ١٩٠٦ سافر الى كندا حيث قضى ثلاثة اشهر . وعاد الى انجلترا بضع اسابيع ثم مضى الى بروكسل فى مطلع عام ١٩٠٧ حيث اشتغل لمدة سبعة شهور بتدريس الانجليزية وتعلم الفرنسية والالمانية . وعندما عاد الى لندن بدأ يدرس الموضوعات التى انصرف اليها باهتمامه طوال حياته . وفى أبريل ١٩١١ حضر المؤتمر الفلسفى الذى عقد ببولونا وبقي بجواب أنحاء إيطاليا حوالى ثلاثة اشهر . وفى مطلع عام ١٩١٢ سعى الى العودة الى كامبردج ، وسمح له بذلك عن طريق وساطة الفيلسوف برجسون ، الذى زوده بكتاب توصية يوهى الى التأخير الذى كان هيوم يحدته فى عازليه :

« يسرنى أن أشهد بأنى اعتبر المسترت . ا . هيوم مفكرا ذا قيمة كبرى . فهو يحفل الى دراسة المسائل الفلسفية صفات نادرة من الرهافة والنشاط والضماء . واذا لم أكن مخطئا خطأ فاحشا فانه لمن المقدر له أن ينتج أعمالا شائقة وهامة فى مجال الفلسفة عامة وربما على وجه الخصوص فى مجال فلسفة الفن » .

لم يكن مزاج هيوم بالذى يقبل الانصياع بسهولة للقالب الاكاديمى ، وهكذا لم يتم دراسته الجامعية ، وانما غادر كامبردج بعد فترة قصيرة من عودته اليها وسافر الى برلين حيث قضى تسعة اشهر اكتسب فيها معرفة واسعة بالفلسفة وعلم النفس الاانيين ، ثم استقر فى لندن بعض الوقت حيث بدأت شخصيته القوية واحادته الذكية تجتلب مجموعة من الششيان يؤثرون فى جيل كامل . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فانقسم هيوم الى فرقة المدفعية الشرقية ثم مضى الى فرنسا بعد عيد الميلاد وعام ١٩١٤ بفترة قصيرة . وجرح فى ربيع ١٩١٥ حيث قتيل قرب نيوبورد

(مذكّرة عن المذكرات) وقد وجدت بين أوراقه ما يمكننا من أن نعيد تركيب أهدافه وطرائقه في العمل . لقد كان هدفه أن يحتفظ بما يلي :

(أ) فكرة يومية كان يحملها معه دائما ، ويدرج فيها كل فكرة وملاحظة تعن له .

(ب) مجموعة من الكتابات يدرج فيها ما يلوح له جديرا بالبقاء من تلك الفكرة عند إعادة النظر فيها وفهرستها .

(ج) وعندما تبدأ فكرة عامة في الانبثاق من قلب هذه المذكرات المتراكمة يفتح مفكرة أو أرشيفا جديدا ، يدرج فيه كل الأفكار التي يمكن أن تنضوي تحت لواء تلك الفكرة العامة .

(د) وفي هذه الفكرة الجديدة يؤلف الكتاب المراد تأليفه .

وهذه « المذكرات عن المذكرات » لسؤ الحظ تبدو بين آخر ما كتبه هيوم ومن ثم لم يكن ممكنا له أن يتابع فيها هذا النظام متابعه كامله . لقد ترك وراءه مئات من المذكرات يتفاوت حجمها ما بين قطع من الورق لا تزيد عن حجم طابع البريد ، وصحائف كاملة من المذكرات عن موضوع معين . كان قد استخيم الكثير من هذه المواد في مقالاته المنشورة بمجلة « فانويج » أو في محاضراته . ولكن أغلبها مجرد إيماءات الى فكره : كلمات وعبارات مفتاحية . ومع ذلك فقد كانت في ذهنه بضع أفكار عامة ، وكان ثمة ستة كتب على الأقل تتشكل في ذهنه . وهذه الكتب هي :

- ١ - كتاب عن النظريات الحديثة في الفن .
- ٢ - مدخل عام الى فلسفة برجسون .
- ٣ - كتاب عن جيكون ايشستاين وعلم جمال النحت .
- ٤ - كتاب عن التعبير والأسلوب أوسيكولوجية الأدب .
- ٥ - سلسلة من الكتيبات المناهضة النزعة الانسانية والرومانيتية ، ومعالجة فلسفة ما قبل عصر النهضة .
- ٦ - مذهب فلسفي خاص صيغ على نحو رمزي .

أفكار جيل جديد

وفيما يتعلق بالكتاب الأول كتب هيوم بعض الملاحظات عن علم الجمال الحديث وفصلا عن نظرية برجسون في الفن . أما الكتاب الثاني فقد كان يقوم على أربع محاضرات عن برجسون القاها في



ت . س . البيوت

بالفلاندرز في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩١٧ .

دفاع عن ايدولوجية الحرب

كان هيوم محاربا بطبيعته ، وقد أطلع هذه الطبيعة بحماس نادر المثال . وتشهد مدثراته الكثيرة عن المشاكل الفنية لاستخدام المدفعية واستراتيجية الحرب عموما باهتمامه الجاد بهذه الامور . وفي ملاحظاته الحرة التي نشرها في مجلتي « فانويج » (الفصل الجديد) و « كامبردج ريفيو » (مجله نامبردج) تحت اسم مستعار ، اثناء عامي ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، دافع عفلا عن ايدولوجية الحرب مما اثار دهشة المستعزين الذين لاح لهم سببا الدفاع عنينا بغير ما هو عليه ضروري ، ودعشة دعاة السلم الذين كانوا يظنون ان كل المتعنين يؤيدونهم .

ولم يتوقف هيوم ، في هذه الأثناء ، عن متابعة نشاطه الثقافي . فقد نشر الكثير من المقالات في الدوريات والمجلات . وعندما مات خلف وراءه مجموعة كبيرة من المذكرات والمخطوطات التي يتكون منها كتاب (خواطر) . ومن شذوذه المسماة

لنبدأ عام ١٩١٣ • والكتاب الثالث عن جيوكوب إيشستاین كان قد قطع فيه مرحلة طيبة ولكنه احتفى بعد موته • وأعماله الأوفر حظا من الإصالة ككتابه عن التعبير والأسلوب لا تعدو أن تكون ملاحظات تهميسية توميء للنوئل إلى سلاسل الأفكار التي تبتعثها فيه أي صور أو انطباعات • وسلسلة كتيباته قد ظلت في حيز التخطيط أكثر مما خرجت إلى حيز الوجود • ولا ريب في أن مقالاته المنشورة عن النزعة الإنسانية ، والموقف الديني من الوجود ، والرومانتيكية والكلاسيكية، قد كانت خلية بان تظهر في تلك السلسلة التي كان يريد بها أن تكون بمثابة فحص نقدي كامل لايديولوجيات عصر النهضة ، ورد اعتبار فلسفته ما قبل عصر النهضة •

وثمة إيماءات إلى اتجاه فكره في هذا الموضوع في مقدمته التي كتبها لكتاب سوريل (تأملات عن العنف) • وأخيرا فهناك العمل الذي كرس له هيوم القسم الأكبر من فكره ، والذي ظل يصمه دائما نصب عينيه ، ألا وهو إنشاء مذهب فلسفي خاص صيغ على نحو رمزي ، كمدب نيتشه المبسوط في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) وعمدة النهاية • هو القضاء على فكرة أن العالم وحدة أو أن أي شيء يمكن وصفه عن طريق الكلمات • وتغطي المذكرات الخاصة بهذا الكتاب رقعة واسعة من الزمن - ربما شملت عشر سنوات أو خمسة عشر سنة - وكثيرا ما أعاد صاحبها كتابتها وتنقيحها • غير أنه لم يمنحها أي شكل نهائي • وإذا استثنينا اسم أفرا الذي أعطاه للشخصية الرئيسية في هذا الكتاب ، فسنجد أنه ليس من الممكن تبني تركيبه الرمزي • وقد أطلق هيوم على هذه المذكرات اسم «جمرات» •

هنا ما يقوله هربرت ريد عن هيوم • وثمة ناقد آخر هو والتر جاكسون بيتي يلخص في كتابه المسمى **مداخل إلى النقد** (١٩٥٩) ما أنجزه هيوم فيقول : -

« **أي هيوم تأثيرا واسع النطاق في النقد الحديث - وذلك بتفريجه - على نحو يتسم بالإيجاز والحيوية - عددا من الآراء أثبت أنها ثلاثية الزواج**

الحديث • ولم تكن قد عبر عنها نظريا من قبل • أو أصبحت تعاديا على الفن • أن كتاباته السديدة هي في الحقيقة أقرب إلى أن تكون منشورا وجيزا أو إعلانا لاصول منها إلى أن تكون تحليلا أو نظورا لموقف معين • ومن ثم فإنه لم يعد بقرا الآن ملوما **كهن يقرا في أوخس** والعشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، حتى من جانب النقاد والقراء الذين يكررون الآن نفس آرائه باصطلاحات كان هيوم أول من روج لها • »

النزعة الشكلية التجريدية الحديثة

فنحن نجد - بادئ ذي بدء - أن هيوم قد آمد النقاد الإنجليز والأمريكيين بعقيدة عامه لنزعة الشكلية التجريدية الحديثة • بعد دعم هيوم رد الفعل الذي بدأ في الظهور ضد فن القرن التاسع عشر ، يفيد القوموس الرومانتيكي واستخدام الرومانتيكيين للعاطفة بقاياه في حد ذاتها • وعبر عن رد الفعل هذا وعلى نحو أشد صراحة ونفاذ ، وفي مقالته المسماة « **الفن العتيق** » قسم الفن قسمين مفاجئا - إلى نوعين : « **هندي** » و « **حيوي** » • ولا النوعين يعبر عن طريقه جذرية في النظر إلى الحياة • ما بين « **الحيوي** » يسمى إلى أن يتشعب عن عمليات الطبيعة الحية والعنصرية ، وإن تان هيوم يذهب إلى أنه لا « **يشعب** » عنها بقدر ما يبتزج الصفات التي يجعلها تم يسقطها عليها • وهذا الصرب من الفن - الذي يرجع إلى الأداء « **الطبيعي** » أو « **الواقعي** » موضوع - ينشأ عندما يشعر الإنسان بأن تبه صلة عضوية بينه وبين العالم الخارجي • أنه يتمثل في فن الأقدمين ويعاود الظهور في عصر النهضة باعتباره الشكل الفني المعبود • والرومانتيكية هي آخر مرحلة لهذا الفن • وقد انتهت - عند نهاية القرن التاسع عشر - بعاطفية مفرقة فضاضة لا معنى لها - أو بما يعبر هيوم : « **إنها حالة التمتع التي كتب عليها نسو حطنا آن نعيش فيها** » • ومن ناحية أخرى فإن الفن « **الهندي** » أو التجريدي - على النحو الذي نجده في الفن المصري والبيزنطي القديمين ، وبعض ضربو الفن الشرقي - ينشأ عندما يسعر الإنسان بانفصاله عن العالم الخارجي وعن سائر البشر • وهنا يساور الإنسان الشعور ب « **التهيب** » أزاء الفضاء ، فيفرض شكلا صارما تجريديا لا حياة به على موضوعه ، محاولا بهذا أن ينظم خبرته على نحو يمكنه من التحكم فيها • ويعتقد هيوم أن القرن العشرين يتحرك في هذا الاتجاه • وقد دعم حجته بأن ربط بين هذا الاتجاه

القرن الثامن عشر • وفي مقابل ذلك نجد أن ما يهاجمه هيوم باعتباره رومانتيكيا إنما يقتصر على فن القرن التاسع عشر • وهو - مثل أرفنج بابيت - يصب هجومه على افتقار ذلك الفن إلى التسدين ، ويربطه بتمجيد النزعة الإنسانية والمواقف الرطبة والراء لذات وارتخاء قبضة الدين المنظم ، أو كما يقول : « أنك لا تؤمن بالجنة ولهذا تبدأ في الاعتقاد بجنة على الأرض » • وبمعنى آخر فإنك تحصل على الرومانتيكية : وإن خير تعريف تستطيع أن تقدمه لها هو أنها دين مراق • • وقد غدا الكثير من ملاحظات هيوم بمثابة عبارات محفوظة بعد الحرب العالمية الأولى • ويصدق هذا بصفة خاصة على ملاحظاته الموجزة عن الأسلوب ، فإن نعمته في هذا الصدد توحى بمثل أعلى يتوصل إليه عن طريق « التوهم » أكثر مما يتوصل إليه عن طريق « الأفعال » ، بالمعنى الذي أعطاه كولردج لهاتين الكلمتين ويتسم بجفاف الأسلوب وصلابته •

يرى هيوم في مقبالاته « الرومانتيكية والكلاسيكية » أنه بعد مائة عام من الرومانتيكية فإننا مقبلون على أحياء كلاسيكي •

ويرى أنه منذ حوالي عام مضى التي رجل اسمه فوشوا في مسرح الاوديون بباريس محاضرة عن واسبين أدلى أثناءها ببعض الملاحظات الانتقائية على بلادته وافتقاره إلى الابتكار وما إلى ذلك • وتسبب هذا في شغب فوري فقد تشبعت الممارك في كل الدار واعتقل أناس كثيرون وسجنوا وما لبثت بقية سلسلة المحاضرات أن القيت وماتت من الشرطة والمجندين منتشرون في المكان • لقد ثار هؤلاء الناس لأن المثل الأعلى الكلاسيكي شيء حي بالنسبة لهم واسبين هو الكلاسيكي العظيم • وهذا هو ما يدعو هيوم اهتماما حيويا حقيقيا بالأدب • فهم يعتبرون الرومانتيكية مرضا مخيفا شفيت منه فرنسا لتوها •

والامر يتعاقد في حالتهم من جراء الحقيقة الماثلة في أن الرومانتيكية كانت هي التي أحدثت الثورة الفرنسية • لقد كان هؤلاء الناس يكرهون الثورة ولهذا يكرهون الرومانتيكية •

ولا يعتذر هيوم عن زجه بالسياسة هنا • فالرومانتيكية في إنجلترا وفرنسا على السواء ترتبط بأراء سياسية معينة • وهي في فرنسا قد ارتبطت بالثورة وباراهيوسو الذي علم الناس أن الإنسان بطبيعته خير وأن القوانين والعادات الرديئة وحدها هي التي قمعت - فلنتخلص من كل هذا واستنتج الفرصة لامكانيات الإنسان

وانتمعشاش النظرة الدينية التي تؤكد انفصال الإنسان ، وتقوم على عقيدة « الخطيئة الأصلية » • ومن الممكن أن تنقبيل تقسيم هيوم للفن إلى هذين النمطين باعتباره فرضا موجها • غير أنه لا يكاد يكون مقنعا على النحو الذي تركه عليه • وهو يترك الكثير من المشاكل الرئيسية لنظرية انقذ بلا اجابة • وأهم هذه المشاكل ما هو متضمن في الاعتقاد الكلاسيكي بأن الشكل ، بأي نوع من أنواعه ، ليس سوى الواقعية الموضوعية للشيء ، وحالته إذ يعمل في الطبيعة ذاتها ، وإن الفن يكون ذا قيمة على قدر ما يكشف عن هذا الشكل ، مؤديا إياه أو معيدا توزيعه من خلال وسيطه الخاص الذي هو الكلمة أو الصوت أو اللون • واعتقاد هيوم الضمني بأن الشكل في الفن الحيوي • وهم وابتداع ذاتي من تلقيق ذهن المتفنن هو طبيعة الحال ، تفسير ممكن لهذا الضرب من الفن • ولكن الفن (الهندسي) انذى دافع عنه هيوم ووضع على الطرف المقابل يمكن أن يكون ذاتيا هو الآخر • فهو مفروض مباشرة على الطبيعة ، بل أن قيمته الكبرى - كما أكد هيوم - هي أنه مضاد للطبيعة • كذلك لم يشرح هيوم مفهوم « التهيب أمام الفضاء » الكامن من وراء الفن الهندسي شرحا كافيا • وإنما افترض ببساطة أن وجوده أمر محتوم وكان يدافع عنه ، على نحو رومانتيكي ، لأنه « أعظم حدة » • أن كلا الاتجاهين مهتم بوسيط الفن على حساب موضوعه ، وكلاهما يصور تفكك التراث الكلاسيكي عن طريق الانسحاب من الحياة الواقعية • فالرومانتيكي ينسحب من الواقع إلى فن يعتمد على الاستجابات العاطفية المحفوظة • والتجريدي يواصل هذا الانسحاب رغم أنه يحتاج إلى عاطفة الرومانتيكي ويسمى إلى أن يستبدل بها طريقة أكثر تفننا في تحقيق استجابة المتلقي •

أحياء كلاسيكي جديد

وثمة عرض أقل تطرفا لنظرية هيوم في الفن نجده في مقبالاته القوية التأثير « الرومانتيكية والكلاسيكية » • ففي هذه المقالة يكرر اعتراضه على الرومانتيكي دون أن يوهن حججه بالربط بين ما ينفر منه وبين التراث الغربي بأكمله • والحق أن ما وصفه هنا على الطرف المقابل نظريا للفن الرومانتيكي إنما هو مفهوم الكلاسيكية واسع بما يكفي لأن يفضله يتضمن لآثار الكلاسيكيين القدمين وحدهم • وإنما أيضا آثار شكسبير وأغلب كتاب العصر الإيزابيثي والتراث الكلاسيكي الجديد للقرن السابع عشر ومطلع

هذا النحو : ان ذلك الجزء من الطبيعة الثابتة للانسان هو الايمان بالله . وينبغي ان يكون هذا ثابتا وحقا بالنسبة لكل انسان كالايمان بوجود المسادة والعالم الموضوعي . انه يوازي الشهية والغريزة الجنسية وكل الصفات الاخرى الثابتة . والان فانه في اوقات معينة وعن طريق استخدام القوة او البلاغة قد كبتت هذه الغرائز في فلورنسا

تحت ساقونا رولا وفي جنيف تحت كلفن وفي انجلترا تحت حكم الطائفة الدينية المعروفة باسم ذوى رهوس المستديرة . والنتيجة المحتملة لمثل هذه العملية هي ان الغريزة المكبوتة تنفجر في اتجاه غير سوى . وهكذا الشأن مع الدين . فمن طريق البلاغة الملتوية للعقلانية تكبت غرائزك الطبيعية وتتحول الى واحد من الاديدين . وكما هو الشأن مع سائر الغرائز فان الطبيعة تنتقم لنفسها . ان الغرائز التي لا تجد لها مخرجا سلبيا وملائما في الدين لا بد وان تخرج بطريقة اخرى . انك لا تؤمن بالله ولهذا تبدأ في الاعتقاد بان الانسان اله . وانت لا تؤمن بالجنة ولهذا تبدأ في الاعتقاد بجنة على الارض .

وبمعنى آخر فانك تحصل على الرومانتيكية . ان المفاهيم التي هي صحيحة وملائما في ميدانها الخاص تنتشر وهكذا تختلط وتزيف وتقيم الخطوط الواضحة للتجربة الانسانية . فالرومانتيكية والكلاسيكية صدى لهذين الموقفين من الكون ومن الانسان . ان الرومانتيكي لانه يظن الانسان لا متناهيا لا بد ان يتحدث دائما عن اللامتناهي . ولما كان هناك دائما التقابل المميز بين ما تظن انك ينبغي ان تكون قادرا على ان تفعله وما يستطيعه الانسان فعلا فان الشاعر الرومانتيكي ينجح دائما في مراحل التالية على الاقل الى ان يكون مكتئبا . ومن امثلة الكتاب الكلاسيكيين هو داس وأغلب الاليزابيثيين وكتاب العصر الاوغسطيني . ومن امثلة الرومانتيكيين لامارتين وهوجو وكيتس وكولردج وبايرون وشيل وسوينبرن .

ويقول هيوم انه عندما يفكر الناس في الكلاسيكي والرومانتيكي في الشعر فان التضاد يقوم على الغور في اذهانهم بين واسين وشكسبير مثلا . ولكنه يرى ان كليهما كلاسيكي . ان الناس يظنون ان الفرق بين الكلاسيكي والرومانتيكي مجرد فرق بين الكعب والوفرة . وهيوم يرى مع نيتمشه ان هناك نوعين من الكلاسيكية : السكوني والحركي . وشكسبير هو الممثل الكلاسيكي للحركة .

اللاهائية . وهذا هو ما جعلهم يعتقدون ان شيئا ايجابيا يمكن ان يخرج من القرض ويخلق حساسا اشبه بالحساس الديني ! ها هنا جلد كل رومانسية : ان الانسان الفرد مستودع لا نهائي للامكانيات واذا أمكنك ان تعمس تنظيم المجتمع بالقضاء على النظام المتعسف فان هذه الامكانيات ستتاح لها الفرصة وستحصل على التقدم .

ويستطيع المرء ان يعرف الكلاسيكي على نحو لا ليس فيه بانه النقيض تماما لهذا ، فالانسان حيوان ثابت ومحدود على نحو غير عادي ، طبيعته باقية بصورة مطلقة . وبالتقاليد والتنظيم وحدهما يمكن ان يستخرج منه أى شيء يتسم بالبلاغة .

وقد اهتز هذا الرأي قليلا في عصر داووين . وانت تذكر فرضه القائل بان الانواع الجديدة تاتي الى الوجود عن طريق التباين التراكمي لتنبؤات صغيرة - ويولوج ان هذا يسمح بإمكانية التقدم في المستقبل - غير انه في الوقت الحاضر يشق فرض فضاء طريقه على شكل نظرية لطرفة عند ديفريس .

فكل نسوع جديد يخرج الى حيز الوجود لا تدريجيا عن طريق تراكم خطوات صغيرة وانما فجأة بقفزة وتكون من اللهو وما ان يخرج الى حيز الوجود حتى يظل ثابتا بصورة مطلقة . وهذا يدعم وجهة النظر الكلاسيكية بسند من التأييد العلمي .

واذا وضعنا الامر بصورة موجزة فنستجد ان هذين هما الرايان الموجودان ، أحدهما ان الانسان في باطنه خير تفسده الظروف . والآخر انه في باطنه محدود ولكنه ينظم بالنظام والتقاليد ليصبح شيئا معقولا على نحو لا بأس به ، وعند احد الجانبين ان طبيعة الانسان اشبه بشر وعند الجانب الآخر انها اشبه بدلو . فالرأي الذي يعتبر الانسان بشرا ومستودعا مليئا بالامكانيات هو الرومانتيكي والرأي الذي يعتبره مخلوقا متناهيا وثابتا جدا هو الكلاسيكي .

وللمرء ان يلاحظ هنا ان الكنيسة قد اعتنقت دائما الرأي الكلاسيكي منذ هزيمة الهرطقة البيلاجية واعتناق العقيدة الكلاسيكية القائلة بالطبيعة الاصلية .

ومن الخطأ ان تطابق بين وجهة النظر الكلاسيكية وجهة النظر المادية . وعلى النقيض من ذلك فانها تتطابق - على نحو مطلق - مع الاتجاه الديني الطبيعي . ويضع هيوم الامر على

ناقصاً • لقد كان التراث الفلورنسى على وشك النضج التام عندما جاء **دافنيل** الى فلورنسا وكان التراث الفني ما يزال شاباً عندما ولد **تيتيان** في البندقية • وكانت المناظر الطبيعية ما تزال لها أو خلفية لرسم الأشخاص عندما هب **تيرنر** و**كونستابل** للكشف عن قوتها المستقلة • وعندما انتهى **تيرنر** و**كونستابل** من المناظر الطبيعية فانهم لم يتركوا الا القليل أو لم يتركوا شيئاً خلفائهم كي ينجزوه عبر هذه الخطوط نفسها • ان كل ميدان للنشاط الفني يستنفذه أول فنان عظيم يجمع منه محصولاً كاملاً •

ويرى هيوم ان هذه الفترة من النضوب قد بلغناها في الرومانتيكية فنحن لن نحصل على أى ازدهار جديد للشعر الى أن نحصل على تكتيك جديد ومواضيع جديدة نطلق لانفسنا العنان داخلها •

وعندما يقول هيوم انه لا يحب الرومانتيكيين فانه يفرق بين شيين : ذلك الجزء منهم الذى يشتركون فيه مع كل الشعراء العظماء ، وذلك الجزء الذين يختلفون فيه والذي يضى عليهم طابعهم كرومانتيكيين • وهذا العنصر الأقل مرتبه هو الذى يكون النغمة الخاصة للقرن التاسع عشر والذي يضايقنا • ويشعر هيوم بأن ثمة تغيراً مقبلاً وبأن هناك نسبة متزايدة من الناس الذين لا يمكنهم • ببساطة ، أن يهتموا رومانتيكياً كسوينبرن •

ان هيسوم يعترض حتى على أفضل الرومانتيكيين • يعترض ، أكثر من ذلك ، على الطبع الاستقبالي السالب • يعترض على العاطفية المفرطة التى لا تعتبر ان القصيدة قصيدة الا اذا كانت تثن أو تنوح على هذا الشيء أو ذاك ، ويذكر في هذا الصدد آخر بيت من قصيدة **لجون وبستر** تنتهى بطلب يوافق عليه بكل قلبه :

كف عن أنينك واخرج

وقد بلغ الأمر الآن مرحلة من السوء أصبحنا نجسد معها ان قصيدة جافة وصلبة ، قصيدة كلاسيكية ، بالمعنى الصحيح ، لم تعد تعطين شعراً على الإطلاق • فكم من الناس الآن يمكنهم ان يضحوا أيديهم على قلوبهم ويقولوا بصدق انهم يحبون هوراس أو بوب ؟ انهم يشعرون بنوع من التجرد عندما يقرؤونها •

ان الصلابة الجافة التى تجدها في الكلاسيكيات منفردة لهم بصورة مطلقة • فالشعر الذى ليس طبياً ليس بشعر على الإطلاق • وهم لا يستطيعون

وعلى ذلك فان ما يعنيه هيوم بالكلاسيكي في الشعر هو هذا : انه حتى في أكثر السباحات خياليه يوجد دائماً كبح وتحفظ • والشاعر الكلاسيكي لا ينسى قط هذا التناهي وهذا الحد للانسان • وهو يتذكر دائماً انه متمرج بالارض • انه قد يقفز ولكنه يمود دائماً • وهو لا يطير قط في الاثير المحيط بالارض •

• ولك ان تقول ، ان اردت ، ان كل الاتجاه الرومانتيكي يلوح متبلورا في الشعر حول صور التحليق • ان فيكتور هوجو يحلق دائماً فوق الهامو ويطير في الاثير وللمة « لا همتاه » توجد بين كل سطر وسطر من كتاباته •

• أما في الاتجاه الكلاسيكي فانك لا تلوح قط متارجحاً نحو اللامتناهي •

وأذا قلت شيئاً مسرفاً يجاوز الحدود التى تعلم ان الانسان مفيد داخلها ، فانك تنقل ، على نحو ما ، في النهاية انطباعاً بانك تقف خارجه ولا تؤمن به تماماً أو أنت تقدم ما قلته ، عن وعى ، على انه اغراب في الخيال • وانت لا تذهب قط دوز تبصر الى مستوى أبعد من الحقيقة ، جو أشد تخليصاً من أن يتنفس فيه الانسان طويلاً • انك تكون دائماً مخلصاً لفهوم الحد • انها مسألة تأكيد • ففي الشعر الرومانتيكي تتحرك على درجة معينة من البلاغة تطلب والانسان على ما هو عليه • انها تتسم بالمبالغة • وهذا هو نوع الشيء الذى تجده عند هوجو أو سوينبرن :

نهاية الحركة الرومانتيكية

ويتحدث هيوم عن الاسباب التى تجعله يظن اننا تقترب من نهاية الحركة الرومانتيكية فيقول انها تكمن في طبيعة أى مواضيع أو تراث في الفن • ان المواضيع العنيفة توازى ظواهر الحياة المفضوية • فهي تهزم وتضمحل وبها فتره مقررة من الحياة لا بد لها بعدها من ان تموت • ول انغمات الممكنة تعزف عليها ثم تستنفد • خذ حاله الازدهار غير العادي للشعر في العصر الإليني • ان كل أنواع الاسباب قد قدمت لذلك • اكتشاف العالم الجديد وما الى ذلك • وهناك ما هو أبسط بكثير • فقد منح الإلينيون وسيطاً جديداً لمتابعيها به : هو على وجه التحديد **الكثير المرسل** • لقد كان جديداً ومن ثم فقد كان من اليسير أن يعزفوا نغمات جديدة عليه • وهذا القانون نفسه ينطبق على سائر الفنون • فكل استنائة الرسم يؤلّدون في العالم في الوقت الذى يكون فيه التراث المعين الذى ينطلقون منه

والآن ارى

ان الدفء هو عين مادة الشعر

اي الهى ، فلتصغر

من ملأه السماء القديمة التى أكلتها النجوم

حتى يتسنى لى أن أطويها حولى ، وفي راحة

أرقد *

تجد ان ما يجمع بين هذه القصائد الثلاث انما هو نزوع - يكاد أن يكون متعمدا - الى قلب الاوضاع الرومانتيكية رأسا على عقب . فالقصيدة الاولى موضوعها الخريف ، وهو موضوع كان الرومانتيكى خليقا بأن يجعل منه مناسبة خصبة لىث اوجاعه والتسوحد بين حالاته النفسية والطبيعية . ولكن هيوم يتناول بهجاء ، بل وبرود ، باعتباره مستقلا تماما عن الوعي الذى يصفه . وفى القصيدة الثانية يجرى القمر من سحره الرومانتيكى ليعده مجرد « بالونة أطفال ، نسيت بعد اللعب » . وفى الثالثة لا يترك لنفسه العنان فى تصوير جيشان صلدرة الذى اهتز ، ذات مرة ، لمراى « كمين ذهبين على الطوار الصلب » ، وانما يسارع الى تأملات مجردة عن طبيعة الشعر ، وعن رغبته فى ترك كل هذه الانفعالات .

ونستطيع أن نقول مع بيتر وستلاند فى كتابه «الادب المعاصر : ١٨٨٠ - ١٩٥٠» ان منطلق هيوم فى كل هذا هو ايمانه بأنه من بين نواحي نقص الانسان المحتومة ، سوء الحظ المائل فى اننا لا نعى الا ما تذكره حواسنا . وإلى هذا القول أضاف نتيجة مؤداها اننا يجب أن نحصر كتاباتنا التخيلية فى هذه الحدود نفسها . وهذا يمكن تحقيقه باستخدام ايقاعات وقوالب الكلمات التى تستطيع أن توضح المعنى للحواس منفصلة عن الرسالة الموجهة الى الذهن . وفى أحضان هذه النظرية ولد قسم كبير من الشعر الحر فى أوروبا وأمريكا . وأدى ذلك الى تشجيع الاعتماد بالكلمات التى يتبقى استخدامها على نحو من الدقة يمكنها من أن تحوى داخلها - ان جاز لنا أن نقول ذلك - الصورة المراد توصيلها . لقد كان على الكلمات أن تكون مثل جواهر منحوتة حتى توحى للحواس أساسا بالفكر الذى تتضمنه .

آنت تنظيم هيوم هذه لغزتها . فقد حدث فور وفاته رد فعل واسع النطاق ضد الرومانتيكية ، تزعمه باوند واليوت وجويس ووندام لويس . فمن أعادوا اقرار المعايير الكلاسيكية ، وأخلوا السمع وراء الكمال الفنى ، والضبط والتحكم ، والقصد فى التعبير ، محلل الإغراق فى التعبير الذاتى والانفعال .

ماهر شفيق فريد



١ . باوند

أن يتبينوا أن الوصف الدقيق هدف مشروع للشعر . والشعر عندهم يعنى دائما ادخال بعض العواطف التى تتجمع حول كلمة « لا مثناه » .

من النظرية الى التطبيق

وقد سعى هيوم الى تطبيق هذه المبادئ على شعره الخاص . فتكنيكة الشعرى يقوم على التزام الدقة ، وتجنب السرف ، والابتعاد عن مبالغات الرومانتيكيين . انظر الى قصيدته المسماة « الخريف » :

لمسة من البرد فى الليلة الخريفية
سرت فى الخارج
ورأيت القمر الاحمر يتكىء على سور
كمزارع أحمر الوجه .
لم أتوقف لكى أتحدث اليه ، وانما أومات
برلمى ،

وحوالى كانت النجوم التواقه
ذات أوجه بيض كأوجه أطفال المدينة .
أو الى قصيدته المسماة « فوق حوض السفن » :
فوق حوض السفن الساكن فى منتصف الليل
يتنلى القمر . - مشيتبكا فى ارتفاع الصارى
الطويل ذى الاحبال .

ان مما كان يلوح بعيدا كل هذا البعد
ليس الا بالونة أطفال ، نسيت بعد اللعب .
أو الى قصيدته المسماة « الطوار » :
ذات مرة فى براعة الاقيشات وجدت النشوة
فى لمعة كمين ذهبين على الطوار الصلب .

من المؤلف ان كلمة « جنس » كلمة قبيحة وغالبا
غير مفهومة تماما . فما هو الجنس ؟ ان معرفتنا به تنقص كلما
زاد تفكيرنا فيه .

يقول العلم ان الجنس غريزة . لكن ما هي الغريزة ؟ من
الواضح ان الغريزة عادة قديمة وفطرية . ومع ذلك فان اية
عادة ، مهما كانت موهلة في القدم ، لابد وان تكون لها بداية .
لكن لا توجد بداية حقيقية للجنس . ويوجد الجنس حيثما
وجدت الحياة ، وعليه ، فان الجنس ليس عادة تم تشكيلها
وتكوينها .

ويتكلم العلماء مرة اخرى عن الجنس باعتباره شهوة مثل
شهوة الانسان للطعام . فالذا كان الجنس شهوة ، فلماذا
ان ؟ هل هو شهوة للتناسل ؟ ان هذا التفكير عبث وغير
معتقول . ويقولون كذلك ان الطاووس ينفش ريشه الجميل
كيما يبهز انثاء لتدعه يشبع شهوته للتناسل . فالذا كان الامر
كذلك ، لماذا انن لانفخ انثى الطاووس ريشها الجميل لتبهز
ذكرها فيبعثها تشبع رقيبتها في التناسل ؟ ان لانثى الطاووس
نفس رغبة الذكر الشديدة في البيس والتكاثر . وبناء على
ذلك لا يمكننا الاعتقاد بان الدافع الجنسي عند الانثى ضعيف الى
المعد الذي تجد نفسها عنده في حاجة الى اظهار روعة ريشها
الازرق كي تستثار . ليس الامر هكذا على الاطلاق .

وبالنسبة في ، لم ار ابدا انثى طاووس وهي تتأمل
القطرة البروزية والزرقاء لسيدها الذكر ، ولا اظن انها تراه
او انها تدرك الفرق بين البرونزي والازرق او البني والاخضر .

ولو كنت قد رايت انثى طاووس تعمن النظر في هيام ووله
الى سيدها في زهوه لا تعتكفت انه قد نفش ريشه مجرد
جذب اهتمامها . ومع ذلك فهي لا تنظر اليه ابدا . ويدفقت
انها تنجرا قليلا حينما ينفخ ريشه مثل شجرة داهمتها الانواء .
ولي هذه الحال تلاحظ الانثى وجود الذكر ببعض الصدفة .

وتبحث كل نظريات الجنس هذه على المحب ، فالطاووس
يظهر عظمته لمجرد ان هنالك انثى جميلة العيثن لا تنظر اليه .
ان العالم الذي قال بذلك كان على درجة من السذاجة جعلته

الجنس الجمال

د. هـ. نورنس
ترجمة:
محمود عبيد المرندي





د . هـ . لورنس

امانة اللثام عنه ، ويمكن وراء كل هذه النظريات ، الا وهو الرغبة في نفى ومحو لغوص الجمال .

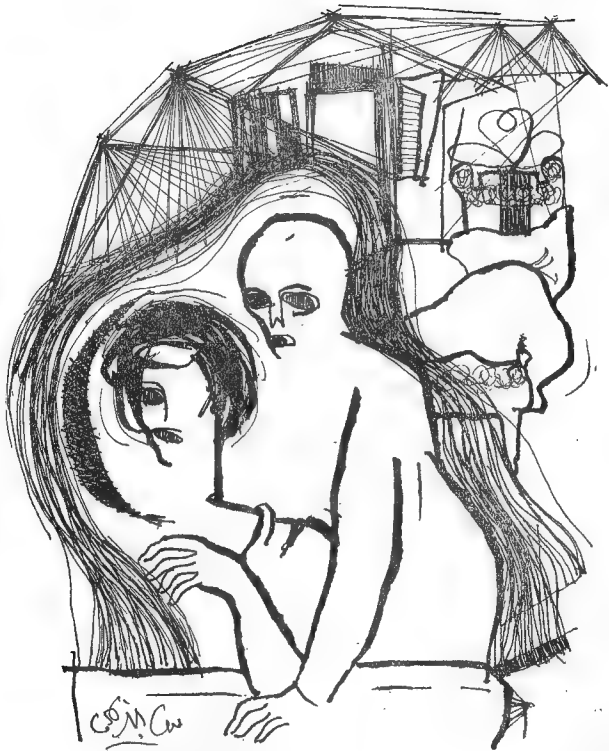
وكل هذا لان الجمال امر غامض . لا يمكنك ان تجعل الجمال طمسا ترويه او لباسا تستتر به . ويعني العلم ليقول بان الجمال حيلة من قبل الذكر لاحتواء الانثى وتربيتها في التكاثر . وهو كلام ان دل على شيء فانما يدل على استجابة . وكان الانثى في حاجة الى الترفيق ! انها تتكاثر حتى تحت جنح الليل - هل الجمال ان حيلة ؟

اتنا نجد ان العلم يتميز بكونه غامضة للجمال لان موضوع الجمال لا يمكن تطبيق مبدأ السببية عليه . اما المجتمع فيتميز بكونه غامضة للجنس لان الجنس يتدخل دائما في

ينظر الى انثى الطاووس ويبلغ عليها صفة التلويح اللذي السيدع للون الطاووس وشكله . آه .. يا لعظمة القيم الجمالية التي تتميز بها الانثى !

ويبدو البليل لكي يجذب انتباه الترتيميز بالوصول شديد فتراه يصيح بأعذب الحانه بينما يوشك شهر الفصل ان يتقضى . وهينذاك لا تمأ به انشاء - اطلاقا لانها تبدا في الاهتمام بصغارها . فاذا كان البليل لا يشدو ليجذب اهتمام انشاء فانما يشدو ليشتت انتباهها عن صغارها ويؤنسها في مجلسها .

كم هي مسلية وساذجة هذه النظريات ! لكن هناك رغبة خبيثة وراء كل هذه النظريات . هنالك شيء خبيث لا يمكن



لكن الجنس والجمال شيء واحد مثل الذهب والنار .
 فإذا كنت تبغض الجنس فانت تبغض الجمال أيضا . وإذا
 عشقت الجمال « الحي » فان عندك قبولاً للجنس . ويمكنك
 طبعاً ان تحب الجمال القديم الميت وتكره الجنس . لكن اذا
 عشقت الجمال الحي فلا بد ان تكون متحمساً بقبول للجنس .

المشروعات التي يقوم بها الانسان الاجتماعي لتدبر عليه الرزق .
 وتمتزج الكراهيتان - كراهية العلم للجمال وكراهية المجتمع
 للجنس - ويظهر الجمال والجنس على انهما مجرد شيتين
 للثبات .

ويستحيل الفصل بين الجنس والجمال لانهما مثل الحياة والشعور . والذكا الذي يتمشى مع الجنس والجمال وينبع منهما هو الحسد . وربما كانت اكبر مصيبة حلت بحضارتنا هي ذلك الشعور الرهيب بالكراهية تجاه الجنس . وعلى سبيل المثال : هل يوجد شيء اكبر كراهية للجنس وتسمما من التحليل النفسي الفرويدى ؟ انه علم يعوق في طياته خوفا مريضا من الجمال - الجمال الحى - وهذا الخوف هو الذى يسبب لنا فساد ملكتنا الحسية وذاتنا الحسية .

ليس المرض النفسى العميق الذى اصاب رجال ونساء العصر الحديث غير حالة من الفساد والوهن منيت بها الملكات الجنسية . ان هناك عالما متكاملا من الحياة يمكننا ادراكه والاستمتاع به عن طريق الجنس ، والجنس وحده ، وهو عالم حرمان منه لاننا رفضنا الجنس والجمال اللذين هما منبع الحياة الحسية . . انه العالم الذى يبدو رافسا في حياة الحيوانات الطليقة والنباتات .

والجنس جلدع اوراقه الحسى وزهرته الجمال . لماذا تكون المرأة رالمة في عشريناتها ؟ يرجع ذلك الى ان عشرينات المرأة هي الوقت الذى يبرز فيه الجنس بنعومة الى محياها كما يبرز الزهرة على داس خيولة او طرف فرس .

اما الجاذبية فهي جاذبية للجمال . ونحن نرفضها كلما امكنا ذلك . ونحاول ان نجعل من الجمال شيئا فارغا واجوف بقدر الامكان . ومع ذلك تبقى الرغبة دائما رغبة في الجمال . والجمال موضوع نبهله كثيرا ولا نستطيع الكلام فيه الا بالكد . ولهذا نحاول ادعاء ان الجمال تنظيم او تشكيل ثابت . انه مستقيم وصيرون واسعة . . الخ . . ونتفقد ان المرأة الجميلة يجب ان تشبه (ليليان جيتش) وان الرجل الجميل يجب ان يشبه (رودلف فالنتينو) . . او هكذا « نعتقد » .

وربما من ذلك ، نتصرف في الحياة الواقعية بطريقة مخالفة تماما فنقول : « انها امرأة جميلة » ، لكنى لا اعيها بها . وهذا قول يعنى اننا نستخدم كلمة « جميلة » استخداما خاطئا تماما . وما ينبغي قوله هو : « ان لديها خصائص الجمال المعروفة - لكنها ليست جميلة في نظرى . »

ان الجمال « تجرية » لا غير ، وليس نموذجنا ثابتا او تنظيما معينا من الاشكال . الجمال شيء نشعر به : يريق او شعور متواصل باللامعة . وما يقابلنا هو ان احساسنا الجمالى نالهم ومشوه حتى اننا نفقد الشعور بالجمال . العظيم .

واذا سرنا على قواعد السيمياء ، فان هناك جمالا عظيما واساسيا في وجه تشارلى تشابلين الكرهى ، وهو جمال اعظم من جمال فالنتينو . ان جمال حاجبى تشابلين وعينييه جمال حقيقى . . هناك يريق شيء ما . . شيء نقى وصفاء .

غير ان احساسنا بالجمال احساسى مبهم وعشوائى ، فنحن لانراه ، واذا رايته لاندركه . يمكننا رؤيته في شكله الواضح الخلق كالتجمل الذى لرودف فالنتينو ، وهو الجمال الذى يمتعنا لانه يشبع بعض رغبات الوساوسة الخافرة .

ويمكن لابسف انسان ان يستوعب جميلا ، بل وان يكون جميلا . ولا يحتاج المرء في هذه الحال الا لنار الجنس ان ترتفع في نعومة ورقة لتغري محبياء القبيح وتعود الى وجه محبب الى النفس . وهذه هي حقا الرغبة الجنسية : الشعور المتواصل بالجمال .

وتوجد من ناحية اخرى ان احدا لا يكون منفرا مشرلا امرأة جميلة حقا . فما دام الجمال مسألة خبرة وليس شكلا ماديا ، لا يمكن لاحد ان يكون على نفس درجة اللعج الخلق التى تكون عليها امرأة جميلة حقا . كم تبدو المرأة بشمة حينما تفقد وهج الجنس وتسرى في برود تكثر منه الانفس وتفسح هيبة جمالها الخارجى .

ونحن لانعرف ما هو الجنس ، لكن لابد ان يكون نوعا من النار لانه يعمل دائما على توصيل شعور بالدفء ، بالوهج . وعندما يصير الوهج اشراقا صافيا ، نشعر بالجمال .

وتوصيل الدفء ، الذى هو وهج الجنس ، ليس غير جاذبية جنسية حقيقية . وناد الجنس تشتمل في داخلها جميعا وتندلع للسنتها . وتظل موجودة في داخلها حتى لى ناهز عورتنا التسممين . فاذا ما جيت السنته نار الجنس ، صرنا جثتا حية شاحبة اللون ، وهذا النوع ، للأسف الشديد يتزايد جدا في العالم .

وليس من شيء اشد بئسا على النفوس من كان هي انطفاة بداخله نار الجنس . يود كل انسان ان يتجنب هذا المظلول الكريه .

تظل نار الجنس مشتملة في داخلنا ما دمتنا على قيد الحياة . وهي تسدلع وتشرق في فترة الشباب ثم تنوهج في الكبر بطريقة اكثر نعومة ولبانا . . ومع ذلك تظل موجودة وتظل لدينا بعض القدرة على التحكم فيها . غير ان مثل هذا التحكم تحكم جزئى وليس كليا ، وهذا هو السبب الذى من اجله يكره المجتمع الجنس .

وما دامت نار الجنس - التى هي مصدر الجمال والقبض - حية فهي مندلعة في داخلنا بطريقة ابعد من ان نتناولها فنبرات فهنما . وهي - اي نار الجنس - مثل النار الحقيقية - ما دامت مندلعة تحرق اصابعنا اذا مسستها دون تيمر وعناية ، ولهذا فان الانسان الاجتماعى - الذى يبنى ان يبقى « آمنا » - يكره نار الجنس .

ومن حسن الحظ ان قليلين من الرجال هم الذين نجحوا في ان يكونوا مجرد رجال اجتماعيين ، ان نار ابينها آدم

تبدل . ومن خصائص النار أنها تجذب أية نار أخرى إليها . تشابك نار الجنس هنا مع نار الجنس هناك . وربما ينتهي بها الأمر من لحظة متدلية الى وقع رقيق . وقد تجذب إليها لسانا كبيرا من النيران أو تحدث لها بديل على لهب آخر ويأخذ حريق كبير في الانتداع .

وتثير نار الجنس حينما توجهت رد فعل في مكان أو آخر وقد لاثير غير الاحساس بالدهن والتفاؤل . ومتنكلا تقول : «أني أحب تلك الفتاة . أنها معدن طيب حقيقي» . وقد تحدث نار الجنس بريقا يجعل العالم يبدو أمامك أكثر تدفقا للحياة وتبدو لك الحياة أفضل مما هي عليه ، ومتنكلا تقول : «أنا امرأة جذابة . أني محبة» . وقد تشعل نار الجنس لهبا يفى وجهها أولا وقبل أن يفى الكون . ومتنكلا تقول : «لأنها امرأة فائنة ، وتبدو لي ممتعة» .

وجود المرأة التي تثير احساسا حقيقيا بالفتنة والجمال أمر نادر . ولانزلز المرأة جميلة ، وانما تقول بذلك هربا من فهمنا القذر الفج وغير السليم للجمال . أن الآفا مؤلفة من النساء اللواتي يظهرن بهيات الظلمة - مثل (ديان بواتييه) و (مدام لانتري أو أية امرأة من الشهيرات بالصلن والجمال - قد خلقن ، وآلاف وآلاف من النساء توجدن اليوم حسناوات المظهر . لكن عدد النساء الفاتنات قليل جدا ! لماذا ؟ يرجع السبب في ذلك الى أن جاذبيتين الجنسية قد خاتنهن . فالمرأة جميلة المنظر تصير فاتنة حينما تبدل منها ناد الجنس راقية ولتتبع في وجهها ثم تالاس النساء المشتعلة في أصعالي .

وهنا تصبح امرأة فاتنة محبة الى نفسي ثم تصير فاتنة دما ولعما ولائحة مجرد صورة فوتوغرافية . فالمرأة الفاتنة ممتعة للغاية ، لكن وجودها نادر نادرة الماء في بدياد . ثم أن نكرة وجودها أمر قاس في عالم يغنى بفتيات ونساء بهيات الظلمة بدرجة فائقة !

ويوجد اليوم كثرات ممن هن وسيما حسناوات المنظر لكن لسن فاتنات ، لسن جميلات ، والمرأة الوسيمة البهية الظلمة هي التي تتميز بتناطع مهينة وشعر متسلل . لكن المرأة الفاتنة . تجربة وخبرة . إنها مسألة نار يتم توصيلها . أنها قضية الجاذبية الجنسية في كتاباتنا الحديثة الغريبة الفكرة التي تكلف بالحكم والمواقف الباردة المتكفلة . وأنه لضرب من الانفراد والقلق في حق الجاذبية الجنسية أن يحاول المرء تطييقها على ديان دي بواتييه) أو حتى - في نهج أوفاننا وأطيها - على زوجته . وبالرغم من ذلك فاننا نتكلم اليوم عن الجاذبية الجنسية بدلا من نار الفتنة . وهما في تصوري شيء واحد لكنهما يختلفان على مستويات متعددة .

لائزال السكرتيرة الحسناوة المظلمة هامة بالدرجة الاولى عند رجل الاعمال نظرا لجاذبيتها الجنسية . وهذا يعني

بالضرورة وجود علاقات لاخلالوية ولو في أدنى مستوياتها وأبسط صورها .

وحتى في يومنا هذا فان الفتاة التي تتمتع بمسحة من الكرم تود أن تثير بتأنها تساعد رجلا أو لتقبل الرجل مساعدتها وهذه الرغبة في أن يتقبل الرجل مساعدتها هي جاذبيتها الجنسية ، أنها النار الأصلية الخالصة حتى ولو كانت حرارتها عادية جدا .

ومع هذا فانها تساعد على أن يظل عالم العمل حيا . وربما كان رجل الأعمال قد اتذر الآن واندرجت حاله لو لم تدخر المرأة سكرتيرة في مكتبه . ذلك أنها تستدعي النصار المقدسة في داخلها وتقوم بتوصيلها الى رئيسها فيشعر بانطلاق زائد في طاقته وازدياد في تفلؤله ومن ثم يزدهر العمل .

وهناك طعما الوجه الآخر للجاذبية الجنسية ويمكن أن يكون تعظيم (الآخر) الوجه اليه الجاذبية . وعندما تبدأ المرأة في استخدام جاذبيتها الجنسية لتحقيق مآربها فلان أن تكون هناك لحظة سيئة في انتظار رجل ماسكين . وفي الآونة الأخيرة ، افترحت النساء في الالتجاء الى هذا الجانب حتى صار من الممكن القزل بأنه لم يعد خطيرا بنفس الدرجة التي كان عليها من ذي قبل .

والمحليات ذوات الجاذبية الجنسية واللواتي حطمن عددا غيرا من الرجال لم يعد الطريق أمامهن سهلا خاليا من الاشواق لان الرجال باتوا يبدى النظر حاذلين حذرين . وهم يحاربون لكن في حياء حتى من المرأة العاطفية التي تستغل فتنتها في اغواءهم . ويميل الرجال اليوم الى الاعتقاد بأن باستطاعتهم التكهّن بالخطر في الخطوة التي يهضون فيها بمسحة جاذبية جنسية انثوية .

وهذا أمر يثبت على الاشفاق لان اسم «جاذبية جنسية» ليس سوى اسم قذر لمصيص من لهيب الحياة . فلايوجد ثم رجل يؤدي عمله بطريقة متقنة وينجح مثل ذلك الذي اضمرت امرأة في فروقه بغنى النار . ولاتقوم امرأة باداء عملها المنزلي بمتمعة حقيقية مالم تشفق وقد تظل المرأة ماضية في شمسها طيلة نصف قرن دون أن تدرك هذه الحقيقة أدراكا تاما .

ولو كانت حضارتنا قد علمتنا - على الأقل - كيف ندع الجاذبية تسبب في الاتجاه السليم وكيف نبغى على نار الجنس صافية وحية تبدلج السننها أو تتوهج أو تضرع حسيقا بكل درجاتها المتباينة في القوة والقدرة على التواصل ، فربما عشنا جميعا في حب ، العصر الذي يعنى أنه يجب علينا أن نصبح مغمفين بالحياة ملائ بالهعاس في شتى المجالات ولكل الامور.

تقول هذا رغم جود كمية الرماد الميت الهائلة في الحياة الآن .

المجلات الثقافية

الكاتب

رئيس التحرير: أحمد عياد صالح
تصدر كل شهر
العدد ٣٠

الفكر المقاصد

رئيس التحرير: د. فؤاد تركيا
تصدر يوم ٣٠ من كل شهر
العدد ١٠ قروش

المجلة

رئيس التحرير: يحيى عيسى
تصدر يوم ٥ من كل شهر
العدد ١٠ قروش

المسرح

رئيس التحرير: صلاح عبد الهادي
تصدر يوم ١٥ من كل شهر
العدد ١٠ قروش

الكتاب العربي

رئيس التحرير: أحمد عيسى
تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

آراء الإنسانية

المترجم على التحرير: د. فؤاد تركيا
تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

الفنون الشعبية

رئيس التحرير: د. هاشم يوسف
تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

السينما

رئيس التحرير: هادي ديب
تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

تأليف

تصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الاشتراكات مخفضة لطالبات المدارس والمعاهد العليا وموظفات الشباب • الاشتراكات: ٥٠ ش.ج ٢٦ وولي القاهرة

قارئ الفكر المعاصر

على موعد مع

قضايا العلوم الإنسانية

عدد ممتاز تشترك في تحريره الطليعة

المتقنة من الكتاب والعلماء والنقاد

واساتذة الجامعات

يصلد قريبا



العدد ٥٨ ديسمبر ١٩٦٩





مجلة الفكر المعاصر

رئيس التحرير :

د . فؤاد زكريّا

مشاررو التحرير :

د . أسامة الخولى

أنيس منصور

د . عبد الغفار مكاوى

د . فوزى منصور

سكرتير التحرير :

جلال العشرى

المترن الفنى :

صفوت عيّاس

تصدر شهريّا من :

المهنة المصرية العّامة
للتأليف والنشر

ه شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١٦٤٨

ص	أمريكا والانسان :
٤	● شباب أمريكا .. وفلسفة التمرد د . فؤاد ذكريا
١٢	● المثقفون والسياسة في الولايات المتحدة أسعد حليم
٢٤	● هـربرت ماركيوز .. والانسان ذو البعد الواحد أحمد السعدني
٣٢	● هـربرت ماركيوز .. ونظرية نقد المجتمع عرض : أحمد فؤاد بليغ
٤٢	● جينز برج .. أمريكي له قلب بوذي عبد الحميد فرحات
٤٨	● عناصر الحرب النفسية د . أحمد فائق
٥٧	● كتابات مارتن هيدجر السياسية عرض : سمير عوض
٦٦	● مكان العلم في المجتمع المعاصر عرض : ذكريا فهمي
٧٤	● هـ.جـ. ويلز وأول رحلة الى القمر د . انجيل بطرس سهران
٨٢	● أضواء جديدة على الحضارة العربية عبد العاطي جلال
٨٨	● البحث عن الشخصية المعربة في الفن محمد شليق



أمريكا والإنسان

تمثل في أمريكا اليوم مجموعة من المتناقضات لا يستطيع الفكر أن يتجاهلها ، بل يتعين عليه أن يستخلص مآلها من دلالة عميقة بالنسبة الى مستقبل المجتمع الأمريكي ، ومستقبل البشرية بوجه عام فهذا البلد الذي أحسّر أعظم انتصار علمي وتكنولوجي عرفته البشرية في القرن العشرين ، وأعطى به صعود الإنسان الى القمر ، يشهد - في نفس الوقت الذي أكد فيه انتصاره هذا - أقوى مظاهر الاحتجاج على الحرب الباردة التي يشنها حكاه في فيتنام ، ويثور فيه الشباب بقوة وعنف معادين رفضهم لنفس الأسس التي يقوم عليها مجتمعهم . وهذا البلد الذي يمتلئ القيم الإنسانية في محاولة وحشية لإفناء شعب صغير ضئيل الموارد، هو ذاته الذي ترتفع فيه أقوى الأصوات مدافعة عن القيم الإنسانية وعن السلام وعن كل المعايير الرفيعة التي كافحت من أجلها البشرية .

هذه التناقضات هي في واقع الأمر قدر الإنسان الحديث على وجه الإطلاق ، لا قدر الإنسان الأمريكي وحده . ومن هنا كان مايقع هذه الأيام على الأرض الأمريكية أمر لا تقتصر أهميته على سكان تلك البلاد وحدهم ، بل أن له أهميته القصوى بالنسبة الى الفكر الإنساني بوجه عام ، لأنه سيسهم في تحديد مركز الإنسان إزاء التقدم التكنولوجي السريع المتلاحق وسيقرر أن كانت تلك القوة الكبرى ستواصل السير في الطريق الانتحاري الذي يودي بالبشرية كلها الى الدمار ، أم ستتحوّل الى مجتمع إنساني يقود العالم في طريق السلام .

إن الإنسان الأمريكي يخوض اليوم معركة يعمل فيها جاهدا من أجل البقاء جدارة البشرية في إنجاحها حياة أفضل . وفي هذه المعركة أثبتت فئات معينة من الشعب الأمريكي وعيا ونفسيا رائعين ، وأعطى هؤلاء الفئات ، الشباب الأمريكي ، والمثقفين ، والشعراء ، والكتاب . وفي هذا القسم ، الذي تصدره «الفكر المعاصر» تضامنا منها مع الإنسان الأمريكي في كفاحه من أجل حياة أفضل لبلائه والعالم ، تنشر خمس مقالات .

وقد لا تكون هذه سوى أمثلة قليلة للصراع الغضبي الذي يدور داخل المجتمع الأمريكي في أيامنا هذه بين «السيطرة» وبين «الإنسان» ، ولكننا في رأينا أمثلة بالغة الدلالة ، تكفي لإلقاء ضوء ساطع على طبيعة هذه الظاهرة الغدا التي تمر بها أمريكا في هذه الأيام الحاسمة .

د. فؤاد زكريا

الوقت ذاته، نوبة العمل الانساني على المحاولات
اجبارية التي تبذل لخدمته ووضعه في قوالب يحددها
معدما أصحاب السلطان . وهي لا تدعو فقط الى
محاربة الجهاز العسكري الضخم الذي يتمسك
بتصعيد الحرب الفيتنامية حفاظا على مصالحه
الخاصة ، بل تدعو أيضا الى محاربة كل محاولة
لتشكيل أذهان الناس على النحو الذي تريده القوى
المسيطرة . **وان ضخامة هذه المظاهرات ، وتزايد
عدد مؤيديها يوما بعد يوم ، لهو في ذاته دليل
قاطع على الاخفاق الدريع الذي لحق باعظم محاولة
عرفتها البشرية للتحكم في عقول الناس ووضعهما
في قوالب نمطية لا تخرج عنها .**

ذلك لأن حياة الأمريكي العادي ، بالرغم من
أنها تتخذ على سطحها الخارجي شكلا ديمقراطيا
كاملا ، وتوحي بالحرية النامة في كل شيء ، فانها
في حقيقتها وفي باطنها خاضعة لأقصى ضروب
التكليف الذهني المدرس ، والسعي المرسوم
الى تشكيل عقول الناس والتحكم في أساليب
تفكيرهم وعاداتهم اليومية . وأقول ان هذه المحاولة
تمثل أقصى ضروب التكليف الذهني ، لأن هذا
التكليف يزاد قسوة كلما اتخذ طابعا غير مباشر
وكلما حرص على أن يترك لدى الناس انطباعا
بانهم أكثر البشر تمتعا بحريتهم . فحينئذ يدخل
العقل الانساني في القوالب المحددة له مقدما
« بملء حرية » ، ويشارك في عملية التشكيل
الذهني وهو يتصور أنه يمارس لعبة حرة حدد
هو ذاته شروطها مقدما .

ولا جدال في أن التكنولوجيا الامريكية المتقدمة
قد بذلت قدرا كبيرا من جهودها في سبيل
تحقيق السيطرة غير الظاهرة على العقل البشري ،
أو ممارسة « الخس الخفي » (على حد تعبير « فانس
باكارد » ، وهو من أبرز نقاد نمط الحياة الامريكي
الحاضر) . وبدا في وقت من الاوقات أنها
استطاعت ، بطرقها الخفية التي تستخدم أربع
أساليب الدعاية والاعلان ، وأكثر طرق التحكم
السيكولوجي خفاء ، أن تسيطر بالفعل على عقول
الناس ، وكان من مظاهر هذه السيطرة اتفاق
الأغلبية الساحقة من الامريكيين في نظرهم العامة
الى العالم ، وإيمانهم بأن القيمة العليا في الحياة
هي الثروة المكتسبة بفضل « الجهد الشخصي » ،
وبأن العالم الاشتراكي يمثل قوى الشر بينما
العالم الرأسمالي هو ذاته الخير الجسيم ، وانقيادهم
للعادات الاستهلاكية التي يبتها في نفوسهم سبيل

● يؤمن الشباب بأن العمل الوحيد لكل
الشكلات الثقافية او الحضارية التي يعاني
منها المجتمع الامريكي وهو التغيير الجذري لتلك
السلطات الفكرية والنفسية التي يقوم عليها
النظام الراهن .

● ان المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار،
وبمها حاول الكبار ان يكونوا متصنفين وموضوعين
فانهم على اية حال يفكرون بنفس العقيدة التي
يتور عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التي
يرفها .

شيء رائع ، عظيم المغزى والدلالة ، ذلك الذي
يحدث في أمريكا هذه الأيام . انه ، في رأيي ،
المقابل الانساني للانتصار التكنولوجي الهائل
الذي يمثلته النزول على القمر . ففي الوقت الذي
تبين فيه على نحو قاطع أن الامكانيات التكنولوجية
الضخمة التي يمتلئ عليها هذا الانتصار لم
تستغل لأغراض انسانية ، بل كان أبرز تطبيق
لها هو زيادة قدرة الجهاز العسكري الامريكي على
إبادة شعب مسلم كشمع فيتنام ، ثارت جموع
الساخطين من جميع فئات الشعب الامريكي تطالب
بإد اعتبار الانسان ، وكانت ثورتها هذه ، في
واقع الأمر ، محاولة للتذكير بالقيم الانسانية التي
ينبغي أن تكون هدف كل تقدم علمي وتكنولوجي
والتي سميت في غمرة الفرح بالنصر العظيم .

على أن لسيرة الجموع الهائلة من أبناء الشعب
الامريكي ضد حرب فيتنام أبعادا أخرى لها في رأيي
أهمية عظمى بالنسبة الى مستقبل الكيان الانساني
في عالم العقول الالكترونية وأدوات التدمير
الشامل . وأهم هذه الأبعاد هو سيطرة عنصر
الشباب على حركات السخط هذه ، إذ أن هذه
السيطرة تلقى مزيدا من الضوء على الدور القيادي
الذي يقوم به شباب الأمة الامريكية في صنع حركة
الشباب العالمية بطابع انساني ، وتحديد
الأبعاد الثقافية والفكرية لهذه الحركة تحديدا
واضحا .

ان الآلوف المتزايدة العدد ، التي تسير في
مظاهرات السخط على حرب فيتنام ، لا تعلن
اعتراضها على حرب ظالمة فحسب ، بل تعلن في

لا ينقطع من الاعلانات الشديدة • والأهم من ذلك كله ، اعتقادهم الراسخ بأنهم أعظم شعوب العالم حرية ، وبأن كل حكم يصدرونه على المسائل الخارجية والداخلية إنما صدر عن تفكيرهم الحر الذي لا يخضع لأي مؤثر خارجي ، حتى أصبحت عبارة « هذه بلاد الحرية » من أكثر العبارات تداولاً حتى على مستوى النقاش اليومي العادي بين الناس •

ثم جاءت حركة السخط على حرب فيتنام ، فإذا بها برهان ساطع على أن كل هذه الجهود الجارية قد أخفقت • وكان من الطبيعي أن تكون الفئة التي ظهر فيها هذا الاخفاق على أوضح صورة هي فئة الشباب المثقف ، وهم أكثر العقول قدرة على مقاومة الاتجاه الجارف إلى صبب العقول في قوالب جامدة وفي الوقت ذاته أقلها ثلوثاً بالمصالح النفعية وأكثرها تعلقاً بالمثل العليا الانسانية •

وكانت هذه الظاهرة الفريدة محيرة بحق لرواضى السياسات وراسمى الخطط ، وذلك لأكثر من سبب : فهي قد حدثت في « مجتمع الرخاء » ، حيث تعيش نسبة كبيرة من السكان في أعلى مستوى عرفة الإنسان على مر التاريخ ، والمفروض ، في « مجتمع الرخاء » ، ألا يكون المرء كثير التساؤل شديد الإلحاح ، لأن كل شيء متوافر وميسور ، فعلام السخط إذن ؟ وكيف يتحدى اناس قيم المجتمع الذي وفر لهم كل مطالبهم نادية ، وهما لهم من الترف ما تحسد عليهم معظم شعوب الأرض؟ ومن جهة أخرى ، فإن حرب فيتنام قد نشبت - أصلاً - لخدمة أغراض خارجية في مناطق بعيدة كل البعد عن الأراضي الأمريكية ذاتها ، فكيف تغير الوضع إلى الحد الذي أصبحت فيه لهذه الحرب تأثيرات في داخل البلاد لا تقل قوة عن أصدائها في خارجها ؟ وكيف تحولت المغامرة العسكرية ذات الأهداف التوسعية الخارجية إلى حركة سخط شامل على أسلوب الحياة في الداخل ؟

إن السر الكبير وراء هذه التحولات المفاجئة التي حيرت أصحاب الخطط ورواضى السياسات وجاءت مخالفة لجميع حسابات القبول البشرية والالكترونية على السواء ، يكمن في تلك القوة الرائعة التي أحدثت في المجتمع الأمريكي أول تحول حقيقي عميق يطرأ عليه منذ عشرات طويلة من السنين ، واعني بها قوة الشباب •

فلأول مرة يخوض الشباب الأمريكي ، في هذه الأعوام الأخيرة ، وفي الفترة الراهنة بوجه خاص صراعاً « ثقافياً » - بأوسع معاني هذه الكلمة - ضد طريقة تفكير كاملة ، وضد « أسلوب الحياة الأمريكي » الذي كان دائماً مبعث فخر واعتزاز شديداً للأمريكيين ، ولأول مرة تكتسب الحركة أبعاداً لا يمكن معها أن تنتهى بأنها تعبر عن مصالح حزب معين أو جماعة معينة ، بل لا يكون هناك مفر من الاعتراف بأنها اتجاه عام يرمي إلى مراجعة قيم كل هذا المجتمع يأخذها فضيحة مسلماً بها طوال الجزء الأكبر من تاريخه ، وبأنها دعوة إلى إدخال أهداف كسب والسلام في نطش الحياة الأمريكية ، واعطائها المكانة التي لا يحتلها البحث عن الثروة والنجاح والعمل والتنافس المرير في سبيل الصعود على حساب الآخرين •

وليس ادل على هذه الأبعاد المتسعة التي تتخذها حركة الشباب الأمريكي الراهنة ، من أن القادحين بها يرغبون على الدوام ربطاً وبيناً بين حرب فيتنام وبين مسئلة المميز العنصري وهتسبه الفجر • وهم يدركون ، يدركون بوعي عميق ، أن نفس القوى ، ونفس العملية التي تبعث بزهره شباب الأمريكيين لتمارس القتل أو تقتل بلا سبب في فيتنام ، هي ذاتها التي تحرم الملونين من أبسط حقوقهم الانسانية ، وهي ذاتها التي تترك أقلية غير قليلة تعاني من الفقر وتحتل في ظروف معيشية غير انسانية ، ووسط مجتمع يتفق على دعم نظم الحكم الفاسدة (ولا أقول على التسليح) أضعاف ما يلزم لضمان حياة كريمة لكل فرد في هذه الاقلية التعيسة • ومن جهة أخرى فإن الأسلوب الذي تحاول السلطات المسيطرة أن تقنع به خصوم حرب فيتنام هو ذاته الأسلوب الذي يتبع في محاولة اقناع الساخطين على التمييز العنصري والفقر ، إذ يقول لهم : إن المسألة أعقد من أن تحل على الفور ، فهناك عسائل كثيرة متشابكة متداخل فيها ، ولا بد من التزام الصبر لأن مضي الوقت كفيل أن يصلح كل شيء •

والواقع أن شمول نظرة الشباب إلى المشكلات التي يواجهها المجتمع الأمريكي ، وقسدهم على الربط بين أمور تبدو في ظاهرها منعقدة الصلة فيما بينها ، هي التي تميزهم عن كثير من الكتاب الكبار الذين لم يستطيعوا تقدير العوامل التي تدفع الشباب إلى التمرد ، على الرغم من أنهم يقولون موثقاً يتسم بالتقدمية في كل مشكلة من هذه المشكلات على حدة • هؤلاء الكتاب لا يعترفون بأن سبب

ويعصرهم فيه من أولئك الذين قطعوا من العصر
شوطا أطول .

إن الشباب الأمريكي ، على أية حال ، يقسود
في الوقت الراهن حركة رائدة تستهدف الثورة
على حماقات الكبار التي يسمونها سياسة حكيمة
ولا ترمي في نهاية الأمر إلى أقل من إعادة النظر
في نظام الحياة الذي يتبعه المجتمع الأمريكي
بأسره . ومن الطبيعي أن تتخذ السلطات موقفا
معاديا لهذا التمرد ، وإن كان اتساع نطاق الحركة
يمنعها من أن تعبر عن هذا العداء بعنف سائر .
ولكن ما يعيننا ليس موقف السلطات من حركة
الشباب ، وإنما هو موقف المجتمع بوجه عام
إزاءها . فما الذي يستطيع المجتمع أن يقوم به
نحو الشباب ، وما الذي يمكن أن ينتظره الشباب
من المجتمع ؟

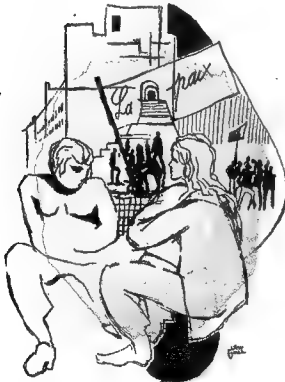
إن المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار . ومهما
حاول الكبار أن يكونوا منصفين وموضوعيين فإنهم
على أية حال يفكرون بنفس العقلية التي يشعور
عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التي يرفضها

المشكلات كلها واحد ، وحلها واحد ، بل يفضلون
الحلول الجزئية المنفصلة لكل ظاهرة على حدة ،
وبذلك يمتنعون ، دون أن يشعروا ، في نفس
طريقة التفكير التي تولدت عنها كل هذه الشرود .
هؤلاء هم الذين يرون في حركات الشباب تمردا
أهوج ، ويدعون إلى « التعقل والحكمة » وهي في
رأيهم صفات لا ينبغي أن يعد من يتميز بها محافظا
أو رجعيا بالضرورة .

أما الشباب فيؤمنون بأن الحل الوحيد لكل
المشكلات الثقافية أو الحضارية التي يعاني منها
المجتمع الأمريكي هو التغيير الجذري لتلك المسلمات
الكرية والنفسية التي يقوم عليها النظام الراهن
أنهم يدورهم يدعون إلى نوع من « الثورة الثقافية »
بمعنى خاص بهم ، وهم ليسوا أقل رغبة في تغيير
أسلوب الحياة في مجتمعهم من الشباب الثائر في
أي بلد آخر . ومن هنا كانوا ينظرون إلى أي حل
جزئي على أنه ، في حقيقته ، دعم للنظام القائم ،
وعامل على زيادة فعاليته ، مهما بدا في الظاهر
مركزا على أسس نقدية .

أما الدعوة إلى « التعقل والحكمة » ، فقد تكون
في ذاتها شيئا مرغوبا فيه ، ولكن ما معنى التعقل
في مجتمع أصبحت كل تصرفاته بعيدة عن العقل
وظهر بوضوح أن المشكلات التي يعانيها مرتبطة
بنفس الأسس التي يقوم عليها « النظام » لا
بتصرفات هوجاء يقوم بها مجموعة من الزعماء
الأغبياء ، أو من الأفراد الأشرار ؟

وهكذا استطاع الشباب الأمريكي المتمرد أن
يثبت حقيقة ما زال الكثيرون يرددون في الاعتراف
بها : وهي أن الشباب قد يكون أحيانا أعظم خبرة
من الكبار ، وقد يكتسب قسرة على الربط بين
الظواهر التي تبدو متباعدة ، وعلى النظر إلى الأمور
نظرة « كلية » ، يعجز عن بلوغها أصحاب الخبرة
والتحجبة ، الذين تظل نظرتهم محدودة بأطوار
النظام القائم ، ومن ثم لا يستطيعون تأمل الأمور
الافى جزئياتها . وقد لا يكون من العسير تعليل
هذه الحقيقة التي تبدو غريبة لأول وهلة :
ذلك لأن الشباب لم يتلمعوا بعد اندماجا كاملا في
المجتمع الذي يتخلون منه موقف الرقص ، ولذلك
كانوا أقدر على تكوين نظرة كلية إزاءه من أولئك
الذين تشابكت مصالحهم مع النظام القائم ، وأصبحوا
يكونون جزءا لا يتجزأ منه . فضلا عن ذلك فإن
الشباب ، الذين يعلمون أن حياة طويلة ما زالت
تنتظرهم ، لا بد أن يكونوا أكثر اهتماما بالمستقبل



وعكذا يبدو أن كل محاولة يبدؤها الكبار لفهم مشاكل الشباب - ولا أقول حلها - تواجه صعوبات أساسية ، بل ربما كانت مستحيلة من حيث المبدأ ، فلا بد للكبار ، إذا شئوا أن يفهموا الشباب ، من أن يخرجوا عن إطارهم العلى المألوف ، ويلجأوا إلى الخيال الذى يتيح لهم أن يضعوا أنفسهم موضع الشباب ، ولكنهم حتى فى هذه الحالة يتعرضون للرفض من جانب الشباب الذين يصرون على أن عقلية الكبار ستظل إلى الأبد حبيسة إطارها الخاص .

بل إن الشباب يتمردون على المعانى التى يحملها لفظ « الشباب » ذاته فى اذهان الكبار . فهذا اللفظ يتضمن معنى عدم الاستعداد لخوض معترك الحياة ، والإصرار على القدرة على تحمل المسئولية . وعندما يتحدث الكبار عن الشباب ، فإن ذهنهم يتجه إلى معنى اوصافه والحماية التى يحتاجون إليها ، والعجز وقلة الخبرة . ولكن من المستول ، فى نهاية الأمر ، عن تحديد المرحلة التى تبدأ عندها المسئولية الحقيقية فى المجتمع ؟ إن مصباح الكبار هو التى أملت الوضع الحالى الذى لا يصبح فيه المرء مشاركا فى المسئولية إلا بعد سن معينة بينما يعد كل من هو أدنى من هذه السن إنسانا « غير ناضج » . مثل هذا التقسيم للأدوار التى تقوم بها فئات العمر فى المجتمع ليس أذليا ، ويمكن أن يتغير تبعاً للثقافة السائدة فى كل عصر ولكن الطابع المميز لعصرنا هو أن هذا التغير لم يعد يفرض من المسيطرین على تقاليد الأمور . بل أصبحت تطالب به جماعة متحررة من الشبائن . تريد أن تؤخذ مأخذ الجد ، وأن تعد عنصر أساسيا فى المجتمع ، وتأتى أن يكون كل فرد فيها مجرد « مشروع إنسان » ، لا تكتمل مقومات إنسانيته إلا حين يدخل عالم الكبار .

ولكننا نعود لنستسار مرة أخرى : ما موقف الكبار من أمثال هذه المحاولات ؟ هل هم على استعداد لمراجعة أساليب تفكيرهم من أساسها ، والاعتراف بأن كل ما يأخذونه على أنه « يديهي » ليس فى الواقع يديهيًا ؟ وهل تبلغ بهم موضوعية التفكير هذا يسمح لهم بأن يتصوروا أنهم قد يكونون هم الشواذ والمنحرفون ، لا الشباب ؟ هل يستطيعون ، فى حدود إطارهم الفكرى الخاص ، أن يصلوا إلى هذه القدرة فى التجرد والنزاهة والنقد الذاتى ؟ أم أن هذا المطلب مستحيل بحكم طبيعة الأشياء ومن ثم يتحتم أن يظل الصراع قائما ؟ أغلب الظن أن نتيجة هذا التساؤل ستظل سلبية .

وفى وسعنا أن نصل إلى هذه النتيجة السلبية ذاتها إذا تأملنا الأمر من وجهة نظر الشباب أنفسهم . فلنفرض أن شباب اليوم قد حققوا أهدافهم ، وأصبحت لهم كلمة مسموعة فى تسير أمورهم العامة وخاصة ، وفى توجيه ذفه المجتمع عندئذ سيصبحون ، عاجلا أو آجلا ، جزءا من « المؤسسة » ، ومن النظام القائم ، ولا بد أن ينود عليهم الجيل الجديد ، حتى لو كان النظام قد تحول على إيدى الجيل السابق إلى ما هو أفضل ذلك لأن مجرد وجود هذا الجيل فى موقع السلطة يجعله موضوعا للشك والريبة فى نظر أبناء الجيل اللاحق . وهكذا يبدو أنه لا مفر من استمرار حالة الثورة والسخط بين الأجيال ، بحيث تبدو ثورة الشباب الحالية مجرد بادئة أولى لحالة ستستظل البشرية تعيش عليها أمدا طويلا .

أما تحليل استمرار هذه الظاهرة فأمه ميسور : ذلك لأن معدل التغير فى العالم المعاصر يزداد سرعة بالتدريج ، ويتربط على ازدياد معدل التغير على هذا النحو ، مزية من الاتساع فيما يسمى « بالفجوة بين الأجيال » . فبين جيل الأب وابنه تحدث الآن تغيرات لم يكن العالم يشهد نظيرا لها إلا بين أجيال متباعدة تفصل بينها فترات زمنية كبيرة . ولما كان معدل التغير هذا سيزداد سرعة فى المستقبل ، وفى وسعنا أن نتنبأ ، دون عنا ، بأن عدم التفاهم بين الكبار والصغار سيبطل قائما بل سيزداد حدة فى المستقبل .

وأذن ، فتمرد الشباب وسخطهم ، فى إيماننا هذه ، ليس إلا البوادر الأولى لظاهرة ستستظل نعيشها طويلا - إلا إذا استطاعت البشرية أن تهتدى إلى الصيغة التى تستطيع بها أن تطوّر نفسها ، فى جيل معين ، على نحو يعمل حسابا لمطالب الجيل التالى بطريقة طبيعية لا تحتاج إلى تنبيه صاوح من أفراد الجيل الجديد ، ولا إلى مقاومة عنيفة من أفراد الجيل القديم . ومثل هذه الصيغة تحتاج ، دون شك ، إلى طريقة فى فهم الأمور ، وفى تدبير شؤون المجتمعات البشرية ، تختلف عن كل ما اعتدناه حتى اليوم .

على أننا إذا كنا نرى فى تمرد الشباب ظاهرة لا مفر منها ما دام العالم يسير على التوتيرة الحالية فى علاقاته الدولية وفى نظراته إلى العلاقة بين

الأزواج من كبار السن • وهم يمتلكون ثروة نفوق حدود احيين - وليست لديهم حاجات او رغبات حقيقيه ، بل انهم يملكون في انفسهم المنعبر كما لو كان نوعا من الهوايه المتسلطه على عقولهم • وهم يجلسون الى حجر يملؤها الاحزان ومن ثم يمتصوا انفسهم بهم يدخنون اسيجار •

وفي مجالس الاكابر يستطيع المرء أن يستمع الى قرارات مما كان يحظر ببيانه ان احدا يمتصه اصداؤها • اشترى اوراجواي • بع بوليفيا • امسك بالهند • لوث نيويورك • ان قراراتهم تتنوع الى حد يستحيل تصورها ، لكن بينها جميعا عصرا مشتركا هو انها تنفذ على الفور ، وانها في كل الاحوال موجهة ضد الانسان العادى البسيط •

ان الاكابر يكذبون • فهم يكذبون في الامور الصغيره ، كالاعلانات ، وفي الامور الكبيره ، مثل فيتنام ، والتفرقة العنصريه ، والديمقراطيه وكل هذه الامور تسير على ونبره واحده - فلا وجود للصديق في أى شيء •

والكبار يسيطرون • فقد قرأت موضوعا في التاريخ كان يكتبه نلميد في المرحله الاعداديه عن احرب الاسبانيه الامريكيه ، وفيه يقول ان امريكا دخلت حرب عام ١٨٩٨ لكي تحرر الكوبيين المساكين من الطغيان • واضاف ان امريكا ، بحكم تقاليدها ، تقف ، عندما تحارب ، في جانب الدفاع عن حق العداة والحريه ، ولذلك فهي دائما تنتصر • كما هي الحال في فيتنام اليوم • لقد وضع الاكابر هذا الصبي حيث يريدونه ان يكون وهم قد استولوا على عقله ، وعندما يبلغ الثامنة عشرة سيستولون على جسمه •

انظر هولك ، سترى الاكابر في كل مكان • انظر على الرصيف الجاور لبيتك ترى سياراتهم التي يبنونها بحيث تتفكك بعد ثلاث سننوات ، ويجعلون الجميع يشترونها ، وهم داخلون في صناعة البترول وتجارته ايضا ، حتى لا تتفكك في الاميال التي تقطعها سياراتك • وليس في وسع احد أن يجعل هذه السيارات تتغير • فاذا نظمت انفسكم وطالبتموهم بان يتفضلوا بصنعتكم كل حواجز الاصطدام الخلفيه والامامية في السيارات بحيث تكون على ارتفاع موحد لكي يصبح عدد من يقتلون منا في حوادث السيارات في العام المقبل اقل قليلا من خمسين ألفا ، فانهم يرفضون • وهم يرفضون لان ذلك سيكلفهم هذا بالاضافه الى ان حواجز الاصطدام لو أصبح لها ارتفاع واحد ، لما عاد هناك مجال للاختيار ، الذي هو لب

الاجيال المختلفه في المجتمع الواحد ، فمن واجبا أن ننبه الى ان هذا التمرد يتفاوت شسدة بين المجتمعات المختلفه ، ويبلغ اقصى مداه في تلك المجتمعات التي يضطر فيها الشباب الى أن ينيهوا الكبار ، على طريقتهم الخاصه ، الى الحفلات التي لا يكونون عن ارتكابها في الميدان الداخلي والخارجي •

ومن هنا كان التمرد بين الشباب الامريكى ، على وجه الخصوص ، ظاهرة لا مفر منها ، لأن استهانة الكبار في هذا البلد بالمسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقهم نتيجة لتوليهم أمور اغنى دول العالم واقواها ، يثير في نفوس الشباب سخطا عارما ، ويزيد من احساسهم بغداة خطر الذي يتعرض له العالم بأسره ، لا بلاؤهم وحدها ، من جراء ضيق أفق أصحاب السلطة ، وفساد النظام الذي يجهدون انفسهم من أجل المحافظة عليه • ان الشباب الامريكى ، في أيامنا هذه ، لا يهدف الى اقل من انقاذ العالم بأكمله ، لا انقاذ امته أو نفسه فحسب ، من التدمير الذي لا بد أن يتعرض له لو استمرت السياسة الامريكيه ، في الداخل والخارج ، تسير في اتجاهها الحالي •

وفي اعتقادي أن أفضل سبيل الى عرض وجهة نظر هذا الشباب الامريكى المتمرد الى القسارى العربى هي ان أقدم اليه ، مباشرة ، شهادة واحد من أبناء هذا الجيل المتمرد ، يعبر فيها عن عمق الهوة بين تفكير الشباب وتفكير الكبار في هذا البلد ، ويكتشف عن ذلك الاحساس الطاغى بغداة المسئولية ، الذي يشعر به فتية توهم كل تصرفاتهم الظاهرة بافتقارهم الى الشعور بالمسئولية ولقد وجدت في شهادة أحدهم ، وهو « جيمس كوثن » ، من الاخلاص من صدق التعبير ما رأيته جديرا بأن ينقل الى القارىء ، في ختام هذا المقال ، في ترجمة شبه حرفية (*) •

« •• ان الاكابر جماعة صغيرة من الناس ، لا يعرف عنها - عدا ذلك - الا القليل • وهم على

(*) انظر مقال جيمس كوثن بعنوان « لماذا تقف ضد الاكابر » (مجلة افراتيك الشهرية، عدد اكتوبر ١٩٦٨) وانظر ايضا مقالا بنفس السند من تأليف « ريتشارد برابيه » بعنوان « الحرب على الصغار »، استخلصنا منه اجزاء متفرقة من المادة التي ينس عليها مقالنا هذا • (**) اما لفظ « الاكابر » الوارد في كون ، فهو ترجمة لفظ Biggers الذي يستخدمه كاتب المقال بطريقة ساخرة للتعبير عن « الكبار المسيطرين » •

الديمقراطية • فان لم تكن تعرف أن هذا هو لب الديمقراطية ، فهناك اعلانات كثيرة تذكرك بذلك مثال ذلك ان: يبدو أن البلاد الاشتراكية لا تعرف الا ثلاثة ألوان من طلاء الشسفاء ، على حين أن الرأسمالية تقدم لك أربعين لونا •

وبهذه الألوان الأربعين من طلاء الشفاء يحول الأكابر نساءنا الى عراس من الحلوى ، تجلس بجاذبيتها الجنسية المصوم في المعامل وهي ترسم صورة رخيصة في الهواء بدحن سيجار لم يكن في نيته أبدا أن يبدأ في تدخينها • وربما استمعت خلال الترترة التي تدور بينهن حول ما ينبغي عمله بعد ذلك ، الى احدهن وهي تقول « ههنا بلد الحرية » •

ولكن هذا ليس بلد الحرية • فانت لا تستطيع ترك الدراسة لابت لو فعلت فستجند ، وعليك أن تدرس أشياء بديتها لتحصل على شهادة ، وعليك أن تحصل على شهادة لكي تنجح عمليا ، وعليك أن تنجح عمليا لتحصل على ما تريد ، لأن هذه كلها أمور رسمت خطتها في ذهنك من قبل • انك تستطيع أن تقول ما تشاء ، ولكن احدا لن يسمعك لأن وسائل الاعلام تسيطر على الكلام • اما اذا استطعت بطريقة ما أن تسمع الناس صوتك فانهم لن يقبلوا ما تقول ، لأن الأكابر علموهما ما ينبغي لهم أن يقبلوه • فاذا لم يقبلوا كلامك فقد يحصل بهم الأمر الى حد قتلك لأن الحكومة تؤيد مبدأ القتل على سبيل العبوة الموعظة •

••• ان الكبار يقتلون الناس في فينتام ويضعون السود في القاع داخل البلاد ، لانه لا بد لهم ان يضعوا بعض الناس في القاع حتى يسير نظامهم بنجاح ، او هكذا كانوا يظنون • ولكنهم اليوم يجدون ان المحبوسين في القاع يستطيعون يعق أن يلحقوا بهم ضررا بالغا ، ولذلك لم يعد لديهم مانع من أن يرفقوهم الى اعل قليلا ، ولكن هذا لا بد أن يكلفهم مالا ، ولذلك فانهم سيحاولون مؤقتا • أن يبقوهم في القاع بأن يعطوهم وعودا بمكافآت اذا احسنوا السلوك •

••• اننا لا نحب التجنب على الإطلاق ، لأن اماننا حياة طويلة نعيشها ، وقد صممنا على ذلك • فالقتل والموت ليسا من شأننا •

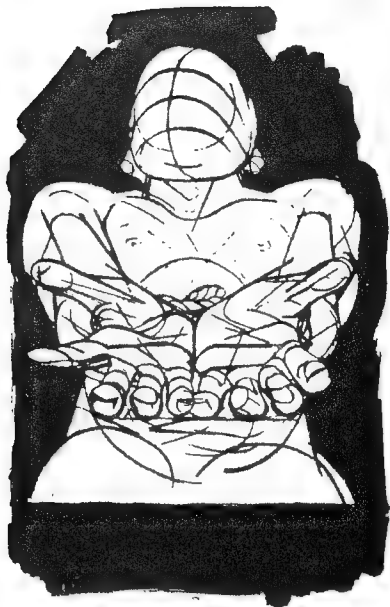
••• لقد قرنا ، بعد أن رأينا ذلك كله ، أن نغيره • وبطبيعة الحال فانك تستطيع أن تعتزل أو تتنحى اذا كان هناك شيء لا تحبه ، ولكنك لو تنحيت فسوف يواجهك شيء آخر لا تحبه ، ولا يمكنك أن تظل تنحى وتنتسج الى الأبد لأنك لن تجد في النهاية مكانا تذهب اليه • لذلك قرنا ان

نغير الاوضاع • فقدمنا الطلبات ، ونظمنا المظاهرات ، وكتبنا الخطابات ، ولكن لا حياة لمن تنادى ، والى حدث هو أننا لم نقابل بالرفض ، بل قوبلنا بالتجاهل • وهكذا فمن في احد الايام باحتلال المباني ، وبعد بضعة ايام طردنا منها واعتقلنا وكان الضرب من نصيب الكثيرين منا ••• وأعرب المستولون عن الأسف لأن البوليس جرح مائة وخمسين شخصا ، وبالفعل كانوا آسفين ، لأن المعاملة الوحشية كشفت للجميع عن المدى الذي يمكن أن يهضي اليه الاقوياء ليحافظوا على قوتهم ، وعن المدى الذي هم على استعداد للسبر فيه ، كل ذلك لكي يتجنبوا الاجابة عن أى سؤال • بل لكي يتجنبوا الاعتراف بأن توجيه الأسئلة ممكن •



وفي الوقت الذي اكتب فيه هذا ، وتقرؤونه ، يموت أناس كثيرون • وهذا ترون أن المسألة ليست موضوعا لأحاديث المتقنين أو لمقالات في المجلات • انها مسألة لا بد من مواجهتها • ولذلك فان ما نقوم به في جامعاتنا ليس ثورة ، بل هو هجوم مضاد • اننا نحارب لكي نتقد معاهدنا من الروح التجارية ومن الحرب ، ولكي نعيد توجيهها نحو المعرفة ونحو الحياة ••• هناك خمسة ملايين طالب جامعي أمريكي واقفون في الانتظار ، منهم عدد ضخم نفذ صبره نهائيا من الأكابر • •

فؤاد زكريا



أمريكا والإنسان

المثقفون والسياسة في الولايات المتحدة

إريك جولدمان
ترجمة: أسعد حليم

ماذا يفعل المواطن اذا وجد بلاده باتت تحكمها عصابات القتلة ؟ وماذا يفعل الاديب حامل الكلمة - اذا رأى قاداته يتجاهلون صوت الشعب ، ويفرضون ارادتهم الغاشمة التي تناقض ارادة الغالبية الساحقة من الناس ؟

ان مفكرى اوربا قد امتروا كل المائى سكنت عن الاحتجاج على النظام النازى مستولا عن ذلك النظام . وكتب سارتر : «اذا حدث أن قام في بلادنا أو في بلاد أخرى - شكل من أشكال الاضطهاد الاقتصادي أو العنصرى ، فاننا نلقى مسئوليتة على كل من لا يرفع صوته بالاحتجاج عليه . واذا وقع ظلم في أى دكن من أركان العالم فاننا نحمل نحن، ايضا مسئوليتنا عنه» .

واذا كان سياسة أمريكا يعملون اليوم لواء الشر في العالم ، فان مثقفى أمريكا هم وجهها المشرق . وقرق أرض الولايات المتحدة ، التى تجمع اعمق المتناقضات - يقف المثقف وراعى البقر وجهها لوجه . واذا كان عشرات الالوف من أبناء أمريكا ينظمون «مسيرة الموت» اعلان سخطهم على سياسة بلادهم ، فقد وقف عدد من المثقفين الأمريكيين ولفات بطولية ضد النظام الدموى الذى يعكهم .

وفي أحد الأيام في سنة ١٩٦٥ ، حاول ليندون جونسون أيام رئاسته للولايات المتحدة أن يجمع المثقفين حوله ، وأن يضمهم إلى حاشيته . ولكن ضماؤهم لم تطاوعهم ، وولفت «الثقافة» حاميا لهم مما يدبر ضدهم .

وكان الرجل الذى قام بتنفيذ المحاولة يوما هو اريك جولدمان ، استاذ التاريخ بجامعة يرنستون ، وقد عمل مستشارا خاصا للرئيس جونسون بين عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٦ ، وهو مؤلف الكتاب الشهير «موضع مع القدي» ، كما خرج من تجربة العمل في البيت الأبيض الى جانب جونسون بكتاب آخر جعل عنوانه «اماسة ليندون جونسون» . وقد صدر الكتاب عن دار الفريد نوب في شهر فبراير الماضى .

والقال التالى هو تلخيص لاهد فصول هذا الكتاب ، ونقلا عن الصفحات التى نشرتها مجلة «هاربرز» الأمريكية في عددها الصادر في يناير ١٩٦٩ .



الذين يعملون في صمت لاقامة المسارح وبناء قاعات الموسيقى في الريف ، وإلى الرجال الذين ينظمون جماعات القراءة والمناقشة ، والذين يدعون إلى حفلات موسيقية هدفها تنمية التدفق الفنى بين الناس . واستقر رأى على تجاهل جميع العناصر التى تتزاحم على كل فرصة لتسليط مزيد من الضوء عليها . وقدردت أن المهرجان يمكن أن يضم ممثلين مختلف ألوان الفنون . وبدأت اتخيل ردهات البيت الأبيض وقد غطيت حوائطها بالرسوم من إنتاج الفنانين الأمريكيين المعاصرين وأتخيل الحديقة الجنوية حافلة بأعمال النحت ، والقاعات العريقة الانيقة تردد اصدا المقطوعات الموسيقية الجديدة ، والادباء الكبار يقرأون صفحات من انتاجهم تحت لوحات جون آدمز وإبراهام لنكولن .

ورحبت السيدة بس آبل « بالفرقة » التى

في فبراير ١٩٦٥ ، حضرت الى مكتبى السيدة « بس آبل » ، السكرتيرة المختصة بالنشاط الاجتماعى في البيت الأبيض ، وقالت انها بصدد دراسة جدول نشاط الرئيس الأمريكى في الموسم القادم . ولاحظت أن الربيع يقترب ، وتساءلت عن رأى فى القيام بعمل « ثقافى » يناسب الموسم ؟ وقالت اننا لا ننسى ان الرئيس كيندى استفاد كثيرا من حفل العشاء الذى أقامه للأدباء والعلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل . ونحن لا نريد طبعاً أن نقلد خطى كيندى ، ولكن هل فى وسعى أن أفكر فى شيء فى نفس الاتجاه ؟

وانتهى بى التفكير الى مشروع محدد : هو إقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض . ورايت أن مثل هذا المشروع يمكن أن يكون مناسبة طيبة لتوجيه التحية الى أبناء أمريكا

يمكن أن يحدثها المهرجان ، ولكنها بدأت تتراجع عندما شرعنا في مناقشة التفاصيل . وقالت «ان الكتاب والفنانين يمكن دائما أن يخلقوا المتاعب » وعند ذلك غيرت موضوع الحديث وناقشت معها أمورا أخرى .

وكان شعار العمل في البيت الأبيض أيسام جونسون هو ما كنا نصفه بالاستقلال الذاتي . وكنا نقول : ان كل عصى العجلة تنجسه الى مركزها . وإذا أراد أحدنا أن ينجس عملا فما عليه إلا أن يتحرك على امتداد عصاه ، ويتجنب الاستعداد بالصفي الأخرى التي قد تقسد مشروعه . وهكذا بادرت بإرسال مذكرة الى الرئيس أحيذ فيها اقتراح إقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض .

قدم الاقتراح في ٢٥ فبراير . وكانت الفكرة في البداية أن يقام الاحتفال يوم ١٢ إبريل أى بعد نحو ستة أسابيع ، وهي فترة كافية للاستعداد إذا أدخلنا في الاعتبار الامكانيات الخاصة للبيت الأبيض . ولم يكن الهدف دعوة المثقفين والفنانين أنفسهم ، بل أن يكون المستوعون الرئيسيون أولئك الذين يشجعون الفنون في مختلف الولايات والمحافظات . رؤساء الجبان الفنية . رؤساء لجان رعاية الموسيقى في كل إقليم ، المشرفون على الجمعيات الفنية ، والمتاحف وأمثالها . ولم يكن في المذكرة ما يوحي بأنه على ليندون جونسون أن يتظاهر بأنه من المهتمين بالفنون الرفيعة . وتضمنت المذكرة - حسب قواعد العمل في البيت الأبيض أيام جونسون - نوعا من « السيناريو المقترح » (وكانت كلمة سيناريو هي الكلمة المستخدمة) يحدد توقيت التحركات المختلفة ، ويرسم دور الرئيس والسيدة الأولى .

وعادت الى المذكرة وعليها تأشيرة الرئيس والسيدة جونسون بالموافقة . ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك ، غير أنني لم أتلق الموافقة الرسمية على المشروع الا يوم ٢٣ مايو . وعندما اجتمعت بالسكرتير الشخصي « جاك فالنتي » لتحديد موعد جديد للمهرجان وجدت أن أبعد موعد يمكن أن يلائم جدول أعمال الرئيس هو ١٤ يونيو .

تري مسابذا كان الدافع الذي حفز الرئيس جونسون للموافقة على إقامة المهرجان ؟ كنت أدري على وجه التحديد . ولكن لا شك في أنه وجد

فيه وسيلة تقربه من الفئات المهتمة بالفنون . غير أن هناك دائما حي . فبين التاريخ الذي افر فيه جونسون الفكرة مبدئيا ، والتاريخ الذي اعلن فيه موافقه الرسمية ، جرت عدة أحداث هامة ، كان من بينها إصدار أوامره بالاستمرار في ضرب فيتنام الشمالية بالقنابل ، وإلقيام بالتدخل في جمهورية الدنمكيان . وادى هذين الموقفان الى ازدياد موجة النقد لسياسة الحكومة في دوائر المثقفين والفنانين . وربما خطر له عندئذ أن المهرجان يمكن أن يكون أداة لحفض صوت المعارضين للحرب . بيد أنني لا أعتقد أن كان لهذا الاعتبار ذاته أهمية كبيرة ، فالرئيس لم ينظر الى المهرجان نظرة كسدية في أي وقت . وكان لا يرى فيه أكثر من مناسبة لطيفة ، ونشاط اجتماعي خفيف يقوم به رئيس الجمهورية استجابة للاهتمام العام في الأمة بالفنون ، ثم هو في آخر الامر نشاط يشر اهتمام السيدات بصفة خاصة . وذلك كاف .

في ٢٣ مايو تمت الموافقة ، وفي ١٤ يونيو يقام الاحتفال . وليس بينهما غير ٢٢ يوما . وقمت مع المشتغلين ممي بتقسيم المهرجان الى سبعة أقسام رئيسية : التصوير ، النحت ، الأدب ، الموسيقى (المجادة والجاز) ، الرقص ، السينما التصوير الجغرافي . اللوحات والتماثيل والصور تعلق بطبيعة الحال ، والافلام تعرض والموسيقى تعزف ، والتمثيلات والرقص تجرى على المسرح ، أما الادب فيقوم في صورة قراءة الأدباء لبعض انتاجهم . ولم نبذل أي جهد لاختيار « الأفضل » في أي ميدان ، فذلك في تقديري محاولة سخيفة ، بالإضافة الى أنها محاولة لا تلائم البيت الأبيض .

وبدأنا سلسلة واسعة من الاتصالات الشخصية والتليفونية بالحبراء والنقاد في كل الولايات من أجل اختيار الفنانين أصحاب أبرز الأعمال في جميع المجالات ، حتى نضمن أن كل الاجناس الأدبية والفنية ممثلة ، وحتى نختار العمل المميز الذي يكون أكثر دلالة على صاحبه .

وفي ميدان الكتابة ، وهو الميدان الذي عرفه أكثر من سواء ، قمت مباشرة باختيار أسماء الكتاب الذين يتفق الجميع على مهارتهم الحرفية في مختلف الميادين . ورأيت من المفيد في هذا المجال أن أترك لكل مؤلف حرية اختيار الصفحات التي يؤثر قراءتها من انتاجه في المهرجان .

ودعوت « مارك فان دون » لى رئاسة الحفل الأدبى . ولقراءة الشعر وقع اختيارى على روبرت لوفيل ، وللتسمر الحفيف على فيليبس ملك جيتى أما فى الرواية فقد اخترت طرفين متقابلين هما صول بيلكو وجون هيرسى . ولتمثيل الاتجاهات الجديدة غير الروائية اخترت كاترين دوينكر يونين و ١ . ب . وايت وادموند ويلسون .

ورحب جميع الكتاب بالاشتراك فى المؤتمر ، باستثناء ويلسون ووايت . رفض ويلسون الدعوة بعنف لم ألقه من قبل أو من بعد ازاء دعوة تقدم باسم الرئيس والسيدة الاولى . أما وايت فقد رفضها بكل رقة وأناقته عمود « حديث المدينة » زاعما أن شكله يبدو مضحكا كلما حاول أن يقرأ شيئا من كتاباته بين جمع من الناس .

وأيا كان الميدان الذى تناولناه ، فإننا لم نوجه أى اهتمام الى الآراء السياسية أو الايديولوجية أو المبادئ الشخصية لمن رأينا دعوتهم . وكنت أعرف على سبيل اليقين أن أحد المدعوين بقي عضوا فى الحزب الشيوعى حتى بعد اعلان ميشاق عدم الاعتلاء بين النازى والشيوعية . وكانت الصورة التى اخترناها للمصور ادوارد ستيشمن هى بورتريه ليول روصون . وكان أحد المدعوين معروفا بالميل الى الشراب الى حد أنى طلبت من أحد رجال الشرطة بالبيت الأبيض أن يراقبه بلطف بعد المرات الاولى من تروده على المشرب . لم نستبعد أحدا من هؤلاء ما دام قد قدم انتاجا فكريا أو فنيا بارزا ، ورأينا أن أى محاولة لاستبعادهم لا تليق بالبيت الأبيض . وتضمنت اللوحات التى اخترناها لوحة « الغليون المصنوع من الفخار » وهى من أعمال البوب آرت من انتاج روبرت انديانا ، ولوحة « تربيع الدائرة » وهى من أعمال الأدب آرت من انتاج تشادوا اوشوكفيلتش . كما اخترنا ١١ عملا من الأعمال الضخمة فى النحت لوضعها فى الحديقة الجنوبية كان بينها عمل تبلغ مقاييسه سبعة أقدام فى أربعة ، مؤلف من قطع الكروم المأخوذة من هياكل السيارات ، وهو من انتاج جيسون سبيل وقد أطلق عليه اسم « الاحساس بالرجولة » .

وكننت على يقين من أننا لن نصل بسهولة الى اتفاق بين الخبراء الذين طلبنا رأيهم ، وخاصة فى ميدان التصوير والنحت . وحدث ما توقعته فقد ثار بعضهم ، وهند ، وناور ، بل وعرض رشوا صغيرة أو كبيرة ، من أجل اشراك بعض

الفنانين . . وربما تم ذلك لأسباب تجارية ، أو لأسباب شخصية . ولكن ذلك لم يكن هو الطابع الغالب . ووجدنا فى كل ولاية نقادا أدركوا على الفور غرض المهرجان وأهميته ، وقدموا مشورتهم بنض النظر عن اهتماماتهم أو أذواقهم الشخصية .

الدعوة . . والرفض !

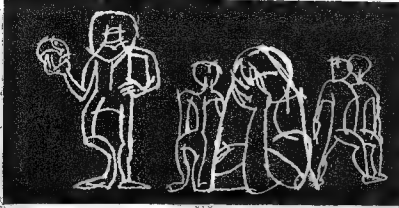
واشتد التزامهم على بطاقات الدعوة . رؤساء مجالس ادارة كثير من الجمعيات يريدون أن يحضروا . كثير من الحلفاء والندوات ترى أن من حقها ارسال مندوب يتحدث باسمها . أحد الفنانين دفع ممثل دائرته فى الكونجرس الى التوسط له للحصول على بطاقة دعوة . لكن المكان فى البيت الأبيض لا يتسع لجلوس أكثر من ٤٥٠ شخصا . والعدد الباقي لا بد له من الوقوف فى الحديقة الجنوبية . وأرسل الى رئيس هيئة محترمة يذكرنى بأنه دفع آلاف الدولارات فى الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطي عام ١٩٤٦ ! وانتشرت موجة من الاحساس بأن من لا يدعى الى المهرجان لن يعد مثقفا .

وفى وسط دوامة الاستعداد للمهرجان ، وعند وضع الترتيبات الاخيرة ، تلقيت رسالة من روبرت لوفيل يطلب فيها ابلاغ رسالة مرفقة الى الرئيس جونسون . وكان نصها كما يلى :

السيد الرئيس جونسون

عندما تلقيت دعوة تليفونية فى الاسبوع الماضى لحضور مهرجان الفنون الذى يقيمه البيت الأبيض يوم ١٤ يونيو وقراءة بعض شعري فيه ، يبدو اننى تعجلت الموافقة بسرعة ولهفة ، إذ لم أر فى هذه المناسبة غير مهرجان فى خالص ، رغم أن كل فنان جاد يعرف أنه لا يمكن أن يلقى تقديرا عاما دون أن تصعبه من جانبه التزامات عامة ايضا وبعد اسبوع من التردد وجدت ان ضميرى يفرض على الاعتذار عن قبول دعوتكم الكريمة . وانى افعل ذلك الآن فى رسالة علنية نظرا لأن نبأ قبول الدعوة نشر فى الصحف ، ونظرا للتصريفات القريبة التى اقدمت عليها الحكومة فى الفترة الأخيرة .

وانى مع تأييدى الكامل لأكثر تشريعاتكم ومشروعاتكم الداخلية ، لا أملك الا أن اتابع سياستنا الخارجية الراهنة بكل استياء وقلق .



ثم اتصلت بلوفيل بالتليفون • ولم الح عليه في الحضور ، فإذا كان غير مطمئن لحضور الحفل وقراءة شيء من شعره فيه فذلك شأنه ولا ريب • ولكنني ألححت عليه في سحب الخطاب ، وإن يكفي بالقول بأنه لن يتمكن من الحضور لأسباب شخصية • فاسماء المدعويين لم تدع بعد على نطاق واسع ، وبهذا يمكنه أن ينسحب دون أن يثير ضجة •

وقلت له إنه من الأفضل أن يسحب رسالته لأنها تبدو خاطئة في المفهوم الاساسي الذي قامت عليه • فمن المعروف أن الرئيس يؤدي دورين متباينين • أحدهما دوره كرئيس للسلطة التنفيذية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وزعيم حزبه السياسي ، والدعاية إلى سياسات معينة في الداخل والخارج • والثاني دور غير سياسي بالمرّة ، هو دوره كرئيس للأمة بأسرها ومن واجبه بمقتضى هذا الدور ، أن يشجع كل ما لدى الأمة من قبح طيبة ونشاط مثمرة • وأن من الواضح أن الرئيس جونسون إنما يدعو إلى مهرجان الفنون بهذه الصفة الثانية ، وأنه بهذه الصفة ذاتها دعا لوفيل إلى الحضور ، وإنه لم يجر تمييز بين المدعويين على أساس سياسي أو أيديولوجي وأنهم بالتالي لا يجوز أن ينظروا إلى مضمينهم بمثل ذلك المنظار ، وأن قبول الدعوة لا يعنى الموافقة على سياسة الحكومة أو رفضها •

وقلت لوفيل اني لا أدري ما هي فكرته عن شخصية الرئيس جونسون وأسلوب تفكيره • واني أعتقد أن الرسالة سوف تفضيه إلى غير حد وأنه سيعدّها اهانة لشخصه ولرئاسة الجمهورية

ويبدو أن واجبنا كدولة ذات سيادة في مواجهة الدول الأخرى ذات السيادة معلق الآن في كفة القدر ، وأنه يتأرجح بين الفصل الاحتمالات وانفسها • ونحن نواجه خطر التحول بالتدريج إلى دولة عدوانية متعصبة ، بل ونحو الانزلاق إلى طريق السمار النووي النهائي • واني لأعرف أن اتخاذ خطوة عملية ليس بالأمر السهل بالنسبة للرجل المسئول ، يه أن التجرؤ على النقد أيضا ليس بالأمر السهل بالنسبة للرجل المنزوي الذي لا يحزم أمره • واني لأشعر في هذه اللحظة الملتزمة الدقيقة والتي قد تكون حاسمة بأنني أخدم سيادتكم وأخدم وطني بصورة أفضل بسلام الاشتراك في مهرجان الفنون بالبيت الأبيض • وأرجو أن تتقبلوا احترامي •

دوبرت لوفيل

وكان أول ما أثارته في الرسالة هو الغضب • وحدثت نفسي بأن هذا سعي متعمد لأحداث الشغب وجرى رخيص وراء الشهرة : بقبول دعوة البيت الأبيض ، ثم رفضها ، وإقحام قضايا كبرى لا محل لها ، واستخدام عبارات رنانة • وكل ذلك مما يلائم الصحف • ولكنني بعد ذلك درست محتويات الرسالة بشيء من الهدوء وفكرت فيها على ضوء ما أعرفه عن لوفيل (وأنا لم ألقه من قبل) وانتهيت إلى أن رد الفعل الأول ليس له أي فائدة • على أساس ، وأن الرسالة إنما أملاها الاخلاص والقلق الحقيقي • وكنت أشعر بأن لوفيل مخطئ في رأيه ، ولكنه ينييه على أساس لا مقر من احتراما •

وانفردت في مكتبي محاولا أن أجمع أفكارى •

القرار الذي سيحرم المهرجان من حضوركم ومواهبكم كما آسف للأسباب التي بني عليها قراركم • فنتجن قد وجدنا في هذا المهرجان وسيلة لتكريم وتشجيع الفنون في أمريكا دون نظر إلى الانتماءات السياسية أو القضايا العامة أو الخلافات المؤقتة حول المسائل الخارجية أو الداخلية • واني إذ أبدى احتراسي الكامل لآرائكم المخالفة لآراء الحكومة حول بعض جوانب السياسة الخارجية ، آسف لاقحامكم هذه الخلافات في مجال لا علاقة له بها •
المخلص : ليندون جونسون

وارتفع صباح الرئيس في مكتبه البيضاوي الشكل حتى بات مسموعا في كل الجناح الشرقي للبيت الأبيض • وصدرت الى التعليمات بأن أرسل ردا على الرسالة باسمي لا باسم الرئيس ، والا يتضمن الرد شيئا أكثر من « الاخطار بالاستلام » وقررت أن « الاخطار بالاستلام » يمكن أن يكتب بالصورة التالية :

عزيزي المستر لوفيل

أبلغت رسالتكم الى الرئيس جونسون بناء على طلبكم • ولست في حاجة الى القول بأنني آسف أشد الأسف لحرمان مهرجان الفنون في البيت الأبيض من وجودكم ومواهبكم •
المخلص : أريك جولدمان

وفي الصباح التالي نشرت « النيويورك تايمز » الحكاية كلها في صفحتها الاولى • ولم يدهشني ابرازها للقصة لما لها من طابع اخباري • ولكن علمت فيما بعد أن الرئيس جونسون رأى في ابرازها دليلا جديدا على الموقف العدائي الذي تنتخذه منه « النيويورك تايمز » •

الوفاة !

ان بعض الاحداث ، في ظروف خاصة وفي ارتباطها بشخصيات محددة ، تتخذ على الفور طابعا رمزيا • وكان من هذه الاحداث رفض أحد قادة أمريكا الثقافيين حضور حفل ثقافي يقيمه الرئيس الأمريكي تحت رعايته • وكان موقف لوفيل تعبيرا عن مشاعر عدد كبير من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعات ازاء ليندون جونسون الذي أمر بالتدخل في الدومينيكان والذي أمر بتصعيد الحرب في فيتنام •

وكتب روبرت سيلفرز ، المشرف على تحرير

ذاتها ، وإن أثرها سيكون مروعا بسبب المكانة الخاصة التي يشغلها لوفيل • وإن هذا الحادث سيدفع الرئيس جونسون الى الشعور بأن المثقفين والفنانين هم أعداؤه الالداء ، وسوف تقتل أي رغبة لديه للمساعدة في نشر الفنون ورعايتها ، أو التعرف على المفكرين والاتصال بهم أو الاستماع الى آرائهم في السياسة •

واجابني لوفيل بأنه فكر في الأمر مليا قبل أن يبعث برسائلته ، وأنه ناقش الأمر مع بعض أصدقائه ، وإن بعضهم قدم نفس الحجج التي قدمتها وبعضهم الآخر وافقه على الانسحاب ، ولم يحرص لوفيل على مناقشة النقط التي أثيرتها واكتفى بأن قال انه لا يستطيع التقلب على الشعور بأن وجوده سيكون تعبيرا بشكل أو بآخر عن تأييده لسياسة جونسون في التدخل في فيتنام واندميكان • وأنه يستنكر هذه السياسة الى حد يجعله عاجزا عن الحضور •

واعترض عن تصرفه في القبول دون تفكير ثم العودة الى الرفض ، وأبدى أسفه لما سببه من حرج للرئيس وللشخص • ولكنه وصل الى قراره ، ولا يستطيع أن يسلك سبيلا آخر بضمير مرتاح •

وأشرت خلال الحديث الى مسألة احتمال وصول الرسالة الى الصحف فابلغني لوفيل أنها أبلغت بالفعل الى « النيويورك تايمز » • ولم أشأ أن أجادل بأنه من غير المألوف أن يذاع مضمون رسالة قبل أن تصل الى المرسل اليه ، وخاصة اذا كانت مرسلة الى رئيس الولايات المتحدة • بدلا من غير ملائم أن ناقش مسائل البروتوكول مع رجل تحرره دوافع داخلية كبرى ولكن عرضت عليه أن أتولى بنفسى الاتصال بالجريدة ، وأكدت أن سحب الرسالة سيتم بطريقة لا تدع أي شك في أن القصة لن تذاع •

لكن لوفيل رفض وصهم على أن يسب كل شيء في مجراه •

ولم يكن مفر • فبعثت بالرسالة الى الرئيس جونسون ، ومعها مذكرة مختصرة بما جرى ، واقتרכת ارسال رد بتوقيع الرئيس يقول فيه :
عزيزي مستر لوفيل

تلقيت رسالتك التي تعلن فيها انسحابك من مهرجان الفنون بالبيت الأبيض ، واني آسف لهذا

« نيويورك ريفيو » ثم باعتباره الناقد السينمائي
للمجلة « سكووير » .

عندما وصلتني البرقية كانت بطاقة الدعوة
الموجّهة الى مكدولند قد أرسلت بالفعل . أما
بطاقتا ريفرز وروتكو فلم تكونا قد أرسلتا بعد ،
لكننا كنا أرسلنا برقيتين الى متحفين من متاحف
الفنون نطلب اعارتنا لوحيتين لهما . وكان في
تقديري أن موضوع مكدولند بسيط ، فقد وجهت
اليه الدعوة ومن حقه أن يقبلها أو يرفضها . وكذلك
كان الأمر واضحا بالنسبة لدعوة ريفرز وروتكو ،
فأى مضيق - حتى لو كان رئيس الولايات المتحدة -
من حقه ألا يدعو الى بيته ضيفا اذاع علنا أنه
لا يريد المصور . لكن عرض لوحاتهما في
الاحتفال كان أمرا آخر ، خاصة وأنه يتعلق بذلك



الطراز الخاص من الكائنات البشرية : ليندون
جونسون .

فاذا كانت رسالة لوفيل بالاعتذار قد أغضبت
الرئيس الأمريكي ، فإن برقية سيلفرز - كونتز
أحالت غضبه الى لوب . ومع ازدياد غضبه ،
اتخذ له هذا أكبر . وإذا كان المثقفون والمثقفون
لم يكونوا في يوم من الأيام مقربين - كافرين -
الى ليندون جونسون ، فقد أصبح الآن يضمهم في
حقيبة واحدة ويتمنى أن يقذف بهم الى الجحيم .
ولم يكن يميز بين من ينتقدون سياسته الخارجية
على أساس منطقي وبين من ينتقدونها نقدا طائشا ،
بل لم يمسد يمين بين المؤيدين لحرب فيتنام
ومعارضيه . لقد انطلق غضبه ضد « هؤلاء الناس »
الذين أهانوه وأهانوا رئاسة الولايات المتحدة .
بل تطور الموقف الى أبعد من ذلك ، فهو يرى أن
هؤلاء الذين حطوا من مكانة الرئيس الأمريكي ،
وأذاعوا موقفهم علنا ، إنما أضروا بوطنهم في وقت
الشدة . أنهم ليسوا مجرد « أبناء كلاب » (استخدم

مجلة « نيسويورك ريفيو » يقول إن جونسون
« أعد هذا الاحتفال حتى يقدم الى العالم واجبة
زائفة يزعم بها أن الكتاب والفنانين يؤيدون حرب
فيتنام » وأنه حاول استغلال لوفيل لتحقيق غرضه
وأن من واجب الأدباء مهاجمة الاحتفال ، وأن
« لهووقف جانبه السياسي الواضح » ، وأنهم يجب
أن يبذلوا كل جهدهم حتى يصبح موقف لوفيل
« جارحا الى أبعد مدى لليندون جونسون الذي خان
المثقفين والفنانين الذين أعطوه أصواتهم في
١٩٦٤ » .

وفي اليوم التالي ، وجه سيلفرز بالاشتراك مع
الشاعر ستانلي كونتز برقية الى جونسون يعلنان
فيها تأييدهما لوفيل « في قراره بعدم الاشتراك
في مهرجان الفنون بالبيت الأبيض » . ونود أن
نبلغكم أن كثيرين بيننا يشمساكونه الاستياء
من السياسة الخارجية الأمريكية الراهنة . ونرجو
أن يتصور الشعب في بلدنا أو في البلاد الأخرى
أن إقامة مهرجان الفنون بالبيت الأبيض تعني
موافقة الفنانين على السياسة التي تتبعها الحكومة »

ورضع سيلفرز وكونتز قائمة بالكتاب والفنانين
وقسموا بينهما مهمة الاتصال بهم لجمع توقيعاتهم
لكنهما كانا في عجلة من أمرهما ، حريصين على
نشر برقيتهما في الصحف في أقرب وقت بعد
نشر رسالة لوفيل ، ولذا أرسلنا البرقية الى البيت
الأبيض تحمل عشرين توقيعاً . غير أن هسند
التوقيعات العشرين كان لها وزن خاص ، فهي تضم
أسماء : هنري أدلت ، جون بريمان ، الان دوجان ،
جول فيفر ، فيليب جاستون ، ليليان هلمان ، الفرد
كاغان ، ستانلي كونتز ، دوايت مكدولند ، برنارد
مالامود ، ماري ماكاداي ، لاري ويفرز ، فيليب
روت ، هارز روتكو ، توبس سمبسون ، و . د .
ستودجراس ، وليام سترون ، بيتر تايلور ، ادجار
فاريث ، ووبرت بين وانث .

ويجرى العمل في البيت الأبيض على قاعدة
إرسال البريد الوارد والخاص بمشروع معين الى
الشخص المختص لدراسته قبل عرضه على الرئيس
وعندما وصلت هذه البرقية الى مكتبى توقفت عيناى
عند أسماء دوايت مكدولند ولاري ريفرز ومارك
روتكو . فهؤلاء الثلاثة بين المدعويين الى الحفل :
ريفرز وروتكو باعتبارهما من الفنانين الذين
اختارت لوحاتهما للعرض في إيحاء البيت الأبيض
أثناء الاحتفال ، ومكدولند بحكم عمله في جريدة
« نيويورك » والمقالات التي يكتبها في

هذه العبارة بنصها) وإنما هم أوغاد ، ويوشكون أن يصبحوا خونة .

وأعلن جونسون أكثر من مرة أنه « **احتل هؤلاء الناس بما فيه الكفاية** » ، وأنه سيبلغ الاحتفال (وكنا نعرف أنه لن يفعل ذلك) ، أو أنه سيكتفي بعدم حضوره (وهو أمر كان يمكن جدا أن يفعله) .

وكنتم أتابع الموقف عن كتب ، وأدرك أن التصرفات التي ستقرر خلال الأيام القادمة ستحدد موقف جونسون من « **هؤلاء الناس** » الذين يضمون عددا من أخصب عقول أمريكا وأكثرها إخلاصا ، وأن التوتر السائد يمكن أن يدفعه إلى ارتكاب تصرفات تسيء في شخصه وإلى الولايات المتحدة في عالم على أتم استعداد للاحتجاج بأن كل أمريكي هو في أعماقه من أبناء تكساس ، وأن كل أبناء تكساس أجلاف .

وكان من الواضح أن موقفي العام هو السعي إلى تهدئة الموقف قدر الامكان ، مع الحرص على انجاح الاحتفال والاحتفاظ له بمستواه . ولكن كانت هناك مسائل عاجلة ومحددة تتطلب التصرف السريع . من بينها مسألة **لوحتي ديفر ووتكو** وسارعت بالاتصال بالرئيس قبل أن يقرر الغاء عرضهما . وكنتم أعرف أنه عندما يقضيه فمن الأفضل الكتابة إليه بدل المناقشة معه . وأرسلت إليه مذكرة عاجلة . ركزت فيها على الجانب العملي للمسألة : إذا لقي الطلب فسوف يتسرب الأمر إلى الصحف ، ويقف البيت الأبيض في موقف حرج . ولكنني أشرت أيضا إلى الموقف العام الذي نتخذه في هذا الاحتفال : أنه ليست له صلة بالسياسة الداخلية أو الخارجية ، وأن اللوحتين اختيرتا بنسأه على مشورة الخبراء على أساس قيمتهما الفنية . وما دام اختيارهما قد تم هل هذا الأساس فلا ينبغي أن يتأثر عرضهما برأي الفنانين في حرب فيتنام أو بحضورهما الاحتفال . وأن تصرف البيت الأبيض على وجه آخر سوف يفهم على أنه تأكيد للمعنى الذي تركه تصرف لوفيل وموقع البرقية : **وهو احتفال قضائيا خارجية على حفل فني بحت** .

وتفقيست الصمغاء عندما اتصل بي **جاك فالنتي** ليبلغني تعليمات جونسون باستمرار عرض اللوحتين وقلت لفالنتي :

— اني سعيد يا جاك . ولا أشك في أن هذا هو القرار السليم . ولكنني أود أن أعرف ماذا

قال الرئيس عموما ، فقد يساعدني ذلك في تصرفاتي .

وأطلق فالتني ضحكة قصيرة وقال : لا أظن أنه يساعدك أن تعرف ما قال .

العلاقة بين الحكومة والفنون

وحدد عدد كبير من المثقفين والفنانين موقفهم سواء في السر أو في العلن ، من المسألة المثارة ألا وهي : ما العلاقة الصحيحة بين الحكومة والفنون؟ وهل إذا قبل أحد المثقفين أو الفنانين الدعوة إلى حفل البيت الأبيض يكون معنى ذلك بالضرورة التزامه بتأييد السياسة التي تنتهجها الحكومة ؟ لم يكن هناك إجماع ، وكانت هناك مختلف الآراء فمن بين ١٠٢ من الكتاب والفنانين والنقاد الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور الاحتفال ، لم يتمتع عن الحضور بالإضافة إلى لوفيل وعلى نفس الأسس التي أبدعها غير أربعة أشخاص (هم الناقد المسرحي روبرت بروشتين الذي أصبح فيما بعد يعرف باسم عميد مدرسة بيل المسرحية والنحات الكسندر كالدر والرسم جاك ليفين والمصور الفوتوغرافي بول ستراند) وامتنع ١٤ آخرون — وهم رقم كبير بالنسبة لحفلة تقام في البيت الأبيض — دون إبداء سبب جوهري ، والأرجح أنهم كانوا يتحرجون من إبداء نفس الأسباب التي أبدعها لوفيل . أما الذين أجابوا بالقبول فكان بينهم على الأقل ١٥ لم يحددوا رأيهم نهائيا وقد أدلى كل من الروائيين الذين قبلا تقديم قراءات من انتاجها بتصريح إلى الصحف يعبر عن موقفه . أكد صول بيللو للصحفيين أنه يعتبر التدخل في جمهورية الدومينيكان أمرا « سيئا وضارا » وأنه يعارض حرب فيتنام ، غير أنه قال أنه لا يرى في الاحتفال « **مساسسة سياسية** » ، وأن رئيس الجمهورية يعد « **هوسمة قومية** » بالاضضافة إلى دوره كرجل سياسة ، وأن الرئيس جونسون يسمى « **بوسيلته الخاصة** » لتشجيع الفنانين الأمريكيين . واني أقبل الدعوة اعرابا عن احترامي لنواياه وتقديرا لمركزه . ولا أشك في أنه لا يتوقع مني أن أؤيد كل مواقف حكومته أو كل سياسة يرسمها .

أما جون هرسى فقد تحدث بلهجة أخرى ، فأكد أن قرار قبوله الدعوة قائم « حتى الآن » ، وأنه في الظروف التي أحاطت بالاحتفال لا يعتزم قراءة شيء من رواياته ، وقال : **واني كالكسبرين من أمثال أشعر نلق شمديد نتيجة للاتجاه إلى الاعتماد على الحلول العسكرية في سياستها الخارجية** .

أثار الرئيس جونسون ، ولم ير فيه غير محاولة للتشهير به والاضرار بالمجهود الحربي . رأى فيه اهانة أخرى من جانب « هؤلاء الناس » . وقال وهو على بعد خطوة واحدة من رجال الصحافة « ان بعض هؤلاء الناس يهينني بالامتناع عن الحضور ، وبعضهم الآخر يهينني بالحضور » . ثم اضاف بصوت منخفض « الا يعلمون ان الرئيس الوحيد لديهم ، وان الحرب قائمة ؟ » واستمرت الاستعدادات للاحتفال .

وكان من الواضح ان أهم المتاعب الباقية هي اختيار الفقرات التي سيلقيها الادباء . ومن بين الادباء الخمسة الذين وجهت اليهم الدعوة ليقروا بعض انتاجهم ، كان واحد قد انسحب ، وثلاثة أعلنوا موقفهم المعادي لطرب فيتنام ، وأعلن واحد منهم - هو « جون هيرسي » أنه اختار للقراءة مقطعا من كتابه « هيروشيميا » .

وتلقت مكالمة من السيدة جونسون تسألني فيها اذا كنت أعرف على وجه الدقة ما يعتزم هيرسي قراءته . وأرسلت اليها القطع الثلاث التي وقع عليها اختياره . وكانت اثنتان منها تدوران حول الأنسة توشيكو سازاكي ، وهي فتاة يابانية تعمل في أحد مصانع هيروشيميا ، وتصف القطعتان اختلاط أجزاء جسدتها عند انطلاق القنبلة ، كما تصف علائبها طوال الشهر التالي وهي تنتقل من مستشفى الى آخر ، ثم وهي ترى حطام مدينتها لأول مرة بعد الكارثة . أما القطعة الثالثة فتسود مجموعة من الإحصاءات عن الطاقة التدميرية للأسلحة النووية الموجودة والتي يجري تجربتها .

وفي اليوم التالي دعيت السيدة جونسون الى تناول الغداء معها ومع عدد من المحيطين بها من أجل « اجراء الترتيبات النهائية » للاحتفال . وأقيمت المائدة في « قاعة الملكة » بالجناح الخاص وبدأت المناقشة الموضوع بأسلوب ناعم ، ولكنني لم ألبث أن شعرت بالقلق ، إذ ظهر على الفور ان هالك المائدة ليس اجراء الترتيبات الأخيرة بقدر ما هو استبعاد جون هيرسي . وزاد قلقي عندما أوضحت السيدة جونسون بجلاء انها تتحدث أيضا باسم زوجها . وكنت أعتقد أنه في أمر يمثل هذه الحساسية ينبغي ان يعبر الرئيس عن رأيه بنفسه .

وقرأت السيدة جونسون فقرة من البيانات الإحصائية التي يتضمنها كتاب هيرسي يقول فيها : عندما أعلن الرئيس ترومان ضرب هيروشيميا بالقنابل ، أعلن للعالم ان قوة الانفجار الذري في

وكان في نيتي حضور الاحتفال اذ رأيت اني بهذا الحضور استطيع ان اذافع عن وجهة نظري أكثر مما اذافع عنها بالامتناع ، او انتعاب ، وامل ان أقف في البيت الأبيض - وربما في حضور رئيس الجمهورية - وأقرأ بضع صفحات من كتاب لي بعنوان هيروشيميا .

وفي الوقت نفسه حددت دوايت مكدونالد موقفه . ودون ان توجه اليه الدعوة وقع برقية يعلن فيها انه لا يوافق على الحضور . ولكن عندما وجهت اليه الدعوة بالفعل فانه أخذ يفكر في الامر مرة أخرى ، وشرع في مناقشته مع أصدقائه ، وكان يردد انها فرصة لا رغام جونسون على التخل عن الحرب التي أعلنها . واقتصر عليه روبرت سيلفرز أن يحضر الاحتفال ويكتب عنه مقسالا . في « النيويورك ريفيو » .

ولم أعرف بهذه الوقائع الا فيما بعد - اما في ذلك الحين فقد تلقت برقية من مكدونالد يعلن فيها قبول الدعوة ، ويذكر أنه وقع برقية سيلفرز - كوتنز ، ثم يقول : وأعتقد أنه لا مانع لديكم من أن أكتب شيئا فيما بعد عن انطباعاتي عن الاحتفال اذا ما شعرت بالرغبة في ذلك .

واتصلت به تليفونيا . وكان الانطباع الذي تأكد لدى خلال المحادثة ان مكدونالد يمتني ان أسحب دعوته بسبب توقيعه برقية سيلفرز - كوتنز ، وبسبب ما أُلح اليه من أنه يعتزم كتابة مقال غير ودي . فاذا لم أسحب الدعوة فاني سأبقيها قائمة مع التأكيد عليه بأنه ليس من الملائم أن يحضر الحفل مدعوا ثم يهاجمه في مقالاته ورغم الأخطاء التي قد أكون قد وقعت فيها ، فلم أكف على استعداد لايجاد وضع يسمح لصحفي واضح العداة بأن يزعم ان احتفال البيت الأبيض بالفن لا يضم غير مجموعة الفنانين المؤيدين لسياسة الرئيس جونسون الخارجية والمستعدين للثناء على الحكومة . ولذا أكدت لمكدونالد ان دعوته ما زالت قائمة وانها وجهت اليه رغم العلم الكامل بعدائه لطرب فيتنام . وأنه حسر في أن يكتب ما يشاء .

ماسا هيروشيميا

اما في مكتب الرئيس فكان موضوع الاحتفال ما زال موضع دراسة تجري بأعصاب متوترة . فعندما أعلن جون هيرسي أنه سيقرا صفحات من كتابه « هيروشيميا » كان يظن أنه بذلك يرد على التساؤل عما يدور رجالا يعارض حرب فيتنام الى قبول دعوة البيت الأبيض ، غير أن تصريح هيرسي

ذلك اليوم بلغت ما يساوى ٢٠ ألف طن من مادة ت . ث . ت » وضعت السيدة الاولى الورقة جانباً وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها « ان الرئيس يعيل جدا الى الرئيس السابق رومان . ولا يمكن ان يقبل ان يأتى أناس الى البيت الابيض ليتحدثوا ويقولوا ان الرئيس ترومان كان يقف بالقبال الذرية »

وادركت ان السيدة جونسون تحاول ان تذكر شيئاً بطريقة غير مباشر ، وقلت لها انى لا افهم ماذا تريدان تقول ؟ وتحوّلت السيدة جونسون من الكلام غير المباشر الى الكلام المباشر وقالت :
- ان هناك من يتهم الرئيس بأنه داعية حرب وسفك دماء . ولا يمكن ان يقبل ان يأتى الى هنا كتاب يشمرون به ، فى داخل بيته ، ويصلونه بأنه يريد ان يستخدم القنابل الذرية .

وحرصت على توضيح المواقف ، وقلت للسيدة جونسون : هل تستطيع ان اطلع على هذه الفقرة ؟ ومذت الى يدهاها ، وقرأت بصوت مسموع الصفحة كاملة ثم قلت :

- ليس فيما قرأت أى إشارة صريحة أو ضمنية تدل على ان الرئيس ترومان أو الرئيس جونسون لا يغيضان استخدام القنابل الذرية . ونحن نعرف ان جميع المواطنين الشرفاء يرفضون فكرة اشعال نيران الجحيم النووي . وما يقوله هيرسى يختلف تماماً عما ألع اليه . وقد طلبنا اليه ان يقرأ بعض كتاباته فاختار ان يتحدث عن واحدة من أكبر المشاكل الادبية والاخلاقية فى هذا العصر ، وهى مشكلة الحرب النووية . وقد أورد رأيه خلال قطعة تبين ان حرب فيتنام يمكن ان تتطور - على عكس رغبة الرئيس جونسون - تماماً - وتصبح حرباً نووية ، تماماً كما وجد الحديث الرئيس ترومان نفسه مضطراً ، من أجل ما اعتقد انه الصالح العام ، الى اصدار امره بالقابلية الذرية .

وتدخلت السيدة آبل فى الحديث وقالت :
- ان هذا يثير القرف . فبلى حق بسمج كاتب لنفسه ان يطلب من الرئيس ان يجلس ويستمع اليه وهو يلقي قطعة يمكن ان تجعل منها الصحف عناوين ضخمة تعارض السياسية الخارجية لحكومتنا ؟
وعدت أناقش واجادل . غير ان وجه السيدة جونسون تصلب وقالت :

- ان الرئيس وأنا لا نريد ان يأتى هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام .

وصممت على الا اعتبر هذه الملاحظة أمراً ، وان أخطأت السيدة جونسون من الناحية انجيلية فقط :

- اذا أنا اتصلت الآن بهيرسى وطلبت منه الا يقرأ من كتاب هيروشىما فأتى ارجع بنسبة ٩٩ :
١ انه سوف ينسحب على الفور من الاحتفال .

وقالت السيدة آبل : سيكون هذا افضل ! فلست أفهم كل هذه الضجة حول كاتب سخيض وتكهرب الموقف . وتدخلت السيدة اليزابيت كريبتز فى الحديث وقالت :

- اليس صحيحاً ان هيرسى معروف فى المقام الاول ككاتب روائى ؟ الا تستطيع ان تبلفه اننا نريد ان نكرم أعماله الروائية ، وانه من الأفضل ان يختار قطعة من احدى رواياته ؟

كان ذلك حلاً وسطاً ، لكنى لم أستطع قبوله ، اذ كان اسلوباً مهذباً لمنع هيرسى من قراءة المقاطع التى اختارها من كتاب هيروشىما . ولا شك فى ان هذا سيؤدى الى انسحابه من الاحتفال والى اثاره ضجة تصور الرئيس جونسون فى ضوء غير مناسب .

وأبدت رأيى مرة أخرى . لكن السيدة جونسون تكلمت بشدة ، وقالت وهى تضيف على الكلمات :

- ان الرئيس وأنا لا نريد ان يحضر هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام . والمسألة التى امامنا هى كيف نعالج الموقف بأحسن اسلوب .

ثم نظرت الى وقالت : - ألا تعرف صديقاً مشتركاً يمكن ان يتولى الامر بلباقة ؟

وكنتم أعرف هذا الصديق المشترك ، ولكن كنت واثقاً انه سيرفض هذه المهمة . وانفض الاجتماع ولم نصل الى شئ . وقررت ان أمضى فى طريقى ، وعلى مسئوليتى ، ما دمت لم أتلّق أمراً من الرئيس شخصياً .

المباحث تعترض

وحل يوم الثلاثاء ، قبل موعد الاحتفال بستة ايام ، وعلمنا ان الرئيس سيسافر الى تكساس فى عطلة نهاية الاسبوع ، وقد يبقى هناك المنتصف الاسبوع القادم . وسافر الرئيس بالفعل . ومن هناك صدرت التعليمات ، ان يوضع الاحتفال فى الظل لا مراسلون صحفيون ، لا مصورون لا اذاعة ولا تليفزيون . وكانت احدى محطات

الإذاعة قد استعدت لارسال ساعة كاملة عن الاحتفال فلو فقت استعداداتها •

ومضى جونسون الى أبعد من ذلك • كانت هناك مجموعة من الدعوات الأخيرة لم ترسل بعد ، فأمر بأن تتولى إدارة الباحث المركزية مراجعة الأسماء مراجعة دقيقة ، ليست تلك المراجعة التقليدية التي تهدف الى ضمان سلامة شخص الرئيس وأسرته ، بل هي مراجعة لعقائد كل شخص وارتباطاته • وكلف **مارفين وطسون** بإجراء التحريات • وقد تمت على وجه السرعة ، واتصل بي واطسن طالبا إبعاد ستة أسماء •

وكنت قد سمعت الصراع • فتوجهت الى وطسون لا لأناقش المبادئ بل لأناقش الجوانب العملية • فاربعة من هؤلاء الأشخاص الستة فنانون لهم أعمال معروضة في الاحتفال ، فكيف نرفض دعوتهم ؟ وقد اعترف واطسون بأن ذلك سيبدو غريبا ، لكنه سألني : هل أريد أعمالا هدامة في البيت الأبيض ؟ وقلت انه إذا كان لأحد منهم اتصال بحلتي الجماعات في وقت ما ، فلم يكن ذلك من أجل الهدم بل كان على أساس إنساني محض • ورد على وطسون : وما موقفهم الآن من قضية فيتنام ؟ وقلت : إننا لن نعيد الحديث في هذا مرة أخرى • فسيكون البيت الأبيض مليئا بأناس يمارضون الحرب • وأجابني : انت تعرف انني اذا عرضت هذه التقارير على الرئيس فسوف يحذف عددا أكبر من الأسماء وأجبته : لا أشك في ذلك وهو في حالته الراهنة ولكن واجبا أن نحميه من هذه الحالة •

وصنعت واطسون لحظة ثم قال :

— ما رأيك لو وجهنا اليهم الدعوات بشرط ان تصلهم قبل الموعد بيومين اثنين ؟

وضحكت وقلت :

اراهن أنهم سيحضرون رغم ذلك •

وقال : نعم ، لسوء الحظ !

(وقد حضر فعلا أربعة من الستة)

توقيعات داخل البيت الأبيض

وحل يوم الاثنين الموعود ، يوم الاحتفال : ١٤ يونيو • وكان يوما صيفيا لطيفا من أيام واشنطن ، لا سحب ولا رياح • وبدت السيدة جونسون في أحسن حالاتها ، وافتتحت الحفل بعباسات ودية •

والقي مارك فان دورين كلمته ، واستقبلت كما تستقبل كلمة رئيس الجلسة عادة بالصمت ، والقي صول بللو مقاطع من كتابه هيرتزوج قوبلت بالتصفيق • واختارت **كاترين دويتز بوين** فقرات من كتابها « يانكي من جبل الاولم » • وقد ألفتها بحماسة وحيوية انتزعت تصفيقا طويلا

وارتقى جول هيرسي المنصة شاحبا متجهما الوجه • وقرأ الفقرات التي اختارها من كتاب « هيروشيميا » متهملا ، مؤكدا على الكلمات ، وهو من حين لآخر يرفع عينيه لينظر مباشرة في عيني السيدة جونسون التي كانت تجلس في الصف الاول • وعندما انتهى من القائه ساد القاعة صمت ليضع ثوان ، ثم انفجر تصفيق حاد • بينما بقيت السيدة الاولى - التي صفتت لكل من سبقوه - في مكانها بلا حراك •

ومضى الاحتفال وفق البرنامج المرسوم • وعند تناول الغداء ألقى **جورج كينان** خطابا أعده عن « الفنان والمجتمع الأمريكي » • وعزفت الموسيقى في أكثر من قاعة • وأخرجت مقاطع من مسرحيات متعددة كان بينها مشهد من مسرحية « موت باع جوال » **لأوثي ميلر** • وانتهت الفقرة الأولى من الاحتفال بقراءة المجلة التي أعدها **شاوتلون هستون** - الذي كان قد عاد لتوه من الاشتراك في المظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية للمواطنين • لأخراج فيلم جديد تقوم فكرته على دمج مقاطع من خمسة أفلام من أهم الأفلام التي أخرجتها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية •

وكان الضيوف معظم الوقت يستمتعون بالحفل ويقضون وقتا لطيفا • ولكن لا شك أن الكثيرين منهم - وربما الأغلبية - كانوا يشعرون بـ سؤال الوقت أن الشخصية الرئيسية في هذا الاحتفال الذي أقامه البيت الأبيض لتكريم الفنون هي الشخصية التي لم تحضره • ان أكثرهم لم يكونوا يوافقون **روبرت لوفيل** على آرائه فسفقد حضروا على أي حال - لكن رسالته لم تفقد أثرها ، وأثارت بينهم مختلف المشاعر والآراء • وكنا نشعر بأن البيت الأبيض يعاني نوعا من الشيزوفرينيا • كان بين الحاضرين مثلا صول مألوف - محرر الشؤون الثقافية في مجلة نيوزويك - وقد حضر الاحتفال وهو يعتقد أنه مؤامرة حربية • وقد قابل مألوف زميله بللو بعد انتهاء فترة القراءة في الصباح وبادره الهجوم •

كيف تستطيع أن تقف هناك وتقرأ بعد كل ما فعله هذا الرجل في فيتنام ؟

وأخرج بللو ، لكنه أجاب بما سبق أن أعلنه من أنه يعتبر الحفل مناسبة فنية وثقافية ، وأنه سيعين رأيه في السياسة الخارجية لأمريكا في مكان آخر .

غير أن مالوف لم يكف عن الهجوم . وتحدث عن الأدباء الذين يبيعون أنفسهم . وقال :

« نحن صنعناك . ونحن قادرون على تحطيمك وانسحب بللو من أمامه »

وكان بين الحاضرين دوايت مكدونالد . وهو رجل مثقلى الجسد ، سريع الحركة ، له طيبة مدببة ووجه لطيف ولسان حاد . وهو يستطيع أن يكون رقيقا جدا . لكنه لم يكن رقيقا . أثناء الاحتفال على الإطلاق . كان قد ناقش بعض أصدقائه في اليوم السابق واتفهوا إلى اقتراح جرى : لماذا لا توزع « عريضة » مؤيدة لوفيل أثناء الاحتفال ذاته ؟ وأعجب مكدونالد بالفكرة وأعد العريضة بالفعل . وجاء فيها :

« اننا نريد أن نوضح أننا عندما تقبلنا الدعوة الكريمة التي وجهها اليك السيد الرئيس لحضور مهرجان الفنون بالبيت الأبيض ، لم نصد على الإطلاق، التخلي عن الموقف انشجاع الذي وقفه روبرت لوفيل ، كما انه لا يعنى موافقتنا على السياسة الخارجية للحكومة . . فنحن نؤيد احتجاج روبرت لوفيل على انتصارات الأخيرة لبلادنا في فيتنام وفي جمهورية الرومانيكان » .

وعرض مكدونالد فكرته على توماس هيس - رئيس تحرير مجلة أخبار الفن (ارنس نيوز) الذي تعمس لها ، وأخذ يسعى مع مكدونالد ، أثناء الاحتفال ، لجمع التوقيعات على العريضة . وقد جمعا بالإضافة إلى توقيعهما ، ستة توقيعات تضم أسماء ثلاثة نحاتين هم هيرت فريبر وإيزاو نجوشي ويثير فولكوس ، وواحدة من الرسامين هو وليام دي كوننيج . ثم سام هاستر وهو مدير أحد المتاحف الفنية ، وريد ويتمور الأستاذ بجامعة كارلتون .

ورفض الكثيرون توقيع العريضة ولكن الرفض لم يزد مكدونالد الإحساس . واستمر يدعو إلى توقيع العريضة من الصباح حتى وقت متأخر في المساء . واقترب مكدونالد ، أثناء حفلة الكوكيتيل ، من الممثل شارلتون هستون ودعاه إلى التوقيع ، وعندما رفض وصفه مكدونالد بأنه

من أذئاب هوليوود . ورد هستون غاضبا بأنه اشترك في مظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية ، ممرضاً عمله في السينما للخطر ، وسأل مكدونالد أين كان هو في تلك المناسبات ؟ واستمرت المواجهة بين الرجلين ثلاث أو أربع دقائق ، ارتفع خلالها صوت مكدونالد إلى حد الصياح . وفي النهاية تمالك هستون أعصابه ومضى .

وفي المساء كان مالوف قد عاد إلى نيويورك ، أما مكدونالد فبقى وأعرب عن سخطه بكل وسيلة ممكنة . وأثناء العشاء ، أبدى ملاحظات ساخرة على الأعمال الفنية المعروضة ، ثم هاجم جونسون شخصيا بصوت مرتفع وصل إلى عدد كبير من المدعوين وأثار قلقهم .

وقبل أن ينزل جونسون للمشاركة في الاحتفال ، أبلغت إليه في مكتبه تفاصيل كل ما حدث . وعندما حلت الساعة المحددة لنزوله وجدناه واقفا بين صف المستقبليين ، بوجه جامد كالخجر . وبعد مصافحة عدد قليل من المدعوين غادر مكانه ، وترك السيدة الأولى مهمة أتمها الاستقبال . ولم يشترك في العشاء . وعندما ألقى كلمته المدة من قبل ، لم يصف اليها شيئا من مدعياته المألوفة . بل أضاف اليها عبارة لا اعتقد انها من قبيل المداعبات . قال :

« لقد دعيت إلى هذا الحفل لا لأتم أعظم فنانى بلادنا ، وإن كان الذين أعدوا الاحتفال قد قدروا ذلك » .

وبعد انتهاء الكلمة لم يختلط بالمندعوين كما جرت العادة . بل توجه بسرعة إلى مكتبه وكان المهرجان يقترب من نهايته .

وسألت نفسي بعد الجهد الكبير الذى بذلته : هل نجح المهرجان ؟ نعم لقد نجح ، وحضره عدد كبير من الفنانين والمفكرين من مختلف الاتجاهات وأثبت أن البيت الأبيض ليس في عزلة عما يجري داخل الوطن من الأفكار . لكن المهرجان لم ينجح في إيجاد جسر بين المثقفين والجمهور في البيت الأبيض . على العكس . كان كل ما جرى بعد رسالة لوفيل وموقف الرئيس جونسون منها يضيف حجرا آخر إلى الحائط الذى يعزل جونسون عن المثقفين . ولحسن الحظ أن كثيرا من التفاصيل لم يعرف . ولكن ما عرف منها كان كافيا لجعل الحائط سميكاً يصعب اجتيازه ، كانه ذلك الحائط من الأسمنت المسلح والأسلاك الشائكة الذى يفصل بين شرق برلين وغربها .

أمريكا والإنسان

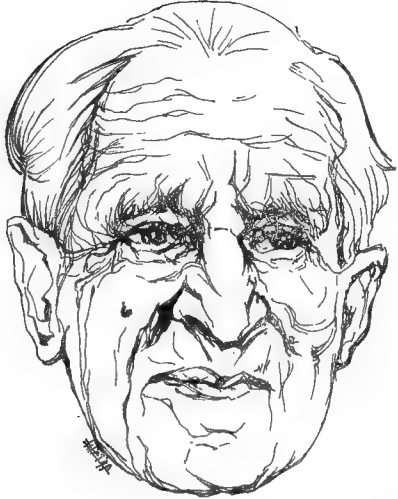
هربرت ماركيز هو فيلسوف الشباب ، مع انه ليس شابا .. فهو فيلسوف تجاوز العقد السابع من العمر .. أى انه رجل متقدم في السن ، وينتمى الى جيل يختلف فكره اختلافا جذريا عن فكر الجيل الراهن من الشباب ... كما انه لم يكتب عن الشباب بوجه خاص كقوة معينة ، لها تأثيرها الخاص على الفكر الانسانى ، او الحضارة الانسانية . هذا بالرغم من ان فكره له علاقة وثيقة بحركات التمرد الطلابية الاخيرة في أوروبا بوجه عام ، وفي فرنسا في مايو عام ١٩٦٨ بوجه خاص .. وهذه العلاقة الوثيقة ، علاقة غير مباشرة في جوهرها ، وجعلت الصحافة تطلق على ماركيز لقب الزعيم الروحي للشباب في أوروبا . لكن هذه الألقاب التي أطلقت على هربرت ماركيز ليست دقيقة الى حد كبير . هؤلاء الشباب قد تأثروا بماركيز . ولم يتأثر هو بهم .. انما تأثر بها تعانى منه الانسانية بوجه عام .. فماركيز يؤمن بالانسانية ايمانا عميقا وشاملا ، يتجاوز مجرد الاهتمامات المحدودة القاصرة بفئات معينة من الناس ، دون غيرها .

وكما ان هؤلاء الشباب كانوا يبحثون عن ملجأ فكري يهرعون اليه طلبا للخلاص من الإزمة الفكرية التي تعانى منها الحضارة المعاصرة ، والانسانية بوجه عام .. كانوا يبحثون عن الانسانية في الأعمال الفكرية ، وكاتب اعمال ماركيز وماؤسى تونج وترونسكى وارسنتو جيفارا ، هي الملاذ الوحيد الذى لجأ اليه هؤلاء الشباب بحثا عن الامل والخلاص لهم وللانسانية أى انه يمكن القول بان هؤلاء الشباب « اكتشفوا » ماركيز ، فيلسوفا يعبر عن آمالهم وعن واقعهم المزق المتهترىء ، ووجدوا في سطور فلسفته قائلا فكريا يعبر عما يشعرون به من ضيق وسخط وتمرد . فبالرغم من ان ماركيز ليس شابا ، بل رجلا متقدما في السن ، ففى فكره حيوية وتدفق وشباب .. لقى استجابة تلقائية من جانب فئات من شباب أوروبا تريد الحياة ، فلا تجد سوى زيف الحياة ، وتبحث عن الامل ، فلا تصطدم الا ببأس عميق يظهر في سطور الصحف وصفحاتها وهي تتحدث عن الموت والدمار . هؤلاء الشباب يبحثون عن الحقيقة ، ولا يجدون الا تزييفا لها .. واذا بهم يجدون شبيها من الحقيقة في كتب هربرت ماركيز ، فيؤمنون بها ويلوحون بها في اجتماعاتهم ومظاهراتهم .. تماما كما يرفع شباب الحرس

هربرت ماركيز ...

والإنسان ذو البعد الواحد

أحمد السعدى



هـ • ماركيز

الاحمر في الصبين نسفا حواء من كتاب
« مقتطفات من أعمال ماوتسي تونغ » .

ليس فكرا متافلا

وفكر هربرت ماركيز ليس فكرا متافلا ..
وليس هذا لأن ماركيز تشاؤمي النزعة بالطبيعة،
ولكن الاحتمالات التي « يتبعها واقع الفكر
والحياة الانسانية » لا تدمو الى كثير من
التفاؤل . ان الالم لم يكن احسن حالا من
اليوم ... فالماضي كانت كله حروب ، وشهد
مختلف مظاهر ظلم الانسان لآخيه الانسان .
واليوم أصبحت الحياة الانسانية أسوأ مما كانت
عليه بالأمس ، والفد لا يعدنا الا بمزيد من هذا
السوء . ومن المؤلم في كل هذه الأمور أن الانسان
هو الذي يخلق هذه الظروف لنفسه ، لكي يعاني
منها هو ، وغيره من البشر . فمخزات الانسانية
في القرن العشرين ليست هي مجرد توفير حياة
أفضل بالآلات حديثة ورائعة ، مثل السيارة

والطائرة والمقول الالكترونية ، بل تتمثل هذه
المنجزات فيما خلقه الانسان من واقع حافل
بالآسى والظلم الانساني . وبالطبع فان الفد لن
يكون افضل من اليوم . فمن أين سيكون الخير
في عصر لا يخلق الا الشر ، يؤمن به ويعتقنه وبهذا
الاحساس ، وبهذه الرؤية يقدم لنا هربرت
ماركيز تحليلا لواقع الحياة في المجتمع الصناعي
.. وفي الولايات المتحدة بوجه خاص ، حيث
تتحكم التكنولوجيا في كل شيء .. فتتوفر
للانسان حياة سهلة وملونة وجميلة . لكن
ماركيز يكشف لنا مأساة هذا الواقع في كتابه
« الانسان ذو البعد الواحد » One dimensional man

man - (في بيروت ترجمة لهذا الكتاب قدمها
السكاتب اللبناني جورج طرايشي . وقد كتب
مقدمة لهذا الكتاب تحدث فيها عن فكر هربرت
ماركيز وفلسفته . وصدر الكتاب عن دار
الادب ببيروت) - تتحكم في هذا الواقع سيطرة
التكنولوجيا على المجتمع الصناعي ، بشكل جعل

للعمل في معهد البحوث الاجتماعية في جنيف . وبعد ذلك هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل استاذاً للفلسفة في جامعات كولومبيا وهارفارد وبرانديز وكاليفورنيا . وما زال يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن . لهذا فان تصويره للحياة في المجتمع الصناعي في فترة ما بعد التكنولوجيا ، تصوير واقعي . . وبإدانة ميدان المعركة ، اذا صح التعبير . كما انه يرى ان كل المجتمعات الصناعية وخاصة في البلدان الأوروبية في طريقها الى ان تصبح مثل « مثلها الأعلى » الولايات المتحدة الأمريكية . وبالتالي لن تنتج هذه المجتمعات الا أفراداً على نمط « الإنسان ذي البعد الواحد » الذي خلقه المجتمع ذو البعد الواحد . هؤلاء لن يحاولوا تحقيق ما تصبو اليه النظرية الماركسسية من تغيير اجتماعي ، ومن ثورة عالمية شاملة ، اذ هل من الممول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع صناعي يثبت يومياً قدرته على تنمية الانتاجية وتوفير الحياة الرغدة والرفاهية لأعضائه ؟

حقيقة المجتمع الصناعي

ومن هنا ينطلق هيرت ماركيز الى الحديث عن حقيقة الأمر . . أو بالأحرى اكتشاف الحقيقة . من هذا المظهر السطحي والزائف لحقيقة المجتمع الصناعي ، تكشف زيف مآبوره هذا المجتمع من حقائق لا أساس لها ، وما يعكسه من رفاهية لا تكسب الا على حساب الإنسان . ويظهر هذا في وصف ماركيز للمجتمع الصناعي بأنه هو برمته مجتمع لا عقلاني لان تطور انتاجيته لا يؤدي الى تطور الحاجات والمواهب الإنسانية تطورا حرا ، بل على العكس من ذلك تماما . فانماجته لا يمكن ان تستمر في التطور على الوتيرة الراهنة ، الا اذا قهمت تطور الحاجات والمواهب الإنسانية وانظلافها الحر ، شأنها في ذلك شأن السلام الذي يعيش فيه المجتمع المعاصر ، اذ ان هذا السلام غير متحقق الا بفضل شيخ الحرب الشاملة ، التي تهدد بالاندلاع بصورة دائمة . ومن ناحية أخرى فانه من الصعب التفرقة بين الظاهر والواقع وخاصة في المجتمع الصناعي المتقدم . . فهو مجتمع ينتجه فيه جهاز الانتاج الذي خلقته التكنولوجيا الى ان يكون شموليا Totalitarian ، أي انه يتجاوز الاقتصاد على اداء مهمة الانتاج وحدها ، بل ويقوم بهما أخرى على مختلف مستويات الحياة المادية والفكرية ، وتحصيد أنشطة الأفراد

الإنسان هو العبد والتكنولوجيا هي السيد القوى المتحكم . لدرجة ان التكنولوجيا جردت الإنسان من إنسانيته ، وجعلته لا يزيد عن كونه شيئا . . وأداة . وهنا تكمن مأساة الإنسانية في هذا العصر . ولن تختفي هذه المأساة الا بحدوث تغير اجتماعي على نطاق شامل . وان كان ماركيز يرى ان احتمالات هذا التغير الاجتماعي ليست قائمة في الوقت الراهن ، الا انه يؤمن بأن هناك أمل في حدوث هذا التغير . ولهذا يكتب هيرت ماركيز نفس العبارة التي كتبها والتي بنجامين في مستهل العصر الفانسي « ان الأمل لم يكتب لنا الا بسبب أولئك الذين هم بلا أمل » .

الإنسان ذو البعد الواحد

الإنسان هو المنتج الذي يفرزه المجتمع . . فاذا سيطرت التكنولوجيا على المجتمع ، فانها تسيطر بالتالي على كل افرادة . واذا فرضت التكنولوجيا علنا ذا بعد واحد ، خاضعا لسيطرتها ولأهدافها ، ومحققا لأهدافها وتطلعاتها ، فلن يملئ الإنسان إرادته ولن يحقق ما يصبو اليه من آمال وأحلام . وما يحدث في المجتمع الصناعي المتقدم والذي تسيطر عليه التكنولوجيا هو انه تبذل محاولة لاقتناع الإنسان بأن ما يفعله التكنولوجيا ، هو تحقيق لما يصبو اليه هو نفسه . فترتبط الإنسان بفكره وواقعه بما زيفته له هذه الاجهزة من زيف واكاذيب . يرتبط الإنسان بهذا الواقع ، ويعتقد أنه هو الذي خلقه ويجب عليه العمل على المحافظة عليه ، في حين انه لا يحافظ الا على دوام سيطرة التكنولوجيا عليه وعلى حياته . بهذا يحافظ الإنسان العامل على هذا الواقع وهو الذي يمثل احد القوى الرئيسية التي تعلق عليها النظرية الماركسية الآمال في القضاء على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . . وتحقيق التغير الاجتماعي والفكر المنشود . ومن هنا أصبح من العسير تحقيق الثورة العالمية، وهذه الاستحالة ليست تعبيرا عن آراء هيرت ماركيز ، بقدر ما هي تصوير واقعي وحقيقي لما يحدث الآن فعلا في المجتمع الصناعي المتقدم . فماركيز مفكر يساري تقدمي ، يؤمن بالرفض كقيمة إنسانية سلبية يجب ان تحقق للبشر حياة افضل . وهذا التصوير عبارة عن محاولة منه للتعبير عن الحقيقة كما يراها هو من صميم حياته في أوروبا وأمريكا . فقد ولد في ألمانيا في عام 1898 حيث درس الفلسفة في مدينتي برلين وفرايبورج ، ثم رحل من ألمانيا في عام 1933

وبطلانهم في المجتمع . وبعبارة أخرى في هذا المجتمع يعمل على تهيئة التلاحم الاجتماعي الداخلي ، وبهذا فإنه يعمل دائماً على أن يجعل الإنسان بصفة مستمرة إلى ذاته . . حتى يرتبط بهذه الذات : يلبي رغباتها ويسير في داخل نطاق سيطرتها .

هذا الأسلوب في الحياة

وفي ظل هذا لواقع العام في الولايات المتحدة بشكل خاص يصبح الحديث عن الديمقراطية خرافة ، لا يعيها عادل . . حيث تصبح مجرد نظام مخادع ، ضحيته الشعب الذي يمرض لمختلف أنواع الاضطراب وانهياره . . ولا يحدد هربوت ماريوز من هو الذي يسيطر بشكل محدد إنما يشير بوجه عام إلى النظام التكنولوجي الكلي السائد في المجتمع الصناعي المتقدم . . وعلى أية حال فإن ماريوز يؤكد أن السيطرة هي السمة المميزة لهذا المجتمع والمجتمعات التي تسير في ركابه . ومن أبرز المعارفات أن الإنسان يعتقد أن هذه النظم الديمقراطية ، التي تستعمله هي التي تحقق له حريته . . ومن ثم فإنه يشبث بها ويؤمن بمبادئها . . وهي نفس المبادئ التي تعمل دائماً على السيطرة عليه . . وحدث هذا لأن « الرفاهية » الكاذبة التي يتييحها المجتمع للفرد ، أصابت فكر الفرد بالفساد والمغن . . وليس هناك دليل أوضح من تحقيق الإنسان لذاته في السلع التي يستهلكها . . وروية المرء لذاته في سيارته ، وفي جهاز التلفزيون الذي يشاهده . . وبهذه الطريقة فإن انتشار المنتجات المادية في المجتمع الصناعي إلى عدد أكبر من الأفراد ، يعني أن الصيغة الابدولوجية التي تمير عنها هذه المنتجات لا تصبح مجرد دعابة . . وإنما « (السلوك في الحياة) » واعتقاد أن عبارة « (الأسلوب الأمريكي في الحياة) » كثيراً ما تتردد بشكل متكرر في معظم أفلام السينما التي تنتجها هوليوود . وهذه العبارة تدل المجتمع الأمريكي أكثر مما تبرئه من اللاعقلانية المزم بها . . ومن أنه مجتمع ذو بعد واحد . ويعترف هربوت ماريوز بأن « هذا الأسلوب في الحياة » أفضل من الأسلوب الذي الذي كان سائداً قبل ظهور الثورة الصناعية . ولكن ماريوز يرفض في نفس الوقت كلا الأسلوبين . . فكل أسلوب منهما لا يتيح الفرصة لتحقيق الرغبة في الثورة . . وكل منهما يرفض « التغيير

النوعي في المجتمع » . وهذا الأسلوب . أو الطريف في الحياة لا تجعل الإنسان يزيد من مجرد كونه عبداً لا أكثر ولا أقل . ويقول ماريوز عن هذا النوع الجديد من العبودية : « إن عبدة الحضارة الصناعية المتعلمة هم عبدة رافون . . ولكنهم مازالوا عبيداً ، لأن العبودية لا تتحدد بمجرد الظاهر ، ولا تتحدد بالعمل الشاق الذي يقوم به الإنسان ، إنما تتحدد بوضع كون المرء مجرد أداة . . والحط من قدر الإنسان حتى يصبح شيئاً ! ! » .

حرية الإنسان الجديد

وإذا كانت الحرية هي عمل الإنسان للانطلاق والتقدم . . فإن الحرية في المجتمع الذي يسيطر عليه التكنولوجيا هي أداة مثالية للاستعباد وهي حرية مفروضة ، وتتحكم فيها قوى هذا المجتمع ورقاباته . . وإذا كانت الحرية تعني إتاحة الفرصة للإنسان للاختيار ، فإنه يختار ما يريد بالفعل . . لكنه يختار أشياء محددة مفروضة عليه ، وليس بوسعه أن يختار غيرها والإنقاء الحر فيما بين السادة ، لن يلقى السادة والعبيد . . والاختيار الحر من بين مجموعة كبيرة من أنواع السلع والخدمات لا يعني وجود الحرية ، إذا تأتت تلك السلع والخدمات تحقق للمجتمع سيطرته على الأفراد . . وهذه الحرية التي ينشئها بها المجتمع الأمريكي ما هي إلا حرية زائفة ، لأنها لا تحقق سيادة الفرد ، بل تحقق استعباده . ومنطق المساواة في هذا الاختيار منطقي لا عقلاني ولا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال . . « فإذا كان العامل ورئيسه في العمل يشاهدان نفس برامج التلفزيون ، ويترددان على نفس الأماكن ، وإذا استعملتا السكرتيرة نفس أدوات الزينة التي تستخدمها ابنة صاحب العمل ، وإذا كان الزنجي يمتلك سيارة من «راز » (كاديلاك) وإذا كانوا جميعاً يقرءون نفس الصحيفة ، فإن هذا التماثل إذن لا يشير إلى تلاشي الطبقات ، ولكنه يشير على العكس إلى مدى مساهمة الطبقات السائدة في تحديد الحاجات والتشبيات التي تضمن استمرار السيادة لها . « أن العقلانية التكنولوجية تكشف النقاب عن طابعها السياسي في الوقت نفسه الذي تقف فيه أعظم ناقل لأكله سيطرة ، بخلقها علماً كلما استبدادياً بكل ما في الكلمة من معنى ، علماً يكون فيه المجتمع والطبيعة ، الروح والجسد في حالة استعباد وتعبئة دائمة للنود عن ذلك العالم نفسه . وبهذا أصبح العالم السياسي منفلقاً . .

وأصبح الموقف الثوري للطبقة العاملة في «المجتمع الوفرة والرفاهية» ضعيفا ومتراجعا .. ولم تعد الطبقة العاملة تمثل ذلك النقص الحى للمجتمع القائم .. ومما يزيد الأمور تعقيدا وجود تنظيم تكنولوجى للإنتاج في الجانب الآخر من الحاجز : جانب التنظيم والإدارة ، فالسيطرة تنابى مظاهرا أداريا . وأصبح رأس المال يتكون وظائفهم كوكلاء مسئولين وبأخذون وجه البيروقراطى في الجهاز الراسملى الكبير .. ونجد أمامنا تسلسلا هرميا كبيرا ، يفتنى وراءه المسئولون الحقيقيون ، بدعىوى النظار بالوضعية العقلانية . وهكذا يسمى الضياع والحرمان بلا هدف يتوجهان اليه ، ويحجب القساع التكنولوجى كل مظاهر العبودية واللامساواة . وفى الواقع فإن الإنسان بالرغم من التقدم التكنولوجى خاضع لجهازه الإنتاجى .. وخضوعه هذا يزداد مع ازدياد الحريات والرفاهية .

تزييف الفكر الإنسانى

كان الفكر الحديث ضحية لنجاح هذا المجتمع ونظامه التكنولوجى .. فلم تعد المثل العليا التى كانت سائدة في الماضي ، وكذلك عبادة الشخصية والاستقلال الذاتى ، والمذاهب الأنسانية والحب المساوى والرومانسى إلا المثل الأعلى لمصر باند . وأصبح التنلج والصراع بين الواقع الثقافى والواقع الاجتماعى أخذا في التراخى .. ولا تتم تصفية الثقافة « الثنائية البعد » إلا عن طريق دمجها بالنظام القائم ، وعن طريق إعادة إنتاجها وتوزيعها على نطاق واسع .

وبالرغم من إدراك الناس وشعورهم بأن إعلانات الدعاية والبرامج السياسية ليست بالضرورة صحيحة أو صادقة ، إلا أنهم عاكفون مع ذلك على الاستماع إليها وعلى قراءتها .. بل منقادون لها ولا يماهاتها .. كذلك فإنهم يقولون بالقيم التقليدية ويعتبرونها جزءا من عديهم الفكرية . وفى الوقت الذى تخطط فيه وسائل الاتصال الجماهيرى بطريقة منسقة وموهبة في غالب الأحيان ، بين الفن والسياسة والدين والفلسفة والتجارة ، فإنها تعتمد في نفس الوقت الى أرجاع هذه المجالات الثقافية الى قاسم مشترك . الشكل السلمى للأشياء . ومثال ذلك أن موسيقى الروح هى أيضا موسيقى تجارية . وبين هذا التشابه بين المثل الأعلى والواقع ،



أسوا بكثير من المعتقدات الجامدة التي كانت سائدة في الماضي عن الجنس .. لأن مثل هذه التربة المزعومة تؤدي إلى الحد من الأشباح الغريزي أكثر من تطويره .. وبهذا فهذه الحرية تحقق أهداف « **الوضع القائم** » في السيطرة والتحكم في البشر .. وبعبارة أخرى أصبح الحب ألياً كواقع الحياة نفسها ، حتى تجرد الجنس من أهم سماته الجمالية والإنسانية .. وأدى بالرد إلى فقدانه لآثام عناصره : وهي الراحة النفسية ، تلك الراحة التي يشعر بها الإنسان وهو يمارس الحب في أحضان الطبيعة وعلى الأشجار ووسط الجمال والحياة .. ولن يشعر الإنسان بشيء من هذا وهو يمارس الحب في سيارة ، لأحاسيس البرد الدائم بالواقع الآلي أكثر من قدرته على الإحساس بسمو المشاعر الإنسانية . فيصبح الجنس بهذا يمارس لذاته .. ولا يعود لمضمونه الإنساني والجمالي القدرة على تجاوز الجنسية الموضعية ، التي تصبح أكثر حدة عما كانت عليه . ومهما قيل من كلام كثير عن الحرية الجنسية في المجتمع الصناعي المتقدم ، فإن هذا المجتمع لا يحقق هذه الحرية إلا بقدر ما تصبح هذه الحرية قيمة تجارية تعود على المجتمع بزيادة من الربح والمال . ففي عالم العمل يباح للجسم أن يعرض صفاته الجنسية ، بدون أن يكف في نفس الوقت عن كونه أداة عمل . وقد فرضت صناعة الدعاية والإعلان مقتضياتها .. فموظفات المكاتب الفانتازيات والبائعات الحسناوات هن بضائع لها قيمة تجارية كبيرة .. تسهل الكثير من الأعمال ، وتزِيل كثيراً من العقبات .

وإذا ما قارنا دور الجنس في الأدب الكلاسيكي القديم ، ودوره في الأدب المعاصر لوجدنا أنه في الحالة الأولى يتخذ شكلاً مضمداً ومتناسياً إلى أبعد الحدود .. فيضيف بهذا الكثير على ما في هذه الأعمال الأدبية من قيم إنسانية . ونرى هذا في رواية « أنا كارينينا » لتولستوي و « فيدرا » لراسين ، وأزهار الشر » لبودلير .. ونرى عكس ذلك في الأدب المعاصر من صور مثل شخصيات المدمنين في مسرحيات يوجين أونيل ، وأبطال فوكتر الساخطين ، وشخصيات مسرحية تنبسي وليلم « عربية اسمها اللذة » و « قطرة فوق سطح صفيح سباحين » ، ورواية فلاديمير نابوكوف الشهيرة « لوليتا » . ففي الأدب المعاصر يعلن الجنس عن نفسه بصورة أكثر واقعية ، وأعظم جرأة وأقل كبتاً .. إلا أن الجنس يبدو كعنصر

المدي الذي تم فيه تجاوز المثل الأعلى . وهذا المثل لأعلى المنفصل عن المجال السامي للروح أو الفكر ، يتم التعبير عنه بالفاظ ومعادلات وظيفية functional وإذا كانت هذه الثقافة قد شوهدت فهذا لأن المجتمع الصناعي المتقدم يملك الآن إمكانية تجسيد مثلها الأعلى . وهكذا تصبح الثقافة الرفيعة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة المادية .. وتفقد بالتالي ، وبكم تحولها الكثير من حقيقتها .

وهذا التزييف المتعمد للفكر ناشئ من أدراك هذا المجتمع لقيمة الفن والفكر .. فأى عمل فكري يتطوّر بالقوة على العناء والمعارضة الشديدة للقمع والسيطرة .. لأن الفكر يمثل قوة العقل النقدية ، الثورية التي تتحرك دائماً واتجاه ما يجب أن يكون ، لا في اتجاه ما هو قائم فعلاً . وهذه القوة هي بالقوة قوة أيديولوجية .. إلا أن حقيقة الأمر أن المجتمع ذا البعد الواحد قد أحاط الأيديولوجيا بالاحتقار والازدراء باسم عقلانية المجتمع التكنولوجي . ولدرجة أنه حاول أن يمتصها ويوقف مالها من فعالية . واليوم فإن تقدم المجتمع التكنولوجي في سبيله إلى الفناء هذه المسافة الجوهرية بين الفكر والفن ، وبين الواقع القائم فعلاً . وهنا يقول هيربرت ماركيز : « أن » الرفض الأكبر قد أصبح مرسومًا » .. وبهذا اندمجت الآثار والأعمال الفنية والأدبية التي توحى بوجود هذه المسافة ، وأصبحت تتداول فيه باعتبارها أجزاء من العدة التي تتركب عالم الأعمال المسيطر ، وعالمه نفسياً . أصبح الفن أشبه بسلعة تجارية تباع بقروش وتشترى ملايين البشر في كل مكان . ويدافع البعض عن هذا الاتجاه على أساس تشجيع الثقافة الجماهيرية .. بالرغم من أن أقرب تسمية إلى هذا الاتجاه هي « تزييف الفكر الإنساني » .. واعتقد أن استخدام مقطوعات بلخ وبيتهوفن كموسيقى مريحة للأعصاب في المطبخ ، وبيع مؤلفات أفلاطون وهيجل وبودلير وماركس وفرويد في المحلات العامة ، من شأنه أن يحط من قدر أعمال هؤلاء الخالدين ، أكثر مما سيعمل على انتشار تداولها بين الناس . وبالرغم من هذا قد يطق هذا الاتجاه مساواة ثقافية ، إلا أنه يصح في المقام الأول الاتجاه نحو تحقيق سيطرة المجتمع على الإنسان .

وبرى ماركيز أن ما يسمى بالحرية الجنسية في المجتمع الصناعي المتقدم ، ما هو إلا خدمة تخدم أغراض هذا المجتمع .. فهذه الحرية

اساسى فى المجتمع الصناعى الذى يظهر فيه ،
وليس نفيًا له أو احتجاجًا عليه .

الضمير السعيد .. وعالم الخداع

قال الكاتب الانجليزى موريس كرانستون فى مقال له عن هربرت ماركيوز فى مجلة انكاوتر البريطانية عدد مارس ١٩٦٩ أن ماركيوز لا يجد تعبيرًا أفضل من عبارة هيجل الشهيرة « **الضمير السعيد** » ، لتعبير عن المرض الذى يعانى منه أفراد الطبقة العاملة والبورجوازية فى محاولتهما للحفاظ على الأوضاع والمؤسسات القائمة . وهذا الضمير السعيد ليس سوى أحد أشكال خداع النفس محافظة منهم على مصالحتهم الانانية القاسية . أن الضمير السعيد - الذى يعتمد جان الواقع عقلاني وبأن النظام التكنولوجى يلبى الحاجات - هو خير مثال على الامتثال السلوك الجديدة . وليست الامتثال الجديدة الا السلوك الاجتماعى المثالى بالعلايه التكنولوجية . وهى جديدة لانها علايه بدرجه لم يسبق لها مثيل . وهى دمايه مجتمع حد من عقلانيه الصور السابعة البدائيه سبيا ، مجتمع يطيل الحياه ويحسها على نحو أكثر انظاما عما كن عليه الحال فى الماضى .. وهذا فى وقت لم تنشب فيه الحرب الدرية بعد ، والرأيه تسود المجتمع المتقدم فى الوقت الذى لم تعد فيه مسكرات الإباده النازية موجوده . والتعذيب أصبح مساله عاديه ، ولكن هذا فى الحرب لاستعمريه وعلى هامش العالم المتمدن . بيد أن هناك ايضا من يعيش بضمير سعيد : فالحرب هى الحرب . ولكنها حرب على الهامش هى الأخرى ، فهى لا تخرب غير البلدان « **المتخلفة** » . والضمير السعيد يحجب عن نفسه الفصل التى يمكن أن تكون قائمة بين هاتين الواقعتين : الحروب والازدهار . أن تعبير « **الضمير السعيد** » يقدم صورة واضحة لرؤية ماركيوز للتوافق القائم ما بين الانسان والقوى المسيطره عليه والمتحكمه فيه . فالانسان يفر لهذا المجتمع سيطرته عليه ، واشتراكه معه فى هذا التوافق بسبب فعالية هذا المجتمع وانتاجيته .

ومن يقرأ مسرحيات بيكيت ويونسكو يشعر بعدم وجود اتصال انساني حقيقي بين مختلف الشخصيات .. وهذا لأن كتاب مسرح العبث يعتقدون بأن اللغة لم تعد صالحه لتحقيق الاتصال الانساني المنشود ، حيث أن عباراتها أصبحت خاوية من المعنى ، وإذا عبرت عن شيء

فانها لا تعبر الا عن واقع زائف .. بعيد عن الحقيقة . ويتفق هربرت ماركيوز مع هذا الرأى الى حد كبير ، حيث يرى أن وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الصناعى المتقدم ، هى وسائل لتحقيق الاتصال بين الجهاز التكنولوجى فى المجتمع وأفراد هذا المجتمع .. لا نشأه بانتاجاته وأهدافه .. وهذه الوسائل فى نفس الوقت عبارة عن أدوات لفصل الانسان عن انسانيته وعن الحقيقة كقيمة مجردة . فنجد أن وكلاء الاعلان يصنعون عالم الخداع وعالم الاتصال الذى يترجم فيه السلوك ذو البعد الواحد .. وتصبح اللغة اليومية التى يستعملها الأفراد المعادين لغة توحيد أو توحيد ، تهدف معانيها الى أن تكون ذات دلالات وظيفية - دلالات لها أصداء سيكسائية تكون فى مجموعها البناء السياسى للمجتمع الصناعى المتقدم . ومن العبارات التى تستخدم : « **المشروع الحر** » و « **المبادرة الحرة** » .. و « **الانتخابات الحرة** » و « **الفرد الحر** » . وهكذا فإن الواقعة التى لاحظناها من أن نمط الحياة السائد هو المبردة ، ومن أن نمط المساواة السائد : هو الا مساواة المفروضة فرضا ، لا يمكن التعبير عنها باللغة المعادية بوجه عام . وإنما يتم التعبير عنها بأحداث تقليص فى اللغة حتى لا تعبر عن شيء سوى المعانى التى يفرضا هذا المجتمع ذو البعد الواحد . وما هو جديد نسبيا فى هذه المعايه هو أن الرأى العام والخاص بات يقبل بصورة عامة بهذه سيادة على انتصار المجتمع على التناقضات التى الاكاذيب .. وإن بسيادة هذه اللغة وفعاليتها ينطوى عليها .. وعلى أن هذه التناقضات تتجدد تلقائيا بدون أن تفجر النظام الاجتماعى العام .

فهذا الزيف نشهده فى سطور مجلة مثل مجلة « **تائم** » الأمريكية الواسعة الانتشار .. فهذه السطور اذا قارناها بأعمال الفلاسفة الأفريق مثلا لتبين لنا ، على سبيل المثال ، أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يعرفون المواطن بأنه رجل حر .. وكانوا يعنون بذلك ان يجب أن يكون حرا ، ولكن عندما تصف مجلة « **تائم** » المجتمع الأمريكى بأنه مجتمع ديمقراطى فانها بهذا تعنى أنه ديمقراطى فعلا ، ولا تعنى أنه يجب أن يكون ديمقراطيا .. وإذا كان النطق اليونانى قد أهم بأنه شكل وعقيد ، فإن منطق وسائل الاتصال الجماهيرية فى المجتمع الصناعى المتقدم منطق خداع .. يهدف الى خلق حقيقة زائفة ، وإلى

خلق اتصال بين العقل : بين عقل المجتمع وعقل الفرد . وهذا الفرد الامثالي Homo conforms ليس غيبا .. فهو لا تخدعه محاولات الآخرين ، وانما هو يخضع نفسه . ومن هنا يتبين لنا حجم مأساته .

الفكر ذو البعد الواحد

ما تزال سيطرة الإنسان على انفسه الإنسان تمهل في الواقع الاجتماعي ، وبالرغم من كل تغير ، استمرارا تاريخيا ، وما تزال هناك رابطة بين العقل قبل التكنولوجيا والعقل التكنولوجي . بيد أن المجتمع الذي يفسخ الخطط ويعمل للافعل على تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا يغير المساداة الأساسية للسيطرة . فالتمعية الشخصية (تبعية العبد للسيد ..) والخدام لصاحب القصر ، والوالي للملك (يحل محلها شيئا فشيئا نوع آخر من التبعية : التبعية التي تخضع المرء ل « نظام الاشياء الموضوعي ») (القوانين الاقتصادية .. السوق) . وبالرغم من أن نظام الاشياء الموضوعي من صنع السيطرة وتناجها هو الآخر ، فإن السيطرة تعتمد الآن على درجة اكبر من العقلانية .. عقلانية مجتمع يدافع عن بنائه الهرمي ، ويستغل في نفس الوقت الموارد الطبيعية والفكرية ويوزع على نطاق كبير وباستمرار ادراج هذا الاستغلال .

وفي ظل هذا الواقع يتوجه المجتمع دائما نحو خلق فكر ذي بعد واحد ، ولغة ذات بعد واحد وتطلعات ذات بعد واحد ، تؤدي في النهاية الى تحقيق خلق انسان ذي بعد واحد . ويستند كل البناء الفكري والفلسفي للمجتمع ذي البعد الواحد على أسطورة : أسطورة خياد التكنولوجيا . وقد اتسم ما يسمى بالخياد التكنولوجي بسمة العصر كله ، وفكر العصر كله ، وهذه السمة هي منطق السيطرة والرقابة ، الا انها سيطرة مفروضة من الداخل . والتكنولوجيا هي بالتعريف علم تحويل الاشياء (اشياء الطبيعة) الى أدوات يمكن التحكم فيها ، والسيطرة عليها من اجل استغلالها لتحقيق اهداف اجتماعية وحضارية .. ومن هنا يمكننا القول بان التكنولوجيا تلعب دورا تقديميا يخدم الإنسانية . ولكن عندما أصبحت التكنولوجيا وسيلة مجتمع صناعي متقدم للسيطرة على الانسان ، فانها أصبحت عقبة في سبيل تحقيق حرية الفرد .. فليس هناك انسان يطمح بان يعيش في رفاهية مقابل التضحية بحياته .. وذلك بان يتحول من انسان الى أداة .. أو شيء .

الآمل في تحقيق التغيير

ولا يستبعد ماركيز من هذه الصورة القاتمة الاحساس بالآمل .. فمن يشعر بمعاناة الإنسانية واهدافها وتطلعاتها ، يشعر بالآمل دائما مهما كان خافتا وضعيفا . هذا بالرغم من تأكيد ماركيز بان النضال الذي يهدف الى تحقيق التغيير اصبح أصعب مما كان عليه من قبل . فلا يمكن استخدام الوسائل التقليدية للرفض والاحتجاج للنجاح في تحقيق هذا التغيير . ان الشعب الذي يجب ان يحقق ما يصبو اليه المجتمع من تغيير اصبح الآن أداة وخميرة للتلاحم الاجتماعي . فالإنسان « ذو البعد الواحد » هو الذي يحافظ على الوضع القائم وان يعمل على تغييره .. اذ ان تغييره يتعارض مع مصلحته الخاصة . لكن ماركيز يعلق الآمل في هدم هذا النظام المتحجر المتعفن ، الذي يشبه الاخطبوط ، على ايدي القوى التي عجز هذا المجتمع حتى الآن عن دمجها به : وهي قوى المنبوذين على مختلف أنواعه واللامنتهين والمطالين عن العمل والطمع المستغلة ، والمؤمنين بتعرضون لمختلف أنواع المظالم والاضطهاد . هذه القوى سوف توجه الضربات الى هذا المجتمع الصناعي من الخارج .. ومن هنا كان عجزه عن دمجها به .. انها قوة بدائية تخرق قوانين اللعبة .. مظهره بالتالي انها لعبة زائفة . واصرارها على عدم لعب اللعبة بعد الآن هو اليوم حقيقة واقعة تشير الى الأرجح الى نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى .

ويتفق هيرت ماركيز في رؤياه هذه مع سارتر والمفكرين اليساريين الآخرين الذين يعلقون الآمل على ظهور طبقة جديدة من « البروليتاريا الجديدة » من من بين الاجناس الملونة ، من ضحايا الاستعمار الجديد ، حتى يقوموا بالهزيمة التلويخية التي عجزت الطبقات العاملة في الغرب عن القيام بها . وقد شهد هيرت ماركيز جزءا من رؤياه وهي تتحقق بظهور جماعات كبيرة من الطلاب تؤمن ببعائده في جميع أنحاء أوروبا . منذ مايو عام ١٩٦٨ . هذه المجموعات ليست من البروليتاريا ، ولكن يمكن أن يطلق عليها اسم « الصفوة » elite .. فهل سيحقق أمل ماركيز في التغيير ؟ ان آمل هيرت ماركيز في تحقيق التغيير أمل ضعيف .. ولكن من الصعب الإجابة على مثل هذه التساؤلات في عالمنا الذي نعيش فيه الآن .. وسوف نرى .

احمد السعدي

أمريكا والإنسان

هربرت ماركيز

ونظرية

نقد

المجتمع

عرض
أحمد فؤاد بليغ

لقد أصبح الناقد الاجتماعي شخصية شعبية تماما في الغرب ، منذ الحرب العالمية الثانية . ويمكننا بسهولة تفسير هذا التهاوت المتزايد على النظريات النقدية للمجتمع حيثما اتخذت تناقضات التطور الاجتماعي طابعا ظاهريا حادا يدركه الرأي العام .

وتعد مثل هذه النظريات اليوم نوعا من المعالم (أو المقاييس التي تسجل التغيرات في الرأي العام) يسجل القدرة على النقد الذاتي التي يكشف عنها التفكير الاجتماعي داخل الإطار الاجتماعي لرأسمالية اليوم . ان مستوى النقد الذاتي ، الذي يمكن أن يرتفع اليه التفكير الاجتماعي ، يعد مؤشرا لوجود أو غياب الامكانيات الداخلية لتطوره . ومع ذلك ففي أي تحليل علمي للنقد الذاتي النظري ، لا يكون أهم الأمور هو المستوى النقدي الذاتي ، ولا أفكار ونوايا واضعي مختلف النظريات ، بل ما اذا كانت مفاهيمهم نقدية في مجتمعاتها الموضوعية وفي دلالتها الاجتماعية الموضوعية .

وتلك الإجابة ذات أهمية كبيرة للمفاهيم الاجتماعية النقدية المتعددة الذائعة الانتشار في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، والمتغيرة الخواص على أعلى درجة . فهي تختلف في جوانبها السياسية والايدولوجية والميثودولوجية ، وتتطلب موقفا وتقويما متبايزين بحزم . وتعد مفاهيم هربرت ماركيز ، وهو فيلسوف اجتماعي اكتسب مؤخرا شعبية واسعة النطاق ، نمطا نوعيا من النظرية الاجتماعية - النقدية .

واستنادا الى هذه المفاهيم ، تتميز نظرية ماركيز فيما يتعلق بالبلاد المتقدمة صناعيا ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، (اعترف ماركيز

نفسه بأن نظريته قد اثبتت من مشاهداته لتطور ذلك البلد ، ، باتجاه الى ظهور طرف اجتماعي خاص ، أسماه طرف « الأحادية البعد » الاجتماعية .

ويلعب النموذج النظري « للمجتمع الأحادي البعد » دورا هائلا في مفهوم ماركيز ، فهو يرى في «الأحادية البعد» الأساس الرئيسي للاتجاه النقدي للتنظيم الاجتماعي . وفي مجال الانتاج يرى ماركيز «أحادية بعد» في اندماج الوحدات والحلقات الصناعية المختلفة في **كائن مفرد** ، تخضع كل أجزائه خضوعا حازما لبعضها البعض . ونتيجة لذلك ففي رأيه أن «الكلية» عامل حاسم بالنسبة للنساج الاجتماعي بأسره . وهو يعنى بالكلية اقامة نظام شامل ومتكامل ، ومضبوط بصورة رشيدة ، للمؤسسات الصناعية والادارية والتعليمية التي يؤثر كل منها في الآخر ، أي نظام للتفاعل الوظيفي الشامل لكل عناصر الحياة الاجتماعية . ان الوحدة الكلية التكنولوجية الاقتصادية الادارية ، كما يصفها ماركيز ، تستمر في « أحادية بعد » الواقع الاجتماعي - السياسي . ففي السياسة تخفى التمايزات الخارجية بين الأجزاء الأساسية وحلة داخلية ، تتعارض مع التحول الى قوة قادرة على المحافظة على التوازن وتكرار الانتاج الذاتي للنظام القائم . ومع تتبع منطق الجدل هذا ينكر ماركيز كل التطلعات الثورية والامكانيات الثورية للطبقة العاملة بالبلاد الرأسمالية المتقدمة . وهو من ناحية الجسور يحصل دور الطبقة العاملة وتنظيماتها الى أداء وظائف « مجبوعة ضاغطة » يزعم أنها لا تشجع سوى تهدئة التناقضات الاجتماعية الداخلية ، واستعادة التوازن في نظام بيروقراطية احتكار الدولة .

ويرى ماركيز أن المقدرة على مقاومة القوى والتغيرات الاجتماعية المخربة ، وعلى المحافظة على الاستمرار والاستقرار ، أي المقدرة على احتواء التغير الاجتماعي ، هي القسمة الرئيسية للمجتمع الأحادي البعد . وفي رأيه أن مجتمع اليوم يتمتع باندماج لم يسبق له مثيل بين الفرد والوجود الاجتماعي والسياسي بأسره . ولم يعد ذلك «تكيفا» بسيطا وبرجماتيا للوسط الاجتماعي باعتباره واقعا خارجا عن الفرد ، وإنما هو تطابق فعل بين المجتمع والفرد ، و « غرس » للمعايير والمؤسسات الاجتماعية فيه بطريقة غير واعية ، وتحولها الى بعد داخلي لشخصيته . ويرى ماركيز في ذلك واحدا من أقوى الاتجاهات التي تعمل تلقائيا بصورة مطلقة ، وتضوغ الرجل « الأحادي البعد » في تطابق حازم مع المجتمع « الأحادي البعد » .

ويقنع ماركيز بأن الخطر الرئيسي على البشرية يشكله التفكير « الأحادي البعد » في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، الذي كثيرا ما يتصور هذا الطرف متمثلا بمزايا واضوحة بالنسبة للظروف الاجتماعية السابقة له تاريخيا، بل ويرى فيه أحيانا تجسيدا للمثل التي طورتها البشرية في مسيرة كثير من البلاد . وهو يحاول عندما يشرح هذه الحقيقة أن يسجل كل «مزايا» المستوى الراهن للحياة الاجتماعية كما تحققت من خلال التطور السريع للعلم والتكنولوجيا . ويرى أن من المحاسن التي تعزى الى المجتمع الذي ينقده أنه زاد من ثروة المجتمع ككل زيادة هائلة ، وأنه وسع وعمق سيطرته على الطبيعة ، ووفر له تنظيما رشيدا للانتاج والادارة ، كما وفر نتيجة لذلك مستوى ماديا لرفاهية جماهير الشعب ، واستهلاكاً أعلى بكثير مما كان في الماضي . ويسفر

كل ذلك عن انسان ذى نظرة استهلاكية «معيّدة»، ويرى ماركيز أن تلك النظرة «الاعتقاد بأن هدف النظام القائم هو انتاج وتوفير القيم المادية» تعبر عن المسائرة الاجتماعية وتؤدي الى نفسونها . ويقول ان من الامثلة النموذجية على ذلك الوعي الشكلى النوعى لتبرير الموقف المسائر . وبطبيعة الحال فان النظام الصارم لتحديد الحياة وسلوك الفرد يمكن أن يحرم الانسان من الحرية ومن امكانية تقرير المصير ، بيد أنه يجادل بصفة عامة على النحو التالى : « ليس هناك من سبب للاصرار على تقرير المصير اذا كانت الحياة الموجهة حياة مريحة ، بل وحياة طيبة » . وهذا هو الاساس الرشيد والمادى من أجل توحيد المتناقضات ، ومن أجل سلوك سياسى احدى البعد . (**الانسان الاحادى** One-Dimensional Man ص ٢٠ ٤٩) .

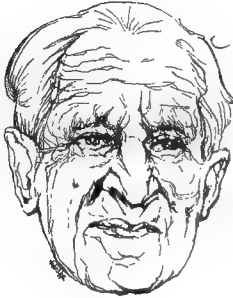
وبطابق المفهوم ماركيز فان الراى السائد فى المجتمع « الاحادى البعد » يتمسك بأن المصلحة المشتركة لكل أعضاء المجتمع الراهن تنحصر فى الدفاع عن **الوضع الراهن** ، وتدمير النظام الاجتماعى الراهن ، والوصول الى حد الكمال ، والنضال ضد الحلول البديلة التى تهدد ذلك النظام ، كما تنحصر فى المحافظة والوضعية . ومن الافكار السائدة أيضا أن القوى المرشدة للتنظيم والادارة هى وحدنا التى تعمل فى ذلك المجتمع ، وأن العلاقات بين الطبقات ، والمجموعات ، والأفراد ، تقوم على اساس معقولة ووطيدة ، أى أن مجتمع « الانسان الاحادى الجانب » فى مجموعه يبدأ فى الظهور على أنه « تجسيد للعقل » .

ويقول ماركيز « انه فى وعى « معيّد » ومساير نجد خاصية داخلية جديدة للحياة الاجتماعية ، **مع واقع اجتماعى جديد يبدو تلقائيا وآليا** . ومع ذلك يؤكّد أنه لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن مثل هذا الواقع هو فى حد ذاته نتاج للادارة والتنظيم **المتعمدين** ، ونتيجة لا للنظام الموضوعى للأشياء فقط ، وإنما لممارسة تخطط بعناية وتحقق على نطاق واسع للمعالجة الايديولوجية لوعى الناس ومشاعرهم ، وكذلك لممارسة تحويلهم الى الجماعية ، وتربيتهم بروح الأنماط والقيم « المعيارية » و « المقبولة على النطاق العام » . وعلى خلاف كتاب من أمثال « د . بل ، س . ليست » ، ممن يرون أن المجتمع الأمريكى الراهن يقوم دليلا على « نهاية الايديولوجية » ، يدرك ماركيز أن الايديولوجية توجد لا فى صورة المفاهيم الموجهة نحو إعادة بناء اجتماعى رئيسى ، وإنما أيضا فى

قدرة نظام معقد للمسادى الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، والرموز ، والقيم الروحية المصممة لواءة أعضاء المجتمع مع العلاقات الاجتماعية القائمة والنظام القائم للأشياء . وهو يولى اهتماما خاصا للحقيقة الواضحة ، وهى أنه فى الولايات المتحدة اليوم يحظى ذلك النزوع من الممارسة **الايديولوجية** ، التى نجد تعبيراً عنها فى أنشطة وسائل الاعلام الجماهيرية القوية والمؤسسات التربوية ، وما شابه ، بقبول على نطاق واسع .

ويعتقد ماركيز أن التناقض الاساسى لعصرنا ينحصر فيما يلى : فمن ناحية يتطور المجتمع فى ادارة الأشياء والناس « بمعقولة » داخلية كائنة فيه ولا يمكن القضاء عليها ، وهى معقولة تجد أبرز تجسيد لها فى « احادية البعد » . وعلى خلاف محبذى «المجتمع الصناعى» يرى ماركيز أن « احادية البعد » العقلانية سمة مميزة سلبية للمجتمع الراهن . ومع ذلك يمضى من الناحية الأخرى قائلا أن الأمر الأكثر أهمية هو أن « هذا المجتمع لا عقل فى مجموعه » . ان انتاجيته مدمرة للتطور الحر للاحتياجات والقدرات البشرية ، ويصان سلمه بالتهديد المستمر بأشغال الحرب ، ويتوقف نموه على قهر الامكانيات الحقيقية لتهديته الصراع من أجل البقاء - فرديا ، وقديما ، ودوليا . ويتسائل ماركيز قائلا ما الذى يترتب على الاشراف المباشر للتصريح القهرى الذى يفسح الطريق أمام السيطرة الادارية والايديولوجية والسيكلوجية ، وعلى طابع العمل المتغير ، وعلى ارتفاع معين يصبح ملموسا فى مستويات المعيشة ؟ أن مجتمع اليوم تسوده قوى لا يمارس الفرد أى اشراف عليها . فما الذى يترتب على عجز أغلبية الناس فى ذلك المجتمع « الاحادى البعد » عن ادراك تلك التبعية ؟ ان رقيق المدنية الصناعية المتطورة رقيق يخطئ بالتصحيح ، بيد أنه رقيق « (المرجع نفسه ، ص ٣٢) »

ويمضى ماركيز قائلا انه فى المجتمع الراهن المتقدم صناعيا بالولايات المتحدة وأوروبا الغربية يسير نمو « النظام العقلانى » جنبا الى جنب مع « الاسترقاق التقدّمى للانسان بوساطة الجهاز الانتاجى » . (المرجع نفسه ، ص ١٤٤) ، مما يسفر عن تدمير حياة أولئك الناس الذين يخلقون وسائل الانتاج ويستعملونها . وهكذا فان المجتمع الرأسمالى الراهن ، الذى يسلم ماركس بضخامة نتيجاته ، يظفر فى مفهومه



هـ - ماركيز

دور النظم الذي يقال أنه يخلق نظاما لنظرية عالمية أصيلة وثورية ، دور الفيلسوف الذي يقال أنه اكتشاف وصاغ المبادئ الميتودولوجية لتفكير نقدي ثوري متسق . وعند القيام بهذا الدور ، يحاول أن يمارس ، وهو يمارس حقيقة ، تأثرا معينا على وعي قسم معين من الشباب الطلبة والانتلجنسيا في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية . وهذا هو السبب في أن الإجابة على سؤال ما إذا كانت نظرية ماركيز « نظرية نقدية » ، هي أنها في الحقيقة نظرية متسقة تتطلب تحليلا لبلتيان المنطقي الداخلي المفهومه النظري ، وللمبادئ الفلسفية والميتودولوجية لتفكيره ، وليكاييزم الرؤيا الاجتماعية التي تكمن خلف المخططات والأساليب الايديولوجية للحجج التي يستخدمها .



ومنذ أن أعلن ماركيز أن رسالته هي أن يثير في عقول الشباب نزعة الى التفكير الثوري والنقدى ، اعتبر الوعى « الأحادى الجانب » ، والتبريرى بصورة صريحة مباشرة ، خصمه الرئيسى . وجدير بالذكر أن الحيسة الروحية « الأحادية البعد » للبلاد الراسمالية المتقدمة ، التي دقق ماركيز في وصفها ، وتقدها بعنف ، تعد اتجاها واقفيا يتصل بتطوير وتدعيم الدور الذي تلعبه بيروقراطية احتكار الدولة . وقد

بتقدير سليمي معبرا عنه بصورة متميزة ، ومرجع ذلك أساسا الى أن تطور ذلك المجتمع يشوه ارادة الفرد وقدراته ، ويحكم عليه بالتحول الى رقيس لا ريب فيه ، وإن كان مغلفا ومموها ومقنعا .

وبسبب كل ذلك فإن التوازن بين « الزوائد » و « النواقص » ، في مجتمع يميزه ماركيز نفسه بأنه مجتمع « أحادى البعد » ، يفسد له توازنا سليبيا ، وهو يصل علاوة على ذلك الى نتيجة مفادها أن مثل هذا المجتمع ينبغي تدميره بطريقة ثورية ، وإحلاله بمجتمع جديد من حيث المبدأ . ومع ذلك فهل مفهوم ماركيز حقيقة مفهوم راديكالى ونقدى بهذا القدر ، من حيث مضمونه ، ومن حيث محتوياته الموضوعية ؟ سنحاول في هذا المقال تقديم اجابة على هذا السؤال ، وعلى هذا السؤال وحده .

وهدف هذا المقال هو المساعدة على تبديد الأوهام الموجودة اليوم في عقول كثير من المثقفين الغربيين الذين يتوقون الى الاسهام في الانشطة الثورية ، ويقولون ما يبدو في راديكالية ماركيز ونظرياته من طابع ثوري على علاته . وينبغي أن يوضع في الاعتبار أن ما تنصب عليه مزاعم ماركيز ليس مجرد دور خبير في الشؤون العامة يعبر عن مزاج تلقائي لاحتجاج راديكالى ، وإنما

وعلم النفس الاجتماعي ، التي تستخدم أساليب الاستقصاء التجريبي ، كثيراً ما تخدم في هذه الظروف التاريخية الملموسة (نظام البيروقراطية الاحتكارية) الأهداف الفردية والعملية ، والنفعية بصورة برامجية ، للتنظيم الاجتماعي السائد ؟ نعم ، هذا صحيح . وهل صحيح أنه قد ظهرت في هذه الظروف نفسها فجوة خطيرة واغتراب متبادل للتفكير النقدي الاجتماعي - الفلسفي الموجه نحو تقاليد لا إنسانية ونحو الأبحاث الاجتماعية الملموسة ؟ نعم ، هذا صحيح . ولكن هل يوسع المرء أن يطابق بين المنطق الدخلي والمتناقض الملازم لتطور الدراسات الاجتماعية ، وبين تلك الوظيفة الواقعية والتاريخية والأيديولوجية التي تتسم بها مثل هذه الدراسات في التركيب الاجتماعي المعطى ، أي في ظروف تعميم بيروقراطية احتكار الدولة ، في ظل تأثير هدف اجتماعي طبقي محدد ؟ وهل بإمكان المرء ببساطة أن يلغي المخططات والمناهج العلمية في انتقاء المادة الحقيقية التمثيلية فيما يتعلق بأوضاع وميكانيزمات وظواهر ملموسة معينة في وعي الشعب ، وذلك لجرد أن مثل هذه المخططات والمناهج يستخدمها «مفتشو الصانع» والرساميون و «المهندسون الاجتماعيون» للأغراض التي صاغتها البيروقراطية ؟ لا إن ذلك غير ممكن .

إن ماركس ولينين ، اللذين قدما أمثلة كلاسيكية للنظرية النقدية الثورية ، قد دمجا ووحدوا بين التفسير الفلسفي وتطور تفكير الإنسان ، والبحث العلمي والتاريخي ، في العمليات والظواهر الواقعية المتناقضة الأكثر تنوعاً ، التي تؤثر في طرح وحل مشكلة الإنسان . وقد اكتسبت التقاليد الثقافية لمذهبيهما دلالة خاصة اليوم ، في عصر التقيد البالغ لنظام العلاقات الاجتماعية ، وزيادة سرعة العملية الاجتماعية ، والحركات الاجتماعية الجماهيرية ، حيث تزداد حاجة البشرية إلى اتخاذ قرارات مسئولة تقوم على أساس علمي ، وإلى التعميم العلمي لنظام للتوجيه الاجتماعي للمجتمع وللشخصية ، تندمج فيه البرامج الطويلة الأمد للتجديد النوعي لنظام العلاقات الاجتماعية بأسره مع المعرفة التفصيلية والأكثر تدقيقاً للميكانيزمات المتنوعة التي تعمل اليوم بالفعل ، ومع معرفة امکانيات الموضوعية والاطرار الموضوعية للممارسة الاجتماعية في مكان معطى وفرة زمنية محددة .

إن تشويه علم الاجتماع باعتباره نظاماً من أنماط المعرفة العلمية ، في أعين تلك الاقسام من المجتمع التي برزت تدافع عن مثل الإنسانية

أوضح ماركيز أن الثقافة الراهنة في الولايات المتحدة في أيدي البيروقراطية ، وأنها أداة «للمسايرة الاجتماعية» وللتأثير في الشعب ، وأنها أصبحت ذاتية في الدعاية للجماهيرية ، وتحولت إلى أحد مجالات الأعمال التي تخضع لنطق حسابات دوائر الاعمال ، أو للمهام العملية «للدائرة الكلية» . وبسبب ذلك يضل الناس السبيل ، وينسون ما هم عليه من حرمان من الحرية ، كما يظهر ما يسمى وعي المستهلك «السعيد» . وفي هذه الحالة ، كما يقول ماركيز ، تصبح الثقافة «أحادية البعد» أيضاً ، بمعنى «أنها تكف عن أن تكون بعداً نقدياً بالمقارنة بالواقع القائم» . وحتى تلك الاعمال الأدبية والفنية التي يبدو أنها تدعو إلى فكرة السلوك المتسم ببعض الخروج على النظام القائم (مثل أفلام قطاع الطرق أو الأدب الوجودي) ، فإنها تند في نهائية الامر «تأكيداً ، لا نفياً ، للنظام القائم» . (المرجع نفسه ، ص ٥٩) .

ومجال المعرفة الاجتماعية عند ماركيز يصبح على نحو متزايد أداة للمسايرة والبيروقراطية . وتصبح هذه المعرفة في أساسها معرفة بوقائع مثل وقائع الوظائف الفردية و«لوضع الفرد» ، وليس معرفة بالأساليب التي تضعها البورجوازية ، ولا بأهداف التقدم الاجتماعي ، وهي معرفة ستاتيكية وغير تاريخية . أي تتسم بكل أعراض التفكير الأحادي البعد . ومثل هذه المعرفة لا تناسب سوى الترشيد الوظيفي للعمليات المختلفة في الجهاز البيروقراطي ، وهي تخفي الاعمقوليية الصاملة «الجوهرية» للحياة الاجتماعية . ولذا يدعو ماركيز الوضعية والاجرائية والوظيفية «الأحادية الجانب» الشكل النظري العقلاني لنظام لا عقل . كما أن العلم الاجتماعي الموجود الآن في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية يعد أيضاً غير مقبول في رأي ماركيز ، «بسبب طابعه التطبيقي التبريري والتوفيقى والبرجماتي» . (المرجع نفسه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٧٩ ، ١٠٧ ، ومواضع أخرى) .

وكما نرى فإن النقد الذي وجهه ماركيز إلى الاشكال الراهنة للمعرفة الاجتماعية الملموسة في البلاد الرأسمالية يعد نقداً شديداً البراعة . ومع ذلك يشوبه عيب كبير ، هو التقدير والفهم «الأحادي البعد» للعمليات الشديدة التناقض التي تحدث في مجال العلوم الاجتماعية . فهل صحيح أن علم الاقتصاد، وعلم الاجتماع،

من الرسميين والخبراء المسائلين الذين يضعون أنفسهم في خدمة الجهاز البيروقراطي .

ومع ذلك فإن التعبير الواعي أو غير الواعي للبيروقراطية كثيرا ما يصدر اليوم عن المخططات المنطقية للتحمية التكنولوجية : فهي تعتبر النزعة البيروقراطية نتيجة وشرطا ضروريا للتطور الفعال والرشيد للإنتاج الصناعي الرأسمالي والاقتصاد في مجموعه . فيروقراطية احتكار الدولة ، كما هو معروف ، تدرك وتمكس أنشطتها الخاصة وتنظيمها الخاص أولا وقبل كل شيء في مفاهيم ومصطلحات الكفاية الاقتصادية التقنية . وهي تفرض تلك النظرة التقييمية الداخلية على الدراسات الاجتماعية باعتبارها أطارا مقيدا ومرشدا لتطوراتها .

التفكير الذي يوائم بين نفسه وبين التنظيم البيروقراطي للمجتمع هو فرأى رجل العلم والرجل «الأحادي البعد» على حد سواء مجرد رمز لرفاهية المادية والكفاية الاقتصادية . بيد أن ماركيز نفسه لا يخالف ذلك ، فهو يعرب بوضوح عن ازدرائه للتفكير الأحادي البعد . وهو ينظر إلى الروابط والصلات بين رفاهية الإنسان المادية والأشكال البيروقراطية وغير الإنسانية للتنظيم الاجتماعي والتكنولوجية الحديثة باعتبارها سلسلة من العوامل العتمة على بعضها البعض .

وقد درس ماركس هذه الروابط في المجلد الثالث من «**وأس المال**» ، وأوضح الأزواج الداخلي الذي يميز أشكال إدارة الانتاج الذي يسير جماعيا ، ولكنه يتم في ظروف الرأسمالية . كما أوضح أن تنظيم الإدارة في هذه الظروف لا يخضع للمطالب الموضوعية للسلوك اللازم للإنتاج الصناعي الحديث وحدها ، بل يخضع أيضا للمصالح الطبقية للفتات الاجتماعية السائدة اقتصاديا ، أي أن هذا التنظيم يفرض سيطرته على الأشياء وعلى الناس معا . أن اختيار البدائل في عملية التحكم ، اختيار معايير الكفاية الإدارية ، يتوقف على نظام القيم السائدة التي تعكس في نهاية الامر الهيكل الاجتماعي - الطبقي الموضوعي والنمط المشروط تاريخيا لحضارة مجتمع معطى . ويقتل ماركيز عن إيمان ، بل ويحول إلى إحدى المسلمات الأساسية للتفكير « النقدي » ، فكرة تعددية مميزة لنظرية «المجتمع الصناعي المفرد» ، المصانغة من حيث الجوهر في إطار تلك النظرية . وتعالج تلك الفكرة عدم أية فروق جوهرية بين رأسمالية اليوم والاشتراكية (انظر حديث ماركيز الصحفي مع مراسل جريدة **لوموند** الفرنسية في ١١ مايو ١٩٦٨) ، ولها وظيفة

والديمقراطية ، تعد إحدى النتائج الايديولوجية لتطور النوعي الأحادي الجانب للدراسات العلمية الاجتماعية في الغرب . وفي هذا الوضع تكتسب النظريات الاجتماعية - النقدية شعبية كبيرة ، وهي نظريات في جوهرها نوع من رد الفعل «الأحادي البعد» لزيادة نشط الأشكال المتعربة للبحث الاجتماعي . ويؤيد الموقف الأحادي الجانب ، والسلبى تماما ، من إزاء مناهج العلم الاجتماعي والرائه وتطبيقاته العملية إلى نتائج خطيرة للغاية . ويعد مفهوم ماركيز مثلا معبرا عن هذه الحقيقة . ومن المعروف أن النظريات الاجتماعية النقدية تقوم على وصف المجتمع الذي هو هدف ذلك النقد ، وصف علاقات ميكانيزمات السلوك الإنساني ، وهيكل دور الفرد ، ودوافعه وخبراته وما شابه ، وكلها نموذج لذلك المجتمع . فإذا رفض المنظر من حيث المبدأ ، عند وصفه للمجتمع ، مناهج وأساليب البحث العلمي والاجتماعي ، فغالبا ما يضطر إلى الارتكاز على أفكاره الذاتية ، أو على الأفكار التي توجد في الوعي اليومي وتقدم نفسها له كحقائق واضحة معينة .

وقد رفض ماركيز استخدام الأدوات التي يسهلها البحث العلمي ، والتي باستطاعتها إلى حد ما مساعدته على تنويع مثل هذه الأفكار وتقديمها بصورة موضوعية . وقد يحدث أن الأفكار التي يراها الناقد كسمة مميزة ملائمة للوضع الراهن في المجتمع الراهن ، تكون في الواقع مشبعة بأوهام فنتشية (تقديسية) ، وتعد أشكالا مقلوبة للوعي ، وتحمل طابع تأثير وجهات النظر الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، وأطر العقل ، والأوهام ، تعد نمودجا للتفكير المسابر الذي يرفضه النقد الاجتماعي .

ولنصور هذا الفكر بالتركيب النظرية التي وضعها ماركيز . كان ماركيز مشغولا بطابع التأثير الذي يمارسه الانتاج الصناعي الراهن والتكنولوجيا الرأسمالية على الإنسان والمجتمع ، وهو التأثير الذي يعتبره المصدر الرئيسي لأحادية البعد المسابرة للوعي وللأشكال البيروقراطية غير الإنسانية للتنظيم الاجتماعي . وهنا يقبل ماركيز المسئلة الأولية للتفكير « العلمي » التبريري الذي يوجد في مخططات روستو وغيره من المدافعين عن نظرية «المجتمع الصناعي» ، التي تعبر كما هو معروف بشكل عام (لماركيز أيضا) عن مصالح بيروقراطية احتكار الدولة . وعند نقد ماركيز لهذه النظرية باعتبارها مظهرا نمودجيا للتفكير «الأحادي البعد» و «الطغياني التقني» ، فإنه في الحقيقة يستعير من روستو ، وغيره

متزايدة خارج نطاق السيطرة * وجدير بالذكر أن الدراسات الاجتماعية في الغرب ، المتصلة تاريخيا بالاعلان التجاري على النطاق الجماهيري ، قد ركزت اهتمامها الرئيسي على شخصية الانسان كمستهلك وبائع ، وعلى دراسة الميكانيزمات التي تشجع الشراء والاستهلاك ، وعلى امكانية التحكم في الدافع البشري نحو الاستهلاك ، وفي تنشيط هذا الدافع ، وإيجاد أثر نفسي محدد نتيجة لاشباعه .

وهذه الاشكال البراجماتية - النفعية النوعية للنظرة الى مشكلات الاستهلاك من جانب الهيئات التي تخصص الأموال للبحث ، ثم من جانب الباحثين ، كانت تبرر ايدولوجيا بالاشارة الى نمو سلع الاستهلاك التي تنتج على نطاق كبير ، وإلى الضرورة الاقتصادية للمحافظة على معدلات نمو صناعي عاليه ، وما شابه . وقد كان الاهتمام الأحادي بالتوقعات والعادات الاستهلاكية للفرد يتصل داخليا بنوع خاص من الموقف الايدولوجي من انسان اليوم ، وباشكال « أحادية البعد » ايدولوجيا لرؤية وتفسير جوهر ذلك الانسان .

إن ماركيز ، الذي تشكل حقائق تطور سيكلوجية المستهلك وموقف المستهلك تجاه الحياة شاغلا كبيرا له ، قد أدرك في الوقت نفسه ، بروح نقسيدة ، هذه الأنواع « الأحادية البعد » من وجهات النظر . وقد قبل بصورة جدية للغاية الايدولوجية « المتفائلة » المرضية ذاتيا للاعلان التجاري على النطاق الجماهيري . وأسفر ذلك عن سيادة نظريته بفكرة « أحادية البعد » وللمجتمع الصناعي المتقدم الذي يوجد اليوم ، باعتباره يتحول الى مجتمع « استهلاكي » . وهناك ظهرت صورة ناقصة الجوانب أحادية البعد أحادية الجانب للفرد باعتباره نموذجاً لذلك المجتمع - أعنى الانسان الاستهلاكي ، الذي يتمتع أيضا بوعي راهن ، أو حتى بوعي « سعيد » .

ومن الناحية الجوهرية ظلت مشكلة مصادر الفقر ، والتباينات الاجتماعية الحادة في مستويات المعيشة ، في بلاد الرأسمالية المتطورة ، خارج نطاق رؤيا « التفكير النقدي » عند ماركيز ، وكذلك الحال بالنسبة لديالكتيك المتطلبات المتصلة بالتطور الروحي للفرد . وكذلك تفسر بطريقة أحادية البعد الحقائق الجلية في سطح الناس على مستوى الاستهلاك الذي لا يدل دائما على موقف استهلاكي ضيق آزاء العالم ، وكثيرا

محددة في الصراع الايدولوجي الراهن ، تهبط في وعي الرجل العادي بمكانة طبيعة الملكية الخاصة للعلاقات الرأسمالية ، وتشوه المحتوى الاصيل للاشتراكية العلمية لماركس ولينين . وليس من قبيل المصادفة ، في مفهوم ماركيز ، أن فكرة « المجتمع الراهن » كثيرا ما تتم المطابقة بينها وبين فكرة « المجتمع الصناعي المتقدم » وهو ما استعاره أيضا بصورة غير نقدية من نظريات « روستو ورايموند آرون وغيرهما » ، على حين لا يكون الموقف من وسائل الانتاج ومن الملكية متضمنا في السمات الأساسية للمجتمع . وعندما يعطى ماركيز سمة مميزة معممة للتنظيم الاقتصادي للمجتمع الراهن ، فإنه على غرار المدافعين عن نظرية « المجتمع الصناعي » ينظر الى الأنشطة الصناعية والإدارية داخل المشروع الصناعي الحالي على أنه نموذج أولي للتنظيم الذي ينجز فيه تحول الوظائف ، والحلقات المختلفة الى إجماعية داخل نظام مفرد ، مضبوط بصورة عقلانية ، لتقسيم العمل وتبادل الأنشطة . وبذا تكون الأسس السياسية الاقتصادية والسمات المميزة لذلك التنظيم مغفلة تماما ، وهو ما يعد أيضا صورة نموذجية للتفكير البورجوازي التبريري .

إن البحث الاجتماعي الموجه بيروقراقي قد ركز اهتمامه على مشكلات الناس ، وسيرهم جماعيا ، على ضوء الاحتياجات الوظيفية لتلك الإدارة ، وعلى دراسة المعالم والخواص المحددة للفرد التي يتعلق بها سير ميكانيزمات المسيرة . إن كل الخواص والميكانيزمات التي تتناقض مع هذه الأهداف أو التي لا تتماشى معها ، أما أنها لم تصبح موضوعا لبحث فني ، أو أصبحت تعد مظاهر قصور وأعراضا «للسلوك غير المسايير » . وقد انصب التركيز على التحكم في الوعي واخضاعه للسيطرة . وكان لهذا التركيز دلالة ايدولوجية بصورة متميزة ، كما كان مؤشرا يرمز الى نظام محدد للدراسة وتفسير وتقسيم الانسان وصفاته وخصائصه الاجتماعية . وكان هذا النظام هو الذي نظر اليه ماركيز ، ومعه كل الحق في ذلك ، على أنه « أحادية البعد » ، ينتقص كثيرا من التناقضات الفعلية ومن الازدواج في طبيعة المجتمع الرأسمالي .

وفي الوقت نفسه يقبل ماركس عن ايمان الصورة « الأحادية البعد » للمجتمع الراهن ولوضع الانسان فيه ؛ وهو يتفق مع الفكرة الواسعة الانتشار القائلة بأنه لا يكون سائدا في هذا المجتمع سوى اتجاه واحد نحو المسيرة تام القدرة والشمول ، وبأن الوعي يصبح بصورة



يكون المجتمع طبقا له نظاما للقيم والمعايير الأكثر قبولاً وبروزاً • وقد صمم هذا النموذج من دراسة المجتمع ككيان متكامل ، إلا أنه كيان من نوع خاص ، كيان ينظر اليه قبيل كل شيء من خلال منشور الضوء المتمثل في الميكانيزمات التي تعمل من أجل الأبقاء على استقراره الداخلي والنسبي • وقد وضع هذا النموذج في الحقيقة في «بعد» واحد محدد ، وكان عاجزا عن أن يحيط

ما تتحكم في هذه الحقائق المطالب الضرورية والعادلة للجماهير العاملة ، وهي المطالب التي لابد من الاهتمام بها ، من الناحيتين العملية والنظرية ، في أي برنامج للنزعات الانسانية • ان نظرية التحليل البنياني الوظيفي ، التي ظهرت في الولايات المتحدة ، وكذلك ممارسته البحث على أساس تلك النظرية ، تستخدم كنموذج عملي ، نموذج « قيمة - معياري » للمجتمع ،

بالديالكتيك الداخلى للكائن والوعى الاجتماعيين، أو أن يفسر الأساس الديوى المزمق من داخله للمجتمع كسمة مميزة لتطوره تظهر بوضوح شديد فى المجتمع ذى المصالح المتعارضة . أن التركيز الأحادى الجانب على ميكانيزمات التكامل الايديولوجى ، والذي كان لا بد لتسجيله من استخدام نموذج وظيفى معيارى ، قد إزداد قوة نتيجة للأشكال السائدة للرؤيا الاجتماعية عن طريق تنظيم وظيفى رشيد للأجهزة الادرية ، وعن طريق استخدام العواطف والرغبات البشرية .

ويدين ماركيز هذا « المجموع الكلى الأحادى البعد » الذى يعد ناقضا للتطور الحر للشخصية البشرية ، ولطقات والمبادات الفردية . وهو يسمى ذلك شكلا مقنعا للعبودية . ومع ذلك لم يكن فى ادراكه للمجتمع المحيط به قادرا على التغلب على «أحادية البعد » الايديولوجية التى تعد أيضا سمة مميزة للتفكير الوظيفى التبريرى الأحادى الجانب . بيد أن ماركيز ، على خلاف التبريريين المباشرين ، يضع علامة سلبية فى مواجهة تلك السمة الأحادية الجانب . وعلى الرغم من أنه قد أعلن نفسه نتاجا للفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، وأنه قد برز داعيا إلى الانتقال من أسلوب فى التفكير وضفى . تماما إلى تفكير ديالكتيكى ، لا يفهم جوهر الديالكتيك بوصفه أساسا للنقد الثورى . ويمكن للمرء أن يطبق عليه السمة المميزة الملائمة التى أعطاه ماركس لبرودون : عند تفسيره لهيجل لم يذهب إلى أبعد من النفى البسيط .

والنقد فى مفهوم ماركيز تقويمى من الزاوية الانفصالية ، وهو منبت الصلة بالواقع المتناقض المتعدد الأبعاد ؛ وهو يغفل لتطور الداخلى للعلم الاجتماعى ولبحث السيسولوجى والتاريخى والاقتصادى - السيكولوجى المنتظم فى العمليات والروابط الاجتماعية المتنوعة لعصرنا . وهو عاجز عن التكامل فى نظرية ، وعن أن يفهم من وجهة نظر الديالكتيك انلاقة الفعلية للاتجاهات المختلفة والمتناقضة فى مجال الانتاج المادى الراهن ، وفى مجال تنظيمه الاجتماعى ، وفى الهيكل الاجتماعى والطبقى ، ووعى الناس وسلوكهم ؛ انه عاجز عن أن يكشف وأن يقوم بدقة فعالة الاتجاهات الفعلية التى تعد اليوم (أو يمكن أن تصبح فى الغد) أساسا ووسيطا مغذيا للحركات السياسية العملية التى تحقق بدائل فعلية ، لا أوهاما ، فى التاريخ المعاصر .

وتعد مفاهيم ماركيز تصويرا للسمات

النموزجية فى وعى هو نقدى فى تطلعاته الذاتية ، يشمل فى إعادة تقويم المقدسات الزائفة التى تميز الوعى الايديولوجى السائد فى المجتمع الذى يرفضه . ويتقبل ماركيز نموذجاخالى من التناقضات الديالكتيكية الموضوعية ، ويتصور أنه صورة الحقيقة ، ثم لا يلبث أن يهاجم هذا النموذج هجوما عنيفا ، ويصفه بأنه نموذج مثالى للمجتمع ثم تبسيطه عن طريق الوعى الأحادى البعد . أن النظرة الأحادية البعد الى واقع اليوم ، الى اتجاه تطوره، تجعل ماركيز عاجزا عن رؤية الانتقال من الفعل الى المرغوب فيه . ويعنى هذا أن المرغوب فيه لا يعتبر سوى نفى ميكانيكى وكامل للفعل .

ويعتبر ماركيز نفسه اشتراكيا ، بيد أن القارئ يعجز عن أن يجد فى كتاباته أى عرض منظم ، أو عرض يقوم عليه دليل منطقي، لبرنامج للتحويلات الاشتراكية . أن السمات المميزة للمثل الاشتراكى فى كتاباته سمات غامضة وغير محددة ، وهى تقدم بصفة عامة على أنها هستوى أنثروبولوجى مجرد . أن الاقتصاد السياسى ، أو التنظيم البنائى لشبكات الاشتراكية ، يعد من حيث الجوهر أما غير مطروح على الإطلاق ، أو يدفع به إلى الخلفية . ويقال الكثير عن « التغير الاساسى فى اتجاه النقد التقنى » ، و«إعادة البناء الكامل للجهاز التقنى » ، والقضاء على المعقولة التقنية ، وما شابه . ولا يسكر ماركيز أن الاشتراكية تتطلب مستويا عاليا من التطور التكنولوجى ولكنه لا يعرف فيما يختلف ذلك التطور عن العملية التى تحدث اليوم ، التى يرمز لها عادة بفكرة «الثورة العلمية والتكنولوجية» . وهو يسلم أيضا بعجزه عن الإجابة عما إذا كانت الامكانيات والاتجاهات الداخلية للنتاج المعاصر الضرورى تمهد الطريق للانتقال الى الاشتراكية .

ويدرك ماركيز ، ولهذا الأمر أهميته ، أن المفاهيم العامة المتعلقة بالتغيرات الاجتماعية الاساسية لا بد أن تقوم على أساس من التحليل العلمى لاتجاهات التطور الاجتماعى الموجودة الآن بالفعل ، والتى تنشأ فى إطار عصرنا الحاضر ، والتى تمهد الطريق لتلك التغيرات . وهو على حق تماما فى قوله : « أن المعايير ينبغي أن تشير الى الحالة التى يدرك فيها مشروع تاريخى امكانيات معطاة - لا امكانيات شكلية ، وانما تلك التى تتضمن أساليب الوجود البشرى » . (المرجع نفسه ، ص ٢١٩) ومع ذلك فإن هذه الفكرة الصحيحة لا تلقى منه الا اعترافا لفظيا ،

تكلمنا موضوعياً ، أن تشر الثقة والأمل في النصر في فلوب وحسول الناس الذين يعنونه بسبب من أجل انهم جميعهم اسراري بطريته بوريه ، ومن أجل تحقيق ميل الدير، فيه الاسسرية والانسانية الاشتراكية . ولا نوفر هذه اسطريه جوهريا الاطار تنجسيد علمي لافاق التحولات الاجتماعية الراديكالية ، وهو الاطار اندي يترب عليه أن تتحول هذه الافاق الى خيال . وليس من قبيل الصدفة أن يختم ماركيز كتابه الرئيسي بالذلمات التالية : « ان !نظريه النقدية للمجتمع، لا تملك أية مفاهيم يمكن أن تصل الفجوة بين الحاضر ومستقبله ، فهي لا تحل نية وعود ولا تظهر أي نجاح ، انها نطل سلبية . وهكذا فهي تريد أن تبقى مخلصه لأولئك الذين وهبوا ، دون أمل ، ومارالوا يهون ، حياتهم لفرض اعظيم » .

(الانسان الاحادي البعد ، ص ٢٥٧) . وهو إذ يفضل نفسه عن ،الاساليب المباشرة للدفاع عن النظام الرأسمالي ، وفي الوقت نفسه يردد صراحة عدم ايمانه بانتصار القوى التقدمية في الصراع ضد ذلك النظام ، يثبت من عزبة أولئك المشتركين فيه حقيقة . ان هربت ماركيز يقود نظريته موضوعيا ، الى نتيجتها المنطقية تماما ، فالتفكير الذي يزعم أنه قوة نقدية ثورية لا يسفر سوى عن مجرد اسلوب روماني بصورة ساذجة، أو عن تعبير تأمل عن المخاطر لا جدوى منه .

ولا يوجد للرفض النظري للمجتمع الرأسمالي المعاصر ، في نظرية ماركيز ، أي سند نظري فلسفي - ميثودولوجي أو اساس علمي . ومن الناحية الجوهرية لا تتحقق أعلى درجات النقد الا في تسجيل الاحاسيس والمشاعر المريضة للقوى العاصم غير المتطور لمجموعة الناس المعارضين لبيروقراطية احتكار الدولة . وقد اعطى ماركيز طابعا نظريا لهذه العملية التلقائية التي هي في مجالات كثيرة عملية فوضوية فردية . فاذا أغفل المرء الادانة « التقيمية » للرأسمالية في منصف ماركيز ، فلما يتبقى هو قسموير للمجتمع الرأسمالي يردد نتائج نمطية متكررة للبرير الايديولوجي الراهن ، ويعد « وضعية مصاغة في صورة نقدية » ، « وضعية في الاتجاه المضاد » . وفي مفهوم ماركيز يعطى التفكير الاحادي البعد نفسه بنفسه ، كما يتم انكار الرأسمالية على اساس الوعي التقديسي البورجوازي الراهن .

عن مقال بقلم ي. زيموشكين ، ن.م.تروشيولوا، في مجلة « العلوم الاجتماعية اليوم » ، التي تصدرها اكااديمية العلوم السوفييتية .

وهي تكتب باستمرار بوساطة عادات التفكير «الاحادي البعد»، والميتافيزيقي انطواري تاريخيا . ومن ناحية الجوهر لا يستطيع ماركيز سوى أن يلجا الى مثل هذه المفاهيم التقيمية مثل «اعريه» و « لجمال » و « السعادة » وما شابه . وهو يدرك في الوقت نفسه بصورة جزئية اطابع الطواري للتجريد المصاحب لهذه التعبيرات العامة وانفصالها عن التحليل الاجتماعي العلمي وانجبدل حقا . وهو يعترف دون أي أسف بأن الاشتراكية هي مرة أخرى فكرة مجردة .

ويحلم ماركيز بالثورة الاجتماعية والاشتراكية ، ولكنه في الوقت نفسه يعترف (ويقدم اعترافه هذا في اشكال مختلفة) في كل كتاباته الرئيسية الاخيرة) بأنه لا يرى في عالم اليوم قوى اشتراكية استطاعت أن تكون أدوات لتحول جذري ، واشتراكي بصورة أصيلة، للمجتمع . كتب في عام ١٩٦٦ يقول : « ان النظريه الاشتراكية ، مهما كانت صحتها ، لا تستطيع أن تقرر الادوات المقبلة للتحويل التاريخي ، ولا أن تتنبأ بهذه الادوات » .

(الانسانية الاشتراكية نيويورك ، ص ١١٧) . والحقيقة أن ماركيز يعتبر أن القوى الأساسية اليوم ، التي كانت تصارع بوضوح شديد رأسمالية اليوم التامضية ، هي من ناحية تلك القوى التي تعرف «بانتلجسيا الطبقة الوسطى» ، وبخاصة الطلبة ، ومن ناحية أخرى الاقليات المهشورة من السكان : المجموعات الاجتماعية والاقليات العرقية التي تشكل الاعماق الدنيا من المجتمع البورجوازي . وبينما يعيى ماركيز العصيان الاجتماعي لهذه المجموعات ، يعترف (وذلك أمر يتبني التأكيد عليه) أولا بأنها أقلية من السكان ، وبأنه ليست بينها مجموعة يمكن أن توفر «الاساس البشري» للعملية الاجتماعية في الانتعاش الحالي . ومن ثم يستخلص أن قوى المعارضة هذه ، في حد ذاتها ، لا يمكن أن تعتبر أدوات تاريخية للتغيير الاجتماعي . (انظر نص رسالته الى ندوة اليونسكو في مايو ١٩٦٨) . وفي رأي ماركيز أن حركة الطلبة ، واضطرابات الاقليات المضطهدة ، يمكن في أفضل الاحوال أن تسفر عن تحليل المجتمع القائم .

وعلى الرغم من أن ماركيز ، في حديثه الصحفي مع مراسل جريدة لوموند في ١١ مايو ١٩٦٨ ، قد أنكر بشدة أن يكون «انهزاميا» ، فإن نظريته الاجتماعية - النقدية ، لا يمكن بأية طريقة ، إذا

أمريكي والإنسان

جينيترج ♦♦♦ أمريكي له قلب بودي

عبد الحميد فرجات

● قلت للطبيب : أريد أن التحرر من كل شيء .. من ملابس وزيارات مثلي .. وأريد أن افعل ما أشاء .. !!

● الضمان هو الفداء وهو الكساء .. وبدونه تصبح عرايا التلوس والأبدان .. !!

● القتل يا أماء .. أصحاب الأجساد الصفراء النحيلة .. ماذا نقول لهم يا أماء .. حين يسألنا الرب عنهم .. !!

● في قطار يتحرك من كيوتو إلى طوكيو تكتشفت لي حقيقة طيبة .. فأتنا أعيش في جسد لابد أن يموت .. !!

بصماتها الواضحة على فكر جينزبرج وسلوكه .

وحياة جينزبرج في جملتها تشبه إلى حد بعيد ذلك العالم السري المثير الذي تعيش فيه شخصيات شكسبير .. عالم الرؤى المسحورة والأشباح التي تلهم الإنسان حلولاً للمشاكل التي تعذبه . وهي تشبه أيضاً حياة فيلسوف الدانمرك الحزين دائماً الملعوب دائماً « سيرن كيركجور » .. الحياة المثقلة بالألم والتدمر والخطيئة والسمي الدائم إلى التكفير .

قد يبدو الشاعر الأمريكي المعروف « اللن جينزبرج » من خلال نظرة سريعة عابرة ظاهراً شاذة ومتناقضة وسط حضارة أمريكا التي تسحق بقوة المادة والعلم كل ما يقف في طريقها ، غير أنه يبدو في الوقت نفسه من خلال نظرة فاحصة إنساناً معقولاً ومتسقاً مع ظروف حياته الخاصة ، ومع المبادئ الإنسانية التي يدين بها ، ومع الرسالة العظيمة التي وهب نفسه لها ، فلكي نعرف حقيقة جينزبرج الإنسان والشاعر يجب الكشف عما في حياته من أحداث فريدة تركت



نموذجاً للأمريكي الراسمالي الذي يبدأ من الصفر إلى المليون ، بل أن يكون أكثر من هذا وريثاً شرعياً لكل مافي التراث الأمريكي النفسي والخلقى من ردائل . ومن ثم يرى التفاوت الطبقي الشديد أمراً طبيعياً ، ويرى العدوان على فيتنام أمراً مطلوباً ، ويرى في قوة المال كل شيء . كان من الممكن أن يكون جينزبرج هذا كله لولا أن عاملين هاميين قد غيرا مجرى حياته : العامل الأول - هو هذه الحساسية النادرة تجاه كل ماهو انساني ، والتي زادت بدون شك بسبب أمراضه النفسية، ومعاناته الفقر الشديد . والعامل الثاني - هو رحلته إلى بلاد الشرق وخاصة إلى الهند واليابان، وظلعه خلال هذه الرحلة على فلسفات الشرق الروحية ، ومقارنتها بما في وطنه من فلسفات .

فيفضل العامل الأول أدرك جينزبرج الحساس جوهر المجتمع الأمريكي ، وأدرك الفرق المصغر بين باطن أمريكا وبين مظهرها . فلا شك أن المجتمع الأمريكي يعاني تناقضاً مثيراً بين الأصل والصورة ، بين الخارج والداخل ، بين الجوهري والعرضي . بل إن أمريكا هي البلد الوحيد في العالم التي تصيب من يزورها لأول مرة بالدوار العقل ، فإلاهار الخارجي للحياة الأمريكية شيء لا يصدق عقل . فأمريكا من الخارج ضخمة للغاية ، أضخم من كل تصور ، وإلى درجة يشعر من يراها للمرة الأولى بالضالة الشديدة . غير أن شاعرنا الشاب بما زودته به حساسيته من مقدرة على « الفوص » حتى قاع الحضارة الأمريكية استطاع أن يرى الحقيقة . . أن يرى حضارة مادية قامت على حساب حضارة انسانية . . وقوة عدوان هائلة قامت على حساب إمكانية سلام ضخمة . . وجملة من المتناقضات المثيرة يجمعها إلى بعضها إطار براق وشفاف . وعندما عرف جينزبرج الحقيقة تعذب كثيرا ، ولم يجد لديه غير الكلمات الصادقة دواء لعلته النفس والوطن . فإذا كانت كل فلسفة كيركجور تكفر عن خطيئة أبيه حين عارض السماء ذات يوم في سهول جنتلند ، فإن كل أشعار جينزبرج وتأملاته تكفر عن خطايا وطنه أمريكا . . خطايا ارتكبتها وترتكبها في كل لحظة وفي كل شبر فوق الأرض .

وأمريكا عند جينزبرج هي بلد العقلاء جدا والعاقِل بالمجنون والمجنون بالعاقِل حتى يتصنر على وبلد المجانين جدا ، أو هي البلد التي يختلط فيها العاقِل بالمجنون والمجنون بالعاقِل حتى يتعذر فيها المرء أن يفرق بينهما . . ومن ثم فالحياة الأمريكية في نظره « معرضاً شاملاً للمجنون غير الرسمي » ،

كان مولده في أسرة عرف كل أفرادها بغرابة التصرفات والسلوك ، وعرفوا أيضاً بميولهم الإلحادية رغم يهوديتهم الرسمية . وكان والده مدرسا فوضويا يحسن قول الشعر ، أما أمه فهي امرأة موفورة الجمال شديدة الشنوذ . وكان الشيء الوحيد الذي يجمع يل أجيال عائلة جينزبرج هو إصابتهم جميعاً في سن الشباب بالأمراض النفسية ، ولقد شاهد الفتى بنفسه أمه الجبلية تتعذب بالشميزوفانيا، وبكى طويلاً عندما أخذوها إلى إحدى المصحات العقلية حيث عاشت آخر عمرها ، ويبدو أن جينزبرج قد أخذ عن أمه حساسيتها الشديدة خاصة بالنسبة للآلام وعذابات الفقراء .

ومن المؤكد أن جزءاً كبيراً من تصرفات جينزبرج الغريبة يمكن أن تفسر في إطار البيت الذي ولد فيه . . البيت الذي لا يعرف التزامات دينية أو اجتماعية . . والذي يجمع بين كل أفراد حساسية شديدة تصل في معظم الحالات إلى مستويات مرضية .

ومن ثم ، كان طبيعياً جداً أن يبدو الطالب الملمس جينزبرج المتفتح حديثاً بجامعة كولومبيا سنة ١٩٤٣ عريب الطباع والأطوار بالنسبة لزملائه . . وكان جينزبرج في هذا الوقت شديد الاحساس بنفسه ، وفي نفس الوقت شديد الاحساس بمشاكل زملائه الطلاب . غير أن سلوك الطالب الشاب قد حير إدارة الجامعة ، فقد تخطى من ناحيته مرحلة الاحساس إلى مرحلة العمل . . ولذا ، أخذ الفتى يقيم الندوات الشعرية يطالب بحقوق التلاميذ ويطلب بمزيد من المعونات المادية التي تقدمها الحكومة لهم . ولقد أطلق عليه زملاؤه في هذه الفترة اسم « النبي الشاعر » ، وكان نبي جامعة كولومبيا يخرج في كل يوم بعد انتهاء الدراسة ليبحث عن عمل يتكسب منه . . ولقد عمل هذا الإنسان الحساس في أعمال كثيرة مرهقة ومتواضعة . . من ذلك العمل كبواب ليلي للمتاجر الصغيرة . . وشيال بمحطات الأتوبيس . . وجرسونا يقبل الصمغون في مطاعم الفقراء . ومن المؤكد أن ممارسة مثل هذه الأعمال البسيطة قد أكسبت شاعرنا معرفة وثيقة بالطبقات الفقيرة الممارسة لهذه الحرف ، وأنها كانت لديه طاقة أطل من خلالها على الواقع التير للحياة الأمريكية الصاخبة .

وعلى الرغم من هذا كله ، كان من الممكن أن يكون جينزبرج إنساناً عادياً جداً ، بل أن يكون

ولابد لمن يعيش في أمريكا أن يعيش داخل هذا المرض ويتجول فيه • وأمام هذه الحقيقة خطر لشاعرنا انعدام تجربة غامضة ومثيرة تشبه كل ما في وطنه من عوص وإثارة • فقد سال نفسه : ماذا يفعل العادل حين يجد نفسه في مجتمع كل أفراد من المجائين ؟ • وأجاب نفسه : كي ينفذ مثل هذا الرجل نفسه لابد من الظاهر بالجنون •

ثم حدث التحول الكبير في حياة الشاعر عندما قام بزيارة الشرق في عام ١٩٦١ • وإدخذه هذه الرحلة الى بلاد الهند ، وفي مدينة كالكتا أعطته الحكومة الهندية بعكس ادلومه الامريكية تصريحا يقول الشعر في كل مكان ، ومع التصريح رجاء حار بأن يفعل ما في وسعه حتى لا يسبب للهند أزمات سياسية مع حكومة بلاده • ولفت نظر الشاعر في الهند ذلك الثراء الروحي الكبير المميز لهذا الشعب الفقير جدا ، وفتنه بصفاته خاصة الجميقات الروحية التي تمارس ما يعرف في الهند بـ « شعائر الجورا » ، وهي ضرب من الرياضيات الروحية جوهرها مقاومة الشهوات ومجاهدة الماديات • وأعتبر الزائر الامريكي نفسه عضوا منتسبا في اندية الجورا • وأخذ يمارس طقوسها بأخلاص مثير • فيسير الساعات الطويلة حافي القدمين في جبال الهملايا الوعرة ويقوم بزيارات متكررة لسلاد التبت المسحورة وللجبال المقدسة التي تحيط بها ، وأخذ جينزبرج يمارس رياضة اليوجا العظيمة • وصرح الشاعر برغبته في قبوله عضوا بجمعيه « مانجا » البوذية للنشاطات الروحية ، وفي احتفال ديني بهيج احتفل بقبول عضويته وعشق جينزبرج الترانيم والابتهاالات الدينية البوذية ووهب نفسه منذ هذه اللحظة للسماء •

وكان المفروض بعد هذا أن يعود جينزبرج الى بلاده ، غير أن هاتفا في أعماقه دفعه الى الذهاب الى اليابان في ربيع ١٩٦٣ ليتزود من روحانيات الشرق • وفي اليابان أصبح شاعرنا تلميذا مخلصا لأساتذة جمعية « زف » للبحوث الروحية وفي مقدمتهم « شيكا » و « فيشوف » • وما يروى عن زيارته هذه لليابان أنه قد أصيب بحى شديده وهو في القطار ما بين مدينة كيوتو ومدينة طوكيو ، وأثناء الحمى العنيفة تملكته

وما أن يظهر جينزبرج في مكان ما حتى يعرفه الجميع من مظهره الغامض المثير • بملايسه القديمة غير المهندمة • بجسده النحيل الضعيف • بصوته العميق المقتنع • بشعر رأسه الأشعث ولحيته المرسله • وما أن يظهر حتى تتغير كل ملامح المكان ، ففي لحظات قليلة يندفع الناس حوله خاصة الشباب ، وتتوقف الحياة تماما ويتحول الجميع الى أذان صاغية • وكالسحر تتسلى كلماته الى أعماقهم • كلمات حلوة مثقلة بالإنسانية • وكلمات قوية تدافع عن الحق • وكلمات سلام تستنكر العدوان • ومن الطبيعي أن لا تطول إقامة جينزبرج في مكان ما ، إذ سرعان ما تطارده « السلطة الأمريكية » ويزرع البوليس العيون من حوله • وقبل أن يأخذه - أو يعيدون - الى السجن يكون الرجل قد اختفى وقد ترك خلفه في كل النفوس أشياء جديدة •

وما أن يظهر جينزبرج في مكان ما حتى يعرفه الجميع من مظهره الغامض المثير • بملايسه القديمة غير المهندمة • بجسده النحيل الضعيف • بصوته العميق المقتنع • بشعر رأسه الأشعث ولحيته المرسله • وما أن يظهر حتى تتغير كل ملامح المكان ، ففي لحظات قليلة يندفع الناس حوله خاصة الشباب ، وتتوقف الحياة تماما ويتحول الجميع الى أذان صاغية • وكالسحر تتسلى كلماته الى أعماقهم • كلمات حلوة مثقلة بالإنسانية • وكلمات قوية تدافع عن الحق • وكلمات سلام تستنكر العدوان • ومن الطبيعي أن لا تطول إقامة جينزبرج في مكان ما ، إذ سرعان ما تطارده « السلطة الأمريكية » ويزرع البوليس العيون من حوله • وقبل أن يأخذه - أو يعيدون - الى السجن يكون الرجل قد اختفى وقد ترك خلفه في كل النفوس أشياء جديدة •



الشاعر حالة من حالات الشفافية الكاملة وتكشفت له حقيقة بسيطة كثيرا ما تغيب عنا ونحن في زحمة حياتنا اليومية .. فالانسان يعيش في جسم لابد من فئسائه .. بل ان كل ما يحيط بالانسان اشياء زائلة .. فكل ما في الوجود مرتبط بالموت .. والموت هو الحقيقة الوحيدة التي تجمع بين كل مفردات الوجود - وخلال هذه الحمى كتب جينزبرج قصيدته « التغير » ليقول :

« في قطار يتحرك من كيوتو الى طوكيو
تكشفت لي حقيقة طيبة .. فانا أعيش في جسد
لا بد أن يموت »

على هذا النحو قدر لوليد الحضارة المادية الملحد المذهب ، أن يلتقي على يد الشرق ارقى الدروس الروحية ، وأن يتحول بفضل هذه الدروس الى عابد كبير لكل ما في الوجود من حق وخير وجمال . وعاد الرجل الى وطنه وفي وجدانه تعاليم الشرق وفي صدره قلب حكيم من حكماء البوذيين - ومنذ أن عاد وهو يطوف بكل شبر في الولايات المتحدة بل ويتعداها الى غيرها من الدول الاوربية ، ليبشر بالانسان وسط حضارة تذيب في كل لحظة وجود الانسان . ومن الطبيعي أن تسبب له مثل هذه الجولات الانسانية الكثير من المشاكل والمواقف الحرجة .



ف ذات يوم في صيف ١٩٦٥ وقف يلقي اشعاره في جامعة « بتراسكا » وأمامه خمسة آلاف طالب ، وتحول المكان كله الى كتلة من الصمت لا يذب فيها غير صوته يقول : « لنقل للصغار على مائدة الافطار .. هيا كونوا انفسكم .. واخرجوا من خلف سدود القلق » . وينصت الجميع وهم يستمعون الى فلسفة قادمة اليهم من أقصى الشرق : « الحنان هو الغذاء وهو الكساء .. وبدونه تصبح عرايا النفوس والابدان » . ويشتمل المكان بالتصفيق ويسرع البوليس الى فض الندوة قبل أن « يصرخ » الشاعر كعادته على مناقشة الحكومة الامريكية سياستها في الداخل والخارج .. وهو الموضوع المفضل لديه .

وقد تعرض جينزبرج خلال جولاته لمواقف حرجة أليمة .. فخلال زيارته لمدينة لندن عقد ندوة شعرية كبرى في « البرت هول » أمام جمهور بلغ افراده سبعة آلاف . وقبل أن يفتح الشاعر فمه ارتفع الصفيح من كل أركان القاعة، وتعالق الصيحات تسخر من مظهره الفوضوي

القتلى يا أماء ..

قتل الحرب وقتل الجوع ..

قتل البيت الابيض الجنون ..

قتل عذاب الارواح ..

قتل قضبان السجون ..

القتلى يا أماء .. أصحاب الأجساد الصفراء
النيحلة ..

ماذا نقول لهم يا أماء .. حين يسألنا الرب
عنهم .. !!

ولا يقف جينزبرج عند حدود القصاص
بل يتعداه الى التحدى الصريح لكل مسئول عن
العدوان ، ولقد وجه ذات يوم خطابا الى «روبرت
ماكنامارا» قائلا : «عزيزي السيد ماكنامارا ،
قبل كل شيء أرجو أن تحتفظ بهدوئك وبرودك
فليس هناك يا سيدي أى خطر رئيسى يمكن أن
يهدد وجود أى انسان بصفة نهائية .. ولا حتى
أنت .. فانت أيضا فى مأمن وسلام .. بنفس
الدرجة التى نفترض فيها كون أعدائنا فى مأمن
وسلام ..

ويظل جينزبرج يتحرك ويتحرك .. ويكفى
أن يظهر فى مكان ما حتى تتغير كل ملامح المكان
.. يدفع الناس حوله .. وتتسلل كلماته الى
أعماقهم .. كلمات حلوة مثقلة بالإنسانية ..
وكلمات سلام تدافع عن الحق .. وكلمات حرة
تستنكر .. ويختفى الرجل بسرعة قبل اعتقاله
وبعد أن يترك فوق الأسن عبارات متناقضة
« هذا مجنون مجنون » لا بل هذا نبي يبشر
بالحبة والسلام ..

« عبد الحميد فرحات »

المثير ومن شعره الاشعث المترب دائما ، وفي
لحظات حزينة فذفه البعض بالزهور الغابلة
والزجاجات الفارغة .. وأمام هذا السداء ظل
جينزبرج صامتا يتحمل كل شيء ثم فتح فيه
وقال : أنتم اخوتي .. البيض والسود اخوتي
.. الحمر والصفر اخوتي .. برغم الحدود ..
برغم السدود .. الكل اخوتي .. وطوال
ساعات ثلاث كاملة اخذ يتحدث عن اهمية الحرية
بالنسبة للجنس البشرى كله .. وفي لحظات
مثيرة تملك الجميع الذهول والندم .. وفي نفس
اليوم خرج محمولا على الاعناق في مظاهرة رائعة
طاقت بالشموع الرئيسة فى لندن ..
وبالإضافة الى هذا كتب مدير « البرت هول » فى
اليوم التالى اعتذارا رسميا نشرته الصحف
اللدنية وأذاعته اذاعتها ..

ولم تات متاعب جينزبرج من ناحية الجماهير
فقط بل كانت أيضا من ناحية الحكومات .. فخلال
زيارته لكوبا ولتشيكوسلوفاكيا اخذ يتحدث عن
متاعب وآلام الانسان فى ظل النظام الشيوعى
بنفس الحماس الذى يتحدث به عن تدمير
الرأسمالية الفاسدة لروح الانسان .. ولم تجد
الحكومة الكويتية أو الحكومة التشيكوسلوفاكية من
حل سوى طرد هذا الرحالة الأمريكى الذى
يتحدث بروح الشرق وقلب الشرق .. والذى
لا يعجبه العجب .. !!

والشيء الذى يعذب ضمير جينزبرج هذه
الايام هو ما تفعله حكومته فى فيتنام .. وهو
لا يمل الحديث عن العار الأمريكى فى آسيا ..
ولا يكف عن استثارة الضمير الأمريكى لايقاف
حد لهذه المجزرة الالهية .. ومن أشبه ما قاله
جينزبرج فى هذا الموضوع قصيدته المطولة التى
القاهها فى جامعة كانساسا والتى بدأها بعبارة
صارخة : « من هنا أعلن نهاية الحرب » ، ويستمر
نائلا :

المعد القادم من الفكر المعاصر

عدد خاص عن قضايا العلوم الإنسانية

يشترك فى تحريره الصفوة المثقفة من

أساتذة الجامعات والنقاد والمثقفين ..

عناصر الحرب النفسية



د. أحمد فايز

يتساءل الدكتور مصطفى زيور في مقالته عن « التفسير النفسي للسلوك الاسرائيلي » (الأهرام ٩ - ١٠ أغسطس ١٩٦٩) : كيف أمكن أن ينقلب الرعديد الجبان (اليهودي) سفاحاً ، ثم جندياً مقاتلاً بين عشية وضحاها ؟ • يقوم هذا التساؤل على ملاحظة عميقة الأثر في تكوين فكرة فخطة للحرب النفسية مع اسرائيل • من الواضح أن انقلاباً خطيراً قد حدث للشخصية اليهودية في الفترة الأخيرة تحول فيها الشباب منهم الى مقاتلين شرسين بعد أن كان يعرف عنهم في العالم أجمع الوداعة والخنوع - ونزع الشيوخ منهم أقمعة الاهتمامات المادية البسيطة والشخصية المحدودة ليكتشفوا عن وجوه جبهة فيها من الصلابة ما فيها •

وأهمية التساؤل تتركز في أنها تثير قضية الحرب النفسية من جذورها : هل من الممكن أن يتحول وينقلب البناء النفسي لأمة من الأمم انقلاباً



خلال فترة الاضطهاد النازي لهم وفتكه بهم وتهديده
 بافناء جنسهم • فتلك الخبرة على حد قول الدكتور
 زيور - خبرة فريدة في تاريخهم الحديث حركت
 لديهم عملية نفسية لا شعورية هي التوحد والتعيين
 الذاتي بالمعتدى الجليل القديم الذي انقذ من
 معسكرات الاعتقال النازي ، تمثل مثل هؤلاء
 السافحين تمثلا قهريا وامتنص - تحت وطأة الخوف -
 عقلية القتل والفتك والصلافة العنصرية التي
 كانت لجلاديه • وبذلك العملية اللاشعورية أنقذ
 هؤلاء الشيوخ أنفسهم من « الجنون » الذي يهدد
 من يتفاداه الموت وهو به حيئذ • كان فرار جيل
 المعسكرات من الموت خبرة نفسية مريرة مرارة
 الموت نفسه ، تغلبوا عليها بتقصص لا ارادى ولا

جنديا يجعل الخانع منها عصيا واخائف مخيفا
 والذليل مذلا ؟ لقد فاجأتنا حرب يونيو ١٩٦٧
 بأن أمرا من هذا القبيل قد حدث لتلك الاشتات
 الانسانية المبعثرة في العالم أجمع فتجمعوا على
 البعد وتهجموا بعنف - عنف لا يفسره تأييد
 الولايات المتحدة وحدها - ويفسره تغير قد حدث
 في هذه الفئات • فكان الأمر لنا أشبه بصحوة بعد
 طول نيام ، فاتجهت أبصارنا الى عريق مجد كنا
 فيه ونظن أننا ما حرمننا منه رغم السنين ، وجالت
 العقول في النفوس تبحث فاذا ببعضها يلوح تقيرا
 قد حدث لنا ولكن في الاتجاه المعاكس • لقد كنا
 فأصبحنا •• وقد كانوا فأصبحوا •

نعود الى التفسير الذي قدمه الدكتور زيور لما
 حدث من انقلاب في الشخصية اليهودية • لقد
 رجح الدكتور زيور هذا الانقلاب على خبرات اليهود

للظروف التي تعرضوا لها أثناء الحرب ، فهل
يعنى ذلك أن ثورة النفس من صنع التخطيط.
العلمي والقصد الإجتماعي ، ثم هي حتم تاريخي ؟

ان المؤن بقوانين الحتمية التاريخية والمادية
التاريخية يقف أمام السؤال السابق حائرا : هل
جاءت الثورة والانقلاب النفسي للشخصية اليهودية
كحتم تاريخي أم نتيجة تخطيط مسبق ؟ ولهذا
السؤال وجهه الآخر الأكثر أهمية : هل سوف
يحدث لنا أن نقلب على أنفسنا ونبلغ ما نريده
لها كحتم تاريخي لا يحتاج الى أكثر من انتظاره ،
أم يجب علينا أن نسعى ونعمل من أجل هذا
الانقلاب ؟

هناك ميل واضح لدى الكثيرين من مؤرخي الحرب
العالمية الثانية الى التأكيد على دور الرأسمالية
اليهودية في تدعيم النازية ودفع المانيا الى الحرب
بل وإلى اشعال نار الاضطهاد العنصري ضد
الساميين . ورغم أن هذا التأكيد يعوزه التاكيد في
كثير من جوانبه ، وبالرغم من أن تصور الأمور على
النحو السابق يجعل تدبير الصهيونية أمرا يفوق
قدرتها الحقيقية الا أن قدرا ما من الحقيقة يظن
واضحا من خلال معايير ومثالب هذا الرأي .
فليس هناك شك في أن الصهيونية لم تفرط في
استغلال أيسر الأمور وأفضل الأحداث أهمية
لمصلحتها وليس هناك شك كذلك في أن الصهيونية
لم تخطئ خطأ واحدا ملحوظا في تحويل ظروف
الحرب العالمية الثانية لمصلحتها . حتى أن انصار
الجيش الأحمر نفسه على ألمانيا - وهو ما لا يتماشى
مع مصالح الصهيونية - استغلته لزبادة الريبة
في السوفييت لدى الدول الرأسمالية حتى لا يحدث
تقارب بين المعسكرين ، ان كان ذلك ممكنا .،
فتضيق المكاسب التي حققوها . وكان أسلوب
الصهيونية في استغلال تلك الظروف ذا شقين :
الأول : إثارة عطف شديد عليهم بما كان يحدث
لهم والمبالغة في هذا الاتجاه الى حد نقل الاهتمام
من الجانب الاقتصادي للحرب الى الجانب الانساني
- بوصفهم أول الضحايا - فائسيا : تفجير طاقات
العدوان الكامنة لدى اليهود أنفسهم والتي اختفت
لأجيال منهم ورائه ستر العزلة والفرع
المبالغ فيها . ونجحوا من تحويل هذه العدوانية
(السادية) الى هدف واحد هو اقامة دولة ومملكة
(اسرائيل) .

على هذا الأساس يمكننا أن نجيب عن تساؤلنا
الحاص بحتمية التاريخ والتدبير البشرى في خلق
انقلاب في الانية . من الممكن أن تندخل

شعوري لشخصية النازي السفاح فصاروا مثله
بعد أن كانوا تحت رحمة . وتركز في عدد من
هؤلاء الناجين كل مشاعر الخوف وكل عوامل
النجاة النفسية من آلام الجيرة ، ففقدوا أشبه
بمولد على الشحنة - يشحن الجبل الحديد من
اليهود بشحنات الخوف من الفناء (على يد العرب)
وشحنات القسوة والشراسة التي كانت لجلادهم
الحقيقيين .

على هذا النحو استبدل اليهودي الجبان شخصية
بشخصية ، وعدل من قوام الجديدي في نفسه
فاستبدل « بالعنصرية الآرية » عنصريته السامية
وبالتفوق الألماني التفوق اليهودي . لقد قلب جيل
- واجه الفناء الذي كثيرا ما حدث نفسه به - على
خوفه بأن أصبح متيقنا خرسا ، وأمكنه أن يجعل
الجبل الحديث يتوحد به ففقد اليهودي الشاب
على ما هو عليه حاليا من غرور وعنت وصلافة
تذكرنا بشيبيبة النازي وما كانوا يفعلونه في
شوارع ميونخ وفيينا قبل استيلاء هتلر على
أوروبا .

من الممكن إذن أن يحدث انقلاب في الشخصية
القومية تحت ظروف معينة . انقلاب أعمق بكثير
من مجرد التأثير السطحي الذي تحدثه الحملات
الاعلامية والرأسمالية التقليدية لرفع الروح المعنوية .
هذه الظاهرة . ظاهرة الانقلاب الشامل للانبة
هي الحرب النفسية . فالحرب النفسية ليست - كما
تدل العبارة - هجوما يأتي من خارج بل هي أنجح
ما تكون عندما يشنها الشعب على نفسه ليعدل
منها . ان الحرب النفسية هي التعامل الجاد مع
المكونات الأساسية للشخصية : **طاقاتها** تعيد
توزيعها على أهداف جديدة ملائمة ، **نظامها** فتعيد
تكوينه ليتلاءم مع مسئوليات مستجدة ، **استجاباتها**
فخلخل منها أنماطا أكثر نفسجا وتناسبا مع
ما يحيطها من ظروف . ببساطة أخرى الحرب
النفسية هي اقامة انبة جديدة مبنية على تعيينات
ذاتية أكثر رقيا . وعلى خلاف ذلك تكون الحرب
المعنوية ، تعامل مع قسرة الشخصية ولفترة مؤقتة
وبأسلوب غير فعال : تعامل مع مثل وقيم هي
ذاتها لا تعد أسبابا بل نتائج ، اتجاهات وميول
تدل ولا يدل ، ومعتقدات وتصببات مصيرها
محترق بعيد الواقع عن المجتمع .

سؤال محير :

إذا كانت الحرب النفسية التي شنها اليهود
على أنفسهم دفاعا عن سلامتهم العقلية نتيجة

علمية دقيقة فنحدث في أنفسنا وإتينا انقلابا يناسب الحرج الذي نحن فيه . ان الظرف الحالي موت - لا لانتصار العاجل فحسب - بل لحلق أمة على غرار جديد وعلى نمط يلائم عصرا فريدا بدأ . موقف اذا فرطنا فيه ونظرنا اليه بوصفه كارثة لا بد من ازالة آثارها نكون قد فرطنا في هدية تاريخية غير متوقعة ، وإذا أحسبنا استغلاله أزلنا الكارثة بانتصار كبير وأقمنا اثية جديدة لصر تلائم ما ينتظرها في المستقبل وبعد ازالة العدوان .

وقفة قبل الانطلاق :

قد يغرينا صوغ قضية الحرب النفسية على النحو السابق الى الاندفاع السريع نحو وضع خطة لشن حرب نفسية . ولكن يجب أن ننتبه الى بعض الحقائق قبل أن نشرع في ذلك .

١ - لا يمكن لأى جهد مهما كان أن يخلق في أمة ما ليس فيها وأن يكون في شخصيتها ظاهرة جديدة كل الجدة . فمن الصعب - ان لم يكن من المستحيل - أن يحدث أى جهد انقلابا في انية أمة فيخلق فيها الشراسة خلقا أو يقيمهها على الدعة قسرا . من الممكن أن يظهر شئ خبي ، ولكن لا يمكن أن يظهر ما ليس موجودا أصلا . وقاعدة هذه الحقيقة هي أن كل خاصية في شخصية ما - ولتكن الشخصية القومية - تخفى نقيضها في حالة كون قابل للتجلى والظهور في ظروف معينة وتحت شروط خاصة . لذلك ليست الحرب النفسية سحرا يخلق بل عملا يظهر ويكشف .

٢ - ان الخصائص البارزة في انية أمة من الأمم تخفى نقيضا لها مائلا لها في القوة . فإذا تبين أن أمة من الأمم تبدو أو تبدو سمة ما وبشدة معينة نستطيع أن نتنبأ أن نقيض هذه السمة وبنفس قوتها موجود ويمكن استغرازه . فالنوع الشديدي ليهود ما قبل الحرب العالمية الثانية كان يخفى ما تكشف حاليا من خصائص لها قوة مائلة لذلك تكون الحرب النفسية دقيقة وواضحة : دقيقة لأنها عملية تفجير للمسلمات النقيضة دون الاخل بتماسك الشخصية ، وواضحة لأنها تقوم بعمل ملموم هو إبراز سمة معروف مسبقا كنهها وشدها .

أمة من الأمم في تاريخها المحدود وذلك باستغلال ظروفها استغلالا جيدا ، وباستثمارها ووعيتها - مع قيادتها - بمستقبل الأحداث . ويتفاعل الأمم الأخرى معها يمكن أن تستفيد من ظروفها وظروف غيرها الفائدة التي تسمح للتاريخ العام لها أن يكون ذا معنى . بعبارة أخرى ان الأمم المادية هي التي تتدخل في مجرى تاريخها العام باستغلال جيد لتاريخها المحدود وأحداثه الطارئة . فالتاريخ العام - ولا متداده الزمني العريض العميق - لا يسمح للجماعات البشرية المحدودة العمر بالتدخل الحاسم فيه . ولكن التاريخ المحدود - أى الأحداث ذات القيمة القصوى لفئات بشرية معينة - يسمح للأمم بأن تأخذ منه موقفا إيجابيا ، وذلك بتأمل في جزئيات تراكمات الماضي ودراسة الأحداث الطارئة وتصور مصير تفاعل الماضي مع الحاضر ، فتضع الخطط الفعالة للمستقبل .

هذه القضية في الواقع تحل لنا قضية فرعية أخرى ترتبط بها وتخطي حاليا باهتمام أكبر من اللازم : هي قضية النوعية البشرية للشعب المصرى وغيره من الشعوب . ان ما يميز أمة عن أخرى ليس تاريخها العام . فالتاريخ العام يخلق الظروف والأحداث بأسلوب معقد لتدخل الأمم الأخرى فيه لذلك يكون تعديله والتدخل فيه أمرا ليس باليسور والسهل . ولكن التاريخ العام في نفس الوقت يتخلق - في جانب منه - من التدخل البشرى الجزئى والمحدود الى حد ما . لذلك يكون الفرق بين الأمم في قدرتها وذكائها وإصرارها على استغلال تاريخها المحدود أحسن استغلال بحيث يمكنها أن تكون ومن يتلوها من أجيال أكثر إيجابية بصدد التاريخ العام . ان الحرب النفسية في الواقع جزء هام من صراع الشعوب من أجل تاريخ عام مشر .

ان ما يخصنا من هذه الأفكار يتعلق في الواقع بالصراع الفكرى الذى يدور فينا حاليا . ماذا نفل . هل نغير أنفسنا أم أننا سوف تتغير بفعل التاريخ ؟ أننا الآن أمام قضية غير فكرية ولا بد أن نأخذ منها موقفا غير فكرى . فالوقوف الذى نمر به حاليا مشابه لمواقف سابقة عشناها أفندا من بعضها فأصبنا تقدما وفرطنا في بعضها فاقصدنا أنفسنا من التقدم . والظروف التي خلقها لنا الصهاينة وغيرهم من الأعداء والإنصا ، فضلا عن الظروف التي صنعناها عبر تاريخنا العام تواجهنا باستشكال حاسم : نحن في موقف يسمح لنا - بل ويلزمنا - بأن نستغله استغلالا جيدا وعلى أمس

٣- الحرب النفسية هي استغلال مناسب لظروف مواتية تسمح بتفجير السمة الجبينة والتي تكون أساس الانتصار في المارك التي تخوضها الامم ، وليس الحرب النفسية ابتكارا واصطناعا لمواقف وظروف من هذا القبيل . لقد عاش اليهود قرونا طويلة في هلع من وهم سيطر عليهم هو كراهية العالم لهم وترقبه لغنائهم . وخدمهم هذا الوهم في الانزواء بعيدا عن أخطار بعضها واقى وبعضها كان لهم بمثابة الواقع . ثم جاء الظرف المواتي الذي قلبهم الى النقيض .

ثلاث حروب نفسية خضناها :

ان ما قدمناه هو الجانب العام من الحرب النفسية ولكن للحرب النفسية جوانبها الخاصة التي تسمح بالتطبيق المباشر . . . لذلك سوف نتعرض لثلاثة مواقف كانت بمثابة حروب نفسية خضناها ومنها يمكن ان نضع عناصر الحرب النفسية وأسس تطبيقها عمليا . ولن نعرض هذه الحروب الثلاثة في تفاصيلها التاريخية او العلمية حتى لا نبعد عن هدفنا .

١- الثورة العراقية : ان الدارس لثورة عرابي سوف يلحظ أمرين هامين فيها : **أولا** : تجمع شعبي ضخم حول زعيم جديد ييشر بانية مصرية حديثة ، **إيجابية** . . . انية تبرع في ظروف تاريخية دقيقة . **ثانيا** : انهيار سريع لهذا التجمع الشعبي دون مبررات تتناسب مع حجمه وقوة مده **لاولى** لذلك تعد الثورة العراقية نموذجا طيبا لدراسة حرب نفسية دفاعية فاشلة وأخرى هجومية ناجحة كانت الانية النفسية المصرية التي تمثلت في وقفة عرابي ببندان عابدين عام ١٨٨١ محاولة جسادة لتحطيم انية قديمة خاضعة لنفوذ تركي منعزل وغزو رأسمالي أوروبى حديث . ولكن عرابي كزعيم وطني وقائد لهذه الثورة النفسية ، لم يدرك ادراكا سياسيا واعيا الظروف المواتية لتحقيق هـــــه الانية المصرية الجديدة . كانت الامبراطورية العثمانية في انهيار يسمح للخيديوي توفيقى بالاعتماد على أوروبا في دعم سلطانه . وكانت الرأسمالية الزراعية المصرية في بداية مازستها لغايليتها السياسية وتطلعا لاصلاحات تضمن لها حقوقها . وكان الصراع بين انجلترا وفرنسا على التركة العثمانية صراعا غير خفى . كل ذلك كانت عوامل إيجابية لدعم الثورة المصرية . الا ان عرابي حول الموقف من حرب نفسية الى معركة عسكرية

فوضع الشعب المصرى فى أزمة يصعب حلها . لقد كان تحويل الثورة الى معركة عسكرية هو الفرصة المواتية للاستعمار في شن حربه النفسية الهجومية بعبارة ثانية ، لو كان قد أمكن لعرابى ان يتفهم الظروف السياسية للثورة لاستطاع ان يشن حربا دفاعية عن الانية المصرية الحديثة ، ولم يكن مصر هذه الانية الواود المبكر ، ورغم زيادة فرصة الهزيمة العسكرية أمام الاستعمار . ان الخطأ الذي ارتكبه عرابى وقوعه فى الفخ السياسى الذى نصبه الاستعمار للثورة وهو تحويلها الى معركة عسكرية أما الاستعمار فقد استغل نقطة ضعف وحيدة استغلا جيدا هي عدم وضوح الوجهة القومية للانبة المصرية . وجه الاستعمار حربه النفسية الهجومية من هذه الزاوية حيث أشاع أن الثورة موجهة ضد خليفة المسلمين - وبذلك طعن الثورة طعنة عكسية . فبدلا من أن يستغل عرابى ورفاقه عنصر الدين والقومية لمصلحتها تركوها سلاحا في يد عدوهم .

اذن ، يعد أول درس نأخذ من الثورة العرابية هو : أهم عناصر الحرب النفسية : استغلال مناسب لظروف مواتية . ففي هذه الثورة ساء استغلال عرابى لظروف مواتية وجاء سوء استغلاله في شكل قلب الثورة الى معركة عسكرية فسمح للاستعمار بحسن استغلال ظروفه لأن هدف الاستعمار كان تحويل الثورة الى معركة حربية تمكنه من سحق الانبة المصرية عسكريا .

ب- ثورة ١٩١٩ : ان ثورة ١٩١٩ تعد نموذجا لحرب نفسية ثانية امكن لنا فيها أن نتصور دفاعيا وان يهزم العدو فيها هجوما . استطاع سعد زغلول أن يستفيد من نتائج الحرب العالمية الأولى وما طرحت معه معاهدة فرساي من شعارات عديدة . واستطاع كذلك ان يستغل الحضور السافر من السراى للمندوب السامى البريطانى بأن طرح الشعارات الدستورية وتقييد السلطة الملكية . فضلا عن كل هذا أمسك سعد بأطراف التطور الرأسمالى الزراعى وبزوغ الرأسمالية الصناعية (او أفكارها الوليدة) وبأطراف الانية الوطنية بقيادة البرجوازية المصرية ومزج بين هذه الأطراف مزجا لا بأس به وبإدارة هذه الظروف جميعا تحت شعار الاستقلال أمكن لسعد زغلول أن يشن حربا نفسية دفاعية ناجحة حمت الانبة المصرية الوطنية من غسخت الاستعمار عليها ومحاربتها لها في شكل تأييد

للسراي والملك . لم يترك سعد زغلول فرصة مناسبة للاستعمار لى يطمئن الثورة النفسية لدى الشعب بإثارة الياس من الكفاح - كما حدث أيام عرابي ، ولم يسمح بفرصة للرجعية كي تخون بسفور آمال الشعب عن طريق إثارة قضية ملك البلاد ، لقد أمكن لسعد ورفاقه أن يحولوا الثورة النفسية لدى الشعب تطلعا الى انية جديدة ، أن يحولوها الى مظاهرات هي بدورها كانت محالا لنضج هذه الانية .

أما ثورة ١٩٥٢ فلها طابع آخر . ان الانية الجديدة والمتولدة من حرب ١٩٤٨ قد ولدت ثورة ١٩٥٢ . ولكن هذه الثورة ذاتها استطاعت في عدة مواقف هامة أن تقفز بالانية قفزات غير متوقعة

ففي عام ١٩٥٦ حدث تطور هام في الانية المصرية هو الانتباه الى الامكانيات الذاتية ممثلة في الدفاع الحربي عن الاستقلال . وفي عام ١٩٥٨ انضاف الى الانية المصرية عنصر جديد هو التفتح على مبدأ مهاجمة الاستعمار في قواعده المحيطة بنا . وفي عام ١٩٦١ ظهرت المبادئ الاشتراكية كنواة أساسية في الانية المصرية . لذلك يحسن تناول ثورة ١٩٥٢ تناولاً خاصاً من حيث هي حرب نفسية دفاعية وهجومية .

وقبل أن ننتقل الى عناصر الحرب النفسية يمكن أن نوجز ما خرجنا به من تأمل هـذه الحروب النفسية الثلاثة . ان نجاح الحرب النفسية الدفاعية يعني قوة تستمر ولكنها تحتاج الى تعميم متجدد من زعامات متطورة ، فان لم تجد لها ماتم كذلك يتوقف نجاح الحرب النفسية الدفاعية على مقدرة قائدها على فهم متطور للأحداث وعلى صلابته خاصة أمام عناصر الضعف في معارفيه وهي العناصر التي قد تطرا عليهم أثناء الصراعات التي توجبها الحرب النفسية . فيستبدلها في جرة بعناصر في صلابته . وقد كان سعد زغلول مغالياً في هذا الجانب كما كان عرابي متهاوناً فيه تهاوناً كبيراً . والجانب الثالث الذي نخرج به من دراستنا هو دينامية العلاقة بين القائد والشعب المتجدد الانية ان الحرب النفسية تبدأ في طابعها نتيجة قيادة وزعامة ماهرة تفجرها ، ثم ينتهي الأمر بأن تحتضن الموجة الشعبية زعامتها فتكتشف عن أصلها وهو انها هي التي تخلق زعامتها بنفسها .

١

اذن ، فيبدون زعامة يتوحد الشعب بها لا يمكن أن تنجح حرب نفسية دفاعية . كذلك لا يمكن لحرب نفسية هجومية أن تنجح ما لم تضرب ما بين الزعامة والشعب لتحطم الانية النامية في نواتها وهي اسقاط افكارها على شخص الزعيم .

ويواجهنا تأمل تفاصيل ثورة ١٩١٩ بأمرين : لقد استطاع سعد زغلول أن يصبح زعيماً يتوحد الشعب - في أغلبية ساحقة به - وليلة طويلة ، بل وأهم من ذلك أن يتوحد الشعب به حتى يبعد وفاته . فحتى عام ١٩٤٢ كان التأييد الشعبي للوفد مجرد امتداد لتأييد سعد الذي أقام الوفد بمعنى آخر ، كان التوحد بسعد رمزاً لحاجة الانية المصرية الى نواة تنضج حولها . فسعد كان الوفد والتوحد به هو أساس تأييد الوفد . وظل التأييد للوفد اصراراً على التوحد بسعد . ولم ينفض الشعب عن الوفد الا بعد أن أثبتت قيادته التالية على سعد عدم قدرتها على جعل الشعب يتوحد بها . ولكن أهم من ذلك ، كانت حاجة الانية النفسية الى نواة لها تمثلتها في سعد زغلول ، كانت هذه الحاجة عاملاً هاماً في تقاضي الشعب عن أخطاء جسيمة ارتكبها سعد البرجوازي المنبت وتحمل الشعب مثالب عديدة ارتكبها الوفد بعد سعد أوصلته الى حد خيانة الأهداف التي نال بها تأييد الأمة . ان الثورة النفسية تحتاج الى زعيم يمكن الشعب - او أكثر قلائه أهمية - من التوحد به - وفي سبيل هذه الحاجة قد تتفاضى الانية الجديدة عن كثير من الأمور .

والأمر الثاني يتعلق بطبيعة الحرب النفسية الدفاعية . لقد كان لنجاح سعد زغلول في شن حرب نفسية دفاعية عن الانية المصرية نتائج كثيرة ، أبرزها أن نجاح الدفاع النفسى يعطى للشعب مناعة ضد الانهيار النفسى تستمر مدة طويلة حتى بعد انتهاء الزعامة نفسها واختفاء قائد هذه الحرب . فبعد حياة سعد لم يتوقف الشعب عن تدعيم انيته في انتفاضات متتالية الى عام ١٩٤٢ . ولكن هذه المناعة تضعف ما لم تجد زعامات تالية تدعمها . فعندما تبين للشعب عام ١٩٤٢ أن قيادة حزب الوفد لم تعد على عدائها الصريح للقمع والاستعمار بدأت الدفاعات النفسية

الانية المصرية الجديدة دعامتها النفسية • ولا شك أن تحطيم الجيش في تلك المرحلة كان كفيلا بتمزيق الانية المصرية لأن الشعب كان يضح آماله في تحقيق أهدافه على قوة الجيش التي أصبحت لأول مرة - بعد عرابي - ملكا له • ولكن يبدو أنه كانت هناك نقاط هامة غابت عن الاستعمار في تحليله لظروف عدوانه على مصر ، ولعل مرد غياب هذه النقاط يرجع الى غربة التحالف الذي قام ضدها: حزب محافظ (بريطانيا) وآخر اشتراكي (فرنسا) وتنظيم فاشي (اسرائيل) •

عناصر الحرب النفسية :

يمكننا أن نبرز عناصر الحرب النفسية بسهولة من مقارنة أحداث عدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧ . فبعد انهيار قيادة حزب الوفد للشعب ، أخذت تتكون عدة قيادات سرية بقصد قيادة الشعب في اسراء قواعد انيته الحديثة • وتمكنت أكثر القيادات قدرة وأقربها فهمًا لطبيعة الظروف العالمية والمحلية من القيام بثورة ١٩٥٢ • وبذلك انتهت انية تكونت خلال ثورة ١٩١٩ وظهرت انية جديدة قضت على النظام الملكي وطردت جيش الاحتلال • ولكن لم تنقض أربعة أعوام على الثورة حتى تعرضت هذه الانية الى هجوم جديد عليها - ومن نفس القوى القديمة التي ثارت ضدها • وكان هذا هو العدوان الأول •

استطاعت القيادة السياسية في مصر وبالرغم من الظروف غير المواتية أن تفر من حربا نفسية دفاعية ناجحة نجاحا تاما • فقد كان حدى عبد الناصر الحقيقي في سحب الجيش من سيناء ، حدى سياسيا قبل أن يكون عسكريا • أمكن لعبد الناصر أن يستغل العنصر الأساسى في الحرب النفسية وهو عدم تناقض الشعب مع قيادته ، فسحب الجيش من سيناء لينفذ دعاة الانية المصرية الجديدة ، وليهزم العدوان في تقويت الفرصة عليه في بلوغ هدفه النفسى • وسحب الجيش بأقل الاضرار وتركيز الدفاع عن القناة كرمز لانجاز هام للانية المصرية الجديدة ، أصبح الانتصار النفسى على مصر مستحila مهما كانت النتائج العسكرية • لقد كانت القيادة الثورية وزعيمها نماذج واضحة يسهل على الشعب أن يتوحد بها ليحافظ على انيته الجديدة وقوامها التلقائية والمبادأة ، البديلة عن انية قديمة قوامها الشك والتردد فى امكانية الانطلاق الحر دون مساعدة خارجية خبيثة • كانت هذه القيادة تعطى نماذج متتالية من التلقائية (تسليح الجيش سلاح سوفيتى دون التسليم بالبداء الماركسى) وبالمبادأة (تأميم القناة لبناء السد العالى) ، وكانت تظهر نفسها يوما بعد يوم من عناصر تفقد رباطه جاشها وتميل الى النكوص نحو الانية القديمة اذا ما تخيلت صعوبة أو مشقة

اتجه عبد الناصر الى الجامع الأزهر ليبدأ حربه النفسية الدفاعية عن الانية المصرية الجديدة • وكان محور خطابه من الجانب النفسى هو : هل ندخل المعركة العسكرية مع الاستعمار بوصفها مجرد معركة عسكرية ، أم ندخلها كمعركة نفسية فنقع فى الفخ المنسوب لنا ؟ والأسئلة عادة تحدد مضمون الإجابة : اذا دخلنا المعركة على أنها عسكرية خالصة فلن يضيرنا الانسحاب وفقدان جولتها

فى عام ١٩٥٦ كانت الظروف الداخلية تفرى الغرب بشن حرب نفسية علينا لتحطيم انية جديدة بدأنا بممارستها • فآثار الصراع السياسى مع الرجعية المصرية والرأسمالية الزراعية لم تمكن الثورة من الاستقرار الهادئ بعد • فأحداث عام ١٩٥٤ كانت لا تزال فى الأذهان كما كان الملاك الزراعيون يمارسون ضغطا شديدا فى الريف وبقايا رجال السياسية القدامى يأملون بعند فى العودة الى الحكم • ولم تكن القوى العاملة تجد امامها تنظيما سياسيا مقنا يضمها ويقف بها أمام هذه القوى • أما الظروف الخارجية فكانت تبدو مواتية هى الأخرى • فأوروبا فى ثوزة من تأميم القناة ، وأمريكا فى صراع مكشوف معنا حول خطط التنمية وعلى رأسها تمويل السد العالى ، ولم يكن المعسكر الاشتراكي قد حدد موقفه من قضايانا تحديدا تاما ولا يمكن الاطمئنان بعد الى تأييده •

وقد ركز الاستعمار حربه النفسية علينا عام ١٩٥٦ فى هدف واحد هو تحطيم الجيش أولا لتفقد

الاولى - أما اذا دخلناها على أنها معركة نفسية ذات شكل عسكري وجب علينا أن نصمد ونجازف فننصر أو نهزم فلا تقوم لنا قائمة. وأجاب الشعب أجابته المعروفة : نضحي بمعركة لنكتسب بخيرى أكثر أهمية هي المعركة النفسية . كان سؤال عبد الناصر هو صياغة لفكرة شعورية اجتاحت نفوس الشعب وهو يعيش علوانا عليه يثير فيه الرغبة فى الانتقام ، كانت الفكرة الشعورية تقاقل ونومت أبطالا ولو فى غياه العنيد . ولكن صياغة الفكرة الشعورية هي السبيل الى انطلاق الفكرة اللاشعورية وهي : ننسحب ونعيش لكفاح يتسم بذلك المصير اللبق .

اول عنصر اذن فى الحرب النفسية هو حسن استغلال الزعامه للظروف المتاحة لها فتدفع او بهاجم . وهذه هذا العنصر هو وحدة الزعامه على صياغة مضمون الشعور الشعبى صياغة سلسليه وفي ضوء الظروف المحيطه به وطرحها على الشعب فينبطق بنفيس الشعور - اى اللاشعور - فتحدث الثورة النفسية او تحرك العمليات النفسية الدفاعيه حر له قويه . اما السلوب نشاط هذا العنصر فهو تحويل المعركة النفسية الى معركة عسكريه او اقتصاديه ، وعدم السماح لتلك المعارك ان تتسلل بنتائجها الى الشعب فتصيب انيته . والدليل على ذلك أن بريطانيا فى حربها الاخيره مع المانيا كانت تحصر النتائج العسكريه فى اطارها العسكري ، بينما كانت المانيا تحول انتصاراتها العسكريه الى صيغ نفسيه داخليسا وخارجيا .

ونوضح لنا العنصر الثانى من الحرب النفسية من تحليل عدوان ١٩٦٧ . كانت الظروف ما بين ١٩٥٦ - ١٩٦٧ طروفا مختلفه ، فالتحول الاشتراكي ومشاكل التطبيق والادارة حالت دون بقاء القيادات السياسيه لثورة ١٩٥٢ على صلاتها الوشيعه بالشعب ، كما كان الحال فى بداية الثورة ونتيجة لذلك انشغلت القيادات الثوريه عن الشعب بالاهتمام باقامة الدولة الجديدة وحلت محلها عناصر اقل منها كفاءة تولت مهمة الاتصال المباشر بالجماهير . وليس هناك ما يضير من أن تكرر تحليل الرئيس عبد الناصر لبعض مثالب هذه الفترة وأهمها انحرافات شديدة اقترفها بعض المسؤولين فى جهاز الدولة - مما اثار قلقا لدى الجماهير من التحوصل الى اتيه ما قبل عام ١٩٥٢ وأصبحت العناصر الثورية الشريفة محاصرة بين

مراكز قوى يؤدي هدمها الى تفجير صراعات داخلية عنيفة وبين ضرورة رفع هذه الانتقال عن أقدام الشعب لينطلق الى آفاق ابعد . وكانت الظروف الخارجية كذلك غير مواتية تماما . الولايات المتحدة فى حاجة الى تعزيز حزامها فى فينام بعمل جديد ، والمعسكر الاشتراكي يمانى من آثار خلاف الصين مع الاتحاد السوفيتى ، والحد الثورى فى العالم العربى فى احد دورات جزره الشديدة بذلك تهيات الفرصه امام الاستعمار لعنوان جديد وللعمرة الثانية يخفى على الاستعمار جانب هام فى المعركة النفسية مع مصر .

لم يكن الجيش فى عام ١٩٦٧ نواة الانية المصرية كما كان الحال عام ١٩٥٦ . لقد كانت الاشتراكية هي نواة هذه الانية . وهزيمة الجيش عام ١٩٦٧ لم تكن تؤثر على الدولة الا تأثيرا وقتيا ومحدودا . كذلك لم يدرك الاستعمار أن انحراف بعض العناصر فى مصر وانعزال البعض الآخر يثير مجرد الضيق فى نفوس الناس ولكنه لا يثير فيهم الانزعاج الشامل . بل لقد وجد الشعب فرصة مواتية للتخلص من هذه العناصر بعد أن جمع شتات نفسه بعد النكسة . وفضلا عن كل هذا ، بقيت بعض العناصر الثورية بعيدة كل البعد عن غضب الشعب - وبغض النظر عن النتائج - وعلى رأس هذه العناصر الرئيس عبد الناصر . لذلك فعندما أعلن عبد الناصر رغبته فى لتنحي متحملا مسئولية الأحداث ، فهو انما كان يصوغ فكرة شعورية كادت أن تفجر نفوس الجماهير وهي فى حيرة من أمرها ، فتفجر لعمرة الثانية اللاشعور الجمعى معلنا عكس هذه الفكرة فأصر على بقاء رئيسه ، واعترض فى عنف على التنحي . وتحول الهجوم علينا الى فشل ونجح الدفاع النفسى مرة أخرى .

العنصر الثانى فى الحرب النفسية هو زعامة

ونوجز عناصر الحرب النفسية الثلاثة فيما يلي :

١ - ظروف مواتية تخلقها تجمعات بشرية معينة (دول) لتجمع بشري بذاته (دولة) ، بحيث تخلق هذه الظروف معنى خاصا لظروف داخلية خلقتها تاريخ هذه الدولة . فيحدث فيها انقلاب نفسى شامل فى شكل ظهور اية جديدة .

٢ - استغلال مناسب للموقف التاريخى الناتج عن تفاعل الظروف الداخلية والخارجية بحيث يمكن احداث هذا الانقلاب النفسى العميق (لاكثر فئات الشعب أهمية) لمصلحة التقدم والتطور بدلا من الاتجاه النكوصى والردة الى اية قديمة .

٣ - قيادة سياسية واضحة المعالم تخطط للمستقبل وتعى الحاضر وتقيم الماضى وتكون قادرة على التطور الملائم للظروف المستجدة بحيث يسهل على الشعب التوحد بها وتمثل قدراتها فى ايتها

فبدون العنصر الاول لا يحدث الانقلاب النفسى ولا تنجح الحرب النفسية . ومثالنا على ذلك نجاح شى جيفارا فى كوبا وفى الصعيد الطلابى وعدم نجاحه فى أمريكا اللاتينية . ولا يمكن للحرب النفسية أن تنتهى الى انتصار بدون العنصر الثانى - ونأخذ الثورة العراقية نموذجاً لذلك . ولا يمكن للحرب النفسية أن تبلغ من آثارها قدرا من الثبات والاستمرار بدون العنصر الثالث . ومثالنا على ذلك سرعة انهيار الزعامة البرجوازية المتمثلة فى الوفد بعد موت سعد زغلول ببضع سنوات .

بمعنى آخر ، ان لم تتحقق العناصر الثلاثة معا فان الحرب النفسية تنتهى الى هزيمة وسوف تنهار دعائمها : سوف ينهار الموقف التاريخى بدون زعامة ، وسوف تنهار الزعامة بدون موقف تاريخى

ويمكن أن ننظر الى الحرب النفسية - فى ضوء هذه العناصر الثلاثة - نظرتنا الى أى حرب بالمعنى التقليدى ، أى يمكننا أن نجد حروبا نفسية هجومية وأخرى دفاعية . ولكن ذلك يحتاج الى تعرض مسهب لتفاصيل هذه العناصر الثلاثة فى ضوء معرفة أعمق وأشمل بسلوكولوجية الجماهير .

شعبية صلبة يمكن للشعب التوحد بها فى أحلك ظروفها وظروفا . بعد شراع أن يعيده فى مصر نعيمس على الانتصارات ، وفى ٩ ، ١٠ يونيو اثبتت انها تستطيع ان تعيش لذلك فى صروف نهريه القاصيه . فالتوحد بالزعامة امر يصح لعواين نفسيه عميقه - كلها - وهو مضمونها - كانت - ارتباط مصر الشعب بمصير الزعامة . لهذا تعد أكثر الزعامات ضمانة للسلامة النفسية لشعب ما تلك التي تقوم على المذهبية لا الشخصية حيث يمثل للمذهب ان يبقى - لمسد أطول من الافراد - نواة للانية القومية . أما أسلوب هذا العنصر الهام فى الحرب النفسية فهو الحركة المتمشية مع العدو لاأرة اخر له العنسية لدى الشعب . فهدف الاستعمار كان تنجى عبد الناصر ، متمشياً مع الرغبة الخفية للعدو ، فأتار بذلك الحركة العنسية لدى الشعب ، أى رفض التنجى رغم التمثيل الشعورى للمسانة .

اما العنصر الثالث فى الحرب النفسية فيأتينا ايضاحه من ممارته سريعه للموقفين ، لسامعين . ان نجاح ذات القيادة فى شن حرب دفاعية عن لانيه النفسية بأسلوبين متنافسين اما يدل على قدرة على فهم وتقدير الظروف بمرور ضرورية . فمن البادر فى التاريخ ان نجد زعامة واحدة تستطيع ان تنجح مرتين فى عملية حماية الانية القومية . ونذرة هذا الامر تعود الى أن زعامة انما تقوم على فهم محدد للأمور ومكانتها لدى الشعب لذلك يصعب عليها تغيير أسلوبها . ونحن القيادة فى مصر أمكننا ان نتطور ذاتيا بحيث كانت فى ١٩٦٧ - ورغم كل الصعاب - زعامة متجسدة مختلفة تماما عن زعامة ١٩٥٦ . فلا شك ان انتصارا نفسيا يأتي شعبا من الشعوب لا يكون وليد مجرد حدى ربيع أو ضربة حظ ، بل هو دائما تفاعل مناسب بين ظروف داخلية وأخرى خارجية يخلق مجالاً مناسباً للحفاظ على نواة الانية القومية واستغلال القيادة للظروف ، أو سهولة التوحد بالقيادة لا يكفيا وحدهما للانتصار فى الحرب النفسية . ان عنصر تفاعل التوحد بالقيادة واستغلال القيادة للظروف هو ضمان الانتصار النفسى . ويمكن أن نعتبر عن عنصر التفاعل - ثالث عناصر الحرب النفسية - بقولنا أنه قدرة القيادة على ملامة نفسها للظروف وتطوير عقليتها لمواجهة كل جديد قليس فى الممكن لأية قيادة أو زعامة مهما بلغت مهارتها أن تجعل الظروف تلائمها ، بل لا بد وأن تتلامح مع الظروف .

كتابات مارتن هيدجر السياسية

الكتاب: ما قبل الفلسفة
معرض: سكرير عرضت

مارتن هيدجر هو أكبر فيلسوف ألماني معاصر ومن
أعظم فلاسفة القرن العشرين . ولد عام ١٨٨٩ ودرس
الفلسفة بجامعة فريبورج بالمانيا وتلمذ على الفيلسوف
هوسرل صاحب فلسفة الظواهر وحصل على الدكتوراه
برسالة عنونها «المذهب القولات ودلالاتها عند ديتيس سكوت»
اشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة فريبورج حتى عام ١٩٤٩ .
وانتخب مديراً لنفس الجامعة في مايو ١٩٣٣ وأعلن تأييده
الناتم للحركة الوطنية الاشتراكية وتقديره الكامل لهتلر
على نحو ما جاء في خطبه ومقالاته السياسية العديدة .



٢ . هيدجر

أهم مؤلفاته : الوجود والزمان ، كنت ومشكلة امكانيات أخرى كان في الوسع ان تتحقق ، لكنها انزومت من الوجود بتحقيق امكانية أخرى . هذا السلب هو العدم وبدونه لن يتم التحقيق ، لان التحقيق يقتضى اختصار امكانية دون أخرى .

العدم إذن في فلسفة هيدجر يدخل في تكوين الوجود وهو شرط لتحقيقه . ويقول هيدجر عنه : إن هذا العدم الذي يختلف من كل الأشياء العينية لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الوجود نفسه . ومعنى هذا أن الوجود والعدم مترابطان استناداً إلى الشعور بالقلق الذي يؤدي إلى العدم . لهذا لا يمس الإنسان نفسه كموجود إلا بخوف تجارب معينة كتجربة القلق التي تضمنها أمام العدم .. والعدم أجباني لأنه علة هذا العالم الذي يتفجر منه .

وتحتل مكانة الموت مكانة رئيسية في فلسفة هيدجر. فوجود الإنسان وجود متناه لان الموت يفسح حدا له .

أهم مؤلفاته : الوجود والزمان ، كنت ومشكلة امكانيات أخرى كان في الوسع ان تتحقق ، لكنها انزومت من الوجود بتحقيق امكانية أخرى . هذا السلب هو العدم وبدونه لن يتم التحقيق ، لان التحقيق يقتضى اختصار امكانية دون أخرى .

عرف هيدجر كأعظم مفكرى الوجودية المعاصرة وأعمقهم تفكراً ، فلسفته انطولوجية بمعنى أنها تدرس مقومات الوجود الانساني لا مجرد صفات الوجود الفردي . وهو أول من اثار مسألة العدم من الناحية الوجودية . والعدم عنده يتكشف من خلال حالة القلق . فالقلق يؤدي إلى العدم ومن العدم يتفجر كل شيء في الوجود . كيف يحدث ذلك ؟

لما خلق اسجل يباغتني في لحظات نشعر فيها وكأن الوجود قد فنى ، والسبب في هذا الاحساس أن الامكانيات لا تتحقق دفعة واحدة ، لأن تحقق امكانية معناه سلب

ويعصف هيدجر الوجود الانساني بأنه وجود نحو الموت . والوجود كله هو وجود الى الفتاة . هذا التناهي والأجل الحدود هو الذي يقضي على الملقى وجهه الفجاع . لكن الموت يصر الانسان من كل الزوايا المهم ، لهذا بالصور بالوت يتطوى على شعور بالحرية والتحرر من كل شيء .

كتابات هيدجر السياسية

ويعد كتاب «كتابات هيدجر السياسية» الذي تقدمه في هذا المرض أوفى وأحدث دراسة من افكار هيدجر السياسية ، وهو من تأليف باحث فرنسي شاب يدعى جان - ميشيل بالييه ، وله دراسة منشورة عن هيجل «رسالة عن صياغة مذهبية هيجل» وغيرها من هيربرت ماركيز وولكان . ويتناول بالييه في كتابه الأفكار السياسية للفيلسوف هيدجر كما جاءت في خطبه ومقالاته ومحاضراته عام 1933 وما بعده ، واتي تحدث فيها عن الحسرة الاشتراكية الوطنية والفوهرر ومفهوم العمل والتكتيك العالمي وكتاب العمل الذي كان قد الله أرنتس يونجرس الكتاب الثاني صديق هيدجر .

يقدر المؤلف في البداية أن هذه الدراسة لكتابات هيدجر السياسية ليست اتهاماً موجهاً لهيدجر ، ولا هي بالرملة التي تدفع منه تهمة النازية ، لهذا فالسؤال القائل : هل كان هيدجر نازياً ؟ لن يلق جواباً في هذه الدراسة ، ولي يكون له أي مدلول . لقد ارتكب هيدجر خطأ تاريخياً فادحا شاركه فيه الكثير بتأييده المطلق لزعة هتلر وأيمانه الكامل بدوره العظيم ، بل انه آمن ذلك مرارا في محاضراته وخطبه السياسية ظنا منه بأن الاشتراكية الوطنية - تستطيع أن تتخذ ألمانيا من محتها وأن تقضي على البطالة والفقر ، ومن لم كان يرى في هتلر أملا لحياة أفضل وارغد .

في ابريل 1933 انتخب هيدجر مديرا لجامعة فريبورج بالأجماع تقريبا (باستثناء صوت واحد) تقديرا لمكانته الفكرية كأكبر فيلسوف في ألمانيا . وكان حتى ذلك الوقت بعيدا من مجالات السياسة ، إذ لم يكن يمارس أي نشاط سياسي ، ولا كان عاطفا على أي حركة سياسية أو حزبية . بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، كما كان مستقلا عن دوائر القوميين الذين احتلوا بارتست يونجر وأرلست نيكيش في شمال ألمانيا . وبعد انتخابه انضم الى الحزب الوطني الاشتراكي بناء على طلب وزير التعليم الذي لفت نظر هيدجر الى ماسوف يتعرض له من حرج كمشول في الدولة إذا لم ينضم للحزب .

ولكن ثمة هنا معنى رئاسة هيدجر للجامعة لايد أن يؤخذ في الاعتبار الموقف الدرامي للجامعة الألمانية - بجيء النازي الى الحكم كانت الجامعات تدخل مرحلة يائسة ، وكانت رئاسة هيدجر قصة محاولة وسقوط تام للتدخل على أزمة كانت تحدث آنذاك . فهو قد ظل أنه قادر على اصلاح الجامعة داخل هذا الموقف السياسي والتحرك على الانظمة

الجامعة . وفي مايو 1933 لقي هيدجر خطابا من استقلال الجامعة حيث تظالم بوضوح بمرير نظريا لانضمامه للحزب النازي . وقد في الأشهر العشرة التالية التي أمضاها في منصبه ، ترددت في خطبه عبارات تؤكد تأييده الإيجابي لهتلر ، بل انه منح تأييده المطلق للحركة القومية وسمح باستغلال اسمه في أغراض دعاية .

وقد اهتم هيدجر في خطاب المادة بتحديد ماهية الجامعة الألمانية ، والدور الذي يحددها لها التاريخ في هذه المرحلة من تاريخ الشعب الألماني : « ماذا يعني استقلال الجامعة ؟ ان تأكيد شخصية الجامعة هو اداة جوهرها الاصيل . ومع ذلك لا يعني هذا الاستقلال عدم الانفاق بحال مع الأمة وعصرها ، فالجامعة تصرف جلورها في قلب الشعب والجامعة التي تتألف منها ، والجامعة الألمانية بالنسبة لنا هي الدراسة العليا التي تصد موجبين وفادة لحسب الشعب الألماني » . لم طالب هيدجر تأييده بأن يكفوا عن هذه الحياة السهلة وهذه الحرية السطحية المزيفة لكي يحققوا المثل الاسامي لجامعة ورسالتها الصريحة .

وعلق المؤلف على هذه الفقرة من خطاب المادة بقوله أن سوء الفهم والظن قد تعالفا ليعصد البعض قرارا بادانة هيدجر بإصداره أي مظهر للحرية الجامعة لكي تحقق الجامعة أهداف الدولة ، وبعبارة أخرى : حين تصبح الجامعة جزءا من الدولة القسوية استنادا الى عبارة هيدجر « أن الحرية الجامعية التي طالما تقني بها الناس لم يعد لها مكان في الجامعة » . وبذلك لا يتنعم المدير الجديد للجامعة بتوكيد تماطفه مع النازية والذرة الألمانية ، بل يتيجت بسيطرة الحزب على الجامعة وبمصادرة حرياتها . لكن المؤلف يتصدى للدفاع عن هيدجر - وهو دفاع يتردد على صفحات الكتاب بقوله : أن الحرية التي كان هيدجر يندد بها ليست حرية التنظيم أو التعبير وإنما هي الحرية المرادفة للاهمال واللامبالاة !

ثمة مظهر آخر من مظاهر انخراط هيدجر في صف الحركة الاشتراكية الوطنية ، هو تلك الندوات التي وجهها الى الجامعة اسئلة وظلا بوس 3 و 10 نوفمبر 1933 ، وهي بلا شك شهادة مؤسفة على توطئه الكامل وتأييد للنظام النازي . إذ أعلن هيدجر في خطابه : « اني 12 نوفمبر يعهد للشعب الألماني بأسره مستقبله . والشعب لا يمكن أن يختار هذا المستقبل ويعصت بتم استنادا الى اعتبارات مزعومة دون أن يتصن موافقته على الفوهرر والثورة التي يقودها - ليست هناك سسياسة خارجية وسياسة داخلية ، بل ارادة واحدة هي أن يعين الشعب وجوده للدولة . هذه الإرادة التي يخطها وأمسك بزمامها الفوهرر في الشعب كله وهو في كامل يقنقه . ليس طموح الفوهرر هو الذي دفعه الخروج من عصبة الأمم ولعشق الجدد ولا الضاد الأعمى ولا الرغبة في العنف بل فقط الإرادة

**الواضحة في أن يكون مسئولا مسؤولية بلا حدود لينجمل
مصر شعبنا ويحكمه .** »

ومن هذه المبررات وغيرها يظهر بجلال اندفاع هيدجر
الاعمى لخاصة النازية ، الذي جعله يتوهم أن هتلر هو
حقا الزعيم المتطلع الى اجراء اصلاحات اجتماعية وخلق
نفذة شاملة ، لكن المؤلف يلمنس لهيدجر الامداد ويصف
حماسه للنازية بأنه سقطة غير قابلة صادرة من نية حسنة ،
وانها اوتكبت دون وعى أو علم بمقاصد الحركة الاشتراكية
وجاء في تبرير باليهيه (ص ٨٢) : خدع هيدجر في دلالة
الثورة الالمانية كما صورها الاشتراكيون الوطنيون ، كل
شيء كان يعضى كما لو كان هيدجر لا يبصر الاهداف الحقيقية
للوطنيين ، والنوايا الطيبة التى نمتهم بها تشهد بسوء
تقديره .

كان لابد من مرور عام حتى يكشف هيدجر ماهية
الفكر النازى ويدرك مظاهر الجنون الاجرامى الذى اندفعت
اليه سياسة الالماني . ففى الوقت الذى لقي فيه هيدجر
خطاب المائدة كان يظن ان الهوة التى احدثتها الاشتراكية
الوطنية سوف تفتح عصرا جديدا لالمانيا وتقيهما من
خطاهما ، لكن سرعان ما استقال من منصبه في ابريل ١٩٢٤
عندما طلب اليه عزل الاستاذين فولف وميليدوف نظرا
لعدم تماطعهما مع النازى . ويقول المؤلف ان هيدجر منذ
ذلك التاريخ تعرض لهجوم مفكرى الحزب النازى الذين
اثاروا الشبهات حول ولاءه للنظام الرسمى وعابوا عليه
نزعه الاسترطاقي .

غير ان انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية - فضلا
عن انه نتيجة منطقية لفكر هيدجر الفلسفى - كانت له
اسو الاثار ، اذ أنه سمح اثناء ميادته لجامعة فريبورج
باستغلال اسمه لاهداف دعائية - بتأييده الايجابى للحزب
بالخطب والمقالات - مما دنا اساتذة وطلابا كثيرين ممن كانوا
يؤمنون بزماعته الفكرية للانخراط في مجلة الحركة
الاشتراكية الوطنية ، وبذلك اصبحت مسؤوليته التاريخية
جسيمة حتى لو ادركنا ماقد **يجعل هذا الانضمام ممكنا** .
لكن المؤلف يحاول أن يقلل من شأن انضمام هيدجر
للحزب بحجة انه مآكان ليقدم على هذه الخطوة بدافع
من ولاءه واقتناعه الشديد ، بل من المحتمل انه مآكان
سينضم الى الحزب مالم يكن مديرا لجامعة فريبورج .
كل انسان كما قال هيجل ابن لزمته ، وهيدجر وان
كان مفكرا عظيما الا أنه معرض كأي مفكر آخر لهذا الخطر .
فهو قد اخطأ كما اخطأ المجوز **الفاطرون** وكما اخطأ **هيجل**
الذى وحد بين الروح المطلقة والباليون . وخطأ هيدجر انه
كان ينتظر **انطلاق العيافة** ممن كان **يجعل في ذاته نسمعة**
الموت ، ومن خلال خطبته هذا شهد بارتباطه الوثيق بمصر
الامة الالمانية ، لهذا تقبل اصدار حكم على هيدجر يتنبهان
يوضع في السياق التاريخى لاصحاله السياسية .

الفيلسوف في سياقه التاريخى

عندما تنحى هيدجر عن معادة الجامعة وضع تحت

مراقبة محكمة ، في محاضراته عن اللوجوس هاجم بيولوجية
الفكر النازى **دولتسچ** والنظريات العنصرية . ومحاضراته
عن نيتشه تضمنت نقدا حادا للفلسفة النازية ومنهجها
الرسمى **الفريد باوملر** . ولم يكن في مقدور هيدجر
التصدى لموضوعات الايديولوجية النازية مباشرة ، بل كان
يكفيح ان يعرض فكره الخاص لكى يبرز تناقضه مع
النازية . وتعرض هيدجر لهجوم مفكرى الحزب ، منهم
اوتسمت كريك مدير جامعة هيدلبرج الذى اصعد كركسا
بالوت على الفلسفة الغربية والميتافيزيقيا لانها لم تعد
بذات جدوى بعد ظهور النازية . وكريك هو مؤسس
مذهب التربية الاشتراكية الوطنية ومؤلف **«انثروبولوجيا**
شعبية » ، وكتايبه ذات صبغة جرمانية متطرقة وبتلغنى
هجومه على هيدجر في الآتى :

هيدجر وريث اليهود وهوسيل واصدء الشعب
الالمانى ، ان مضمونه الفكرى غامض . فمن يجرؤ على القول
بان هذه العبارة **«ان العدم هو الذى يعدم»** عبارة الالمانية ؟
ان **«الوجود والزمان»** كتاب لا ينسب الى الميتولوجيا
الالمانية . وهيدجر استلهم مصادر افريقية ويهودية ، وهو
غريب عن الاشتراكية الوطنية ، ولا يستطيع بحال أن يعتبر
نفسه فيلسوفا الالمانى ، انه تلميذ اوسطو وتوما الاكويني
وبالتالى **كيركجور**د واليهودى **هوسيل** وهم لافسفة لاشان
لهم بالجرمانية .

ان مضمون هذه الفلسفة الحساد مريب وعدمية
ميتافيزيقية ، وهى خيرة للانحلال والدمار موجبة للشعب
الالمانى . في كتاب **«الوجود والزمان»** بحث عن الوجود
اليومى لكننا لانجد شيئا من الجنس وجميع قيم مصورنا
لعالم الاشتراكية الوطنية .

يبلغ عدد نصوص هيدجر السياسية الهامة في حوالى
الثلاثين ، وهى تشهد بلا شك بخطأ تراجيدى عندما كان
ينتظر اصلاحا جذريا لالمانيا على يد الثورة الاشتراكية
القومية ، ويتضمن بعض اشارات جوهرية ماهية العلم والعمل
والتكنيك السالى ، وهى لم تترجم جميعا الى الفرنسية
والانجليزية . اما تولى لحظة أساسية في اتجاهه الفكرى
ولا يعنى المؤلف باليهيه بتقديم تفسير كامل لهذه النصوص بل
يشير فقط الى الافاق التى تنكشف فيها معناها ، وهو تحقيق
الميتافيزيقا في ماهية التكنيك الكوكبى . وبعض النصوص
معروف خارج الالمانيا وكثيرا مايرد ذكرها كشاهد على ماضى
هيدجر النازى .

يلتقى هيدجر مع الايديولوجية النازية في مفاهيمها
الاساسية التى نراه يتبناها في خطبه ونصوصه . في مايو
١٩٣٣ نشر هيدجر بجملة الجامعة مقالا عن مرقى العمل والجامعة
وتحدث في الموضوعات التى تناولها عن النداءات القادمة :
« كن قتل للخدمة والجامعة مصادر وحيدة للتربية » فتحة قوية
جديدة تشق طريقها ، هى شربة العمل التى تأخذ مكانتها
الى جانب الجامعة والتميز وبيوت الشباب . ويتشيد هيدجر
في هذا النص بالعلم .. لا يوجد سوى قطاع واحد من الحياة

الآلانية هو العمل المتأصل في أعماق شعبنا ويضطلع لأرادة الدولة ، ان طابع العمل مرسوم في حركة الحزب الاشتراكي الوطني للعمال » .

ويشير هذا النص بوضوح الى التزام هيدجر بالضرورة الاشتراكية الوطنية وتأييده لها .

ذلك لأن تمجيد العمل اليدوي كان موضوع دعاية نازية يتردد دائما في خطاب هتلر نظرا لما كان يتطوى عليه من دلالات هي :

● إنقاذ ألمانيا من ضائقتها الاقتصادية بتوجيه نداء لجميع العمال دون تفرقة .

● إلغاء التناقضات والمنازعات الاجتماعية بالمضي خلق مجتمع مصطنع عن طريق استطورة العمل الشامل والإخلاص المطلق للمجتمع الشعبى .

● مكافحة الشيوعية ونظرية صراع الطبقات .

الى اى مدى انساق هيدجر في تيسار التزييف الايديولوجي ؟ لنقرأ مثلا فقرة مما جاء في خطابه الذى لقيه في ٢٠ أكتوبر ١٩٣٣ :

« ان المعرفة واخوصل عليها بالعمى التى تفهمه الاشتراكية الوطنية لا تلتمس الافراد والوطن والولايات الى طبقات بل على العكس توجد وتقسّم الجميع في الإرادة الواحدة العظمى للدولة . وهكذا فان كلمات المعرفة والعلم والعالم والعمل قد أصبح لها معنى آخر وصوت جديد . كلمة العامل مثلا تبست كما تريدھا الماركسية الموضوعة الوحيد للاستقلال ، ان دولة العامل ليست طبقة المهنيين الذين يشغلون صراع الطبقات » .

الا ان هيدجر يتخذ من ماركس موقفا منايرا تماما لما جاء في كتاباته قبل ثلاثين عاما ، فقد نشرت له دراسة عام ١٩٦٣ بعنوان « رسالة كتبت عن الوجود » حيث تحدث عن « الايديولوجية الآلانية » و « وسائل عن فويرباخ » لكن الشيء الذى لم يتغير هو يقينه بأنه لا يستطيع أن ينصور الى تفرّد للعالم خارج الميتافيزيقا التى تعد أساسا له .

المضامين السياسية لفلسفة هيدجر

هل تتطوى فلسفة هيدجر على مضامين سياسية ؟ هذه المضامين هل هي اشتراكية وطنية ؟ وهل هي تكفى لتفسير تأييده للنازية والتعاقد مع أرنست يونجر الاديب الآلانى الذى كان متحمسا لاستيلاء الاشتراكيين الوطنيين على الحكم ؟

حول هذه الأسئلة ظهرت ثلاثة دراسات كتبها كارل ليفيت تلميذ هيدجر والكسندر شفان وبول هرفيلد .

حاول ليفيت أن يستخلص في دراسته عن هيدجر المحثوى السياسى لفكر هيدجر في الوجود كما جاء في كتابه الرئوس « الوجود والزمان » . لقد أطلق ليفيت على أستاذه هيدجر العدى ، والنصوص الاساسية التى ناقشها ليفيت هي : تبادلات هيدجر لعام ١٩٣٣ ، والوثائق التى أوردھا ليفيت ليزعزع الثقة في صورة هيدجر عبارة عن وسائل شخصية كان قد تلقاها من هيدجر .

وفي مقال له عن مضمون فكرة الوجود عند هيدجر يفسر ليفيت فلسفته كلها ابتداء من عبارة ماثورة للشاعر الآلانى دينيه ماوريا ولكنه « ويمتدق أنها تشرع بايجاز عممية هيدجر : بقوة الانتفاذ في التقدم والانسانية نسي العالم البرجوازي اللطائف الأخيرة للحياة البشرية وهو يعلم بأن الموت واقع قد تتجاوزھ الى الأبد » .

وأشار ليفيت الى أن « الوجود والزمان » يجد مسددا في التفسيرية الآلانية ، ويرسم لهيدجر في مقالھ صورة متشائمة في مقابل عممية النازي وخطرها التراجيدي المتصاعد . كما يرى ليفيت أن انضمام هيدجر للحزب الاشتراكي الوطنى يبدو نتيجة حتمية لمنطق لا بديل له هو : كيف لا يتبهر هيدجر العلمى بعممية النازي ؟ ان مفتاح تفسير التناقض مع النازي يكمن في التفسير الذى قدمه للوجود في كتاب « الوجود والزمان » ، وهو أن الدور المهيمن لهم والخلق وتعریف الانسان كموجود نحو الموت تبدو كعناصر صادقت استجابة سريعة في الأسطورة الهتلرية .

ويقودنا ليفيت عبر الطريق الموصل من لوفر الى هتلر مارا بهيدجر الذى سار في نفس الاتجاه الذى انتهى بهتلر . والا فمن أين جاء هذا التصور الهيدجري للوجود ان لم يكن تفكيره متشوبا باللاهوت . بالإضافة الى ان لوفر وكلفن مذكوران صراحة في كتاب « الوجود والزمان » .

ان ليفيت يلمح مثل انجلز في أشكال الدولة ، فالألمانيا ظهر فيها الفلاسفة الذين تستحقهم واستحققت في مصيرھا المأساوى هيدجر الذى يعتبر أعظم مفكرى عصر الضيق والانحلال . في نصيدة « مخبز ولبيد » يتسامل هيدلرلن : لماذا يظهر شعراء في زمن الضيق ؟ ويتسامل ليفيت . لماذا يظهر فلاسفة في زمن الضيق ؟ ألا يمثل هيدجر - مثل وينشادو فاجنر - القيم العليا للانحلال ؟

ويواصل ليفيت نقده قائلا : باسم جو الفلق والتشائم والياس الذى يهيم على كتابات هيدجر كان يعتبر شخصية مرموقة في الاشتراكية الوطنية وأحد الذى مهدوا لها حماسا . أما الكسندر شفان فقد أجاب في رسالته « الفلسفة السياسية في فكر هيدجر » عما يتطلبه كل تفسير حقيقى لكتابات هيدجر عام ١٩٣٣ . ويستفسر شفان عن المعنى الدقيق لعبارة « فلسفة سياسية » وهل تنهض على أساس واضح ؟ ويبرر شفان مشروعه ابتداء من أساتيد عديدة هي :

● هناك اشارات متفرقة في نصوص هيدجر الى أحداث ومؤسوعات أساسية في التاريخ : حكم التكديك العالمى ، النصر الدقى ، التامرك ، أوروبا بين فكي كشكة ، الدولة الشمولية ، الاشتراكية الوطنية .

● طائفة من محاضرات هيدجر التى حاول فيها تحديد ماعية السياسة .

● تأييد هيدجر للاشتراكية الوطنية وخطبه ومقالاته التى لا تدع سبيلا للشك في ولاءه التام للفهررو وتماطفه معه .

كما أشار شفان الى أن هيدجر اتخذ موقفا من التاريخ

داعية للنأية فهل ثمة حاجة بنا للعناية بكتابه ؟ كلا ، فأونك الذين ينتقلون الى يونجر كأحد الايديولوجيين المنازعين انها يغفلون معنى كتاباته .

في عام ١٩٣٦ نشر يونجر الجزء الأول من كتاب «العامل» بعنوان «التجسّس الشاملة» الذي حاول فيه ان يبرز حقيقة جديدة هي بزوغ فجر السيطرة العالمية للتكنيك . هـذا الرسالة تؤكد السيطرة المتزايدة للتكنيك على العالم . وفي هذه السيطرة تحقق ارادة القوة غاية انجازاتها . من أجل هذا يقول هيدجر في مقاله « عن مسألة الوجود » ان يونجر يفكر في الوجود ككل في ضوء وظلال ميتافيزيقيا ارادة القوة . كتاب العامل هذا اعتبره البعض خلاصة ايديولوجية للبolshevisme ، بينما اعتبره جودج لوكاتش دفاعا عن النأية وتمهيدا لها . وقد أبدى هيدجر اهتماما بالغا بهذا الكتاب حتى ان روايات غير مؤكدة تجزم بأنه جعل قراءة « العامل » شرطاً لحضور ندواته .

ما المعنى الذي استخلصه هيدجر من كتاب «العامل» ؟

حاول يونجر كشاهد على التحلل العالم وهراته الأنوية ان يفكر في أساسه ، وأدرك ماهية مصر حكمه غير شرطية للتكنيك . وهيدجر في حوار مع يونجر يريد أن يبين أن حكم التكنيك العالمي ليس الا غاشمة الميتافيزيقيا اليونانية هيدجر هو المسر الأول لكتاب « العامل » . ومن ثم يجب ان يفهم مغزى كتابات يونجر في إطار المشكلة الهيدجرية . هذه الكتابات حيدة عن تأمل للعدم وعلى الاخص الصورة التي تنفذها العلمية في سيطرة التكنيك . ومن العيب أن يجد المرء مؤلفا يعرض متناقضات العالم الحديث والقوى العنيفة مثلما جاء به كتاب « العامل » .

لكن من المؤكد أن المرء لن يشر عنه يونجر على العن الميتافيزيقى الذي تتصف به معالجة هيدجر لمشكلاته . ان تحليلات يونجر - وهو أديب في المقام الأول - هي توكيدات برافة لتحليلات هيدجرية . الا انها لا تتجاوز نطاق الملاحظة الدقيقة الحادة الواضحة لانسان ليست لديه أشياء غريبة . والكتاب حافل بتأملات للأحداث العالمية . وإذا اعتبرنا العلم الحديث علم التكنيك فقد انتخب يونجر من التكنيك موضوعاً رئيسياً لتأمله .

وترجع أهمية هذا اللقاء وهذا الحوار بين هيدجر ويونجر بشأن كتاب « العامل » الى اعتبارات عدة هي :

● ان أي تساؤل عن ماهية التكنيك العالمي موضوع يتكرر دائماً في كتابات هيدجر الأخيرة ولا يفصل بعال عن تأمل هيدجر لكتاب « العامل » .

● ان وصف اكتمال الميتافيزيقيا الغربية ونهقتها في ماهية التكنيك مأخوذ عن كتاب يونجر « و «العامل» . ففلسلا عن ذلك المذكور في نص هيدجر مقبالات ومضامير التي تناول فيه موضوع تجاوز الميتافيزيقيا .

● يونجر هو الذي قدم وصفا هاماً للعدمية الابغائية في انجازاتها الأخيرة ولجبر التكنيك الكوكبي .

المانى ، لكن هل يكفى هذا كله للحصول على لفظة سيامة عنه هيدجر ؟ يجب شأن بأن هيدجر في نخبه وكتابات السياسية قد حدد لفظة سياسية للموقف الروح لهذا العصر . وحتى لو ظلت تلك الاشارات أحاديث بسيطة غير ناضجة ومبعثرة في سباق مباحث أخرى ، ينبغي ان تؤخذ مأخذ الجد وان تكون حاسمة في الحكم الذي يمكن للمؤرخ ان يصدره على فلسفته كلها .

لكن الى أي مدى تنطبق هذه الآراء على ماهية لفظة هيدجر ومشكلاته الأنطولوجية ؟ حاول شأن أن يبرهن على أن النشاط السياسي لهيدجر هو أسلوب للكشف عن الحقيقة . وتحديد ماهية السياسة عنده هو أن توضع الحقيقة موضع العمل . ويجب أن يحدد مجال السياسة كتميز أيضا عن ماهية الحقيقة . فالسياسة هي جوهرها هي الحقيقة في موضع العمل . والسؤال المطروح دائما يتعلق بالتركيب السياسي بمعناه الأصل حتى يأتي التحديد مطابقا لمصر للكشف عن الحقيقة . ومن خلال التساؤل عن ماهية الحقيقة يناقش شأن مسألة انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية الاشتراكية . ولعل جولة شأن يبراهل عدة :

● النشاط السياسي لهيدجر ينبغي ان يعرض ابتداء من ماهية الحقيقة حيث تظهر السياسة في ماهيتها : ماهية الحقيقة في الممارسة .

● يروج تعديد ماهية السياسية الى المعاصرات التي ألفها هيدجر عام ١٩٣٦ حول ماهية العمل الفني ودروس مدخل الميتافيزيقيا .

● دراسة الحقيقة في الممارسة التي تعرف بوصفها كشف عن ماهيتها يؤدي الى التوسع لفظة سياسية تتفق مع الممارسة .

● الفلسفة السياسية التي تتفق مع التطبيق لا تفصل بعال عن الحركة الشمولية (الديكتاتورية) التي اتفد منها هيدجر موقف التأييد التام .

● اعتناق هذا المبدأ يفسر انضمام هيدجر الى الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتأكيد لفظة دولة الفوهرر كما اشارت اليها نخبه ونصومه للشهوة إنشاء عمادته لجماله .

ويغد المؤلف في كتابه فصلا عن كتاب « الصاعك » لأرنست يونجر الكاتب الألماني صديق هيدجر المقيم ، وهما اللذان التقيا أكرامهما ونظراتهما بشأن صورة الصاعك والتكنيك الصاعك ، ما دعا هيدجر الى أن يخصص بعض نصومه السياسي لتطبيق على كتاب « العامل » . لهذا يمد هيدجر الذي انبهر بعضهم هذا الكتاب أكبر مفسر ليونجر . وليس « العامل » سوى امتداد وتوابع للسان التي طرحها هيدجر عن التكنيك الكوكبي للانسان الغريب الذي يمثل ويصمم .

ينسب يونجر الى فريق السياسة والمفكرين الذين لعبوا دورا غير محدد في اطلاق حركة الاشتراكية الوطنية . لكن المؤلف ينكر خطورة هذا الدور ويقول : اذا كان يونجر يصعد

● يمثل يونجر حلقة أساسية في سلسلة تفهم هيدجر ونيتشة .

● بالإشارة إلى إشكالية « العامل » ليونجر يتضح لنا المعنى التاريخي الذي أقره هيدجر للحركة الاشتراكية الوطنية العمالية الألمانية كلقاء بين التفكير العالي المنظم والانسان الحديث .

ويتفق يونجر وهيدجر على ارتباط ماهية التفكير العالي بالانسان الحديث . وكتاب « العامل » لا يفهم دون العودة دائما إلى السياق التاريخي الذي دون فيه . كان نيتشة يؤكد أن الفجرة كلما ارتفعت أعصابها في السماء امتدت جذورها في الأرض . هذه العبارة يمكن أن تعد مدخلا لتفسير كتاب يونجر إذا فهمت بمعناها الصحيح .

ويعود بالملييه مؤلف « كتابات هيدجر السياسية » أن يبره كتاب « العامل » من أي تورط في الأيديولوجية النازية وهو التفسير الذي طمأ ردهه المفكرون الماركسيون أدورنو ولوكاشي وليكيش ، الذين يعتبرون الدوائر القومية التي ظهرت في شمال ألمانيا مهد النازية وللسفها ولا سيما أن يونجر كان أحد دعاةها . ثم يقول بالملييه أن مثل هذا الفهم الخاطئ لكتاب يونجر لا يدع مجالاً لتكوين فكرة صحيحة عنه ، بل أن بعض موضوعاته تناولها النازيون وحرفوها ، وهو رأى لم يتأكد صدقه . وهيدجر في مقال له يرى أن « العامل » يجب أن يفهم ابتداء من الماهية الهيكلية للعمل ومن تحديد كينونة الموجود بوصفها إرادة القوة التي تجد عنده نيتشة أساسها الأخير في صورة مفهوم القيم .

لكن ما الذي تكلفه صيغة العامل عند يونجر ؟ ماذا يعني لبر التفكير الكوكبي ومجيئه ؟ أن صورة العمل كصير انساني لم تكن واضحة . كل يختبر العمل للثاء في مقدمة العامل يذكر يونجر بعض الإضافات التي يحدد بها صيغة العامل :

« ترمي خطة الكتاب إلى إيضاح صيغة العامل باعتبارها قوة فعالة تترك آثارا عميقة في التاريخ ، وهي تحدد صورة عالم متفتح . ولا يقصد بها نظام أو فكر جديد بل حقيقة جديدة ظاهرة للوجود » ويرفض يونجر فيما لذلك تناول هذا الكتاب كبرنامج سياسي أو أيديولوجي بسيط . أن حقيقة العامل تصرف أذن كصيغة ، أنها قوة مؤثرة ينشئ الاعتراف بها ملو كافة التقسيمات التي جاءت بها الأحزاب والأحكام القبلية » هذه الصيغة لم تكتشف إلا منذ وقت قريب .

هذه الخلاصة البرية للمقدمة تستوقف الانتباه ، أن كتاب العامل يشير الشكوك : إذ كيف يمكن أن يتحدث يونجر عن العامل كصيغة ، كصورة ، ككل ؟ أليس ذلك نذيرا بمقدم الأسطورة الهلترية التي جعلت من العامل والصانع عمالا في خدمة أهداف دولة شمولية ؟ كيف يصح يونجر ومثله هيدجر أن يجرد العامل من موقفه التاريخي ؟ ألم يقرأ ماركس ؟ هل فات معرفة أن المجتمع منقسم إلى طبقات متصارعة ؟ أليس العامل هم الفئة الكادحة فوق الأرض؟

من هذه الوجهة معرض كتاب « العامل » لهجوم ونقد الماركسيين .

الانسان إرادة القوة

جورج لوكاشي في نقده لكتاب « العامل » يؤكد أن يونجر في تحديد علاقته العامل بالتاريخ إنما كان يشير بأفكار هتلر ودوريجر ، لكن بالملييه يتساءل : هل أدرك لوكاشي حقاً ما كان يعنيه يونجر ؟

إن صورة العامل عند يونجر باعتبارها أنها تشير إلى تعيين السيطرة المطلقة للانسان على الأرض إنما تنتمي إلى التحديدات الأساسية لإرادة القوة عند نيتشة . فصيغة العامل هي القوة الميتافيزيقية التي تنفخ تأويلنا على صورته ، لكن ماذا تعني كل من هذه الصيغة وحكمها ؟ يؤمن هيدجر بفسرة صيغة العامل على العالم ، وهي سيطرة تنتحق في النبتة الشاملة ، المرحلة الأخيرة ميتافيزيقيا القوة .

إن صيغة العامل هي القوة أو العظمة التي ينبغي أن تضمن معنى على العملية الفعالة . وفي عالم حزين يسميه العامل القوة الوحيدة التي تدرك الضيق الحقيقي للانسان . وللعامل عنده أيضا هو صورة انسان إرادة القوة .

ويونجر لم يكن يفكر في ماهية إرادة القوة بالمعنى الذي كان يفكر به نيتشة فيها عندما تحدث من علاقة الفن بإرادة القوة . ولكن تفسير هيدجر للكتاب نيتشة تنحصر في الظاهر كيف أن إرادة القوة بوصفها ماهية الحياة والوجود تخفي داخلها هذين المظهرين . كذلك إذا كنا نريد أن نفكر في ماهية إرادة القوة كتصديق تاريخي لوجود الكائن ينبغي أن ندرك كيف أن الانسان الأعلى عند نيتشة والعامل عند يونجر يتسابقان كلاماً إلى ماهية إرادة القوة وغايتها . وهذا ماير عنه هيدجر يقول: إن ماهية صيغة العامل تنتمي وتقررب جلورها في ماهية صورة زارادشت داخل ميتافيزيقا إرادة القوة . وعن طريق تحديد الوجود كتوة عاملة فإن نشاط الواقع الذي تحدث عنه هيدجر يعود إلى الظهور . وأخيراً إن علاقة ماهية العمل بالآل تنتمي إلى التحديد الهيكل للمل كعملية سلب للبناء .

معنى ذلك أن إرادة القوة باعتبارها نشاطاً لما هو كائن محدد لكيونة الموجود . ويؤكد هيدجر أنه في نهاية هذه العملية التي تشمل الكينونة ، بوصفها نشاطاً ينبغي أن يظهر بالضرورة في صورة العمل . كذلك تحدد الكينونة بالعمل عند يونجر في نهاية الأمر .

ثم يطرح المؤلف عدة أسئلة للمناقشة هي :

● قيم ينتمي تصديق ماهية العمل عند يونجر إلى ميتافيزيقا هيدل ؟

● ما دلالة تصديق ماهية العمل في إشكالية إرادة القوة ؟

● ماذا يعني اندماج كينونة الكائن بالعمل بالنسبة لماهية العصرية ؟

ويحتل التفكير العالي مكانة فريدة في كتابات هيدجر السياسية . والفيلسوف لا يتعامل مع التفكير كظاهرة بين ظواهر أخرى ، بل باعتبار أن الميتافيزيقا تتحقق في النهاية

وهي ، كذلك يسمى نيتشة الوجود الدخان الاحمر لحقيقة متبددة .

ماهية الميتافيزيقا تبليغ منتهى تحققها في ماهية التفكير ، والموضوع الرئيسى لكتاب العامل هو : « لقاء الانسان الحديث والتفكير الكوكبي » يستمد اساسه ومبرراته من كتابات نيتشة . ويونجر قد أعلن عن الموضوعات الرئيسية التى سيتناولها فيما بعد في رسالة التبعة الشاملة (١٩٣١) حيث تطالع اتجاهاته حول ماهية الحرب الحديثة وعلاقتها بالتفكير وهي التى تظهر من خلال العمل كاسلوب في الوجود . وفي « التبعة الشاملة » يتحدث يونجر عن تحقيق المرحلة الأخيرة لارادة القوة عند نيتشة وهي تدلر بالمثل بنهائية الميتافيزيقا الغربية .

على هذا الطريق يلتقى نيتشة وهيدجر ويونجر . انهم يشهدون بدرجات متفاوتة على قعود هذه المرحلة . ان صيغة العامل عند يونجر ، التى تسمى البشر عن طريق التفكير ، يجب أن تفهم باعتبارها شكلا تاريخيا للتحقيق الميتافيزيقي . انها الكلمة الأخيرة لارادة القوة . فليس «المعامل» سفيقا منزلة بل ينبغي أن تفهم باعتبار أنها تحدت وجود الانسان في نطاق ميتافيزيقا متحققة .

المعنى التاريخي للحركة الاشتراكية الوطنية .

ان لقاء الانسان الحديث والتفكير الكوكبي موضوع كتاب « المعامل » هو المعنى التاريخي الذى اقتره هيدجر للحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية . لكن نفهم هذا المعنى نأمل قليلا المبارة التى جاءت فر « مدخل الى الميتافيزيقا » : « في عام ١٩٢٨ ظهر الجزء الأول من بيبولوجيا عامة عن تصور القيمة ذكر ناعمرها أسماء ٦٦١ مؤلفا عن « القيمة » من المحتمل أن يبلغ الرقم الآن ١٠٠٠ . ذلك هو ما يطلق عليه لفظ فلسفة ، وعلى الانصر فان ما يطرح في الاسواق اليوم باعتباره فلسفة الاشتراكية الوطنية والذي لا تربطه أى علاقة بالحقيقة الصادقة لهذه الحركة ومفهومها انما يلتقى شباهة في بحر مضطرب » بحر هذه القيم والكليات » .

ان ذكر الاشتراكية الوطنية والانصراف بعظمتها وحقيقتها الصادقة عام ١٩٣٥ ثم عام ١٩٥٣ عندما نشرت المحاضرة المذكورة ، كانت موضع اعتقاد حاد من المفقطين والنقاد ، ذلك أن هيدجر لم يكن قد طرح عنه يوما ما ماضيه المثلث وأن المدير السابق لجامعة فريبورج كان لا يزال حتى عام ١٩٥٣ منهبرا بما أسماه عقبة الاشتراكية الوطنية .

وبمقولة هوبنر هذه على هذه الحادثة في كتابه عن هيدجر (١٩٦١) :

« ان انضمام هيدجر للحزب النازي وتأييده للحركة الوطنية الاشتراكية ليس حدثا مؤسفا في حياة هيدجر ، بل ان معنى فلسفته كلها يتحدد ابتداء من هذا الاتجاه . ان هيدجر الذى كان نازيا بالقوة في كتابه « الوجود والزمان » أصبح نازيا بالفعل بعد عام ١٩٣٣ » وليس تحوله عنها دوز نقد لثاني الا محاولة للتكيف لاتجاهات ما بعد الحرب » .

من ماهية التفكير وتندمج معها . ولم يتضمن خطاب العمادة أية اشارة الى التفكير في حديثه عن العلم وماهية العمل وكان قد تناول بايجاز في كتاب « الوجود والزمان » من خلال « النوع والاداة » .

ظاهرة التفكير

ويظهر اهتمام هيدجر بالتفكير لأول مرة في محاضرة « مقدمة للميتافيزيقا » (١٩٣٥) والنشورة ١٩٥٣ . ومضمم النصوص التالية تحوى اشارات أو اضافات حول التفكير العلمى وماهيته . في « زمن التصورات العلمى » (١٩٣٨) يتسائل عن ماهية الأزمنة الحديثة ويسوق آراءه حول ظهور التفكير الحديث وعلاقته بنهائية الميتافيزيقا . وفي « تجاوز الميتافيزيقا » يتحدث عن العامل عند يونجر . ويتسائل هيدجر في مقاله « لماذا لغة شعراء » ؟ (١٩٤٦) عن علاقة التفكير بنهائية المصرية من خلال شمس رينيه ماريا ولكنه . ويمكن تحديد اتجاهات هيدجر ويونجر في التفكير الى النحو الآتى :

- يتميز العالم الحديث بمجهر التفكير العلمى وحكمه .
- يقصد بلفظ عصر جديد ، قيمة شاملة للبشرية في صيغة العامل .
- هذه التبعة الشاملة تتفق مع المرحلة الأخيرة من ميتافيزيقا ارادة القوة .
- يسيطر التفكير على الانسان اكثر مما يسيطر الانسان عليه .

ويعتبر هيدجر التفكير الحديث خطرا لا يفوقه خطر آخر . ففي محاضراته عن ذلك « لماذا لغة شعراء ؟ » يبحث كيف أن التفكير قد خطط المنظر الطبيعي الذى يحيط بالانسان بل وخطط وجودنا بأسره . ومن هنا تندمج ماهية المصرية مع حكم التفكير . والتفكير بقدر ما يسود كل كائن فانه يسدل على وجوده قناعا يعترضى الافتتاح ، ويغشى حقيقة ماهيته . والفن الحديث لا يتمتع فهمه أيضا الا بالاستماتة بالتفكير وماهيته .

ويقرر هيدجر عن ذلك في حكمه على التفكير فهاهيه التفكير عند الاول لا حد له ، وهي خلاص ذلك .

عند نيتشة نجد المصدر الاول والرئيسى لفكر يونجر الذى يعترف في تحليلاته بصورة المدعية التى أعلن نيتشة عن مجيئها . وليست المدعية قدر أوروبا أو القرب لقط بل أصبحت قدر العالم . لم تعد المدعية أشد مايلز له البصر ، بل صارت حالة عادية لا تثير الفلق ، وفي مجال المدعية الكوكبية يتأمل هيدجر كتابات يونجر ويعلق : « ان هجرة المدعية الكوكبية وسيادتها تتسم بخصائص المصرية . هذه المصرية تميز المدعية باعتبارها تحقيقا خراب الأرض . لكن هل كان مبدأ الحراب معروفا عند نيتشة ؟ ماذا قال نيتشة عن الوجود ؟ يجيب هيدجر في « المدخل الى الميتافيزيقا » بأن الوجود عند نيتشة لا يقبل الوجود كالتعمد ، فهو كالتعمد يعرف بوصفة كلمة فارغة . ان دلالة هذا الوجود ليس سوى بخار

هيدجر ونقطة التراجيدي

اعترف باليه بأخطا التراجيدي الذي ارتكبه هيدجر عندما تورط في تأييده السياسي الكامل للفوهرر والنازية ، لكن هذا لم يصدر في تصوره كنتيجة منطقية لفلسفة هيدجر كما جاءت في كتابه الرئيسى « الوجود والزمان » . بل ان هذا التأييد انما اعلنته هيدجر في لحظة انهيار ربما يمكن أن نندمها الاشتراكية الوطنية من اصلاحات جذرية لفسكات المجتمع الألماني ، لكنه لم يلبث أن تراجع عن موقفه واستقال من منصب المادة وترك الحزب النازي وحاجم النازية في محاضراته الحامية ، كما تعرض لهجوم المفكرين النازيين ، ثم ساق المؤلف الدليل تلو الدليل لتبرئة هيدجر من تهمة التشجيع للنازية ولتوكيد استقلاله التام عن الفكر الرسمي للدولة بعد ان تخلص من منصب مدير جامعة فريبورج .

لكن اذا كانت كل غلطة هيدجر كما زعم المؤلف هو انه خدع في دعاوى النازية ، فالنازية لم تكن حركة ايديولوجية سياسية ظهرت بغتة الى الحياة الألمانية . فمن المعروف ان خطوطها العريضة مرسومة في كتاب هتلر « كفاحي » (١٩٢٤) . وكل من اطلع على هذا الكتاب وتابع نشاط الحزب النازي حتى عام ١٩٣٣ يستطيع ان يشرف بسهولة على ماهية الحكم في ظل حكومة نازية : دولة تقسم على المنصرفة ومصادرة كافة احيات والتسليم المطلق لزعماء قائده يقبض بيد من حديد على كافة مقاليد الامور وهو وحده مصدر السلطات . أما ينهض بناؤها الاقتصادى على التنمية الشاملة لجميع الامكانيات البشرية والمادية خدمة أهداف عذراية توسعية تمجد القيم العسكرية .

ان من أخص خصائص الفكر الفلسفى البعث عن الحقيقة ، النقطة التنبؤية والنسود الى أغوار الواقع متجسبا ومتسلا وناقدا ، فكيف فات هيدجر وهو مفكر من الطراز الاول أن يستشع حقيقة نوايا هتلر الاجرامية المدمرة ، وأن يدور حوهر النازية بكل ما تنطوي عليه من عنصرية مقوثة ونف بالغ واهداد للكرامة الانسانية ؟

ان فيلسوفا كهيدجر كان ينبغي أن يكون أول من يسي ويتبنا بالطريق الوعر المظلم الذى ستنزل الى الامة الألمانية في ظل حكم نازي . وفي الوقت الذى زعم فيه مؤلف « كتابات هيدجر السياسية » أن هيدجر قد خدعته الاسلحات المادية الجديدة التى شرع يجرها النظام الجديد ، نجد أن أعدادا مائلة من المفكرين والكتاب والفنانين الألمان كانوا يعدون ويدعمون في معسكرات الابداء بينما فر آخرون الى الخارج أمثال بريخت و توماس مان ، وهكذا لم يبرم فكر أو كاتب - لاشادة بالاشتراكية الوطنية ومفاهيمها على نحو ما فعل هيدجر ومن هم على شاكلته ممن ملغوا لسيطرة النازي .

ويونجر صديق هيدجر يعرف في رسالة «التعبئة الشاملة» الدولة الشمولية بأنها « الدولة التى تصل الى تأكيد سيطرتها بالتيكيك وصوره المنظمة على الحياة كلها » وهيدجر يرى أن هذه التعبئة الشاملة تؤذن ببدء مرحلة أخيرة لميتافيزيقا ارادة القوة والدولة الشمولية التى تصمد على التعبئة الشاملة اعتقادا

كاملا انما تنتمى في هيئتها وحكمها الى هذه المرحلة ، وهو ما أشار اليه هيدجر بروح في كتابه « مناهات » .

ماذا تقنى التعبئة الشاملة ؟ تعبئة العمل والصناع وجميع الطاقات وأصحاب الكفايات العلمية لخدمة أهداف دولة شمولية تحقق ميتافيزيقا ارادة القوة عند نشئته . وصرم تصبح التعبئة الشاملة معسكرات عمل الزامية دائمة لطقه الرقيق كما كان يدعو نيتشه ، لا يمكن أن تقوم حضارة الا حيث توجد في المجتمع طبقتان متباينتان ، طبقة العالمة وطبقة المترفين الذين يمكنهم أن يعيشوا دون عمل ، أو بتعبير «لوى» طبقة العمل الازامى وطبقة العمل الحر » . وبذلك استعالت فكرة التعبئة الشاملة التى طالما تحدث عنها كل من يونجر وهيدجر الى فكرة أساسية في الايديولوجية النازي .

وفكرة العمل التى تناولها هيدجر في كتاباته السياسية كدعامة لسيطرة التيكيك الكوكبي لم يلبث أن اشاد بها حتى عندما تحولت الى ضرب من الرق والسخرية في ظل حكم فاشي ، وتقدم بذلك عياراته في العمل التى جادت مطابقة لأحداث الفوهرر عنه .

وبالمية مهما ساق من الحجج لتبرئة كتاب العامل من أن يكون ارحاسا لنظرية النازي في العمل فسوف تغدله عبارات يونجر تقسه التى وردت في حديث له نشر بصحيفة الفرنسية (يناير ١٩٦٩) والى عبر فيه عما كان يكنه من إعجاب وانبهار بالاشتراكية الوطنية حتى عام ١٩٤٢ بل انه لم يكتم تقديره السابق لهتلر : « ان رجلا كان يطاغبنا مثل هتلر كان يستطيع أن يمتدح اعجابنا بسهولة » . وفي الحديث أيضا عبر يونجر عما كان يجيش في صدره من ارتياح وغبطة ازاء الغزو البربرى النازي للانحدار السوفييتي عام ١٩٤١ اذ قال بالحرف الواحد . « اعتقد انه عند دخول الجيوش الألمانية الاواهى الروسية ودبت باى ترحاب كنا نستقبل » .

القلق عند هيدجر يؤدى الى العمم والعمم تشع به من خلال القلق ومن العمم يتفجر كل شيء موجود وفيه يتهدد الزوال كل شيء في أية لحظة . ليس هناك اتفاق بين أشكالية هيدجر كما جاءت في كتاب « الوجود والزمان » وبين أفكاره السياسية ؟

الا تصد كتابات هيدجر السياسية تميرا صادقا عن فلسفته في الوجود وتطبيقا عمليا لها ؟ وآراءه السياسية ليست هي تحقيقا لامكانية ما دون سائر الامكانيات ؟ بل هي اطلاق لأفضل الممكنات في حين الحارسة والتحقيق ؟ وبذلك صار هيدجر داعية للنازية وبروهاا المعوى بين الجامعين والمتقين الألمان . ولا تصبح النازية في اعتقاده - بمقادها الوشعية المقمرة - سوى ممارسة لفلسفة الانسان يجد لنفسه أمام لاشيء ، أمام العلم ، تحكمة فكرة جبرية هي أن العلاقة الأساسية بين الانسان والعالم تتجارب مع هذا الموقف الذى ينزلق فيه الوجود بأسره في هاوية الفناء .

الم يتحقق إذن لكمة الألمانية في مسارها التساويحي ما كان يؤمله هيدجر من فلسفته ؟

سمير عوض

مكان العلم في المجتمع المعاصر

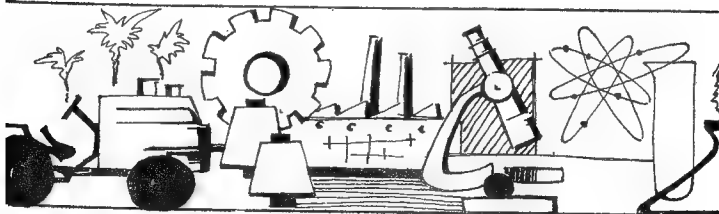
عن:
د. كريمة حامي

فإن هناك أساساً حقيقياً للسؤال عن سبب هذه الأهمية • ذلك لأن العلم يحظى من العامة في كثير من الأحيان باحترام لا يستحقه ، ولا يحظى منهم بقدر كبير من الإعجاب الذي يستحق بالفعل قدراً عظيماً منه •

ومن المفيد أن نبحث أهمية العلم عند مستويات مختلفة • أن الكلمة الرئيسية التي تعبر عن أهمية العلم عند مستوى التجربة الأكثر شيوعاً ومحسوسة لدى الشخص العادي هي « اليس » وهذه الكلمة تجعل من الواضح أن هذا المظهر الأول لأهمية العلم ليس على درجة كبيرة من الجدية أو العمق • فالعلم يسهم عن طريق التكنولوجيا ، حليفته العملية ، في كل ساعة من كل يوم في يسر الحياة وسهولتها • والمواطن في المجتمع المتكسّم

أود أن أتناول بالبحث في هذا المقال أربعة جوانب لمشكلة تفسير العلم وانتشاره • وسوف أتحدث أولاً عن سبب أهمية العلم ، وإن كان ذلك سوف يتضمن تكرار بعض الحقائق الواضحة إلى حد ما • ثم أشرح لماذا كان تفسير العلم لعامة الناس على درجة كبيرة من الصعوبة • وبعد ذلك سوف أبين لماذا كان هذا التفسير ضرورياً بصفة خاصة في الوقت الحاضر • وأخيراً ، أود أن أعرض بعض الأسباب العامة التي ينبغي من أجلها أن يسير تبسيط العلم للجماهير قدماً باستمراء ، بتشويق ولكن ليس بتفاهة على الإطلاق ، بدقة ولكن بوضوح ، بتواضع ولكن بحماس ، بعزلة ولكن بصبر وأناة •

وعلى الرغم من أن أهمية العلم تبدو أمراً واضحاً



إن الحياة في العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العام إنما تعنى قصصاً خطيراً في أية محاولة تبذل لفهم كثير من القوى الرئيسية التي تشكل مجتمعنا الحاضر

التليفونية قد تنقذ حياة ، والسيارة قد تكون مركبة اسعاف أو سيارة شرطة ، وجهاز تكييف الهواء قد يستخدم في غرفة الجراحة في مستشفى والرسالة اللاسلكية قد تكون من رئيس دولة كبرى . فالعلم ، إذن ، عند مستوى أعلى من الأهمية ، خادم هام بحق لكل انسان . ويكفينا للتدليل على هذه الانحاء الأكثر أهمية التي يخدم بها العلم الانسان أن نذكر الطب ، الذي يخفف الألم ، ويشفي المرض ، ويطيل الحياة ، والزراعة الحديثة ، التي تحمل في طبيعتها أملاً على أعظم جانب من الأهمية ، وأعلى به أمل الطعام الوفير والأفضل

بعد ذلك تأتي عند مستوى أوسع من التأثر ، وإن لم يكن دائماً عند مستوى أعمق أو أهم ،

علينا نتاح له باستمرار مجموعة كاملة من الأجهزة والأدوات . ولقد أصبحنا ، في كثير من أجزاء العالم ، معادين على هذه الأجهزة الى درجة نسينا معها أن الكشف العلمية الأساسية هي التي أتاحت هذه الأجهزة وجعلتها ممكنة . ومن سوء الحظ أن اسم « العلم » يرتبط في معظم الأحيان ، وعلى نحو رخيص ، بكل هذه الأدوات التكنولوجية المميزة للحياة المعاصرة . ذلك لأن العلم ليس ذا طابع أدائي على الرغم من أنه يجعل هذه الأدوات النافعة ممكنة .

ولكن عدداً كبيراً من هذه الأدوات والأجهزة قد يستخدم في كثير من الأحيان في خدمة الناس على أنحاء أكثر جدية وأهمية الى حد كبير . فالمكانة



ثم عن الانحاء التي يدمج بها العلم على نطاق واسع في البناء الكلي لحياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاضرة ، انما كنا في الواقع ننفل من مستويات للأهمية تزداد ارتفاعاً باطراد . ولكن تبقى بعد ذلك خطوة أخرى الى أعلى ، وهي خطوة على جانب كبير من الأهمية .

ذلك لأن كل الكشوف والابتكارات العلمية التي تمر بمرحلة تكنولوجية ثم تمس معظم العلماء مسا ثابتاً وملموساً هي ، في رأى معظم العلماء على الأقل ، على مستوى من الأهمية أقل من تلك الانتصارات العلمية التي لا تنتج عن ضغط الحاجة أو طلبات السوق ، أو الرغبة في الكسب أو التيسير أو الأمان ، بل تنتج عندما تحاول العقول الباحثة المنظمة أن تجد حلاً لأسرار الطبيعة اجمدة ، وتنشد فهمها .

اعني أن الأهمية الحقيقية للعلم لا تركز على منجزاته العملية ، سواء أكانت هذه المنجزات نافهة أم عظيمة القيمة ، بل على أن العقل العلمي اذ يحاول كشف غموض الطبيعة الشديد التعقيد انما ينتج عملاً من أعمال الإبداع الفني ، وذلك عندما يقوم ، وسقط كل التعقيد الظاهر ، بأدراك و اظهار ، وتفسير علاقات تتصف بالبساطة لم تكن موضع شك حتى ذلك الوقت . تلك هي اللفتة التي يؤكد فيها الإنسان دوره بوصفه ذروة الطبيعة كلها ، ويبرر جداته بالجهاز المخي الذي استغرق التطور فترة طويلة لتزويده به .

ان الجنس البشرى لا يكاد يستطيع أن يفخر كثيراً بالطريقة التي عالج بها عدداً كبيراً من تحديات الوجود - كالمطر ، أو السلام ، مثلاً . ولكن عندما قام العلم بالاستكشاف داخل نواة الذرة ، ودخل جينة الخلية ، ووصل في استكشافه الى سطح المريخ وتعداه الى مسافات تبعد ملايين السنين الضوئية ، فإن الإنسان يمكنه ، بحق ، أن يعتبر أنه يتصدى ، بشجاعة واقتدار لتحدى غواض الطبيعة وأسرارها .



نعم ، ان العلم على جانب كبير من الأهمية . فهو منتشر على نطاق واسع في أجزاء كبيرة من كوكبنا ، ويقوم بفزو الأجزاء الباقية بسرعة هائلة

الأنحاء العديدة التي أصبح بها العلم الآن يتداخل على نحو معقد في كل جوانب الاقتصادية والسياسية للحياة الحديثة . فكل صناعة نشيطة وإيجابية يتعين عليها اليوم أن تجري بحوثاً أساسية ، والا استحال عليها أن تتقدم بمنتجات جديدة ، واختراعات جديدة ، ومناقد جديدة لزيادة رأس المال ، وفرص جديدة للتشغيل والمعاملة . هذه العلاقة التفاعلية بين العلوم البحتة ، والتكنولوجيا ، والسلامة الاقتصادية للامة أصبح معترفاً بها الآن بصفة عامة . ويمكن الحصول على دليل قاطع على هذه العلاقة من أقرب المصادر الى الطابع العملي وأبعدها عن الطابع الأكاديمي - وأعني بها صفحات الجرائد والمجلات التي تشهد تقديراً واضحاً وناشطاً للدور الذي تلعبه البحوث الأساسية ، وتعلن عن وظائف تطلبها الشركات الكبرى لعلماء رياضيين ، وفيزيائيين ، وكيميائيين .

والواقع أن اسهام الحكومات في العلم ظاهرة من أكبر الظواهر الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية في عصرنا الحاضر . فالولايات المتحدة مثلاً ، تخصص « للبحوث والتنمية » في الوقت الحاضر مبلغاً سنوياً يزيد عما كانت عليه الميزانية الفيدرالية كلها قبل « بيرل هاربور » .

ان السلطات الفيدرالية في الولايات المتحدة تقوم في الوقت الحاضر بدراسة مشكلة أفضل المواقع الجغرافية في البلاد لانشاء معمل للجسيمات ذى طاقة هائلة . فمن الذي يبحث هذه المشكلة ؟ هل هم علماء الفيزياء النووية فقط ؟ وهل هذه مشكلة علمية وفكرية فقط ؟ كلا ، مطلقاً . ولاقتبس ما قالته في هذا الصدد إحدى المجلات العلمية الواسعة الانتشار : « لقد أدى هذا البحث الى قيام كثير من المجتمعات المحلية بعملية فحص دقيقة لثوبية برامجها الجامعية ، ومراقبتها التعليمية العامة ، وحياتها الثقافية ، وخدماتها العامة . كما أدى الى تضافر أسئلة الجامعات ، ورجال الأعمال والسياسيين » . كل هذا يعكس الاعتراف المتزايد بأن العلم مرتبط ارتباطاً مباشراً بازدهار الصناعة وكذلك بالحياة الثقافية العامة للمجتمعات المحلية المعنية .

اننا حين تحدثنا أولاً عن الإنحاء التي ييسر بها العلم حياة الأفراد ، ثم عن الاتجاه التي يتعامل بها العلم مع الضرورات الهامة لمجموعات الأفراد

وهو يحدد قدراتنا الطبيعية إلى حد كبير . كما أنه يؤثر في حياتنا بعمق ، ابتداء من المستوى السطحي الخاص بأدوات المطبخ الآلية ، حتى المستوى العميق الخاص بالاهتمام الخلقى فيما يتعلق بدورنا في الطبيعة ومصيرنا النهائي .

من الواضح ، إذن ، أن العلم قوة حاسمة كبرى في مجتمعنا الحديث ، ينبثق على كل شخص أن يسعى إلى فهمها . لقد قال اللورد « تود » الانجليزية ، وهو أحد علماء الكيمياء العضوية العظام بحق في عصرنا ومستشار علمي رئيسي لحكومته : « لقد أحدثت السنوات المائة الماضية ، بلا ريب ، تغييرا في الجوانب المادية للحضارة أكبر مما حدث في تاريخ البشرية السابق برمته .. وكل التغيرات التي حدثت يمكن أن نغزى إلى العلم وإلى الشكل الحديث للتكنولوجيا التي هي تطبيق المنهج العلمي ونتائج البحوث العلمية على مشكلات الصناعة ، والزراعة ، والطب ، والدفاع ، والأدوية . ونتيجة لهذا ، فإن العلم والتكنولوجيا يتطرقان الآن إلى كل جانب تقريبا من جوانب الحياة العامة والخاصة ، ويؤثران تأثيرا عميقا في أنظمتنا الاجتماعية ، التي تطورت ببطء على مدى قرون عديدة . والأمر الذي يدعو إلى انقلق هو أنه على الرغم من أن العلم والتكنولوجيا يتقدمان بسرعة هائلة ، فإن الاتجاهات والأنماط الاجتماعية تتغير ببطء ، والواقع أن التباين بين معدل التغير في العلم ومعدل التغير في السلوك الاجتماعي بأوسع معانيه هو أساس معظم الفسوف والتوترات الموجودة في العالم اليوم » .

ولكن إذا كنا نصافد العلم على هذا النحو الشامل ، فلماذا لا نفهمه أيضا على نحو شامل ؟

هناك صومبتان أساسيتان . الأولى أن الشخص البالغ العادي يجد صعوبة في فهم علم هذه الأيام لأن تعليمه المدرسي لم يعده أعدادا فعلا لاستيعاب العلم الذي يصادفه الآن في حياته البالغة . والثانية أن التغيرات الفعلية المستخدمة في العلم لا الأفكار العلمية الجديدة وحدها ، كثيرا ما تكون غير مألوفة وعويصة ، وتعتمد يستخدم المؤلف الذي يقدم العلم بطريقة مسطحة تشبيهات ومجازات ، ويحاول الاستعاضة بكلمات وأفكار أبسط وأكثر شيوعا ، فإنه يتعرض لاساءة التفسير إلى حد خطير ،

على أنه ينبغي ألا ندهش أو نفزع من الصعوبات

التي تصادفنا في شرح العلم وتبسيطه ، ولكن علينا أن نعرف أن هناك عبثا لا يقع فقط على عاتق العلماء (الذين ينبغي أن يتحملوا قدرا أكبر من المسؤولية لجعل مجالات نشاطهم مفهومة) وكذلك على عاتق كتاب العلم (الذين ينبغي أن يقوموا ، عن طيب خاطر ، بدراسة أكثر جدية للعالم الذي يشرحونه) بل يقع أيضا على عاتق الجماهير (الذين ينبغي ألا يقصروا شهيتهم على القريب ، أو الملتف للنظر ، أو السطحي ، والذين ينبغي أن يقوموا ، عن رغبة صادقة ، بشئ من التفكير الجاد) .



وننتقل الآن إلى ثالث الموضوعات التي أعلنتها في البداية - وأعني به : لماذا كان من المهم بصفة خاصة ، في هذه الآونة بالذات من التاريخ أن يفسر العلم على نحو فعال ؟

لقد اعتادت مجموعة من السادة أن تجتمع في حانة بلندن بعد ظهر كل خميس ، قبل حوالي ثلاثمائة عام ، هؤلاء السادة هم : سيم « كريستوفر وين » ، الذي كان يعمل أصلا أستاذا للفلك بجامعة أكسفورد ، ولكنه قام بتصميم الاستحكامات الدفاعية لمدينة لندن وكذلك عدد كبير من العائز الشهيرة البديعة ، ومن ضمنها كاتدرائية سانت بول ، « وودبروت بويل » ، الفيزيائي العظيم ومؤلف كتاب « حماية المسيحية » ، « ولورد براونكر » ، وهو راع لكل فروع العلم والعرفة والأسقف « ويلكينز » ، الذي كان كاهنا ، ورئيسا لكلية ترينيتي ، وخيرا في نظرية كوبرنيك ، وسيم « ويليسام بتي » ، الذي كان عالما في الاقتصاد السياسي ، وأستاذا للتشريح في جامعة أكسفورد ، وأستاذا للموسيقى في كلية جريشام « وصامويل بيس » ، كاتب اليوميات المشهور ، والعلامان الأمريكيان الكبيران : بنجامين فرانكلين وبنجامين طومسون . كانت هذه المجموعة تضم أعضاء في البرلمان ، ونقاد ، وموظفين مدنيين ، وكتاب مقالات - كما كانت تضم مسيحيين ، ورجال دين ، وأثريين ، وأشخاصا من محبي الحياة الرغدة والمتع . لقد كانوا ، بجلاء ، رجالا ذوي اهتمامات واسعة : رجالا يتمتعون بحبوية فكرية وبدنية معا ، ويتميزون بقسوة كبير من حب الاستطلاع . وكانوا يتمتعون ، بعد ظهر كل خميس ، ليجروا تجارب ، ويأكلوا ويشربوا معا ولكنهم كانوا يتمتعون أساسا لمناقشة العلم :

تلك كانت بداية « نادى الجمعية الملكية » ،
وهى مجموعة منحها الملك مع آخرين فى الخامس
عشر من يوليو عام ١٦٦٢ ، اسم الجمعية الملكية ،
تلك المنظمة العظيمة التى ظلت طوال ثلاثة
قرون تقريبا مركزا للعلم البريطانى ، وجزءا كبيرا
من العلم فى العالم الغربى .

ان من المفيد لنا ان ننعن الفكر فى هذه المجموعة
من الرجال . انهم لم يكونوا علماء يحصرون انفسهم
بين أربعة جدران أو أخصائيين ضيقى الأفق ، بل
كانوا رجالا تشغلهم أمور متنوعة وهامة ، رجسالا
كرسوا انفسهم لنشاط ، هو الدراسة الجادة
للعلم ، وهو نشاط أصبح اليوم أقل شيوعا
وأهم فى نفس الوقت مما كان عليه آنذاك .

ذلك لأن معرفة شيء عن الطرق الجديدة لفحص
الطبيعة ، وتحليلها ، وفهمها لم تكن أكثر من ترف
فكرى بالنسبة الى رجال القرن السابع عشر هؤلاء
المفعمين قوة وحيوية ، الذين كانوا يلاحظون قدر
استطاعتهم فى ذلك الوقت الديدات العظيمة للعلم
الحديث . فالحلم لم يكن حتى ذلك الوقت قد مس
حياتهم اليومية والأعمال التى يمكن أن يشتغلوا
بها إلا مسأ خفيفا جدا ، بل انهم كانوا لا يكادون
يعرفون شيئا عن العلم ، ومع ذلك كانوا يعيشون
حياة متوازنة الى حد كبير . لقد كان على أبناء
أحفادهم ، لا عليهم ، أن يواجهوا الانقلاب الصناعى
ان مواطن تلك الأيام كان يمكنه تقدير قيمة الطابع
التاريخى لوثيقة الحقوق الصادرة فى عام ١٦٨٩
وكان يمكنه أن يكون آراؤه عن حكومة لويس الرابع
عشر الاستبدادية دون أن يستعين فى ذلك بأية
حقائق من الفيزياء أو الكيمياء . كما كان يمكنه
أن يشذب شمعة ، أو يسرج حصانا ، أو يوفد
خادما برسالة خطية دون أن يستخدم أية أداة
علمية .

أما الموقف اليوم فقد انعكس تماما . فالعلم
قد أصبح موزعا على عشرات التخصصات المعقدة ،
والمجال الشامل للمعرفة العلمية أصبح واسعا الى
درجة لا يستطيع معها العالم التخصص ذاته أن
يتطلع الى تكوين فكرة ، ولو سطحية ، عن العلم
كله ، ولكن الأهم من ذلك كثيرا ، من الناحية
الاجتماعية العامة ، أن تدخل العلم فى عدد هائل
من المشكلات - الشخصية ، والمحلية والاقتصادية ،
والقومية والسياسية ، والعالمية - بلغ اليوم من

التعقيد حدا لا يستطيع معه أى شخص أن يتفاعل
ويتجاوب مع هذه المشكلات بفهم وادراك إلا اذا
كان على شيء من المعرفة بالعلم الحديث . وبعض
هذه المشكلات تواجه الأشخاص الفردى : كوالدى
الطفل الموق ، والشخص المدخن الذى يتساءل
ان كان ينبغي عليه أن يقلع عن التدخين ، والمرأة
الشابة التى تريد أن تعرف الحقائق الخاصة
بتشوهات الولادة والمجازفات التى ينطوى عليها
تعاطى الهرمونات لزيادة الخصوبة أو ازالته ،
ورجل الصناعة الذى يريد أن يعرف الأثر الذى
سوف تحدثه تطورات التسمير الذاتى (الأوتوميشن)
المقبل فى صناعته ، والفلاح الذى يحتاج الى أن
يعرف التأثير الإجمالى للمبيدات الجديدة ، والجمع
المحل الذى يبحث مشكلاته الخاصة بالتلوث ،
والمواطن الذى يتعين عليهم أن يبتوا فيما اذا
كان ينبغي أولا بنفى أن ينفقوا الملايين على
المخابىء الراقية من القنابل ، وكم من الدخل
القومى ينبغي أن يخصص لبحوث الفضاء ، وما
مقدار الدعم الذى ينبغي أن يعطى للبحوث الأساسية
بالنسبة الى ما يعطى للتطوير التكنولوجى ، وأن
يتخذوا قرارا ربما كان أصعب القرارات جميعا
- بشأن الدور المناسب الذى ينبغي أن يقوم به
العلماء فى الحكومة .

وربما كان هناك أشخاص لا يزالون يعتقدون أن
أسئلة كهذه ينبغي أن يجيب عليها جميعا « شخص
آخر » . أما بالنسبة الى أولئك الذين يؤمنون منا
أيمانا عميقا بأهمية الفرد وبأن أسلوب الحياة
الديموقراطى هو الأسلوب القويم من الناحية
الأخلاقية ، فإن كل هذه الأسئلة ينبغي فى المدى
الطويل أن يواجهها الأفراد فى حياتهم الشخصية
والمواطنون الناجون فى حياتهم العامة . صحيح
أنهم لن يقتنعوا ، كل على حدة ، على وحيدات
الإشعاع التى تؤلف ، بالضبط ، جرعة « مأمونة »
من السقوط الذرى ، ولن يبتوا مباشرة ، كل على
حده ، فيما كان يتعين على حكومتهم أن تتفق
عليها باعظا على بحوث السرطان ، أو على حفر ثقب
عميق فى قشرة الأرض ، أو على بناء معمل
للجسيمات ذى طاقة فائقة . ولكن من الصحيح
تماما أننا اذا كنا نريد للأسلوب الديموقراطى
أن يعمل فى العالم العلمى الحديث ، فإن كل مواطن
على حدة ينبغي أن تتاح له الحقائق العلمية التى
تمكنه من البت فى هذه الأمور على أساس
سليم .

وثمة سبب آخر لضرورة تفسير العلم لسانه الناس في الآونة الحاضرة من تاريخ العالم * هذا السبب يرجع الى ان ملايين عديدة من البشر لدين يسندون مناطق كبيرة من كوكبنا ظلوا يعيشون حتى اليوم في مجتمعات زراعية غير علمية ، بل في ظروف بدائية * ولكن كل هذا يتعرض الآن لتغير سريع ويكفينا فقط ، "للتدليل على سرعة اقتحام هذه الشعوب لأبواب العالم الحديث ، أن نتذكر أن إحدى وستين دولة كانت أعضاء في الأمم المتحدة قبل عام ١٩٥٠ ، وأن ثلاثاً وخمسين أمة جديدة أصبحت أعضاء منذ ذلك الوقت ، منها إحدى وثلاثين في السنوات الخمس الماضية *

هذه الأمم ، « الجديدة » من الناحية السياسية الرسمية ، والتي لدى أغلبها مع ذلك تاريخ حضاري سابق لتاريخ كثير من الدول الغربية بوقت طويل تدفعها مقتضيات الظروف الحاضرة الى دخول العالم التكنولوجي الحديث دفعة واحدة * ذلك لأنه يتعين على هذه الأمم ، التي حرمت من الاستفادة بقرنين من التكيف على مهل ، أن تنتقل ، في بعض الأحيان ، على نحو يكاد يكون فجائياً ، من ثقافات بدائية نسبياً الى عوالم يتميز بالالكترونيات ، والعلوم الالكترونية ، والتسيير الذاتي ، والطيران النفاث ، والطاقة النووية ، وأحماض الوراثة الشديدة التعقيد ، ومن الواضح أن بعض هذه الأمم الناشئة يتعين عليها أن تصنع اقتصادها اذا ما أرادت أن تكون قادرة على البقاء ، وهذا يعني أنه يتعين عليها أن تدرس العلم بأسرع ما يمكن .

إن الحياة ، في العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العلم ، إنما تعني قصوراً خطيراً في أية محاولة لتبيل لهم كثير من القوى الرئيسية التي تشكل مجتمعاتنا الحاضر * إنها تعني أن تكون كل الحواس متبيلة ، ليس فقط بالنسبة الى ما يجري في العالم ، بل أيضاً بالنسبة الى جمال العلم ومغزاه الروحي (وهنا أصل الى موضوعي الأخير والرئيسي) ، فتصبح بذلك غافلة عن الطريقة التي ينتظم بها كوكبنا - تلك الطريقة الرائعة الى حد لا يكاد يصدق - كما تصبح غير واعية بالوحدة الملهمة التي تربط ما كل ما هو حي وما هو في هذه اللحظة غيصة ، ولا تأثير فيها رؤيا قدرات الانسان الجديدة على التحكم في بيئته وتحرير نفسه من أجل بلوغ مصير جديد أسمى من أي احساس .

انه لما يدعو الى الأسمى أن عددا كبيرا من الناس لا يفكر في العلم الا من خلال الأجهزة والأدوات التي يتيحها هذا العلم * كما أن من المؤسف أن ذوي الرؤية الأوضح قليلا يرون العلم أساسا على أنه هو الذي يقدم الشفاء والغذاء ، على أن الأسوأ من ذلك كله ألا يصبح في الامكان ، على المدى البعيد ، جعل الناس يفهمون الطبيعة الأساسية الكامنة للعلم .

وهناك بعض الناس بلغ بهم التفصيل حدا ينظرون منه الى العلم على أنه وحش آلي ، لا تكف تروسه عن الدوران ، منتجا آلات فظيعة للدمار ، وادفا كل شيء الى توافق كئيب مع النطق الضارم الخال من الروح ، ومحو كل شيء الى مساعدات عويصة ولكنها ذات قدرة شاملة في نفس الوقت .



إن العلماء أنفسهم بشر قبل كل شيء ، ومن ثم فإن كثيرا منهم ، وخاصة الذين لا يقفون في الصف الأول ، يلازمون أجهزتهم الى درجة أنهم أنفسهم يفرطون أحيانا في تأثرهم ببعض الجوانب السطحية للعلم ، وبعضهم من الحماقة بحيث يعتقد أن العلم في الواقع قادر على كل شيء ، وأنه يمكن أن يكون دقيقا بلا حدود وموضوعيا تماما ، وأن أساليبه الفنية يمكن أن تحل كل المشكلات ، وأن فلسفته هي المرشد الوحيد الذي نحتاج اليه .

وفي رأيي أن تصحيح هذه الآراء الزائفة واجب رئيسي يقع على عاتق أولئك الذين يشرون العلم ويفسرونه للجماهير * ذلك لأن هذه الآراء الزائفة تفصل العلم عن بقية جوانب الحياة * وإذا كانت هذه الآراء صحيحة ، فإن الهوة التي يرى بعض المفكرين أنها تفصل بين العلم والفنون الانسانية تصبح هوة يمكن عبورها .

ولقد كان هناك من يرى ، منذ عهد روجر بيكون أن مهمة العلم لا تعدد جمع عدد كبير من "الحقائق" (نطلق عليها في كثير من الأحيان اسم الحقائق الثابتة ، ملابن بذلك على دواهمها ، ودقنتها ،

وموضوعيتها اللازمة ، ثم بناء نظرية لتفسيرها •
وبذلك تكون هذه النظرية « صحيحة » ، ومن ثم
يتعين على الجميع أن يتحنوا لها اجلالاً وخشوعاً •

وتكراراً ، وذلك عندما تؤدي الطريقة المتبعة في
أسلوب العمل العلمي الى اثاره ازمسات لا يمكن
حلها في نطاق الإطار العادى القائم في ذلك الوقت
وقد قام « كون » ، بوصفه مؤرخاً للعلم ، بتحليل
تقدم العلوم الطبيعية على مر السنوات الثلاثمائة
الماضية ، وذلك لتقديم أدلة تؤيد بحته الهام •



والواقع أن الأدلة التي قدمها هذان المؤلفان
تثبت الوحدة الأساسية التي تربط العلم بجميع
جوانب ثقافتنا الأخرى ، وتؤكد الاعتقاد ، الذي
يؤمن به العلماء الآن على نطاق واسع ، وهو أن
« العلم ، أيما كانت نظرنا إليه ، ليس إلا صورة
من صور الفن الخلاق » •

وهناك رأى يدافع عنه دفاعاً تفصيلياً ومقنعاً
عالم المنطق والفيلسوف الكبير كارل ر • بوبر

هذا الرأى هو أن معرفتنا العلمية تتقدم
« بواسطة توقعات ليس لها ما يبررها (ولا يمكن
تبريرها) ، وبواسطة تخمينات ، وحلول مؤقتة
لمشاكلنا ، وحُدوس » ، وأن هذه الحُدوس « لا يمكن
أبداً تبريرها إيجابياً » ، على الرغم من أنها تضبط
وتنقح بواسطة النقد • ويقول « بوبر » أن العلم
يتقدم ، لا عن طريق إثبات أن بعض البيانات
صحيحة ، بل عن طريق إثبات أن بعض البيانات
غير صحيحة • فإذا كان هذا الرأى ينسف الحُرافة
التي تطش البعض طاسهرياً ، وإن كانت مفزعة
في أساسها ، وهي أن العلم هو الوصى الصام
على الحقيقة التي لا يمكن دحضها ، فلنلاحظ أنه
يقوم ، في نفس الوقت ، بدفع العلم الى الترابط
مع جميع الاهتمامات البشرية الأخرى — فنحن
جميعاً نتعلم من أخطائنا •

وينبغي ألا نفترض ، نظراً الى أننى أشرت الآن
الى « بوبر » ، أن الفلاسفة والمنطقيين هم وحدهم
الذين يعترفون بأن للعلم طبيعة مرنة ، مؤقتة ،
تخيلية ، ومحددة ثقافياً ، وفنية ، وروحياً أساساً
فيوسعى أن أذكر أقوالاً مؤيدة ذكرها عدد كبير
من علماء عصرنا العظام بحق — أقوالاً كتلك التي

ولكننا نعرف الآن تماماً ما كان ينبغي علينا
دائماً أن نعرفه — وأعني به ، أولاً ، أننا لا نحصل
على ما يسمى بالوقائع إلا عن طريق الملاحظة ، وأن
القائم بالملاحظة هو نفسه جزء أساسى من نسق
الوقائع ، وبذلك يقضى ، بضربة واحدة ، على الدقة
النهائية والموضوعية النهائية معاً ، وثانياً نعرف
أن عناصر الاختيار ، وهي مسلمات لا تقوم على
أساس واقعى أو منطقي تحليل ، بل تقسوم على
أساس شخصى وثقافى ، هذه العناصر تدخل فى
بناء كل النظريات وفي اختيار مجموعة « الوقائع »
التي ينبغي التعامل معها • وأولى صاتين النقطة
نتيجة رئيسية للتطورات التي حدثت فى نظريتى
النسبية والكلم طوال نصف القرن الماضى ، وقد
قام « مايكل بولانى (على نحو رائع ، بدراسة
الجوانب الأقرب الى الطابع العام لما يمكن تسميته
« بسراب الموضوعية » • أما النقطة الثانية فقد
أوضحها عدد كبير من الكتاب ولكنى أشير بصفة
خاصة الى كتاب **جيرالد هولتون** : الافتراض
المسبق فى النظريات ، وكتاب **توماس س •**
كون : بناء الانقلابات العلمية

ففى الأول هذين المرجعين ، قام هولتون بتحليل
عملية اتخاذ القرارات كما تدخل فى بناء النظريات
العلمية ، ونشر ، على نحو مقنع ، بحثاً مقفاده
أن « عملية بناء نظرية علمية فعّلية تقتضى قراراً
صريحاً أو ضمئياً ، كالأخذ بفروض ومعايير سبق
اختيارها وليست على الإطلاق « صحيحة » علمياً
بالفهوم • • المعترف به عادة • ويذهب « كون »
فى كتابه الى أنه فى أية فترة واحدة من التاريخ
ومعترف به من الأوساط العلمية كلها ، تطور فى
نطاقه « العلم العادى » الخاص بتلك الفترة • وفى
نطاق هذا الإطار ، فضلاً عن ذلك ، فإن البحث
يوجد إطار من المفاهيم والأدوات ، متفق عليه
العلمى « ينزع الى أن يكون صورة من صور حل
الألفاظ ، لا استكشافاً للجهول » • أما الكشوف
الجديدة غير المتوقعة — الهامة منها على الأقل — فإنها
لا تحدث إلا عن طريق انهيار فى القواعد المسلم
بها قبلاً • هذا النوع من الانهيار يحدث مراراً

ذكرها روبرت أو بهيمر عن جوهر الفيزياء المعاصرة أو بوسعى أن أحيلك الى الفصل البديع المسمى « بالبصيرة الفيدانتية » فى كتاب صغير ولكنه منعق ولطيف فى نفس الوقت ألفه المرحوم **اودين شرودينجر** ، الذى اكسبته بحوثه الفيزيائية جائزة نوبل .

ولكني أود ألا يسىء أحد فهمي بالنسبة الى السبب الذى ذكرت من أجله هذه التعليقات عن الطبيعة الأساسية للعلم . اننى ، قطعاً ، لم افعل ذلك للانتقاص من الفائدة العملية للعلم ، أو لتقليل قيمة الانجازات الرائعة التى حققها العلم . ولكن هذه الانجازات نفسها ، عندما ينظر اليها سطحياً وعندما يبالغ فى تقدير قيمتها ، كما يمكن أن يحدث بمنتهى السهولة ، تؤدي الى فصل العلم عن بقية جوانب حياة الناس . هذا على حين أن ما نحن فى أمس الحاجة اليه ، فى الوقت الذى يسير فيه العلم قدماً ، هو أن نضمن أن يدخل هذا العلم فى زمالة ذات نفع متبادل مع كل الفنون الانسانية ، ومع الفلسفة والدين .

فليسبح لى القارىء بأن أضرب ، فى صورة شديدة التركيز ، مثالا لتوضيح نوع العلاقة المتبادلة النافعة التى اتصورها .

اننا جميعا نعرف حق المعرفة الوصف التقليدى للمنهج التجريبي الذى بدأ العلم يحدد معالمه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، والذى وسع الى حد كبير بعد استحداث الاجهزة والمعدات المناسبة . ان بوسع العلماء الذين يستخدمون هذا المنهج أن يصوغوا مشكلة ، وي رسموا خطة لكشف وقائع تتعلق بهذه المشكلة ، ويحللوا هذه الوقائع ، ويستنبطوا نظريات ، ويعدوا تجارب جديدة لاختبار هذه النظريات - كل هذه فى دورة من التحسين لا تنتهى أبداً .

ويستطيع العالم الآن ، بعد أن لم يعد عبداً للسلطيات التى تؤدي الى الملاحظة الجبسة ، أن يستخدم التخمين ، والحدس ، والخيال ، والالهام بأمان . ويمكنه ، على نحو مناسب ، أن يكون

مدفوعاً بحب الاستطلاع ومؤزراً بالشجاعة . كما يمكنه أن يجازف بهذه العوامل المساعدة الشكلية لأن الأسلوب العلمى يخضع لجميع النتائج للاختبار الدقيق على أساس من الواقع التجريبي .

وعلى الرغم من أن فائدة المنهج التجريبي قد اعترف بها اعتراضاً شاملاً دون شك ، فأننى لا أظن أنه كان هناك تأكيد كاف للحقيقة القائلة ان هذا المنهج قد حرر العالم ليعيش الحياة الخلاقة التى يعيشها الفنان . ذلك لأن العالم ، الذى لم تعد تقلقه الأمور غير القابلة للاثبات ، يمكنه الآن ، من ناحية ، أن يسترشد بايمانه بمعقولة الطبيعة وإمكان اكتشاف قوانينها ، وأن يعتمد على هذا الايمان ، ويمكنه ، من ناحية أخرى ، أن يجمع فى عمله على نحو كامل بين الفكر الطليق والفكر المحيد بالمنطق . اذن المنهج العلمى يهين له ، فى الواقع ، حل لمشكلة العلاقة بين الحرية والتقييد بالنظام . فهو مطلق الحرية فى أن يجرب أى شيء ، ولكن المنهج كفيل بتصحيح كل أخطائه وإرشاده برفق فى خطواته الجريئة التالية .

لقد اشار أينشتاين مرة الى أن أشد الأمور غموضاً فى الكون هو أنه غير غامض . الواقع أن العلم لم يتوصل ، بأية حال ، الى إيضاح كل غموض الكون . ومن هنا فان الفنون الخلاقة والدين وخاصة الأخير ، تقع على عاتقها مهمة إيضاح واثراء ميادين واسعة من الخبرة لا يمكن أن يصل اليها العلم .

ان قدرة العلم المتزايدة على كشف نظام الكون وجماله ، ابتداء من أسرع الجسيمات الأولية زوالاً حتى الذرة ، والجزيء ، والخلية ، والانسان ، وارضنا بكل حياتها الزاخرة ، والمجموعة الشمسية وما بعد المجرة ، ورحابة الكون نفسه ، كل هذا يؤلف السبب الحقيقى ، السبب الذى لا جدال فيه لكون العلم هاما ، وكون تفسيره وتوضيحه لكل الناس عملاً على جانب كبير من الصعوبة ، والضرورة والأهمية ، والقيمة .

من الخيال إلى الحقيقة

ه.ج. ويلز.. وأول رحلة إلى القمر

د. أنجيل بطرس سمعان

العدل والكفاية بنى البشر *

وقد ترك لنا ه.ج. ولز عددا من القصص العلمية التي يطلق عليها عادة « الرومانسيات العلمية » من أهمها « آلة الزمن » (١٨٩٥) التي تصور آلة تحمل الإنسان إلى الامام وتهبط به في عالم المستقبل ، و « حرب العوالم » (١٨٩٨) وتصور غزو أهل المريخ للأرض « وثول رجال في القمر » (١٩٠١) و « أيام التجسم المذنب » (١٩٠٦) وتصور مرور نجم ذى ذنب بالقرب من الأرض وما يثيره ذلك من رعب وقزع بين البشر

وبالرغم من أن ولز لم يكتب هذه الرومانسيات العلمية لمجرد وصف السفر إلى الكواكب أو لوصف العوالم الغريبة التي تنتهي إليها رحلات متيرة في الفضاء أو في الزمن ، بل استخدم ذلك الشكل الأدبي اما لنقد العالم الحاضر أو لتصوير عالم مثالي أفضل تتحقق فيه أحلام البشر في المستقبل نتيجة لتقدم العلم وتحقيق العدالة الاجتماعية ، إلا أنه كان يملك من الخيال والقدرة على الابداع والتصوير ما جعل هذه الرومانسيات

ان هبوط الإنسان على سطح القمر وتحقيق ذلك الحلم الكبير الذي طالما راود خيال بني الإنسان لا بد أن يذكرنا بتلك المحاولات التي قام بها رجال الأدب لتخيل السفر إلى القمر والهبوط على أرضه ووصف الحياة به . فقد ألهم القمر أكثر من غيره من الكواكب الأخرى مثل المريخ والزهرة مثلا ، خيال الشعراء والقصاصين وفاز بأكبر قسم من اهتمامهم وأصبح موضوعا لكثير من القصص الرومانسية التي يطلق عليها عادة القصص العلمية .

ولعل من أهم أولئك الكتاب الروائي الإنجليزي ه.ج. ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) الذي أقام هذا النوع من القصص على أسس علمية سليمة واستخدم خياله الخصب وقدرته على الخلق والابداع لتصوير بعض النتائج البعيدة لتطوير العلوم ووضعها في خدمة الإنسان . ولقد كان ولز شديد الإيمان بالعلم وقدرته على خلق عالم مثالي ، كما كان مفكرا وفيلسوبا اجتماعيا نادى بضرورة استخدام العلوم ونشر مبادئ الاشتراكية والتنظيم الاجتماعي ليتحقق الفردوس على الأرض ويسود



العلمية أعمالاً رائعة وجد فيها الوف والوف من
من القراء متعة كبيرة . فقد حققت هذه الأعمال
نجاحاً بالغاً عند ظهورها في السنوات الأخيرة من
القرن الماضي والسنوات الأولى من هذا القرن ،
وما زالت تشد إليها القراء حتى الآن . ولعلنا
نذكر أن بعض هذه القصص قد حولت إلى أفلام
ناجحة وعهدنا « بآلة الزمن » على سبيل المثال
ليس ببعيد .

والذي يهمنا هنا بوجه خاص هو قصة
« أول رجال في القمر » وقد كتبها هـ.ج. ولز
مع مطلع القرن العشرين أي قبل أن يتحقق الحلم
الكبير وتطأ قدم أول إنسان سطح القمر بحوالي
٦٨ عاماً .

دائم يخزن وتر أول من صور مثل هذه الرحلة
المحيرة ، صله سميته في ديب عند من الحساب بأن
أقربهم إليه الحساب الفرنسي جول فرن موب
« منه يوم حول العالم » ، « ورثته في بطن الأرض »
التي اعترف بعض علماء الفضاء بتأثيرها القوي
عليهم . فقد كانت مثل هذه القصص بمثابة
الإنهام الذي ألهم خيالهم أثناء الصبا ثم دفع بهم
فيما بعد إلى البحث والتجريب وتسخير العلم
لتحويل الخيال إلى حقيقة . فقصص الرحلات إلى
القمر قديمة قدم بلوتارك ، كتبها لوسيان ، وكبلر
ووليم جودوين ، وجون ويلكنز ، وسيرانو دي
برجواك وغيرهم . وبالرغم من ذلك فإن ولز يتحدث
هؤلاء جميعاً وغيرهم عندما يطلق على قصته عنوان
« أول رجال في القمر » ولعله يرمي بذلك إلى
تأكيد أهمية الصورة التي يقدمها هؤلاء الرجال
لعالم القمر وليس مجرد الرحلة إلى هناك ، كما
فعل جول فرن وغيره من قبل . والواقع أن الرحلة
كما يصورها ولز مثيرة متعة ولكنها مع الاستعداد
لها لا تشغل أكثر من فصلين من فصول الكتاب
الستة والعشرين ، وإن كانت رحلة العودة التي
يقوم بها أحد الرجلين تشغل فصلاً آخر . وتبدو
هذه الرحلة كمقدمة لوصف العالم القريب الجديد
الذي يتكشفه الرجلان اللذان يصسلان إليه .
والواقع أنه بالرغم مما يمتاز به هذا الوصف من

واقعية وجمال إلا أن الدقة تقتضي أن نشير هنا
إلى أن العدد الأكبر من قراء هذه القصة يفضلون
وصف لارحلة ويرون فيها أجمل جزء من أجزائها .

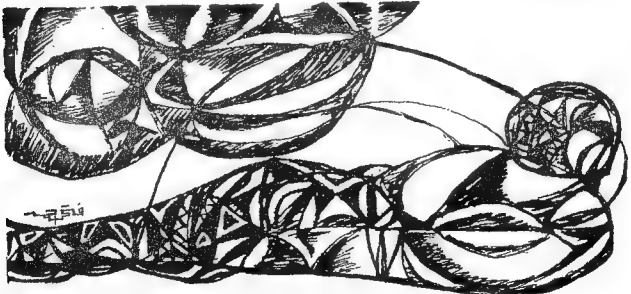
و « أول رجال في القمر » مثلها مثل قصص ولز

والسطوة ، يتخيل التطبيقات العملية لهذه المادة في ميادين الحرب والسلم ، لصنع المدافع والبنادق والسفن ، وفي أعمال النقل والبناء وجميع وجوه الصناعة الأخرى . ويعلم باحتكاك حق الاختراع والتطبيق ، وبشركة كبرى تنمو وتنتشر نفوذها إلى أن تسود العالم .

وينتهي الأمر بكافور وصديقه إلى التفكير في صنع مركبة قمرية تطلق بهما إلى الفضاء - إلى القمر إذ يحدث عقوا عند صنع المادة الجديدة انفجار عنيف يبعث بسقف المصنع وأجزاء كبيرة من منزل كافور والمنازل المجاورة إلى عتال السماء . ويشرح كافور ليدفورد ما حدث قائلا أنه عندما تم صنع مادة الكافوريات العازلة للجاذبية عزلت الجاذبية الأرضية عن طبقة الهواء الملاصقة لها فارتفعت إلى أعلى وحل محلها طبقة أخرى من الهواء المحيط بها وعزلت هذه بدورها عن الجاذبية فارتفعت إلى أعلى وهكذا ، فأحدث هذا تلك الفوضى التي شاعت في كل تلك المنطقة ، ولولا أن طبقة الكافوريات التي تم صنعها كانت رقيقة وغير مثبتة تشبيها كافيًا بحيث اندفعت هي الأخرى في النهاية إلى أعلى لأدت هذه التجربة إلى كارثة محققة نتيجة لاستنزاف هواء الأرض إلى الطبقات العليا وهكذا كل من وما على الأرض من كائنات حية . إلا أن ذلك يوحي لكافور بفكرة مركبة قمرية تستفيد من هذه الخاصية الهامة للكافوريات وتصمم بطريقة يمكن معها التحكم فيها وتوجيهها حيثما شاء راکبها .

العلمية الأخرى تبدأ بإدابة واقعية وتتقدم تدريجياً إلى عالم التجريب العلمي وتنتهي بتحقيق عالم خارق مخالف للمألوف ، هو هبوط رجلين على سطح القمر . وتتلخص القصة في أن عالماً يدعى كافور يكتشف مادة حاجبة أو عازلة للجاذبية ، يطلق عليها اسم كافوريات نسبة إليه . ويعترف هذا العالم أثناء قيامه بمفرده بالتجارب المتصلة بهذا الاكتشاف - في بقعة نائية من ريف إنجلترا - برجل مفلس من رجال الأعمال ، يدعى بدفورد ، يذهب إلى نفس تلك البقعة ليكتب مسرحية عله يكسب شيئاً من المال يقوم به أموره المالية اجر تبكة ويطلع كافور صديقه الجديد على اكتشافه .

يشرح كافور له أن جميع المواد « شفافة » أو خاضعة للجاذبية ولكنه يرى أن لا بد من وجود مادة عازلة أو حاجبة للجاذبية ، تماماً كما توجد مواد حاجبة للضوء أو الحرارة أو التأثير الكهربائي للشمس ، أو حرارة الأرض . وكان كافور يعرف عن طريق بعض العمليات الرياضية أن مثل هذه المادة ممكنة ، بل وكان يعرف الظروف التي يمكن أن توجد معها . وهكذا يداوم التجريب إلى أن ينجح أخيراً في صنع هذه المادة عن طريق خلط عدد من المعادن بنسب معينة مع عنصر غازي هو الهليوم ، كان يأتيه من لندن في آنية حجرية . ويرى بدفورد أن كافور على عادة العلماء ، لا يهتم كثيراً بمسائل التطبيق العملي لهذا الاكتشاف بينما يرى هو فيه إذا أمكن استخدام بالفعل ، باباً واسعاً للكسب وتحقيق الشهرة



فى وصف سلوك شخصياته ومشاعرهم وماتعنيه تلك المغامرة الكبرى بالنسبة لهم • أما بالنسبة للعالم فهي رحلة استكشاف يعنى من وراءها • اذا كلل لها النجاح • معرفة جديدة • أما بالنسبة لزميله فهي وسيلة للحصول على كسب ماى اما عن طريق الحصول على بعض المعادن الثمينة التى قد توجد بالقمر • أو كما يغفل اليه فى شطحة من شطحات الخيال • باتخاذ القمر مكانا يقضى فيه من تتوفر لهم نفقات الرحلة الباهظة اجازاتهم • ومرة أخرى نجد أن ولز قد سبق الزمن وتنبأ بأشياء أصبحت اليوم أقرب الى الحقيقة منها الى الخيال • فمن منا لم يقرأ أن ألوفاً من الأشخاص قد حجروا أماكنهم فى الرحلات المقبلة الى القمر •

الا إن الشك ما زال يراد بدفوردي الذى لم يبد حساسية مما به الرصد منذ البداية • عندما يشرح به دافور فكره الرحلة الى الفضاء يبادره ندر :

« ولكنى لا أرى لماذا تفعل ذلك • فهذا لا يعدو أنا نفق من الأرض ثم نعود اليها » •

يبرد العالم قائلا « هذا صحيح • ولكن قد تتمكن من الذهاب الى القمر مثلا »

فيقول بدفوردي « وما الذى نجنيه عندما نصل الى هناك ؟ ما الذى نجده هناك ؟ »

ويرد الآخر « سنرى ذلك • آه ! فكر فى تلك المعرفة الجديدة » •

ويسأل بدفوردي « وهل سيكون هناك هوا ؟ »

ويجيبه كافور « قد يكون هناك هوا »

ثم يضيف قائلا ان الذهاب الى القمر ليس اسوأ من الذهاب الى المناطق القطبية • فهناك كثير من الرحلات الى القطب لا يرجى من وراءها كسب مادي ثم انه قد توجد فى القمر معادن مثل الكبريت أو الذهب أو عناصر جديدة أخرى • ثم « قد نذهب الى المريخ »

ويتنحى بدفوردي مؤقتا ولكنه يعود الى التساؤل

وينفل اليها ولز • على عادته • وصفا دقيقا لهذه المركبة عن طريق احوار الذى يجرى بين كافور وبدفوردي فالمركبة أو « النجم » كما يسميه كافور كرة معدنة الاسطح • ومصنوعة من الصلب ومغطاة بالزجاج السميك • ومغطاة من الخارج بطبقة من الكافورايت • أما الفسلاف المعدني ا خارجي فيتكون من اطار ثابت تتحرك عليه نوافذ ترفع وتخفض حسب الحاجة مثل « الشيش » الخشيرة • الذى يستخدم فى بعض المنازل • فاذا أفلتت جميع النوافذ • اندفعت المركبة فى خط مستقيم نظرا لتحررها من الجاذبية الأرضية • أما اذا فتحت إحدى هذه النوافذ • فستقع تحت تأثير جاذبية أى جسم ثقيل يوجد فى هذا الاتجاه • وقد زودت هذه المركبة بالأضواء والتدفئة الكهربائية وبكمية مناسبة من الهواء المجد والطعام المركز وآلة لتقطير المياه وبعض اسطوانات الأوكسجين الى غير ذلك من مستلزمات • وصممت كوة صغيرة باعلاها تسمح بالدخول والخروج دون تسرب الهواء • أما مادة الكافورايت التى تطل بها المركبة فتصنع على مرحلتين مرحلة الطلاء أولا • ثم مرحلة التسخين مع تمرير غاز الهليوم ثم التبريد ثانيا

ولا بد أن وصف المركبة قد بدا مقننا لحد كبير لقراء ولز المعاصرين فى أوائل هذا القرن • أما الآن فعندما نقرأ اليوم للمرة الاولى أو نعود اليه بعد قراءة وصف الأقمار الصناعية التى تصنع الآن • فمما لا شك فيه أن قمر ولز يبدو بدايئا ساذجا • فاذا ما قرور « بأبوللو » مثلا وما يحويه من آلات ومعدات فسيبدو غير مقنع على الاطلاق الا أن ذلك لا ينفي ان ولز كان يفكر تفكيراً علمياً سليماً الى حد كبير • فبدلاً من فكرة الصاروخ النفاث الذى يندفع الى أعلى نتيجة احتراق كمية من الاكسجين التى يحملها بداخله • نجد هنا قمرا يندفع الى أعلى نتيجة التخلص من الجاذبية التى تشده الى الأرض ويتوقف أو يغير اتجاهه بالتعرض لجاذبية مصدر آخر • ومن الواضح أن فكرة التوجيه الآلى أو استخدام اللاسلكى لم تخطر لولز على بال • فقد كانت التجربة التى يقوم بها تجربة فردية • أما التجارب التى تجرى اليوم والتى حققت آخر تجربة منها ذلك النجاح المذهل فيشارك فيها آلاف من العلماء والفنيين وتقوم على توافق مئات من الاجهزة الدقيقة المعقدة •

ولعل ولز بوصفه روائيا فى المكان الاول يتفوق



يبادر بدفورد زميله قائلا :

« وما الذي نجنبه بعد كل هذا العناء ؟ »

ويجيبه زميله قائلا « المهم هو أن نذهب » *
 ويفكر الأول قليلا ثم يقول « ولكن ماذا تنتظر ؟

والشك وهنا نرى بوضوح يد الروائي القدير
 الذي يعمل على إيهايم القارئ بحقيقة ما يقص عليه
 وذلك عن طريق تلك اللمسات الواقعية التي
 تؤكد غسرابة الرحلة من جهة وتشكك بدفورد
 الطبيعي وقلقه وتخوفه من عالم المجهول من جهة
 أخرى * فذات يوم مثلا وقد قارب العمل النهاية

لقد كنت أظن أن القمر عالم ميت

ويهن الثاني كتفيه قائلا « اننا ذاهبون لنرى ذلك »

ويردف بدفورد « وهل سنذهب حقا ؟ »

ولكنه يستمر في العمل وقد عاوده نشاطه • وعند نهاية عمله اليومى يذهب لياخذ قسطا من الراحة كالمتعاد ، الا ان القلق والخوف من المصير الجهول - اذا ما ذهب في هذه الرحلة المجنونة - يوزقه ، فيترك المكان بعد ان يخبر كافور انه لن يذهب معه ، ويقضى بعض الوقت بعيدا عن مكان التجربة ، ولكنه ما يلبث ان يعود وقد تغلب على مخاوفه •

ثم تحل اللحظة الحاسمة ، لحظة الانطلاق ، ويدخل الرجلان مركبتهما وتقبل الكوة التي دخلا منها ، وينتظرا قليلا في الظلام • ثم تحدث وجلة صغيرة ويسمع صوت كالفرفعة التي تحدث عن فتح زجاجة من الشمبانيا في حجرة مجاورة • وفجأة يعلن بوفورد انه لن يذهب معه الى القمر • ولكن كافور يخبره انه لم يعد في وسعه ان يتراجع ، فقد اطلقت المركبة وهي الآن في طريقها الى الفضاء الخارجي • وكل ما عليه هو ان يبقى في مكانه ، ويقتصد في الحركة والكلام •

ويخبرنا بدفورد انه شعر لمدة لحظة واحدة بضغط كبير واحساس عابر بان قدميه تضغطان الى اسفل بقوة عدد لا يحصى من الأطنان • الا ان ذلك لم يدم طويلا • وسرعان ما يشعر بالخفة الناتجة عن انعدام الوزن ، يصحبا احساسا غريب في الرأس ، احساس يشبه الصداع ، وخفقان في الأوعية الدموية بالأذنين • ولا تخف هذه الاحساسات بمرور الوقت ، ولكن بدفورد يعتادها شيئا فشيئا بحيث لا يشعر بشئ من عدم الراحة • ويخاطبه كافور قائلا :
« لا تتحرك • اجعل عضلاتك ترتخي كما لو كنت في الفراش • فنحن في عالم خاص بنا • انظر الى تلك الأشياء » •

ويقول بوفورد « وهنا رأيت جميع الحقايب واللغات التي كانت موضوعة على البطاطين في قاع المركبة تسبح الآن على بعد حوالى قدم من حائط المركبة » ويضيف قائلا :

« لم اصبح ولم أحرك ساكنا • انما تملكى الخوف • وشعرت كما لو كان شئى يمسك بى

ويرفعنى ، شئ • لا اعرف ما هيته • وكانت مجرد لسة من يدى للزجاج تحركنى بسرعة • فهمت ما حدث ، ولكن ذلك لم يمنح شعورى بالخوف • لقد حجبنا عن كل جاذبية خارجية ، وكان للأشياء التي بداخل المركبة جاذبيتها الخاصة • ونتيجة لذلك ، فان كل ما لم يكن مثبتا بزجاج المركبة اخذ في السقوط - ببطء لصغر حجمه - نحو مركز للجاذبية في عالمنا الصغير ، كان يبدو في مكان ما قرب وسط القمر ، ولكنه اقرب قليلا الى كافور منه الى ، نظرا لكبر وزنه » •

ويقول كافور « لا بد ان نستدير بحيث يواجه ظهر كل منا ظهر الآخر وتبقى الأشياء بينا »

ويواصل بدفورد وصف مشاعره قائلا « لقد شعرت بأغرب شعور يمكن ان يتصوره عقل ، ونحن نسيح هكذا منطلقين في الفضاء ، وكان هذا الشعور الغريب مخيفاً في بادئ الامر ، ولكن عندما زال الخوف ، لم يكن شعورنا شيئا على الاطلاق ، بل كان شعورا مريحا جدا • والحقيقة ان اقرب شئ الى ذلك فيما ندر به من تجارب على الأرض هو الاستلقاء على فراش سميك جدا مصنوع من الأريش الناعم • ولكن ما اغرب ذلك الشعور بالانفصال والاستقلال التام ! لم اكن اتصور شيئا من هذا القبيل • كنت أتوقع هزة عنيفة عند البداية ، وشعورا بحركة تسبب الوار ولكن بدلا من ذلك كنت احس وكأننى قد تحررت من جسدى • وكان الامر لم يكن بداية رحلة ، بل بداية حلم » • •

وبعد فترة قصيرة يطفيء كافور الضوء الذى كان قد أوقده حتى لا يستهلك اكثر مما ينبغى من الطاقة المحزونة ، ثم تبدأ عملية توجيه المركبة نحو القمر بفتح بعض النوافذ حتى تعمل جاذبية القمر على الأشياء الموجودة بالمركبة • ويصف بدفورد ظلام الكون ثم السماء المرصعة بالنجوم ثم ضوء القمر الذى يفرق المركبة عند فتح عدد من النوافذ • ويقضى الرجلان الوقت في الحديث أو القراءة أو النوم ، ويلاحظان انهما لا يحتاجان الا الى القليل من الطعام ، « يشمران » انهما في حالة من الاستسلام بين البقطة والنوم ، ويسقطان في فراغ من الزمن لا ليل له ولا نهار ، يسقطان بصمت ، ورفقة ، وسرعة الى اسفل نحو القمر •

ثم تقترب لحظة الوصول الى نهاية الرحلة ، وينشط كافور يقفل النوافذ ويفتحها ، يستخدم جاذبية الشمس تارة وجاذبية القمر تارة أخرى

يقوم ببعض العمليات الحسابية • ثم ينظر الى ساعته • ويحول اتجاه المركبة كي يخفف من حدة الاصطدام بسطح القمر عندما تحل ساعة الهبوط وأثناء ذلك يرقب بدفورد القمر والشمس وهما ضوئها الذي يهله ويضيء بصره ، ثم حركة الاشياء داخل المركبة القمرية ، وتغير موقعه منها تبعاً لتغير حركة الجاذبية التي تخضع لها • وأخيراً تستقر بهما المركبة القمرية في فوهة ضخمة من فوهات البراكين المدينة على سطح القمر •

ويصور لنا ولز تلك اللحظات الحرجة التي

تسبق هبوط المركبة القمرية على سطح القمر تصويراً رائعا ، أخوف من الا تتمكن المركبة من الوصول الى القمر وتتوه في الفضاء ، أو تفصل الى القمر وتتحطم على سطحه ، أو لا يوجد الهواء الكافي لاستمرار حياة الإنسان عليه • الا ان الرحلة يكمل لها النجاح وتهبط المركبة بإسلام عند نهاية كيل القمر الطويل وبداية النهار • ثم يصف لنا ولز سطح القمر ومظاهر الحياة به من نبات وحيوان وسكان •

ولعل أدوم ما يصوره ولز وما يدل على خصوبة خياله وقدرته على الخلق والابتكار هو أهل القمر أنفسهم • يسحب كافور وبدفورد أول الأمر لوجود حياة على القمر • ويزداد عجبهم ودهشتهم عندما يرون أهل القمر ويلاحظون مدى الاختلاف بينهم وبين سكان الأرض فهم أشبه ما يكون إلى حشرة قريبة إلى النملة نظراً لصغر أحجامهم ورفقتهم وشغافيتهم • ويفشل الزائران الغربانيان في الوصول إلى نوع من التفاهم مع أهل القمر • فتنشب معركة بين الطرفين عندما يرفض كافور وبدفورد عبور قنطرة ضيقة جداً مقامة على علو شاهق ، ويقتل بدفورد عدداً من أهل القمر ، بينما يتشبث كافور برقيقه في التفاهم معهم ، وخاصة عندما يدرك أنه على عتبة عالم غريب ، ويستنتج ما يراه من آلات ضخمة أن لأهل القمر حضارة متقدمة في بطن القمر وعلى شواطئ بحاره الداخلية التي لا بد أن تنتهي إليها تلك

الممرات والسراريب التي تبدأ مع السطح وتغطي فتحاتها أبواب متحركة ضخمة - ويفترق الصديقان في محاولة للعثور على مركبتهما ليحتما بهما مؤقتاً من البرد ومن أهل القمر • ولكن بدفورد يجرها ويعود بها إلى الأرض بينما يقع كافور في أيدي أهل القمر • ويبقى معهم فترة ، يتعلم لغتهم وشيئاً عن طرق حياتهم ، ويبعث بما يجمع من معلومات في اشارات لاسلكية إلى أهل الأرض ، عملاً بفلسفة العالم الذي يسعى لتحصيل المعرفة ثم نشرها • وفيما تنقطع هذه الاشارات ويبدو أن كافور قد لقي مصرعه على أيدي أهل القمر اللذين عرفوا من طباع أهل الأرض ما جعلهم يعجلون بالقضاء على الشخص الوحيد الذي يعرف سر الوصول إلى عالمهم •

ويعوئنا الوقت لشرح جميع وجوه الحياة مع القمر كما صورها ولز • أما أهم مظاهر هذه الحياة فهو التخصص المتطرف الذي يحدد شكل الكائنات القمرية ويرى في النمو المسرف لبعض قسماتها • فبعض هذه الكائنات تتميز بأيد طويلة وأخرى بأذرع ضخمة وأخرى بأرجل طويلة • وأبرز هذه التشكيلات كائنات تحمل إغطية كبيرة للبحر تبدو كالحوصلة المنتفخة بينما يتضائل حجم الوجه وتضم بقية الجسم إلى أقصى حد •

ويوضح كافور في رسائله إلى الأرض أن هذا التباين الشكلي الكبير يرجع إلى مجهود واع مقصود لتهيئة كل فرد من أهل القمر عن طريق نظام دقيق من التدريب والتعليم والجراحة للقيام بعمل واحد معين يكلف به • فهو إما أن يفكر أو يتنكر أو يبني أو يدير آلة • وهو لا يستطيع أن يفعل سوى ما أعله له وكلف به • ولكنه مهياً تماماً لوظيفته ومكانته في الحياة • وهكذا يعمل كل فرد كوحدة تامة وكجزء من الآلة الكبيرة التي تكون هذا العالم الغريب • فعالم القمر قائم على تنظيم دقيق يشبه إلى حد كبير جمهورية أفلاطون ، وإن كان يبدو وكأن جمهورية أفلاطون قد تحولت إلى كابوس مخيف •

لغة واحدة ، وانعدام الحروب بينهم وقيام الحكم على يد استوقراطية ثقافية .

وهكذا نرى أن قصة « أول رجال في القمر » إلى جانب كونها « رومانسية علمية » من الطراز الأول، فهي أيضا حلقة من حلقات الرواية البؤتوية التي تقدم صورا للعالم المثالي، كما يتمناه بنى البشر أو كما يخشون أن يكون فى المستقبل القريب أو البعيد ، بحيث تعد صورة العالم الخيالى تحذيرا لما قد يكون عليه العالم الحقيقى أكثر من كونها صورة لعالم مثالى يجرى تحقيقه والاحتفاء به . فولتر بالرغم من إيمانه الشديد بالعلم ، يشارك عددا غير قليل من مفكرى العصر الحديث فى إيمانهم بأن العلم الذى يمكن أن يقهر الكون قد يؤدى إلى القضاء على الانسانية ويتحول إلى نقمة على البشر بدلا من أن يكون نعمة لهم .

أما من الناحية الشكلية فتعد قصة « أول رجال فى القمر » من خير ما كتب ولز من رومانسيات علمية . أما ولز فقد أثبت الزمن أنه من ألبه هذا النوع من الكتابة اذ جمع بين القصة المثيرة الشيقة والمادة العلمية الصحيحة ، فى عصره ، والفلسفة الاجتماعية الانسانية ، وترك انرا واضحا فى كل من تبعه من كتاب هذا النوع من القصص .

ومن أهم خلفائه فى مجال القصص العلمى الداخلى فى نطاق الأدب الناقد والروائى واستناد الأدب الانجليزى الذى توفى من بضعة سنوات !
سي . سى . لويس C.S. Lewis مؤلف
الثلاثية التى تتكون من « إلى خارج الكوكب الضامات » وتشمل رحلة إلى المريخ ، « ورحلة إلى الزهرة » ، و « تلك القوة المخفية » . ثم أولاف

ستيبيلدون Olaf Stapledon مؤلف « آخر الرجال وأولهم » و « صانع النجوم » . أما خارج نطاق الأدب فقد أصبح القصص العلمى ينافس القصص البوليسية فى الشبوع والانتشار .

د . انجيل بطرس سمعان

وينقسم أهل القمر إلى طبقات ، تتكون الطبقة المثقفة من الاداريين والاختصاصيين والعلماء ، وعلى قمة هذه الارستقراطية الثقافية يجلس « القمرى الاكبر » . أما طبقة العمال فتتكون مما يمكن أن يسمى « بأيدى الآلة » وهناك أيضا الشرطة القمرية . وأخيرا « ملكات النحل » وهى طبقة خاصة محدودة العدد من الامهات .

ويبدو هذا التنظيم الاجتماعى أول الامر وكأنه تنظيم مثالى . ولكن العالم الأتى من عالم الارض غير المثالى ما يلبث أن يكتشف ما لهذا التخصص المنظم من نواح مجزئة تدعو إلى الرثاء والتشفقة . فهو عالم مخيف لا يختلف كثيرا عن عالم اللوس هكسلى « الجديد الجرى » ، من حيث الآلية التامة للحياة ، وانعدام الحرية الفردية . فالنظرة التى يلعبها كافور لليد الممتدة خارج الاناء الزجاجى الذى يحوى بقية الكائنات القمرى أثناء عملية تهديته ليصبح ملاحقا للآلة من نوع معين ، إنما هى رمز لذلك الازعاج وعدم الانسانية الكامنين فى مثل هذا النوع من التنظيم الاجتماعى . أما صورة العمال اللذين يخدرون ويلقى بهم بين النباتات اللعجية الضخمة ، مجرد أنهم زائدون عن الحاجة فصورة أشد قسوة وأكثر إثارة للأسى والعطف .

ومن الواضح أن هـ . ج . ولز يقدم هنا صورة مبكرة لما يقدمه هكسلى فيما بعد فى عالم من عمليات الخلق والتشكيل فى الزجاجات ، وما يتبعها من خلل الحياة من القيم الدقيقة ، يدفع ببنى البشر إلى ادمان المخدرات ، أو إلى الانتحار . فهذه اذن صورة ساخرة للتخصص المتطرف من ناحية ، ولما يمكن أن يؤدى إليه العلم انضل الطريق من ناحية أخرى .

الا أن ولز يبدو شديد الإعجاب ببعض نواحي عالم القمر الأخرى التى تمثل بعض المبادئ التى طالما دعا إليها فى كتاباته القصصية وغير القصصية مثل الوحدة الكاملة بين أهل القمر واستخدامهم



• بظهور المدينت
الإسلامي بدأت أولى
مراحل الحضارة العربية
ويؤيدت نجاح قيام
هذه الحضارة وانتشارها
إلى عدة أسياب: أهمها
ارتفاع الروح المعنوية
لدى المسلمين بفضل
الدين الجديد، وثانيها
الروح الحربية النابعة
من طبيعة تكوين
القبيلة وتمازجها وتلازم
هذه الروح مع أضحت
المعالم.

شهداء جديدة
على

الحضارة العربية

عبد القاطى جلال

المستشرق جاك ديزلر يشغل حاليا منصب
استاذ بالمعهد الاسلامي في باريس • وهو صاحب
كتاب **يقظة الاسلام** وكتاب **الحضارة العربية** الذي
نحن بصدد الحديث عنه • وقد نشر هذا الكتاب
للمرة الثانية في فرنسا أخيرا بعد أن نفذت
طبعته الأولى التي نشرت في سنة ١٩٦٢ •
ويعتبر ديزلر من الذين عنوا بعناية خاصة
بالحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالحضارات
الأخرى التي كانت تعاصرها وتأثيرها عليها •
وهو يختلف عن بعض المستشرقين بنظرته العلمية
الموضوعية التي لا تخضع لعوامل القومية أو
العنصرية أو الانتماء • لهذا نجده في أكثر من
موضع في دراساته التي نشرها عن الحضارة
العربية والدين الاسلامي يعرب عن أمله في أن

الشعبي • فضلا عن ذلك فقد كانت هنالك حضارات الفرس والفينيقيين والاعريق والرومان والمصريين • وجميعها كانت حضارات وثنية الى ان جاءت اليهودية ثم المسيحية واخيرا الاسلام • وبظهور الدين الاسلامي بدأت أولى مراحل الحضارة العربية • ويعزى نجاح قيام هذه الحضارة وانتشارها الى عدة اسباب اهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد • الامر الذي اكسبهم جرأة جعلتهم يستهينون بالموت في سبيل الله • وقادتها الروح الحربية النابعة من طبيعة تكوين القبيلة وتماسكها وتلازم هذه الروح مع ارض الماعرك • فضلا عن سرعة حركة الفرسان العرب وبساطة ادواتهم الحربية وملابسهم التي لا تعلق الدمامة والعباءة او الجلباب •

ويرى ريزلر انه مما ساعد على انتشار الحضارة العربية ضعف اعداء المسلمين من البين لطنيين والساسانيين المتطاحنين دأبوا والذين لم يحققوا قط قيام امپراطوريتين راسختين على أسس قوية • وقد طلت النظم الاقتصادية والاخلاق والعدالت لدى الشعوب المحكومة من قبل هاتين الامپراطوريتين



شرقية لمبا ودما • كما ان العرب احسوا بمشاعر هذه الشعوب النازعة الى التمرد في أية لحظة بسبب المظالم والتفرقة السياسية والادينية والاقتصادية • وهكذا وفي اقل من ثمانين عاما بسط العرب سلطانهم حتى وصلوا في النهاية الى تور وبواتيه غربا وبلاد الدالاي لاما شرقا •

ان اعز امنية كانت لدى الاسكندر الاكبر هي ادماج الاغريق في الشعوب الشرقية والنظر اليهم جميعا على انهم مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات • من اجل هذا أسس سبعين مستعمرة اغريقية في آسيا الصغرى وحصنها تحصينا قويا لتكون نواة لذلك الادماج غير ان خلفاءه فشلوا في اتباع سياسة الادماج

تسمح هذه الدراسات لغير المسلمين بعرفة الروح الاسلامية وحقيقة تكوينها • وبلغته على ذلك رؤيته للعالم الغربي يقف مشدوها متحيرا امام العلم العربي وكأنه عالم غامض تمامه تحيطه الأسرار ويغمره الجهل ويعيه التعصب • وما يصدر عنه من أعمال أو أفعال اسلامية في طبيعتها وفي ايجاداتها ليست بالأمر العادية أمام الغرب وكثيرا ما تفوته معرفة طبيعة هذا العالم وجوده واحاسيسه وتصرفاته • ويرى ريزلر ان هوة سمجة تفصل بين العالمين اللذين يقوم أولهما على الفطرة والزهة ولانيهما على المادية والاقتناع المنطقي • الغرب يحاول الامساك بالحقيقة عن طريق الجدل الديكارتي والشرق يحاول الوصول اليها عن طريق الله وحده • الأول يتجمل دون شك النتائج التي يصل اليها بجعله وأحكامه سواء أكانت صحيحة أم خاطئة والثاني يستجيب دون شك أيضا الى أوامر القرآن وتوجيهه وسنة رسوله • وهذه الحقيقة في حد ذاتها كافية في رأى ريزلر لمعرفة المسافة الشاسعة التي تفصل بين الإنسان الشرقي والغربي • ومع هذا فانه يرى ان الشرقي لا يعوزه الميل الى حضارة متطورة مزدهرة رغم يقينه أن مستقبل العلم قاصر وان مصير الإنسان مهما كان سيظل دائما بين يدي الله •

أرض الديانات

وفي كتابه الحضارة العربية يحددنا المؤلف في الجزء الأول عن الفترة التي سبقت ظهور الاسلام • ويحدد الوطن الذي ظهر فيه الدين الاسلامي وانتشر ويصفه بأنه يحتل مركزا جغرافيا خاصا بين أوروبا وآسيا وافريقيا • ويرى ان تاريخ الشرق كله يجب ان ينظر اليه أولا وقبل كل شيء على انه نتيجة لتطور الديانات التي نشأت في قلب هذا الجزء العجيب من العالم • حيث ظهر الاسلام على نفس الأرض التي ظهرت عليها اليهودية والمسيحية وانتعشت جميعها في نفس البقعة • وهو يؤكدنا بأن الحضارة العربية انبثقت من المناطق الخصبة في الحجاز خاصة اليمن حيث كانت تقوم حضارة سبا التي غزاها الحميريون الذين كانوا يقطنون غرب الجزيرة العربية وكانت بينهم وبين المصريين علاقات تجارية بحرية • وفيما عدا الحميرين والسبائيين لم تكن هناك تجمعات حضارية في شبه الجزيرة العربية غير البدو الرحل الذين يدينون بالولاء لزعيم القبيلة • أما البابليون والاشوريون فاصولهم حتى الآن ليست معروفة تاريخيا رغم الاكتشافات الحديثة بالنسبة لهذه

قبل تمثل للحضارة الانسانية كما حدث في تلك الفترة •

•

وجاء العصر العباسي فكان من المص عصور الحضارة الاسلامية • فقد كان معظم الخلفاء العباسيين يميلون الى الاخذ بأسباب الحضارة ميلا شديدا ، فازدهرت الفنون والآداب والعلوم في عصرهم وحفل القرن التاسع والعاشر الميلاديان بأعظم ما تنتجته القرائع من علوم وفنون • فاعتبر هذا العصر بحق العصر الذهبي للحضارة العربية • ولم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ أن احتوى قصر ملك أو أمير أو نبيل مثل ما احتواه قصر هارون الرشيد من عقول تتنافس فيما بينها كي تنتج أعظم ما خلفته الحضارة العربية في أوج ازدهارها • ولم يكن الرشيد هاويا أو فنانا فحسب ، بل كان كذلك حاكما ممتازا يعرف كيف يحمي حدود امبراطوريته



وكيف يقود جيوشه الى المارك وكيف يحكم في القضايا بالعدل • ورغم جوده وسخائه وأبنته وتبذيره الذي كان أسطوريا فانه حينما توفي في سن الثانية والأربعين ترك في خزانته ثمانية وأربعين مليوناً من الدنانير • وخلفه ابنه المأمون فنهج نهجه ، بل كان مفعما بالأمال الواسعة الحيرة • وامتلا بلاطه بالعلماء والفقههاء بمختلف طرائقهم ومذاهبهم • وكما كان ميسبب أحد النبلاء الرومان في بلاط الامبراطور أغسطس حامى حمى العلماء والأدباء والفنانين في أيام فرجيل وهوراس كان المأمون كذلك ، فنشر العلوم والفنون والآداب في كل أرجاء امبراطوريته وترجمت في عهده المؤلفات الاغريقية •

عنه وظلت الادارة رومانية أثناء الحكم الروماني • إلا أن الثقافة الهلينية كانت قوية وظلت اللغة الاغريقية هي اللغة الرسمية أكثر من ألف سنة • وحينما جاء الغزو العربي لهذه البلاد انهيار كل شيء • ومعا هذا الغزو كل الآثار الرومانية •

العقيدة والدولة والثقافة

إن كلمة اسلام على حد قول ريزلر يمكن أن تتضمن ثلاثة معان مختلفة هي العقيدة والدولة والثقافة • وثلاثتها تعنى حضارة فريدة • فبعد أن استقر الاسلام في الجزيرة العربية برزت الحاجة الى تنظيم اجتماعي وعسكري وبدأ العرب في عهد الخلفاء يخوضون معارك الفتوحات ، وفي أقل من عشر سنوات منذ وفاة الرسول سيطر المسلمون على دمشق وانطاكية وبيت المقدس وسوريا وفرنسا ومصر • واختلط العرب بشعوب هذه البلاد وتزاوجوا معهم وتضاعف عددهم ، ونزع عندهم غير قليل من البدو الرحل واستقروا في الأرض الجديدة • ورغم هذا ظل العرب أقلية وسط هذا الحضم الهائل من سكان البلاد الأصليين ، لكن هذه الأقلية كانت ذكية وعلى قدر كبير من الجرأة فلم يظل بهم التفكير لكي يدركوا أن هذه البلاد المطلوبة على أمرها كانت قبل مجيئهم آيلة لانهايار رغم أن النظم الادارية فيها كانت مستقرة الى حد ما ، حتى أن الخليفة عمر لم يسمح للعرب بأن يستولوا على أراض في تلك البلاد محافظة على الروح والنظام العسكريين أيضا • لكن الفاتحين مع هذا فرضوا نظاما اقتصاديا ومالية تمود عليهم بالفائدة دون أن يتعرضوا للنظم المستقرة في تلك البلاد ، بل حاولوا أن يستفيدوا منها بقدر الامكان ويؤكد المؤلف خلافا لما يظنه بعض المستشرقين أن الغزاة انتهجوا سياسة طيبة تجاه المغلوبين دون أن يشعروهم بالولاء أو الخضوع خاصة فيما يتعلق بالدعوة الدينية ، ودليله على ذلك أن غالبيتهم احتفظوا بدياناتهم الأصلية نظرا دفع ضريبة معينة وبهذا الشكل استمرت الحياة في سرها الطبيعي وعاد الانتعاش الى الحضارات القديمة والحضارة الهلينية على وجه الخصوص ، كل ذلك في إطار الثقافة الاسلامية التي كانت آخذة في التطور والنمو على أسس راسخة من الأخذ والعطاء ، حتى لقد حدث أن الذين اعتنقوا الدين الاسلامي من شعوب تلك الحضارات استعطاعوا أن يتسموا ماضيهم التاريخي الحقيقي ، بل وحاولوا مزجه بالحاضر وكان الديانة الاسلامية كانت قائمة قبل ذلك • وبما لم يحدث في التاريخ البشرى من

بين السياسة والحرب

يقول المؤلف ان أهم شيء يسترعى النظر هو ان انتشار الاسلام قد يوحى الى المفكر أو الدارس بأن يعتقد مقارنة بين هذا وبين انتشار الدين المسيحي ، هذا الدين الذي قام أساما على غزو القلوب بمثل عليا للخير والمحبة والتسامح .

فيوعلقة « احبوا بعضكم بعضا » كانت المثل الأعلى للمسيح وحواريه . لكن على الصعيد الانساني والأقل مثالية كان النبي على حق حينما برهن على أن احسن المثل العليا هو ذلك الذي ينبع من القوة السياسية والحربية . وشاهدنا على ذلك ان السرعة الفعلة لتطور الدين الاسلامي لم تكن الا نتيجة مباشرة للعوامل السياسية والتقدم الحربي . وانطلاقا من هذه النتيجة التي وصل اليها ريزلر نجدته يلقى نظرة علمية على السياسة التي اتبناها العرب مع أبناء الشعوب الأخرى من أهل اللغة . فيذكر لنا أنه في بداية الفتح لم تكن الامور قد استقرت تماما بالنسبة للعرب . ثم تدريجيا وبالضبط أثناء حكم بني أمية اهتم خلفاؤهم بأهل اللغة ههؤلا ، وجعلهم يحتلون مكان الصدارة في مراكز متعددة . وفي العصر العباسي وصل الأمر ببعض اليهود أنهم فضلوا الدين الاسلامي واعتنقوه عن يقين . وبلغت مساحة الخلفاء أقصى حدودها فانتعشت المبادات الأخرى حتى بلغ عدد دور العبادة في الامبراطورية الاسلامية ما يزيد على أحد عشر ألف كنيسة وعدة مئات من المعابد اليهودية على اختلاف أنواعها .

وظهر بين أهل اللغة من شغلوا الوظائف العامة ، وأصبح منهم الأطباء واصحاب بيوت المال وكبار الزراع . وقد وصل من اعتنق الاسلام منهم الى مناصب الوزراء والقضاة . وفي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي شغل اليهود بالذات أكبر الوظائف في مصر . وكان أبو سعيد والتستاري وغيرهما ممن شغلوا مناصب الوزراء في الدولة الفاطمية في مصر من اليهود .

وانتشرت دور العلم على اختلاف أنواعها حتى شملت أرجاء الامبراطورية الاسلامية ، فكان الطفل في سن السادسة أو السابعة يرسل الى الكتف الملائق للمسجد ويتلقى تعليمه الأول باليجان فيه ، وقد كان قائما على حفظ القرآن . وفي القرن العاشر الميلادي عرف النظام المرحلي في التعليم فوجدت مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائي التي كان هدفه تكوين شخصية الطفل وإخلاقه ثم المرحلة الثانوية وفيها يتلقى الطالب دراسة حقيقية

متنوعة . أما فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة فقد كان الطالب يقوم بدراساتها في الأماكن المختلفة مع المهنيين والحرفيين في المصانع والمراصد ثم نظمت المرحلة الثالثة وأصبح يطلق عليها المدرسة أو الكلية . وبذلك كان العرب أول من عرف نظام المراحل التعليمية الثلاث . وكانت الدراسة في المدارس الملحقة بالمساجد حيث الدراسة بالمجان تقدم للدارس دروسا في النحو والفلسفة وفن الخطابة والأدب والمنطق والرياضة . وهذه المدارس هي غير كتابات المرحلة الأولى التي ورد ذكرها آنفا . وكان الطلبة يلتفون في مدارس المرحلة الثالثة حول اساتذتهم في حلقات ويتلقون دروسهم من طريق الاستماع والمحاور ، وتنادوا ما كانوا يكتبون . وكثيرا ما كان الراغبون في الاستزادة من العلم يرتحلون الى عواصم الامبراطورية ، الى مكة وبغداد ودمشق والقاهرة وكان هؤلاء الرحالة يجدون الكثير من الحفاوة والتكريم وهم في طريق رحلاتهم الى هذه الحواضر حيث ينزلون ضيوفا أعزاء مكرمين لأنهم طلاب علم وطلب العلم في حد ذاته نوع من الايمان والعمل بسنة رسول الله . وتحت تأثير هذا الجانب الثقافي وبفضل ازدهار العلم أنشأ الوزراء السلجوقي نظام الملك في بغداد عام ١٠٦٥ م المدرسة النظامية وبنائها أحسن بنیان وكتب عليها اسمه . وقد أنشئ على نسقها مدارس متعددة في حواضر البلاد الاسلامية بعد ذلك . وقد بنى نظام الملك اسواقا حول هذه المدرسة خصص عائدها لحسابها . وأبتاع الوزير لها ضياعا وخانات وحمامات وأوقف عليها وكان يدرس في هذه المدرسة القرآن والتفسير والسنة والفقه الاسلامي والمذاهب الأربعة والفلسفة والآداب والجغرافيا والتاريخ وعلم السلالات وعلم الآثار وعلم الفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى والهندسة . وبعد ذلك أنشئ في بغداد أيضا مركز اسلامي خاص بدراسة القانون والعلوم والآداب والفنون . ويرجع السبب في انشاء هذا المركز الى أنه حينما نشبت اختلافات بين الاساتذة وطلابهم في مسألة المذاهب الأربعة التي تمثل في الواقع المدارس الأربع الكبرى في الاسلام أنشئ هذا المركز ليجيب على التفسيرات والتبقيات الفصيلة بهذه المذاهب وتكون في مجموعها الشريعة الاسلامية ، وليلبى رغبات المستفسرين من خنفية ايران الشرقية وأفغانستان وتركستان ، ومالكية افريقيا واسبانيا وصقلية ، وشافعية سنوريا والعراق وبقية الاجزاء الايرانية وحنبلية الحنابلة الذين كانوا يشلون سرة المدن

كان هذا في الواقع كما يقول المؤلف تنظيمها حقيقيا للثقافة العامة ومظهرا واضحا للأهمية التي قلده الغرب أخيرا حينما جمع في جامعة باريس المذاهب المسيحية الأربعة ، والتي تطبقه حاليا هيئة أيونسكو بوسائل حديثة .

قوتا العلم والمعرفة

وفي مدى خمسمائة عام من سنة ٧٠٠ الى سنة ١٢٠٠ ميلادية سيطر الاسلام على العالم بقوته الذاتية والروحية المتمثلتين في العلم والمعرفة ، وما الأساس الحقيقي لأي حضارة مزدهرة . ولما كان المسلمون هم ورثة كنوز العلم والفلسفة الاغريقية ، فقد تمكنوا في أوروبا الغربية بوجه خاص من تمثيل هذه الحضارة بعد أن أضاعوا اليها الكثير . وبهذا الشكل استطاعت الحضارة الاسلامية أن توسع من دائرتها في المحيط الثقافي في العصر الوسيط الأوروبي ونفذت بمعنى في الفكر وفي الحياة الأوروبية . ولقد وضع الخلفاء والأمراء نصب أعينهم وفي المكان الأول تطوير الآداب والفنون والعلوم . ولما كانوا يعتبرون أنفسهم حماة المتنورين للفلاسفة والآدباء فقد فتحوا أبوابهم على عصاريمها لهذه الطبقة خاصة الشعراء والعلماء منهم . وتقدمت الثقافة حتى وصلت الى عروش هؤلاء الحكام وسر ملكهم . وفي مراكش تحدث الخليفة الناصر في فلسفة سقراط وأفلاطون وابن رشد في نفس الوقت الذي كان فيه نبلاء الغرب يتفاخرون بأنهم لا يصرفون القراءة والكتابة . وفي قرطبة كان الخليفة الحكم الأموي يمتلك مكتبة تضم أكثر من أربعمائة ألف كتاب وهي تلك المكتبة التي لم يتمكن ذلك فرنسا شارل الخامس بعد أربعة قرون من حكم المسلمين لاسبانيا من حمل أكثر من ألف كتاب منها . ومع هذا فإن الغرب حقا إن الآدباء والعلماء العرب لم يبدوا اهتماما حقيقيا بالآداب الاغريقية العزيز التي وجدت في أوروبا في عصر نهضتها مهتلا غلب المساع . ففي أول الأمر ظلت مؤلفات المؤرخين والكتابات الاغريقية وكذلك الآداب السريحية التي كان يستطيع العرب أن يتوافروا عليه بالبحث والدراسة ، ظلت هذه المؤلفات دون أن تجتذبت اليها . ربما كان هذا يرجع الى أسباب دينية تلتخص في مبدأ القضاء على ذلك المساعي الزمنية المخيف ، لكن الآداب الاغريقية لم يكن في جملته تطبيقا خالصا للدين بدليل أن علماء المسلمين توافروا عليه

لفترة طويلة بقصد الوصول الى التوفيق بين الفلسفة الاغريقية وما نزل به القرآن . وقد طرح العلماء فكرة الابتعاد عن هذا التراث جانبا بعد فترة طويلة نسبيا ، وبدأ المفكرون والمؤرخون في القرن الحادي عشر تقريبا في الإقبال عليه . وكان أولهم ابن قتيبة الذي لم يتردد في الارتقاع بعقيدته الى المستوى العالمي الشامل ، ذلك المستوى الذي يجعل المؤرخ يختصن شمول المصنوع ويتسع صدره لها جميعا دون تمييز بدرجة تؤهل الباحث لانبثاق سيكولوجية خاصة تتركز على روح الفيلسوف وروح السياسي حينما يكون الهدف هو الوصول الى مفهوم متبادل بين الشعوب وحتى بين الناس . ومنذ ذلك الوقت برز التفكير الحر المستقل . وقد أثبت علماء آخرون من المسلمين وجود التفكير الحر المستقل عندهم في وقت كان التعبير فيه عن الأفكار يمد خروجاً خطيرا يرغم التقاليد الحرة للإسلام . وفي هذا الصدد يقول المؤلف إن الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » الذي ظهر في سنة ١١٢٨ يحلل المذاهب المختلفة في حيدة تامة قد يجدها الإنسان بصعوبة عند أي مؤلف مسيحي يعيش في نفس الفترة . وبضيق المقام هنا عن الحديث عن أهم المفكرين والآدباء العرب الذين أثروا الحضارة العربية .



أعمدة العالم الأربع

وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن أثر الحضارة العربية الغربية في الاندلس ويذكر أن اسبانيا الإسلامية كان لها أكبر الأثر على أوروبا في ذلك الوقت . ويبدأ المؤلف هذا الجزء بقوله : إن جامعات الاندلس كان مكتوب على واجهات جامعاتها بحروف من الذهب العبارة الآتية « عماد العالم أربع : معرفة الحكماء وعدالة الأعظماء ودعاء البررة وقيمة الشجعان » .

من جبال البرانس • كذلك عن طريق اسبانيا
الاسلامية تأثر بوكاتشفسكو وتشومس وبعض
القصاصين الالمان • والشعر العربي الاسباني هو
الذي أوحى الى تشيسون وبراوننج بأشعارهما •
وكوميديا دانتى الالهية تدنن بالكثير الى الفيلسوف
ابن عربي الذي عاش في القرن الثالث عشر •
وهذه الكوميديا الخالدة ملوذة بالاصناف العربية
في المواضيع التي تحكى عن الرحلة في ممالك
السما الغامضة والجحيم •

وبفضل التكوين العقلي للشرق استطاع الحيال
الأوربي الانطلاق والتحرر من مسلمات ضيقة
وجامدة كانت تقيده • وهذا في جملة ما يعتبر
أثرا ذا شأن على الحضارة الأوروبية في ماضيها
وحاضرها • فمثلا رائعة دون كيشوت مستمدة
من المفهوم الحضاري العربي • وقد كان سيرفانتيس
سجيناً في وقت ما في الجزائر وكان يقول دائماً
ان كتابه كتب أولاً باللغة العربية • وروبنسون
كروزو مؤلفه دانييل ديفو استوحاه مؤلفه
أيضاً من الرواية الفلسفية حتى بن يقطان لابن طفيل
كما ان تاريخ ابن خلدون ومقدمته المشهورة يرجع
الفصل في الفاء الاضواء عليهما للمسشرقين
الأوروبيين في القرن التاسع عشر الميلادي •

وفي الجزء الأخير من الكتاب يسرد المؤلف أسباب
انحسار الامبراطورية العربية ويعزو ذلك الى اتساع
رقعة هذه الامبراطورية وصعوبة اتصال الخلفاء
بالولاء اتصالاً مباشراً وسرياً ، وانتشار النزعة
القومية في أوروبا وتعدد لغات الشعوب المحكومة
والمذاهب واشتداد ساعد الاتراك السلجوقيين
الذين كانوا باستمرار يقرصون للانقضاض على
الامبراطورية ، ثم أخيراً الحملات الصليبية التي
أضعفت الثقة وهجوم المغول ثم المماليك • وفي
الانديلس اشتملت شوكة المسيحيين فبدأوا
يهاجمون الامارات العربية هناك واحدة
بعد الأخرى • وهكذا الى ان استولى الاتراك على
معظم البلاد الاسلامية وغربت شمس الامبراطورية
العربية •

عبد العاطي جلال

لم يكن من قبيل الصدفة المحضة أن تحتل
المعرفة في هذه العجالة المكان الاول • **فيالعلم**
وحاته في الحقيقة تاصلت الحضارة العربية في
اسبانيا بشكل لا يستطيع معه الزمان محوها أو
التمكن من إزالة ذكرها • ان القيمة الحربية
للحرب كان لها أثر عظيم في اسبانيا • لكن هذا
الأثر كان سريع الزوال حينما تماسك الغلوبون
على أمرهم • والدين الاسلامي رغم جاذبيته غير
المتنازع عليها لم يكن بذى أثر بالغ على الفكر
الأوربي • ولم يكن للشريعة الاسلامية المستمدة
من القرآن رد فعل على الحياة الاجتماعية للعصور
الوسطى الأوروبية بقدر ما كان للعلوم والفنون
الاسلامية التي نفذت بعمق في الثقافة الغربية •
ولن نستطيع بالحديث عن الحضارة الاسلامية
وأثرها على أوروبا دون ان نتصدى للأدب وأثره على
اسبانيا الاسلامية • **كان الاحتفال بالشعر بالغيا**
في الأندلس حيث كان الخلفاء يحبون قرض الشعر
ومتعة الاستماع اليه لفظاً ومعنى وموسيقى •
وقد حملت قرطبة لواء الشعر وأضاعت شعلته
وتبعها في ذلك اشبيلية وغرناطة • ومن خلال
القصائد وأغاني الحب انبثقت رومانتيكية الهمت
فرسان العصور الوسطى الأوروبيين • واعتبر
الشعر الثنائي العربي في ذلك الوقت من أهم
العوامل وأقواها ، اذ تمثله المسيحيون الاسبان
وظهر أثره واضحاً ومستمر في الشعر الشعبي
القشتمالي وترانيم المسيحيين • **واذا كان الحب نوعية**
الافلاطوني والعاطفي منذ القرن الثامن الميلادي
يعتبر موضوعاً أدبياً معروفاً في الشعر العربي
فانه من المهم ان نثبت ان هذا الموضوع انتشر في
المنطقة الوسطى من فرنسا في القرن الحادي
عشر بشكل فيه عمق وثراء يلوغان الوصف •
وبهذا الشكل قلده الشعراء الجوالون أو
« الطروبادور » بشكل قاطع مقطوعات الرجز
الفنائية • ان عادة احترام المرأة التي كان
الفرسان يحيونها برماهم قبل منازل بعضهم
البعض تذكرنا في الحقيقة بالشعر الاسباني
الاسلامي • وأغنية رولان التي ظهرت سنة
١٠٨٠ والتي تعتبر آية من آيات الشعر البدائي
الأوربي تدنن بوجودها الى المنازعات الحربية
التي كانت تحدث هنا أو هناك في الجانب الآخر

البحث عن الشخصية المصرية في الفن

محمد شفيق

من طبيعة مصر، أخصاً بعد
مناسبة البوثة المصرية
التي نصهر كل الحواس
الخاصة وطبعها بطابعها
القومي، وما تاريخ مصر
العريق من كل سوى إغبار
سائر هذه الطبيعة الفريد

تاريخنا التشكيلي هو تاريخ الإجابة عن هذا
السؤال • وقد تعددت الإجابات وتنوعت ،
بتمدد الشخصيات الفنية المؤثرة في تاريخ هذا
المجال كله ، وتنوعت بتنوع الاتجاهات والتيارات
والمذاهب الفنية التي قادتها بعض الجماعات
الفنية وعبرت عنها • تنوع كل هذا وتغير ، أما
القضية ذاتها فقد ظلت باقية •

لذا كان ما يدعونا للتفكير باستمرار هو
معرفة الأسباب والدوافع التي تقف وراء تصدر
هذه القضية بمثل هذا الشمول والقوة • وأول
ما نتلمسه في هذا هو حقيقة أن هذه الدوافع

لم تطرح في حقل فنوننا التشكيلية المعاصرة
قضية فنية في مثل أهمية والملاح القضية التي
نتعرض لها الآن : قضية البحث عن الملامح المميزة
والسمات الخاصة لقوميتنا ، قضية خلق فن قومي
ينبض بالهوس القومي بالعالم المصري العربي • بل
لم تبرز قضية فنية على امتداد تاريخ فنوننا
التشكيلية المعاصرة ، على امتداد الأجيال المتعاقبة
أكثر من هذه القضية • كانت بمثابة السؤال
الجوهري المتصل الذي تطرحه الأجيال باستمرار
وتحاول الإجابة عليه : أي شكل من أشكال
التعبير التشكيلي يصلح لتجسيد ما يجيش به
وجداننا القومي ؟ وعلى وجهه العموم ، كان

حاملة الجرة للفنان م . مختار



ذات طبيعة موضوعية أكثر منها ذاتية . فقد تغيرت الشخصيات الفنية طوال تاريخ الحركة الفنية المعاصرة ، ومع ذلك بقيت قضية الفن القومي قائمة . وفوق ذلك ، نجد حقيقة أخرى : فهذه القضية تحمل أبعادا هي أكثر اتساعا من أن يغطيها تيار أو اتجاه فني محدد ، وهي أكثر شمولاً من أن تستوعبها جماعة فنية بعينها . ففي تاريخ حركتنا التشكيلية المعاصرة نجد التيارات والجماعات الفنية التي تختلف في ملامحها الداخلية ، وفي أهدافها الفنية التقنية وفي رؤياها للعالم ، لكنها تتفق كلها في احساسها القوي بالروح القومية .

جيل الرواد

نتوقف عند نقطة لها أهميتها : فهذا البحث الذى قاد هؤلاء الفنانين لم يكن أبداً من قبيل الابحاث العلمية المجردة التى يجريها العلماء فى معاملهم حيث يشترط أن نوافر أعلى درجة من الاستقلال عن الذات وإحياء الدمى عن الإهواء التخصيصية وعن الأمزجة المختلفة ، أى عن كل ما يؤدى الى كسره الاسقاطات الذاتية . وعلى النقيض من ذلك ، كان بحثهم عن وسائل التعبير الملائمة لاكتشاف شخصيه مصر ، يجرى فى نفس الوقت مع بحثهم المستمر عن شخصياتهم الذاتية ، وعن أساليبهم الفنية الخاصة . بل انهم ليعتبرون - فوق ذلك - أن بحثهم عن شخصيه قوميتهم هو السبيل المباشر والطبيعى المؤدى الى اكتشاف ذاتهم . وان ما لا حظته الناقده الفرنسي « ماكسييليان جوتييه » فى معرض حديثه عن فن مختار فى الثلاثينات ، ليصلح تماماً كمدخل لتفهم القضية كلها : « ان الخصائص الفردية لا يتحقق نماؤها وزدهارها الا فى إطار القوميات » (بدر الدين أبو غازي : المثال مختار ص ١٦٨)

التراث ولغة الفن

على أى أساس كانوا يهتمون فى بحثهم هذا ؟ وبأى وسيلة كان يجرى هذا البحث ؟ كانوا يبحثون عن « جوهر » شخصيتهم القومية . وفى سبيل ذلك ، لم يكونوا يعتبرون فى أى لحظة ان مجرد تصوير موضوعات الفنانين الفرنسيين والأجانب فى اواخر القرن التاسع عشر ، ملئمة بكل ما كان يوجد فى الحياة المصرية ، بل وفى أعوار الحياة الشعبية ذاتها . كانت موضوعاتهم قومية أو محلية ، غير أن ما كانوا يفقدونه هو الشيء ذاته الذى كان يجرى هنا البحث عنه : الوجدان القومى المتغلغل فى نفس الفنان ، الروح التى تنبش بالوجود والمزاج وبالحس القومى . هؤلاء الأجانب كانوا يرون مصر لكن برؤية أجنبية . وقد تختلف آثارهم الفنية التى خلفوها لنا فى قيمتها من مجرد أعمال تسجيلية أو تقريرية بحثة مثل أعمال « رينو » أو « برشيه » ، أو « فرومنتان » ، الى أعمال فنية تعبر بصدق عن شخصيه خالقها مثل أعمال « بيبي مارتان » ، لكنها تتفق كلها من حيث خلو نسجها من أى اثر بالحس القومى ، أو بالرؤية القومية . وبالطبع لم يكن أحد ينتظر أن تحقق ذلك .

ففى جيل الرواد - وهو الجيل الذى طرحت فيه القضية أول ما طرحت - نجد مختار ورعبد عياد ومحمود سعيد وناجي . وكل من هؤلاء الفنانين الرواد ، كان يسعى للبحث عن أسلوبه الفنى الملائم للتعبير عن شخصيته المميزة . نضف الى ذلك ان هذا التميز وانتباين كان أيضاً فى مجال الوسائط الفنية ذاتها : ففى حين كان مختار يخلق عالمه التشكيلى بالخط ، كان بقية رفاق جيله يلبسون عوالمهم التصويرية باللون وبخط . ومع ذلك - ورغم أى من هذه العوامل المختلفة - فقد كان يجمعهم ذلك الحس القومى الذى نراه واضحاً فى أعمالهم . وفى الجيل التالى - وهو الجيل الذى نشأ تاريخياً بعد الحرب العالمية الثانية - نجد جماعة فيه مثل « جماعة الفن المعاصر » تتألف أعادة خلق هذا العالم السوى من جديد : نجد إيزار وحمد ندا وبراهيم مسعود وماس راب وحسين يوسف المين . ثم نجد مدرسة محمد سعيد . كما نجد بعض الفنانين المستقلين أمثال محمد عبد الله وحميه حليم وجمال السجيني وأبور عبد المولى ومحمود موسى . وما نجده فى هذا الجيل ، نجده فى الجيل الذى يعقبه تاريخياً : جيل ثورة يوليو . . . الجيل الذى تفتحت مواهبه الفنية ورسخت أساليبه ووسائطه الفنية الخاصة مع بدايات الثورة : مثل ادم حسين وهجرس وبداية سري وانجي الأباطون وسيد عبدالرسول والنجدى وصالح زها وطه حسين وسعد كامل وجمال محمود ورفعت أحمد . وكان لا بد أن يؤثر هذا الامتداد التاريخى الذى أخذته القضية على طبيعة تكوين الجيل الذى نرى اليوم ملامحه الفنية وهى تتشكل : جيل الفنانين الشباب . ومن الممكن ان نشير الى بعض من فنانى هذا الجيل ، كمل دسوساى والرفاق والأواكس والرشيدى ، لكى نستكمل ايضاح الصورة الشاملة التى نحاول الآن عرضها .

كل هؤلاء الفنانين الذين يشكلون ملامح الاجيال المتعاقبة على حركة فنوننا التشكيلية كانوا يختلفون فى أشياء كثيرة ، لكنهم يهتمون حول قضية واحدة : قضية البحث عن الشخصية المصرية المميزة .

القومية وشخصية الفنان

ونرى - قبل أن نستأنف دراستنا - أن

وحيثما أشرفت مصر على عصر العالم الحديث لم تتخل عنها هذه الطبيعة الخاصة . ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين - وهي الفترة التي كان يتم فيها عملية التطور الحديث - كان كل شيء في بلادنا يعمل على انصبهار المؤثرات الأجنبية الحديثة في بوتقة التراث القرمي القديم . وقد كانت أيضا الظروف السياسية التي عاشتها البلاد في هذه الفترة - حينما كانت بلادنا مقيدة تحت سيطرة قوى أجنبية وتسعى للتحرر منه - عامل من العوامل القوية الدافعة لمزيد من عمليات الانصهار هذه .

في كلمة : كان أكثر ما يهم الفنان المصري الحديث هو بحثه عن عنصر « الاستمراء » في الحضارة والتاريخ . كان أكثر ما يهيم هو التعبير عن واقعة المصابير من خلال امتداده العريض في الماضي . وبالإضافة الى كل ما سبق كان هناك أيضا الجانب « الأنثروبولوجي » الذي يساعد الفنان تماما في خلق وسيلته للتعبير . وما لاحظته « رينيه وييج » أثناء زيارته لمصر عام ١٩٦٥ ، هو نفس ما لاحظته كل فنان مصري حديث . وقد عبر وييج عن ذلك في دهشة المكتشف : « لقد أثار انبهاي ان أستكشف في وجوه الناس الذين التفتيت بهم من شمسال مصر الى جنوبها ، وفي وجوه رجال في السفن ، استكشف الشيء بأولئك الذين احتفظت لنا رسوم المقابر أو الصغور المنحوتة منذ المولة القديمة بصور وجوههم ولأصابعهم » . فهل هذا هو نفس الشيء ، الذي دفع حامد سعيد أيضا لأن يلتقط من صورة الفن المصري عبر تاريخه كله ، عنصر الاستمرار والبقاء ؟ ولقد قال في ذلك « أن نتكلم عن الفن في هذه الأرض خلال العصور المختلفة ، كما لو كان لنا واحدا يتطور ، أمر لم يصبح بعد عاديا مألوف ، ولكنه ضروري » . (حامد سعيد : الفن المعاصر في مصر)

مختار والتراث

بهذه الرؤية الفنية ، وبهذه اللغة المشبعة بأرجاع حضارات ممتدة ، سبغت أول مثال مصري حديث هو محمود مختار تماثله الخالدة . وستعود في أعماله صور تلك النساء بأزيائهن التقليدية التي لم تتغير ، وبعلامهن وحركاتهن منذ أربعين قرنا . سيعود في أعماله نفس الحب بالصفاء والهدوء والكمال الذي نلمسه في كل

اخذ ، لم يكن في وسع الموضوعات القومية وجدها أن تجسد هذه الرؤية القومية . أصبحت القضية هنا منحصرة في « الأسلوب » الفني . في المنهج ، في طريقة معالجة الموضوع . والأسلوب الفني هو قبل شيء « اللغة » التي يبدئ بها الفنان عن أبعاد عالمه . ولغة الفن هنا : أكثر اتساعا وشمولا واستمرارا من أية لغة للكلام البشري . انها لا تتأثر بالأعراض التاريخية ، وهي أقل تعرضا لاختلافات الزمن وتقلباته . ولغة الفن أكثر استعدادا لامتصاص كافة العوامل والمؤثرات النفسية والاجتماعية والفكرية التي تعتمل في كيان أمة من الأمم ، واختزانها في قلبها .

من هنا اكتشف الفنان المصري الحديث لغته الفنية من خلال التراث الفني القديم على امتداد تاريخ مصر العريض ، اكتشف من خلال انبشائر القديم لغته القومية الخاصة . هذه اللغة التي انخرزت وامتصت في قلبها آثار حضارات عريقه متواليه ، فلفتت في مسيرتها العريضة أشياء واستبقت أشياء أخرى ، وما استبقت كانت خلاصة تفاعل أوجدان القومي الممتد .

هذه الأشياء التي تستبقيها الحضارات سواء أسماها البعض بالرموز الباطنة ، أو أرجعها البعض الى فاعلية اللاشعور الجمعي ، أو وجدها البعض الآخر كمعبر ضروري من عناصر استمرار تطور التاريخ ، كانت هي الأساس الذي اعتمد عليه الفنان المصري الحديث في بحثه عن الشخصية المصرية القومية . واذا كانت لكل لغة مفرداتها فان لغة الفن القومية التي نعلمها هنا ، قد تحدثت مفرداتها في مصر وفقا لظروفها الحضارية والتاريخية والجغرافية . ولقد اكتسبت غنا وتنوعا وثراء بالذات بفضل وضعها هذا . فخلال آلاف السنين تتابعت على مصر حضارات قديمة عريقة : الحضارات المصرية القديمة ، والقبطية والإسلامية والأثرية . كما أن وضعها الجغرافي ذاته قد جعلها تحمل رسالة حضارية عظيمة هي أن تؤلف بين جزئي العالم المتنازعين على مر القرون ، وهما الشرق والغرب . ومعنى ذلك كله ان تنزايد حصيلة مفردات هذه اللغة القومية ، وان تتنوع . ومن طبيعة مصر ، من طبيعة هذا الجزء من العالم ، انها تعد بمثابة البوتقة العميقة التي تصهر كل المؤثرات الخارجية ، وتطبعها بطابعها القومي وما تاريخ مصر العريض . كله سوى اختيار مستمر لهذه الطبيعة الفريدة .

آثار مصر القديمة • وستجلب هذه الملامح الفنية معها انها ذلك الشعور بالعظمة والضخامة والقوة الملائمة لكل عمل مصرى قديم • وسنلمس فى فلاحات مختار الشيء الكثير من الرقة • وسنجد فى الخطوط التى تجدد شكل أردبتين أو حركة التفاتتتين الخفيفة نحو النهر ، أو حملهن لانه رشيق ، أو اشراق وجوههن العذرية بابتسامة عذبة ، سنجد فى هذه الخطوط أكثر الايقاعات دقة ورهافة • هى نفس صفات الخطوط الشائعة فى كل التماثيل الفرعونية • فهل كان عمل هذا الفنان مجرد تصوير حياة ماضية ، سאלقة ؟ كلا لقد كان « **الوحي** » بالماضى عند مختار وسيلة تجسيد ملامح الحاضر ذاته • وقد كان يسعى للتعبير عن خلود ذلك الحاضر ، وعن مثاليته أو نموذجيته • وكانت عملية ربطه بالماضى ، أو عملية « **التبعية** » التاريخى كما يقول رجال الدراما ، كافية لتكسبه هذا الحس التالى المسيطر كافية لتعميق الاسطورة • وقد اكتشف مختار نفس الشيء الذى سيكتشفه رينيه ويح بعد ذلك بثلاثين عاما : استمرار الماضى فى الحاضر •

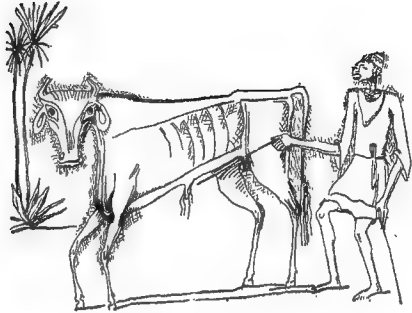
غير أن الفن فى صميمه عملية خلق مستمرة للأشياء ، وابداع متجدد للحياة • • • • • حينما كان مختار يتجس فى التقاط الجوانب الخالدة فى نماذجه المثالية ، كان يعبر هذا عن حلم غده ، عن الصورة التى يمثّلها مستقبل العالم الذى يعيشه • كان يرى نفس المعنى الذى أراد مثال عظيم هو « **رودان** » أن يؤكده : « **إن الفن الخفاق بالحياة لا يعيد أعمال الماضى ولكنه يكملها** » • وهذه مهمة ليست أبداً بالهمة الميسرة ، وخاصة فى حالة مثل حالة مختار ، وفى ظروف مثل ظروفه • وقد استطاع ناقد من نقاد الفن معاصر لمختار هو « **أوك بنسو** » ، أن يلمس جوهر القضية ، فى كلمة عميقة كل السبق : « **كم هى تركة عظيمة ، وامتياز له خطره على فنان حين يكون أسلافه هم هؤلاء المبالغة الذين أقاموا تلك التماثيل الفرعونية العظيمة** » فهل كان فى فى استطاعة هذا الفنان - والحالة هذه - أن يعيد أعمال الماضى وأن يرجع مجدها السالف ؟ وإذا كان عليه - كما يقول رودان - أن يكملها فبأى وسيلة ؟ هنالك باستمرار تقسوم عوامل « **ضغط** » يتعرض لها الفنان من قبل التراث القومى الذى ينتهى اليه • إن التراث يميل لأن يدفع الفنان لتحقيق تواصله واستمراره ، وإعادة بعثه من جديد • وكلما كانت الفجوة عميقة بين حاضر الفنان وتراثه القديم - كما هو

ماثل فى حالة مختار - زادت عوامل الضغط على الفنان ، لأن الفنان يصبح فى هذه الحالة مطالبا بالبحث فى احياء الروابط بين القديم والجديد والتى اما أن تكون قد تقطعت تماما ، أو أن تكون قد أصابها نوع من الجمود أو الضعف •

ومختار كنهات لم يكن أمامه نبع أكثر غنى على امتداد تراث بلاده النحتى بأكمله من النحت المصرى القديم • وقد كانت فترة نضوج الوجدان القومى عند هذا الفنان ، هى نفس الفترة التى تم فيها اكتشاف الكثير من الآثار المصرية القديمة وكانت حفائر « **كلوتر** » و « **دى مورجان** » و « **كوبل** » تتم على مسسح من كل أذان فى العالم • وقد أوقدت فى نفوس الناس جذوة حب التعرف على حضارات الشعوب فى المصور القديمة من تاريخها البشرى • وبمعنى آخر ، أوقدت جذوة الوعى باستمرار العصر الانسانى وامتداده عبر تاريخ العالم الطويل •

الرؤية الشعبية والتمرد

ومع اختيار سيبيرز فى جيل الرواد فنان



في الحقل للفنان د • عياد

هي الطبيعة المجردة بكل ما حوت ووحى هو الشعب ، أتلقى قواعدهما وأصوغهما من الطبيعة بما تشتمل من موضوعات متعددة وعناصر متنوعة من ضمنها الفلاح والعامل وكافة طبقات الشعب والحيوانات الأليفة المشاركة لهم في كفاحهم اليومي .. هؤلاء هم حقا العناصر التي أحببتها، وألهمهم يرجع الفضل في معاونتي على تفجير الشعور وأطلاق المواهب الفنية التي كانت كامنة في في فراة نفسي » (وأعرب عياد : (أحاديث في الفنون الجميلة ص ٣١)

وتفتنى لغة راغب عياد الفنية من حيث شمول مفرداتها وتنوعها، إلى بفضل تحررها من القوالب والجمود . ففي لوحاته التي بدأت تتحرر من أسر الكلاسيكية والأكاديمية وكذلك من أسر نوع من النزعة الانطباعية الإيطالية التي استمدتها من أستاذه فورتشيللا ، في هذه اللوحات نلمس تأثرا واضحا بتلك الخطوط السلسة ، القوية ، الحالية من الظلال ومن التجسيم ومن المنظور ، هذه الخطوط التي نراها منتشرة على جدران قببور ومعايد المصريين القدماء . ونلمس أيضا نفس النقاء اللوني ، واقتصاده وتكثيفه . كما نجسد في نفس الوقت تأثرا واضحا بنفس مفهوم التصوير الحائطي المصري القديم من حيث وضع

يتوقف عليه تحقيق التمرد الكامل على القوالب الأكاديمية الجامعة ، والرؤية الأجنبية الغربية : انه الفنان المصري وأعرب عياد . كما يتوقف على هذا الفنان أيضا ميلاد اتجاهه كامل في الفن المصري المعاصر ، سنرى نموه المستمر على امتداد الأجيال اللاحقة كلها ، حتى اليوم . اتجاه يستمد منابع الهاماته الفنية من مصدر مختلف تماما عن كل ما كان شائعا في عصره : الفن الشعبي وعلينا ان نلاحظ عملية التطور الداخلية لهذا الاتجاه التمردى . فقصيد بدأ من مجرد تساؤل موضوعات الحياة الشعبية ، الى محاولة التوغل في صميم الرؤية الشعبية ذاتها ، وتبني وجهة نظرنا للعالم ، ومن ثم استلهاهم الوسائل التعبيرية الخاصة في الفن الشعبي ، سواء في تناول الخط أو اللون أو تصميم التكوينات التشكيلية .

لندعه يسرد لنا قصة تمرده التي بدأت من تجاوز تعاليم دراسته الأكاديمية ، الى الارتباط بفن الشعب :

« ان نافذة الفلحت امامي وأرتنى علما جديدا عالم الحياة الحرة الطليقة التي تعكس في النفس الذاتية المستمرة من أحلام داخلية ، لأنني كنت مؤمنا بمذهب الحرية في الفن ، وبأن مدرستي



للفنان مجيد ناجي

نلمسه خلال هذه الخطوط المرححة الكاريكاتيرية ،
والألوان الطليقة الصارخة أحيانا ، والشفافة
أحيانا أخرى .

كل من أتى بعد راغب وأراد أن يتخذ من هذا
الاتجاه وهذه الرؤية الشعبية أسلوبا أو لغة
للتعبير ، قد تأثر بفن هذا المصور . ومكانته

في الفن المصري المعاصر هي مكانة الاب الروحي
لاتجاه كامل في الفن . فقد كان من العسير أن
يظهر فنانون مثل أولئك المنتمين « لجماعة الفن
المعاصر » كمبد الهادي الجزار أو حامد ندا أو
ماهر رائف ، أو أن يظهر فنان مثل حامد عبد الله
وتحية حليم ، دون التمهيد الحظير الذي قام به
راغب عياد ، ودون تحقيق مرحلة الانتقال
الصعبة من الجمود الأكاديمي ومن النزعة
المدرسية الى مرحلة التحرر الفني الكامل ، وظهور
بوادر تأثرت بالرؤية الشعبية .

وهذا هو نفس المفهوم الذي نادى به ناجي في
نهاية العشرينات ، حينما دعا لدراسة الفن

الأشياء والموضوعات التصويرية على خطوط
متوازية متتالية بعضها فوق البعض ، أو على أنهر
متعاقبة متسلسلة استعمار راغب عياد ، إذن ،
نفس اللغة المصرية القديمة ؛ فقد كان التصوير
المصري القديم بالفعل نوعا من أنواع الكتابة .
وهذه اللغة ذاتها قد عرفت امتدادها الطبيعي
في الفن الشعبي ، لأن نفس العناصر الأساسية
المكونة لها ستجدها تتردد بين أيدي الفنانين
(أو الحرفيين) الشعبيين ، حينما ينسجون قطعة
نسيج أو يصنعون آنية فخارية ، أو يجدلون
سلة من السلال . والغنى الفني الكامن في الفن
الشعبي قد لمس راغب عياد بحساسيته الموهبة
وأدرك وظيفة الحضارية ودوره التاريخي من حيث
اخنزائه واحتفاظه في قلبه بكل تنوع مفردات
اللغة القومية على امتداد تاريخه بأكمله .

لقد أدرك هنا نفس ما أنكره الفنان محمد
ناجي حينما قال : « أن الفن الشعبي في مصر
يستوحى الفن المصري تارة ، والفن القبطي أو
النسبي تارة أخرى ، ويستوحى أخيرا الفن
العربي أو الإسلامي » وفي أعمال راغب عياد
نلمس تداخل هذه المؤثرات الفنية القديمة ، ونجد
نوعا من التمازج والتركيب بين العناصر الفنية
القومية المختلفة ، مضافا الى هذه التركيبة المعقدة
نوع من الحس التعبيري ومن المزاج الشعبي

الأسلوب التركيبي المعبر الذي نلقاه في لوحات فنان مثل بول جوجان • كان ناجي واسع المعرفة عميقا في ثقافته الفنية • هضم كل ما جارت به عبقرية عصر النهضة الفنية ، وقد أمدته بالفهم التقدير لقوانين التصوير الأساسية • واستوعب روح التجديد الشاملة في الفن الحديث ، التي تولدت من الوعي بالتراث الفني العالمي ، وذلك لأول مرة في تاريخ الإنسان • واستشعر بكل عمق أبعاد الحساسية الحديثة التي تنجذب إلى صور الفن الحثثة التي تعبر عن وجدان لم يزل يواجه لغز الوجود وغموضه كالفن الأثري ، أو الفن الأخرى الأثري ، أو الفن القوطي •

لقد كان تصوير ناجي بمثابة النموذج الحي لامكان التقاء المفهوم الشرقي مع المفهوم الغربي في الفن • ألم يكن بهذا يلخص ذات الرسالة الحضارية التي آلت إلى مصر أن تحققها وتقسم بها ؟

لقد بدأت العناصر الفنية المتباينة ، التي أثرت على تصوير ناجي طوال حياته الفنية ، تتمازج وتتداخل وتتفاعل ، وتخلق من تفاعلها نوعا من التركيب المعقد ، الذي يصهر الجزئيات الصغيرة المتنوعة المختلفة في كيان واحد متبلور له شخصيته الخاصة وملامحه المميزة • • بذلك يتبلور في أعماله أثناء إقامته الطويلة في بلاد الحبشة • وبالطبع كانت للحياة الحبشية ، لحضارتها الخاصة ومناخها المميز وجوها الشرقية ، دور له أثره في تلوين هذه التركيبة الوليدة • وبهذا المؤثر الجديد ، ألا يبرهن فن ناجي على البعد الأفريقي لمصر ؟ ألا يبرهن على تنوع وغنى اللغة القومية المصرية ، واتساع مصادر تجديدها ونموها المستمر ؟

فنحن أمام لوحات ناجي لا نستطيع أن نستخرج عنصرا واحدا في وسعه تلخيص هذه التركيبة الفنية في فنه • نحن أمام لوحاته إنما نتعامل باستمرار عن سر حيوتها ، تماما كما تسال حامد سعيد عن المؤثرات الفنية الداخلة في عالمه التصويري :

« هل هو ارتجاج اللون ، أم الكلم الشعبي ، أم ألوان مقابر الأشراف بالقرنة ؟ أم هي بهجة البحر الأبيض ؟ أم الحبشة بقيظها وأفريقياسا بالوانها ؟ أم هو سوق القرية ؟ أم وجدان ذلك الفنان الذي يعلم بالتواجد في كل الأمكنة ، غير

الشعبي دراسة رسمية بحسادة ومنظمة ، وكانت أول دعوة من نوعها في ذلك الوقت ، وقد قال « أرجو أن يفسح لهذا الفن مكان في دراسة الفنون الجميلة ، حتى نكتسب بفضل ما يبعثه في نفوسنا من رد فعل هي مناعة تحميها من أخطار الأكاديمية ، وتجدد في نفوسنا روح الإبداع والتجديد » •

التركيب والتفاعل

لم يكن نصيب تصوير محمد ناجي في تأثره بالفن الشعبي يمثل نصيب تصوير راجب عياد ولكننا ، مع ذلك ، لا نستطيع أن نفلر روح البساطة ورغبة التسطيع والغاء الظلال وبهجة الألوان في تصوير ناجي • وهذه الملامح الفنية في جوانبها البارزة ، إنما تكشف عن روح شعبية أصيلة • وهذه الملامح الفنية عكس ناجي إنما نجدتها خلف كل العناصر المكونة لمجاله التصويري • وما أكثر هذه العناصر وما أشد تنوعها • وهي تتلاقى في تصويروه على نحو تركيبى غريب • لقد تأثر في مطلع تحرره الفني بأسلوب التأثيرين ، ثم تأثر بالنزعة الحوشسية والتعبيرية ، لتجده بعد ذلك يتوقف طويلا عند



بنت البلد للفنان م . سعيد

والإفريقية للفن المصري ثم قضية التصوير
الجدارى الجديد ، فان محمود سعيد قد اثار بعمله
وبوجوده قضية الاسلوب الشخصى للفنان المصرى
 - الأسلوب الذى تتلاقى فيه نفس المؤثرات
 القومية التى نجدها تتلاقى فى أعمال غالبية
 الفنانين المصريين المعاصرين . لكنها هنا تتشكل
 بكل الأبعاد النفسية والذاتية للفنان ، لتخرج فى
 النهاية بالاسلوب الشخصى الواضح السمات .

فكل من يرى أعمال الفنانين المعاصرين كمحمود
 سعيد - باستثناء أعمال نادرة لمختار واللوحات
 التعبيرية لرأغب عياد ولوحات ناجى فى مرحلته
 الحيشية - يمكن بسهولة أن يجد لها أشباها فى
 بلاد أخرى . ونعنى بذلك أعمال فنانين مثل
 أحمد صبرى ومحمد حسن ويوسف كامل .
 كل من يرى هذه الأعمال يجد نفس السمات

قانع بمكان . . كان له مرسمه بالاسسكتونية
 وبالريف وبقبرص وعلى التبل وفي سفح الاهرام ،
 وكان كل مكان مرسما لذلك الفنان » . (حامد
 سعيد : الفن المعاصر فى مصر)

وبجانب هذا التنوع والثراء فى لغة الفن القومى
 عند ناجى ، وبجانب تجديداته المحسوسة فى
 التصوير المصرى ، نجد تمرده - الذى يحمل فى
 طياته مفهوما خطيرا - على اطار لوحة الحامل
 ذاتها . وهذا التمرد الخطير - وباعتبار أسبابه
 الفنية وبواعثه التقنية البحتة - ينطوى على
 أبعاد أكثر اتساعا ، أبعاد اجتماعية فى جوهرها
 فقد نادى بضرورة خلق اللوحة الجدارية الضخمة
 لتكون اطارا جديدا للتصوير المصرى ، بدلا من
 لوحة الحامل المحدود . والقضية هنا ، بالطبع ،
 هى قضية جمهور ، قبل أن تكون قضية اى
 شئ آخر . فاللوحة الجدارية انما خلقت دائما
 لتغطى الأماكن العامة المفتوحة ، وتيجى لتتسع
 باستمرار للجمهور الكبير . فهل هذه عسرة
 للآطار التصويرى القديم ، اطار التصوير الجدارى
 عند الفن المصرى القديم ؟

الاسلوب الشخصى

إذا كان كل فنان من فنانى جيل الرواد ، قد
 اثار بعمله وبوجوده قضية من قضايا الفن ، مثلما
 اثار مختار قضية خلق الفن النحتى المصرى المعاصر
 وآثار رأغب عياد قضية المنابع الشعبية للتصوير
 المصرى ، وآثار ناجى قضية الأبعاد الشرقية

كيانا واحدا متماسكا • هذا الكيان المتناسك قد تصنعه القوائم المتدرجة على امتداد وحدات التكوين • وقد تذيبه الخطوط والمساحات المتداخلة ، فتكتفسه وتبلوره • وقد توحى به الأشكال الملخصة المبسطة التي بعدت كثيرا عن مصدرها في الواقع الطبيعي •

لذا يجهل التكوين في تصوير محمود سعيد وكأنه تكوين النحت البارز ، خاصة النحت المصري البارز : دعائمه هو المسطح • لكن هذا المسطح يبدأ يتحطم ويتشقق بفضل البروزات التي تتشكل في الأجسام النائقة ، وبفضل التكوين في الأشياء ، وبفضل خلق نوع من المستويات المختلفة المتداخلة تحل محل المتطور الفوتوغرافي •

من هنا نلمس هذه النزعة الهندسية الواضحة في تكوينات هذا الفنان • وقد استمدتها من دراسته العديدة للفنون التصويرية في عهد النهضة ومن تحليله لهندسة العمارة • ولكنه استخدم هذه الهندسة - كما يقول - رمسيس يونان - استخداما خاصا • ويستطرد يونان في دراسته للجوانب الهندسية في تصوير هذا الفنان : « لم يجعل منها مجرد وسيلة مستترة للإبداع بالتوازن والانسجام كما فعل أساتذة الفن الأوروبي ، وإنما جعلها نظاما صريحا صارما يفرض على اللوحة فرضا ، وكأنه حكم القانون أو حكم القدر ، فيذكرنا على نحو ما بهندسة الفن الفرعوني ، أو بالأحرى السومري » •

وبهذا المفهوم عن التكوين المستقل ، هذا التكوين « الشخصي » ، وبذلك الخلق الجديد للأسلوب الذاتي ، أورد محمود سعيد أن يبدع لغة يشيع فيها «ل» درجة من الحس القومي ، وتنضج بكل ما هو مصري - لغة تعبر عن كافة الموضوعات التي تمثل صميم الحياة المصرية : بساتينها ، ونيلها وشراخ مراكبها وخيولها ، بمقابرها العتيقة وشوارعها البدائية وخيولها العربية الأصيلة وتخييلها المتداخل الساق ، بفلاحاتها المحجبات ، والمكتشفات الوجوه ، بتقاليدها الشعبية الميزة • وبشاهد رقصات « الزار » و « الذكر » • لغة تتغنى بعظمة هذا العالم الرحب الممتد •

محمد شليق

الانطباعية التي نلقاها عند الكثير من مصوري العالم الانطباعيين •

لنرى ، كيف يأتي لنا الاحساس بالأسلوب الشخصي في لوحات محمود سعيد • وأول كل شيء ينبغي إعتبار المفهوم التصويري للوحة بوصفها عالما داخليا متكاملا ، لها خصائصها المستقلة نوعيا وكيفيا عن منطلق الواقع الطبيعي وعلى أساس هذا المفهوم أقام محمود سعيد دعائم تكويناته التشكيلية • أن التكوين يتشكل عند الفنان وكأنه الأثر الذي تخلفه بصمته • فالمنادج والناصر والوحدات التي يحتويها التكوين ، إنما تخلق من تفاعلها علاقات معينة ، تبعه لتترجم احساس الفنان بالعالم • والتكوين إنما يخلقه الفنان لمعكى الإيحاء « بوحلة » شعور نلمسها بمجرد الانطباع الأول •

ومع أن فن محمود سعيد قد بدأ من التمرد على المنطق الطبيعي للواقع ، فإنه قد بدأ أيضا من رفض مفهوم اللوحة كسطح ذي بعدين • • الأمر الذي يثير الدهشة أن لوحاته وإن كانت مملوءة بالتجسيم أو بمعنى أدق بالسطوح المكورة إلا أنها تقوم على الاحترام الحسوس لسطح اللوحة • ولسنا نجد في هذه اللوحات أي منظور ذي منطق فوتوغرافي • فمثلا ، من المصادر تماما أن نعرض على أية لوحة من لوحات محمود سعيد خالية من العنصر الطبيعي ، وخاصة نهر النيل ، إلا أننا لا نشاهد في أي منها « منظرا » طبيعيا • حقا سنجد فيها نوعا من الاحساس بالأبعاد • لكن ما أكثر اختلافه عن تلك الأبعاد الطبيعية الفوتوغرافية التي نلقاها في أعمال الكلاسيكيين والأكاديميين • وسيعرف هذا الفنان كيف يخلق من الأبعاد المختلفة للواقع

لوحتا الغلاف

للفنان السويسرى العالمى ألبرتو جياكوميتى (١٩٠١ - ١٩٦٦) الذى يعد الوجه الآخر للنحت العالى الحديث ، والذى يواجه المثال البريطانى الشهير هنرى مور ، وقد ولد جياكوميتى بهذا مطلع القرن العشرين بعام واحد ، ولكنه توفى قبل أن يغيب هذا القرن بخمسة وثلاثين عاما كاملة . وجياكوميتى ظاهرة ذات أهمية خاصة فى النحت الحديث ، أن تماثيله الدقيقة الرفيعة المستطيلة ، ذات الأشكال المشوهة الحادة التى يلعب فيها الفراغ دورا كبيرا ، تبدو متشابهة على كثرتها ، وتبدو كما لو كانت متأثرة بفن الحفر . والواقع أن كل تماثيل جياكوميتى نجدها وقد نجح فيها الفراغ دورا لا يقل أهمية عن دور الكتلة نفسها ، بل أن الفراغ هو الذى يفرض نفسه على الكتلة ، ولأن الواقع كان يشد جياكوميتى مثلما كان يجذبه الخيال ، ظلت أعماله تتأرجح بين التشخيصية وبين التجسدية ، بل كثيرا ما كانت تجمع بينهما فى التمثال الواحد .



● بفكرها المفتوح لكل التجارب وإيمانها العميق بمسئولية الكلمة المتخصصة تواصل مجلة الفكر المعاصر رسالتها فى تقديم الأعداد الخاصة التى تناقش قضايا العصر الحاضر ومشكلات إنسان القرن العشرين .. فنقدم فى العدد القادم عددا ممتازا عن :

قضايا العلوم الإنسانية

تشارك فى تحريره الصفوة المثقفة من أساتذة الجامعات ومن الكتاب والنقاد والمثقفين .

المجلة العالمية

عدد ٥٩ يناير ١٩٧٠



قضايا
العلوم
الإنسانية

عدد
ممتاز





مجلة الفكر المعاصر

رئيس التحرير :

د . فؤاد زكريا

مستشار التحرير :

د . أسامة الخولي

أنيس منصور

د . عبد الغفار مكاوي

د . فوزي منصور

سكرتير التحرير :

جلال العشري

المشتري الفني :

صفوت عباس

تصدر شهريا عن :

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر

هـ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت: ٩٠١٦٤٨ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١١٩٧

صفحة

٤	• هذا العدد
١٣	• غقيات في طريق العلوم الانسانية • • • • • د • فؤاد زكريا
١٩	• دراسة المجتمع علم • • • • • د • سمير نعيم أحمد
٢٨	• جسر بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية • د • أسامة الخولى
٣٨	• القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية • • • • • صلاح فنصوه
٥١	• الظاهريات وأزمة العلوم الاوربية • • • • • د • حسن حنفى
٦٠	• الجدل والعلوم الانسانية • • • • • امام عبد الفتاح امام
٧٠	• دراسة المجتمع بين الامبريقية والتنظير • • • • • د • محمد محمود الجوهري
٨١	• الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الماركسى • • • • • السيد يس
٨٦	• العلوم الانسانية • • • • • بعد أن ذاب الجليد • • • • • حوار مع : جيرى فياتر
٩٦	• طبيعة الموضوعية في التفسير التحليل النفسى • • • • • د • أحمد فائق
	• أسلوب تحليل المضمون واستخداماته • • • • • عبد الحليم محمود السيد

كتب جديدة :

١٠٥	• نحن والعلوم الانسانية • • • • • عرض ونقد : د • فؤاد زكريا
١١٣	• الطب النفسى المعاصر • • • • • تحليل : لطفى فطيم
١١٧	• خواطر في فلسفة التاريخ • • • • • د • عبد الغفار مكواى
١٢٨	• مشكلات منهجية في دراسة السلوك الاجرامى • • • • • صلاح عبد التعال
١٣٦	• بين النظرية والمنهج في النقد الادبى • • • • • د • عبد المنعم تليمة
١٤٤	• اللغة في ضوء البحث الحديث • • • • • د • محمود فهمى حجازى

هذا العدد

لم يكن هدفنا في هذا العدد هو أن نقوم عرضاً عاماً لانجازات العلوم الانسانية ، اذ ان عرضاً كهذا ، حتى لو كان موجزاً . لا تكفيه عشرات المجلدات . بل كان لنا هدف أكثر تواضعاً ، و عرض التطورات الحديثة في مناهج العلوم الانسانية وفي نظرياتها العامة ، دون أى خوض في تفصيلاتها . فليس من مهمة هذا العدد أن يقدم عرضاً « للمضمون » العلوم الانسانية، وإنما هو يترك مسائل المضمون جانباً لكي يركز جهوده على عرض كل ما هو جديد في الأساليب الفكرية والعملية المستخدمة في هذه العلوم .

وعلى الرغم من أن هذا هدف متواضع من حيث نطاقه ، فإنه من حيث قيمته اهم بكثير من البحث في مضمون هذه العلوم وتقديم عرض لتطبيقاتها الخاصة . ذلك لأن النهج المتبع في أى علم انساني هو الذي يتحكم ، آخر الأمر ، في تحديد طبيعة المضمون ، بل هو الذي يرسم طريق الانجازات التي يمكن تحقيقها فيه عملياً . والنظرية العامة هي التي تصيغ بطابعها الخاص كل التطبيقات التجريبية . وجميع

عقبات في طريق العلوم الإنسانية

د. فؤاد زكريا

التحولات الحاسمة في مجال العلوم الإنسانية إنما تمت بفضل مناهج أو نظريات جديدة ، أما التطبيقات فهي على الدوام نتيجة لاحقة تترتب على التغيرات في المناهج والنظريات .

ولسنا نزع أننا حققنا هذا الهدف كاملا . فهناك علوم إنسانية لم يرد لها ذكر في هذا العدد ، وتلك في لأغلب هي العلوم التي يقلب عليها الطابع الفني التخصصي ، والتي يصعب عرض تطوراتها المنهجية إلا في أبحاث شديدة التعقيد . وهناك علوم إنسانية أخرى نشعر بأن معالجتها كانت تحتاج إلى مزيد من الاستكمال . ولكن الذي يمكننا أن نؤكد - مطمئنين - هو أن كل من أسهم في هذا العدد قد بذل قصارى جهده لكي يقدم إلى القارئ المثقف صورة دقيقة وافية قدر الإمكان للتطورات الأخيرة في مناهج ونظريات مجموعة من أهم العلوم التي تتخذ لنفسها موضوعا من دراسة أعظم الكائنات واعتقدها - ألا وهو الإنسان .

الفكر المعاصر

أوائل العصر الحديث ، مرتبطة باتجاه دكرات إلى البحث في أعماق الذات الإنسانية ، واستغلال مهد جديد للفكر الفلسفي ، بدور حول المعرفة الإنسانية والمنهج الذي ينبغي أن يتبعه العقل الإنساني للوصول إلى الحقيقة ، وهو المهد الذي كانت ترمز إليه عبارته المشهورة « أنا أفكر إذن أنا موجود » . وكانت العلاقات الاجتماعية إلا إنسانية التي أدى إليها انتشار الثورة الصناعية في أوروبا ، هي الأصل في ظهور ذلك الفهم الجديد للمجتمع الذي نادى به ماركس ، وأصبح منذ ذلك الحين عاملا رئيسيا من العوامل إلى تحدد شكل مجتمعنا المعاصر . وكانت الأزمة إلى أحدثتها العلوم البيولوجية في القرن التاسع عشر ، وإدراك الروابط الوثيقة بين طبيعة الإنسان الحالية وبين أصوله الحيوية الأولى ، من العوامل إلى ساعدت على تحول دراسة النفس الإنسانية في اتجاه جديد بفضل التحليل

كان ازدهار الدراسات الإنسانية - وما يزال - مرتبطا على نحو وثيق بالآزمات التي يمر بها الإنسان نفسه . ففي كل عصر يجد فيه الإنسان نفسه أمام مفارق طرق حاسم ، أو يرى نفسه عاجزا عن مواجهة تحديات أقوى منه وأبعد عن سيطرته ، أو يشعر بأن زمام الأمور أوشك على الإفلات من يده ، وبأن هناك قوى عاتية لا سلطان له عليها ، توشك على أن تودي به إلى النحر - في كل عصر كهذا ، كان الإنسان يعود إلى نفسه باحثا منقبا ، وكان يقنع نفسه بأن حل مشكلاته يكمن في داخله ، وفي فهمه لنفسه ، قبل أن يكمن في الطبيعة الخارجية . وهكذا كانت الآزمات السياسية والكوارث المتلاحقة التي مرت بها أثينا في عصر سقراط مرتبطة باتجاهه إلى بحث النفس الإنسانية في عبارته المشهورة « اعرف نفسك » وكانت أزمة العلم الطبيعي ، والهزة العنيفة التي أحدثتها الكشوف الفلكية في

٢ - ويرتبط بالعقبة السابقة اعتقاد ظل مسيطرا على الأذهان ردها طويلا من الزمان ، يرتكز على حقيقة لا يمكن إنكارها : **هي التعمق المفرط للظواهر البشرية** . من هذه الحقيقة استنتج الكثيرون أن أية معالجة علمية لتلك الظواهر لا بد أن تكون تبسيطا مفرطا ومخلا ، يهبط بها إلى مرتبة « الأشياء » المألوفة ، المتكررة ، التي تسير على وتيرة واحدة ، ويمكن بسهولة كشف نماذج للأطوار المنتظم في سلوكها . على حين أن أهم ما في الإنسان هو الاختلافات من فرد إلى فرد ، لا الصفات المشتركة بين الأفراد . هذه العقبة تفتقر مقدمتها رئيسية موروثة منذ عهد الفلاسفة اليونانيين الأوائل ، هي أنه « لا علم إلا بما هو عام » ، ولكن العلوم الإنسانية اثبتت ، بفضل مجموعة من المناهج المتكررة ، أن من الممكن قيام علم بما هو خاص ، أو أن الفردى يمكن أن يكون موضوعا لدراسة لا تقل في علميتها عن تلك التي تتعلق بما هو عام ، وبذلك قضت على الأساس الذي تركز عليه هذه العقبة .

٣ - وأخيرا ، فقد اعتقد الكثيرون أن العلوم الإنسانية ، حتى لو استطاعت أن تفسن لنفسها مكانة مساوية لمكانة العلوم الطبيعية ، ليست بأفضل وسيلة لمعرفة الإنسان . فهناك حدود معينة لا تستطيع هذه العلوم أن تتعداها ، وهي إذا تمكنت من معرفة الإنسان فإنما يكون ذلك « من الخارج » ، أما التعمق الحقيقي في أغوار النفس البشرية ، والنفاذ إلى جوهرها الأصيل ، فإنما يتم على أيدي وسائط أخرى ، كاللادب ، والفن ، والفلسفة . وذهب بعض أنصار هذا الرأي إلى حد القول بأن لمحة من لمحات دسوتوفسكي قد تفوق - في فهمها لحقيقة الإنسان - مجلدات كاملة في علم النفس ، وأن استيعاب فلسفيا عميقا قد يكشف - بطريقة بسيطة مباشرة - عما تعجز عشرات الأبحاث التجريبية عن الوصول إليه .

على أن الفن والإدب لا يمكنها أن يقدمتا ما فيهما من معرفة عميقة بالنفس البشرية إلا لمن يمر « بتجربة » من نوع فريد ، هي تجربة تذوق العمل الفني أو الأدبي والاندماج فيه . فالعزلة المتضمنة فيها إذن ليست متاحة للجميع ، وإنما هي رهن بتهيئ المرء لتلقيها ، لا عن طريق المران أو التدريب فحسب ، بل عن طريق اتصاله بقدرة

النفسى هند فرويد . كما كانت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى في الثلاثينات من هذا القرن قوة دافعة لمزيد من التعمق في الدراسات الإنسانية ، ولظهور نظريات ومناهج جديدة فيها . وأخيرا فإن أزمة الحرب والسلام التي يمر بها العالم في إيماننا هذه والتهديد الدائم الذي يتعرض له أول جيل بشري أصبح يملك بالفعل من أدوات الدمار ما يكفي لإفناء الحياة على سطح الأرض - هذه الأزمة قد أدت إلى مراجعة جذرية لكثير من مفاهيم العلوم الإنسانية ونظرياتها ، وإلى بلل محاولات دائمة من أجل تحقيق نوع من التوازن بين فهم الإنسان لنفسه ، وبين السيطرة الهائلة على الطبيعة ، التي حققها التكنولوجيا المعاصرة .

خلال هذا التاريخ الطويل ، كانت دراسة الإنسان تزداد تعمقا في كل مرحلة ، وكان لا بد للرواد الذين مهدوا الطريق لسير هذه الدراسة في طريق العلم من أن يكافحوا من أجل التغلب على عقبات كانت كفيلة بأن تحول دون ظهور أية معرفة علمية بالإنسان ، وعلى الرغم من أن هذه العقبات معروفة ، وكثيرا ما يرد ذكرها - كلها أو بعضها - في القدمات التي تكتب لل مؤلفات الخاصة بمناهج البحث في العلوم الإنسانية ، فلما لا نرى بأسا من أن نعرض هنا لأهمها ، وذلك نظرا إلى ما يلقيه هذا الموضوع من ضوء على المشكلات التي نود أن نناقشها في هذا المقال :

١ - أولى هذه العقبات نوع من الجمود العقلي لدى المفكرين إلى أن يرتفعوا بالإنسان فوق مستوى الموضوعات التي يمكن أن تخضع للبحث العلمي المنظم ، وحينئذ في ذلك هي الدفاع عن الكرامة الإنسانية ، والاحتفاظ للإنسان بمركزه المميز في الكون ، وتأكيد ضرورة معاملته على نحو يختلف عن ذلك الذي تعامل به « موضوعات » **الصالء الطبيعي** . على أن مثل هذا الحرص الكاذب على الكرامة الإنسانية كان هو القوة الدافعة من وراء المعارضة التي سبق أن قول بها كرنيكوس عندما أكد أن الأرض - مقر الإنسان - ليست مركز الكون ، وليست هي النقطة المحورية التي تدور حولها ، ومن أجلها ، كل حوادثه . وبالمثل كان هذا الاهتمام الزائف بمكانة الإنسان « الاستثنائية » و « الفريدة » في الكون من أهم العوامل التي دعت إلى معارضة كل « كاشفى النقاب » عن حقيقة الدوافع الإنسانية ، من أمثال فرويد ، وماركس ، وهو نوع من المعارضة لا يقوى على الصمود طويلا في وجه أي كشف جديد حاسم .

دائب منتظم ، بل ان هدفنا الحديث عن صعوبات منهجية تتمرض طريق العلوم الانسانية دون ان تكون هذه الاخيرة وامية بها كل الوعى . وخطورة هذا النوع من الصعوبات تكمن في انه يمكن ان يظل ملازما للعلوم الانسانية امدا طويلا ، بحيث يظل يهدد موضوعيتها ودقتها بالخطر ، وان كانت هذه العلوم تظل طوال ذلك الوقت معتقدة انها تحقق لنفسها موضوعية ودقة تتزايدان باطراد .

ذلك لان تلهف المشتغلين بالدراسات الانسانية على اكتساب صفة العلمية ، واعتقادهم - عن حق - ان هذه الصفة تشريف وتكريم لآى جهد عقلى يقوم به الانسان قد ادى بهم احيانا الى الوقوع في اشكالات منهجية يصعب كشفها . لانها - في مجال العلوم الاخرى - ليست باشكالات على الاطلاق . وبعبارة اخرى فقد استعيرت من مجال العلوم الطبيعية او الرياضية مفاهيم معينة ، وطبقت بشيء من التسرع في مجال العلوم الانسانية ، فترتب على ذلك نوع من تشويه صورة هذه العلوم ، بحيث اصبحت في بعض الاحيان تبدو محاكية لعلوم اخرى ذات موضوعات مغايرة ، دون ان تكون قادرة على ادراك الصفات التى تنفرد بها موضوعاتها الخاصة ، ولتى تحتم عليها استخدام مفاهيم مخالفة ، او تصديل المفاهيم المستعارة من المجالات الاخرى ، ان لم يكن من استعارتها بد .

وسوف اكتفى ، لايضاح وجهة نظرى ، بفكرتين رئيسيتين ، يقوم بينهما ارتباط وثيق ، هما فكرة الحتمية ، وفكرة القانون . وسأحاول ان اثبت ان العلوم الانسانية حين طبقت هذين المفهومين على مجالها الخاص ، لم تكن قادرة في كل الاحيان على ادراك ما تقتضيه سماتها المميزة من تعديلات خاصة كان ينبغي مراعاتها عند استخدام مفهومين كهذين ظلا مرتبطين بمجال العلوم الطبيعية امدا طويلا .

فكرة الحتمية :

هناك حقيقة لا يستطيع الكثيرون ممن تشغلهم مشكلات العلم ومناهجه ان يدركوها ، على الرغم من وضوحها البين : هي ان الاعتراف بفكرة الحتمية من حيث المبدأ لا يتعارض على الاطلاق مع ادراك صعوبة تطبيقها في مجالات معينة . وأبسط مثل لذلك هو مجال علم الأرصاد الجوية . فمئذ عهد بعيد تخطت الانسانية من التفسيرات الأمشورية والغالية لتقلبات الجو ، وأصبح هناك اعتراف عام بان ما يطرأ على الجو من

معين من رهافة الحس وشفافية النفس . فهى اذن مقرونة بشروط تجعلها بطبيعتها معرفة « خاصة » لا تتوافر الالفة معينة من الناس ، وربما كانته تتوافر لكل فرد في هذه الفئة ذاتها على نحو يختلف باختلاف ابعاد تجربته الفنية أو الادبية الخاصة .

اما الفلسفة فانها بالرغم من كل ما اسهمت به في اثراء معرفتنا بالانسان ، تكسب المشتغلين بها قدرا لا مفر منه من الطموح المفرط ، يجعلهم يتعجلون اصدار الاحكام العامة التى قد تتجاوز بكثير نطاق المعرفة المحصنة . فالفيلسوف بطبيعته عاجز عن مجازاة المشتغل بالعلم في تواضعه ، ورضائه بالقليل ، واكتفائه بالسير المتدرج في ابجائه ، وقناعته بالنتائج غير الكاملة ، وولعه بالصبر والثبات والتحمل في الحكم على الامور . ومن هنا كان من الصعب ان تترك معرفة الانسان في يدي الفلاسفة ودهم ، لانهم - مع امتلاكهم للحصيلة العلمية التى اصبحت امرا لا غناء عنه عند معالجة أى موضوع طبيعى او انساني - ما زالوا متمسكين بعبادات عقلية تجعلهم يظنون انفسهم قادرين على ان يحققوا في استنباط خاطف ما يعجز العلماء من تحقيقه بعد بحث شاق ذروب . وربما كانت امثال هذه الاستبصارا قد حدثت بالفعل في حالات متفرقة ، ولكنها لم تعد اليوم قاعدة ، وهى على اية حال امر لا يمكن الاعتماد على حدوثه بالنظام ، فضلا عن ان احتمالات الاخفاق في هذا المجال اعظم بكثير من احتمالات النجاح .

واذن فلم يكن من العسير على العلوم الانسانية ان تتغلب على هذه العقبات ، وان تؤكد نفسها بوصفها علوما تستطيع ان تضيف على الدوام - بطريقة تراكمية منظمة - مزيدا من المعارف المتعلقة بالانسان ، مستخدمة في ذلك مناهج خاصة تقرب او تبعد عن المناهج المستخدمة في العلوم الراسخة ، التى تعالج موضوعات يسهل كشف الاطار المنتظم في ظواهرها .

وليس من اهدافنا في هذا المقال ان نتبع قصة نجاح العلوم الانسانية في اكتساب هذه الكانه ، ولكننا نستهدف ، على العكس من ذلك ، تنبيه الذهن الى بعض الاشكالات التى لا تزال تعوق سير هذه العلوم ، ونمنعها من تحقيق ما ترجوه لنفسها من نجاح في فهم الانسان . ولستأ نود ان نتحدث عن الاشكالات التى تدرجها هذه العلوم من وى ، ونحاول التغلب عليها بجهود



تفريات هو امر خاضع لحتمية دقيقة ، وبان
حالة الجو في أية لحظة معينة هي محصلة عوامل
متعددة نستطيع - اذا عرفناها معرفة كاملة -
ان نتنبأ بدقة بما ستكون عليه الاحوال الجوية
في المستقبل القريب ، وربما البعيد أيضا . ومع
ذلك لا يستطيع احد ان ينكر ، في الوقت ذاته ،
ان علم الأرصاد الجوية ما زال بعيدا عن ادراك
كل العوامل التي تتحكم في حالة الجو في لحظة
معينة ادراكا كاملا ، وحساب تأثيرها بدقة ،
بدليل ان التنبؤات الجوية ما زالت معرضة
لاخطاء كثيرة ، وإن هذه الأخطاء تزداد كلما كان
مدى التنبؤ بعيدا . فهل يمكن ان يحكم على
الشخص الذي يؤكد وجود حدود لا تتعداها
القدرة على التنبؤ بحالة الجو ، في الحالة الراهنة
لعلم الأرصاد الجوية ، بأنه لا يؤمن بسيادة
الحتمية في هذا المجال ؟ من الواضح انه لا تعارض
على الاطلاق بين الايمان بالحتمية ، من حيث
المبدأ ، وبين ادراك الحدود التي لا تتعداها
الحتمية في هذا المجال ومن جهة اخرى ، ليس
من حق المرء ان يستخدم الايمان بمبدأ الحتمية
مبررا لتأكيد ضرورة الوثوق من التنبؤات الجوية
الى حد يزيد على ما تسمح به الحالة الراهنة
لعلم الأرصاد . وليس من حق مثل هذا الشخص
ان يقس مدى « علمية » الآخرين بمقدار ايمانهم
او عدم ايمانهم بصحة التنبؤات الجوية ، مادام
من المعترف به أن ظاهرة مثل حاله الجوية
ما زالت من التعقيد بحيث لا يمكن ، في ضوء
معرفةنا الراهنة ، ادراك كل ابعادها وجوانبها
والعوامل المتحركة فيها ادراكا تاما .

وأخشي أن اقول ان شيئا من هذا القبيل
يحدث في مجال العلوم الانسانية . ذلك لأن هذه
العلوم قد كافحت ، في مبدأ الأمر ، كفاحا
مريزا من أجل تأكيد انطباق مبدأ « الحتمية »
على السلوك البشري . وما زال الكثيرون غير
معترفين بهذا الانطباق ، أي أنهم ما زالوا
يتسمكون بشكل من أشكال من أشكال ذلك
التقسيم المشهور الذي قسم به «(كانت)» مجالات
المعرفة الى عالم للفروقة هو عالم الطبيعة ، هو
عالم الانسان . ولسنا نود ان نخوض الآن هذه
المعركة لأنها ستغرقنا متاهات كفيفة بإبعادنا عن
الفكرة الأصلية التي نرعى الى اثباتها . ولذلك
فسوف نسلم بأن الحتمية تسرى ، من حيث المبدأ ،
على السلوك الانساني ، وأن هذا السلوك قابل لأن
يتنبأ به اذا ما عرفت كل العوامل المتحركة فيه

معرفة دقيقة . ومع ذلك ، ويرغم التسليم بهذا
البدا ، فإن المفهوم البشري ببلغ من التعقيد
حتى يستحيل معه ، في معظم الأحيان ، إدراك
كل العوامل التي يمكن بواسطتها تحقيق مبدأ
الاحتياج نصيبها مؤكدا .

على أن من الأمور التي لا يمكن أن تفوت
الملاحظ المدعي أن لدى المستقلين بالمعسوم
الإنسانية مبدأ إلى تعجل التطبيق يُريد بكثير عن
ذلك المبدأ الذي نجده لدى أصحاب العلوم
الأخرى . ففي الطب ، مثلا ، لا يستخدم عقار
جديد إلا إذا ثبتت فائدته - في الحالات التي
ينطبق عليها - ثبوته مؤكدا . وصحيح أنه قد
تحدث من أن لآخر حالات سوء استخدام
للعقاقير الطبية ، أو تعجل في تطبيقها ، غير أن
هذه الحالات تمثل الاستثناء ، لا القاعدة ، فضلا
من أنها لا تعبر عن موقف العلماء في هذا الميدان،
بل تمليها المصالح التجارية للشركات الساعية
إلى الربح أو أي دافع آخر غير علمي .

أما في حالة العلوم الإنسانية ، فإن هذا الميل
إلى التطبيق التعجل ، دون أن تكون قد توافرت
بعد كل الشروط الكفيلة بالأطمئنان إلى أن
كافة شروط الاحتياج قد توافرت ، ظاهر كل
الظهور . وصحيح أن هذه العلوم تتخلى ، في
كثير من الأحيان ، عن المفهوم التقليدي للحتية،
أعني مفهوم العلاقة الحتمية بين سبب ونتيجة،
وتستعاض عنها بمفاهيم أكثر ملاءمة لمجال معقد
كمجال الظواهر البشرية ، مثل مفهوم الارتباط
الإحصائي بين الظواهر ، ولكن يظل من الصحيح
مع ذلك أن التلief على إخضاع دراسة السلوك
البشري للمنهج العلمي - وهو تلief مشروع
تماما - قد أدى في أحيان غير قليلة إلى تسرع
في التطبيق لم يتوخ علماء الإنسانيات فيه من
الحذر بقدر ما يتوخاه علماء الطبيعة أو الطب ،
مثلا ، حين يشروعون في تطبيق كشف جديد .

وربما كان الأهم من هذه الملاحظة أن علماء
الإنسانيات كثيرا ما ينظرون بعين الريبة إلى كل
من يثبه إلى ظاهرة التعجل هذه . وقد يكون لهم
في ذلك بعض المبرر : ذلك لأن هناك من يشكك
في قيمة التطبيقات التي تقوم بها هذه العلوم لأنه
غير مؤمن أصلا بإمكان خضوع الظواهر الإنسانية
للبحث العلمي الدقيق ، وبالتالي فهو غير مقتنع
بأن من الممكن استخلاص تطبيقات منها . ولكن
الواجب تجنب الخلط بين أصحاب هذا الرأي ،

وأصحاب الرأي المخالف ، القائل أن مبدأ قابلية
الظواهر الإنسانية للبحث العلمي مبدأ سليم ،
ومع ذلك فإن تطبيق هذه العلوم ينبغي أن يوجب
مسوى التعصب أسفري الذي تحفقه ، لا أن
يسبغه . ولما كان استكشاف الظواهر البشرية
مازال أمرا حديث العهد ، ومازلنا في أول مراحل
البحث في هذا الميدان الشديد التعقيد ، فإن
للسرء الحق في أن يأخذ على بعض العلوم
الإنسانية أنها تتسرع إلى حد ما في التطبيق ،
فتلجأ إلى « العلاج » بمجرد أن تكتشف نظرية
جديدة ، وتسارع بتقديم « (تفسير) » دون أن تكون
قد توافرت لديها سوى معطيات قليلة .

وحسبنا ، في هذا الصدد ، أن نضرب مثلا
بالجهود التي يبذلها أخصار التفسير الاجتماعي
والاقتصادي للظواهر الثقافية والاعية ، وكل
ما ينتمي إلى « إنشاء الأعلى Supers.vucuvus
في حياة الإنسان . فمن المعين أن يكون المرء مؤمنا
بنتائج البنية الأدبي في البنية الأعني ، ومعتبرا
اعتراها كمالا بالمبدأ القبل بوجود علاقه متبادلة
بينهما ، ولكن لا يلزم عن ذلك أن يعترف بتطبيق
هذا المبدأ في كل حالة على حدة : فلسفي يعقب
هذا المبدأ تطبيقا صحيحا لا بد أن تكون المعطيات
كاملة أو قريبة من الكمال ، أما في الحالات التي
لا نعرف عنها إلا وقائع قليلة ، فإن من حق المرء
أن يعترض على التسرع في تطبيق المبدأ ، لا لعدم
إيمانه به ، بل لعدم توافر الشروط الكافية
لتطبيقه . ولكن الذي يحدث أن انصار هذا المبدأ
يسارعون بتطبيقه بناء على أبسط المعطيات .
كما هي الحال في تطبيقه على عصور سحيقة في
القدم ، لم توافر لدينا عنها سوى معلومات
هزيلة - ويظنون أنهم قد وصلوا بذلك إلى كل
العوامل المتحركة في الظاهرة موضوع بحثهم .
وكثيرا ما يترتب على ذلك أن تفسر الظاهرة
الواحدة تفسرين مختلفين كل الاختلاف في
كتابات مفكرين يؤمن كل منهما بنفس المبدأ ،
ويطبق نفس النهج . وما هذا إلا مثل واحد ،
من بين أمثلة عديدة ، لظاهرة التعجل في التطبيق
العلمي قبل أن يتوافر الأساس النظري الكافي .
فكرة القانون :

ترتبط فكرة القانون بفكرة الحتمية -
مفهومة بأهم معانيها - ارتباطا وثيقا . ولقد
كان من أبرز مظاهر التقدم في العلوم الإنسانية،
تأكيدا خضوع الإنسان لقوانين يمكن صياغتها
واستخدامها في السيطرة على الظواهر البشرية

الأمر ، ويؤكد حتمية القضاء على رأس المال - هذا القانون يتسم بسمات خاصة ، تحول دون تشبيهه ، آليا ، بالقوانين الطبيعية :

١ - أولى هذه السمات أنه مبنى على استقرار ناقص . ففي النظرية الماركسية يبرر هذا القانون على أساس أنه كان هناك تناقض مبادئ بين الأرقاء ومستزقيهم في العصور القديمة ، وبين الفلاحين المدمين والاقطاعيين في العصور الوسطى ، وأن هذا التناقض انتهى ، في الحالتين ، بانتصار الطبقة المفهورة ، وبترك التاريخ خطوة الى الامام ، تسود فيها قيم أكثر تقدمة من تلك التي سادت في المرحلة السابقة ، وأن كانت بدورها تفضي الى تناقض جديد . وقياسا على ذلك ، فإن « قانون التاريخ » ذاته يحتم انتهاء التناقض الثالث بين العمال والرأسماليين بانتصار الأولين وظهور شكل جديد من اشكال علاقات الانتاج .

وفي سلطنا بكل مقدمات هذا الاستدلال دون مناقشة ، فسوف نجد مع ذلك ان هذا « القانون » يرتكز على حالتين سابقتين مماثلتين ، ويقسب الثالثة عليهما . ومن الواضح أنه ليس يمكن في حالة العلوم الطبيعية تكوين قانون من ملاحظة حالتين فحسب . فضلا عن ذلك فإن التماثل ليس تاما بين افالات الثلاث في المجال التاريخي، اذ ان كل حالة تقوم في سياق مختلف من الحالة الأخرى ، وتختلف في تفاصيلها عنها الى حد غير قليل . فاستقراء الماضي إذن لا يعد في هذه الحالة أساسا كافيا لاستخلاص « قانون » ، اذا كنا نود أن نحتفظ لكلمة « القانون » بمعناها العلمي المؤلف .

٢ - وفي الوقت الذي يؤكد فيه أصحاب النظرية الماركسية - وهي في هذه الحالة « المادية التاريخية » - أن انتصار الطبقة العاملة أمر مؤكد بحكم « قانون تاريخي » حتمي ، فإنهم ، حتى أشدهم تحمسا ، يؤكدون أن هذه الحتمية ليست آلية ، تفرضها الحوادث ذاتها سواء شاء الإنسان أم لم يشأ ، بل هي حتمية تقوم فيها الإرادة الإنسانية بدور أساسي .

ولقد كان تأكيد أهمية الإرادة الإنسانية على هذا النحو أمرا لا مفر منه ، إذ أن الكثيرين قد أساءوا فهم المادية التاريخية بحيث تصوروا أن « حركة التاريخ » تسير آليا في صالح الطبقات المغلوبة على أمرها ، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو

والتنبؤ بما سيكون عليه في المستقبل . وصحيح ان هناك علومًا إنسانية ما زال يدور بشأنها جدل حول إمكان وجود قوانين - بالمعنى العلمي - فيها ، ولكن علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ (في بعض مذاهبه على الأقل) يستخدمون فكرة القانون منذ عهد ليس بالقریب ، ويحققون بذلك نجاحا لا بأس به في فهم الظواهر التي انى يتناولونها بالبحث .

ومع ذلك فإن المعنى الذى يستخدم به مفهوم « القانون » في العلوم الإنسانية ، يحتاج الى تخصيص بلاثم طبيعة هذه العلوم ، وأن كان كثير من المشتغلين بها ينظرون الى معنى « القانون » في علومهم كما لو كان مكافئا لمعناه في العلوم الطبيعية والتجريبية . وإسناد هذا الاصرار على توحيد معنى « القانون » في الحالتين هو الرغبة في ضمان صفة العلمية للدراسات الإنسانية ، وهي في ذاتها رغبة مشكورة ، ولكن الامانى والغايات - كما نعلم جميعا - لا ينبغي أن تفرض ذاتها على الواقع أو تحاول تشكيله على هواها . وواقع العلوم الإنسانية يشهد بان فكرة « القانون » فيها تتخذ ، في بعض الحالات على الأقل ، معنى لا يمكن أن يكون مساويا كل المساواة لمعناها في العلوم الطبيعية .

ولكى أوضح فكرتي أود أن اضرب لها مثلا بفكرة قوانين التاريخ في النظرية الماركسية . وأول ما ينبغي أن تنتبه اليه هو أن تنتبه اليه هو أن كلمة « التاريخ » ذاتها تجريد لفظي ، وأن تجسيم التاريخ وكأنه شيء أو كيان متحرك، ينطوي في ذاته على قدر غير قليل من التجاوز . كما ينبغي أن تنتبه الى أن التاريخ ، حسب تعريفه ، يتعلق بالماضي ، وأنا حين نتحدث عن « حركة التاريخ في المستقبل » ، على سبيل المثال ، فنحن - من الوجهة المنطقية الخالصة - نرتكب خطأين : أولهما استخدام لفظ يرتبط في ماهيته بالماضي ، للدلالة على المستقبل ، وثانيهما تجسيم المجردات وتشخيصها وتحريكها ، على النحو الذى أشرنا اليه من قبل .

وإذا تركنا جانباً هذه الملاحظات ، التي قد يراها البعض شكلية ، وانتقلنا الى فكرة قوانين التاريخ ، كما تصاغ في النظرية الماركسية ، لتبين لنا أن القانون الذى يحتم قيام الصراع بين الطبقة الرأسمالية ، نتيجة لا شتداد التناقض بينهما ، ويحتم انتصار الطبقة المعالية في نهاية

كان رهنا بالجهد الذى يبذله الإنسان من أجل وضعه موضع التنفيذ ، فإنه يمكن أن يفلح أو اتجه جهد الإنسان الى عدم تنفيذه ، مادام القانون لا يملك بلداته قوة تمكنه من تحقيق ذاته .

هذه الحقيقة البسيطة لها في رأى أهمية قصوى في فهم تاريخ القرن العشرين : ذلك لأن هذا التاريخ إذا كان سجلا لكفاح الطبقات المقتوحة أجل تحقيق الاشتراكية ، فهو أيضا سجل لكفاح الطبقات المالكة والرأسمالية من أجل الحيلولة دون تحقيقها . ولم يكن في وسع « قانون التاريخ » في هذه الحالة أن يغلب كفاحه على كفاح ، بل أن الانتصار في كل حالة كان يتوقف على مقدار الجهد الذى تبذله إرادة الإنسان .

وإذا كنا نعترف بأن تدخل الإنسان قلدر على تحقيق حتمية التاريخ ، فيجب أن نعترف أيضا بأن التدخل في الاتجاه المضاد قادر على إبطال تأثير هذه الحتمية أو إبطائه . وليس تاريخ مقاومة الرأسمالية طوال القرن العشرين إلا سلسلة متصلة من المحاولات الواعية التي تبذلها إرادة مضادة ، لالغاء تأثير القانون التاريخي الذي تؤكد نظرية المادية التاريخية أنه سيؤدي في نهاية المطاف الى القضاء على الرأسمالية .

ومن الواضح أن قدرة الرأسمالية على البقاء قد جاوزت بكثير الحد الذي كان يتوقعه ماركس أو لينين أو غيرهما من أقطاب المادية التاريخية . بل أنه لم تظهر حتى الآن أية بوادر تقل على قرب انهيارها ، وربما كان العكس - في السنوات العشر الماضية - هو الصحيح . فعلام يدل هذا كله ؟ أنه يدل على تلك الحقيقة التي لم يعمل لها أقطاب المادية التاريخية حسابا ، وهي أن إرادة الإنسان ، إذا كانت هي شرط تحقيق الحتمية التاريخية ، فأنها تستطيع ، إذا اتجهت وجهة مضادة ، أن تغير من عهد مسار التاريخ في اتجاه مغاير للاتجاه الذى تشاؤه إرادة الطبقة العاملة ، أى تستطيع ، إذا اكتملت لها القوة الكافية ، أن تبطل تأثير « القانون التاريخي » . وليست هذه دعوة الى اليأس على الإطلاق ، بل أنها لا تفعل أن تكون تنبيهها للإنسان المكافح الى أن كل شيء يتوقف على إرادته ، وعلى مدى صلابته في الكفاح ، وإلى أن « حتمية التاريخ » لن تنفع المتخاذل ، ولن تعوض تقصيره في الدفاع عن حقوقه ، أو في السعى الى تحقيق مطالبه . بل أن مسار التاريخ يمكن أن يتقلب عليه إذا

في نظرهم الى بذل جهد كبير في الكفاح من أجل تحقيق أهدافهم ، إذ أن « حركة التاريخ » ستحقق لهم هذه الأهداف تلقائيا ، وما عليهم إلا أن ينتظروا حتى يحقق لهم التاريخ ما يتفقون لذلك كان لزاما على مفكرى المادية التاريخية أن يصححوا هذا الفهم ، ويؤكدوا أن للقانون التاريخي معنى خاصا ، بحيث يستحيل أن يتحقق هذا القانون ما لم تتدخل الإرادة الإنسانية من أجل ضمان تحقيقه .

على أن هذا التصحيح لمعنى القانون في مجال التاريخ الإنساني كجيل بين يجعل هذا القانون شيئا هريدا بحتا . ذلك لأن أهم ما يميز القانون العلمى هو استقلاله عن الإرادة الإنسانية ، وجوده سواء شاء الإنسان أم لم يشأ . فإلى أى حد يستحق أن يسمى قانونه ذلك الذى لا يتحقق إلا بمساعدة الإرادة الإنسانية ؟ وأين هي النقطة التي يمكن عندها تحديد دور الحتمية التاريخية المؤدية الى ظهور القانون ، ودور الإرادة الإنسانية التي تساعد على تحقيق القانون ؟ وهل هناك حقا ، الى جانب إرادة الإنسان ، أى عامل آخر « خفي » يوجه الحوادث في اتجاه معين ، أم أن الإرادة الإنسانية هي التي تقوم فعلا بكل شيء ؟ وإذا صح أن إرادة الإنسان هي العامل الوحيد الحاكم في توجيه دفة التاريخ الإنساني ، فما قيمة الإشارة الى « القانون » في هذه الحالة ؟ أن يكون في وسع هذه الإرادة أن تكسر القانون إذا شابت ، وتوجهه في اتجاه آخر ؟

ولكى أزيد هذه النقطة الأخيرة ابضاحا ، أود أن أشير الى حقيقة اعتقد أنها غابت عن ذهن كل من قرات لهم لهم من انصار المادية التاريخية . فتسلسل التفكير في هذه النظرية يسير على النحو الآتي : هناك قانون تاريخي يحتم انتصار الطبقة العاملة في صراعها مع الرأسمالية ، ولكن هذا القانون لا يسير على نحو آلي ، بل لا بد من أن أن تتدخل الإرادة الإنسانية، ممثلة في كفاح الطبقة العاملة ، من أجل تحقيقه، ولولا هذا الكفاح لما استطاع القانون أن يتحقق . والأمر الذى غاب عن أذهان هؤلاء المفكرين هو أن القول بأن الإرادة الإنسانية هي التي يتحقق من خلالها قانون التاريخ ، يترتب عليه أن الإرادة الإنسانية قادرة - لو شابت - على كسر القانون أو عدم تحقيقه . وبعبارة أخرى فإن القانون إذا

كانت ذات وجود وتأثير واقعي - بفضل قدرتها
الحافزة وحدها .

٤ - فإذا صح هذا التحليل كان معناه أن
فكرة القانون التاريخي يتداخل فيها ما هو كائن
مع ما ينبغي أن يكون ، وأنها ليست وصفاً
لما هو واقع بقدر ما هي إشارة إلى ما هو واجب ،
أي أنها فكرة غائية أكثر مما هي وصفية .
فالقانون في هذه الحالة تعبير عما نريده أن يكون ،
أي أنه نوع من التفكير المبني على الرغبة والتمنى
wishful thinking وكل هذه ، في
صميمها ، معان غير علمية لا صلة لها بالمعاني
المألوفة التي تتضمنها فكرة القانون في العلم
البحث . وهكذا فإن فكرة القانون التاريخي ،
التي أملت الرغبة في تحقيق الموضوعية في مجال
الظواهر البشرية ، واخضاعها للمنهج العلمي
الدقيق ، تتضمن بالضرورة عوامل خارجية عن
مجال العلم البحث ، وتخدم أغراضاً وفجائات
عملية في صميمها .

هذا التحليل لا يعنى على الإطلاق أننا نرفض
الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها القانون
بجمعية انتصار الاشتراكية بناء على قانون
علمي موضوعي ، بل يعنى أن الألفاظ
المستخدمة في أمثال هذه العبارة ، كلفظ
الحتمية ، أو لفظ القانون ، ينبغي أن تفهم على
أن لها ، في هذا المجال الإنساني ، معنى يختلف
اختلافاً كبيراً عن معناها في العلوم الطبيعية ، ومن
الواجب أن تسفر في ذهننا هذه الاختلافات
الإنسانية حتى لا يحاول اقتباس مفاهيم العلم
الطبيعي وتطبيقها آلياً على مجال الإنسان .
ولو لم يبادر العلوم الإنسانية إلى إدراك هذه
الحقيقة من وعي ظلت إلى الأبد أسيرة
« تطلعاتها » إلى العلوم الطبيعية ومحاكاتها لها .

ومجمل القول أنني حاولت في هذا المقال أن
أسير ، على طريقتي الخاصة ، في نفس الاتجاه
الذي يسير فيه العلوم الإنسانية كلها تتجه
إليه في الفترة الحالية من تاريخها ، والذي يظهر
وأضحى في كثير من مقالات هذا العدد ، اتجاه
البحث عن مفاهيم خاصة لهذه العلوم ، أو تحديد
معان جديدة للمفاهيم التي تستعيرها من مجالات
العلوم الأخرى ، بعد أن اقتربت نهاية ذلك العهد
الذي كانت فيه العلوم الإنسانية تنبه بالعلوم
الطبيعية وتقتبس فيه مفاهيمها ومناهجها دون
تمييز .

فؤاد زكريا

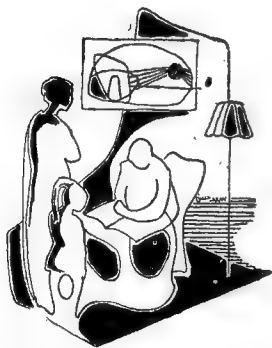
ينشعبها ، إذ ليست للتاريخ قوة « سحرية »
خارج نطاق إرادة الإنسان .

٣ - فإذا كان القانون التاريخي (موضوعياً)
فإنه لا يكون كذلك إلا بمعنى خاص تماماً .
لم يبدل أنجهد الكائن في توجيهه نحو الغاية التي
فموضوعيته « مصنوعة » بواسطة الإرادة
الإنسانية . ومن الممكن أن يشار في هذا الصدد
سؤال على قدر كبير من الأهمية ، وأعنى به :
هل يمكن أن تكون هناك موضوعية « تصنع » ؟
وماذا يعود للموضوعية من معنى حين لا تعود
مفروضة بموجب المنطق الداخلي للحوادث ذاتها ؟
هذا ، على أية حال ، سؤال لا أود أن أخوض
فيه الآن ، بالرغم من أهميته البالغة ، حتى
لا يفلت من بين أيدنا الخيط الرئيسي للمناقشة .
ولكنني أود أن أتناول المسألة من زاوية أخرى ،
هي : ما قيمة « القانون التاريخي » ، في هذه
الحالة ، إذا كان حدوثه أو عدم حدوثه متوقفاً
على إرادة الإنسان ، أي بعبارة أخرى إذا كانت
الإرادة الإنسانية هي العامل الحاسم ، والوحيد ،
المتحكم في توجيه نعمة التاريخ ؟

قد يكون أول ما يتبادر إلى الذهن ، أجابة عن
هذا السؤال ، هو أن القانون التاريخي لا يعود
له في هذه الحالة فائدة . ولكن الواقع أن فكرة
وجود قانون تاريخي يحتم انتصار الاشتراكية
على الرأسمالية لها فائدة عملية كبرى : إذ أنها
قوة دافعة تحفز الجماهير على الكفاح وتشجعها
عن طريق إقناعها بأن حركة التاريخ تساعدها في
كفاحها ، أو بأن كفاحها مسير لحركة التاريخ .
وهي في هذا الصدد تؤدي وظيفة مشابهة لوظيفة
فكرة المشيئة والقسرة الإلهية بالنسبة إلى
المؤمنين المجاهدين : فالقسرة الإلهية تغلغل في خلال
كفاح المجاهدين أنفسهم ، ومن المستحيل أن
تساعد هذه القدرة على انتصار مؤمن متخاذل ،
أي أن مصير المجاهدين يتقرر ، في نهاية الأمر ،
بالجهاد الذي يبذلونه في كفاحهم . ومع ذلك
فإن شعور المجاهد بأن القدرة الإلهية في صفه ،
يقدم إليه قوة دافعة كبرى في كفاحه ، كما يشل
حركة خصومه إذا امتنعوا بأن الإرادة الإلهية
ليست في صفهم . فالبطل في الحائزين واحد ،
وهو في أساسه مبدأ ذو هدف « علمي » قبل كل
شيء . وبالإختصار ، فإن فكرة « القانون
التاريخي » فكرة تشجيعية قد لا يكون لها في
الواقع نفسه كيان ، ولكن تأثيرها يتحقق كما لو

دراسة المجتمع علم ؟

د. سمير فقيم أحمد



إن أي فهم حقيقي
للمجتمع الإنساني
لا بد أن يكون
باتباع المنهج العلمي
بأن أية محاولة ناجحة
للتحكم في الظواهر
لهذا المجتمع أو جعل
مكافئة لابد أن تقوم
على فهم مبني على
الأسس العلمية
بصفة هذه الظواهر

فهم التفاعلات الكيميائية أو الظواهر البيولوجية . بل ان الأمر يصل بالبيض منهم ، من غير المتخصصين وغير المؤهلين ، الى اعتبار أنفسهم علماء أو خبراء في المجتمع يكتبون عنه ويتحدثون فيه دون تردد ودون أن يجدوا أى وجه للشبه بينهم وبين أدعياء الطب مثلاً ، والمأساة الحقيقية أنه على الرغم من الضرر البالغ الذى ينجم عن هذا السلوك والذى لا يقل بحال عن الضرر الذى ينجم عن ادعاء المعرفة بالطب أو الكيمياء فإن المجتمع لا يستجيب لهاتين الفتنتين من الأدعياء استجابة مشابهة . ذلك أن العامة ، ولهم عذرهم ، مازالوا لا يعلمون أن دراسة المجتمع قد أصبحت علماً له أصوله وقواعده مثلما أصبحت دراسة الجسم الحي والمواد الجامدة علماً ، وأن الوقت قد حان لاستبعاد الادعاء والدجل من ميدان دراسة المجتمع مثلما تم استبعاد السحر والشعوذة من ميدان الطب . من كل ذلك تتضح الحاجة الملحة الى مناقشة وتوضيح الاسس العلمية فى دراسة المجتمع .

علمية دراسة المجتمع

ان معظم الاعتراضات على علمية دراسة المجتمع واللبس فى فهم طبيعة هذه الدراسة تأتى عادة نتيجة للمقارنة المباشرة أو الضمنية بين العلوم الفيزيائية والبيولوجية من ناحية والعلوم الاجتماعية من ناحية أخرى . فالعلوم الفيزيائية (التى تدور حول ما هو محسوس حى) ، والعلوم البيولوجية (التى تدور حول أشكال الحياة) قد حققت حتى الآن انتصارات عظيمة بهزت الناس بينناجها ، ولهذا أصبحت لها مكانة ضخمة فى عقولهم ، أما العلوم الاجتماعية فإنها ، نظراً لحداثة نشأتها ، لم تتوصل بعد الى تلك النتائج الباهرة ، ومازال المتخصصون فيها يعملون فى كثير من الصمت من أجل ارساء قواعدها وأصولها ، وحين يخرج بعضهم عن هذا الصمت ليعلم فى تسرع بعض النتائج التى توصل اليها أو يطالب بتطبيقها فى مجالات قبل التأكد التام من صحتها فإنه يضر بسمة ومكانة العلم الذى يعمل من أجله بدلا من أن يرفع منها ، تماما مثلما كان يحدث فى بداية تطور الطب حيث كان السحرة والمشعوذون ينتهزون فرصة فشل أى طبيب فى علاج مريضاً للتشهير بالطب بأسره والنيل من مكانته . ولكن ليس معنى تأخر نمو وتطور العلوم الاجتماعية عن الفيزيائية أو البيولوجية أن الاولى لا تدخل ضمن نطاق العلوم . ولا يجب أن ننسى أن كل العلوم

نعلم جميعاً أن المجتمعات تتكون من افراد ، وأن هؤلاء الافراد فى حالة تفاعل مستمر بين بعضهم البعض . كما نعلم أيضا أن هؤلاء الافراد ينظمون أنفسهم بأسلوب معين يحدد علاقة كل منهم بالآخر ، أى أنهم يضعون لأنفسهم مانسميه بنظام المكانة . وهؤلاء الافراد المنظمون النشاط يكونون تجمعات ومجموعات فيما بينهم يربط بين كل منها والاخرى علاقات محددة مثل الروابط المهنية أو السياسية أو الدينية أو الثقافية . ونحن نعرف من ملاحظتنا اليومية ان هذه العلاقات المتبادلة بين الافراد وبعضهم البعض وبين التجمعات التى يكونونها ليست ثابتة جامدة ولكنها دينامية ومتغيرة ، ونستطيع أن ندرك بسهولة أن هناك عمليات مختلفة تؤثر على وتتحكم فى تلك الأنماط المختلفة من العلاقات .

تلك بعض الحقائق الواضحة البديهية ، والتى تمثل فى الواقع أبسط تعريف للمجتمع - موضوع مناقشتنا فى هذا المقال . والسؤال الآن هو هل يمكن دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية مثلما أمكن دراسة غيرها من الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية ؟

ان الاجابة على هذا السؤال سوف تساعد على حسم الكثير من المشكلات والاختلافات فى الراى فيما يتعلق بمناهج علم الاجتماع . فمازالت نرى حتى الآن من ينكرون وجود علم بهذا الاسم ، وليس ادل على ذلك من أندراسة المجتمع فى جامعاتنا ، وفى كثير من جامعات العالم ، تعتبر من الدراسات الادبية أو الفنية وليست من الدراسات العلمية . فاقسام علم الاجتماع توجد بكلليات الآداب والفنون ، بل ان هناك بعضاً من هذه الكليات لا يفرد قسماً خاصاً لدراسة المجتمع بل يضمها داخل أقسام الفلسفة أو غيرها من فروع المعرفة . وحين يذكر العلم فنادراً ما يطرأ على ذهن الناس ، حتى أكثرهم معرفة وعلماً ومن هم على مستوى المسؤولية ، أن دراسة المجتمع تدخل فى نطاقه . وحين تنشأ مجالس قومية متخصصة لرعاية ضروب المعرفة المختلفة تستبعد المعرفة بالمجتمع من قائمة المعرفة العلمية بطريقة آلية وتضاف الى المعرفة الادبية أو الفنية (مثل المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية) . وما زال الكثير من المثقفين يرون أن فهم المجتمع مسألة لا تتطلب أكثر من مجرد عملية تأمل لما يدور حولهم وقراءة لما يكتب فى الصحف والمجلات عن « المسائل الاجتماعية » وأن الأمر لا يتطلب تخصصاً وتأهيلاً كالذى يتطلبه

مرت بفترة الحداثة هذه ولم يحل ذلك أبدا دون أن تصبح علومها بمعنى الكلمة . ويجب أن نضع في اعتبارنا أن تأخر تطور العلوم التي تدرس الإنسان لا يرجع إلى قصور لدى العلماء أو لعدم إمكانية دراسة الإنسان دراسة علمية ، ولكنه يرجع أكثر من أي شيء إلى مقاومة الإنسان ذاته (موضوع دراسة هذه العلوم) للكشف عن طبيعته وخصايه وللمساس بمعتقداته عن نفسه بأنه شيء مقدس . ولو لاحظنا تطور العلوم لوجدنا أن أولها في التطور كانت تلك التي لا تمس الإنسان مباشرة . ونحن نعلم الآن المقاومة الشديدة التي لقيتها مكتشفات العلوم المختلفة والتي كانت تتعارض مع فكرة الإنسان عن نفسه ومعتقداته عن الكون المحيط به ، ونذكر اعتراض الإنسان على فكرة أن الأرض التي يعيش عليها ليست هي مركز الكون وأنها كوكب من بين الكواكب الأخرى تدور حول نفسها وحول الشمس ، واعتراضه على أن الإنسان هو نتاج سلسلة طويلة من التطور الذي لحق أنواعا أدنى من الكائنات الحية وأنه ينحدر عنها ، والثورة الشديدة على الإجزاء على الجسم الإنساني بتشريحه للكشف عن مكوناته وحنائه ، والغضب الصارم الذي أثاره اكتشاف أسرار النفس ومضمون اللاشعور وطبيعة الحياة الجنسية . ولكن من حسن الحظ أنه كلما استطاع الإنسان أن يفهم شيئا من ذاته سهل ذلك من عملية تقبله للكشف عن جوانب أخرى منها ، ولهذا فإننا نتوقع أن يكون خط العلوم الاجتماعية من سرعة التطور أكثر من خط ما سبقها من العلوم التي تمس الإنسان .

وهذه المقارنة بين العلوم المتقدمة (الفيزيائية والبيولوجية) وبين العلوم النامية (الاجتماعية) كثيرا ما تعتمد على محاولة إيجاد أوجه الاختلاف بينهما ولكنها نادرا ما تحاول الكشف عن أوجه الشبه فيها . ومن الواضح أنه ليس لدى كل فرد القدرة على اكتشاف أوجه الشبه بين أشياء تبدو جد متباينة ، ذلك أن هذا الأمر يتطلب درجة لا بأس بها من القدرة على التجريد . وسوف نحاول هنا أن نبين أولا أوجه الشبه بين العلوم جميعا أو بمعنى آخر تلك الخصائص التي إن توافرت في فرع من فروع المعرفة اعتبرت علما . وبناء على ذلك نستطيع أن نتنقل إلى مناقشة مدى علمية علم الاجتماع .

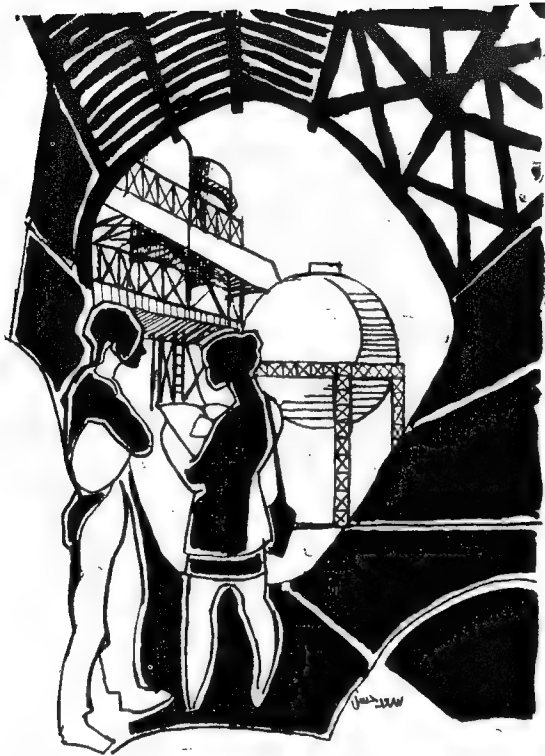
علمية علم الاجتماع

يعرف العلم عادة بأنه «ذلك النسق المنظم من

المعرفة التي تكتسب وتصاغ عن طريق استخدام منهج معين محدد» . والعلم ، شأنه شأن أي فرع آخر من المعرفة ، يعتمد على نظام رمزي للاتصال فالأساطير والفنون والأدب معرفة منظمة تعتمد على الاتصال الرمزي ، ولكنها لا تدخل ضمن نطاق العلوم . والذي يميز العلم عنها هو المنهج الذي يستخدم في التوصل إلى المعرفة التي يحتويها وفي تنظيمها في إطار عام كلي . وهذا المنهج هو الخاصية الأساسية المشتركة بين العلوم جميعا . ويتميز هذا المنهج بالتأكيد على الوصف الدقيق الموضوعي للظواهر الثابتة نسبيا والتكررة والتي يمكن التنبؤ بها ، ثم استخدام المنطق في تحليلها وإيجاد العلاقات والروابط بينها . ويمكن تحقيق هذه الأهداف باستخدام وسائل ملاحظة دقيقة ، صدقها مؤكدة ، وأساليب محددة للتصنيف والتعميم والتحقق والتنظيم . ويقوم هذا المنهج على مسلمة أساسية هي أن كل المعرفة العلمية تستمد من الخبرة الحسية ومن الاستقراء المنطقي منها . ولكن لما كانت حواس الإنسان محدودة نسبيا وغير دقيقة وعرضة للخطأ ، فإن العلم في دراسته للظواهر يجد لزاما عليه أن يعتمد على الأجهزة والادوات والمادلات الرياضية لكي يزيد من مدى ودقة خبرته الحسية ومن موضوعية تسجيله للملاحظات ، ولأنه لا أيضا من أن يستخدم وسائل رياضية ومنطقية وتجريبية لكي يختبر كل فروضه واستنتاجاته . وهكذا نرى أن المنهج الذي يستخدمه العلم يتضمن الموضوعية واللاتحيز والدقة في وصف وتحليل وتفسير الظواهر الطبيعية ، وهو الذي يرشد العالم إلى الطريق السليم لبحث ودراسة أي ظاهرة من الظواهر ، ويحصل بعمله من استنتاجاته أو حتى يرفضها كلية إذا ما وجد دليلا ينقضها .

المنهج المتبع في التوصل إلى المعرفة هو الذي يحدد إذا ما كانت هذه المعرفة علما أم لا . ولكن هل يمكن استخدام هذا المنهج الذي شرحنا أهم خصائصه في التوصل إلى معرفة علمية بالاجتماع ؟

يخطئ الكثيرون حين يظنون أن العلوم هي التي تدرس الظواهر الفيزيائية والبيولوجية فقط لأنهم في هذه الحالة يعرفون العلم على أساس موضوع دراسته لا على أساس المنهج المتبع في الدراسة . فالظواهر الفيزيائية والبيولوجية كانت ، وما تزال ، موضوعا لاهتمام ضروب مختلفة من المعرفة غير العلمية . ولم تصبح



أولاً : الظواهر الاجتماعية ظواهر طبيعية
 natural بمعنى أنها تحدث في الطبيعة وتحت
 بصرتنا وسمعنا أي أن المعرفة بها يمكن أن تستمد
 من الحواس شأنها شأن المعرفة بأى ظواهر طبيعية
 غيرها . وبالتالى فإن هذه الظواهر يمكن أن
 تخضع للملاحظة والوصف .

دراسة هذه الظواهر علماً إلا حين اتبع المنهج
 العلمى فيها . وعلى هذا فإن المعرفة بالظواهر
 الاجتماعية تكون علماً حين يتبع فيها هذا المنهج،
 ومن الممكن بكل تأكيد اتباع هذا المنهج فى
 دراستها للأسباب الآتية :

رابعاً : يخطئ البعض حين يعتقد أن التجربة العملية هي جوهر المنهج العلمي ، وبالتالى يخطئون حين يتصورون أن دراسة المجتمع لا يمكن أن تكون دراسة علمية لأنها لا تستند أساساً على التجربة العملية . فالتجربة العملية ليست سوى إحدى الطرق المستخدمة فى البحث العلمى وهذه الأساسى تمكن الباحث من اختبار فروضه واستنتاجاته وتسجيل ملاحظاته بدقة . والعلوم

ثانياً : لما كانت حواس الانسان عرضة للخطأ وعدم الدقة فانه يمكن أيضاً استخدام وسائل مساعدة للحس كالتى يستخدمها علماء الفيزياء والبيولوجيا ، وقد تم بالفعل استخدام وسائل مثل التسجيل السينمائى والصوتى للأحداث الاجتماعية ، وهذه الوسائل ليست فى الواقع سوى تسجيل موضوعى ودقيق وأمين للظواهر والاحداث ضمن موضوعية ودقة الملاحظة . كما يمكن ابتكار مقاييس جيدة ودقيقة للعلاقات الاجتماعية والاتجاهات والرأى العام ودرجة التحضر وحركة أعضاء المجتمع مكانياً واجتماعياً. الخ... وهكذا استطاع علماء المجتمع أن يحققوا أهم أركان المنهج العلمى : الدقة والموضوعية فى الملاحظة .

ثالثاً : الظواهر الاجتماعية ظواهر ثابتة نسبياً ومتكررة ، وبالتالى يمكن التنبؤ بها . والواقع أنه ما لم تكن هذه الظواهر تنقسم بالثبات النسبى والتكرار لمّا أمكن قيام أى مجتمع أو استمراره . فوجود المجتمع فى حد ذاته دليل على توفّر هذه الصفة فى السلوك الانسانى الاجتماعى . ومعظم أفراد المجتمع يمكنهم التنبؤ بسلوك الآخرين فى مختلف المواقف ، وذلك ما يمكن من التفاعل بين أفراد المجتمع واستمرار بقائهم سوياً ، لأن هناك ثباتاً وتكراراً نسبياً فى هذا السلوك . وقد يبدو من الملاحظة العابرة أن الظواهر الاجتماعية سريعة التغير وغير متكررة بالمقارنة بالظواهر الفيزيكية والبيولوجية ، ولكن هذا التغير فى الواقع ليس سوى تغير فى الصور التى تتخذها الظواهر ؛ ويوجد وراء هذا التغير قانون ينقسم بالثبات النسبى يحكمه ويوجهه كذلك الذى يوجد وراء التغير فى الظواهر الفيزيكية والبيولوجية . فتتابع الفصول وتناوب الليل والنهار هو فى واقع الأمر تغير ولكن من المعروف أن هناك نظاماً ثابتاً يحكم هذا التغير . وتغير الكائنات الحية من شكل لآخر فى نفس النوع أو من نوع لآخر ثبت أنه يسير حسب نظام ثابت نسبياً يحكم هذا التغير فى المادة الحية التى يمكن أن تتخذ صوراً شتى تبدو لأول وهلة غير مترابطة وغير متكررة . والمادة غير الحية ثبت أنها ثابتة ومتكررة وتتخذ أشكالاً عدة ، ولكنها لا تختفى أبداً أو لا تفنى... وبناء على فهمنا لهذا النظام الثباتى لظواهر الكون المختلفة أصبحنا نستطيع التنبؤ بسلوكها ، وكلما ازداد فهمنا له ازدادت دقة تنبؤاتنا بسلوك هذه الظواهر . والظواهر الاجتماعية بلا شك من ظواهر هذا الكون وليست خارجة عنها .

الفيزيكية والبيولوجية لا تعتمد على التجربة العملية وحدها ، كما أن هناك علومًا لا تلجأ إلى استخدام هذه الطريقة بحكم طبيعة الظواهر التى تدرسها . فعلم الفلك وعلم الجيولوجيا وعلم المحيطات علوم لا تعتمد على التجربة العملية ، ولكنها تعتمد على الملاحظة والقياس الدقيقين ، كما أنها تلجأ إلى الاستعاضة عن التجربة العملية بتصميم تجريبى للدراسة تتوفر فيه عناصر التجربة العملية ، وهى التحكم فى درجة ونوع المتغيرات موضوع البحث وتساؤلها بالتغير من أجل اختبار صحة فرضى ما . ولكن الفرق بين التجربة العملية والتصميم التجريبى هو أن الباحث فى الحالة الأولى يحدث التغير المطلوب بنفسه ، أما فى الحالة الثانية فانه يبحث عن درجات مختلفة من التغير الذى يدرسه كما توجد فى الطبيعة ويدرس ما يترتب على ذلك من تغير فى بقية المتغيرات ، مثال ذلك ما لجأ اليه الباحثون عن علاقة التدخين بالإصابة بسرطان الرئة . لم يكن من الممكن بالطبع عند دراسة هذه المشكلة

البيولوجية اجراء تجربة معملية على كائنات انسانية بحيث يتحكم الباحث في كمية ومدة تدخين الافراد ثم يرى مدى اصابتهم بسرطان الرئة . ولهذا لما الى وضع تصميم تجريبي للبحث فاختار افرادا من المدخنين وقسمهم الى فئات حسب كمية ومدة التدخين ، ثم قام بفحصهم طبيا وتسجيل حالة اصابتهم أو خلوصهم من سرطان الرئة . والذي جعل من هذه الدراسة اسهاما علميا هو دقة وموضوعية الملاحظة وتسجيل نتائج هذه الملاحظة وتفسيرها .

مثل هذا التصميم التجريبي للبحث هو الذي يتبع في دراسة الظواهر الاجتماعية ، ولو ان ذلك لايعني عدم امكانية التجربة المعملية بمعناها الحقيقي عليها ، ولعلم النفس ملء بعمل هذه التجارب ، وهو أحد العلوم الاجتماعية بالطبع .

خامسا : اذا كان من الممكن اذن فهم الظواهر الاجتماعية على أساس علمي واتباع المنهج العلمي الذي لا يد من استخدامه في فهم كل ظواهر الكون ، فانه يصبح من الممكن أيضا التنبؤ بهذه الظواهر والتحكم فيها وتوجيهها لتحقيق أحسن تكيف ممكن للإنسان ، وهذا هو الهدفان الآخران للعلم بعد الفهم . وقد يقال ان لدى الإنسان ، على عكس الجماد والكائنات الحية الأخرى ، الإرادة والقدرة على التصرف وتغيير سلوكه بحيث يحى منافيا لتوقعاتنا وتنبؤاتنا ، وبالتالي فان سلوكه يصبح أقل قابلية للتحكم فيه وتوجيهه . ولكن يجب ان ننسى ان الإرادة ذاتها وحدود القدرة على التغيير من موضوعات الدراسة التي تهدف الى فهم النظام الثابت الذي يحكمها . وقد يقال أيضا أنه من اللااخلاقية ان نحاول التحكم في سلوك الإنسان أو في الظواهر الاجتماعية بوجه عام لأن التحكم لا بد ان يكون وراه قيم معينة توجهه ، ولأن الناس يختلفون في هذه القيم . والرد على ذلك أن التحكم في اية ظاهرة في الكون وتوجيهها الى خدمة قيم بعينها تدخل فيه الذاتية أيضا . فالتحكم في الذرة مثلا يمكن ان يوجه الى أغراض تدميرية عدوانية أو الى أغراض نافعة سلبية . والذي نحتاجه اليوم بشدة في هذا العالم هو ان تصل الى فهم حقيقي للقيم والدوافع وراء سلوك الإنسان ، حتى في محاولته التحكم في الظواهر الفيزيائية والبيولوجية ، ولن يتأتى ذلك بالطبع الا بالخضاع هذه القيم ذاتها للدراسة العلمية المنظمة .

سادسا : اذا كان القانون يعني علاقة ثابتة نسبيا ومتكررة يمكن التحقق دائما من صدقها بين حقيقتين أو أكثر من حقائق الكون ، فاننا اذا

سلمنا بأن المنهج العلمي يمكن ان يوصلنا الى اكتشاف حقائق عن المجتمع - وهو من ظواهر الكون - فاننا لا بد ان نسلم بإمكانية التوصل الى قوانين اجتماعية . واذا عرفنا أنه ليس هناك من العلماء من يفترض وجود قوانين جامدة ثابتة أبدا ولكن الثبات في القوانين شيء نسبي وبالتالي فان القوانين قابلة أبدا للتعديل والاضافة وتلحق ، فانه يكون من السهل علينا ان ندرك معنى عدم ثبات القوانين الاجتماعية . ودرجة الثبات النسبي للقوانين في أي علم من العلوم تعتمد على عمر هذا العلم وعلى ما استطاع تحقيقه من معرفة . ولهذا كان لا بد لنا ان نتوقع تغيرا في القوانين الاجتماعية التي يتوصل اليها العلماء دون ان يفنى ذلك الصفة العلمية لعلم الاجتماع .

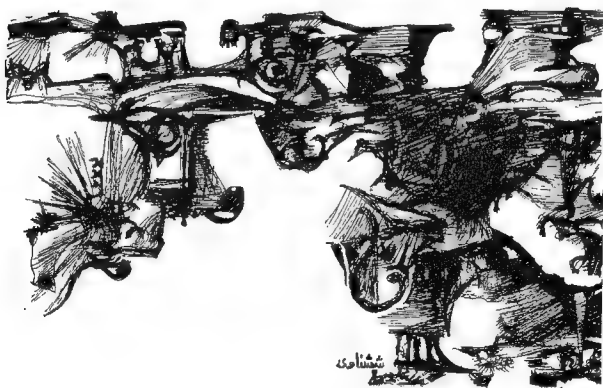
سابعاً : ان أي باحث في أي ظاهرة سواء كانت فيزيقية أو بيولوجية أو اجتماعية معرض لأخطار الذاتية والتحيز ، وليس هذا الخطر قاصرا على الباحث في الظواهر الاجتماعية ، وقد سبق أن قلنا ان أي باحث يعتمد على حواسه وعلى عقله في ملاحظة وتسجيل وتفسير الأحداث التي يدرسها ، ومن الممكن ان تخطئ الحواس في الإدراك وأن يخطئ العقل في التأويل . ولذلك فان العلماء يتكبرون وسائل مسعدة لحواسهم تكون بمثابة الرقيب على صدق ما تعطيه لهم الحواس وتساعد على تقوية هذه الحواس وزيادة دقتها وموضوعيتها ، كما أنهم يراجعون ماوصلوا اليه دائما على ما توصل اليه غيرهم . وهذه هي الوسيلة الأساسية لتجنب أخطار الذاتية والتحيز . ويلجأ علماء الاجتماع الى هذه الوسائل التي تضمن الموضوعية ، وما حدث في العلوم الفيزيائية والبيولوجية من تطوير دائم ومستمر لهذه الوسائل يحدث الآن في العلوم الاجتماعية، بحيث أصبح من المتوقع ان تصل هذه الوسائل الى مثل دقة الوسائل المتبعة في العلوم الأخرى .

نخرج من هذه المناقشة للأساس العلمي للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة بأن أي فهم حقيقي للمجتمع الانساني لا بد ان يكون باتباع المنهج العلمي ، وأن أية محاولة ناجحة للتحكم في ظواهر هذا المجتمع او حل مشكلاته لا بد ان تقوم على فهم مبني على الاسس العلمية لطبيعة هذه الظواهر . وهذا الفهم هو ما يتناول علم الاجتماع على أساس علمية أن يقدمه عن طريق الأبحاث والدراسات المنظمة التي يقوم بها العلماء المتخصصون في هذا الميدان .

سمير نعيم أحمد

جسر بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية

د. أسامة الخولي

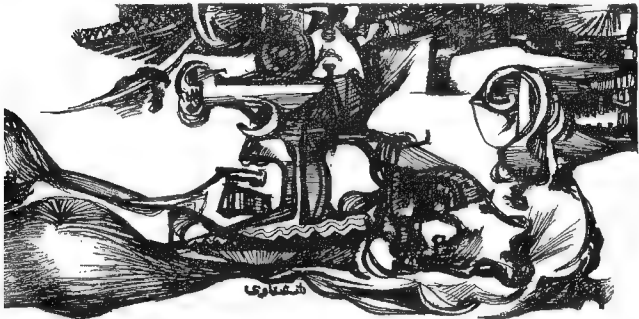


انه نشأ في خضم ثورة شاملة في العلوم الطبيعية خرجت بها عن برمجها العاجي وقذفت بها بقسوة في عواطف المال والأعمال والسياسة ، أي أن هذه الثورة قد ربطت ربطا واضحا ومباشرا - لأول مرة في تاريخ الإنسان - بين العلم النظري وبين التطبيق .

وتأتى بعد هذا مرحلة ثانية في عرض العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية . ويتركز الاهتمام فيها على التعرف على تطبيقات أساليب الأولى في نشاطات الثانية . وهذا هو الجانب الذي لا أملك المعرفة ولا القدرة على الحوض فيه والذي توجب الأمانة العلمية أن أتركه للمتخصصين في مختلف العلوم الانسانية ليتحدثوا عنه من واقع خبرتهم المباشرة .

دفع الى الزميل رئيس التحرير بكتاب أصدرته هيئة اليونسكو أخيرا يستعرض الاتجاهات الأساسية في بحوث العلوم الاجتماعية والانسانيات عموما وأشار الى بحثين بالذات يتعرضان لبعض الأساليب الحديثة المرتبطة بالعلوم الطبيعية واتى وجدت طريقها مؤخرا العلوم الانسانية ، واقترح على أن أستعرض هذه الأساليب لقراء الفكر المعاصر . ووجد اقتراحه هوى في نفسي ، فطالما فكرت في التعرف لهذا الموضوع بشئ من التفصيل ، خصوصا واننى - فيما يبدو - أشير اليه دائما في كل ما أكتب اشارات عابرة مقتضبة .

وسرعان ما أدركت بوضوح حقيقة الأسباب



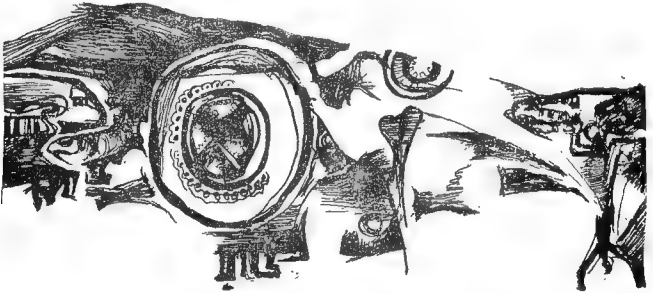
الا أن هناك - في النهاية - جانباً ثالثاً للحديث أرى أنه ربما يكون أهم من هذا كله . وأعني به القضايا الفكرية الأساسية التي يثيرها موضوع هذه العلاقة والتي هي في حقيقة الأمر ، مشاكل فلسفية تشغل بال الفكر المعاصر . ولا أظن أن المقام يتسع هنا لأكثر من المرحلة الأولى والتي سنعرض فيها بإيجاز لبعض أساليب العلوم الطبيعية التي وجدت طريقها مؤخرا الى الدراسات الانسانية .

وفكرة تجني العلوم الانسانية لأساليب العلوم الطبيعية ليست جديدة في حد ذاتها . ولعل أوضح مثال لها في العلم المعاصر هو استخدام الأساليب الاحصائية في دراسة المجتمع البشري والسلوك

الكامنة وراء اسهامي عن هذا العمل حتى الآن . لقد كنت أدرك تماما أن جهلي بحقيقة ما يجري اليوم من دراسات في العلوم الانسانية عقبة حقيقية في سبيل أية محاولة قد أبذلها في هذا الصدد . ولكنني لم أكن قد أدركت بعد أن أتعرض لهذه العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية اليوم لا يكفي فيه حديث واحد ، إذ أن العرض الواضح لهذه العلاقة لغير المشتغلين بالعلوم الطبيعية لا بد وأن يجري على عدة مراحل . أولاها التعرف بأساليب العلوم الطبيعية التي وجدت طريقها الى العلوم الانسانية ، وسينطوي الحديث عن هذا على دراسة وقع العلوم الانسانية بدورها على العلوم الطبيعية ، خصوصا وأن غالبية هذه الأساليب جديد على العلوم الطبيعية ذاتها ، بل

« المتناهي في الصغر » وفكرة التفاضل التي تشكّلت على يد لايبنتز ونيوتن * وكان كل ما حققته من دراسات أدت الى الحصول على نتائج كمية دقيقة استنتاجا من معطيات تحليلية تعالج الجزء « المتناهي في الصغر » من الجسم أو الآلية وتطبق عليه القوانين لنيوتونية للحركة ، ثم قانوني الديناميكا الحرارية فيما بعد ، وكانت هاتان المجموعتان من « قوانين الطبيعة » هما كل ما في جعبة الطبيعيات من سلاح حققت به كل هذا الانتصارات الباهرة التي وطدت مكانة الأسلوب العلمي كما نعرفه اليوم وأثبتت بما لا يحتل الشك فعاليته في التعرف بالعالم والتنبؤ بسلوكه واتاحة فرص حقيقية للتحكم فيه واستغلال للخير والنشر على حد سواء *.

الانساني • واطن أن غبار المعركة حول دور الأساليب الإحصائية في هذه الدراسات والتي دارت رحاها بين أولئك الذين يرفضونها أساسا وأولئك الذين لا يجدون في سسواها مضمونا للدراسات الاجتماعية ، أظن أن هذا الغبار قد انقشع الآن وأنها قد بدأت تأخذ مكانها الطبيعي وسط أساليب هذه الدراسات • ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن علوم الأخيه ، والتي تأخذ موقفا وسطا بين العلوم الطبيعية والانسانية ، كانت أول من اهتم بالأساليب الإحصائية وطورها في التطبيقات العملية • وقامت بهذا بدور الجسر التي عبرت عليه تلك الأساليب من شاطئ الرياضيات البحتة الى شاطئ الدراسات الاجتماعية •



ولكن هذا الكيان العلمي الضخم ظل يعاني من خلل جوهري فيه وقف حائلا في مسيبل اتخاذ « الآلية » (أو المكنسة) نموذجا لكل شيء في الطبيعة ، الا وهو عجزه عن أن يشمل ايضا سلوك الكائنات الحية التي هي مثال واضح لظاهرة يواجهها بصورة مخففة في مجالات أخرى هي ظاهرة « التعقيد المنظم » • وربما كان من سوء الحظ أن الطبيعيات التقليدية عاجلت ، أول ما عاجلت ، النظام الشمسي الذي تسيطر عليه الشمس سيطرة غاشمة بتحكم الفروق الشاسعة بين وزنها وصفاتها وبين وزن وخصائص أي كوكب آخر في المجموعة الشمسية • لقد أتاح هذا للأفكار الآلية أن تحقق نجاحا في معالجة هذه « المنظومة » بالأسلوب التفتيشي الذي اتاحتها الرياضيات التيوتونية ودون مواجهة مشكلة

أسلوب تحليل المنظومات

وساقصر حديثي هذه المرة على التعرف بواحد من أهم ما استحدثت أخيرا في العلوم الطبيعية ، قرب بينها وبين العلوم الانسانية • ألا وهو أسلوب تحليل المنظومات system analysis ولا ينظر هذا الأسلوب الى الأمور نظرة آلية mechanistic بل يدور حول مفهوم المنظومة system وأود - قبل تعريف مفهوم المنظومة - أن أعود قليلا الى الوراء لاسترجع الدور الحاسم الذي لعبته النظرة الآلية في تقدم العلوم الطبيعية منذ عصر النهضة • ولقد شاركتها في هذا الأساليب الرياضية التقليدية التي تطورت في نفس الوقت والتي ابتدعت لأول مرة مفهوم

« التعقيد » المنظم بشكل حاد في هذه الحالة الخاصة التي تضعف فيها الروابط المتبادلة بين الكواكب المسيرة كثيراً عن روابط أى منها بالشمس • ولقد سمح هذا بتجاهل الروابط المتبادلة بين الكواكب في التحليل الأول ، ثم اجراءات تصحيحات هامشية بعد ذلك عن طريق أخذها في الاعتبار واحدة واحدة •

لقد أدى هذا لفشل عندما تكشفنا إعادة من انكار المعالجة الآلية الى ظهور فكرة المنظومة • ويرى كثيرون أن محاولة تعريف هذه الكلمة لا بد وأن تبوء بالفشل ، فهي كلمة عامة وشاملة ينطوى تعريفها على استخدام عبارات أخرى أكثر عمومية وسهولة ، وأقل وضوحاً عن الكلمة ذاتها • ولعل في الحديث عن بعض أنواع المنظومات ما قد يوحى بالمعنى المقصود من هذه الكلمة • فنحن نستخدم كلمة منظومة عندما نتحدث عن مجموعة من الأشياء المتشابهة أو المترابطة ، كالمنظومة الشمسية • ولكننا نتحدث أيضاً عن المنظومة كجمع من القواعد أو الاجراءات • فالمنظومة إذن تعنى جمعاً من الأشياء المترابطة من ناحية ، ومجموعة من القواعد والاجراءات أو السلوك ، من ناحية أخرى • ومجموعة الأشياء هي « كيان المنظومة » ، بينما مجموعة القواعد هي « نسق عمل المنظومة » • وربما يكون التعريف التالي هو أقرب التعريفات التي قابلتها للفهم :

« المنظومة جمع من الكيانات أو الأشياء (الحية أو الجماد) يتلقى مدخلات معينة ويؤثر فيها بشكل متناسق ليعطي مخرجات معينة ، بقصد تحقيق نهاية قصوى لبعض الصفات المرتبطة بالمدخلات والمخرجات » (ويتشاور كيرشاور)

ويعني في هذا التعريف عدد من الكلمات ، اولاًها « يؤثر عليها » • فهذا يؤكد أننا اداء عملية ديناميكية متغيرة وأن الكيانات الساكنة التي لا تتغير لا تدخل في عداد المنظومات • ولهذا الاعتبار أهمية بالغة في محاولة تطبيق مفهوم المنظومة على الكائنات الحية • وهو يثير قضية أساسية حول مدى انطباق القانون الثاني للديناميكا الحرارية على الكائنات الحية • وهذه قضية حاسمة في تقرير صلاحية أسلوب تحليل المنظومات لمعالجة الكائنات الحية البالغة • التعقيد المنظم • • ولئن نتوقف عن هذا الاعتبار الفلسفي طويلاً فهو يدخل في عداد المرحلة الثالثة للحديث كما فصلنا في مستهل •

ومعنى المفهوم الدينامي هو أن بناء فندق مثلاً لا يعتبر منظومة • ولكن البناء والصاملين ونظام العمل يمكن اعتبارها منظومة تتلقى مدخلات (هي الطعام والشراب والوقود والضيوف والمال والشكاوى والفواتير) وتؤثر عليها لتعطي مخرجات (منها الراحة والجو المكيف والوجبات والفضلات والفواتير أيضاً) وذلك بقصد الحصول على الحد الأقصى من الربح •

والكلمة الثانية الهامة في التعريف السابق هي كلمة « بقصد » • ويؤكد هذا أن للمنظومة هدفاً ما ، بينما يستبعد من نطاق اهتمامنا المنظومات الطبيعية المحضة مثل شبكة الأنهار التي يتكون منها حوض نهر النيل مثلاً ويقصر البحث على المواقف التي تتفاعل فيها مقاصد البشر مع اداء المنظومة • وعلى هذا فإن حوض نهر النيل عندما تقام عليه الخزانات والسدود التي نتحكم في بنائها وتشغيلها يعود مرة أخرى الى نطاق البحث •

وهناك أخيراً كلمة « بعض الصفات » • وهي تعنى أن هناك شيئاً ما له قيمة عددية تتوقف على قيم المدخلات والمخرجات •

وتهتم دراسة المنظومات بأمرين : أولهما تحديد الصفة ، أو الصفات ، التي سنتخذها معياراً لتقييم الأداء والتي تسمى لكل فصل بها الى القيم العضوية ، والثاني هو تعديل « كيان المنظومة » أو « نسق عملها » لكي تتحقق هذه القيم العضوية لمعايير تقييم الأداء •

بين الإنسان والمكنة

فاذا ما انتقلنا بعد هذا الى استعراض أنواع المنظومات والأساليب التي تستخدم في دراستها لبدأنا بالمعدات الآلية الخاصة (أي بالمعدات الميكانيكية أو الكيميائية أو الكهربائية) التي تعمل طبقاً لقوانين الطبيعيات والكيمياء • ويتقصر دور الإنسان هنا على اختيار « كيان المنظومة » أي على عملية تصميم هذه المنظومات الآلية الصرفة • ولقد مرت عملية التصميم هذه بتغيير ثوري في الآونة الأخيرة • فخلد كان الأسلوب السائد حتى وقت قريب أسلوباً « تخليقياً » synthetic

يبدأ بأن ينتقي المصمم - على مسؤوليته ومن واقع خبراته السابقة - بشكل لا واع ولا رشيد مكونات المنظومة من بين قائمة ما هو موجود منها والذي تكون صفاته الدينامية معروفة • وكان البحث يبدأ باستنتاج اداء المنظومة التي تشكلت من

وطيفه غير آليّة في جوهرها ولا توجد مكثبات قادرة على أدائها ، وإن كانت الحاسبات الحديثة بطاقتها المذهلة على اختزان المعلومات وسرعتها الفائقة في تحليلها قادرة على القيام بقدر من التحكم المتواهم يعجز الإنسان عن القيام به ، كما في حالة مصنع كيميائي أو شبكة القدرة الكهربائية مثلا !! وهناك من يرى أنه ليس ثمة فارق جوهري بين سلوك المروامة الذي تبديه هذه الآلات وبين طريقة عمل العقل البشري . والمهم هنا هو أن ندرّك أن طرق تحليل ودراسة المنظومة المتوائمة تختلف تماما عن تلك المستخدمة في المنظومات الآليّة بالمفهوم التقليدي الذي ورثناه عن عصر النهضة .

وهنا ، في آخر هذه القائمة من أنواع المنظومات ، نوع فريد يتميز عن سابقيه ويحتّم علينا تطوير أساليب جديدة لتحليله ودراسته . وهذا هو النوع الذي توجد فيه المنظومة ومعها ، أو حولها ، منظومة أخرى أو أكثر يكون من بين أعضائها تحطيم المنظومة التي ندرسها أو هزيمتها (أي أن المنظومات الأخرى تستهدف تحقيق نهاية صفري لقيمة التغير التي تسعى المنظومة التي ندرسها لكي تصل به إلى نهايتها العظمى) . والمنافسة بين الشركات والدول والجيوش المتحاربة أمثلة لهذه المنظومات « المتنافسة » competitive

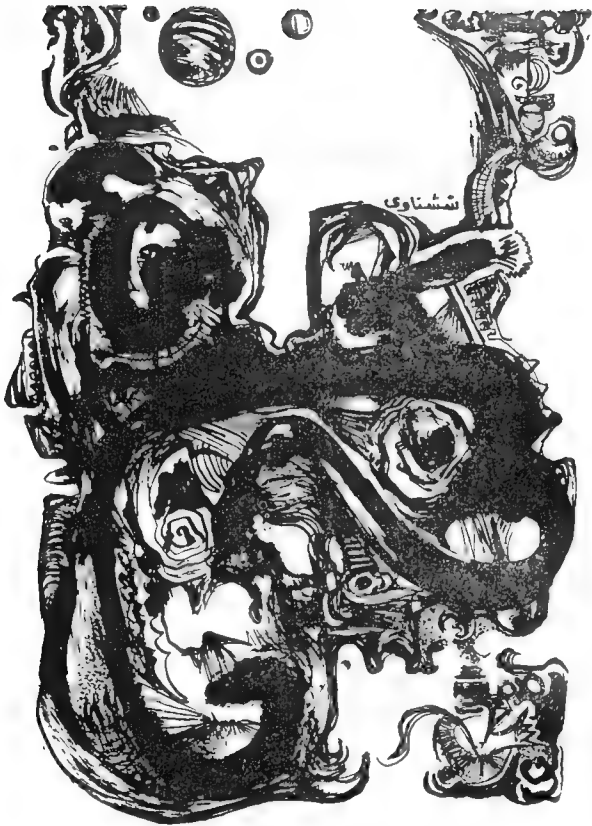
ولعل هذا العرض البسيط لأنواع المنظومات يكشف لعلّاء الإنسانيات عن الغراء الكامن في مفهوم المنظومة والذي وصل بنا في تدرج أنواعه من النماذج الآليّة النيوتونية إلى مواقف تكشف تدريجيا عن المضمون الإنساني للمسألة التي نعالجها . وواضح أن هناك اغراء قويا حقا لكي نخطو الخطوة الباقية ونفكر في المنظومة التي تقع في النقيض الآخر للمنظومة الآليّة المضمة ، ألا وهو المنظومة البشرية العرفية ، أو الإنسان نفسه .

وواضح أيضا أن هذا - كما سبق أن أشرنا عندما دخل العنصر البشري لأول مرة في تكوين منظومات النوع الثاني من القائمة السابقة - يسير بنا رويدا رويدا من عالم اليقين إلى عالم الاحتمالات . فكلمة لعب البشر دورا رئيسيا في عمل المنظومة كلما ازدادت صعوبة التنبؤ بأدائها في ظروف معلومة . ألا أن هذا لا يعنى بالمرّة الكف عن محاولات التحليل والتنبؤ ، فكثيرا ما يكون من الممكن تعضيد السلوك « المتوسط » average للإنسان في ظروف معينة وبلوحة كبيرة من الدقة . ونقلنا هذا بأساليب التحليل من يقين ميكانيكا نيوتن إلى دنيا الاحتمالات الاحصائية .

المكونات المعروفة (الصفات) التي انتقناها المصمم وتبجديد عيوب الأداء . وينتقل البحث في المرحلة الثانية من التصميم إلى معالجة هذه العيوب عن طريق تطبيق عدد من الأساليب النمطية المعروفة . إلا أن لقدرة المصمم على تلافي العيوب حدا كامنا أصلا في عملية الاختيار الأولى التي جرت دون تحليل منطقي لاحتياجات الأداء المطلوب يثبت أولا أن في استطاعة المكونات التي اختارها تحقيقه . ودعا هذا إلى الاهتمام بالبحث عن أسلوب بديل للتصميم أخذ يتطور تدريجيا حتى أصبح يعرف الآن بالأسلوب « التحليلي » analytic وفيه يبدأ المصمم بتحديد معايير الأداء المطلوبة ثم يستنتج منها صفات مكونات المنظومة التي تحقق هذه المعايير . والأساليب الرياضية التي استحدثت لهذا الغرض امتدادات طبيعية للأساليب التقليدية لا تخلو من الطرفة وإن كانت لا تخرج إلى نطاق الأساليب الرياضية الأخرى إلا في الحالات التي تكون التدخلات للمنظومة فيها ذات طابع عشوائي احصائي يمثل ما تتعرض له المنظومة فعلا في الواقع .

وهناك بعد هذا النوع من المنظومات الذي يحدث فيه الحد الأدنى من التفاعل بين الإنسان والمكنة ، نوع آخر يكون الإنسان فيه جزءا من منظومة آليّة في غالبيتها ، مثل القائد في طيارة حديثة أو الجنود في منظومة الدفاع الجوي . ومهما يكن تصورنا لسلوك البشر ومهما تكن محاولاتنا للاتقارب به من سلوك المكنات ، فسيبقى قدرا ما من سلوك الإنسان غير قابل للتنبؤ الدقيق . ومن الطريف أن نذكر هنا أن الإنسان يقوم ، في نفس الوقت ، بهام جانبيه يتمنى كل مصمم للمنظومات أن يجدها أيضا في مكونات المنظومة الآليّة ، مثل قدرته على التنبيه بقرق وقوع خلل فيه (عندما يعبر عن احساسه بالقرق مثلا) أو في سلوك المكنات الحبيطة (عندما يتنبأ إلى حدوث تغيرات غير محبودة في بعض صلاتها) . وسنترك الحديث عن الأساليب التي تستعمل لمعالجة هذا النوع من المنظومات مؤقتا لنعود إليه مرة أخرى بعد قليل .

وهناك أيضا منظومات يقوم البشر فيها بهام غير آليّة بالمرّة ، مثل اتخاذ القرارات لتعديل نسق عمل المنظومة . وتندرج تحت أعمال الإدارة في وحدة إنتاجية أو اقتصادية مثلا . وتسمى هذه المنظومات منظومات متوائمة adaptive والغرض من وجود الإنسان كجزء من المنظومة هو المروامة بينها وبين ظروف العمل المتغيرة . وهذه



الغاز المحصور في وعاء • فلم يكن هناك سبيل
لحل العدد البالغ الضخامة من المعادلات الذي يصف
حركة كل منها • ولكن الميكانيكا النيوتونية
غضت الطرف عن هذا القزو واعتبرته حالة
لا تمس جوهر أساليبهم السائدة حينئذ ووجدت
له مبررات كثيرة • وجاءت الضربة القاصمة مع

ولقد جرى تطوير الأساليب الإحصائية تحت
ظل سيطرة المفاهيم اليقينية وبعبدا تماما عن عالم
الدراسات الطبيعية • إلا أن هذه الأساليب سرعان
ما دخلت في هذه الدراسات عندما حاول ماكسويل
وبولتزمان ، عام ١٨٦٠ ، وصف أداء منظومة آلية
ضخمة كثيرة المكونات هي المحشد الكبير من جزئيات

Method ويقوم الحاسب هنا باتخاذ القرارات أو القيام بالأفعال العشوائية التي يقوم بها الإنسان في التجارب الحقيقية .

ومن مسائل المنظومات المعقدة التي جرى حلها بأسلوب مونت كارلو مسائل حرية المرور في شوارع المدن وتحديد فترات أضواء الأنوار الثلاثة (الأحمر والأصفر والأخضر) لتحقيق أكبر سريان لحركة المرور . وهذه مسألة بالغة التعقيد حقا ، خصوصا لوجود التقاطعات . فهناك أولا احتمالات وصول سيارة إلى التقاطع عند أي وقت محدد بالذات ، ثم هناك احتمالات انزاعها يسارا أو يمينا . وهذه احتمالات قد يكون من الممكن قياسها فعلا في الطبيعة بواسطة معدات تسجيل حركة المرور في الشوارع وعند التقاطعات . إلا أن العلاقات بين وحدات هذه المنظومة بالغة التعقيد وانتشاك بحيث يستحيل تقرير النتائج بطرق حساب الاحتمالات المعروفة ، دع عنك الوصول بها إلى النهايات القصوى المطلوبة عن طريق تعديل نظام عمل المجموعة . ولكن أساليب مونت كارلو تزودنا بحلول ممتازة لهذه المشكلة دون القيام بأية تجارب على الطبيعة .

وتستخدم هذه الأساليب أيضا في تحليل المنظومات التي يكون الإنسان جزءا أساسيا فيها ، لأنه بطبيعته عنصر يصعب التنبؤ بسلوكه . ولكن تحديد احتمالات سلوك الإنسان قد أصبح اليوم فرعا قائما بذاته يعرف باسم الهندسة البشرية Human Engineering . الإنسان هنا على أنه آلية ميكانيكية فقط ، فهازلنا بعد عاجزين عن حساب احتمالات إصدار الإنسان لأحكام سبيلية ، وإن كنا قادرين على تحديد احتمالات قيامه بعمل آلي ما ، وبالأدوات فترة الزمن التي تنقضي ما بين استشارته للقيام بهذا العمل وبين قياسه به فعلا وتأثير طرق الاستشارة ، والركبة منها بالذات ، على طول هذه الفترة واحتمالات ختمه في القيام بالهمل المطلوب واحتمالات عدم استشارته أطلاقا وأثر الإرهاق والمقاوم على ذلك كله .

فإذا ما وصلنا في خاتمة المطاف إلى المنظومات غير الآلية والتي تعمل أيضا بطرق غير آلية ، أي عندما تصدر الأحكام أو تتخذ القرارات مثلا ، فإن عملية التحليل تصبح بالغة المشقة . إلا أننا إذا افترضنا أن الإنسان يسير في اتخاذ قراراته أو في اتخاذ القرارات على هدى أسلوب خاضع ولو جزئيا ، للتحليل المنطقي ، فإنه يصبح من

اكتشاف القوانين التي تحكم سلوك الذرات المشعة ، وهي قوانين تهدم الأفكار النيوتونية . ثم جاءت قاعدة هيزنبرج ، عام ١٩٢٠ ، فأجهزت على الأفكار اليقينية وتوجت « عدم اليقين » uncertainty ملكا على عرض الطبيعيات الحديثة .

أزمة الطبيعيات الحديثة

ويهمنا من هذا العرض لأزمة الطبيعيات الحديثة المعروفة أن نوضح أن الأساليب الإحصائية لم تدخل العلوم الطبيعية أصلا بسبب انشغالها بالكائنات الحية عموما أو الإنسان على وجه الخصوص ، وإنما كان ذلك ضرورة أملتها دراسة العالم الجهاد نفسه ولو أن هذا لا يخلو من مغالطة ليس هذا مجال اتوسع فيها وأرجو أن يصفح عني المتزمتون أن أنا طرحتها جانبا في هذا السياق . وعلى في هذا هو أن لهذا الحديث ، كما قلت ، وجهها فلسفيا لا نستطيع أن نوفيه حقه في هذا العرض السريع لأساليب حديثه . ولعل أجد فرصة قريبة للحديث عنه إن شاء الله .

وبدخول البشر في المنظومات واستخدام الأساليب الإحصائية لمواجهة الموقف يتحول الحديث من محاولة حساب طريقة أداء المنظومة بشكل قاطع لا يتغير إلى محاولة تحديد نسبة عدد مرات التشفيل الذي يكون سلوكها فيها من نوع ما . وهذه هي النسبة التي نسميها « احتمال » probability . حدوث هذا السلوك . وإن كنا قد نضطر إلى استخدام أسلوب إحصائي في معالجة منظومة آلية صرفة ، مثل القبلة الذرية ، لأنها تعتمد في عملها على قوانين الطبيعيات الحديثة التي هي إحصائية في جوهرها .

وهناك عدة أساليب معروفة لحساب الاحتمالات في الحالات البسيطة ، مثل ألعاب الحظ والميسر ، تستخدم كبداية لإجراء التجارب عددا كبيرا من المرات وحصر عدد المرات التي يتحقق فيها السلوك الذي نريد تحديد احتمال وقوعه . إلا أن هذه الأساليب لا تصلح للمنظومات المعقدة المتشابهة ، الأمر الذي يضطرنا إلى إعادة النظر في إمكانية القيام بالتجارب الفعلية . وهنا يأتي الحاسب الإلكتروني مرة أخرى لنجربنا ، فهو يتيح لنا أسلوبا جديدا في التحليل الإحصائي للمنظومات . وإن كان في حقيقته من أساليب التمثيل وهو الأسلوب الذي simulation يعرف الآن باسم طريقة مونت كارلو Monte Carlo

طرق الحل • ومن بين هذه الطرق وسائل التمثيل التجريبي والتي هي في حقيقتها امتداد لأسلوب مونت كارلو • والأمور الثاني هو أن انتقاء معيار الأمثلية ينطوي على مقارنات اول ما يقال في أمرها هو أنها غير مالوفة • ان لم تكن مجوده في العلوم الطبيعية ، مثل المقارنة بين الزمن اللازم لتنفيذ سياسة ما وفعاليتها أو بين الدولارات والرؤيات وبين الأرواح البشرية • ولقد أثار هذا الجانب الاهتمام بعملية اتخاذ القرارات ذاتها وبدأت تبرز أخيراً كفرع جديد قائم بذاته أصبح يعرف « بنظرية القرارات » Decision theory

وعندما طهر كتاب فون نويمان ومور جنشترين عام ١٩٤٤ قال عنه أحد النقاد :

« لا يدعي المؤلفان أنهما قد صاغوا نظرية رياضية كاملة للمجتمع ؛ فالكاتب لا يعالج سوى المسائل الاقتصادية • ومازالت النظرية ونظيفاتها - حتى في هذا المجال - في دور الطفولة ؛ ولكنها طفولة حية تبشر بالخير • ونستطيع أن نقول منصفين ان نظرية المباريات قد وضعت الأساس للمعالجة الرياضية الرتيبة النفاذة في نطاق شاسع من مسائل العلوم الانسانية » •

وفي عام ١٩٥٧ عرض كاتبان آخران الموقف بالنسبة لهذه النظرية بقبولهما :

« ان الوقت السالزم لظهور تأثير التطورات النظرية يقاس بعشرات السنين • ثم ان النظرية بشكلها الحالي قد تبلى غير مرضية بالمره - ولو في بعض اجزائها • ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن طرحها جانباً هو السبيل الوحيد امام علماء الاجتماع • فنظرية المباراة واحد من اوائل الأمثلة لتطور رياضي يدور حول العلوم الاجتماعية وحدها » •

ولا أتصور أن ينتهي حديثي عن المنظومات وأنواعها وأساليب معالجتها دون أن أتعرض لمفهومين يلعبان دوراً رئيسياً في فكرة المنظومة بأسرها • وهاتان الفكرتان هما فكرة التغذية المرتدة feed-back والاستقرار stability

والفكرة الأساسية في مفهوم التغذية المرتدة هي تصميم المنظومة بحيث تأخذ دائماً في الاعتبار، وبحكم ترابط اجزائها ، الانحراف بين ما نريد منها أن تؤديه (أي التعليمات أو الأوامر أو المعطيات أو المدخلات) وبين سلوكها الفعلي (أي مخرجاتها) • وتعرف هذه المنظومات باسم منظومات الحلقة المغلقة closed-loop ولعل فكرة الحلقة

الممكن لمنافسه أن يقوم بنفس التحليل وأن يتنبأ بطبيعة الأحكام التي سيحصل إليها منافسه • ومن حسن الحظ أننا لسنا بحاجة لمعرفة سلوكه الفعلي بقدر ما نحن بحاجة إلى تحديد سلوكه الأمثل optimum أي أن أدائه الفعلي لو كان دون ما كان يمكنه أن يحققه ، فإن هذا ضمن لنا هزيمته - أي تحقيق أهدافنا - أكثر فائز • وتسرى هذه الأفكار مباشرة في حالة المنافس الصغير جداً الذي لا يكاد منافسه الكبير أن يحس بوجوده ، وبالتالي ، ربما لا يتصرف دائماً كما يجب - الأمر الذي يعطى الصغير ميزة واضحة لو أحسن التصرف ، ولو لفترة من الزمن على الأقل • وعمليات التسلسل على نطاق صغير في الحروب أمثلة لهذا الموقف غير المتكافئ • أما اذا تساوى الخصمان فإن التحليل يصبح أكثر صعوبة ويحتاج إلى أسلوب جديد يعرف باسم نظرية المباراة Game Theory

نظرية المباراة

ولقد وضع أسس هذه النظرية العالم الأمريكي الشهير - والجزري الأصل - جون فون نويمان والذي سيذكره العالم كقائد فريق العلماء الذي صمم وانتج أول حاسب الكتروني حقيقي ناجح في أعقاب الحرب العالمية الثانية • فقد أصغر - هو ودور جنشترين - كتاباً عام ١٩٤٤ عنوانه «نظرية المباريات والأسس لسلوك الاقتصادي» قدم فيه هذه النظرية كطريقة مستحدثة لتحليل المنظومات المتنافسة وهي المنظومات التي يمكن اعتبار المباراة التي يقوم فيها متباريان أو أكثر باتخاذ القرارات سراً نموذجاً لها • وتؤدي نظرية المباراة في الحالات التي يمكن حلها إلى تحديد « استراتيجية » strategy أي جمع من الاختيارات ، مع تحديد احتمال كونها الاختيارات المثلى optimum choices بالنسبة للاعب • واختيار معيار الأمثلية optimality مخوف عادة بكثير من الشكوك • ومن أشهر هذه المعايير معيار يعرف باسم النهاية الصغرى للحد الأقصى minimax وتحدد الاستراتيجية بمقتضى هذا المعيار بحيث تجعل الحسائر القصوى أقل ما يمكن (أو تجعل النهاية الدنيا للمكاسب التي يمكن تحقيقها أكبر ما يمكن) •

وأريد هنا أن أبرز أمرين : أولهما أن لهذه النظرية كياناً رياضياً شكلياً كاملاً ، شأنها في هذا شأن بقية الأساليب الرياضية المعروفة • فهي تبدأ بتحديد المفاهيم والاصطلاحات ، ثم تحدد

المخلقة أن تتفهم من الشكل والذي نرى فيه المنظومة وهي تتلقى التعليمات عن السلوك المرغوب فيه أو المطلوب من جانب وتعتبنا سلوكها الفعلي من جانب آخر . ولكن هذا السلوك الفعلي ويرتد ثانية إلى الخلف ، عن طريق أجهزة قياس تحدد قيمته ، دائرا حول المنظومة ليكون حلقة مغلقة وليعود فيلتقي بالسلوك المطلوب في جهاز يتولى المقارنة بينهما comparator أى يقوم بطرح فيه السلوك الفعلي من قيمة السلوك المطلوب ويعطينا إشارة حافزة للمنظومة هي الفرق بين الاثنين أو الخطأ أو الانحراف في سلوك المنظومة error وتؤثر هذه الإشارة على المنظومة وتستمر في هذا التأثير حتى ينعدم الخطأ وينعدم بالتالى التأثير على المنظومة ، وتستقر في وضع تحقق فيه ما نطلبه .

وسلوك الإنسان وهو يلتقط قلما من فوق منضدة مثال كلاسيكى عرضه نوربرث فينر فى كتابه التاريخي الشهير « السبيرينات » . فعندما تمتد يدا لتلتقط القلم فائنا ونوجهها عن طريق محاوله واعية لتقليل المسافة التي تفصل بين مكان القلم ومكان اليد (الخطأ) . وهذه عملية تجرى فى حلقة مغلقة ، إذ أن الخطأ الذي تقيسه العين ويرتد ثانية عن طريقها الى المخ الذي يسيطر على العضلات يستخدم فى التحكم فى حركاتها ، وتكفى محاوله التقاط القلم والانسان معصوب العينين لكى تكشف عن حقيقة ما يجرى وعن اهمية التغذية المرتدة عن طريق العين . وهناك نموذج دينامى آخر مشهور يوضح التغذية المرتدة هو نظريه كالتسكى لدورة الرواج والكساد فى الاقتصاد الرأسمالى .

اما الاستقرار فيمكن تعريفه على انه قدرة المنظومة على العودة الى وضع متزن جديد بعد ازعاجها والخروج بها عن وضع متزن ابتدائى . ولعل أحد الأمثلة الواضحة لعلم الاستقرار هو الانسان الذى يتعلم ركوب دراجة . وهذا مثال مفيد لأنه يكشف أيضا عن الفرق بين التغذية المرتدة والاستقرار ، كما يكشف عن العلاقة بينهما فى نفس الوقت .

وبعد هذا الانسان ، عندما تميل الدراجة ناحية اليسار ويدرك بواسطة التغذية المرتدة عن طريق حواسه وقوع انحراف عن الوضع السوى المنشود ، يعيد الى ادارة قضيب القيادة جهة اليمين . ولكنه يبالغ فى فعل التصحيح هذا فيتحرف يمينا بقدر يزيد عن انحرافه الأصلي ناحية اليسار .

ويبادر الى اجراء تصحيح أكثر حدة بإدارة القضيب جهة اليسار . ويزداد انحرافه مرة اثر مرة وهو يترنح يمينا ويساراً حتى ينهار توازنه تماما ويعلن سقوطه المهين عن عدم استقراره فوق الدراجة .

ولكنه عندما يتعلم طرق اكساب المنظومة ، المكونة منه ومن الدراجة ، الاستقرار يدخل فى الاعتبار نوعا جديدا من التغذية المرتدة هو تحديد « معدل تغير » الانحراف بالإضافة الى قيمته . فهناك احتمالان عندما تكون الدراجة مائلة جهة اليسار ، فاما أن تكون آتية من الوضع السوى متحركة جهة اليسار واما أن تكون آتية من حد أقصى من الانحراف فى طريقها نحو الوضع السوى ، أى أن سرعة انحرافها قد تكون الى اليسار بحيث تزيد من الانحراف مع مرور الزمن ، أو الى اليمين ، أى بحيث تقلل منه . وواضح أن الموقف الثانى مختلف تماما عن الأول ، بل قد لا يحتاج الى تصحيح بالمرأ أو لتصحيح جهة اليسار اذا كانت سرعة العودة عالية .

وعندما يتعلم الراكب ركوب الدراجة ، يكون قد أدرك أهمية أن تشمل إشارة التغذية المرتدة بيانات عن معدلات تغير الانحراف . ويقال ان المنظومة خاضعة الآن لعامل جديد نسميه المضاملة damping وهو عامل يحقق الاستقرار عادة .

وهذه مفاهيم قابلة للتطبيق المباشر على الكائنات الحية ، بل هى مفاهيم بالغة الأهمية فى السيبرينات cybernetics وهى العلم الذى يربط بين المكونات والكائنات الحية وبالعلاج كلاً منها على أنه منظومة تخضع لقوانين ديناميه تمكن صياغتها رياضياً بقدر لا بأس به من الدقة .

ولا شك أن علماء النفس والاقتصاد قد أدركوا من هذا العرض السريع أن هذه المفاهيم شائعة جدا فى الدراسات النفسية والاقتصادية ، وأن كانت فى حقيقة الأمر جزءاً جوهرياً من دراسة المنظومات بكل أنواعها ، حتى الميكانيكى الخالص منها .

ولعل أن آكون قد وفقت فى إثارة اهتمام علماء الانسانيات ببعض الأفكار التي تعتبر اليوم جسرا بين علومهم وبين العلوم الطبيعيسية . ولعل أجدر فرصة قريبة لمعالجة بعض المسائل الفلسفية التي تثيرها هذه الأفكار وعن تأثير ذلك على تطور الفكر المعاصر كله .

اسامة أمين الخولى

القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية

صلاح قصصو

ولعل ازوار البعض عنها قد يفسره أنه يحسبها مجرد وعاء قديم لشئونات من المعرفة المتنوعة لم يخلف تخصص العلوم فيه شيئاً . فإذا خطر للفلسفة أذن أن تقدم باسمها شيئاً في دراسة القيم ، فلن يكون حظها أوفر مما يؤتيه المطار في منافسته للصديلي ، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب ! فخير للفلسفة ، في رأي هؤلاء ، أن تدلف إلى ذمة التاريخ ، وعليها ألا تتسلل من ضريحها ولا دهمتها عجالات العلم .

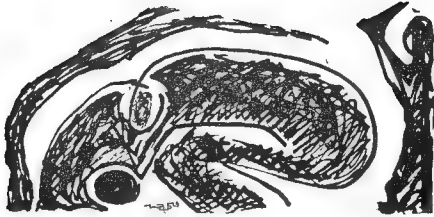
أجل ، هذا حق إذا عدنا الفلسفة علماً من بين علوم ، يناقشها عندما يعرض السلعة نفسها ولكن خلف واجهة أخرى . أو إذا حسبتها حزمة من المعارف القديمة لا لبث أن انفرط عصفها إلى مجموعة من العلوم المتخصصة .

بيد أن الفلسفة شيء مختلف عن كل هذا ، فما يزال لها موضوعات ومنهج وغاية خاصة . ولكن فريقاً من الفلاسفة لا يشارك في هذا الرأي فمن سوء طالع الفلسفة أن محاولات تقويضها لا توجه من خارجها فحسب ، بل قد تنبعث من داخل صفوفها أيضاً . فقد تعرضت أخيراً مسائل الفلسفة جميعاً ، ومن بينها القيم ، على يد التحليليين الوصفيين المنطقيين للاكتار . ونزع من الفلسفة أوراقي اعتمادها وعزلت عن

١ - القيم في الفلسفة :

أصاب الفلسفة حفل عائر من سنسوء الفهم جعلها لا تحظى بسمة طيبة بين أوساط العلوم الاجتماعية . فكاد يصبح تقليداً درجت عليه بعض هذه الأوساط أن ينحى باللائمة على الفلسفة لأنها وقفت عائقاً تاريخياً في وجه تطور العلوم الاجتماعية أمداً طويلاً ، وحالت دون أن يدرس موضوع مثل القيم دراسة مؤسسة على الواقع ، وهكسداً عد الاعتراف بتخصص علم من العلوم الاجتماعية واستقلاله عن الفلسفة ضرباً من التحرر القومي من ربكة استعمار بيفضي !

وقد يكون مصدر الرية في الفلسفة ، عندما تعرض لوضوح القيم ، أن البعض يعتقد أنها ستصيب نفسها بداءاً ومنافسا للعلوم الاجتماعية . فإذا ظن البعض ذلك ، واحكم من ثم إلى المقارنة بين ما تقدمه الفلسفة وبين ما تقدمه العلوم الاجتماعية بصدر ذلك الموضوع ، فلن يجمعه ذلك على أنصاف الفلسفة لأنه سيجمعها حينئذ غامضة بسبب لغتها الخاصة ، وسيراها غير معديه لأنها لا تزوده بحلول مباشرة لمشكلات المجتمع لأن مثل تلك الحلول رهينة بتقدم المعرفة العلمية ، وسيحكم عليها بأنها عبث لا طائل تحته لأنها خصوصية وشغلق دائم بين مختلف الآراء لا يفضي إلى غير البلبلة والشك .



ومن ثم فهي لا تحمل معنى ، ولا تعدو أن تكون أوامر في صورة لفوية مضانة لا تجد دعائمها إلا في دعوتها الانفعالية ، مما لا يمكن استخلاصه من معرفة الواقع .

ويحسن بنا قبل أن نمضي إلى نقد الأساس المنطقي الذي يقيمون عليه انكارهم المنطقي للقيم ، أن نشير إلى موقفهم العملي منها . ففي الوقت الذي خرجوا فيه من باب أحكام القيمة ، عادوا فتسللوا إليها من النافذة . فهم يسرفون في انكار المعنى واحتمال الصدق أو الكذب في أحكام القيمة ، ثم ما يلبث أن يحاول كل منهم وضع نسق خلقي يضم اعترافا بالقيم وأحكامها ، بوصفها قضايا تحمل معنى وتقبل التحقق فهذا جودج مود في كتابه « برنكييا إيشكا » أو أصول أوخلاق يعسود فيمثل تقاليد الحسنيين ، فالخير عنده خاصة Property لا تقبل التعريف أو التحليل ، بسيطة فذة فريدة لا يمكن ادراكها إلا بالحدس أو البصرة المباشرة ، ويعني ذلك أن صدق القضايا التي تحكم بقيام خيرة باطنية ذاتية ، أي التي تحكم بان أمرا ما هو خير بمقتضى ذاته وليس لأن قيمته وسيلة لفهمه ، أنها هو صدق يمكن ادراكه مباشرة دون توسط أو برهان .

بعضها لتصبح وصيفة للعلم ، تتسلط قضاياها وتصوراتها ، وتتبعها بالتحليل المنطقي واللفوي دون أن يكون لها الحق في التعبير عن مشكلات تختص بها وحدها تبحث عن تفسيرها أو تجد حلولاً لها .

ويتفق أصحاب هذه الاتجاهات على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة العلوم الرياضية والتجريبية لأنها وحدها التي تحمّل معنى ، وما عداها من العبارات والقضايا لقو باطل وكلام بلا معنى . فقضايا العلوم الرياضية تحليلية يكرر محمولها موضوعها ، وقضايا العلوم التجريبية تركيبية يتطلب التحقق من صدقها رجوعاً إلى معطيات الحس في الخبرة أو التجربة المباشرة . ولا يبقى للفلسفة في هذا كله سوى أن تفرغ لتحليل النوعين السابقين من العبارات والقضايا من حيث المبني والمعنى ، ومن جهة اللغة والمنطق . وليس للفلسفة أن تقول أو تصيف من عندها شيئاً أو تتحدث عن الوجود أو الإنسان ، فحسبها مهمة التحليل

وهكذا لا تجد القيم لها مكاناً في الفلسفة لأن كل قضاياها وأحكامها ليست قضايا أو أحكاماً مما يقبل أن يوصف بالصدق أو الكذب ،

واستبعاده لأحكام القيمة - وبين موقفه المهرب الذى يعيد فيه نفسه ما تبرأ منه صراحة ، يفسد هذا عن تصور نسان فى فهمه ، هو العزى عن استيعاب قضايا الإنسان ونشاط قرار نفسها . فوقوف المذهب عند مبدأ الحق معيارا لكل ما يحل معنى - باستثناء قضايا المنطق والقياسات - أنها هو الدار لكل معنى يبحث عنه الإنسان فى حياته ، فكر وسلوكا .

تزعّم التوضعية المنطقية ان الفسفية التى تحمل معنى هى ما كانت قضيه تحليلية يكاد محورها موضوعها ، أو كانت قضيه برقييه يتحقق صدورها بمقتضىات الحس ، وغير مسده وتلك ليس الا لغوا باطلا . ونحن اين مبدأ انتقضى من هاتين القضيتين ؟ لو رددنا الى أى منهما ما وجدناه منتجا الى أحدهما . الى أى هذا إذن انه لفسو باطل بحكم منطق المذهب نفسه ؟

غير أننا لا نود الالتزام بقواعد لعبته المنطقية ، وحسب هذا التصدد المنطقى أن يكون دليلا على ضيق القلب عن استيعاب خصوصية الفكر الاساسى وتنوعه .

فلما كان الفيلسوف التحليلى او الوضعى المنطقى يعتقد أن العبارات التى تحمل معنى هى تلك التى يمكن التحقق منها - من حيث المبدأ - وأن العبارات التى تتحدث معاً هو كأن هى التى تنتسب وحدها الى ذلك النوع ، وأما العبارات التى تنطوى على ما ينبغى أن يكون ، أى المنطوية على قيم ، فليست من ذلك النوع المشروع ، إذا كان ذلك هو القضية الأساسية عند انصار تلك النزعة ، فإننا نلاحظ من وراء هذا المحك ، تمهيدا والتزاما قيميا ، هو وحده الذى يجعل مبدأ التحقق عندهم ممكنا ، هذا التمهيد يؤول بقول الحق أو الصدق . فهناك إذن فى قضيتهم الأساسية التى تصوغ محور منهجهم ، يترى بهم ما حاولوا رفضه وانكاره . وينجلي هذا متى أبرزنا مبدأ التحقق عندهم على الوجه التالى :

« ينبغى علينا أن ننصرف على النحو الذى بمقتضاه أن ما يكون صادقا ، هو ما يمكن التحقق منه » . فأنما تولوا فثم ما ينبغى أن يكون ، وهو جوهر القيم !

فلا مفر إذن للفلسفة من التصدى لوضع القيم ودراسته ، بل ان الفلسفة بطبيعتها

وهذا شليك رائد حلقة فيينا فى تنساب « مبادئ الاحتمالات » يرتد الى اعتراف بان الاحتمال علم من حيث هى جهات لمختصين المعرفة عن الصواب والخطأ ، وأن القيم وضروب الارام اذا كانت نسبية وفما لربما كانت الاشخاص فهى موضوعية بمعنى أن البشر يؤثرون بعض الانبياء على غيرها .

ويعود مارشال ووكر وهو أحد فلاسفة العلم الوضعيين المنطبيين فى تنابه « طبيعة الفكر العلمى » بعد ان يفرغ من تحليله للعلم مصدرا للنصح والمتنوعة فى السلوك الانسانى ، يعود فيقرر وحدة الاصل والغاية للعلم والقيم ، فأصله هو التجربة الإنسانية ، والغاية هى بقاء الإنسان . والحكم الخلقى والحكم العلمى لديه سواء . فكل منهما يقوم على أساس من النظر الى النتائج والتنسيق بها حسب قاعدة مقرر أو قانون معلوم .

أما هيربرت فايجل المتحدث باسمهم والمبذرح لهم على اختلاف نزعاتهم . فيختتم مثاله الشهير عن الوصفية المنطقية ، بنظرية للقيمة يتلخص فيها على دوى ، ذلك الفيلسوف الذى يجعل للقيمة دورا كبيرا فى مذهبه البراهمانى . فيقول « فايجل » للقيم الوظيفية معنى واقفيا ، فهى التى تصددها الحاجات والمصالح التى تقرر ما قد ثبت بالتجربة من علاقات بين الوسائل والغايات ، ويحكم عليها بالصدق أو بالكذب .

كما نجد مثل ذلك المتعارض أو التناقض عند الدكتور ذكى نجيب محمود ، فيعد انكاره القيم موضوعا للمعرفة فى كتابه « نحو فلسفة علمية » ، يعود فى كتابه « فلسفة وفن » فيعتقد مماثله بين الزئان فى سفينته وبين القيم فى الإنسان . فهى على حد تعبيره . « قيم يتركها بالفرط جينا ، وحينا تبت فى نفسه بئنا ، وهى المعانى فى رأسه التى تسيره ، وفهم الإنسان على حقيقته هو فهم هذه القيم . وأنهم يلقسون هذه القيم ثلاثة أقسام كبرى تنصوى تحتها شتى المعانى التى تضبط مسالك الإنسان فى خضم حياته ، وهى الحق والخير والجمال ، فى مقابل الثلاثة أوجه التى يحلون بها حياة الإنسان الذاتية ، وهى الإدراك والسلوك والوجدان » .

ويكشف هذا المتعارض بين موقف الوضعى المنطقى المعلن - وهو بصدد تحليله لقضايا العلم،

موضوعاتها ، ومنهجها ، وغايتها يحتويها كلها
اطار ميمارى يغلب عليه طابع القيم .

فهي نظرة كلية شاملة يحث بكل جوانب
الفاعلية الانسانية . والعلوم مهمة يكن لها من
قدرة على الحديث في كافة موضوعات المعرفة ،
فانها تلف عند تخصصاتها لا تسدها . فاذا
اصبح لدينا من العلوم ، تصورا وافتراسا ،
ما يملح كل موضوعات المعرفة ، فلا بد ان نفل
في حاجة الى من يضم شتات هذه الموضوعات
في موضوع واحد ينحط به تفصيلات عناصره ،
ويعد بينها الصلات ويسد الفجوات فللصالح
او الوجود بكل جوانبه ، والانسان بكل ضروب
نشاطه لا يمكن ان يكون موضوعا لعلم من العلوم
كذلك البحث في اصول تلك العلوم من افتراضات
سلفية وأسس منهجية لا يصرح بها الباحث في
عمله ليس من شان العلوم . فالفلسفة توحد
بين كل جوانب الفكر وتخصصاته وتؤلف بينها
جميعا في انساق منطقي . والفلسفة موقف من
العالم ، وموقف من العصر والمجتمع ، في
استيعاب شامل لكل جوانب الانسان . وكل
مشكلة تصالح مادة للفلسفة على شريطة ان تدرس
على اساس مكانتها من نسق ومذهب متكامل في
فسوء سائر التجارب والمطالب والأهداف
الانسانية .

واذا كانت الواكف المتجددة التي يواجهها
الانسان لا يمكن ان تنتظر حتى تفرغ العلوم
الاختلفة من دراسة مسلماتها لكي يتقدم لها
الانسان بالحل ، فان الفلسفة كما يقول «ارسل»
هي التي تعلم الانسان « كيف يعيا بغير يقين ،
ودون ان يشله التردد » . وهي ليست نظرا
منطوق الصلة بالعمل ، بل هي نظر نقدي ينطوي
على موقف من الحياة ، وليست تجربة الا بقدر
استعادة ما هو عيني ملموس عن طريق ما هو
مجرد على حصة تعبير « هوأيتهد » . وهي رغم
تحليقها الملتون عن الواقع ، فهي اكثر التصاقا
به ، وذلك لانه لا غناء عنها لكل انسان سواء
اختار فلسفته من وعى او لا وعى ، فلا مهرب
من الالتزام بفلسفة ما ازاء مواقف الحياة التي
يواجهها الانسان كل لحظة . ولا تقع الفلسفة
بالطلع الى الاهداف البعيدة ، بل تصقل ما يتاح
للانسان من قدرات ومعرفة في الوقت الراهن ،
دافعة لها الى اقصى نتائجها ومتضمناتها ،
وتزوده بالطاقة والعزم توصلا الى اهدافه
وغاياته القصوى .

فالفلسفة تستند اذن الى اساس قيمى
سواء في اتجاهها الى النكد او الابداع . فهي
التي تبرز انبائى وتكشف عن الافتراضات ،
وتناقش القيم الرئيسية ، ظاهرة او خافية وراء
مشكلات الثقافة السائدة بما يستند فيها من
صراع ، وما يحتاج فيها من توتر ، وتوضح ذلك
في حياة الفرد والجماعة وتبين دلالة في حاضر
الثقافة ومستقبلها ، وهذا من شأنه ان يعيق
احساس الانسان بقيمه والالتزام بها ، ويدعم
قدرته على توجيهها فيما ينبغي ان يكون . فهي
مبدأ موجه للانسان في موقفه ازاء المسالم
بمشكلاته التي تصطب به من كل جانب ، ولا مفر
من اتخاذ قرار بشأنها سواء من حيث التفسير
او التغيير ، فلا يعيدى الانتظار حتى ياتيها المدد
من العلوم ، تقدم ثمراتها التي نضجت وقرورها
التي تحققت .

وهناك من الفلسفات من تبرز واقعها ، ومنها
ما يتحسر على ماضي ذهبي ، ومنها من تتور على
هذا وذالك ابتغاء بناء مستقبل جديد . وهى في
كل هذا تجعل الناس على وعى بالتمزاعاتهم
وقيمهم الجوهرية وانارها المترتبة عليها ، لانها
تهب الانسان معاليد عالمه ، يفهمه بطريقته ،
ويتخذ منه موقفا تتبطنه القيم لا محالة .

غير ان الاتفاق لا ينقصد بين كل من عرض
للقيم من الفلسفة على تحديد مكانة معينة لها
من المذهب الفلسفى . فمنهم من يبدأ بها مداخل
ومنهم من يجعلها محورا تدور من حوله تفصيلات
مذهبه ، ومنهم من يخصص لها ركنا متزويا ،
ومنهم من يزوج بها داخل موضوع آخر يطويها
مع غيرها من تصورات ومفاهيم . كما تتفاوت
الفلسفة في درجة التصرح بموقفهم من
القيم أو اضماره ، بحيث قد ينسبر تحليل
موقفهم احيانا ويتعذر احيانا اخرى . ويبدو
ان السبب في ذلك انما يرجع الى مفهوم القيم
نفسه من حيث هى مشكلة لم تقرر بعد قواعد
تصنيفها ، وتصنيفها والتمييز بين انتصاهاها
ومدارسها ، على غير ما نجد عليه الحال في
المناظيرها ونظرة المعرفة التي صقلت تصوراتها
وقواعد بحثها قرون طويلة من الحوار الفكرى
الخصيب .

وتعد القيم نموذجا بارزا لما تكون عليه العلاقة
بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية . وهى ذات
طبيعة اشكالية ، ولم تستقر مائة صريحة

وهنا تبرز مشكلة التمييز بين القيم من حيث هي وسيلة مفضية الى غاية ومن حيث هي غاية تنشذ لذاتها . فالأولى قيم خارجية تختلف باختلاف حاجات الناس ومطالبهم ، بينما الثانية باطنية ذاتية لا شأن لها بهذا الاختلاف بين الناس وهي المثل العليا والغايات القصوى .

وأما المسألة الثانية فهي طبيعة القيم من حيث هي ذاتية من وضع الذات واختراعها ، أو من حيث هي موضوعية تشير الى صفات عينية في الأشياء لها وجودها المستقل عن الذات التي تدركها . وقد تتخذ هذه المشكلة صورة أخرى فتتعدى تعارضها بين القيمة والواقعة ، وبينها وبين الوجود . وقد تمتد المشكلة الى مناقشة القيم من حيث هي نسبية أو مطلقة .

أما المسألة الثانية وهي صنوف القيم ، فتعنى السؤال من وحدة القيم أو تعددها ، كما تنسحب أيضا على مناقشة مستويات القيمة دنيا أو عليا ، والصورة التي يكون عليها تسلسلها وتدرجها ان كان ثمة تسلسل أو تدرج ،

ومتى أضيف موقف الفيلسوف من صنوف القيم الى موقفه من طبيعتها ، من حيث تعريفها ومن حيث هي وسيلة أو غاية ، ذاتية أو موضوعية ، نسبية أو مطلقة ، فذلك يؤلف نظرة منسجمة تتيج لنا أن نضعه ضمن فريق أو فئة معينة من أصحاب المذاهب .

ويمكن ، بقدر من التعسف ، أن تصنف مواقف الفلاسفة من القيم الى أربعة مذاهب رئيسية هي ، الموقف الطبيعي ، والمثالي ، والبراجماتي ، والوجودي .

فاما الطبيعي ، فليس موقفا متجانسا الا من حيث اتفاق اصحابه على أن القيمة سلوك طبيعي يخضع لقوانين علمية حتمية . ولكنهم يتباينون في تفصيل نوع من القوانين العلمية على غسره . فمن الطبيعيين اصحاب المذاهب البيولوجية مثل هانس دريش وارانجتون الذين يردون القيمة الى المستوى البيولوجي للفرد ، ومنهم الذين يزعمون الى الاتجاه النفسي مثل ماينونج وهر نفلز الذين يردون القيم الى مشاعر الرغبة . ومنهم الاقتصاديون ، مثل ماركس ، الذي يرد القيمة الى اصولها في أسلوب الإنتاج . ومنهم أنصار النزعة الاجتماعية مثل

محددة للبحث والعراصة في الفلسفة او العلوم الاجتماعية على السواء الا منذ زمن قريب في اواخر القرن التاسع عشر ، ومن تاريخ نظرية القيمة تتبدى طبيعة العلاقة بين الفلسفة والعلوم والأساليب النوعية التي يتناول كل منها موضوع القيم . ويجدر بالملاحظة أن مفهوم القيم بمعناه الحديث قد دخل الفلسفة عن طريق علم الاقتصاد ، ثم تناوله علم الاجتماع عن طريق الفلسفة ولئن تبادر الى خاطر أن مفهوم القيمة مفهوم فلسفي أصيل ، فذلك لا يصدق الا اذا عدنا القيمة عنوانا جديدا لموضوعات قديمة ، بمعنى أن القدماء قد عارضوا البحث في القيمة ولكن تحت عنايات أخرى مثل الحق والخير والجمال وغيرها ، ولكن القيمة في شمولها من حيث هي كذلك غير متعينة في وعاء ميماري نوعي - أي بمفهومها الأكسيولوجي وفقها للصالح الفلسفي - فلها لم تكن محل نظر الفلاسفة حتى عهد قريب .

وللقيمة دلالات مختلفة تتعدد بقدر تعدد المجالات التي تطلق عليها ، فهي ، بلغة المنطق ، مفهوم له ما صدقانه الهائلة التي تنتشر في اللغة المتعادية واللاهوت والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ، فضلا عن العلوم الميادية المعروفة ، المنطق والأخلاق والجمال .

ويتحدد موقف الفيلسوف من القيم على مستويين ، الأول : متى تعرض لها في صميم مذهبه امتدادا لنظرية في المعرفة والميتافيزيقا والثاني : متى بحثها مستقلة في علم من العلوم الميادية .

وعلى هذا الوجه قد تقفر القيم الى قسمة المذهب الفلسفي ، فتتعدى طابعه الغالب ويكون لها دلالتها المنهجية العامة التي تسوق نظرية الفيلسوف الى مشكلات الفلسفة جميعا وتحكم مواقفها وحلوله التي يقدمها مثلما صنع نيتشه وشيكلر . وقد تتوارى في دكن قصي من المذهب عندما لا يعرض لها الا بوصفها قيمة خلقية أو منطقية أو غيرها من القيم النوعية مثلما صنع معظم الفلاسفة .

ولعل من الممكن أن نوجز مواقف الفلاسفة من القيم في وجهات النظر التي تتعاق بمسالتين ، الأولى طبيعة القيم ، والثانية صنوفها .

فاما طبيعة القيم فهو ما تعلق بتعريفها .

دراكيم الذي يرجع القيمة الى ما يفرضه المجتمع من الزمان .

بينما يرفض المثاليون أن تكون الخبرة الحسية مصدر القيم أو حتى وسيلة ادراكها ، لأن العقل أو الوعي أو الحدس هو أداة ادراكها ، واكتشافها أيضا لأنها ليست من خلق الذات بل هي موضوعية ، مطلقة غائية ، على نحو ما يذهب جود وماترنى وهارتمان .

ما الموقف البراجماتي فيذنو من موقف الطبيعيين في رده مشاعر التقويم الى مستويات بيولوجية أو سيكولوجية أو جماعية ، إلا أنه يتميز عنهم في رفضه الوقوف عند تفسير بيولوجي أو سيكولوجي أو اجتماعي للقيم لأنه يتجاوز تلك المستويات الطبيعية الى جعل القيمة طابعا عاما للوجود الإنساني دون تفرقة بين هذه المستويات . فشان القيمة شأن كل فعل إنساني وسيلة وأجراء يستهدف غاية مثلما هو الحال لدى شيلار ودوي .

والقيم عند الفلاسفة الوجودية ، على نحو ما يمثلها سارتر ، يخلقها الإنسان كل لحظة عند اختياره الحر بين ممكنات داخل موقف معين . فهي إذن لا تسبق اختياره وإبداعه لها ، بل أنها تفقد طبيعتها بوصفها قيمة عندما تصبح معيارا يسبق اختيار الفرد لموقف من المواقف . فهي شيء موقوت مرهون بالاختيار ، وليس لمة قيمه سابقة تهدى الإنسان في اختياره ، بل عليه أن يخلقها كل لحظة لنفسه وللآخرين .

وعلى هذا النحو يتبين أن الموقف الفلسفي من تصور القيم موقف شامل ، واطل كلي مهما أكن من محتواه : الذاتي أو الموضوعي ، النسبي أو المطلق ، الواسلي أو الفائي . فكل وجهات نظر الفلسفة على اختلاف تفسيراتها للقيمة ورد أصولها الى الواقع التجريبي أو عالم الفكر ، إنما تشارك جميعا في موقف له خواص النوعية التي تميزه عن موقف العلوم الاجتماعية من حيث طبيعة الموضوع ، والمنهج ، والغاية .

فمن حيث الموضوع ، تتناول الفلسفة القيم بحيث تفحصها عنصرا من عناصر نسق يفسر الوجود أو الإنسان على أساس منظصور كلي شامل .

ومن حيث المنهج ، لا تصوغ الفلسفة آراءها

فروضا تقبل التحقق السريع المباشر ، لأن القيم تدخل عنصرا في بناء أكبر ، ولا تثبت صحة وجهة نظر الفيلسوف إلا بثبوت صحة النسق الأكبر . ولا يتيسر ذلك داخل إطار علم واحد وأدوات منهجية بعينها ، بل لابد من توافر أدلة تجريبية ونظرية تتجاوز حدود هذا العلم أو ذاك ، ويكون التحقق منها والوفاء بشروطها على مدى طويل من الزمان ، وعلى امتداد رقعة فسيحة من العلوم المتآزرة .

ومن حيث الغاية ، فإن مهمة الفلسفة ليست جمع المعارف المحققة بالتجسرية والبرهان ، وتنسيقها في قوانين ونظريات كما يصنع العلم ، بل غايتها هي إسداء اللون في وضع إطار معياري يستهديه الإنسان في مواقفه التي يتخلها آراء واقعه دون ترقب لصحة هذه القضية أو تلك في هذا العلم أو ذاك ، لأن الإنسان في حاجة دائمة الى الفعل والالتزام باتخاذ القرارات لا يسمفه في ذلك انتظار ما تسفر عنه تجارب العلم .

٢ - القيم في العلوم الاجتماعية

تتفرق العلوم في تناولها للقيم عن الفلسفة . فالعلوم الاجتماعية على اختلاف مجالاتها النوعية لا تقدم نسقا يشمل كل جوانب الوجود . بل يتخصص كل منها في ميدان نوعي ، ومن ثم تختلف موضوعاتها ومنهجها وغايتها عن الفلسفة .

فموضوعها رهن بالظاهرة النوعية التي تدرسها . ومنهجها يقوم على التناول التجريبي للظاهرة بحيث تطرح فروضا يؤيدها أو ينفدها الواقع وفقا لشروط محددة للتحقق من الفروض وفروضها لا تشبه فروض الفلسفة الشديدة الانساع والعمومية ، بل تصاغ بحيث يتيسر التحقق منها بصورة سريعة مباشرة ، كلما كان ذلك ممكنا ، لكي تعمد بعد اثباتها قانونا أو نظرية . لذلك كانت غاية هذه العلوم تنسيق المعارف المحققة وربطها بقوانين ونظريات تصلح أساسا نائما لتطوير قدرة الإنسان على فهم الظواهر بوصفها ، وتفسيرها ، والتنشؤ بها ، ثم التحكم فيها ، وهي في كل هذا تتوخى دوما الدقة والقبض عن طريق تطويع الظاهرة للبحث التجريبي ، بالمعنى الواسع أو الضيق على السواء .

وقد يطيب للبعض أن يوجز الفرق بين الفلسفة والعلوم ، في موضوع القيم ، في التباين

الاجتماعيين ، واكتسابه لها في نطاق جماعته
الرجعية الصغيرة .

اما علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية ،
فهما يحتفلان أشد الاحتفال بدراسة القيم
ويفردان لها الكثير من البحوث . وهما لا يدرسان
القيم على نحو ما يدرسها علم الاقتصاد أو علم
النفس حيث يدرسها كل منهما وقد عزل نظريتهما
النوعية - وهو عزل مشروع - عن السياق
الاجتماعي الشامل ، بل يبعد علم الاجتماع اليه
بحثها على امتداد المجتمع بأسره ، فينفذ الى
المجتمع المحلي الخاص ، كما يعتقد المفسرة بين
مجتمعات متعددة . وهنا تواجه علم الاجتماع
مشكلة تعيين الصدود لتخصص موضوعاته .

فهذا ريمون آرون عالم الاجتماع الفرنسي يثير
التساؤل الذي يطرحه علم الاجتماع على نفسه .
فوفقا لمباروته في كتابه « المجتمع الصناعي » :
« يتساءل علم الاجتماع عن نفسه لأنه يريد أن
يكون علما خاصا (أى مستقلا عن الفلسفة) كما
ينشأ في الوقت عينه أن يحل وأن يفهم مجمل
الجوانب الاجتماعية . فمن النقاد هذين المقصدين
احدهما بالآخر تبينت شكوك علماء الاجتماع في
انفسهم ، ويبرز صراع المذاهب الاجتماعية ،
وقام أيضا فائدة التامل الفلسفي » .

وتعد دراسة القيم في هذا العلم مصداقا
لهذا الشك أو التساؤل . فقد دخلت القيم علم
الاجتماع متأخرة ، ولم تعمد مبحثا من مباحثه
الا في هيكل الفلسفة على خلاف ما حدث في
الاقتصاد . وقد يتبين هذا في تصريح دور كايم
بان « تقدم نظرية القيم اخيرا انما يرد الى اقامة
عمومية ووحدة ذلك المفهوم » . ويعنى ههنا
بصورة أخرى اعتماد هذا التقدم على البحث
الفلسفي للقيم لأنه وحده الذي يحق له بمقتضى
اتساع موضوعاته وشمولها ان يثبت ههنا
العمومية وتلك الوحدة . بل ان محاضرة دور كايم
عن « احكام القيمة واحكام الواقع » انما تعد
بحثا فلسفيا خلاصا لانها كانت محاولة لتأييد
وجهة نظر خاصة في مقابل وجهات نظر فلسفية
أخرى ، غير انها كانت في الوقت نفسه استباقا
لما ينبغي أن تجري عليه بحوث علم الاجتماع في
دراستها للقيم . . .

وفصل « فركمايستر » قد اوضح ذلك
التزاوج بين الفلسفة وعلم الاجتماع في دراسته
للقيم ، عندما حدد معنيين لمشكلة القيم في علم
الاجتماع . يقوم الأول ظاهرا على التقسيم او

المأثور بين ما ينبغي ان يكون ، وما هو كان .
فعلى العلم الاجتماعي ان ينصرف عن التشريع
المثالي للقيم وأن يقبل على دراستها كوقائع
دراسة وصفية تقريرية تمهد الى التطبيق
والتفسير على نحو ما ذهب اليه « ليفي بريل »
ودودكايم من قبل .

غير ان الفلسفة - كما رأينا - لا تقتنع
بالتحدث عما ينبغي ان يكون من قيم ، لأن هذا
هو ميدان العلوم المعيارية كالنطق والأخلاق
والجمال . والفلسفة ليست كلها علوما معيارية
لأنها تناولت القيم أيضا بالوصف والتحليل
والتفسير ، ولكن بطريقة الخاصة التي سبق
أن اشرنا اليها .

والمثال على الفرق بين الفلسفة والعلوم هو
ما نراه بلرزا في علم الاقتصاد . فالانحياز الفلسفي
الطبيعي الذي يجعل من القيمة بنفسها
الاقتصادي أساسا لتفسير الظواهر الإنسانية ،
بأسرها يفتقر في علم الاقتصاد الذي يدرس
القيمة بوصفها موضوعا من موضوعات النشاط
الاقتصادي لا ينصرف الى سواه من ضروب
النشاط الإنساني الأخرى . فهذه فرق هائل
بين النظرية الماركسية كنظرية فلسفية ، وبين
نظرية العمل عند آدم سميث وريكاردو ، فكلتا
النظريتين تجعل من العمل أساس القيمة ،
الا ان الماركسية تجعل من نظريتها في القيمة
الاقتصادية أساسا تفسر به كل صور الفاعلية
الإنسانية خارج ميدان الاقتصاد ، بينما يقف
« سميث » مثلا عند تفسير النشاط الاقتصادي
لا يعمده . ويتبين ذلك من موقفه الغامض من
مسائل الاخلاق والعرفة ، فالجدير بالذكر انه
كان استاذا للمنطق والاخلاق بجامعة جلاسجو
القيمة في علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الجديدة ،
قبل أن يكتب في علم الاقتصاد .

وهناك بطبيعة الحال نظريات متباينة عن
القيمة في علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الجديدة ،
ونظريات الإنتاج ، وكلها مثل نظرية العمل تقف
عند تفسير النشاط الاقتصادي لا تتجاوزه .

اما القيم في علم النفس فهي من موضوعات
علم النفس الاجتماعي على الاصلة ، ويبدو انه
يستمرها في علم الاجتماع ، ولكنه يتخصص
في دراسة العمليات التي بمقتضاها يتمثل الفرد
داخل هذه القيم خلال مراحل التنشئة والتكيف

عندما يصوغ علماء الاجتماع آراءهم - التي قد تنتهي إلى مجال الفلسفة - في فروض تقبل التحقق يطبقونها على المجتمعات التي يفتقونها ميدان البحث .

فللإفراق إذن بين الفلسفة والاجتماع هو ما يصنعه رجل العلم في صوغه لما يمكن أن يسمى « بالموقف التجريبي » . ويستزم هذا بدوره منذ البداية أن يختلف موضوع العلم عن موضوع الفلسفة ، بمعنى أن يعين رجل العلم موضوعه بحيث يشير إلى جزء أو جانب من الواقع يمكن أن يطوعه لتحديدات الزمان والمكان ومتطلبات التكيف ، على خلاف ما تصنعه الفلسفة عندما تحاول حرة طلبية من أبعاد الزمان والمكان تحلّي هنا وهناك باحثاً عما يؤيد وجهة نظرها العامة .

أما «الموقف التجريبي» فهو ضرورة منهجية يسمى اليها رجل العلم وفاء لشرط الموضوعية ، لأنه في حاجة إلى التحقق من فرضه . والفرض لا يتحقق إلا بتتبعاته التجريبية - أو قل الواقعية - المقيدة بمكان وزمان معينين في وسع الباحث أن يستوعبهما بحواسه وأدواته . والفرض ليس مجرد مقدمة منطقية تستنتج منها نتائجها - كما يفعل الفلاسفة في أكثر الأحيان - بل هو لون من الحاول التي يصوغها الباحث حلاً لأشكال تختبر صلاحيتها في موقف واقعي . ولا عدل عنه إلى آخر . وهنا على الباحث أن يحدد منذ البداية أدواته التي لابد أن يتزود بها في مواجهته للواقع الواسع المبعثر . وعليه حينئذ أن يختار أو يهيئ معطياته الملائمة ، ويؤلف ويرتب وقائمه التي يمكن أن ينظمها عقدا متسقا مع فرضه هذا فضلا عن مفهوماته التي يعطيها دلالات إجرائية ، أي مترجمة إلى خطوات منهجية محسوبة يمكن أن يؤديها غيره ، وبحيث يستطيع أن يعزل ما يريد عزله ، ويجمع شتات ما يراه معزوا لفرضه كلما كان ذلك متيسرا .

فيبدأ الموقف التجريبي إذن من تحديد المشكلة وتعيين عناصرها في إطار الواقع المتاح ، وقد تكون مثلا علاقة القيم بالتغير الاجتماعي ، أو صلة القيم بظاهرة أو نظام ما ، ثم يضيف إليها مادته العلمية ، وهي هنا :

١ - اطلوه التصوري ومفهوماته وفروضه ، وهنا تدخل الفلسفة شريكا ظاهرا أو خفيا .

الالتزام بالقيم جزءا من الواقع التي يدرسها علم الاجتماع . ويتعين الثاني كماله تخص المولات أو الفئات التفسيرية التي تحتاجها العلوم الاجتماعية ، والمعنى الأول ليس في حاجة إلى مزيد من الإيضاح ، فالكائنات البشرية مخلوقات سلبية إلى غايته تقدر وتقوم هذه الغايات على نحو فردي أو اجتماعي . وهذا التكوين له أصوله ونشأته وتفرعاته وتمدد علاقته المتداخلة وعلى هذا فدراسة القيم كوقائع وموضوعات لعلم الاجتماع لا تثير أية مشكلة منهجية . أما المعنى الثاني وهو القيم بوصفها مقولات أو فئات تفسيرية ، أو معان كلية ، ففيه تقوم وظيفة هامة هي التي تتجسد في الألفاظ والمصطلحات القيمية التي تفهم بمقتضاها الظواهر الاجتماعية ، فهي وحدها في نظر « فركمبايستر » التي تقدم الأساس العقلي لفهم بنية المجتمع وثقافته .

ويبدأ « فركمبايستر » تحفظا على هذا المعنى ، وهو أن استخدام العالم الاجتماعي للمصطلحات القيمية كمقولات أو فئات تفسيرية لا يعني أنها تعبر عن تقويماته واختياراته وميوله الخاصة ، بل ينبغي أن تكون تفسيراً للالتزامات القيمية الرئيسية الباطنة في الظواهر الاجتماعية نفسها . وينبغي أن يكون الكشف عنها عن طريق أشد ضروب الفحص ، والاختبار دقة وشجاعة ، وعلى أساس من تعطيل الوقائع ذاتها .

وهذا هو « هوارد بيكر » . عالم الاجتماع والانثروبولوجيا ، يقدم نظريته في التفسير الاجتماعي على القيم ابتداء وأساسا . فهو يقول : « إذا كان على علم الاجتماع بأن يضطلع بمهمة هداية اختيار البشر لقياداتهم ووسائلهم معا ، فعليه أن يجلو دور القيم واتساقها في السلوك الإنساني » . ويقول بيكر أن العبارة القائلة بأن « لا مكان لأحكام القيمة في علم الاجتماع » ، إنما هي نفسها أحد أحكام القيمة . فالإنسان لا يمكن دراسته بوصفه كائنا بشريا فعلا في نطاق مجتمع إلا إذا عرفنا قيمه . ولا بد من وضع قيمته تلك في صورة منتظمة مرتبة ، ومصنفة في نظم موحد يمكننا من التنبؤ بالسلوك الإنساني والتحكم فيه كفاءة عملية . فالإنسان على حد تعبيره « مفهوم أصيل » . والسلوك الإنساني هو دائما سلوك مبعول .

والى هنا لا تكاد تلمس فرقا بين عالم الاجتماع والفيلسوف ، غير أن الفرق يتضح

على تلك الحلول وهي : ما تملق منها بطبيعتها الإنسان ، وعلاقته بطبيعة وما فوق الطبيعة ، ومكلفته من جريان الزمان ، وحالات الفاعلية الإنسانية ، وعلاقة الإنسان برفاقه من البشر .

ثم يواصل الباحثون صقل مادتهم النظرية ، فيقسمون كلا من تلك التوجهات المتعلقة بهذه المشكلات إلى ثلاثة جوانب ، كالقسم التوجيه القيمي عن « الإنسان - الطبيعة » إلى السيادة عليها والخضوع لها والتوافق معها ، وانقسام التوجيه القيمي عن « الزمان » إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا في سائر التوجهات . كما يفرقون في التوجيهات القيمة بين ما هو سائد ، وما هو متفاوت ، ومن الآخر ما هو مطلوب ، وما هو مسموح به ، إلى آخر مثل هذه الفروقات .

ويعضون في تصنيف مادتهم النظرية ، فيصنزلون بين نظمين رئيسيين من « التمايز المجتمعي » يستعان به في كل المجتمعات ، وهما : التمايز الخاص بالجماعات الفرعية من النوع الذي يجده في الوحدات الاجتماعية الإقليمية ، والعنصرية ، والطبقية وغيرها . والثاني هو ما يسميه الباحثون تمايز « المجال السلوكي » ، وهو ما تعاق بالغايات الواسعة للأنشطة الاجتماعية اللازمة لانتظام المجتمع في أداء وظائفه . ووجه الباحثون عنايتهم إلى المجالات السلوكية الاقتصادية والدينية والعقلية والجمالية والترويعية ، فضلا عن المجالات السياسية من النشاط وعلاقاتها بسائر المجالات . وتفترض الباحثون أن تبرز في المقارنة بين الثقافات اختلاف تمايزات الجماعات الفرعية من حيث النمط والمقدار ، واختلاف درجة التمايز في المجالات السلوكية بصورة واسعة من مجتمع إلى آخر .

وهكذا يعدد الباحثون إلى مواصلة تسجيل توقعاتهم التجريبية المبوبة على فروضهم تلك بحيث ينسبون إلى أمته من الواقع الذي اختاروه ميدانا تجريبيا للدراسة . وعلى هذا النصي وقع اختيارهم على خمسة مجتمعات خاصة ، في منطقة الريموك ، اثنتان منها هنديان - أمريكيان ، وواحد أمريكي - إسباني ، وواحد من قرية الوريوم ، والآخر مستوطنون قدموا إلى المنطقة من تكساس وأوكلاهوما في بداية

٢ - إجراءاته وأدواته المنهجية . وبعدها يوجه هذه المادة بشقيها النظري والمنهجي إلى ما اختاره أو اصطنعه ، بحسب امكانياته التجريبية أو الواقعية ، من معطيات وقواعد ليست كما قد يتبادر إلى الأذهان تقع جاهزة في انتظاره ، بل هو يفرزها فرزا ويعزلها عزلا عن عمد واختيار في أغلب الأحيان .

فإذا ما أتيح لعالم الاجتماع أن يجعل من موقفه التجريبي عناصر متسقة مع فروضه بحيث يقود الموقف في نهاية الأمر محلول الأشكال ، بمعنى انطباق فروض الباحث على الواقع ، يكون قد أطلق في بحثه . وإذا وجد موقعه مختسل العناصر وجب عليه أن يعدل إلى فروض وطرق أخرى .

وليس من المتعذر أن نصادف هذه الصورة كثيرا في العلوم الاجتماعية . فهناك على سبيل المثال البحث الذي قامت به مجموعة من الباحثين في أمريكا أبرزهم فلورنس كوكهون عما أسموه : « التنوعات في التوجهات القيمة » ، واختاروا لتطبيق فروضهم خمسة مجتمعات محلية في منطقة الريموك في جنوب غرب الولايات المتحدة . فهم يبدؤون بصياغة مادتهم النظرية ، فيعرفون التوجهات القيمة على النحو الذي يستخرجون منه من بعد فروضهم وتوقعاتهم التجريبية إذا ما نزلوا إلى واقع معين مختار . فالتوجهات القيمة في نظريهم هي : « مبادئ منتظمة في أنماذج تتسلسل في الرتبة ، ناتجة عن التفاعل بين عناصر عملية التقويم الثلاثة : المرفيسة والوجدانية والثروعية ، وهي التي تنهي والترتيب والاتجاه في الجري المتدفق دوما للافعال والأفكار الإنسانية التي تتعلق بكل المشكلات الإنسانية المشتركة العامة » . ثم يصادر الباحثون بوضع بعض الدعوى ، تحديدا وتصنيفا لهذه التنوعات التي تدرج تحتها التوجهات القيمة : فهناك عدد محدود من المشكلات الإنسانية التي لا بد أن يجد لها البشر في كل الزمان صيفا معينة ، ومتى توجد تلك الصيغ ، فهي ليست بلا حدود ، وليست عشوائية ، بل هي تنوعات في نطاق مجال محدود من أطول الممكنة . كما توجد دائما بدائل متنوعة للتعامل المتكررة في كل الثقافات وفي كل الأزمان ، ولكنها تتلاقى باختلاف المجتمعات والثقافات ، درجات متفاوتة من التوكيد .

وهناك خمسة مشكلات مشتركة عامة تبث

وتتحدد صلة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية على مستويين ، الأول منهجي حيث تبرز الفلسفة الافتراضات والمزاعم المسبقة التي تتوارى خلف صوغ رجل العلم لمفهوماته ومصادراته ، كله تستخدم الباحث العلمي في صقل أدواته المنهجية وصون اتساق نتائجها المنطقي . . والمستوى الثاني نظري حيث قد يزداد العلوم الاجتماعية بالشكليات التي ينبغي أن تتصدى لها بالبحث ، أو قد تقدم لها تصنيف ناجحاً تعرضه على محطات التجريب مثلاً أفراد اختبار البورت وقرنوف في علم النفس من تصنيف شبرانجر للقيم .

يبين أن ذلك لا يعنى أن الفلسفة وصية على العلوم أو أنها بمثابة نجر بالجملة يزود العلوم بموضوعاتها ، بل هي تعيد دائماً من العلم ومن كل خطوات تطوره في تعديل آرائها وفروضها الواسعة ، ولكنها قد تسبغ أحياناً إلى صوغ فروض لا تتمكن أدوات العلم في هذه الرحلة أو تلك من أن تؤيدها أو تفندھا . ولا يهتأ هنا ما ترجمه الفلسفة من أسماء والقباب تغلغها على هذه القروض وعدم الاعتراك بها فروضاً لم تتحقق بعد ، فحسب الإنسان أن يكون في حاجة إليها اليوم ، وليكتشف المستقبل عن صدقها أو كذبها .

ويبدو أن الفلاسفة يستحون من تسمية آرائهم فروضاً لأنهم يطلقون عليها اسم نظريات ومذاهب وإيديولوجيات . وقد يستسلمون أحياناً لأغراء هوى يحملهم على اضمحلال صفى الضرورة ، والإطلاق على بعض التعميمات التجريبية ، مثل بقاء الطاقة أو التطور البيولوجي أو توهم بعض المفهومات والدالات العلمية كلياته ، ذبته ، وجواهر وأشياء كما هو الحال في الطاقة والكتلة ، وهذا من شأنه أن يقلل من الثقة في مائة نسجها الفرضي الذي يحتضن منجزات العلم والثقافة التي بلغها هذا العصر أو ذاك ، وينظمها في نسق يستبق به أحياناً تطور العلوم .

ومهما يكن من أمر ، فنعندما يتم لعلم أو لمذعة علوم معا أن تتحقق من صدق فرض فلسفي فإنه ما يلبث أن يضاف إلى رصيد العلم ، ويخرج من الفلسفة . ولكن يظل للفلسفة وظيفتها الخاصة عندما تصد ما حققته العلوم المختلفة في إطار معيارى واحد ونظرة كلية شاملة .

صلاح قصوة

الثلاثينات من هذا القرن . واختيرت عينة ممثلة من تلك المجتمعات ، وطبقت على أفرادها استبيانات مقابلة Schedules مؤلفة من خمسة وعشرين بنداً وزعت على امتداد الاستمارة بصورة متكافئة بحيث تغطي استبياتها توجيهات القيمة الخاصة بالدراسة ، ثم عولجت معطيات الاستمارات بالأساليب الإحصائية لاستخراج التعميمات التجريبية ، والنتائج النظرية العامة التي أفضى إليها البحث .

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن نناقش اجراءاتهم التي اصطنعوها ، ونتائجهم التي بلغوها ومدى نجاحهم في اختراقهم في مواجهة ((المواقف التجريبية)) الذي انتظم بحثهم . فما يهمنا بالدرجة الأولى هو إبراز أوجه الافتراق أو الالتقاء بين الفلسفة والعلوم في تناول القيم .

فرغم ما نلاحظه في المثال السابق من امعان في التبريد النظري ووسع الفروض في احاطتها لمسائل سديدة العمومية ، مما يمت على الشك في انتمائها الى العلم يأتى من انتمائها للفلسفة على الرغم من ذلك ، فإن الباحثين في هذه العلوم لا يقفون عند ذلك التجريد ، بل يرجعون مكوناته الى عناصر وأمثلة واقعية يتجهون اليها بأدواتهم المنهجية . فالفرق إذن بين العلم والفلسفة هو الاحالة المبشرة الى معطيات الواقع ، بمعنى أن هناك على الأقل امكان الترجمة الى اجراءات التحقق من صحة الفروض التي تنطوي عليها النظرية الاجتماعية . ومع هذا فثمة عنصر فلسفي يكمن دائماً في النظرية الاجتماعية قد يصرح به عالم الاجتماع أو لا يصرح ، ما دام على علم الاجتماع أن يحيط بجمل الجوانب الاجتماعية كما يقول ((أرون)). والعلوم الاجتماعية كما يقول ((كدروف)) ينبغي عليها أن تتعلم من الفلسفة كيف تتناول أشد الموضوعات عمومية ، وأكثرها أهمية ، فهي تقدم مثلاً لدراسة تلك الموضوعات . وعلاقة الفلسفة بكل من العلوم الاجتماعية هي علاقة القمام بالنوى ، والخاص ، والفردى . ولكن على شريطة ألا تبالي العلوم الاجتماعية في صلتها بالفلسفة فتسقط فريسة لنزعات التبرير ، كما لا ينبغي أن تسالغ في عزلتها عن الفلسفة فتستهويها مطالب الدقة واللفظ التي قد تشلها عن مجاوزة التفصيلات القافية الى التجريد النظري المشروع .

الظواهريات وأزمة العلوم الأوروبية

د. حسن حنفي

إذا كان القرن التاسع عشر هو عصر انتصار العلوم الطبيعية ، منهجا وتطبيقا وأثرا ، حتى أنه ليؤرخ للحضارة الأوروبية به ، يمد أن استقر فيه المنهج التجريبي ، واثبت خصبه وجديته ، وبعد أن تمت تطبيقاته في العلوم ، وحدث الانقلاب الصناعي ، أي الثورة التكنولوجية الأولى ، وأصبح التقدم يقاس بالسنين لا بالقرون - إذا كان القرن التاسع عشر كذلك فإنه يمكن أن يقال : إن القرن العشرين هو بدء أزمة العلوم الإنسانية بل وبدء أزمة الفكر الأوروبي نفسه ، إذ كان بمثابة حراة عكست انتصارات القرن السابق وصورتها بوصفها عقبات وخيمة تهدد كيأن المسلم ، وتتلذذ الحضارة الأوروبية بالخطر ، حتى لقد تنبأ البعض لها بالفناء من أعتال تفتش وانتهاه إلى المدمية ، وشيخلة وتأكيده لانهيار الغرب . ولكن المحاولة العلمية الجادة في هذا الموضوع هي تلك المحاولة التي قام بها الفيلسوف هوسرل في آخر حياته (١٨٥٩ - ١٩٣٨) كأخيرة صحيحة له بمسده أن أمس الفينومينولوجيا ، وأطاح إلى أنه عثر في النهاية على هذا العلم الشامل الذي طالما راود الفلاسفة الأوروبيين ، والذي يجعله الحضارة الأوروبية مطلبها لها ونهاية ، هذه هي المحاولة التي مصطلحها في كتابه الفلسفي « أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية » .

أولا - بوادر الأزمة :

١ - ظل المثل الأعلى للمنهج العلمي حتى أواخر القرن التاسع عشر هو منهج العلوم الطبيعية الذي يمد بالفضل أهم مكاسب الحضارة الأوروبية منذ عصر النهضة إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، والذي أصبح نموذجيا لكل فكر يريد أن يصير

علماء ، واستطاعت العقيدة الأوروبية بفضل التضام على كثير من النظرات الذاتية. ووجهات النظر والأبنية الأسطورية والميتافيزيقية - أصبح منهج العلوم الطبيعية شرط اليقين ، والفهم للموضوعية ، والكثير يتقدم العلم ، وأثبت تاريخ العلم حتى هذا العصر صدقه ، أصبح العمل هو بدء العصر فيه تقاس الظواهر ، ويكتشف القانون في تجربة عملية ، مسرورة مصغرة لما يحدث في الطبيعة الخارجية التي يمكن السيطرة عليها والتنبؤ بأحداثها بفضل الجهد الإنساني في اكتشاف القوانين العلمية ، واختراع أجهزة ضبط والقياس ، كان لابد من تحويل كل ظاهرة في الخارج إلى ظاهرة عملية أي إلى ظاهرة كمية تخضع للقياس ، ويمكن الوصول بها إلى قانونها الموضوعي الذي يمكنها .

وكانت العلوم الإنسانية في هذا الوقت مازالت في نطاق النظريات الفلسفية العقلية والحسية التي تخضع لأحكام العارضة وزايجهم الشخصي ، أو التي هي نتاج ظروف العصر وإحداثه ، أو التي هي خليط من العلم والأسطورة ، والتي تصل فيها السطوة إلى حد السطوة ، أو التي هي صدق لبعض المعتقدات الموروثة والشعبية أو الدينية . كان علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق صدق لروح الفيلسوف وزعزعته المثالية التي كانت في الغالب صدق لإيمان ديني مستقيم . كان الإنسان من طبقة ، والطبيعة من طبقة أخرى ، ولما كان الإنسان أعرف ما في الكون فكيف كان يمكن أن يقاس بحساس العلوم الطبيعية التي تدرس الأشياء الأقل كمالاً ؟

لذلك سارع علماء النفس والاجتماع والأخلاق وغيرها من العلوم الإنسانية بعني هذا المثل الرابع الذي أعطته العلوم الطبيعية بمنهجها التجريبي ، وحوّلت الظاهرة النفسية إلى ظاهرة عملية فنشأ علم النفس التجريبي ، وخرج من ممالك الفزيولوجيا لأول مرة على يد فونت ، وسار في الطريق كوندرياك وآخرون حتى شادكو وفي علم الاجتماع نشأت المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي وضع أسسها أوجست كومت ، وسار بعده في نفس الطريق دوكانيم و ليلى بويل . فاعتبر دور كايم الظاهرة الاجتماعية شيئاً يخضع للحكم والقياس ، واعتبر ليلى بويل تحليل العقل جزءاً من علم الاجتماع أو علم الإنسان أو علم الوراثة أو البيولوجيا . وكان أوجست كومت قد وضع من قبل قانون الحالات الثلاث للفلسفة في التاريخ ترى أن العصر الحاضر هو عصر العلم والتجريب بعد أن قضى على العصر الميتافيزيقي والديني إلى غير رجعة - وفي علم الأخلاق حول ليلى بويل هذا العلم لتأثيرات التقدم إلى دراسة لكلمات وجعله فرعاً من علم الاجتماع .

ولقد تقدمت العلوم الإنسانية بعد تبنيها منهج العلوم الطبيعية ، واستطاعت أن تتخطى أيضاً من النظرات الفلسفية الذاتية والخراب الأسطورية فيها ، ولكن بعد ذلك ، وفي أوائل القرن العشرين ، بدأت الأزمة في الظهور ، لقد

تكتشف للبعض من أمثال هورل وبرجسون وبعد ذلك ورنيا وديرو يوتش وجيرفنتش - إن الظاهرة الإنسانية ليست كالظاهرة الطبيعية ، وإنها من نوعية مختلفة ، وأن الظاهرة النفسية مختلفة عن الظاهرة الفيزيائية وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئاً ملموساً يقاس كما ، إذا كانت الظاهرة الطبيعية كما فالظاهرة الإنسانية كيف ، وإذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن قياسها فالظاهرة الإنسانية تتبدد عن القياس ، إذا كانت الظاهرة العلمية يمكن التنبؤ بمجرها ووقوعها إذا علمنا قانونها وسيطرنا عليها فالظاهرة الإنسانية تتبدد عن القانون وتتميز بحرية باهنة فيها لا يمكن التنبؤ بمجرها ووقت وقوعها أو باشكالها المستقبلية ، إذا كانت الظاهرة الطبيعية موضوعاً فإن الظاهرة الإنسانية أقرب إلى الذات ، فالإنسان ذات وليس موضوعاً وهو ما عناه الوجوديون بعد ذلك بلفظ التباين .

٢ - ومن ناحية أخرى ، رأى البعض أن نموذج اليقين في العلم جو المنهج الرياضي أي اتباع الفكر مع لاسبه لا تطابقه مع الواقع كما هو الحال في المنهج التجريبي ، بل إن العلوم الرياضية تعد أقوى شيئاً من العلوم الطبيعية لأن معدل التنبؤ في الأولى أقل بكثير من نسبة الخطأ في الثانية . بل إن العلوم الطبيعية نفسها تتخذ اليقين الرياضي نموذجاً لها في الموضوعية والحيثية ، وبالتالي لم العلوم الإنسانية أن أدركت أن تعميم علومها مسبوكة لأن تأخذ العلوم الرياضية بنموذجها . فهي الأصل في البحث عن اليقين ، وأن تنبئ بالبحر العموري ، خاصة وأن أزمة العلوم الإنسانية التي وجدت المنهج التجريبي أخذت في الظهور ، ولم يكن هناك فرق من الرجوع إلى الأصل في العلوم الرياضية ، ومن ثم أخذت العلوم الإنسانية تنمو بنمو رياضي ، وتبني المناهج

الانسانية ، واصبحت الظاهر كلها طبيعية أم رياضية أم
السانية مجرد مصادلات ورموز ، واصبح اليقين كله في الوصول
الى نظرية شاملة تشابه نظرية الكثرة او نظرية المجموعات
في الرياضيات البحتة ، واصبح نموذج العلم هو الرياضيات
الشاملة التي حاول ليبنتز من قبل وضع أسسها ، والتي
يعتبرها هوسرل الم شروع الاوروبي لقائمة نظرية في العلم
مرادفة للبحث عن الحقيقة وديلا للحقيقة نفسها ، وكما كان
خلاص العلوم الانسانية من قبل على يد يكيون وهل فان
خلاصها الآن يتم على يد كانتور وديكند وريمان وبولزانو .

ولكن حدثت أزمة ثانية . ففي هذه المرة أيضا فلت
الظاهرة الانسانية عن التحليل الرياضي ، وفطرت نوعيتها
المستقلة ولم يعد في الامكان تحليلها على انها مجرد مجموعة
من التصورات الرياضية او المفاهيم المنطقية . الظاهرة الانسانية
ظاهرة حية والرياضية علم صوري محض ولا يمكن دراسة
الحياة بتمهيج موضوعي فارغ من كل مضمون . وقد أدى ذلك
على مايكول هوسرل الى فقد عالم الحياة في العلوم الانسانية ،
واصبحت أزمة العلوم الانسانية في جوهرها أزمة للشعور
الاوروبي نفسه بفقد التجربة الحية التي هي مصدر العلم
ومادته .

وعلى مشارف هاتين الأزمات الأولى والثانية يدان
الفيثوميتولوجيا في البحث عن منهج خاص للعلوم الانسانية
يحفظ نوعية الظاهرة ويجهزها عن الظاهرة الطبيعية والظاهرة
الرياضية ويتكامل في شق طريقا ثالثا وهو ما سماه
بالفيثوميتولوجيا .

ثانيا - نشأة الفيثوميتولوجيا من خلال الأزمة :

لم تنشأ الفيثوميتولوجيا مرة واحدة والى الابد بل خرجت
من أزمة العلوم الانسانية خاصة المنطق والرياضة - تجاوزا -
وعلم النفس والفلسفة - فقد ظلت الفيثوميتولوجيا حتى سنة
١٩٠١ تقريبا أي حتى كتاب « بحوث منطقية » لهوسرل مجرد
دراسات في الرياضيات والمنطق وعلم النفس لم تكتمل الا في
سنة ١٩٢٤ بظهور الجزء الأول من « لالكاو » وظهور الجزء
الثاني والثالث سنة ١٩٢٤/٢٥ ، ثم تأتى المرحلة الثالثة
التي تحولت الفيثوميتولوجيا الى العلوم الانسانية من جديد
تحت اسمالة منهجيا في التطبيق في المنطق وعلم النفس
والفلسفة والأخلاق والحضارة ، وهي مرحلة « علم النفس
الفيثوميتولوجي » سنة ١٩٢٥ ، « المنطق الصوري والمنطق
الترسندنتالي » سنة ١٩٢٩ ، « التجربة والحكم » الذي ظهر
قبيل وفاته بقليل سنة ١٩٣٨ ثم مؤلفاته في تاريخ الفلسفة
« الفلسفة الأولى » بتجزئتها سنة ١٩٢٣/٢٤ ، « تأملات
ديكارتيية » سنة ١٩٢٩ ، وأخيرا « أزمة العلوم الاوروبية »
سنة ١٩٣٣/٣٦ .

١ - بدأ هوسرل فكره بالمشور في المارك المائرة في

يقينيل حول طبيعة الرياضة وماهيتها وشارك في حل المسائل
المروضة وقدم حواره في رسالته للدكتوراه الأولى « مساهمة
في حساب التغيرات » في فيينا سنة ١٨٨٢ (وهو ما زال
مخطوطا حتى الآن) والثانية من « مفهوم العدد » في هاله
سنة ١٨٨٧ ، ثم في عمله الفلسفي الأول « فلسفة الحساب »
الذي نشر الجزء الأول منه في هاله سنة ١٨٩١ والذي حاول
فيه ود التصورات والمفاهيم الرياضية الى أسسها
الفلسفية ، عارضها بذلك جميع الاتجاهات الرياضية
التي تحاول رد هذه المفاهيم الى أسس صورية - مضفة ، أي
أن هوسرل كان أولا من أنصار الاتجاه - النفس في المنطق
والرياضة وهو الاتجاه الذي رفضه بعد ذلك في الجزء الأول
من « بحوث منطقية » . وقد تناول هوسرل في هذه الفترة
مشاكل الكل والجزء قبل أن يبالغها في المنطق ، كما عرض
لشككة الصفات الحسية لوحدة ما قبل أن يرض لها في
الفيثوميتولوجيا ، كما دخلت كثير من المفاهيم الرياضية
واستقرت في الفيثوميتولوجيا مثل الكميات الخيالية ، المضمون
الأولى ، العدد ، الحكم ، وكذلك ظلت كثير من التمييزات بين
المستويات المختلفة مثل التمييز بين الوصف النفسي للظواهر
وبين تحليل المثاني ، أو بين المضمون النفسي والمضمون
المنطقي . . . الخ . أي أن هوسرل في هذه الفترة أراد حل أزمة
الرياضة بإرجاعها الى علم النفس وكان ذلك مقدمة لاكتشاف
البعد الشعوري لبيما بعد .

٢ - ثم دخل هوسرل معركة ثانية شبيهة بالأولى ولكن في هذه
المررة لتحديد الصلة بين المنطق وعلم النفس فقد كتب هوسرل
قبل « بحوث منطقية » عدة مقالات عن « حساب التتابع »
و « منطق المضمون » وعن « جبر المنطق » ، وكذلك
« دراسات نفسية عن المنطق الأولى » ، وأيضاً « الصراع بين
التفسيرين والصوريين في المنطق الحديث » كما كتب عدة بحوث
عن تاريخ المنطق ، ولكن هذه المحاولات الجزئية كلها انصبت
أخيرا في عمله الضخم « بحوث منطقية » بأجزائه الثلاثة
التي صدرت سنة ١٩٠٤/١٩٠٥ ، يهاجم في الجزء الأول منه
« ملقعة في المنطق الخالص » الاتجاه النفسي في المنطق ، ويقدم
في الجزئين التاليين بحثا سنة ينتهي منها في البحث السادس
من المنطق الى الفيثوميتولوجيا ، أي أن هوسرل قد فهم اتجاهه
الأول النفسي في « فلسفة الحساب » وذهب مؤلفا لمعارضة
منه واعتبره اتجاه عاريا ، نسبيا ، أنثروبولوجيا (اردهان)
سيجورات) ، تطوريا (فراور) ووقوعا كى الشيك وانكار
لقوانين الفكر . لقد اعتبر الاتجاه النفسي في المنطق قوانين
الفكر مثل قانون التناقض وقانون الهوية قوانين طبيعية او
وظيفية دون أن يكون لها أى أساس فكري أو منطقي ، بل
مجرد بعض الصور التركيبية للفكر . ولقد أراد المنطق
الانثروبولوجي الوصول الى الموضوعية ولكنه انتهى الى الخلف .
بين المثالي والواقعي ، بين أساس الحقيقة وأساس الحكم ، بين
حقيقة العقل وحقيقة الواقعة .

٣ - وقد حلل هوسرل مرات عديدة المنطق الرياضي عند

بولزانو Bolzano (1781-1848) في نظرية العلم « كما ناقش » نظرية الفكر « عند هيجل » هذا الحق لم يستطع بعد أن يخلق طريق الفينومينولوجيا لأنه لم يستطع البحث عن ماهية بالحدس القليل وإقامة الفلسفة وعلم النفس على معرفة الماهية . إن غياب « حدس الماهيات » في المنطق الرياضي جعله مجرد منطق خالص للمنشآت كما هو الحال في علم النفس ، أو جعله صوريا خالصا كما هو الحال في الرياضة . لقد خلط المنطق الرياضي بين المنطق والرياضة صحيح أنه قدم لنا نظرية جديدة في نقد العقل ، ولكنه لم يطمنا تقييمها لها ، لذلك أتت الفينومينولوجيا لتطوير هذه النظرية وبيان امكانياتها ، وتوضيح ماغض منها وإكمال ما نقص فيها ونقلها من المستوى الرياضي والمنطقي إلى المستوى الفينومينولوجي ، إن التحليل المنطقي للتصورات خطوة حاسمة نحو الفينومينولوجيا ولكن المنطق الرياضي من حيث هو « نظرية في العلم » نظرية رياضية ينقصها نظرية في المعرفة ونظرية في المنطق ، ولذا أتت الفينومينولوجيا وقامت ببلور حاسم في تطوير المنطق الرياضي ونقله من علم للصور المنطقية إلى علم للانطولوجيا الصورية العامة .

وقد تناول هوسرل أيضا المنطق الفلسفي عند لوتزه Lotze 1803 - 1858 . بالتحليل وبين أن الحس الجذري باليادوية ينقصه ، إذ أنه لم يستطع النفاذ إلى الأسس النظرية للاكتناز ولم يستطع توضيح المشكلات المتشعبة منه . لقد كان جل همه محاولة التوفيق بين الذهن والملاحظة دون القيام ببحث جذري حاسم في الموضوع . لم يستطع لوتزه في تفسيره الواقع لنظرية المثل أن يستخلص كل امكانياتها . وظلت نظرية المعرفة لديه ملينة بالتناقض ، ولم تتجاوز الفينومينولوجيا على يديه إقامة بعض العلاقات القبلية بين المضامين الحسية دون أن يعرف التصور الحقيقي لحس الماهيات ، أو عتياها مطلقا للحقيقة ، لذلك ظل تصوره القليل لا قيمة له ، وقد استطاعت الفينومينولوجيا وحدها إعطاء نظرية عامة للشعور في حيث هو مضمون وبناء للأشياء .

وهكذا من مشاكل الصلة بين المنطق والرياضة وعلم النفس بدأت الفينومينولوجيا شق طريقها الخاص .

٤ - ولما كانت الفينومينولوجيا تشق طريقها نحو الشعور تقابلت مع « فلسفة الحياة » أو فلسفة تصورات العالم عند دلتاي (1843 - 1911) التي كانت تحاول قبلها حل أزمة العلوم الانسانية ، فاعتبرت ميدانها عالم الحياة ، وهو العالم الذي نظرتة الفينومينولوجيا ، كما فرقت بين علوم الانسان وعلوم الطبيعة وهي التفرقة التي سماها هوسرل قبا بعدد بالتفرقة بين علوم الماهيات وعلوم الواقع . ولكن هوسرل رفض هذه الفلسفة بعد ذلك واعتبر أنها لم تتجاوز المذهب التاريخي ، وأنها كانت أسيرة « روح العصر » التي تصور هيجل أن الفلسفة تصير عنه ، وبالتالي فهي مآلات مشروبة بالواقع المادية ولم تصل به إلى « علم الماهيات » - أنها مآلات علما نسبيا ولم تتخلص بعد من الشك في الحصول

على المطلق الدائم ، وقد انتهت أشيرا إلى الزقوع في الاتجاه الطبيعي وأصبحت اتجاهها نسبيا . صحيح أنها حاولت وضع بعد للعقل التاريخي ، هذا العمل الذي أمهله كانت. وفي نفس الوقت وضع أسس لعلم نفس جديد خالص مناهض لعلم النفس الطبيعي ، ولكنها لم تستطع أن تقيم نظرية علمية محكمة وأن تقيس المشاكل وأن تحلها بطريقة منهجية ، ينقصها إذن المنطق العقل الجسرد التجريعية الباشية ، كما ينقصها التحليل المنطقي والرياضي . لقد اتجهت فلسفة الحياة إلى الحس البشائي ولكنها ظلت أسيرة الجزئي والفردي دون أن تضقه في علم رياضي شامل وموحد . لقد اعتنت فلسفة الحياة بالتطور والارتفاع أكثر مما اعتنت بالبناء. فجاءت الفينومينولوجيا لتعنى بالبناء أكثر مما تعنى بالتطور . وبهذا المعنى تصبح الفلسفة علما محكما كما يقول هوسرل في مقالته المشهور التي يعد فاتحة للعلم الجديد « الفلسفة بوصفها علما محكما » سنة 1911 أي علما نظريا خالصا تخلص من الاتجاه الطبيعي السائد في المذاهب التجريبية المتسلطة بعلوم الانسان أو من الاتجاه الحسي النفسي السائد في فلسفة تصورات العالم ، وتصبح الفينومينولوجيا مرادفة لهذا العلم المحكم الناجث من المطلق .

٥ - كما عرض هوسرل ، قبل اعلان محاولته لحل أزمة العلوم الانسانية كيرتلتاو (1878 - 1917) الذي حاول من قبل وضع أسس العلم النفس الوصفي يفرق فيه بين القاهرة النفسية والظاهرة الفيزيائية حتى يحل أزمة علم النفس التجريبي ويقي على سيادة الاتجاه الطبيعي في العلوم الانسانية كما فعل هوسرل بعده . لقد وصف كيرتلتاو لأثر مرة ببناء الشعور على أنه قصد متبادل ، وفتح بذلك أفقا جديدة في علم النفس خاصة في ميدان العواطف والرغبات ، حتى أن الفينومينولوجيا في بداتها كانت علم نفس وصفي قبل أن تستقل كعلم خاص . لقد رفض علم النفس الوصفي من قبل علم النفس الذي يقوم على تتبع نشأة الظواهر النفسية في مظاهرها المادية محاولا إيجاد علل مادية وارتباطات حسيه بينها ، ولما إلى تحليل الظواهر الباطنة ، ولكنه - في رأى هوسرل - لم يستطع أن يتخلص من شوائب الاتجاه الطبيعي ، وظلت التجربة مادية لا خالصة . ولم يكن علم النفس الوصفي حسا للماهيات المستقلة ، ولم يستطع العثور على مفاهيم عملاقة يعبر من خلالها عن مضامينه الجديدة .

لقد ظل بالفصل قاصرا عن التفرقة بين الإدراك الداخلي والإدراك الخارجي ، أي بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيائية بعد أن صنف كثيرا من الظواهر النفسية على أنها فيزيقية وكثيرا من الظواهر الفيزيائية على أنها نفسية ، لذلك اقترحت الفينومينولوجيا بعد ذلك تصنيف الأشياء في عوالات مختلفة كمكانات خاصة للشعور مرتبطة بنظرية الكثرة في الرياضيات دون الاكتفاء بتصنيف علم النفس الوصفي للظواهر النفسية إلى تمثيلات واحكام وعواطف والتفصيلات أي ان علم النفس وحده

وقد حاول هوسرل في أعماله المنطقية الانتقال من المنطق النفسى الى الفينومينولوجيا وذلك في « **بحوث متعلقية** » ١٩٠١/١٩٠٢ ، ورفغ المنطق المادى الى عالم الشعور وتحويل مشؤونه النفسى الى تجربة حية في الشعور . لقد كان الهدف منه رفع المنطق من مجرد احصاءات نفسية (هل) أو تكوينات بيولوجية (سينسر) أو تحريسات انثربولوجية (سينجوات) اودهان (الى منطق للشعور تصبح فيه المادة تجربة حية . لقد وجه هوسرل في الجزء الأول منه « **مقدمات في المنطق الخالص** » اهتاف نقد وجهه في العصر الحديث للاتجاه النفسى في المنطق وسول المنطق الى علم ميمارى نظرى أو « **نظرية في العلم** » أو « **علم العلم** » ، وذلك لأن نقص العلوم الجزئية يرجع اساسا الى نقص جذرى في بنائها النظرى أى في التصور العام للمنطق ، ولا تستطيع العلوم الجزئية تكملة هذا النقص الا بإرجاع أسسها النظرية الى البتايوتيقا والمعرفة ، أى الى المنطق الخالص ، **لأن المنطق في الحقيقة هو المعرفة نفسها** ، المنطق إذن علم نظرى قبل أن يكون علما ميمارى وطبيقت هذه التواعد ، وقبل أن يكون علما معليا وطبيقت تطبيق وضع القواعد في العلوم الجزئية . لقد أراد الاتجاه النفسى في المنطق جعل المنطق فرعاً من علم النفس أو اعتباره قيزيقا الفكر (سينسر) وتصبح قوانين الفكر قوانين بيولوجية محضة فلا فرق بين الأشكال المنطقية والمعادلات الكيمائية . يرفض هوسرل ذلك كله ويوصله خبط بين المادة والصورة أو وقوعاً في الشك أو في النسك كما يرفض اعتباره القصادا في الفكر (ماخ) **ألفشاريوس** » .

وفي البحوث الست التالية حاول هوسرل بناء أهم المشاكل المنطقية فخرس الصلة بين « **التصوير** » و**الدلالة** » وفرق بين **العلامة والمعنى** » وجعل المعنى مصفلاً عن علامته واعتبره وحدة مثالية بالرغم من تغير معاني الكلمات طبقاً لأفعال الشعور المنطقية لهذا المعنى (المبحث الأول) . ثم رفض هوسرل **النظريات الحديثة في التجريد** ، أعنى نظريات **مل وسينسر وهيوم** ولوك التي تمتاز النوع المنطقى مجرد ارتباطات حسية، والتي تنكر وجود الموضوعات العامة المستقلة عن ارتباطاتها الحسية ونشأتها في الواقع الجزئية ، بل ولا يرضى هوسرل عن نظرية **بركل** في التمثل ويمتريها أيضاً قضاء على وجود الموضوعات الكلية (المبحث الثانى) . ثم فصل هوسرل في مشكلة **الكل والجزء** ، واعتبر الكل سابقاً على أجزائه ومستقل عنها في حين أن الجزء غير مستقل ويعتمد على الكل الذى هو موجود فيه ، أى أنه يأخذ بوجهة نظر معالجة لوجة نظر **كافكا** في علم النفس الجشطلتى و**برجسون** في رؤيته للنظواهر الحيوية **وليفي ستراوس** في البنيائية (المبحث الثالث) . ثم فرق هوسرل بين **الدلوات المستقلة والدلوات غير المستقلة** ووضع للمعنى المستقلة منطقاً خالصاً للمعنى فى (المبحث الرابع) ، ثم انتهى هوسرل الى **المنطق الشعورى** الذى يقتصر على تحليل **التجارب الحية ومضامينها** ، فالشعور فى نفس

لا يكفى دون **الأنا** **لترسندتال** ، ينتقص علم النفس الوصفى إذن نظرية في المعرفة تطليه أساسه النظرى حتى يصبح تحليلاً للماهيات ، أى أنه لم يمارس « **تطبيق الحكم** » الذى كان فى امكانه تعليمه من رواسب الاتجاه للمادى كما أنه ينتقص مشاكل البناء نظراً لقيام المنطق الخالص . صحيح ، علم النفس الوصفى قام بتحليل الجانب الخلقى من التجارب الحية ولكنه لم يضع منه الجانب المنطقى الذى استطاعت الفينومينولوجيا تحليله . لقد حاول علم النفس الوصفى وضع الظواهر النفسية فى عدة مجموعات دون أن يعطى كل ظاهرة استقلالها الخاص وماهيتها المستقلة . خلاصة القول أن كل **أوجه النقد التى وجهها علم النفس الوصفى الى علم النفس التجريبي وجهتها الفينومينولوجيا بدورها الى علم النفس الوصفى** : بقايا الاتجاه الطبيعى ، عدم فاعليه منه الاتجاه التجريبي ، بقايا الاتجاه التجريبي فى علم النفس ، غياب علم النفس كمنسفة وصفية خالصة ، غياب الفلسفة الترلسندتالية ، احمال الاسس النظرية للذاتية ، عدم التعرف على المعنى الحقيقي للبعد المتبادل ، المعزج من تحقيق مشروع الفلسفة الحديثة ، اعنى اقامة علم الذاتية الترلسندتالية ، أى أن **عيسوب علم النفس الوصفى جعلته قاصراً عن أن يصبح فينومينولوجيا** .

٦ - ولقد حاول علم النفس النظرى الذى وضع شتوفم أسسه حل مشاكل العلوم الانسانية خاصة علم النفس وللد الاتجاهات الصورية والنفسية والطبيعية والنسبية والشكية كما فعلت الفينومينولوجيا بعد ذلك ، فرق شتوفم بين « **الوظيفية** » function و« **المظهر** » appearance في علم النفس ، وهى التفرقة التى تبناها هوسرل في تفرقته بين « **الفعل** » و« **المشاهين الأولية** » . لقد أعطى علم النفس النظرى لفينومينولوجيا تحليل مضامين الشعور واستعار منه هوسرل تفرقته بين **المشؤون المستقل والمضؤون غير المستقل** في تفرقته بين **المشؤون الحسى والمضؤون** للجزء كما تابع هوسرل شتوفم فى فكرته عن اتحاد الصفات الحسية فى كل واحد ، وهو ما سماه هوسرل **اتصال الظواهر النفسية** ، كما استخدم هوسرل تكرهه من « **التشعل العام** » من حيث هو اقتصاد فى الفكر فى اقامته نظريته من « **الوحدة المثالية للذئوع** » . لقد استطاع علم النفس النظرى وقف تيار علم النفس التجريبي واقامة نظرية في المعرفة مستقلة عن علم النفس ، ولا غرو فقد أهدى هوسرل كتابه « **بحوث منطقية** » الى شتوفم عرفانا منه بأنه الوحيد تقريباً الذى استطاع تصور الفينومينولوجيا قبل أن يضع فيها هوسرل المسلمات الأخيرة .

واخيراً استطاعت الفينومينولوجيا شق طريقها وسعد المنطق وعلم النفس فى طريق ثالث جعله الجميع حتى ذلك الحين وهو طريق **الشعور** ، وبذلك استطاع علم النفس أن يتغل عن مادته كما استطاع المنطق أن يقضى على صوريته . أصبح علم النفس مادة **للشعور والمنطق صورة له** .

ثالثاً - خطوات المنهج الفينومينولوجي :

لم يكتب هوسرل يوضح الفينومينولوجيا كعلم بل حاول صياغتها كنهج للعلوم الإنسانية مكون من خطوات ثلاث .
تطبيق الحكم « والبناء والارتقاء » *Erklären* (١)
ويكتفي المardon عادة بذكر الخطوات الأولى دون الثالثة مع أنها هي الخطوة الوحيدة التي يظهر فيها لمط في تبسيط هوسرل *Kürzungs methode* فانهج الفينومينولوجي هو في حقيقته **منهج للإيضاح وما الخطوات الأولى إلا مقدمة للخطوة الثالثة** أو مجرد « أفكار موهبة » دون أن يتم صياغتها في قواعد للمنهج كما هو الحال عند ديكرات في « مقال في المنهج » أو « قواعد لهداية الفهم » بل إن الفينومينولوجيا كانت في مرحلة الجزئين الأول والثامن من « الأفكار » أقرب إلى الفلسفة منها إلى المنهج ولم يتم صياغتها في منهج إلا في الجزء الثالث .

١ - تطبيق الحكم : يعني « تطبيق الحكم » عند هوسرل **وضع العالم بين قوسين** أو وضعه خارج الميدان « ويعني بذلك عدم المسدته عن المصاهرة المادية وإزاحتها جانباً » **وأخراجها من موضع الاهتمام** « وعدم التعرض لها » أو إصدار حكم عليها « ويرى هوسرل من ذلك أن القضاء على الاتجاه الطبيعي بكل مظاهره المادية من نفسية ووضعية وأنتروبولوجية وبيولوجية وذلك بالتفرقة بين « علم الماهيات » الذي يأخذ الماهية موضوعاً له « وعلوم الوقائع » الذي يأخذ الواقعة موضوعاً له . لقد اعتبرت العلوم الإنسانية التي اتخذت العلوم الطبيعية نموذجاً لها الظاهرة الإنسانية على أنها واقعة مادية مع أنها في الحقيقة ماهية خالصة . كما يفرق هوسرل بين **التعالى** *transcendence* **والمباينة** « ويقصد بالتعالى المصاهرة التجريبية للحظة التي تتصدى للشمور وتتجاوز التجربة الحية » وهو معنى غريب تماماً عما عرف به التعالى عند كانط مثلاً من أنه ما يتجاوز حدود التجربة « أو عند الوجوديين من تعالى الذات على نفسها وإحساسها بأنها تتجاوز حدود الموضوع « فالظاهرة المتعالية يجب تطبيق الحكم عليها لأنها ظاهرة مادية « خالية من كل معنى » ظاهرة مصنعة « لا تصبح دالة إلا بعد حلولها في الشمور كتجربة حية . أما « المباينة » فانه يعني ببساطة المباينة أو وجود الظاهرة كتجربة حية في الشمور حتى يمكن بناؤها بعد القضاء عليها كظاهرة متعالية . أي أن هوسرل يعني بلفظ « المباينة » ما عناء كانط من قبل بلفظ « ترانسندنتال » ولكن هوسرل كشف عن مضمونه صراحة ورفض كل كلمة فيها مقطع الذي يدل على التعالى والتجاوز والمفارقة حتى لا يحدث اللباس

الوقت هو الأنا الخالصة والإدراك الماهي « لذلك كانت التجربة الحية قصداً متبادلاً يضم الأنا الخالصة ومضمونها مما « وأصبحت وظيفة الحكم هي وضع مادة أفعال الشمور في تمثيلات تقوم هي نفسها بوضع أسس له « إذ يقوم التمثيل بإعطاء وحدة كيفية لإفعال الشمور (المبحث الخامس) « وأخيراً ينتهي هوسرل إلى تحويل المنطق (الفينومينولوجيا) ويحلل التصدد المتبادلات ويبين طرق ملته . وتصحيح المعرفة هي عملية هذا الجزء « وتكون درجات المعرفة طبقاً لدرجات هذا الجزء « وهي عملية تحويل الإحساس إلى ذهن (المبحث السادس) .

ثم حاول هوسرل مرة ثانية - وذلك بعد بناء الفينومينولوجيا في الجزء الأول من « الأفكار » سنة ١٩١٣ - إعادة بناء المنطق الصوري وتحويله إلى فينومينولوجيا في **المنطق الصوري والمنطق الترانسندنتالي** سنة ١٩٢٩ وإنزال المنطق الصوري إلى عالم الشمور وتحويل الصور العقلية الخالصة إلى قوالب للشمور تكون مناطق فيه يمكن تحويلها بعد ذلك إلى علم للأطولوجيا العامة « حول هوسرل منطق القضاء في رياضة صورية (من أوسط إلى كينيتز ويولانو) ثم حول الرياضة الصورية إلى نظرية الكثرة (ويغان) « لقد كان للمنطق الصوري القديم والجديد جانبان : القضاء والأطولوجيا « ثم انتقل المنطق من المجال الصوري الموضوعي إلى المجال الترانسندنتالي « أي من أوسط ويغان إلى ديكرات وبرنتانو « وبدلاً من تحليل القضاء أو الصور الرياضية يتم تحليل الشمور الذي يقوم بإجراء الأحكام ويتحول المنطق الموضوعي إلى ميتافيزيقيا للمفعل .

وأخيراً حاول هوسرل للمرة الثالثة التوحيد بين المنطق وعلم النفس في « **التجربة والحكم** » الذي ظهر سنة ١٩٢٨ والذي يرجع عنوانه إلى مخطوط لسنة ١٩٢٩ « يدرس فيه هوسرل للمرة الأخيرة التجارب السابقة على الأحكام » ويصف بناء الشمور من حيث هو قصد متبادل « التجربة الحية مضمونه « والصورة الخالصة قاله « أي أن هوسرل قصد أن دفع المنطق من ثلاثة إلى الصورة في المرة الأولى وأنزل المنطق من الصورة إلى المادة في المرة الثانية حاول أن يشق الطريق الثالث بالدخول في أعماق الشمور « أولاً في محاولة بناء التجربة السابقة على الحكم « أو التجربة من حيث هي استقبال محض للعالم الخارجي « يمكن إدراكها إدراكاً مباشراً بالمحس أو بعد الإيضاح « ثم إدراك علاقاتها وأسسها « ثانياً في محاولة بناء الفكر الحسي وموضوعات الفهم « وذلك بصفة البناء العام للحكم « وثالثاً أشكال القولات « ورشاة الموضوعات ودالات الأحكام « ثالثاً في بناء الموضوعات على وجه الصوم وأشكال الأحكام العامة وذلك ببناء الموضوعات التجريبية من أجل الحصول على الموضوعات الخالصة عن طريق الرتبة الحسية للماهيات . وبذلك حاول هوسرل شق طريق ثالث لتبيل الأزمته في العلوم الإنسانية « أزمة الصورية وأزمة المادية » .

(١) تطبيق الحكم نحو موضوع الجزء الأول من « الأفكار » مقدمة عامة في الفينومينولوجيا الخاصة « سنة ١٩١٣ و« البناء » موضوع الجزء الثاني « بحث في فينومينولوجية البناء » سنة ١٩٢٤/٢٥ ، والإيضاح موضوع الجزء الثالث « الفينومينولوجيا والعلوم الأساسية » ١٩٢٤/٢٥ .

« هم » أو « قس على » لأنه قضاء على الاتجاه الطبيعي ، وأن الخطوة الثانية وهي التنبؤ تنفذ المعنى الثاني لهذا الفعل وهو « بيني » أو « يرفع » أو « يسترد » .

النسب

٣ - بعد « تعليق الحكم » يأتي « التنبؤ » كخطوة ثانية حيث يظهر الشعور كصمد متبادل مكون من قالب *noese* ومضمون *noema* ، الأول يمثل الجانب النظري أو العقل في الأنا الخالصة وهو ما عبر عنه ديكرات باسم الأنا المفكرة أو ما سماه كانط الأنا الترنسندنتالية ، أي أنه يمثل الذات التقليدية في نظرية المعرفة ، والثاني يمثل الموضوع وهو الذي جعله ديكرات حركة وامتنادا ، والذي اعتبره كانط مجرد ظاهرة أو حسي حسي ، وهو عند هوسرل مضمون الشعور لينفي عن الاتجاه الطبيعي الذي يجعله مستقلا عن الذات المارة ، وكذلك لينفي عن الاتجاه الحسي عند هيرم الذي يجعله مجرد الطباعات حسية . يرى هوسرل إذن أن الشعور هو ذات وموضوع معا ، وبذلك ينتهي هذا التعاضد التقليدي بين الذات والموضوع . كما ينتهي هذا الصراع التاريخي بين التالية التي تعطي الأولوية للذات على حساب الموضوع وبين الواقعية التي تعطي الأولوية للموضوع على حساب الذات . يصبح الذات والموضوع عند هوسرل وجهين لشيء واحد وهو الشعور الذي هو ذات عادية وموضوع للمعرفة ، وتكون مهمة الفينومينولوجيا تحليل الشعور أي تحليل القصد المتبادل والذي يكون في نفس الوقت تحليل المعرفة والوجود في آن واحد . هذه الوحدة بين الذات والموضوع ، أو بين المعرفة والوجود ، أو بين الصورة والمادة ، أو بين المثالي والواقعي ، هي التي جعلت الفينومينولوجيا في النهاية أقرب إلى وحدة الوجود الصوفية التي يتم فيها الوحدة بين الله والعالم ، أي بين الحقيقة والواقع ، وبذلك ينتهي هوسرل إلى مشروع لبيتيتي في إقامة رياضة شاملة أو انطولوجيا جامعة يتم فيها التوحيد بين الواقع والممكن أو بين العقل والوجود . وبهذا المعنى تكون الفينومينولوجيا تبصيرا عن الفكر المعاصر الذي لا يود اعتبار الموضوع شيئا بلا علاقة كما هو الحال في منطق العلاقات عند ولسن أو في بناء العلاقات عند ليفي شتراوس أو في اعتبار الموضوع على أنه متضاد مع *corrélate* للشعور ، فالشعور يتميز بأنه « ينتج نحو *sonen fa vers* » أو « ينطلق نحو *éculte* » أو « يمتد نحو *se rend vers* »

ويضع هوسرل وهو بصدد نظريته في المجلس ليميد بها بنسب نظرية الإدراك الحسي *perception* التقليدية ، فالعقل لديه إدراك مباشر كما هو الحال عند الحسيين ، ولكنه يقوم على رؤية مزدوجة يسميها نظرية « الشعاع المزدوج » يتم فيها توجيه شعاع من الذات نحو الموضوع أي من قالب الشعور إلى مضمون الشعور ، وتوجيه شعاع ثان من الموضوع نحو الذات أي من مضمون الشعور إلى قالب الشعور ، وبدون

بين وترنسندنتالس » وترنسندنتال » كما حدث في حيساة كانط . وقد خصص هوسرل محاضرات خمس سنة ١٩٠٧ لهذه التفرقة في كتابه « فكرة الفينومينولوجيا » .

ويعني تعليق الحكم ثانياً « قلب النظرة *Blick-wendung* » من الخارج إلى الداخل ورفض رؤية الظواهر في المكان بل رؤيتها في الزمان ، خاصة وأن الفينومينولوجيا قد نفسات «أساسا تحليل للشعور الداخلي بالزمان » كما فعل هوسرل في محاضراته عن « فينومينولوجيا الشعور الداخلي بالزمان » سنة ١٩٠٥ ، فالشعور لديه يتكون في ثلاث أبعاد للزمان : التوتر *tension* ، والاستعداد *retention* ، والانتظار *protention* ، أي أن الزمان على مايقول برسون مفتوح نحو الماضي فيتم ظهور الحاضر فيه ، وهو المستقبل فالخاضر هو مستقبل المستقبل ، وهي الأبعاد الثلاثة التي أطلق عليها هيرمير لفظ *esais* ، فشمعل هوسرل كثيرا القطع *ur* الذي يدل على الأصل والنشأة لبيان نشأة الظواهر في الشعور الداخلي بالزمان ، وفي هذا المعنى تحدث هوسرل عن « أصل العالم *Der Ursprung der Welt* » في بحث مازال مخطوطا ليبين فيه نشأة العالم في الشعور لا كما يوحى العنوان من أنه حديث من نشأة الكون كما هو الحال في علم الجغرافيا الطبيعية والكونية .

ولا يعني « تعليق على الحكم » الإيمان بوجود « شيء في ذاته » لا يمكن الحديث عنه أو معرفته كما هو الحال عند كانط ، لأن الفينومينولوجيا هي « عود إلى الأشياء ذاتها » أي أن هوسرل بهذا المعنى أحد الفلاسفة التاليين لكانط مع فشله وفيلج وشلنج وشوبنهاور الذين رفضوا « الشيء في ذاته » الذي لا يمكن معرفته إلا بالإيمان ، وحاولوا معرفته بنظرية في العلم كما هو الحال عند فشله ، أو بالجدل كما نجد عند هيجل ، أو بوحدة الروح والطبيعة في طريقة شلنج ، أو من خلال الإرادة كما تصور شوبنهاور . لقد قضى هوسرل مثله على هذا التمازج بين الظاهرة وموضوع العقل النظري « والشيء في ذاته » موضوع العقل العمل وذلك باعتباره هذا الظاهر « ظاهرة » ووضعها في الشعور حتى تصبح مرادفة لشيء نفسه .

قد قيل كثيرا عن أوجه الشبه بين « تعليق الحكم » عند هوسرل والاشك عند ديكرات ، فكلما خطوة منهجية يتم فيها القضاء على الأوامر والمعتقدات الساذجة والأحكام السابقة والاختلاف الشائنة حتى يمكن بعدها في الخطوة التالية وهي النسب عند هوسرل ، أو تطبيق قواعد المنهج الأربع عند ديكرات ، القيام بخطوة الإيجابية في المنهج والتي يتم فيها الوصول إلى اليقين . كما قيل أيضا عن أوجه الشبه بين تعليق الحكم عند هوسرل ونقد العقل النظري عند كانط . من أن كليهما مجرد تمهيد لما سيتلو من بناء عند هوسرل وإقامة قواعد الإيمان عند كانط . كما قيل أيضا أن تعليق الحكم عند هيجل الذي يعني *aufheben* يعني المعنى الأول لفعل

العالم - أي أن الذات مركز عالمين : عالم الإنسان وعالم
الإنشياء ، وبذلك وضع هوسرل أسس إقامة علم للاجتماع
الفينومينولوجي لدراسة الآتي وعلم الوجود لدراسة الشيء .

٣ - **منهج الإيضاح** : وبعد اكتشاف البناء لهذه المناطق
الثلاث تأتي الخطوة الثالثة بأجنس **منهج الإيضاح** مهمته توضيح
الصلة بين الفينومينولوجيا والأنطولوجيا ، وكذلك الصلة بين
الفينومينولوجيا وعلم النفس ، وذلك لوجود ثلاث مجالات
متداخلة : النفس ، والبناء ، والشيء ، فالنفس موضوع
الفينومينولوجيا والبناء موضوع علم النفس ، والشيء موضوع
الأنطولوجيا ، وهي المجالات الثلاث التي عرضها هوسرل في
نظرية البناء . فالفينومينولوجيا علم لمنطقة الشعور الخالص ،
وعلم النفس ينحصر في منطقة الموجودات الحية ، والأنطولوجيا
يصدر عن عالم الأشياء ، مهمة منهج الإيضاح هو تحديد
الصلة بين هذه المجالات الثلاث وتحديد الصلة بين العلوم
الإنسانية المطابقة لها وذلك عن طريق البحث عن الموضوع
الحسي أو عن طريق التحليلات اللغوية للتصورات مثل :
التصور المنطقي الضروري ، التصور المنطقي (من منطقة)
الضروري (regional) ، والتصور المادي وهو ما يقابل أنواع
المنطق الثلاثة التي حددها هوسرل في المنطق الصوري والمنطق
الترنسندنتالي : علم الصور العامة الخاصة morphology
pure منطق الانساق ، منطق الحقيقة .

ويقرر هوسرل بين أنواع عديدة من **الإيضاح** :
« **التوضيح** éclaircissement ، **الشرح** أو **الكشف**
« élucidation ، في الشرح explication ، فالإيضاح يتم في
اللغة وذلك بالتبيين بين الألفاظ المحكية والألفاظ التفسيرية
على ما يقول الأصوليون ، في حين أن التوضيح يتم بين
الأشياء ، أما الشرح أو الكشف فيتم في الشعور مهمته
استكشاف مناطقته الذي يؤدي في النهاية إلى الشرح والبيان ،
والخراج مضمونه إلى حيز الرؤية الواضحة .

ومنهج الإيضاح في جوهره هو **منهج للتبيين** ، والتبيين
هو **روح العلم** ، أي أنه منهج يقوم أساساً على منع الوقوع
في الخلل ، وإن تاريخ العلم ليثبت أن تقدمه كان مرهوناً
برفع الخلل والتبيين بين مستويين مختلفين من حيث الدرجة
أو من حيث النوع ، كما حدث في علم النفس التجريبي في
الخلط بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيائية ، أو في
المعلوم الإنسانية التي اتخذت العلوم الطبيعية نموذجاً لها ،
بين الواقعة والمادية ، بين الواقعة الطبيعية والشعور ، بين
الواقع والمثل ، وفي بعض الأحيان يتم التبيين بين مستويات
ثلاثة مثل : الطبيعة المادية ، الطبيعة الحية ، عالم الروح كما
هو واضح في الهندسة ، أو في إيضاح التصورات مثل :
التصور الصوري ، التصور المنطقي (regional) (نسبة إلى
منطقة لا إلى منطق) ، والتصور المادي ، الأول منفصل عن المادة
تماماً ، والثاني مرتبط بالمادة ، والثالث مادي محض ، الأول
موضوع الأنطولوجيا ، والثاني الفينومينولوجيا . والثالث
علم النفس . مهمة **منهج الإيضاح** هي إيضاح العلوم

هذا الصماغ المزوج لا يصح الإدراك معكاً ، أي إن الانتباه
attention ، على مايقول **ميتش دي بريك** ، هو شرط
الاحساس وأنه لا يمكن للحواس أن تقسوم يوظفيتها في
الإدراك الحسي إلا بفضل الانتباه ، فالإدراك الحسي دون انتباه
لا يعتمد أن يكون مجرد انطباع حس impression يحوله فعل
الانتباه إلى إدراك حسي بالفعل perception

وتستمد عملية البناء إلى جميع أحوال الشعور والظواهر
النفسية مثل التذكر والتخيل والتصور فكل ذلك يمكن
تحليله في القصد المتبادل كما فعل ساتر في دراستيه عن
« **الخيال** » ثم « **الخيال** » ، ولذلك انتهت الفينومينولوجيا إلى
الانقراض في تحليل عمليات الإبداع الفني وأصبحت المسلم
الذي : **يفسر** « و » **يفهم** « الظواهر النفسية » ، **يفسر** **النشأة**
ويظهر **المادية** .

والشعور عند هوسرل نوعان : الشعور الواعي

la conscience neutre
والشعور الواعي la conscience positionnelle
يبدأ بعملية تحليل القصد المتبادل بعد ، والثاني شعور
بعد هذا التحليل للظواهر المعرفية أو العملية والإرادية أي
الظواهر التي تتعلق بالبرهات والميسور ، ويكون للشعور
الشعور noème **الخاص** خمسة هوسرل **أنماط الوجود**
les modes d'être الواقعي : **الممكن** le possible ،
المحتمل vraisemblable المشكل problematico ، والمشكوك فيه
douteux وذلك في مقابل **أنماط خمسة** **لثبات الشعور** noème
يسمى هوسرل **أنماط الاعتقاد** Les modes de croyance
وهي : **اليقين** certitude ، **والافتراض** supputation ،
والظن conjection ، **والاشكال** question ، **والشك** Doute

ويتم الهندسة في موضوعات ثلاثة بينها هوسرل في الجزء
الثاني من « **الانكار** » وهي : **بناء الطبيعة المادية** ، ثم **بناء**
الطبيعة الحية ، ثم **بناء عالم الروح** ، أي أن الواقع عند هوسرل
مكون من ثلاث دوائر متداخلة : **الدائرة الكبرى** ، **والحياة**
الدائرة الوسطى ، **والروح** **الدائرة الصغرى** . وكل دائرة
مكونة من مراتب ثلاث : فالطبيعة المادية تبدأ بالطبيعة العامة ،
تتلوها منطقة الإنشياء التي تنضج للإدراك الحسي ، تتلوها
حاسية البدن ككل . أما الطبيعة الحية فتبدأ أيضاً بالطبيعة
العامة ، تتلوها الطبيعة الحية من خلال البدن ، تتلوها
الطبيعة الحية من خلال الاستيطان . وفي هذه الأخيرة تظهر
الذات الخالصة . أما عالم الروح فإنه يتكون أولاً بالتصاير
بين العالم الطبيعي والعالم الشخصي وذلك بفعل تعليق الحكم ،
ثم يتلو ذلك ظهور البراءة في العالم الشخصي ، وأخيراً
تظهر أولوية العالم الطبيعي . وينتهي في ذلك إلى أن العقل
والواقع ، أو الشعور والواقعة الطبيعية يكشفان عن هذه
الدوائر الثلاثة المتداخلة ذات المركز الواحد : **الذات الخالصة** ،
الإخرون ، **عالم الإنشياء** ، وهو ما عبر عنه الوجوديون بعد
ذلك - ساتر ، **هيدجر** ، **ميرولوبوتس** - باسم « **الوجود** في

بعدم جديد ، فعل الأقل تحمل أزمة العلوم الانسانية ، بل ويذكر هوسرل دائما لفظ « اصلاح » reforme ، ويستعمل مفاهيم الصراع والحركة والنفي والاحتجاج والاعتراض والجدل والحاجة والتخططات والمراجعات .

وايضا - أزمة الشعور الادروبي :

ليست الفينومينولوجيا نظرية في الذاتية فحسب subjectivité كرد فعل على أزمة العلوم الانسانية التي اتخذت مرة العلوم الطبيعية ومرة ثانية العلوم الصورية كنموذج لها ، بل هي ايضا نظرية في العلاقات بين الذات intersubjectivité وهناك نوعان من العلاقات بين الذات : الاول هو التجربة المشتركة التي يتم من خلالها الوصول الى الموضوعية في العلوم الانسانية وذلك باشتراك الذات مع الآخر في نفس التجربة الشمورية وضمن عدم الخطأ ، خاصة وان التجربة تحتوي على ماعية مستقلة عن الطرفين وتتميز بموضوعية صورية من خلال مناطق الشعور ، فضلا عن أن كلا الطرفين يبدأ بالتجربة لمحبة اي من الوقائع نفسها ، وبذلك يكون الضمان للموضوعية : اولاً التجربة المشتركة ، ثانياً وجود الماهيات المستقلة ، ثالثاً اليقظة بعالم الوقائع ، ولذلك تحولت الفينومينولوجيا الى حلقات بحث *imaginaires* حتى تخرج من « مدينة العالمان » كما اوصى هوسرل بذلك . والنوع الآخر من العلاقات بين الذات هو التجربة الشتركة للضمانية كلها او هو الشعور الجماعي ، او الشعور الحشدي ، او ان شئت الرجوع الى تيمبر دلاني « الشعور التاريخي » ، فلما كانت الذاتية تتجهز واسميا يوضع فيه الشعور بين عائلين ، عالم الصورة وعالم المادة ، فالشعور الجماعي اتجاه الحق يوضع فيه الشعور بين حركتي التاديع ، الخلف والامام ، وبالتالي تظهر الفينومينولوجيا على انها فلسفة في التاديع يضع فيها الشعور الادروبي في كل مرحلة جانباً من الفينومينولوجيا حتى تأتي آخر مرحلة لي تكملها وتضمها مرة واحدة الى الابد . ولا يقصد بالشعور الجماعي ما يقصده الاجتماعيون باسم « الشعور الجمعي collective » الذي هو القرب الى الشيء والواقعة . الشعور الجماعي هو شعور مثالي كالشعور الفردي تماماً تعيش الحضارة فيه كما يعيش الشعور الفردي تجربة حية . والحقيقة انه يصعب التفريق بين الشعورين الفردي والجماعي فكلهم نفس البناء ، الجانب المعنوي او الصوري الذي سماه هوسرل *noëse* في الشعور الفردي يقابل الاتجاه التجريبي في الشعور الادروبي ابتداء من ديكارت ، والجانب المادي الذي سماه هوسرل *noème* في الشعور الفردي يقابل الاتجاه التجريبي في الشعور الادروبي فلسفة الحياة عند دلاني وديرش Driesch وبرجسون وشيلر وغيرهم ممن رفضوا هذا التضارب التقليدي بين الصوري والمادي ، المثالي والواقعي ، المعنوي والتجريبي . أي انه يصعب التفريق بين الفينومينولوجيا من حيث هي علم او نظرية *Éidos* وبين الفينومينولوجيا من حيث هي مقصد

الديناميكية التي تتخلل فيها الفريزة بالحس ، او التصور المنسحب بالتصور النظري ، او التي تجمع بين الفن واليقين ، وهو موجه اساساً ضد تحيز العلوم التجريبية كطرف واحد *univoque* دون الطرف الآخر . ومن ثم فهو يقوم باعادة الطرف الآخر ويقيم التوازن في الظاهرة . يقوم بالتعميم ضد التخصص ، والرفع ضد السقوط ، والتوسع ضد قصر النظر وضيق الأفق حتى يعيد بناء المثال . يقوم بقلب النظرة في مقابل القلب الحادث في العلوم الطبيعية . قلب القلب عود الى الوضع الصحيح ، وهو عود الى الأصل *originare* والاول *primaire* في مقابل التابع والثانوي في العلوم الطبيعية . الايضاح ان هو السبيل لاقامة نظرية في الوضوح ، وهو الذي يسمح بحس الماهيات أي حس الموهوبات الخالصة ، فلا حدس دون وضوح وهو ماوضحه برتاتون من قبل كتابه « الحس والوضوح *Wissen und Evidenz* » .

الايضاح هو اجل النهائي لازمة العلوم الانسانية التي تتروى أساساً على الخط بين المستويات او على المزج بينها ، ار على التوحيد بين مستويين او على وضعهما متوازيين على نفس المستوى او على تماثلهما *isomorphes* او على رد أحدهما الى الآخر *reduction* او على قلب أحدهما مكان الآخر *conversion renversement* او على استبدال أحدهما بالآخر *substitution* . يقوم الايضاح اذن ببدل الظاهرة وارجاع المستويات ولذلك كان الايضاح منهجاً للوجود *methode de passage* من مستوى لآخر ، من الصوري الى الترندنتال ، من المادي الى الصوري . فالايضاح : ان ليس نظرية في المعرفة فحسب بل هو نظرية في الوجود يقوم على حلف المستويات ثم على الربط بينها وبكلاً صحيحاً مستعملاً مفاهيم جديدة للربط مثل : حامل *porteur* ، واقعة حامل للماهية وليست مرادفة لها ، او معطي *conférant* فالعمل يعطي المعنى وليس مرادفاً له ، او طرف متضائف *corrélat* ، فالآخر طرف متضائف مع الشعور وليس خارجاً عنه . يقوم الايضاح ايضا بالتفكير عن الالفاظ القديمة مثل « شيء » ووضع الالفاظ جديدة مثل حالة الشيء حتى يتم رفع المستوى من المادة الى الشعور ، او بالتفكير لفظ مثل فكرة او مثال *noëse* ووضع لفظ جديد مثل *intelligere* ، ويعني به هوسرل عملية تحويل العالم الى فكرة او مثل وذلك للقضاء على صورية المثال وتحويل الصوري الى ترندنتال . والايضاح ايضا منهج جدل بين الالفاظ والتصورات اذ يثمر في مفهوم واحد على مفهومين متميزين كما هو الحال عند برجسون ، او يفسح للمهيين المتنازعين في منبب واحد ثم يرفضهما مما « عجم الايضاح اذن في الكشف عن الوحدة الباطنة في الوجود : وحدة المعرفة والوجود في الفينومينولوجيا ، وحدة الذات والوضوع في الكوجيتو ، وحدة الانا والآخر في التجربة المشتركة ، وحدة الاجزاء المتناثرة في الكل الواحد . . الخ . خلاصة القول ان الايضاح العام على التمييز حركة اصلاحية في التاديع ، وذلك لان مهمة الفينومينولوجية مهمة اصلاحية ، ان لم تشر

للتأويل أو غاية له Télos ، وقد وضع هذا الارتباط بين المشعورين في « **تأملات ديكارتيّة** » سنة ١٦٢٩ وهي الدراسة التي عرض فيها هوسرل الفينومينولوجيا كنظرية في الذات أو في الشعور الفردي وكنظرية في العلاقات بين الذات وبينهما : التجربة المشتركة في المعرفة ، والتجربة الجماعية في الحضارة ابتداء من ديكرات الذي يبدأ الشعور الأوروبي عنده .

٦ - **مصادر الشعور الأوروبي** : لا يتحدث هوسرل كثيرا عن مصادر الشعور الأوروبي إذ أنه يعتبر الحضارة الأوروبية حلقة أصيلا على غير متوال ، وأنها دون غيرها من الحضارات القديمة ، قد أخذت في عاقبتها مهمة البحث عن الحقيقة النظرية ، وتحقيق مشروع الانسانية العلمي الأول الذي طالما راود فلاسفتها ، أعنى إقامة علم شامل مرادف للحقيقة ومطابق للواقع على السواء . فلذا ذكرنا المصادر التي عبرت مجرد مقدمات للحضارة الأوروبية وتمهيدتها لها دون أن يكون لها استقلال خاص بها . كل شيء في النهاية يصب في الحضارة الأوروبية التي افتحتها ديكرات ، فأوروبا هي مثقلة الانسانية ، أما حضارات الشرق القديم فهي حضارات أسطورية خلتية دينية لم تستطع عرض المسائل عرضا نظريا وكان جل منها النشئة الكاملة في الحياة العملية .

لا يذكر هوسرل من مصادر الشعور الأوروبي الثلاثة المتراضع عليها لدى الباحثين أعنى : **المصدر اليوناني الروماني** ، **المصدر اليهودي المسيحي** ، **البيئة الأوروبية نفسها** إلا المصدر اليوناني الروماني ويهمل احتمالا يكاد يكون تاما للمصدرين الآخرين ، بل لا يذكر من المصدر اليوناني الروماني إلا الفترة اليونانية التي يصيب بها هوسرل أيضا انتسابا ويجعلها الصورة الميكرة للحضارة الأوروبية صحيح أن الحضارة الرومانية نابعة في كثير من جوانبها للحضارة اليونانية إلا أن اهتمام الحضارة الرومانية وباعتمادها الأول كان هو البحث عن « **القانون** » في حين أن اهتمام الحضارة اليونانية كان هو البحث عن « **اللكوة** » .

ولا يتناول هوسرل من الحضارة اليونانية إلا الفلسفة ، ويلقى من حسابها الأدب والأساطير والنصت والصداقة وذلك لأن الفلسفة هي اليونانية ، في رأيه ، هي التي حاولت البحث عن الفينومينولوجيا بقدر استطاعتها وعلى مستوى تفكيرها وتقدمها الحضاري في مسار الانسانية ، فبها ظهرت لفلسفة الحياة عند سقراط ، وهي الفلسفة التي كشفت الفينومينولوجيا عن أصلاتها في التجربة الحية ، وفيها ظهرت الصورة المحضة والمنتال المطلق عند الأفلاطون ، وهي ما أقرته الفينومينولوجيا في وضعا لمعلم الماهيات ، وفيها ظهرت أخيرا فلسفة الطبيعة عند أرسطو والتي حاولت الفينومينولوجيا أيضا إعادة بنائها بعد تمليق الحكم على المادة ، والبحث عن الأشياء ذاتها في الشعور .

ولكن هوسرل يعتبر سقراط مجرد مصلح للحياة العملية ضد شك السوفسطائيين ، ولم يستطع وضع المسائل وضعا

نظريا خالصا ، وظلت اهتماماته متجهة نحو المشاكل الخلقية . ومع ذلك استطاع سقراط استعمال منهج الايضاح القائم على العقل ، واتخذ الوضوح والبداية مقياسا لصحة الأفكار ، وقد تحول منهج التوليد لديه إلى جدل عند أفلاطون ، كما تحول منهج الايضاح إلى حسن للماهيات . لقد استطاع سقراط المحافظة على موضوعية القيم ، هذه الموضوعية التي حاول هوسرل إقامتها في العلوم العقلية ، لقد أعطى المدرس نموذجاً للعقل والاعلم أن الفلتا ليست موضوعا وهو المدرس الذي استفادته العلوم الانسانية من إزمتها في العصر الحاضر . وبالتالي يظل سقراط ، بالرغم من نصس البحث النظري لديه ، مصدرا للذاتية الأوروبية ، وأستاذنا للاستغناء مثل كيركجارد الذي كان يعتبر نفسه تابعا لسقراط .

وقد استطاع الأفلاطون لأول مرة في تاريخ الانسانية وضع أول أسس لنظرية خاصة في العلم وهي « **نظرية المثل** » والتبني بين العقل والحس ، بين الصوري والمادي ، أو بين النظر والعمل ، بل إن مثال المثل يقترب كثيرا من النظريات الرياضية الحديثة لا سيما نظرية الكثرة ونظرية المجموعات . لقد ظلت الأفلاطونية مثلا يحتذى في الحضارة الأوروبية لتأكيد استقلال الأفكار والماهيات والموضوعات المثالية وللتخفيف من حدة الاتجاه التجريبي . وتحدث الأزمة في العلم عندما يترك المثل الأفلاطوني القديم وتؤخذ العلوم الطبيعية نموذجا لكل علم . وهكذا تظل الأفلاطونية في الدرع الوثابي من كل اتجاه شك أو نسبي ، والضامن لكل عقلانية . لقد أصبحت في العصر الحديث نظرية قبلية في تصور العلم القسام على حدى للماهيات ، بل إن ذاتية العصر الحاضر لم تستطع بلوغ درجة العقلانية القديمة التي بلغت ذروتها في نقطة أرسطيدس **وفي نظرية فيثاغورس** ، وإن بحث الأفلاطون عن « **النفس ذات الأجنحة** » كان في الحقيقة بحثا عن الذات الترستندتالية . وإن ما يحدث في العصر الحديث من وقوع في المذهب التجريبي والشك والنسبية ومحاولة المذهب العقل إعادة التوازن للشعور الأوروبي لم يتركوا له حلت قديما من تحول للفلسفة على يد السوفسطائيين إلى شك ونسبية ومحاولة الأفلاطون إعادة التوازن إلى الشعور اليوناني . ولكن الفرض الأفلاطون وجود **المشغل في الخارج** جعله يظهر معنى الواقع وأصبح ذريعة لالتزام الاسمي في انكاره لوجود المعاني المستقلة ، أي أن الأفلاطون بالرغم من التقدم الحاسم الذي حققه في الفلسفة اليونانية لم يستطع أن يعيد مآثها **ضرورية للعلم** لأن فلسفته ظلت أسيرة للنظريات الخلقية والتجسرات الأسطورية ، ولم ترد الفلسفة لديه عن كونها مجرد دھشة دون أن تصبح نظرية في الحقيقة .

أما علم النفس القديم فقد لسه هوسرل على أنه حديث باطني للنفس يتجه نحو الفكرة وبالتالي فهو بعيد كل البعد عن علم النفس التجريبي ، ولذلك كان سقراط على حق عندما رفع شعاره « **اعرف نفسك بنفسك** » وعندما وسعته كاجنة مبدد ولقي بأنه « **أحكم البشر** » ، كانت الجبرية في

علم النفس القديم مجرد اعتقاد Doxa أى أنها قصد يمكن ملؤه . أما علم الاجتماع فلم يمتد بعض النظريات الخلفية في اقامة المدنية الفاضلة ولم يعرف دور الآخر في التجربة المشتركة .

أما أرسطو فهو أول من وضع نظرية كاملة في المنطق والأخلاق والسياسة ، وهو أكمل نسق فلسفي عرف في العصر القديم ، ولكن فضله الأساسي يرجع الى أنه وضع أسس المنطق الصوري خاصة منطق القضايا ، وهو أول تفكير منطقي عرفه التاريخ . ولأول مرة توضع مشكلة الصورة في المنطق التي تقابل المقولة في علم الطبيعة ، وكان هذا الطابع الصوري هو المرشد للمنطق الحديث ، ومع ذلك فقد ظل المنطق الصوري ناقصا ، فلم يمتد كونه إحصاءات من التفكير الذاتي لأقامة علم مثالي ، فضلا عن أنه لم يمتد كونه منطقا للاتساق وعلم التناقض دون أن يصبح منطقا للحقيقة . كما قصته نظرية في الحس ، وكذلك لم يستطع أن يصبح رياضة شاملة . وأن تحويل المنطق الى رياضة فهو من صنع العصر الحديث الذي استطاع تحرير المنطق من بيئته المدرسية وتداخل أشكال القضايا . لقد قلل المنطق القديم استنباطيا ، يمكن برأسه استنتاج قضية من أخرى ، في حين أن المنطق الحديث استطاع الوصول الى الانتهائية نفسه . ولكن يذكر للمنطق القديم أنه قدم تحليلات لغوية يمكن استغلالها في دراسة أفعال الشعور وقد اسمعت الفينيونولوجيا بالنظر تقسيمات المنطق القديم مثل : الجنس والنوع ، الصورة والمادة ، غير أنه لم يستطع أن يتحول الى أنطولوجيا صورية كما هو الحال في الفينيونولوجيا ، خاصة وأن الأنطولوجيا القديمة كانت ترى قمتها في اللاهوت لا في الرياضة الشاملة كما هو الحال في العصر الحديث . هذا بالإضافة الى أن المنطق القديم لم يستطع التخلص من الاتجاه النفسي في المنطق أو في الأخلاق .

ثم انتهت الحضارة اليونانية وهي لم تحقق بعد مشروعا في اقامة نظرية للعالم ، وكان أقصى ما وصلت اليه هو هندسة القديسي التي تدل على مستوى رابع من العقلانية ، ثم انهارت الحضارة اليونانية كلية بتركها هذا المشروع واتجاهها نحو المسائل المحلية على يد « الأبيقوريين والرواقين » وانتهى التنظيم العقلي ، وبدأت مذاهب الشك والماذاهب المادية والانجساحات العملية في المدارس الحقيقية ، وظل الجدل السوفسطائي سلبيا ينكر قيمة الذهن ، ويؤكد وجود العلم « لا يوجد شيء وإن وجد شيء فلا يمكن معرفته » ، فالشك السوفسطائي القديم وقرع في النسبية أو في العمدية أو في وحدانية النفس solipsisme وذلك تم القضاء على الموضوعية التي تتحقق في الذهن أو من خلال التجربة المشتركة . وكان آخر بريق هو نظرية « اللوجوس » عند الرواقين التي حاولت وضع موضوعية مثالية كذلك التي حاولها العصر الحديث في الرياضة .

أما فيما يتعلق بالمصدر اليهودي المسيحي فإن هوسرل

لا يذكر منه الا بعض الفلاسفة المدرسين (أوغسطين توما الأكويني ، ديزسكوت ، نيقولا الكوزي) وذلك لأنه يعتبر روح العصر الوسيط روحا نافية عادية لأنها خضعت للمنطق الأرسطي للمدرسي دون أن تضع أسس « الرياضة الشاملة » كذلك التي وضعها العصر الحديث ، ولكنه يذكر لأوغسطين اكتشافه للذاتية « ويستشهد بعبارة الاشرافية in te interiori homine habitat veritas » في ملكك ، أيها الانسان ، تكن الحقيقة . « في آخر « تأملات ديكراتية » كما يذكر كوشا الأكويني قوله « بالقصد العقلي » الذي ظهر عند برترانز كيناه للشعور ، كما يذكر نظرية « احوال المعاني Les modes des significations » عند ديزسكوت ويعتبرها إحدى روافد المنطق المساصر وهي النظرية التي درسها هيدلجي في رسائله الأولى تحت اشراف هوسرل ، وإن ما تصوره العصر الوسيط على أنه بحث عن الله وعن ملكوت السموات أن هو في الحقيقة إلا بحث عن مشروع الإنسانية الأوربية لوضع أسس علم شامل .

أما البيئة الأوربية نفسها فلا يذكر منها هوسرل شيئا وكان الشعور الأوربي شعور مثالي صرف ، أو شعور الهي تتكشفت فيه الحقائق ، مع أنه يمكن تفسيره بالبيئة الأوربية نفسها ، فالكويجتو الديكارتي رفض للعصر الوسيط ولكل حقيقة سابقة على البحث ، والمذهب التجريبي رفض للعقلية الأسطورية الميتافيزيقية المتبقية من رواسب العصر الوسيط ، والمذهب العقلي رفض للنسبية أو التجسيم الذي طبع العقلية الأوربية ، ورفض لكل حقيقة مسبقة طالما دخل الزيف منها باسمها ، مع أن هوسرل نفسه على وهي تام بأن الحضارة الأوربية من خلق الأوروبيين أنفسهم وذلك بقوله « حضارتنا » « فلسفتنا » « منطقنا » ، شعورنا ، وليست من صنع الله .

٢ - نقطة البدء في الشعور الأوربي : الكوجيتو الديكارتي : يعتبر هوسرل الكوجيتو الديكارتي نقطة البدء في الشعور الأوربي ، أي أن ديكرات بهذا المعنى هو المؤسس الأول للفينيونولوجيا ، وهو الذي اكتشف عالم الذاتية ، ولذلك ربط هوسرل نفسه به في « تأملات ديكراتية » واعتبر ديكرات هو الذي بدأ المشروع وأنه ، هوسرل ، هو الذي عكسه بالفعل ، وأن الشعور الأوربي قد ابتدأ مع ديكرات وانتهى عند هوسرل وبذلك تكون الحضارة الأوربية قد حلفت مشروع حياتها وهو اقامة الفينيونولوجيا التي تتمثل الصورة النهائية للفلسفة الترسندنتالية وتحقيقا للحماية الألمانية .

ولكن ديكرات - في رأي هوسرل - وقع في أخطاء مهمة : أولا ، عرف ديكرات الأنا الفكرة cogito لكنه لم يعرف مضمون التفكير cogitatum ، ولذلك ظلت الذاتية لديه فارغة من أي مضمون حتى انتهى الى الصورية المحضة عنه كالف الذي أصبحت المعرفة على يديه مجرد قوالب فارغة ، ومن ناحية أخرى قضى ديكرات على موضوعية الأشياء حينئذ اعتبر العالم مكونا من مفهومين : الحركة والاعتقاد .

باتوازي بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيائية الذي يمدى الأوربية للفيزيقي على النفس ، ويوجد بين الفيزيقي وكل المظاهر النفسية من حس وإدراك وتذكر وتحليل وتصوير وانفصال ، لذلك كان السبيل إلى الخلاص هو علم النفس القائم على الاستبطان وتحليل الخبرات الباطنية ، ثم جهاد هيوم وألنكر قانون العلية وبالتالي كل قانون عقل مستقل عن الحس فكان غراب الفلسفة وفلاسفها ، ولا فرق في ذلك بين الحسية الانطباعية (هيوم) وبين المثالية الذاتية (بركل) ، فضلا عن أن كليهما تيار أنا وحدي solipsisme يستحيل فيه إقامة خبرة مشتركة أو إقامة موضوعية عقلية .

وجاء كانط بفلسفته النقدية محاولا إصلاح ما انفسد ديكارت فتصور وضع المادة الحسية في الصورة الذهنية المارغة واعتبر أن التصورات بلا حسوس فارقة وأن الحسوس تصورات عمية ، ولكنه حل طائفة العصر الحديث عن المذهب والشكل والمضوء ، أو بتعبير أرسطو ، على طريقة الحادى والحوى ، وظل الشعور مجرد « نسج تنكبوت » ويطبقه اصطلاح المادة من العالم الخارجى دون أن يكتشف الشعور الحى والتجربة المباشرة ، لم تستطع الفلسفة النقدية بمعارفها الاجتماعية والفكر اكتشاف بعد ثالث مستقل من هذين الحقلين المتناظرين وظل سؤال كانط الأساسى : كيف يكون الحكم القبل التائيلى ممكنا ؟ « دون حل جذرى » . لقد حاول كانط جعل الميتافيزيقا علما ولكنه اشترط عدم تجسؤها العالم الحسى في حين أن الفلسفة أصبحت علما ممكنا وذلك بجعل وظيفتها الأساسية تحليل الشعور والتعرف على ما به من تجارب حية . هذه استطاعت الفينومينولوجيا بذلك توسيع نطاق الحساسية الترسنتتائية وجعلها شاملة لكل مظاهر الحياة كما استطاعت إعادة الفاعلية المنطق الترسنتتائي « eidetique » وجعلت من الحس الحسى حسنا نظريا للماهيات ، لم تنزع المثالية النقدية في نهاية الأمر كونها مجرد جمع لكل أخطاء العصر الحديث وإزمة العلوم الإنسانية فيه : صورة المذهب العقل ، مادوية المذهب التجريبي ثم الفاتهما معا بحساب الأخلاق والدين ، أى أنها تمثل عودة لسقراط ، ولم تزد في النهاية من كونها تيارا عمليا خائفا يعلم الناس أفضل أسلوب في الحياة « صحيح أن المنطق لم علما مياريا قبليا ولكن المثالية النقدية لم تحقق شيئا من مشروع الشعور الأوروبى وهو إقامة الرياضة الشاملة التي أصبحت الفينومينولوجيا بدلا لها .

ونمثل المثالية المطلقة عند هيجل وفشته تقدما حقيقيا في إقامة مشروع الحضارة الأوربية لإقامة علم شامل ، فقد استطاعت لأول مرة القضاء على هذه الثنائية الحادة بين الاتجاه العقل والاتجاه التجريبي وذلك بإعادة الوحدة الباطنية بينهما في التوحيد بين الروح والمادة « بين العقل والوجود » بين المثالى والواقعى ، بل انهما استعملت لفظ الفينومينولوجيا ووصلت بناء الشعور الفردى وتطوره واستطاعت التخلخل في غاية التاريخ ووصف بناء الشعور الأوروبى وتطوره وهيرت

تانيا ، ميز ديكارت بين النفس والبدن وبذلك قد وضع أسس ثنائية العصر الحديث فجعل النفس موطن الفكر والمثال ، والبدن موطن الواقع والمادى ، جعل النفس خالدة تنمو نمو الخلود الأول ، والبدن فانها ، مجرد آلة متحركة . ولقد كان من السهل بعد ذلك أن يخرج التيار العقل عنه سينتوزا ومايربارش وليبنز من النصف الأول ، وأن يخرج التيار التجريبي عنه لوك وهيرم من النصف الثانى . هسله هي الثنائية « مأساة العصر الحديث » التي صورت الشعور الأوروبى في بدنه وكأنه لم يفتح ، فك إلى أعلى يمثل الاتجاه العقلى وفك إلى أسفل يمثل الاتجاه التجريبي ، ثالثا ، ينقص الكوجيتو الديكارتي البعد الترسنتتائى ، إذ أنه لا يمدى مجرد مبدأ Axiome يقينى يستتبع منه العالم ، أى أنه ظل على مستوى علم النفس وبالتالي فهو لا يخلو من نسبية ، وذلك لم يكن في الامكان القضاء على الشك قضاء تاما سواء فيما يتعلق بوجود العالم أو بوجود الموضوعية التي جعلها ديكارت مروهية بالصدق الإلهي ، لذلك جاءت الفينومينولوجيا لتأكيد الطابع الشمولى للأنا ، ولبيان أن الموضوع لا شأن له بالموضوع الواقعى ، ولإثبات الصد التبادل كبناء للشعور ، رابعا ، ينقص الكوجيتو الديكارتي الآخر كطرف مقابل للشعور ، وبالتالي لا وجود للتجربة المشتركة ولامكانية إقامة علم اجتماع فينومينولوجى ، والتمصر ديكارت على تصور الله كأثر مطلق وكضامن لليقين .

وقد استمر الشعور الأوروبى يمد ديكارت يؤكد مأساته في هذين الحقلين المتضادين ، الاتجاه العقل الذى هو استمرار للأناطونية والاتجاه التجريبي الذى هو استمرار للأرسطية القديمة ، لقد استطاع الاتجاه العقل أن يصل إلى الوحدة الميتافيزيقية monisme métaphysique (سينتوزا) ، ووصل إلى قسمة في الرياضة الشاملة أو في الانطولوجيا الصمامة (ليبنتز) . وقد ظل هذا الاتجاه العقل هو المرشسد في البحث عن الحقيقة والحافظ للشعور الأوروبى من الاستمرار إلى الانحدار نحو الاتجاه التجريبي ، ولكن تحويل الطبيعة إلى رياضة على يد جاليليو أدى إلى فلسفستان التجربة الحسية ، وأصبحت قلبا دون مضوء ، أى أن الاتجاه العقل كان مصيره الوقوع في الصورية ونسيان عالم الحسية الذى حاولت الفينومينولوجيا إعادة بنائه .

أما الاتجاه التجريبي فقد ظهر في صور عديدة : اتجاه طبيعى ، اتجاه فلكى ، شك ، نسبية ، مادية ، بوضهية ، وقد كان ذلك لما حازته علوم الطبيعة من تقدم خاصة على يد نيوتن واكتشافه لقانون الجاذبية . لقد نشأ الاتجاه التجريبي كرد فعل على الاتجاه وعلى نسيان العالم والقضاء على الأشياء ، ولكنه انقلب إلى التقيض ، وأصبح العالم فيه عالما ماديا ، وأصبحت التجربة الحية مجرد انطباعات حسية ، وأصبحت النفس ، على ما يقول لوك « مجرد صفحة بيضاء تنقش عليها الإحساسات ما تشاء . وقد ظهر هذا الانحدار في مسورة خلط نشأ في العلوم الإنسانية خاصة في علم النفس التجريبي بين التجربة الداخلية والتجربة الخارجية ، وهو ما يسمى

عن ثنائية العصر الحديث التي تكشف عن مأساته باسم الشعور باليأس الذي يميز عن الفهم بين الروح والمادة .

ولكن بالرغم من معارضتها معارضة مطلقة لكل اتجاه إلا أنها لم تستطع التخلص من رواسب الاتجاه التجريبي ، ولم تستطع تحويل الفلسفة الى علم محكم بل ظلت مجرد وعى الإنسانية بذاتها ، وتحقيق العقل لذاته ، وقد تم ذلك في جو اسقزوري شامري ، كان الفلاسفة فيه خائفين لشعر ولتصورات لا محلين لها ، أو أن المثالية المطلقة لم تستطع أن تتحول الى نظرية في العلم . لقد نسى هيجل منهج الايضاح ، لذلك ظل الجدل غامضا يختلط فيه كل شيء بكل شيء ، وارتبطت الفلسفة بالدين الى الأبد ، وأصبح الاعتقاد الديني هو المثل الأعلى للثقافة الفلسفي ، ولذلك انتهت الى الاغراق في الرومانسية سواء في مثالية الذات (فشته) ، أو في المثالية المطلقة (هيجل) ، أو في فلسفة الهوية (شلنج) .

٣ - نقطة النهاية في الشعور الأوربي - الكوجيتو الفينومينولوجي : لقد استعادت الفينومينولوجيا آخرها بتصورها للشعور على أنه قصد متبادل ضمن الخطتين المتفاعلتين العقل والتجربي نحو نقطة واحدة وأصبحت خطين ملتقين في الكوجيتو كما تصوره هوسرل على أنه وحدة لذات والووضوع ، والأنا والآخر ، والعقل والتجربة ، وبالتالي تحقق مشروع الحضارة الأوروبية في إقامة علم شامل وهو الفينومينولوجيا التي كان الجميع يبحثون عنها ويعلمون التعبير عنها في أشكال متعددة . لقد كان هذا المشروع هو الباعث الأول الذي يحرك الحضارة الأوروبية ، وهو المثالية الكلامية في تاريخها ولذلك كان الشعور الأوربي تقديمه بالطبع يسع نحو غاية وينمو نحو الكمال ، ويتسم بطابع البحث الدائب والمستعيت عن الحقيقة (حتى لقد قال لسينج : لو أعطيت لي الحقيقة في اليد اليمنى والبحث عن الحقيقة في اليد اليسرى لاخترت اليد اليسرى) . أصبحت الفينومينولوجيا هي « الفلسفة الأولى » التي كان يبحث عنها القدماء وكتب هوسرل بالعقل جزأين في سنة ١٩٢٤/٢٥ ، كما أصبحت مشروعة ليهنتز لإقامة رياضة شاملة ، لأن لقد انتهى دور الحضارة الأوروبية بعد أن وضعت آخر مولود لها ، ولم يعد لها أي دور إلا في تطبيق المنهج الفينومينولوجي في العلوم الأوروبية ، وتوجيه الدراسات الإنسانية نحو مخطات البحث الفينومينولوجي وهو ما حاول ثلاثة هوسرل المباشرون أو التالون له تطبيقه في علم النفس والمنطق والفلسفة والأخلاق والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجبال والقانون والدين .

لا تخرج الفينومينولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعاوات المعاصرة المشابهة التي تتناول البحث عن بعد إنساني خاص لعلوم الإنسان لا يتمثل في التصورات العقلية كما كان الحال عند العقليين ابتداء من ديكارت حتى آخر ممثل لهم ، وهو برنشايف Brunschvicg ، ولا يتمثل في التجارب المحسنة كما كان عند التجريبيين ابتداء من يكون حتى الوضعية بكل

صورها . لقد حاول برنسون مثل هوسرل شق طريق ثالث بين المثالية والواقعية ووجد في الشعور الداخل بالزمان الذي هو في نفس الوقت شعور بالزمن على هيئة ديومنة تكشف عن حرية الإنسان وعن إرادته الباطنة دون أي أساس عقلي ، كما حاول هونيه Lounier ، وماكس شيلر M. Scheler اكتشاف الإنسان الذي لا هو بالعقل الخالص ولا بالهش الخالص ولا بالإرادة المعياء فاكشفها مما بعد الشخصي وحلا ما إبداع الشخصية الإنسانية . كذلك رفض بلوندل M. Blondel موقف العقليين والتجريبيين مما محاولا التعرف على بعد إنساني خاص وجمده في اللعل الصاعد ينطلق من الفرد حتى يضم الإنسانية جمعاء ، وهو أيضا الطريق للكشف عن الله وظهوره من خلال الإنسان، والرجديون جيما ، من غير كجارد حتى سارتر ، يرفضون المناهج العقلية ويجعلون ذلك مقدمة أول لهم في التمييز بين المعرفة والوجود ورفض المعرفة والبدء بالوجود ، كما يرفضون الموضوعية العلمية ويؤكدون تعالي الذات أي تجاوزها للموضوعية ولدعا عنها ، أي أن مهمة الفكر المعاصر هي البحث عن طريق ثالث على مايقول شتراسر Graber في دراسته « الفينومينولوجيا والعلوم الإنسانية » بين المذهب العقل والمذهب التجريبي ، والشعور على نقطة التقاء بينهما أو على كوجيتو جديد يضم هذا الفهم المتحور ، وتكتفي هذه المسألة التي مزقت الشعور الأوربي والتي كانت سبب أزمة الكبرى في العصر الحاضر ، وهي عدم القدرة على التعرف على نوعية الظاهرة الإنسانية ، واستقلالها عن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على السواء . فالإنسان ليس صورة عقلية وليس مادة تجريبية ولكنه تجربة حية ، ومن ثم كانت الفينومينولوجيا دعوة للعناية التي لا يمكن رفضها في نطاق العقل أو في نطاق المادة . لقد اعتبر هوسرل نفسه نبي العصر مشلما كان سقراط وأوغسطين من قبل وديكارت من بعد ينه الحضارة الأوروبية الى الخطر المحقق بها والذي سيؤدي بها الى الهلاك ، وذلك لأن أزمة العلوم الإنسانية الخطر يكتمل بها لتصور إذ أنها تفتن عن أزمة الإنسانية الأوروبية نفسها أو أزمة الوجودان الأوروبي الذي فقد عالم الحياة ، هذه الأزمة التي يعبر عنا هوسرل بعديد من اللاتال مثل : فقدان ، خسارة ، قلب ، الهيبسار ، سقوط ، فحسم ، خلط ، استبدال ، خيق ، ضياع ، فقر ، نسيان ، سوء فهم ، كسر .. الخ . إلى آخر ما عبر عنه الوجوديون على طريقتهم في تحليل الوجود الفردي من هم وحصر وضيق واختناق وسقوط وفهم . وبالتالي تكون الفينومينولوجيا بهذا المعنى دعوة مثالية من نوع جديد ، مثالية الشعور ، أو تيسار دوحيا إشرافيا من نوع تقليدي مثل سقراط وأوغسطين ، أو أن ششنا أزمة صوفية يسهل على أي اتجاه اجتماعي عمل - كلامركسية - رفضها . فهي وإن كانت جاءت كرد فعل لأخطاء علمية في العلوم الإنسانية التي تبنت العلوم الطبيعية أو العلوم الرياضية كتمودج لها ، إلا أنها لم تكن في نهاية الأمر سوى استخفاف لعالم الشعور .

حسن علفي

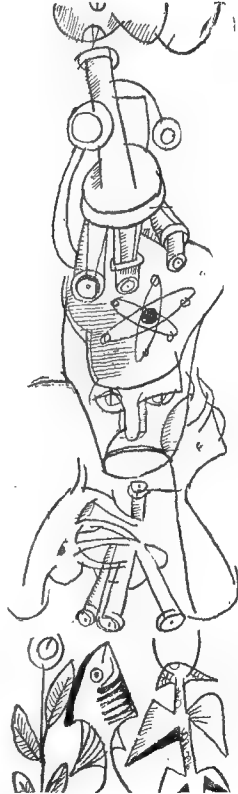
الجدل

نظر

والعلوم الإنسانية

إمام عبدالفتاح امام

لن تجد بين الفلاسفة الذين استخدموا كلمة
« الجدل » - أو الذين يوصفون عادة بأنهم
جدليون - اتفاقاً عاماً حول المعنى الدقيق الذي
استخدموا فيه هذه الكلمة * وربما كان في استطاعتنا
أن نقول - مع سيدنى هوك - أن فئة قليلة من
الفلاسفة هم الذين استخدموا هذا المصطلح بنفس
المعنى الذي استخدمه فيه أسلافهم : « بل إنه لمن
النادر أن تجد فيلسوفاً يستخدم هذا المصطلح
باتساق ، وبمعنى واحد ، في جميع مؤلفاته »
(انظر مقال هوك عن « الجدل في المجتمع والتاريخ »
في كتاب « قراءات في فلسفة العلم » ص ٧٠١
وما بعدها ... وقد قام بنشره هـ فايجل وماي بروديك
- نيويورك عام ١٩٥٣) *



ولقد أحصى « لالاند » في قاموسه عشرة معان مختلفة لهذا المصطلح عند كبار الفلاسفة وحدهم ، ثم أضاف : « ان هذه الكلمة تقلبت عليها معان تختلف فيما بينها أتم الاختلاف ، حتى أنك لا تستطيع أن تستخدمها استخداما مجديا اللهم الا اذا حدثت على وجه الدقة المعنى الذى سوف تستخدمها فيه » . (المجمع الفنى والفلسفى - المجلد الاول ص ١٦١ وما بعدها طبعة ١٩٢٦ باريس) . ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الباحثين يشبهون التحولات الكثيرة التى طرأت على كلمة « الفلسفة » ذاتها - وفى أن بعضهم الآخر يئاس - فى نفور شديد - من تحديد معنى لها ، ويتهون الى رفضها رفضا قاطعا بوصفها لا تعبر - فى نظرهم - الا عن طريق ملتوية ومصطنعة ، وافكار تخلو تماما من كل مضمون .

والحق أن « كلمة الجدل » استخدمت لتصف ألوانا مختلفة من التصورات والافكار والأنشطة والمواقف المتباينة أشد ما يكون التباين . ومن هنا فإذا ما تساءلنا : ما الجدل ؟ كانت الإجابة مستحيلة - كما يقول هوك ، بغير دراسة للتاريخ الطويل الذى مرت به كلمة الجدل من أفلاطون حتى يومنا هذا : فالشيء الوحيد المؤكد هو أن أفلاطون ، وأرسطو ، وكانت ، وهيجل ، وماركس ، وكيركجور ، وبشار ٠٠ الخ الخ استخدموا جميعا كلمة الجدل ، وأنهم جميعا أيضا - استخدموها بمعان مختلفة : وذلك هى القاعدة العامة التى تجدها فى كل حقبة من تاريخ الفلسفة . (هوك فى المرجع السابق) .

غير أن هذا الاختلاف الواسع بين الفلاسفة فى استخدامهم لهذا المصطلح يثير تساؤلا يفرض نفسه ، ولا يمكن للباحث أن يسقطه من حسابه والا بدأ بحثه ناقصا ميتورا - وهذا التساؤل هو : لماذا إذن استخدم هؤلاء الفلاسفة جميعا هذا المصطلح بالذات ؟ هل هناك سحر أو جاذبية هى التى تدفع الفيلسوف الى استخدام هذا المصطلح ؟ وإذا كان ذلك صحيحا فما سحر هذه الكلمة وجاذبيتها ؟ ومن ناحية أخرى ليس هذا الاستخدام المتعدد التنوع نفسه يعنى بالضرورة أن هناك خطا مشتركا بين هذه المعانى المختلفة ؟ وقد يقال فى معرض ذلك على هذه الأسئلة : ليس فى الأمر سحر ولا جاذبية ولا شيء من هذا القبيل على الإطلاق ، وكل ما فى الأمر أن الفلاسفة استخدموا هذا المصطلح « لغرضه » . فقد أتاح لهم هذا الغموض نفسه فرصة تأويل هذه الكلمة وإدخال معان جديدة لم

تكن لها من قبل ، وذلك لأن عدم توافر المعنى المحدد الواضح لمصطلح من المصطلحات يجعله نهيا لتأويلات شتى وتفسيرات متعددة ويتيح الفرصة لآضافة الكثير من المعانى الجديدة . لكن هذا الرد فى الواقع غير مقنع لأننا سوف نعود الى التساؤل من جديد : ألا يتأثر المصطلح - أى مصطلح - كثيرا أو قليلا بالمعنى التى تعاقبت عليه طوال تاريخه ، بحيث يكون له فى النهاية - رغم البصمات الكثيرة التى تركت آثارها عليه - علاقة مشتركة بجميع هذه المعانى ؟ أننا نستطيع أن نقول إن الجدل قد ارتبط طوال تاريخه بخاصيتين أساسيتين هما : **الوعى والحوار** بحيث لا يكون له معنى بدونهما (ومن هنا كان الربط بين المادة والجدل يعنى بالضرورة أن ننسب للمادة لونا من ألوان الوعى ، وهما خاصيتان يمكن ادماجهما فى خاصية واحدة هى ديناميكية الفكر وفاعليته بصفة عامة على نحو ما سنعرف بعد قليل - ومن ناحية أخرى : لماذا نرد هذه الاستخدامات المتعددة للجدل الى « غموض » المصطلح ولا نردها لحسوبيته ؟ ان الفكرة الخصبة قد لا تكون « حقيقة نهائية » لكنها مع ذلك قد تكون أهم مئات المرات لسير الفكر وتطوره من الأفكار « الحقيقية » . خذ مثلا جنود الحرب « تجد أنه حقائق لا شك فيها لكنه مع ذلك جاد ميت » فما الذى يمكن أن يؤدى اليه فى المستقبل؟ لا شيء على الإطلاق ! أما الفكرة الأولى التى قام عليها نسق الرياضيات عند اقليدس فهى - لأنها ليست حقيقة نهائية - فقد أدت الى ظهور أفكار أخرى تعارضها قامت عليها ألوان جديدة من النسق الرياضية (عند جاوس ، ولوباتشنسكى وريمان ٠٠ الخ) . وباختصار **الفكرة الخصبة** هى تلك التى تؤدى الى فكرة أخرى مؤيدة للأولى أو معارضة لها (وهى فى أغلب الأحيان تكون حقيقة نهائية فحسوبيتها لا تعنى أنها « حقيقة معارضة » بل تعنى أنها توشى بفكار أخرى كما يقول « جون ديوى » وهو نفسه أحد الفلاسفة الذين تأثروا بشكل مباشر بالجدل الهيجل - ذلك لأن الشيء - كما يقول براشلى بحق - يستحيل عليه الحركة إذا اكتملت حقيقته ، فإذا ما أصبح حقيقة نهائية مكتملة كان فى ذلك موته وفناءه لكن ألا تعنى هذه النتيجة التى انتهينا اليها أن الفكرة الخصبة هى باختصار شديدة **الفكرة الجدلية** ، أو هى الفكرة التى تحمل فى جوفها أفكارا أخرى تعارضها ، أو هى الفكرة التى تجعل سبلها فى داخلها كما يقول هيجل ؟

الألماني هيغل قد جمع في فهمه للجدل هذين التصورين مما - وهيغل يمثل قمة الفلسفة والحلاصة التي وصل إليها الفكر البشري حتى عصره - فالجدل عنده هو من ناحية تغير يسرى في قلب العالم المادى والروحي على السواء ، وهو من ناحية أخرى المنهج الدقيق للمعرفة - يقول في « موسوعة العلوم الفلسفية » : الجدل هو بصفة عامة مبدأ كل حركة وكل ما يتم في العالم، وهو كذلك روح كل معرفة علمية حقة ، (فقرة ٨١ اضافة)

الجدل •• والعلوم الانسانية

● نصل الآن الى السؤال الثاني : هل يمكن ان تكون هناك علاقة بين الجدل والعلوم الانسانية ؟ وبأى معنى من المعنيين السابقين يمكن استخدام الجدل في العلوم الانسانية •• ؟ الواقع انه يمكن ان نعتز على المعنيين معا في ميدان هذه العلوم ، اذ يمكن ان يقال من ناحية ان الافكار التي تعالجها العلوم الانسانية قد يساعد في حل المشكلة الزمنية التي تعاني منها هذه العلوم واعنى بها مشكلة المنهج • لكن ذلك يحتاج الى شيء من التفصيل :-

لا بد ان نقول بادىء ذي بدء اننا نعنى بالافكار 'الجدلية' تلك الافكار التي ترتبط - رغم تعارضها - ارتباطا وثيقا بحيث تعتمد كل فكرة على الاخرى ولا يكون لها معنى بدونها ، فليس المهم هنا هو ارتباط الافكار فحسب ، لكن الأهم من ذلك ارتباطها بالتضاد • فكيف يمكن ان توجد مثل هذه الافكار في العلوم الانسانية •• ؟ الحق اننا لو امعنا النظر في علم من العلوم الانسانية لوجدنا ان انتشار مثل هذه الافكار لا يحتاج الى دليل : خذ - مثلا - علم الاجتماع تجد ان الاقطار الاساسية فيه تعتمد على تضاداتها : مفهوم المجتمع نفسه يعنى انه يتكون من الفرد من الجانب واما بينهما من مصالح متعارضة ، وهو يسعى الى حل هذه التعارض عن طريق سن مجموعة من القوانين ، لكن القانون نفسه يعتمد اساسا على القوة ، والبناء - في أى مجتمع - يعتمد بالضرورة على الهدم ويرتبط به ، والنظام يعتمد على الضغط أو القهر ، والتنظيم الاجتماعى يسبقه الصراع ويرتبط به ، واقامة أى نظام اجتماعى يعتمد اساسا على قمح الآخرين •• الخ (انظر

ولا نود في هذا المقال ان ندخل في تفريعات طويلة حول مناقشة العقل الجدل ، او تحديد الماهية الدقيقة للجدل •• الخ - فليس هنا مجال مثل هذه المناقشات - لكننا نود ان نعرض في ايجاز لسؤالين هامين : الأول : هل يمكن ان تصنف الماهية المختلفة لكلمة الجدل في خطوط تغطي الاستخدامات المختلفة لهذه الكلمات •• ؟ والثاني : هل يمكن ان تكون هناك علاقة بين هذه الخطوط العريضة للجدل وبين العلوم الانسانية ؟

تصوران للجدل ••

يمكن ان نتدرج الماهية المختلفة التي استخدمت فيها كلمة الجدل في تصورين اساسيين هما (١) تصور الجدل على انه نمط من التغير يحدث في الوجود بصفة عامة سواء اكان المقصود بالوجود هنا : الطبيعة ، ام الانسان ، ام المجتمع ، ام هذه الجالات جميعا • (٢) - التصور الثاني وهو التصور الذى يجعل الجدل منهجا خاصا لتحليل مثل هذا التغير ، وكثيرا ما يقال ان هذا المنهج ، أى منهج التحليل الجدل - يقابل بمعنى ما من الماهية التغير الجدل الذى يسرى في الوجود ، على انه يجب ان تكون على وعى بان التغير المقصود هنا ليس مجرد نقلة في المكان كما كان يقول ارسطو قديما لكنه انتقال - من وضع الى تقيضه ومن حالة الى ضدّها •

وحين يوجد التصور الاول بين الجدل والتغير ويعتبرهما شيئا واحدا فانه بذلك يعارض بعض الافكار الاخرى عن الطبيعة او عما فوق الطبيعة ، التي ينظر اليها على انها ليست جدلية : كالصورة او المثال ، او النمط الذى لا يتغير •• الخ • وقل مثل ذلك في تصور الجدل على انه منهج مسوواء أخذ على انه منهج للتحليل أو الكشف أولهما معا - فهو دائما يتعارض مع بعض المناهج الاخرى التي يقال انها ليست جدلية كالمناهج الميتافيزيقى والمنهج الحسى المشترك •• الخ •

وهذه الفكرة الأخيرة لها أهمية بالغة لأن التبرير الذى يقدم عادة لاستخدام المنهج الجدل يعتمد قوته على انه يؤدي بنا الى الكشف عن حقائق جديدة ، او الى فهم أعقق لوقائع موجودة ، وتفسير أكثر كفاية للحقائق القديمة - لا تيسر لنا مع أى منهج آخر •

ولعله من المصادفات الغريبة أن نجد الفيلسوف

بين العواطف المختلفة فحسب ، بل هو قائم في طبقات العاطفة الواحدة نفسها ، لكل عاطفة منهما كانت ساهية تحمل في ثناياها بذور العاطفة المناقضة لها • فالشفقة تكون دائما ممزوجة بشيء من القسوة ، والتعذيب شيء من العطف ، والحب شيء من البغضاء ، وعناصر البغضاء تظهر حينما وتختفي حينما آخر ، وهي تعمل أحيانا عملا دفيناً دون أن يشعر بها الشخص ، وقد تكون عناصر البغضاء من دواعي تقوية الحب وتدعيمه » (مبادئ علم النفس العام ص ١٤٧ - ١٤٨ الطبعة الثانية عام ١٩٥٤) ولكن قد يقال في معرض الاعتراض : أن هذا النص من قيمته التي لا تنكر لا ينسحب الا على حالة واحدة من حالاتنا النفسية هي العاطفة ، وليست العاطفة هي كل ما يدرسه علم النفس ، ونحن نجيب بدورنا : لقد سبق أن ذكرنا أمثلة من علم النفس لحالات أخرى ، وفضلا عن ذلك فإن للعاطفة مكانة خاصة في الحياة النفسية حتى أنه ليقال أحيانا ان شخصية الفرد أسسها تتحدد وفقا للعاطفة المسيطرة ، ومن هنا فنحن لانملك ردا على هذا الاعتراض - فضلا عما ذكرنا - ابلغ من أن نسوق النص الآتي من الكتاب نفسه : « الاتجاه الذي يتخذه تفكيرنا ، والصيغة التي تصطبغ بها تأويلاتنا ، والكيفيات التي تشتمل حركاتنا وأوضاعنا ترجع في نهاية الامر الى العاطفة السائدة المسيطرة • ولا شك ان الفيلسوف او

العالم نفسه يستمد من العاطفة أسباب تنشيط تاملاته وإطرادها إذ أن الاهتمام الذي تشيره الافكار لا يكون قويا الا بمقدار تأثيرها في الوجدان وللحالات الوجدانية تأثير بالغ في عمليات التذكر •• أما تأثير العواطف في الاعتقاد ، فلا يقلل جلاء وشدته عن تأثيرها في تداعي الأفكار واستيعابها •• (ص ١٤٩) وينتهي الدكتور يوسف مراد من هذا كله الى هذه النتيجة : « خلاصة القول أن الصراع دائم الاستخدام بين العواطف نفسها من ناحية ، وبين العواطف والعقل من ناحية أخرى » (ص ١٥٠) • والازمات النفسية هي الحالات التي يخضع فيها الانسان لتجاذب قوى بين دوافع متعارضة ، ويصعب على الانسان عرضة للاضطرابات النفسية والجسمية ان لم يوفق الى حل الأزمة بطريقة سريعة مرضية ، حقيقة كانت او وهمية • (نفس المرجع السابق ص ١٥١) ،

في لك : الفهم الفلسفي والعقيدة الدينية • لاريك فرانك ص ١٤) ويقدم لنا هيجل أمثلة أخرى على هذه الاقطار الجدلية فيقول : « انه يكفي أن نتذكر كيف تبرهن لنا التجربة العامة على أن الحد الأقصى لحالة من الحالات أو لفعل من الافعال ينقلب فجأة الى عكسه ، وهذا اللون من الجدل وجد بطرق شتى في كثير من الامثال ، فهناك مثل يقول « العدل المطلق ظلم مطلق » وهو يعني أنك اذا طبقت حقاً من الحقوق المجردة الى هذه الاقصى فانك ترتكب عملاً خاطئاً • ونحن جميعاً نعرف أن الحد الأقصى للفوضى في الحياة السياسية ، والحد الأقصى للاستبداد يؤدي عادة كل منهما الى الآخر » (موسوعة - فقرة ٨١ اضافة) • وإذا ما انتقلنا من الحياة الاجتماعية الى الحياة النفسية وجدنا علم النفس يقدم لنا أمثلة لا حصر لها عن هذه الأفكار الجدلية • فهو كثيرا ما يتحدث عن الشروط الداخلية والشروط الخارجية للسلوك الواحد ومدى ارتباطها ، وعن عمليتي البناء والهدم ، وعن الذة والالم وكيف أنهما « يجتمعان معا كما في حالة التسالم من ضرس مريض • فإذا ضغطنا على الضرس بحيث يصبح الالم حادا نشعر في نفس الوقت بلذة قوية يصحبها انفراج في الصدر وسهولة في الحركات النفسية » •

الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ص ٧٦ من الطبعة الثانية • •

ولقد أشار هيجل الى هذا المعنى حين قال : « ان الدرجات القصوى للالم والفرح ينقلب احدهما الى الأخرى فالقلب المنعم بالفرح يعبر عن فرحة بالدموع ، وغالبا ما يعبر الحزن العميق عن نفسه بإبتسامة (الموسوعة - فقرة ٨١ اضافة) • ويسوق لنا الدكتور يوسف مراد مثلاً رائعا في كتابه السالف الذكر فيقول : « العاطفة لا تنشأ منفردة معزولة بل تكون دائما محاطة بمواكب من العواطف الأخرى ، بعضها مؤيد لها وبعضها الآخر مناهض لها • وتضطم العاطفة بشئ العنيت التي يخلقه العقل حينما والتي تشرها الأوضاع الاجتماعية حينما آخر ، فالعاطفة منطق خاص يخالف منطق العقل فيقرر لنا منطق العقل ان الضدين لا يجتمعان ، ولكن هذا القانون لا ينطبق بناتا على العاطفة ، فإن قانون العاطفة الاساسي هو : قانون اجتماع الضدين • وقد اقامت مدرسة التحليل النفسي الدليل على صحة هذا القانون ويطلق عليه ••

نتقادي استعمال الالفاظ الجدلية كما هي الحال مثلا حين تعرض للتناقض بين الانظمة الدينية التي تستند الى استقلال الكنيسة والفكرة الاسقفية . فلا بد لنا من أن نسلّم بأن العلاقة بين فكرة « كهنوتية » جاءت عن طريق الوراثة من الرسل وفكرة « كهنوتية » لا تقوم على هذا الاساس علاقة جدلية ونجد استنادا الى وجهة النظر هذه ان المدنية الاغريقية هي تحقيق للفكرة الاغريقية عن الانسان ، وأن المدنية الرومانية هي تحقيق للفكرة الرومانية عن الانسان ، وت العلاقة بين هاتين الفكرتين علاقة جدلية . الخ الخ » (فكرة التاريخ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من الترجمة العربية)

المنهج الجدلي . . والعلوم الانسانية

سبق أن ذكرنا في تحليلنا لفكرة الجدلي بصفة عامة أن هناك تصورا يجعل الجدلي منهجا خاصا لتحليل التغير ، وأنه يقال أحيانا أن هذا المنهج يتفق مع التغير الجدلي الذي يسرى في الوجود ، ولعل أوضح مثال على ذلك هو التحليل الماركسي لتطور المجتمع ، فها هنا نجد أن التغير الجدلي الذي يخضع المجتمع في سيرة يتفق تماما مع التحليل الجدلي لهذا السير ، أعني أن القوانين التي يخضع لها تطور المجتمع البشري (وحدة الاضداد ، ونفي النفي ، وتغير الكلي الى كيف) هي نفسها قوانين المنهج الجدلي عندهم ، ومن هنا كان فهم التطور الاجتماعي لا يعني أكثر من الكشف عن هذه القوانين التي تحكم هذا التطور حين ينتقل المجتمع من مرحلة الى أخرى : ففي استطاعتنا أن نرى التناقض كامن في أقدم أشكال النظم الاجتماعية وهو نظام المشايبة البدائية ، فهو موجود بين مصالح الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة ، ثم هو موجود بين القبيلة والقبائل المعادية لها ، وهو موجود أخيرا بين المجتمع القبلي بصفة عامة وقوى الطبيعة المعاكسة . كما أن الملكية خضعت لسلسلة طويلة من نفي النفي فقد بدأت بالملكية العامة ، غير أن هذه الملكية العامة التي كانت شائعة في العصور البدائية أصبحت في المراحل العليا من التطور الزراعي عائقا للإنتاج ولهذا الغيت أو سلبت ، وتحولت بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من الحلقات الوسطى الى ملكية خاصة حين مارس الانسان الزراعة . واستقرت القبائل الرحل واقتسم أفرادها الأرض ، وهكذا عرف الانسان التملك ، ونشبت فيه الرغبة

واذا ما انتقلنا من الحياة النفسية الى الحياة الاخلاقية وجدنا : « أن العقل الاخلاقي يتطلب من الفرد أن يقهر أنانيته ويحيا للخير العام » ، وأن يتخلى عن فرديته في سبيل الصالح العام ، لكن هذه المحاولات تجد حدودها في الطبيعة النظرية للارادة البشرية . فالفرد في محور وجوده الاساسي يقاوم مقاومة عنيدة متطلبات العقل ، انه يريد أن يكون كما هو ، ويرغب في التعبير عن فرديته الخاصة في حياته . وتلك هي اتساق ردود أفعاله . هي التي تجعل الصراع في الحياة العملية أمرا لا يمكن تجنبه » (اريك فرانك و الفهم الفلسفي والحقيقة الدينية ص ١٤ - اكسفورد ١٩٥٢) .

ويقول هيجل : « اننا نجد الجدلي في ميدان الاخلاق في تلك الاقوال المعروفة جيدا : « الغرور يسبق الانهيار » و « سرعان ما تقل السكن الحادة » و « المروء في الخداع والحيلة يخدع نفسه » ، (موسوعة فقرة ٨١ اضافة » . وهذه الأمثلة موجودة في اللغة العربية - العامة والفصحى على السواء » (اذا اشتد الكرب هان » و « أضيق الأمر أدناه الى الفرج » و « لا تهم الحيلة الا على الشاطر » و « الشيء اذا زاد عن حده قلب لفسده » الخ الخ) - لكن الامر لا يتوقف عند حدود مجموعة من الأمثلة هنا وهناك ، لكنه أهم من ذلك وأعم ، لما نريد ابرازه هنا هو أن الافكار الاخلاقية نفسها أفكار جدلية : فالفضيلة لا يكون لها معنى الا من حيث ارتباطها بالردلية ، والخير لا يفهم الا من خلال الشر ، والخطيئة لا تفهم الا من حيث ارتباطها بالله (ولقد كشف كيركجور النقاب عن الفكرة الأخيرة بطريقة لا تدع مجالاً للشك) والأمانة لا تفهم بمسزل عن السرقة ؟ وليس السلوك الاخلاقي سلوكا ايجابيا بينما السلوك الا اخلاقي مجرد سلب للسلوك الاول ، بل أن كلا منهما يمكن أن ينظر اليه على أنه ايجابى وسلبى في أن مما لأن كلا منهما فعل موجب : فالشخص الامين هو الذي لا يسرق والسارق هو غير الامين ، وما هو سلب من وجهة نظر الدائن ايجاب من وجهة نظر الدين ، والعكس صحيح أيضا ، وقد أوضح هيجل ذلك بطريقة رائعة .

أما عن ميدان « التاريخ » فيري « كولنجود » « اننا حين نحدث عن الاقطار الداخلية التي تنبثق منها الأحداث التاريخية ، فاننا لا نستطيع أن

خلقتها كالبطالة المزمنة ، والفقر ، والهوة التي تفصل بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال الخ . ومن هنا فهي لا بد أن تخلي مكانها لنظم تكفل العمالة والا من الاقتصادي للجميع أى لنظام يعتمد على الملكية الجماعية وتخطيط الانتاج لحير الجميع لا للربح الخاص .

هذا مثل من امثلة الالتقاء بين الشعورين السابقين للجدل ، لكنه يقدم لنا « نظرية » عن التطور الاجتماعى أكثر مما يقدم منهجا للبحث والدراسة . ومن هنا نعود الى التساؤل : هل يمكن أن يكون المنهج الجدلى - كمنهج للدراسة - دور فى مجال العلوم الانسانية ؟ • الاجابة : تتحدد وفقا لنظراتنا لموضوع هذه العلوم أعنى : الانسان . فاذا اعتبرناه جزءا من الطبيعة كان معنى ذلك أنه يخضع لحتمية صارمة - تشبسه حتمية الظواهر الطبيعية - لا يكشف عن قوانينها الا استخدام المنهج التجريبي . أما اذا كان يتميز بعنصر فريد لا نظيره فى ظواهر الطبيعة كان المنهج التجريبي وحده غير كاف لدراسته • أى أن المشكلة هنا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند هذا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند الانسان، ولهذا فان الطبيعيين يستبعدون أى منهج آخر غير المنهج التجريبي فى مجال العلوم الانسانية ، بل ويذهبون الى القول بأنه اما أن يخضع الانسان لحتمية صارمة واما أن يكون حرا فيطرد فى نفس الوقت . من حظيرة العلم • غير أن الفهم الحقيقي لمشكلة الحتمية والحرية هذه ينبغى أن يكون فهما جدليا فى صميمه ، ذلك لأن تحليل وقائع السلوك البشرى تكشف لنا بصورة دائمة عن الاسباب والبواعث التي صدر عنها هذا السلوك ، لكن شعورا بالحرية من ناحية أخرى لا يمكن أن يكون أقل حقيقة من هذه الاسباب والبواعث • ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ان هذه الاسباب والبواعث مقدمات جوهرية - لكنها ليست ضرورية - للفعل وهي لا تصبح ضرورية الا بعد حدوثه • ومن هنا كان الجانبان ضروريان لفهم الانسان ، بل أن كل جانب منهما ضرورى لفهم الجانب الآخر • والواقع أنه يستحيل على أن امارس حرتى بدون حتمية وذلك لأننى لا أستطيع أن أسلك الى الغاية التي حددتها لنفسى الا بفضل معرفتى السابقة بالقوانين الخارجية والقوانين الداخلية التي تسيطر على حياتى الباطنية .

فى توسيع رقعة الارض التي يملكها • ولكن حين تطورت الزراعة من جسد يد الى مرحلة أعلى ، أصبحت الملكية الخاصة عائقا وظهرت الحاجة الى الغائيا أو سلبها وكان لا بد من أن تصود الملكية العامة من جديد لا فى صورتها القديمة بل فى اطار آخر جديد بحيث لا تصبح عائقا للانتاج أو انما متحررة من جميع القيود بحيث تتمكن من استغلال المكتشفات الحديثة (راجع كتابنا عن : المنهج الجدلى عند هيجل ص ٢٠ - ٤ - دار المعارف) ومن المهم أن نلاحظ هنا أن النفي لا يعنى الغناء ولكنه يعنى السلب والمحافظة فى أن معا فالعناصر الجوهرية فى الظواهر القديمة لا تفتى ، وانما يحتفظ بها فى صورة جديدة فى مراحل التطور الأعلى ، فالانسان البدائى - مثلا - فى المرحلة الاولى من التطور الاجتماعى صنع لنفسه أدوات مصنوعة من الحجارة ، فلما تطور المجتمع أقيمت هذه الأدوات وحل محلها أدوات معدنية فكانت الثانية سلبا للاولى ، لكنها مع ذلك احتفظت بالعنصر الاساسى فى الأدوات القديمة كقدرتها على القطع وشكلها - كما هى الحال فى الفاس الحجرية والفاس الحديدية ، وما يقال على المجتمع القديم يقال أيضا على المجتمع الحديث فصناعة الآلات كانت تقدما هائلا فى تطور أدوات الانتاج ، قالة النسيج - مثلا - كانت نفيا للنول اليدوى الا أنه نفى جدلى ، بمعنى انها حافظت على مبدأ العمل فى النول اليدوى القديم ، وهذا ما يحدث فى التقدم التكنولوجى بصفة عامة : فالتصميمات الجديدة للآلات هى نفى للآلات القديمة مع المحافظة على ما هو قيم فى التجربة الانتاجية السابقة • وهذا هو الطابع العام للتطور الاجتماعى ، فهو لا يسير فى خط مستقيم ولكن فى خط « لولبى » ان صبح التعبير فكل مرحلة يبدو أنها تعود الى الوراء لكنها فى الحقيقة تصعد الى أعلى حاملة معها العناصر الاساسية فى المرحلة السابقة وكل مرحلة من المراحل الذي يسير فيها التطور الاجتماعى تبرز تناقضاتها خاصة ، أو مشاكلها التي لا تستطيع حلها فتتآكدهم بحيث يصبح انتقالها الى مرحلة أعلى امرا لا مندوحة عنه • وهكذا تطور المجتمع البشرى من المجتمع القبلى الى مجتمع الرق فى عهد الرومان ، ومن مجتمع الرق الى النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى الذي كان يقوم على رقيق الأرض ، ثم تطور اقطاع العصور الوسطى الى الرأسمالية الحديثة التي وصلت فى طورها الى نقطة لم تعد فيها قادرة على حل المشكلات التي

المنهج الجدل كما يعرفه هيجل هو المنهج الذي يجمع بين منهج الاستقراء التجريبي وبين منهج الاستنباط العقل ، لكنه ليس مجرد جمع أجوف بينهما ، وإنما هو نفسه مركب جدلي منهما . فقد عرض هيجل لتصنيف المناهج التي يعتقد أن الناس لديهم عنها فكرة خاطئة : « فقد اعتاد الناس أن ينظروا الى المنهج التجريبي (وهو يسميه أيضا بالمنهج التحليلي) وكذلك الى المنهج الاستنباطي (وهو يسميه بالمنهج التاليفي) على أنها يعتمدان اعتمادا تاما على رغباتهم الخاصة ، وأن اختيار أحدهما دون الآخر أمر يتوقف أساسا على ميولهم ، ولكن ذلك وهم خاطئ : لأن اختيار أحدهما دون الآخر وسيلة للبحث يعتمد أساسا على موضوعات البحث نفسها . فهي وحدها التي تحدد المنهج الذي تسير عليه . ومن هنا فقد وقع علم النفس التجريبي في خطأ كامل حين قام بتحليل السلوك البشري ورده الى مظاهره المختلفة ، ثم أبقى على هذه المظاهر معزولة بعضها عن بعض . ومن هنا بدا الموضوع الذي يدرسه علم النفس ويخضعه للتحليل كما لو كان نوعا من البصل تنزع قشرته



واحدة بعد الأخرى » (الموسوعة - فقرة ٢٢٧ اضافة) . ومع ذلك فإن هيجل يرى أن هذين المنهجين لازمان وقد حققا نجاحا في مجاليهما إلا أنهما لا يصلحان لدراسة الإنسان ، والمنهج الصحيح عنده هو المنهج الجدلي ، وهو منهج تحليلي وتاليفي . في آن معا (أى أنه منهج استقرائي وعقل في آن واحد) ، ويضيف هيجل : أن ذلك لا يعنى أن هذا المنهج هو مجرد جمع لهذين المنهجين المتناهيين ، وإنما هو يمزج بينهما ويدمجهما في ذاته ، بحيث تروى التحليل والتأليف في كل خطوة من خطوات سيره » (موسوعة فقرة ٢٣٨ اضافة) - فهو حين يتقدم من الكل المجرد عن طريق التخصيص شيئا قسما الى المعنى فهو تاليفي ، وهو لأنه يبدأ من المباشر ويتقدم من خلال المتوسط الى الكل الذي يحوى المباشر السابق في جوفه فهو لذلك تحليل . وبعبارة أخرى : المنهج الجدلي منهج تحليلي حين يعتمد على تحليل الظاهرة الموجودة أمامه ويصعد منها الى الفكر (خطوة الاستقراء) وهو منهج تاليفي حين يهبط من الفكر المجرد الى الواقع العيني (خطوة الاستنباط العقل) فهو حوار دائم بين الفكر المجرد والعينية الشخصية وهو تعبير صادق عما بينهما من صراع دائم . والمنهج الجدلي بهذا الشكل يقدم لنا لونا جديدا . من الحوار هو الحوار القائم بين ما هو عيني وماهو

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول بصفة عامة انه من المستحيل أن نجد ماهية الإنسان الحقيقية في المادة وحدها (أو في الجانب الطبيعي الذي يخضع للحتمية) ، ولا في الفكر وحده (أو في الجانب الداخلي الحر) : ولكن الواقعة الأساسية التي ينبغي أن يبدأ منها كل فهم حقيقي للإنسان هي أن الإنسان ليس فكرا فحسب ، ولا هو طبيعة فقط لكنه : الصراع الجدلي بين هذين الجانبين ، (اريك فرانك في المراجع السابق ص ٨) . وهنا نجد المنهج الجدلي يطل برأسه في ميدان العلوم الإنسانية : فهل يجوز استخدام مثل هذا المنهج في ميدان هذه العلوم ؟ وهل يمكن أن يساهم في حل مشكلة المنهج التي تمانى منها هذه العلوى ؟ . اننا اذا ما صدقنا ما يذهب إليه هيجل من ان الموضوع - لا الباحث - هو الذي يحدد المنهج الذي يسير عليه البحث ، وإذا كان الموضوع - وهو الإنسان - عبارة عن صراع جدلي بين هذين الجانبين ، أو هو المتناقضة التي لا يمكن حلها بين هذين الجانبين كما يقول فرانك في كتابه السالف - فهل يكو المنهج الجدلي أقرب المناهج الى هذا الموضوع ؟ . لكن ما المقصود بالمنهج الجدلي هنا ، وكيف يمكن الاستفادة منه في مجال العلوم الإنسانية ؟ .



الاستنباط العقلي الذي يضيف الى نتائج المناهج التجريبية الخبرات الذاتية الفردية ، وخبرات القرون الماضية كلها ؟ وسوف نترك « كولجورد » يحجب عن هذا السؤال بتقديم مثال لامكان استخدام هذا المنهج في علم من العلوم الانسانية - وهو التاريخ - يقول : « ان الخطأ الاساسي الذي وقع فيه « فشته » في دراسته للتاريخ هو اعتقاده ان التساير يمكن ان يكتب استنادا الى استدلال عقلي بحت ، دون الاعتماد على البرهنة التجريبية » ونجد من ناحية اخرى ان الذين تعرضوا لنقد هيغل ظالما وقعوا في الخطأ المضاد لهذا ، وهو اعتقادهم بان المعرفة التاريخية تعتمد على المنهج التجريبي البحت وتقدم استطاع هيغل نفسه (تطبيق المنهج الجدلي) ان يتفادى هذين الخطأين معا * * * (فكرة التاريخ ص ٢١٧ من الترجمة العربية)

مجرد ، ثم هو من ناحية اخرى يعارض الفكرة القديمة التي كانت تذهب الى ان الفكر حين يدرك الموضوع في عينيته وأنه لا يلبث ان يصوغ منه فكرة كلية مجردة تسقط الجزئيات ، ولا تبقى الا الا على خصائصه الكلية الاساسية وحدها * فيها نحن اولاء نرى ان تهم الانسان في عينيته فهما خالصا ليس الا وهما ، وثقل مثل ذلك في التصور المجرد تجريدا كليا على حد سواء ، فالمنهج الجدلي يكشف لنا عن القول بان هناك تصورات مجردة تجريدا كليا عن الانسان بحيث لا تستدعي أي وقائع عينيه هو قول خاطيء تماما بل انه ليخلو تماما من المعنى ، ذلك لان هذه الوقائع العينية الضرورية لكل تفكير ليست موضوعا من موضوعات الفكر ، ولكن لا بد لكل تفكير ان يستند اليها في سبيل تجاوزها والارتفاع نحو الكليات المجردة صحيح ان الفكر في نظر الجدليين يبدع المجردات باستمرار ، لكنه لا يتخذ منها بعد صياغتها مستقرا دائما وثابتا له ، وانما يعود القهقري ويبحث عن تحقق عيني جديد يقوم مقامها ، ومن هنا كانت ماهية الفكر الجدلي الحركة المستمرة من الاشياء المجردة ، او المعاني العامة الى المعنى ، ومن المعنى الى المجرد *

ويدهي بعد هذا الذي تقدم ان نلتقي بهذا السؤال : هل هناك خطوات محددة يقدمها المنهج الجدلي بحيث يستطيع العالم ان يسير على هديها في دراسته لموضوع بحثه ؟ * ونجيب : أولا : ان هذا المنهج ليس منهجا علميا لكنه منهج فلسفي ، وثانيا : لا يمكن ان توضع خطوات ثابتة ومحددة لهذا المنهج ولا لتحول هو نفسه الى منهج ميتافيزيقي احادي الجانب ، ذلك لانه من صميم الجدلي ان يظل مفتوحا وان يتضمن الفاء الخطوات التي يضعها طوال سيره : فاذا ما وضعت خطوات في مرحلة معينة ، فلا بد ان تكون هي نفسها في مرحلة تالية موضوعا تنفيه خبرة جديدة * وهكذا بحيث لا يبقى لدينا في النهاية سوى الحركة الجدلية نفسها لان الجدلي هو في جوهره - كما قال هيغل - حركة وعلى ذلك فلا الخطوات التي وضعها هيغل في منهجه الجدلي ، ولا « اللواتين » التي اقتبسها الماركسيون من هذا المنهج وأطلقوا عليها اسم « الجدلي الماركسي » يمكن ان تعتبر خطوات منهجية محددة للدراسة والبحث - ولسنا نقصد باستخدام المنهج الجدلي في العلوم الانسانية هذا المعنى : لكن المقصود هو استخدام الحركة الجدلية (او الفهم الجدلي ، او الروح الجدلية) التي تستفيد من المنهج والمنهج العقلي في آن معا - في فهم الانشطة البشرية المعقدة * ولكي نوضح الفكرة التي نعنيها هنا نقول : انني اذل ما اخضعت الانسان للملاحظة والتجربة فاني بذلك أفهمه فهما علميا ، واذا ما درست الانسان دراسة عقلية قبلية أعني بعيدة عن كل تجربة ، فانا بذلك

وقد يجوز لنا الآن ان نتساءل : هل يمكن استخدام مثل هذا المنهج في ميدان العلوم الانسانية يعني ان تستخدم هذه العلوم المنهج التجريبي في كل مجال يتيسر لها فيه استخدامه ، ثم ان تكون على وعي في نفس الوقت بان الامر لم ينته عند هذا الحد وانما هناك خطوى اخرى هي الخطوة التأليفية بلغة هيغل - تستخدم فيها



أنفهم فهمًا ميثافيزيقيا ، لكنني حين أدرس الإنسان كصراع بين جانبيين (الطبيعي والعقل) من ناحية واضعًا في اعتباري نتائج الدراساتين السابقتين من ناحية أخرى - فأنني بذلك نفهمه فهمًا جدليًا (ومن هنا كان الجدل العلمي المعاصر حوارًا بين ما هو قديم وما هو بعدي) • ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الخطوة الأخيرة - بالغًا ما بلغت النتائج التي أصل إليها عن طريقها - لن تكون هي نهاية المطاف ، بل سوف تنفيها الدراسات العلمية والفلسفية المقبلة ، ومنها ما - من الخطوة القديمة والدراسات الجديدة - يتكون مركب جدلي جديد تنفيه دراسات المستقبل •• وهكذا باستمرار •

الذي يطرح انصاف الحقائق ويبين لنا بالتالي مدى القصور في الموقف الذي اتخذه كل من الطبيعيين واللاطبيين في فهمهم للإنسان • ففي مجال العلوم الانسانية فليس ثمة ذاتية خالصة ، ولا موضوعية مطلقة ، وإنما تتشكل الذات وفقًا للموضوع ، ويتشكل الموضوع وفقًا للذات ، فلا واحد منهما بمستقبل عن الآخر ، ولا هو واقعة تامة ومنتهية لكنهما مما يتشكلان نتيجة لتفاعلهما وهما لهذا ضرورة مستمرة ، وتطورهما مرتبط أيضًا بنمو المعرفة البشرية • ووضع أن السبب هو أن الذات والموضوع في مجال العلوم الانسانية هما شيء واحد هو : الإنسان ، وإذا كان الإنسان مشروعًا وإذا كان هذا المشروع لا يكتمل الا بفئاته ، برزت ضرورة الفهم الجدلي للإنسان ، ذلك الفهم الذي يتطور باستمرار في اتجاه حركته •

هذا يسرى على تطبيق المنهج الجدلي على كل معرفة لا على العلوم الانسانية بالذات •

ثانياً : سوف يرتبط على ذلك نتيجة هامة هي أن المعلومات والمعارف التي تجميعها العلوم الانسانية يجب ألا يفهم منها أنها تشكل صرحًا نهائيًا يقوم على أسس راسخة كما هي الحال في العلوم الطبيعية لكنه صرح يعاد انشاؤه دون انقطاع ، إنه بناء متجدد دائم التطور ، فليس ثمة حقائق موضوعية ونهائية لأن نظراتنا تتجدد الافكار في كل جيل

ثالثاً : - ان هذه النظرة تفتح لنا الطريق امام احتمالات المستقبل وما يحمله في طياته من وقائع جديدة • وحالات لم تعرف من قبل ، وبالتالي فإن النتائج التي وصلنا إليها الآن لا بد أن تتعدل في المستقبل • ومن هنا تتسع المجال أمام حرية

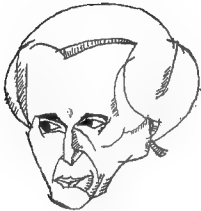
وما تجدر ملاحظته أن خطوة النفي أو السلب هذه سوف تفسح المجال أمام حرية الإرادة البشرية للظهور وممارسة نشاطها الحر ، وسوف تجعلنا باستمرار على استعداد لفهم هذا النشاط وتفسيره وسوف يكون التقدم على هذا الأساس هو تقدم في الوعي بوجود الحرية كما قال هيجل • وواضح أن الجدل بهذا المعنى ليس ألا تعبيرا عن دينامية الفكر الذي يتوخى بصورة دائمة الا يتوقف أبدا في تقدمه نحو فهم الإنسان فهما أكثر كفاية وهو بهذا المعنى يختلف عن الجدل القديم لأنه لا يهدف الى الدفاع عن نظرية من النظريات ، بل هو على العكس تهمة ارضي الحركة أكثر من الحركة ذاتها ، وهو يهتم بحركة السير أكثر من اهتمامه بعقد الممالك التي يغزوها ، وإذا كان جدل زينو الأيلى قد جاهد في هدم آراء الخصوم فإن الجدل هنا يتخطى عمله نفسه لا لكي يهدمه بل لكي يجعل هذا العمل أكثر غنى بالناصر الحقيقة المتضمنة في النظريات المعارضة ولكي يثرى هو ذاته ويتجرد من القيود التي فرضتها عليه معرفته الأولى • ومن هنا كانت نقطة فرضتها عليه معرفته الأولى • ومن هنا كانت نقطة انطلاقا باستمرار الدراسات الجديدة التي يجد فيها ما يصدهم ، لأنها تتناقض مع المعرفة التي حصلها حتى الآن من ناحية ويجب مع ذلك ادماجها في هذه المعرفة من ناحية أخرى •

ويمكن أن نقول في النهاية ان ادخال الحركة الجدلية في فهم العلوم الانسانية سوف يفيدنا - على الأقل - في أربع نقاط هامة : -

أولا : - ان هذه الحركة الجدلية سوف تكشف لنا عن حوار دائم بين الذات والموضوع ، وهو الحوار

الارادة البشرية ويظل الفكر متفتحا ومتهيئا لتقبل افكار جديدة تتعارض مع الافكار التي نعرفها ، ومعنى ذلك كله استجابه **التنبؤ بالمستقبل وقصر المعرفة على الحاضر وحده** . ولهذا فقد كان هيجل رائعا حين وقف في تحليله للتاريخ عند المصير الذي عاش فيه دون أن يتجاوز له كي يتنبأ بالمستقبل (على الرغم من أن بعض شراحه فهموا من ذلك انه يجسد الدولة البروسية ، وهو خطأ من أفدح الأخطاء التي وقعوا فيها) - **لأن التنبؤ بالمستقبل امر لا يمكن قبوله في ميدان العلوم الانسانية التي تلعب فيها الارادة البشرية دورا لا يستطيع البحث الدقيق اغلاله** . ومن هنا قال هيجل - بحق - ان التاريخ ينتهي في الحاضر لا في المستقبل كولينجود المرجح السابق ص ٢٢٠ وما بعدهما) رابعا : - ان هذه النظرة سوف تمكننا من تطبيق المنهج التجريبي والافادة من نتائجه ، كما أنها تمكننا في الوقت ذاته من الاستفادة من المذاهب الفلسفية والخبرات الانسانية الاخرى ، فالباحث هنا يفتح على نظريات متعارضة مطلقا ولا يلبث أن يلجأ اليها واحدة بعد الاخرى بحيث ينشأ **أون من ألوان الحوار بينه وبين المذاهب المختلفة ينتهي بتكوين صوره أكثر نفعيا وأكثر عيشة واكتسالا** عن الانسان . ومن هنا فقد أخطأ « سيدني هوك » - في اعتقادي - حين اعتبر المنهج الجدلي معارضا للمنهج العلمي التجريبي ، فقد رأينا أن هذا الأخير هو نفسه خطوة مكونة للمنهج الجدلي . فالمرزخ - كما يقول كولينجود مثلا - لا بد له أن يبدأ بالمنهج التجريبي في دراسته للوثائق والمصادر التاريخية المختلفة ، لكنه يخطئ ان وقف عند هذه الخطوة ، فعليه بعد ذلك أن ينظر الى هذه الوقائع من داخلها ، وسوف يجد أنها من الناحية الداخلية افكار يرتبط بعضها ببعض بعلاقة جدلية (نفس المرجع السابق ص ٢١٧ - ٢١٨) - ومعنى ذلك أن **المنهج الجدلي لا يسعى الى أن يحل محل المنهج التجريبي وإنما هو يريد أن يشمل ويتخطاه الى نظرة أوسع وأرحب** . ولهذا فأننا نستطيع أن نقول عن الجدلي انه مواجهة القضايا والآراء والافكار ومناقشتها ، والتساؤل عن معناها الدقيق ، والبحث عن الأدلة والاعتبارات التي تدعمها وما يمكن أن يقال ضدها ، والنظر في البدائل الممكنة ، وما هو أكثر احتمالا من غيره في هذه البدائل . (ف . كاوفمان : هيجل : تفسير جديد ، مع نصوص وشروح ، ص ١٧٣ ، نيويورك عام ١٩٦٥) .

امام عبد الفتاح امام



١ . كانت

لعله . من الجدير بنا في مطلع هذا المقال أن نعلق بكلمات سريعة على مكونات العنوان الذي استرناه له . فقد قلنا **فروسة المجتمع** ، ولم نقل علم الاجتماع ، لأن حقيقة المشكلات المنهجية التي سنعرض لها في حديثنا لا تقتصر - في بعض نواحيها - على علم الاجتماع . بل هي قد مسّت ، ولا زالت تمس بعض الجوانب المنهجية في علوم اجتماعية أخرى : كالإقتصاد ، والانثروبولوجيا ، وعلم النفس وغيرها من العلوم التي تشترك في دراسة الانسان والمجتمع بالمعنى الواسع .

أما **الامبريقية** فهي دلالة على اتجاها - قديم جديد في نفس الوقت - في دراسة هذا المجتمع الانساني . وهي كتابة عربية لكلمة empirical التي تردنا في ترجمتها بتجريبي لأن الامبريقية وهي الاحتكام الى الواقع أوسع مدلولاً من التجربة التي هي - على نحو ما سنرى فيما بعد - مجرد أداة من بين أدوات عدة يصطنعها الاتجاه الامبريقي . كما عزفنا عن ترجمتها بالعلى ،

إذا أراد عالم الاجتماع أن يشرح طريقه
 كعلم امبيريقى ، فلا يكفي أن يختار أية ظواهر
 ويقوم بملاحظتها ووصفها وتصنيفها ، بل إنه
 يحتاج إلى نسج فكرى ، يحدد الشئ الخاص
 المتميز فى الوقائع السوسولوجية .

دراسة المجتمع بين الإمبريقية والنظرية

د. محمد محمود الجوهري

لأن صفة العلمى واسعة ، أشمل من الإمبريقية ،
 ويمكن أن تنسحب على الإمبريقية وعلى غيرها .
 بينما الإمبريقية : اتجاه ملموس ومعين بالتحديد .
 ولا داعى لاستعراض محاولات ترجحات أخرى
 بدت فى نظرنا جميعها غير موفقة ، لأنها غير
 دقيقة فى تعبيرها عما نحن بصدد فائيتها
 بحروف عربية . وهو أمر ليس وقفنا علينا فقط ،
 فقد استعارت الكلمة كما هى لفات أخرى ،
 كالألمانية مثلا . (كذلك استخدمها حامد عمار فى
 كتابه « المنهج العلمى فى دراسة المجتمع » ،
 القاهرة ، ١٩٦٠ على طول الكتاب ، وإن كان قد

كتبها الامبريكية) • وهي الآن متداولة في كل كتابات الاجتماعيين المصريين الشبان •

اما كلمة **التنظير** فليس مقصودا بها بطبيعة الحال اطلاق العنان للفكر التأمل بغير حدود ، وانما مقصود بها - كذلك - اتجاه بعينه يهدف الى تأكيد دور النظرية في توجيه البحوث الاجتماعية ، والمزاوجة بين الامبريقية والنظرية ، او بمعنى آخر ان يتم البحث الامبريقي طبقا لاطار نظري محدد سلفا ، ومركزا في بعض مراحله على عمليات عقلية نظرية •

قضايا الاتجاه الامبريقي وادواته :

لعل افضل سبيل للتعرف على القضايا الاساسية للاتجاه الامبريقي ، وادواته في البحث ، ان نستعرض بإيجاز تاريخ استخدام هذا الاتجاه في الدراسات الاجتماعية ، وما صاحب ذلك من تطورات وتذبذبات في تأكيد اهمية كل أداة منها • ثم نعد في الشطر الثاني من المقال الى استعراض الاسس النظرية التي لا يمكن ان يقوم بدونها علم اجتماع امبريقي • ونحن في كل هذا حريصون كل الحرص على الاعتماد عن الحماس الزائد لاي من الاتجاهين على حساب الآخر ، فالاندفاع في تأكيد اهمية الامبريقية - والامبريقية وحدها - شأنه تماما شأن المباعدة في الدعوة الى التنظير في علم الاجتماع ؛ مجانية خاطئة لمحققة البحث الاجتماعي العلمي كما ينبغي ان يكون • فنحن بذلك نشترك حامد عمار في تغطيته للاتجاه القائل باعتبار المنهج الامبريقي المنهج العلمي الوحيد في الدراسات الاجتماعية والانسانية • على اننا - من ناحية أخرى - نختلف معه في اعتباره المناهج التاريخية ، والانثروبولوجية ، ومناهج التفكير المنطقي مناهج مستقلة أو مختلفة - ذات كيان متميز - عن المنهج الامبريقي • ذلك اننا اذا فهمنا الامبريقية على انها الاحتكام الى الواقع ، فاننا في اطار بحثنا الامبريقي - وكما سترى فيما بعد - لنجا الى مناهج كمية تماما كما نستعين بالمناهج الكيفية • فالامبريقية بمعناها الواسع تأخذ في اعتبارها الوثائق التاريخية ، والتراجم الذاتية ، والسجلات الحكومية والخاصة على السواء • الخ كما تحاول ضبط الملاحظة • وهي في النهاية لا يمكن ان تقترب من هذا الواقع الا في ضوء مفاهيم نظرية معينة تحدد لها المقصود بالفعل الاجتماعي ، والدور الاجتماعي ، والجماعة • الخ • هذه هي الصورة العامة التي نحاول ان نتقصى جوانبها المختلفة فيما يلي •

الفلسفة الوضعية :

اصطبغ مفهوم علم الاجتماع في القرن التاسع عشر بمفهومه الذي كان شامعا في القارة الاوربية اساسا ، وتصور « اوجيست كونت » له بالذات • وكان علم الاجتماع عنده بمثابة حجر الزاوية في فلسفته الوضعية • كان شاهدا على فكر متحرر وتقديسي يسمي الى التخلص من كل تأملات ميتافيزيقية او لاهوتية • ويستهدف الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية للوصول الى نتائج ماثلة أو مقاربة لما توصلت اليه العلوم الطبيعية في فهم القوانين التي تنظم حياة الجماعات والافراد •

حقيقة ان « كونت » قد طالب بان يصطنع علم الاجتماع في دراساته العلمية للظواهر الاجتماعية مناهج الملاحظة ، والتجربة ، والمقارنة ، ولكنه لم يلتزم هو نفسه بتطبيق ما دعا اليه • فكتب كتاباته دائرة في نفس الفلك القديم • لقد اوضح بالقول ما يجب ان يكون عليه المنهج العلمي في دراسة المجتمع ، ولكنه لم يقدم لنا نماذج تبرر تمثله هذا المنهج الجديد • وهكذا فقصدت هذه الآراء الجديدة المتناثرة في ثنايا كتاباته كل تأثير ، ولم يلفت اليها أحد •

حتى جاء عالم الاجتماع الفرنسي الأشهر « اميل دوركيم » فحاول جمع شتات ما جاء عرضا في ثنايا كتابات كونت ، مثل : « انه لا يمكن اسسا ان تتم ملاحظة سليمة الا اذا وضع الباحث نفسه خارج الموضوع » ، وانه : « لا تكون لأي حقيقة اجتماعية أهمية حقيقية الا اذا ربطت مباشرة بحقيقة اجتماعية أخرى » أو انه : « يمكن في علم الاجتماع اعتبار الحالات المرضية معادلة للتجربة » (العبارات المقتبسة من كتاب كونت : دروس في الفلسفة الوضعية ، الطبعة الرابعة ، باريس ، ١٨٧٧ ، المجلد الرابع ، صفحات ٣٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ على التوالي) •

ولعلنا نذكر هنا انه قد صد مصطلح علم الاجتماع كبديل لمصطلح « الفيزياء الاجتماعية » الذي كان قد قدمه في البداية للدلالة على علم دراسة المجتمع • وذلك بعد ان نشر العالم البلجيكي « أدولف كتليه » في عام ١٨٣٥ كتابه بنفس العنوان معتمدا فيه اعتمادا أساسيا على البيانات الرياضية والاحصائية المختلفة • وقد وصفه كونت بأنه : « مجرد احصاء بسيط ملء بالاحصاءات الخادعة المعتمدة على نظرية الاحتمالات المضللة » • ورفض هذه النظرية - التي لا يستطيع البحث الاجتماعي الحديث ان يتخل عنها البتة - رفضا قاطعا • واستمر فيما عدا هذا في هجومه على كل من التفكير الفيبى والامبريقية المفرطة •

الإحصاء أداة للقياس الكمي :

الاجتماع الى قياس اجتماعي . وكان أساس هذه الدعوة أن : «من لا يستطيع قياس ظواهر المجتمع لن يكون قادرا على التحكم فيها» .

الفكرة إذن وراء هذه الأحكام وهذه الدقة العالية هي الرغبة في التحكم في الظواهر الاجتماعية ، أو التدخل في توجيه سير تغيرها . لذلك ليس من قبيل المصادفة أن ترتبط هذه البحوث سواء في القارة الأوروبية أو في أمريكا بالأهداف الخيرية والنوايا الإصلاحية .

أسلوب المسح الاجتماعي

وقد سخر الباحثون طريقة هامة في البحث لخدمة هذه الأغراض ، كان لها فضل يذكر في دفع البحث الإمبريقي إلى الأمام ، ونعني بها المسح الاجتماعي . والمسح الاجتماعي عبارة عن عمل تعاوني يستخدم مناهج علمية في دراسة مشكلات وأوضاع اجتماعية معاصرة في نطاق جغرافي محدود . ولكنه يمد في نفس الوقت إلى توصيل الحقائق ، والنتائج والتوصيات التي انتهى إليها إلى المجتمع المحلي كله بقدر الامكان . وهو يستهدف بهذه الطريقة التوصل إلى أساس فعال للعمل المشترك الواعي . فالمسح الاجتماعي الأمريكي كان يستهدف واعيا إذن غايات إصلاحية تربوية . وقد غطت المسح الأول مجالات واسعة كل السعة : فكانت تمثل بصفة عامة دراسات مجتمعات محلية بأكملها ، بدأت في أول الأمر بأحياء صغيرة من بعض المدن ، ثم شملت مدنا كبيرة عن آخرها ، بل وحاولت أن تغطي أقاليم وبلادا بأكملها . ولكنها سرعان ما اتجهت إلى التركيز على جوانب معينة كانت تعتبر ذات أهمية خاصة في نظر أصحابها ، مثل : الأمور الصحية ، وشئون الإسكان ، والتربية ، وبعض ظروف العمل ، والترويج وقضاء أوقات الفراغ ، وجناح الأحداث . . . الخ ولكن العملية كانت في جميع الأحوال واحدة : تسجيل متعدد الجوانب ، حيث يضطلع القائمون بالمسح الاجتماعي بملاحظة ظاهرة اجتماعية معينة من واقع الحقائق المدروسة ، ووصفها ، وتحليلها . ولكن ظل محور الارتكاز دائما : أن تكون البيانات قابلة للمقارنة بقدر الامكان ، موضوعة في صورة كمية قابلة للقياس ، وهي هيئة وحدات ومثلة للمنطقة المدروسة ككل .

لما البيانات نفسها فكانت تجمع بوسائل شتى منها : البيانات الإحصائية المتوفرة ، والإعمال الأدبية ، وقصاصات الصحف ، وكشوف الاستئسلة ، والاستبانات (المقابلات) ، والإحصاء بالعينة ، والمناقشات مع الجماعات ، والملاحظة المباشرة ، والملاحظة المشاركة ، والوثائق الشخصية ،

في تلك الأثناء كان الإحصاء معروفا عند علماء الاقتصاد ، ومعترفا به كذلك . وقد ظل محافظا على وظيفة أساسية من وظائفه كأداة للإدارة السياسية . الجديد هنا أنه بدأ بعد وقت غير طويل يصعب وسيلة للبحث الإمبريقي في إطار هذا الفرع من فروع التخصص . وكانت حسابات الاحتمالات قد وجدت مجالا واسعا للتطبيق في شتى فروع الدراسة كالفلك ، والثامن . . الخ . ثم جاء كل من لابلاش وفورييه وطوراها ، وحرابها في الإحصاءات السكانية . ثم كان لجهود وكتلية - التي أشرنا إلى طرف منها - أكبر الأثر في تأكيد أهمية القياس الإحصائي في البحوث الاجتماعية . وهكذا ارتبط تاريخ البحث الاجتماعي الإمبريقي أمدا طويلا بتطور الإحصاء وتقدم استخداماته .

ولن يتسع المقام هنا لاستعراض هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة ، المهم أن استخدام الإحصاء قد ارتبط منذ أواخر القرن الثامن عشر بجمع المادة الأساسية للبحوث الاجتماعية من الميدان ، واستخدم طرق الاستبيان (أو كشف الاستئسلة) والاستبصار (أو المقابلة) وغيرها في البحوث وبرزت بصفة خاصة في الدراسات التي أجريت على أوضاع العمال ومشكلاتهم ودراسات مشكلة الفقر في إنجلترا أصلا . ثم بلغت ذروتها في ذلك الوقت في الجهود الرائدة التي بذلها فريدريك لوبلاي (ومنها دراسته الشخصية عن العمال الأوروبيين التي صدرت عام ١٨٥٥) والتي دفعت البحث الإمبريقي دفعات قوية إلى الأمام . وقد امتد تأثير لوبلاي إلى خارج فرنسا عن طريق الجمعية التي كونها والمجلة التي كان يصدرها . فوصل تأثيره إلى إنجلترا وإلى ألمانيا كذلك . وإن كان الأقبال عليه في ألمانيا لم يكن راجعا بالدرجة الأولى إلى طرافته المنهجية ، وإنما إلى اتجاهاته الإصلاحية . وقد استطاع المنهج الإحصائي أن يتطور في ألمانيا بخطى واسعة يمد أن أصبح استخدام الإحصاء في الدراسات الاقتصادية أمرا بدنيا . ومن ثم نما مفهوم الإحصاء الاجتماعي بشكل بارز . وانفض النزاع الذي كان دائرا حول ماهية الإحصاء وأهميته في البحث الاجتماعي بعد أن كتب «روملين» في سنة ١٨٩٤ يقول : « أنه لا يمكن تحديد المفهوم الحديث للمجتمع تحديدا دقيقا ، وتحليله علميا إلا عن طريق تطبيق المنهج الإحصائي ، وزيادة انتشاره وتعميقه » . بل أنه ظهرت في تلك الفترة المبكرة دعوة من أكثر من مصدر تنادي بتحويل علم

والتراجم الذاتية ، والخطابات ٠٠ الى آخر ذلك من وسائل يمكن أن تكون ذات عائد للبحث . ونلاحظ هنا أن اشتراك رجال الخدمة الاجتماعية قد جعل من الطبيعي أن يركز جامعو البيانات أساسا على طريقة «دراسة الحالة» .

دور جامعتي شيكاغو ونيويورك :

وجدير بنا هنا أن نشير الى دور جامعة شيكاغو في تشجيع هذا الأسلوب الجديد في البحث . فإذا « بالمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع » - وهي المجلة الرسمية للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع- تبدأ منذ عامها الرابع (سنة ١٨٩٩) تنشر بانتظام تقارير عن الدراسات الاجتماعية الحضرية التي أجريت في شيكاغو ، حيث تحولت المدينة الكبيرة الى «معمل اجتماعي» - على حد تعبير عالم الاجتماع الأمريكي بارك . وقد ساهم بارك وتلاميذه وزملائه من رجال الاجتماع في تنمية وتطوير هذا الخط الجديد بدراسات جديدة وأصيلة . وأصبخوا يرسمون أسلوب العمل ويحددون الخط الذي تسيّر فيه بحوث الاجتماع الأمريكي والبحوث الاجتماعية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وهي الفترة التي أصبح فيها علم الاجتماع يرتبط لأول مرة بالبحوث الاجتماعية .

والى جانب جامعة شيكاغو كان لجامعة نيويورك فضل يذكر في المزج بين علم الاجتماع النظرى والبحث الاجتماعى بمناهجه الكمية على وجه الخصوص . ويرجع فضل ذلك الى العالم فرانكلين جدينز وزملائه .

وهكذا قادت جامعتا شيكاغو ونيويورك عملية التحول التي اعتورت علم الاجتماع التقليدى ، وقدمت لهذه العملية كل ما تحتاج اليه من وسائل معنية . وكان الاجتماع الأمريكى قبل ذلك الحين - على خلاف الحال في القارة الأوروبية - يخضع لتأثير «الاجتماع الاستنتاجى» الذي كان يقول به الانجليزى هربرت سبنسر .

على أن العنصر الأهم في تأثير سبنسر على علم الاجتماع الأمريكى أنه جعل الاجتماعيين الأمريكيين - خلافا لما حذر منه أبو الاجتماع أوجيست كورت - لا يتفرون من علم النفس . بل أن دراساتهم اتخذت طابعا نفسيا اجتماعيا وضحا . وكان «جدينز» - أحد رواد المدرسة النفسية في علم الاجتماع - قد نبه الى أهمية التحليلات الكمية لسلوك الجماعات . وكان أن استطاع تلاميذه فيما بعد فرض المناهج الكمية على البحوث الاجتماعية الأمريكية نهائيا . ننص بالذكر من بين هؤلاء التلاميذ « ويليام أوجبرن »

الذى عرض في أكثر من دراسة لأهمية استخدام الاحصاء ، وايضاح حدوده كذلك ؛ وستيوارت تشماين الذى كان له فضل في تحويل طريقه المسح الاجتماعى الى البحث الاجتماعى «التجريبي»؛ وستيوارت رايس الذى طبق المناهج الكمية فى علم السياسة ، ونشر عدة كتب دراسية لتقريب هذه المناهج ونشرها بين المشتغلين بالبحث الاجتماعى .

تطوير المناهج الكيفية

ولم تهمل مدرسة شيكاغو هذه المناهج الكمية . ولكن البحوث الاجتماعية التي أجريت في نطاقها اعتمدت بدرجة أكبر على المناهج غير الكمية (الكيفية) . فنجد «ويليام توماس» الذى قدم الى علم الاجتماع من ميدان الانثولوجيا يركز اهتمامه على العلاقة بين الفرد والموقف الاجتماعى . بين الشخصية والثقافة . وتمثل دراسته - بالاشتراك مع العالم البولندى الأمريكى «فلوريان زنانيكى» - عن تكيف الفلاح البولندى فى المجتمع الجديد فى الولايات المتحدة نموذجا للدراسة التي استتفادت بنتائج دراسات مونوجرافية من أنواع مختلفة . وقد بين توماس أن الدراسات الكمية - رغم ما فيها من فائدة - تقصر وحدها عن مساعدتنا على فهم الاتجاهات والقيم الاجتماعية . بل يجب لهذا الغرض الاستعانة بالوقائق بجميع أنواعها : كتقارير الحياة (أو الترجمات الذاتية) ، والخطابات ، واليوميات ، وتقارير الأطباء ، والوعاظ ، والمدرسين ، والتحقيقات الصحفية . . . والغ والى يتضح منها : تعريف الموقف في كل حالة ، والسيطرة عليه ، وكيف يتحقق التكيف أو يفشل ، وكيف تحدث التغيرات في الاتجاهات ، وأساليب السلوك . وبفضل هذه الدراسة الرائعة وغيرها تحول : الشارع ، ومنطقة السكنى ، وأماكن العمل واللهو ، وكذلك الإدارات الحكومية ، ومراكز الشرطة ، وإدارات تحرير الصحف (المحلية بالذات) ، وصلات الرقص والنوادي إلى عياد عمل علم الاجتماع . وحدث ربط بين «الدراسات الميدانية» المعروفة من الانثولوجيا ومنهج «دراسة الحالة» المعروف في الخدمة الاجتماعية ، وأسلوب «الملاحظة المشاركة» .

قياس المسافة الاجتماعية :

ومن الانجازات البارزة في مجال تطوير المناهج الكيفية المقياس الذى وضعه « امورى بوجاردوس» - لأول مرة - لترجمة الاختلافات

الاجتماعي ودراسات السوق - أهم طرق الدراسة في البحوث الاجتماعية * وواكب التوسع في استخدامها نشاط في تحسينهما من أجل زيادة دقتها *

وأصبحت المناقشات المنهجية منذ ذلك لتاريخ نشغل حيزا متزايدا في المجلات والكتب الاجتماعية المتخصصة * وإذا كان الانتقال من المسح الاجتماعي الى البحث الاجتماعي الحقيقي بعد الحرب العالمية الاولى قد تميز بالتوسع في استخدام الأساليب غير الكمية على يد مدرسة شيكاغو ، فقد بدأت المناهج ذات الطابع الكمي البارز منذ أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات تفرض نفسها * وأخذت النزعة الوضعية الجديدة تقوى أقدامها في حقل البحوث الاجتماعية (كما تمثل عند ولدبرج* على وجه الخصوص) * وظهرت بعض الدراسات الرائدة التي أثبتت هذا كبيرا في الانتفاع بهذه المناهج الكمية في دراسة موضوعات محددة تحديدا دقيقا * وتبجل الاهتمام الكبير بالمسائل والمشكلات المنهجية في أن الكتب الدراسية وكتب المدخل الخاصة بالبحث الاجتماعي كانت تستطيع في بداية الأمر أن تستوعب الحديث عن مناهج البحث الاجتماعي كلها ، ثم اذا بهذه الكتابات تنمو وتوسع بحيث أصبحت تستعص على المعالجة بين دفتي كتاب واحد ، ولم يعد بوسع باحث واحد بمفرده أن يتابع كل ما ينشر في هذا الميدان ، وأن يلم بكل جديد فيه * وكان من شأن هذا كله أن تكون الانطباع بأن البحث الاجتماعي الحديث قد غرق في دراسة أمور منهجه * ثم كان لانشاء بعض الأجهزة والمجلات وغيرها من الأدوات المتخصصة أعظم الأثر في خلق نوع من التنسيق والتوجيه الذي يعين السفينة على مواصلة طريقها الى الأمام بنجاح *

التنظيم في الدراسات الاجتماعية

كان من فضل الاتجاه القوي الى الاشياء نفسها بعد الحرب العالمية الاولى أن توفرت لنا كميات لا حصر لها - ولا امكانية لاستيعابها - من النتائج والتفاصيل ، التي يصعب اجراء مقارنات بينها * وقد أدى هذا بالبحث الاجتماعي الاميريقي الى أن يسخر من علم الاجتماع النظري التقليدي باعتباره دراسة تأملية ، بل ويعط من شأنه * ولكننا نلاحظ برغم ذلك - ومنذ أكثر من عشرين عاما - حدوث تقارب جديد بين البحث والنظرية *

حقيقة أننا اليوم نفهم علم الاجتماع والبحث

الكمية في الآراء ، والاتجاهات ، والعلاقات الاجتماعية الى مسورة قابلة للقياس الكمي * (وذلك في كتابه بعنوان : البحث الاجتماعي * ، لوس أنجلوس ، ١٩٢٦) * وتوصل من خلال ذلك الى تطوير الطريقة الشهيرة التي اقترنت باسمه وهي : «قياس المسافة الاجتماعية» * ومن شأن هذا القياس - في رأي بارك - أن يمكننا من قياس المسافات الاجتماعية التي تصب فيها كل العلاقات الانسانية في النهاية * ورغم كل ما كان يعيب طريقة بوجاردوس من قصور وبساطة زائدة ؛ فانا نلاحظ شدة الاقبال عليه في عشرينات هذا القرن ، من أجل استخدامه في تحديد الاتجاهات وأساليب سلوك الجماعات تحديد أكثر موضوعية مما كان ممكنا من قبل *

مساهمة علم النفس في تطوير القياس الاجتماعي:
لا يمكن أن نقعد هنا عن ذكر الدفقات المنهجية نحو تهذيب أدوات القياس الكمي التي استخدمها علم الاجتماع من علم النفس في أمريكا بصفة خاصة * وقد تمثلت تلك الاسهامات فيما قدمته النزعة السلوكية في الدراسات الانسانية الامريكية لعلم الاجتماع ، وما افاد به هذا العلم من تقدم علم النفس التجريبي * ونخص بالذكر: اساليب قياس الاتجاهات الاجتماعية ، ودراسة الجماعات ، والقياس الاجتماعي بصفة خاصة أو ما يعرف باسم « السوسيوميتري » ، والملاحظة المنضبطة ، والتحليل العامل * * وهو كله مما أصبح من أدوات البحث الاجتماعي الحديث *

الافادة من الاحصاء على نحو جديد :

وأخيرا شهدت عشرينات هذا القرن الافادة من الاحصاء لا كمجرد وسيلة لوصف الظواهر الكبيرة وصفا دقيقا ، وإنما كذلك كأداة تحليلية . فإذا بنا نسجل حدوث ثورة في استخدام منهج العينة في البحث الاجتماعي * وتمددت مجالات الافادة من هذا المنهج ، واتسعت بفضل اعتماد كثير من الهيئات الحكومية عليها سواء في أمريكا أو في القارة الأوروبية . ولعل أشهر هذه المجالات التي استعين فيها بمنهج العينة دراسات السوق وغيرها من الأغراض التجارية ، وقياس الرأي العام * ولم يعد هناك من بين رجال الاجتماع من يحاول الظن في أهمية الأساليب الاحصائية في البحوث الاجتماعية *

الاستبيان والاستبار :

أصبحت وسيلتا الاستبيان (كشف الأسئلة) والاستبار (المقابلة) - وقد كانتا معروفتين منذ أمد بعيد في ميدان الخدمات الاجتماعية والمسح



١ . كونت

الاجتماعى على أنه علم اميريقى وبحث اميريقى أساسا ؛ ولكن هذا البحث الاميريقى بمفهومه الجديد لا ينكر - وهو غير مستطیع ذلك - وجود طرق أخرى من طبيعة غير اميريقية لدراسة ما یمن لهذا العلم من مشكلات * ونعرض لأهم هذه العناصر بإيجاز فى الفقرات التالية .

المفاهيم والمقولات الاجتماعية :

إذا عرفنا العلم بأنه التناول المنهجي (أى التنظيمى التصنيفى) والتفسیرى لبعض جوانب الواقع ، وأن هذا التناول لا یمكن أن يتقدم بغير الخبرة ؛ فاننا نقر بذلك بضرورة وجود بعض المفاهيم العلمية التى لا یمكن ادراكها اميريقيا * ومن شأن هذه المفاهيم أن تضمن ماسماه «كانطیة» : المسلك المأمون للعلم أى أسس التصنيف والمقولات التى لا یمكن أن تكون موضوعا للخبرة ، لأنه یجب التسليم بها قبل الاحتكام الى أى خبرة .

بمعنى آخر : إذا أراد علم الاجتماع أن یسقى طريقه كعلم اميريقى ، فلا یكفى أن یختار أية ظواهر ویقوم بملاحظتها ، ووصفها ، وتصنيفها . بل انه یحتاج الى نسق فکرى ، یحدد الشئ الخاص المتمیز فى الوقائع السوسيولوجية * ومن الطبیعى أن یقوم تحديد هذا النسق على تعاون خصب متنسوع بین التأمل البحت ، والاستنتاج العقل ، والمحاولات الاميريقية * .

لا یمكن أن نفترض أن مثل هذه المفاهيم أو المقولات التى ستستخدم أساسا للتصنيف جاهزة بدءا فى صورة مرتبة ومنظمة * . على أنه من أمارات ازدياد تضوج علم من العلوم ، ألا یحتاج إليها فى كل حالة الى صياغة هذه المفاهيم ، بل تكون موجودة على درجة - قد تقل أو تزيد - من التنظيم والاحكام ، بحيث یسكن فى أغلب الاحوال الاستعانة بها مباشرة * ولعلنا نضرب المثل على هذه المفاهيم المستقرة اليوم : بمفهوم الفعل الاجتماعى ، والتنظيم من خلال معايير الترفع ، والدور الاجتماعى ، والجماعة * . وكثيرا غیرها من المفاهيم التى أفاد منها علم الاجتماع العام * . هذه ولا شك لیست بالعلم الاميريقى ، ولكنها معرفة تحليلية عقلية * . ونو أن افترض فى مفاهيمها الاساسية - إذا ما أرادت أن تكون ذات فعالية - أن تدلل على صحتها فى الخبرة ، دون أن تكون هناك مع ذلك حاجة الى اشتقاقها من هذه الخبرة * . فمفهوم « المعيار الاجتماعى » لا یمكن بحال من الاحوال أن یشتق من مفاهيم أخرى * . ففیه یتجسد الى حد ما « الجانب الاصيل » فى الظاهرة الاجتماعية ، الذى یمكن

الاسهاب فى وصفه - كنموذج تفاعلى ، أو علاقات انسانية - دون ما حاجة الى تأسيسه على هذا النموذج أو هذه العلاقات * . فالاجتماعى كالمضوى - فى علم الحياة - غیر قابل للاشتقاق من شئ آخر ، حتى وإن فرضنا علیه التفنيت النظرى * . وهكذا یتوفر لدى علم الاجتماع العام حصيلة من «المفاهيم الاساسية» أو المقولات التى لا یمكن بدونها التوصل الى أى أحكام محددة عن أحداث اجتماعية جزئية * . ذلك أن هذه المفاهيم تحدد لنا الشروط الواجب تحققها حتى یمكننا التحقق من أن الظواهر المطروحة ظواهر اجتماعية أصلا * .

ومن الجدير بالذكر أن الاجتماعيين قد استطاعوا الاتفاق الى حد بعيد على جملة من هذه المفاهيم الاساسية * . وقد تكون هذا الاتفاق من خلال المناقشات الطويلة التى امتدت من كارل ماركس واميل دورکيم الى فلفريدو باريتو ، وماكس فيبر ، وجورج زيميل ، حتى تالكوت بارسونز ، وجورج جورفيتش وروبرت ميرتون * . وهذه قلة من أسماء كثيرة أسهمت بنصيب موفور فى اخصاب هذه المناقشات * . فتهيأ بذلك لعلم الاجتماع عدد كبير من المفاهيم الاساسية التى

إذا ما استطعنا تحويل هذه النظريات المحدودة الغرض الى نظريات متوسطة المدى • ونرتقى درجة أعلى إذا ما أمكن التأليف بين عدد من هذه النظريات المتوسطة المدى في انساق نظرية أشمل • ويمكن أن نضرب المثل على هذا النوع الاخير من التعميم النظري قيسا نحن بصدد التوصل اليه اليوم من نظرية سوسولوجية عامة في التنظيم ، التي تفسر لنا العلاقة بين الجماعات الرسمية وغير الرسمية داخل المؤسسة الصناعية ، وكذلك بعض الظواهر الشبيهة في إطار علم الاجتماع الحربي ، ونظرية البيروقراطية ، وأخيرا بعض مشكلات علم الاجتماع السياسي الخاصة بالأجهزة النيابية الرسمية ، وكذلك الجماعات التي تتكون تلقائيا ، والتي تمثل وسائل أكثر سهولة للتأثير مثل جماعات الرودات (تمثل أصحاب المصالح في المجتمعات الرأسمالية الذين يؤثرون على آراء أعضاء البرلمان) ، والجماعات ذات النفوذ بأنواعها المختلفة والوسائل غير الرسمية الأخرى للرقابة السياسية والاجتماعية •

على أننا يجب أن نعي بكل وضوح أن مثل هذه التعميمات الواسعة النطاق النظرية السوسولوجية لا زالت نادرة • فنحن نتحرك في الغالبية العظمى من الحالات في نطاق التعميمات المحدودة الغرض التي نتوصل الى تحديدها في صدد ظواهر محدودة متفرقة ، دون أن تكلف أنفسنا عناء الربط بينها وبين تعميمات أخرى مشابهة • على أنه يحدث في بعض الأحيان ألا يرقى البحث الى مرتبة هذه النظريات المحدودة الغرض ، بل يظل محصورا في مرحلة وصف بعض الانتظامات العامة ، دون محاولة تقديم تفسير نظري • ولو جزئي • لهذه الانتظامات • ولا نعلم الأمثلة التي يمكن أن تساق للتدليل على ذلك ، فهي كثيرة بغير حاجة الى تحديد ، ويكفي أن نجعل النظر في ميدان **« الاحصاء الاجتماعي »** ، ففيه كثير من الشواهد على هذا •

وهكذا تتوفر لدينا السلسلة التالية ذات المستويات الأربع ، التي رتبناها تبعا لمدى نمو درجة تجريد المفاهيم المتحصلة منها ، وهي :

- **« الملاحظة الانتظامات العامة الاستيعابية »**
- **« وضع نظريات محدودة الغرض »**
- **« نظريات متوسطة المدى »**
- **« نظريات ذات درجة عالية من التركيب »**

والشمول
غير أننا نجد في جميع الاحوال أن المفاهيم تستخدم على النحو الذي يحددها به علم الاجتماع العام ، بحيث أنه يبدو للمراقب من على السطح

يمكن توصيلها للأجيال الجديدة من الدارسين ، والتي أصبح بوسع الباحث الفرد التسليم بها بدءا كأساس نظري يستطيع بفضل تصنيف المادة المكتسبة من الخبرة • وبفضل بعض الباحثين أن يطلقوا على هذا الفرع من فروع الدراسة السوسولوجية **« علم الاجتماع العام »** أو **« علم المفاهيم السوسولوجية »** •

وتقابل هذه المفاهيم في عالم الطبيعة - عند كانت - مقولات المكان ، والزمان ، والواقع ، والمادة ، والعلمية وغير ذلك • بينما نذكر من أمثلتها في ميدان علم الاجتماع ، مفاهيم : الفعل الاجتماعي ، والتصورات الجمعية ، ومعايير التوقع ، والشخص الثقافي الاجتماعي ، والدور ، والجماعة • الخ • **« فليكن لا نستطيع أن نرتب عليها وحدها أية معرفة خاصة محددة ، وإنما هي تمثل قصصا وصفيا تحيلنا لأبعاد الوجود الاجتماعي ، الذي يزداد التعرف عليه ، أي امكانيات وجود الأشياء في عالم المجتمع »** •

ولا تبدأ عملية المعرفة اللحظة الا عندما تنتقل هذه المفاهيم - مرتبطة بفروض محددة - الى حيز الواقع ، فتسمح لنا بتصنيف وتنظيم مادته على اساس موحدة ، بحيث يتكون عندها في النهاية ما نطلق عليه اسم النظرية السوسولوجية (نظرية علم الاجتماع) • ومعنى هذا بكل وضوح أنه مهما بلغ انحراف العلم في الامبريقية ، فإنه ينطوي على بعض العناصر التجليلية النظرية • بل هي ضرورية له قبيل أن يتمكن من وضع أي فرض جديد يزيد اختبارا في الواقع •

« مستويات التعميم في النظرية الاجتماعية :

لا بد أن يحدث - في خطوة تالية - أن تنفصل النظريات السوسولوجية الحقيقية عن علم المفاهيم هذا ، وذلك بمجرد ارتفاعها الى مستوى الانساق الفكرية التي تتمتع بقدر من الشمول والعمومية • ويمكننا القول - على وجه الاجمال - بأنه لم تتوفر لدى علم الاجتماع حتى الآن سوى أسس نظرية ذات مدى محدود نسبيا • وتوضح هذه الحقيقة بالذات من المفهوم الذي وضعه روبرت ميرتون عن **« النظريات المتوسطة المدى »** • وهي نظريات تتصل بخطوة **« تفصح »** من النظريات الموقوتة او الموضوعية لفرض معين ad-hoc التي توضع باستمرار لتيسير التفاهم حول بعض الانتظامات التي اوضحت امبيريقيا • ولكن هذه النظريات تمثل درجة أدنى من النظريات المركبة أو الشاملة ، والعلاقات النظرية المتكاملة •

ونكون قد اجتزنا خطوة أولى على طريق المعرفة

على أبعاد موحدة - المنصب على الموضوع الاجتماعي ، فمشكلات مثل مشكلة تبادل المنظورات بين الأنا والآخر ، أو مشكلة تناظر العلاقات لا تقودنا إلى معارف محددة ، وإنما هي تمدنا بالإطار المرجعي الذي يستحيل بدوره وجود علم اجتماع . ولا يسعنا قبل أن يتوفر لدينا نسق فكري خاص - متميز وعديم النظير - أن ندعى لعلم الاجتماع حقاً في الوجود الخاص المستقل - وهو النسق الذي يقوم في النهاية على الثبات طابع متميز للبعد الاجتماعي ، وهو ما سبق أميل دوركيم إلى تحديده في مؤلفه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » .

♦ عمليات فكرية أساسية في البحث الاجتماعي :

♦ التجربة الفكرية ♦ والنموذج الفكري

علادة على هذه المسائل يتعين علينا أن نتوقع في علم الاجتماع امبريقي التصامل على أسس أخرى غير امبريقية . مع مراعاة أن هذه الأسس ستقودنا بعد لف ودوران - قد يطول أو يقصر - إلى تحقق امبريقي في النهاية . ولن ينسج المقام لأن تأتي على كل العمليات الفكرية ذات الأهمية الأساسية في البحث الاجتماعي ، فلا مناص من تخصيص الكلام عن موضوع محدود ، حتى يمكن أن نستكمل الألام بالخط الرئيسي لحديث اليوم عن المنهج في علم الاجتماع الحديث .

« التجربة الفكرية » عملية ذات طبيعة عقلية استنتاجية ترافق البحث العلمي باستمرار . وتستمد هذه العملية وظيفتها الخاصة المتميزة في البحث من حيث أنها تسمح بتحليل مفهوم معين من نواحيه المختلفة ، أي إجسراه « تعادب فكرية » عليه . ويتم عن هذا الطريق باستمرار التوصل إلى اكتشافات هامة ، تتحول فيما بعد إلى خطوط موجهة لعملية البحث العقلية . وهذه هي نفسها الأساس التي تقوم عليها « النماذج الفكرية » المعروفة في العلوم الاجتماعية (وخاصة في الاقتصاد السياسي ، وديدا - وبشكل متزايد - في علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، وبعض فروع المعرفة مثل تحليل الجماعات الصغيرة) . ولا يستطيع أحد أن ينكر جدوى هذا الأسلوب في ضوء النتائج التي يمكن التوصل إليها عن هذا الطريق . ويعتبر استخدام النماذج من العناصر الأساسية للمنهج غير امبريقي في البحث الاجتماعي . إلا أن المقام يوجب علينا شيفاً من الحذر إزاء بعض المبالغات

أن الاتفاق النظري قد بلغ حدا بعيدا ، أبعد مما هو في الواقع فعلا . إلا أن استخدام نفس المفاهيم الأساسية على المستويات الأربع المذكورة لا يدل بحال من الأحوال على درجة التكامل النظري التي أمكن التوصل إليها فعلا . إذ لا نستطيع القول بوجود مثل هذه الدرجة من الاتفاق إلا بعد انضاج مظاهر تقارب بعيد تسمح لنا بادماج الملاحظات التي أجريت في أماكن مختلفة للأنظمة العامة الامبريقية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية - مرورا بمسستين النظريات المحدودة الفرض والنظريات المتوسطة المدى - في نظرية واحدة مركبة وشاملة .

نموذج واقعي لتقديم التعميم النظري :

ومن الأمثلة المتنازعة على هذا ما قدمه لنا العالم الأمريكي جورج هومانز humans في مؤلفه عن الجماعة الإنسانية (الصادر عام ١٩٥١) فقد صاغ هومانز في هذا الكتاب بعض الانتظامات العامة التي لوحظت على إحدى جماعات العمل في شركة وسترن اليكتريك ، وإحدى جماعات المراقبين ، وإحدى الأسر التي تعيش في جزيرة تيكوبيا Tikopia . وأحد المجتمعات المحلية الصغيرة في إقليم نيوز انجلند ، صاغها في نظريات جزئية . ثم ألف بينها في نظرية عن نشره بالاشتراك مع هنري ريكين Rieken (عام الجماعة الإنسانية . ثم قام فيها بعد - في مقال ١٩٥٤) ، واستنادا إلى مزيد من البحوث - بتدعيم هذه النظرية وتوثيقها ، كما أدخل عليها بعض التعديلات الجزئية . وقد قاده هذا في النهاية (في كتابه بعنوان : السلوك الاجتماعي . إشكالة الأولية - نيويورك ، ١٩٦١) إلى تحديد نظرة أشمل للسلوك الاجتماعي كله .

ويدلنا هذا المثال بمنتهى الوضوح على أسلوب التقديم في ضوء المخطط الذي رسمناه من قبل . على أننا إذا أخذنا إلى الاعتبار - إلى جانب هذا - أن هناك مئات من مثل هذه النظريات في مختلف ميادين علم الاجتماع ، لأمكننا أن نتصور مدى الصعوبة التي يمكن أن تكون عليها عمليات التقديم في سبيل وضع النظريات العامة ، ومدى حاجتنا دائما أبدا إلى الضوابط امبريقية لتأكيد وتأمين هذه العمليات في مختلف مراحلها .

على أننا نؤكد هنا أن هذه التطورات النظرية تعمل في خدمة المعرفة ذاتها ، بينما نجد أن تطورات المفاهيم الأساسية أو المقولات التي أشرنا إليها من قبل لا تقدم عملية المعرفة ذاتها ، وإنما هي تؤدي وظيفة تصنيفية ، إذ توجه المعرفة -

للتحقق مما اذا كان كلاهما منطلقا من أسس خاطئة • بذلك يتضح مدى الاختلاف العميق بين وضع النموذج ووضع النظرية ، بحيث أنه بات من السهل علينا نسبيا تحديد وظيفة كل منهما في عملية البحث ، بما لا يسمح بحدوث اختلاط في المستقبل • ولكننا نلتقي مع ذلك - دائما أبدا - بمثل هذا الخلط ، الذي يبرر ولا شك تفصيلنا في عرض هذه القضية •

نكتفي في مقال اليوم بهذا القدر من المشكلات العديدة التي ترتبط بمفهوم « علم الاجتماع الامبريقي » ، وحسبنا أن لفتنا النظر الى جملة من أبرز هذه المشكلات التي استحوذت على اهتمام علماء الاجتماع ابتداء من دوركيم حتى ميرتون • ولعل هذه الاشارة منا أن تكون فاتحة اهتمام أوسع بمشكلات المنهج في علم الاجتماع الحديث • فقد تطور علم الاجتماع الامبريقي بمعناه المحدود الى مدى السنين السبعين الاخيرة التي انقضت على ظهور مؤلف دوركيم : « قواعد المنهج » (الصادر عام ١٨٩٥) • ولم يكن هذا التطور وليد فكرة أو تصور نظري مسبق ، ولكنه كان تطورا من واقع البحث الفعل • لذلك لم نعد نستطيع اليوم الإلماس بالاسهامات الاساسية في منهج علم الاجتماع الامبريقي في بطون الكتب التي تحمل في عناونها كلمة «منهج» ، وانما يحقق المنهج تقدمه الفعل الحقيقي أساسا في اطار البحوث نفسها • فالخاصية المميزة لمنهج الدراسة العلمية الامبريقية انه لا يمكن أن يدرس الا من خلال الممارسة الفعلية ، ولا يمكن فيه أن يحل الغرض النظري محل التحقيق الواقعي • وأفضل سبيل لنا للتعرف على المنهج هو الغوص في الانجازات الكبرى التي استطاع البحث العلمي تحقيقها •

وألمنا أن نستطيع في مقالات تالية اكساب المنهج الاجتماعي الامبريقي مزيدا من الوضوح والتحديد من خلال استعراض البحوث الكبرى لأئمة الاجتماع كدراسات دوركيم عن تقسيم العمل ، والانتحار ، والأسرة ، الخ ودراسات ماكس فيبر عن « الاقتصاد والجمتمع » ، ودمجموعة مقالات في الاجتماع الديني ، الخ انتهاء بأبرز الانجازات المعاصرة في البحوث الاجتماعية • ولعله يمكن من خلال ذلك - وبعد تطويع هذه المناهج لظروفنا المحلية الخاصة - أن نتوصل في مدى قريب الى تحقيق الارتقاء والاحكام المطلوبين لبحوثنا الاجتماعية المصرية •

محمد محمود الجوهري

نتي نصادفها والتي بدأت تنتشر في علم الاجتماع ؛ بعد انتشارها في الاقتصاد • فظلمنا أنه يظل واضحا أن وضع النموذج هو مجرد وسيلة معينة لقياس كل لأبعاد والجوانب الممكنة نظريا للمفهوم معين ، فلا اعتراض ولا مؤاخذه • ولكن ما أن يعتقد الباحث - متجاوزا ذلك - أن تحليل هذه النماذج يحل محل النظريات الحقيقية ، بل ويستطيع أن يغني عنها غناء كاملا ، فاننا نرفع صوتنا بالاعتراض القوي ، وذلك لاعتبارات متعددة في نفس الوقت • إذ أن أكثر التفسيرات ساذجة لعملية وضع النماذج يقترب بهذه العملية الى ما يعرف « بالمفاهيم التجوهرية » في الفينومينولوجيا ، حتى أننا نجد من يطلق عليها اسم « افلاطونية النماذج » • غير أن هذا لا يمثل سوى أحد جوانب المشكلة • أهم من ذلك وأخطر شأننا تلك المحاولات التي تعتبر النماذج الموضوعية بهذه الطريقة وبدلاء للتحقق الامبريقي ، كما هو شائع في الظروف العادية لوضع النظرية • كما يجب ألا يعمينا المظهر المبائع في الدقة الذي تطالعنا به هذه النماذج أحيانا عن حقيقة هامة ، وهو أنه لم يمكن التوصل اليها الا لأن جميع الظروف الاخرى قد عولجت بطريقة تجريدية تصفية أيضا •

وهكذا نرى أن النماذج تكون مفيدة طالما أن تحديدنا لمتغيرها كان تحديدا «اجرائيا» فقط ، وانما نستهدف من وراءها التوصل الى وضع فروض مهمتنا أن نتحقق منها من خلال المعلومات الواقعية • فاذا أيد الواقع الغرض المتضمن في النموذج ، ارتقى هذا النموذج الى مرتبة النظرية • أما في حالة اثبات انحرافه عن الواقع ، فإن ذلك يعني رفض نظرية معينة ، أو تأييد أخرى •

النموذج والنظرية :

وهكذا يتضح أننا لا نستطيع اعتبار النماذج ولا التجارب الفكرية بدلاء عن « التجارب الواقعية » • إذ لا بد لنا من الاحتكام لهذا الواقع دائما وفي كل حالة • ومع ذلك فإن هذا الجهد التحليلي العقلي البحث يحتل أهمية أساسية في مرحلة الأعداد للبحث ، إذ يتيسر لنا أن نحدد نظريا تماما كل المتغيرات الممكنة التي يمكن أن تكون ذات وزن في حالة معينة ، حتى نتوصل فيما بعد الى تحديد أي هذه الاحتمالات العقلية أكثر اتساقا وظروفا الواقع • فاذا ظهرت بعض الارتباطات العقلية التي تتعارض والتجربة ، فلا يصح أن يكون ذلك سببيا في الاستخفاف بالامبريقية • بل على العكس من ذلك يكون داعيا الى الرجوع الى كلا العنصرين - العقل والامبريقي -

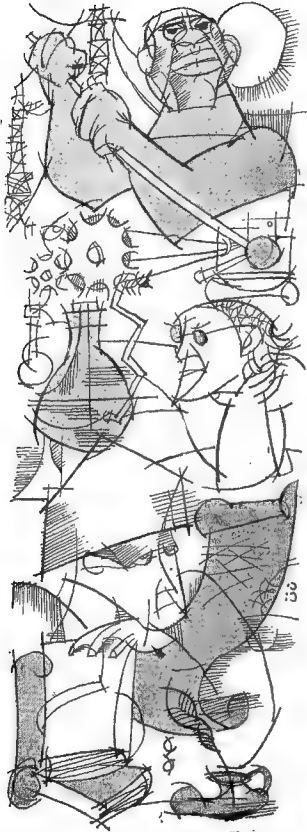
من الحقائق التي أخذت تفرض نفسها يوما بعد يوم أن العلوم الاجتماعية ترتبط في نشأتها ونموها واتجاهاتها ارتباطا وثيقا بالنظم السياسية القائمة في البلاد المختلفة وبالمصالح الاجتماعية والاقتصادية التي تمثلها هذه النظم، أي ترتبط بالأيديولوجية بعارة مختصرة . وإذا كان فلاسفة العلوم الاجتماعية قد تعدلوا منذ زمن بعيد عن المخاطر التي تحيط بالمعلوم

الإنجازات الحديثة في علم الاجتماع الماركسي

الشيء المست

الاجتماعية ، لكونها ستضطر اضطرارا في بعض الأحيان الى أن تصطدم بنظم الحكم القائمة أو بالدولة بمعنى أدق ، فإن الاشتراكية العلمية ركزت على هذه النقطة تركيزا شديدا ، على أساس أن العلوم الاجتماعية بطبيعتها لابد أن تكون منحازة ، وأن مقولة الموضوعية في البحوث العلمية الاجتماعية ليست سوى خرافة تروج لها الأوساط العلمية في البلاد الرأسمالية . ولذلك هاجمت الاشتراكية العلمية بعنف شديد ما أطلق عليه اسم «علم الاجتماع البورجوازي» الذي يزعم الموضوعية المطلقة في حين أنه مصطبغ أصطباغا شديدا بالأيديولوجية السائدة في المجتمعات الرأسمالية .

وقد أدى ذلك - تاريخيا - بالفكر الماركسي الدوجماتيقي الى أن ينكر امكانية قياس علم اجتماع بجانب المادية التاريخية التي اعتبرت هي نفسها علم الاجتماع الماركسي . والحقيقة أن وجهة النظر السابقة تصطدم اصسطدما مباشرا مع القصور المثالي لنفر كبير من فلاسفة



العلوم الاجتماعية البورجوازيين وعلمائها .
للعلوم الاجتماعية ولشروط البحث الواقعي في
مبادئها المختلفة . فهذه العلوم - في نظرهم -
يمكن أن تجري بحوثها متحررة من أسرار
الأيديولوجية تماما ، وخاصة أن الباحث العلمي
سيتذرع « بالموضوعية » وهو يصدد اجراء
بحوثه ، وهذا في حد ذاته هو الضمان الحقيقي
لاستقلال البحث العلمي عن أي مؤثرات خارجية .

وقد عبر الفيلسوف الألماني الكبير أرنست
كاسير عن وجهة النظر هذه بتمنتي الوضوح في
ختام كتابه « مقال عن الانسان » : « ذكر » : إن
العلاقة بين الذاتية والموضوعية ، بين الفردية
والمعمومية شأنها في الفن ليس كشأنها في العلم
أنه الحق أن الكشف العلمي العظيم يحمل أيضا
طابع العقل المفرد لصاحبه ، إذ أننا نجد فيه
- ليس فقط عرضا موضوعيا جديدا للأشياء -
بل أيضا اتجاهها ذهنيا متفردا ، وربما نجد طابعا
شخصيا في الأسلوب . ولكن كل هذا ليس له
الآثار سيكولوجية فقط ، لا يؤثر على المنهج ،
ففي المضمون الموضوعي للعلم ، تنسى هذه
المظاهر الفردية وتمحي ، لأن أحد الأغراض
الحقيقية للفكر العلمي هو الإقلال من كل العناصر
الشخصية والموضوعية » .

ومن المعروف أيضا أن عالم الاجتماع
الشهير ماكس فيبر كان يعتقد في إمكان القيام
بدراسات سوسيولوجية منفصلة عن القيم
الأيديولوجية ، وأن على علم الاجتماع إذا كان
يزيد أن يكون علميا حقيقة أن يقوم على عدم
التحيز الأيديولوجي في التحليلات التي يقدمها .
وقد اعتنق علم الاجتماع الألماني في الفترة من
عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٠ هذه المبادئ بحماس
شديد ، بالرغم من وجود بعض المعارضين .

وخلاصة ما سبق كله ، وجود اتجاهين
متعارضين ومتطرفين . الأول منهما ينطلق من
البلاد الاشتراكية ، ويرى أن العلوم الاجتماعية
أيديولوجية بحكم طبيعتها من ناحية ، وأن المادية
التاريخية تنفي عن قيام علم الاجتماع . بالمعنى
البورجوازي ، و أنها هي نفسها علم الاجتماع
الماركسي . والثاني يسود في البلاد الرأسمالية ،
ويزعم أن العلوم الاجتماعية يمكن أن تنشأ وتقوم
وتجرى أبحاثها متحررة من أسرار الأيديولوجية ،
ما دامت « الموضوعية » ستكون طابعها .

غير أن السنوات الأخيرة شهدت تغييرات
جوهرية في كلا الاتجاهين . فالإتجاه الأول ، وإن

الاجتماعية المعادية لها ويتطلب ذلك بالضرورة معرفة الأسباب التي تحكم السلوك المعمل لمختلف الطبقات الاجتماعية في ظل الظروف المختلفة والمتغيرة .

وتبدو فائدة الاعتماد على المعرفة العلمية الاجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة في جميع الأحوال سواء وهي لم تحصل على السلطة بعد، أو بعد حصولها على السلطة فعلا .

فإذا كانت الطبقة العاملة لم تحصل على السلطة بعد ، فمعنى ذلك أنها ستكون مستغلة بواسطة رأس المال ، ومضطرة - خلال صراعها في سبيل التحرر - إلى أن تعتمد على صفوف السلوك المعمل المختلفة للطبقات الاجتماعية الأخرى . ومن ثم تبدو أهمية معرفة المحددات التي تحكم سلوك مختلف الطبقات ، والعلوم الاجتماعية وحدها هي التي يمكن أن تمددها بهذه المعرفة .

وبعد ما تستولى الطبقة العاملة على السلطة ، فإنها ستجد نفسها مضطرة للصراع ضد الدول الرأسمالية ، وضد الثورة المضادة في نفس البلد الذي قامت فيه الثورة ، ولذلك فسرعان ما تجد نفسها ملزمة بحل عديد من المشكلات البالغة الصعوبة ، التي تتعلق بتنظيم الانتاج والتوزيع وتثور بهذا الصدد عدة أسئلة: كيف يمكن وضع خطة اقتصادية ؟ كيف يمكن الاستفادة من جهود المثقفين ؟ كيف يمكن كسب الفلاحين والبرجوازية الصغيرة وضمهم الى صفوف الثورة الاشتراكية ؟ كيف يمكن اعداد وتأهيل قادة اداريين مدربين من الذين خرجوا من صفوف الطبقة العاملة ؟ كيف يمكن التعامل مع الفئات العريضة في المجتمع الغير الواعية بوضعها الطبقي ؟

كل هذه الأسئلة وعديد غيرها ، تتطلب الاجابة عليها معرفة عميقة بالمجتمع ، وبالطبقات التي يتكون منها ، وبخصائصها . وبمحددات سلوكها في ظل الظروف المختلفة . وتتطلب الاجابة ايضا معرفة بالحياة الاقتصادية وبالمفاهيم الاجتماعية التي تتبناها مختلف الجماعات الاجتماعية .

وبعبارة مختصرة ، فإنه تدمو الحاجة الى الاستخدام التطبيقي للعلوم الاجتماعية بيد أن المهمة التطبيقية المتعلقة باعادة البناء الاجتماعي لا يمكن تحقيقها بنجاح الا بتطبيق سياسة علمية للطبقة العاملة ، أي سياسة مؤسسة على نظرية

ظل حتى الآن مصرا على تأكيد الطابع الايديولوجي للعلوم الاجتماعية في البلاد الرأسمالية ، الا أنه - وخصوصا بعد انتهاء عهد ستالين - اعترف بإمكان قيام علم اجتماع ماركسي امبريقي بجوار المادية التاريخية .

وتخلى الاتجاه الثاني من مزاعمه المطلقة السابقة ، التي كانت تؤكد بغير تحفظ الموضوعية البحتة للعلوم الاجتماعية ، وبدأ يعترف بتأثر هذه العلوم بالايديولوجية بدرجة صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . وقد أسهمت في هذا التغيير بصورة بارزة كتابات رايت ميلز ، وجونار ميردال ، وذاهر ندورف .

ونريد في هذا المقال الوجيز أن نركز على التغيرات التي لحقت بالاتجاه الأول ، ونعني نشأة علم الاجتماع الماركسي امبريقي ، لما له من أهمية قصوى من النواحي النظرية والتطبيقية على السواء .

غير أنه لا بد لنا من أن تعرض أولا للموقف الماركسي التقليدي من علم الاجتماع قبل أن نتحدث عن التغيرات التي لحقت به .

أولا

الموقف الماركسي التقليدي من علم الاجتماع

لعل خير ما يصور الموقف الماركسي لتقليدي من علم الاجتماع هو كتاب الفيلسوف الماركسي المعروف بوخارين الذي نشره صمام ١٩٢١ الموسوم : « نظرية المادية التاريخية : كتاب شعبي في علم الاجتماع الماركسي » .

(وقد أعيد نشره في باريس عام ١٩٦٧) .

وقد حرص بوخارين على أن يبرز بكل وضوح ومنذ السطور الأولى لمقدمة كتابه الطابع الطبقي للعلوم الاجتماعية . فهو يهاجم موقف العلماء البرجوازيين في حديثهم عن العالم وكأنه شيء غامض تحوطه الأسرار ، في حين أن أي علم يجب مصدره في حاجات المجتمع ، أو في حاجات الطبقات الاجتماعية التي تكونه . وليس يكفي في نظره معرفة طبيعة الأشياء التي تحوطنا ، بل لا بد من أن نتبنى أفكارا واضحة عن المجتمع . وتبدو أهمية ذلك بالنسبة للطبقة العاملة التي لا بد لها أن تتزود - وهي تخشوش صراعها الطويل ضد الاستغلال - بمعرفة واعية ومتمممة بالعوامل التي تحكم سير المجتمع . فلا بد لها أن تتنبأ بالوسائل التي ستتجهها بأهى الطبقات

نظام آخر تخفى فيه سيطرة السادة على
الأقنان ؟

وهل يستطيع البورجوازي - في ظل النظام
الرأسمالي - أن يتخلل علاقات اجتماعية لا تقوم
على أساس السعي لتحقيق أكبر أرباح ممكنة ،
أو هل يستطيع أن يضع يده على مواطن الضعف
والخلل في النظام الرأسمالي التي تجعل تفريه
واحلاله بنظام اجتماعي أكثر تقدمية أمرا
محتوما ؟

غير أن وضع الطبقة العاملة يختلف اختلافا
جلريا عن وضع غيرها من الطبقات . فهي ليست
متمسكة بالنظام الرأسمالي وفريد الحفاظ عليه
بكل ما تملك من قوى ، مما كان من شأنه أن
يحجب عنها الرؤية الواضحة ، بل انها تريد أن
تحطم هذا النظام الرأسمالي لكي تنبم على
أساسه نظاما جديدا تسود فيه الطبقة العاملة .
ومن هنا فاطبقة العاملة في اعتمادها على العلم
الاجتماعي البروليتاري تكون قد تزودت
بامكانيات ضخمة تسمح لها بانفهم الموضوعي ،
والنتيئة الدقيق بامكانيات التطور الاجتماعي .

العلم الاجتماعي البروليتاري :

واذا كان الامر كذلك فيبقى سؤال هام :
ما هو هذا العلم الاجتماعي البروليتاري ؟

يجيب بوخارين بوضوح ان هذا العلم هو
نظرية المادية التاريخية التي هي نفسها يمكن
ان تكون علم الاجتماع الماركسي .

ويرد بوخارين على بعض الرفاق ان الذين
ذهبوا الى انه لا يمكن اعتبار المادية التاريخية
بمشابة علم اجتماع ماركسي . وقد افاموا
اعتراضهم على اساس اسباب ثلاثة :

• ليس هناك سوى منهج واحد للمعرفة
التاريخية ، ولا يمكن اقامة الدليل على صحة
اي مجموعة من الحقائق المعاصرة الا اذا
اصبحت حقائق تاريخية تخضع للتبجيس .

• ان فكرة « علم الاجتماع » غامضة وغير
محددة . فبعض العلماء يقصدون بعلم الاجتماع
علم الثقافة البدائية وأصول الصور الاولى
للحياة الانسانية (كالأسرة مثلا) ، والبعض الآخر
يعنون به مجموع النظرات والتأملات البالغية
المنعوض حول مختلف الظواهر الاجتماعية على
وجه الامجال .

علمية ، توضع في خدمة طبقة البروليتاريا ، وهي
النظرية التي صاغها ووضع دعائمها كارل ماركس .

وهكذا - وعلى ضوء المرض السابق -
استطاع بوخارين ببراعة ان يربط بين العلوم
الاجتماعية وبين الطبقات الاجتماعية ربطا محكما
وثيقا . فهناك علوم اجتماعية لبورجوازية
تساعدنا في السيطرة على باقي الطبقات وتحاول
الحفاظ على كل الأوضاع القائمة التي تحبس
استغلال الانسان للانسان . ولكن هناك ايضا
علوم اجتماعية للطبقة العاملة تساعدنا في تحرير
الانسان وفرض المثل والقيم التي تدعو لها
الاشتراكية العلمية .

ويهاجم بوخارين بشدة مزاعم الفلاسفة
وعلماء الاجتماع البورجوازيين الذين ذهبوا الى
انهم اقاموا « علما بحتا » يتميز بالموضوعية
المطلقة . وهم على هذا الأساس يزعمون الا ان
لهم بصراع الصالح في المجتمع ، ولا ينسب الى
الربح ، ولا بكل ما يتعلق بامور الحياة الدنيوية .
وهم بذلك يصورون عالم الاجتماع وكأنه اله
يهبط في جبل عال ، وشرع يلاحظ - غير انفعال -
الحياة الاجتماعية بكل ما تضطرم به من صراعات !

وليست هناك حاجة لبذل مزيد من الجهد
لتفنيد هذه النظرة المثالية . فالعلم يجد مصدره
في صميم الحياة العملية . ولذلك يبدو واضحا
ضرورة الاعتراف بالطابع الطبقي للعلوم
الاجتماعية . وليس من الصعوبة في شيء ان نفهم
ان لكل طبقة اجتماعية رؤيتها الخاصة للعالم ،
ومن ثم لا بد ان يكون العلم الاجتماعي لبورجوازية
مختلفا اختلافا جليا عن العلم الاجتماعي للطبقة
العاملة .

ويستخلص بوخارين من كل المناقشات التي
يعرضها نتيجة اساسيه مفادها ان العلم
الاجتماعي البروليتاري « اسمي » من العلم
الاجتماعي البورجوازي . غير انه يحرص على
ان يدمم هذه النتيجة بحيثيات موضوعية :
اهمها ان الذين يعيشون في ظل نظام اجتماعي
محدد يؤمنون به ، لا يستطيعون تجاوز الحدود
الضيقة لهذا النظام لكي يستشفوا المستقبل ،
أو لكي يتنبأوا بامكانية التطور الاجتماعي نحو
نظام اجتماعي مغاير يقوم على انقاض النظام
القديم .

وهل كان السيد الاقطاعي - في ظل النظام
الاقطاعي - يتصور علاقات اجتماعية في ظل

الاستمارة بمقدمة طلب فيها من عمال الريف والمدن أن يملأوا هذه الاستمارة ، لأنهم فقط الذين يستطيعون أن يصفوا « بمعرفة كاملة الشرور التي يعانيون منها » . ووجه النداء أيضا الى الاشتراكيين من كافة الاتجاهات الذين يرغبون في الإصلاح الاجتماعي ، باعتباره أن عليهم أيضا أن يحصلوا على معرفة **مضبوطة وواقعية** positive بالظروف التي تعيش فيها الطبقة العاملة . وإعلنت هذه المقدمة أيضا أن الاجابات سيصنف تصنف لكي تكون أساسا لسلسلة من المقالات التي ستنشر في « المجلة الاشتراكية » ، على أن تجمع بعد ذلك في كتاب .

وتنقسم استمارة البحث التي اعددها ماركسي الى أربعة اقسام رئيسية تحتوي على ١٠١ سؤالا .

ومن استعراض هذه الاستمارة ، يمكن القول انها تتضمن المطلة بالغة الدقة والتنوع . يمكن على أساسها بالفعل معرفة وتقدير الظروف التي تحيا في ظلها الطبقة العاملة . (نص الاستمارة منشور في كتاب بوتومور وروبل ، راجع قائمة المراجع) . واذا كانت نتائج البحث لم يتح لها ابدا أن تعلن لظروف متعددة ، إلا أن هذا البحث بذاته - بالإضافة الى بحوث متعددة أخرى - يعد شاهدا على منهج كارل ماركس في صياغة تحليلاته ونظرياته ، والتفاته الى ضرورة النزول الى الواقع لوصفه وجمع البيانات الواقعية عنه ، تمهيدا لفهمه وتحليله .

ومن المؤسف ان هذه التقاليد العريقة في الفكر الماركسي ، قد تجاهلها الفكر الماركسي الرسمي ، ووضع بذلك سدا مائعا أمام تطور الفكر السوسيولوجي الماركسي ، لم يتح له أن ينهار الا بعد انتهاء الحقبة الستالينية ، وسيادة موجات التحرر في مختلف الميادين ، مما انعكس اثره على أوضاع العلوم الاجتماعية في الاتحاد السوفيتي وغيره من البلاد الاشتراكية .

ثانيا

نشأة علم الاجتماع الماركسي الاميريقي

تتابعت منذ عام ١٩٥٩ البحوث الاجتماعية الاميريكية (ونعني بها البحوث الميدانية التي تنزل الى الواقع نفسه لوصفه وجمع البيانات المتنوعة عنه) ، في البلاد الاشتراكية وبوجه خاص في الاتحاد السوفيتي وبولندا والمجر .

• والبعض التسالط بقيمونه على اساس التشبيه التفسفي للمجتمع بالكائن الحي (اشارة الى المدرسة العضوية او البيولوجي في علبم الاجتماع) . غير ان بوخارين حرص على تفنيد هذه الاعتراضات جميعا ، فهي زائفة كلها في نظره . فاذا كان هناك خلط سائد في المعسكر البورجوازي فليس هناك ما يدعو الى خلق خلط جديد في المعسكر الاشتراكي ويتساءل :

اي مكان ينبغي ان تشغله نظرية المادية التاريخية؟ ان مكانها ليس قطعيا في مجال الاقتصاد السياسي ، ولا في مجال التاريخ ، ولكن موضعها الصحيح في علم المجتمع العام وفي قوانين تطوره ، اي في علم الاجتماع بعبارة أخرى . وكون نظريته المادية التاريخية تكون منهجا للتاريخ لا يقلل من اهميتها بحسبانها نظرية سوسيولوجية .

والحقيقة ان هذه النظرة الخاصة لمسلم الاجتماع ، التي تتمثل في معارضة علم الاجتماع البوردوازي بحسبانها يخدم أساسا مصالح الطبقات الرأسمالية المستغلة ، واعتبار المادية التاريخية هي بذاتها علم الاجتماع الماركسي ، هي التي أتيح لها ان تسود الفكر الماركسي الرسمي ردحا طويلا في الزمان . وقد أدى هذا الموقف الى الاكتفاء - في دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة - بالتجليات النظرية الدوجماتيكية التي تستند الى المقولات الأساسية في المادية التاريخية ، مما أدى الى عقم التفكير السوسيولوجي الماركسي . ومن المفسرير ان انصار هذا الاتجاه ودعائه تفاقلوا من الأساس الواقعي الذي صيغت على أساسه نظرية المادية التاريخية . فمن المعروف ان كارل ماركس وفردريك انجلز - اللذين ينسب لهما فضل صياغة هذه النظرية في صورتها النهائية - لم يقتضا بمجرد التفكير النظري ، بل نولا الى أرض الواقع لكي يكتشفوا أبعادها المختلفة باستخدام وسائل البحث الاجتماعية الأساسية كاللاحظة المباشرة وغيرها . بل لقد قام كارل ماركس - أبعد من هذا - باعداد استمارة بحث questionnaire من النوع الذي يشيع

استخدامه الآن في البحوث الميدانية السوسيولوجية لتكون أداة بحث في موضوع « بحث ظروف الطبقة العاملة » . في ٢٠ أبريل سنة ١٨٨٠ وقد نشرت هذا الاستمارة في « المجلة الاشتراكية » التي كانت تصدر في فرنسا كما طبع منها ٢٥٠٠ ألف نسخة وزعت على العمال في كل أرجاء فرنسا . وقد صدرت

وزاد الاهتمام بعلم الاجتماع بوجه خاص . ومن بين الشواهد التي تضرب للدلالة على نمو هذا العلم اشترك أكثر من ٦٠٠ عالم اجتماع روسي في مؤتمر عقد في لينتسجراد في فبراير سنة ١٩٦٦ .

ولكن لا يمكن القول ان هذه التغيرات تعد في حد ذاتها مراجعة جوهرية للأسس النظرية للماركسية . حقا لقد ازدادت البحوث الاجتماعية الميدانية ، ولكن كل هذا يتم حتى الآن في حدود الاطار التقليدي للتحليل الماركسي .

غير ان اهم تطور حدث هو ظهور علم اجتماع مستقل بجوار المادية التاريخية . ولقد سبق لنا ان عرضنا للموقف التقليدي الماركسي الذي لم يكن يتصور قيام علم اجتماع بجسوار المادية التاريخية ، ما دامت المادية التاريخية نفسها كانت هي - وفق هذا النظر - علم الاجتماع الماركسي .

ولعل هذا ما دفع بالباحثين في مختلف البلاد ان يهتموا اهتماما بالغا بهذه التغيرات في النظر لعلم الاجتماع ، ويرد هذا الاهتمام الى عدة امور . فقد اعتبر نمو هذا العلم دلالة على تغيرات مصاحبة في الاتجاهات الايدولوجية . ولما كانت هذه الاتجاهات أحد محددات ضروب السلوك السياسي ، فان علم الاجتماع الماركسي الامبريكي يشر اهتمام الباحثين الذين يهتمون بمتابعة السياسة والايدولوجية في البلاد الاشتراكية . وترد هذه الأهمية ثانيا الى ان الماركسية أكدت تأكيداً شديداً - كما بينا - على الدور الايدولوجي الذي يلعبه علم الاجتماع ، والآثار المترتبة على ذلك من سيادة النظرات الذاتية التي لا تعطى منظورا موضوعيا وحقيقيا للواقع الاجتماعي في المجتمعات الانسانية ، وكل ذلك على أساس ان المادية التاريخية تكني بذاتها وتفتن عن علم الاجتماع . ومعنى ظهور بحوث ميدانية اجتماعية والاعتراف بأهميتها ان هناك اتجاهنا نحو التخلي - لدرجة صغيرة او كبيرة - عن هذا الموقف ، وهذا ما يعطى لهذا التغير أهمية كبرى .

كل ذلك بالإضافة الى أن عددا من المفكرين الماركسيين يرون أن أهمية هذه البحوث الميدانية تكمن في معرفة الى أي مدى ستصدق أفكار وتحليلات ماركس التي بنيت أساسا في

ضوء تحليل المجتمعات الرأسمالية . على المجتمعات الاشتراكية المعاصرة التي تم فيها تلميم وسائل الانتاج ، وسادت فيها علاقات انتاجية جديدة . وبثور التساؤل ايضا بهذا الصدد : هل يمكن اعطاء تفسير جديد لتصوص ماركس يسمح لها بالتكيف مع هذه الظروف الجديدة ؟

وأخيرا ، يمثل هذا الاتجاه نحو البحوث الميدانية التي تجري الآن على نطاق واسع في البلاد الاشتراكية الأمل في جمع المادة العلمية اللازمة ، لصياغة نظرية للمجتمع الاشتراكي ، وهي بذلك تقدم لأول مرة في التاريخ إمكان بناء مثل هذه النظرية ، ليس على أساس استنتاجات نظرية ، بل على أساس نتائج عممت من واقع الحقائق التجريبية .

اسباب نشأة علم الاجتماع الماركسي الامبريكي :

قد يبدو من المناسب أن نطرح السؤال الهام التالي : ما هي العوامل التي ساعدت على نمو وتطور علم اجتماع ماركسي امبريكي ؟

بغير دخول في تفاصيل عديدة لا يسعها هذا المقال ، يمكن القول ان هذه الاسباب ترد الى ثلاثة رئيسية :

• وجود تراث وتقاليد لعلم الاجتماع الامبريكي في البلاد الاشتراكية ذاتها . ولقد اشرنا الى مناهج البحث التي اتبعها كارل ماركس وأنجلز في بحثهما ، غير أنه بالإضافة الى ذلك كانت توجد في الاتحاد السوفيتي وفي بولندا على وجه الخصوص تراث عريق وتقاليد علمية خاصة بالبحوث الاجتماعية الميدانية .

• طموح علماء الاجتماع الماركسيين وتطلهم لربط مجالات عملهم بالحركة السوسولوجية العالمية .

• التحولات الاجتماعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات التطبيقية للاتصافاد ولسياسة التخطيط في البلاد الاشتراكية .

غير أن هذا التطور الحاسم اثر بطبيعة الحال أسئلة عديدة حول العلاقة بين علم الاجتماع الماركسي الامبريكي ، الذي بدأ ينمو بسرعة وبين المادية التاريخية .

علم الاجتماع الماركسي الامبريكي والمادية التاريخية انقسم المفكرون الماركسيون في الاجابة على هذا السؤال الى ثلاث فئات :



رات الفئسة الأولى أن المادية التاريخية كما صاغها ماركس وانجلز ولينين ، هي نظرية سوسيولوجية عامة ، وأن هذه النظرية قد ثبتت صحتها وحقت بطريقة قطعية . ولكن من الضروري - ومن أجل التطبيق - اتجاهاً ببحوث اجتماعية واقعية . وهذه البحوث يمكن اعتبارها المادية التاريخية نفسها في مجال « الفصل » أو « التطبيق » .

وهذا الرأي اعتنقه الجيل القديم من العلماء السوفيت الذين وأن آمنوا بفائدة البحوث الاجتماعية ، إلا أنهم استبعدوا إمكانية صياغة نظرية سوسيولوجية لا تندرج داخل أطوار الصيغة الكلاسيكية للمادية التاريخية .

أما الفئة الثانية فقد كانت أكثر جراءة ، إذ ذهب إلى إمكان أن تؤدي البحوث الميدانية إلى إدخال تغييرات على الصيغ العامة للمادية التاريخية بصورة الكلاسيكية .

ويرى أنصار هذا الرأي إمكان صياغة « نظريات متوسطة » تنطبق قبل أي شيء على الظواهر والعمليات التي لم تظهر من قبل في المجتمعات التي سبق لماركس وانجلز ولينين أن أخضعوها لتحليلاتهم .

ويؤسس هذا الرأي على أن المجتمعات المعاصرة - ويشمل هذا المصطلح ليس فقط المجتمعات الاشتراكية ، ولكن أيضاً المجتمعات الرأسمالية وما بعد الرأسمالية وما يسمى الاستعمار - لم تكن معروفة للمفكرين الكلاسيكيين الذين لم يعرفوا إلا الآثار المترتبة على العلم والتكنيك الحديث ، ولا آثار التخطيط الاقتصادي .. الخ . وعلى ذلك نعلم الاجتماع الماركسي ينبغي أن ينشئ نظريات جديدة تنطبق على مجالات الواقع الجديدة ، - تفيداً في ذلك بالوجهات العامة للنظريات الكلاسيكية .

وأخيراً نجد الفئة الثالثة التي اعتنقت أكثر الآراء تطرفاً ، إذ ذهب دعاتها إلى أن المادية التاريخية في صيغتها الكلاسيكية كانت نظرية المجتمع الرأسمالي في المرحلة السابقة للشورة العلمية والتكنولوجية . وهي تقدم لعلم الاجتماع الماديء المعرفية والمنهجية البالغة العمومية . ولكن على علم الاجتماع الماركسي الأميريقي أن يصوغ نظرية المجتمع المعاصر .

وعلى ذلك فالبحوث الميدانية لا تكون فقط مصدراً يضمن وصف الواقع التي تثبت صحة

النظرية ، ولكنها تمثل الأساس الذي يبنى عليه التخطيط والتطبيق الاقتصادي والاجتماعي . وهي تقدم أيضاً المادة اللازمة لصياغة التعميمات ، وبناء نظرية المجتمع المعاصر ، بوسائل إنتاجه الجديد ، ومبادئه الجديدة في التدريب الاجتماعي ، ودوره الجديد في ثقافة الجموع ..

هذه هي الفئات الثلاث من الآراء التي حاولت حل مشكلة العلاقة بين علم الاجتماع الماركسي الأميريقي والمادية التاريخية .

غير أن قائمة المشكلات لم تنته بعد ، إذ عاد التساؤل يثور من جديد : إذا كان الأمر كذلك فما هي الفروق المميزة إذن بين علم الاجتماع الماركسي الأميريقي وعلم الاجتماع الأميريقي غير الماركسي ؟

السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسي الأميريقي

هناك عديد من علماء الاجتماع في البلاد الاشتراكية لم يحاولوا الإجابة على هذا السؤال ، على أساس أن ذلك لا يدخل في اختصاصهم ، وإنما هو من اختصاص المهتمين بموضوع الأيديولوجية بمعناها العام .

ويضيق المقام هنا عن الدراسة التفصيلية
للفروق المنهجية بين علم الاجتماع الماركسي
الأمبريقي وغيره مع أهميتها الكبيرة .

وقد يكون من المناسب أن تعرض للاتجاهات
الأساسية في البحوث الاجتماعية الميدانية في
أحد البلاد الاشتراكية كالاتحاد السوفيتي ، لكي
تبرز بوضوح كيف تتحول المطلقات النظرية الى
واقع عملي مترجم في سلسلة مترابطة من
البحوث والدراسات .

**الانجازات الأساسية للبحوث الاجتماعية الميدانية
في الاتحاد السوفيتي :**

يمكن حصر البحوث الاجتماعية الميدانية
المختلفة في الميادين الآتية :

**١ - دراسات التغير في البناء الاجتماعي
للمجتمع :**

• ويدرس هنا التغيرات في الطبقة العاملة
والفلاحية .

• العمل الذهني والعمل اليدوي .

• الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة .

• الاستخدام الرشيد للقوى العاملة .

٢ - المشكلات الاجتماعية للعمل :

• تغير شكل العمل ومضمونه .

• تغير الاتجاهات آراء العمل .

• اختيار المهنة .

• جاذبية بعض المهن للشبان .

• المستوى الثقافي والفني للعامل في
المشاريع الصناعية .

• التقدم التكنيكي واثره على مضمون
العمل وشكله .

• أهمية العوامل الاجتماعية - النفسية في
رفع الانتاجية وفي تنظيم الإنتاج .

**٣ - المشكلات الاجتماعية للحياة اليومية
والخدمات العامة :**

• تغير بناء الأسرة ووظائفها .

• اثر اشتغال النساء على مراكزهن في
المجتمع والأسرة .

• الاسس الأدبية morales للحياة

اليومية ولحياة الأسرة .

• التغيرات الاجتماعية والثقافية لدى
النساء .

غير أننا نستطيع أن نعتمد في الاجابة على
هذا السؤال على عالم الاجتماع السوفيتي
او سييوف الذي عرف علم الاجتماع الماركسي
الأمبريقي بأنه :

« العلم الذي يهتم بقوانين نشأة ونمو وتغير
التكوينات الاجتماعية والاقتصادية » . ويرى ان
هذه القوانين تفصح عن نفسها في وجود الظواهر
والعمليات والوقائع الاجتماعية المحسوسة المادية
والروحية .

ويرى ان السمات الأساسية لهذا العلم أربع
وهي :

١ - اتحاد وثيق مع الحياة ، والوحدة التي
لا انفصام لها بين البحوث السوسولوجية
النظرية والواقعية ، وبين المنهج والنظرية .

٢ - يحدد نشاطه ارادة توجيه الحياة
الاجتماعية ، وهذه السمة تؤدي الى السمة
الثالثة .

٣ - تنمية المبادئ العلمية للتخطيط والتغيرات
الاجتماعية .

٤ - وآخر ما يميز علم الاجتماع الماركسي
الأمبريقي هو نزعته الانسانية .

ويرى عدد من علماء الاجتماع الماركسيين
ان هذه السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسي
الأمبريقي قد أدت الى ان يكون له ايضا سمات
منهجية مميزة . فهو وان كان حقيقة يستخدم
مختلف أدوات البحث السوسولوجي ، مثل
الملاحظة ، والمقابلة ، والمسح ، ومقاييس
الاتجاهات ، وهي مطابقة تماما للأدوات
المستخدمة في علم الاجتماع غير الماركسي ، إلا ان
الاختلافات تظهر في أربعة أمور أساسية :

• في المواجهات المنهجية العامة .

• في طريقة استخدام هذه الأدوات .

• في طريقة جمع البيانات .

• وأخيراً في تفسير البيانات .

وعلى هدى هذه الموجهات يدرس علم
الاجتماع الماركسي الأمبريقي الظواهر الاجتماعية
حريصاً على اكتشاف العلاقات التي تحكم
التكامل بينها ، واضعاً ايها في مسارها
التاريخي .

تستخدم نتائجها في التخطيط الاجتماعي ، وكذلك في أفضل استخدام للأشخاص في فروع الإنتاج .

٨ - مناهج البحث : المنهج وأدوات البحث :

ان البحوث الاجتماعية الميدانية تقوم على أساس استخدام مناهج وأدوات بحث تصلح لجمع البيانات الأساسية عن مختلف ضروب النشاط الانساني : في العمل ، والحياة السياسية ، والحياة الأسرية .. الخ . ويستخدم لذلك :

- تحليل البيانات الاحصائية من واقع السجلات الرسمية أو الفردية .
- اجراء مسح .
- استخدام الملاحظة .

- اجراء المقابلات المختلفة .
- تسجيل وتحليل الخبرات الاجتماعية .

- القيام بدراسة حالات فردية (case-studies) وهذا التنوع في الادوات تقتضي بحث تكييفها على ضوء أسس منهجية علمية لكي تتناسب مع كل مشكلة .

وتنبى الإشارة اخرا الى التركيز الشديد على دراسة الموضوعات الآتية :

- أساليب التحليل الكمي للظواهر الاجتماعية .
- نميط الظواهر الاجتماعية على الآلات الحاسبة والالكترونية .
- اقامة أنماط رياضية تمثل سلوك الظواهر الاجتماعية .

- تنمية مناهج ذات طابع سيبرنيطي ورياضي لمشكلة التوجيه الأمثل للعمليات الاجتماعية .

- انشاء أسس علمية لنظام آلي يعتمد على الآلات الحاسوبية لجمع ومعالجة البيانات الاجتماعية .

- اهتمام خاص ومركز بتنمية الأساليب الاحصائية والرياضية التي يمكن بموجبها ان يتحول علم الاجتماع الى علم بحث .

نظرة نقدية لعلم الاجتماع الماركسي الأميريقي : قد يكون من باب التعجل - وملامح الصورة الكاملة لعلم الاجتماع الماركسي الأميريكي لم تكتمل بعد أن ننظر له نظرة نقدية شاملة ، وخصوصا ونحن لا نمتلك كافة البيانات التي تسمح لنا بذلك نتيجة لندرة المراجع ، وعدم انتظام الدوريات العلمية الاشتراكية ، غير أن

- وقت العمل والوقت الحسرو وقت الترفيه .

- طرق الحياة والتحضر .
- طرق غرس قيم الجماعة في نفوس الأفراد .

- تطوير الخدمات العامة لتلائم اصدار الوقت خارج ساعات العمل .

- تخطيط المدن والقرى لتتلاءم مع مبادئ الحياة الشيوعية .

- طرق جعل الثقافة والعلم تلعب الدور البارز في حياة الانسان .

- طرق شغل أوقات الفراغ .

٤ - دراسة مشكلات التوجيه الاجتماعي :

ويهتم بهذه الدراسة معهد الدولة والقانون ، الذي يعنى بدراسة فاعلية النصوص القانونية في التوجيه الاجتماعي .

٥ - دراسة للمشكلات الاجتماعية المصاحبة لمحو الفروق بين المدينة والقرية :

- وتهدف هذه البحوث الى دراسة التنظيم الأمثل للإنتاج الزراعي .

- تطوير حياة الريفيين وثقافتهم ليقربوا من أهل الحضر .

- الأسس الاجتماعية للاسكان .
- دراسة بعض المسائل السكانية المتعلقة بالهجرة من الريف الى المدينة .

٦ - المشكلات الاجتماعية المتعلقة بالحيسنة الذهنية والثقافية :

- بحوث متعلقة تخلق الشخصية الإيجابية اجتماعيا والمبدعة .

- دراسة لفعالية وسائل وأساليب العمل الايديولوجي .

- الجوانب الاجتماعية - النفسية لتطور وسائل الاعلام (السينما - المراديو - التليفزيون) .

- دراسة للعلاقة بين التعليم والأخلاق والتطور الجمالي واللياقة البدنية في تشكيل الانسان الجديد .

٧ - المشكلات الاجتماعية ، والاجتماعية النفسية للأشخاص :

- دراسة للفروق الفردية بين الأشخاص ،

هذا لا يمنع من أن تقدم عددا من الملاحظات النقدية العامة ، التي هي في الواقع أقرب إلى أن تكون تساؤلات بحث عن أجوبة .

١ - أول ما نلاحظه أن التغير الجوهري الذي حدث في ميدان علم الاجتماع الماركسي هو ذلك الإندفاع الشديد نحو إجراء البحوث الاجتماعية الميدانية بعد فترة عقم طويلة ، قنع فيها الفلاسفة والمنظرين الماركسيين بإجترار الصيغ التقليدية الماركسية المحفوظة ، ظانين بذلك أنهم يستطيعون بواسطتها تفسير أي مجموعة من الحقائق الاجتماعية تحت أي ظرف من الظروف التاريخية . وكان الماركسية قد امتلكت الحقيقة مرة واحدة وإلى الأبد !

وقد تكلفت الحقائق الاجتماعية المعاصرة بآثبات بطلان هذا المنهج . فالواقع دائما أغنى من النظرية ، بل إن الواقع هو نفسه المحك الرئيسي لنسجة أي نظرية اجتماعية .

غير أن مجرد تزايد البحوث الاجتماعية الميدانية ، وإن كان له أهميته ، إلا أن الأهم من ذلك معرفة مدى ما تستفرد عنه عملية جمع البيانات الاجتماعية المتنوعة وتحليلها من انعكاسات على البناء النظري للمادية التاريخية فالبحوث الميدانية الاجتماعية وإن كانت حتى الآن تجري في أطرافها ، إلا أن ذلك ليس ضمانا إبداعيا . فمن المتصور أن تثور البيانات على النظرية ، تماما - وفق تشبيه فرنسي موفق عن جمود القوانين - مثلما تثور الوقائع على التقنين ! ومعنى ذلك أنه قد تكشف البيانات الميدانية عن قصور بعض جوانب النظرية عن التفسير ، وتبدو الحاجة حينئذ ملحة لتعديلها ، أن لم يصل الأمر إلى البحث عن أسس أخرى للتفسير .

وهناك شواهد عديدة على ما تذهب إليه . والمثل الحي لذلك هو موضوع الطبقات الاجتماعية . فمن المعروف أن التعريف الماركسي الكلاسيكي للطبقة يرتبطها بملكية أدوات الإنتاج وبوضعها من نسق الإنتاج الكلي . ولكن ثار السؤال الهام التالي : هل تختفى الطبقات الاجتماعية تماما في مجتمع اشتراكي تم فيه فعلا تأميم وسائل الإنتاج واختفى التمايز الطبقي ، وأصبح المجتمع - كالمجتمع السوفيتي المعاصر - مكونا من أشخاص لا من طبقات ؟

يبدو أنه بتحليل المجتمعات الاشتراكية المعاصرة ، من السهل ملاحظة أنه وإن اختلفت

الطبقات بصورتها التقليدية ، إلا أنه بدأ يحل محلها فئات اجتماعية couches sociales متمايزة ، قد تنهض على أساس مهني أو على أسس أخرى . ومن هنا تدعو الحاجة إلى إعادة النظر في نظرية الطبقات الاجتماعية التقليدية لكي تستطيع أن تفسر الحقائق الجديدة في المجتمعات الاشتراكية .

٢ - يذهب علماء الاجتماع الماركسيين - كما أشرنا - إلى أنه من بين السمات الرئيسية لعلم الاجتماع الماركسي الميمري أن له سمات منهجية خاصة تميزه . بعبارة أخرى ، هذا العلم وإن كان يستخدم - في الظاهر - نفس مناهج وأدوات البحث المستخدمة في علم الاجتماع غير الماركسي ، إلا أنه يتميز عنها من نواح متعددة أهمها : في الوجهات المنهجية العامة ، وفي طريقة استخدام أدوات البحث ، وفي طريقة جمع البيانات ، وأخيرا في تفسيرها .

والحقيقة أن عددا كبيرا من الباحثين يرفضون وجهة النظر هذه ، ويعتبرونها من قبيل الزاعم الفارغة . فالمنهج العالي في نظرهم واحد في كل مكان . الملاحظة هي الملاحظة سواء تمت في المجتمع الروسي أو في المجتمع الأمريكي ، والمقابلة هي المقابلة ، واستمارة البحث هي استمارة البحث فما الفرق إذن ؟

تذكرنا هذه المناقشة بعبارة حكيمه سبق لعالم الاجتماع الأمريكي المعروف رايت ميلز أن سماها في كتابه النقدي القيم « الخيال السوسيولوجي » . فقد ذهب ميلز إلى أنه « يبدو أن هناك خلافا بين من يلاحظون بغير تفكير ، وبين من يفكرون بغير ملاحظة ، ولكن الأخطر من ذلك معرفة أي أنواع الملاحظة تجري وأي أنواع التفكير تمارس » .

ويشير ميلز هنا ببراعة إلى الاتجاه التجريبي الذي أفرق فيه علماء الاجتماع الأمريكيون أنفسهم بغير الاستناد إلى أطر نظرية سابقة لتوجيههم ، ومن ناحية أخرى يشير إلى هؤلاء الذين ينفقون بالتعليقات النظرية التي لا تسندوها شواهد واقعية .

غير أن الأهم من ذلك إشارته إلى أنه ليس هناك تفكير هكذا على الإطلاق . كما أنه ليست هناك ملاحظة هكذا على وجه الإجمال . فالهم تحديد نوع الملاحظة وإبراز نوعية الحقائق التي تخضع لها . ويبدو صدق هذه الإشارة

الأميريقي ، وهي ملاحظات لا تغنى عن دراسة اوفى وأشمل .

خاتمة : بهذا نصل الى خاتمة دراستنا الوجيزة للاتجاهات الحديثة في عالم الاجتماع الماركسى . والحقيقة أن هناك جوانب متعددة كانت تستحق أن نقف عندها طويلا لعرضها ودراستها وتأملها . ولعل من أهمها تحديد القيمة الحقيقية للنظرية السوسيولوجية الماركسية على ضوء دراسة جوانبها الثرية المتنوعة دراسة متعمقة ، لكى نضع الحدود بين ما هو مقبول منها الآن على ضوء الدراسات والبحوث الحديثة - وما يتعين رفضه .

ومن أمثلة هذه الدراسات النقدية المتعمقة التى لا تصدر عن رفض مسبق لعلم الاجتماع الماركسى دراسة عالم الاجتماع الأمريكى الألمانى الأصل رالف داهر ندورف الموسومة : « الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعى » (١٩٥٠) ، والتى أخضع فيها نظرية ماركس عن الصراع الطبقي للنقد المتعمق .

كما أنه ينبغي علينا أن نبرز ما أضافه فكر ماركس السوسيولوجى الى تراث علم الاجتماع وتأثيره البالغ على عديد من علماء الاجتماع في مختلف البلاد . وقد تكفل بوتومور ودوبل في كتابهما : « كارل ماركس ، كتابات مخفريات في علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » ، لندن : ١٩٦١ ، بفرض هذا الموضوع بطريقة عميقة حقاً .

غير أن كل هذا لا يغنى عن دراسة الوضع الراهن للبحوث الاجتماعية الميدانية التى تجرى في البلاد الاشتراكية ، وتعقب ما ثمره من مشكلات نظرية ومنهجية ، كل هذا مع دراسة وتحليل ما بدأ يظهر من دراسات نقدية عميقة يكتبها علماء الاجتماع الاشتراكيون لما يطلقون عليه علم الاجتماع البورجوازي .

والواقع أننا وضعنا كل هذه الجوانب الهامة في الاعتبار في دراسة شاملة لعلم الاجتماع الماركسى نقوم بها ، ونرجو لها أن ترى الأورق القريب ، لتبرز جانباً من أكبر جوانب التحول في الفكر الاشتراكى العالمى في الوقت الراهن . وهو فكر يزداد التسليم بأصالته يوماً بعد يوم ، ويشهد الإيمان بقدرته على تقديم المفاهيم الأساسية لفهم مختلف الظواهر التى يحفل بها عالمنا المعاصر .

السيد يسس

من استعراض المنهج السائد في علم الاجتماع الأمريكى للدراسة الطبقات الاجتماعية ، أو ما يطلقون عليه - لاختفاء الصراع الطبقي في المجتمع - التدرج الاجتماعى social stratification يعتمد علماء الاجتماع الأمريكيون في هذا الصدد على توجيه الأسئلة لمجموعة من الناس (عينة البحث المختارة) لكى يربطوا انفسهم على سلم طبقي معد سلفاً . فيسأل الشخص مثلاً : هل تعتبر نفسك تنتمى الى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا ؟ ومن مجموع الأجابات يحاولون تقديم صورة علمية - في زعمهم - لحقيقة التدرج الاجتماعى في المجتمع المحلى الذى يخضعونه للدراسة . ولعل دراسة « وارنر » الشهيرة « يانكى سیتی » أبرز مثال على ذلك .

غير أن هذا المنهج الذاتى - ان صح التعبير - معيب من عدة جوانب ، لانه لا يمكن من طريقه الحصول على صورة موضوعيه لوضع الطبقات الاجتماعية في المجتمع . وهنا يبرز منهج آخر يعتمد على نظرية الطبقات الاجتماعية كما قدمتها الاشتراكية العلمية . ووفق هذا المنهج لا بد من تحديد الوضع الذى تشغله كل طبقة اجتماعية في نسق الانتاج الكلى ولا تستطيع أن تغنى عن ذلك تصورات الأفراد الذاتية عن أوضاعهم الطبقيّة . ان هذه التصورات قد تفيد اذا كنا نبحت « الوعى الطبقي » ، وهو أمر لم نتجاهله أيضاً الاشتراكية العلمية ، غير أن مجرد الوقوف عنده لا يكفي لتحديد الوضع الطبقي في المجتمع .

وعلى ذلك نستطيع ان ننصو ان مناهج البحث وأدواته في عالم الاجتماع الماركسى الأمريكى يمكن ان تتميز بدائية واضمحلة تميزها عن شبيهاها ولا ينبغي ان تغيب عن اذهاننا الانتقادات العنيفة التى وجهها علماء اجتماعيون امريكيون كبار للأجراوات البحثية في عالم الاجتماع الأمريكى ومن أهم هؤلاء مسوردكنى ورايت ميلز . وتقف في الصدارة انتقادات رايت ميلز لانه أسسها على أن كثيراً من مناهج البحث وأدواته تستخدم استخداماً خاصاً في علم الاجتماع الأمريكى لاختفاء حقيقة الصراع الاجتماعى في المجتمع الأمريكى . ويكفى أن نشير بهذا الصدد الى دراسته النقدية العميقة : « الحياة الاجتماعية لمجتمع محلى حديث » . ففى تقدم درساً بليغاً في النقد العلمى لمناهج البحث . هذه بعض الملاحظات السريعة التى رأينا تسجيلها بصدد علم الاجتماع الماركسى

العا الإنسانية بعد أن

والجليد

حوار مع : **چيرزى قياتر**

املا :
اميراسكندر

« لا تصبح الاشتراكية علمية بمجرد الانتقاسال
من المثالية الى المادية ، بل بالانتقال من التسامح
النظري الى النقد ، ومن الحلم الطوباوى الى المنهج
التجريبى » .

هكذا كان يقول المفكر الفرنسى الكبير « روجيه
جارودى » فى كتابه « ماركسية القرن العشرين »
والواقع أن هذا القول الذى قد يبدو بديهيا ، لأول
وهلة ، يلخص فى ايجاز شديد ، ويتعبير مجدد ،
المحاولات الجاهدة التى بذلت - وتبذل - لتخطى
مرحلة التصلب والجمود التى أصابت الفكر
الاشتراكي العلمى ، وعاقته عن النمو والتطور



والافتتاح على التجارب والنتائج الكثيرة الهامة التي قدمها الفكر الانساني خارج اطار الماركسية التقليدية ، لا في مجال التطبيقات الاشتراكية المتعددة فحسب ، وانما في ميدان الجهود النظرية ايضا ، وفي قطاع هام منها ، هو قطاع **العلوم الانسانية** .

ويكفي أن يقال أنه في مرحلة من مراحل تطور الفكر الماركسي ، كان هناك كتاب واحد « في عشرين صفحة » يفترض فيها — على حد تعبير جارودي — « أن تضم خلاصة الحكمة الفلسفية » وطالما أن ذلك الكتاب الذي وضعه سيستالين كان يستطيع الإجابة على كل الأسئلة التي تطرحها الحياة في كافة المجالات التي تدرسها العلوم الانسانية فلقد كان من السهولة بمكان ، أن يقال عن هذه العلوم الانسانية انها « علوم بورجوازية » أو أنها ليست علوما على الإطلاق . فلماذا التاريخية مثلا كانت تتضمن سائر النتائج التي يمكن أن يصل إليها « علم الاجتماع » ، والواقعية الاشتراكية كانت تقدم الاجابات الشافية على كل الاسئلة التي يثيرها « علم الجمال » ! وهكذا الحال في سائر العلوم الانسانية كعلم النفس او علم الاخلاق ، بل لقد امتد هذا التصور ليشمل بخطئه بعض العلوم الطبيعية والتكنولوجية مثل **السمير نطيقا** ، و « **الأوتوميشن** » التي قيل في البداية أنها علوم بورجوازية .

ولقد تغير الوضع الآن الى حد كبير . وتعدلت النظرة الى هذه العلوم ، أو بتعبير أدق ، صححت النظرة إليها ، وأصبح واضحا ما كان يخفيه الجمود المذهبي ، وهو أن الفكر الماركسي يفتن ، وتزداد خصوصته بنتائج هذه العلوم جميعا . وأن هـسته العلوم أيضا يمكنها أن تستقيم ، وترسخ أعمدها على قاعدة صلبة من المبادئ والقوانين العلمية التي تقدمها الماركسية . ولا يعني هذا ، بطبيعة الحال ، أن الاشكالات الفكرية قد حلت جميعا ، وأن التناقضات التي تصاحب الظواهر الفكرية — خصوصا في مراحل التحول الحادة — قد اختفت . فضلا عن أن هذا الامر يناقض طبائع الأشياء نفسها ، فإن مشكلة العلوم الانسانية — حتى في العالم الغربي — ما زالت تعاني كثيرا من أزمات النمو ، وتضطلع بكثير من الصعوبات المنهجية ، في محاولاتها الجاهدة كي تصبح « علوما مستقرة » مثل العلوم الطبيعية سواء بسواء .

من هو فياتر ؟

ولقد أتبع لي أن التقى بواحد من أبرز وأهم

المشتغلين بهذه العلوم الانسانية في بولنده ، وربما في العالم الاشتراكي الاوروبي كله ، وهو الدكتور « **جيري فياتر** » استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة وارسو ، ورئيس قسم الدراسات الاجتماعية في أكاديمية العلوم البولندية . والدكتور « فياتر » يوشك أن يخطو خطوته الأولى في العقد الخامس من عمره . ولقد تنقل في غضون أعوام الشباب هذه ما بين الجامعات البولندية المختلفة حتى وصل الى منصبه العلمي الرفيع في أكاديمية العلوم . ثم أصبح رئيسا لجامعة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والسياسية ، وعضوا في رئاسة الاتحاد الدولي للمشتغلين بالعلوم السياسية والاجتماعية ، ورحل الى بلاد كثيرة في أنحاء العالم ليعاضر في جامعاتها ومنها فنلندا ، اوغوسلافيا ، والمجر ، والهند ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة الامريكية .

ولقد وضع فياتر مجموعة من المؤلفات الهامة ، التي ترجم بعضها الى لغات أوروبية وآسيوية . مثل الروسية ، والتشيكية ، والألمانية ، والانجليزية ، والفرنسية ، واليابانية . وأهم هذه المؤلفات : « **مشكلات العلاقات المعنوية في علم الاجتماع الامريكي** » ١٩٥٩ ، « **الجيش والمجتمع** » ١٩٦٠ ، « **دواست في المادية التاريخية وعلم الاجتماع** » ١٩٦٢ ، « **الجيش والسياسة والمجتمع في الولايات المتحدة الامريكية** » ١٩٦٢ ، « **علم الاجتماع العسكري** » ١٩٤٦ ، « **أهي نهاية للأيدولوجية ؟** » ١٩٦٦ ، « **الأمة والدولة** » ١٩٦٩ ، وغيرها من الدوريات العلمية التي تصدر في أوروبا الشرقية والغربية والولايات المتحدة الامريكية .

وفي مكتبه ، بأكاديمية العلوم البولندية ، التي تطل على ميدان كوبر نيكس بمدينة وارسو ، طرحت أمامه مجموعة من المشكلات المثارة اليوم في ميدان في ميدان العلوم الانسانية ، شرقا وغربا . وأحسب أنه من المفيد أن أقدم هنا عرضا لأجاباته على الاسئلة التي تثيرها هذه المشكلات .

موضوعية المنهج ودقة النتائج

● هناك وجهة نظر تقول أن العلوم الانسانية ، لم تصل بعد — ولا لا تصل في المستقبل — الى مستوى العلوم الطبيعية في حيث موضوعية المنهج ، ودقة النتائج . لأسباب بعضها يتعلق بتسرب العناصر الذاتية والأيدولوجية الى ذلك المنهج والى نتائجه أيضا ، وخصوصا في ميدان هام من ميادين تلك العلوم ، وهو ميدان علم الاجتماع ، ما هي وجهة نظرك في هذه المشكلة ، وكيف تتصور مستقبل هذه العلوم ؟

الممكن عن طريق التجريد العقلي ، أن تنفاض
عن مفزاهها الايديولوجي وحينئذ تنصحب
دراسنا على مشكلات العلم كما هي ، أو بما
هي كذلك ، ولكن القضية تكمن في عملية
التجريد. هـــــهـ . فحين قد ندرس كتاب
« ماركس » رأس المال . أو كتاب « موسكا »
الطبقة الحاكمة ، أو كتاب « ميلز » « صفوة
السلطة » ، فقط كي نمتحن « تجريبيا » الانكار
التي تضمنتها هذه الاعمال . ولكن هذه الاعمال
- شأن كل الاعمال السوسيولوجية الهامة -
لا تؤدي وظيفة علمية فحسب ، بل تؤدي وظيفة
ايدولوجية أيضا . انها تنظم بطريقة عقلية خبرات
الجاهل ، وبالتالي تصبح استمرارا عقليا لنشاطاتها
وهكذا يلوح أن العلاقة بين العلم والايدولوجية
ليست علاقة خارجية وعرضية ، وانما هي جزء
متكامل من العلوم الانسانية .

علم الاجتماع والمادة التاريخية

● لقد كان هناك مفهوم سائد في العالم
الاشتراكي - خصوصا ابان المرحلة الستالينية -
يقول ان المادة التاريخية هي علم الاجتماع -
الماركسي . وما من شك في أنك تعرف مبلغ
ما ترتب على هذا المفهوم من تعطيل للدراسات
الاجتماعية في هذا العالم الاشتراكي ، ومن
افتقار للفكر الاشتراكي عموما في هذا المجال .
هل توافقني على ذلك أم لا ؟ ثم ... الى اى مدى
امكن لعلم الاجتماع والدراسات الانسانية عامة
ان تتخطى هذه العقبة الآن ؟

- أنا لا اعتقد ، شخصيا ، أن المشكلة
الرئيسية تكمن في المفهوم الخاطئ عن العلاقة
بين علم الاجتماع والمادة التاريخية . فلما ركسبون
المأصرون يختلفون حول الإجابة الدقيقة المحددة
لسؤال : كيف ينبغي أن تكون العلاقة بينهما .
ومع ذلك ، ومهما كان هذا الخلاف ، فانهم ،
عمليا ، يتفقون على ضرورة تطور النظرية
الاجتماعية الماركسية - التي ينبغي أن تنهض
في رأيي الخاص على اساس المادة التاريخية -
وتطوير وتنمية البحوث التجريبية . والمشكلة
الحقيقية المحددة في هذا المجال لا تدور حول ،
العلاقة بين علم الاجتماع والمادة التاريخية ،
ولكنها تنلخص في كيفية إقامة البحوث
التجريبية على اساس نظرية واضحة . واعتقد
ان ثمة خطرين يلوحان هنا . خطر يتجمن عن
« التجريبية » البدائية ، ويمثل في أنها

- اذا كان المقصود بالموضوعية هنا الموقف المنزه
عن المصلحة والفرض تجاه المشكلات الانسانية ،
والصراعات ، واليول ، والرغبات ، والقيم ، فينبغي
أن أقول إذن ، ان العلوم الانسانية ، بتعريفها
نفسه لا يمكنها أن تكون علوما موضوعية ، على نفس
النحو الذي تكون عليه العلوم الطبيعية ، ولكنني
اطن ان « الموضوعية » في العلوم الانسانية تعني
التناول أو المعالجة العلمية للمشكلات التي تطرحها
وهنا نلحم سمتين أساسيتين : **أولهما** : الجهد
المستمر والدائب لتحرير هذا النوع من الدراسات
من أى شكل من أشكال التحيزات السابقة ، وأى
طابع يوحى بالمحاباة والانحراف . **ثانيهما** :
الاعتراف بالحقيقة القائلة انه كلما اتخذ الباحث أو
الدارس موقفا تقدميا ازاء القضايا الاجتماعية
والسياسية المتعارضة ، أو كلما كان بوسعه أن
« يمثل » قوى وطبقات تقدمية ، فالاحتمال الاكبر
أن بحثه ودراساته يمكنها أن تصل الى نتائج
وأكتشافات أكثر قيمة ، وأكثر دوما . وبهذا
المعنى فانني أومن بتقديم العلوم الانسانية شأنها
شأن العلوم الطبيعية سواء بسواء . ولكن العلوم
الانسانية لا ينبغي أن تبحث عن مستقبلها في
« تقليد » العلوم الطبيعية ، بل في تطوير وتنمية
ظرفها ووسائلها الخاصة من أجل فهم العالم الذي
نعيش فيه .

الايدولوجية وعلم الاجتماع

● لعل اجابتك هذه تثير مشكلة هامة في ميدان
العلوم الانسانية . وهي مشكلة العلاقة بين
« الايدولوجية » وهذه « العلوم الانسانية » ،
وخصوصا علم الاجتماع . فاذا كانت القوانين
الخاصة بالعلوم الطبيعية ، لا تختلف باختلاف العقائد
والمذاهب التي ينتمى اليها أو يعتنقها العلماء
الطبيعيون ، فان الامر يبدو على خلاف ذلك -
بمقتضى رأيك السابق - في الميدان الخاص بالعلوم
الانسانية ، ترى هل يمكن أن توضع لى وجهة نظرك
في هذه العلاقة التي تراها بين « الايدولوجية »
و « علم الاجتماع » مثلا ؟

- العلاقة بين الايدولوجية والعلم في
السوسيولوجيا ، يجب أن ننظر اليها بطريقة
جدلية ، فلا ينبغي أن نعتبرها علاقة بين اشكال
مختلفة من التفكير ، بل كعلاقة بين مظاهر
مختلفة للتفكير تنقسم في الواقع . وعندنا
نحلل المفاهيم السوسيولوجية من زاوية العلاقة
بين الانكار التي تعبر عنها وبين الواقع ، من

تجنب الصعوبة كلها بالقيام بأبحاث ليست لها دلالة نظرية بالرة . وخطر آخر ينجم عن « المدرسية » يتمثل في أنها تجنب الصعوبة أيضا بعدم القيام بأبحاث تجريبية على الاطلاق واعتقد أننا قطعنا شوطا كبيرا الآن في تجنب كلا الخطرين . ومع ذلك فما زال أماننا الكثير لنصنعه في المستقبل .

أهى نهاية عصر الايديولوجية ؟

● هناك قضية هامة مثارة في ميثاق العلوم الاجتماعية - وخصوصا على أيدي العلماء الأمريكيين والفرنسيين ، أحب أن أعرف وجهة نظرك فيها . وهي قضية الآثار المترتبة على تطور الثورة التكنولوجية على النظم الاجتماعية والسياسية المتعارضة في عالم اليوم . هل تعتقد حقا أن هذه الثورة التكنولوجية سوف تؤدي الى هياجة اجتماعية سياسية جديدة للمجتمعات المتطورة ؟ أتأنا حقا نشهد غروب ذلك العصر الذي دعاه عالم الاجتماع الفرنسي « ديمون أدولف » « عصر الايديولوجية » ؟

— أنا لا أتفق مع هؤلاء المفكرين الغربيين الذين الذين يتبنون هذا الرأي . ولقد ناقشت هذه القضايا في مناسبات عديدة ، وخصوصا في كتابي « أهى نهاية الايديولوجية » الذي صدر عام ١٩٦٦ وكى المحل لك رأيي في وضوح فاني أقول أن هؤلاء العلماء أو المفكرين يطمسوا في تناولهم لهذه القضية « الفروق بين التكنولوجيا والسياسة » فالتكنولوجيا تتطور - الى حد كبير أو قليل - بشكل « متوازي » في العالم كله . هذه حقيقة لا يمكن إنكارها . فليس هناك كما كنت تقول علم طبيعة « اشتراكي » ، كما أنه ليس هناك ديناميكا كهربائية « لها طبيعة بورجوازية » . والوحدة الأساسية للتكنولوجيا ينتج عنها - في تراز أيضا - بعض الملامح المشتركة ، وأؤكد كلمة « بعض » هذه ، في أساليب الحياة ، فيصرف النظر عن النظر السياسية والاجتماعية فإنا جميعا نشاهد التليفزيون ، ونقود السيارات ونتعاطى المضادات المضادات الحيوية عند اللزوم . والخلافات في هذه المجالات تنبع من الاختلافات في التقاليد وفي مستويات الوفرة الاقتصادية . ولكننا إذا تركنا مجري الحياة اليومية فإن ما يزعمونه من « تقارب » سوف يحدث بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين يبدو أسطورة ووهما أكثر منه حقيقة واقعا . فالنظم الايديولوجية والاجتماعية والسياسية ليست

« انعكاسات » للتكنولوجيا بطريقة بسيطة ومباشرة . وعلم الاجتماع الماركسي حرص منذ البداية على تأكيد العلاقات المعقدة بين التكنولوجيا ، والبنية الاقتصادية للمجتمع ، والبناء السياسي الفوقي والوعي الاجتماعي . وليس هناك في التاريخ الانساني ، تماما كما هو الحال في النظرية السوسيولوجية ، ما يبيع أو يبرر افتراض أن الرأسمالية والاشتراكية سوف « تتقاربان » في المستقبل في « مجتمع صناعي » ما . كما أنه ليس هناك أيضا أي برهان تجريبي يثبت التحلل الايديولوجي المستمر . وفي اعتقادي أن كل أنواع « نظريات التقارب » هذه ، هي في المقام الاول تعبير عن الازمة الايديولوجية التي يعانيها المجتمع الرأسمالي ، الذي يحاول - في عجزه عن هزيمة الاشتراكية - أن يفري نفسه بأن الحماية التاريخية سوف تصنع ما عجزت القوى الامبريالية عن صنعه وهو تحطيم الاشتراكية كنظام اجتماعي جديد ، ومن جانب آخر فإن « نظريات التقارب » تستخدم كأداة في الحرب النفسية ضد بلادنا . انهم تستهدف أحداث نوع من التحلل الايديولوجي في المجتمعات الاشتراكية ، والمجتمعات المناهضة للامبريالية ، والعالم الثالث .

هل هناك « مدرسة بولندية » ؟

● هل يمكن لي أن أتحدث عن « مدرسة بولندية » في علم الاجتماع ؟ ان كلماتك السابقة توحى بأن ثمة وجهة نظر مقابلة لوجهة نظر علماء الاجتماع الغربيين ، ويمكن أن أفهم ذلك بالطبع الاجتماع الغربيين ، ويمكن أن أفهم ذلك بالطبع على أنه اختلاف في الأسس الايديولوجية التي تصنع عنها كلتا وجهتنا النظر ، ولكن - مرة أخرى - هل يمكن القول بأن وجهة نظرهم هذه تشكل مدرسة متكاملة في علم الاجتماع لا مجرد أساس ماركسي واحد يتحرك فوق أرضه العلماء على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم ؟

— ان علم الاجتماع له تراث عريق في بولندا . لقد تأسس كمجال مستقل ومنفصل في البحث العلمي بعد عام ١٨٨٠ . ويرز فيه أساتذة معروفون مثل : لودفيج كزينفسكي ، وهو أول عالم ماركسي عندنا ، وكازيمير كراوس ، وادوارد أبراموفسكي ، وبولسلاف ليانوفسكي ، وقد كانوا اشتراكيين ، وإن لم يتبنوا وجهة النظر الماركسية بشكل كامل . كما كان لدينا وضميون أمثال الكسندر سفيغوشوفسكي ، بالاضافة الى

عدد آخر من الاساتذة والعلماء الذين مثلوا ويمثلون الاتجاهات الفكرية المختلفة في العالم .

ومع ذلك ، فمن البدايات الاولى لنشأة هذا العلم في بلادنا ، ارتبط بشكل وثيق بالمراسلات الاجتماعية والسياسية التقدمية ، ولعب دورا ملحوظا في تطور الوعي القومي للامة البولندية ، التي كانت محرومة حينذاك من دولتها الخاصة . ولقد استمر هذا الوضع ابان الجمهورية البولندية الثانية (١٩١٨ - ١٩٣٩) عندما كرس علماء اجتماع من امثال **سستيفان كزادوفسكي** ، و**ستاسلاف اوسوفسكي** و**جوزيف شمزالانسكي** وغيرهم ، ابحاثهم لدراسة المشكلات الاجتماعية البارزة حينذاك ، مثل مشكلة البطالة ، والفقر ، والهجرة ، والثقافة العالية ، .. الخ .

اما في بولندا الشعبية ، فان علم الاجتماع يتطور بسرعة ، ويلعب دورا فعالا في عملية التحول الاشتراكي . واذا كان يمكن للمرء أن يتحدث عن « المدرسة البولندية » في علم الاجتماع وأنا أميل الى ذلك - فانه يمكن القول حينئذ أن هذه المدرسة تعنى ثلاثة أشياء رئيسية : -

أولا : المجابهة المستمرة بين الماركسية والنظريات الاجتماعية الأخرى : ثانيا : احتضان قوى لقيسم التقدم الاجتماعي والشخصية القومية . ثالثا : تنوع وتعدد مناهج البحث والمعالجة أما الحديث عن المنجزات التي تحققت فهو أكثر صعوبة ، لأنه يتطلب حكما بقويا عميقا . ومع ذلك ، فاني أود أن أذكر على الخصوص في هذا الصدد ، بعض النتائج التي انجزت : أولا : بناء هيكل مندم ومؤثر من المعلومات العملية عن التحولات الاجتماعية في المجتمع البولندي المعاصر ، مثل الدراسات التي أجريت عن الطبقة العاملة والانتاجتسيا تحت اشراف الاستاذ **جان زبانسكي** ، والدراسات التي أجريت عن الفلاحين تحت اشراف **جوزيف شالانسكي** . ثانيا : اضافة طابع « المعاصرة » على مناهج البحث وتكتيكاته . ثالثا : تطوير فروع متعددة متخصصة من علم الاجتماع ، على سبيل المثال : علم الاجتماع الصناعي ، علم الاجتماع الريفي ، علم الاجتماع الثقافي ، علم الاجتماع السياسي ، علم الاجتماع العسكري ، علم الاجتماع الطبي ، .. وغيرها من الفروع .

علم الاجتماع الملتزم ؟

● يبدو لي أن ثمة تخطيطا دقيقا لمجموعة الابحاث التي قمت بها في ميدان العلوم الاجتماعية تخطيطا يستجيب لمتطلبات الواقع البولندي الخاص بكم . واذا لم يكن هناك ما يتعارض مع حصرية

البحث الاجتماعي وموضوعيته ، فلعل استطاع أن استعير ذلك التعبير الأدبي الشهير ، وأقول انكم تنادون بعلم الاجتماع الملتزم ؟ أمضي . أنا ؟

- لا . لم تختطه بالطبع . بيد أن المثل الاعلى لعلم الاجتماع « الملتزم اجتماعيا » ، كما تقدمه الماركسية ، ليس ببساطة اكتشافا ، كما انه ليس ايضا اقتراحا بأسلوب معين في علم الاجتماع ، انه بالأحرى انعكاس للالتزام لعلم الاجتماع الفعلي والذي لا مهرب منه بالحياة الاجتماعية التي لا يمكن أن تكون دراسات فحسب ، وانما تغيرات أيضا . وهذا المثل لاعي يضع في اعتباره دائما الحاجة الى معرفة أوضاع بالالتزام العمل والايديولوجي لهذا العلم الذي يستند مغزى وجوده نفسه من الوظيفة العملية للمعرفة العلمية . أن علم الاجتماع الماركسي يخدم بوعي التطور الاجتماعي ، ويخلق رؤية للعالم تنظم عقليا الفعل الانساني . انه لا بد أن يشغل نفسه تماما بتحقيق القسم التي تتيها القوى الاجتماعية الاشتراكية والتقدمية . هذا عرض لاجابات « فياتو » على بعض الأسئلة التي طرحتها امامه .

وهي اجابات تثير - كما اعتقد - مزيدا من الأسئلة الأخرى ، ولعل من سمات الفكر المصعب أن يثير من الأسئلة أكثر مما يضع من اجابات . ولقد حملت كلماته ، وهبطت من مكتبة أكاديمية العلوم ، ومضيت الى الميدان الواسع الذي يتوسطه تمثال **كوبرينسكي** وقد حمل في يديه نموذجا مصفرا للكرة الأرضية وهي تدور دورانها الأبدى حول الشمس ، بينما تاهت عيناه في الفضاء العريض الذي يحيط باملما .

وفي الطريق .. كانت جمهرة غفيرة من الناس أشبه بمظاهرة ، تحيط ببني السفارة الأمريكية وعرفت أنهم جاؤوا جميعا يتابعون على شاشات التليفزيون عملية هبوط وواد الفضاء فوق أرض القمر !

وتعجبت من هذه المصادفة .. انه طريق بدأ بكوبرينسكي - الذي لولا ابحاثه واكتشافاته التي قلبت التصور الانساني للعالم رأسا على عقب ، واثبتت بالبرهان العلمي أن الارض ليست هي مركز الكون ، لا أمكن لأولئك الرواد أن يهبطوا الآن فوق القمر . انه الطريق الطويل ، الذي استغرق قرونا عديدة ، وتطورت من خلاله العلوم الطبيعية .

قلت في نفسي وأنا أمضي : ما أطول المسيرة التي ما زال على العلوم الانسانية أن تقطعها !



طبيعة الامور نوعية
في النفس الخليلي للنفسى

د. أحمد فايق

مذ ان تحول فرويد عن العلاج بالتنويم الايحالي الى العلاج التحليلي النفسي (عام ١٨٩٧) ، اصبحت عملية التفسير التحليلي موضوعا لجدل حاد لعلماء النفساء والفلاسفة . فبالرغم من ان جميع الجهود العلمية تهدف في النهاية الى التفسير ، الا ان التحليل النفسي قد حول عملية التفسير الى مشكلة جوهرية تمس الفكر الانساني مما ثبلا ، فضلا عن عدم جسمه لها حسما نظريا يرضى الفلاسفة وعلماء المناهج ارضا كاملا .

ان نقطة البدء التي نختارها لدراسة طبيعة التفسير في التحليل النفسي هي (الموضوعية) بوصفها اكثر النقاط الالة للنقاش . فاكث ما يؤخذ على التفسير في التحليل النفسي انه يلتقد الموضوعية objectivity . والواقع ان نقاش هذه النقطة يحتاج الى التمييز بين امرين : التفسير explanation والشرح interpretation

فالفلسفون العلمى الفيزيائى - والانسانى اذا ما تحقق - هو صيغة دقيقة لعلالة مجموعة من الوقائع ؛ بحيث لا يخرج هذه الصيغة عما تكون عليه هذه العلالة . فقوانين تمدد المادة او قوانين الجاذبية هي صيغ دقيقة وللمجموعة تشرح العلالة بين مجموعة من التغيرات في عيارات - او رموز - كمية . وتكون هذه الصيغ عادة وفق نمط سابق من الملاحظات التي قامت على هذه الظواهر الفنية . القانون العلمى - اذن - هو شرح لعلالة مقننة standard يمكننا من ادراك وجود متغير غير متحقق في الظاهرة التي تطبق عليها القانون ، وذلك بناء على تحققه في الملاحظات الاصلية التي اقيم القانون عليها . بمصادرة اخرى ، ان العلوم الفيزيائية - والاساليب الوصفية في دراسة الانسان تستهدف الى شرح الظواهر لا الى تفسيرها ، لانها - وبصورة ما - لا تبحث عن علل الظواهر . فعالم الطبيعة لا يعنى بالاجابة عن الالة في قدرة الحرارة على تغيير حجم المواد ، بل يكتفى بشرح ما يحدث (نتيجة) للحرارة في البنية الذرية للمادة . كذلك في علم النفس ، لا يعنى عالم النفس التقليدى بتفسير اختلاف بعض الدوافع في تأثيرها على سلوك الفرد ، بل يكتفى بشرح (للمعلالية) الدوافع على السلوك . وقد يندفع البعض الى الاعتقاد بان الشرح لعلل مرتبة من التفسير في قيمته العلمية . ولكن يجب الا ينظر الى الامر على هذا النحو نظرا لاختلاف المادة التي يجب ان تعالج بالتفسير او تتناول بالشرح .

وقد بدأ بعض علماء النفس ان الصيغة (الشارحة) هي الطريق الى القامة علمهم على نسق العلوم الفيزيائية بما لها من رونق الصلابة والتمسك . لذلك ظهرت الدعوة الى التجريب في نطاق النفس لاستقراء القوانين العلمية الوصافة للنشاط النفسى . وقد اتبى هذا الاتجاه على مبدأ بسيط ومعقول في شكله هو : الالة العلاقات بين نشاطات الانسان لم وصفها وصيانتها في قانون .

الا ان فرويد استطاع ان يقدم الادلة المادية والمنطقية على وجود قطاع غير من الصياغة النفسية غير قابل للتحقق المباشر ، وهو ما أطلق عليه تسمية اللاشعور . وبطرح هذه المشكلة على علم المناهج ينتج بجماله ان فكرة القانون الانسانى يواجسه عتية غير متوقلة . فلكى يتمكن عالم النفس من وضع قانون للنشاط النفسى لابد ان تكون جميع امكانيات النفس قابلة للتحقق المتكافؤ . ولكن مادام هناك قطاع من هذه الامكانيات خاف وله طبيعة التخفى فلا يمكن الدعوى بامكان وضع قانون علمى للنفس على نسق القوانين الفيزيائية . بمعنى اخر واتر تعديدا للاستشكال : ان التحليل النفسى باكتشافه لمعلالية اللاشعور في العمليات الشعورية يرى في السلوك الانسانى قصدا intention والقصد - منغلطا - سبق على القصد ، وهو بذلك لا يوجد فيه ، بل هو متضمن له ومتضمنه .

ان القصد مفهوم محرج في مجالى العلوم الفيزيائية والانسانية معا . وقد ابصده علماء الطبيعة عن مجال دراساتهم ليبنى هدفا للعلم الدينى او للبحث الانسانى . ولم يستطع علماء الانسان ان يبعدوا هذا المفهوم عن مجال دراساتهم بنسب السهولة التي تانت لعلوم الفيزياء . فمن جانب يعد علماء الانسيات المسئولين المعاصرين عن هذا

المفهوم . ومن جانب آخر تؤدي بهم دراساتهم - بقصد 'و بدون قصد - الى الاهتمام بهذا المفهوم والاستخدام به سواء في حدوده البسيطة وهي قصصية السلوك الفردي او في حدوده العامة المركبة وهي قصصية السلوك البشري . فكل نشاط انساني يتضمن شيئا بخلاف هدفه ، وكل سلوك فردي يتضمن غاية بخلاف موضوعه - ان القصد هو مضمون السلوك ومناه ، ونادرا - ان لم يكن مستحيلا - ان يجد عالم النفس سلوكا فرديا متفسنا كل قصده ومناه .

لم ينكر علماء النفس التقليديين وجود قصصية في السلوك الانساني ، ولكنهم ظلوا ياملون القصد في مستوى الامكانيات النفسية المتحققة بواسطته . فظهرت تيارات الفريزة والميل والانتحاء والدافع . وعامل علماء النفس هذه العوامل الى انها امورا تصلح للتجريب اى لاستقراء قوانينها العلمية . ولكن بظهور مفهوم اللاشعور عند فرويد تحولت هذه التيارات الى نطاق آخر من نطاقات الحياة النفسية ، وغلت في نظر التحليل النفسي اساسا للحياة النفسية اللاشعورية . وجدير بالذكر - وحتى لا يبدو القول تعسفا في التصميم - ان اكتشاف فرويد للنشاط النفسي اللاشعوري كان سابقا على تحديد لمضمون اللاشعور فقد تنبه فرويد الى اللاشعور ثم شرع في كشف مضمونه ، وكان المفسحون للكشف هو القصد والذى عبر عنه في مراحل مختلفة من تكبره بتعبير الفريزة instinct ويجهل بنا ان نوهه هنا بامر آخر . لقد تعرض فرويد لمعدي من المشاكل العيادية والنظرية في طريق بحثه عن مكونات اللاشعور . لذلك يجد القارئ للتحليل النفسي ان اكثر اجزاء نظرية فرويد في النفس غموضا وتغبرا ، هي تلك التي تناولت مضمون اللاشعور . فقد عدل فرويد من مفهومه عن «القصد» بتدليلات جوهريه تقاد تكون نفسها لسابق آرائه . وفي هذا ما يدل على ان مشكلة القصد في السلوك الانساني مشكلة معقدة فعلا . ولكن - وفي حدود التزام فرويد بمفهوم اللاشعور - تبقى القضية الاساسية على ما هي عليه : مادام المفسحون الانساني متصفين في قصد ، فان الموقف ملازم للعالم ايجاد تفسير للسلوك - اى اكتشاف عن القصد وتعليل النتيجة (السلوك) . والالتزام بالموقف في صيغته السابقة يستوجب امرين : ارجاء الشرح الى ما بعد التفسير ، وتحليل النتائج للوصول الى القصد في السلوك .

لقد التزم فرويد بالموقف على النحو السابق . فرفض بوضوح ان يصف الظواهر وأمر على ان الحياة النفسية تحتاج أولا الى تحليل يعقبه الوصف . ويقول فرويد في ذلك : « ليس فرضنا ان نصف ونصف الظواهر بل ان ندرکها بوصفها نتاج تعامل بين قوى في العقل (النفس) ، وباعتبارها تعبرا عن اتجاهات نحو هدف ، تعمل معا او بالتعاقب . نحن نحاول ان نتوصل على مفهوم دينامي للظواهر العقلية (النفسية) . بهذا المفهوم تصبح الانبعاثات التي توصلنا اليها ، تظهر وتكتسب اهمية من الظواهر التي نلاحظها » . (المتغيرات التمهيدية في التحليل النفسي ص ٥٥ من الطبعة الانجليزية ١٩٢٩) .

خلاصة الامر ان ، ان التحليل النفسي قد جعل عملية «التفسير» وسيلة واداة واقعة لدراسة النفس ، مناقضة لعلماء النفس التقليديين في اعتبار التفسير غاية وهدفا وقمة الدراسة . فالتفسير لدى الممثل هو طريقته الى الفهم بالنفس ، لذلك يقوم به وهو معتق ان امكان تعديله وتطويره بما يناسب ما يجد من مادة نفس . اما عالم النفس التقليدي فيتناول التفسير بوصفه الغاية من المعرفة بالنفس ، لذلك يقترب منه بحرص شديد وبشك مفرط احيانا في ان يطابق الواقع . ولو لم يقصر الممثلون النفسيون في حسم مشكلة التفسير حسما مباشرا متحيزين المسؤولية كاملة ، لكان الوضع الراهن مجرد خلاف بين تيارى معرفة واختلاف في راين في منهج دراسة النفس . ولكن الممثلين النفسيين ظلوا يناقشون مشاكلهم نقاشا غير محدد وغير ملزم بأسباب منطقية ، الى ان أصبح موضوع «التفسير» واحدا من المشاكل التي لا توجد من يوفىها حلها من الاقتناع بها .

ان عملية التفسير هي نقطة الانطلاق التي بدأت منها المعرفة التحليلية بالنفس ، وهي نفسها نقطة الانشطار التي خلصت التحليل النفسي من قيود المعرفة السلفية بالنفس . ويواجهنا سؤال هام : الى اين ذهبت فكرة التفسير بالتحليل النفسي ؟ هل ابتعدت عن غاية العلم وهي المعرفة الحقيقة والمعرفة بالتحقيق ؟ ام قربه للتفسير من ذلك ؟ هل بعد التحليل النفسي يتابعه التفسير عن موضوع بحثه وهو الانسان ام القرب منه ؟ ان هذه الصيغ المختلفة لنفس الاستشكال تدور حول فكرة واحدة : هل التفسير التحليلي موضوعي ام ذاتي ؟ ولقد يتبادر الى الذهن لنا سوف نقاش موضوعية وذاتية التفسير التحليلي ، ولكننا في الواقع سوف نقاش التحليل النفسي ، بوصفه عملية تفسير ، في ضوء معك للموضوعية والذاتية .

نحتاج ان الى تحديد كاف وواضح لعنى الموضوعية لا يحدث حوله خلاف . فمادام النقاش يدور حول عملية التفسير «كوسيلة» للمعرفة ، فهذا يعنى نقاشا حول حدود الخروج عن النتائج الى المقاصد ، والاحالة الى التفسير بتجاوز الوجود والحقائق . فمعرفة تقوم على الخروج من المعنى الى مناه في محاولة للتفسير ، قد تبعد عن الموضوع او تنأى عنه ، بل قد تتحول من الموضوع الى نقيضه في عملية بسيطة ومفردة كذلك بالتحويل . لذلك سوف نبدا بتعريف معنى الموضوعية .

تدل لفظة الموضوعية object-ivity على مضمونها دلالة مباشرة . فعندما ننسب الى « الراى » مسفة الموضوعية فانما نعنى تقديره لدى قربه «من اصله ومادته» . «فالحكمة» الموضوعى ، هو حكم التزم بالموضوع الحكم عليه ، دون تأثر بالحكم ذاته ، او بذات الحكم . بمعنى آخر ، ان الموضوعية هى « فعل تقدير » لا يدخل فيه تقيض الموضوع بشخصه بل بملكته على التقدير : أى فعل مستقل عن ذات الفاعل . ويجسد بالقارىء ان يعود الى كتاب او نرى لوفيف « أزمة الماركسية المعاصرة » والى لينين في مؤلفه « المادية والتقديرية التجريبية » تزيد من التفاصيل في هذه النقطة .

على هذا الاساس تقوم لفظة الذاتية subject-ivity نقضيا للفظة الموضوعية (ذات - موضوع) حيث تكون الذاتية هى ما يقضى تقيض الموضوع . وصياغة المشكلة على هذا النحو تثير نقطة هامة نرجها الى ما بعد وهى : كيف نحدد الموضوع ونحدد تقيضه ، وبالتعيين في مجال التقدير النفسى ، ولكن بالتفاضى من هذه النقطة حاليا - ومولفتا - يمكن تصوير المشكلة الخاصة بالذاتية والموضوعية على مقياس : أحد طرفيه الذات وطرفه الآخر الموضوع . ويتراوح الحكم المتأثر بأحد الطرفين بين ذاتى خالص وموضوعى خالص - وذلك من الوجهة النظرية البحتة . أما من الناحية العملية فسوف نجد أحكاما تشعب بالذات أكثر من التزامها بالموضوع فيصبح الحكم اميل الى الذاتية ، وبالعكس اذا التزم الحكم بالموضوع ولم يتأثر بالذات مال الى الموضوعية . ولهذا التصور ثلاثة احتمالات مجردة :

الاحتمال الاول : حكم موضوعى من تفاعل بين مادتين او موضوعين فيزيقيين لا دخل للذات في اى احدهما على الآخر . مثال ذلك تفاعل الحرارة مع احد الفلزات . ومن ملاحظة وقياس التفاعل يمكن ان نستخرج قانونا ذا طابع ميكانيكى خالص ، أى حكما موضوعيا خالصا - وهو ما ترمى اليه علوم الطبيعة .

الاحتمال الثانى: حكمان: واحد اميل الى الموضوعية وآخر «ميل الى الذاتية» ، وكلاهما يصدر من ملاحظة نفس الشيء . فتفاعل مادة او موضوع فيزيقى مع ذات انسانية يعطى مجالين للحكم التقدير . مثال ذلك تفاعل الفنان مع احدى وسائل التعبير الفنى ، او تفاعل المصدة مع الطعام . يمكن في هذه الحالة ان يصدر حكم القرب الى الموضوعية ينسب على تقدير ما وقع على المادة (صخر منحوت أو طعام مفهوم) ، وان يصدر حكم آخر القرب الى الذاتية (عمل وخلق فنى ، أو شيع وتكلىد) . وبين الحكمين قد نجد مستويات مختلفة من الاحكام المحتملة .

هذا الاحتمال له قيمته في تقدير البحث النفسى بالذات . فاذا انصب البحث النفسى على اساس ملاحظة وقياس واستقراء فاعليه مؤثر فيزيقى على انسان ، أو اختبار المحرب (انسان) مؤثرا فيزيقيا على آخر يجرب عليه ، فان اماننا مجال بحث يتراوح الحكم فيه بين الذاتية والموضوعية ، ولعل اهم ما يقوم عليه علم النفس الاكاديمى حاليا - ومنذ فونت - قائم على تصور المشكلة على هذا النحو .

الاحتمال الثالث : استعالة اصصدار حكم أو تقدير ما . فتفاعل موضوعين انسانيين يخلق مولفا مختلفا من المؤلفين السابقين . والتحليل النفسى هو المنهج والموقف النظري الوحيد الذى بدأ من هذه المسئلة . فملاحة الحلل بالمحلل علاقة تأثير متبادل ، لا موضع فيها لحكم ذاتى او موضوعى ، بل ان الحكم فيها مفروض اصلا ، فالحكم والتقدير قائمان بين ذاتين كل واحدة تكون موضوعا للآخرى - ذلك ان لم تكن موضوعا لذاتها كذلك . وبناء على ذلك لا يمكن للحلل ان يصدر حكما ولا يتبع للمؤلف العلاجى ان يكون مجالا للحكم ، على اساس ان الحرفة ليست « اخبارية » بل هى « فى الجدل » ذاته القائم بين «التنين» . بعبارة اخرى ، لا مهمل فى التحليل النفسى للذاتية والموضوعية كما يصوغها التنجيون ، لان التحليل «جدل» وليس «اخبارا» ، الذى ليس «احكاما» بل «عرفا» متصلا .

في حدود الاحتمال السابق - احتمال وجود معرفة لا تقوم على الاخبار والتقدير - تقوم دوتان في مجال البحوث النفسية : دعوة الى اعتبار الانسان مؤثرا ذاتية فيزيقية وهى دعوى السلفيين من علماء النفس ، ودعوة الى رفض اعتبار الانسان مثيرا فيزيقيا والامتناع عن العرفه الاخبارية وهى دعوى التحليليين . والغريب فى الامر ان المحللين في دفاعهم عن منهجهم لم ينتهوا الى ان مشكلة الذاتية والموضوعية في معرفتهم لها طبيعة مختلفة عنها لدى التجريبيين الاكاديمين . وممسد الفرافة ان التحليليين هم اول من تنسب الى ان المؤثرات الفيزيقية ذاتها تفقد قيمتها «الموضوعية» بمجرد تكرارها على الانسان مرتين ، وانهم لا يتعاملون مع خبرة الفرد بالمثل المتكرر من زاوية المتكر موضوع بل من زاوية الفرد كمتأثر . ان الوضع على هذا النحو يجعلنا ندرك من مشكلة الموضوعية في التفسير التحليلى ليست هيئة الحل تماما .

الا اننا اذا عدنا الى المشكلة التي تثيرها علاقة الذات بالموضوع قد نجد طريقاً الى هذا الحل . عندما صفنا قضية الموضوعية على النحو السابق في مقدمة هذا المقال ، لم نعرض الى نقطتين : الاولى : أن الموضوعية هي «فعل تقدير» - والثانية : أن تعبير الذات والموضوع - خاصة في اللاتينية - يتحملان التبادل (نقول حيناً the subject بمعنى الموضوع) . وبالنسبة الى النقطة الاولى يمكن أن نعتبر « فعل تقدير الواقع كما يبدو للذات » هو الموضوعية ، بحيث يصبح التقدير موضوعياً خالصاً بقدر اقتراب التقدير من حقيقة الموضوع . فالذات القادرة دائماً ما تكون في التقدير ذاته ، ولا يختلف الأمر الا من حيث قدرة الذات على الفساح مجال في التقدير للموضوع نفسه . على هذا النحو يكون الإنسان دائماً هو الحكم ونقيض الموضوع أي الفاعل operator ما دام الموضوع لا يمارس فعل تقدير للإنسان . فإذا كان «موضوع التقدير» غير إنساني أمكن الحديث عن موضوعية وذاتية . أما اذا كان موضوع التقدير إنسانياً أصبح الحديث عن الموضوعية والذاتية محدوداً بنوع المعرفة المقصودة .

نخرج من ذلك الى نتيجتين : أن أي علاقة بين إنسان (الموضوع) سوف تؤدي الى تقدير الإنسان للموضوع ، أي إلى حكم يتزع الى الموضوعية ، فإذا اتخذ الإنسان من إنسان آخر موضوعاً فإنه يقوم بمحاولة للحكم الموضوعي عليه . والنتيجة الثانية : أن أي حكم موضوعي هو تحول عن الذات الى نقيضها ، وبشدة النجاح في هذا التحول يكون التقدير مقترناً مع الواقع . ولتلقى النتيجةتان في استكمال محدد هو : ما مدى تدخل الفساح الموضوع للذات في تقدير موضوعي ؟ فقد يتم التقدير والحكم على موضوع غير متصفاً تماماً ، ومع ذلك يكون التقدير موضوعياً بقدر انفتاح الموضوع - ومع ذلك لا يمكن الاطمينان الى الحكم لا لمعز القدر من التراجع ذاته من الحكم بل لنقص في اكتمال وضوح الموضوع بما يلزم بتكميله ذاتياً . لذلك قام التحليل النفسي - وبعد اكتشاف فرويد موضوع البحث وهو الإنسان - بتعديل جوهرى في مفهوم موضوعية المعرفة بالإنسان . فموضوع التحليل النفسي له طبيعة خاصة نابعة من مفهوم (اللاشعور) .

● موضوع التفسير التحليلي النفسي :

إذا طرحنا قضية الموضوعية والذاتية بشكل تقليدي - غير الذي قدمناه - على التفسير التحليلي النفسي لابد من تحديد ثلاثة معالم هامة في عملية التفسير :

(أ) يقوم التحليل النفسي على مفهوم التفسير وليس الأشرح والوصف . وهو بذلك «محاولة بلوغ حكم موضوعي» - أي ليس قلعة على الاحكام الموضوعية - كما أنه لم يحدد «من» الذي يبلغ هذا الحكم .
(ب) أن ما يطرحة التحليل النفسي على بساط التفسير هو ما يسمى « بالمستدييات الحرة للرغى » وعلى خلاف ما هو شائع لدى بعض المثقفين ، لا يفسر التحليل النفسي أحلام الرغى بل يفسر مستدييات الرغى على أحلامهم وإلهامهم . فالتفسير التحليلي يفسر للمستدييات فقط .

(ج) يبدأ التفسير التحليلي من مسلمة هي أن مستدييات الرغى ليست الحقيقة بل هي السبيل الى الحقيقة . أما الحقيقة فهي اللاشعور أي القصصية الإنسانية .

هذه المعالم الثلاثة قد تؤخذ بنظر سطحية فتكون أداة التحليل النفسي بانه ذاتي مطابق "و بانه يقوم على غير موضوع . وقد وقع المثلون النفسيون عند دفاعهم عن منهجهم ضحية استسلامهم لهذه الأداة القاتمة على النفثة السطحية لتعلمهم . ولكن يتأمل أكثر عمقا لكل واحدة من هذه المعالم الثلاثة سوف يتبين للدارى أمر آخر ، يتعلق بطبيعة الموضوعية في «التحليل» ، وهي جبه مختلفة منها في علم النفس .

أ - التفسير التحليلي النفسي وقاعدته :

يلزم عادة أن التفسير التحليلي يقوم على حدى مرفق من قبل المحلل وعلى قدرة خاصة على تطبيق النظرية التحليلية . ورغم ما في هذا الظن من بعض الصحة - فندرها قدر مهارة أي عالم أكاديمي أمام نتائجهم - فإن التفسير التحليلي يقوم على قاعدة أكثر صلاية من مجرد الحدس والآلهام . أن أهم ما يتنفس به المحلل النفسي في عمله هو «عدم تجاوز مستدييات الرغى» . لأي نفس يقوم على مادة خارجية لم يذكرها المريض في جلسات علاجه تعد خروجاً من القاعدة التحليلية . فقد يتصادف أن يلم المحلل ببعض الأحداث «الواقعية» المؤثرة على مريضه - ولكن تلك المعرفة لاتفي من الأمر شيئاً لأن عدم ذكر المريض لها في مستديياته يعني أن هذه الأحداث قد دخلت إطار «واقعه النفسي» - أي في إطار قصصية السنين والتذكر .

اذن كمبدأ عام ، يتسم التفسير التحليلي على واقع محدد غاية التعديد ، هو مستدييات المريض وحدها وإذا أردنا مزيداً من الإيضاح لهذه النقطة ، فيكفي القول بأن التفسير التحليلي هو رد المحلل على مستدييات المريض لأن

المحلل لا يفسر عالم يذكره المريض بعينه . وما دام المحلل لا يفسر غير مستنديات المريض فهو إذن ، محدود في عمله بموضوع محدد تماما . ويكون التفسير «الموضوعي» يقتصر نجاح المحلل في قصر تفسيراته على المستنديات وحدها .. أى على الموضوع وحده . ولعل هذا هو أشق وأدق ما في التحليل النفسي كمهنة ، ولا يمكن لهنة لها هذا القدر من وضوح موضوعها أن يشاع عنها بسهولة لأنها غير علمية . ولكن سبق لنا أن نبهنا إلى أن وجود الموضوع لا يكفي في حد ذاته لبلوغ حكم موضوعي . فالأفوضيات تتفاوت وضوحا وغموضا ، وتتراوح في قدرتها على كشف حقيقتها ، والمشكلة في التفسير التحليلي لانتشأ من تفاوت وفسوح وغموض موضوعات ، فهو موضوع واضح محدد . المشكلة في التفسير التحليلي النفسي تنشأ من مدى قدرة الموضوع عن كشف حقيقة أمره ، أى مدى مطابقة المستنديات للمريض .

ب - المستنديات أم المريض ؟

تثار العلاقة بين المريض والمحلل الكثير من النقاش . ولكن هذا النقاش لا يبعد محلا له في مقالنا ، اللهم إلا من حيث دور المحلل بتفسيراته في تحديد مجرى مستنديات المريض . رغم أن المريض يظل ملتصقا طموال تحليله بأن مستندياته تعبر عنه فإنه يكون كذلك في موضع من يقبل - بشكل ما - أن لها تفسيراً لدى المحلل (والأما استمرار في علاجه) . لذلك نطرح سؤالين : ماهى مسאלقة المريض بمستندياته وما هى علاقة المحلل النفسى بتفسيراته ؟

لا شك أن وجود المحلل وهو المحرك الأساسى للمستنديات بدليل عجز المريض عن التداوى الطليق بيته وبين نفسه . فالتداوى الطليق هو المطلب الوحيد الذى يطلبه المحلل ، وعمل المريض هو تطبيق هذا المطلب بلدى مائسه قدرته . ويختلف ذلك الوضع عن التداوى الذى قد يلجأ اليه الشخص بيته وبين نفسه أو الصديق الذى يدور بين المريض وآخر حول مرضه . فالمحلل لا يحدث المريض لأن جوهر الحديث هو طرح الوجود على الأخير الذى يطرح وجوده بدوره عليه (والحديث الذاتى هو محاولة الشخص إقامة حوار مع نفسه) . أما في التحليل فالمعلقة قائمة على أن المريض يطرح وجوده على المحلل ويقوم المحلل بتفسير هذا الوجود (الذى يطلبه المحلل في صيغة مستنديات) دون أن يتبادل المحلل طرح وجوده على المريض . على هذا الأساس يمكن القول بأن علاقة المريض بمستندياته تبدأ أصلا باعتقاد راسخ في «لها .. هو» . فمنعما يقول المريض «أنى لاكره هذا الشئ» أو «أحبه» يكون لديه اعتقاد في صحة حبه أو كرهه . لذلك قد يبدو أن تفسير المحلل لمستنديات المريض لتفسيره له ذاته .. وبلدى اعتقاد المريض في تطابقها له نفسه .

ولاشك كذلك في أن مستنديات المريض والصمت في السياق الظفوى تداع أو امتناع عن التداوى مما يخفسه كدلأ للنفس قوايتين التفسير» ، هى الحركة الوحيد لعملية التفسير فالتفسير هو العمل الذى يتولمه المريض من المحلل،



ذلك لأن المحلل «الإباحت» المريض . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن المحلل يبدأ عمله التحليلي «بإقل قدر من الانتقاد في تطابق المستنديات للمريض» .. أي بتطابق تفسيراته للمريض . ويستمر التحليل النفسي بقوة تناقض هذه العناصر الأربعة : اتفاق المستنديات للمريض واختلافها عنه ، واتفاق التفسيرات مع المريض واختلافها عنه . فالوقوف التناقض بين موقف المريض من مستندياته وموقف المحلل منها يجعل التفسيرات مشراً أقرب من المستنديات

على هذا النحو يكون «التحليل النفسي علم تفسير مستنديات المريض» وليس «علم تفسير المريض ولا علم تفسير المرض النفسي» . بعبارة أخرى : التحليل النفسي هو علم تفسير الأفعال النفسية psychological acts ، وليس بعلم تفسير النفس والمريض . وقد ذكر فرويد الإهتمام على هذه هذه النقطة تركيزاً شديداً (أرجع الى مقالته عن التحليل النفسي البدائي wild psycho-analysis تخرج من هذا إلى استكمال صيغتنا التي بدأنا في تكوينها عند مناقشة موضوع التفسير التحليلي : ان التفسير التحليلي النفسي له موضوع محدد غاية التحديد هو المستنديات ، وله به وضوح رؤية بأن المستنديات ليست المريض .. ولكن المريض هو مستندياته .

ج - الشعور أم اللاشعور :

ان قيام التفسير التحليلي على الأفعال النفسية يعني قيامه على الخبرة الشعورية . ولكن القضية الأساسية في التحليل النفسي تقول بأن القصد في الأفعال لاشعوري ، والهدف من التفسير هو كشف ذلك الجانب وجعله شعورياً . إذن ما هو موقف التحليل النفسي إزاء هذا التناقض ؟

ان الملاحظة الدقيقة - والتي تصلح ليبحث تجريبي - تبين ان اقصى يكترون من استعمال فهم التكلم انا (له ل) ، وفي نفس الوقت تقل لديهم الصيغ المباشرة للدلالة على الذات والتعريف الخاص بالكيونة . فان يستعمل المريض فهم التكلم في صيغ اخبارية او صيغة « الواحد يريد .. » النفا يعني تناقضاً بين الذات وكيونتها من جانب ويعني من جانب آخر تناقضاً بين الرغبة وشعور الشخص بها ، والواقع ان هذه الملاحظة تثير عدداً آخر من الملاحظات المتعلقة باللغة وبغير اللغة من طواهر انسانية ، ولكنها تقدم لنا مدخلا ممتازا لفهم عملية التفسير . فصيغة « أنا .. او .. الواحد » تختلف اختلافاً أساسياً من صيغة « اكون » (اربط .. اود) حيث ان الصيغة الأولى تسمح بسؤال الشخص من علة شعوره لتعالي الشعور على الرغبة في حين ان الصيغة الثانية لا تسمح بذلك . فاستعمال فهم التكلم لوصف الحالة الشعورية يدل على قيام تناقض بين الرغبة والشعور بها بدلاً من تناقض بين الرغبة وآخر (هو المحلل أو من يقوم المحلل بديلاً عنهم) . لذلك تكون المستنديات - في بداية العلاج - مطابقة تطابقاً ذاتاً للمريض .

ويمكن الآن - ان تصور المرض النفسي بأنه تناقض بين المريض ورفيقته ، وان تصور العلاج بأنه محاولة إيجاد الساق بين المتناقضين . وببداً العلاج بمحاولة خلق تناقض بديل بين المريض والمحلل كمرحلة أولى في سبيل حل هذا التناقض . ولقوم بهذه المهمة عملية التفسير لانها ذات خاصيتين : يقوم التفسير أساساً على سؤال المريض سؤالاً ساذجاً في شكله هو « لماذا ! » ولابد ان تؤدي محاولة الإجابة الى مفارقة المريض لمستندياته وكشف الزيف في اعتقاده بتطابقها لحقيقته ، كما ان القيام بدور المفسر يخلق بالضرورة موقف تناقض بين المريض والمحلل ، لان عمل التفسير يعني ان المحلل ليس مقتنعاً بتطابق المستنديات لحقيقة المريض بليل تفسير لها ، أي كشفه لعمائها .

فالذا كان التفسير التحليلي النفسي يتعصب على الأفعال النفسية - أي على شوه شعوري أو ما أصبح في حين الشعور - فليس في ذلك تناقض مع مقولة اللاشعور . فالمحلل لا يهتم باللاشعور في ذاته لأنه لا يهدف إلى تغيير مكوناته الأصلية ، بل يهدف فقط إلى تعديل طاقات هذه المكونات وعقد صلات اسلم بينها وبين بعضها البعض ، وبينها وبين التنظيم الشعوري الذي يشرف على تحقيقها . بعبارة أخرى ان المحلل يهدف الى ان يقلل قدر امكانه وإمكان المريض مسافة البعد بين المرضي (الاشعور . والمستنديات) وبين رفيقه (اللاشعور والقصد) .

● موضوعية التفسير التحليلي :

كما سبق يمكن ان نحدد ثلاثة أبعاد لموضوعية التفسير التحليلي :

- ١ - مطابقة التفسير للمستنديات .
- ٢ - مطابقة المستنديات للرغبات .
- ٣ - مطابقة الرغبات للقصد .

بمعنى آخر ، اذا استطاع المحلل ان يجعل تفسيره مطابقاً للمستندى ، وكان المستندى مطابقاً للرغبة ، وكانت الرغبة مطابقة القصد منها ، فلاشك - في هذه الحالة - ان التفسير التحليلي يكون موضوعياً كاملاً ما تكون الموضوعية.

ولكن هل يتحقق هذا الموقف المثالي ؟ وهل يمكن أن يطلب من التحليل النفسي أن يبلغ بموقفه هذه المثالية ؟ عند الإجابة عن هذين السؤالين سوف يظهر اشتغال هام : من الذي يقرر التطبيقات الثلاثة ؟ وقد وقع من حواصل من التحليل النفسيين الإجابة على هذا السؤال من مآزق منهجي دقيق . حدد الحللون النفسيون معك صلاحية التحليل النفسي ، بواحد من أمرين : الأول تقليل المريض أو رفضه للتفسيرات التي تنتمي له ، والثاني هو نتائج العلاج ونجاحه في التغيير المطلوب للمريض . والمآزق المنهجي يعود إلى أن تقليل المريض أو رفضه للتفسيرات عملية شعورية خالصة ، كما أن استجابة المريض للتفسيرات عملية لاشعورية خالصة . فعندما يقلل المريض تفسيراً ويرى فيه صواباً فذلك يعني رفضاً « أنا » المريض عن « أنا » المحلل ، مع عدم حتمية صدور ذلك عن تفسير في العلاقة اللاشعورية . كذلك رفض التفسير لا يعني أو يفهم أكثر من رفض «الأنا» ، التفسير . كما أن تعديل سلوك المريض نتيجة للتفسير سيمتد بدلاً في البنية اللاشعورية وليس في المركب اللاشعوري (تصول المريض من القسوة إلى رحمة ومن الشجع إلى الكرم ...) ، كما أن عدم استجابة المريض فوراً للتفسير لا يعني عديم المساس بالمركب اللاشعوري . وفي الحالتين يكون التفسير قد أضاف إلى المشكلة عنصراً جديداً هو تجميد العلاقة بين المريض والمعالج على نحو يوقف التفاعل ، أي يقيم العلاقة على أساس التآني أو عدم التآني بدلاً من التأثير المتبادل .

ليس من المنطقي إذاً أن يكون معك «صلاحية التفسير» هو التقليل - الرفض ، أو الاستجابة - الامتناع عن الاستجابة . فالمحلل أصلاً يقصد إلى كشف القصد من السلوك . والقصد (اللاشعور) هو الذي يخلق المستدعي بعد أن يتحول من مرحلة نفسية وسطى إلى رغبة . لذلك لا يمكن الاعتماد والثقة في تعديل يصبغت للرغبات أو مستدعياتها دون أن يكشف القصد ذاته وأن يحدث فيه تعديل يظهر في نفي الرغبات ومستدعياتها . أن موضوعية التفسير لاتصلح إطلاقاً بتأكيد المريض أو إنكاره ، سواء كان التأكيد أو الإنكار شعورين أو لاشعورين . فهذا المورد والمحك يتصل بالزيف والتوهم الذين يقع المريض فيهما : زيف اعتقاده في تطابق مستدعياته لحقيقته ورغباته وتوهمه على ذاته بأنه يريد مقاصد رغبته . أن الموضوعية في العملية التحليلية النفسية تتصل بالموقف الجدلي الاصيل بين المريض والمعالج . فكل تفسير لمستدعيات المريض هو نقيض «لأنه» يصدر عن المحلل كتنقيح بديل . وإذا تمكن المحلل من أن يستبدل بتناقض المريض مع رغبته تناقضاً آخر يقوم معه بمعالج ، أمكنه بذلك أن ينقله من ذلك التوهم الذي سبب شكايته ومرضه .

تلك هي الإجابة السريعة على سؤالنا الخاص بما هو مطلوب من المحلل وما إذا كان هو الذي يحدد تطابق التفسير مع المقاصد عبر تطابق المستدعيات مع الرغبات . أن المطلوب من المحلل هو تمكين المريض من النظرة الموضوعية لذاته ، وليس المطلوب من المحلل أن يعطي تفسيرات موضوعية . بمعنى آخر ، أن مشكلة موضوعية التفسير هي مشكلة المريض لا المحلل ، فعلى المريض أن يبلغ القدرة على الحكم الموضوعي على ذلك ، وعلى المحلل أن يعينه على أن يعطي هو أكثر التفسيرات موضوعية . وهذه الصيغة تتفق تماماً مع المحك المنطقي للشكاه وهو التخلص من الترجسيه أي الحكم الذاتي على الذات .

حدود الموضوعية في التفسير التحليلي :

سوف نقصر تناول هذه النقطة على الإجابة عن سؤال واحد هو أحد جوانبها : كيف تتم في عملية العلاج التحليلي النفسي إمكانية الحكم الموضوعي من قبل المريض ؟

عندما فعندما نلغوم الموضوعية فلنا أن هذه المشكلة تصود في شكل متباين طرفه الذات وطرفه المقابل الموضوع، حيث يكون أي حكم هو مجمل ما synthesis تتناقضهما ، فإذا كان كل موضوع يخلق نقيضه ليتفاعل ويعطيان مجعلاً، فما هو المجمل في علاقة المريض بالمحلل ؟ وما هو المجمل في علاقة المريض برغبته ؟ أن المجمل في الحالتين هو المستدعيات . فالمستدعيات هي صيغة التفاعل بين المريض والمحلل ، كما أن التفسير هو صيغة التفاعل بين المحلل والمريض ، وموقف التحليل النفسي لا يسمح بأي صيغة أخرى للتفاعل (النقاش النصيحة وما إلى ذلك) حتى إذا ما طرح المريض في الموقف ما هو غير المستدعي يتناولها المحلل بوصفها مستدعيات . ونفس الأمر بالنسبة للمريض ورغبته ، فمستدعياته هي مجمل ملائحته بها بوصف الرغبة مستعصية على نفسه . وقد يثار هنا موضوع صمت المريض أو امتناع المحلل عن إعطاء التفسير . الزايف أن أي مستدعي هو «فعل نفسي» يتكهن موضوعه ، أي يتكهن الآخر الذي يطرح عليه الموضوع . وعلى هذا الأساس يكون الفرق بين مستدعيات المريض وصمته هو الفرق بين نشاط تفاعل بين المريض والمحلل (مستدعي) وتفاعل بين المريض ورغبته (فعل المستدعي أو الصمت) . فعندما يقال بوجود مقاومة مظهرها الصمت ، فإن ذلك يعني رفضي المريض أن يضمن المحلل في مستدعياته وقصره للتناقض على ذاته ورغبته . ويصدق نفس الشيء بالنسبة لوفرة المستدعيات والتي تكشف في بعض الأحيان عن مقاومة . في هذه الحالة تكون وفرة المستدعيات تعبيراً عن رفض المريض التفاعل والتناقض مع رغبته وحصره على أن يكون التناقض مع المحلل . والتناقض كما نستعمله في هذه العبارات ليس التناقض الانفعالي بل هو العملية الفكرية الجديلية . لذلك يمكن

نظريا أن نعتبر لحظة الشفاء من المرض النفسي هي لحظة الاتفاق بين مجمل تناقض المريض مع المحلل وبين المريض ورفيقته . فهذه اللحظة هي اكتمال الحركة والضرورة في بعدين أساسيين : انلاخر ، تناقض ولا يحتاج الامر منا أن نعالج صمت المحلل عن التفسير إذ أن لحظة القارئ كفيلا بادراك مضمون هذا الصمت في ضوء ما سبق فرضه .

لا بد ان يكون القارئ قد أدرك أن موضوعية التفسير النابعة من التزام التفسير بتناول المستديعات وحدها ، هي نفسها موضوعية المريض . فالمستديعات هي مستديعات المريض ، لذلك فهي موضوعية بشكل أو آخر . فلذا استناد المحلل من العلاقة الجدلية التي تقوم بين الأشياء وتناقضها ، سوف يدرك ما يحمله المستدعي من معنى : (أحب هذا الشيء .. قد تعني لا تلقى اننى اكرهه أو أوجو أن تمتدني اننى احبه ، كما قد تعني اكرهه أولا استطيع حبه ولكننى مضطر الى حبه) . فالمستديعات قد تدل على القصد مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وقد يحد من القصد مباشرة ، أو بطريق غير مباشر . والسؤال الذى يثار في هذا الموضوع : أى المعاني يحد عليها المستدعي؟ أيها الموضوعي والاكثر دلالة على حقيقة القصد ؟ قد تبدو الاجابة مبسورة الى حد الخطورة اذا قلنا ان المحلل هو الذى يحدد الحكم على معنى المستديعات - وقد تبدو الاجابة مستحيلة الى حد الشقة اذا قلنا بان من يحدد معنى المستدعي هو المريض . ولكن ، مادام التحليل النفسي قائما اساسا على سؤال «لماذا» ؟ فان اصدق تفسير يأتى هو ما يقوله المريض استجابة منه لتفسير المحلل . فان ما يقرر أى المعاني اصدق هو قصيدة الشعور عند المريض ، وهي تكون عادة قصيدة غائبة عنه أو قصيدة مزيفة لا يكشفها الا ببحثه عن علته . ويحرك البحث عن العليلة . . لتفسير المحلل لا سبقتها من مستديعات ، وسوف نرجع الحديث عن جوهر التفسير الى خاتمة المقال ، رغم ما قد يبدو من بعض الخلل في هذه الفقرة لفهوض معنى «التفسير» . ولكن يجب التنويه هنا بان اكتشاف اصدق معنى للمستدعي لا ياتي بمجرد عملية قصيدة واحدة يقوم بها المريض ، فالقصيدة تكون دائما متشعبة ومحتمة لتعدد من المستديعات مما يجعل اكتشافها عملية مركبة تستدعي من جانب تفحص كل مستدعي ، وتستدعي من جانب آخر (ا بلوغ قصيدة كل مستدعي في تدرج غير منتظم) . ان التحليل النفسي يقوم اساسا على المساعدة في السابق ذكرهما : لقدرة التفسير على كشف القصد ، وقدرته على تحليل التركيب النفسي الذى يتخلى القصد في لسانه . ولذلك نوجز المشكلة فيما يلى :

ان التفسير التحليل هو الوسيلة التى يتبعها المحلل ليشيح للمريض ان يبلغ اقرب نقطة من الحكم الموضوعي على حقيقة رغباته ، وذلك من خلال مايرد الى ذهنه من مستديعات . وهنا يجد القارئ ان مناقشة التفسير التحليلي على معود الذاتية والموضوعية هو نقلة من الاصل الى الفرع . ففهمه التفسير هي مطابقة المستديعات وليس مطابقة حقيقة المستديعات . ومهمة المريض هي مطابقة مستديعاته لحقيقتها . والتفسير التحليلي النفسي - كعمل منه في اول لحظة في سلسلة مكونة من ثلاثة حلقات : تفسير يطابق المستدعي - مستدعي يطابق رغبة - ورغبة تطابق قصدا . ويمكن في هذا المنطق ما يفرق بين العلاج النفسي والتحليل النفسي . ان المعالج النفسي غير المحلل يحتاج الى ان يعطي تفسيراً يطابق القصد مباشرة ، وهو امر يتأتى له ولا يفرضه ولا يحق له فيه ان يدعى موضوعية . اما المعالج المحلل فلا يسمح للمريض باصدار حكم بدعى موضوعيته الا على مستديعاته . وعلى هذا النحو يتم الشفاء - بالمعنى التحليلي - على اساس الكشف عن القصد لا الاقتناع بما يقدمه المحلل من مقاصد لا يدونها المريض في نفسه .

ولا يبقى لنا الا ان نؤكد نقطة هامة بصدد موضوعية التفسير وعلاقتها بالتفكير السائد لدى علماء المناهج . ان موضوعية التفسير التحليلي النفسي تقاس بمقاييسين ، الاول مطابقتها بمستديعات المريض ، والثاني قدرتها على تمكين المريض من ادراك حقيقة رغبته ادراكا موضوعيا . لذلك لا نطالب التفسيرات بالموضوعية ، بل نطالب بان تمكن المريض من الموضوعية . بمعنى آخر ان التفسير الذى يعمله المحلل هو الرحلة التى تسبق التفسير الموضوعي والذى يصل اليه المريض .

● خاتمة :

ان دعوى علماء المناهج بعدم وجود ضمانات موضوعية للتفسير التحليلي - وكما حددوا الموضوعية - لاجد من المحللين الا الموافقة - لا تسليما بل تقيرا . فالتفسير يقوم على المستديعات التى لا تطابق رغبات المريض واتى بدورها لا تطابق مقاصده . لذلك ، اذا اتزق منظور التحليل النفسي الى جدل حول موضوعية التفسير ، فاتهم لن يضر جوا الى يقين - ولكن يكفهم ان يشبوا موضوعية التفسير بالنسبة الى المستديعات وحدها . فالتفسير وسيلة موضوعية يبلغها المريض وليس غاية تطالب بان تكون ذات قوام خاص . ويمكن ان ننهى هذا المقال بثلاثة ثلاث مشاكل والرء عليها فتكلم بذلك جوانب الموضوع .

ماذا يعنيه فعل التفسير ؟ وإلى ماذا يؤدي ؟ وماهى نتائجه ؟

فيما سبق أوضحنا أن الهدف من التفسير هو كشف القصد الإنساني ، أو قيمة الوجود . لذلك يكون معنى عملية التفسير أن المحلل ليس مقتنعا بأن مستنديات المريض تحمل مقاصده الحقيقية . فكل علاج نفسى يقوم على هذه القاعدة يعد تحليلا نفسيا بقدر التزامه بها (مع شروط أخرى لأجل لها في إطار هذا المقال) . إن التفسير - أى استفسار المريض عن مقاصده - يعنى من قبل المحلل : «أتأ لأخضع فيما تقوله ، لا أنك كاذب بل لأنك واقع تحت تزييف والاقتناع غير مبرر ببعض الآراء - وبدليل التجاذب إلى العلاج» . ولا يختلف الموقف بالنسبة إلى المحلل باختلاف وضوح القصد أو عدم وضوحه . فليس للمحلل أن يبرر السلوك ويصدق على القصد . فإذا قبل المريض هذا الموقف من المحلل ، بدأ هو حركة الكشف عن التزييف وأخذ سبيله إلى معرفة قصده . أى حقيقته . لقد أقام فرويد التحليل النفسي على أكثر الأسئلة سداجة (لأنها) ليخلق أكثر المواقف ذكاء . أن إجابة المريض - الذى لا يعلم بحكم مرضه - عن سؤال المحلل له «لماذا» هى فعل التفسير . فالتفسير كفعل نفسى هو «المطلوب» في التحليل وليس أمراً «يعطى» . وطالما ظل الموقف التحليلي مقياساً حيوية طلب التفسير ، أستر الكشف عن عدم مطابق المستنديات (الإفكار) للزورع (الريقات) وعدم تطابق الزورع للمقاصد (قيمة الوجود) .

إن التفسير يؤدي دائماً إلى اكتشاف قيمة الفعل السيكلوجى . فالفعل السيكلوجى - الرضى والسوى على حد سواء - هو تحول مالى قابلية الإنسان للحركة والصورة أى هو في أصله «حركة حيوية خالصة» motoricity ولكن هذه الحركة الحيوية لا تبقى على حالها لدى الإنسان لأنها تتحول إلى أن تغير . ويكون تغيرها على مستويين حسب موضوع تلبسها .

المستوى الأول : مستوى تلبس الشخص نفسه لحركته . في هذا المستوى يكون الفعل السيكلوجى في حالة دفع motivation للشخص . فلننمنا تتحول الحركة الحيوية - أو جزء من التهيؤ البدنى لها - إلى نشاط عقلى فكرى لدى الشخص ، يحدث تمثيل جوهري في طاقاتها فينشطر ليقوم جانب منه كصدا للغة الأصلية (يمكن الرجوع إلى فرويد في نظريته عن الكتب الأولى والثوى) . فالشخص في هذه الحالة يمنع فعله النفس قيمته فيقبله أو يرفضه . ولكن تبقى القيمة السيكلوجية للحركة الحيوية معدودة لأنها قيمة بما تمنيه لصاحبها وحده . ويعنى هذا المستوى تلك الحياة النفسية المتخيلة ويصبح الواقع تخيلاً . fantasy

المستوى الثانى : مستوى يتحول فيه الشكل البدائى للفعل (السيكلوجى إلى صيغة أعقد بدخول الآخر فيه كمنع لقيمته . في المستوى الأول يمنع الشخص قيمة فعله النفسى وفى المستوى الثانى يعمل الآخر هو مانع هذه القيمة . ودخول الآخر في تقويم الفعل النفسى إنما يعنى أن الشخص قد تحول بدافعه إلى موضوعات خارجية ليعلق فيها دافعه ويخلق معها دافعه . وتتفر حالة الدافع لتصبح رغبة desire (رغبة في ..) وتأخذ الرغبات قيبتها من موضوعاتها ليكتمل لنسج الافعال السيكلوجية . أى تتحول من صيغة التخييل إلى صيغة التصور . imaginary والتحول إلى التصور يفتح الطريق إلى الواقع real فيصبح الفعل السيكلوجى فعلاً إنسانياً بالهنى الذى يعطى قيمة للوجود .

ويختلف المرض من السواء في قابلية «الحركة الحيوية» لتتحول من حالها الأول إلى حالها الثانى ثم الثالث . فالأفعال السيكلوجية المرضية تنحصر في المستويين الأولين حيث تتعطل لدى المصابى القدرة على الانتقال من التصور إلى الواقع . كما أن الافعال السيكلوجية المرضية تختلف في مدى وضوحها لصاحبها وللآخر . ففى بعض الصيغ المرضية يظف على الافعال النفسية تقيدها برفض صاحبها أو تقبلها لها دون أن يعرضها المريض على الآخر لقبولها أو يرفضها أو دون أن يتم بتقبل الآخر لها أو رفضه أياها - وهذه هى الصيغ اللهاية أو الجوانب اللهاية في بعض الأصعب . وفى بعض الصيغ المرضية الأخرى يظف على الافعال السيكلوجية تقيدها برفض الآخر لها أو تقبلها لها دون أن يقرر المريض لها قيمة تخصه . وهذه هى الصيغ المصابية من الرضى .

ويؤدى التفسير - كما أوضحناه في الفقرة السابقة إلى رد الدوافع غير المصدرة إلى رغباتها (رد المستنديات إلى الرغبات) ، كما يؤدي إلى كشف الموضوعات إلى رغباتها (رد الرغبات إلى المقاصد) . فكثيراً ما يورق المريض دافع - لا يعرف أن كان يرفضه أو يقبله - لا يعرف له موضوعاً ، كما أنه يندر أن لا يجد مريضاً يتسكع بموقف لا رغبة له فيه . على هذا الأساس يكون التفسير كعملية دفع إلى السبيل إلى اكتشاف قيمة الفعل السيكلوجى - أى تحقق علاقة ممكنة بين القصد والرغبة والفكر (الفرة والدافع والشعور) .

أما نتائج عملية التفسير فلن نخرج من انفسنا معرفة المريض بمقاصده . ولكن هذه المعرفة هى في النهاية بداية البناء النظرى للتحليل النفسى . فالنظرية التحليلية النفسية تقوم على مقاصده ويمنحه المرضى جلسة بعد جلسة يمدد القصد الإنساني - ومن خلال مقاصدهم الفردية . فإذا كان فرويد قد اكتشف اللاشعور قبل اكتشاف مفهونه ، فذلك لأنه انتظر المصنوع بعد أن علم بوجوده ، أى أنه لايفضل هذا المصنوع . ولأنك أنت - وقد اتينا من الفضال - قد بلغنا نقطة تستحق عن نفسها مثلاً : طبيعة الموضوعية في النظرية التحليلية النفسية ذاتها .

أحمد فايق

أسلوب تحليل المضمون واستخداماته



عبد الحليم محمود السعيد

يحتل المضمون موقعا رئيسيا في عملية الاتصال .
ويعنى مضمون الاتصال مجموعة من المعاني التي يعبر عنها
بالرموز - اللفظية أو الموسيقية أو التصويرية أو التشكيلية
أو الحركية - أولئى من شأنها أن تنشئ الاتصال ذاته ، من
خلال وسائله المختلفة .

وإذا كانت العبارة الكلاسيكية تحدد عملية الاتصال في :
من ، يقول ماذا ، لمن ، وكيف ، وبأى تأثير ؟ فإن مضمون
الاتصال يتمثل في « ماذا » .

ولما كان المضمون يمثل الوسائل التي يتصل من خلالها
فرد بأخر أو جماعة بأخرى ، فإن المهم في بعوث الاتصال
أن يوصف هذا المضمون بدقة وأن يفسر بصورة ناللة .

وتحليل المضمون عبارة عن أسلوب علمي يستفهم
لوصف مختلف أوجه مضمون الاتصال بأسلوب مختصر ،
بل وللتنبؤ بعدد من الوالات أو الأحداث من خلال مواد
أعلامية مثل الأنباء والمقالات والقصائد والأغاني والقصص
والأفلام والكتابات الأدبية والتصريحات الرسمية للقيادة
وأحاديث الشخصيات الكبيرة .

ويستخدم أسلوب تحليل المضمون بالفعل في الإجابة
عل عدد من الأسئلة المختلفة مثل :

- هل سيخلق احد البلاد نوعا من النمو السريع ام
سيعاني من الاضطراب والفقر خلال السنوات الخمس القادمة ؟
- هل يتمتع بلد معين بالوحدة القومية أم إن الصراعات
بين الجماعات الوطنية أو بين القادة والجماهير تلتفت من وحدته ؟
- ماهى البيانات الدلالية التي يمكن استخلاصها من دعاية
الصلو ؟

- هل يستمد بلد معين للمدوان (بأخرى التقليدية أو
الاقتصادية أو السيكلوجية) على بلد آخر أم أنه سيهدله
في فترة تالية من الوقت ؟

- ماهى بؤرة اهتمام الناس في بلد معين أو ماهى
الموضوعات التي تشغل أذهانهم خلال فترة معينة من الوقت ؟

- ماهى أنواع التشابه والاختلاف في الشعارات السياسية
التي يقصد أن يلفت حوتها الناس ويوجه إليها انتباههم في
عدد من البلاد ؟

- كيف تختلف شعارات الدعاية في احد البلاد من فترة
لأخرى على امتداد عدد من السنوات ؟

- ماهى الصور السالبة في مسرحيات شكسبير ؟

- ماهو بناء شخصية الكاتب كما تنعكس فيما يكتبه ؟

- ماهى الاتجاهات الرئيسية في استخدام البحوث
السابقة لدى العلماء في كل من علم الكيمياء والفيزياء منذ
عام ١٩٠٠ ؟



تعريف تحليل المضمون

تحليل المضمون هو أسلوب علمي يهدف إلى الوصف الموضوعي والنظم والكشف للمضمون الظاهر للاتصال أي المجموعة المصاني التي تظهر من خلال الرموز المستخدمة في عملية الاتصال .

(١)

أنه أنه أسلوب لوصف المضمون الظاهر للرموز المستخدمة في الاتصال ، بطريقة موضوعية تضمن وجود تعريف دقيق للئات التحليل بحيث يمكن تحليلين مختلفين أن يطبقوا على نفس المضمون ويحصلوا على نفس النتائج . أما التنظيم الذي يقتضيه تحليل المضمون فيعني تحليل المضمون على ضوء حصص كل الفئات المناسبة لموضوع التحليل ، كما يعني أن يهدف التحليل إلى التحقق من مشكلة علمية أو فرض علمي يمكن من خلال التحقق منه أن يكون لنتائج تحليل المضمون قدر من الفائدة التطبيقية فيما بعد . أما لزوم أن يكون

- كيف تعالج جماعات الأقليات المنصرية في القصص التي تنشر في المجلات واسعة الانتشار ؟

- كيف يمكن حصر أنواع الدعاية الهدامة وكشفها ؟

- كيف يمكن مقارنة طريقة تناول الصحافة والإذاعة حالة قتل بعد تعلق عاطفي ؟

- ما الذي يجعل الكتابة قابلة للقراءة والفهم ؟

بأي الطرق تعكس الصور السينمائية مشاعر الناس ورغباتهم ؟

- ماذا يحدث لاحدى القصص الجيدة عندما تتحول إلى فيلم ؟

- إلى أي حد تشبه طريقة تفكير أحد الأشخاص الرضى القضاة ؟

بيد تاريخي له قيمته يجعلنا أكثر اهتماما لاجتاه المحلل لمضمون وسائل الاتصال عن طريق المقارنة بينها .

وبالرغم من أن معظم الدراسات تعالج موضوع المضمون فقد بدأ النظر ينتبه إلى قيمة اجراء دراسات عن « اتجاه المضمون من حيث التأييد أو المعارضة و » الأشخاص « مصدر الاتصال و » طريقة العرض » .

(٢) - تتبع تطور العلم : يستخدم تحليل مضمون التراث العلمي في وصف تطوره . فتحليل تطور علم الطبيعة في إنجلترا وألمانيا وفرنسا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أظهر فترات تقلبات تشبه الموجات للانتاج الإبداعي .
وله درس الفلاسفة المتغير للبحث في علم النبات من ١٨٩٠ - ١٩٢٠ في مجموعة من مجالات هذا العلم .

وبالمثل أمكن دراسة تطور الاعتمات بعلم الاجتماع بالولايات المتحدة خلال الخمسين سنة الأخيرة عن طريق دراسة توزيع المجلات في المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ، وتبين زيادة اهتمام المجلة في السنوات الأخيرة بمشكلات السكان والأجناس والقوميات ، ومناهج البحث ، على حساب الصلعات المخصصة للنظرية ولتأويل علم الاجتماع والإصلاح الاجتماعي .

ومثل هذا التحليل لا يصف تطور اتجاهات للنظام معين فحسب ، بل يزودنا بتعريف أو تكوين ، لجال معين في أي فترة زمنية محددة .

على أنه لا بد من التحقق من الدعاوى التضخنة في هذا الاستخدام لتحليل المضمون لفهم الدراسات التي استخدمت تحليل المضمون لهذا الغرض لا تعتمد إلا على مصدر واحد للبيانات أو على مجموعة صغيرة من المصادر . فتمتد خلال فترة من الوقت طويلة نسبيا . وهنا لا بد من الالتفات إلى أهمية تمثيل المجالات أو وسائل الاتصال التي ستحلل للمجال الذي يدعي أنها تمثله . إذ قد لا يتضمن عدد قليل من المجالات عينة صادقة لبحث التراث أو المجال المراد دراسته خلال فترة طويلة من الوقت بسبب ظهور مجالات أكثر تخصصا تمثل فروعاً من المجال موضوع الدراسة في الفترة الأخيرة .

كذلك فإن التغيرات التي تحدث في عدد من المجالات في مجال معين قد تعكس تفسيرات في سياسة المحدثين أكثر مما تعكس تغيراً تطبيقياً في الاهتمام بالمجال ذاته . وفي بعض الحالات قد يشوه مصدر مواد الاتصال نتائج الدراسة نظراً لتحييزه . كما أو حللنا المساحة المخصصة « للرجال العلم في العالم » في دوائر المعارف البريطانية ، أو الأمريكية ، إذ التوقع أن تخصص مساحة أكبر لأبناء البلد الذي يقوم بنشر دائرة المعارف حساباًه .

كما أن ميل المصادر إلى الاهتمام الزائد بفترة تسبق لفتحهم مباشرة ، قد يشوه دراسات الاتجاه . وكذلك فإن تفسير أساس التصنيف قد يؤدي إلى أي مشوه ، مثلاً المقالات التي تقع في حدود مجلات كالفرزاد والرياضيات أو مجال

التحليل كما فانه من أكثر الخصائص تحيزاً لتحليل المضمون مما يميزه من مواد القرابة أو الفصحى المعادى . ولا يتطلب لزوم التكميم ضرورة تحديد قيم عديدة للثلاث التحليل إذ يتخذ التقدير أحياناً شكل كلمات كمية مثل « أكثر » ، « دائماً » ، غالباً ، « يزيد » .. الخ .

استخدامات تحليل المضمون

يستخدم أسلوب تحليل المضمون على عدد كبير جداً ومتنوع من مواد الاتصال من أجل تناول عدد كبير ومتنوع من المشكلات بحيث يعصب حصر هذه الاستخدامات في تصنيف واحد .

وفيما يلي عرض لأهم استخدامات أسلوب تحليل المضمون على ضوء الأهداف الرئيسية للدراسات التي اعتمدت عليه ومن شأن هذا العرض أن يعكس إلى حد كبير المشكلات الرئيسية التي يستعان في دراستها بهذا الأسلوب . مع الإشارة إلى نماذج من الدراسات التي تمت في مجالات تطبيق تحليل المضمون .

أولاً - استخدام تحليل المضمون في دراسة خصائص المضمون من حيث المادة :

وله اشتغال هذا على المجالات السبع التالية :

(١) - وصف الاتجاهات في مادة الاتصال والتغيرات التي حدثت في مضمونها في فترات مختلفة من الوقت « عن طريق دراسة عينات ممثلة من فئات مادة الاتصال في فترات زمنية مختلفة » .

وإذا كان هذا الوصف لاتجاهات مادة الاتصال مفيداً في حد ذاته ، فإنه أيضاً يزودنا ببيانات ترتبط بالتغيرات الحادثة فيما يتصل بالقائلين على الاتصال أو للوجهين له أو فيما يتصل بالجمهور .

وله استخدمت هذه الطريقة في مقارنة مدى استخدام أدوات الاتصال لأنواع معينة من الأنباء أو الدوافع أو الشعارات في فترات مختلفة من الوقت .

وتبين بعد تطبيق هذه الطريقة على شعارات « مايو » بالاتحاد السوفيتي من ١٩٢٤ إلى ١٩٤٣ ، أن هذه الشعارات تطورت من الثورة العالمية إلى الشعارات القومية .

واتضح أن اعتماد المقالات التي تعرضها مجلة ربات البيوت الأمريكية عن تنشئة الأطفال على النقاش في هذا الموضوع زاد من ٥٠ عام ١٩٠٤ إلى ٩٨ عام ١٩٤٠ .

كما تبين أن الدعاية بالحرب العالمية الثانية مقارنة بالدعاية بالحرب العالمية الأولى كانت أقل إغالية وخطابية وأكثر ميلاً إلى تحرر المخالقات .

وهذه الدراسات لاتجاه مضمون الاتصال يزودنا

علم الاجتماع وعلم السياسة مما يؤدي إلى تصنيف هذه المجالات في مجالات مختلفة في الأوقات المختلفة .

ومع هذا فإنه يمكن احتجاب معظم هذه الصنوعات ، ومن ثم يصبح تحليل المضمون مفيدا كإداة لوصف تكوين وتطور مجالات المعرفة والعلم .

(٣) - الكشف عن الفروق بين مضمون الاتصال بالنزول المختلفة : يؤدي التحليل المنظم إلى الكشف عن الفروق بين وسائل الاتصال لدى النزول المختلفة ، ويطبق هذا على الصحافة ، والإذاعة ، والمسح وشرح كيفية معالجتها للموضوعات المختلفة . وذلك من خلال الأجوبة على عدد من الأسئلة : ماهي الأنباء التي تشجع الاهتمام بها في بلدان متصارعين أو متعاونين ؟

كيف تختلف صياغة الدول لنفس الحدث ، مثل مغروب أو الأزمات الدولية التي تسلوي اهتمامها بها ، أو الوقائع التاريخية ؟

ماهي الفروق الرئيسية بين الآلام الأمريكية والانجليزية والفرنسية والروسية ؟

مثل هذه الأسئلة يمكن الإجابة عليها بعد التحليلات المقارنة للمضمون ، التي تكشف عن الفروق في بؤرة الاهتمام لدى جماهير الأمم المختلفة .

من أمثلة الدراسات من هذا النوع دراسة قوون فيها بين صيغ حرب التحرير الأمريكية في كل من الكتب الأمريكية والبريطانية ، وكذلك لورن بين صيغ الحرب العالمية الأولى في الكتب الأمريكية والألمانية ، للكشف عن الآراء التاريخية التي تقدم كشباب الدول المختلفة .

وفي دراسة أجريت لثراء الشباب الهتلري والكشفافة الأمريكية حلل فيه هذا التراث فيما يتصل بالأهداف والبرمات .

ولم يوجد فرق في التأكيد على غايات مثل اللياقة البدنية ، والنظام والإنتاج ، ولكن المواد الألمانية كانت أكثر على الولاء القومي والتوحد مع الوطن ، وكانت أقل تأكيداً على الفرية والإبداع ، بالإضافة إلى وجود فروق كثيرة في أسس التوصية بالأغراء المرفوب فيها لدى أعضاء التنظيمين .

وقد كانت توصيات الشباب الهتلري تبصر أساسا بالقضية في المجتمع القومي (٦٦ ٪) ، بينما الكشفاف كانوا يبررون غاياتهم بأرضاء ذواتهم (٤٧ ٪) .

وفي دراسة أخرى حللت أكثر أنواع الدراما شعبية في البلدين ، ووجد أن أكثر موضوعات المسرحيات الأمريكية هي الحب (٦٠ ٪) والأخلاقيات (٣٦ ٪) ، أما في اللاتينا فكانت المسرحيات المثالية (٤٤ ٪) وتلك التي تمثل القوة (٣٣ ٪) .

وقد كان مستوى أحدث في الدراما الأمريكية شخصيا بحثا في ٩٦ ٪ ، بينما مستوى الحدث في الدراما الألمانية كان مقسما بين المسائل الأيديولوجية (٥١ ٪) والشخصية .

وبينما أمكن استخدام هذه الدراسات لتوضيح العزوف بين الطابع القومي من خلال ولاتفاق تثبت هذا ، فإنه يمكن استخدامها كذلك لوصف ما يقدم لجماعات مشابهة ببلدين مختلفين .

(٤) - المقارنة بين وسائل الاتصال المختلفة أو بين مستويات الاتصال المختلفة : وسائل الاتصال المختلفة ومستويات الاتصال المختلفة لا تجذب جماهير مختلفة فحسب بل تتناول نفس الموضوعات بطرق مختلفة .

لهذا فإن التحليل المقارن لمضمون الاتصال وعرض المضمون ، وسائل مختلفة للاتصال وبطرق مختلفة يعد من أهم تطبيقات تحليل المضمون . ومن أمثلة الدراسات الحديثة في هذا الشأن دراسة أمكن من خلالها الكشف عن نضاج التغيرات التي حدثت في ٢٤ قصة جيدة بعد تحويلها إلى الآلام فيما يتصل بأحوال ، والشخصية ، والحدث ، والشهد ، والمخافة ، والتسلسل والأسباب المستتجة لها . وقصدار الانتباه الذي يعطى لأجزاء القصة الرئيسية في القصة - ككتاب - ثم في الفيلم الذي تحولت إليه ، مما يؤخذ كدليل على إغلاص النقل من وسيلة لأخرى .

ولما كانت جماعات مختلفة من الناس تتعرض لأنواع الاتصال المختلفة (من خلال القراءة أو الاستماع أو المشاهدة) التي تتناول نفس الموضوع ، فإن المقارنة بين هذه الأنواع من الاتصال لها قيمتها كطريقة لوصف الفروق في المضمون الذي تتعرض له الجماعات المختلفة من الناس .

(٥) - فحص مضمون الاتصال في مقابل الأهداف منه : كل منظم من منظمات الاتصال له هدف أو مجموعة من الأهداف ، سواء أكانت صريحة أو ضمنية .

ومدى تعبير المضمون عن هذه الأهداف يعد أحد مؤايات المضمون .

وقد قوون في عدد كبير من الدراسات بين ما يؤكد المضمون وبين معايير الحلل .

ولم يراجع المضمون على أهداف المشرف على الاتصال إلا في عدد قليل من البحوث .

وأحيانا يقوم بهذه التحليلات أشخاص « خارجيون » على أساس الأهداف المقترحة للمشرفين على الاتصال .

وقد تقوم جماعة من المهتمين بتصحين برامج التلفزيون - مثلا - بتحليل مضمون برامجه التي يقدمها في فترة محددة ، وتحديد نسبة ما يقدم من كل نوع من البرامج إلى المجموع الكلي لوقت الإرسال التلفزيوني .

ويمكن استخدام تحليل المضمون في تصحيح الوضع القائم الذي يكون غالبا - غير ملتفت إليه - كما قد يستخدم في الفناء ما تبيين عدم جوازه ، وكذلك يمكن استخدامه في تصحيح التكتيدات المخاطبة في مضمون الاتصال على فسوء الهدف منه ، وتوجيهات المشرف على الاتصال .

٦- انشاء معايير وتطبيقها على الاتصال : يمكن عن طريق تحليل المضمون وصف وسائل الاتصال ولكنه لا يستطيع في ذاته ، تلخيصها .

والتقويم يستلزم قبول معيار أو عدد من المعايير ، يقارن به مضمون الاتصال بواسطة تحليل المضمون .

ويستخدم تحليل المضمون ثلاثة طرق لتقويم وسائل الاتصال :

(أ) تقويم الأداء بناء على معايير قبلية مثل : تحقيق نوع من التوازن ، أو وجود هدف اجتماعي .

(ب) تقويم الأداء بمقارنته جزء من المضمون بآخر .

(ج) تقويم الأداء بمقارنة المضمون بمعيار خارجي ليس من المضمون .

وفي كل حالة من الحالات الثلاث يقدم المعايير شخص آخر غير المشرع على الاتصال ذاته ، مما يميز هذا الاستعمال عن الاستعمال السابق لتحليل المضمون (فحص مضمون الاتصال في مقابل الهدف منه) .

وقد تم تطبيق المعايير القبلية على مضمون الموضوعات التي تتناولها الصحف في بعض البلاد وفي فترة محددة وعلى طرق عرض هذه الموضوعات للتأكد من مقدار الإلقاء أو التشويه أو عدم الدقة .

وقد تناولت دراسات أخرى طرق معالجة « العمل في البرامج الإخبارية في الإذاعة » ، و« طرق معالجة قانون معين في عدد من الجرائد » ، و« طرق عرض الأنباء المحلية في الجلات الأسبوعية » .

وتتضمن الأساس الثاني للتقويم إقامة معايير داخلية ، أي من داخل المضمون ذاته ، يقارن فيه بين جزء من المضمون وجزء آخر ، فهي دراسة « للسلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي لدى من الصحف المعلقة للصحافة الأمريكية تم تقويم اصحف على أساس معيار متوسط ، بين الاجتماعية والحسية لدى مجموعة من الصحف التي تهتم اهتماما كبيرا بالأنباء الاجتماعية » .

واستندت المعايير من تحليل مساحات عناوين الصفحة الأولى المخصصة لثلاثة موضوعات « شديدة الاجتماعية » هي : « المشكلات الأجنبية » و« دولية الولايات المتحدة » و« الوطنية » وثلاثة موضوعات حسية هي « حماس لمال » و« الجنس » و« المال والجنس » ، و« طرح الأخيرة من الأولى » تحصل على درجة واحدة لقياس « الاجتماعية - الحسية » لكل صحيفة . طبق هذا على أربعين صحيفة ورتبت تنازليا ، و« قورن بينها على أساس أن هذا هو معيار تحديد « أحسن » صحيفة » .

أما المنهج الثالث للتقويم الذي يقوم على أساس معيار من خارج المضمون فقد استخدم لتقدير تكرار ظهور الأشخاص الذين ينتمون إلى أجناس مختلفة في قصص الجلات ، وهي هذه الحالة يقارن توزيع الشخصيات الخيالية بالتوزيع الفعلي للسكان .

والتعداد العام وحده هو الذي يوضح التنازل اللارقي

لجموعات المواطنين أو الأقليات في القصص ، لكل جماعة إقليمية تظهر غالبا في القصص أقل مما هي في البلد ، ويظهر المواطن الذي ينتمي للأقلية أكثر تكرارا .

ومقارنة أخرى مفيدة في تقويم أداء الصحافة ، استخدمت في تحديد مدى ذكر الصحف البريطانية للوقائع الأساسية التي تتصل بحدث هام ، وأنشأ المحللون قائمة رئيسية تتكون من ٣٣ واقعة (تمثل أحداث بالفل وروجع على أساسها غلاف الجرائد) ، وقد تراوحت درجات تسعة جرائد بين ٢٢ و ٣٠ .

ولا شك أن كثافة المعايير المستخدمة والتي تستعين بأسلوب تحليل المضمون من شأنه أن يزيد من كفاءة تقويم وسائل الاتصال .

٧- المساعدة في العمليات النفسية للبحث في العلوم الانسانية :

يعد استخدام تحليل المضمون كخطوة من خطوات البحث العلمي في العلوم الانسانية من أهم استخدامات هذا الأسلوب .

ويساعد تحليل المضمون على وصف المعلومات والمصادر الكلية للاتصال ، فالمقابلة كاسلوب لجمع البيانات اذا كانت من النوع التعمق كالمقابلات الأكاديمية التي تستخدم لتشخيص الأمراض النفسية أو العقلية ، تكون غالبا من النوع الذي يوجه فيه إلى المخصوص أسئلة مفتوحة التهاسيات أي الذي لا تعدد للملحوص اجابات معينة لوضع اجابته في ادها ، وعلى الرغم من أهمية ماتتضمنه هذه الأسئلة المفتوحة فانه تحول دون تحليل اجاباتها تحليليا منظما وموضوعيا عدة مشكلات منها مايتصل بعدم دقة تسجيل هذه الاجابات أو ما يتصل بصعوبة ترميزها ، الا أن أسلوب تحليل المضمون يساعد على الوصف المنظم الموضوعي الذي يمكن من عرض مضمون هذه المقابلات في صورة كمية .

ويستمد في الاستدلال على الحالة السيكولوجية للأفراد ، و« الجماعات الصغيرة على تحليل المواد الرمزية التي ينتجونها فرادى أو جماعات » ويدخل في هذا السجل الاجتماعي للحالة ، والمقابلات العلاجية واختبارات الشخصية ، وأنواع الإبداع الخيال والقصائد والذاكرة اليومية وأي وثائق شخصية أخرى تتحد من خلالها ملامح شخصية الفرد على أساس مايت جمعه من الوثائق عن أحداث حياته وسمات شخصيته ، كذلك يستدل على السمات الشخصية للمفحوصين من تحليل استجاباتهم لمثيرات غامضة (بقعة حبر) ، أو صورة غامضة أو جملة ناقصة (« وثلاثات الشخص للشكل بدلا من اللون » ان لكل بدلا من الأجزاء المتفرقة أو نمجه للقصص المعنوية بدلا من السلبية ، مما يزيد الحلل بالبيانات التي يميز على أساسها سمات سيكولوجية معينة . وقد تبين من خلال عدة من الدراسات إمكان استخدام أسلوب تحليل المضمون في تحليل القصص الخيالية التي تشبع لدى الأطفال في عدد من

الجماعات من حيث علاقتها بما تمت تنشئتهم عليه من دوافع مثل الدافع الانجاز وبدل أقصى جهد ، وحب التجديد والابتكار والمخاطرة ، وحب الاستقلال والاعتماد على النفس أو انقراض مثل هذه الدوافع .

كما حاولت بعض الدراسات تحليل الأعمال الأدبية من ناحية دوافع أبطالها أو سماتهم الشخصية ، وحاول بعض الدارسين تقصي دوافع المؤلفين أو الشعراء من خلال تحليل أعمالهم .

كذلك فقد امكن لأسلوب تحليل المضمون وصف وتفسير عدد من مظاهر السلوك المرفى واعطاء صورة اكليتيكية واضحة تساعد على التشخيص والعلاج . مثال ذلك تحليل طريقة التعبير اللغوي لدى المرفى النفسيين أو المرفى الذهانيين ، وقياس درجة التوتر العام ، ودرجة الشعور بالضيق أو المرفى خلال مراحل العلاج . وأمكن من خلال تحليل بيانات سجلات الخدمة الاجتماعية المقارنة بين نوع الخدمات التي تقدم في مكاتب مختلفة بنفس البيئة أو ببيئات مختلفة . وقد تبين وجود علاقة ايجابية بين اتجاهات العميل نحو الهيئة التي تقدم له الخدمة النفسية أو الاجتماعية حل مشكلته وبين درجة ثقته في حل هذه المشكلة . كذلك امكن من خلال التحليل الكمي للمميزات التي يذكرها أعضاء الجماعة وصف كل منهم بأنه : يظهر التضايق ، يظهر التوتر ، موافق بلدم التراجع ، يبدي رأيا ، يعطي توجيها أو أمرا ، أو عكس هذه الصفات ، ويمكن من خلال تحليل المناقشات التعرف على درجة التماسك بين أعضاء الجماعة والعوامل التي تساعده أو تلك التي تعوقه ، ودرجة وضوح أهداف الجماعة ، ووسائلها لتحقيق هذه الأهداف بالنسبة لكل عضو من أعضائها .

ويمكن من خلال تحليل مضمون استجابات جماعة معينة أو فئة اجتماعية محددة على عدد من الأسئلة ، أو تمييزاتها بوسائل التعبير المتاحة التعرف على اتجاهات هذه المجموعة سواء كانت اتجاهات سياسية أو اجتماعية مما يساعد على كفاءة التعامل مع هذه الجماعة أو تلك الفئة الاجتماعية .

لانيا - استخدام تحليل المضمون في دراسة خصائص المضمون ، من حيث الشكل :

وقد اشتمل هذا على المجالات الثلاث التالية :

١ - الكشف عن أساليب الدعاية :

يوحده غالبا بين تحليل المضمون وتحليل الدعاية لأن عددا كبيرا من دراسات تحليل المضمون - إن لم يكن مطلقا - تتناول أساليب الدعاية بالتحليل . هذا إذا اتفق على أن الدعاية إنما هي محاولة عمدية للتأثير في الاتجاهات أو في السلوك أثناء مسألة خلائية عامة .

ويمكن إبراز بعض الأساليب المستخدمة في تحليل الدعاية وتصنيفها إلى فئات مثل التحليل على أساس الموضوع أو الصياغات المختلفة للمضمون أو على أساس الدعوى أو مقصد الاتصال وإثره ونفس الموضوع قد يكون له دعامتين مختلفتين بالنسبة لجمهورين مختلفين في حين أن موضوعات



مختلفة قد يكون لها نفس الدعوى .

وقد ثبت أن تحليل الاتصال على أساس فئات المضمون افضل من تحليله على أساس مايفترض من مقاصد وآثار .

استخدم هذا الأسلوب في تحليل الدعاية بالحرب العالمية الثانية وتبين منه وجود أربعة أهداف رئيسية لدعاية الحرب لدى الحلفاء هي : إثارة الكراهية ضد العدو ، والإبقاء على صداقة الحلفاء ، والإبقاء على صداقة المعادين وضمأن تعاونهم إن أمكن ، والقضاء على الروح المعنوية للعدو .

وقد تم تقويم الدعاية البريطانية في هذا الإطار عندئذ، وتبين أنها : نجحت نجاحا مدهشا في إقامة أهداف إنسانية للحرب بينما أثار اللئال الكثير من الاستياء والشك في الخارج بكلامهم عن الحرب من أجل الثقافة الألائية ، واحتقار للشل الانساني الأعلى . . وبدأ الرجال المسؤولون ببريطانيا في التحدث عن الحرب من أجل إنهاء الحرب قبل أن يتصلم رجال الدولة الألائ هذه العبارات بوقت طويل . وتم يستطلع الألائ مواجهة الانطباع الجبلى الشائع بأنهم مستنون وذلك يرجع الى حق دعواهم .

واستخدمت فئات أخرى في تحليل الدعاية وهي مايطلق عليه اسم « خدع الصنعة » وهي الجبل الخاصة المختلفة التي لا يكون الناس عادة على وعي بها .

واستخدم في هذا الصدد عدد من فئات التحليل لخدع الدعاية التي تكشف أساليب اختيار الموضوع المناسب وتلبسه في ذهن الجمهور وتبسيطه له وإطلاق اسم عليه واستخدام كلمات شاملة عامة وبراقة ونقل المعنى من سياق لآخر وخلق الأمود على الجمهور وتقديم الدعاية في ظل معلومات أخرى صديقلها واستغلال القروق النفسية للجمهور التي تجعلهم أكثر تصديقا لما يقدم لهم .

واستخدم هذه الفئات في تحليل الدعاية يجعل الناس على وعي بالدعاية المفصلة مما يفسد آثارها . وإن كانت هذه الفئات لا تضمن بالطبع . كل « مجالات تحليل الدعاية » .

واستخدم فئات المضمون في تحليل الدعاية لا يلقى خاصية أساسية ترتبط بالدعاية هي « المضمون الانفعالي » للمادة . وقد تمت بعض المحاولات لقياس حرس مختلف أنواع الدعاية الموجهة الى جماهير مختلفة من خلال قنوات اعلامية متنوعة في نفس الوقت أو في فترات زمنية متعاقبة على الأداة استجابات الانعالية بواسطة مضمون عاطفي يختلف باختلاف نوع الجمهور .

٣ - قياس الأسلوب الذي يؤثر في قابلية وسيلة الاتصال للقراءة أو الفهم : إن قياس قابلية المواد المطبوعة أو الذماعة للقراءة والفهم يمكن من الإجابة على عدد من الأسئلة مثل :

ماهي العوامل التي تميز اللواد التي يسهل أو يصعب قراءتها أو فهمها ؟

ماهو الاختلاف في الأسلوب بين قصتين ؟

وقد استخدم التربويون اجابة مثل هذه الأسئلة لاختبار واتناج الكتب المناسبة للأفراد من اعمار مختلفة ومستويات من القدرات مختلفة .

ويمكن أن نعد تطور مقاييس القابلية للقراءة مقياسا للتمايز التزايدى لمعايير القابلية للقراءة ، ففي البداية كان يركز على « الكلمة » فقسمت الدراسات الأولى القابلية للقراءة المواد الى نسبة الكلمات « السهلة » الى « الصعبة » الموجودة كما تدل على ذلك قائمة حقتة للكلمات (مثل قائمة « نوردياك ») .

وفي السنوات التالية أضيفت عناصر أخرى لبحثها مثل - طول الجملة ، الجملة البسيطة ، والجملة الناقصة التي لا تتوى على فعل والجملة ذات الفعل والمفاعل فقط ، ثم تبع ذلك ما لا يقل عن ٨٢ عنصرا من عناصر الصعوبة التي زعم بحثها ، اختر منها أخيرا خمسة على أساس ارتباطها بالوثيق باختبارات الفهم العام وهي : الكلمة المختلفة ، والكلمات الصعبة المختلفة ، والسماني الشخصية والجملة الناقصة التي تتضمن حرفا لجر ، وطول الجملة ، ووضعت في صيغة تصد تعبيرا مباشرا عن القابلية للقراءة على أساس السنوات النواسية اللازمة للقراءة بسهولة .

وفي نفس الفترة من الوقت تقريبا تضمنت صيغة أخرى منتشرة مجموعة أخرى من ثلاثة عوامل هي : طول الجملة ، والتفصيلات الشخصية وسماني الوصل . ، ويوجد حد هام لتحقيق تحليلات القابلية للقراءة ، ذلك أنه يتحقق من صديقلها عن طريق قراءة القاري العام لاختبارات الفهم . وهذا القاري يمثل جماعات تعليمية مختلفة ، لذا فهي تنطبق على القاري العام في الاهتمام العام ولا تضع في حسابها أثر اهتمامات القاري الخاصة على قابلية قراءته للمادة . فهنا أحسد الميكانيكيين ذوي التعليم الضئيل قد يفهم بعض المادة التي قد تبدو شديدة الصعوبة بالنسبة لأحد رجال الأعمال المتعلمين تعليميا جيدا . للقابلية للقراءة الآن تعتمد على اهتمام القاري وخبرته . وهذا ينطبق بوضوح على الناحية الميكانيكية .

بالإضافة الى أن الفئات المستخدمة التي تقاس بها عادة القابلية للقراءة لا تضع في حسابها عوامل مثل تنظيم المادة وطبيعة المضمون وحجمه وشكله .

٣ - الكشف عن طابع الأسلوب : جذبت مشكلات الأسلوب الأدبي والخطابي الدارسين منذ وقت طويل ، وقد كتب ما لا حصر له من الكتب في هذا الموضوع . وتناول الدارسون بالتحليل الكيفي أسئلة مثل : ما هو الطابع الشعري للكلام ؟

كيف يختلف الكتاب في الأسلوب الأدبي ؟ كيف تتغير الجبل الخطابية عبر الزمن ؟

استخدامها • وتوجد الاذاعة مع بعض الموضوعات • وكانت نتائج التحليل سلبية ، أى انه استدل على ترجيح عدم وجود صلة عامة أو نوعية مباشرة أو غير مباشرة بين وزارتي الدعاية الألائية والإيطالية ، وإن كان هذا التحليل لا يثبت بشكل قاطع عدم وجود تعاون بينهما •

وأثبتت المعلومات التى يمكن الوصول إليها بعد احتلال ألمانيا صحة هذا الاستنتاج •

كذلك يمكن تفسير الصور المختلفة لساتلين كما عبر عنها قمة أعضاء السوفييت الأعلى فى خطاب عيد ميلاده بديسمبر عام ١٩٤٩ وذلك لكشف بعض اتجاهاتهم ازاوه •

وقد كانت هناك بالفعل فروق حاده بين مفاهيم البلاشفة القدامى ومفاهيم الأعضاء الآخرين •

المتحدثون

مولوتوف • هالكوف ، بربا ...

شترنك • فورشيوف ، ميكويان • النديوف ...

بوجانين ، كوسيجين ، كروتششوف ، كاجانوفتش

ستالين : تمثيل كينين أو يساويه

صورة بلشفية صورة شعبية

٢٢ ٣

٧ ١٧

١ ١٩

وتعد الدراسة التى قام بها الدكتور سيد عويس للوسائل التى أرسلت الى سرج الامام الشافعي بالبريد (القاهرة ١٩٦٣) من هذا النوع الذى يحاول أن يحدد فيه الباحث خصائص منتجى المضمون ، وقد حلل الباحث ١٦٣ خطابا تحليليا كيميا وكيفيا ، ثم انتهى الى تسعير القاهرة واضعا فى الاعتبار مقومات ثقافتنا ، والعوامل التى اثرت فيها منذ حضارة الفراعنة حتى العصر الحاضر •

على أن الاستنتاجات من منتجى المضمون قد تكون غير صحيحة اذا أقيمت على أساس من تحليل المضمون فقط • وذلك ان تفسيرات الدافع تكون دائما سلبية • ولا يوجد أى عملية تحليل المضمون شيء يصمم من اخطاء التفسير • إذ قد يتفق جزء من المضمون مع أكثر من فرض عن خصائص أو نوايا منتجى المضمون •

وقد حاول عدد قليل من الدراسات القائمة صلة تجريبية بين منتج المضمون والمضمون على أساس الآلة وحدها ، وذلك عن طريق اختبار الاستدلالات القائمة على أساس من تحليل المضمون •

٢ - الكشف عن وجود دعاية (وذلك أساسا لأغراض قانونية) ، إن تحليل أساليب الدعاية شيء • وتحليل وجود دعاية شيء آخر • وقد استخدم هذا التطبيق لتحليل المضمون وزارة الداخلية بالأمريكا فى بحولها عن المنظمات

منى كتبت أعمال معينة ؟ ومن كتبها ؟
وجود من حين لآخر أشخاص مخاضرون يجربون التحليل الكمي للأسلوب ولما يلى نعرض لتطبيق تحليل الأسلوب فى الأدب واللغة •

اللغة والأدب : طبق تحليل المضمون فى أربعة مجالات لتمييز أنماط الأساليب ، وهذه المجالات هى :
الأول : هو اللغة كلها • وقد أجريت دراسات مختلفة للطابع العام لطريقة الكلام فمثلا : تحليل بناء قواعد لغة معينة • على أساس تكرار أنماط الاستخدام التى تظهر فى الكتابة والكلام •

والثانى : هو التمييز بين أنماط الأسلوب فى الفترات المختلفة • وكان هذا مركز اهتمام أحدث التطبيقات وأشملها للتحليل الكمي للأسلوب الإجريبى وخاصة بالنسبة لمشكلات كلمات التسمي • وقد اعتبرت نسبة الأفعال إلى الأسماء (وكذلك الصفات) دليلا على اتجاه فى دلالة •

والثالث : هو تمييز الأسلوب بناء على الكلام ، أى بحث طابع بعض نماذج الكلام المكتوب بطريقة التحليل الكمي • واستخدمت فى هذا الصدد نسبة الأسماء والأفعال للتمييز بين مختلف نماذج التسمي •

والرابع : وهو أكثر المجالات تخصصا • ويهتم بالشخص المؤلف على أساس أبرز الصور السائدة فى أعماله والطريقة التى يعبر بها والتي يؤدى بها العمل اثره على منذوله •

وفى هذا المجال تدرس مشكلتان هما : مشكلة النسبة للمؤلف التى تكون موصفا خلاف • ومشكلة الترتيب الزمنى لأعمال المؤلف •

وقد عولجت هاتان المشكلتان من خلال تحليل خصائص الأسلوب مثل : نوع الوزن (فى الشعر) ، والنهايات ، وحجم المفردات وطول الجملة وتركيب الكلمات ... الخ •

منتجى المضمون

يمكن من خلال دراسة المضمون :

١ - تحديد نوايا منتجى الاتصال وخصائصهم الأخرى : كان هذا هو الاستعمال الرئيسى لتحليل المضمون • والمنطق الأساسى الذى يقوم عليه هذا الاستعمال هو : أن المضمون له كذا وكذا من الخصائص • إذن منتجه لديهم كذا وكذا من النوايا •

وتحليل المطابقة فى المضمون قد يؤيد الاستنتاجات حول الاشتراك فى النية •

ففى خلال الحرب العالمية الثانية أجريت تحليلات حكومية رسمية للكشف عن مدى تعاون وزارتي الدعاية الألائية والإيطالية • إن كان ثمة تعاون ، فيفس الاتصال بين راديو برلين وراديو روما بعبدة طرق مثل مقدار الالتفات لبعض الحوادث والتوقيت العام لعمل الراديو • ومعالجة الأنباء والتعليق عليها • وتشابه موضوعات الدعاية ونوع

المضمون فمن طريق تحليل مضمون ما يظهر في ثروات الاتصال لدى القوى العادية يمكن أن نقيم تنبؤاتنا عن الحركة القادمة التي سيقوم بها المسكون بزمام السياسة والقوة بهذه الدول .

وقد أحرز المارسون لأجهزة الاتصال بعض أنواع النجاح المشهود في هذا الشأن . ويرى بعض المحللين الذين كانوا يعملون بهيئة الإذاعة البريطانية أنهم كانوا يتنجحون في بعض التنبؤات من انحطاط الحربية الألمانية .

كما يتضمن سجل العمل الحكومي - بأمريكا - خلال الحرب العالمية الثانية بناء على تحليل جورج الكسندر عددا من التنبؤات الناجحة بالأعمال الحربية الكبيرة ، وربما كان أكثر التنبؤات تمثيلا هو التنبؤات البريطانية بالسلاح الألماني () عام ١٩٤٣ ، حيث كان يسود في هذا الوقت بعض الشك عما إذا كان لدى الألمان سلاح سرى وإذا كان كذلك فما هو ؟ وقد قام المحللون البريطانيون بسلسلة من الاستدلالات الدقيقة ، ثم قدموا نوعه العام وتواريخ حماسه في سلاح فحسب لي كمدبر نوعه العام وتواريخ حماسه في تطوره واستخدامه ، وكانت أسس تحليلهم في التعميمات التي ذكرت في الدراسات السابقة بأن « دعاية الألمان (في بلدهم) تقضل الشعب الألماني عن عهد ، في المسائل التي تتصل بزيادة قوة ألمانيا » واستنتج الفراض بأن « جوبلز » كان حريصا على عدم إعطاء وعد للجمهور الألماني بالثأر أو القصاص قبل تاريخ تنفيذ الوعد بكثير (لكي لا يترد الوهم الشعبي) .

كذلك استنتج المحللون في مناسبات أخرى استنتاجات أخرى صحيحة بأن الألمان لم يخططوا للتحرك إلى إسبانيا وهاكش الإسبانية في مارس ١٩٤٣ ، وأنهم لم يخططوا لهجوم كبير على الجبهة الروسية عام ١٩٤٣ ، وأنهم خطفوا للانسحاب من الجبهة الشرقية عندما أنهم لم يتوقعوا مستوى مرتفعا من النجاح لقواصات الحرب عام ١٩٤٣ .

وتبقى الأيام منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن ، وتزايد أهمية تحليل المضمون . ويعتقد بعض الخبراء المصاعرين أن حوالي ٩٥٪ من المعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات السياسية والحربية الحاسمة يمكن الحصول عليها من تحليل مضمون المعلومات المتاحة غير المظفورة .

ويكفي أن نعلم أن الأجهزة الإلكترونية في البلاد الكبرى هي التي تقوم بهمة تحليل المضمون هذه الأيام . وأن هذه الأجهزة تقسم بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها بتحليل مضمون حوالي ٥٠ مليون وحدة اعلامية بين كتاب وخطاب وصحيفة ... الخ كل شهر .

وبعد ... لعل ما سبق يوضح لنا أهمية العناية بأسلوب تحليل المضمون وبالعلاقة التطورات التي تطرا عليه من أجل الافادة من تطبيقاته في المجالات المختلفة بجمعنا العربي .

عبد الحليم محمود السيد

التي يظن أنها هدامة وعن منشورات هذه المنظمات ، وذلك بمعونة هارولد لاسويل بوجه خاص ، والجراء هنا بسيط ، وهو في الواقع عبارة عن مقارنة المضمون موضوع الدراسة مع مضمون آخر معروف بموقفه العدائي الصريح ، أو في بعض الحالات مقارنة بمعايير صريحة تستخدم للكشف عن وجود دعاية .

وقد كانت تقدم للمحاكم أثناء الحرب مؤازرات واضحة بين دعاية المواطن الفاشي وما يصدر عن النازيين فيما يتصل بمحاكمات التمرد ، وساهمت هذه المؤازرات في الإدانات .

وفي نفس الوقت برزت كثير من الصحف ومجلات الإذاعة بناء على النتائج التي حصل عليها بعد التحليل الكمي للموضوعات والإذاعات ، وبذلك أمكن حمايتها من إجراء شائع هو إدانة كل أداة النشر على أساس أمثلة لطريقة تناول الأنباء أو تعليق رئيس التحرير - لها لون التحيز .

وفي نفس الاتجاه يقول الحاكم لبيانات تحليل المضمون وذلك لمنع « امكانية الوقوع في خطأ ينجم عن .. مزاعم شخصية أو ردود فعل ذاتية وتحييزات .. »

وهذا التطبيق لتحليل المضمون يقوم على عدة اختبارات يصلها لاسويل وهي :

١- المحايدة : أو « التوحد الصريح مع أحد جانبي نزاع » .
٢- المطابقة : أو « مقارنة مضمون إحدى القوات بمضمون فئة معروفة للدعاية (من حيث الموضوعات) » .

٣- الاتساق : أو « اتساق قناة الاتصال مع أهداف الدعاية التي أعلن عنها حزب ما إزاء موضوع الخلاف » .

٤- الغرض : أو « توارث التناول المؤيد وللمعارض لكل رمز لموضوع الخلاف » .

٥- التلصق : أو « الاعتماد الشديد نسبيا للمواد على أحد أطراف الخلاف » .

٦- الصدر الخفي : استعمال أحد أطراف الخلاف كمصدر دون الكشف عنه .

٧- التعيز : « استعمال لغة خاصة بإحد جانبي الخلاف » .

٨- التشويه : استعماد تعديل العبارات حول موضوع شائع في اتجاه يؤيد أحد جانبي الخلاف .

٣ - تأمين المخابرات السياسية والحربية :

دفع إلى استخدام تحليل المضمون في هذا المجال - في البداية - متطلبات الحرب العالمية الثانية ، فبدأت جهود علمية جادة لفحص توفى بيانات ومعلومات للمخابرات من مختلف الأنواع عن طريق دراسة مضمون الاتصال .

وقد بحث عن اجابات لأسئلة تتصل بموضوعات سياسية أو حربية حاسمة مثل : ما هو رد الفصل لدعايتنا لدى جمهور أعدائنا ؟ ما هي حالتهم العلنية ؟ ما هي تقديراتهم لموقفنا الحربي ؟ ماذا ينوون أن يفعلوا بعد هذا ؟ وقد أقيمت مزاعم قوية من خلال هذا الاستخدام لتحليل

كتب جديد

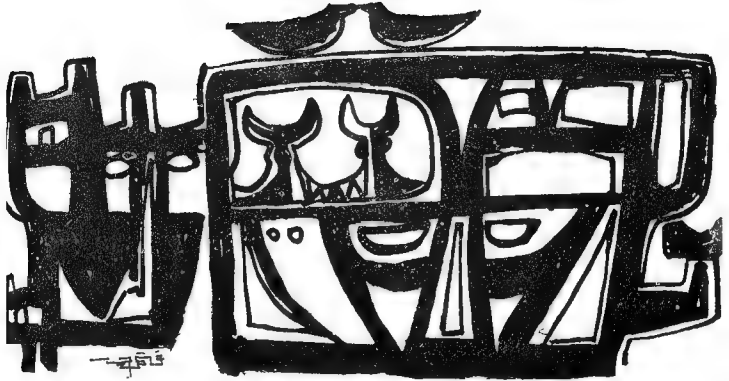
فكر والعلوم الإنسانية



تأليف : د. مصطفى حسني
عز الدين د. فؤاد شكر يا

● إن قضية العلوم الإنسانية ينبغي أن تتلقى قوة رافعة ، لأن
تتراجع إلى الوراء ، كما ظن بعض المفسرين ، من الأحداث الحرة التي مرت
بها أمتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧

في هذا الكتاب احتجاج وتحذير ، وفيه نصيح
وتوجيه ، لا يستهدف فئة معينة من الناس ، بل
يخاطب الأمة بأسرها ، ممثلة فيمن يبدعهم مقاليد
الأمور في توجيه السياسة العلمية للبلاد . فهو
يرسم لهم - بأسلوب واضح وحجة مقنعة -
معالم طريق جديد ينبغي أن يعمل له في هذه
السياسة كل حساب ، وذلك بعد أن ينتقد بنعمق
ويمنطق لا سبيل إلى إنكاره ، أخطاء السياسة
الحالية في المجال العلمي ، وفي مجال العلوم
الإنسانية بوجه عام .



ولقد كانت هزيمة ٥ يونيو من أقوى العوامل التي دعت إلى إثارة هذا الموضوع في أذهان فئات واسعة من جمهورنا المثقف . ذلك لأن رد الفعل الأول ، والمباشر ، على هذه الهزيمة هو التسوية إلى مزيد من الاهتمام بالعلم الطبيعي والتكنولوجيا بوصفهما مكنى قوة العدو وموضع خطورته . ولكن قليلا من التفكير المنزوى كان كفيلا بأن يقنع هذه الأذهان بأن تلك الهزيمة هي صيغة تحذير تنبهنا إلى أننا ينبغي أن نفهم الإنسان مثلما نحاول أن نفهم أسرار الطبيعة ، بل إن الإنسان هو العامل الحاسم الذى لا ينفع بدونه علم طبيعى أو تكنولوجيا . وهكذا أدرك المؤلف ، نى لمحة ذكية ، أن قضية العلوم الإنسانية ينبغي أن تتلقى قوة دافعة - لا أن تتراجع إلى الوراء ،

هذا الكتاب قد يبدو لبعض العارفين أنه ينه إلى قضية لا نحتاج إلى تنبيه ، وهي أن العلوم الإنسانية تستحق أن تقف على قدم المساواة مع العلوم الطبيعية ، من حيث اهتمام المجتمع بها ، وتخصيصه الموارد لها ، وإفادته من إنجازاتها . ومع ذلك فإن لهجة الاحتجاج الهادى العاقل ، الذى لا يغلو فى الوقت ذاته من مرارة ، وهي اللهجة المميزة للكتاب من بدايته إلى نهايته ، لها ما يبررها ذلك لأن القضية التى لم تمت تحتاج ، فى كثير من بلاد العالم ، إلى تنبيه ، ما زالت غير معترف بها اعترافا كافيا فى بلادنا ، بل إن صفحات الكتاب كلها تشهد بأن هناك كفاحا طويلا ومريرا ينتظر كل من يدعو إلى الاهتمام بالعلوم الإنسانية بوصفها علوما بالمعنى الصحيح .

كما ظن بعض المتسرعين - من الأحداث المبررة التي مرت بها أمتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧ •

ولقد حدد المؤلف هدفه ودوافعه الى تأليف هذا الكتاب تحديداً واضحاً ، عندما قال : « ان كاتب هذه السطور يكتب من موقع يستطيع أن يدرك فيه مدى الاضرار والتحسائر التي تصيب مجتمعنا في صناعته وتعليمه ، وتطبيقه وتسييره والتخطيط لعظم مقدرات الحياة فيه نتيجة للتواني يوماً بعد يوم في الافادة مما يمكن أن نسميه في مجموعه بفروع التكنولوجيا البشرية • وان الشعور بواجب المواطن نحو وطنه هو الدافع الاول والاخير وراء هذا الحديث كله • والمفروض أن يقدم كل مواطن الى قومه الجهد والنصح في الاتجاه الذي اتيج له فيه قدر لا بأس به من الخبرة والتخصص » (ص ٩٣) • وبالفعل يحس المرء طوال صفحات الكتاب بأن مؤلفه ليس كاتباً علياً فحسب ، بل هو أيضاً داعية وصاحب رسالة ينبه اليها «قومه» لعلمهم بهتدون •

وعلى الرغم من قدرة الاقتناع الهائلة التي تنطوي عليها لغة الأرقام ، واللغة التي التجأ اليها المؤلف تأييداً للقضايا الرئيسية التي طرحها في هذا الكتاب ، فإن المرء لا يملك الا أن يشعر بأن من وراء الأرقام الجافة دعوة متحمسة كرس لها المؤلف حياته ، تستهدف تأكيد الطابع العلمي للدراسات المتعلقة بالانسان ، واقتناع العقول بأن علوم الانسان - الى جانب مالها من أهمية نظرية - يمكن أن تعود على المجتمع بأعظم الفوائد على الصعيد العملي والتطبيقي •

والحق أن دعوة المؤلف لم تقتصر على العلوم الانسانية وحدها ، بل انه يوضح أزمة العلوم الانسانية في إطار أوسع ، هو إطار البحث العلمي بوجه عام • فهو على سبيل المثال يورد الأرقام الخاصة بميزانية البحث العلمي في كليات جامعة القاهرة ، ثم يتساءل بصديق واخلص ، بعد أن لاحظ الضالة الشديدة لهذه الأرقام : « هذه المبالغ ... تكفل للجامعة مساندة البحث العلمي في رحابها ؟ » ثم اليس هذا الوضع جزءاً من حقيقة تقوم هكذا عاوية وراء ظاهرة نعتزف بها وناسف لها ، وهي ضعف معظم البحوث التي تجري داخل جامعاتنا ؟ اليس الكشف عن هذه الحقيقة وأمثالها جزءاً جوهرياً من مهمة الكتاب الذين ينعون على جامعاتنا ضعفها وتعدنون كثيراً إلا أننا ليس لدينا مدارس علمية وليس

لدينا بحوث لها قيمة علمية ؟ » (ص ٤٧) وهكذا يطرح المؤلف قضية البحث العلمي في اعم صورها كما تتمثل في ميزانيات البحث العلمي في الجامعات وبطلانها بأن نبحت لظاهرة تأخر الأبحاث العلمية عندنا عن تعليل اجتماعي حقيقي ، لا أن نكتفي بأن نردد ، بطريقة انهازية ، أننا عاجزون عن الابتكار في العلم ، فتغيب عن انظارنا الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة من جهة ، ويفرنا احساس بالياس والعجز عن الاتيان بأى جديد •

واذا كانت ميزانيات البحث العلمي في الجامعات سواء في كلياتها العملية أم النظرية ، ضئيلة الى حد مؤسف ، فإن نسبة توزيع هذه المبالغ الضئيلة ذاتها بين الكليات المتخصصة في العلوم الطبيعية وتلك المتخصصة في العلوم الانسانية ، تكشف بدورها عن حقيقة صارخة ، هي أننا ، كما يؤكد المؤلف (ص ٧٧) لسنا مهينين بعد للافادة من تطبيقات العلوم الانسانية ، والانقاع منها في حياتنا على الوجه الاكمل • والى هذه النتيجة ذاتها ننتهي عندما نستعرض الوضع القائم في أجهزة الدولة المختلفة ، التي تتولى مهمة تطبيق العلوم الانسانية عملياً ، ولا تكتفي بأعمال البحث العلمي في هذا الميدان •

وفي مقابل هذا القصور الشديد في الانتفاع من تطبيقات العلوم الانسانية ، يثبت المؤلف ، في أجزاء الكتاب الاولى ، أن لهذه العلوم مقدرة تطبيقية هائلة ، وانها الزم ما تكون لمجتمعنا في المرحلة الحالية من تاريخه • فهنا تقدر اجتماعي عظيم الأهمية يطرأ على حياتنا في الآونة الراهنة ، وتتمثل في توسع كبير في التصنيع ، يستتبع الاهتمام بالانسان ، لا بالآلة وحدها ، لأن الانتاج في نهاية الأمر ، إنما يتم على يد الانسان • كما يتمثل هذا التغير في اتساع نطاق التعليم ، وما يؤدي اليه من ضرورة اهتمام بالصحة النفسية للأعداد الهائلة من تلاميذ المدارس ، وكذلك في الهجرة من الريف الى المدينة ، والمشكلات التي تؤدي اليها الحياة في المدن ، وغير ذلك من المجالات « المديدة التي تستطيع العلوم الانسانية ، اذا ما وجهت اليها العناية الكافية ، أن تقوم فيها بدور عظيم الأهمية • بل إن تطبيقات العلوم الانسانية يمكن أن تمتد لتشمل معالجة مشكلات البحث العلمي ذاته ، أو على الاصح أسباب ضعف روح البحث العلمي ، وكذلك مشكلات التأهيل للعيش وزيادة كفاءة العارفين •

في كل هذه الميادين يؤكد المؤلف - عن حق - أننا لم ننتفع من المزايا التطبيقية للعلوم الانسانية الا انتفاعا ضئيلا ، مع أن التطبيقات القليلة التي أجريت قد أثبتت الفائدة العملية المحققة التي يمكن أن تعود على المجتمع اذا وجه الى هذه العلوم العناية اللازمة .

والمشكلة ، في نظر المؤلف ، لا ترجع فقط الى ضالة الاعتمادات المالية المخصصة لهذا النوع من الأبحاث ، بل ان هذه الضالة ذاتها هي على الأرجح مظهر خارجي ، او نتيجة ، لشيء أعمق ، هو نظرة قطاع كبير من المسؤولين عن توجيه السياسة العلمية ، وعن تخصيص الاموال للفرع المختلفة في هذا الميدان ، الى العلوم الانسانية . وهذه النظرة هي التي يستهدف الكتاب تغييرها ، وإقناع أصحابها بالخطأ الذي يقعون فيه عندما يستهينون بعلوم أصبحت تكون جزءا لا يتجزأ من مقومات التقدم وعوامل الارتقاء في العالم بأكمله . فالكتاب إذن موجه ضد حالة ذهنية معينة ، ترجع جذورها الى نوع من الجمود العقلي الذي يجعل كثيرا من الناس عاجزين عن أن يتجاوزوا في تفكيرهم تلك المرحلة التي كانت فيها العلوم الانسانية لا تزال شيئا مشكوكا فيه ، وكان امكان تطبيقها للعمل لا يزال فيها أمرا غير مؤكد .

على أن من أوضح مزايا هذا الكتاب أنه لا يكتفي ببيننا أوجه القصور في هذه الحالة الذهنية التي تستخف بالعلوم الانسانية ، ولا يكتفي بتقديم الحجج القاطعة التي تثبت فداحة هذا الخطأ ، بل انه يقدم حلاوا ايجابية يحدد بها معالم الطريق الذي ينبغي سلوكه لكي تعطى هذه العلوم حقها ، ونفيد من المائد الضخم الذي يمكن أن تعود به على حياتنا لو أحسننا استخدامها . وقد لا يتفق البعض مع المؤلف في تفاصيل مقترحاته الايجابية التي يهدف بها الى اصلاح هذا الوضع ، ولكن احدا لن يستطيع أن ينكر أن المؤلف لم يسلك مسلك الناقدين الذين يكتفون ببدء الحسرة واشعار الآخرين باليأس ، بل يرسم طريقا ايجابيا لحلول لا شك في أن كثيرا منها جدير بأن يلقي من المسؤولين كل اهتمام .

ان من مزايا الكتب الجيدة أن تثير في ذهن القاري كثيرا من القضايا والمشكلات . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب انما هو اعادة تدوين موسعة

لبعض المقالات التي نشرت في مجلة « الكاتب » في أواخر عام ١٩٦٧ ونواتل ١٩٦٨ ، فانه يحمل في ذاته كل مزايا الكتاب المثير للفكر . وفي اعتقادي أنني سأكون قد أسهمت بنصيب في تنبيه الاذهان الى أهمية القضايا التي يثيرها هذا الكتاب اذا ما عرضت بعضا من الأفكار التي جالت بخاطري خلال قراءتي له ، وهي أفكار قد لا أكون متفقا فيها مع وجهة نظر المؤلف ، ولكني اشترك معه - على الأقل - في الهدف النهائي الذي يرمي الى بلوغه ، وهو اعطاء الانسانيات حقه في مجتمع ما زال الى حد بعيد ، غير معترف بهذا الحق .

١ - أولى الملاحظات التي استلقت انتباهي في التأكيد الدائم والمستمر للجوانب التطبيقية في العلوم الانسانية ، على أساس أن هذه الجوانب هي التي ينبغي أن تكون مبررا لاهتمامنا بهذه العلوم . فمن المشكوك فيه الى حد بعيد أن يمد عالم الطبيعة ، في محاولته تبرير العلم الذي يشتغل به ، الى تأكيد فائدة هذا العلم في اختراع الراديو والتلفزيون ، أو أن ينبه عالم الكيمياء - من أجل إقناع الناس بأن علمه مفيد ، الى دوره في صناعة الاغذية المحفوظة أو تكرير البترول . صحيح أن هذه كلها فوائد محققة لهذه العلوم . وبعضها أحدث انقلابا في حياة الانسان ، ولكن تبرير العلوم على أساس مزاياها التطبيقية وحدها غير كاف ، ومن الضروري أن يكون الفهم النظري للظواهر التي تبحثها هذه العلوم ، والسعى الى كشف القوانين المتحركة فيها ، واحدا (على الأقل) من الأسباب التي تقدم لتبرير الاهتمام بدراسة أي علم .

وأنا أدرك أن هذه الملاحظة يمكن أن يوجه اليها ردان :

(أ) الرد الأول هو أن العلوم الطبيعية لم تعد في حاجة الى تبرير ، وأنها علوم بلغة من الاستقرار حدا يتيح لأصحابها أن يدافعوا عنها على أساس قيمتها النظرية وحدها ، أما العلوم الانسانية فما زالت في حاجة الى كفاف من أجل الثبات وجودها ، وما زالت مضطرة ، خلال هذا الكفاف ، الى الارتكاز على التطبيقات العملية التي يمكنها أن تقوم بها .

(ب) والرد الثاني أن الكتاب يخاطب مجتمعا



وبناء على هذا التحديد يصل الى تعريف متسق معه للعلوم الانسانية هو أنها « مجموعة الدراسات التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة مظاهر النشاط المختلفة التي تصدر عن الانسان كفرد وكمجموعة أو مجتمع ». وهى بهذا تضم مجموعة فروع علم النفس (أى علم سلوك الافراد ، وفروع علم الاجتماع ، وعلم الحضارات ، والاقتصاد ، وبعض فروع من دراسات اللغة والتاريخ والقانون) (ص ٨) *

ومن الانصاف أن أقول ان الكتاب قد التزم هذا التحديد لقضيته الاساسية ، وللمعنى الذى وضعه للعلوم الانسانية ، وأن المعالجة كانت متسقة منذ البداية الى النهاية ، بحيث لا يملك المرء الا أن يعترف بأن المؤلف حدد لنفسه نطاقاً معيناً ، وعالج المشكلة بنجاح فى حدود هذا النطاق الذى وضعه لنفسه .

ولكن السؤال المهم فى رأى هو : ما مدى مشروعية هذا النطاق ؟ ألا توجد ميادين أخرى تنتمى الى مجال الدراسات الانسانية لم يتعرض لها المؤلف أصلاً ؟ هذا السؤال يتعلق بـ ما لم يتضمنه الكتاب . وأنا أفسلم بأنه ليس من المشروع منهجياً أن يحاسب المرء كتاباً على ما لم يتضمنه ، بل ان ما يجوز عمله هو محاسبته على ما تضمنه فعلاً ، لا سيما اذا كان قد حدد لنفسه منذ البدء مجالاً وظل ملتزماً اياه حتى النهاية .

ومع ذلك فإن المرء لا يجد مفراً من التساؤل

يحتاج الى منطق خاص لاقتناعه بجداى العلوم الانسانية ، هو منطق المنفعة العملية ، وذلك ، من جهة ، خدائاً عهد هذا المجتمع بتلك العلوم ، ولأنه ، من جهة أخرى ، ما زال فى مرحلة من مراحل النمو الاقتصادى لا يملك فيها أن يتفق من موارده الا على أوجه النشاط التي يستطيع أن يكون على ثقة من أنها ستعود عليه بنفع عملي .

هذان ، دون شك ، مبرران ربما كانا فى الخلفية الذهنية للمؤلف عندما اقتصر على تبرير العلوم الانسانية على أساس فوائدها التطبيقية ، ومع ذلك فيبدو لى أن الموضوع كان يحتاج الى اشارة ، على الاقل ، الى ما للفهم النظرى للانسان من قيمة فى ذاته ، بعض النظر عن تطبيقاته العملية ، حتى لا يظن القارى أن كل قيمة هذه العلوم تنحصر فى تطبيقاتها ، أو يتوهم أن فهم السلوك الانسانى فهماً علمياً ليس فى ذاته هدفاً جديراً بالسعى اليه .

٢ - يحدد المؤلف القضية الاساسية التي يدافع عنها بقوله « نحن نعيش مجتمعنا ، ونحدد له مكانه فى المجتمع الحديث ، فى عالم يعتمد أساساً على العلم كمنهج . وهذا المنهج العلمى كما يقوم أمامنا فى القرن العشرين ، وفى النصف الثانى منه بوجه خاص ، يتناول الآلة كما يتناول الانسان (الانسان كسلوك لا كانسجة وأعضاء فحسب) ، لذلك يجب علينا أن نقضى بالانسان والآلة معا ، وبأنواع التعليم التي تؤدي الى مزيد من المعرفة بخصائص كل منها » (ص ٧) *

القاريء أن يتأمل مليا هذا الاقتباس : « ان دى حديث عن العلوم الانسانية تحت عنوان «الدراسات النظرية» (٢) لاننا هي قطب مقابل للدراسات التجريبية) ينطوى على خطأ فاضح . . والواقع ان العلوم الانسانية (وخاصة جميع فروع علم النفس وبعض فروع علم الاجتماع) دراسات تجريبية بكل ما لهذه الكلمة من معنى محدد في تاريخ العلوم . والفرق الرئيسى بينها وبين العلوم الطبيعية والبيولوجية فرق فى درجة التقدم . . وليس فرقا فى ان الدراسات الانسانية تأملية ولا يمكن ان تكون الا كذلك بينما علوم الطبيعة والبيولوجيا علوم تجريبية فهذا غير صحيح » (ص ٩) .

فلنترك جانبها ما جاء في هذا الاقتباس من ان « جميع » فروع علم النفس تجريبية (وهو رأى قد لا يوافق عليه « جميع » المستغلين بعلم النفس) ، ولنحاول ان نستخلص دلالة النص فى مجموعه « انه « يبرى » الدراسات الانسانية من تهمة « التأملية » ، وهذا ينطوى على حكم ضمنى هو : اذا أصرت بعض الدراسات الانسانية على ان تظل تأملية ، فهي تستحق مصيرها وهي غير جديرة بان يعطى عليها أحد .

وبعبارة أخرى ، فان جواز المرور الى الجنسية بالنسبة الى أية دراسة انسانية ، هو ان تكون قادرة على اتخاذ المنهج العلمى ، أما اذا عجزت عن ذلك ، فمآلها الى جهنم وبئس المصير . ولكن ، اليس فى هذا تسليم ضمنى بموقف خصوم الدراسات الانسانية ؟ ان هؤلاء الاخيرون يرون ان العلم ، او بعبارة أخرى الدراسات التى تستطيع اتخاذ المنهج العلمى ، هو وحدة الجدير برعاية الدولة . وما هو ذا المؤلف يوافق على رأيهم هذا موافقة ضمنية ، ولكن مع تحفظ واحد : هو ان المنهج العلمى قابل للتطبيق على بعض فروع الدراسات الانسانية بدورها . وبعبارة أخرى فالمبدأ العام الذى يركز عليه خصوم الدراسات الانسانية هو ذاته الذى يركز عليه المؤلف ، وهو انه لا شئ جدير بالاهتمام والرعاية سوى العلم وسوى الدراسات التى تطبق المنهج العلمى ، وكل الخلاف بينه هؤلاء الخصوم ينحصر فى المدى الذى ينطبق عليه لفظ « العلم » : وهل هو الطبيعة وحدها ، أم الطبيعة وبعض جوانب الانسان ايضا . فالمسألة كلها مسألة تصنيف أو توسيع

عن مدى صحة هذا التحديد حين يجد المؤلف فى الصفحات الاولى من الكتاب (٤ - ٦) انه يقف متدافعا عن الدراسات النظرية بأكملها ، و. الدراسات الأدبية ، ويهاجم الرأى القائل بأن « الآداب توفى ذهني » . مثل هذا الموقف يوحي بأن الحديث سوف ينصب على كل الدراسات الانسانية ، ولكن سرعان ما يتكشف القاريء ان ما يدافع عنه المؤلف حقيقة ليس سوى الدراسات الانسانية التى استطاعت ان تتخذ لنفسها منهج العلم .

فما الذى يؤدى اليه هذا التحديد ؟ من الواضح انه يؤدى الى استبعاد قدر كبير من الدراسات الانسانية ، سواء منها تلك التى لم تستطع ، بعد ان تستخدم المنهج العلمى ، أو تلك التى لا تحاول أصلا ان تستخدمه . ومعنى ذلك ان الأدب والنقد والفلسفة - على سبيل المثال - قد استبعدوا من نطاق الدراسات الانسانية التى يقف المؤلف موقف الدفاع عنها . وبعبارة أخرى فان الكتاب لا يعدد مصير هذا النوع من الدراسات ، التى هي انسانية حقا (بل هي انسانية « جدا » فى رأى الكثيرين ، وربما كانت فى نظر البعض هي « الانسانية » بالمعنى الصحيح ، ولكنها مع ذلك ليست منهجية علمية . فماذا تفعل بهذا إذن ؟ وما مركزها فى البرنامج الذى يقترحه المؤلف للنهوض بالعلوم عامة ، وبالعلوم الانسانية خاصة ؟ هذه أسئلة لا نستطيع ان نجد لها فى الكتاب جوابا .

وأخشى ان اقول ان الإجابة التى نستطيع ان نستنتجها منه ، ضمنية ، هي ان الدراسات الأدبية والفلسفية تستحق ان تسمى « دراسات نظرية » ، ومن ثم فهي خارجة عن نطاق ما يدافع عنه الكتاب . فمن ذا الذى يدافع عنها إذن ؟ أيقن لنا ان نتركها بلا كلمة تقال فى صفها ، ولسان حالنا يقول : « أما الدراسات النظرية غير العلمية فلها رب يحميها » !

ان الدفاع عن بعض الدراسات الانسانية على أساس انها استطاعت ان تصبح علمية ، ومن ثم فهي جديرة بنفس الاهتمام الذى نبدية بالعلوم البحتة . هذا الدفاع ينطوى فى واقع الامر على تسليم لا شعورى بموقف خصوم الدراسات الانسانية . ولكى أوضح وجهة نظرى ، أود من

لعلنى العلم ، أما مبدأ قصر اهتمام الدولة على العلم وحده فلا خلاف عليه .

والآن ، لعل قارئنا يسألنى : وما الضرر فى هذا ؟
فيم اعتراضك على أن تكون الدراسات الانسانية علما ؟ أليس هذا افضل من التخطيط الذى اوقفتهما فيه الأساليب والطرق التأملية ؟ وردى على هذا الاعتراض هو أننى أول من يرحب بدخول أكبر قدر من الدراسات فى حظيرة المنهج العلمى . ولكن المشكلة هى أن هناك بالفعل دراسات انسانية هامة ، بل عظيمة الاهمية ، لا تستطيع ذلك ، ولا يمكنها أن تأمل فى المستقبل القريب (ولا فى المستقبل البعيد ، حسب رأى الكثيرين) فى أن تصبح علمية ، فماذا نحن بها فاعلون ؟ هذا ما لا يجيبنا عنه الكتاب .

ولعل الاعتراض الذى اثره يكتسب مزيدا من القوة اذا أدركنا أن القضية الحقيقية للدراسات الانسانية ، فى نظر الكثيرين ، إنما هى بعينها قضية تلك الدراسات التى لا نستطيع بطبيعتها أن تكون علوما ، أما تلك التى تقترب - أو تحاول أن تقترب - من المنهج العلمى ، فأعزها حين أن المشكلة الكبرى التى تواجهها الانسانيات فى عالمنا الراهن ، هى البحث عن مكان للاداب ، وللفلسفة ، وللدراسات « التأملية » فى عالم يحرز فيه العلم انتصارات ساحقة . هذه هى القضية الكبرى التى تشغل بالفعل بال الحريصين على الدراسات الانسانية - وهى القضية التى لم يتعرض لها الكتاب أصلا وحين يجد المرء فى الكتاب دعوة الى ازالة التفرقة بين الشيمتين العلميه والإدبيه فى التعليم الثانوى ، على أساس أن « هذه الثنائية كانت معاصرة لمستوى المعرفة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما الآن فقد أصبحت متخللة تماما ن تقدم المعارف فى العصر الحديث بل وأصبحت معوقة النمو العقلى السليم لشبابنا ، لأن امتدادات المنهج العلمى التجريبي الى معظم الدراسات الانسانية » حطمت الحاجز الذى كان قائما بين الشيمتين » (ص ١١٧) - حين يجد المرء فى الكتاب دعوة كهذه ، قائمة على أساس مثل هذا التبرير ، فلا مفر من أن يمتلكه شعور بالخوف من أن تكون القضية الحقيقية التى أشرنا إليها ضئيلة الشأن فى نظر المؤلف ، الذى نكر أحقية الاداب البحتة فى أن تقف الى جانب العلوم ، وذلك حتى لا تكون هناك ثنائية « معوقة للنمو العقلى » السليم لشبابنا .



التكنولوجيا البشرية » ، لها في هذا الصدد دلالة بالغة .

ومرة أخرى أقول ان مثل هذا الموقف ينطوي ضمنا على التسليم برأى خصوص الدراسات الانسانية ، وهو أن التكنولوجيا هي وحدها الجديرة بالعناية ، وكل ما في الأمر أن الكتاب يريد أن ينبه الى أن معنى التكنولوجيا يجب أن يتسع بحيث يشمل تطبيقات العلوم الانسانية بدورها ، لا تطبيقات العلوم الطبيعية وحدها .

وهنا أعود الى التساؤل : هل تنحصر رسالة الدراسات الانسانية حقا في أن تخدم التكنولوجيا وتعمل على زيادة فعاليتها وكفاءتها ؟ أليس من واجبنا ، أيضا ، أن نهتم بالدراسات الانسانية من حيث هي قوة تقف في مقابل التكنولوجيا ، وتكبح جماحها ، وتحقق في الإنسان توازنا بين الجانب المادى والجانب المعنوى من حياته ؟

ان القضية الكبرى للعلوم الانسانية في عالم اليوم لا تنحصر في كونها قد أصبحت علما لم لم تصبح ، بل في الوظيفة التي تستطيع أن تقوم بها في عالم متخبط بالمعلم والتكنولوجيا . وهناك كثيرون يطالبون بالمحافظة على توازن الإنسان عن طريق ابداء مزيد من الاهتمام بالشعر ، والأدب ، والفلسفة ، والدراسات « التأميلية » التي لا يمكن أن تصبح علما ، ولا تطمح في ذلك . هؤلاء لا ينكرون أن الإنسان يمكن أن يدرس في فروع معينة دراسة علمية ، ولكنهم في الوقت ذاته يؤكدون أن الانسانية في حاجة الى الاحتفاظ بتلك الفروع الأدبية والفنية التي لا تكتمل انسانية الا بها . والمشكلة في نظرهم هي في كيفية الحفاظ على هذه المعارف الانسانية « التأميلية » ازاء طوفان الروح العلمية التجريبية الجارف .

مجمل القول انني اعترف بالقضية الرئيسية التي اثارها المؤلف اعترافا كاملا ، وأسلم بحججه القمعة التي اراد فيها أن يكون للدراسات الانسانية مزيد من اهتمام مجتمعتنا ، ولكنني اعتقد أن للمشكلة وجها آخر ، لا يقل عن ذلك أهمية ، لم يتعرض له ذلك الكتاب الذي دافع بصلق وإخلاص عن العلوم الانسانية ، ولكنه - للأسف - تذكر أنها « علوم » أكثر مما تذكر أنها « انسانية » .

عقود زكريا

ان كثيرا من العلوم الانسانية كانت حتى عهد قريب علوما تأملية في الاغلب ، وحين طبقت في بعضها المناهج التجريبية ، وأحرزت في أحيان غير قليلة نجاحا ملحوظا ، حدث على ما يبدو نوع من التطرف في الاتجاه المضاد ، أعنى اتجاه التبرؤ من الأصل التأمل . والمسألة هنا أشبه ما تكون بتلك الظاهرة المألوفة في ميدان الدراسات الاجتماعية : حين نجد أشد الناس تأكيداً للفوارق بين الطبقات العليا والدنيا هم أولئك الذين خرجوا حديثا من صفوف الطبقات الدنيا وانضموا الى الطبقات العليا . وأخشى أن أقول ان التبرؤ المتطرف من تهمة « التأميلية » عند أنصار العلوم الانسانية التجريبية هو شيء من هذا القبيل . ومما يؤيد حدسي في هذا الشأن ان الشأن ان كثيرا من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ذاتها يبدون - على عكس المتوقع - اهتماما كبيرا بالدراسات الانسانية « التأميلية » ، ويدعون الى رعايتها وإلى احداث توازن بينها وبين العلوم الطبيعية - تماما كما نجد أفراد الطبقات العليا العريقين (في المثال السابق) أقل حرصا على تأكيد الفوارق الطبقيّة من أولئك الذين ارتقوا اليها حديثا .

واني لأسألك : هب أن المستولين عن وضع السياسة العلمية العليا في بلادنا قد قرأوا هذا الكتاب ، وتأثروا بحججه ، وأخلوا بطلبونها فعلا فاهتموا بالدراسات الانسانية التي اقنعتهم بأنها علمية فعلا ، ثم ألغوا بالباقي الذي لم يستطع أن يثبت علميته (كما فعل « هيوم » مع القضايا التي لم يمكن تحقيقها تجريبيا) في النار . . فأي رد يمكن أن يوجه اليهم ، في حدود الموقف الذي اتخذته الكتاب ؟ أيستطيع أحد أن يمتنعهم من أن يقولوا ان ما فعلوه لم يكن الا تلبية لدعوة هذا الكتاب ؟

ولو نظرنا الى الأمر من الناحية التطبيقية ، لوجدنا أن كل المزايا التطبيقية التي يوردها الكتاب للعلوم الانسانية إنما هي في واقع الأمر فوائد تقدمها العلوم الانسانية بوصفها « خادمة » للتكنولوجيا (انظر الفصل الثاني كله) . ومن المؤكد ان التسمية التي ترددت طوال صفحات الكتاب ، أعنى تسمية العلوم الانسانية ، باسم

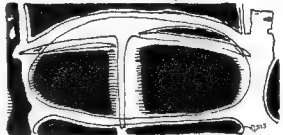
لقد كان الطب النفسى فى مصر - ولا يزال - مرتعا خصبا للكثيرين ممن تدفعهم دوافع مختلفة للتصنى لعلاج الأمراض النفسية ، فامتلا الحقل بعسلد من غير المؤهلين او بمؤهلين ليس لديهم الموقف العلمى المتكامل الذى يحتم عليهم نسيء الخرافة واساليب الدجل • بل ما زال بعض الاطباء يعالجون مرضاهم بأساليب الشعوذة والخرافة او بالاعتماد على أولياء الله الصالحين والأحبة والتعاويد او بأسداء النصيح والإرشاد حيث لا ينفع نصيح ولا ارشاد • كما ان بعض الحاصلين على درجة الدكتوراه فى علم النفس الذين أصبح من حقهم بحكم القانون مزاولة العلاج النفسى يمارسون هذا العلاج وهم فى الحقيقة غير صالحين من أوجه كثيرة للقيام بهذه المهمة •

الطب النفسى المعاصر

تأليف : د. أحمد عاكشة
تحرير : لطيفة نظم

ويتيح لنا كتاب الدكتور أحمد عاكشة فرصة التأمل فيما أحرزه العلم من تقدم فى مواجهة أخطر ما يمكن أن يلم بانسان الا وهو المرض العقلى •

والمؤلف عندما يكتب فى الطب النفسى والعقلى فانه يكتب عن دراسة علمية متعمقة وخبرة عملية ذات بصيرة نفاذة • فقد نشر الى جانب مؤلفاته ، ما يزيد على خمسة عشر بحثا تطبيقيا على البيئة المصرية وتناول تجاربه فيها فى مجلة الطب العقلى البريطانية ومجلة الطب العقلى والعصبى المصرية والمجلة الطبية لجامعة عين شمس • وتتميز بحوثه بالنظرة الثقافية الواسعة والربط ما بين مشاكل البيئة واساليب البحث والعلاج الحديثة • ولعل اطرف بحوثه ما نشره فى مجلة الطب العقلى البريطانية عام ١٩٦٦ عن « الزار » فى مصر •



على ان وجهة النظر هذه تعرضت للكثير من الهجوم والنقد وعدم الإيمان خلال فترة طويلة من الزمان ولا يزال الكثير من العلماء يقفون من تفسير هذه النظرية للإنسان وسلوكه موقفا غير محدد بل ويعتبرونها قييدا على تفسير الإنسان . ولكن النظرية المادية الجدلية مع إيمانها بأن التفسير العلمي لنشاط المخ يجب أن يكون ماديا وحتميا ، إلا ان الحتمية عندها ليست حتمية ميكانيكية تنقل دون تعديل قوانين مستوى ما من الاداء الوظيفي

للمادة الى مستوى أعلى وبتعبير آخر لا يمكن لقوانين سلوك الحيوان مثلا أن تطبق على سلوك الإنسان فالنظرة المادية الجدلية تعترف لكل مستوى بقوانينه الخاصة وتقر بأنه مع كل تطور للكائن العضوي تظهر ميكانيزماته لم تكن موجودة حتى تلك اللحظة — أي حتى لحظة ظهورها . وترجع اختلافات السلوك لدى الافراد الى الاختلافات في قيام المخ بوظائفه وبالتالي الى اختلافات مادية موضوعية بين أشخاص الافراد . ومن الواضح أنه لا يمكن تصور الوظيفة دون سندها المادي وبالتالي فان مفهوم المخ والوظيفة يجب جمعها في تعبير واحد هو المخ الشفـال *Functioning brain* ، وهو الواقع الموضوعي الوحيد الذي يجب بحثه . ولكن هل يعني هذا أننا نستطيع فيما بعد أن ننسب ذكاء الفرد مثلا الى وزن مخه أو عدد الايونيونات الموجودة لديه ؟ لقد أجاب ماديو القرن التاسع عشر على هذا السؤال بالإيجاب . فقد كانوا يعتقدون في إمكان وجود فهم وتفسير شاملين للحقيقة الكلية وبالتالي فلا يوجد في النفس إلا نشاط عصبي يمكن تحليله وفهمه بالطرق العلمية المعروفة والمحورة لتناسب ذلك المجال من البحث . ألا ان المادية الجدلية استبدلت بتلك الفكرة التي تفترض طبيعة نهائية للمادة فكرة أكثر دياكتيكية وهي الطبيعة الانلانية للمادة، أي وجود الماددة أشكال لا نهائية وبصفات لا نهائية أيضا . فلا يمكن اكتشاف المسادة في كليتها لأنها مع كل مستوى جديد من التقدم تقدم أشكالا جديدة لم تكن موجودة . فالتشيرة المخية التي يبلغ عدد ونيونواتها من ١٢ الى ٢٠ مليار وتبلغ عدد الوصلات العصبية المتصلة بها رقما خياليا لا يمكن إلا أن تكون لا محدودة ولا نهائية مثلها مثل الزمان والمكان .

بين علم النفس والمخ والعقل

٢ - وتنتقلنا هذه المقدمة الى القضية الثانية وهي العلاقة بين علم النفس والطب العقلي ، فمن الواضح ان هناك علاقة وثيقة بينهما . فالكثير من النظريات المفسرة للسلوك الانساني في سوانه وشكلوده

ويرجع اهتمامنا بمناقشة الكتاب الحالي الى أن المؤلف له جهد دؤوب في اثناء المكتبة العربية بمؤلفات جادة في مجال تخصصه تسمح لنا باستخلاص موقفه النظري والعملي ومناقشته مناقشة علمية خلافا لغيره ممن يكتبون في هذا المجال . سوف نعرض له من خلال اجابته على ثلاث قضايا رئيسية هي : (١) إيمان المؤلف بالمنهج العلمي (٢) العلاقة بين علم النفس والطب العقلي (٣) تأثير المجتمع في الامراض النفسية .

مشاكل العقل في العصر الحديث

١ - لا ترجح أهمية الكتاب الى كونه أول مرجع علمي جاد بالعربية في هذا المجال فحسب وإنما الى كونه أيضا كتاب « معاصر » يتناول مشاكل العقل في العصر الحديث وأحدث التفسيرات والنظريات وأساليب العلاج والنظر الى مشاكل مرض العقل في مصر من خلال ذلك . ويتخذ المؤلف موقفا علميا واضحا منذ البداية فهو يستخدم تعبير الطب النفسي مرادفا للتعبير الانجليزي *Psychiatry* وهو ما يعرف عادة بالطب العقلي . فالعقل العقل عنده هو الطب النفسي والعقل معا ، وهو بذلك لا يفرق بين ما هو نفسي وما هو عقلي معتبرا أن ظواهر النفس والعقل واعراض اعتلالها أي ما يعرف بالامراض النفسية والعقلية نابعة من المخ وأن الطب النفسي قائم على أسس فسيولوجية وكيميائية في الجهاز العصبي ، وأن قشرة المخ هو مركز جميع المنعكسات الشريطية . التي هي نواة تكوين الشخصية . (ص ٣) .

ويتفق هذا الموقف مع وجهة النظر المادية التي ترى أن كافة الاضطرابات العقلية ترجع الى اعتلال في المخ ، كما ترجع اختلافات السلوك عند الافراد الى الاختلافات في قيام المخ بوظائفه وبالتالي الى اختلافات مادية موضوعية بين أشخاص الافراد . كما يتفق أيضا مع وجهة النظر التي سادت مؤتمر « دراسات المخ وسلوك الإنسان » الذي عقد بباريس في العام الماضي تحت اشراف اليونسكو وهيئة الايبرو ، *Ibro* وهي هيئة دولية لبحوث المخ أنشئت في عام ١٩٦٠ بتوجيه من اليونسكو . ففي ذلك المؤتمر الذي حضره ٧٨ عالما يمثلون مختلف التخصصات منهم ستة حائزون لجائزة نوبل ، والذي كان هدفه لقاء الضوء على الوضع الراهن لمعلومات الإنسان عن المخ والعلاقة بين هذا المجال من البحث ومختلف مجالات البحث الأخرى كان المنطلق الأساسي للبحث هو أن النشاط النفسي والعقلي ليس الا شكلا من أشكال النشاط العصبي للمخ .

قدمها علماء النفس ، ولعل أشهرها نظرية التحليل النفسي التي ابتكرها سيغموند فرويد . ولذلك كان من الضروري للمؤلف وخصوصا عند تعرضه للأمراض النفسية المسماة بالعصابية *neurosis*

وهي التي لا يمكن إرجاعها إلى « اختلال في المخ » أن يتخذ موقفا من النظريات النفسية المختلفة الفسرة لهذه الأمراض . وقد اتخذ موقفا وسطا إذ يقسم هذه النظريات إلى فئتين مجموعة النظريات التكوينية التي تعتمد على العوامل البيولوجية الوراثية ، ومجموعة النظريات البيئية . فيقول « ولا داعي للتمييز لاحدى هاتين النظريتين » . « فان الرؤية ما زالت غي واضحة بالنسبة للأسباب الرئيسية للأمراض العصبية » . « وعليئذا الاستفادة منهما معا ، فتكون أسباب أمراض العصاب هي تفاعل العوامل التكوينية والبيئية » (ص ٢٣) .

ولا شك أن للمؤلف العذر في هذا الموقف الذي لا يحتم إرجاع الأمراض العصبية إلى « اعتسلا في المخ » فهذه المجموعة من الأمراض « لم تحظ بنفس درجة التقدم التي وصلت إليها الأمراض الذهانية من ناحية العلاج الكيميائي والفسولوجي والكهربائي » . « ولا مانع من الاعتراف بمجز الطب الحالي عن استئصال المرض نهائيا » (ص ١٣٢ ، ١٣٣) .

والحقيقة أن الأمراض العصبية كانت ولا تزال حكرا لمدارس علم النفس التي فسرتها وقدمت وسائل لعلاجها ، وأشهر هذه المدارس هي مدرسة التحليل النفسي التي يقول عنها المؤلف (ص ٢) « وقد أسس فرويد خدمات جليلة للطب النفسي ، ووضع أسسا لتفسير الأمراض النفسية والعقلية بعد أن كانت في متاهات لانهاية ، وأصبح التحليل النفسي أحد وسائل العلاج النفسي اللائحة لفئة متفاعة نادرة من الرضى » . ولا يغفل المؤلف بقية المدارس الأخرى التي قدمت تفسيرات مخالفة لتفسير فرويد وأسلوب مختلفا للعلاج وأهمها مدرسة العلاج الشرطي أو ما يسمى بالعلاج السلوكي وهي التي ابتكرها المعالم الروسى بافلوف وطورها أيزنك وفولب بعد ذلك .

أسلوب العلاج النفسي

المهم أن العلاج النفسي هو أسلوب هام ورئيسي في العلاج يعتمد على التفسير النفسي للشخصية ومهما اختلفت النظرية التي يدين بها المعالج فإن الجميع يتفقون على أن الغرض الأساسي هو مناقشة

أفكار وانفعالات المريض واكتشاف الصراع والإجهاد ومحاولة تكيف المريض مع المجتمع في حدود قدراته الشخصية ، مع إقامة تجاوب انفعالي بين المعالج والمريض واستخدامه في شفاؤه .

ويختلف المؤلف مع مدرسة التحليل النفسي في أسلوبها العلاجي ، ففي رأيه أنه أسلوب غير على لا يلائم إلا فئة منتقاة من المرض ، كما أنه لا يساعده على الشفاء في بعض الأحيان ، ويقول أن ما يدعيه روزن وهو أحد المحللين المشهورين من أنه وصل إلى نتائج شفاء ١٠٠٪ أمر يحتاج إلى إثبات . ومع ذلك فإنه بالنسبة للتفسير النفسي لمرض القسام وللأمراض الوجدانية لا نجده يذكر من بين نظريات علم النفس سوى نظرية التحليل النفسي . كما أنه في الفصل الذي أفرده لاضطرابات الشخصية يعتمد اعتمادا تاما على شرح فرويد لبناء الشخصية فيقول « لا شك أن اهتمام فرويد بتسريع وتقسيم مراحل نضوج الشخصية ، أثر تأثيرا واضحا في مفهوم الطب النفسي لكونها شخصية الفرد » (ص ٣٨٤)

ويختلف موقف المؤلف كذلك عن موقف المدرسة السوفيتية بالنسبة للأمراض العصبية . فنجد أن أحدث كتب الطب العقلي السوفيتي - وهم مشهورون بانخفاض نسبة الأمراض العقلية عندهم - تفعل التفسير النفسي للعصاب . ففي هذا الكتاب الذي ألفه اثنان من أعظم وأشهر الأطباء العقلين في الاتحاد السوفيتي ، نجد أن العصاب يرد تحت عنوان « الذهان الاستجابي أو ذو المنشأ النفسي » ويقر المؤلفان أن هذا النوع من الأمراض هو ذهان ناشئ مباشرة عن صدمة نفسية . ويقران أن العصاب هو اضطراب وظيفي ذو منشأ نفسي يتتاب الجهاز العصبي وأنه على عكس الالهام الاستجابي *reactive* يظل الفرد فيها محتفظا بالموقف الوضوئي من مفرجه ولا يفقد القدرة أو السيطرة على سلوكه ويعتبران أن تعاليم فرويد قد لعبت دورا سلبيا في تطوير النظرة العلمية للعصاب . والنقد في تطوير النظرة العلمية للعصاب في رأيها قد نمت بتأثير بافلوف على الحيوانات . ويلجأ هؤلاء الأطباء في علاج العصاب إلى العقاقير والتثويم وبعض الأساليب العلاجية الطبيعية ، وبعض الأساليب النفسية (كالتأرجحة والابتعاد ، وتغيير العمل والبيئة) .

ويختلف عدد كبير من أطباء أمريكا وأوروبا مع

اجتماعية - حضارية غير عسادية يتغير محتوى الامراض العقلية بل وأعراضها الاساسية . فنجد مثلا أنه في الولايات المتحدة الامريكية تزداد نسبة الهلاوس بين مرضى الفصام من الزوج عنها بين البيض ، بينما نجد أن الهزاعات موجودة بنسبة واحدة لدى الاثنين . وتتضح أهمية العامل الاجتماعي من حقيقة أن مرضى الفصام من الزوج في مدينة مثل شيكاغو يبلغ عددهم اربعة اضعاف المرضى من البيض . ومن هنا تتضح أهمية عمل الدكتور عكاشة الذي زود كتابه بالعديد من الاحصاءات التي استخرجها من بحوثه على البيئة المصرية ومن بحوث مقارنة بين المرضى في مصر وغيرها من بلاد أوروبا وأفريقيا . وكذلك دعوته الى اجراء بحوث على العقاقير المستعملة في العلاج وفقا لما أسفر عنه البحث من أن كمية هذه العقاقير تختلف عند الاستعمال حسب البيئة والمناخ والصحة العامة التي تختلف من بلد لآخر .

ولا شك أن المراجع الكبري في الطب العقل مثل كتب ماير - جروس ، وبلويلر ، وجروهل ، وكريبلين هي مراجع الفلت في ظل الحضارة الاوروبية الغربية ، ومع أن الاضطرابات العقلية لم تبحث بعد على نطاق واسع من وجهة نظر تفكير العلاقات الاجتماعية فانه من الواضح أن لهذه المجتمعات اثرا موريا منا على الذهان ، اذ لا يمكن عزل الانسان عن تاييغه الحضارى . ومنذ القدم اتخذ ديموقريطس وأبيقور ولوكريتيس الموقف القائل بأن سلوك الانسان وافكاره ومشاعره تتكون عن طريق المجتمع الذي يعيش فيه . بينما قال افلاطون وأرسطو على العكس ، أن الطبيعة الانسانية فطرية ، واعتبر افلاطون هذه الفطرة حبة الهيئة بينما اعتبرها أرسطو تكوينا بيولوجيا . ولأزال الصراع بين النظريتين مستمرا الا أن الميزان بدأ يميل منذ ظهور النظم الاشتراكية الى جانب تأثير المجتمع على الانسان في سوائه وفي مرضه وبحث مدى هذا التأثير ودوره . ويعتبر مجال الطب العقلي من المجالات الحديثة التي أخذت هذه النظرة تغزوها مؤذنة ببدء ثورة جديدة الى جانب الثورة العقاقيرية في مجال علاج الامراض النفسية والعقلية .

ان كتاب الدكتور عكاشة يزودنا بنظرة علمية حديثة في ميدان الطب العقلي والنفسى كنا نفتقدها وهو خطوة على طريق طويل نرجو أن يوصلنا الى ما فيه خير الوطن والعالمين فيه .

أطفي فطيم

العلماء السوفييت في هذا الموقف . ومع أن الدكتور عكاشة يعالج الفصام أيضا بالعقاقير الا أنه يضع العلاج النفسى العضوى على مستوى واحد من الأهمية . وقد كنا نود أن يفرد المؤلف فصلا واسعا عن الطب العقلي في الاتحاد السوفيتى كما فعل في كتابه الذى ألفه باللغة الانجليزية عن « اساليب الطب العقلي » *Essentials of psychiatry* ولكن جاء كتابه الحالى خلا من اى اشارة الى الطب العقلي والنفسى في الاتحاد السوفيتى .

محاولة لنشأة الطب النفسى المصرى

يعتبر الدكتور عكاشة كتابه ومحاولة لنشأة الطب النفسى المصرى نابعة من طبيعة الثقافة والبيئة المصرية مستخدما جميع الابحاث المحلية مستعينا بكل النظريات العالمية في أسباب وعلاج هذه الامراض (مقدمة الكتاب) . وبذلك نرى أن للمؤلف موقفا واضحا من قضية تأثير البيئة والمجتمع في المرض النفسى والعقلي . ويبدو ذلك جليا في الاحصاءات المحلية والمقارنة الهامة التى وردها المؤلف في كتابه ومن تقريره بوضوح أن من أسباب الامراض العصابية والعوامل الحضارية والعوامل النفسية والاجتماعية الحالية ، (ص ٢٠) ويهتم الدكتور عكاشة بمرض الفصام بالذات ويعتبره من أخطر الامراض التى تهدد اقتصاد الوطن فيقرر أن نسبة الإصابة بهذا المرض في ج ٢٠٠٠ م تبلغ حوالى ١/٤ مليون نسمة أى من ٨٥٠ الى ١ فى المائة من عدد السكان وهى نسبة خطيرة خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أن هذا المرض يصيب الفرد في سن الشباب والنضوج مما يجعل الفصام ظاهرة تؤثر على الناحية الاجتماعية والاقتصادية الى جانب كونه ظاهرة مرضية . كما يهتم المؤلف بالطب العقلي المقارن ولعل هذا أساس دعوته لانشاء طب نفسى مصرى يأخذ في الاعتبار اثر البيئة المصرية على وجه الخصوص في تسبب وتكوين أعراض الامراض النفسية والعقلية .

وهو في هذا يتفق مع الكثيرين من علماء الطب العقلي المعاصرين الذين أوردوا في مؤلفاتهم زيادة نسبة الظواهر المشابهة للفصام في العصر الحديث (معتبرين أن الفصام ليس مرضا بعينه وانما هو عبارة تشخيصية عامة تطلق على مجموعة من الامراض العقلية) . ولقد لوحظت هذه الزيادة بشكل خاص في البلاد التى دخلت مضمار الحضارة الحديثة بخطى سريعة وحيث تضمنت التحولات الاجتماعية تغيرات سريعة في النظرة العامة الى الانسان . ومن المعروف أيضا أنه في ظل ظروف

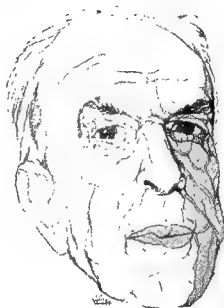
● لا يستطيع المورخ أو الفيلسوف
أن يفصل عن عصره ، ولا يملك إلا
أن يكون بعدا عن منه وعمره له ،
وأقصى ما يستطيع فيس المورخ أو
الفيلسوف هو أن يظهر بساطة حياته ،
أن يسترار منه ، أن يخاطب ضميره ،
أن يبينه ، ويوفق ، ويثير .



ف . هيجل

خواتم في فلسفة التاريخ

د . عبد الغفار مكاوي



أ . توينبي

هبط الإنسان على سطح القمر مرتين .

وكان من حظنا - نحن أبناء هذا الزمان - أن نشهد تجربة رائعة ومثيرة في آن واحد رائعة لأنها لاتقل قيمتها من غزو المحيطات في القرن الخامس عشر أو اكتشاف القارة الجديدة أو الوصول إلى القطبين أو الطيران في الفضاء . ومثيرة لأن هذه الانتصارات كان لها أثر كبير على حياة البشر ، إذ وسعت المجال الذي يعيشون فيه ويتنفسون ويؤمنون ويعصمون ويستمدون الطاقة والغذاء - بينما الهبوط على القمر لا يمثل حتى الآن أكثر من انتصار علمي لانغري هل ستكون نتيجته خيرا أو شرا على الإنسانية . ومن سوء الحظ أن الجهاز الفضائي الذي تولى الحلاق الصاروخ والمركبة القمرية لم يرسل مع روادها شصارا ولا كيلوسا ليبريا لنرى مواطنه والكاره وهو يخطو على سطح ذلك الكوكب الهادئ، الشاحب الجميل ! ومع ذلك فلذلك عندي أن رواد الفضاء سألوا أنفسهم وهم يطأون بالتدريج أرض القمر من مسير أروهم وجنهم الذي يعيش ويتصارع عليها .

ولاشك عندي أيضا لهم في قمة فرحتهم واحتواهم بهذا النصر العلمي لد سألوا أنفسهم بشكل واضح أوفاض هذا السؤال الذي يترق زميلا لهم على الأرض يشغل نفسه بالتاريخ وفلسفة التاريخ : ماذا بعد ؟ وإلى أين يسير العالم ؟

والسؤال يرتبط بتاريخ البشرية العام ، يهدفه ومصره ومعناه . وليس أحق منا - نحن أبناء القرن العشرين الذين الذين نماينس صراما غالبا لم يسبق له مثيل ، ونشاهد كوارث عالية حقيقية أو تنوقع كوارث أخرى لم يسبق لها مثيل أيضا - ليس أحق منا يطرح هذا السؤال الذي يتصل بمستقبل الجنس البشري على الأرض . والكلام من تاريخ البشرية العام ليس مجرد كلام من «بوتوية» خيالية أو فرض على جذاب «أ حلم جميل من السلام . انه ينبع من شعور عام يشعرك في العالم المؤرخ مع رجل الشارع الذي يقرأ الجريدة اليومية أو يسمع الأخبار كل صباح ومساء . ففي الوقت الذي بلغ فيه العلم والتقنية (النكبيك) ذروتها ، ولطورت سرعة المواصلات ونقل الأنباء إلى حد مخيف ، وكثرت عدد السكان حتى وصل إلى كاد إلى درجة الانفجار ، وازداد في مقابل ذلك خضابا الجوع أو المهددين به في وقت قريب أو بعيد ، ووصلت الحرب الباردة أو الساخنة إلى مازق لا يدرى أحد كيف يكون المخرج منه ، وتعددت التجارب النووية حتى صارت لاخطارها حديث كل يوم ، وبلغ تأثير الاملاء والقذمية النفسية وسيل المخدرة تسار بالفضاء على شخصية الفرد وقدرته على التفكير واستغلال الرأي ، وكثر كذلك الكلام عن واجب التربية والمربين وأصحاب العلوم الإنسانية في إنقاذ حرية الإنسان وخلقه وتراثه أمام هذا الطوفان - في هذا الوقت المضطرب المعصيب يزداد شعور البشر بطبيعة «العال بالارتباك مصيرهم

على هذه الأرض ، وتصبح مسألة البقاء أو الغناء مسألة يطرحها الناس على أنفسهم كل يوم كما قلت - سسواء في ذلك الصمام الذي يشترك في صنع وتصميم التسابيل والصواريخ ، أو الفيزياء الذي يصنع رغيفنا اليومي ، أو الام التي ترفع ظلالا الصخر ، أو الفكر الذي يسأل عن معنى التاريخ . ان هذا الفكر يعلم انه يجب عليه أن ينظر في الماضي والحاضر والمستقبل - لا لكي يفرج بفلسفة أو نظرية جديدة ، بل لكي يوقف الوسى بالاختطار التي تهدد الناس ، ويجعل من السؤال عن معنى التاريخ الصمام مسألة لهم كل الذين يعيشون معه . انه يجمع لهم حقائق الماضي ويعرض عليهم أزماته وكوارده ليعتبروا معه في مخرج من الموقف الحاضر : هل يكون في عقيدة واحدة أو فركواحد أو حكومة عالية واحدة ؟ هل يكون في مجتمع آخر تتنهي فيه كل تناقضات المصالح والطبقات كما قال ماركسي ، أم في الوصول إلى الشمول والتكامل الذي يهدف إليه كل تربة انسانية صحيحة كما قال شيكول وغيره من أصحاب النزعة المثالية ؟ - وليس الحل هو الميم ، لان وظيفة العلماء ليست هي إيجاد الحلول ، بل الميم هو إيقاظ الضمير على وحدة البشر - وحدتهم من حيث الطبيعة والمثل ، وحدتهم بالبقاء وراء اختلاف الديانات والمفسرات والأجناد والمذاهب والألوان . وحدتهم من حيث النوع البشري نفسه ، الذي لا تشغله الآن مشكلة واحدة : هل يبقى أم يبقى ؟ هل يوجد أو لا يوجد ؟

بين التاريخ والفلسفة

إلى أين يسير العالم ؟

سؤال ينصب على المستقبل ، والمستقبل أين العاشر. والحاضر لا يلهم إلا من لحظات أخرى كانت حاضرة ثم انقضت أي من الماضي . فلنرجع إذن إلى الوداء قليلا (وهو قليل بالنسبة لعمر الحياة بل لعمر الإنسان نفسه على الأرض) :

وكل تاريخ فلسفة ، وكل فلسفة تاريخ . عبارة قالها هيجل ولكن ليس من التهور أو الطموح الشديد أن نبدأ بهيجل ؟ فلنكن أكثر تواضعا ، ولنحاول أن نبدأ من البداية ، من الجذور .

ليست «الفلسفة التاريخية» بالكلية القديمة . انها ترجع للقرن الثامن عشر ، وتسب فيما أعلم لولتر . غير أن الموضوع الذي تلت عليه أقدم من ذلك بكثير . وأن شئنا الدقة قلنا الموضوعات ، لأن الكلمة توحي بأكثر من معنى وأكثر من قضية .

ما من أحد يتصدى لكتابة التاريخ لمصيره وللأجيال اللاحقة إلا ويقبل ذلك عن قصد أو غير قصد في إطار فلسفة معينة . ومهما حاول أن يكون علميا وموضوعيا في تقريره للحدوث ، فلا بد أن يواجه أسئلة ومشكلات تتجاوز حدود

العلم ، أسئلة ومشكلات عامة بطبيعتها ، لا يمكن الاجابة عليها اجابة قاطعة ، ومع ذلك فلابد من مواجهتها لفهم التاريخ وموقف الانسان : ما الصدفة وما الضرورة ؟ هل هناك قوانين تحكم التاريخ ، هل يعيد التاريخ نفسه ؟ يمكن التنبؤ بالاحداث قبل وقوعها ؟ مثلث الدود الذي قام به بعض الافراد وهل تنبئه اليهم ام الى عرهم ؟ الى اى مدى يمكننا ان نقترب من عصرنا ونطورا ونطور ؟ ما الحسب ؟ ما الثورة ؟ ما الازمات ؟ كيف يؤثر الاقتصاد والحضارة والاديان والسياسة على مسار التاريخ وكيف تؤثر هذه القوى على بعضها البعض ؟ - أسئلة كثيرة لا يستطيع المؤرخ ان يجتنبها . ولانه لا يستطيع ان يجتنبها فلابد ان يجد نفسه على حدود الفلسفة . ولانه لا يريد ان يصبح فيلسوفا بل يجب ان يظل مؤرخا فلابد ان يجد نفسه على حدود لفلسفة التاريخ .

وهو بفلسف التاريخ ايضا كلما امداد النظر في منهجه ، وكلما سال نفسه : ماذا يمكنني ان اعرف وبأى طريقة اعرفه ؟ ماذا أستطيع ان أعرف على وجه اليقين وماذا يخرج عن هذه المعرفة ؟ ما الذي يستحق ان ابحت عنه وما الذي لا يساوي جهد البحث ؟ - اى كى وضع عليه كل موضوع السؤال وحاول ان يجيبه على اساس وطيد . قد نستطيع ان نسمي هذا نظرية المعرفة في علم التاريخ - ونظرية المعرفة فرع من فروع الفلسفة - ومعرفة التاريخ او نقده شيء لم يتم به الفلاسفة التخصصون وحدهم - مثل هيجل وديكارت وكروتش - بل قام به كذلك كثير من المؤرخين .

واخيرا نصل الى المعنى المألوف من لفظة التاريخ ، انها مجموعة من الآراء والافكار التي تتأمل تاريخ الانسان ككل ، سره الخفي ، سياقه ، حركته ، قوايته ، القوى التي تتحكم في سيره . بهذا المفهوم تكون لفظة التاريخ فلسفة بالمعنى الدقيق ، فترا يتأمل الانسان والعالم - لا لاجل التامل المطلق ، بل لان تاريخ الانسان او وجوده في الزمان وغيره وتطوره عنصر اساسي في بناء كيانه ، من هنا يصبح لفظة التاريخ معنى شامل ، ومن هنا نجدتها تنشأ غالبا في مصور القلق والازمات والاضطرابات . انها تريد منعك ان تفهم الحاضر - سواء اعترفت بذلك صراحة او لم تعترف به - ربما حاولت ايضا ان تتنبأ بالمستقبل لكي ترجع الى الماضي كله لتسأل من مضاي هذا الحاضر . وما الحاضر الا ابن ذلك الماضي . هكذا لفعل هيجل ، وفلسفته في التاريخ اعرق الفلاسف واغناها . لقد رأى عمره - عصر الثورة الفرنسية و نابليون يمر بازمة لم يسبق له نظير - واستجبت من هذه الازمة نتائج طيبة على الماضي كله . فكشفت فلسفته في التاريخ فلسفة الازمات . ويصدق هذا على كارل ماركس ويعقوب بورخارت ، وكلاهما - على ما بينهما بالطبع

من الاختلاف - مفكر ازمت . كما يصدق ايضا على ارفالد اشينجلر الذي وجد في الحرب المالية الاولى ازمة تشبه الازمة التي وجدها هيجل في حروب نابليون . وقد يصدق نفس الشيء ايضا على اوتولوك تويني وما رواه في حربين عالميتين . ولكنه ينطبق بالكل على ذلك القديس الافرنسي الذي نستطيع ان ننظر اليه نظرتنا الى فيلسوف للتاريخ ، على القديس اوجسطين . لقد سمر انه يعيا في عصر مضطرب حائل بالازمات المخوفة ، ومن هذا المنور نشأ كتابه المعروف من مدينة الله .

هذه الاشكال المختلفة من لفظة التاريخ يمكن ان تتداخل وتتشابك . غير اننا نستعول ان نفرق بينها توفيعا للامور . فالأول - طالما كان لمعقل وكان لديه الاستعداد لاستخدام هذا العقل - لا ياب ان يكون فيلسوفا للتاريخ . وهو مضطر ان يفعل ذلك كما نلت سواء قصد اليه عن وعى او لم يقصد اليه . انه يواجه بالضرورة مشكلات تتصل بفلسفة التاريخ ، ولابد ان يدلي فيها برأى . هناك مؤرخون اصبحوا فلاسفة للتاريخ عندما وضعوا عليهم كله موضع السؤال ، اى عندما حاولوا ان يقوموا على اساس جديدة . لم هناك المؤلفات الكبرى في لفظة التاريخ ، اى التاملات النظرية في معنى التاريخ وفابته ، اى ما يمكن ان نسميه ميتافيزيقا التاريخ .

ميتافيزيقا التاريخ

لننظر الان نظرة سريعة فيما حققته لفظة التاريخ منذ نشأتها الاولى وما كرت فيه . ان كلمة التاريخ - مثلها في هذا مثل كلمة الفلسفة - ترجع من حيث اللفظ والمضمون الى اليونان . فالتاريخ - او الهستوريا - كلمة تدل على البحث والفحص والتأمل . واليونان الذين وضعوا اساس الفلسفة الغربية هم كذلك الذين وضعوا اساس التاريخ . ومع ذلك فان اليونان لم يفهموا من التاريخ ما نفهمه اليوم منه ، بل لم يكن من طبيعة الفكر اليوناني ان يفهمه . والسبب انه كان يبحث دائما عن الوجود الخالد ، والحقيقة الخالدة ، والجمال ، والخير الخالدين ، اى كان يبحث عن شيء لا يتغير ، في حين ان ماهية التاريخ ، اى ما يحدث في الزمن ، هي التغير . كان في استعمالهم ان يرموا الرواية والهندسة والاخلاق - اما التاريخ ، هذا الذي يتغير ويتحول ويؤول على الدوام ، فلم يكن في استعمالهم ان يرموه - ومن لم فلم يكن في نهاية الامر جديرا بالمعرفة . قد يصعب علينا ان نتصور ان مفكرا عظيما مثل افلاطون لم يكن يبحث كثيرا بالتاريخ ولكن هذه هي الحقيقة . ان الدولة او الجمهورية التي فكر فيها مزولة من جيرانها بقدر ما هي مزولة من التاريخ . تصور انها يجب ان تبقى كما هي او كما كانت في تفكيره وفي محاوراته المشهورة ، وهو شيء يستحيل تصوره من دولة تعيش في التاريخ ولابد ان تتغير بغيره .

وجاء ارسطو فكان اوفر حقا منه في السياسة ، او

بقيت الطبيعة البشرية على حالها . وهل تتغير طبيعة
البشر ؟ !

ان كانت هذه فلسفة تاريخ فهي فلسفة بالسة ،
خالية من كل عزاء . بل هي لا تبحث عن معنى ولا اصل
ولا عزاء . لان التناحيث في نظرها يتساوى مع الطبيعة ،
ولانها لا تجد فيمفر حلقات مملنة متكررة ، الام وتوارث ،
ميلاد ونمو وموت ، صراع من اجل الوجود ، غرور وانتقام
واندثار .



ل . ماركس

هذه الاكثار كلها تتردد في العصر الحديث . فكتابات
شوبنهاور من التاريخ لا تختلف كثيرا من هذه المصالي ،
وقمه له لا يكاد يفرق عن فهم الاطفال . انه يشبهه في
ضعف احساسه بالتاريخ ، وفلسة اهتمامه به ، وعدم ايمانه
بقيمه او جدواه . ما من جديد عنده ، نفس الشيء
يتكرر على الدوام ، والاخترامات التي اكتشفت في حياته
كالكسة الحديدية والبرق لم تغير من الامر شيئا . نفس
الشيء دائما . شر كثير وغير قليل . نفس الشيء الى
الابد ومنذ الاول . سواء اختلف فلاحان على قطعة ارض
او تنازع مكان على دولة . سواء تعلق الامر باثينا
واسبرطة ، او بروسيا وفرنسا ، او امريكا وروسيا .
من المبت ان تبحث في التاريخ عن حقيقة او رجاء . نفس
الرائ الذي قال به شوبنهاور منذ مائة ومثيرة سبعة ،
ولوكوديس منذ الفين والارمئة وخمسين سنة . وهو
ايضا نفس الرائي عند الافريق والرومان الاقدمين . مع
فروق قليلة ، صحيح ان الرومان اضافوا للوحى التاريخي
ابمادا جديدة في المكان والزمان ، فقد امتدت حدود دولتهم
من اسكتلندا الى شواطئ الفرات ، واحسوا احساسا
واحيا بتاريخ دولتهم الطويل « منذ تاسيسها » - مشروع
جريء ، لم يكن ليقدم عليه مؤرخ افريقى ، بل لم يكن
ليتصوره او يفكر فيه ا - وضحج ايضا ان اسبينجر
زعم ان الرومان لم يكن لديهم احساس بالديمومة او
البقاء ، ولم يكن ينضمهم الماضي ولا المستقبل ، وذلك على
عكس الصينيين القدماء . وقد يتفق هذا الزعم مع تصور
اسبينجر للتاريخ الحضارة بوجه عام ، ولكنه لا يتفق
مع الواقع في شيء . فالاعترامات ما بقيت حقا الى يومنا
الراهن ، ولكن ألم تبق كذلك قبور الرومان وممايهم
على طريق ايبيا (ليبيا) ؟ ألم تبق الامعة واوقاس
النصر التي شيدها القيامة ؟ ألم تبق الكتابات والنقوش
التي حفرها عليها ؟ - الرومان لا ينتقصم احساس
بالبقاء ، ولكن ينقصم شيء آخر . شيء هو عكس البقاء
تماما . ينقصم الاحساس بالتغير ، بالتحول ، بالصيرورة ،
بالجدة ، اى الاحساس بالتاريخ كما نفهمه اليوم . مهج
الرومان من فهم التاريخ ، من ادراك التغير كقوة حقيقة .
وعاش مؤرخهم وساييسوهم الكبار - مثل بوليبيوس
وشيترون وسالوست وليكيوس ولاسييتوس وبولتالده -
في عصور شهدت تغيرات حقيقية ولكن كان التغير في رايهم

كان - كما نقول اليوم وكما اراد هو لنفسه - اكثر
والمية من استاده . جمع في كتبه مادة تاريخية غنية ،
وقادر بين الدساتير المختلفة (ونظر في مزايها وعيوبها
كما يفهم اليوم استاذ في العلوم السياسية . ولكن
اهتمامه قل متصب على كل ما يبقى ويدوم ويتكرر كانه
قانون لا يتغير ، ونظره ظلت معلقة بالنظام الشامل المحدود
المخلق على نفسه : وقل مثل هذا من اعظم مؤرخى الافريق ،
وهو الابننى توكيديس الذي كتب عن الحرب البيلونيزية
(التي دارت على ثلاث مراحل بين اثينا واسبرطة من
سنة 431 الى 404 ق.م) ادوع تاريخ يمكن ان يخلطه
قلم . انه ينظر نظرات حنيئة في النشاط السياسي لبني
الانسان ، في الحروب والثورات ، في الصراع بين الدول
والاخراب والطبقات ، في الكفاح من اجل تحقيق التوازن
او التسلط على الغير ، في تأثير المصالح الاقتصادية على
السياسة ودورها في التوفيق في البر او البحر . وهو
كاتب موهوب ، يملك القدرة على تصوير الناس والمشاهد
في صور حية تكاد نراها ونفلمسها . ولكن هذا المؤرخ
العظيم يبحث ايضا مما يبقى ويدوم ويتكرر . انه رجس
يائس محدود الاثاق « يروى لنا تاريخ الحرب البيلونيزية
او الحرب المالية اليونانية » ، وير على ما سبقها من
الكرام . بل انه ليصرح بأنه لم يسبق ان وقع حادث
يمكن ان يقارن بهذا الحدث الخطير . لذلك لم يواصل
احد هذا التاريخ . ولم يكن من الممكن ان يواصل احد
انه كالمالحة التي لا تحتاج لمن يكملها ، لانها كاملة ومكتفية
بذاتها ، هو اقرب الى «تاريخ مهين» منه الى «التاريخ» .
انه يرويه للاجيال المقبلة لكي تنهيا لمواجهة توارثى اخرى
مشابهة قد تعرض لها . لان ما حدث بين اثينا واسبرطة
سوف يحدث بين غيرها من المدن ويتكرر حدوثه ، طالما

نونا) فقد ظل بالنسبة اليهم شيئا محزنا ، شيئا غير جائز ولا مشروع .

مع هذا كله فقد أخرجت روما عددا من عظم كتساب التاريخ . وليست عظيمة هؤلاء الكتاب في أنهم عرفوا ماهية التاريخ والتطور ، بل في قدرتهم الرائعة على التصوير المبهر الحي ، والأسلوب المؤثر الدقيق ، في الرواية الموجزة الكاملة منسد ساليوست ، وفي العرض النفس المتشائم العميق عند تاسيتوس . انظر الى هذه العبارات التي لا يتدر عليها الا كاتب عظيم : « ما من احد توصل الى السلطة بالوسائل الشريرة ثم استطاع ان يستخدمها في الأهداف الخيرة » ، « من طبيعة القلب البشري ان يكره من الحق به الظلم » - ما من مؤرخ حديث استطاع ان يكتب عن الطغيان بأصدق ولا أروع من تاسيتوس . ومع ذلك فكم من مؤرخ حديث تفوق عليه وهو اقل منه شأنا . والر بسط : ان المتدربين يحدون بالتحول في الزمن ، بالتفكير ، بالاستمرار ، بالتفرد ، وكلها أشياء غريبة على الرومان .

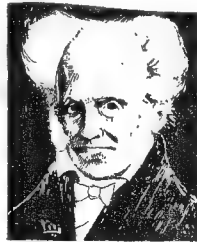
المسيح والتاريخ

هذا الاحساس ، هذه الفكرة ، جاءت الى العالم الغربي من طريق المسيحية . وصلت اليها من طريق العهد القديم ثم تأكلت في العهد الجديد وظلت زمنا طويلا تحتفظ بطابعها الديني . وأصبح العالم يؤرخ للزمن بظهور المسيح ، وما زلنا نؤرخ له اليوم ونحن في بداية سنة ١٩٧٠ . فظهر المسيح اعطى للتاريخ معنى ، خلق عليه نظاما لم يكن يعرفه في العصور القديمة . صارت السنون تسحب بين ظهور المخلص للمرة الأولى وظهوره للمرة الثانية ، أصبح الزمن الذي امتد قبل ظهوره هو زمن الأمل والوعد والانتظار . أما الرومان فكانت طريقتهم في حساب التاريخ ان يسموا السنين بأسماء المجاسير والفتن ، وكم كانت طريقة مقعدة !

فرق كبير إذن بين التاريخ عند الرومان وبينه عند ظهور المسيحية . صحيح ان الوحي التاريخي في فضل المسيحية كان له وجهان مختلفان . كان هناك من آمن بأن أعمال الانسان وأحداث العالم لا أمل فيها ولا نجاة - فالانديس أوسطين مثيلا ومن بعده البابا جريجور السابع بستة قرون يستقرن الدولة والسلطة أشد الاحتقار - ولكننا لا ندري على وجه اليقين ان كانت المعتقدات الأخرى ، مملكة الله أو مدينته ، ستتحقق في رأيها على الأرض ثم في عالم آخر . وكان هناك الوجه الآخر . هي المسيحية هي التي جعلت لفكرة الزمن قيمة وشأنا ، هي التي جعلت التاريخ وكتابة التاريخ أمرا ممكنا . لا تاريخ مدينة أو دولة تسحب ، بل تاريخ العالم ، تاريخ البشرية . « على الأرض السلام وبالناس أسرة » . هكذا كانت بشارة اللائكة .

السلام على الأرض ، والمرة والحبة للناس أجمعين .

معناه التدهور والخطر والفساد ، والعصر الذهبي لا وجود له الا في الماضي . وأحياء العادات والنظم القديمة التي أسسها الآباء هو واجب المؤرخ ورجل السياسة . كانوا محافظين في تفكيرهم . وحتى لو لم يكونوا كذلك في ترواة نفوسهم ، فقد كانوا يؤكدونه في خطيبهم وكتاباتهم - هكذا حاول أغسطس ان يصور أعماله بأنها بحث للماضي وأحياء للقديم - وان خالهم الشعور مرة بأنهم يعيشون في الحاضر أو في عصر يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ، فهو الشعور بأن الزمان فاسد ، والمسا لم تدهور . يستوى في ذلك ان نسمع الشكوى المريرة في كتابات تاسيتوس ، او نجد الشك والارتباك في أعمال ساليوست . هكذا صارت الأحوال ، صارت الحاضر (السيكولوم) قسا أعظم الفرق بينه وبين الماضي السعيد . لم يخطر على بال الرومان ان التفكير ليس دائما دليلا على التدهور والفساد ، أو انه ليس شيئا يدعو للاستف والبهكة في كل الأحوال لم يدركوا ان التفكير هو جوهر التاريخ ، وأنه قد يحصل في أحسنه التطور والتقدم والامل . تلك فكرة ظلت غريبة عن الرومان . نحن نختلف الآن عنهم في احساسنا بالتاريخ ، واستعدادنا للتفكير ، وقدرتنا على التكيف . وما أكثر ما تمكن السياسيون في العصر الحاضر من مواجهة التغيرات العاصمة بالحكمة ، والتخلي عن النظم القديمة أمام الواقع الجديد (تحول الامبراطورية الى ما يسمى الآن بالكونغولت من اوضح الامثلة على هذا) . أما الرومان فقد عجزوا عن هذا التكيف . لذلك انهارت الجمهورية الرومانية القديمة ، وسقطت الدولة الدستورية . اعتقد الجمهوريون أنهم يستطيعون ان يحكموا الدولة الواسعة المترامية الأطراف على أساس دستور دولة المدينة الصغير . بل ان الدكتاتورية العسكرية التي اقامها القيصرية ظلت تتدثر بالرداء الجمهوري القديم . أما الجديد (الرئيس



شوينهاور

لا لشعب من الشعوب أو دولة من الدول فحسب . هكذا كان أيضا رأى فلاسفة القرن الثامن عشر ، هؤلاء الذين انفصلوا عن التراث المسيحي ، وراح بعضهم - مثل فولتير وكونتورسييه - يهزأون بالكنييسة وبناصبونها الممدا . ألهم أن التأمل في التاريخ ككل ، في منشأة وحركته وهذنه ، مسار أمرا ممكنا بعد المسيحية ومن بعدها الإسلام ولم يزل كذلك الى اليوم (والكتابة عن مرسوم المؤرخين المسلمين لفكرة الزمن يستحق دراسة مستقلة من القادرين عليها) .

تطور الوعي التاريخي

بلغ الوعي التاريخي ذروته الأولى في أوروبا في القرن الثامن عشر . أراد الإنسان أن يعرف مكانه في التاريخ أراد أن يفهم الى أين تسير البشرية . حاول أن يصرف سر الأحداث التي تجري حوله : كيف أصبحت فرنسا قوة ضخمة ، كيف ظهرت روسيا على مسرح السياسة الأوروبية ، كيف غوطل الأوروبيون في السالم الأمريكي ، كيف نشأ النظام البرلماني في إنجلترا . من هنا الإنجيل على دراسة التاريخ الروماني - مونتيكيو وجييون - من هنا الاهتمام بدراسة الحضارات الغربية الجيدة كالحضارة الصينية . ومن هنا الخلاف الذي بدأ في القرن السابع عشر : أين التوفيق ؟ للاتريق والرومان أم للمحدثين ؟ - وأخيرا هذا التشاؤم الهائل في جميع الولايات وتفسير الوقائع التاريخية بشكل لم يسبق له نظير . وكم دهشنا اليوم أن ننظر في التاريخ الذي كتبه فولتير عن عمر لويس الرابع عشر « لم يقتصر هذا الكاتب الكبير على تدوين تاريخ سياسي ، بل راح يصيف الجبهه التاريخ للحضاري والسياسي ويربط بينها جميعا » .

مصحح أن فولتير - ومنه عدد كبير من معاصريه - قد وثقوا من الماضي موقف الرفض والاحتقار . كان من رايهم أن سامة الانسانية المحقة قد بدأت أو مستبدا في مستقبل افضل . ولكنهم وجدوا أنفسهم مضطرين الى معرفة الماضي معرفة تامة لكي يستطيعوا التحرر من انغرافاته وانظمتها البالية . لذلك فقد دهشنا أن هؤلاء الكتاب التاريخ قد اسهموا في تجميع قدر كبير من المصولات والحقائق التاريخية الحية ، على الرغم من انذرائهم للمصود الوسطى المسيحية وتجنهم عليها بصورة تبدو لنا اليوم مظلة بعيدة من الانصاف .

على أن فروغروم واحتقارهم للماضي لم يبق غير الر . لذا كان فولتير قد أسرف في السخرية بالمصود المظلمة وخرافات رجال الدين ، وإذا كان العصر الوسيط لم ينتج من هجوم رجل حكيم مثل كالت الذي وصفه بأنه « غصائل غير مفهوم العقل البشري » - فقد كان هناك من أنصف الماضي وأحس بقيمته وجماله . ذلك فعل جوه في شبابه وكذلك فعل الرومانتيكيون الانجليز . من هذه الانجازات

التعارضة الثابتة من حركة « عصر التنوير » التي أسربت في ثقافتها بالمثل وفي عدالتها للماضي من الحركة الرومانتيكية التي أحبت ذلك الماضي وعكفت على احياء اديه وجميع تاريخه ، ومن الأحداث الهائلة التي اضطرب بها العصر : انتصارات بروسيا على عهد فردريك الأكبر ، حصول أمريكا على الاستقلال ، الإصلاحات التي تمت في النمسا ، وأخيرا تلك الكارثة الرائعة - الثورة الفرنسية - من هذا كله انبثق عدد كبير من المؤلفات في فلسفة التاريخ حددت الوعي التاريخي الأوروبي في العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، نذكر منها كتاب « هردر » أفكار في فلسفة تاريخ الإنسانية ، ومقال كانت « أفكار عن تاريخ عام من وجهة نظر عالية » ، ورسالة « شيلر » معنى التاريخ العام والفاية من دراسته ، وأخيرا أعمال ذلك الرجل الذي عرف هذه المؤلفات كلها وأفاد منها وحقق في لفظة التاريخ فيها لم يسبق اليه وقد لا يلحق له - ونعني به هيغل .

كل هؤلاء المفكرين يتفقون في إيمانهم بمعنى التاريخ وبرسالة الانسانية . ومع أنهم يختلفون في مفهومهم من المسيحية ، فلولا التراث المسيحي لما كان من الممكن أن يصلوا الى هذا الإيمان ولا الى هذا الوعي التاريخي أنهم جميعا - وهردر يقلل عنهم بعض الشيء - يعتقدون أن الحضارة الأوروبية هي الحضارة التي إلقى عليها اللعنة المصيبة التاريخي الأكبر ، وهي التي ينبغي أن تنتهي به في المستقبل .

مشروع للسلام الدائم

في سنة ١٧٨٤ الف « كانت » مقاله الرابع السابق الذكر « أفكار من تاريخ عام من وجهة نظر عالية » وقد ترجمه استافنا هيد ألوهين بديوي . ثم عالج الموضوع بصورة أوسع في كتابه من السلام الدائم وقد ترجمه استافنا عثمان أمين . والمقال والكتاب يتناولان مشكلة التاريخ البشري العام ، ويبدون أن شيئا غريبا لا يكاد الإنسان يصدق أنه صدر عن مفكر وحيد وبعيد عن صراع المصالح ومشكلات السياسة والسياسين في عصره ! ولكنهما مع ذلك يبدوان لنا اليوم مفاشرين الى أقصى حد ، حتى ليوشك الحكيم الطيب المجزوء الذي لم يفسد مدنيته كونه سرج أن يكون قد تلبأ مشكلتنا الكبرى التي نساى منها صياح مساء ، ويقوم المقال والكتاب على افتراض - لا مجرد حسن نية - أن الإنسان قادر على أن يصل نفسه الى السلام الذي تحدث عنه شيلر والسانديون الانسانيون من قبل ، كما يقوم على الثقة في الانتصار النهائي للإنسان باعتباره الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يحكم عقله . اقترح كانت في مقاله أن يكون الهدف من تاريخ الانسانية هو تحقيق الإنسان نفسه بكل مكانه وموابعه النبيلة ، في ظل اتحاد أو عصبة أمم ، ولإفائة كبرى هي ضمان سلام دائم منظم وطيد الأركان . ولا تحقق

هذه الناية إلا إذا توفرت للإنسان فكرة من ماضيه بالعلمي
الانتماء الذي لا يتف عند حدود الأمم والجماعات . وكانت
يمهد لهذا التاريخ حين يبين الخط الصاعد الذي سار
فيه العقل الانساني الى مزيد من الموضوع ومزيد من
الإنجازات العلمية .

غير انه يلاحظ - في حزن لا يستغرب من الحكماء ! -
أن هذا التطور في الحضارة والعلمية لم يصاحبه تطور في
الفهم والأخلاق - نفس الحالة التي تشكو منها اليوم وتكاد
تدفع بالشرية الى حالة المساواة ! ولذلك فإن واجب
الإنسان في المستقبل هو الوصول بالأخلاق الى مستوى
العلم ! ، والا جاء اليوم الذي تضطره فيه الطبيعة او على
الاصح يضطره التاريخ الى شيء كان من الممكن أن تعلمه
أبناء الأخلاق أو العقل الصلي كما يسميه . أي يأتي اليوم
الذي تتطور فيه أساليب الحرب المهيكة الى الحد الذي
تجد فيه الدول نفسها أمام اختيار واحد لا مناس منه ،
فاما غناء الحضارة وانتشار البشرية جمعة ، و تنظيم
الدول ذات السيادة على أساس العقل في عصبه أهم ترمي
السلام العالمي .

ولكن ما هو موقف كانت من عذاب البشرية المتصل
على مر التاريخ ؟ ما رأيته في الكوارث والأزمات التي الت
بها ، وأولاً الخراب والدمار التي لم تكف من تدبيرها
لنفسها ؟ - الجواب أنه ينظر الى الإنسانية « ككل » ،
بحيث تبدو كل الكوارث والأزمات أشياء مؤتة أو محلية .
أما التقدم والتطور - تقدم العقل وتطوره - فهو ثابت
وستستمر ، بل أن العناية الإلهية قد شابت أن تكون الوان
الدمار والمذاب التي عانها الإنسانية وبما فيها هي الطريق
الذي يصل بها الى التبصر والتعقل ، لا بل تفرسها
عليها فرما . ولكن هل تقطع هذه الثقة في العقل كل
أسباب الشك وإلإس ؟ هل صحيح أن الإنسان يتطور
وينضج جيلا بعد جيل ؟ وما العمل إذا احتكم لفزيته
الاصيلة كما فعل في كل العصور ؟ ما العمل إذا كانت
الهوة لا تزال سحيقة بين العلم والسلوك ؟ بين العقل
والفهم ، بين التفكير والإحساس ؟ القريب أن هذه
الشكوك ليست جديدة . لقد ثارت في نفوس الناس في
حيات كانت - ففي سنة ١٨٠٠ رد أحد الصيغيين من أهالي
برلين ، ويدي فريدريسن جنس ، على كانت بكتساب من
تأليفه سماه « من السلام الدائم » ، وحاول أن يرد فيه
عن تنازله فقال بالحرف الواحد : « .. وحتى لو استطاع
الجنس البشري بأسره أن يصل الى كل دستور شرعي
بين أعضائه ، فإن المادة الصوتية الكامنة في المواقف
الفريضة الغالبة سوف ترجع هذا النظام في كل لحظه » .
وسوف تبقى على التناقص الأبدى بين قانون العقل الذي
يوحي دأبا بالسلام ، وبين قانون الطبيعة والظفرة الفجة
الذي يرد الحرب على الدوام » .

هذا التناقض القائم بين العقل والطبع ، أو بين العلم
والخلق مسألة قديمة ، وأن كان وعينا بها اليوم قد ازداد

حدة . وتأريخ الحضارات المروية ليس في الحقيقة إلا سجلا
عامرا بالصف والتعود والكلب والشرا والاضطراب . وليس
هذا كله كامنا في الطبيعة أو الفريضة العنصرية وحدها كما
يقول الصحفي البرليني ! بل المشكلة أن «الدودة» كامنة في
العقل نفسه منذ البداية ! .. مهما يكن من شيء فلايسع
التأمل للظروف التي نمر بها اليوم إلا الانجذاب بهذه
الفكرة التي تصمد من أعين وأسندق منير منه كيم
كونجسبرج الطبيب العظيم ..

الاحساس الدرامي والتاريخ

فلذا انتقلنا الى «شيلر» وجسدناه يسر في الكارثة
التاريخية في نفس الخط الذي سار فيه «كانت» . لقد
كان في شيايه أشد حساسة من هذا «الحكيم العالي» كما
كان يسميه في نظره الى الحاضر السعيد . بل كان من
رأيه أن الماضي كله لم يكن له هدف إلا الوصول الى هذا
الحاضر المتم بالبرية والكرامة والأمل ! فلما بدا يكتب
التاريخ بنفسه بدلا من الاكتفاء بتعلمه من معيد - شغله
الواقع الهى من فكره الكتابية الأولى ، وأخذ بصورالناس
والأحداث كما يتروا في الواقع ، دون أن يرضى نفسه بالأهداف
والنتائج البعيدة ، لم يكن كانت مؤرخا . أما شيلر فكان
يمكك الحاسة الدرامية القوية بالتاريخ ، بالصراع الرهيب
بين الدول ، بالمواقف الزهيجة أو الوجعية التي تحكم
في الأفراد ، وربما استغفرت هذا الاحساس الدرامي بالماضي
فأنساه تأملاته التالية ، في التاريخ العام . وبكى أن تقرا
مصرحياته التاريخية - وفي مقدمتها الثلاث الكبرى عن
فالنشتين - لتعرف أنه شاعر التاريخ الأكبر بغير نزاع .

تاريخ العنف والقسوة

كذلك كان هيجل مؤرخا أصيلا ، يملك النظرة الناقدة
التي تلم بحقيقة الدولة الحديثة وتميز بين روح عصر وعصر
وإذا كانت التالية والواقعية لاجتماع دأبا عند شيلر
- فكثيرا ماتس تأملاته الفلسفية كما قدمت في غمرة انشغاله
بالوقائع والوقائع - فقد تلاشى الجانيان تلاقيا تاما عند
هيجل ، وكان المثال والواقع عنده شيئا واحدا . ولعل
هذا هو سر شروعه التاريخي والفلسفي الهائل الذي يخلد
النفس بطموحه وروعته ! كما يضيحه بطموحه وتقيده .

تاريخ العالم في رأي هيجل هو تاريخ العنف والقسوة .

وإذا كانت قد مرت به مصور عرف فيها السعادة
والأمن والسلام ، فإن هذه المصور لا بهم فيلسوف التاريخ
في شيء . أن مصور السعادة هي أوراق التاريخ الجافة
الذابلة أما أوقات الرعب والهول ، الحروب والثورات ،
آلام الموضوع ومتاعب النمو - مذابات الاختصار في تاريخ
شعب أو حضارة - أما هذه فكانت هي المنقول ، كانت هي
الفكرة في تحقيقها .

سار تاريخ العالم دائما بمقتضي العقل . وكانت النتيجة دائما هي العوالب - انتصر من يستحق الانتصار ، وانهار من وجب عليه الانهيار . القوة والحق هنا شيء واحد . العقل والواقع نفس الشيء .



فولتير

وحدة مما كانت عليه قبله . ان كارل ماركس - هو تلميذه الذي لا يمكن نفيه بدونه - لم يعد يكفيه ان يفهم العالم - اى المساقى - بل يريد ان يفسره بالفلسفة ، اى يعده صورة المستقبل ، بحيث يصبح هذا التحديد المسبق قوة فعالة . وهو لا يصبح كذلك حتى يتطابق مع الواقع ويعرف قانونه العلمى . كل ما كان قبله - وبالأخص منذ هيجل - فلسفة ولا شيء غير الفلسفة ، اى تأملات بشرى اثر فعلى - اصبح عنده فعلا سياسيا يستمد قوته من الفلسفة او من العلم (فكلامها شيء واحد في رأى ماركس) . ومن لم نشأت وحدة جديدة من الفكر والوجود غير التى ذهب اليها هيجل . وصارت فلسفة التاريخ - التى ظلت حتى الآن شيئاً لا ضرر منه ! - نظرية للثورة ، وفسار فيلسوف التاريخ لثراً ومعلماً وداعياً الى الثورة .

هكذا كان ماركس وانجلز ، وان خلت حياتهما مما يلتفت انظار رجال الشرطة ! وهكذا كانت بهدما حياة ليتين وتروتسكى وستالين ، الذين اضافوا الى نظرية الثورة نظرية «الاستراتيجية الثورية» ، والرب ، والارهاب ، ثم

كل اشكال السلطة والحكم والفساد عاشت فترة من الزمن لم اخفت من المرح عندما كان اوان اخفائها . كان المؤرخون وفلاسفة التاريخ الاوربيون قبل هيجل يعتقدون في وجود ازمة واحدة كبيرة مرت بها الانسانية الحديثة وتحسرت وامتنعت هيجل ايضا بوجود هذه الازمة ، وتأثر عميق التأثير بأحداث الثورة في أمريكا وفرنسا غير انه عمم هذه الفكر الجديدة عن ازمة التاريخ على الماضي كله . فالتاريخ عنده هو تاريخ الازمات ، سواء اكانت ازمات سياسية او عقلية او اخلاقية . من خلال كل ازمة ، وكل ثورة ، وكل انهيار اسباب احدى الحضارات لترتفع مكانها حضارة جديدة بلغ العقل البشرى او العقل الكلى درجة أعلى ، والنتيجة ان العقل قد بلغ الآن - اى في عصر هيجل ! - أعلى درجة في تنظيم الدول الاوربية - في الدولة الدستورية او الدولة الليبرالية التى لم تصل بعد الى الديموقراطية - كما بلغ أعلى درجاته في التفكير الفلسفى (اى في فلسفة هيجل نفسه !) . انتهى الفيلسوف الى هذه النتيجة دون ان يكشف لقراءه عن مصوره لما سيكون عليه المستقبل . ولم تكن فلسفته فلسفة مستقبل ، بل كانت تحترق كل تفكير مشائى (او يوتوبى) . فاليوتوبيسا (بمعناها المشتق من الكلمة اليونانية) تدل على مالا وجود له في اى مكان ، اى مالا وجود له الا في رأس الفكر وحده ! اما هيجل فيريد ان يفهم ما هو موجود ، « فالوجود هو العقل » . ولا وجود في الواقع الا للحاضر وحده ، وللماضى الذى ادى هذا الحاضر ويمكن معرفته بالامام به وليس يليق بالفيلسوف ان يفكر فيما يمكن ان يصير اليه هذا الحاضر حين يصبح ماضياً ، اى لا يليق به ان يفكر في شيء ليس له وجود .

بهذا المعنى كان هيجل مفكراً معانفاً الى أقصى حد ، مفكراً تأملياً لا يريد ان يصل الى شيء عملى . فالعقل العملى قد تحقق بالفعل ، والمهم الآن ان يفهم ويوضح في الصيغة الفلسفية المناسبة . وبهذا المعنى ايضا احس هيجل انه يمثل حضارة متأخرة ، ناضجة ، وجئت الراحة بعد ان اصابته هزات منيفة في الماضى القريب (واهماله التأخرة تعبر كثيراً عن هذا الاحساس) . ولعل هذا هو السر في ان هذا العمل الضخم لم يجد ولا كان من الممكن ان يجد من يواصله ويستمر فيه اذراد له صاحبه ان يكون خاتمة ونهاية . وقد كان بالفعل كذلك . ولهذا السبب اضطر للاميذه - الذين لم يقف بهم طوحهم عند الشرح والتفسير - الى البحث عن أدوات أخرى وهايات أخرى ..

فلسفة تغير العالم

هكذا اسبغت فلسفة التاريخ بعد هيجل اكثر تلقاً

أكرم الوثائق والمعلومات عنه الرؤية . وشلت لاراته ، وقتلت روح المخاطرة فيه ، وجعلت من المؤرخين أضياعا خفيفة متداوية تفترس الكتب القديمة وتضع النظارات على ميونها ! قلنظر هذه المرة التاريخية ، ولتقبل على الحياة - على اللحظة الراهنة لتتحقق أنفاسها فيها بقوة وحرية ، وبلا وساوس أو إحزان !

بيد أن هذه اللغة الغامضة الجارفة لم تستطع أن تخفي الإحساس بأزمة تاريخية متوقفة - تنبأ نيتشه بأن القرن العشرين سيشهد حربا طاحنة لن يعرف لها العالم مثيلا من قبل . وزعم أنه سيفرح فرحة كبرى بهذه الحرب! وهو في هذا يخطئ تقدير نفسه النقية الطاهرة ، كما ينسى أنه أعلن من نفسه (في كتابه الأكبر الذي لم يستطع أن يشبهه هو «إرادة القوة») أنه آخر المدميين . فكيف كان يرضى لنفسه أن يشهد ذلك الدم والمدما الذي رهيب الذي شهدته العالم في حربين عاليتين ؟ وكيف كان يتردد لحظة واحدة في التبرأ مما اقترفه النازيون باسمه وتحت شعار فلسفته التي أخطأوا فيها وحينما جلبها ؟

هاهو ذا رجل آخر يأتي بعده - مؤرخ أصيل يعقب (يعاقب يوغرات) فيشك في معنى التاريخ ويباس من غايته وهذه الذي بحث عنه كانت وشيل وهيجل ، ويبدو مرة أخرى إلى رأى العصور القديمة عند اليونان والرومان : تعب الإنسان لتفكير . موجة تلو موجة تهبط . كما في الماضي كذلك في الحاضر والمستقبل . لا جديد هناك . لآمل ولا نجاة . ومع هذا فلم يستطع يوغرات أن يغني إحساسه بالآزمة . صحيح أن روح التشاؤم ظلل تأملاته في تاريخ العالم كالتسحابة الهادئة القاتمة . ولكن رؤاه القلقة على مصير الإنسان تلوح كالبرق في ثنابا رسائله وخطباته الشخصية .

لم يخفف الإحساس بالآزمة منذ ذلك الحين من فلسفة التاريخ لم يختلف من رأي كثير في مستقبل العالم والحضارة والإنسان . سواء بالأمل أو باليأس ، سواء تلبأ بنهاية التاريخ كله أو تلبأ بنهاية التاريخ الماضي وراح يعلن عن بداية التاريخ الحق ، التاريخ الحر العادل المجيد .

تدهور الغرب

لأنستطيع أن نختم هذا العرض السريع بغير أن نذكر اسم إلفالد شينجلر . قد تكون لفلسفته اليوم خاطئة في بنائها العام ، وهناك بالفعل أكثر من دلائل على خطئها . ولكن لا شك أن شينجلر - الذي وضع كتابه من تدهور الغرب تحت تأثير الحرب العالمية الأولى - قد خاطب جيئة وغير من عصره ، ورسوم صورة تاريخية فنية رائعة تدل على نقاد بصيرته ، ولقد مجموعة من الملاحظات من العواصر

طبقها بالفعل عندما جاء الوقت المناسب . هؤلاء رجال لثالة ظلوا ينظرون للواقع أو يكتبون تاريخه بأنفسهم كما فعل فروتسكي . أهم ما يميزهم هو اعتقادهم القاطع بأنهم يعرفون دورهم التاريخي تمام المعرفة ، وأن أصنافهم معصومة من الخطأ ، لأنها مستمدة من العلم بقوانين التاريخ نفسه . كل من يبعد عن وجهة نظرهم يقول له . كل من يخالفهم فهو مرتد وخائن وعميل "

الصراع العالمي الذي نعيش اليوم في ظله بين شرق

وغرب يرجع إلى طحوح ماركس الضخم ، إلى دعواه الهائلة رغم أنه عرف قوانين التاريخ العلمية وحدد مسيرته وهدفه إلى الأبد . كل من ينقسم عهد الولاء لماركس وليين فهو على حق . كل من يخالفهما فهو عدو وملعون ومطروود . تلك هي النهاية . لا نهاية فلسفة التاريخ بالطبع ، فهذه لانتهى . بل نهاية جانب من ترانها الذي وصل به هيجل إلى اللزوة . نهاية مؤلة ، أنل مايقال فيها : أنها مستولة من الأرق الذي نجد أنفاسنا اليوم فيه ، وليس أمانا إلا الاختيار بين فناء مطلق أو سلام مضطرب . إ يكون الإنسان قد حمل نفسه أكثر مما تستطيع أو ماينبغي أن تستحمل ، عندما زعم أنه عرف معنى التاريخ وحدد هدفه واكتشف قوانين حركته ! هذا الزعم ليس جديدا . المحاولة كذلك ليست جديدة . لقد جرب الإنسان مايشبهها في القرن التاسع عشر . أحس أنه يحيا في عصر تاريخي فريد ، يعمل في أحشائه الأمل أو الخطر أو كليهما ، ولكنه على كل حال مصر لم يسبق له نظير . فالخواص السياسية والاجتماعية تحتاج أوروبا ، وانتصارات التقنية (أو التكنيك) والعلوم الطبيعية والبيولوجية تتوالى مؤلفة بالنتصارات أكبر وأعجب ، والذين يمتز في القلوب ، والكنيسة تضعف بصورتها واحة ، والتوسع والغزو الاستعماري يصلان إلى اقصاهما - كل هذه ظواهر قوت شعور الناس بأنهم يعيشون في عصر فريد ، فأرادوا أن يعرفوه ويحددوه . أرادوا أن يسدوا ذبالهول باسمه ، ليأمنوا بعد ذلك شره ! وأقدموا على المحاولة بجهنم مفر يبين للابد قوانين التاريخ . هكذا فشل «أوجست كونت» مؤسس النزعة الوهمية الحديثة . اعتقد أنه اكتشف القوانين الذي تسيّر كل الحضارات بمتقن في ثلاث مراحل : مرحلة يسودها الدين ، وثانية تسيطر عليها الميتافيزيقا أو التأمل ، وثالثة وأخيرة يحكمها العلم الوهمي . العالم الغربي - في رأى كونت - قد دخل هذه المرحلة الأخيرة بالفعل . معنى هذا أن الملميين والخبراء الفئيين قد احتلوا مكان المسلول والكهنة والمسكرين .

نفس الشعور بتفرد العصر ، نفس الإحساس بأزمة تاريخية لم يسبق لها مثيل - تجده أيضا عند هذا الفيلسوف الشاعر المجهب - عند نيتشه . أنه يتوار على المعرفة التاريخية التي يزجج بها عصره ، حتى حجبته

الحياة في كل مظاهرها الطبيعية المحيطة بنا وأن كنا لا نراها
كالمعمياء - أي بالتخلي عن القرّة والعنف ، وتوحيش
النراثر المظلمة العمياء ، ومعاولة العيش في سلام .

أكثر من سؤال

هل نستخلص من هذا أن جميع المؤرخين الذين
ذكرناهم مخطئون ؟ بالطبع لا . ولا يمكن أن يصل بنا الغرور
أو الفناء إلى هذا الحد ! لقد أحسوا بأزمات عصرهم
وحاولوا أن يميروا عنها أو يفسرها أو يفتروحوا لها الدوا .
أو يحملوا إلى ؟ جيالهم بعض الراحة والأمل والمراء ، ولقد
أصبح الإحساس بالأزمة بفضل هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين
جزءاً لا يتجزأ من فهمنا للتاريخ ، بل أن هذا الإحساس قد
زاد اليوم عنه في أي وقت مضى . فإذا قلنا أن البشرية تمر
بمرحلة لا تظهر لها في تاريخها الطويل لم يكن قولنا مجرد
تزويد أو تأخير (بسدادج بما سبق) ، ولكن أن يصعدنا
الجميع ، لا فرق في ذلك بين الفيلسوف ورجل الشارع .
الم يمر الإنسان على أرضي القبر مرتين ؟ ألا يدل هذا على
أن العقل البشري قد بلغ أقصى درجات تقدمه ، وأنه -
وهذا الأهم ! - لا يزال يواصل تقدمه ، ولا نهاية للأفكار
التي يتطلع إليها ولا للمعاجات التي نتطلعها منه ؟ -
ومع ذلك فلا يزال الآلاف يموتون من الجوع أو التعذيب
أو المذابح الجماعية في فيتنام أو الملوان البشع على
شعب فلسطين والشعوب العربية . . . ألا يدل هذا من ناحية
أخرى على أن نفس العقل البشري قد بلغ أقصى درجات
تأخره ؟ ألا يشهد أن التوازن الذي حلم به كانت أو غيره
بين العقل والضمير وبين العلم والظلم قد ؟ اختل الفزع
اختلالاً ، وأن هذا العقل ينطلق الآن بسرعة الصاروخ ،
بينما الضمير يلهث على عكازه وراه ؟ ! ألم يأت اليوم
الذي تنبأ به حكيم كونهسبرج - يوم تجد البشرية نفسها
أمام اختيار وحيد بين فناء مطلق وببطل الأسلحة المهلكة
أو تعايش في سلام منظم دائم في قسلة « جمعية من الأمم
المستقلة » ؟ ألا نفيش الآن في هذا اليوم ؟ !

ولكن « جمعية الأمم » التي كان يحلم بها قد وجدت
وانحدت ، والبشرية تتحرك كل لحظة - حقيقة لا مجازاً ،
وأما لا تشاؤماً ! - على حافة الهاوية . فما بال الضمير
العالم لا يستيقظ ؟ وإذا كان قد استيقظ لدفع ظلم
بشع - كبحر الإيالة في فيتنام - فلما لا يتحرك بنفس
القوة لدفع ظلم لا يقل منه بشاعة ، كتشريد شعب من
وطنه ؟ أين ضمير الشباب الثقي وأين ضمير علماء العالم
ومعتركي ومثقفيه وكيف لا تتأق على استنكار كل هذه
الجرائم التي تستر وراء الأكاذيب والخرافات المتعصبة ؟
وإذا كانت أكاذيب الصهيونيين وخرافاتهم قد خدعت عدداً
كثيراً من الناس العاديين فكيف استطاعت أن تخدع هذه
الصفوة التي ينبغي أن تفكر لنفسها وب نفسها ؟

والمتقبل أنبت الأيام صفداً ، وإن كان قد حشرها في ذاك
البناء الملم الذي لا يتسع المجال لبيان خطئه . اللهم أنه
يثبت لنا كما أثبت كل من حاول ذلك قبله أن تصسيور
التاريخ في صورة شاملة تامة مقلقة لم يعد أمراً ممكناً
ولا مفيداً ، وأن معاولة الإنسان أن يعدد معنى التاريخ
وعدهه وتنبأ بمستقبله محسالة مقف علىها بالفضل .
ذلك لأنها تفوق طموحه وقدرته وطبيعته المحدودة الفنية ،
ولأنه - أي الإنسان - يحيا في الزمن ويربط به ، ولذلك
فلا يمكنه أن يحدد معناه وهده من داخله . أي أن فلسفة
التاريخ قد وضعا لفر الوجود والإنسان في قلب الزمن ،
ورادوا أن يلتصقا بالتحقق التام - أي الوحدة الكاملة بين
الوجود والفكرة أو بين الواقع والواجب - في هذا الزمن
التحول نفسه ، مع أن هذه الوحدة لا يمكن أن توجد على
الأرض ولا في الزمن . قد يستطيع الزمن أو التاريخ
- بأزماته وكوارثه - بتعدد أزماته وعزائمه ، بأفراحه وآلامه -
أن يكشف لنا من معنى المطلق أو المتألي أو الروح الكلي
أو الفردوس الأخير أو ما شئت من أسماء لاسميه - ولكنه
لن يستطيع أبداً أن يوجد في الزمن ، أن يستطيع أن
يقف على الأرض . .

فلسفة التاريخ ومعنى الزمن

أدركت فلسفة التاريخ - منذ عهد القديس أوغسطين
إلى اليوم - معنى الزمن ، وعرفت أنه يمكن في التحصيل
والتحقق والتجديد . هذا كسب ضخم لن نفقه بعد اليوم .
لا يمكن أن نرجع للوراء - لا يمكن أن نمود لتصور توكيديس
أو غيره من مؤرخي الإغريق والرومان ، هؤلاء الذين اعتقدوا
أن الخير كله في المصود الذهبية الماضية ، وأن الزمن لا يأتي
بجديد . ولكن لا يمكن أيضاً - بعد مسيرة خمسة عشر قرناً
من أيام أوغسطين - أن يظل الإنسان يبحث من المطلق في
الزمن والتاريخ ، مع أن المطلق نفسه - إيان كان الاسم
الذي نطقيه له ! - وسواء وضعناه في عالم آخر أو قلبناه
ووضعناه على الأرض ! - لا بد - بحسب اسمه نفسه ! -
أن يظل خارج الزمن والتاريخ . كل ما يستطيع الزمن أن
يفعله هو كما قلت أن يكشف عنه ، يرتبحة معه ، يشدنا
إليه - أما تحقيقه فهو التاريخ فهو المنحيل بعينه .
وتحقيق هذا المنحيل - في ثوبه المقدس أو في أثوابه
الأرضية ! - هو الذي جر الغرب ومعه بقية العالم إلى
الزلمات المتوالية التي لاحظنا فلاسفته ومؤرخوه ، وجسر
البشرية اليوم - أزاو التقدم المذهل في العلم والتقنية
واسلحة الدمار ، والتأخر المذهل أيضاً في الضمير والأخلاق
- إلى الاختيار المحتوم الذي تنبأ به كانت : فاما الفناء
المطلق الذي يتساوى فيه الغالب والمقلوب في راحة القبر ،
وأما التحلم من دروس غاندي ومارتن لوتر كنغ في العصر
الحديث ، ومن تعاليم الحكماء والشهداء في كل العصور -
بل ومن مجرد النظر إلى براعة الطفل والحيوان ، واحترام

المفكر وتيار عصره

لا يستطيع المؤرخ أو الفيلسوف أن يفصل عن عصره ، ولا يملك - كما قال هيجل - إلا أن يكون تعبيراً عن زمنه ومرآة له ، وأقصى ما يطمح فيه المؤرخ أو الفيلسوف هو أن ينطق بلسان جيله ، أن يصور أزمته ، أن يخاطب عصره ، أن ينبه ، ويوقظ ، ويشير .

وليس كاتب السطور مؤرخاً ولا فيلسوفاً . إن أقصى طموحه أن يكون مجرد شاهد أمين - وهو يشترك في هذا مع كل من يكتب - وهو لا يستطيع مهما طالت به الرحلة بين المصرد أن يفصل عن عصره وجيله وأمله . ففي الوقت الذي يكتب فيه هذا الكلام ، وفي الوقت الذي تقرأونه ، يضى أخوة لكم وله بحياتهم وينزفون دماهم .

لا لى نكتب عن معنى التاريخ أو نتفلسف في أزمته ، فالشيء الوحيد (الذي يجدي في هذا الموقف الذي نعيشه اليوم هو نقطة الدم وطائفة الرصاصي ، وإن يقيننا ومزاجنا الوحيد هو أننا جميعاً نشترك في معركة واحدة كبيرة ، وأننا - كما قال شكسبير هيباد في تعبير صادق جميل - ننف جميعاً في صف واحد كبير وننتظر دورنا . هؤلاء الأخوة يعطون للتاريخ بهذه النماء التي يبدلوننا منها الحقيقي الدائم ، ويجسمون أزمته لكل من يرى وكل من يحس . انهم أيضاً يسألون بطريقتهم التي لا يوجد إلا سواها : إلى أين يسير التاريخ ؟ وهم لا يسألون لحسب . بل يجيبون بالفعل : بالدم والتشجاعة ، بالدمع والطائرة ،

بالعبود كل ليلة ، بتثبيت العلم على الأرض التي يندسوا ، العدو وهم أيضاً يخاطبون الضمير الدائم بطريقتهم : لماذا لا تستيقظ ؟ هناك دليل على أزمة الجنس البشري أوسع من هذه الأزمة التي نعيشها في هذه المنطقة من العالم ؟ هناك دليل على تقدم العلم والتقنية التي أمدت حده وتآخر الخلق والضمير التي أمدت حد أيضاً من هذه الدولة الصعرة التي تفكر وتفكر المصائب وتسرقت وتنتهب وتقتل كما تفعل المصائب ؟

لقد استمرت التقدم العقلي والعلمي نجاحهما جاهراً من تلك الدولة الكبيرة التي تمثل النموذج الصارخ لتفوق العقل إلى أقصى حد وتخلّف الضمير إلى أقصى الحدود .. وإذا لم تستيقظ الآن يا صهر العالم ويا مناسط الأمل الوحيد الباقي للجنس البشري فمتى تستيقظ ؟ ألا تريد أن تفتح عينيك إلا والبشرية في قرارة الهاوية ؟ !

إلى أين يسير العالم ؟

حقاً ! ما أخفرك من سؤال !

وما أعظم وتأييل الجواب الذي يفصده الإبطال

والشهادة على أرضنا وفي كل مكان يشهد اليوم

مناساة التطور العقلي الملحد والتخلف الطغالي البشع

في أن واحد .. ؟

عبد الغفار مكاوي

تعتمد مادة المقال على ثلاث دراسات للمؤرخ المصارع «جولدمان» - ابن الكاتب المشهور توماس مان - عن

المشكلات الرئيسية في فلسفة التاريخ ، والمؤرخ إرنولد توينبي عن البشرية في سنة الجيوب على القمر والتكنولوجيا

وطور السياسة العالمية ، والاستاذ فريست فاجنر ، استاذ التاريخ بجامعة مينون ، عن مشكلة التاريخ العام للبشرية ،

والوقوف الحاضر ، وقد نشرت جميعاً في مجلة « الجامعة » عددي يونيو وسبتمبر سنة ١٩٦٩ .



مشكلات فرجية في دراسة الإسلام ولوك الأجرامى

صلاح عبد المتعال

للمفاهيم والمصطلحات الاساسية وذلك لتبسين ثقافتهم واتجاهاتهم المدرسية وتخصصاتهم وهذا أمر لا غبار عليه ، ويمكن تقريب وجهات النظر فيما بينهم بالشروع في توحيد هذه المفاهيم والمصطلحات الرئيسية بكافة السبل العلمية . . . أما الأمر المحفوف بالمخاطر فهو تبني بعض الباحثين لمفومات تم تعريفها من واقع ثقافات مغايرة لثقافة المجتمع المصري المتمايز بخصائص حضارية لا يمكن الاختلاف عليها ، أو أن يجد الباحث نفسه أسير اتجاهات مدرسية معينة في تفسير السلوك الاجرامي تجعله ملتزما دائما بمفاهيمها الخاصة التي تطلق منها للمعالجة المنهجية تكل مشكلة انحرافية دون التمسك في القيام بدور نقدي يحرمه من إسهام هذه المفاهيم وما يتبعها من توجيه الباحث نحو اختيار منهج أو أسلوب معين لاكتشاف أبعاد السلوك الاجرامي .

وما يؤثر بالضرورة في هذا الشأن ما لدى الباحث من تصور خاص عن طواهر السلوك الانحرافي أو **الانحراف** أو **التصوري أو المرجعي** وهو الصورة الذهنية المنظمة من الظاهرة الاجرامية التي يسترشد بها في بداية عملية البحث ، ويفسر تفرع الاتجاهات العلمية في تفسير السلوك الاجرامي الى اتجاهات بيولوجية ونفسية واجتماعية عن طريق الاطار التصوري لكل منها والسابق على عملية البحث ، وهو الاطار الذي يؤدي الى تحديد مناهج كل اتجاه وطرائقه المتبعة في عملية جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها ومعالجتها ، وما يثيره كل اطار تصوري من أسئلة يحاول الاجابة عليها ، والمفروض أن كل هذه الاتجاهات العلمية تحاول بالدراسات المتتابة العودة الى الاطار النظري أو التصوري بعد معالجة النتائج وتفسيرها مؤيدة إياه أو كاشفة أخطاءه منتهية الى تعديل الصيغة الاتباعية له (رايلي ، البحث السيسولوجي ١٩٦٣) فان لم يحدث ذلك فان البحث يبدو في دائرة مفرغة تحول دون التوصل الى أي مفهوم جديد في العالم .

وقد يتأثر الاساس النظري لدراسة السلوك الاجرامي في أغلب الأحوال بالناخ الفكري السائد والنظريات الشائعة في تفسير السلوك الانساني، كما يلعب تبسين **المعتقدات والايديولوجيات** دورا فعلا بالنسبة لمستقبل البحوث والدراسات الانسانية بصفة عامة ، ودراسات السلوك الاجرامي بصفة خاصة . فالباحثون ينتسبون الى نظام اجتماعي قائم يتبنى أفكارا ومعتقدات

تحتل دراسة السلوك الاجرامي في عصرنا الراهن موقعا له اهميته البالغة في مجال الدراسات الانسانية بصفة عامة وبحوث العلوم الجنائية والعقابية بصفة خاصة . ويزعج هذا الاهتمام المتزايد نتيجة لقلق المجتمع المطرد وتهديد أمنه وسلامته ، ومن ثم تبادر الحكومات والهيئات المختصة باتخاذ الاجراءات لمنع الجريمة والحد من معدل نموها بقدر الامكان لا بقصد تحقيق الغاية من ضبط سلوك الافراد فحسب بل لاعتبار ذلك مؤشرا له دلالاته الهامة على استقرار الأوضاع والهيمنة على كافة الامور مما يدعم كيانها الشرعي ويضفي عليها احقية الاستمرار في أداء مهمتها ، هذا فضلا عن أن بعض الدول تجد في انتشار السلوك الاجرامي ، بأى صورة من صورته ، ما يفرق بشكل أو بآخر خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وبذلك تلاحظ أن الانتحاء نحو الاهتمام العلمي بالمشاكل الانحرافية أمر يمكن تفسيره على هدى مفاهيم التقدم الاجتماعي والاقتصادي ، وعلى هذا الاساس ترصد كثير من الميزات والجهود الفنية والبشرية لدراسة السلوك الاجرامي وما يرتبط به من طواهر متعددة ، باعتبار ان هذا في حد ذاته نقطة الانطلاق لحصر النشاط الانحرافي في أضيق حيز اجتماعي ممكن .

قيود منهجية

ويثار تساؤلات لها اهميتها حول مدى التزام الباحثين في دراسة السلوك الاجرامي بالشروط المنهجية للعلم ؟ وما هي القيود والمشاكل التي تعترضهم في عملية البحث وتؤثر في انحيازهم الى فلسفات ونظريات مسبقة تؤثر بشكل أو بآخر في انحرافهم عن الحد الموضوعي الذي يجب الالتزام به ؟ وما مدى صلاحية مناهج البحث وطرائقها المعروفة والشائعة في دراسة السلوك الاجرامي في مجتمعنا ؟ فواقع الأمر ان استخدام هذه الاساليب حديث نسبيا بالقياس الى المرحلة العمرية التي بلغت العلوم الاجتماعية والجنائية في مصر هذا بالإضافة الى عدة محددات تؤثر بشكل أو بآخر في توجيه البحوث والدراسات نحو الالتزام بمنهج وأدوات معينة دون غيرها (صلاح عبد المتعال ، الاسس المنهجية لدراسة ظواهر الجريمة في المجتمع العربي ، الحلقة العربية الثانية للدفاع الاجتماعي ، فبراير ١٩٦٩) . وهذا قد يرجع الى عدة عوامل منها أن الباحثين في هذا المجال يختلقون في معالجتهم

والمعتقدات السائدة بطرائق مختلفة ظاهرة أو مستترة ، دون المساس بجوهر العقائد والمذاهب القابضة وراء القوانين التي يسنها أصحاب المصالح في المجتمع ، وهذا في حد ذاته يشكل ضبابا فكريا يحول بين الباحث وروية تصورات وأفكار وطرائق مستعندة لاكتشاف نتائج جديدة قد تعدل من النظريات السائدة في عصره .

وواقع ان هذا القيد لو استسلم له الباحثون لتجمدت مناهج وطرائق البحث في العلوم الانسانية ، ومن ثم يلاحظ في كل حقبة فكرية انطلاق صيحات فكرية جديدة تعبر عن ضرورة كسر هذه القيود الايدولوجية رغم ما يلاقه المفكرون من صعوبات ومخاطر تعترض نضالهم في حرية البحث ، وقد كان مثل هؤلاء الرواد المفكرين قصب السبق في تقديم العلم والأخذ بيد البشرية نحو التقدم والرفاهية . . . ومن ثم فان مبدأ حرية البحث العلمي وصيانة الباحث العلمي من جميع أنواع القهر هو مبدأ يجب أن تقره الدول التي تريد اختزال الزمن لتحقيق شعار التقدم .

كما يتحكم في عملية اختيار الأدوات الملائمة للبحث المستوى التقني في المجتمع فقد يؤدي استعمال أداة بحث أو مقياس نفسي أو اجتماعي - لم يتم تصميمه - الى الحصول على استجابات مضللة . وينطبق ذلك أيضا بالنسبة لمحاولة جمع البيانات التي تمس الحالة الاقتصادية والحريات الشخصية والتقاليد والمعتقدات دون أن يوضع في الاعتبار مدى وعي المفوضين أو ذويهم بأهمية هذه البحوث والافتناع بجدوى نتائجها في المدى انقريب أو البعيدة .

وثمة اعتبار آخر وليس عن نفس الدرجة من الأهمية ، الا أنه يشكل خطرا في تحيز بعض الباحثين في نطاق السلوك الاجرامى لأساليب وأدوات علمية يحددها تخصصهم دون أن يأخذوا في اعتبارهم جدوى أساليب التخصصات العلمية الأخرى . وقد تعرضت دراسة السلوك الاجرامى لعواقب القفز الى تصميم النتائج للاقتصار على أدوات البحث التي يفرسها تخصص فرع معين من العلوم الانسانية أو اتجاه مدرسي خاص في تفسير السلوك الاجرامى سواء كان الاتجاه بيولوجيا أو نفسيا دون أن يوضع على مرعي البحث أهمية الأبعاد الاجتماعية ، ولما تم اكتشاف هذه الأبعاد أخذت مشكلة السلوك الاجرامى تتضح ملامحها - الى حد ما - وتسلح الباحثون عندئذ بالقدرة على اختيار مناهج وأدوات متعددة ومتنوعة أخذا بمبدأ

وايدولوجية معينة . وبجسدد النظام الاجتماعي العلاقة بينه وبين الباحثين - خاصة في المجتمعات الحديثة - الذين يشق عليهم تمويل البحوث والافئاق عليها . ومن ثم فان المنفعة متبادلة بينهم وبين أجهزة هذا النظام ، ومنهم من يحرص على تدعيم الأفكار المؤيدة للنظام السائد بنتائج البحوث أو الدراسات ، ومنهم غير المقتنع الذي يقف موقف الحيساد منه أو المنعاض ، الا أن واقع هؤلاء جميعا يواجه سيطرة النظم الاجتماعية باختلاف نماذجها على موارد معيشتهم وتوفير سبل الحياة لهم وتدعيم بحوثهم ودراساتهم بالموارد المادية التي لا يمكن الاستغناء عنها في عصرنا الراهن لإنجاز التحقيقات العلمية . ويمكن عند عقد مقارنة بين نماذج مختلفة في النظم الاجتماعية : فنجد أن دراسات السلوك الاجرامى في المجتمعات الرأسمالية تنفاسى عن الأبعاد الاقتصادية في تفسير السلوك الاجرامى ، وتهتم بأبعاد السمات الفردية والتركيز على خصائص الشخصية . . . دون الاقتراب من تأثير الصراع الطبقي على ازدياد معدل الجرائم ، أو المساس بمشاعر الطبقة المستغلة أو اغتصاب أصحاب السلطة الذين يعبرون عن مصالح النظام القائم . (سدرلاند ، كريسي ، مبادىء علم الاجرام ، ١٩٦٠) يقابل ذلك عدم جراءة الباحثين في بعض المجتمعات الاشتراكية في نفسه السلوك الاجرامى على أساس قصور في تطبيق النظم الاجتماعي ، والافتراض السهل بأن الجريئة من رواسب الفكر البرجوازي ، واعتبار بعض المذهبين ذلك مشجبا معلقا عليه بعض العواض الاجرامية المعبرة عن التناقضات الناشئة من سوء التطبيق أو نتيجة تغيرات جديدة .

فالتقير الايدولوجي - ان جاز هذا التعبير - يمارس دوره في توجيه البحوث والدراسات في نطاق السلوك الاجرامى لمصلحة الدفاع عن النظم

العمل الجماعي في البحث العلمي الذي يعتبر حلا وفقا لتفادي خطر الانزلاق في متاهات تقديس الاساليب الفنية لكل تخصص على حدة ، وعدم التمتع بالنظرة الشمولية المتكاملة في فهم ابعاد ظاهرة السلوك الاجرامى وثيقة الصلة بمختلف ابعاد البناء الاجتماعى ككل موحد .

في مناهج بحث السلوك الاجرامى .

ثمة منهجان اساسيان يمكن اتباع احدهما أو كليهما معا على التوالى أو التوازى طبقا لدرجة توفر المعلومات والنظريات المفسرة لظواهر السلوك الاجرامى وانماطه .

اولهما .. المنهج الاستطلاعى والوصفى الذى يتيسع في حالة عدم توفر البيانات المنظمة عن الظاهرة الاجرامية موضوع البحث ، وبذلك يصبح الهدف الأساسى الذى لا غنى عنه فى أى عملية بحث محاولة الاستقصاء الدقيق عن الظاهرة والتعرف عليها مجسدة في صورة وقائع يمكن معالجتها موضوعيا وتنمية فروض علمية كمحاولة لتفسير هذه الوقائع تفسيراً مبدئياً .

والمنهج الثانى .. منهج اختبار الفروض العلمية والتحقق من مدى صحتها على أساس تجريبي (سلتز وجاودا ، مناهج البحث فى العلاقات الاجتماعية ١٩٦١) منتهيا الى تصميم يستخدم كقاعدة للتفسير أى فى صورة نظرية علمية . أو تعديل أو انزاع نظرية سابقة ، أو البرهنة على قانون علمى يوضح العلاقة السببية بين المقدمات والنتائج أو بين المتغيرات المعتمدة والمستقلة ، هذا فضلا عما يقدمه هذا القانون العلمى من قدرة بشرية يمكنها من التحكم فى هذه المتغيرات ..

وجدير بنا ان ننوه بأن المنهج الثانى - منهج اختبار الفروض تجريبيا - أكثر المناهج اغراء للباحث لاشباع طموحه وثبات كيانه العلمى دون اهتمام بمدى حاجة ظاهرة السلوك الاجرامى التى لم يستكمل ادراك معالمها الرئيسية الى المنهج الاستطلاعى والوصفى . إذ ان الباحث فى حالته هذه يقتبس بعض النظريات المفسرة المستندة الى شواهد تجريبية مفيدة للشواهد الكائنة فى مجتمع البحث الذى يتباين السلوك الاجتماعى والانحرافى فيه عن نماذج السلوك فى المجتمعات الأخرى .

وينطبق ذلك فى حالة مجتمعنا حديث العهد ببحوث السلوك الاجرامى ودراساته ، ولنفكر الى المعلومات والبيانات المنظمة التى تحدد حجم

الظواهر الاجرامية وأنواعها المختلفة النابعة من ثقافة مفارقة عن الثقافات الغربية التى نبعت منها نظريات مفسرة للسلوك الاجرامى .

اساليب بحث السلوك الاجرامى :

ينبغى علينا أن نشير الى اساليب البحث الاساسية فى دراسة العلوم الاجتماعية والجناية قبل التعرض للأساليب النوعية لدراسة السلوك الاجرامى .

فلا شك أن اسلوب الملاحظة لا يكن الاختلاف عليه باعتباره الأساس الاول للاستقصاء والبحث، الا ان اصطناع اساليب أخرى ومبسطة يلجأ اليها الباحث عندما تعترضه صعوبات تنوقه عن الملاحظة المباشرة أمر يفرضه تعقد العلاقات الاجتماعية كلما تطور المجتمع من البساطة الى التركيب فى بنيانه الاجتماعى . وقد لجأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية الى استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة فى نموذج المجتمعات المتخلفة . ومن أمثلة ذلك دراسة (مالينوفسكى ١٩٢٤) عن الجريمة والعرف فى المجتمع البدائى . ولا غبار اطلاقا عن استخدام هذا الاسلوب فى بعض قطاعات المجتمع المصرى كمجتمعات الريفية والصحراوية وشبه الصحراوية (د . أحمد أبو زيد ، الثار ، ١٩٦٥) . (قام بأجراء هذه الدراسة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية فى قرية بنى سمیع لمركز أبو تيج) .

كما اصطنعت التجربة العلمية المباشرة - كنوع من الملاحظة المشروطة - نظرا لقصور العقل البشرى عن ملاحظة الظواهر العديدة المتشابكة فى المجتمع . ومن ثم تم التجريب فى نطاق دراسة السلوك الاجرامى على مستوى عينه من المجرمين (تجريبية) وأخرى من غير المجرمين (ضابطة) بهدف تحقيق فرض علمى محدد . وثمة أمثلة فى

هذا المجال ، كدراسة جلويك (Glueck ١٩٥٧) عن الجانحين وغير الجانحين تفسير جناح الأحداث ودراسة ركلس ودينتز (ركلس ١٩٦١) عن مجموعتين : التجريبية من غير الجانحين والضابطة من الجانحين ، حاولا التوصل الى مدى تأثير (تصور الذات) self-concept عن الانحراف أو عدم الانحراف وثمة بحوث مصرية أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن بعض أنماط الجريمة مثل ظاهرة الفشل عند الأحداث (غير منشور) وبحث تعاطى الحشيش (١٩٦٤) .

كما يستخدم المنهج المقارن أو التجربة غير المباشرة (دوركيم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع) كنوع آخر من الملاحظة إذ أنه لا يمكن التحكم في المجتمعات الكبيرة التي لا يمكن إخضاعها للتجريب المباشر بل يكفي المقارنة بين الوقائع الإجرامية المسجلة أو التي يمكن تسجيلها لتسديد أثر العوامل المشتركة في أنماط إجرامية متشابهة .

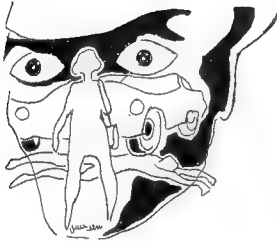
اساليب نوعية في دراسة السلوك الاجرامي

الاحصاءات الجنائية ، واحصاءات السمات والعوامل الاجرامية :

يمكن أن نلقي نظرة عاجلة على الاساليب والادوات النسوية لدراسة السلوك الاجرامي لا بقصد شرحها ولكن بهدف تحديد مدى موضوعية كل أسلوب أو أداة .

وتحاول الاحصاءات الجنائية تحديد حجم الجرائم وانماطها ودرجة الارتباط بين عدد الجرائم وبين بعض العوامل الطبيعية ، والاجتماعية - فالعوامل الاقتصادية كمحاولة بونجر Bonger المشهورة ... وهذا الاسلوب الاحصائي له حدوده التي لا يمكن أن يتعداها فهو لا يحقق التعمق في دراسة الشخصية ودينامياتها كما لا تمثل الاحصاءات الجنائية مجتمع المجرمين ككل الا من وقع في قبضة رجال الشرطة ، منعية الارقام المجهولة في الجرائم التي لا تتمكن من رصدها بالضرورة .. الا انه قد استحدثت أخيرا أسلوب التقرير الذاتي للكشف عن الجرائم الخفية كمحاولة لرصد حجم الجرائم المسجلة وغير المسجلة (صلاح قنصوه ، تقويم كفاءة منهج التقرير الذاتي في كشف الاجرام الخفي ، المجلة الجنائية القومية ، مجلة ١٢ ، يوليو ١٩٦٩)

ويتأثر حجم الجرائم المسجلة بمدى اهتمام الرأي العام ونشاط أجهزة الضبط ، كما يلازم الاحصاءات الجنائية النقص في معدل ثباتها في



القومي للبحوث الاجتماعية والجناية عن طاهرة
النشل عند الأحداث (غير منشور) والدراسة
الكليتيكية عن البغاء في القاهرة ١٩٦١ ..

ولا يخلو أسلوب دراسة الحالة من النقد :
فالحالات التي يتم دراستها لا يمكن أن تصور
المجتمع الأصلي تصويرا كاملا مهما تعددت ، ومن
ثم فهي قيد منهجي لا يمكن من تعميم النتائج مالم
يكن نطاق المجتمع الذي اختيرت منه الحالات محددا
بدقة بالغة ، وقد حاول الفرد لند سميث اجتياز
هذه العقبة باستخدام أسلوب « دراسة الحالة
المحدودة » في دراسة عن ادمان المخدرات وأخرى
عن جريمة الاختلاس ، وذلك من أجل التوصل
الى تعميمات شاملة بعد تحقيق فروض غاية في
الوضوح لأنماط من السلوك محددة غاية
التحديد .

(سيزولاند كريسى ١٩٦٠)

Sutherland and D. Cressy, 1960

ويحاول أسلوب دراسة الحالة بشقية سد
النقص في الدراسات القائمة على الإحصاءات
الجناية التي يعوزها الثبات والصدق ، ويؤدي
التساند بين كلا الأسلوبين الى تحقيق نوع من
التكامل المنهجي في البحث للقيام بدراسات
استطلاعية تفيد في عملية اكتشاف الفروض الدالة
التي يمكن اختبارها تجريبيا باستخدام مناهج
واساليب أخرى .

مخالطة المجرمين في البيئة الاجتماعية

يحاول هذا النهج العودة الى الأساس الأول
في الدراسة العلمية ، وهو لملاحظة مباشرة ،
وتعتمد هذه طريقة على اتصال الباحث بالمجرمين
في البيئة الاجتماعية خارج المؤسسات العقابية
والإطلاع على المواقف اليومية وطرؤهم المعيشية
كما يراها المجرمون أنفسهم ، وهذه الطريقة من
اشق الأمور التي يصعب على الباحث القيام بها ،
فهي تحتاج الى مهارة معينة لمخالطة المجرمين ووعي
كامل من السلطات عن إمكانية تحقيق هذا
الأسلوب ، وحسم مشكلة صراع الأدوار عند
الباحث باعتباره ملاحظا موضوعيا لجماعة من
المجرمين ومشروعاتهم الخاصة للأضرار بمصالح
المجتمع .

يفتقر هذا الأسلوب الى القدرة على عملية
التثبت من البيانات أو مراجعة المعلومات التي
حصل عليها أحد الباحثين ، إذ انه نادرا ما يستخدم

السلاد حديثة العهد بأجهزة الإحصاء الجناي ،
ولكن تنضج قيمة هذا الأسلوب في عملية جمع
الوقائع الجنائية وتحديد أنماط الجرائم
واتجاهاتها بالزيادة أو النقص وتوزيعها
الإيكولوجي ، الا أن الإحصاءات الجنائية يعوزها
القدرة على تنظيم الوقائع الاجرامية .

وقد لجأ الباحثون لادراك هذا التصور الى
أسلوب المقارنة الإحصائية للسمات والعوامل
الاجرامية بين المجرمين وغير المجرمين لتحديد قيمة
ودلالة عامل معين أو أكثر يؤدي الى انتشار نمط
أو أكثر من أنماط السلوك الاجرامي .

وقد حاول المستحدثون لهذا الأسلوب صياغة
نظريات مفسره للسلوك الاجرامي ، الا أن هذا
المنهج رغم قيمته يعاني من بعض نواحي القصور
على أساس أن عينة البحث تختار غالبا من
المؤسسات العقابية التي لا يمثل نزلاؤها الى حد ما ،
المجتمع الأصلي للمجرمين ، كما يعترى الباحثون
الشك من استجابات المسجونين فيمسا يتعلق
بالنسبيات الخاصة بالحالة الاقتصادية والظروف
الاجتماعية التي أحاطت بهم قبل الحكم عليهم .
وبالرغم من أهمية هذا الأسلوب الإحصائي الذي
يلجأ اليه لتحديد أسباب الجريمة باستخدام بعض
المقاييس المبشركة لتحديد خصائص المجرمين
وطرؤهم ، فانه ليس كافيا في حد ذاته لفهم
وتفسير الظواهر الاجرامية ، وبذلك لجأ بعض علماء
الاجرام الى استخدام أساليب أخرى منها أسلوب
دراسة حالة .

دراسة الحالة

ولا يقتصر أسلوب دراسة الحالة على دراسة
وحدات من الأشخاص المستستخدمين بل أيضا
وحدات من الجماعات أو المجتمعات المحلية .

ويستخدم في نطاق دراسات الحالة أدوات
ومقاييس تتناول موضوعية الدراسة من الناحية
الكمية وذلك كـ بعض المقاييس السيكولوجية
المقننة وإجراء استـبـار interview مقنن أو شبه
مقنن أو تطبيق أسـواع من الاستـبـارات
questionnaires والاستـبـانات schedules .
وقد زُعم قرات علم الاجرام بأهمية كثيرة من
أسلوب دراسة الحالة كدراسات جلوك وهيل
وبروز وشو وماكاي وبولين يونج التي أوضحت
إمكانية تحقيق كشف شامل عن طريق دراسة
الحالات ، وكذلك الدراسات التي أجراها المركز

الشخصية

وقد تطور الأمر من دراسة الفرد كوحدة جزئية مستقلة إلى دراسة للشخصية أو نشاطها باعتبارها وحدة تعتمد في تكوينها على عوامل تكوينية للفرد ، وأخرى خارجية عنه ليس للفرد كفرد دخل في صنعها . وتتكامل مناهج البحث في نطاق العلوم البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية لتحديد أوصاف المجرمين تبعاً لأنماط شخصياتهم . ويحاول هذا الاتجاه التوفيق بين الاتجاه الفردي والاتجاه الاجتماعي من حيث أن دراسة الشخصية لا تقتصر على أبعاد فردية فقط بل تحتوي على أبعاد سيكولوجية واجتماعية . وتؤثر نوعية العلاقات والعمليات الاجتماعية التي تربط بين الشخصية والمجتمع وأنماطه السائدة في تكوين اتجاهات الشخصية التي تحدد العلاقة بين شخصية المجرم والقانون والأعراف السائدة والجماعات التي تتباين في درجة الانتماء لها .

كما ينبغي أن ننوه بأن الموقف الاجرامي بما يتضمنه من عناصر إيجابية وسلبية يمثل بعداها ما يؤثر في نوع استجابة الشخصية نحو العقل الاجرامي ، ويراعى عند دراسة الموقف الاجرامي ما يتضمنه من عنصر المجنى عليه والدور الذي يقوم به لإكمال عملية التفاعل بينه وبين المجرم والواقع، أن هذا البعد له أهميته البالغة عند دراسة نمط الشخصية كوحدة للدراسة ، إذ أن استجابة شخصية المجرم المحترف للموقف الاجرامي تختلف عن استجابة شخصية المجرم العادي وكذلك الحال بالنسبة لشخصية المجرم بالصدفة .

الجماعة وتحليلها البنائي والثقافي

يسود الاتجاه الآن نحو اعتبار الجماعة هي الوحدة الدراسية والتحليلية التي يمكن من طريقها التعرف على الجريمة كظاهرة كائنة بتأثير شخصية من تكوينها بناء الجماعة ووظائفها والمضمون الثقافي السائد فيها ، ويتم تحليل الجماعات ، كالأسرة وثلة الرفاق والعصابة والى أو القرية ، على هذه المنظور البنائي الوظيفي لكل جماعة دون عزلها عن المجتمع الذي يحتويها . كما لا يمكن استكمال تحليل الجماعة إلا بتحديد الوظائف التي تقوم بها ، سواء بالنسبة لأعضائها أو للجماعات الأخرى . وإذا طبقنا ذلك على الجماعات الانحرافية ، سواء كانت أسرة جانحة أو عصابة

أساليب الملاحقة المكننة ، فضلا عن صعوبة تكرار فرصة الاختلاط بنفس الجماعة الإجرامية بالنسبة لنفس الباحث أو باحث آخر . كما يلاقي الباحث مقاومة في استجابات المفحوصين عن ظروفهم الاجتماعية المبكرة ، وأيضا بالنسبة للعمليات والمواقف التي أدت بهم للتورط في الجرائم .

والواقع أنه بالرغم من هذه الصعوبات العملية والمنهجية فإن زيادة المعلومات التي يمكن التثبت منها بهذا الأسلوب تعمل على التقليل من المعلومات المضللة التي تتوصل إليها بأساليب أخرى .

وحدة الدراسة والتحليل

تباينت وجهات النظر في نطاق دراسة السلوك الاجرامي عن الوحدة التي ينبغي فحصها علميا كمدخل لدراسة هذا السلوك ، فبعض من آثاروا البدء بالفرد ، وآخرون لم يجدوا مناصا من اتخاذ الجماعة أو المجتمع وحده للدراسة والتحليل . ولكل خلفيته الفلسفية في تصور العلاقة بين الفرد والمجتمع .

الفرد

لقد تمخض عن الاتجاه الفردي مدارس في علم الاجرام تحلل الظاهرة الاجرامية بناء على حتمية ارتكاب - من يتصفون بسمات معينة - بيولوجية أو عقلية - أفعالا اجرامية لا مناص من القيام بها إلا في حالة توفر ظروف غير عادية تحول بين الفاعل والسلوك الاجرامي . والواقع أن هذه الاتجاهات المتشعبة للفرد كوحدة للدراسة اقتصر على تحديد الخصائص الفردية التي يتصف بها المجرمون عن غيرهم . وقد أخذ نجم هذه المدارس - البيولوجية أو النفسية والتطبيقية - في الأفول بعد القيام بدراسات تجريبية تدحض زعم المسلمة التي أسسوا عليها نظرياتهم ، وهي أن المجرمين يختلفون عن غيرهم المجرمين في سمات معينة في الشخصية تنشأ سببها ميولا غير عادية لارتكاب الجرائم في مواقف لا يرتكب فيها غيرهم هذه الجرائم (سيوزولاند ، كريس ١٩٦٠) كما لا يمكن إقامة علاقة عليية بين صفات الفرد وللفعل الاجرامي الذي يقوم به ، وقد أسهمت الدراسات العلمية بعد ذلك في اكتشاف أبعاد جديدة في الشخصية والمجتمع تلعب أدوارا فعالة في السلوك الاجرامي .

وأصاليب عرضنا لها لا يمكن أن تبلغ غايتها إلا إذا توجت بتفسير النتائج ،لتي حصلنا عليها . فإذا كان الباحث قد بدأ بنظريه معينة أو فرض علمي يفسر نمطا من السلوك الاجرامى تفسيرا مبدئيا ، فانه فى ضوء ذلك يحدد الهدف من الدراسة منتقيا الاساليب والادوات اللائقة لجمع لبيانات التي يصنفها ويحللها ، وأخيرا يحكم حلقة البحث بالجانب التفسيري لهذه النتائج عاندا بها الى الاطوار التصوري ، أى الى النظرية أو الفرض الذى بدأ به البحث (رايلي ، ١٩٦٣) مقررًا الاستنتاجات التي تثبت صحة الفرض أو تدحضه أو تعدل من النظرية التي بدأ بها .

ويستعد التفسير الى مناهج الاستدلال المنطقي بنوعية ، اذ لا يكتفى بالمنهج الاستقرائي فى استخلاص النتائج بل يعتمد - فى نسق تكاملي لضبط السياق المنطقي - على المنهج الاستنباطي ، مستقيا المسلمات والفروض من النزعة التجريبية المعتمدة على المنهج الاستقرائي ، مستخدما فضلا عن ذلك القضايا الرياضية والمعادلات والمعطيات الاحصائية كمنهج أو أسلوب لتحليل النتائج المستمدة من الواقع الاجتماعي ، ويجاد ما بين الواقع الاجتماعي والاجرامية من علاقات وارتباطات فى صورة رياضية ، مما قد يشير الى وجود علاقة سببية بين الظواهر الاجرامية والمتغيرات المختلفة المصاحبة لأنسائط السلوك الاجرامى .

وإذا كانت بعض النظريات تستخدم كقواعد لتفسير السلوك الاجرامى ، فيجب أن نوضح أن مبدأ التعميم لابد أن يطبق على جميع الحالات وفى جميع المجتمعات ، الا أننا نستخدم بشكل أو بآخر مبدأ تسمية التجريم طبقا لتباين المجتمعات ثقافيا وحضاريا ، ومن ثم لا نسعى فى المرحلة العلمية الراحنة الى التسرع فى عمليات التفسير لأنسائط السلوك الاجرامى ، بل ينبغي بذل المحاولات الجادة للقيام بالدراسات الاستطلاعية والوصفية لظواهر الجريمة بكافة أنواعها التقليدية والمستحدثة ، اذ أن ذلك يشكل بنار معرفيا تتم فيه محاولات أولية للتفسير تهيئ لعمليات تفسير حاسمة لأنسائط السلوك الاجرامى فى مختلف القطاعات والنماذج الاجتماعية .

صلاح عبد المتعال

أو حيا جانحسا . . فيمكن أن نعقد المقارنة بين وظائف هذه الجماعات وما حققه لأعضائها من استباعات وبين وظائف التنظيم الاجتماعي العام ومدى نجاحه فى تحقيق حاجات الاساسيه لأعضائه ، سواء كانت حاجات بيولوجيه و سيكولوجيه أو اجتماعيه . فقد يفشل التنظيم الاقتصادى فى اشباع حاجات فئات معينة من المجتمع أو تحقيق قدر متفق عليه من الرفاهية ، فتنشأ اثر ذلك جماعات وتنظيمات لعلاج هذا الفشل بأساليب مشروعة فى نفس الوقت الذى تتشكل فيه جماعات انحرافية أو عصابات تقوم بأفعال غير مشروعة كرد فعل لفشل هذا التنظيم فى اشباع حاجاتهم الاساسية .

كما تقودنا دراسة الجماعة الى ضرورة التعرف على الثقافة السائدة فيها ، سواء كانت ثقافة خاصة بها أو ثقافة عامة تنتمى اليها وتعيش فى اطرها . فلا يكفي تناول المظاهر الخارجية للسلوك الاجرامى ، بل يجب أن يمتد البحث الى ما وراء هذا السلوك من أفكار وتصورات وقيم ، سواء من ناحية مرتكب الفعل الاجرامى أو المشرع الذى يعرم هذا الفعل . فإذا تم تحريم أفعال لايعومها العرف والسنن الاجتماعية - كجريمة النار فى أغلب بقاع مصر - نجد أن عدم تطابق التصور الفكرى الكامن وراء الفعل الاجرامى مع تصور المشرع له يؤدي الى اتساع هوة التخلف بين القسانون أو الضبط الرسمى من جهة والضبط الاجتماعى غير الرسمى المتمثل فى العرف والسنن الاجتماعية من جهة اخرى .

ويجوز على هدى ذلك أن نفترض قيام علاقة فردية بين معدل الجرائم ودرجة التخلف بين نوعى الضبط الاجتماعى الرسمى وغير الرسمى ، فالمشومون الثقافى للجريمة والتجريم يمكن وصفه وتحليله باستخدام بعض الوسائل والادوات كالملاحظة واستبيان المجرمين وغير المجرمين وبعض الاستجابات والاستبيانات ومختلف المقاييس التى يمكن أن تبكر لثل هذا الفرض . وقد يؤدي بنا هذا المنهج الى تحديد وزن وخطورة أنماط من الفعل الاجرامى من وجهة النظر السيكولوجية ولثقافية ، وقد يؤدي الارتقاء فى تحليل هذه النتائج وتفسيرها الى مواكبة المشرع للواقع الاجتماعى المتغير .

فى مناهج تفسير النتائج

ان عملية البحث وما تتضمنه من مناهج

● المشكلة الأساسية التي يصادفها
النقد الأدبي - نظراً وضرراً - في
العصر الحديث ، هي أن أي تفسير
للنشاط نابعاً من نشاطات الإنسان
أصبح مكتوباً في صيغة نتائج أو
خطأ يمدى قريب أو بعيد عن
العلم أداة لهذا العصر .

بين النظرية والمنهج في النقد الأدبي

د. عبد الصمد سليم

الماضي فكرة (التطور) من نتائج العلوم البيولوجية والطبيعية ، وحاول تطبيقها على التقاليد والأجناس الأدبية وعلى التاريخ الأدبي . أما علوم الإنسان والمجتمع فقد امتدت النقد بمعظم فروضه الفكرية والمنهجية الحديثة ، ابتداء من حقائقي عن الحلم والاشعور الفردي والجمعي وطبيعة السلوك السوي والمرضي ، ومروراً بالشميرة والمعتقد والاسطورة وطبيعة المجتمع الساسي ، و انتهائاً بمفاهيم الصراع والتغير في الثقافة والمجتمع . كما استمد النقد - منهجياً - من التقسيم العلمي انضباطاً في التحقيق والاستقصاء وأحياناً في الاستقراء والتجريب .

الوحدة والانفصال :

ولكن ذلك كله يعد (اقتراباً) من العلم ، وليس علماً بذاته . بمعنى أن النقد يرسب حصيلة المعرفة التي تنتهي إليها العلوم فيستخلص لنفسه من نتائجها ما يمين في تفسير مادته وهي النشاط الأدبي ، وقد يستلهم الخطوات المنهجية لبعض تلك العلوم ، ولكنه هو نفسه لم يصبح (علماً للأدب ،

تتوجه النظرية النقدية إلى تفسير النشاط الأدبي : من حيث ماهيته الفارقة المميزة له عما سواه من نشاطات الإنسان ، ومن حيث مهمته بالنسبة لصاحبه الفنان وبالنسبة لآثاره في المتلقي فرداً وجماعة ، ومن حيث طبيعة أدائه التي يصطنعها لتوصيل آثاره وتحقيق مهمته . والمنهج هي وسائل علماء الجمال والنقد النظرين للوصول إلى نتائج منظمة في هذا التفسير وهي طرائق النقد العلميين في تعاملهم مع النصوص . والمشكلة الأساسية التي يصادفها النقد الأدبي - نظراً ومنهجاً - في العصر الحديث هي أن أي تفسير للنشاط ما من نشاطات الإنسان أصبح محكوماً في صيغة نتائجه أو خطأ يمدى قريبه أو بعده عن (العلم) أداة هذا العصر . ولكي تحقق النظرية النقدية لتفسيرها للنشاط الأدبي قدراً من العلمية ، فإنها اقتربت بقوة من تقدم كافة العلوم في مناهجها ونتائجها ، وأصبحت مثقلة بكم هائل من حصيلة المعرفة ، وتعددت اتجاهاتها بصورة تكاد تعجز مؤرخها المتتبع لمركبتها . لقد استلهم النقد في القرن

له منهجه الخاص واستقلاله . وانفصال ضرب معرفي معين بمنهج خاص قائم على طبيعة المادة التي يتناولها بالتفسير والدرس ، ولا يتناقى مع وحدة المعرفة البشرية ، ولا مع المنهج العلمي في حقائقه العامة ، بل ان ذلك الانفصال ضروري لتحقيق هذه الوحدة ، اذا نهض على وعى بان (نوعية) نشاط ما لا يتناقض مع (كليسة) النشاط الانساني عامة . وفي الحقيقة ان قضية (الانفصال والوحدة) في العلم الحديث عامة تثير ملاحظتين أراهما ضرورتين فيما نحن بصدده من الوقوف على الجهد المعاصر في النظرية النقدية:

بدا انطلاقه -حوالي منتصف القرن الماضي- في ظل ظروف اجتماعية وفكرية وحضارية محددة . كانت البرجوازية الأوربية قد بدأت تفقد دورها الثوري بينما برزت القوة الاجتماعية الثورية الجديدة في أفق العمل الاجتماعي . وكان هيجل قد صاغ أعظم الأنساق المثالية تعبيرا عن تقدم البرجوازية ودورها . بينما صاغ ماركس تفسيره المادي تعبيرا عن أفول تلك البرجوازية وصعود القوة الثورية الجديدة ، فوضع بذلك منهج هدم وبناء في آن . نضى المنهج الجديد - في الطبيعة - التصور الميكانيكي ونفى - في المجتمع - الجبر والعشوائية . ارسى



ت. س. بيوت



ل. أ. ريتشاردز

الملاحظة الأولى عن الانفصال : ففي حوالي منتصف القرن الماضي ، كانت العلوم الطبيعية قد حققت تقدما ملموسا ، وأصبح انضباطها المنهجية مثلا أعلى حاولت العلوم الاجتماعية أن تحتذيه . وكانت هذه العلوم الأخيرة لازالت في اطار التأملات الفلسفية التي كانت تضعها الأنساق الفلسفية التقليدية ، ثم بدأت علما بعد آخر ، حركة (انفصالها الكبير) عن النظر التأمل ، بعد أن أخذ كل علم يحدد موضوعه الخاص ، ويحاول اكتشاف المنهج الملائم لطبيعة هذا الموضوع ولقوانينه النوعية وقد أحرزت بعض هذه العلوم تقدما كبيرا ، بينما لا يزال بعضها الآخر يتغير ، ولكنها جميعا تتطور تكنيكيا بصورة لا شك في جدواها العميق لقضية العلم عموما : فمن استخدام للتجريب الى القياس الى الاحصاء . ومن التصميم الدقيق للتجربة ، الى الضبط للمقياس ، الى العمل والآلة الالكترونية والجهاز ، الى الدراسة والتجربة الميدانية . . إلخ . ولكن هذا الاستقلال والتميز في العلوم الاجتماعية

المنهج الجديد دوائم تصور شامل للعالم ، كما ارسى مفهوما خلاقا للمبادأة التاريخية . وليس هذا المنهج نمطا صلبا ولا نظرية نهائية ، بل هو منهج دائم التغير ، بدوام تغير الواقع الذي ينطلق منه ، انه قابل للتطوير والاعتناء على ضوء التقدم العلمي والخبرة البشرية . ولتسد كثر الرواد الأوائل على وعى بصيرم بحقيقة منهجهم : فبذل انجزل جهدا - في (جدل الطبيعة) - لتطوير المادية الجدلية على ضوء تقديم العلوم الطبيعية في عصره ، وواصل ليثين نفس الجهد . ولكن مثل هذه الجهود الحلاقة لم تتواصل ، وساد جمود عقيدى - حوالى ثلث قرن ، المرحلة الستالينية - حميد المادية الجدلية فلم تستوعب العلوم الاجتماعية في تقديمها وتناقلها . ويعنيان فيما نحن بصدده ان المادية التاريخية ، - وهي منهج التحليل التاريخي ومعرفة القوانين الاجتماعية هي السند النظري الطبيعي لكل العلوم الاجتماعية ولكن الجمود العقيدى الذي اشرت

الحركتين وإنما يعينين أنهما أثبتتا وحدة الخبرة الانسانية ، ووحدة المعرفة والنظرية العلمية ، وأكدت المبادئ الأساسية للمنهج الجدلي . لقد عادت الوحدة مرة أخرى ، ولكنها كانت قدسيا تأملية تجريدية ، عندما كانت الفلسفة (كما لكل العلوم ، أما وحدتها الجديدة فهي علمية لأنها مؤسسة على انضباط نظري ومنهجي دقيق . وسيبقى لكل علم ميدانه النوعي ومنهجه ، ولكن في إطار من الوعي بكلية الخبرة وشمولها . ونخص بالحديث الدراسات والعلوم الاجتماعية ، فنرى أنه يمكن التناول بالتقويم كل تفسير لنشاط إنساني ما في ضوء من الفكرة السابقة (الانفصال والوحدة : نوعية المادة المدروسة) وكلية الخبرة والمعرفة الإنسانية) . وفي النظرية التقدمية الحديثة شواهد دالة :

النظرية النقدية الحديثة

إذا كان أول القرن التاسع عشر قد شهد نضج البرجوازية الأوروبية وغاية صعودها وتقدمها، فقد شهدت نهايته (أزمته) التي تمتد حتى الآن . وانتهى في مجال الفن عصر الأعمال الغالبة لرواد الرومانسية الثورية وبدأ عصر الاتجاهات الحديثة والمعاصرة المعبرة عن (أزمة) الإنسان القريب . والوعي بالأساس الاجتماعي العميق لهذه الاستقالة، يفضي إلى تفهم النتائج العلمي والفكري والفني لظهور الأزمة في حياة المجتمعات الغربية ، أما البعده العقيدى ، فقد أفضى - حتى سنوات قريبة - إلى رفض لكثير من هذا التساج ، وضاع في منطقة الظل كثير منه - مثله الفنان العظيم فرايزر كافكا - حتى عادت للفكر الجليل حيويته فكشف عن هذا النتاج ، ووضع موضعه من الملامسات والعلاقات الاجتماعية بانفتاح واع .

وسنجد لفظ (الأزمة) شائعة بصورة واضحة في النظرية النقدية ، في صورة جزم من الحاضر وترديه ، والهرب منه بالدعوة الملحة إلى الماضي ، إلى (التوازن) المراسى المعروف . ولذا فإن الخلق التقليدى ، والتعاليم الكنسية : من جون كيبيل Keble في منتصف القرن الماضي وهو داعية العودة إلى الكنيسة ، مروراً ببول المرمود More الذى سماه شيمت (بوذا) إلى معاصرا ألبرت إليوت Eliot وكره الكلاسيكى المعروف . لقد خاب أمل المفكرين في (الفردية) وشكوا في إمكانات الإنسان . وسدد أوتفنج بابت في كتابه (روسو والرومانسية سنة ١٩١٩ أقوى الهجمات إلى التفاؤل الرومانسى، ودعا النقاد إلى فن (موضوعي) يتجاوز أوامم الرومانسيين وعاطفيتهن وإلى نقد (علمي) مؤسس

إليه لم يطور المادة التاريخية لتكون منهجاً شاملاً لتقدم العلوم الاجتماعية ، وغايتها من أداء هذا الدور جعل هذه العلوم تتطور في مداراتها الخاصة ، حول موضوعاتها النوعية الجزئية ، وتصل إلى تقدم كبير ، ولكن دون إطار نظري شامل يعنى (كلية) الخبرة الإنسانية ووحدة المعرفة .

والملاحظة الثانية عن الوحدة . وفي منتصف

هذا القرن الحالي - أى بعد قرن من بداية نضج العلوم الاجتماعية واستقلالها بمنهجها ، وصياغة التفسير المادى في الطبيعة والمجتمع - بدأت حركة أخذت تقوى في العشرين سنة الماضية للوعي بوحدة المعرفة الإنسانية . فعل ضوء حركة التحرر من الاستعمار ، وإيمان مئات الملايين من البشر بالاشتراكية العلمية سلاح بناء ومنهج نظر ، وعلى ضوء التقدم الذى أحرزته العلوم الطبيعية والاجتماعية ، أقول على ضوء هذا كله عاد المنهج الماركسى - بعد انهيار الجمود العقيدى - إلى حيويته وإلى قدرته على استيعاب كل جديد . وبذلك جهود لآراء المنهج بالمعرفة الجديدة ، وتطورت بخاصة الدراسات العميقة المتصلة بطبيعة العلاقة بين الأبنية العنقية والأساس الاقتصادى الاجتماعى . ويتم هذا التطوير بالانفتاح على نتائج العلوم كافة وبخاصة على النتائج النظرية والمنهجية لمركبتين علميتين أخذتا في البروز والنضج في العشرين سنة الأخيرة ، وسيكون لهما أكبر الآثار في مستقبل العلم عموماً . والحركة الأولى هي ، السيبرنيكس cybernetics التي أسسها عالم الرياضيات نوربرت فينر wiener وأثمرت نظرياً وتطبيقياً في كافة المجالات نتائج بعيدة الأثر . وتقوم هذه الحركة على الالتقاء والمساواة في عمليات التحكم في الآلة والكائن الحي ، وهي بهذا تفتح أعرض الأفاق ، لتقوم الآلة بمهام (عقلية) دقيقة ، وبمهام (بشرية) تحتل الزمن ، وتحقق الإنسان وهو سيدها - السيطرة على واقعهم . وأما الحركة الثانية وهي البنائية structuralism ، فتقوم على درس (بنية أو بنيان) الشيء ، ابتداء من أبسط الأشياء إلى أكثر الظواهر تعقيداً ، باعتبار أن (العلاقة) أساس في كل بنية . وخرجت إلى الناس دراسات بنيانية دقيقة في ميادين متعددة : من علم اللغة إلى علم الاقتصاد ، إلى الجمال ، إلى الأعمال الفنية ، إلى علم النفس ... الخ . وانتهت إلى نتائج هامة ، وصاغت أساساً نظرية على أساسها (سيق العلاقة على الأفراد ، وصيق الكل على أجزائه) . ولست هنا بحديث أفيض في الأساس النظرية والنتائج العلمية والعملية لهاذين

على تقدم العلوم وبخاصة الدراسات الانثروبولوجية والنفسية . ولكن حرب هؤلاء من الفردية لم ينتجهم من الف في مدارها المقل ، فلم تصل أنظارهم الى أنه لا يمكن دراسة الانسان خارج علاقاته الاجتماعية ، ولهذا جاءت نظرياتهم وحيدة الجانب وجأت مناهجهم جزئية . ولعل اثر هؤلاء النقاد تمثيلا للفكر النقدي وتأثيرا في حركته هو الناقد الكبير **ريتشاردز** Richards .

كان المبحث الاساسي في نظرية الادب عند انرومانسين يدور حول الشاع وعمله ، أما المبحث الاساسي عند ريتشاردز فيدور حول المتلقى ونذوقه . وهو ان درسي عملية الخلق عند الشاعر وطبيعة القصيدة وتصنيفها ، وان استعان بعلموم النفس والأعصاب واللغة ، فلكي يخدم غرضه من بيان كيفية عملية (التوصيل والنقل) وأثار قراءة القصيدة نفسيا وسلوكيا عند القارئ . ويبدو هذا الغرض بصورة واضحة متواصلة في كل كتبه . فاول كتاب صدر له - بالاشتراك مع عالم النفس **أوجدن** Ogden - كان (**أسس علم الجمال سنة ١٩٢٢**) ، يرس فيه مبادئ النظرى الذى ظل يؤكده في جهده النقدي كله وهو ان الجمال ليس كامنا متحققا في القصيدة ذاتها ، انما هو (حالة) عند القارئ ، ثم ينتهي الى المبدأ الآخر المترتب على ذلك الاساس ، وهو ان التوصيل الجيد هو ما أدى الى توازن الفعل لدى القارئ . ومعلوم من تاريخ النظرية النقدية ان درس (الجمهور) قديم ، منذ اشارات افلاطون الى دور الشعر - ونحن عمسوما - في تمويه الحقيقة وتزييف العواطف ، ومنذ اشارات أرسطو الى دوره في تطهير العواطف . ولكن الجديد عند ريتشاردز أنه يرفض التأمل ، ويعتمد بالتجريب وبتناجى العلوم ليهي مناخا منضبطا للقراءة الشعرية ورصد الظروف المؤدية الى قراءة سليمة جيدة ، والملازمات المؤدية الى قراءة خاطئة رديئة . ثم من دراسة نجاح التوصيل أو عدم نجاحه على قصائد محددة وجمهور محدد ، يمكن الانتهاء الى الآثار الوظيفية للشعر لدى القارئ . ولكي يعمق ريتشاردز طبيعة التوصيل أفرد لها كتابه العظيم - بالاشتراك مع أوجدن أيضا - (**معنى المعنى سنة ١٩٢٣**) ، وفيه يضع أصول نظرية أثرت تأثيرا كبيرا في تطور علم الدلالة Semantics ، فدرس طبيعة (المعنى) ، والرمز ، وكيفية التوصيل اللغوي ، والفرق في الاستخدام اللغوي ، بين استخدام الشعر للألفاظ واستخدام العلم لها . وكانت الأصول النظرية في هذين الكتابين مقدمات صالحة ، انطلق منها

وتشازدز الى التعامل مع الفن الشعري نفسه ، فأخرج سنة ١٩٢٤م كتابه الاصيل في النظرية النقدية (**هيداي ، النقد الأدبي**) ، ليعيد توحيد ما أرساه من طبيعة التجربة ، الجمالية والتوصيل وآثاره . . . الخ ، وسنة ١٩٢٦ كتابه (**الفلم والتشعر**) يطبق نظريته في وظيفة اللغة وتباين استخدامهما بين العلم والشعر ، وليحدد للتشعر مكانه ومكانته في مستقبل ، يبدو للنظرية القريبة ان سيهيمن عليه العلم التجريبي ، وسنة ١٩٢٩ كتابه (**النقد التطبيقي**) الذى يسدى فوائد جلية في كيفية القراءة الجادة للشعر ، وفي الاقتراب المخلص من الاجادة ، وفي درس الجمهور المتلقى فردا وجماعة .

وسيف مؤرخ النظرية النقدية طويلا عند جهده ريتشاردز ، فهو محاولة جادة لاستخدام العلم ، ولإزالة كثير من القموض والابهام عن ماهية الشعر ووظيفته . لقد بدأ (**هيداي**) بتقويم لوجهات النظر النقدية المطروحة في عصره ، ولاحتظ عليها التشويش والاضطراب ، وسدد هجماته الى ندخل الفردية والذاتية في الحكم الجمالي والقيمي عموما . **وهل ان قيمه الاعمال الفنية والادبية تضعه اذا ما ضللت المعايير النقدية فوفقت عند الانفصال والهوى الذاتي** . انمسا ينفي **التوجه** - التجريبي بقدر الإمكان وبكل ما تتيحه الوسائل العلمية - الى عمليتي الخلق والتذوق ، الى الوصف العيني لكيفية عمل الشاعر ، والتأكيد على ضرورة هذه الصلة بين القارئ والعمل الفني ، والكشف عن حقيقة هذه الصلة وآثارها . ونفى ريتشاردز بقوة الأوهام المحيطة بالتجربة الجمالية ورأى ان طبيعة هذه التجربة لا تختلف عن طبيعة غيرها من التجارب الانسانية ، ولا وسيلة درسها تختلف عن وسائل الدراسة الأخرى ، فان الشاعر - بحسب قوله - يحسن ما يحسنه كل انسان . ان التجربة الشعرية ، تجربة انسانية ، يتلقاها أناس تؤثر فيهم ، ولذلك فان بالإمكان تحليلها ودراستها لمن يمكنه تحليل السلوك الانساني ودراسته ، ومن هنا فان المنهج القسودى الملائم لتحليل هذه التجربة ودراستها هو المنهج النفسى ، الذى نستطيع بواسطته الكشف عن طبيعة تلك التجربة وآثارها ، بالكشف عن العمليات النفسية للحظتي الخلق والتذوق ، عند الشاعر والقارئ . ان التجربة الجمالية ليست شيئا مختلفا عن تجاربنا العادية ، ولكنها تسمية لهذه التجارب وتنظيم لها ، ولذلك تبدو التجربة الجمالية أكثر دقة ونظاما من التجربة العادية ، ولكنها ليست شيئا مغايرا لها . الاختلاف ليس



أراجون



ف . كافكا

في طبيعة التجربة ، وإنما في (بساطة) التجربة العادية ، و (وتمتد) التجربة الجمالية ، ثم في (طريقة) نقل التجربة ، فإذا نجح هذا النقل اكتسبت التجربة الجمالية وخصتها وكتبتها . فإذا كان رتشاردز يعتمد بعلم النفس ، أداة للوصول إلى مفهوم القصيدة ، وفهم لطبيعة التوصيل - مستعينا بتصوره للغة ووظائفها - فإن تناوله (للأثر) يفرض به ضرورة إلى الأخلاق ، ولذلك فإنه يضع (سيكولوجية أخلاقية) تساعد في صياغة نظرية في القيم ، وقيمة الشيء تتحدد في منظوره السيكولوجي بآثره . قيمة الفعل في مقدار ما يحققه من رغبة ، وتعلو قيمته كلما تعددت الرغبات التي يحققها وكثرت . وكلما قلت في نفس الوقت الإحباطات التي يسببها . وأعظم الآثار قيمة - في هذه السيكولوجية الأخلاقية - ما حقق التوازن بين الانفعالات والنزعات . وجهة نظر تشاردز هذه في القيمة تعينه في التفرقة بين 'الشعر والعلم' ، فالشعر يهدف إلى تحقيق التوازن النفسي لقارئه ، وهنا قيمته التي ينهض بها بطريقة استخدامه للغة التي تختلف عند رتشاردز اختلافا أصيلا عن استخدام العلم لها . فالشعر لا (ينبئ) بالحقيقة حرفيا ، إنما يبعث حالات نفسية تقضي إلى توازن في الجهاز العصبي للقارئ ، يقول رتشاردز : « الشعر إذن يخالف العلم من جهة

استخدامه للألفاظ . حقيقة أننا نجد في القصيدة أفكارا محددة ولكن التجديد هنا لا يرجع إلى أن الشاعر يختار الألفاظ اختيارا منطقيا كما يفعل العالم قاصدا معنى واحدا حاجبا أي شبهة في إمكان قصد أي معنى آخر ، وإنما هو العكس . فبسبب تحديد الأفكار في الشعر هو أن الوسيلة التي يطرقها الشاعر ، نفحات صوته والإيقاع الشعري ، كل هذه تؤثر في نزعاتنا وتجعلها تصطفى الأفكار المعينة التي تحتاج إليها من بين ذلك العدد المائج المبهم من المعاني الممكنة والأفكار التي يجوز أن يذهب إليها المعنى ، وهذا هو ما يمكن أن يفسر لنا السبب في أن الأوصاف الشعرية تبدو أدق من الأوصاف النثرية غالبا . فاللغة إذا استعملت استعمالا منطقيا علميا تعجز عن أن تصف منظرا طبيعيا أو وجها إنسانيا . إنها لكي تؤدي هذا تحتاج إلى جهاز هائل من الأسماء والألفاظ التي تدل على الظلال والفروق الدقيقة التي تصف الصفات الفردية الخاصة . ولا تحوى اللغة مثل هذه الأسماء ولا تلك الألفاظ ، لذلك وجب استخدام وسائل أخرى . أما الشاعر حتى عندنا يكتب نثرا - كما يفعل (داسكن) - لا (دكونسي) - فهو يتيح للقارئ أن يصطفي المعنى الدقيق الخاص المطلوب من بين عدد غير محدود من المعاني الممكنة التي تحويها لفظة



جاردنى

أصله النظرى من (مذهب المتعة) عند التجريبيين الانجليز ، ومن ينتام على وجه الخصوص • ريتشاردز نفسه هو الذى دلنا على هذين الأصلين لتفكيره • غير أن عمل كولردج فى نظرية الادب وعمل ينتام فى نظرية الاخلاق كانا صياغة متقدمة للمثل العليا انتى كانت البرجوازية الالبرية تسعى الى تأصيلها فى مذهبها التقدمي ، حيث كان الاعلاء من شأن الفرد والفسودية فى الفن ، والذاتية بمفهومها القريب فى الاخلاق ، قيمة تاريخية • وكان هيجل الذى عاصر كولردج وينتام (توفى قبل ينتام بسنة ، وقبل كولردج بثلاث) ، تعبيرا فلسفيا رفيعا عن نهاية المثاليات البرجوازية فى طورها المتقدم • وجاءت التطورات الاجتماعية منذ الثلث الثانى من القرن الماضى لتنتقل البرجوازية موضوعيا الى المحافظة ، وجانبت فى هذه المرحلة من تطورها منهج الجدول المادى ، فوقعت فى اللادورية ، والحدسية ، والوضعية ••• الخ • وغابت عن رؤاها وحدة الخبرة ووحدة المعرفة •

ويمثل جهد ريتشاردز - بعد مئة سنة - جانبا من هذه الازمة ، فهو يعتمد فى الفن الشعري بلحظة التلقى ، وهذا جانب خصب جذير بالدراسة ولا يزال حتى الآن طالبا لها ، ولكنه يعامل المتلقى بعيدا عن علاقاته الاجتماعية المفسرة لتلك اللحظة بل لسلوكه عامة • انه يفتت الخبرة الجمالية ، ويعزلها ، ثم يفسر الكل بالجزء • وينسحب هذا الأمر نفسه - (تفسير الكل بالجزء) - على نظريته النفسية فى القيمة ، فهو حتى لو ربط - اخلاقيات بين الفرد والجماعة ، وحتى لو أشار الى مهمة ما للفن بالنسبة للجماعة ، فانما ينطلق من نقطة البدء بالفرد لبناء المجتمع • هذا من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة المنهجية ، فان منهجه النفسى ، اذا قيس بالتقدم الكبير الذى احرزه علم النفس المعاصر يصبح بدئيا أوليا ، فقد نشط ريتشاردز فى العشرينات من هذا القرن ، فى وقت كان علم النفس لا يزال بين البحث الافتراضى والمنهج التجريبي والتأمل الفلسفى ، الى جانب أن ريتشاردز نفسه لم يكن بحال عالم نفس ، ولذلك فان معظم استنتاجاته قائم على تجريب (يسقط) أو على افتراضات تأملية لم يؤيدها تجريب ما ، ولهذا فان نتائجها فى (الوصف) النفسى للحظتى الابداع والتذوق ، تجاوزها البحث المعاصر بمراحل بعيدة •

ماذا يبقى من جهد ريتشاردز اذا ؟

تبقى منه أمور جلية ، أهمها انه وجه النظر بعق الى (النص) بصورة تشبه التقديس ، وعامله

او عبارة او جملة ما • والوسائل التى يسلكها الشاعر لتحقيق هذه الغاية عديدة متنوعة ولقد سبق ذكر بعضها ولكن الطريقة التى يستعمل الشاعر بها الالفاظ هى سر الشاعر نفسه ولا يستطيع تعلمها • فالشاعر يستطيع أن كيف تتم هذه العملية •••

يستعمل الالفاظ استعمالا ناجحا ولكنه لا يدوى (العلم والشعر ، الترجمة العربية ص ٣١) •

ولم يبدأ عمل ريتشاردز من فراغ ، نأسس على تراث كولردج ، امام نقاد الرومانسية ، وان كان كولردج قد وجه معظم جهده الى كيفية عمل الشاعر ، بينما وجه ريتشاردز معظم جهده الى كيفية تذوق القارئ ، أى أن الأول دز مبحثه حول (ماهية) الشعر ، بينما دار مبحث الثانى حول (مهمة) الشعر • ومن الطبيعى أن من يذهب مذهبا فى أى من المبحثين انما يعرض للمبحث الثانى ضرورة ، ولكن كان هذا هو الفألب على نشاط الناقدين • لقد استلهم ريتشاردز من عمل رائدته تمييزه للتعبير الشعري عما سواه من ضروب التعبير الغوى الأخرى وتفريقه بين (القصيدة) و (الشعر) ، وبيانه لكيفية عمل الخيال ، وإثارة الشعر للنشاط فى النفس ••• الخ • وما ذهب اليه ريتشاردز من مذهب فى (القيمة) ، انما يستمد

بصورة نهائية قاطعة • إذ أن معرفة الواقع تاريخية موقوتة ، ترتبط بمدى علمنا وفهمنا له .
 انما تصصور الواقع تصورا (تقريرا) مبنيا على علوم عصرنا ومعارفه وتقدمه التكنيكي ، ويقوم هذا التصور التاريخي على فرض الفصيل في سلامته التثبت التجريبي ، والممارسة التطبيقية .
 وهذا التصور يقوم به البشر ، مما يشير الى ما يسميه رواد المادة التاريخية (الحظة الفاعلة) في المعرفة ، والى ما أرسوه من مفهوم للمبادرة التاريخية • فليست المعرفة (انعكاسا) تسجيليا حرفيا ، او إعادة مكررة للشيء المعكوس ، بل هناك الى جانب الانعكاس ، حركة الانسان العارف ، وهي حركة تتوجه الى الاشياء المدركة بوضع فروض متخيلة لادراكها ، وتستخدم هذه الفروض تيمتها في ضوء من التجربة والتطبيق • المعرفة المادة اذا تنطوى على طبيعة انعكاسية ، في ذات الوقت الذي ترتبط فيه بالفعل الانساني ، باللمحة الفاعلة •

وقية هذه النظرة انها تعامل الواقع بأبعاده الثرية ، وتفتي عنه السكونية والثبات ، وتحرره من الجمود والسرمدية ، وتصوره في صيرورة وتغير دائيين ، وتجعل للذات (فعالية) ازاء الموضوع ، فلا تضعي بها في سبيل الوصول الى قوانين نهائية • والواقع اذا بغير حدود ، شبكة معقدة من علاقات الانسان بالعالم ، متشابكة ، متداخلة ، متفاعلة • ونحن قادرون على معرفته ، ولكن هذه المعرفة محدودة بما وصلنا اليه من خبرة اجتماعية وتقدم علمي وتكنيكي • وتغيره دائم ، ولذلك فصورته لدينا متغيرة ايضا • وهو ليس محدودا بما انجز بل انه لينطوى على تشوف الى ما ينبغي انجازه •

يترتب على هذا التصور للواقع ، نتائج في مفهوم الفن ؟

يترتب على تأكيد فعالية الذات ازاء الموضوع ، أن الواقع يتبدى في الفن بصورة خاصة : للواقع حقيقته الموضوعية ، ولهذه الحقيقة وقع في نفوسنا ، وصدى في ذواتنا الانسانية ، ومفهوم في اذهاننا • تنعكس صورة الواقع الموضوعي على الذات ، ولكن لهذه الذات رؤاها وأحلامها وموقفها فتفتقر الصورة لديها وتكتسب شكلا خاصا • فالن انعكاس ، ولكنه ليس انعكاسا سلبيا ، بل هو استبصار في التعرف على الواقع ، وأداة للم شعنه ، وسلاح لتغيره • فاذا غامت رؤية الفنان للحقيقة الموضوعية فقد عمله موضوعيته ، واذا غابت الذات فقد عمله فنيته وإن الواقعي الذي

معاملة جادة بعيدة عن الشرثرة والتعميمات ، وقراءاته الممتعة الرصينة لكتابات وأشعار درلين وفورستر وغيرهما ذخيرة حقيقية للكتاب والقراء والدارسين • وابقى من ذلك إيمانه بنوعية النشاط الأدبي وجدارة دراسته بأن تكون علما ، فان تكن استعانت بعلوم النفس والأعصاب قد نجوزت ، فان جهده اللغوي ومشاركته العميقة في نشأة علم الدلالة - رغم أنه لم يراع في الدلالة سياقها التاريخي ومضمونها الاجتماعي - عنصر ضروري في الجهود المتوجهة لتأسيس (علم) مفسر للنشاط الأدبي • سيبقي جهده وتشاؤم في تاريخ النظرية النقدية اقصى تمثيل لاقترب الدراسة النقدية بقوة نحو العلم ، في عصر انفصال العلوم والدوران حول النشاطات النوعية للانسان دون نظر الى هذا الانسان ونتاجه في ضوء من علاقاته الاجتماعية المفسرة •

الفن في السياق الاجتماعي

فماذا عن وحدة الخبرة البشرية ، ومكان الفن في سياق العمل الاجتماعي ؟

الفن ثمرة للواقع ، والواقع من صنع الانسان ، لثمرة لعمله الاجتماعي • فالن اذا متحولة عن العمل ، ولأن العمل الانساني (اجتماعي) بطبيعته ، فالن ذو طبيعة اجتماعية كذلك • ولكن الأمر ليس على هيئة النحو من التسييط ، فكم أثر التقريب (والتسطيح) بنفسيا التفكير الجمالي والابلاغ الفني ، بصورة ليست بعيدة عن أذهان المعنيين بهذا الميدان • ولقد وضعت المادية التاريخية الأصول الفلسفية لهذه القضايا ، ولأن هذه المادية منهج متفتح على كل جديد مؤثر في التطور البشري ، ولأنها منهج متقبل للأثر ، فان جهودا مصاصرة - مستهدية بتلك الأصول الفلسفية - تسعى الى تطوير المنهج في ضوء من التقدم العلمي والاجتماعي والفني للانسان المعاصر ، ووصلت بعض هذه الجهود الى صياغات طيبة في طبيعة الأبنية النوعية • وفي نوعية بعض صور الوعي وخصوصيتها •

ما الواقع ؟ وما المجتمع ؟

يحرر النظر الجدلي المفاهيم من الصورية والميكانيكية ، فيتحرر مفهوم الواقع من الجزئية ، ويتحرر مفهوم الانسان من الفردية ، ويتحرر مفهوم الخبرة من التفتيت ، ويتحرر مفهوم الفن من (الرواية) والمباشرة ، وتعود للمعرفة كليتها . يمكن (معرفة) الواقع ، ولكن لا يمكن (تعبيره)

ذاته الفردية الضيقة بذات جماعته الرحبة ، والخلق الفني أداة صاحبه في تحقيق هذا الوجود . ولكن المجتمع - أي مجتمع - في كل مرحلة من تطوره يبور الصراع والتناقض اللذين تنعكس حركتهما في سلوك الفنانين ، والناس بعامة ، وفي مواقفهم . والعمل الفني يحل موقف صاحبه ويظهر عن وجهة نظره ، ويحدد مكانه من قضايا عصره ، ومن صراعات مجتمعه وتناقضاته . ويصبح السؤال الدارج : هل يلتزم الفنان أو لا يلتزم ؟ ساذجا ، لأنه بالضرورة ملتزم ، إلا يفصح عمله عن موقف سواء بوعي منه أو بغير وعي ؟ . وتصبح المصيبة السليمة للسؤال هي : بماذا يلتزم ؟ . يلتزم بموقف القوى الصاعدة والعلاقات الاجتماعية الجديدة ، أم تعجز رؤيته فتقف عند القوى المنهارة والعلاقات القديمة ؟ . والذي يحدد قدر العلاقات وجديتها مرحلة التطور التي يمر بها المجتمع . وفي مرحلة التحول ! الاشتراكية يصبح الالتزام بموقف القوى الثورية الجديدة والعلاقات الاشتراكية ، تحقيقا للوجود الاجتماعي للفنان ، وتجريها له من هيكل الفردية ، يتناول هذا التصور الخبرة في شمولها ، والمعرفة في وحدتها ، والانسنان في علاقاته الاجتماعية المفسرة لسلوكه ونشاطه . ولكن تظل هناك مشكلات جمالية دقيقة تدور حولها حوار واسع في الفكر المعاصر ! خصوصية الفن - كجزء من البناء الفرقي وخصوصية من صور الوعي - وقوانين تطوره الذاتي واستقلاله النسبي، البحث في أداة كل فن وتجليه الخاصة، مفهوم الواقعية الاشتراكية نظريا ومنهجيا وضرورة الموقف النقدي ، والانفتاح على كافة الأساليب والأشكال من التجارب الموروثة والمعاصرة..... الخ . ويتناول هذه المباحث وأمثالها مفكرون كبار يسمون إلى تخلص النظرية الفنية والمناهج النقدية من الجمود والضيق ، وهذا الاتجاه يدعو إلى (الواقعية المنفتحة) ، بينما يدنو لوكاش كل واقعية صادرة عن الحكومة) ، وينادي جاجونى ب (واقعية بلا حدود) . إنما حسينا من التصور السابق أنه أفاد فيما أردنا تناوله هنا من أن النظريات وأحدية الجانب لا يصدر عنها إلا مناهج جزئية ، وأن النظرية العلمية تقسم المجال واسمعا أمام منهج أكثر دقة والبساطة . وإذا كان البحث الجمالي لم يصل إلى غايته من الحسم والتقدير الموضوعي، فإن المؤتمن بالعلم ، المتفائلين بمستقبله سيقبلون على يقين بأن تقدم البشرية علميا وتكنولوجيا لن يدع مجالاً في خبرة الإنسان دون تفسير .

عبد النعم تليمة

يتبدى في الفن ، ليس سلكنا جامدا ، بل هو حركة دائبة النمو والتطور ، متعددة الجوانب ، مواءمة بعلاقات ، قانونها الأساسي صراع وتضاد . فإذا بدت حركة هذا الواقع للنظر القريبة واقفة ساكنة ، مبددة ، فانها تبدو في الفن مدمومة مكثفة . إن الواقع يبدو في الفن أكثر غنى من حقيقته الواقعة ، لأن الفن لا يقف عند الواقع في معطياته الخارجية المباشرة ، إنما يتخطى هذه المعطيات إلى إدراك جديد لها ، فيبدو الواقع في صورة جديدة له : صورته الفنية . وهذه الصورة الفنية أكثر كسلا من (أصلها) لأنها تلم ما بدا مبشرا من عناصره ، وتوضح ما بدا غامضا من مفزاه . إن الفن وإن كان مصدره الواقع المائل، إلا أنه يتجاوز إلى اكمال ما يشوبه من نقص ، وإلى ما يرضى به من جديد . وبذا يتحرر مفهوم الواقع من (المثل) ومن المباشرة الواقعة عند حد المرئي والملبوس ، فينتظم الشوق إلى الاكتمال ، والحلم بما لم يقع ، واستشراف مستقبل آت . ويتحرر مفهوم الفن من الانعكاس السلبي فينتظم الذاتية الفنية في وعيها بالحقبة البنيانية ويتكشف عن مغزى المائل في الواقع ، ويتجاوز إلى أن يمنح الانسنان صورة لقد يسعى إلى صنعها . فإذا أكد هذا المفهوم الطبيعة الواقعية الاجتماعية للفن ، فإن الواقع الاجتماعي نفسه من صنع الإنسان ، وهو مهدف بغاياته ، ولهذا فإن عنصر الذات الانسانية وغنائيتها شرط ضروري لكل فن . من هنا كانت ضرورة التشدد الذي يبدى به المجتهدون من الجاهليين المعاصرين ، إزاء كل فهم ميكانيكي لنظرية الانعكاس ، فإن هذا الفهم يفضى بالنظرية إلى غياب الذات الانسانية ، وإلى جعل الفن جثة هامدة وصورته فوتوغرافية شائبة ، تحاكي الواقع في شتاته وجزئياته حكاية ممسوخة بعيدة عن جوهر حركته وراثتها . بينما يعيد الجهد المعاصر هذه النظرية إلى حيويتها بفهم الانعكاس مرتبطا بذات انسانية ، وعيها، حرارتها الوجدانية ، خيالها الذي يكشف بين الجزئيات جوامع لا تبدى لكل عين ، وبين المعطيات شوائب نقص . ومن المائل صورة المثل .

الواقع في الفن - إذا - أكثر دقة وانتظاما ، وأقل تشوشا واضطرابا من الواقع الموضوعي ، والأول أكثر (جوهرية) من الثاني . إذ تنفذ عين الفنان إلى الأساس في حركة الواقع ، ويفصح فهمه لما هو أساسي عن اختيار يشير إلى موقف اجتماعي . وهنا تبدو علاقة الفنان بجماعته . والإنسان - فنانا كان أو غير فنان - متوجه أبدا إلى تحقيق وجوده بصهر ذاته بذوات الآخرين ،

اللغة في ضوء البحث الحديث

د. محمد فراس مجازي

البحث في بنية اللغة

عرف القرن الماضي اذن المحاولات الأولى في التحليل اللغوي ، ولكنها لم تكن محاولات لفهم بنية اللغة بصفة عامة ، أو بنية لغة ما كنظام متكامل ، بل كانت جهودهم منصرفة الى بحث ظواهر مفردة ، وثمة فرق بين بحث بنية اللغة بتحليل عناصرها وبايضاح علاقاتها وتكاملها وبين بحث ظاهرة ما مثل الضمير « أنا » أو وزن من الأفعال أو نمط من أنماط الجملة في كل اللغات التي تضمها الأسرة اللغوية المفردة ببحث المراحل



ارتبطت أولى محاولات التحليل اللغوى فى العصر الحديث بتيارات الفكر العلمى التى سادت القرن التاسع عشر ، ومن ثم فقد ظهرت تلك المحاولات فى اطار علم اللغة المقارن . اعجب الباحثون فى اللغة بالنظرة التطورية التى مثلها دارون وغيره من المتخصصين فى علم الحياة ، وراقهم منهجه فى ترتيب الكائنات فاخلوا يحاولون ترتيب الظواهر اللغوية ترتيبا تاريخيا . فالظواهر التى وصلت اليهم فى اللغات المختلفة التى حاولوا بحثها لا بد وان تنتظم فى البحث اللغوى ذى النظرة التطورية فى اطار تاريخى ، وبهذا كان التركيز على الاصوات وبناء الجملة والدلالة لا فى اللغة الواحدة بل فى الأسرة اللغوية بما تضمه من لغات ولهجات متنوعة . وحاول الباحثون فى القرن التاسع عشر كذلك تصنيف اللغات قيد الدراسة فى أسرات وفصائل ، فكما نجح علماء النبات والحيوان فى تصنيف النباتات المختلفة وأنواع الحيوانات المتفارة المتباينة حاول اللغويون تصنيف اللغات ، ونجحوا فى هذا الأمر على أساس تحديد خصائص مشتركة افترضوا انها كانت موجودة فى كل لغة من اللغات الأم التى خرجت عنها اللغات المختلفة المنضوية فى اطار أسرة لغوية واحدة . ولم يكن من الممكن فى عصر حققت فيه العلوم الطبيعية بمناهجها الدقيقة نجاحا كبيرا ودقة اكبر - اذ تم لعلمائها اكتشاف كثير من القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية - أن يهدا اللغويون دون البحث عن قوانين تفسر التطور اللغوى ، فكما اهتمت علماء الطبيعة الى قوانين تفسر كثيرا من جوانب الكون حاول علماء اللغة اكتشاف القوانين التى تفسر التطور اللغوى ، وما التطور اللغوى فى ذلك الا تطور الظاهرة المفردة فى كل اللهجات واللغات التى تضمها الأسرة اللغوية الواحدة .

التي مرت بها قبل أن تصل الى الأشكال التى وصلت اليها ، وشتان بين هذا وبين ما يقول به اليوم - الباحثون فى بنية اللغة كنظام رمزى متكامل . ما أشبه البحث اللغوى المقارن بمنهجه الذى ازدهر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يباحث يريد بحث بنى المجتمع فيبحث فى أنساب عسدد كبير من أفرادهم ويركز اهتمامه على مهد أجداد بعض أفرادهم ، وكأنه بهذا يستطيع التعرف على بنية المجتمع . وعلى الرغم من أن المدرسة البنائية فى علم

التي تنكر أساسا جدوى هذا الضرب من ضروب البحث لسبرغور بنية اللغة ، فلا بد أن نقسّر هنا أن المنهج المقارن أسدى خدمة جليلة فى محاولة بيان طبيعة اللغة ، فقد خرج بعلم اللغة الى مرحلة البحث الدقيق ، وكشف لأول مرة عن وجسود ما أطلقوا عليه اسم « القوانين الصوتية » ، وفوق هذا فقد أتاح علم اللغة المقارن نظرة موضوعية دقيقة للهجات ، فقد دفعت عوامل مختلفة الى عدم وضوح الرؤية تجاه اللهجات ، وهنا أتى علم اللغة المقارن ليدرس الظاهرة اللغوية المفردة فى

مجموعهم ، وعلى الباحث أن يحاول بلورة هذا النظام بوحدهاته وبملاقاته المتكاملة • وللباحث دى سوسير جهد في إفصاح الطبيعة الرمزية للغة ، فالرمز اللغوي دال signifiant يشير الى مضمون يدل عليه signifié ، وههدف الباحث في اللغة أن يتبين بين عناصر الدلالة المختلفة مكتشفات قدرتها الرمزية • فاللغة عند دى سوسير هي ذلك النظام المستقر عند الجماعة ككل وإلى يمكن تبين عناصره من الظواهر اللغوية المتاحة •

ظهور علم الفونولوجي

وتقدم علم اللغة بظهور علم الفونولوجي تقدما أعاد الباحثين الى دراسة اللغة كنظام رمزي ، وكان للباحث الروسي تروبتسكوي (Trubetzkoy) فضل بلورة المنهج الفونولوجي وتطبيقه تطبيقات ناجحة ، فقد اتجه للبحث الصوتي قبل تروبتسكوي الى دراسة اللغة كظاهرة تشريحية - فيزيائية ، أى أن الباحثين حاولوا دراسة الصوت اللغوي وهو يصدر عن الجهاز الصوتي للمتحدث ، أو بحث الخصائص الفيزيائية للصوت الناتج وهو يتنقل من المتحدث في الهواء الى السمعي ، وأدى هذا الى دراسات عامة في طبيعة النطق وتشريح الجهاز الصوتي وقسيولوجية الكلام وكذلك في شدة الصوت والذبذبات الناتجة عنه ، وهنا انصرف جهدهم الى الصوت في نفسه دون النظر في طبيعته كجزء من نظام رمزي متكامل • وعندما بلور تروبتسكوي نظريته الفونيم أو الوحدة الصوتية فرق بين الفونيم من جانب وصوره الصوتية المختلفة من الجانب الآخر • ولنوضح هذا بأشكلة من اللغة العربية ، فصوت السين يختلف في العربية عن الصاد في أن السين صوت غير مطبق والصاد صوت مطبق ، ونفس هذا الفرق الصوتي نجده بين اللام المرققة في : بالله ، واللام المفخمة (أو المبطية) في : والله • الى هنا والبحث صوتي ، ولكن علم الفونولوجي ينظر الى هذه الظواهر لا في خصائصها التشريحية الفيزيائية فحسب ، ولكنه يبحث الأصوات في ضوء حقيقة أساسية وهي أن اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وهنا نلاحظ أن أحلال رمز السين محل الصاد في كلمات مثل : سائر / صائر ، سبر / صبر ، تغير المعنى ، فالسين هنا رمز لغوي والصاد رمز لغوي آخر • فإذا ما أحللنا هذا محل ذلك

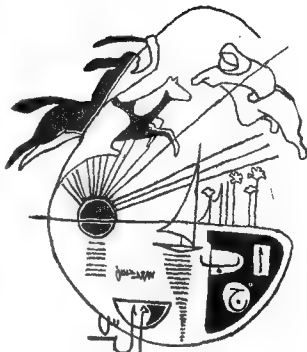
كل صورها الموجودة في اللهجات واللغات المختلفة في الاسرة اللغوية الواحدة ، وبهذا أخذت ظواهر اللغة المثلثة في اللهجات مكانها الطبيعي دون امتحان لها ودون استخفاف بها أو إقلال من شأنها الى أن أتاح دى سوسير إبراز فكرة البنية اللغوية فاكشفت في اللهجات بنية لغوية جذرية بالبحث والدراسة •

اللغة نظام من الرموز

كان الباحث السويسري فرديناند دى سوسير F. de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣) نقطة تحول حاسمة في تاريخ البحث اللغوي الحديث ، كانت رؤيته الواضحة لجوانب كثيرة من بنية اللغة منارا امام تلاميذه وأجيال الباحثين بعده • أدرك دى سوسير في وضوح وجاز أن اللغة نظام من الرموز ، ومعنى هذا أن اللغة مكونة من الوحدات المترابطة المتكاملة في نظام رمزي ، فإدراك طبيعة اللغة لا يتاح - في رأي دى سوسير - بالتاريخ لكل ظاهرة مفردة على حدة ، فليست النظر التاريخية سبيرا لقواشيء ، وليس البحث عن تفسير الأشياء بالنظر في تاريخ جزئياتها إدراكا لطبيعتها ، ولا بد من بيان العناصر في تكاملها اذا توحيها فها جواهر اللغة كنظام من الرموز الصوتية وفرق دى سوسير كذلك بين النظرة العرضية أو الوصفية من جانب والنظرة الطولية أو التاريخية من الجانب الآخر : الأولى تبحث النظام اللغوي في تكامله في مستوى لغوي يعينه • والثانية تدرس النظام اللغوي في تحوله وتطوره •

وكان في إبراز دى سوسير لجوانب البحث الوصفي ما أخذ بلب تلاميذه فأخذوا يركزون عليه ويعملون في اتجاهه فرق دى سوسير كذلك بين الكلام parole واللغة langue ، فكل مستخدم للغة لا يستخدم مهما أوتي من الفصاحة واللسن الا قطاعا من هذه اللغة ، ومجموع الصيغ اللغوية التي قيلت واستخدمت فعلا ليست الا قدرا من اللغة ، فاللغة هي مجموع الصيغ والانماط المختزنة في اللاوعي عند الأفراد في البيئة اللغوية ، واللغة هي الرابط الاجتماعي بالوسيلة الصوتية الرمزية فالنظام النحوي للغة من اللغات مستقر بصورة تجريدية غير واعية في ذهن مجموع أفراد المجتمع يتوسل كل منهم بقدر منه ، وليس كل فرد منهم مدركا لكل عناصر النظام بنفس القدر بنفس الدرجة ، واللغة هي ذلك النظام المستقر عند

تغيرت الدلالة وتغير المعنى ، وهنا نقول بأن السين فونيم أو وحدة صوتية ، والصاد فونيم آخر ، أو وحدة صوتية أخرى ، وبعبارة هذا من أم اللام المرققة واللام الملمخة ، فلو نظرنا باللام مطبقة محل غير المطبقة لا نغير المعنى ، وهنا نقول بأن هذين الصوتين الخاصين باللام في العربية صورتان صوتيتان : لوحدة صوتية واحدة . يبحث علم الفزفونولوجيا محددًا ذاتي بين الوحدات الصوتية المكونة للنظام اللغوي قيد الدراسة ، وهنا يكون المعنى وتغيره أو عدم تغيره فيه صلا في التمييز بين الوحدة الصوتية والصورة الصوتية . وهذا مرتبط بالنظام اللغوي قيد الدراسة ، لكل لغة نظامها الفونولوجي ، فونيماتها الحكومة .



ما بعد المنهج الوضعي

أدى نجاح تطبيقات التحليل الفونولوجي في اللغات المختلفة إلى تقدم منهجي في الجوانب الأخرى من علم اللغة ، فقد أوضح لنا علم الفونولوجي أولاً وقبل كل شيء أن مصطلحات أي علم من العلوم هي رموز لا قيمة لها إلا في إطار نظام نظري متكامل وأن المصطلحات والمفاهيم لا تتحدد قيمتها الرمزية داخل النظام إلا بالعلاقات المتضاد والتكامل . وتوضح كذلك من منهج علم الفونولوجي أن المصطلحات والمفاهيم النظرية لا تمثل بالضرورة ملاحظات ملموسة ، ولا تطبق تطبيقاً مباشراً في الأشياء الملموسة ، والدولة — في تلك المصطلحات — مجردة أو وحدات نظرية ، فالقوانين ليس له وجود ملموس في النظام اللغوي ، وإنما هو القيمة الوسطى بين مجموع الصور الصوتية التي تنقسم إلى وحدة صوتية واحدة . وإذا كانت الوحدة الصوتية أمراً مجرداً ليس له ما يشمله — بالمعنى الدقيق للكلمة في الواقع الملموس ، فإن في هذا هدماً للمنهج الوضعي في العلوم الإنسانية ، فلم يعد البحث قصراً على ما يدرك بأحواس بل تجاوز المنهج الفونولوجي الوضعية ليستخرج هذه العلاقات المجردة الحاسمة . وهذا لا يمكن التوصل إلى إدراك وتحديد الوحدات الصوتية أو الفونيمات بمجرد تعميم المعطيات ، بل لا بد هنا من اتباع المنهج الذي عرفته العلوم الطبيعية في البحث ، فلا بد من فصل بعض الظواهر التي تبدو بسيطة في علاقاتها تمهيداً لبحثها ، ثم تجاوزها إلى الظواهر الأكثر تعقيداً . ولا تقسم عملية اكتشاف مكونات النظام الفونولوجي بوحداته

الصوتية وعلاقتها على مجموعة الملاحظات الخاصة بذلك ، بل يتبلور ذلك بملاحظات مبدئية تؤدي الى فروض لا بد من اختبار صحتها في ضوء الواقع وهذا يجعلنا نفرق في وضوح بين التفرقات والثوابت ، فلتحديد أو لاختبار الفرض القائل بأن صوتين يمثلان وحدتين صوتيتين مختلفتين تأتي بكلمتين بهما تكرر لكل الأصوات - علما بالصوت موضع البحث في كل كلمة منهما ، مثل: تين : طين • فالمتغير الوحيد هنا في الصنوت يقابله تغير الدلالة ، ونمضي في التحقق من صحة الفرض بأتمثلة أكثر وصلوة القول ان هذا المنهج الذي ينطلق من الملاحظة الى الفرض الى اختباره في ضوء الواقع ، يتيح ادراك كثير من المفهومات النظرية والعلاقات بين الوحدات المكونة ، وهذه تلك ليست مما يدرك بالحواس ومما لا يمكن سبر غوره بالمنهج الوضعي ، وشبيه بهذا أمر التعرف على الذرة ومكوناتها ، فلم يستطع البحث مسير اغوارها بالمنهج الوضعي ، بل بالفروض التي أدى اثباتها الى المضي نحو فهم طبيعتها • ومن ثم يقارن كثير من الباحثين مثل كلود ليفي شيروس بين التحول الذي أحدثته الطبيعة النووية وما بدأ من تحول في العلوم الانسانية بعد تبلور المنهج الفونولوجي ، وهكذا أتاح علم الفونولوجي بنظرته في الوحدات الصوتية غير المتحركة حسيا وبملاقاتها وبكيفية ادراكها لها منطلقا طيبا للبحث في العلوم الانسانية بمنهج ظهرت بعض بواكيره في السنوات العشر الماضية •

نظرية الأنماط الصرفية

والنظام اللغوي لا يقتصر في مكوناته على الوحدات الصوتية ، فلا بد لهذه الوحدات أن تتنظم في أنماط صرفية محددة ، ولكل لغة نظامها الصرفي الخاص بها ، وأصغر الوحدات الصرفية هو ما يطلق عليه اسم « المورفيم » ، ويسمى كذلك بالتقابل بين الصيغ وبوسائل أخرى ، فكلمة « شخص » هي أصغر وحدة صرفية • نخرج بها من مقابلة الكلمات ، شخص : شخصي : شخصية فالكلمة الثانية مكونة من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة الطويلة ، والكلمة الثالثة مكونة كذلك من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة والياء المشددة والتاء (أو الهاء) ، وهناك فرق بين الوحدة الصرفية الاولى ، فهي وحدة حرة . يمكن أن تستقل برأسها مكونة كلمة



كاملة ، أما الوحدة الصرفية الثانية في كل من الكلمتين الآخرين ، فهي وحدة صرفية مقيدة • ويهدف البحث الصرفي هنا الى تحديد الوحدات الصرفية المختلفة ودراسة أنواعها من حرة ومقيدة وأنماطها المختلفة ، وعلاقاتها في النظام اللغوي وهناك معايير مختلفة لتحديد الأنماط الصرفية ، وحسبنا أن نذكر هنا أن لكل لغة تصنيفها الخاص ، فالعربية تصنف كلماتها مثلا الى مؤنث ومذكر ، والألمانية تصنف المذكر والمؤنث والمحاييد ، والسواحلية تصنف الأسماء الى ستة أجناس - على الأقل - وذلك وفق السوابق التي تسبق المفرد وما يقابلها في الجمع ، والتركيبة لا تعرف تمييزا بين ما يعبر عنه في العربية بالمذكر والمؤنث فلكل لغة نظامها الذي يحكم العلاقات بين عناصرها وهذا لا يتحدد الا بالتقابل بين الصيغ في اللغة الواحدة وفي المستوى الواحد ، وغنى عن البيان أن لا علاقة بين التضادة خشيبا كانت أم حديدا وبين التأنيث في العربية ولا بينها وبين التذكير في الألمانية ، فاللغة رمز وتصنيفنا لاسم ما في لغة ما بأنه مذكر ، يعني تصنيفنا للرمز لا لما يدل عليه •

ولا تتألف اللغة من كلماتها الا منتظمة في أنماط

تتخذها الجملة ، وهنا تظهر دراسات اللغسوى
الامريكي شومسكى (ينطق الامريكيون
اسمه شومسكى ، والالمان ينطقون خومسكى ، وهو
لفوى معاصر عرف بجهوده فى بناء الجملة ومناهج
البحث فيها) فى بناء الجملة ، والفكرة الاساسيه
عنده تقول بأن النظام اللغسوى ليس المجموع
الحسابى لما يسجل من عبارات ، بل هو شئ مجرد
له وجوده الفعّال وغير الواعى لدى افراد المجتمع
اللغوى ، فهناك امكانيات متنوعه منجدة للاستخدام
اللغوى . وهدف اللغوى هنا ليس مجرد الاستقراء
الوضعى ، بل عليه أن ينطلق من المادة المتاحة ،
لوضع فروض حول انماط الجدل الممكنة . ثم تختبر
هذه الفروض فى ضوء الواقع اللغوى .



وبعد تحديد النظام الفونولوجى ونظام الانماط
الصرفية وامكانيات تكوين الجملة ، فلا بد من النظر
فى المفردات ودلالاتها ، والقيمة الدلالية للمفردات
لا تتحدد الا بعلاقاتها فى النظام اللغوى قيد
الدراسة ، وهناك مثال بسيط فى هذا ، فإذا
افترضنا كلية تمنح طلبتها التقديرات التالية :
ممتاز (= ١٠٠٪) ، ثم جيد جدا
(= ٩٠٪) ، ثم متوسط (= ٧٥٪) ،
ثم جيد (= ٥٠٪) ، وقادنا هذا بنظام تقديرات آخر فى كلية
أخرى نعرف تقديرات أكثر تنوعا : ممتاز مع
الشرف (= ١٠٠٪ - ٩٠٪) ، ممتاز (= ٩٠٪ -
٨٠٪) ، وجيدا جدا (= ٨٠٪ - ٧٥٪) ، وجيدا
(= ٧٥٪ - ٦٠٪) ، ومقبول (= ٦٠٪ - ٥٠٪)
للاحظنا أن كلمة (ممتاز) لها فى النظامين
مدلولان مختلفان كل الاختلاف ، ووجدنا كلمة
(جيد جدا) تختلف بين النظامين اختلافا نسبيا ،
ولاحظنا أن كلمة (متوسط) غير موجودة فى
النظام الثانى ، وليس لها ما يقابلها على نحو
مباشر فيه . ومن هذا المثال البسيط نخرج
بنسبية الأدلة وبأنها لا تتحدد الا داخل النظام
اللغوى أو بمعنى آخر : داخل النظام الرمزى
الواحد ، وليس الحديث عن أصولها التاريخية
أو عن مقابلاتها فى اللغات التى تندرج فى إطار
نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى إليها تلك الكلمة
أداة لفهم طبيعتها وقيمتها الرمزية .



وبعد ، فقد حقق علم اللغة بمنهجه فى تحليل
البنية درجة عالية من الدقة ، فأصبح كثيرون من
المشتغلين بعلوم الانثروبولوجيا والاجتماع وعلم
النفس والنقد الادبى فى عدد من جامعات أوروبا

وامريكا يطبقون الاسس المنهجية للتحليل اللغوى
أو لتحليل البنية اللغوية فى بحث العلوم
الانسانية المختلفة ، فبدأ التمييز بين الدراسة
الوصفية للبنية وبين الدراسة التطورية لها ،
وتوسلوا بالتمييز بين العناصر الرمزية الدالة
وما تدل عليه فى إطار المجتمع . وأخذ باحثون
مثل كلود ليفي شتروس يبحون فى الانثروبولوجيا
البنائية عن نمط الحفوية الكامنة وراء الجزئيات
المدركة حسياً أو عقلياً كما يبحث اللغوى عن
الفونيمات ، والبنائية بهذا المعنى - كما يقول
كلود ليفي شتروس - ليست رأياً فلسفياً بل هى
منهج يحاول تصور الحقائق الاجتماعية المباشرة
على شكل نموذج نظرى ، وفى هذا لا ينظر الى
العناصر المكونة فى نفسها ، بل الى العلاقات
القائمة بينها . وهو يحاول التعرف على « البنية
غير المدركة التى يثبت عنها كل نمط وكل عادة
اجتماعية » . وبهذا تجاوزت البنائية حدود
الوضعية لتتخطى بمنهج الملاحظة والفروض
وتتحققها الى ادراك العلاقات السائدة فى الظواهر
الاجتماعية الانسانية أدراكاً يكشف على نحو دقيق
ملا يمكن اكتشافه بالمنهج الوضعى .

محمود فهمى حجازى

المجلات الثقافية

الفكر المقاصد

رئيس التحرير: د. فؤاد زكريا
تصدر كل ٣ أشهر
العدد ١٠ قروش

الكاتب

رئيس التحرير: احمد ياسين صالح
تصدر اول كل شهر
العدد ١٠ قروش

المسرح

رئيس التحرير: صلاح عبد الحميد
تصدر كل ١٥ شهر
العدد ١٠ قروش

المجلة

رئيس التحرير: هادي هادي
تصدر كل ٥ شهر
العدد ١٠ قروش

تراث الانسانية

المشرف على التحرير: د. فؤاد زكريا
تصدر كل ٣ أشهر
العدد ١٠ قروش

الكتاب العزف

رئيس التحرير: احمد عيسى
تصدر كل ٣ أشهر
العدد ١٠ قروش

السينما

رئيس التحرير: محمد الدين وهب
تصدر كل ٣ أشهر
العدد ١٠ قروش

الفنون الشعبية

رئيس التحرير: د. عبد الحميد يوسف
تصدر كل ٣ أشهر
العدد ٩٠ قروش

تأليف

تصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الاشتراك مخفضة لطالبات الجامعات والمعاهد العليا ومنظمات الشباب • الاشتراكات: ٥ شاع ٢٦ وبلغو القاهرة



النهر المقامير

العدد ٢٩٠ فبراير ١٩٧٠





مجلة الفكر المقاصر

رئيس التحرير :

د . فؤاد زكريّا

مشاركون التحرير :

د . أسامة الخولى

أنيس منصور

د . عبد الغفار مكاوى

د . فوزى منصور

سكرتير التحرير :

جلال العشري

المحرر الفني :

صفوت عباس

تصدر شهرياً عن :

الهيئة المصرية العامة
للتأليف والنشر

ه شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

ت: ٩٠١٦٤٨/٩٠١٢٩٩/٩٠١١٩٧

صفحة

٤	د . مصطفى سوييف
١٧	د . أحمد فائق
٢٤	قندري حفي
٣٥	عبد الستار ابراهيم محمد
٤٦	لودفيج فون برتالانفي
	عرض : صلاح قنصوه
٥٤	محمود اسماعيل عبد الرازق
٦١	د . حمدي السكوت
٦٦	جان مازا ليرا
	ترجمة : نادية كامل
	كينيث روكسروث
٧٢	ترجمة : حسين اللبودي
٧٦	ماجدة جوهر
٨٠	ف. هارياكوف، ي. فلششتنكو
	ترجمة : زكريا فهمي
٨٨	د . جمال الدين الرمادي

- قياس قدرات الابداع الفني
- قضية الحرب النفسية
- حول التفسير النفسي للتاريخ
- بين النظرية والمنهج في علم النفس
- النظرية العامة للانساق في علم النفس
- جارودي والاسلام والاشتراكية
- بين التعبير الادبي والتفكير الفلسفي
- أسطورة باريس في الشعر الفرنسي المعاصر
- نظرة جديدة الى فن الشعر
- فرانس هاوك ٠٠ فنان الرمز السحرية
- النتائج الاجتماعية للثورة التكنولوجية
- الحركة الفكرية المعاصرة في اكاليفورنيا

ندوة الفكر

٩٣	اعداد : ابراهيم الصبري
١٠٢	مارس ١٩٦٩ - فبراير ١٩٧٠

- حول كتاب « حقيبة في يد مسافر »
- فهرس مجلة الفكر المعاصر

قياس قدرات الإبداع الفني في.. أكاديمية الفنون

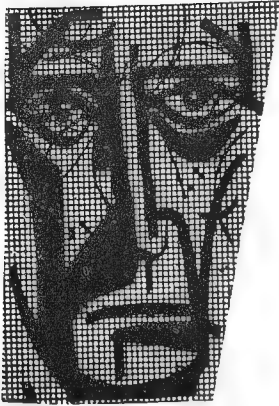
د. مصطفى سوينف

السيد رئيس الجلسة. ورئيس الجمعية ...

سيداتي ... سادتي ...

أرجو أن تسمحوا لي أولاً بأن أتقدم بالشكر للجمعية المصرية للدراسات النفسية إذا أتاحت لي هذه الفرصة لكي أتحدث إلى حضراتكم في موضوع قياس قدرات الإبداع الفني في أكاديمية الفنون . وأعتقد أن هذه المبادرة من الجمعية ... مبادرتها بدعوتي لالقاء هذا الحديث ، أعتقد أنها ترمز عن حسن تاريخي بالمسؤولية الملقاة على عاتقها. لا فقط من حيث احتضان ما يتعلق بعلم النفس دراسة وتطبيقاً في مجتمعنا ، ولكن كذلك من حيث السهر على سمعة علم النفس ، وعلى ما ينبغي أن يتوفر في ممارسة المهنة ، وممارسة الدراسة النفسية من شروط معينة ، ومن معايير أخلاقية لا يجوز الخروج عليها . جمعية علم النفس بمبادرتها هذه عبرت عن هذا الحس التاريخي نظراً لأن الرأي العام في الأسابيع الأخيرة بدأ يتحدث عن قياس هذه القدرات في أكاديميتنا ،

من هنا فاني أعتقد أن اجتماعنا هذا مساء . أهمية تاريخية خاصة ، أهمية تتمثل لا في مجرد الحديث عن اختبارات أو مقاييس نفسية لقدرات معينة ، لكن تمتد وتعمق لتشمل الإطار الذي يضم هذا الحديث ... الإطار الأساسي أعني به الصلة بين العلم والمجتمع ، الصلة بين الباحثين الممارسين للبحث العلمي وبين مجتمعهم عندما يدعواهم المجتمع لتقديم خدمة تطبيقية معينة باسم خبرتهم ، وباسم الستين التي قضوها في تحصيل هذه الخبرة ، وعندما يتقدمون هم لتلبية هذه الدعوة ... هنا الدلالة التاريخية لهذا الحديث ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف في فروع أخرى من فروع العلوم الانسانية ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف في فروع أخرى من فروع العلوم الانسانية ، ومن الممكن أن يتكرر أيضاً في فروع أخرى من فروع الدراسات العلمية عامة ، وتظل الدلالة واحدة ، هي مسألة الصلة بين العلم والمجتمع .



جانب العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وليسهل
التكنولوجيا البشرية إلى جانب التكنولوجيا
الفيزيائية ، الآلية ؟ أم نفهمه على أنه قائمة محددة
بما هو مباح وما هو غير مباح .

السؤال الثالث :

هل نحن كمجتمع ، نسعى فعلا إلى توظيف
الطاقات المتوفرة لدينا بأفضل صورة ممكنة ؟
ما معنى أن ينتقل أستاذ جامعي متخصص في
العلوم السلوكية من الجامعة إلى ميدان الوظيفة
المكتبية ، إذا لم يكن هذا في سبيل توظيف
تخصصه والانتقال به من مجال الاهتمام الأكاديمي
إلى مجال التطبيق ، أي إلى ميدان وضع علمه
وتخصصه في الخدمة المباشرة للمجتمعة ؟

والواقع أنني حينما أبرز هذه الخلفية أو
هذا الإطار الأساسي أجد أنه يثير أمامنا عددا
كبيرا من الأسئلة ، وأستطيع على الأقل أن
أجتزئ من هذه الأسئلة بأربعة أعتقد أنها هي
الأسئلة الرئيسية :

السؤال الأول :

هل نحن كمجتمع ، نريد فعلا أن نصبح
مجتمعا عصريا يهتدى بالحلول العلمية في مواجهة
مشكلاته والتخطيط لحياته ؟

السؤال الثاني :

كيف نفهم العلم ، هل نفهمه على أنه منهج ،
بحيث يتسع فهمنا ليشمل العلوم الانسانية إلى

السؤال الرابع :

هورمون الثيروكسي من الغدة الدرقية ، ، وهكذا نقرن مباشرة بين هذه الوظيفة ، وبين عضو معين يحدد في الجسم ولكننا لا نستطيع أن نقرن بين وظيفة ما كأنفعال الغضب وبين عضو محدد في جسم الإنسان ولا نستطيع أن نقرن بين تغير الحال النفسي وبين عضو محدد في الإنسان ، ولا نستطيع أن نتحدث عن الشعور بالجوع ونقرن بينه وبين عضو محدد في الجسم ، فالعده لا تجوع وان كانت عضلاتها تصاب ببعض التقلصات المتتالية . يصحب ذلك الشعور بالجوع ، ولكن الشعور بالجوع وظيفة متكاملة للكائن ، هذه الوظائف التي تصدر عن الكائن متكاملة ، والتي لا نستطيع أن نربط بينها وبين عضو محدد فيه هي الوظائف السيكلوجية التي نحاول أن نقيسها وقد استطاع علماء النفس أن يوفقوا الى قياس عدد كبير منها على مر التاريخ منذ بدأ تاريخ علم النفس العلمي ، كما ذكرت من قبل ، في أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

هل نحن كمجتمع ، مستعدون لأن نشجع الجديد ولو بحذر أم نحن مستعدون فقط للدفع الى المجازاة والامثال للنموذج السائد ، فاذا دخل الجديد في حياتنا ، فانما يدخل على الرغم منا مصحوبا بقدر كبير من البفور ومن المقاومة العنيدة ؟

لم تعد أهمية القياس في الدراسات النفسية بحاجة الى مزيد من القول ، والدراسات النفسية عندما أريد لها منذ نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر أن تصبح دراسات علمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فظن أصحابها منذ البداية الى صورة محاولة قياس الوظائف النفسية .



ولقد بدأ التقدم في هذا الاتجاه يؤتي ثماره في جوانب تطبيقية متعددة في حياة المجتمعات . هذه الجوانب تدبر كلها حول محاولة إيجاد وسيلة تتمثل في مقياس يمكن اعتباره وسيلة موضوعية في يدنا للمقارنة المحايدة ، أما بين وظيفة ووظيفة في الفرد الواحد ، أو بين وظيفة في مستوى معين ثم نفس الوظيفة في نفس الفرد وقد تغيرت مستواها بعد علاج معين أو بعد مران معين . الخ . . . كما يستخدم المقياس في المقارنة بين وظيفة معينة من حيث مستواها الراهن لدى عدد من الأفراد .

والوسائل الموضوعية المحايدة التي نملكها والتي نحاول أن نحسن فيها استخدمت وتستخدم الآن ، ولا يقتصر الأمر في العناية بها على الدراسة الأكاديمية . ولكن امتد الاجتهاد الى الاستفادة العملية التطبيقية في مجالات مختلفة لعل أهمها : مجال التوجيه الدراسي ، ومجال التوجيه المهني ، وميدان الخدمة الاكلينيكية ، وجوانب مختلفة من ترشيد الصناعة ، وفي القوات العسكرية ، وفي مجالات أخرى متعددة .

مر هذا التقدم كما يستشف مما ذكرت بمرآل ونحن الآن - على الأقل - نشعر عندما ننظر الى الوراء بأن المرحلة التي مر بها القياس في أوائل هذا القرن - في عشرينات وثلاثينيات هذا القرن - نشعر بأن تلك المرحلة كانت مرحلة بدائية بالنسبة لما يتوفر لدينا الآن من عدد من المقياس ، ومن كفاءة في القياس . وقد نتج

ونحن عندما نتكلم عن القياس وعلم النفس نتكلم دائما عن أننا نقيس عددا من الوظائف النفسية ، وعندما نتكلم عن التقدم في تاريخ القياس فاننا نتكلم عن التقدم في زيادة كفاءة المقياس التي تقيس وظائف معينة ، ومن ناحية أخرى عن التقدم كما يبدو في زيادة عدد الوظائف النفسية التي تمكن من قياسها .

وقبل التقدم الى أبعد من هذا في الجديد أصبح لنفسي أن أعطي بعض التعريفات الأولية لكي يتم التواصل بيننا على أفضل مستوى ممكن .

نحن نتكلم عن وظائف سيكلوجية لها معنى محدد في عقولنا ، وعندما نذكر الوظائف النفسية مقرونة بعملية القياس ، يثور بعض العجب عند غير أهل الاختصاص ، علما بأننا نقبل بكل بساطة مفهوم القياس عندما نقرن بالوظائف الفيزيولوجية (العضوية) . ولقد جاء يوم على الوظائف العضوية لم تكن تقاس ، ثم حدث التقدم وأصبحت قابلة للقياس .

فاذا نعني نحن رجال علم النفس عندما نتحدث عن الوظائف النفسية ونفرض بينها فو عقولنا ، وبين الوظائف الفيزيولوجية ؟ الفارق الرئيسي هو : أننا نربط بين الوظيفة الفيزيولوجية وبين عضو محدد ، فنحن نتكلم مثلا عن افراز

في النفوس أن هذه المعاهد يجب أن تامل في
الذين معاملتنا لما اصطالحنا على تسميته بالكليات
العملية لأن معظم الدراسة فيها دراسة عملية .
هذه المعاهد إذن لا تستطيع أن تتخطى رقما معيناً
في القبول .

ج - انتهى الامر بها الى أن قبلت أكثر
قليلا من ٢٠٠ طالب ، أي انها قبلت السبع أو
على أفضل تقدير السدس .

د - بتكلف الطالب الواحد على الدولة في
هذه المعاهد تكلفة باهظة وعلى سبيل التقدير
الجزافي يمكن أن نقول أن التكلفة هي أربعائة
جنيه مديونا دون أن يدخل في هذا الاستهلاك
الذي تتعرض له مباني وأثاثات المعاهد ... الخ
أتحدث فقط في حدود الميزانية السنوية للمعاهد
الفنية والتي تبث ما يشبه المال السائل للأنفاق
المباشرة .

لدينا إذن هذه الاعتبارات مجتمعة وإزاء هذا
فلا بد أن يوجد لدينا معيار موضوعي محايد
ودقيق للمفاضلة بين هؤلاء المتقدمين . فما هو
المعيار الذي نتخذه ؟

جرت العادة على أن يتخذ معيار الامتحانات
بصورتها التقليدية أي امتحانات القبول ، هذا هو
الرد البسيط الذي يمكن أن نستنج إليه من أي
مواطن في مثل هذا الموقف ، اعتدوا امتحانات
قبول .

وردنا المباشر أن امتحانات القبول بشكلها
التقليدي لا يستطيع التخصص في العلوم النفسية
أن يقبلها بسهولة ، رغم علمه بأنها هي الأداة
للسائنة أو النموذج المعمول به ، وإذا أردنا أن
تكلم بما تقتضيه الأمانة العلمية فإن هذه
الامتحانات لا تصلح معيارا موضوعيا دقيقا ،
ليس معنى ذلك أن هذه الامتحانات لا قيمة لها
اطلاقا ، ولكن معناه انه إذا كان في إمكاننا أن
نضيف إليها ما يجعل عملية الاختيار بين
المتقدمين أكثر دقة فقد وجب علينا أن تقدم هذه
الاضافة . وجدير بالذكر أن الشكوى من
الامتحانات لم تنقطع أبدا كانت المواد التي تتناولها
هذه الامتحانات ، أو المستويات التعليمية التي
تقصد عندها . ومعنى ذلك أننا لسنا أول ولا آخر
المتحدثين عن مساوئ الامتحانات بصورتها

هذا التقدم لا عن مجرد ذاب علماء النفس على
تحسين ما يملكونه من وسائل ، ولكنه نتج بالإضافة
الى ذلك أيضا عن تقدم في بعض فروع الرياضة
والاحصاء ثم انعكس أثر ذلك على هذا الفرع أو
هذه الدراسة مما يمكن العلماء المتخصصين من أن
يزيدوا من كفاءة مقاييسهم ، وأنا أشير هنا بوجه
خاص الى النهضة التي حدثت في ثلاثينات هذا
القرن في أسلوب التحليل الاحصائي المعروف ،
بالتحليل العاملي ، ففي هذه الفترة نشره ثرستون
(طريقته المركزية) وفي هذه الفترة نشر «لوه»
Maximum likelihood باسم طريقته المعروفة باسم
«هوتيلينج» هو «لوه» طريقته
المعروفة باسم Principal Components في هذه
الفترة نشرت طرق متعددة تهدف الى مزيد من
الدقة فيما يسمى بأسلوب التحليل العاملي ، ويمكن
هذا من دفع عجلة التقدم في مسألة المقاييس
النفسية بصورة لم تكن متوقعة في الاطلاق في
عشرينات هذا القرن . النتيجة أننا أصبحنا
بعد نهاية الحرب العالمية الثانية على مشارف
ما نستطيع أن نعتبره بداية هامة لتكنولوجيا
بشرية على قدر كبير من الدقة والكفاءة ، هذه
الدقة والكفاءة تتزايد منذ ذلك التاريخ ، أي منذ
نهاية الحرب العالمية الثانية بسرعة تكاد تكون
سرعة لوجارتمية .

بعد هذا اضيق رقعة الحديث بعض الشيء ،
واتجه مباشرة الى الكلام عن قياس القدرات
الابداعية لدينا في أكاديمية الفنون .

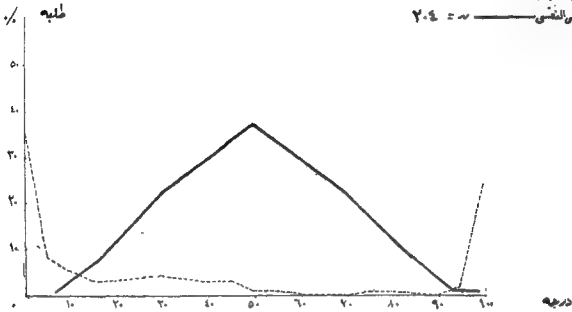
مالذي حفزنا الى أن نقوم بهذه الخطوة ؟

بطبيعة الحال هناك الحافز العام ، مجرد أن
شخصا من الأشخاص وجد أن لا معنى لأن يترك
مكانه في الجامعة وينزل الى ميدان الخدمة العامة
دون أن يقدم ما يتقن . فإذا نجينا هذا الحافز
الصام جانباً تبقى أسباب موضوعية أخرى
نجهلها على النحو التالي :

١ - يتقدم لهذه المعاهد سنويا عدد كبير من
طالبى الالتحاق بها ، وقد تقدم إليها هذا العام -
على سبيل المثال ١٧٤٥ طالب (هيئت هذا العدد
عند عقد الامتحان الى ١٥٠٠ تقريبا) .

ب - قدرة المعاهد على استيعاب هؤلاء الطلاب
وتزويدهم بالدراسات الفنية على المستوى الذي
ترجوه الدولة قدرة محدودة - وأرجو أن يستقر

• البشري الذاتي ٢٢٠
• الموضوعي الذاتي ٢٠٤



نستطيع أن نضع امتحانا يوفر أكبر قدر من الموضوعية ، ويضعف الجوانب الذاتية الى أقصى مدى ممكن .

وتدخل العوامل الذاتية يتبدى في حقيقة هامة ، وهي عدم اتفاق المصححين ، فإذا افترضنا مثلا أننا وضعنا امتحانا في مادة معينة من مواد الادب أو التاريخ أو الفلسفة ... الخ وأعطينا الاجابة لاحد المصححين ليصححها ثم لمصحح آخر دون أن يطلع على تصحيح زميله ، بشرط أن يكون في درجة معادلة من الكفاءة ثم الى ثالث ورابع ، ففي أغلب الاحيان سوف نحصل على على تقديرات متفاوتة .

هذا الكلام للاسف حقيقته علمية نشرت عنها بحوث متعددة، ولكنها فيما يبدو غير معروفة المعرفة الكافية في مجتمعتنا . وأما البحث الذي نشره فولز J.D. Falls منذ سنة ١٩٢٨ ويعرض الجدول رقم (١) التي أسفر عنها هذا البحث .

التقليدية . كل ما في الامر أننا نأخذ هذا الحديث مأخذاً جاداً وننتقدم به الى انتهاء المنطق .

والسؤال الذي ينبغي لنا أن نبدأ به الآن ونضع اجابته واضحة نصب أعيننا هو ، ما هي الأسباب التي من أجلها لا نستطيع أن نثق في امتحانات القبول التقليدية كمييار موضوعي دقيق ؟ هناك أسباب متعددة ، ربما أمكننا تلخيصها فيما يلي :

ان طريقة وضع الامتحان تسمح بصورة أو باخرى بتدخل العوامل الذاتية لدى الممتحن وأنا عندما أشير الى العوامل الذاتية لا أقصد طلاقاً أى معنى يمس الجانب الاخلاقي لدى الممتحن ، فقد يكون الممتحن أشد أمانة مما نتصور ، ولكن هناك « تكتيك » خاص ببناء الامتحان ، إذا أردنا أن نضمن قدرنا معقولاً من الموضوعية أتبعناه . لا بد لنا من أن نعرف هذا « التكتيك » ثم علينا أن نتبعه وأما إذا لم نتضمن من معرفته فلن

**« توزيع الدرجات والمستوى الدراسي كما حصدته مائة مدرس في إنجلترا نتيجةه
لتصحيح ورقة انشاء واحدة لطلب ما »**

مستوى الفرقة الدراسية	الدرجة من مائة							
	٦٠-٦٤	٦٥-٦٩	٧٠-٧٤	٧٥-٧٩	٨٠-٨٤	٨٥-٨٩	٩٠-٩٤	٩٥-٩٩
١٥								٢
١٤								٢
١٣								٣
١٢					١		٢	٣
١١			٢			٦	٥	٢
١٠			١	٣	٨	٤	٧	١
٩	١		١	١	٨	٤	٤	٣
٨			٢	٢	٢	٣	٤	٣
٧				٢	٢	٢	١	٧
٦	١				١			٤
٥	١							١
المجموع	٣		٦	٨	٢٢	٢٠	٢٤	١٧
								١٠٠

جدول رقم (١)

D. Starch and E.C. Elliot

يوضح الجدول نتيجة تصحيح ورقة امتحان انشاء ، اشترك في التصحيح ١٠٠ مصحح اخذها كل منهم على حدة مستقلاً تماماً دون أن يعرف شيئاً عن تقدير زميله اياها . وقد طلب من كل مصحح أن يعطيها درجة، وأن يحدد الفرقة الدراسية اللائقة بالتلميذ صاحب الورقة .

وواضح من البيانات الواردة بالجدول ان هناك تفاوتاً شديداً في التقديرات ، فقد اعطاها ٣ مصححين من ٦٠ الى ٦٤ درجة واعطاها ٦ من المصححين من ٧٠ الى ٧٤ درجة واعطاها ٨ منهم من ٧٥ الى ٧٩ درجة و ٢٢ من الاساتذة المصححين اعطاها من ٨٠ الى ٨٤ درجة . الخ . ويمكن ملاحظة التفاوت الشديد ايضا في تحديد الفرقة الدراسية التي رأى المصححون أن صاحب ورقة الاجابة لابد وأن ينتسب اليها .

هذه تجربة منشورة فعلا ، منذ أكثر من أربعين سنة ، ليس هذا فقط بل انه قبل سنة ١٩٢٨ قام ستارتش واليوت

بشر دراسة لها مثل هذا الغرض تماماً سنة ١٩١٣ والخطير في أمر هذه الدراسة أنها كانت تتناول تصحيح ورقة في مادة الهندسة وقد اشترك في تصحيح الورقة ١١٦ مدرسا من مدرسي الرياضة فتراوحت درجاتهم بين ٢٨ ، ٩٢ .

الا يمكن القول بعد ذلك اننا محتاجون (ملي الأقل مثل من سبقونا في البلاد الأخرى) الى الاقتراب من السلوك البشري بطريقة موضوعية تسمح لنا بالمرقة الصادقة لجوانبه للتقدم في الطريق السليم بالخطوات الملائمة ؟

ان الامتداد المنطقي للخط الذي رسمه هذه الحقائق بالغ لخطورة ، أعني ان الاستنتاجات البعيدة التي يمكن ترتيبها على هذه الحقائق وامثالها هامة جدا .

لكن هذا كله لا يدخل في اطار هذا الحديث . الشيء المهم هو أننا رتبنا على الجميع بين السلطة وبين العلم بهذه الحقائق شعورا بالمسؤولية الأخلاقية وعلى أساس هذا الشعور اتخذنا قرارا بضرورة استخدام المقاييس

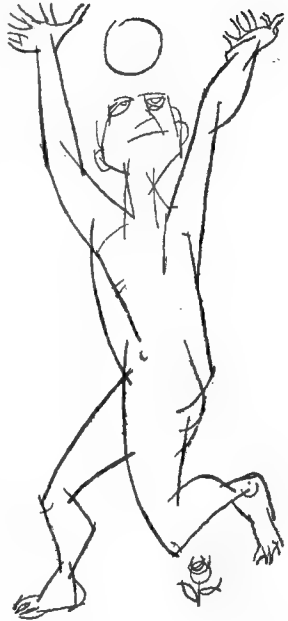
النفسية لقدرات الابداع بين الافراد المتقدمين
للاتحاق بالمعاهد من حيث حسن استعداد كل
منهم للاستفادة من الدراسة في هذه المعاهد .

نتقل الآن الى الحديث عن المبادئ التي
راعيها في اختيار مقاييسنا قبل المضي في هذا
الاتجاه اود ان اساعد على ازالة ابس معين وفر
في بعض الازهان فقد ارتبطت كلمة « اختبار »
بحكم معناها القوي بكلمة « امتحان » واخذت
الأمور مآخذاً معيناً في اتجاه ان هذا امتحان
ضمن الامتحانات التي يمر بها الطالب عند
الدخول ، حتى لقد تساءل البعض : كيف
تمتحنون أبناءنا في مسادة علم النفس وهم لم
يدرسوا علم نفس .. وهذه كلها أمور لا صلة
لها بمقاييسنا ولا بطبيعة القياس النفسي بوجه
عام ، فكلية اختبار في الواقع ترجمة هربية
غير دقيقة لكلمة Test . ونحن عندما نستخدمها
الآن نستخدمها خضوعاً لثقل التاريخ فقط ،
ولكن Test نستخدم كذلك كمصطلح طبي ،
فالاطباء مثلاً يتكلمون عما يسمونه
Liver Function Test لا يستطيع أحد ترجمة هذا التعبير
بامتحان يجري للكبد من أجل وظيفة معينة
وانما المقصود بالمصطلح في هذا المجال اننا بصدد
فحص معين .

واذا كنا نقصد عندما نقول Liver function test
اننا نفحص الكبد من ناحية معينة ، فذلك يمكن
القول اننا حين نذكر Psychological Test
نقصد فحص وظيفة نفسية معينة .. الخ ، من
اجل هذا ولكي اناي بنفسي قليلاً عن هذا اللبس
أحاول بقدر الامكان ان استخدم الكلمة التي
كنا نود ان تسود بيننا وهي كلمة المقاييس او
المقياس كترجمة لكلمة Scales او Scalling
راعيها عند اختيار مقاييسنا عدداً من المبادئ :

المبدأ الأول : ان تكون متناسبة للعصر ،
والمختصون يعرفون ما يترتب على ذلك في
السن الصغير . كانت المقاييس المستخدمة
امتحانات قبول الاعدادى مقاييس اداء على
Performance ولم تكن مقاييس لفظية ، وهذا
كما نعلم من دراساتنا النفسية يعنى اننا نتعامل
حسب ما تقتضيه سيكولوجية الطفل ، فالعامل
بالالفاظ اصعب واشق على الاطفال من التعامل
الحركي ، ونحن هنا ننفلد اليهم من افضل
وانسب السبل التي تقرينا من نفوسهم .

المبدأ الثاني : اخترنا مقاييس لقدرات
الابداع وليس للذكاء (ألا في حالة واحدة
استخدمنا فيها مقاييس الذكاء ، وذلك في حالة



التي نستخدمها . والمقاييس التي نستخدمها بالنسبة للشخص الواحد متعددة ومتوسط درجة الثبات التي توفرت لها ٠.٧١ .

المبدأ الخامس : أن يكون قد سبق اجراء تحليل عاملي لهذه المقاييس وذلك لكي يتبين لنا قدر معقول من صدق هذه المقاييس - تحليل عاملي في مصر وتحليل عاملي أو تحليلات عاملية في الخارج .

المبدأ السادس : أن نستخدم عدة اختبارات لكل طالب واحد ولا تقتصر بأي حال من الأحوال على استخدام مقياس واحد فقط ، هذه النقطة الخاصة باستخدام عدد من المقاييس تعتبر نقطة هامة لأننا نستطيع أن نضم لدرجات (وهذا بالضبط ما نفعله) التي ينالها الطالب على المقاييس المحددة (١) . وبعد ضمها بهذه الصورة تصبح الدرجة التي نحصل عليها أكثر ثباتا أي أكثر دقة من كل درجة على حدة من الدرجات الجزئية التي أوصلتنا الى هذه الدرجة الكلية . وبعبارة أخرى فإن هذه المقاييس التي بدأنا بها وهي على درجة معينة من الدقة تنتهي منها الى ما يشبه أن يكون مقياسا واحدا يضمها جميعا ، وهو على درجة من الدقة تفوق درجة كل منها (٢) .

لا أريد أن أدخل هنا في تفصيل الطرق الفنية (تكتيكات) التي توضح كيف تزيد درجة دقة أو ثبات المقاييس إذا صممت معا لتكون منهنا مقياس واحد كبير ، ولكن سأشرح بعبارة مختصرة من الناحية المنطقية لماذا تزيد الدقة .

للتصور منطقيا أن كل مقياس من هذه المقاييس يأخذ هيئة من سلوك الشخص ، هذه

(١) وطريقة القم لها أسلوب احصائي معين إذ لابد أن تحول ثبل أن تضم حسابيا على النحو التالي : تحول الدرجات الضام الى مايسمى درجات تائية T. score . وبعد ذلك نستطيع أن نضمها ،

(٢) هنالك طرق أخرى لقم درجات المقاييس الجزئية لتضم مقياسا كليا ومنها على سبيل المثال القم بعد اجراء تحليل عاملي للمقاييس للتعرف على الجزء من الدرجة الكلية الذي تمثله عاملها درجة كل مقياس في بناء الدرجة الكلية ونحن بسبيلنا الى استخدام هذه الطريقة بعد أن تم الاتفاق بين أكاديمية الفنون وبين مركز الحساب العلمي الالكتروني بجامعة القاهرة لاستخدام الامكانيات الهائلة للحاسب الالكتروني من حيث السرعة من حيث الدقة لاجراء الحسابات المطلوبة . ومع التسليم بان هذا الاسلوب سيضيف من دقة حساباتنا إلا أن الامانة تقتضينا أن نقرر ان هذه الزيادة لن تؤثر بشكل ملموس في النتائج العملية للتطبيق .

صفار السن الذين يبدأون حياتهم المدرسية ، استخدمناها فقط لكي نستبعد المتخلفين عقليا . أو للنصح باستعدادهم وكأختبار لصدق هذه المقاييس نصحنا في العام الماضي بعدم قبول ثلاثة تلاميذ من صفار السن في أحد المعاهد ، وشعرنا بقدر من عدم رضا المسؤولين الفنيين في المعهد بهذه التوصية ، فقلنا نترك التجربة لكي نتعلم منها كلنا ، وفي هذا العام رسب الأطفال الثلاثة ، اما بالتخلف في بعض مواد أو بروسوب كامل ، في حين أن الأطفال الذين نصحنا بقبولهم رسب منهم فقط حوالي ٢٠ ٪) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم نضم مقاييسنا مقاييس للساعات الزاجية للشخصية وعلى ذلك فإذا كانت هناك بعض المخاوف (التي راودت بعض المواطنين من حين أن بعض المعلومات التاريخية التي نعرفها عن المبدعين من رجال الفن ورجالي العلم . . الخ تدلنا على أن الكثيرين منهم كانوا يعانون من اضطرابات نفسية ، تصل ببعض أحيانا الى درجة السذاهن ، أي الى درجة الجنون ، أمام هذه المخاوف نود أن نوضح أننا لا نستخدم مقاييس للشخصية ، واقتصرا على مقاييس قدرات الإبداع فقط .

المبدأ الثالث : أننا نحرينا أن تناسب مقاييسنا نوعية النشاط الفني التي سيقبل عليها الطالب ، فبالإضافة الى مجموعة من مقاييس قدرات الإبداع الأساسية التي دلت البحوث التجريبية في العشرين السنة الأخيرة كل عمل إبداعي سواء كان في العلم أم في الفن على أنها هي القدرات التي لابد من توافرها في أم في التكنولوجيا . . الخ بالإضافة الى هذا فنحن نقيس بعض الجوانب التي تفيد الدراسة النوعية في معهد بهيئته مثال ذلك : إذا كان الطالب مقبلا على الالتحاق بمعهد تحتاج الدراسة فيه الى قراءة البوثة الموسيقية ، فأنسا نضيف اليه اختبارا لسرعة الإدراك البصري ودقته ، وإذا كان الطالب مقبلا على الدراسة في معهد يستطلب الدراسة فيه العزف على آلة من الآلات الموسيقية ، وهذا يحتاج الى قدر من مرونة الأصابع ، وإلى قدر من السيطرة على حركة اليد ، في هذه الحالة نستخدم مقياسا أو مقاييس للتعرف على مرونة اليد ومرونة الأصابع وهكذا .

المبدأ الرابع : بالإضافة الى هذه المبادئ الثلاثة اشترطنا درجة ثبات أو ما يمكن تسميته بوجه عام درجة دقة معقولة في هذه المقاييس

القاموس الاصطلاحي للموهبة نجد أن الموهوبين على أى قدرة من القدرات لا يزيدون على ٢٥٪ من أبناء المجتمع بمعنى أنه إذا تصورنا أننا قسنا أى قدرة من القدرات ووزعنا درجاتها ورسنا منحني التوزيع سنلاحظ أننا إذا أخذنا عينة كبيرة ممثلة للمجتمع تمثيلا جيدا اقترب المنحني من الشكل الاعمدة وعلى هذا الأساس فإن ال ٢٥٪ التي تقع في قمة التوزيع الخاص بهذه القدرة النفسية التي يقيسها تتنثل بالفعل من يمكن أن نطلق عليهم لفظ الموهوبين (٢) .

إذا حسبنا الحسبة على أساس تجديد الموهوبين على النحو الذي تحدده الدراسات التي اعتمدت عليها القواميس المتخصصة ستكون أدنى درجة مقبولة لأى موهوب على مقياسنا واقعة بين ٧٠ ، ٨٠ تقريبا (١) .

ولما كانت درجات ثبت المقاييس التي نستخدمها معروفة لنا (٢) فانتنا نستطيع أن نحسب ما يسمى بالخطا المعياري للدرجة التي نحن بصدها . ولهذه الدرجة معادلة معينة نوردناها فيما يلي :

الخطا المعياري للمقياس = $E \times \text{الجذر التربيعي لـ } (1 - r)$

حيث E = الانحراف المعياري على المقياس

r = درجة ثبات المقياس

فإذا طبقنا هذه المعادلة على المقياس الكلي للابداع على أساس أن درجة ثباته ٠.٩٠ ، والانحراف المعياري عليه = ١٠

فإن الخطا المعياري في هذه الحالة = $10 \times \text{الجذر التربيعي } (1 - 0.9) = 3.3$

ونحن نحدد ثقتنا في أية درجة على المقياس بأنها غالبا لن تزيد على ما يساوي ضعف الخطا المعياري فوق الدرجة ونعتبها . بصارة أخرى أن أية درجة ينالها الشخص على مقياسنا إذا لم تكن

العينة عبارة مثلا عن جزء من مائة من سلوكه ، نحن نحكم على السلوك بناء على هذه العينة وكلما كبرت العينة المقيسة كان الأرجح أن تصبح أكثر تمثيلا للسلوك المطلوب قياسه وبالتالي تكون النتيجة أكثر استقرارا وتجمعنا أكثر اطمئنانا على سلامتها وبهذه الصورة نصل إلى درجة أكثر ثباتا وعلى هذا الأساس فانتنا إذا استخدمنا مقياسي درجة ثبات كل منها ٧١.٠ ، فانتنا نتوقع أن تكون درجة الثبات النهائية أعلى من ذلك فتصل إلى ٩٠.٠ ، وأمام دارس علم النفس والمتخصصين منا مثال على ذلك ، مقياس وكسلر للذكاء فمن المعروف أن درجة ثبات كل مقياس فرعي من أجزائه منخفضة نسبيا . وهي تتراوح غالبا من ٦٠.٠ إلى ٧٠.٠ تقريبا وبضم هذه المقاييس الفرعية Subscales معا نجد أن درجة الثبات الكلية لهذا المقياس تصل إلى أكثر قليلا من ٩٠.٠ .

المبدأ السابع : بعد كل هذه الاحتياطات لم نفرد إطلاقا بتطبيق المقاييس النفسية لنجعلها المعيار الأول والأخير في الالتحاق بالمهاد بل احترامنا التراث واحترامنا مشاعر الزملاء القاسمين على الامتحانات بصورتها التقليدية واحترامنا خبرتهم واحترامنا كذلك بشرتنا الناقصة فقد تكون مخطئين ولو بنسبة ضئيلة . إذن لنترك للتراث أن يؤدي دوره فتسير الامتحانات التقليدية إلى جانبنا وأكثر من هذا أيضا جعلنا لهذه الامتحانات التقليدية ٦٠٪ من الدرجة التي تحكم نهائيا بقبول دخول الطالب (١) و ٤٠٪ للمقاييس النفسية (٢) ثم حددنا درجة دنيا على المقياس النفسى الكلى انكون بالطريقة التي شرحتها آنفا وكانت هذه الدرجة ٥٠ (خمس) علما بأن الدرجة النهائية على هذا المقياس ١٠٠ (مائة) .

لماذا حددنا درجة ٥٠ بالذات كحد أدنى ؟ يمكن توضيح ذلك على النحو التالي :

نحن في هذا المجال ، مجال دراسة الفنون نكثر من الحديث عن الموهبة وقد كتب الكثيرون بألمهم في أن تخرج لنا هذه الأكاديمية الدارسين الموهوبين أو الفنانين الموهوبين وكلمة الموهبة لها معنى محدد في الدراسات النفسية ، وبالتعريف

(١) رغم اقتناعنا من الناحية العلمية بأن الاسود ينبغي أن يتم على نحو آخر ، غير أننا مقتنعون كذلك - وفي الوقت نفسه - أن القرارات التي تتضمن نوعا معينا من التمييز الاجتماعي يجب ألا تقام على الحقيقة العلمية فحسب ولكن على هيئة الرأي العام كذلك ..

(٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى القواميس النفسية ومن اصحابها قاموس English Comprehensive Dictionary for Psychological and Psychoanalytical Terms

وهي تكاد تجمع على تعريف الموهبة على هذا النحو (١) يلاحظ أن المتوسط ٥٠ والانحراف المعياري ١٠ وقاعدة التوزيع مقسمة إلى خمسة انحرافات معيارية لأن الدرجات التي ندخلها في حسابنا هنا درجات تائية. (٢) وهذه هي إحدى الميزات الهامة التي تميزها من الامتحانات التقليدية .

هي بالضبط درجته الحقيقية فلن تخرج درجته الحقيقية على أن تكون أكثر أو أقل من هذه الدرجة بمقدار ٦٦° . وفي حدود هذا المدى نولي ثقتنا للدرجة التي نحن بصدها .

فلنفرض الآن أن شخصا حصل على ٨٠ على الحقيقية تتراوح بين ٧٣° و ٨٦° . وإذا حصل المقياس بالدقة والإمانة تقتضينا أن نقول أن درجته على درجة مقدارها ٧٠ فالأمانة تقتضينا أن نقرر أن درجته الحقيقية تقع في موضع ما بين ٦٣° و ٧٦° .

ومن الواضح أن هذا المدى يتأثر في تحديده بدرجة ثبات المقياس .

فلنفرض أن ثبات المقياس كان ٧٠ فقط فيكون الخطأ المعياري $= 10 \times \text{الجذر التربيعي لـ } (1 - 0.7)$ = ٥.٥ عندئذ تكون الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٩ و ٩١ .

وتكون الدرجة ٧٠ واقعة بين ٥٩ و ٨١

فإذا ضبط ثبات المقياس إلى ٦٠ :
فان الخطأ المعياري $= 10 \times \text{الجذر التربيعي لـ } (1 - 0.6)$ = ٦.٣ عندئذ تكون الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٧° و ٩٢°
والدرجة ٧٠ واقعة ٥٧° و ٨٢°

هنا ينبغي للقارئ أن يتوقف ويتأمل الدرجة ٥٠ التي حددناها كحد أدنى يجب أن يحصل عليه المتقدم للاختبار بمعاهد الأكاديمية . أن الحصول على ٤٥ إذا قبلناه بمعناه أننا نعتبر درجة الموهبة ٧٠ ودرجة ثبات المقياس ٦٠ . ومع ذلك فقد حصلنا عن ذلك ووصلنا إلى القبول عند درجة ٥٠ لا لشيء إلا لكي نضمن أننا لم نخطئ بترك أي شخص يكون موهوبا .

وبطبيعة الحال كان يعني ذلك أننا أخطأنا في الاتجاه المضاد بأخذ عدد من غير الموهوبين ولكننا فضلنا هذا النوع من الخطأ على النوع الأول لأن الخسارة تكون فادحة حقاً بالنسبة للمجتمع إذا تركنا الموهوب الحقيقي .

هذا هو الأساس العلمي الرياضي لوقفنا عند الدرجة ٥٠ ونتيجة لهذه الاحتياطات جميعا حصلنا على نتائج نحكم عليها بضميرنا بأنها تدعو إلى درجة عالية من الإطمئنان .

والرسم البياني ص ٩ ، يوضح إحدى النتائج التي حصلنا عليها من المقاييس النفسية مقارنة بنظيرها للاختبارات التقليدية في أحد معاهد أكاديمية الفنون .

هذا الرسم يقدم منحنيين ، أحدهما يمثل توزيع النتائج على المقاييس النفسية للإبداع (وهو المرسوم بالخط الثقيل) ، والآخر يمثل توزيع النتائج على امتحانات القبول التقليدية التي طبقت على المرشحين أنفسهم الذين تلقوا النفسية (١) . ومن الواضح أن الفرق كبير بين التوزيعين . فالتوزيع على حسب نتائج القياس النفسي تسميه عندما يتخذ هذا الشكل الواضح في الرسم توزيعاً اعتدالياً أو قريباً من الاعتدال . وهو توزيع يدل على أن أداة القياس تدرجت تدريجاً معقولا من الصعوبة إلى السهولة فتنتج عن ذلك هذا الشكل المعقول في التوزيع ويتلخص في أن عددا ضئيلا نال درجات منخفضة ضئيلة ، وعدد ضئيلا آخر نال درجات مرتفعة أما الغالبية فهم أقرب إلى الدرجات المتوسطة . هذا التوزيع تسميه معقولا لأنه نمط يتكرر بالنسبة للغالبية العظمى من خصائص الكائنات الحية ، ابتداء من أطوالها وأوزانها حتى الخصائص أو الوظائف النفسية ومن بينها قدرات الإبداع التي نحن بصدها . وقد تنبه أهل الاختصاص إلى أهمية هذا النمط أول ما تنبهوا في مجال الخصائص البيولوجية ، ثم امتد نظروهم إلى بعض الخصائص السلوكية ، ثم أصبح النمط قاعدة نحاول أن نخضع لها فنحققها في التوزيع الذي نخرج به على كثير من مقاييسنا التي نحاول أن نضعها للوظائف النفسية الحديثة الاكتشاف .

في مقابل هذا نجد التوزيع (٢) الذي يشير إليه الخط المنقط الخاص بالامتحانات الفنية . وأهم ما يميزه الارتفاع الواضح عند الطرفين الأدنى والأعلى ، والاختفاض الشديد المتصل بين هذين الطرفين . ومعنى ذلك أن هذه الامتحانات الفنية لم تكن متدرجة بما فيه الكفاية ، بل كان يرتب عليها إما إعطاء درجة منخفضة جدا أو درجة

(١) لكي يمكن مقارنة الامتحانات التقليدية بدرجات المقاييس النفسية حولنا الدرجات التالية إلى درجات ثابتة مدلة لتصبح متدرجة من صفر إلى مائة .
متدرجة من صفر إلى مائة .

(٢) الفرق بين عدد من تلقوا الاختبارات الفنية وبين من تلقوا المقاييس النفسية ناتج من تعيب البصيف.

وقد بدأ التقدم في ميدان دراسة الأطفال لان تناولهم أسهل وأطوع ، ثم تطور ووصل بنا الى مزيد من الضبط في جميع الملاحظات على سلوك الراشدين .

وبالنسبة للمبدعين في الفنون والعلوم توجد مصادر مختلفة يرجع اليها ، وقد رجع اليها المختصون فعلا عند تكوين هذه المقياس . ومن هذه المصادر على سبيل المثال ما يأتي :-

أولا : التقارير الاستبطانية عن عملية الابداع كما وردت بصورة تلقائية عند بعض المبدعين مثال ذلك بعض الكتابات التي تركها ليونارد دافنشي وغيره من المبدعين في مجال النحت والتصوير والموسيقى والادب ... الخ ترك هؤلاء - المبدعين تقارير عن مشاعرهم أثناء عملية الابداع ، وقد كتبت بصورة تلقائية في أثناء كتابتهم خطابا لشخص من الاشخاص ، أو في أثناء تدوينهم المحوطة لاحظوها على انفسهم وانارت اهتمامهم في أثناء الابداع ليسجلونها أو يقلدونها لتلاميذهم كنوع من توريث الخبرة .

ثانيا : وبالإضافة الى هذه التقارير التلقائية توجد تقارير استبطانية غير تلقائية ، كان يكونوا قد أغروا بكتابة سير حياتهم ، مثال ذلك ستيفن سبندر World within الذي قسم كثيرا من المعلومات عن حياته تعتبر عينة صالحة نقيم عليها تحليلات كثيرة ، وتقنيس منها عناصر كثيرة هناك أيضا بولي كلي وتوماس مان وغيرهما كثيرون .

ثالثا : وبالإضافة الى التقارير الاستبطانية توجد الملاحظات التي تجرى على المبدعين من خلال سيرهم ، وتعرض هذه الملاحظات في كتب معينة تؤرخ لهم مباشرة .و من خلال التأريخ لحركات فنية معينة مثال ذلك أنه أصبح معروفا عن شاعر مثل لورد بايرون السهولة أو الطلاقة التي كان يفيض بها شعرا ، كذلك عرفت مثل هذه السهولة أو الطلاقة عن أديسون المخترع التكنولوجي في أواخر القرن ١٩ (طلاقة تصوراتهِ وأفكارهِ التكنولوجية) مثال ذلك أيضا بيكاسو والطلاقة التي تنطلق بها تصوراتهِ التشكيلية .

رابعا : سيرة المبدعين المكتوبة نتيجة الملاحظة عن قرب ، وقد قدر لبعض المبدعين اقتراب بعض مصداقائهم أو المعجبين بهم منهم وكان هؤلاء الاصدقاء أو المعجبون يدونون عن المبدعين كل صغيرة وكبيرة . مثال ذلك صداقة جيمس ساباترين بيكاسو ، فقد كتب لنا ساباترين أشياء كثيرة على

مرتفعة جدا ولا وسط بين الطرفين . وهذا طراز من النتائج لا يتفق والمفهوم الاساسي لاستعدادات التفكير الابداعي التي نحاول أن نقيسها عند المتقدمين الجدد للمعاهد الأكاديمية ، ولا يتفق والاساس العميق لعمليات التكوين الكمي التي يقدمها العلم الحديث في أي فرع من فروعهِ .

هذا الرسم مثال واحد من أمثلة أخرى متعددة حصلنا عليها من تحليلنا لنتائج القياس النفسي ومقارنتها بنتائج الامتحانات الفنية التي نعدها في مسابقات القبول بالمعاهد . ومع ذلك فقد أبقينا الامتحانات الفنية على ما هي عليه واكتفينا بإضافة المقياس النفسية الى جانبها بالصورة التي اوضحناها ، لا شيء الا اعتبارات احترام ماجرى الناس عليه واحترام المشاعر والعادات التي كونوها حول هذا الذي جرى عليه

بعد عرض هذه النتائج نتوقف عند سؤالين دارا بالأذهان :

الأول : كيف يمكن تكوين مقياس للابداع الفني أو لجانب من جوانب الابداع .

الثاني : هل أجريت دراسات محلية على هذه المقياس وعلى مفاهيم ميدان الابداع قبل استخدامها تطبيقيا ؟

الاجابة على هذين السؤالين على النحو التالي :-

فيما يتعلق بالسؤال الاول : كيف يمكن تكوين مقياس للابداع في الفنون أو - الابداع عامة ؟ أو كيف يمكن تكوين مقياس لاي وظيفة نفسية ؟

الطريقة من حيث خطوطها الرئيسية تكون على النحو الآتي : تؤخذ عينة من مظاهر السلوك التي نريد أن ندرسها ، وهناك طرق معينة لآخذ العينات عموما يعرفها المتخصصون ... ويمكن القول بأن مسألة أخذ العينة من المادة التي نريد دراستها تمثل مبدءا علميا عاما في المرحلة الراهنة من تقدم العلوم .

وللمتخصصين في علوم النفس طرقهم الفنية في أخذ العينات ، ومن بين هذه الطرق الرجوع الى كافة المصادر التي سجلت فيها جوانب مختلفة من حياة هذا الشخص إذا لم يكن هذا الشخص قائما آمنا ، أما إذا كان قائما آمنا وضع موضعنا الملاحظة بطرق متعددة .

وقد تقدم علماء النفس بدرجة ملحوظة في هذا الميدان ، ميدان طرق الملاحظة المضبوطة لمظاهر السلوك المختلفة ابتداء من ثلاثينات هذا القرن ،

درجة عالية من الأهمية عن بيكاسو كذلك سميت
ايكرمان عن جيته وهو على مقربة منه ، وكتب عن
كانكا . . الخ .

خاصا : ما يحصل عليه علماء النفس نتيجة
مسألتهم لبعض المبدعين مثال على هذا الفردي بينيه
مع بول أدركيه فقد تمكن الفردي بينيه العالم
نفسى من الاتصال بالاديب الفرنسى بول أدركيه
واستبره بعدد كبير من الاسئلة كشفت عن كثير
من جوانب عملية الابداع لدى هذا الاديب .
وفى نفس الاتجاه تمكن ماكس فوتهيرعالم النفس
الالماني من استخبار البرت اينشتاين ، وكانت
النتيجة باهرة من حيث الحصول على معلومات
على قدر لا بأس به من الأهمية من وجهة النظر
السيكولوجية .

سادسا : تحليل أعمال المبدعين من حيث عملية
الابداع نفسها وتتلخص هذه الطريقة . فى تتبع
عملية الابداع وخاصة فيما نسميه بالمسودات أو
المحاولات الأولى المتوالية التى يجتازها الفنان الى
أن يصل الى المرحلة الأخيرة التى يرتضيها ويقدمها
لنا ، والمثال الواضح لهذا الأسلوب الدراسة التى
نشرها سنة ١٩٦٣ رودلف أرنهايم عن جيورجيا
بيكاسو . وقد قام بدراسة وتحليل عدد من
المسودات المتوالية لهذه اللوحة . مثال أسبق من
ذلك ما قما به من دراسة بعض مسودات لشعراء
مصريين وعرب هذه المصادر الستة وغيرها تؤخذ
منها معلومات لاحصر لها عن مختلف مظاهر السلوك
الابداعي . ثم تجرى عليها التحليلات الاحصائية
المتوالية التى تعرف باسم تحليل المضمون وتحليل
البشود ، وتنتهى فى النهاية الى مجموعة هامة من
العناصر التى تعرف انها اذا توفرت تكون دليلا
على أن نسق الحياة لهذا الشخص تشبیه بنسق
الحياة للشخص الذى استمددنا منه هذه المادة بعد
أن أثبت نفسه فى الحياة .

انتهت نفسه فى الحياة .
هذه خلاصة اجابتنا على السئلة الأولى .
السؤال الخامس : وهو المتعلق بالدراسات
المحلية . سافر فى حصر سريع لهذه الدراسات :
الدراسة الأولى : الاسس النفسية للابداع الفنى
فى الشعر ، وقد بدأت سنة ١٩٤٦ وانتهت منها
ونشرت سنة ١٩٥١ وهذه الدراسة عبارة عن
تحليل كیفى لمصطلح الابداع وشروط انطلاقها .
الدراسة الثانية : وهى دراسة نظرية تمت
سنة ١٩٥٧ وكان موضوعها « مقاييس القدرات
الابداعية » عرض وتقد ومناقشة للإمكانات
الاكاديمية « قدمتها الى جامعة لندن سنة ٥٩
بمناسبة وجودى هناك فى مهمة علمية ونشرت



سنة ١٩٥٩ وعلى ضوء هذه الدراسة نشرت الكتيب المعروف باسم البعيرية في الفن .
الدراسة الثالثة : « عملية الابداع لدى المصورين » وقد اتممتها على المرحوم افنان المصور محمود سعيد ، وهي عبارة عن تحليلات كيفية ، وفيها تحليلات كمية ببناء على عدد من مقاييس الابداع ومقاييس الشخصية ، ولم تنشر هذه الدراسة بعد .

الدراسة الرابعة : « الاستعدادات الابداعية وعلاقتها بالسمات المزاجية للشخصية » قام بها بالاشتراك معي الاستاذ عبد الحليم محمود في جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢ وقد استخدمنا فيها عددا من مقاييس القدرات بعد أن طوعناها بناء على مقتضيات البيئة ، وبعد أن حسبنا لها درجة الثبات بطريقتين مختلفتين بطريقة التقسمة النصفية Split half وطريقة ثبات التصحيح Inter scorer reliability . وثبات المقاييس ثم استخدمناها ، وقد كان عدد مقاييس الابداع في هذه الدراسة ١٢ مقياسا ثم حلت عاملها وأجريت المقارنات بين نتائجنا والنتائج التي نشرت في الخارج على هذه المقاييس في شكلها الخارجية .
الدراسة الخامسة : الاستعدادات الابداعية والمرضى العقلي ، تقوم بها حاليا ، ويشترك معي فيها الاستاذ صفوت فرج في جامعة القاهرة ، بدأنا سنة ١٩٦٥ على ٢٠٠ شخص من الاسوياء و ٢٠٠ شخص من الذهانيين نزلاء مستشفيات الامراض العقلية هنا في مصر ، وقد فرغنا من أجزاء كثيرة من هذه الدراسة ، ونستطعن أن نضم ثلاث مقاييس جديدة لجوانب في الابداع لم يكن قد صمم لها مقاييس من قبل ، ونحن الآن بسبيل نشر هذه المقاييس في الخارج .

الدراسة السادسة : الفروق بين الجنسين في الاستعدادات الابداعية - تقوم بها بالاشتراك معي السيدة ناهد رمزي منذ سنة ١٩٦٦ على ١٥٠ تقريبا من الذكور و ١٥٠ من الإناث ، وعند مقاييس الابداع التي استخدمت ١٤ مقياسا أجريت عليها التعديلات اللازمة ، وحسبت لها معاملات الثبات ، وكونت إلى جانبها مقاييس جديدة على نسقها .

الدراسة السابعة : دراسة الابداع الفني في الرواية ، عملية الابداع الفني لدى الروائيين . وهنا لا تستخدم مقاييس للقدرات أو الاستعدادات الابداعية ، ولكن تستخدم ما يسمى استخبارا محددًا ومقننا Standard Questionair ، ونطبقه على عدد من كتاب الرواية المصريين ،

ويشارك معي في هذه الدراسة الاستاذ مصري عبد الحميد حنورة منذ سنة ١٩٦٧ في جامعة القاهرة .

الدراسة الثامنة : « الابداع الفني وعلاقته بمستوى التوتر النفسي » وتقوم بهذه الدراسة معي السيدة سلوى الملا على حوالي ٥٠٠ شخص التهيئنا فقط من مرحلة التجربة الاستطلاعية ، وهي تبشر بنتائج ايجابية ، وخطوتنا القادمة هي التجربة لاصلية الموسعة .

الدراسة التاسعة : دراسة نمو القدرات الابداعية : وهنا نأخذ عددا من الأعمار المتوالية ، ويقوم بهذه الدراسة معي الاستاذ زين العابدين عبد الحميد منذ سنة ١٩٦٧ على حوالي ٣٠٠ شخص من الذكور يمثلون ثلاث مراحل عمرية متتالية .
الدراسة العاشرة : دراسة السياق النفسي الاجتماعي للابداع ، يقوم بها معي الاستاذ عبد الحليم محمود منذ سنة ١٩٦٨ لا تزال نوضح فيها مفاهيمنا النظرية ، ولم نحدد بعد الخطوة النهائية التي سنتقدم بها للتجربة .

الدراسة الحادية عشرة : دراسة الإصابة وعلاقتها بأسلوب الشخصية كما يتكشف في بعض أساليب الاستجابة Response Set ، يقوم بها بالاشتراك معي الاستاذ عبدالستار ابراهيم في جامعة القاهرة أيضا .

من هذه القائمة يتضح أننا قمنا بدراسات محلية عديدة وتقوم هذه الدراسات على استخدام مقاييس الابداع وعلى تحليل عملية الابداع ، وقد تأكد لدينا بكل ما تعني كلمة التأكد في العلم من معنى من قيمة هذه المقاييس في بيئتنا وجدواها وكفاءتها من حيث احتفاظها بالخصائص التي تجعلها أدوات عملية قيمة أي على درجة عالية من الدقة والموضوعية والصدق .

إلى هنا أتوقف عن الحديث عن مقاييس الابداع الفني وأعود مذكرا بالأسئلة التي بدأت بها ولاسيما السؤال الأول :

هل نحن كمجتمع نريد فعلا أن نصبح مجتمعا يهتدى بالبحول العلمية في مواجهة مشكلاته ؟ والتخطيط لحياته ؟

أرجو أن نوفق فعلا في هذا الاتجاه ، أرجو أن نوفق فعلا إلى الخير مهتدين بشور العلم ، وأن نوفق إلى احترام التخصص .

مصطفى سويلف

قضية الحرب النفسية

د. أحمد فنيق

- إن تأمل تاريخ الصراع الإنساني وحروبهِ ، يبرز حقيقة أقرب إلى أن تكون قانوناً لفهم انقلابات الأحداث وتطوراتها : مدلاطية الرهينة لمن يستطيع الانتصار ، ومنه لا يستطيع الرهينة لمن يطعن الانتصار .

● تمهيد لفهم الحرب النفسية

منذ حرب يونية ١٩٦٧ ونفوس الناس في مصر تتحرك متاجعة وتلور لورات لم تمهدا منذ زمان بعيد ، وعقولهم في نشاط وتلرز .. نفوس تبحث عن جوابها أو تقول تبحث في عقل مؤلف يبدو أمامها محيراً غاية التحير . وكان أول تساؤل طرح بعد الهزيمة : ماذا حدث ؟ كانت الهزيمة من نوع غريب .. سريعة بللت في سرعتها حداً لم يتوقعه المنتصر والمتهمز على السواء ، غير متناسبة مع القوة الفعلية للطرفين المتحاربين ، ناقصة لكل من الفريقين رغم كمالها الظاهري . لذلك وقف الشعب المصري - وبالرغم من كل ما حدث - حائراً أمام ما حدث له وما حدث منه . ومرد الحيرة في واقعه يعود إلى أمرين :

أولاً : أنه بالرغم من تعظيم القوة العسكرية المصرية تعظيماً كاملاً تقريباً ، لم يتقدم العدو إلى غرب القناة . وكان واضحا بشكل ما أن عدم تقدمه لم يكن لأسباب عسكرية خالصة أو لأسباب سياسية .

ثانياً : أنه بالرغم من ظروف عديدة ومتنوعة سبقت الحركة ، فخرى العدو بتوجيه ضربة حاسمة للنظام في مصر ، فوجه الجميع بأن الشعب المصري - وعلى عكس ما كان يشاع - يتمسك بولئك تمسكاً بلغ حداً من القوة لم يكن في حساب أحد .

وبعد التاسع والعاشر من يونية ، تحول السؤال عما حدث

من لا يطبق الهزيمة لن يستطيع الانتصار ، ومن لا يستطيع الهزيمة لن يطبق الانتصار .. وبالرغم من هذه الحقيقة، تشيع في الكتابات السياسية الحالية تغييرات الحركة المصرية : والمرحلة الخامسة ، وما إلى ذلك من تعبيرات تكشف عن توتر شديد وقلق صير . ويمكننا ، مستفيدين من التحليل النفسي ، أن نرجع الموقف النفسي لأصحاب هذه الأفكار إلى سببين :

الأول عدم تقبل موضوعي لهزيمة وتقبل وجداني لها مما جعل أصحاب هذا الموقف لا يطيعون الهزيمة ، أي لا يتحملون غيرها . لذلك تتميز أفكارهم بأنها رد فعل مباشر خوفاً مفرد يمكن إرجاعه إلى ترجسية شديدة جرحتها الهزيمة فالتأت فيهم نوازع الانتقام . والواقع أن الموقف لا يبرر هذا الاتجاه لعدم أسباب . فمصر مصر - وغيرها من الدول ذات القوام التاريخي الثابت - لا يتقرر بهزيمة أو حتى باحتلال كامل . بل لا يوجد بمثل هذا الفرع أن يكون شعاع الاسرائيليين الذين كانوا قبل حرب يونيو في موقف لا يتحمل هزيمة وأصبحوا حالياً في موقف يتحمل هزمتين لا ثالث لهما .

أما السبب الثاني فهو عدم قيام الصراع بيننا وبين العدو على أسس الانتقام . إن الحركة تقتفل من جانبنا عن طبيعتها من جانب . بالنسبة لنا نحن في حروب مع الاستعمار ، واسرائيل قوة استعمارية يجب أن نضعفها بها اصطدامات عديدة لانتصهر بهزيمة كاملة أو انتصار كامل إلا في مدى طويل . فليس هناك مبرر كاف لأن نعتبر صراعنا مع اسرائيل صراعاً أساسه النيك والتجمل والتبصر وما إلى ذلك ، بل هو صراع مصري من حيث ارتباطه بمصر الرأسمالية العالية . فضلاً عن ذلك هناك سبب ثالث يجعل الموقف الترجسي من هزيمة يونيو مؤلماً عظيماً . فقبل حرب الأيام الستة كانت نفس العبارات أملاً للصف ، ولم تكن هذه العبارات في تغير الأمر كما وضع لأصحابها أن المعركة لم تكن مصرية كما ظنوا في ترجسية غلبتهم وعافت بصعهم .

السبب الثاني في شيوع هذه العبارات هو مغالاة المغاوف الترجسية بالتزعات الانتحارية . فمن الخيل النفسية المعروفة أن الرمي الترجسيتين يلجأون إلى الانتصار في شجاعة مفرطة إذا ما خشي عشقهم لصورتهم . وقد كانت هزيمة يونيو خشياً لترجسيتنا جميعاً ، ولكن وقعها على البعض كان أثقل من وقعها على غيرهم . لذلك ظهرت لديهم أعراض الانتحار في شكل تلذذ إلى الدخول في معركة واحدة تمحو عار الماضي وترد للذات مبررات عشقها . ومثل هذا الموقف يأخذ شكليين : انتظار مؤلم إلى حين أعداد قوة ساحقة ترد الانتحار للذات ؛ أو اندفاع بأشلاء قوة في دفعة انتحارية واحدة تنهى على ما بقي لنا من قوة . هذه التحيلة النفسية في الواقع هي مصدر لا يتقطع للخلالات الراى بين المفكرين والمساساة . ومنعج كثير من بسوء فهم لعدد آخر من

إلى كيفية حدوثه . فمن طبيعة الأمور أن تعدل صيغ التساؤلات إذا عجز الموقف عن إجابتها . وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال : كيف حدث ؟ زاد ألوف غموضاً على غموض . لقد اتجهت أغلب المحاولات إلى البحث عن مسئول أو مسئولين عن الهزيمة . بل لقد اترح الرئيس إجابة على هذا السؤال بأن يتحمل مسئوليتها كاملة . ولكن رفض الشعب لهذا الاقتراح كان وليد إحساس بأن السؤال ليس بسيطاً بساطة هذه الإجابة المقترحة . فصعج الهزيمة لا يمكن أن يكون مسبباً بشخص واحد أو بعدد محدود من الأشخاص . والدليل على ذلك أن وفاة الشعب في ٩ ، ١٠ يونيو تشير إلى أن قدرة الجماهير لم تكن منقطعة الصلة بالأحداث بل هي العامل الحاسم في مجرياتنا . وفي هذين اليومين تبين بجلاد أن أدماء البعض باتوا لهم وعجزهم عن المشاركة في مصير بلدهم هو أدماء يقضى سلبية ، ذاتية في الظاهر .

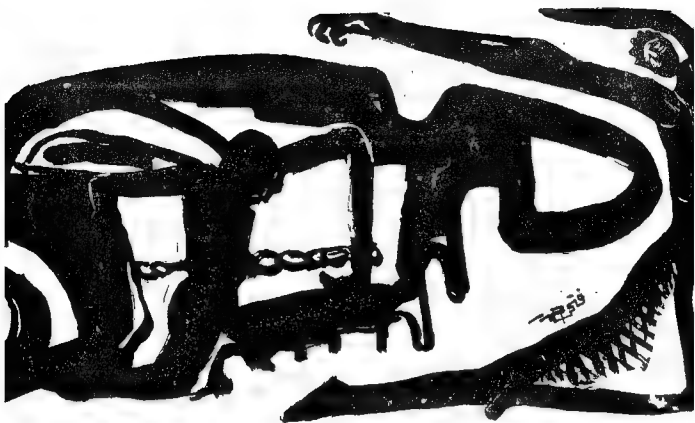
وهكذا أدت أخيرة أمام مشكلة التسؤل عن الهزيمة إلى صياغة التساؤل صياغة ثالثة . إذا كنا جميعاً مسئولون عن الهزيمة بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر : فهل يعني ذلك أننا ذوو خصائص معينة ؟ هل نحن أمة لها صفات نوعية تفسر لنا ما حدث منا ؟

كانت صيغة التساؤل على النحو السابق ذات قوة جذب شديدة لكثير من الكتاب والمفكرين . فبعد الهزيمة اتجهت أكثر الجهود الفكرية إلى البحث عن خصائص الشعب المصري وخصائص العدو . وكان من الطبيعي أن يرجع رد السؤال صدى لما يشره السؤال نفسه من حيرة . فالسؤال يطرح مشكلة أخيرة حول طبيعتنا وما بها من خصائص تفسر الهزيمة، وجاء الرد تصديلاً على مذكوب : أن لنا خصائص يجب أن نحاربها في نفوسنا وأخرى يجب أن نتيج لها فرصة لتبرز حتى نواجه خصائص مقابلة في عدونا .

وبالتدريج برزت النتيجة المحتملة لهذه الصياغة ... قضية الحرب النفسية . أن بلورة القضية واختزالها إلى : ماهي طبيعتنا النفسية وماهي طبيعة العدو - أن اختزال الموقف إلى هذه النقطتين يعني تحويل الحركة - في حوصلها الترتب - إلى معركة نفسية . ولا شك أيضاً في أن اختزال الحركة إلى جانبها النفسي سيؤثر في ملامحه بخصائص النوعية النفسية للشعب المصري وما يقابلها عند العدو . ولنا على هذا الموقف بعض الملاحظات التي أن لم تعد . فلنا على الأقل سوف تمنع بعض الضرر الذي نلحقه حالياً في ثنايا مشكلة الحرب النفسية .

● أسباب لأسباب

إن تأمل تاريخ الصراع الإنساني وحروبه يبرز حقيقة أقرب إلى أن تكون قانوناً لهم انقلابات الأحداث وتطوراتها :



عن الحرب النفسية هو غفلتنا عما حدث في يوليو ١٩٦٧ .
 أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ حدث لم يقتل به بل هو مجرد
 يادرة وعلامة أولئقل هو جزء من حدث مركب غاية التركيب .
 لهزيمة يونيو لابد حدثا الا بفقدان ما جمعت من مقدمات
 منطقية لها . ويكفي لذلك دليلا أن الدور الذي لعبته هزيمة
 يونيو في أحداث السودان وليبيا لا يغنى على من ويشير الى
 أن الهزيمة في ذاتها جزء من حركة دينامية بين قوى الصراع
 في المنطقة العربية . لذلك يمكننا دون تردد أن نرفض منهجيا
 جميع التساؤلات التي قامت على أساس أن هزيمة يونيو حدث
 في ذاته يدل بملأه على أمر محدد . يمكننا أن نرفض تسلسل
 التساؤلات الذي قاد الى مسألة النوعية المصرية - والعربية -
 بدليل أن أحداث هذه الهزيمة وما تلاها لا تعطي أرضا صلبة
 لرأي محدد في مسألة النوعية المصرية .

ثم يتضح أيضا أن البحث عن « التوعية البشرية للشعب
 المصري » يستلزم على مسلمات غاية في التعقيد - وبغض
 النظر عن نتائج هذا البحث - فالشعب المصري لا يختلف عن

المصريين بولفهم من الأحداث موقفا يبدو غامضا في ضوء
 الانحياز لواحد من الشككين .

إن اللزج من جرح نرجسيتنا ومغالبة هذا الجرح بالتزويج
 الى الانتحار المائي والتموى هو الحركة الوحيد لتخط تساؤلاتنا
 منذ يونيو ١٩٦٧ : ماذا حدث ؟ كيف حدث ومن المسئول ؟
 هل العلة فينا وفي شخصيتنا ؟ إن اللزج من عيش نرجسيتنا
 هو الذي حول القضية السياسية الى قضية صمود وتراجع
 نفسيين : لذلك يجب أن نشك شككا منطقيا ودقيقا في قيمة
 ما طرح من تساؤلات حتى لا يعرقلنا حرصنا على نرجسيتنا
 الى الاندفاع الانتحاري أو الشك في نفوسنا شككا يعاقل
 مغالوفنا من الحرب النفسية . علينا أن نتساءل ونبحث بجدية
 عن اسباب للأسباب ، دون أن نستمتع بهذه اللعبة الفكرية
 ممتعة نرجسية .

● بداية تصليح نهاية

إن أول مايشع الشك في جدوى الاندفاع وراء الشائع

من استيعاب التمايز والتناثر بين جماعاته وطبقاته - تحاول تأجيل أهميتها بالنسبة لها - وتأخذ في الإعتبار كذلك المعنى التوسعي للأحداث بالجميع للثبات فتحاول أن تستخرج منه المعنى العام لتجميع الجميع وراء فكرة موحدة - ببادرة أخرى: الحرب النفسية هي هجوم على مكان أكثر وليس دفاعا عن مكان الأمي - وبذلك يمكن أن نجد للحرب النفسية شقين : شقنا لنا وشقا لعدونا . فمن المهم أن نرى الفرق بين الحرب المصنوعة والحرب النفسية لأهمية ذلك عندما نلخص حرب نفسية ضد العدو :

● الغاية والوسيلة

من أهداف يهدف عن الحرب - تبين أن الجنس البشري لم ينجم بالسلام أكثر من ٢٩١ عاما خلال الخمسين قرنا الماضية (٥٠٠٠ عاما) - ومعنى ذلك أن الحرب بالنسبة للإنسان عمل ينطق فيه عاما ويستريح ثلاثة أسابيع ويضع سباعات - وغاية الحرب - مهما تطلعت تحت الشعائر السياسية والوطنية - هي السيطرة على الأرض أي الثروة أو على الإنسان أي قوة العمل - في القرنين الماضيين - فالعقائد العسكرية والحروب الاقتصادية ماضى لا وسائل لقاية من الاستيلاء على الثروة أو قوة العمل - والاستعمار القديم كان يستهدف من الاحتلال قسر المحتل على التخلي عن ثروته أو قوة عمله - أما الاستعمار الحديث فينتج أساليب غير عسكرية تؤدي إلى نفس الغرض وهو : التنازل ياسا أو اقتصادا - من الثروة أو قوة العمل .

لذلك تعد الحروب - عسكرية كانت أو سياسية - وسيلة للانتصار النفسي على شعب آخر - فالغاية عن الحروب هي الانتصار في معركة نفسية تسمح للمنتصر أن يحصل على مبتغاه بأقل جهد - ويمكن أن نرى عن الأسر بشكل أوضح فنقول : أن المارك العسكرية والصقوف السياسية والاقتصادية هي وسائل غايتها كسب حرب نفسية بين متصارعين - ولا أدل على ذلك من فكرة إسرائيل عن حرب يوليو - لقد برح مسئولوها بأنهم ينتفرون من هذه الهزيمة حالة نفسية واقتناعا بغرورة التفاوى - وقد عبر الرئيس عبد الناصر في تصريحاته بعد النكسة عن ذلك بما معناه أننا لن نستسلم - ولهم بوضوح أن الوسائل العسكرية والاقتصادية لم تبلغ بأسرائيل مشارف النصر النفسي

هذا الرأي يفسر لنا مكن أكثر من الاندفاع وراء ما هو شائع حاليا من معنى الحرب النفسية - فالشائع حاليا أن الحرب النفسية وسيلة يتبعها العدو للانتصار العسكري والسياسي - أو وسيلة تنتهجها نحن لتنتصر عسكريا وسياسيا - والواقع إن هذا هو قلب المصطلح بعبارة نتيجة واستبدال القساية

غيره من الشعوب في قابليته للاقتياد وقدرته على الثورة - كما أنه ليس أقل من غيره من الشعوب ميلا إلى التغير والتغيير - وليس أكثر منها نزوعا إلى التحفظ والحفاظ - كل ما في الأمر أنه - ويحكم وضع جغرافي خاص - نجد مرة مكررة خاصية نفسية مميزة في النمط القوي للتغيرات الجغرافية القارئة - فالوضع الجغرافي للشعب المصري يعرضه بصورة أكبر لتيارات فكرية وحضارية وثقافية عديدة - وفي فترات زمنية غير متباعدة ومتكررة - بما يجعله في صراع مستمر مع التغير العارضي والتحفظ الدائم - لذلك لا يمكن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصري - فليسنا على العكس الوهمية التي يبتسبك بها المنطوقون بالتشعب المصري - وليسنا بالمتنوع والمتبادلة التي يتسمك بها المنطوقون من الشعب المصري - بل نجد كثيرا من الشعوب - لنا مثالا وعاشيا ما علينا - إذا كان من الجيد التحكيم بين الشعوب :

والجواب يقولنا التشك المنظم في القضايا المطروحة إلى حقيقة يصعب التغافل عنها - ألا وهي : أنه ليس عندنا شعب وشعب - بل هناك تاريخ وتاريخ - فتعبر - الشعب المصري - عبر مبالغ في مضمونه نظرا إلى الاختلافات التاريخية بين طبقاته وما تعرفيت له عبر زمانها من تحيرات - فالطبقة العاملة في مصر لترب بغيرها التاريخية من الطبقات العاملة في كثير من دول العالم الثالث وتبتعد عن طبقة الرأسمالية الوطنية المصرية ذاتها - لذلك لا يمكن البحث عن نوعية بشرية للشعب المصري - لأنه لا يوجد - مصرى - يمثل المصريين .. إن هذا الرأي يجعل تعميما مخالفا فيه - كما يجب ألا نتكلم عن مصر واحدة في مصر جميع المصريين لأن على ذلك تعاميا عن أهم ماضي الحرب النفسية من جوانب : جانب وحدة الرؤية ووحدة الاحساس بالواقع .

لماذا - أفن - من أن ننظر نظرة أخرى إلى البداية التي بدأت منها الاستأولات - هذه البداية في الواقع تصلح نهاية لهم الحرب النفسية - فالنفسية على النحو الشائع منها تربط بغير آخر غير الحرب النفسية - لها ترابط بما هو معروف بالحرب المعنوية - فالجانب عن - النوعية البشرية - ومهما حل ونجح سوف يكشف عن مناطق الحساسية والعجالة فيها - بما يسمح بعدم القنوى منها والاعتماد على الصلب فيها - والفرق بين الحرب النفسية والحرب المعنوية فرق شاسع - والحرب المعنوية تتلخص بمعالجة منطقية مشاكل - عوضا - تنزع عن التاريخ قسرا - ويصمم دواخوا على جميع أبناء الشعب دون تمييز بين من يعانى ومن هو محسن - ففهوم الحرب المعنوية هو - الصاع - وليس - الهجوم - كما أن الحرب النفسية تتعامل مع الاله Identity - بكن ملامحه الالهية من الغاء للفرق الظاهرة للشخصية Personality - فالألية الشعبية هي لغة اتلاق يمكن بالكشف عنها اللغة الفروق بين الجماعات للفرات متباينة تسمح بالوحدة الوطنية - لذلك تعد الحرب النفسية أمرا يعقد لأنها تلجأ في الاعتبار تاريخ الاله - فما كان فيه

بالوسيلة . إن ما سبق وقلناه بأن هزيمة يوتيو كانت بالنسبة لنا هزيمة من نوع غريب .. ناقصة رغم شدتها ، غير فعالة ورغم فعلها الواضح - إن ما سبق أن قلناه يجب ما يفهمه . لأنه ظن العدو أن الآلية المصرية من التحلل بحيث يمكن للهزيمة تغييرها . ولكن ظهر أن الهزيمة كانت عاملا شديد الفاعلية في كشف هذه الآلية لهم .. بل واكتشاف المصريين أنفسهم لها .

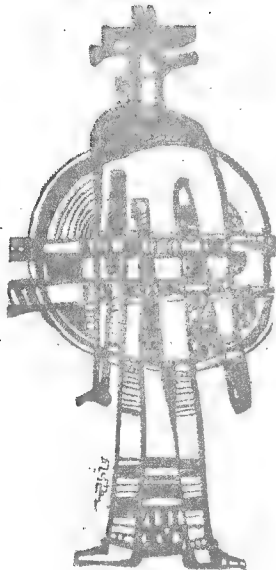
● مشاكل الحرب النفسية

تلك هي بعض الغلال التي تغلف تفاصيل مفهوم دقيق هو مفهوم « الحرب النفسية » ، والحرب النفسية ليست تكتيكا يعاوس للغاية بل هي استراتيجية تحتاج إلى عدة تكتيكات منها إعاقة العدو العسكرية والضغوط السياسية والاقتصادية والحملات الإعلامية التي تشكل حرباً معنوية . فمسلما من ذلك فإن الحرب النفسية ذات شقين ، كل شق منها له مبادئه كما أن العلاقة بين الشقين مشكلة في حد ذاته . مثال ذلك ، أن العدو قد قرر أن الهزيمة كطيلة هزيمة نفسية للشعب المصري . وبعد توقف القتال بدأ في التسليح بالسلام محاولاً أن يستغل حالة الحزن لدينا ليحوّلها إلى حالة يأس . وكان هدفه من ذلك مزدوجاً : واحداً يتعلق بشأنا «الآن» يتعلق به . كان هدفه أن ننظر إلى المستقبل فنرى طريقاً طويلاً لا نلوح فيه بوادر أمل واضح ، ولذلك نأخذ سخطاً شعبياً على السلطة كي نهادن وتنتقم ما تبقى . إلا أن أحداث ٩ ١٠ يونيو أثبتت عكس ذلك ، فلا التفتب وفي بالاستسلام ولا القيادة كانت راقية في الاستسلام أو في الولولة أمام الزحف الشعبي . أما الهدف الثاني كنمو فكان خلق موقف نفسي داخلي لديه يسمح للسلطة العسكرية أن تستمر في سخطها على الشعب اليهودي ليظل حاملاً سلاحه على أساس أن الأمل في السلام قريب . ولكن أحداث ٩ ١٠ يونيو جعلت اليهودي يشك في أنه يسير في طريق السلام أو أن مايراه قريباً هو قريب بالفضل .

لذلك يمكن أن نحدد مشاكل الحرب النفسية في النقاط الآتية :

الحرب النفسية غاية وليست وسيلة ، وإدارة حرب من هذا النوع تحتاج إلى مهارات متنوعة تتأزر تأزراً دقيقاً ، بحيث تعتبر كل مهارة منها تكتيكا يتبع لبلوغ الغاية .

ج) الحروب النفسية مجمل لتناقضين : فمن حرب نفسية على غزو يعني شن حرب نفسية أخرى على الذات بحيث يتم نوع من التناسق بين النتائج هنا والنتائج هناك .



(ج) الحرب النفسية تستهدف الآلية أي الجوهر ولا تستهدف الشخصية وهي عرقي - فالغاية من الحرب النفسية هي تغيير جذري في الذات وفي العدو يستمر فترة طويلة بتسيير ذاتي . وهذه هي النقطة المميزة بينها وبين الحرب المبنوية التي تستهدف الشخصية ، تقوى فيها لتتحول مشاق الوالوف ، بحيث تنهار الشخصية إذا انصب المورد المعنوي .

(د) ان الحرب النفسية لا تقوم على أساس دراسة لنوعية البشرية او النوعيات البشرية ، بل تهدف الى بلوغ هذه النوعية . فمن الصمم ان تشن حرب مادية تستهدف حالة نفسية عند عدو ان لم تكن الآلية لدى العدو مهترزة او تبني كذلك . حينئذ يفرى امتزاز الآلية بالتدخل بحيث تقام على غرار يناسب مقام الخصم . . أي خلق نوعية بشرية ملائمة للخصم .

هذه النقاط الأربعة تفتح امامنا السبيل الى وضع صيغة عامة من طبيعة الحرب النفسية . ان الحرب النفسية في شكلها المعادي هي محاولة استغلال تلك النوعية والآلية لشعب ، لآلية آلية ونوعية جديدة تلائم الطامع في ذلك الشعب ، وشكل هذا الاستغلال يكون عادة في صيغة تعميق لتنافر يظهر بين طبقات الشعب ولشأنه أو بين الطبقة الحاكمة وقيادتها . وعن طريق هذا التعميق تحدث المزلة الشعبية التي تسمح بتوجيه ضربات معنوية واقتصادية وسياسية لكل منها على حدة فتسول عملية الانتصار . أما الحرب النفسية في شكلها القومى فخلق نوعية وآلية جديدة قوية للاستغلال في مراحل الصراع . وطريقة خلق هذه الآلية عملية ليست بسيطة لارتباطها من جانب بتقاليد شعبية لا يمكن خلعها خلفا ، ولارتباطها من جانب آخر بالهائم يأتي القادة أو القائد ليحرل هذه التقلبات حركة مناسبة في وقت مناسب ، ولارتباطها من جانب ثالث بعملية تخطيط عملية تعتصن بالتقلبات الشعبية والمادة القيادية في عملية منظمة تؤدي الى صلابة الجبهة الداخلية واخلاق طاقات المدون الى خارج المجتمع ونجاح المدد الصحيح .

● مثال لمحنة نفسية

يمكننا ان نأخذ أحداث مايو ويونيو ١٩٦٧ مادة مثالا طيب عن حرب نفسية . لفند نظام الأزمة بالخلل خليج العقبة الى نزول الرئيس على اودة الجماهير بالبقاء في مركز القيادة يوم ١٠ يونيو كانت الأحداث تتوالى بسرعة . ويمكن ان نعطى بعض الملاحظات على هذه الأحداث قبل تحليلها . :

اولا : ان الأحداث الخطيرة تقع في طبيعتها بسرعة تجعل

معناها يتغير كذلك تبعا لكل جديد يضيف اليها أضواء او يصحب عنها أضواء مؤقتة زائلة . باختلاف تفسير أحداث يونيو ١٩٦٧ لا يصدر عن تفاوت في مقدرات المحكمين بل هو ناجم عن الحدوث ذاته . . ان سريع التغير بما لا يسمح بانحكم عليه حكما واحدا ، او لنقل كان تغيرا يسمح باعطاء أكثر من حكم عليه في كل يوم جديد .

ثانيا : ان أحداث يونيو كانت سببا في تغير جذري لعلاقات القوى الشعبية في مصر . كما أنها كانت نتيجة لتغير في علاقات هذه القوى أيضا . ومثل هذا التغير الذي أصبح مرحلة هامة في تاريخ الشعب المصري يحول بين جيلنا وبين ادراك واضح لما حدث ، حيث يكون ادراك معنى هذه المرحلة من نصيب جيل لادم :

ثالثا : ان تحليل هذه الأحداث رغم الصعوبتين السابقتين هو جزء من الأحداث ذاتها . فالعجز أو عدم الاهتمامان لتحليل الجيد يجب الا يمنع للمحاولة لأن الأحداث هي تفسيرات : بعضها يفضل وبعضها يقال ويكتب . ان أحداث يونيو هي تفسيرات قام بها العدو ولما بها ، وتفسيرنا لها هو جزء منها لأن هذا التفسير هو استجابتنا لما حدث في الاطار الفكري .

بهذه التعطلات نتناول تحليل أحداث يونيو بوصفها نودجا حرب نفسية .

كان من الشائع في تفكير الجهاز الراسمالي العالمي ان نظام الحكم في مصر يستقر على قوة شفط بوليسية . وقيل أسلوب الصراع منا . والهجوم علينا واحدا منذ ١٩٥٤ ، وهو ضرب اداة الحكم حتى تغلب قبضتها عن الشعب ، بأمل الشوكة على النظام . وأن نعم ان نجد من المصريين من ظن ظن الراسمالية يصعد نظام الحكم في مصر . بمعنى آخر ، كان لتقدير إجهزة الحرب النفسية للندول الراسمالية ان الآلية المصرية مثلكة وأن العصلة بين الدولة والشعب واهية بحيث يمكن توجيه ضربة الى هذه الصنوع عن طريق تسخير او سياسي او اقتصادي .

وكانت حملة ١٩٦٧ في سيناء مزدوجة الهدف : من ناحية اعتبرها الغرب واسرائيل ضربة في هذا الصعد للفرنسي . ومن ناحية أخرى كان هدفها الأساسى هو تكوين اية مصرية مسألة تقضى الاداة العسكرية اليهودية . بعبارة ثانية كان الانتصار العسكري لدى اسرائيل يقدم عرض تنظيم كامل للآلية المصرية واعادة بنائها على نسق ملائم لاسرائيل . ولا يخفى على أحد ان وراء هذا التصور لأسلوب الحرب النفسية تقرير ما يوجزه : ان الجيش كان أداة لثورة ١٩٥٢ وأداة تنفيذ القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١ وتصفيحة الانقطاع وكل ما تم

من إنجازات حتى الآن . وبفريه يلقد النظام دعامة وجوده . ولا يغفل كذلك أن قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض ثبات تعاديه إما لأنها أضربت على يديه وإما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تلبية هذه المهام .

ولا يغفل كذلك أن قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض ثبات تعاديه في أما لأنها اختبرت على يديه وإما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تلبية هذه المهام .

ولكن أحداث التاسع والعاشر من يونيو كشفت بوضوح غريب لنا ولأعدائنا أن هذا التصور معكوس انعكاسا تماما . فبعد ٨ يونيو لم يكن الجيش في وضع يسمح له بأي تصرف من أي نوع . وكان ينسأ الدولة بأذى اللوموش في سمع الشعب ، وكان قائد الأمة مستعدا للتنازل عن الحكم . . . شروف اكمل مما كان العدو يطبع فيه ، ولكنها جاءت بنتيجة مناقضة تماما لكل توقع . لقد كان النصر الأساسي في الحرب النفسية علينا . وهو وجود فجوة بين الشعب والدولة - مصصوبا حسابا خاطئا . وبدلا من أن تأتي الفربة بانشتار يلتت الالية ، كانت الفربة عملا لرتق كل النقوب ولصق كل المشروخ . لقد كانت حسابات العدو للحرب النفسية مشبعة بما هو معروف في علم النفس بمرتكزة الذات حيث تسمى البصيرة بالرغبة المتأججة فلا يعرف المتعزك الذي الفرق بين مايزيد أن يراه وما يراه فعلا أو بماهو موجود حقا وما يريد أن يكون موجودا . . .

أما من جانبنا فكان الولف كذلك فيه الكثير من المآجات . فبمنا شن العدو علينا حربه العسكرية بهدف النيل منا نفسيا . كنا في وضع غريب إلى حد كبير . لقد كان الشعب في علة عاجل لا يمكن أن توصف بأنها قوة . كانت بعض تصرفات عدد من الرجا لالمسكربين تثير الغضب لدى المواطنين ، وكان تمييز المسكربين في بعض جوابات الحياة اليومية يخلق نفورا تلقائيا لدى ثبات شعبية معينة . فضلا عن ذلك كانت أجهزة الإعلام تركز تركيزا ضخما على المبالغة في قولنا العسكرية وصف العدو العسكري . وما أن بدأت الحركة حتى كشف لشعبنا بعض ثلونه كما تكشله أهميته البالغة في أي انتصار أو هزيمة لذلك - وبرغم سرعة الأحداث - واجه الشعب لأول مرة خطرين : خطر الهزيمة النفسية - وخطر التفكك للدمر لجهاز الدولة - إما من حيث الهزيمة النفسية فكانت فترة القتال فترة تجاذب الشعب فيها قوتين الأول المصونية الداخلية والثانية البقلة ال عسوة هذه القوة على الذات . وفي لحظة لا تتجاوز في حكم الزمن يضع دلائق تغلبت المقلبة الوعي على النزوعات التمددية الذاتية . ولاشك من الناحية النفسية الخاصة - أن تصرف الرئيس بعرض تنازله عن السلطة - كان العامل المحاسيم والإساسي في هذه اللحظة ، لقد جسد التنازل الخطر الذي لا يغفل عنه البعروحوون لنسنا إذا اسالوا في غلظتهم عما ينتظر وعظم . كان التنازل هو لحظة حس يباي نادر اتفق اتفاقا

غريبا مع تلقائية شعبية ولحظة تكشف جماعي نادر هو الآخر .

كانت التلقائية الشعبية هي العنصر الذي لم يحسب الأعداء حسابيه بدقة . ضعف الهزيمة والترايب الخطر بكل ما يشتره من مشاعر نرجسية قوية كان عاملا هاما في تغليب الوعي على الفرق في النزعات الرضبية . لقد كانت لحظة الوعي هي لحظة ادراك خطر تلك الدولة على الذات . وربما يبدو الحديث في هذه النقطة غامضا ، ولكننا نود إرجاء انفساحه لقال لأن . ولكن - وفي العموم - أحيى الشعب متفاعلا مع معنى تنحي الرئيس هدف الحركة وهو القضاء على الالية ، لذلك خلست رد فعل عكسي غي محسوب من أي طرف من الأطراف .

يمكن حاليا أن تقدم فكرة أكثر تفصيلا عن مشكلة الالية التي تهدف الحرب النفسية إلى تحطيمها . أن الالية هي رؤية الذات في أمي آخر خارجي . فالعلم والشعار والعقيدة هي أمور تشكلها الالية لتتشكل بها . لذلك تعد الهزيمة النفسية انفضاض من محور لالية إما لرفض هذا المحور أولا ستعالة التوحد فيه . وكان الهدف الاستعداد من الحرب هو حرب محور لالية المصرية هو الرئيس ينفض الشعب عنه أو يسعى باستعالة التوحد فيه . وكان الخطأ في ذلك أن الشعب لم يكن متوحدا في رئيسه وحده . نظرا إلى توحد الاصولي في اشتراكيته ، ثم تليه - مستخدما لقدم الرئيس بعرض التنحي - إلى أن الهدف الاستعداد هو قرب أليته . حيثند التل الشعب حول الرئيس واستبدله شخصيا بمحور أليته . وهذه الصلية في الواقع ذات اعماق بعيدة ، نلاحظ إبراهيمها في عبارة يمكن نطقها : « أتم تريدون أن تحطون بتعليم دمر دولتنا ، ولكننا لسنا في الواقع متوحدين في هذا الرمز توحدنا في الدولة ذاتها ، لذلك - وحتى نقاومكم - سوف نسيذل بالدولة زعيمها نلتفد حوله ، فتعيب الفربة عيبة التقدير التي كانت له » .

لا يني بعد ذلك لفهم الحرب النفسية إلا تنبيه تم تدبير أما التنبيه فهو في مكان اتصال في تقدير العدو . لقد قدر العدو أن الرئيس هو محور ألية الشعب ويمكن اختراجه ، ولم يكن ذلك بالتدبير السليم . لذلك تحول الشعب الالية إلى والفاق إلى أليته . أما التدبير فهو محاولة إقامة الالية على التوحد في شخص . فهذه الالية قد تبدو في مظهرها قوية ولكنها في جوهرها تكون ضعيفة فضلا عن تعرضها السريع للخطر . وبذلك يمكن أن تقلب التنبيه إلى تطهير وتقلب التدبير إلى تنبيه - إذا كنا جاذبين في شن حرب نفسية على إسرائيل . علينا أن ننتبه لأهمية تدعيم مفهوم الدولة الاشتراكية في شعب الشعب حتى لا تهتز الالية بسهولة . وعلينا أن ننتبه إلى أن الالية الإسرائيلية المعاصرة قائمة على التوحد في شخصية قادتها العسكريين وساستها الذين يدعون بهارات ودهاء أمام جماهيرهم .

أحمد فائق

حول التفسير النفسى للتاريخ

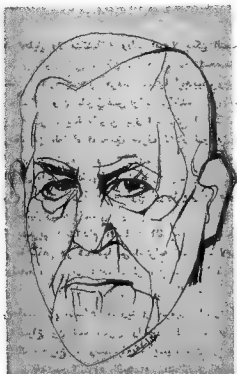
فدري حفي

يتسم عالمنا المعاصر - ضمن ما يتسم به - بأنه عالم
تعددت فيه مجالات العلم ، وازدادت تفرعاته وتخصصاته حتى
كاد ذلك الزيادة أن يذهب بشمولية نظرة العالم إلى الكون ،
أو أن يجعلها أمرا يقرب من الاستحالة . وإذا كان علينا أن
نسلم بأنه لم يعد في مقدور عالم فرد أن يحيط احاطة تفصيلية
بمئات كافة مجالات العلم ، بل أنه لم يعد . من الأمور
الميسورة أن تتوفر للعالم تلك الاحاطة التفصيلية الشاملة حتى
بمجال تخصصه المحدود ، فإن علينا أيضا ألا ننساق في إيراد
تشجيع الإغراق في التخصص بحيث نصل برجل العلم إلى
حد الانغلاق على نفسه بعيدا عن عالمنا وما يحيط به ويجري
فيه من مشاكل ولغضا بعد بدرجة أو بأخرى عن نطاق
تخصصه ، وتكترب بنفس الدرجة من تخصصات غيره من
العالماء . وبين ضرورة انفتاح العالم على مشكلات عالمنا
المعاصر ، واستحالة احاطته التفصيلية بمئات كافة مجالات
العلم في هذا العالم ، يصبح طريق رجل العلم الرأغب في
الانفتاح على مشكلات المعاصرة ، مع ما يفرسه ذلك الانفتاح
من ضرورة التصرف بشكل دقيق على الخصائص النوعية
للمجال الذي تقع فيه المشكلة موضع الاهتمام ، يصبح
طريقه وعرا يجب به بمخاطر شتى ، وتتلوه كذلك شتى
المخبرات فاستحالة الاحاطة التفصيلية بمختلف مجالات
المصرفة قد تدفع بالعالم إلى الغزو من مجرد محاولة
اجتياز الطريق منذ البداية ، قائما بمجال تخصصه الضيق
المحدود ، محتشيا بشمار احترام التخصص كميرد لانزوائيته
ومن جانب آخر . قد يؤدي اتخاذ المشكلات والخصاي بالمعاصرة
واحساس العالم بضرورة مشاركتها في تناولها إلى إغرائه
بالانفتاح . محاولا تخطي ذلك الطريق الوعر دون تحفظ . ولا
نحوه . ومن أخطر أشكال ذلك الاندفاع أن يبعد رجل العلم

• أن العلوم الانسانية ككل ما زالت تربطها
بالفلسفة روايت وثيقة ، وبالتالي فقد
وفر في إيمان الكثيرين ، أنه على المتخصص
في العلوم الانسانية أن يلمس كل ما يتعلق
بالإنسان .

• أنه إذا كان الإنسان هو صانع العلوم
بجميعها ، حيث إنها نتاج حضارته ومجتمعه،
فإن العلوم الانسانية تجمع بين كونها
نتاجا للإنسان ، وبين كون ذلك الإنسان
موضوعا لدراستها بوجه عام .

• لقد خلقت الراسمالية في تفكيرها انسانيًا
حكم عليه بأن يكون قليل الحيلة ، فلزوف
مجتمع الحضارة الغربية تحول دون ممارسة
الإنسان لعزيمته الإيجابية . وتدفع به إلى
حرية سلبية ، أي تدفع إلى الهروب من
الحرية .



س . ش .

الذي يعيشون فيه ، فامسحوا وما زال يصوم معهم بالليل في مواسمهم تلك الشكليات القسرية خلفا ، وتطهير الله لغير فن تلك المذاهب موقنين مختلطين :

الوقوف الأول يصح فيه عدم سن الوليد المتخصصين ، أخص : لهم قياتهم ، فرصة ، للاعتناء ، بأجسامهم ، إلى ما يعود خارج نطاق تخصصهم ، وأمسوا أن عليهم انظار موقفهم عند ما يجري . حرمهم ، وأدخلوا بالنظر ذلك الموقف والتمسوا به ، ولم يحاول أي من هؤلاء العلماء إظهار ما جهره في نطاق تخصصهم ، كإبن سينا ، لقسم : نهائي ، للمشكلة ، التي يتخذ موقفا حيالها ، أن أغلب هؤلاء العلماء لم يصدروا أساسا لتقديم تفسير ، يمتثل ، وانما في تلك الشكليات التي يتخذون موقفا حيالها ، بل أن موقفهم يتسم بأنه أقرب إلى أن يكون موقفا غريبا ، مائلا ، يترتب على موقف كهذا ، أخلاقيا ، بام ، كان يتخذ ، رجل العلم ، التخصص موقفا موقفا : لقضية ، السلام ، على المستوى الأخلاقي والفكري ، ومن ثم يلتزم موقفا غريبا مائلا ضد الحرب مدعوية معينة ، ووجهه الباطن لاكون ، همتهم تقديم تفسير ، متعدد لأسباب الحرب عامة ، ولا حتى للأسباب الخاصة التي أدت إلى وقوع تلك الحرب ، بالذات ، بل يكفون قبول ، وتبني التفسير الأكثر انما ، مع ، منطلقه الأخلاقي والفكري ، والذي يقع فيه ، تقديمه ، على ، مائة من ذوي التخصص ، في تفسيرها ، الرباني ، ولا يمتثل ذلك عملية كاملة يمكن إليها وعلى العلم ، المقبول ، وتبني لوجهه نظر تفسيرية مشقة ، بين ، بصلها ، انما يتم ، غالبا ، على أساس ، من ، التخليط النقدي ، المنطقي ، مختلف ، وجهات ، النظر المطروحة ، والتي ، تتسق ، بتلك ، والإدراج ، متقاربة ، من ، منطقة ، الفكرية ، والأخلاقي ، حتى لو ، اقتوسنا ، أنه ، قد ، باستبعاد ، وجهات ، النظر الخارجية ، كمنطقة

التخصص إلى أسير الطرق - وإن كان أخطرها وإبصارها الصواب - مرتديا لوب فيلسوف المصور القديمة التي يحيط بكل شيء علما ، جاعلا فن تخصصه الملهم للحد والحدود نظرة شاملة تغطي مجالات الحياة جميعا ، مقسرة لها ، وتعمله ايما ، بل ومتبينة بمستقبل طواغرها ايضا ، متجاهلا بذلك وجود دمولم يخفى قد تكون أقرب إلى ما يتعرض لمن قضايا ، ومتجاهلا ايضا الكثير من الحقائق التي قد تكون بعيدة بالفعل عن النطاق المباشر لتخصصه ، ولكن الإجابة بها تشكل جانبا عاما في فهم القضايا التي يتعرض لها فيها موضوعيا كاملا ، ولاتمنى وصورة الطريق أن يتقاضي العالم الواحد من معاونة اجتيازه مقلدا على نفسه باب تخصصه ، مقلدا بها يتعرض في العالم خلف ذلك الباب من قضايا ومشكلات ، كما أن مفرات الطريق لا ينبغي أن تكون مبررا لادغامه نحو تناول سهل متسرع لتلك الشكليات ، معتبرا أن عاجله في مجال تخصصه كليل بأن يمر كل شيء خارج مجال ذلك التخصص ، هل وجل العلم إذن أن يتفاعل مع شكليات العالم الخارجي ، ولكن عليه أيضا أن يصح ، جيدا ، حدود تخصصه ، وأن يفسح إلى معرفته التخصصية طما جديرا بما وصل إليه من سيولة من الباحثين في المجال الجديد الذي يطرقه ، وأن يلم الأما كافي بواقع ذلك المجال ، بالقوانين التوجيه التي تحكمها فيه من الطواهر ، حتى يمكنه أن يتناول شكليات ذلك المجال تناولا خلافا بديده اليه من علمه فينا ، جيدا .

بين الالتزام الاجتماعي والتخصص العلمي

هناك ، ماذج ، عديدة ، للمفاهيم ، المتخصصة ، بعد ، اعتمادهم ، إلى ما هو خارج حدود تخصصهم ، والتي تشكلت ، في ، المجتمع

هذا دون تحليل ولا مناقشة ، وذلك أمر لا يمكن التسليم به جزافا وبشكل مطلق . إذن فهؤلاء العلماء المتخصصون الذين تحدث عنهم يتخذون موقفا انتقائيا إيجابيا من وجهات النظر المختلفة ، وإن كانوا في نفس الوقت لا يأخذون على عاتقهم سيادة وجهة نظر جديدة . ومن أبرز النماذج أن اشهدوا ذلك الموقف من العلماء المتخصصين سوف نختار نموذجين من مجالين علميين مختلفين . نموذجنا الأول هو الدكتور أوبنهايمر العالم الذري الشهير الذي أسهمت بحوله بشكل فعال في تسريع في اختراع القنبلة الذرية . لقد خرج أوبنهايمر من صوصة تخصصه ملتصبا بكل نقله للمسلم إلى الجانب الدفاع عن السلام والمطالبة بتحريم استخدام الأسلحة الذرية ، إلى تحريم استخدام ما سماه هو شخصيا في اختراعه استعمالها لا يرضى عنه ، ولعلنا نعرف في التسلف لو توقعنا من أوبنهايمر أن يقدم لنا تحليلا متعمقا لطبيعة القوى الاجتماعية التي صهر على استخدام الأسلحة الذرية في حروبها العدوانية ، وطبيعة الصراع بين تلك القوى والقوى المتعاضدة لها ، ومسار ذلك الصراع ، ومستقبله . يمكننا إذن أن نجد أوبنهايمر موقفا من الصراع الاجتماعي الدائر في مجتمعه ، وبين الجانب الذي يراه مستحقا للدانة ويؤيد الجانب الذي يراه جديرا بالتأييد . ونموذجنا الثاني هو الدكتور سيوك طيبس الأطفال الأمريكي التخصص ، وصاحب كتابات الطبيعة المخصصة في هذا المجال . والذي أصبح إلى جانب تخصصه من أبرز الشخصيات الليبرالية في الحركة المعادية للتدخل العسكري الأمريكي في فيتنام . وهذا النموذجان ليسا سوى مثلين لموقف محدد يتخذه علماء متخصصون في دوائرهم في تخصصاتهم من قضايا اجتماعية معاصرة تهدد اتجاهاهم ، وتبرز التزامهم ، وتقدمهم لاتخاذ ذلك الموقف وتبنيه والدفاع عنه . ويشير مثل هؤلاء العلماء بأنهم لا يفرضون الرؤية التي تليقها عليهم تخصصاتهم على تخصصهم للمشاكل الاجتماعية التي يتخذون منها موقفا . هذا إذا اتفقوا أصلا على طرح مثل ذلك التفسير . فالدكتور سيوك مثلا لم يحاول أن يفسر العدوان الأمريكي العسكري على فيتنام بأنه إنما يرجع إلى أمراض تصيب الأمريكيين في طفولتهم ، وتقدمهم عند الرضخ إلى ما يقومون به من أعمال وحشية ، وأن الموقف في وجه العدوان الأمريكي في فيتنام يتطلب معالجة تلك الأمراض والنقص عليها . ولو تصورنا جدلا أن الدكتور سيوك قد اضطر مثل هذا الموقف بالفعل ، لما أمكننا في البداية على الأقل ، أن نقول من تنبئته كعادته للعدوان الأمريكي على فيتنام وتكسيف للسلام بوجه عام . ولكن موقفه حينئذ سوف يكون أقل لاهلية بكثير . من الناحية العلمية على الأقل - من موقفه الحالي - بل أنه قد يؤدي به إلى العكس . حتى عن إيجابيته ، عائد إلى عمله ليفد الاتصال القاضية على أمراض الأطفال المتشعبة في تلك المراحل ، أو لعله حينئذ يؤول إلى مهاجمة المخاوف من السطحية ، موقف العدوان الأمريكي على فيتنام دون التفاهة على تجلده الأصلية . وكذلك الحال بالنسبة لأوبنهايمر أو سواه . هناك إذن علماء متخصصون

استطاعوا أن يحنواوا مشاكل العالم المعاصر ، متخذين من تلك المشاكل موقفا محمدا يتم عن التزامهم بقضايا مجتمعه ، دون أن يتقوا في شرك أن يفرهم تخصصهم بفرض نتائج للتخصص - بل وقوانينه النوعية - كتفسير يقدمونه لطبيعة المشاكل التي يتخذون حيالها موقفا . وقد يرى البعض أن عدم تردى هؤلاء العلماء في متزلق من هذا النوع إنما يرجع إلى أن مجالات تخصصهم بعيدة تماما عن مجال المشكلات التي يتخذون منها موقفا ، ولكن ذلك - رغم صحته النسبية - لا يفي الدور الذي لمبه وعيهم الذاتي في حياتهم من ذلك الانسياق الخطر .

وفي مقابل ذلك الموقف هناك مؤلف آخر اتخذته وتخذه عدد من العلماء المتخصصين . وقبل أن نعرض لذلك الموقف تفصيلا هناك عدة ملاحظات يجدر بنا الإشارة إليها :

أولا : هناك سمة عامة تجمع بين أصحاب هذا الموقف من العلماء المتخصصين ، أو بين الظاهر على الأقل ، وهي أن مجالات تخصصهم العلمي تنتمي بشكل يكاد يكون مطلقا إلى ما يسمى أهل الاختصاص بالعلوم الإنسانية ، بينما يطلب على أصحاب المواقف الأولى من العلماء المتخصصين اتقاء مجالات تخصصهم إلى ما يعرف بالعلوم الطبيعية . وتقوم التفرقة بين هاتين المجموعتين من العلوم على أسس شتى منها أن مجموعة العلوم الطبيعية إنما تكتسب بدراسة المادة في مختلف صورها ، بينما تقتضي مجموعة العلوم الإنسانية بدراسة مختلف جوانب الوجود الإنساني . ورغم ما قد تشره تلك التفرقة من مجادلة مبدئية لسنا في معرض التعرض لها ، فإن ما يعيننا هو أن دراسة الذرة ، والظلك ، والطب ، والكيمياء وما إلى ذلك إنما تندرج تحت لواء المجموعة الأولى ، في حين أن علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد وما إلى ذلك إنما تندرج تحت لواء المجموعة الثانية أي مجموعة العلوم الإنسانية .

ثانيا : نقودنا للملاحظة الأولى إلى ملاحظة أخرى ، وهي أن العلوم الإنسانية تتميز - ضمن ما تتميز به - بخصوصية الحدأة التاريخية حيث أنها أحدث تاريخيا من العلوم الطبيعية من حيث انفصالها عن الفلسفة . ولقد أدت تلك الصداقة التاريخية - إلى جانب غيرها من الدوامل - إلى عديد من النتائج نذكر منها نتيجتين :

١ - أن العلوم الإنسانية ككل مازالت تربطها بالفلسفة روابط وثيقة ، وبالتالي فقد وافر في الهان الكثيرين - ومنهم بعض ذوي الاختصاص - آتة على التخصص في العلوم الإنسانية أن يلزم كل ما يتعلق بالإنسان ، أو بعبارة أخرى أن يائي بنظرية شاملة لوجود الإنساني ، أي أن يقوم بالدور التقليدي للفيلسوف :

٣ - أن الحدود الفاصلة بين العلوم الإنسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائياً بعد ، وبالتالي فهي تفرى باختلافها دون تهيب . فليس من المستغرب أن يحدث عالم نفسى من موضوع "دخول في اختصاص علم الاجتماع منه في اختصاص علم النفس ، ولا أن يتناول عالم الاقتصاد مشكلة من صميم مشكلات علم التاريخ . في حين أنه من المستغرب تماماً أن نستمتع مثلاً لحدث متخصص في حركة الأجرام السماوية من أحد علماء الكيمياء .

ثالثاً : أن ما اصطلحنا في هذا المقال على تسميته بمشكلات العالم الماصر إنما هي في صميمها مشكلات تتعلق بالإنسان ، أو بتحديد أدق فإنها تتعلق بملازمة الإنسان بغيره ، وليس بملازمته بالطبيعة أو بالعالم المادى . وهى بالتالى ادخل من حيث مجالها في نطاق مجموعة العلوم الإنسانية ككل . ويرتبط على ذلك أن تلك المشكلات تكون أكثر العاجا بحكم موقعها على الشفتين في مجال العلوم الإنسانية منها على الشفتين في مجال العلوم الطبيعية ، ولذلك فالحق يكونون "خرفسة" لؤيد من الحساسية بتلك المشاكل " ، ومزيد من المسؤولية تجاهها بحكم مجال تخصصهم .

رابعاً : أنه إذا كان الإنسان هو صانع العلوم جميعاً ، حيث أنها نتاج حضارته ومجتمعته ، لأن العلوم الإنسانية تجمع بين كونها نتاجاً للإنسان ، وبين كون ذلك الإنسان مؤسّساً للزائنها بوجه عام كقرد وكجماعة ، بل وكحضارة أيضاً . وذلك يعنى إنساناً لو استطعنا تصفا أن نزل العلوم الطبيعية مما يصطرع في التجمع من صراعات وما يدور فيه من أحداث ، فلأن نمجز عن ذلك فيما يتفق بالعلوم الإنسانية .

ولعل تلك الملاحظات التى حرصنا لها سبب الى حد ما في تفسير ظاهرة ملحوظة تميز ما نحن بسدده من موقفه يشاهده مجموعة من العلماء حيال مشكلات العالم الماصر : ان الكثير من رجال العلوم الإنسانية (التى ينتمى اليها) غالبية إيجاب هذا الموقف) اذا ما تناولوا إحدى تلك المشكلات - فأنهم يصيغونها بصيغة تخصصهم ، حتى ولو لم تكن داخلية أساساً في نطاق ذلك التخصص ، أى لو كان هناك فرماً بتخصصاً آخر من فروع العلوم الإنسانية ينطى تلك المشكلة - وهم بذلك ، ويفض النظر عن تقسية أو رجحية موقفهم العملى حيال المشكلة ، إنما يقدمون على عمل "تهدئة مخاطر عدة أهمها :

١ - إن لمع رجل العلم للتخصص في مجال تخصصه المحدود وبسمة ذواته به قد يدفعه الى التمسك بمعارف ذلك المجال وقوانينه البتوية ، وبحالها فرسها على تناوله للظاهرة التى هو يصيد الجلال موقفه منها ، وقد يؤدي ذلك الى نوع من انتفاء الوقائع التى تؤيد فكره



التابعة من مجال تخصصه مهمبلا غيرها من الوقائع التي لا تتفق مع تلك الفكرة . ولا يتحتم أن يكون ذلك الانتقاء مقصودا من العالم ، بل أنه قد يكون - وهو كثيرا ما يكون بالفعل - نوعا من الانتقاء الخاطيء لوقائع فرعية يترك من وجهة نظره أنها بالغة الأهمية ، ومهملا وقائع أخرى هامة تبدو وكأن لا دالة لها من وجهة نظره . صحيح أن تلك الخطوة قد تهدد الباحث حتى وهو يصعد بصت ظاهرة تقع داخل نطاق تخصصه ، ولكن ذلك التهديد يتزايد بلاشك لو كانت الظاهرة تخرج بالفعل من نطاق ذلك التخصص .

٢ - أن تناول العالم المختص لظاهرة معينة خارج مجال تخصصه ومن وجهة نظر تخصصه لحسب قد يؤدي به إلى تفسير لتلك الظاهرة بل وإلى تنبؤ بمسارها يتجلى وانما - نظر لأن كل ظاهرة إنسانية - شأنها شأن أي ظاهرة أخرى - لها قوانينها النوعية التي تحكم مسارها وتفسر تغيرها ، وذلك سواء كانت ظاهرة اقتصادية أو سياسية أو نفسية أو غير ذلك . ويتنبأ أن تفرق هنا بين ما كثرأنا من خطورة فرض القوانين النوعية الخاصة بمجال معين على ما يقع خارج ذلك المجال من ظواهر ، وبين ما يفرقه الواقع من عقد في الظواهر الانسانية - بل والطبيعية كذلك - يجعل من الضروري فروسها من جوانب متعددة ، لقطعة من الحجر مثلا يمكن أن تكون موشوما فدراسة عالم متخصص في علم الآثار القديمة ، وتكون في نفس الوقت موشوما لدراسة عالم آخر متخصص في علم طبقات الأرض ، وعالم ثالث متخصص في الطبيعة وهكذا . ويستطيع أن تصور نفس الوضع في مجال العلوم الانسانية، فنوع ازمنة اقتصادية في بلد معين مثلا ، يمكن أن يكون موشوما لعالم متخصص في علم الاقتصاد ، وتكون الإزار التاريخية عليها موشوما يمكن أن يتناولها المتخصصون في علوم التاريخ والاجتماع وما إلى ذلك . ولكن ذلك كله أمر يختلف تماما عن القيام أحد علماء الاقتصاد مثلا على تفسير الأزمات المالية تفسيرا اقتصاديا ، بإرجاعها إلى عوامل اقتصادية لحسب ، وتفسيرها في ضوء القوانين النوعية لعلم الاقتصاد ، أو أقدم أحد علماء النفس مثلا على تفسير ظاهرة الصراع الطبقي تفسيرا نفسيا ، بإرجاعها إلى أصول نفسية لحسب . بل وإخضاع مسارها للقوانين النوعية الخاصة بعلم النفس والتي تحكم ما يقع داخل نطاقها من ظواهر .

نظمن من كل ذلك إلى أن الكثير من العلماء - وبوجه خاص رجال العلوم الانسانية - حين يحاولون ترجمة اهتمامهم بتفسيرها العالم المعاصر إلى تناول فعلي لتلك القضايا ، يمرضون لخطورة تبنيهم لها بطابع تخصصاتهم، حتى ولو كانت طبيعة تلك القضايا تتناهى عن نطاق تلك التخصصات بشكل واضح . وقبل أن نعرض للعناصير من تلك المحاولات يطبق أن نفسير استيفاء الموضوع إلى أن

حديثنا لا يبنى بحال من الأحوال أكثر وجود نواتين عامة تحكم مسار الظواهر الإنسانية جميعا بل والظواهر الطبيعية كذلك ، ونعني بها نواتين المادية الجدلية . لقد كان اكتشاف تلك القوانين يمشية وفتح حجر الأساس لمديد من النظريات العلمية في كافة مجالات المعرفة ، ولكن صحة تلك النظريات ظلت وما تزال قائمة ومشروطة تماما بصحة الجاريا أو الوقائع العلمية أساسا وليس بصحة قوانين المادية الجدلية . بل أن المادية الجدلية رغم كونها هي الموجبة لتلك النظريات فانها توداد بواسطتها رسوخا وفراء . وبإختصار فإن وجود نظرية شاملة لا يبنى بحال احدا القوانين النوعية ، بل أن شطوط النظرية انسا يتوقف على مدى ما تأخذ في اعتبارها من قوانين نوعية محددة .

التحليل النفسي والطريق الوعر

اشرنا فيما سبق إلى أن الحدود المصالة بين العلوم الانسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائيا بعد ، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود حدود فاصلة على الاطلاق ، فهناك بالفعل مجال متخصص لعلم التاريخ ، وآخر متخصص أيضا لعلم النفس ، ولاتك لعلم الاجتماع ، ورابع لعلم الاقتصاد وهكذا . ولقد اقدم الكثير من المتخصصين في مختلف تلك العلوم الانسانية على تناول مشكلات العالم المعاصر ، ولا يتسع المقام ، كما لا يسمح الجهد ، لعرض نتائج لمحاولات المتخصصين في مختلف تلك المجالات . ولذلك فسوف نقتنى بالتعرض لبعض محاولات المتخصصين في علم النفس في تناول لقضايا العالم المعاصر .

على الحقيقة فانه من بين المدارس النفسية العديدة يبرز مدرسة التحليل النفسي ، باعتبارها المدرسة التي لمسية . أن لم تكن الوحيدة - من سدادس علم النفس ذات المحاولات المحددة في هذا المجال - وأصل ذلك الما يرجع إلى أن بنائها الفكري حتى ضيقاته الأولى التي قدمها رائد تلك المدرسة - أمان سيغفريد فرويد - إنما يتكون من مزيج بين مبعوثين من الأفكار ، تدور المبعوضة الأولى حول التسليم بأننا إذا ما تبيننا الفطور أفناريخي الذي سلكته البشرية لوجدناه يرجع إلى جماعه وقبيلة بدائية يرأسها زعيم واحد يدين له الجميع بالولاء والطاعة ، ويستغل لنفسه كل لقضاء القبيلة معرنا على أبناء القبيلة الأتارب من أي منهم ، ويتبنى الأمر بأن يقتل الأبناء ، إياهم ، أو يقيم متحلمين في سبيل ذلك أقسى المشاعر بالخطيئة والام ، ولقد توارثت البشرية تلك الفئسار التي تحسنت إبداع فئات القبيلة البدائية الأولى تبيلابا ببدء جيول . ولم يتم ذلك التوارث من طريق الانتقاء "انتخابي" عز الوهم القوي ، للبشرية ، - فان فتنة تلك المضمار وتوارثها قد

دلت بها الى اعماق اللاشعور أو ما يمكن ان يسمى باللاشعور الجبالي . أما المجموعة الثانية من الأفكار فتقوم على التسليم بأن الشاهر المؤلمة والصاعدة والمرتبطة بالشعور بالألم . كل تلك الشاهر والخبرات يقوم الفرد بكتبتها او بدنها الى اللاشعور الذي يمكن ان يسمى الآن باللاشعور الفرد . ومن خلال المزج بين هاتين المجموعتين من الأفكار يصل التحليل النفسي الى أن حياة الفرد آتيا هي تلخيص للتاريخ البدائي للجيش البشري ، وأن الطفل مطالب بالانتماء الى البدور البدائية في داخله خلال سنواته الثلاث الأولى وكتبتها في اللاشعور ، ونظر لأن ذلك الانتصار لا يمكن ان يكون نهائيا ولا حاسما ، فإن ما كتب يظهر في صور مختلفة من الأحلام والأعراض العصبية .

لقد فرغ هذا البناء الكبري على مدرسة التحليل النفسي منذ البداية ارتباطا بقمية تخرج من العهود الباشرة لعلم النفس ، أعنى قضية نشأة المجتمع الإنساني . وهي قضية تاريخية اثروبولوجية تماما . ولعل ذلك هو ما يفسر ارتباط اليرودية منذ البداية ارتباطا وثيقا بالاثروبولوجيا ويوجه خاص بالاثروبولوجيا التطورية البريطانية وبالتحديد بطريقت دوبرسون سميت . ويكفي للتدليل على هذا الارتباط أن نرى أنه قد وجد في نظريات سميت التحليل للعديد من المفاهيم الأساسية في التحليل النفسي مثل فكرة الجماعة البدائية الأولى ، وما ارتبط بها من نوازل للذكريات على نطاق العائلة ومن البيولوجية الولادية للمراحل الجنسية الطفلية . . الى آخره . صحيح ان تطور البحوث الاثروبولوجية قد قدم من الوقت كثيرا ، بل أن الاثروبولوجيا الحديثة رفضت رفضا قاطعا فكرة وجود التحليل النفسي لم يعد يلعب كثيرا على افكار من هذا النوع ، إلا أن كل ذلك لا ينفي ان مدرسة التحليل النفسي قد ارتبطت تاريخيا منذ بداية نشأتها بقمية تخرج من انطلاق الحدود لعلم النفس .

نخلص من ذلك الى أن مدرسة التحليل النفسي كانت تعمل منذ نشأتها بدور التطلع الى تقديم نظرية شاملة لوجود الإنسان لفردا وتاريخيا ، وحاضرة . وتستطيع ان تلعب كثيرا . صريحا عن ذلك الطرح في كتاب « المدنية ومنشأها » الذي أصدره سميثون في سنة ١٩٢٠ الى قبل وقتها يشيخ سنوات ماضوا فيه فضائل العديد من التقنيات التخريبية ذات الطابع الثقافي العام ، بل الوصول الى صيغة نظرية عامة تفسر الحضارة الانسانية في شكلها ، وتصل الى جذم طوح التشكل في مستقبلها . ومنذ صدور كتاب فرويد المسمى اليه عام ١٩٢٠ حتى الآن ، أي غسلازا ما يقترب من الألفين عاما ، لم يكن الكثيرين من الباحثين نظرية التحليل النفسي من الاهتمام بالقمية العاصرة . بل وتناولها تناولاً يؤذي في الغالب

الى صيغ لها برؤيتهم الخاصة الثانية من فهمهم المحدد . لقد كتب المحللون النفسيون من العديد من قضايا الإنسان العاصر ، ولكن أكثر ما كتبوه غطوره فيما نرى هو كتاباتهم التي حاولوا بها تحليل بعض الظواهر السياسية التاريخية العاصرة . وترجع أهمية تلك الكتابات بالتحديد الى أنها تطرح مشكلة نظرية بالغة الأهمية والمتطورة من الناحيتين المنهجية والعلمية . وتستطيع ان تضع المشكلة في صورة السؤال التالي : هل ما يصدق على الفرد يصدق بالتالي على الجماعة ؟ أو بعبارة أخرى هل القوانين التي تحكم نمو الأفراد هي بالضرورة نفس القوانين التي تحكم تطور المجتمعات ؟ وهل القوانين التي تفسر سلوك الأفراد تصلح بنفس السكفة لتفسير حركة الجماعة ؟ وأصل طرحنا للمشكلة بهذه الصورة يشير الى أن التيار العام للتحليل النفسي يقع أنه لم يعد يلعب كثيرا . كما سبق أن ذكرنا . على فكرة أن حياة الفرد ألح هي للخيمن للتاريخ البدائي للجيش البشري ، فان جوهر تلك الفكرة ، أي المطابقة بين ما هو فردي وما هو جمعي من حيث القوانين العامة ، هذا الجوهر مازال له صدى يتردد بل يكاد يصل الى أن يكون سوتا مسعوما في كتابات المحللين النفسيين حتى تناولهم للقضايا العاصرة .

وليسوف نعرض بشيء من التفصيل لمحاولتين من محاولات أبناء مدرسة التحليل النفسي لتناول قضايا ذات طابع سياسي اقتصادي تاريخي . المحاولة الأولى هي محاولة أريك فروم تحليل أزمة المجتمع الرأسمالي الغربي في نهاية الثلاثينات . والثانية هي محاولة الدكتور أحمد لايق في نهاية الستينات تحليل أحداث الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ . واجما بتحليله حتى جدول تاريخيا الشوري الحديث ، ومتقدما به حتى مشارف المستقبل .

محاولة أريك فروم

ولد أريك فروم وتصل في ألمانيا حيث درس علم الاجتماع وعلم النفس في جامعات فرانكفورت ونيويورك وهيدلبرج التي حصل منها على شهادة الدكتوراه عام ١٩٢٢ . وقد تدرب فروم على التحليل النفسي الفرويدى في جمعية التحليل النفسي ببرلين ، وانتقل به الكاف الى الولايات المتحدة حيث أصدر أشهر مؤلفاته وهو « الهروب من الحرية » . وقرأ فروم منذ البداية انه وصل الى ما وصل اليه في مؤلفاته باتباع منهج التحليل النفسي ونسأله ، كما انه يقرر تسليمه مع فرويد بأن القوى التي تحدد سلوك الإنسان ومتشابهة ومتشابهة ، إنما هي في الأساس دوافع لاشعورية . وتكون دوافع فروم في تحليله لطبيعة المجتمع الرأسمالي حول فكرة انسانية هي أن هناك تناقضا يحكم الحياة الجنسية على يمينه فروم بالخصاصة للحرية أو الحضارة الرأسمالية . . لقد خلقت

الراسمالية في تطورها. اسماء تحكم عليه. بأن يكون قليل الحيلة ، خائفا ، قلقا ، يائسا ، وحيدا ، محبطا ، فظروف مجتمع الحضارة الغربية تهيئ دون ممارسة الانسان لحريته الايجابية . وتوقع به الى حرية سلبية ، أي تدفع به الى الهرب من الحرية . ويرى فروم انه لكي يتخلص الانسان في الحضارة الراسمالية من شعوره بالاحتجاز بالهزلة وقلة الحيلة ، أي لكي يهرب من الحرية ، ليس امامه سوى أن تمارس الميكانيزمات اللاشعورية فعلها ، وأهم تلك الميكانيزمات في رأى فروم هي :

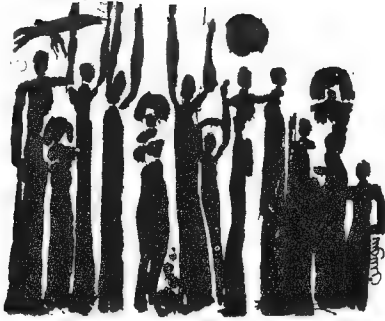
(أ) ميكانيزم المازوشية - السادية : وهو محاولة التخلص من ذلك الشعور بالخوف المحتمل بالهزلة وقلة الحيلة أما بالاضغاع الكامل في آخره - أو بعبارة أخرى التخلص من أزمة الحرية بالانهاك في آخره - أو ما بمحاولة تقي ذلك الشعور ببديل له هو ممارسة سيطرة معذبة على الآخر . (ب) ميكانيزم التدمير : وهو محاولة الهرب من ذلك الشعور بالخوف المحتمل بتخظيم العالم الخارجي ، أي بتخظيم مصادر ذلك الشعور المؤلم رغم ما يؤدي اليه ذلك الميكانيزم - الذي يخلط فيه الكراهية بالعدوان - من تضامف للشعور من جديد بالضعف والهزلة .

(ج) ميكانيزم الانصياع الآلي : وهو أكثر الحلول انتشارا بين أبناء مجتمع الحضارة الغربية ، وهو محاولة للفرد لمعايير السلطة أي كانت تلك السلطة ، ومن ثم التآلف للعمل عليها والانصياع لها دون تفكير تخليصا من الشعور بالضعف .

ويرى فروم أن تلك الميكانيزمات لا تحل مشكلة المجتمع الراسمالي على الإطلاق ، وأن لا حل لتلك المشكلة الا بالممارسة الايجابية البناءة للحرية ، وهو مالا يمكن أن يتبعه ظروف الحضارة الغربية الرأسمالية . فالراسمالية تتميز عموما - في رأى فروم - بأنها مدمرة وبنائية للثقافة ، وذاتية انسان الحضارة الغربية الراسمالية - وبشكل مطلق أيضا - ذاتية سلبية للثقافة واجبارية ولاشعورية . ومن هنا يبدأ التناقض في افكار فروم ، فتسليمه بأن الراسمالية عموما وبشكل مطلق ظاهرة مدمرة وبنائية للثقافة أمر يتناقض تماما مع ما يعدنا به علم التاريخ والاقتصاد السياسي من انها أحدث مراحل تطور المجتمع الانساني ، فضلا عن ممارسته منح حيادية النادية الجذلية . فالمجتمع الراسمالي يعمل ترقفه في داخله في صورة جوانب طيبة بؤرية ، وبالتالي فمن الجائفة أن نتبع المجتمع الراسمالي - أو من شأنه من المجتمعات - بناء واحدا متشقا ، وأن نتحكم على كل من يمشي في المجتمع الراسمالي بأنهم يفتنسون حرية سلبية أو يهربون من الحرية سواء كانوا أصلا راسماليين أم متخفيين لوزيفين هذا من الناحية النظرية ، أما عن الناحية الفعلية فقد

واجه فروم سؤالا محددا هو : ماذا الحل ؟ أنسا اذا ما سلمنا مع فروم بأن الراسمالية هي مصدر تلك الدوافع الاجبارية الجائفة للثقافة ، وأنه لا استثناء ولا مهرب أمام كل من ينجأ في ظل ذلك النظام ما كان أو أجرا ، عاملا أو راماليا . فلا طريق أمامه يجنيه المصائب وينجيه من تلك الممارسة السلبية لحريته سوى أن يمر بفترة التحليل النفسي لتفصل دوافعه الاجبارية اللاشعورية الى دوافع فعلية ومنطقية ، ولتتحول ممارستها السلبية لحرية الى ممارسة ايجابية فعلية لها . ولكن الى أين يلجأ هذا الفرد بعد تحليله ؟ انه سيمود الى مصدر الخبرات الصبابة ، أي الى الراسمالية من جديد ، بل انه سيعود وقد تغير حتى من دفاعاته اللاشعورية ؟ فسادا سيفعل ؟ ليس امامه - متحمسا مع منطق فروم - الا أن ينتصر أو يستعيد صورا جديدة من دفاعاته القديمة ، أي يستعيد مصابه القديم ، أي يهرب من حريته مرة أخرى . ما الطريق إذن ؟ يقدم فروم اجابته على هذا السؤال في كتابه « المجتمع العائلي » محاولا صياغة مفهوم جديد لمجتمع صميم مائل ينجب الفرد الانتعاش أو الوقوع من جديد في براثن المصائب اذا ما عاش في ظل ذلك المجتمع العائلي . ويسعى فروم مجتمعه الصالح هذا بالمجتمع « الاشتراكي » . لم تلم اشتراكية فروم على أسس من علم الاقتصاد أو علم التاريخ بل قامت على أسس من نظرية فروم الى المجتمع من خلال مفاهيم التحليل النفسي ، تلك النظرة التي أدت بفروم الى اعتبار أن الصراع الدائري بين المجتمع والممارس له الممارس هو صراع بين الشيوع والاشعور ، وأنه لا منجاة لإحدى في ظل المجتمع الراسمالي من خضوعه لهذا الصراع راسماليا كان أو بروتلياريا . وما دام فروم قد ساءى في نظره بين الراسماليين والبروليتاريين ، فمن المنطقي إذن أن تقوم اشتراكيته على التعاون بين هؤلاء وهؤلاء أي بين المستغلين والمستغلين .

ولكن حتى في هذه الضنود ، أي في حدود الدعوة لمجتمع « اشتراكي » يقوم على التعاون بين الراسماليين والبروليتاريين ، يواجه فروم مازقا حرجا هو : من الذي يبنى ذلك المجتمع العائلي الاشتراكي ؟ لا يمكن بالطبع في رأى فروم أن يبنيه أبناء المجتمع الراسمالي من العصبيين الهاربين من حريتهم سواء كانوا عمالا أو راسماليين . من يتنبه إذن ؟ لقد وصل فروم بافكاره الى أن الدماء الاشتراكيين الحقيقيين لابد وأن يتم تعاليمهم نفسيا في البداية حتى يتخلصوا من دفاعاتهم الرقضية ، بل لقد فطن فروم بالفعل في أن يتضمن الأفراد الذين حللوا ليكوفيتز خلافا للدعوة الاشتراكية . ولم يبق فروم عند هذا التكيف فحسب ، بل أنه يشير إلى أنه قد تمت بالفعل عدة محاولات من هذا القبيل كان مصيرها الفشل . ويتوفاق فروم عند تلك النهاية وبقي التساؤلات معلقة حائرة تبحث عن اجابة . لذا فشلت محاولة فروم تطبيق افكاره عمليا ، كيف يمكن أن نفس نجاح الثورات الاشتراكية في كثير من



أولاً : رؤية المجتمع في حركته

ان نقطة البداية الصحيحة فيما نرى للفهم وتقييم تناول مثل هذا الموضوع هي تحاذير رؤية الكاتب للمجتمع وللقوانين التي تحكم حركته . ولستطيع ان نستشف من تناول الدكتور أحمد فايق للقضية رؤيتين متعارضتين أحد التعارض للمجتمع بعمامة ، ولجسمنا بوجه خاص .

الرؤية الأولى هي ان الامة - اي امة - ليست سوى كيان واحد منسجم يتحرك حركة واحدة ، ويستجيب استجابة واحدة ، وهي رؤية تتعارض مع كافة الحقائق التي نعدنا بها علوم التاريخ والمجتمع والاقتصاد ، والتي تدور حول ما تقسم الامة داخل أطرافها من طبقات اجتماعية تتنافس مصالحها وتتعارض أهدافها . وتتشعب هذه الرؤية لدى الكاتب أكثر ما تشعب في عبارة محددة عند - فيما نرى - خبير الراوية في البناء النظري الذي يقدمه الكاتب. وهي : « ان كل خاصية في شخصية ما لا ولكن الشخصية القومية لا تعفى تقضيها في حالة كرون » - والمباراة كما هو واضح مركبة من جملة أصالية دخلت عليها جملة أمتراضية . وفي هذا الإدخال بالتصديد ولكن جوهر رؤية الكاتب للمجتمع . الجملة الأصلية دون إضافة هي صياغة لاحدى نتائج نظرية التحطيل النفسى القابلة على التخليع بما في الشخصية الإنسانية من تناقض بين الشعور واللاشعور . « وبالجملة الاقتصادية التي أضافها الكاتب أضنىح غا قد يكون صحيحاً بالنسبة للرد صحيحاً

بلدان العالم رغم ان قادتها - فيما نعلم - لم يعروا بغيره التحطيل النفسى ؟ وفوق كل ذلك يبقى تساؤلنا الرئيسى قائماً : هل ما يصدق على الفرد يصدق على الجماعة ؟ لقد حاول فروم عملياً ان يجيب على هذا التساؤل بنعم ، فالتنت به محاولته من الناحية العملية الى الفشل ومن الناحية النظرية الى مبنى فكر انتهازى رجحى اى مبنى فكر المجتمع الرأسمالى الذى كان يهدف الى البداية الى محاربه والموقف في وجهه .

محاولة الدكتور أحمد فايق

ولعله من أكثر الامور مدعاة للتفاؤل وجدارة بالتشجيع ان تتسع دائرة اهتمام المتخصصين من بيننا لتصل الى ما هو خارج نطاق تخصصهم الضيق . ويفصح الامر مدعاة لزيد من التفاؤل والتشجيع اذا لم يلف الاهتمام الجديد عند حدود المتابعة فحسب . بل يصل الى المساهمة باللمعة واللقلم . ولذلك يصيح لزما علينا ان نقوم أولاً بواجب التشجيع مسجلين للدكتور أحمد فايق ان جوهر مقالته « عناصر الحرب النفسية ومشكلات التحرب النفسية » كان والحق يقال دفاعاً من وجهة نظر كاتبه - عن اصابة ثورة ١٩٥٢ ومن بعدها ثورة ١٩٦١ الاشتراكية وهو امر جدير بلاشك بالإشارة بل وبالاشادة ايضاً . ولكن الهدف المرجو - ايا كان - لا ينبغي ان يلبسنا عن عدد من الملاحظات .



أوبنهايم

المسيطرة في ذلك المجتمع ، فانه يتغير الطبقية المسالدة - من طريق الثورة - يحول طبقية جديدة محلها تغير الافكار السائدة في المجتمع متخلفة طابع افكار تلك الطبقة الجديدة . لقد أدت رؤية الكاتب به الى محاولة تطبيقها على ما اعتبره «انقلابا خطرا» قد حدث للشخصية اليهودية في الفترة الأخيرة تحول فيها التسياب منهم الى مقاتلين حرسين بعد أن كان يعرف منهم في العالم أجنيح الوداعة والخنوع ، وبغض النظر عما قدمه من تفسير لهذا «الانقلاب» يحق لنا أن نتساءل هل حدث «انقلاب» كهذا حقا ؟ هل الوصف الشائع لليهود بالوداعة والخنوع وصف شامل وعلمي ؟ وهل يصدق ذلك الوصف بالفعل على كافة اليهود ؟ أم انه يصدق على قرائهم دون اغنيائهم ؟ أم انه يصدق على العامة منهم دون الصفوة ؟ وهل شمل ذلك «الانقلاب» اليهود جميعا ؟ هل تحولت الاقليات اليهودية التي ما زالت تعيش في شتى البلدان الى مقاتلين حرسين ؟ أم أن ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الصبانية ؟ وهل ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الذين مازوا من الصف النازي أم انه شامل أيضا لليهود من أبناء فلسطين والبلاد العربية ؟ وهل يرجع ذلك «الانقلاب» الى عملية نفسية تمت استجابة لحدث تاريخي أم انه استجابة مستمرة لاحداث اقتصادية وسياسية مستمرة كذلك ؟ قد صباغنا اجابة مثل تلك الاسئلة على التوصل للسؤال الاصيل وهو هل يحدث انقلاب يقيق ، وعلى أي حال فالامر في حاجة الى مزيد من الجهد التخصص الذي لا يفي هذا المورد العابر .

كذلك بالنسبة للمجتمع ، وما قد يصدق على شخصية الفرد ، يصدق كذلك على الشخصية القومية ، وعلى أي حال فان الكاتب يذكر بروسوخ « انه اذا بين ان أمة تبنى سمة ما وبسطة معينة تستطيع أن تنبأ أن تقيض هذه السمة وينفى تولدها موجود ويسكن استفوازه . » ولابد لنا من المسألة منهجية نفسية التناقض . صحيح فيما نرى ان التناقض هو محرك كل تغير وهو بالتالي قانون جدلي شامل للطبيعة والمجتمع معا . ولكن هناك ما يسميه اصحاب المادية الجدلية بالطابع التومي للتناقض ، بل انهم يؤكدون ضرورة حل التناقضات المختلفة كليا ، بامناحيب مختلفة كليا . والطابع التومي للتناقضات التي تدور داخل الأفراد - سواء أخذنا بمنهج التحليل النفسي او غيره من المناهج - يختلف عن الطابع التومي للتناقضات التي تحكم حركة المجتمعات . ولعل هذا - ودون دخول في مزيد من التفصيلات - يكاد يكون المبرر الوحيد لوجود علم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ كعلوم السانبة منفصلة ، والا لانفصحت جميعها في علم واحد يدور الانسان في كافة مظاهر وجوده . وللتقاضي ان يقسمال هنا : ليس ثمة تغير من هذا النوع يمكن أن يحدث على نطاق الأمة ، والاجابة نعم .. ولكن ذلك لا يتم بزوغ تقيض كان في حالة كمون لاشموري ، بل باستيلاء طبقية جديدة على السلطة لها من المصالح والقيم والتقاليد ما يجعل منها تقيضا للطبقة التي كانت تهيمن قبلها . ونظرا لان الافكار المسبلة في أي مجتمع انما تكون على العموم الكافي الطبقة

يشتغل بعد ذلك إلى الرؤية الثانية للكتاب فيما يتعلق بالجمهور وحركته . فبعد أن اشتمر يتحدث طوال المقال من « الشخصية القومية » و « الآلية المصرية » و « المضمون الشعوري الشعبي » ، بل بعد أن قرر بوضوح أثناء مناقشته لقضية « القومية البشرية للشعب المصري » أن الفرق بين الأمم إنما يكون « في قدرتها وإدراكها وأصايرها على استغلال تاريخها المحدود أحسن استغلال » ، بعد كل ذلك ، وفي الجزء الثاني من المقال نواجهنا عبارات مثل « لا يمتحن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصري » و « تغيير الشعب المصري تغيير مبالغ في مضمونه » إلى آخره مثل تلك العبارات التي تبرز رؤية الكاتب الثانية للمجتمع . لقد كاد الكاتب في رؤيته الأولى أن يلقى أي تمايز بين طبقات المجتمع المختلفة متبرها أنه كيان واحد متشجع ، واذ به في رؤيته الثانية يبرز التمايز بين طبقات المجتمع إلى الحد الذي يكاد يخطف بوجهته كافة . ويبلغ ذلك المؤلف قمة التعبير عنه حين يقول الكاتب مرجعا استعانة البحث عن نوعية بشرية للشعب المصري إلى الاختلافات التاريخية بين طبقاته قائلا « أن الطبقة العاملة في مصر تقترب بغيرائها التاريخية من الطبقات العاملة في كثير من دول العالم الثالث ، وتبتعد عن طبقة الرأسمالية الوطنية المصرية ذاتها » . وقضية العلاقة بين الطبقات بعضها وبعض داخل كل مجتمع ، والعلاقة بين تلك الطبقات والطبقات المناظرة لها في المجتمعات الأخرى ، هي بعبارة أدق قضية القومية والوطنية ليست بالقضية البسيطة التي يسمح المجال بتناولها تفصيلا ، وأن كنا نستطيع أن نشير بإجمال إلى أن الأمر يبتز على عكس ماوردته الكاتب دعما ، فالطبقة العاملة في مصر تقترب بغيرائها التاريخية من طبقة الرأسمالية الوطنية . والتعبير العملي عن ذلك الاقترب هو أن الطبقتين يسهما معا التحالف الثوري لقوى الشعب العامل في الحركة الحالية ، وهو تحالف لا يقل - أن لم يكن يزيد - عما يربط بين تلك الطبقة والطبقات العاملة في دول العالم الثالث ، إذا ما وضعنا في الاعتبار عامل القومية والانتماء لها ، وما يتربط على ذلك من نتائج وأربابايات ، وإذا ما كنا نتحدث عن الطبقة وليس عن طبقتها أو قيادتها فصحا .

لانيا : العلاقة بين القائد والشعب

لقد انطلق فكر الشعب مع إحدى مسلمات نظرية التحليل النفسي . بأن هناك عناقضا بين ما هو شعوري وما هو لاشعوري ، فأشاروا تلك المسئلة - كما سبق أن إفرنا - على رؤيته للمجتمع . وقد أدى ذلك إلى التراجع لوجود شعور ولا شعور قومي . ولم يكد هناك مبرر بعد ذلك من أن يحكم تلك المسئلة رؤية الكتاب وتحليله للعلاقة بين القائد والشعب . فهو يرى « أن المصير الأول في الحروب النفسية هو حينئذ لتفلال الرماة للظروف المتاحة لها »

لكن كيف ؟ يحسم الكتاب ذلك قائلا أن « مادة هذا المصير هي قدرة الرماة على حياطة مضمون الشعور الشعبي حياطة سليمة وفي ضوء الظروف المحيطة به وطرحها على الشعب لينطلق تقيش الشعور - أي اللاشعور - لتحدث الثورة النفسية » ولنا في حاجة إلى القول بأن نتائج علم التاريخ تؤكد لنا أن تغيير الزعيم عن مضمون الشعور الشعبي وطرحه لذلك التغيير على شعبيه أننا يؤدي إلى تدعيم لشعور هذا الشعور ، وتدعيم أيضا لقيادة هذا الزعيم . ولقد استند الكاتب في تدعيم فكره إلى واقعة تاريخية هي خطاب الرئيس عبد الناصر في جامع الأزهر أثناء عدوان ١٩٥٦ والذي رأى فيه الكاتب « صياغة للكرة شمورية اجتاحت نفوس الشعب » . نقائل ونعوت أبطالا ولو في غياب القائد ، ولكن صياغة الكرة الشمورية هو السبيل لانطلاق الكرة اللاشعورية وهي لتسحب ونميش لتفاجح يحسم بذلك المصير البقي . « ولنا نرى في الخطاب سجلا لقضية اللاشعور على الإطلاق . لقد كان لسؤال الرئيس هو : هل نقائل أم لتسلم ؟ وكانت أجابته التي صاغها وطرحها على الشعب « وانطلق الشعب مؤكدا لها » هي ستقال ستقال . لم تكن قضية الانسحاب مطروحة أصلا في الخطاب ولا في الاستجابة الشعبية له بشكل شعوري ولا بشكل لاشعوري . واسترجاع بسيط للتواريخ يوضح أن امر الانسحاب قد صدر في مساء الأربعاء ١٩٥٦/١٠/٢١ وبدأ الانسحاب بالفعل في فجر اليوم الأول من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وكان خطاب الرئيس في الأربعاء يوم الجمعة ١٩٥٦/١١/٢ الذي بعد أن بدأ بالفعل تراجع الجيش من سيناء للاتصال بالشعب والتفصال بجهة واحدة - وهو الشعار الذي أطلقه الرئيس وهدف الانسحاب (ولم يرد تقيشه اللاشعوري) ومارسه بالفعل حتى تحقق الانسحاب .

أما المصير الثاني للحرب النفسية لها يرى الكاتب فهو « رماة شموية صلبة يمكن للشعب التوجه بها » أما الأسلوب الذي يمارس به هذا المصير تأثيره فهو « الحركة المتشعبة مع العدو لانهال الحركة المشكية لدى الشعب » . ورغم ذلكنا يحسم نوايا الكاتب إلا أننا لا نستطيع سوى القول بأنه مهما حسنت النوايا فإنها لا تسمح بالتجاوز من الدور البظير الذي يمكن أن تلعبه مثل تلك الاكثار كترير جيد لكافة القادة الانتهازين بل والانراهامين أيضا . ولابد لنا من المتفرقة يحسم بين المجال العسكري والمجال الفكري ، ففي المجال الأول قد يكون من المسحوق به بل ومن المطلوب أحيانا التشبيح حركيا مع العدو يعني التفرق منه بقدمة ، والتقدم منه بتهترق وهكذا . ولستكن على المستوى الإيديولوجي يصبح مثل ذلك التشبيح أمرا حروفا تماما . « الوافاة التاريخية التي يستند إليها الكتاب في توفيق فكره هي قرار الرئيس عبد الناصر بالتصريح يوم ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ . « ويبدأ الكتاب تحليله لتلك الوافاة التاريخية بالتبشير بأن هدف الانسحاب كان انتهى

العربيين ، تمثيل الجراكسة على العرب ، والاحتجاج على التدخل الأجنبي في الشؤون المالية الداخلية ، وفي أسباب قومية ، بلا شك إذا كان المقصود بصفة القومية المداء للمستعمر الأجنبي . أما من حيث الدين فإن وقائع التاريخ تشير أيضا ، بل يبرز إلى خلد ، يكاد يتقرب من الاتهام ، اعتداء «عرباي على الذين في ولغة لغويات جنوده ولغويات الشعب أيضا .

٣ - يعتبر الكتاب عام ١٩٤٢ بداية لانحسار الولد ، ولعله يقصد حادث ٤ فبراير الشهير - منطلقا من فكرة ان جهازية الولد كانت تقوم على أساس من التوحيد بسمة «الوهم» ، وأن القيادات التالية له كانت أضغف منه فلم يتم التوحيد بها وبدأت في الانهيار في ذلك العام ، ولو وضع الكاتب في اعتباره الظروف السياسية والاقتصادية التي كانت تحدث ما يعطيه حرب الولد طبقيا لما اضطر إلى تجاهل اكتساح الولد للانتخابات العامة سنة ١٩٥٠ وعلى وأنه نفس من كان على رأسه في فبراير سنة ١٩٤٢ ، بل لعله كان في استطاعة الكاتب حينئذ ان يفسر ذلك ولو بعيدا عن قضية التوحيد بالزعم .

٤ - يرى الكاتب ان هناك نقاما عامة قد غابت عن الاستمرار في تحليله لظروف مدواله علينا عام ١٩٥٦ مرجعا ذلك إلى « فرية التحالف الذي قام حينئذ : حزب محافظ وآخر اشتراكي ، ونظام قاتل » ولا نجد فيما يندنا به التاريخ أي مبرر لقراءة ان يقوم تحالف بين هذه تنظيمات تعبر جميعها سياسيا وطبقيا وفكريا عن نفس القوى الرئيسية ، بل لعله كان أدى للتغيب ان نجد بينهم خلافا فيما يتعلق بموقعهم من قوى حركة التحرير في الاستمرات هذا بالطبع إذا ما «ركنا» جانيا الثلاثة التي يحملها الحزب « الاشتراكي » الفرنسي ولقرنا إلى المصالح الطبقية التي يبرر ويدافع عنها .

٥ - يقرر الكاتب في ختم انه « في عام ١٩٥٨ انضاف إلى الآلية المصرية عنصر جديد هو التفتح على نبداء مهاجمة الاستعمار في قوامه المحيطة بنا » والآن هنا لا يحتاج إلى مراجع تاريخية متخصصة ، فبداء مهاجمة الاستعمار في قوامه المحيطة بنا قد بدأ في أواخر عام ١٩٥٤ ، وبلغ ذروته في رد الفعل الشعبي عام ١٩٥٥ لتوقيع المراق لحلف بغداد .

ونعود في النهاية ليؤكد ان ما أوردناه من ملاحظات على مقال الدكتور أحمد فائق لابنني ما فيه من جهل وأخلاق ، وأن كانت تلك الملاحظات تبرر من ناحية أخرى أهمية التزام البعثة والصدور في اجتنب ذلك الطريق الورم .

فدري حفي

عبد الناصر وبالتالي فقد كان قرار التنحي تمجيحا مع رغبة العدد بشرا بذلك الحركة العكسية لدى الشعب أي رفض التنحي - ووقائع تاريخنا الثوري تسمح لنا بأن نصصح المسئلة الأولى ، فمطلب وحده الاستعمار لم يكن أن يتنحي عبد الناصر بل كان المهدف الاصيل هو: ضرب المسار الثوري للثورة المصرية ، وحيدا أو تم . ذلك بأن يشكر عبد الناصر نفسه للثورة أي بأن يستسلم ، ولم يكن قرار التنحي تنحية للثورة ، وهو ما هدف إليه الاستعمار - بل إنه على العكس قد تضمن عرضا ضاملا لمنجزات الثورة وتأكيدا لاستمرارها - ثم تضمن اقدا ما شجعنا من القائد لتجمل مسئولية كل حادث كطرح للثقة به على الشعب . وكان تجرد الشعب تجديدا . وتأكيدا لثقتنا بالقائد ولعزمه ، على بقائه عزما على المس في طريق الثورة . لم تكن هناك إذن حركة متمشجة مع الصدور ، وبالتالي لم يكن هناك البرة لحركة عكسية لدى الشعب .

ثالثا : وقائع التاريخ وتفسيرها

أشك ان كتاب المسال الحق في تفسير الأحداث التاريخية كما يشاء وللآخرين أن يحتفلوا معه إذا ما شاءوا ذلك . ولكن لاستخدام ذلك الحق حدودا إذا ما تجاوزها الكاتب كان للفكرية حينئذ أن يتردى ان انطلاق الكاتب من مسلماته التي أشرنا إليها قد دفعه إلى تحريف بعض الوقائع والتعسف في تفسير البعض الآخر لكي تتناسب الأحداث مع نتائج مسلماته التي بدأ بها . وتكتفي بأيراد الأمثلة التالية كمثال ذلك التحريف والتعسف :

١ - جاء في المسال ان حرب يونيو سنة ١٩٦٧ قد لاجأتنا بأن اليهود المستعدين الضمغ قد أصبحوا قساة شرسين . وسبق أن عرفنا لتساؤلنا من واقعة التصول ذاتها ، ولكن لو سلمنا بعدولها فيكفي - وبدون الرجوع إلى ماضئته قصص الثورة من عتف - أن نستعيد ما لجأت إليه المصائب الصهيونية من عتف في ظل الانتداب البريطاني في فلسطين ، وأن نستعيد لفظ تلك المصائب في حرب عام ١٩٤٨ ، بل يكفي حتى أن تشير فحسب إلى مذبحة دير ياسين ليتضح لنا أن الوجه المتيف للصهيونية لم ينفجأنا عام ١٩٦٧ بل ان ذلك الوجه كان سافرا ومعروفا بل كائنا ما منه الكثير قبل ذلك بكثير .

٢ - يذكر الكاتب في مبرش حديثه عن لوة مرابين ان نقطة الضعف « الوحيدة » في الثورة العربية كانت عدم وضوح الوجهة القومية ، مما أدى إلى انه بدلا من أن يستغل مرابين عنصر الدين والقومية تركهما سلاحا في يد عدوه . وتثير وقائع التاريخ - ويكفي هنا الاستشهاد بالرأى - أن أي أنه من أهم الأسباب الملهة إلى حركت

بين النظرية والمنهج في علم النفس

عبد الستار إبراهيم محمد

لماذا نلجأ الى مناهج العلوم الاخرى ونحن امام
الانسان ذلك الكائن ذي التركيب المعقد المتجاوز
لوضعه وتاريخه ، ولكل قوانين مفسرة ؟! الايكلفنا
قربنا من الظاهرة - حيث نحن موضوع الاهتمام
والتصاقنا بعلاقات مستترة بالآخرين حتى
نحصل معرفتنا الصحيحة بالانسان ؟ فما الذي
نصبو اليه غير الوصول الى الحقيقة ؟!

تثار مثل هذه التساؤلات دائما في مواجهة
تطبيق المنهج العلمي في دراسة السلوك الانساني
ومن الحق أن نعترف بشكل عام أن الوقوف على
مثل هذه التساؤلات أصبح من قبيل الوقوف على
قوالب جامدة من التفكير والحكم . ويكفى للدلالة
على ذلك أن نجتمع بين هذه الدعاوى ، وما تعنيه
النظرة العلمية - بمعناها الصحيح - حتى يتضح
خطا إثارة هذه الاسئلة على هذا النحو .

فلا شك أن النظرة العلمية للسلوك - السلوك
الانساني على وجه الخصوص - تدرك جيـدا
الطبيعة الفريدة ، وشبكة العوامل المعقدة الكامنة
وراء هذا السلوك . ولا شك أن الانكار
المعتد في علم النفس - شأنها في ذلك شأن
العلوم الاخرى - ليست صورا ذهنية معزولة
عن الواقع ، وانما هي تسمح لنا بالتعامل مع

المواقف الخارجية بصورة أفضل . وفي كل الاحوال لا تهدف النظرة العلمية للسلوك الى اكثس من الوصول الى الحقيقة ، والى المعرفة الصحيحة بالانسان .

لكن عالم النفس عندما يثير هذه القضايا على هذا النحو لا يقف على الجوانب السلبية منها موقف الغلوب على أمره بل يتعدى ذلك الى اضاءة جوانب من حقيقة الظاهرة التي يدرسها ، بمفهوم خاص عن الحقيقة . وبهذا تكتسب هذه التساؤلات في ذهنه حيوية فائقة تستثير لديه كل قدراته على التحدى والصراع . والمتتبع لتاريخ علم النفس - المسمى - يدرك هذا الامر بوضوح . فتاريخ هذا العلم - وهو لا يكاد يتجاوز مئة عام - محاولة متصلة دائمة في تكشف مظاهر السلوك المختلفة - البسيطة والمعقدة على السواء - وتحديد ، وتنظيم الشروط المساهمة في ابراز معالمها عن طريق المنهج العلمى .

ولعل أول السمات التي ينطلق منها عالم النفس في نظراته لموضوع دراسته - وهو السلوك - والتي أدت به الى أن يتخذ موقفا يمكنه من كشف الكثير ، هو أنه يصدد موضوع قابل لأن يفسر . بمعنى أن للسلوك منطقاً ينتظم من خلاله : أسباباً وشروطاً ، وعلاقات بين هذه الأسباب والشروط . وقد يعتبر عالم النفس أن صراعه من أجل الحقيقة قد انتهى عندما يتمكن يوماً ما من الوصول الى صياغة - أو معادلة نهائية - لفظية أو رياضية تصف على نحو صحيح وواقعي كل أنماط وأشكال العلاقات التي تربط بين السلوك وشروطه بطريقة تجعل تنبؤاتنا مقننة دقيقة . غير أن هذا الصراع فيما يبدو لن يقف يوماً ، فأنماط السلوك نفسها تتغير ، والحياة تطرح باستمرار شروطاً جديدة تغير في شكل العلاقات نفسها ، مع ذلك فإن هذا الصراع يستمر مخلفاً وراءه في المراحل المختلفة انتصارات يزعم بها العلماء ، فهي تبين لهم أن صراعهم من أجل الحقيقة لا يسير في طريق مغلق أبداً .

ومفهوم الحقيقة - كما يتبيننا عسالم النفس - لا يختلف في الواقع عن مفهومها في ذهن غيره من العلماء . فالعلماء كل في ميدانه الخاص يحاول التعبير عن المنطق الصحيح لأنماط العلاقات بين الأشياء . فهذا ما يفعله علماء البيولوجيا مثلاً ، أن يتمكنوا من المنطق الذى من خلاله يمكن أن تنمو ساق نباتيه معينة نمواً ناجحاً بتحديد الشروط

الأساسية التى تنظم عملية النمو . كطبيعة التربة ، ودرجة الحرارة ، والتعرض لأشعة الشمس ، وكمية الهواء . الخ . وهذا ما يفعله أيضاً علماء الكيمياء . أن يصوغوا لنا المنطق الذى تتفاعل من خلاله المواد ببعضها بتحديد خصائص المادة التى تحدث مساهمة هذا التفاعل . وهو نفس ما نطلبه من عالم النفس : أن يوضح لنا الشروط والأسباب - البيئية والشخصية - التى تجعل الناس يدركون ، ويفكرون ، ويبعدون أفكاراً جديدة ، ويحكمون ، وينحرفون في سلوكهم الاجتماعى ، أو الانفعالى ، ويحلون مشكلات الواقع بدرجات متفاوتة الكفاءة . الخ .

ومثل هذا الهدف كما تتبناه المعرفة العلمية - كجانب من جوانب المعرفة الإنسانية - وهو التآليف بين جوانب الواقع والجمع بين جزئياته هو نفس هدف الأفكار العظيمة في كل المجالات الفنية أو الفلسفية . الخ (فهكذا مثلاً برزت عبقرية الفنان جيوتو Giotto التأليف الذى استطاع أن يربط ما في لوحاته عن المسيح بين أزمة الانسان ومعاناة المسيح ، بطريقة تضيق منظورا جديداً المفهومين من الانسان ، وعن المسيح وهكذا برزت عبقرية ماركس الذى استطاع أن يجمع بين علاقات الانتاج وشكل الانتاج بطريقة أضاءت كثيراً من فهمنا لجزئيات المجتمع في شموله . لعل هذا ما يشهد انتباهنا الى روايات الاديب المصرى **تعجب مخلوق** حيث استطاع - بذكاء نادر - أن يجمع بين حيرة وهزيمه إبطاله ، وبين حيرة الانسان في البحث عن يقين ، بطريقة تعمق احساسنا بأبطاله وبالانسان .)

لكن المعرفة العلمية تتميز عن غيرها من انواع المعرفة في **نقطتين :**

١ - أسلوب المعرفة .

٢ - التنظيم النظرى لمنطق الوقائع .

فالعالم لا يهتم بالوقائع الشائعة بقدر ما يهتم بأسلوب الوصول الى هذه الوقائع ، هادفاً في النهاية الى : الفهم ، والتنبؤ ، والضبط . ولعل هذا ما يعنيه ويتهدى عندما يقارن بين عصر العلوم والعصور الاخرى فيقول " ان اليوم بدأ لسؤال كيف نعرف ؟ يعطى بالاهمية القصوى بدلاً من السؤال ماذا نعرف ؟ " . ويذكر العالم النفسى جيلفورد - وهو واحد من القلائل الذين يبنون تجاربها علمياً في فهم وبناء العقل البشرى - أن

مجرد المعرفة بالسلوك لاتخلق عالماً نفسياً - قاصداً
بذلك الإشارة الى أسلوب المعرفة .

ولعلنا نعرف الآن أن أسلوب المعرفة - عند
العالم هو المنهج العلمي بإيماده وعناصره المختلفة
ولا يختلف المنهج العلمي في دراسة السلوك عن
المنهج العلمي في دراسات موضوعات الطبيعة
الأخرى . والعناصر الأساسية في كل واحدة

في المنزل ، في المصنع ، في الشوارع . . الخ)
يفترض مثل أن الاحباط يؤدي الى عدوان .
ويضع فرضه في شكل لفظي يعبر تعبيراً مؤقتاً
عن هذه العلاقة (إذا حدثت أ حدثت ب) . وبداية
من هذه الصياغة ، يحاول التأكد من هذه العلاقات
هادفاً الى تنظيم معرفتنا بالسلوك العدواني ،
والتحكم فيه . وثمة طريقتان أساسيتان يلجأ اليهما
في ذلك : ١ - التعبير عن العلاقة في شكل



وهي : الملاحظة ، وإجراء التجارب والقياس .
ويلاحظ عالم النفس مثلاً في مواقف مختلفة من
الحياة أن هناك أطرافاً ذات طبيعة محددة بين مظاهر
كثيرة من السلوك العدواني على المستوى اللفظي
أو الفعلي وبين أعاقه التوصل الى هدف معين أو
أشباعه في مواقف مختلفة من الحياة (في المدرسة،

ما يسمى بمعامل الارتباط : ينتخب الباحث عدداً
مفقولاً من الأشخاص . ويطبق عليهم عدداً من
المقاييس الموضوعية لقياس الوظائف ، أو المتغيرات
أو المظاهر السلوكية التي يريد دراسة العلاقات
فيها بينها . وهي في مثالنا العدوان والاحباط
والخطوة التالية لذلك هي التعبير عن نتائج هذه

٣ - المرونة : أى العامل الذى يكمن وراء مظاهر سلوكه التى تبدو فى قدرة الشخص على أن يعيد نظام توافقه مع الموقف ، أى يغير وجهة نظره للأشياء ، أو يغير الزاوية التى يعالج منها الشئ .
والفارق بين المرونة والإصالة أن الشخص الذى تتوفر فيه قدرة أكبر من المرونة لا يميل إلى أن يكرر نفسه إنما يميل دائماً إلى أن يشكل سلوكه تشكيلات مختلفة مع الموقف المتغير .
ولذلك فحلولة الإبداعية يبدو عليها التغير المرن والتعبير بفئات مختلفة ، وإعطاء حلول ذات طابع مختلف . أما الشخص الذى تتوفر فيه قدرة أكبر من الإصالة أو الخبرة فهو الشخص الذى يعطى حلولاً أو أفكاراً لا يعطيها غيره : أو لا تشيع بين الآخرين .

٤ - الملائمة الفكرية : أى القدرة على إعطاء عدد كبير من الأفكار والتصورات فى وحدة زمنية معينة . وهذه القدرة تبدو مظاهرها فى مواقف مختلفة كلها تتجه نحو كثرة عدد الأفكار والتصورات التى يعطيها الشخص فى وحدة زمنية معينة إذا قارناه بغيره بحيث نستطيع أن نتحدث عن انخفاض فلان فى هذه القدرة ، وارتفاع فلان الآخر فيها .

هذه أمثلة تبين لنا ما يقدمه المنهج الارتباطى من تنظيم فى معرفتنا للسلوك . والآن لننتقل إلى الطريقة الثانية .

٢ - الطريق الآخر هو اصطناع مواقف أقرب إلى المواقف الواقع بتعرض الشخص أو الأشخاص لمنبه أو عدد من المنبهات ، بطريقة تسمح باستثارة السلوك أو الخبرات ، ثم يفحص هذا السلوك الناتج ، أو تلك الخبرة تحت ظروف تعرضها لهذا التنبيه دون مسبب ، فنحللها ، ونوضحها ، ونقارنها بغيرها من الأمثال السلوكية المستثارة تحت ظروف مختلفة . وهذا هو الاتجاه التجريبي . وهو لا يختلف عما يفعله العلماء الآخرون . فبنفس الطريقة مثلاً يقوم البيولوجى بتعرض ساق نباتية لأشعة الشمس ملاحظاً التغير الذى يطرأ على نموها . وبنفس الطريقة يقوم العلماء فى معامل البحوث بكلبيات العلف بتعرض الجرثائم المرضية إلى أنواع معينة من العقاقير . وملاحظه التغير الذى يطرأ على نموها .
النتج . فكل فريق من هؤلاء يفترض فرضاً عن أسباب الظاهرة . ويحدد مدى مطابقة الفرض المعمول به لعالم الوقائع الملاحظة فى موقف ضبط

العلاقات فيما يسمى بمعامل الارتباط ، كتقدير كمى نستطيع من خلاله أن نتبين الوحدة التى تجمع بين هذين الخاصيتين : بأى مقدار يظهران معاً ، ويختفيان معاً ، أو يزيدان معاً أو ينقصان معاً . هذا أبسط شكل لمعامل الارتباط . غير أن هناك مناهج أخرى تقوم عليه . . . وهى أكثر تعقيداً من هذا الشكل وتهدف إلى مزيد من التنظيم للعلاقات التى ينظم من خلالها السلوك . مثلاً ما يسمى بالتحليل العاملى فى هذا الشكل لا ينتخب الباحث مقياسين أو ثلاثة إنما ينتخب عدداً أكبر من المقاييس . . . تقيس سمات سلوكية مختلفة ، ويطبقها على عدد أكبر من الأشخاص لا يقلون عن ٢٠٠ . ويحلل العلاقات بين هذه المقاييس المختلفة ، (عن طريق معاملات الارتباط أيضاً) . ويخرج من هذا التحليل بتجيمات احصائية مختلفة ، أنواع من المقاييس ترتبط ببعضها دون البعض الآخر ، وهذا ما يسمى بعوامل أو أبعاد أو محاور السلوك الرئيسية . وهذه الأبعاد أو العوامل هى فى الواقع مفاهيم احصائية تقوم - على حد تعبير الدكتور مصطفى سويرف بمثابة خطوط وهمية كخطوط الطول والعرض على الكرة الأرضية ، ليس لها وجود فعل فى الحياة النفسية ، لكنها مع ذلك مفيدة جداً فى بناء علمنا ، تماماً كقائمة خطوط الطول والعرض فى تنظيم بسيط من معلوماتنا الجغرافية والقارية التى استطاع من خلال هذه السطور أن يفهم منطق المنهج الارتباطى ، والتحليل العاملى يستطيع أن يفهم بسهولة الانجاز .
المختلفة التى أنجزها علم النفس من خلاله اعتماده على هذا المنهج . مثلاً ما توصل إليه إيزنك H.J. Eysenc من أن هناك نمطين أو بعدين أساسيين نظمان السمات المزاجية للشخصية هما : الانطواء والانبساط . وما توصل إليه العلامة جيلفورد من أن هناك أربعة عوامل أساسية تقوم عليها القدرة على الإبداع . كمقدرة تأخذ موقعها فى بناء أشمل هو بناء العقل - وهى :

١ - احساسية للمشكلات : أى القدرة على الاحساس بأن الموقف أو المواقف التى نواجهها تتطوى على مشكلة ، أو عدد من المشكلات تحتاج إلى حل .

٢ - الجدة أو الإصالة : وهو العامل الذى يخص ويكمن وراء مظاهر السلوك عندما يبتكر الفرد حلاً جديداً أو أصيلاً . لا يستطيع أن يصل له أحد غيره .

- باستبعاد كل الشروط الأخرى غير الداخلة في الفرض - وتغيير منظم في الشرط ، أو الأسباب المفترضة - وملاحظة أوجه التغير ، والتصير عن هذه الأوجه تعبيراً بسيطاً .

وهذا في الواقع ما يميز المنهج التجريبي عن المنهج الارتباطي : في المنهج التجريبي نصل إلى أسباب ، وشروط ، ونستنتج علاقات سببية . أما في المنهج الارتباطي فنحن لا نستطيع أن نستنتج علاقات سببية أننا نقوم بتلخيص العلاقات ، واختزلها بهدف تنظيم معرفتنا كما أشرنا .

لكن هناك حالات كثيرة يمكن منها استنتاج علاقات سببية اعتماداً على العلاقات الارتباطية الملحوظة . فالأسباب خلفية لا يمكننا مثلاً دراسة الأنواع المختلفة للأمراض النفسية عن طريق تعريض مجموعات من الأفراد - لبيئات أسرية تختلف فيها أنماط التفاعل الاجتماعي . ولكن من الممكن ، مع ذلك ، أن نلاحظ الفروق الطبيعية الموجودة في عدد من الأسر من حيث أنماط التفاعل وعلاقة ذلك بالفروق في شخصيات أفرادها من حيث مظاهر الاضطراب النفسي . ففي هذه الحالة - نستطيع أن استنتج وجود علاقة سببية اعتماداً على المنهج الارتباطي لأن العلاقة المستنتجة لا يمكن قلبها أو عكسها .

وقد يمكننا أيضاً منطق النظرية العلمية الجيدة من استنتاج علاقات سببية من البيانات الارتباطية بقليل جداً من المغامرة . وإلى القارئ هذا المثال ، من دراسات السلوك الاجتماعي : لنفرض أنني حصلت على معاملاً ارتباط مرتفع بين حجم الجماعة ، وفاعلية القائد فيها - كلما زاد حجم الجماعة زادت فاعلية القائد وقدرته على التأثير . ففي هذه الحالة لا يمكن أن استنتج أن حجم الجماعة قد زاد لأن فاعلية قائدها قد زادت . وقد تصبح هذه النتيجة غامضة نظرياً إذا اقترضت ذلك ، لأن الارتباط هنا لا يوضح كيفية مساهمة حجم الجماعة في فاعلية القيادة .

والخلاصة أن المنهج التجريبي أكثر حسماً من المنهج الارتباطي في استنتاج العلاقات السببية . ولكن المنهجين يتفقان في أنهما يجعلان معرفتنا بالسلوك أكثر تنظيماً . والجمع بين المنهجين يجعل قدرتنا على التنبؤ ، ومن ثم الضبط أكثر فاعلية وحسماً .

وتتبلور أهمية المنهج الارتباطي والتجريبي في

أن كلا منهما يساهم في التنظيم النظري ، وتلخيص المنطق للحقائق ، بإيجاد وصف لفظي مناسب لتشكل العلاقات بين الأفاع ، ومن ثم التنبؤ بمسارها وفق المطابقة بين هذه الصياغة وبين حوادث الواقع بجزئياتها المختلفة ، والتي كانت تبلى قبل وجود هذه الصياغة - مجموعة من الحوادث المفككة المنفصلة غير القابلة للتأليف أو الجمع .

يقودنا هذا إلى الحديث عن التنظيم النظري للحقائق كهدف أسمى تصبو إليه المعرفة العلمية لا في علم النفس وحده بل في كافة أنواع المعرفة العلمية الأخرى .

التنظيم النظري :

يعرف العالم الفيزيائي البريطاني جيمس كوانت Constant J. Robinson النظرية العلمية بأنها « سلسلة من المفاهيم المترابطة والتخطيطات التصورية التي تشكلت من خلال التجارب والملاحظات » ويشير روبنشتين J. Robinson عالم النفس السوفيتي المعروف - إلى نفس هذا المعنى فيعرف النظرية بأنها محاولة لصياغة مفاهيم معينة عن تشكل الظواهر .

ولا شك أن التنظيم النظري (النظرية العلمية) الدقيق ليس مجرد محاولة يصبو إليها العلم على مدى حركته التطورية ، بل هو هدف البحث العلمي الاسمي كما ينبغي لا من خلال جهد عالم واحد بل ولا مجموعة من العلماء والمتخصصين في فترة زمنية واحدة ، إنما من خلال جهد أجيال متتالية من الباحثين والعلماء .

ولكن يجب أن لا يفهم من ذلك أن النظرية بناء متصلب من الحقائق . فانظرية كعملية خلق انسانية نتاج جهل شاق من محاولة التكيف للواقع - على حد تعبير العلامة أينشتاين . ولعلنا لا ننسى أن بناء النظرية العلمية يركز أساساً على الملاحظات الدقيقة للعلاقات التي تتم بين أجزاء الواقع ، وعلى التأكد من هذه الملاحظات بمختلف الأساليب المضبوطة ، وأنه بقدر ما تتقدم ملاحظتنا ، وتنمو ، وتتعدد بمقدار ما تسدل في شكل النظرية أو تغير في بنائها . فالمتبع لتاريخ النظرية السلوكية ، يرى أن هذه النظرية بدأت يرد أشكال السلوك إلى الشروط الخارجية بالسعي إلى إقامة علاقة مباشرة بين النتيجة والشروط الخارجية أو بين المنبه والاستجابة دون اعتبار للشروط الداخلية للسلوك (أو الاستجابة)

ولعل هذا ما أدى بالعلامة سيرل بورت C. Burt الى أن يركز في تحليله لعملية التذوق الموسيقي على بناء اللحن الخارجي وحده من حيث التوافق والتنوع . . لتقارب هذا بالمحاولات الحديثة التي ركزت في دراستها لعملية التذوق الجمالي على اعتبار أنه عملية تجمع بين خصائص المنبه الخارجي - موضوع التذوق - وخصائص الكائن المتذوق . مثال ذلك محاولة والاش W.A. Warach للكشف عن أثر الدوافع ، وبناء الشخصية في تكوين الخبرات الجمالية (سنة ١٩٦٢) حيث استطاع هذا الباحث بالاعتماد على الدافع - أن يميز بين ما هو فن جمالي وفن غير جمالي بمقدار أشباح هذا الفن لبعض الدوافع . . فيبدو الفن جميلا إذا كان يستثير دافعا ينشده الفرد - كالدافع العاطفي - ويبدو فن آخر غير جميل إذا كان يحرك دافعا أو نزعة لا يريدها الشخص كالنزعة العدوانية ، فيقطوعة سترافسكي Stravinsky «مقوس الربيع» قد تؤدي إلى تأثيرات مختلفة في مستمعين مختلفين : تستثير بعضهم استشارة جميلة يشدها وتحرك في بعضهم نوازع عدوانية تهدد تكاملهم فتبدو عند المجموعة الأولى فنا جميلا، وقد لا يراها أفراد المجموعة الثانية فنا على الإطلاق . ومن بين التجارب التي أجراها « والاش » تجربة أراد فيها أن يوضح دور سمات الشخصية في التذوق الموسيقي . ودون السخول في التفصيلات المنهجية أمكن للباحث أن يكشف أن هناك علاقة مباشرة بين الميل إلى المجازفة والانسياق وتذوق الموسيقى الصاخبة - بأن يعرض مقطوعات موسيقية مختلفة الإيقاع والحركة في الأفراد ، ويطلب منهم أن يختاروا المقطوعات التي يفضلون سماعها عن غيرها - بعكس المنطوقين والمستكينين . لكنه اكتشف أيضا أن المرتفعين جدا في سمتي الانطواء والاستكانة اعتمادا على نتائج مقاييس موضوعية ثابتة لقياس هاتين السمتين مثلهم في ذلك المنبسطين والمجازفين من حيث جهم للموسيقى الصاخبة . . مما أوحى للباحث أن يفترض بأن الميل إلى الموسيقى المثيرة الصاخبة قد يكون أحيانا تعبيرا تعويضيا عن الانطواء والاستكانة في هذا المستوى الحالي . هذا نموذج من نماذج دراسة التذوق الجمالي . . يمكن للقارئ من أن يستنتج الخط العام لهذا النوع من الدراسات العلمية لجانب من جوانب النشاط الانساني ، لآزال الكثيرون يابون إخضاعه للعلم فضلا عن إخضاعه للتجربة . . ومثل هذا الشكل لم يكن ليتم دون أن تكون العناصر الأساسية للنظرية العلمية قد اكتملت أو قاربت الكمال .

وهي الشروط التي تكسب التأثير الخارجي معناه ووفق هذا البناء يطلق واطسون Watson يصبح متفائلا بأنه قادر على أن يخلق عبقريا أو مجرما . وقد أثبتت التجربة بعد ذلك خطأ واطسون لأنه ارتكز على نظرية لم تكن ذلك خطأ استيعاب الواقع في ذاته . فالواقع ، وملاحظتنا لهذا الواقع تدلنا على أن نظام المنبه والاستجابة الحية لا يعطى وصفا مناسباً للحياة العضوية حيث يؤدي نفس المنبه إلى نتائج مختلفة في الكائنات الحية كلما اختلفت خصائصها ، والقروء التي تتعرض لها من وقت إلى آخر . فتأثير المنبه الخارجي يعتمد على حالة الكائن الحي وعلاقته بما يحيط به من ظروف ، وتنظيم هذه العلاقة . ومن ثم تعدل شكل النظرية - لتستطيع أن تلم بكثير من الحقائق الجزئية - بإضافة عنصر جديد يجعل فهمنا للواقع أكثر مرونة ودقة في نفس الوقت وهو : حالة الكائن العضوي Organism كعنصر يتوسط بين المنبه الخارجي والاستجابة .

وإذا كانت النظرية العلمية تتعدل من خلال الواقع . . فإن نظرتنا إلى الواقع تتعدل أيضا بتعديل شكل النظرية ودقتها . وهذا ما حدث بالفعل بعد تطوير النظرية السلوكية وفق الشكل السابق . فقد أمكن دراسة جوانب من السلوك الأكثر تعقيدا كدراسة العمليات المعرفية العليا : كالانتباه الإرادي ، والتهيز الذهني ، وحل المشكلات ، والقدرة على الحكم . بل وبعض الأشكال الأخرى التي يتشكك علماء النفس أنفسهم في جدوى دراستها وفق نظام المدرسة السلوكية كالإبداع . وقد كان جيلفورد يبدى تشككه في جدوى استخدام النظرية السلوكية في تفسير الظواهر الإبداعية ، وفي سنة ١٩٦٧ ظهرت محاولة ولبرت راي Wilbert Ray تحديا لهذا الرأي ومحاولا دراسة الإصالة في التفكير الإنساني وفق نظام المنبه - الكائن - الاستجابة . وهي محاولة تعتبر دون شك علامة على الطريق في دراسة القدرات الإبداعية ولم تكن لتتم دون الشكل الجديد الذي تطورت إليه النظرية . مثال آخر دراسات : التذوق الفني فقد أثار هذا الموضوع اهتمام علماء السلوك منذ فترة طويلة ترد إلى العالم الألماني فينر G. Th. Fechner رائد علم النفس التجريبي في أواخر القرن ١٩ . . ولما كانت دراسات التذوق الفني مرتبطة بالنظرية السلوكية في بداياتها المختلفة الأولى . . فقد ارتكز اهتمام العلماء في فهم هذا الموضوع على خصائص المنبه الخارجي الذي يستثير الشعور الجمالي وحده دون اهتمام بطبيعته الشخصية



جزئيات الواقع - لا يمكننا أن نلاحظ أو نشاهد
عنصر « المطابقة » وهو العنصر الذي يجعل
تنبؤاتنا بشكل الظواهر صادقة وصحيحة ، وهو
الشرط الأساسي في النظرية العلمية الجيدة .

**السؤال الآن ما هو شكل النظرية العلمية
الجيدة ، أي ما هي الشروط التي يجب توافرها
في النظرية حتى تكون صحيحة ؟** هناك
شروط أساسية تشير إلى الحد الأدنى من الخصائص
التي إذا توافرت أمكننا أن نتحدث عن وجود
نظرية وهي :

١ - نظام Model أو نموذج يعبر عن
أنماط معينة من العلاقات القائمة على عدد من
الملاحظات .

٢ - التعبير عن شكل العلاقات تعبيراً لفظياً
أو كمياً .

٣ - القابلية للتعديل ، ومرونة البناء .

لنقارن هذا مثلاً بنظريات أخرى . لنر إلى أي
مدى أدى بناؤها للنظري الحاطي إلى تخلف الفهم
العلمي للسلوك : نظرية التحليل النفسي الفرويدى
ومجموعة النظريات التأملية الأخرى . فبناء هذه
النظريات ، واعتمادها على مفاهيم ذاتية أدى إلى
عدم احترام المعرفة العلمية ذاتها وبالتالي أصبحت
النظرة إلى السلوك نظرة متعسبة فقيرة . وليس
غريباً أن نجد المحللين النفسيين يهاجمون في
كتاباتهم كل ما يشتم منه الموضوعية والمنهجية ،
والقياس العلمي للظواهر . صحيح أن حجج هذا
التهجم جديرة بالانتقادات - من حيث أن موضوع
الدراسة في علم النفس يختلف عن موضوعات
الدراسة في العلوم الأخرى في درجة التقدم - غير
أن هذه الحجج تنصب على البدايات الأولى لعلم
النفس العلمى ، وهي البدايات التي يتكرها الآن
علماء النفس التجريبي أنفسهم دون التفات
للخطوات الحثيثة الدأبية في دراسة أشكال
السلوك المختلفة . هذا فضلاً عن الطريق المخالف
للوqائع التي اتخذته هذه النظريات التأملية .
بحيث لا يمكننا عند الانتقال من بناء النظرية إلى

المضبوطة التي استمرت عددا من السنين • وامت
على يد العديد من الأشخاص •

٢ - تجمع بين عدد كبير من الميادين الفرعية
حيث تتحقق فيها القوانين الكمية السابقة عليها
كقوانين « كبلر » و « جاليليو » •

٣ - تضمنت ظواهر واضحة الابعاد نسبيا ••
أى ظواهر يمكن ملاحظتها دون استشارة أى نوع
من القموض • ودون أن تختلط بالظواهر
الأخرى •

٤ - عبرت بشكل رياضى « كمى » عن العلاقات
المتضمنة فى بنائها دون تعقيد شديد •

٥ - ان التنبؤات التي كان يعيها إطار
النظرية كما يقول إيزنك « كانت - وبسبب كل
التقاط السابقة - على درجة مرتفعة من اليقين •
ولم تحدث مشكلات ذات وزن يذكر عند الانتقال
الى التطبيق العملي للاستنتاجات التي كان يعيها
عليها إطار النظرية ، أى أنها كانت تعبر عن
علاقات واقعية وصحيحة • » مثال ذلك اكتشاف
الطائرات الثالثة والصواريخ •

هذه هي الخصائص التي تميزت بها نظرية
« نيوتن » ، وهي تقريبا نفس الخصائص التي
تتميز بها أى نظرية قوية فى أى علم من العلوم
وجاءت نظرية اينشتين بعدها لا لتبني ضعفها
ولكن لتمطى نموذجا آخر لنظرية أكثر قوة ••
وبمراعاة هذه الشروط يمكن للقارى أن يتناول
مثلا أى نظرية من نظريات علم النفس فيمتحن
قوتها أو ضعفها بالرجوع الى هذه الشروط
الحمسة •

ولزيد من بلورة مفاهيمنا ، وتقوية قدرتنا على
الاستنتاج السليم فى ميدان علم النفس نتناول
النظرية العلمية الحديثة للشخصية عند إيزنك
ومعاونه كنموذج للنظرية القوية فى علم النفس
إذا قورنت مثلا بنظرية كنظرية التحليل النفسى
•• ولنر الى أى مدى تتحقق فيها هذه الشروط •

يرى إيزنك أن الشخصية « مجموعة من السمات
تميز فردا عن الآخر » تتناج لعمليات أساسيتين
من عمليات الجهاز العصبي المركزى وهما عمليات
الانارة والكف • وتقلب أحد هذين النشاطين على
الآخر يساهم فى إيجاد نمطين كبيرين وأساسيين
من أنماط الشخصية هما : النمط الانبساطى
والنمط الانطوائى • ففى حين يرجع سبب وجود

غير أن هذا الحد الأدنى من الشروط لا يفسر
لنا السبب الذى من أجله نجد أنفسنا نحترم
نظرية دون الأخرى : فنحترم نظريات علم الفلك
الفسولوجيا الحديثة عن نظرية جال
الحديثة عن علم قراءة الطالع بالنجوم ، أو نظريات
عن الشكل الخارجى للجحمة • وإمكانية التنبؤ
منه بقدرات الشخص التخيلية والعقلية ، أو أن
نحترم نظريات نيوتن واينشتين فى الفلك أكثر
من النظريات القديمة القائلة بأن الكواكب محمولة
فى كرات بللورية • وبالمثل لماذا نجد أنفسنا فى
علم النفس نحترم النظرية الحديثة للشخصية
عندما نرى عن نظرية التحليل النفسى عند
فرويد ؟

الإجابة على هذا ان هناك شروطا ثانوية أخرى
تضاف الى الشروط الثلاثة السابقة حتى تكون
النظرية قوية تستحق الاحترام •• وبمقدار توافر
هذه الشروط الثانوية تستطيع النظرية أن
تستوعب أشكالا مختلفة من الواقع وأن تفسر
ظواهر أخرى غير تلك التي قامت لتضعها فى إطار
متناسك •

فالفرق بين النظرية القوية والنظرية الضعيفة
ليس فرقا فى النوع •• ويتصور إيزنك العلاقة
بين النظريات القوية والنظريات الضعيفة على أنها
يمتدان على متصل واحد يمثل تدريجا متصلا
يبدأ بطرف منه بالنظريات التي تبلغ أكبر درجة
من القوة وينتهى الطرف الآخر منه بالنظريات
التي تبلغ أصغر درجة من القوة « أى النظريات
الضعيفة » •• وكلما تدرجنا من النظريات القوية
الى النظريات الضعيفة قلت الشروط التي يجب
توافرها لكي تكون النظرية أقوى • ومثل هذا
التصور للعلاقة بين النظريات الضعيفة والقوية
سيجنبنا دون شك التصلب فى تصور كثير من
النظريات فى تاريخ العلم عموما •• وتاريخ علم
النفس على وجه الخصوص ، فنضعها فى مكانها
الصحيح من حيث تمثيلها عن الواقع وتلخيصها
لحقائقه •

فلننظر مثلا الى نظرية « نيوتن » فى الجاذبية
- كنموذج واضح للنظرية القوية - ولنستعرض
عليها - كمثال حى - أهم الشروط الأخرى التي
جعلت منها نظرية قوية • ان أهم ما تتميز به
نظرية نيوتن أنها :

١ - قامت على عدد ضخم جدا من الملاحظات

النمط الانبساطى الى زيادة عمليات الكف فى الجهاز العصبي المركزى ، يرجع وجود النمط الانطوائى الى زيادة عمليات الاستشارة عند بعض الأشخاص دون البعض الآخر . وعن طريق هذين النشاطين المستقلين وتفاعلهما مع المنبهات البيئية تتكون مجموعة الظواهر السلوكية الأخرى المرتبطة بكل نمط من هذين النمطين دون النمط الأخرى كـ مجموعة الاستجابات الإدراكية والحركية ، واستجابات التعلم والتفكير والنشاط الاجتماعى ، حيث نجد أن الانطوائيين يتميزون بأسلوب خاص عن المنبسطين فى كل هذه الاستجابات والعكس بالعكس .

أما كيف تكونت نظرية أيزنك بهذا الشكل . . . فهذا موضوع معال آخر . . . غير أن هذه النظرية إذا راعينا شروط الخمسة السابقة تعتبر نموذجاً للنظرية النوعية فى علم النفس أو فودت مسلاً بنظرية لتحليل النفس فهي :

١ - تقوم على عدد ضخم من الملاحظات الدقيقة ، حتى استمرت عددا كبيرا من السنين ، وعلى يد العديد من الباحثين والمعاونين والتلامذة . واول بلورة علمية لنظريته ظهرت سنة ١٩٢٧ فى كتابه أبعاد الشخصية . Dimensions of Personality

وقد كان هذا الكتاب تنويعاً لجهود ستين طويلة سابهه من البحث بالاشتراك مع مجموعته من معاونيه . وقد ظهرت بعد ذلك محاولات محتملة (نشرها أيزنك أما مستقلاً أو مع معاونيه) وقد أثرت هذه المحاولات النظرية فى بنائها ، وهدت من تطبيقاتها الى الميادين المختلفة من علم النفس . ولا زال هذا الجهد مستمرا حتى الآن

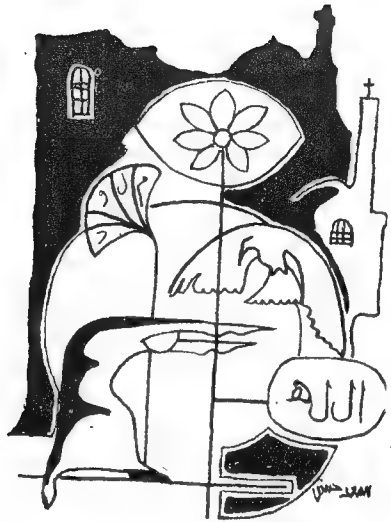
٢ - تجمع نظرية أيزنك بين عدد من الميادين الفرعية ، وتحقق فيها جهود العلماء السابقين . وهذه حقيقة يعترف بها أيزنك فى وضوح شديد فى كل كتبه . والواقع أن أعمال أيزنك وبحوه . . . وتفسيراته لتتنازع هذه البحوث تعتبر امتداداً لجهود جيش ضخم من العلماء السابقين مثل « بافلوف » ، وبحوئه فى التشریط ، « وثرستون » C. L. Thurstone وسيرل بيرت C. Burr ومساهمتها فى التحليل العاملى . ومن قبيل رد الفضل الى أصحابه - متشكلاً بأشكال أخرى - أهدى أيزنك أهم كتابين له وهما « بناء الشخصية الإنسانية » سنة ١٩٥٥ وكتاب « الأساس البيولوجى للشخصية » سنة ١٩٦٨ أهداهما

لكل من « ثرستون » و « بافلوف » على التوالى . واستفادة أيزنك من جهد هذين العالمين وغيرهما جعل نظريته فى الشخصية تجمع بين عناصر من المفاهيم فى الميادين الأخرى كالبيولوجيا والفسايولوجيا . ومن الجدير بالملاحظة أن أيزنك يؤيد أن لتأثيرا من المفاهيم فى تفسيره للنسوت مستعده من مياديين البيولوجيا والفسايولوجيا لتتريزه على معاهيم «ورنه ، والجهاز العصبي ، وعمليات الحب والاستشارة . . . الخ . ولا شك أن الغاوى الذى لا يالف مصطلحات هذين العلمين سيشتبه عند قراءه لأيزنك - خاصة فى كتابه المختصه - بغير قليل من الارتباك . ولو أن «وضوح الشديد الذى يكتب به أيزنك قضاياه ، وبحوه قد يخفف قليلا من هذا الارتباك .

٣ - أن الظواهر التى تضمثتها نظرية أيزنك واضحة اتسمات ولابعاد نسبيا ، وليس فيها ما يستثير أى غموض . وهى على الأقل لا تختلط بالظواهر الأخرى . وهذه سمة ترتبط من غير شك بسبب المنهجية العلمية التى تكونت على أساسها نظريته . فمثلا عندما كان أيزنك يتحدث عن سمة من سمات الشخصية توجد بقسدر متفاوت عند كل الأشخاص أو عندما كان يتحدث عن مجموعة من السمات ترتبط ببعضها البعض ولا ترتبط بالمجموعات الأخرى من السمات . كان منهجه العلمى يلزمه باصطناع المقياس المناسب واصطناع مثل هذا المقياس كان يتطلب التحديد الواضح لمعنى هذه السمات . ويمكن للقارئ أن يقارن ذلك مثلا بكثير من المفاهيم الشائعة : كالألا شعور ، وما قبل الشعور ، والأنا ، والهو ، والأنا الأعلى . . . الخ .

وكذلك فإن المنهج الإحصائى . . والمنهج التجريبي المستخدمان للتحقق من الفروض التى يعيها الاطار النظرى لأيزنك . . جعل نتائجها فى مستوى مرتفع من اليقين والوضوح .

ولا شك أن مثل هذه الخاصية فى النظرية العلمية تساهم فى تحديد جزء كبير مما يسمى « بموضوعية » العلماء فى تناسولهم للظواهر فإذا كان العالم يبحث عن العلاقات التى توجد مستقلة عن الباحث بهدف الوصول الى القوانين التى تنظمها ، فإن الطريق العلمى من التفكير له سمة أخرى : التزام الموضوعية فى وصف الظواهر أى أن لا تمبر المفاهيم التى نستخدمها لبناء نظمتنا



أكبر قدر من الموضوعية • فكما أنه يمكن أن نعيد تجارب نيوتن في أى مكان لتحقيق من صدق نتائجها • كذلك يمكننا أن نعيد تطبيق مقاييس إيزنك باستخدام الوسائل المناسبة من صدق نتائجها •

هـ - ولقد كانت التنبؤات المستقاة من الاطار النظرى ، بسبب كل النقاط السابقة ، على درجة مرتفعة من الضبط والدقة ، اذا قورنت مثلاً بالتنبؤات التى كانت تملئها الاطر النظرية السابقة • ويكفى أن نذكر للقارىء مثلاً حتى يمكنه أن يستنتج ما نعنيه بهذه النقطة •

فبناء على فكرته في أن الأشخاص المنطويين يرجع انطوائهم الى زيادة عمليات الاستئارة في الجهاز العصبي ، وأن الأشخاص المنبسطين يرجع انبساطهم الى زيادة عمليات الكف على عمليات الاثارة •• كون تنبؤا في شكل فرض علمي عن تأثير أنواع العقاقير على كل نمط من هذين النمطين من انبساط الشخصية ، فافترض أن العقاقير المخدمة من شأنها أن تؤثر في الجهاز العصبي بالعمل على زيادة عمليات الكف في المستويات العليا من الدماغ ، وتقلل من عمليات

العملية عن وجدانات • بالنسبة للعالم لا يوجد الا « واقع » ، وليس رغبة أو قيمة ، ولا خير أو شر ، ومن مظاهر «الموضوعية» أيضا أن يكون حديثنا عن أحد الظواهر التي ندرسها موحداً - وهذا الشرط تحققه خاصية تحديد أبعاد الظاهرة تحديدا واضحا - فاذا تحدثنا عن سمة «الطلاقة» في الشخصية يكون واضحا في ذهن المتحدث والمستمع ما تقصده بهذه السمة ، وبالتالي فاذا توصل باحث معين لأحد الشروط التي تساعد على وجود الطلاقة في بلد معين فانه يسهل بالتالي على أى باحث آخر أن يتحقق من هذا الشرط في أى بلد آخر وأن يكشف شروطا أخرى ان أمكن •• ويكون لمكتشفاته معنى محدد في ذهن زملائه الآخرين في الأماكن والأزمان المختلفة •

٤ - ان العلاقات الرياضية المتضمنة في نظرية إيزنك لم تكن شديدة التعقيد ، لئلا استخدم إيزنك في تحليله لنتائج بحوثه عددا من الوسائل الاحصائية يمكن لأى شخص - بتدريب محدد - أن يجيد استخدامها • وذلك كمعاملات الارتباط وتحليل هذه المعاملات الى عوامل تنظمها وتحثوها وبمثل هذه الطريقة أمكن لنتائج إيزنك أن تحقق



على نظريته العامة في الشخصية نجح أغلبها في السير مع الخط العام للتنبؤات التي يملئها إطاره، نكتفي بهذا القدر من الحديث عن البناء المنهجي للنظرية العلمية في علم النفس ، ولكن يبقى لنا أن نتساءل بعد هذا هل نعتبر أنفسنا على اعتبار نظرية نهائية تفسر لنا كل معميات السلوك الانساني ؟ وفي يقيني اننا اذا كنا نمنى بالنظرية النهائية نظرية ثابتة فان الاجابة على ذلك ستكون بالسلب ، فطبيعة العلاقة بين النظرية والواقع يجعل من بناء النظرية متغيراً باستمرار . أما اذا كنا نعني نظرية أقدر على إهداء خطأنا ، وإضادة طريقنا في عالم متضارب وبطريقة اقتصادية وفورية فالاجابة هي الأيجاب . ولا نجد ما نختم به هذا المقال أوقع من مفزى عبارة قال بها عالم من ميدان علمي خطأ في عملياته خطوات أبعد من علمنا بكثير، وهو الفيزيائي البريطاني تومسون J.J. Thomson يقول تومسون ان النظرية سياسة أكثر منها عقيدة ، فموضوعها هو الربط بين ظواهر متعددة، أو التماسق بينها بنية الإيجاء بالتجربة . واستشارتها ، وتوجيهها فوق أي اعتبار آخر ، عبد الستار إبراهيم محمد

الاستشارة ، وبذلك تؤدي الى ظهور نمط مبسط من السلوك . في حين ان المعايير المنبهة من شأنها أن تقلل من عمليات الكف في المعاء ، وتزيد من عمليات الاستشارة وبذلك تؤدي الى ظهور نمط منطو من السلوك . وبناء على ذلك صمم أيزنك عددا من التجارب تقوم خطتها الأساسية على اساس تكوين مجموعتين من الأشخاص، مجموعات منطوية ومنبسطة (وقد كان هذا التقسيم يتم باستخدام مقاييس ثابتة وصادقة للانطواء أو الانبساط) ، ثم يلاحظ تأثير استخدام كل نوع من نوعي المعايير السابقين على سلوك كل مجموعة بعد التعاطي بإعادة استخدام مقاييسه ليرى ، ويحدد مقدار التغير في سلوك كل مجموعة بكل دقة . وقد نجحت بعض تجارب أيزنك في اثبات تنبؤه . بعبارة أخرى اتضح أن الشخصية المنطوية يزيد انطواؤها اذا تماطت عقارا منها ، ويقل انطواؤها اذا تماطت عقارا محمدا .

بالمثل فقد كون أيزنك تنبؤات أخرى عن السلوك الاجتماعي ، واتجاهات الشخصية السياسية والاجتماعية ، وأشكال اضطراب السلوك ، والاستفادة من العلاج النفسي اعتمادا

النظرية العامة للأنساق .. في علم النفس

لودفيج فون برتالانزفي
ألماني : صلاح قنصوه

منظمة بحيث لا تجري مشاؤها . ولما كانت النظرية العامة للأنساق تتعلق بالميزات الصورية للكيانات المسماة أنساقا ، فإنها إذن لا تنتمي إلى علم خاص ، بل تصلح في دراسة ظواهر تدرج في اختصاص فروع تقليدية مختلفة للبحث العلمي . وهي لا تقصر نفوذها على الأنساق المادية ، بل تبسطه أيضا على أي « كل » مؤلف من مكونات متفاعلة . لذلك كان من اليسير أن تعبر النظرية العامة للأنساق عن نفسها بلغة الحديث المعتادة ، كما يمكن أن نرى في نطاق لفات رياضية متعددة ، وتطوع لتقديرات الحاسب الإلكتروني على السواء .

بواعث الاهتمام الراهن بالنظرية :

يرد الالتفات على إبراز أهمية نظرية الأنساق إلى أخفائي التصور الميكانيكي ، وعجز النموذج الآلي عن الوفاء بما كان متوقعا منه في وصف الظواهر وتفسيرها .

كما يعزى أيضا إلى النزعة المشروعة نحو مقاومة تجزئة العلم إلى تخصصات متعزلة إلى

تصريف :

لا تشير « نظرية النسق » System إلى ما يعنيه اصطلاح النظرية العلمية بمعنى الضيق المحدد ، لأنها لا تعرض محتوى جديدا من المعلومات من شأنه أن يقيم شبكة جديدة من القوانين . ولا نبالغ كثيرا إذا ما عددناها «خطئة» علمية جديدة ينبغي أن تلتزم في مجموعة من العلوم وليس في علم واحد معينة . وهي بهذا استراتيجيية للبحث العلمي تقلب التصنيفات التقليدية التي درجت على التفرقة الصارمة بين النظرة والمنهج ، وبين العلم والتكنولوجيا ، وبين علوم الطبيعة وعلوم الانساق ، وبين الآلي والمفوضي ، وبين الكم والكيف .

فهدف نظرية الأنساق العمامة هو إبراز الخصائص ، والمبادئ ، والقوانين التي تميز الإنسان بوجه عام بقطع النظر عن نوعها الخاص ، وطبيعة عناصرها المكونة ، والعلاقات أو القوى التي تقوم بينها .

ويعرف النسق بأنه مركب من العناصر في حالة تفاعل ، على أن يكون للتفاعلات طبيعة



بين النظريات السلوكية مثل التحليل النفسي، والسلوكية سواء الكلاسيكية والجديدة، ونظريات التعلم، فلها تقاسمت جميعا افتراضات

أولية معينة . من بين هذه الافتراضات النظرة إلى الإنسان على أنه كائن يقوم على ردود أفعال، وسلوكه استجابة فطرية أو مكتسبة أو من المؤثرات . ومن هنا كانت النظرة إلى الظواهر النفسية أو السلوكية على أنها إعادة استقراء لآثار مضطرب، أو أنها خفض للتوترات الناشئة عن دوافع لم يدرها الإشباع (عند فرويد) أو أرضاء للحاجات (عند هل) ، أو أنها تكيف نشط (عند سكينر) إلى آخر هذه الافتراضات.

وقد كانت هذه الحاسبات والدوافع والتوترات ذات طبيعة بيولوجية . وهي عن ما يبدو عمليات ثانوية عليا في الإنسان يمكن في النهاية ردها إلى عوامل بيولوجية أولية مثل الجوع والجنس والبقاء .

وترتيبا على هذا كان من الممكن أن تزودنا الآلات، والحيوانات، والأطفال، ومضطربو العقل بنماذج ملائمة لدراسة السلوك الإنساني

أصبحت تهديدا يقطع كل المواصلات بين العلماء في مختلف المجالات، وهكذا برزت الحاجة إلى لغة فنية مشتركة .

لهذا كانت النظرية العامة للأنساق محاولة لمزج كل من النزعتين الميكانيكية والمصفوية باستخدام أفضل ما فيهما، أو قل، هي دياكتيك يتجاوز تعارضهما، كما يضم الكم والكيف في وحدة شاملة . فالنسق ليس فقط مجموع الوحدات التي تحكم كل منها قوانين عليية، بل هو بالأحرى كلية العلاقات بين هذه الوحدات . فالتوكيد هو على « التعقيد المنظم » - حسب تعبير أصحاب النظرية الأثر لديهم - بمعنى أن إضافة كائن جديد لا يضيف فحسب علاقة ذلك الكائن الجديد بسائر الكائنات، بل يعدل ويحدد العلاقات بين سائر الكائنات داخل النسق .

كان علم النفس في النصف الأول من القرن العشرين محكوما بتصور عام يمكن أن تطلق عليه « النموذج الإنسان الآلي » Robot model للسلوك الإنساني، وعلى الرغم من الاختلافات البارزة

وتفسيره ، فالآلات : لأن الظواهر السلوكية يمكن في نهاية الأمر أن تفسر على أساس من الآلية والتركيب الشبيهة بالآلة للجهاز العصبي . والحيوانات : بسبب وحدة المبادئ وتطابقها في السلوك الحيواني والإنساني ، فضلا عن سهولة اخضاع السلوك الحيواني للبحث التجريبي . والأطفال ، وشأنهم في ذلك شأن الحالات المرضية ، يمكن التعرف فيهم على العوامل الأولية على نحو أكثر وضوحا مما نجده لدى البالغين الأسوياء . كان البحث العلمي إذن موجها لكشف العناصر الأولية كالانطباعات الحسية ، والانعكاسات ، وعمليات التكيف ، والدوافع ، والعوامل ، بحيث أن ضم الواحد منها بجانب الآخر قد يزودنا بتفسير للسلوك المعقد .

ولقد أثبت نموذج الإنسان الآلي ، مجموعة متنوعة من الأسباب ، قصوره وعجزه . لذلك اتخذ الميل نحو توجيه جسيدي في علم النفس تعبيرات مختلفة مثل علم النفس الارتقائي كعرب من نظرية معرفة نشوئية (من يماجييه) أو تخصص تقديمي (عند فرنر) ، فضلا عن تطورات فرويدية جديدة متعددة (مثل نظرية روجرز للصلاج التمركي حول المريض) وتوكيد شاختل للفاعلية في العمليات الإدراكية) . كما ظهرت النزعات التي تسمى أحيانا بعلم نفس « الآلة » ، « ego » أو « النظرة الجديدة » في الإدراك ، أو التحقق الذاتي عند جولدشتاين ومسلوف ، أو نظريات الشخصية ، والاتصالات الفينومولوجية والوجودية ، أو المفاهيم السوسيوولوجية للإنسان متكما عند سوروكين وآخرين .

ورغم افتراق هذه التطورات فيما بينها من حيث القصد والمحتوى ، إلا أنه يبدو أن قاسما مشتركا بجمعها ويؤلف بينها ، وهو أنها لا تتخذ من الإنسان مجرد جهاز ذي ردود أفعال ، أو جهازا ذاتي الحركة ، بل تعده نسقا لشخصية فاعلة . وهنا يمكن أن تقدم نظرية الانساق العامة أطارا تصوريا عاما .

بعض مفاهيم نظرية الانساق في علم النفس :

يتبين مما سلف أن نظرية الانساق العامة ليست كشفا علميا جديدا ينسب إلى علم أو فئة معينة من العلوم بقدر ما هي نظرة شاملة تنتمي إلى فلسفة علوم محدثة . فهي إذن لا تسمى إلى عرض أفكارها على النحو الذي يبرز بمقتضاه كشف جديد مثير . بل هي بالأحرى قد أفلحت في كشف قصور التصورات والمقررات التي تنتهجها النظرية أو البحث على السواء في

علم النفس ، تلك التصورات والمقررات التي اتخذت في العلم على محمل التسليم من وجهة نظر وضعية - ميكانيكية - سلوكية . ولهذا كانت نظرية الانساق جزءا من « إعادة توجيه » أو استراتيجية أكثر اتساعا وشمولا امتدت على رقعة فسحة من علوم كثيرة مختلفة . فقد برزت مشكلات مماثلة في تلك العلوم افضت إلى اصطناع أدوات نظرية جديدة . ففي البيولوجيا نجد مثلا الاتجاه العضوي ، وفي العلوم الاجتماعية مسألة التنظيمات فوق الفردية ، وفي المبادئ التطبيقية تكنولوجيا أجهزة الإنسان - الآلة عندما تقارن بالتكنولوجيا الفيزيائية ، بل وحتى الفيزياء نجد التفاعلات المتعددة المتشعبات في « التعقيد المنظم » في مقابل العلية النيوتونية والتعقيد غير المنظم في الظواهر الإحصائية . ففي أي من هذه التطورات بدت المشكلات التي تهم على أساس من تصورات ومفاهيم مثل « الكلية » ، والتنظيم ، والتوجه نحو هدف ، والترتيب التصاعدي ، والانتظام ، بدت هذه المشكلات على أنها مسائل محورية ، ومثل هذه النظرة الجديدة لم تتجاهلها النظرة الميكانيكية التقليدية فحسب ، بل كانت منفية خارج أسوار ذلك الكون الميكانيكي .

وعلى هذا النحو يمكن أن تلقى تلك التساؤلات المطروحة من هذه العلوم المتباينة جوابا من « علم الانساق » .

وسنحاول هنا أن نجتزئ من المنظومية ما يصلح أن يكون عرضا خاطفا لبعض مفاهيمها مطبقة على علم النفس .

١ - الكائن العضوي والتشخصية :

على النقيض من القوى الفيزيائية مثل الجاذبية والكهرباء ، لا توجد ظواهر الحياة إلا في كائنات منفردة individualized تسمى « كائنات عضوية » . والكائن العضوي نسقي ، بمعنى أن ثمة نظاما ديناميا يقوم بين أجزائه وعملياته في تفاعل متبادل . وبالمثل ، فإن الظواهر السيكلوجية لا توجد إلا في كائنات منفردة تسمى في الإنسان شخصيات . ومهما يكن للشخصية من معان أخرى ، فلها خواص النسق .

والمفهوم « الكلي » molar للكائن العضوي النفسيفيزيائي بوصفه نسقا يتعارض مع تصور الكائن بوصفه تبجما من الوحدات الجزئية molecular مثل الانعكاسات والإحساسات والدوافع والعوامل . . إلى آخر قائمة وحدات

تنتهك القوانين الفيزيائية . . بيد أنها نتيجة لازمة لحالة الاستقرار في الأنساق المفتوحة .

٣ - تتجه الأنساق المغلقة نحو حالات النهاية القصوى لدرجة المتادل في الطاقة (التي يفترضها القانون الثاني للديناميكا الحرارية) ، وهي الحالات المصطفة بطابع الاحتمال وعكسهم الانتظام . بينما الأمر على النقيض من ذلك في الأنساق المفتوحة - أو العكس العكس - كما يتبدى في النمو الضروري وتطور الأنواع . فهناك دوما انتقال في اتجاه حالات من وتبسة أعلى يؤدي فيه التغير في أفراد نوع إلى تطورهم إلى نوع آخر ، وهو اتجاه يبدو متعارضا مع القانون الفيزيائي على نحو ما يعبر عنه القانون الثاني للديناميكا الحرارية .

٤ - الكائن الحي العضوي النفعال :

الكائن الحي ليس نسقا سليما ، بل هو نسق إيجابي في داخله ، حتى دون مؤثر خارجي .

وقد أوضحت البحوث الحديثة أن النشاط الذاتي الحركة للنسق العصبي نشاط أولي . وكذلك في النمو الضروري والتطور تبدو الآليات القائمة على ردود الأفعال (مثل الانعكاسات ودوائر التغذية المرتدة) على أنها مفروضة من أعلى على الأنشطة البدائية والأنشطة ذات الحركة الايقاعية . فالتنظيم (وهو تفسير في الشروط الخارجية) لا يحدث « أو » بسبب عملية في نسق خامل ، بل هو فحسب يعمل ويحور من العمليات في نسق إيجابي نشط وبطريقة ذاتية الحركة .

فالكائن الحي يحافظ على حالة من عدم الاتزان تسمى بحالة الاستقرار لنسق مفتوح ، مما يمكن من توزيع الطاقات الكامنة أو «التوترات» من خلال نشاط تلقائي وعن طريق استجابة لمؤثرات محيرة . والنشاط أو الفاعلية التلقائية هو أكثر أشكال السلوك بدائية . فهي توجد في وظائف المخ كما توجد في العملية السيكلوجية . وقد أكد اكتشاف الإنسان التنشيطية في النخاع المستطيل هذه الحقيقة في السنوات الأخيرة . فالسلوك الطبيعي إذن يضم أنشطة وفاعليات لا حصر لها تند في التصنيف في النهج التقليدي « المثير - الاستجابة » R-S Schem ، ابتداء من الأنشطة البدائية عند الحيوان حتى الأنشطة الاقتصادية والعقلية والجمالية والدينية ، والسعى نحو تحقيق الذات ، والإبداع لدى الإنسان .

التحليل التي يلجأ إليها الباحثون في علم النفس ، باتجاهاته التقليدية . غير أن علم النفس المرضي يكشف بجلاء عن الاختلال الوظيفي العقلي على أنه « اضطراب في النسق » أكثر مما هو فقدان لوظائف منفردة .

٢ - الأنساق المغلقة والمفتوحة :

الكائن العضوي الحي نسق مفتوح ، أي أنه نسق معتمد على مكونات مادية تتألف من « وارد » و « صادر » وتسمى إلى البناء والهدم معا ، وذلك على تقيض الأنساق المغلقة في الفيزياء التقليدية التي لا تتبدل فيها المادة مع البيئة .

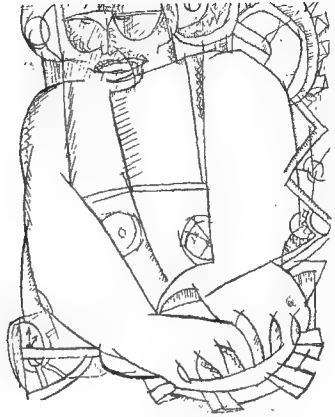
ويمكن أن توجز سمات الأنساق المفتوحة على الوجه التالي :

١ - الأنساق المغلقة « لا بد » (وفقا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية) أن تبلغ في نهاية الأمر حالة من التمتعادل أو الاتزان حيث يبقى النسق ثابتا في الزمان وتصل العمليات الفيزيائية إلى « وقفة سكونية » . بينما الأنساق المفتوحة « قد » تصل ، مع افتراض شروط معينة ، إلى « حالة الاستقرار » ، وفي هذه الحالة يبقى النسق ثابتا أيضا في الزمان ، بيد أن العمليات تظل مستمرة ولا يبلغ انفسق حالة « الراحة والسكون » قط .

٢ - تتميز حالة التمتعادل أو الاتزان التي تلحقها الأنساق المغلقة في نهاية الأمر بشروط أولية ، بينما الأمر على النقيض من ذلك في الأنساق المفتوحة لأن حالة الاستقرار التي تصل إليها مستقلة عن الشروط الأولية ولا تعتمد إلا على أوضاع النسق وشروطه الخاصة (مثل معدلات النقل ورددات الأفعال) .

وتسمى هذه الخاصة للأنساق المفتوحة « بالغاليتية المتعادلة » equifinality التي تفسر الكثير من انتظامات الأنساق الحية حيث يحدث الكثير من العمليات المنظمة على نحو يبلغ بمقتضاه النسق الحالة القصوى أو النهاية نفسها ، أو « الغاية أو الهدف » ذاته انطلاقا من شروط أولية مختلفة ، وبطرق متعددة عقب اضطرابات غير متعينة أو محددة .

ولأن مثل هذا السلوك مستحيل في الأنساق المغلقة والآلات التقليدية ، فإن « الغشائية المتعادلة » تبدو سمة ذات طابع أو نوعية حيوية



٥ - الاتزان الداخلى :

يستتبع مما سبق ان مفهوم « الاتزان الداخلى » - وهو يتردد كثيرا في علم النفس - يغطى السلوك الحيوانى بصورة جزئية فقط ، بينما لا يصح ذلك في جزء جوهري من السلوك الانسانى عن الاطلاق . وقد تيسر « ليولر » ان يعين حدوده بمهارة في قوله « بان في نموذج التحليل النفسى الاساسى ليس ثمة الا اتجاه رئيسى واحد وهو الذى يعضى نحو اشباع الحاجات او خفض التوترات .. وتؤكد نظريات البيولوجيا الراهنة اهمية تلقائية نشاط الكائن العضوى التى تعزى الى الطاقة الداخلة في بنائه . وقد عني برتالانى بتوكيد أداء الكائن العضوى الدائى الحركة ، ودافعه الى اداء حركات معينة . . فهنا تقدم المفهومات « مراجعة كاملة للمبدأ الاصلى للاتزان الداخلى » الذى ألح فحسب على الميل في اتجاه التعادل .

ومهما يكن من امر ، فإن مبدأ الاتزان الداخلى لا يقبل التطبيق على :

(أ) الانتظامات أو الاطرادات التى لا تؤسس على آليات ثابتة بل تقوم في نطاق اداء نسق يعمل ككل (مثل العمليات التنظيمية التى تحدث عقب الاصابات المخية) .

(ب) الأنشطة التلقائية .

(ج) العمليات التى لا تهدف الى خفض التوتر بل الى رفعه .

(د) عمليات النمو والتطور والخلق وما

يمثلها .

ويحق لنا القول بان الاتزان الداخلى ليس مبدأ تفسيريا ملائما للأنشطة الانسانية التى لا توصف بأنها نفسية ، او تلك التى لا تخضع للحاجات الأولية لحفظ الذات والبقاء ومشقاتها كما هي الحال في الكثير من المظاهر « الثقافية » وذلك لانها قيم رمزية أكثر مما هي قيم بيولوجية .

٦ - التمايز :

التمايز هو التحول من حالة أكثر عمومية وتجانسا الى حالة اشد تخصصا وتضاييرا . فحيثما يحدث النمو فانه يتقدم من حالة عمومية نسبية ونقص في التمايز الى حالة تمايز متزايد وتخصص وترتيب تصاعدى .

ويتنشر مبدأ التمايز في البيولوجيا ، وفي تطور الجهاز العصبي ، والسلوك ، وعلم النفس والثقافة . وتتقدم الوظائف العقلية بوجه عام من « حالة تلفيقية » syncretic حيث الدوافع والمشاعر والمخيلة والمفاهيم في حالة لم يتحدد شكلها الى حالة تتسم بالتمييز والتفاضل . هذه الوظائف .

وفي الحيوان ، وفي جانب كبير من السلوك الانسانى هناك وحدة إدراكية - انفعالية - دافعية . والموضوعات التى يدركها الانسان دون



« على الزناد » التي تقابل مبدأ العلية القاتل بأن « العلة تكافيء المعلول » حيث قد يسبب تغير ضئيل في الجزء الرئيسى ، عن طريق آليات التضخيم ، تغيرات واسعة في النسق الكلي وعلى هذا النحو قد يشيد نظام تصاعدى للأجزاء والعمليات .

وفي المثل ، كما في الوظائف العقلية يحدث التمرکز والنظام التصاعدى عن طريق التدرج ، حتى اتخدت الأجزاء العليا دور الأجزاء الرئيسية

ونمة تدرج متواز لتدرج وظائف المثل وتطورها يمكن أن نشر إليه - دون تدقيق كبير - إذا ما خربنا بين : مناطق التفسيرية ، والدوافع ، والانفعالات ، والشخصية في أعماقها البدائية .

٦ - الإدراك الواعى والفعل الإرادى .

٧ - الأنشطة الرمزية المميزة للإنسان .

وما تزال التصنيفات والتقسيمات التى لعبا إليها علماء النفس للتمييز بين الوظائف السيكلوجية ودرسم خريطة لمناطق النفس، ما تزال بعيدة عن الوضوح .

٨ - الحدود :

لا بد لكل كائن مدروس أن يكون له حدود سواء كانت مكانية أو ديناميكية . ويتعبّر أدق لا توجد الحدود المكانية إلا في نطاق الملاحظة الساذجة ، بينما كل الحدود ديناميكية في نهاية الأمر . فلا يمكن للمرء أن يرسم بدقة حدودا

أن يميز فيها اللون الانفعالى - الدافعى إنما هي تعبر عن مرحلة متأخرة للإنسان الناشئ المتمددين .

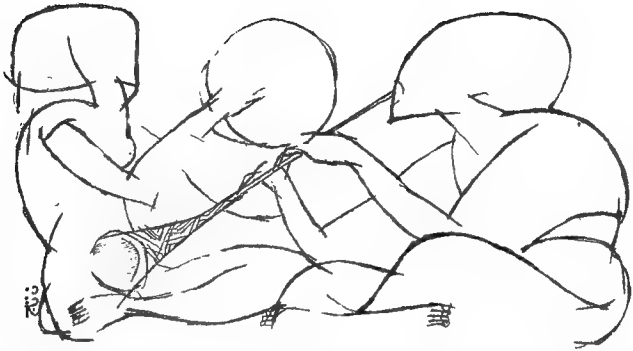
فلقد كانت الأسطورة هي المملاء الخصب الذى خرجت منه الفلسفة والسحر والفن والعلم والطب والأخلاق والدين بعد أن لحقتها تطورات جعلتها على التمايز والتنوع والتخصص . وقد نجد في علم النفس المرضى وفي الفصام أن الحالات البدائية تعاود الظهور كضرب من التكوّص والارتداد والمظاهر الشاذة (وهى تدعو شاذة بسبب الارتباطات العشوائية بين العناصر البدائية ، وبين العمليات الفكرية الراقية) .

٧ - التمرکز والمفاهيم المتعلقة به :

ليست الكائنات الحية آلات ولكنها يمكن - إلى حد معين - أن تصير آلات ، أو تتجمد وتتقلب في آلات . ولكن تحولها هذا إلى آلات لا يمكن أن يكون تاما - ذلك لأن الكائن العضوى لو تحول تحولاً تاماً إلى آلة mechanized لما استطاع أن يستجيب للتغيرات التى تحدث خارجة بلا انقطاع .

فرد الكائن الحى إلى الآلية يعنى فقداننا للإمكانات التى تتمتع بها مكوناته وخصائصها لإمكان الانتظام في الكل .

وقد يؤدى الرد إلى الآلية غالباً إلى اقامة أجزاء رئيسية قائمة ، أى مكونات مسيطرة على سلوك النسق ، ومثل هذه المراكز قد تراول



قاعدة تجريبية مقروءة تلك التي تقسول بأن
الأنساق الحية ، والتطورية ، والسيكلوجية ،
والاجتماعية وغيرها إنما تتجه الى المزيد من
التعاضد والتنظيم . ومثل تلك العمليات التي
تتناقض مع مبدأ درجة التعادل في الطاقة
anti-entropic وفقاً للديناميكا الحرارية التي
لا تقبل العكس أو القلب ، مثل تلك العمليات
مسموح بها في الأنساق المفتوحة ، ولكنهما في
الوقت الراهن لا تتضمن قانوناً يشير الى
اتجاهها .

وقد يفسدو من الممكن في المستقبل اقامة
تكامل بين الديناميكا الحرارية التي لا تقبل
العكس ، وبين نظرية المعلومات (السيمبليكا)
بحيث تسمح بفهم أعمق للمشكلة الرئيسية
للـ anamorphosis .

والانتظام في السيمبليكا مؤسس على
تربيات مقروءة سلفاً (أبينية وتركيبات بمعناها
الواسع) بينما يقوم في الأنساق على التفاضل
الدينامي .

والانتظامات التي تحققها آليات التفسدية
المرتدة يمكن بصفة عامة أن تندرج تحت مفهوم
« الاتزان الداخلي » . والانتظامات القائمة على
الاتزان الداخلي، والانتظامات الدينامية نموذجان
متحالفان ، ولكنهما مختلفان ويطبقان على ظواهر
مختلفة وقد يطبقان أحياناً على نفس الظاهرة .

والاتزان الداخلي، مبدأ متزامن synchronic
بمعنى أنه يشير الى الحفاظ على الثبات في قطاع
معين من الزمن . الا أن هناك رغم ذلك مبادئ
أرتقائية أو diachronic . ولقد أصبحت

جارودي .. والإسلام والاشتراكية

محمّد إسماعيل عبدالرازق

ولا ينصب النقد الذي سنوجهه في هذا المقال على مبدأ الالتقاء بين الإسلام والاشتراكية ، بل ينصب على نسوع الأدلة والبراهين المتعسفة التي قدمها جارودي لعقد مصالحة بين الماركسية والإسلام .

وأكد أنصور تشابها بين مذهب اليه الاستاذ جارودي في هذا الصدد وبين ما حاوله البعض - في سداجة - من إثبات أن المجتمع الشيوعي المثالي الذي تصوره ماركس هو بعينه «جنة الفردوس» التي وعدها الله بها عباده الأبرار . فقد انفتح على الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي - بقرائنه الطويل - وأخذ يتصيد من البراهين والشواهد ما يقيم به الدليل على ما أزمع انبساطه : فراح يلتمس مقولة فيلسوف ، أو موقف حاكم ، وينقب عن مآثور لمشرع أو قومة لجماعة ؛ شذرة من هنا، ونثقة من هناك ، ثم حشد -محصلة أمثله المتتقاء- ليقرر في النهاية صلحا بين الماركسية والإسلام ، بعد أن كان قد انتهى من نفس المهمة بالنسبة للماركسية . والشيخية : ومن يدري فلربما توجهت « مساعيه النخيلية » في المرة القادمة لعقد نفس المصالحة بين الماركسية وعبادة العجل أبيس .

أعود لمناقشة القرائن الثلاث الأساسية التي جعلها الاستاذ جارودي محور مشروعه ومبرر مصلحته ، لكن لا بد أولا من إثبات تحفظات أربع :

لاشك في أن محاضرة الاستاذ روجيه جارودي هذه تنطوي على كثير من الآراء التي تثير عديدا من القضايا .. وجدير بالملاحظة أن الروح التي ألقيت بها المحاضرة ، والتعقبات التي تلتها تمثل ظاهرة صجية في كيفية تناول قضايانا المعاصرة ، فعل الرغم من حساسية الموضوع ، وما قد يؤدي اليه الغوص فيه من مزالق ، كانت المحاضرة والتعقبات على السواء محاولة جريئة لتخطي مرحلة الحسد والرغبة التي أحاطت بأساليب معالجة قضايانا الحيوية .

والواقع أن التوفيق لازم المحاضر في كثير من آرائه وتخريجاته ، لكنه جانب في أحيانا أخرى . ولا أحسب أنني قائل القول الفصل في قضية ؛ فهذا مالا أدعيه قط . لكنه اجتهد ليس الا . . . لقد تضمنت المحاضرة تفسيراً مقنعا لجوهر الجوانب الإنسانية في الفكر الإسلامي ، وبالتالي انسحب هذا الانسحاب على تفسير النجاح الواسع الذي أحرزته الفتوحات الإسلامية ، والانتشار العريض للدعوة الإسلامية كقيدة ونظام في آن واحد . كما قدم الاستاذ جارودي حججا دامغة على براءة الاشتراكية العلمية من المسؤولية المتواترة « الدين آفيون الشعوب » ، ونفى كل تناقض بين الإيمان بالله والاشتراكية ، وانتهى الى التقاء الإسلام بالاشتراكية العلمية في منطلقهما الإنساني .

● **إنه اصطناع الأستاذ**
جارودي وفقاً بين الفكر
الإسلامي والماركسية اعتذاراً
على فلسفة ابن رشد وتجربة
الشريعة القروية ، وفكر
ابن خلدون الاجتماعي
ينطوي على نصف يرفضه
العالم وترفضه الماركسية،
ولا يقبله الإسلام .

مصالحته بين الإسلام والماركسية من حيث انطوائها على فكر اشتراكي أو عقلاني أو تضمنها لتجربة في الاشتراكية: الطوبوية . وإنما نقول بأن هذه الامثلة لا تعبر اليته عن حقيقة . لفكر الاشتراكي ولا عن جوهر التجارب الاشتراكية في المجتمع الإسلامي . وما نود تأكيده - كمحور للخلاف مع الأستاذ جارودي - أنها لم تزد عن كونها نغمات ناشزة رفضتها: الشريعة ولفظتها جمهرة المسلمين . أعني أنها أفكار دخيلة على الفكر والواقع الإسلامي نتيجة الاتصال بالتراث الهليني والشرقي وليست من مؤصلاته بأي حال من الأحوال . لقد تعرض الإسلام لموجة مضادة من التيارات الفكرية الدخيلة في محاولات لهدمه كمقيدة وفكر ونظام . ففي الجانب السياسي تمثلت هذه الموجة فيما هو معروف بحركة الشيوعية . ومن الناحية الدينية تبلورت في حركات الزندقة عن طريق تطعيم العقيدة الإسلامية بالنحل والمقائد الهدامة . كما لم يسلم الفكر الإسلامي - وبالذات في جوانبه الفلسفية - من المؤثرات الهلينية وخاصة الفلسفة الأرسطية والأفلاطونية الحديثة . والذي نعتقده ان الأستاذ جارودي انتقى قرائنه الثلاث من نتائج تأثير هذه التيارات المعادية ..

يقول الأستاذ جارودي : « أن التقليد

(أولاً) أن رفض مبدأ المصالحة من أساسه لا يعني تعصبا من جانبي للإسلام . أو انحيازاً للماركسية : بل مبعثه عدم استناده على أساس موضوعي وهو منطق مرفوض بداهة في نظر الماركسية ، كما يتعارض مع طبيعة الفكر الإسلامي وواقع التاريخ الإسلامي .

(ثانياً) ليس في التناقض بين الإسلام والماركسية ما يوحي بتمارض في تعاليم الإسلام مع الفكر والتجارب الاشتراكية . ففضلاً عن الروح الاشتراكية التي تتضمنها العقيدة الإسلامية نعلم أن المجتمع الإسلامي شهد أنماطاً من السلوك الاشتراكي المتسق مع جوهر الشريعة الإسلامية على الرغم من كونها خلوا من نظرية متكاملة في الاشتراكية .

(ثالثاً) ومن ناحية أخرى لا يعد هذا التناقض دليلاً على جمود في الفكر الماركسي وقصور في قدرته على استيعاب ماعداء من الصياغات الفكرية الانسانية ، ذلك لأن المنطق الجدلي والديالكتيك ، بمرورته وحيويته قادر على الاتساق مع هذه الصياغات ، دون ما ضرورة لاختوائها أو الانصهار فيها ..

(رابعاً) نحن لا نختلف مع الأستاذ جارودي حول صحة القرائن الثلاثة التي ساقها تدليلاً على



بـخمس الثروة ، واخسرا بكافة الممتلكات التي
كانت توزع حسب الاحتياحات » .

ويسوق الاستاذ جارودي ابن رشد كمثال
على التوفيق بين الدين والفلسفة ، وينسب اليه
« التوصل الى النظريات الاسلمسية في المادية
الجدلية نفسها » . ويضيف ان ابن رشد قال
بالطبيعة الازلية للمادة والحركة « فالحركة ابدية
ومستمرة ، والسبب في كل حركة حركة سابقة
عليها ، ولا محل للزمن دون الحركة ، ولا نستطيع
ان نمول الحركة ببداية لها ونهاية .. » .

اما ابن خلدون وفكره الاجتماعي فلم يذكر
جارودي عنه شيئا . ونحن نرى ان حركة
القرامطة في بلاد البحرين بدأت كحركة تدعو
لامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن هنا
فهي حركة سياسية دينية شيعية . ولكونها
تضم جموع الفلاحين المظلومين - فكلمة قرامطة

الكبيرة والسامية التي تمتلكها تلك البلاد في
مضمار التاريخ الاسلامي والثقافة الاسلامية
سواء عن الاشتراكية الطوباوية التي اعتنقها
القرامطة او الفلسفة العقلانية التي يدعي بها ابن
رشد او علم الاجتماع الذي درسه ابن خلدون .
ان تلك التقاليد تستطيع ان تلعب في نمو
الاشتراكية العلمية هذا الدور الذي لعبه في
بلادنا كل من هيجل وريكارد وسان سيمون .

وعن اشتراكية القرامطة يقول : « ان اشكال
الاشتراكية ذات الخاصية الاسلامية نشأت
امتدادا للنظام الضرائبي المعروف بالزكاة ، كما
نشأت من مفهوم القرآن عن الملكية المبنية على
العمل . فعلى سبيل المثال انشأ حمدان قرمط
سنة ٨٦٥ م في العراق مذهبا جديدا منطلقا من
مبدأ الزكاة ، فطالب انصاره بان يدفعوا ضريبة
اخذت ترتفع باطراد مبتدئا بالصدقات الكبيرة ثم



د. جارودي

الكعبة ومزقوها فيما بينهم » كما يقول ابن الأثير وقد أثار هذا الحادث غضب العالم الإسلامي برمته ، حتى الشيعة انفسهم لدرجة أن عبيد الله المهدي امام الفاطميين كتب الى أبي طاهر القرمطي « **والعجب من كتبك التينا ممتنا علينا بما ارتكبتة واجترمته بسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم أراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر .. فلعلك الله قم لعنك ..** » (انظر الانصاري : دور الفوائد المنظمة - ج ١ ص ١٩٦) .

وعلى ذلك فليس من القول إن يتصيد الأستاذ جارودي تلك الحركة المعادية للإسلام ويتخذ منها دليلا على تجربة اسلامية خالصة في تطبيق نمط اشتراكي طوباوي .

وينسحب هذا القول على اختياره لفلسفة ابن رشد العقلائية مبررا التوفيق بين الإسلام والماركسية . فبدوى أن الفكر الفلسفي الإسلامي

تعني فلاح كما يذهب المستشرق ايلغانوفا - اتخذت طابعا اجتماعيا أيضا . أهني اتسمت بلون ثوري وصيغة شيوعية ومعارضة شديدة للدين الإسلامي . فهي إذن حركة دينية اجتماعية في آن واحد ، وارتباطها بالدعوة الشيعية الاسماعيلية يؤكد وجود مؤثرات اجنبية فيها . نذكر أولري دي لاس في كتابه « **الفكر العربي ومكانه في التاريخ** » أن هذه الفرقة - الشيعة - تشكلت خطوطها العامة من مذهب أوسسطو والأفلاطونية المحدثة مضافا اليها بعض العناصر الشرقية المأخوذة من الزرادشتية والمزدكية .. وفي ذلك ما يدل على أنها ليست تجربة اسلامية أصيلة ، وحسبنا أن القرامطة أسسها تواتوا بالمقدسات الإسلامية وحرمة المسجد الحرام فأغاروا على مكة سنة ٢١٧ هـ ونهبوا الحجاج وقتلوه في المسجد الحرام » وقلعوا باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود وأخذوا كسوة



وعادى أفكار عصره ونقم عليها لمنافاتها للارسطية. وحسبنا انه كتب « تهافت التهافت » رد على مؤلف الغزالي « تهافت الفلاسفة » الذي انفسه لتمضيد السنة وموازرة الالهيات الاسلامية في مواجهة الفكر الارسطي الغازي ، باحلال الحدس والوجد محل العقل ، وابدال المنطق الصوري بالتصوف الذي به تسلموا النفس الى عالم الحقائق .

كان ابن رشد - حقيقة - غريبا من عصره معاكسا له غير معبر عنه ، بل كان منبوذا ملفوظا مارقا على الدين . فكيف اذن يتسنى لجارودي ان يضرب به المثل ويتخذة احد الدعائم الثلاثة التي بنى عليها مصالحةه . ولا يغفر له ذلك كون ابن رشد - حسب زعمه - قد توصل الى اساسيات المادية الجدلية . فما ذكره ابن رشد في هذا الصدد متعلقا بفكرة الحركة والزمان والمكان ذكره ارسطو في الكتاب الرابع والخامس والسابع من الطبيعيات التي ترجمها جابر بن اسحق (انظر دي لاسي : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص ١٥٤) ولم يكن من تساج فكره الخالص باى حال من الاحوال .

اما الدليل الثالث الذي اقامه الاستاذ جارودي فهو فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولا نعلم لماذا اغفل جارودي التعريف بهذه الفلسفة كما فعل بالنسبة لتجربة القرامطة ، وعقلانية ابن رشد . والذي نود انضاحه ان ابن خلدون - حقيقة - كان صاحب فضل كبير في تطور الدراسات الاجتماعية ، لكن بخيل البنا ان هذا الفضل مبالغ فيه بدرجة جعلت البعض يعتبرونه مؤسس العلم وواضع مناهجه ، وربما تأثر هؤلاء بما قاله ابن خلدون نفسه « فلم يقف على الكلام في موضوعاته لاحد من الخليفة » .

كان مثارا بدرجة كبيرة بالفلسفة اليونانية ممزجة بالافلوطينية الجديدة ، فهي ادس عسفة تجريدية تاملية . وحين تطورت اتخذت جناحين متنافسين احدهما علمي تجريبي كما هو الحال بالنسبة لابن سينا وانوارى وجابر بن حيسان والبيروني ، والاخر صوفي حدسي يمثل الغزالي اصديق تمثيل ، وهو التيار الذي ساد ما عداه من الروافد ،فلسفته الاخرى . وجدير بالذكر ان التيار الصوفي انحدسي يتعارض تماما مع المنطق الجدلي اعطاه على اساس ان التناقض هو نسيج الاشياء وان الشيء يمكن ان يكون هو وتنقيضه في نفس الوقت ، وان الاشياء تتفاعل وتتلاحم ليحدث التغيير الذي هو اساس الوجود . وهذا عكس المنطق الارسطي الشكلي القائل بان التغيير امر لا يدرك وان الشيء لا يتحول الى غيره ، فهو منطق استاتيكي يتسم بالثبات والجمود والتجريد . وبالنسبة لابن رشد فقد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين وخاصة في مؤلفه : « فصل احوال فيهما بين الحكمة والشرعية من الاتصال » ، لكنه اشتط ولم يوفق واضطره الاخذ بارسطو الى الزندقة والانحداد فانكر الخلود والبعث . . وادا كان ابن رشد يعد بحق من وجهة النظر الحديثة - اعظم فلاسفة الاسلام ، فانه في الواقع لم يزد من كونه شارحا لتعاليم ارسطو ومفسرا لها ، بل انه تأثر في ذلك بجهود اسلافه ومعاصريه وخاصة الكندي والفارابي وغيرهم ممن سبقوه الى الفلسفة الارسطية . وفي نظر معاصريه كان ابن رشد كافرا زنديقا ينتسب الى اوروبا والفكر الاوربي اكثر من انتماؤه الى الاسلام والفكر الاسلامي ، على حد تعبير ارنست رينان المشرق الفرنسي . لقد كان ابن رشد تلميذا مخلصا لارسطو عارض تعاليم التحكمين وعلماء التوحيد من اهل السنة،



وينسحب نفس منهجه على النشل الذى ضربه
تدليلا على وجود فكر ديني اشتراكي علمي في
مصر في القرن التاسع عشر . مثل في **رفاعه** **رافع**
الطهطاوى . واذا كان الجبال لا يتسع لتوضيح
فكر رفاعه فحسبنا القول بأنه لم يكن اشتراكيا
في قليل أو كثير ، ولا يعنى تعرضه لمشكلة فالض
القيمة في كتبه ما يقيم الدليل على اشتراكيته .
ان الذى يطالع كتابه « تخليص الأبرير في تلخيص
بارني » و « **مباحث** » **الادب المصري** في **منساج**
الادب المصري » لا يستطيع الا ان يفر حقيقة
لا ليس فيها وحى ان الطهطاوى لم يكن الا عارضا
لما وقف عليه في أوروبا - وحده في فرنسا -
من تيارات فكرية تقدمية اعجب بها جميعا على
اختلافها وتناقضاتها . فهو ليبرالى أحيانا حين
يعرض للفكر الليبرالى ، واديكالى أحيانا آخرى
حين يسرد الفكر الراديكالى ، يبدى اعجابه
بالاشتراكية ويشيد بها حين يطالع الفكر
الاشتراكي ... الخ وحسبنا انه في الوقت الذى
تحدث فيه عن مزاي الاشتراكية كان يناصر
سلطة الدولة في مصر ويدعمها استنادا الى فكر
مونتسكيو . لم يكن الطهطاوى اشتراكيا لا في
فكره أو سلوكه فهو من أصحاب الإقطاعيات ..
كان مثقفا مسلما افتتح على التيارات الفكرية
الأوروبية المعاصرة فاعجب بها دون أن يأخذ
أو يعتنق أيا منها . واذا كان لابد من تقييمه
بشكل عام فهو أميل الى أن يكون ليبراليا وليس
اشتراكيا كما يذهب الأستاذ جارودى .
قصارى القول أن الاتفاق والاتفاق والمصالحة
الذى اصطنعها الأستاذ جارودى بين الإسلام
والماركسية هو اتفاق متعسف واتفاق على غير
اساس ومصالحة مرفوضة من الجانبين الاسلامي
والماركسي .

محمود اسماعيل عبد الرازق

لكن هذا القول ينطوى على تجن بالغ على دراسات
أرسطو التى لا بد ان يكون ابن خلدون قد عرفها
وتأثر ببعضها (انظر . د - مصطفى الخشاب :
تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ص ٧٣) .
وفصلا عن ذلك فان ابن خلدون لم يستطع ان
يطبق ما وصل اليه من قوانين الظواهر الاجتماعيه
على دراساته التاريخية . وحتى هذا القسانون
الذى وصل اليه لا يمت بصلة الى المادة الجدلية
بل هو اقرب الى « البيولوجية التطورية » التى
قال بها **هربرته سبنسر** فقانون الأطوار الثلاثة
للمجتمع الاسانى - طور النشأة والتكوين ، ثم
طور النضج والاكتمال واخيرا طور الهرم
والشيخوخة - محكوم في نظر ابن خلدون بالدين
فالدول العامة الاستيلاء العظيمة أصلها الدين
وأن الدولة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة
على العصبية ، والدولة لها أعمار طبيعية كما
للأشخاص « هذه النظرة تعمق الهوة بين فكر
ابن خلدون وبين المادة الجدلية بصورة لا تحتمل
الجدل . وحسبنا عدم استفادة ابن خلدون من
منهجه هذا في دراساته للتاريخ الاسلامى التى
تحفل بالأخطاء والتفسيرات المعاقة بالخوارق
والسحر والثيرولوجيا والميتافيزيقا الأمر الذى
يجعل مجرد المقارنة بين فكره والفكر الاشتراكي
العلمي ضربا من الاستحالة . فلم يكن ابن
خلدون أيضا نبضا للفكر العربى في عصره شأنه
شأن ابن رشد ، بل حسينا حقه علي العرب
ووضعه اياهم في منزلة الشعوب المتخلفة البدوية
التي لا تعرف الحضارة .
ان اصطناع الأستاذ جارودى وفقا بين
الفكر الاسلامى والماركسية اقتحاما على فلسفة
ابن رشد وتجربة الشيوعية القرمطية وفكره
ابن خلدون الاجتماعى ينطوى على تصسف يرفسه
العلم ، وترفسه الماركسية ولا يقبله الاسلام .

بين التعبير الأدبي والتفكير الفلسفي

« كثيرا من ألوان تفسير الحياة التي يستخلصها الناس من أعمال شكسبير كان من الممكن أن تتوصل إليها مواهب متوسطة جدا دون الحاجة إلى شكسبير » .

أما الناقد ، ومؤرخ الفلسفة الأمريكي جودج بوس فيقرر أن الأفكار في الشعر تكون عادة بالية وزائفة ، وأنه لا يوجد انسان تخطى السادسة عشرة من العمر يؤمن بأن قراءة الشعر مجرد ما فيه من فكر هي أمر يستحق اهتمامه .

ومع ذلك فلا شك أن دراسة تاريخ الفلسفة وفهم النظريات الفلسفية المختلفة والتعرف على الأفكار الكبيرة من شأنه أن يعطي نظرة كل من الأدب والناقد، وأن يوسع آفاقهما ويثري كتابتهما هذا إلى أن دراسة كهذه ستساعد ولا شك على على لقاء كثير من الضوء على الأعمال الأدبية في العصور المختلفة . ويكفي أن نشير مثلا إلى أن المثات من أمثال هذه الالياسات الجميلة للحلاج لا يمكن أن تفهم حتى الفهم إلا بعد المام كاف بمفاهيم « الفناء » و « الحلول » والاتحاد عند الصوفية ، وهي مفاهيم تضرب بجذورها إلى فلسفات وديانات مختلفة من أهمها الهندية القديمة والافلاطونية الحديثة والمسيحية ، وذلك

ولسنا نقصد هنا الفلسفة بمعناها المتيقن ، وإنما بمعناها الشائع المتسامح الذي يشمل الأفكار ذات الأهمية النسبية أيضا .

والآراء تختلف اختلافا بينا حول العلاقة بين الأدب والفلسفة بصفة عامة . فمعظم النقاد مثلا يتجهون عادة إلى البحث عن مغزى ، أو فلسفة معينة في هسلنا العمل الأدبي أو ذلك ، ومن ثم فكثيرا ما تقوم مناقشتهم للأعمال الأدبية إلى بعض التقادير أو الأحكام العامة فمثلا « السمان والحريف » تقدم لنا فكرة « علم الانتماء » أو فكرة « القرية المحلية » ، أما « تاجر البندقية » فإنها توضح لنا أن « أعظم ألوان العدل هو القساها عقوبة » .. وهكذا .

كذلك يقرر البعض - المعاد مثلا - أن « المفهوم المجهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا من طلائع النهضة الفكرية ورسيل الحقائق والمذاهب في كل عصر تبعوا فيه » ، بل أن « الأدب ليؤخذ في معظم الأحيان على أنه ضرب من الفلسفة » كما يذكر رينيه فليك في « في كتابه » نظرية الادب » ومن جهة أخرى فإن بعض الدارسين ينض من شأن الصلة بين الفلسفة والأدب أو يسخر منها ، فالناقد الانجليزي الكبير سي . آس . لويس في كتابه « تجربة في النقد » يقرر أن

● ان دراسة تاريخ الفلسفة ، وفهم النظريات الفلسفية المختلفة ، والتعرف على الافكار الكبيرة من شأنه ان يعطي نظرة كلي من الادب والناقد

● الحقيقة الفكرية أو الفلسفية ليست لها قيمة فنية في حد ذاتها ، والعمل الفني لا يسمى باسم مادته وإنما بالطريقة التي شكلت بها هذه المادة .

د. حمدي السكوت

الناقد وراء الأفكار الفلسفية وتحمسه لها كثيرا ما يؤدي به الى عزل بعض عبارات العمل الادبي من سياقها أو الانحراف بتقده في طريق خاص تغفل معه جوانب فنية هامة وكثيرة ، لكي يتلهم العمل في النهاية مع فكرة فلسفية ما أو مذهب جمالي معين . وعناوين مثل « الواقعية الوجودية في السسمان والحريف » أو « الرومانتيكية في العصر الأموي » ليست بعيدة عن الأذهان .

كذلك قد يلجأ بعض الدارسين الى التقاط أفكار معينة واعتبار كل منها « روح العصر » بالنسبة لفترة ما (على غرار ما كان يفعل كثير من الدارسين الملائن) ، ثم يأخذ في تفسير كل الأعمال الأدبية التي ظهرت في تلك الفترة على ضوء روح العصر هذه . والنتيجة أن يحتفي هذا الدارس بكل النماذج الأدبية التي تمثل - أو يعتقد أنها تمثل - « روح العصر » هذه ، ويفغل النماذج الأخرى التي قد تكون أكثر كمية وأهمية وفنا من تلك النماذج المحتفى بها . وهكذا فنحن لا نصل من وراء هذه الدراسة لا الى فهم النص الادبي وتقويمه ؛ لأن النصوص في هذه الحالة تستعمل عادة كشواهد فقط ، ولا الى صورة متكاملة للعصر ككل أو للأدباء كأفراد .

كذلك فإن نخمسة الشاعر أو الكاتب للفكرة

على الرغم من ان النظرة المتسرعة قد لا تلاحظ ان وراء الأبيات فكرا عميقا ، والأبيات هي : -

أيها القاص ما احسنت صيد الطييات
قال قم وافعل خيرا من اداء الصلوات
قلت دعني يا عدول ليس ذا وقت الصلاة
انا مشغول بطاسي وبكاسي وسفاتي
آه مشنن لقد افسدن حجي وزكاتي
اقتلونني يا ثقاتي ان في قتل حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

كذلك لا يمكننا أن نفهم شعر مبحي الدين ابن عربي في الحب الا اذا عرفنا فلسفته حول الخيال وعلاقته بالحب ، وعدم تعلق الحب الا بالمعوم الذي لم يتحقق ، وآراءه حول الحب الانساني والحب الالهي ، وهي آراء متأثرة بفلسفات مختلفة ونفس الحكم ينطبق - الى جانب شعر التصوف - على الكثير من قصائد بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي العلاء وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وغيرهم ، اذ هؤلاء الشعراء لا يمكن أن يوفوا حقهم من الدراسة دون الرجوع الى الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية والافلاطونية الحديثة كل فيما يخصه .

ولكن هذا لا يمتنع من أن نقدر ان انشاع

الأكبر ، واندهاعه لتقديمها بصورتها « الخسام »
 كثيرا ما يؤدي بدوره الى التضحية بالعمل الفني
 ذاته والاندثار به الى شكل لا هو فلسفي صحيح
 ولا هو أدبي صحيح . فبعض أشعار ابن سينا
 أو أبي العلاء مثلا لا تبدو أن تكون نظما لبعض
 الأفكار الفلسفية التي كانت شائعة بين الأوساط

الأخرى غير الشعر ، فكثيرا ما تكون الأفكار
 الفلسفية - أو الأخرى الطريقة التي تعرض بها
 هذه الأفكار - هي نقطة الضعف في العمل الأدبي
 فلا شك أن اهتمام كاتبنا الكبير توفيق الحكيم
 بفكرته عن « الإنسان والزمن » في مسرحية
 « أهل الكهف » أو بفكرته عن « الإنسان والمكان »



في مسرحية « شهر زاد » ، لا شك أن هذا الاهتمام
 قد قاد المؤلف الى التضحية ببعض العناصر الفنية
 الحيوية بالنسبة للتأليف المسرحي (كرمسج
 الشخصيات مثلا) في سبيل إبراز فكرته ،
 والنتيجة أن العمل جاء ضعيفا من الناحية الفنية

المتفلة في عصرهما ، وهي من هسله الزاوية
 لا تتفوق كثيرا على نظم الشاعر العباسي إبان بن
 عبد الحميد لكتاب « كليله وذهنة » ، أو حتى نظم
 ابن مالك لقواعد النحو والصرف .
 ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة لفنون الأدب

وهي الناحية التي يجب أن يحرص الفنان على سلامتها أولا ، إذ من الواضح أننا لا نستطيع أن ننظر مثلا في فلسفة النحات في الحياة إلا اذا توفر لما نحتة شكل التمثال فعلا . أما اذا لم يبرز ما نحتة أمام أعيننا تمثالا حقيقيا ، فاننا لن نعتي في هذه الحالة فلسفته في الحياة بالغة ما بلغت هذه الفلسفة من العمق .

وقل نفس الشيء بالنسبة للرواية . وهنا ايضا يحضرني مثال من أعمال توفيق الحكيم هو رواية « عصفور من الشرق » ، فلا شك ان الجزء الثاني من هذه الرواية ، وهو الجزء الذي يدور حول « روحانية الشرق وعادية الغرب » (سواء كانت هذه الفكرة في حد ذاتها مهيبة أم مخطئة) لا شك ان هذا الجزء من الناحية الفنية أضنف بكثير من الجزء الاول الذي يبتعننا بطرافته وبساطته والاستغلال البارع لمقتصر المفارقة فيه ، حين يصور لنا حب « محسن » الشاب المصري الذي لم يتعرف بعد على طريقة الحياة الغربية لفنائة باريسية حسنا على الطريقة الشرقية .

ان نقطة الخطر تكمن في ان كثيرا من الادباء والنقاد - ارادوا أو لا ارادوا - يميلون الى الاعتقاد بان العمل الادبي يسمى بقدر ما فيه من افكار كثيرة ، فكما كثرت الافكار في العمل الادبي كان عملا عظيما وكلما قلت او كانت غير عميقة كان عملا ثانويا قليل الاهمية . وهذا الاعتقاد بين الخطأ ولو صح لفضلنا الجزء الثاني من مسرحية « فاوست » - وهو الجزء الذي يطور فيه جوته كثيرا من افكاره حول « الميثولوجيا » والتطور الثقافي والفني - الى غير ذلك من موضوعات « العالم الكبير » - على اهم أعمال « شكسبير » ، لأن هذه الأخيرة لا تقدم لنا بصفة عامة فلسفات عميقة ، أو افكارا تميز الموهبة « المتوسطة جدا » ، على حد تعبير لويس ، عن الاتيان بها . ولو صح كذلك لفضلنا في ادبنا العربي رواية « عصفور من الشرق » أو النصف الثاني منها على الجزء الاول من ثلاثية نجيب محفوظ . « بين القصيرين » ، وهو الجزء الذي لا يناقش افكارا فلسفية ، وهذا ما لم يقل به احد . ان العامل الحاسم هنا هو الطريقة التي تعرض بها هذه الافكار وليس الافكار نفسها . وكلنا يعرف الضجة الكبيرة التي اقامتها مدرسة الديوان أو مدرسة العقاد وشكري والمازني حول شعر « المناسبات » السياسية والاجتماعية عند شوقي وحافظ وغيرها . ومع ذلك فقصيدة الشاعر

المعاصر صلاح عبد الصبور « حول مأساة دنشواي » لا تفضل - في رأيي - بعض القصائد التي نظمها شوقي وحافظ حول نفس « المناسبات » فقط ، كما يشير النقاد عادة - وانما تفضل « وهي من شعر المناسبات » الكثير من شعر أعضاء « مدرسة الديوان » الفنى بالانكار الكبيرة أيضا .

وتجرنا هذه المناقشة الى سؤال لا يبدو ان الاجابة عليه واضحة في اذهان الكثيرين منا ، وهو كيف يبر عن الافكار بطريقة صحيحة في العمل الادبي ؟ وهل مجرد نثر بعض الافكار الفلسفية أو غير الفلسفية في العمل بصورتها « الحسام » يعني ان هذه الافكار قد عبر عنها بصورة فنية ؟ والجواب طبعاً ليس بالإيجاب . ولعل هذا هو السر في ضعف بعض الامثلة السابقة من الناحية الفنية . إذ ان هذه الامثلة قد اعتمدت بصفة أساسية على الافكار ، الافكار التي لم يحسن التعبير عنها ، لأنها ظلت محتجزة بطابعها العادي المباشر والمألوف ، ولهذا فقد انحدرت بالعمل الى أسلوب أشبه بأسلوب المقالة منه بأسلوب العمل الروائي أو المسرحي أو الشعري . أما اذا اردنا ان نعبّر عن الفكرة تعبيرا فنيا ناجحا فاننا يجب ان نعرضها بحيث تبدو وقد تخلت عن هذا الطابع المباشر والمألوف ، وذلك بان نتجسس في شكل مادي من الاشخاص والتصرفات والأحداث والمواقف التي هي في وقت واحد ضرورية لبناء العمل ، متحثة بنسيجه ، وطبيعية ومقنعة في مواضعها . وبالاختصار يجب أن تستشرف الفكرة من العمل ، وأن يوحي بها ايحاء سواء عن طريق الرمز أو الاسطورة ، كما هو الحال غالبا في الشعر ام عن طريق الشخصيات والمواقف والأحداث كما هو الحال غالبا في العمل القصصي أو المسرحي .

وهنا يبرز امامنا هذا السؤال الهام : لنفرض ان الكاتب قد نجح فعلا في عرض فكرة أو افكار فلسفية عرضا فنيا ناجحا ، كما فعل جوته في فاوست وستوفيسكي في الاخوة كارامازوف ، ويشي من التوسع نجيب محفوظ في عدد من رواياته الأخيرة ، إذ في هذه الاعمال تصفرو الفكرة من خلال مشكلة أو أزمة يمر بها البطول مع سلسلة من المواقف التي تتلاحم فيها الفكرة مع الكارثة أو الأحداث الهامة التي تقع للشخصيات هل يكون مثل هذه الأعمال أفضل من أعمال أخرى ناجحة فنيا أيضا ولكنها خلو من مثل هذه الافكار ؟

ان كبار النقاد الغربيين - على عكس ما يتوقع كثير من القراء - يهيئون عن هذا السؤال بالتفني، وقد رأينا مثلاً ما قاله لويس في صدر هذا المقال عن الجانب الفكري في مسرحيات شكسبير ومع ذلك فلا يشك لويس ، بل ولا يشك أحد ، في أن شكسبير واحد من أعظم شعراء الجنس البشري على الإطلاق . أما بنديكتو كروتشيه

فيندد بالنقاد الذين يمجنون القسم الثاني من مسرحية فاوست لجوته « كشعر سام ارتفع الى القمم ، ونفذ الى لب الأشياء » ، وانقلبت فيه الفكرة صورة والصورة فكرة » ، ويقرر انه « عندما يصبح الشعر متوقفا بهذه الصورة ، أي عندما يصبح الشعر اسمى من نفسه ، فإنه يفقد منزلته كشعر ، وينبغي أن يوصف بأنه قد انحط ، أي قد أصبح شعراً فقيراً في شاعريته ، وإن كان غنياً في روحه وغيباله » . « وأما ذلك » فيقرر ان الشعر الفلسفي مهما نجح في التعبير عن الأفكار فهو ليس الا نوعاً واحداً من الشعر ، ومكانته ليست بالضرورة مكانة الصداقة ، وينبغي أن يقوم كغيره من أنواع الشعر الأخرى ، لا بقيمة موضوعه ، بل بدرجة التلاحم والتركيز الفني التي أتتحت له .

وبالاختصار فالحقيقة الفكرية او الفلسفية ليست لها قيمة فنية في حد ذاتها ، والعمل الفني لا يسمى بسمو مادته ، وإنما بالطريقة التي شكلت بها هذه المادة ، وبالاسلوب الفني الذي عرضت به محتوياته . ولكي نزيد هذا الكلام ايضاحاً فنستعين بهذا المثال من فن الرسم . اذا قارنا بين صورتين زيتيتين احدهما لنابليون مثلاً والاخرى لشعاع، فإن احداً منا لن يفكر بادى ذي بدء في تفضيل لوحة نابليون لأنها تصور أحد كبار المبحرارة على حين تصور اللوحة الأخرى شخصاً لا أهمية له وإنما سيكون العامل الحاسم في تفضيل احدى اللوحتين هو بالطبع - مدى ما توفر لهما من توفيق فني . فاذا ما تساوت اللوحتان من الناحية الفنية فسيكون طبيعياً ايضاً الا يخطر في بال أحد منا أن يرجع كفة لوحة نابليون لأن موضوعها هذه الشخصية الكبيرة .

ولا يختلف هذا الوضع بالنسبة للأعمال الأدبية . ولدينا في الادب الحديث مثال جيد على ذلك هو أعمال نجيب محفوظ الأخيرة التي فسق كاتبها الى حد كبير في عرض ما بهما من أفكار كبيرة وغير محلية « عرضاً فنياً ناجحاً ، ومع





« واهب الفكر » أكثر جفافا ، وهو الإفراط الفكرى .

بقيت نقطة أخيرة لا بد من الإشارة إليها ، وهى أن الأدب مهما حوى من أفكار فلسفية لا ينبغي أن يؤخذ على أنه فلسفة - كما يحلو للبعض أن يفعل - فللفلسفة ميدانها ووظيفتها ومنهجها ، وللأدب ميدانه ووظيفته ومنهجه . وكما يقرر « مروتشميه » فإن الأفكار الفلسفية فى الأدب لا يمكن أن تقرأ على أنها فلسفة ، فالجزء الثانى من « فاوست » يظل شعرا (رغم غشاه بالأفكار الفلسفية كما سبق) ، لأن الأفكار الواردة به لا تعدو أن تكون مجرد إشارات ، إشارات تختلف فى درجة وضوحها ، فهى ليست أفكارا مدروسة بعناية ومدعمة بالأسباب ، ولا هى متولدة بمضغها من البعض بطريقة منطقية ، ولا متتابعة تتابعا منطقيا . وهى علم هذا النحو أفكار غامضة . هذا هو السر فى كثرة التفسيرات لأشعار أمثال « جوته » و « دانتي » وكل الذين كتبوا أدب الأمثلة

وحتى لو حلت مشكلة الغموض هذه وكتب الشاعر نفسه تعليقا حول شعره وضح به على وجه القطع هذه الأفكار ، فإن العمق فى هذه الحالة سينسب الى التعليق لا الى الشعر الذى كتب حوله التعليق ، أى الى الأفكار ، والأفكار الحقيقية ، وليس الى الرموز .

حمدى السكون

ذلك فهو لا تفضل أعماله الواقعية السابقة ، بل لعل الكثيرين يفضلون الثلاثية - أو لنقل « بين القصرين » وهو الجزء الذى يخلو من أية أفكار فلسفية كما سبق - على « الطريق » مثلا أو « الشجاذ » .

وقد أطلت قليلا فى مناقشة هذه الفكرة ، فكرة سمو العمل الفنى بقدر ما فيه من أفكار كبيرة ، لأنها لا تزال منتشرة على نطاق واسع فى الأوساط النقدية والأدبية عندنا ، على الرغم مما لاحظناه من أن نتائج تطبيقها لم تكن دائما ناجحة تماما . وحتى بالنسبة لبعض الأعمال التى هى ليست أدبا فلسفيا أو فكريا بالمعنى الدقيق ، والتى توفر لها قدر كبير من النجاح مثل « الرباط المقدس » ، وكلتا الشخصيتين تمكس - الى حد (مع الفارق بين درجة النجاح لكل منهما) فان القارئ يحس هنا بأن نقاط الضعف كان مردها أحيانا الى تغليب الجانب الفكرى ، فشخصية محسن فى « عودة الروح » وفى النصف الأول من « محفل من الشرق » أكثر امتاعا وأرقى لنا فى رسمها من شخصية « واهب الفكر » فى « الرباط المقدس » ، وكلتا الشخصيتين تمكس - الى حد كبير - فترة من حياة المؤلف . ونفس الحكم ينطبق على شخصية كمال عبد الجواد الذى يبدو أكثر حيوية وامتاعا فى « من القصرين » وفى الجزء الأول من « قصر الشوقي » ، أى قبل أن تنفأ أزمة « كمال » الفكرية ، أما بعد ذلك فكتيرا ما يبدو وكمال أكثر حفافا لنفس السبب الذى يبدو به

أسطورة

باريس

في
الشعر
الفرنسي
المعاصر

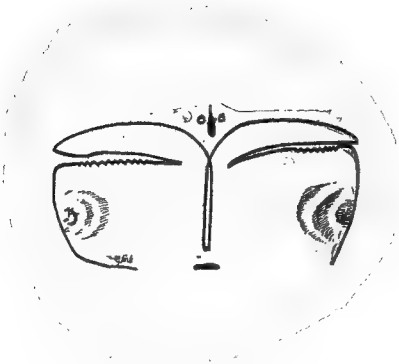
د • جان مازاليرا
ترجمة : نادية كامل

ولئن كانت هذه الظاهرة مثارا لاطراء الشعر
الفرنسي تارة ومهاجمته تارة أخرى إلا أنها خصيصة
جوهرية من خصائصه على أي حال • وربما كانت
السبب في عالميته أيضا •

الشعر الفرنسي والشعر الباريسي

ويبين من ذلك أننا إذا تحدثنا عما يمكن
أن نسميه « بالشعر الباريسي » فإن هذا الشعر
لن يكون في حقيقة الأمر هو « الشعر الفرنسي »

لحم يكن الشعر الفرنسي من الناحية
التاريخية باريسي الأصل ، كما لم يكن وليد
مقاطعة أو مدينة بعينها في فرنسا ، بل كان
ذلك الشعر وليد الثقافة بمعناها الرحيب ، فهو
يستقي الهاماته ورآه من الفكر الكلاسيكي ويختار
لأوضاعه شخصيات مثل أفيجينيا وأوجست
والإسكندر الأكبر بدلا من جان دارك ونابليون
ولويس الرابع عشر • كما أنه لا يصف نهر
السين بقدر ما يصف نهر التيبر •



يريد أن يتفنى بالعاصمة فإنه كان يأخذنا إلى
فرساي ويفيض في تصوير أروقة القصور
ونافوراتها وحدائقها ولا يتطرق من بعيد أو
قريب إلى أزقة باريس وواجهات عمارتها .

على أنه مالبثت أن ظهرت بعض الأشعار
كرد فعل من جانب الشعب آزاء الأدب الرسمي
المتباعد المحتشئ بموائد القصور ، وقد كانت
هذه الأشعار المنتقمة لباريس من فرساي
وشامبور أولى التعبيرات الشعرية من وحي باريس
ذاتها . ويجدر أن نذكر في هذا المقام أسما
معروفا في تاريخ النقد أكثر منه في تاريخ
الشعر ونعني به صانت ييف الذي كان أول من
واتته الجراءة كي يحيط الوفاق الشعري بأطار من
ضواحي باريس ، كما ظهرت في أشعار ديورم
(وهو اسم خيالي استعارة الشاعر لنفسه)
ولكنه كان لا زال لا يجرؤ أن يصف المدينة نفسها
فوقف عند حد وصف ذلك العالم الذي مسته
الحضارة الصناعية .

على أن محاولة باريس التحول من أن تكون

على ممر التاريخ ، ذلك لأن باريس لم يكن لها
وجود حقيقي بالنسبة للشعراء الفرنسيين : لا منذ
منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى وجهه
التحديد منذ بودلير . فلتن كان عمر باريس في
تاريخ فرنسا يرجع إلى ألف عام مضت فإن
عمرها في تاريخ الشعر الفرنسي لا يزيد على مائة
عام . إلا أن هذه الأعوام المائة كانت ذات بريق
أخاذ استطاع أن يطمس في ذاكرتنا التسمانة عام
الأخرى . وقد أمكن لباريس أن تفرض نفسها
فجأة في تاريخ الشعر الفرنسي حتى أنها
أصبحت تحتل منه مقام الصدارة .

ولنعد الآن لحقائق تاريخ الأدب في فرنسا
لنرى باريس تظهر أول ما تظهر كفكرة سلبية
عرضية ، فقد تربح « شعر البلاط » على عرش
الشعر الباريسي أمدا طويلا ، فكان شمس
فرساي وشامبور يطرئ الحكام ويستسيغ الدعاية
والحياة السهلة ويبدو أكثر رفضا للأفكار العميقة
الجادة . وأمكن لفرساي وشامبور أن تخفنا باريس
وقد لاحظ موليير بوعيه الحاد رد فعل الجمهور
آزاء هذا التناقض ، فعندما كان أحد الشعراء

وهذا الذى لاحظناه على هوجو نلاحظه أيضاً على **جيراردى نيرفال** فقد كان نشره لا شعره هو وسيلته للتعبير عن احساس يزداد عمقا بحياة باريس ونبيضا ، ويبدو ذلك جليا على الأخص فى روايته « **كياى اكتوبر** » و « **نزهات وذكريات** » .

ولم تدخل باريس الى عالم الشعر الفرنسى كشخصية مستقلة حقا الا مع **بودلير** . وقد كان دخولها دخولا مظفرا ، فلم تعد مجرد « **ايماءات** » من قريب او من بعيد بل أصبحت « **الهاما** » حقيقيا مباشرا .

فالتذكر بباريس نجده عند بودلير فى « **ذهود الشر** » على الأخص فى مجموعة قصائده « **صور باريسية** » كما نجده أيضا بطبيعة الحال فى « **حلم باريس** » حيث تتتابع صور المدينة كجوقة موسيقية تصاحب حلم الشاعر ، ولكن تلك الصور لم تعد كما كانت عند شعراء سابقين مجرد صور مختارة لاضفاء جو من الغرابة على القصائد ، بل صار بين الأسى والتعاسة والجنون والرذيلة والسأم ، كل تلك المشاعر التي تغلف المدينة ، وبين روح الشاعر صلة مشاركة وتوافق لم نعهدها فى الشعر الفرنسى من قبل .

اننا نجد بودلير يحس بالآلام المدنية واحزانها:
ها هو المشهد الأسود الذى رآته
عيناي الواعيتان فى حلمي الليل ..
وتارة يعمد الى مواجهة الواقع بالذكرى

باريس تغير ! لكن لاشئ من حزنى قد
تزعزع !

القصور الجديدة ، الصقالات المنصوبة ،
الكتل الرصوصة

الشوارع القديمة ، كل شئ أصبح بالنسبة
لى بعدوًا

وقد تتسع رقعة التأمل حتى تصبح رؤية
شاملة :

السدان تحت الذقن • من اعل ججرتى
الضيقة ،

سأرى الروشة تغنى وتثرثر •

سأرى المواسير والأجراس مثل صسواد
للمدينة

مجرد إطار فى الشعر الى أن تكون فكرة إيجابية ما لبثت أن اصطدمت بنزعة أخرى هى النزعة الرومانسية فحمل « **شعر الطبيعة** » محمل « **شعر البلاط** » أو ربما تضافرا معا للتمويق من ظهور باريس فى الحلبة • فقد جعل الشعراء الرومانتيكيون من الطبيعة الملاذ الوحيد للشاعر ومحارب تأملاته الأول والأخير •

على أن الأجيال المقبلة ما لبثت أن كانت أكثر تجاوبا والعالم الذى كان سانت بيف أول من أحس بجاذبيته الغربية وشجنيته المؤسسية • وأخذ شعر المدنية يبدو كرد فعل لافراط شعر الطبيعة الى حد الغثيضان • وتطورت باريس من مكانها القديم المزوى فى انظار لتصبح الهاما روحيا إيجابيا • على أن وجود باريس لم يتفصح بحق الا فى الأعمال بودلير ، فمع قصائده أصبح لباريس وجود حقيقى حر •

كيف حدث ذلك التحول الشعرى من باريس
كأطار الى باريس كفكرة ؟؟

حتى القرن التاسع عشر لم تكن باريس فى الشعر الفرنسى تحيا حياة خاصة بها • كانت بالطبع موضوعا للمحاح كثيرة فقد كان الشعراء الباريسيون عديدون لكنهم لم يكونوا بعد « **شعراء باريس** » • كان هناك مثلا فيون و بوالو و دنييه ، وليس بمستطاع أن يلم القارىء على الأخص بحياة فيون وشعره ، ما لم يرجع الى باريس والسوربون والشاتليه و « **مقابر الأبرياء** » فشوارع تلك المدينة وأهلها وملاهيها تبدو على الدوام فى خلفية لقصائد مثل « **الوصية** » لكن هذه الحلفية تظل ديكورا يصلح لفهم الشاعر نفسه اما أن تصلح لفهم باريس ذاتها فهذا لم يكن قد آن وأتته بعد • إن الشاعر لا يستطيع أن يحيا بدونها ولكنه لم يكن ليستطيع أن يجعلها تحيا بدونها أيضا • فهى قطعة منه ، وليس كأنها حيا له روحه المستقلة • وقد ظل الحال على هذا المتوال حتى عام ١٨٥٠ •

على أن ظهور باريس ظهورا حقيقيا كان أسبق فى الأعمال الشعرية من فى الأعمال الشعرية ، فنحس فى روايات هوجو مثل « **الأحديب** » و « **البؤساء** » أكثر مما نحس فى شعره بباريس • وقد غدت كأنها متعدد الأشكال ، ضخما مهولا ، مخيفا وفى الوقت ذاته عاديا مألوفًا . وفى ديوان له بعنوان « **أغنيات من الطرقات** » تصبح هذه الأغنيات أغنيات الغابات ، فالشوارع عند هوجو لا تؤدى الى داخل المدينة بل تقود كلها الى الطبيعة وتصب فيها •

كما سارى السموات الفسيحة التى تبعث
على الحلم منذ الأزل

ثم هاهو الشاعر يرفض الحارح وينتحي الشعر
المفلتى :

ساو صد الأبواب والتوافد ،
كى أبنى لنا فى الظلام قصورا سحرية

على أن هناك شيئا آخر فى شعر بودلير ،
شيئا هو فى اعتقادنا أكثر الأشياء ندرة وتفردا .
أنه احساس لم يقدر للشعر أن يعبر عنه من قبل .
احساس بوجود شخصية حية وحقيقية لباريس .
ويتضح ذلك على الأخص فى قصيدة « غسقى
الصباح » التى تكمل سلسلة « الصور الباريسية »
حيث نرى فيها الحياة تدب فى أوصال المدينة
شيئا فشيئا . ويتم ذلك عن طريق تداعى الحواطر
عن باريس حتى تصبح فى نهاية القصيدة كأننا
حيثا تنبض الجزئيات والتفاصيل العديدة من خلال
رؤيا واسعة بروح إنسانية دافئة . فها هو بودلير
يقول :

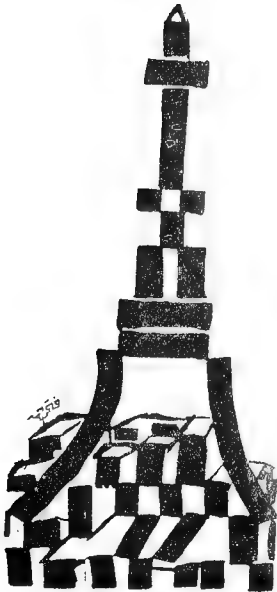
كان الفجر يرتعد فى ثوبه الوردى الأخضر ،
مقتربا بغطى وثيدة من السين المفر ،
ويايس العتمة كالعجوز النشيطة
تدعك عينيها ممسكة بأدوات زينتها ..

ومنذ تلك اللحظة أصبح الطريق مبهنا ، الطريق
المزدوج الذى يسلكه الشعراء المعاصرون ، والذى
سنعرض له فى السطور التالية .

أما الطريق الأول - وهو الذى سار فيه
فيرلين و لافوج و ليون بول فارغ وفى كثير من
الأحيان أبو لينر - فنجد فيه الشاعر لا يرفض
حياة باريس ذاتها بل يقبل عليها ويتخذها وسطا
لأحلامه وتأملاته . فنرى فيرلين فى قصبيدته
« أشكال باريسية » يقول :

كان القمر يغطى ألوانه بصبغة الزنك
فى شكل زوايا منفرجة
وحلقات من الدخان على شكل رقم ٥
كانت تخرج صلبة سوداء من أعلى الأسطح
المديية

ونسلم أبو لينر فى نهاية قصبيدته « فاندسير »
من ديوانه « كحول » يقول :



ليلة سبتمبر تنقضي ببطء

أضواء الكبارى اخمراء تنطفئ في السنين

تموت النجوم ويولد النهار

وتعيدني ذكريات الحب

الى صور الكبارى على ضفاف السين

المصورون من أمثال دوبي ديلوناي و مارك شاجال
(~ ١٩٦٩) وربما كان جيوم أبو لينير
أكثر الشعراء المصريين تعبيرا عما ذكرناه فيها هو
يقول في إحدى قصائده التي وصفت بالشعر
المستقبل :

تشعرين يا نفس في النهاية من هذا العالم
القديم

ضجرت من الحياة في خرائب الحضارة
اليونانية والرومانية

آه يا برج ايفل ، يا راعي قطعان الكبارى
التي تثقف في الصباح عند قديميك

ثم يفرق الشاعر بجمعة جليلة في شعر يزخر
بحياة المدينة وصخبها حتى لا يستطيع أى باريسى
أن ينكر ان هذا الشعر قطعة نابضة من حياته :

تقرأ الإعلانات ، والكتالوجات ، والمصقات
التي تشبه بصوت عال

ها هو الشعر هذا الصباح ، اما النثر
فهناك الجرائد

بخمسة وعشرين مليما تقرأ صفحات مليئة
بالمغامرات البوليسية

والتف عنوان وعنوان ، وترى صورة لكبار
الشخصيات

هذا الصباح ، رأيت شارعا نسيت اسمه
طليا كان ونظيفا حتى بدا بوقا للشمس
والضياء

الرؤساء والمعمال وكاتبات الآلة الكاتبة
الحسنات

يمرون منه جميعا أربع مرات

كل يوم من صباح الاثنين حتى الرابعة من
بعد ظهر السبت

تنن الأجراس ثلاث مرات في الصباح
ومن الأبواق الغاضبة عند الظهيرة يعلو
النباح

كم أهوى رقة هذا الشارع الصناعي
الذى يشق طريقه بين أوومن - تيليفيل
وميدان الترن

ففى هذا النوع من القصائد يشيد الشاعر
بما رآه على تربة باريس ، فتجوى أحلامه مع
جريان الحياة فى أنحائها ، فتبدو قصائده ذكريات
تنداعى عن وجود لا يتبسطه ويمجه بل يصب فى
دقائقه أحاسيسه الفنية .

على أن بعض الشعراء المصاصرين احتساء
ببودلير أيضا قد عمدوا فى قصائدهم الى الاختفاء
تماما حتى يسمعوا القارىء نبض هذه المدينة
الحق . فيبقى الشاعر فى الظل مكتفيا بدور المترجم
بباريس . ونجد ذلك مثلا فى هذه القصيدة التى
اخترناها لأنثويه بريتون التى تبدو وكأنها ليست
من مجموعة أشعاره المفرطة فى السريالية بل هى
أقرب الى أن تكون من « حلم باريس » لبودلير
يقول الشاعر بريتون فى قصيدته هذه ، وهى
ب عنوان « الأوانى المستطرقة » :

يجب أن تذهب فى الصباح الباكر
لترى من أعلى دوبة السكركه كور فى باريس

تتجرد المدينة ببطء من غلاتها الرائعة

قبل أن تيسط ذراعها

جمع باكملها تفرق أخيرا

يرتعد من البرد ، محترقا ، بلا حماس

يشق كالسيفينة ليلا طويلا

ليس سوى شيء واحد من القمامة والروعة .

وفى هذا النهج أيضا يعد الانتاج الشعرى
الباريسى الى تمجيد « العمل والحياة العصرية ، بل
والحضارة الصناعية » التى رأينا الشعراء قبل
بودلير يتباكون على عاصمتهم من زحفها عليها .
وبذلك يخلق الانتاج الشعرى المذكور قيما جديدة
تزينها مشاهد من باريس فى كل تألفاتها
ومتناقضاتها . ولنضرب مثلا على ما نقول « بيرج
ايفل » ذلك الصرح الذى رفض الشعراء من قبل
التغنى به ، وقد كانت عصريته وإيماؤه الى عهد
جديد تلبس فيه الهندسة والتكنولوجيا دورا هو
ما جعل الشعراء المحدثون يتغنون به كما تغنى به

ثم يمضى أبو نير فيقول :

ليالى باريس ثملة بالحين

تنوهج بالكهرباء

وفى الدرب ، على القصبان المجنونة

يصغّب الترام

تزئنه الأضواء الخضره

فى مياه البؤس اللزجة

حيث تطفو قطع الفل القديمة

بجانب قطع عجوز مية مسكينة

لكن طفولتكم تحميكم

من عالم حاقه لا يرحم

عالم أوبرفيه الحزين

حيث عمل أبائكم وامهاتكم

طويلا ، طويلا ،

كى يهربوا من الفقر

فقر العالم كله

ايها الوداعون يا أطفال أوبرفيه

ايها الوداعون ، يا أبناء الكادحين ايها

الوداعون

يا أطفال الفقر الوداعين

يا أطفال العالم كله الوداعين

ايها الوداعون

وعندما يتحدث لوى أرجون عن غزو المدينة

التي لازالت قائمة فهو يتنبأ بحركات شعبية

كبرى • حركات ثورية تحريرية •

تصحو باريس من سباتها ، وشعب الفجر

يهبط من أغوار الضواحي بغطى وثيد؛

كما لو كانوا يجهلون • ما يحركهم

وقد غسلت النسمات جباههم العريضة

التي لا لون لها •

كانت باريس اذن فكرة مستحدثة فى الشعر

الفرنسى ، الا انها أصبحت تشكّل ركناً أساسياً

فيه • وبعد أن قدمت باريس فى الشعر بتحفظ

وتردد وكمجرد اطار ، أول الأمر ، أدخلها بودلير

الى عالم الشعر الفرنسى لتصبح من بعد كيانا

مستقلا نابضا بالحياة • حتى انه ما من شاعر

لا يهتف مع أرجون اليوم : « انزعوا قلبى ،

تجدون باريس ا »

ها هي « أغنية باريس » المزدانة بنبات

الأضواء والأصوات والعمود ، لكن على الرغم من

كل ذلك نلمس تحت الأصباغ والمساحيق احساسا

بالعزلة القاتلة ، عزلة الانسان القاتل وسط كل

هذا الضجيج • والانسان هنا أكثر خوفا من انسان

فينى الذى يواجه الطبيعة الباردة ، كما انه أكثر

خوفا من انسان باسكال الذى يواجه اللا نهائى :

ها أنت تسير الآن فى باريس وحيدك

وسط الجوع

السيارات العامة من حولك قطع يغور

ها أنت تسير ومراة الهوى تخنقك

كما لو كنت لن تصبح محبوبا بعد اليوم

فعل الرغم مما يحوط بباريس من « صغب

ملحى » اذن ، تتصاعد نغمة شجنية ، نغمة

الضياع • فتبدو باريس كبابلون الحديثة ،

مدينة الشيطان ، مدينة ممزقة مؤرقة تسحق فى

اندفاعها الصائب «الأرواح الوديمة » وما هو بول

فيرلين يحدثنا عن « جحيم باريس » فيقول :

وتنسأب ، يانهر السين زاحفا كالتعبان

العجوز

وهذا الثعبان يرمز بطبيعة الحال الى الجحيم

« جحيم الملذات » التى تردد فى قصائده مارك

أورلان •

ولكن من الهلاك ينبثق الخلاص • ولنقرأ

قصيدة جاك بريفير « أطفال أوبرفيه » التى غنتها

المغنية الباريسية ذائعة الصيت جوليت جريكو :

يا أطفال أوبرفيه الوداعين

يا من تغمسون رؤوسكم

نظرة جديدة الى فن الشعر

هل يعتبر كتاب أرسطو في الشعر «البوطيقا»
Poetics عمداً من الأعمال الكلاسيكية ؟
لا ريب في أنه بو انكلاسيكي . او الكلاسيكية الجديدة
على اهل تصدير . فالبوطيقا كمتن ادبي سد
تمحض عن كثير من الكلاسيكيات . ولربما كان
حظها من الطبع والنشر يقف ما حظى به كتاب
يوناني اخر باستثناء الانجيل وجمهوريته
الاصغر ، لما ان الشروح التي قامت عليها شروح
لا حصر لها . وفند البوسليفا اول عمل نقدي في
مجال علم الجمال العام في الادب الغربي ، وان ثاب
الحكم عليها بهـمـة الذين صـرنا من الاحكام
التقريبية ، ذلك انه ينظر ان ينطبق عليها ما يتعلق
عليه هذه الايام علم الجمال الفلسفي . وبحري
هذا الكتاب قواعد ووصفات لعديد من المسرحيات
والقصص ، وان كانت اكثر هذه قواعد تداولاً -
واشهرها قاعدة وحدة الزمان والمكان والحدث
(الفعل) - لا وجود لها الى جانب كثير من قوانين
البناء الادبي الاخرى المنسوبة الى أرسطو .

ولقد تأثر معظم نقاد الغرب بهذا الكتاب ، سواء
بطريق الإيجاب أو السلب ، وظهرت مدارس
نقدية عدة في كل جيل من الاجيل تقول بانها
أرسطو طالية في مذهبها . بيد ان أغلب ما نادى
به هذه المدارس من مبادئ لم يرد بنصه في
الكتاب ، وانما استخلص منه او قرئ فيه ، وفقا
للأذواق المتغيرة للكلاسيكيين الجدد . وبالمثل
فقد هاجم أعداء الارسطوطالية هذا الكتاب لأمور
لم يقل بها أرسطو ، وكان هذا الهجوم ، في كثير
من الأحيان ، بسبب أفكار لم يكن في استطاعته
أبداً - في العصر والبيئة اللذين عاش فيهما -
أن يتنبه اليها ، ولربما وجدها مبهمة تماماً . لو
قدمت اليه .

ولقد ثارت أعنف المناقشات حول كل كلمة
من كلمات أرسطو في تعريفه الوجيز للتراجميديا

✽ فالأساسة ، التي ، هي محاكاة فعل نبيل
تام ، لها طول معلوم ، بلغة مزودة بالوان من
التزيين تختلف وفقاً لاختلاف الأجزاء ، وهذه
المحاكاة تتم بواسطة أشخاص يلعبون لا بواسطة
الحكاية وتثير الرحمة والخوف فتؤدي الى
التطهير من هذه الانفعالات .

« فن الشعر »

كينيث ووكسرون

ترجمه : حسين اللبoudy

✽ شئت أن أنقل هذا التعريف كما هو
من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بنوي إذ
هو مطابق للترجمة التي أخذ عنها صاحب
المقال .



تقويمه عن طريق التطبيق الصحيح للمبسادی،
الصحيحة سواء في الأخلاق Ethics أو
السياسة أو الإقتصاد ، وحتى أنطون الذي
طرد الشعراء من « جمهوريته » ولم يسمح في
« النواهي » Laws إلا بالمسرحيات الوطنية
الحساسة السعيدة التي يقوم العبيد بأدائها - كان
على درجة أكبر من الوعي بما تعنيه التراجيديات ،
وهذا هو سر تحريمه إياها .

لم يطرأ بهال أرسطو مطلقا ، أن كبار كتاب
التراجيديات : **اسخيلوس ، مسوفوكليس ،**
يوريپيدس ، يشكلون معا مدرسة فلسفية ، و
منهجا لديهم يتسم بتصور لا يعنى عليه بفساية
الحياة ومعناها . لقد كانوا يختلفون من الفلاسفة
المحترفين في أن « نظرتهم المساوية للعالم »
ليست خاضعة لتغير الأذواق ، بل أنها لتبقى
صادقة في كل زمان وكل مجتمع . والواقع أن
اسخيلوس ومسوفوكليس ويوريپيدس ليسوا
فلاسفة وإنما هم فنانون . ولكن أرسطو لا يعدهم
فنانين أيضا . وإنما يعتبرهم رجال صنعة
وحرفة .

والبويطيقا متن من المتون التي كتبت في حرفة
القصاص ، وبهذا الوصف فهي تنطبق على الروايات
التجارية التي تزخر بها صحف هذه الأيام أكثر
مما تنطبق على التراجيديات اليونانية . ولذا فقد
سميت بكتاب يسدى النصائح والوصفات لكتاب
القصاص البوليسية . وبالفعل ، فالروايات التي
تقترب من مواصفات ونصائح أرسطو هي اللون
الفالب على قصص رعاة البقر الذي تزخر به
المجلات الرخيصة . وهذا النوع من القصص
لا يستحق أن نستخف به أو نستهن ، فلقد
ارتفع **ارنست هايكوكس Earnest Haycox** و **يونج**
Gordon Young بقصص رعاة البقر الأمريكية

وحتى يومنا هذا لم يتفق مترجمان أو شارحان
على ما هذه التلميحات لها من معان . وإذا كانت
التراجيديات اليونانية عملية تفسير للاسطورة
فإن مقال أرسطو في تعريفه لها ، قد كان هو
ذاته ، أشبه بالاسطورة ، فقد قام بدور الاسطورة
بالنسبة الى النقد ، وأصبح موضوعا لعدد لا حصر
له من التفسيرات ، وهكذا تختلف قراءات
البويطيقا اختلافا بنا بين المذاهب الفلسفية
على تعددها - من وجوديه وماركسية وهيغيلية
وكانطية جديدة . وليس هناك من عمل نقدي
ظهر في الحضارات الهندية أو حضارات الشرق
الأقصى قد أثار من الأفكار مثلما أثار هذا
الكتاب .

ويرجع هذا الاثر الهائل للبويطيقا أول ما يرجع
الى ما كان يتمتع به اسم أرسطو من تبجيل
واجلال ، ويرجع في المقام الثاني الى أن البويطيقا
هي أول عمل نقدي جاد عن الادب ما زال باقيا
في الغرب ، وثالثا الى بساطته المتناهية ، وأن
كانت هذه البساطة ليست وضوح وتصناعة
التعبير عن مبادئ ، أساسية مفهومة فهما عميقا ،
بل على النقيض من ذلك تماما ، فليس ثم دليل في
البويطيقا يوحي بأن أرسطو كان متمتعا بآية
حساسية حيال مواطن الجمال في الشعر .
فالبرغم من أن البويطيقا تكاد تنصب انصبابا
كلها على مناقشة التراجيديات ، إلا أن ما نطلق عليه
بالاحساس التراجيديات بالحياة ، كان عند أرسطو
أقل بكثير مما عند أي فيلسوف آخر ، بل وأقل
مما كان لدى **Leibnitz** القائل بأنه
« ليس في الامكان ابداع مما كان » . لقد كان
أرسطو متغائلا ، ولم يخطر بباله الحكم الذي
أصدره ليبنتز على الإطلاق . فالعالم الذي تتألوه
بالدراسة كان عالما موجودا ببساطة ، لم يكن
بالعالم الأبدع فحسب . بل كان الوحيد الممكن ،
وليس هناك من شيء في الموقف الانساني لا يمكن



١ . برتون

لقد قيل ان كتاب اشعر رسالة في مدح سوفوكليس وهجوم على يوريبيدس ، كما قيل ان التراجيديا اليونانية الوحيدة التي تتفق والمواصفات التي نادى بها أرسطو هي مسرحية **سوفوكليس «أوديب الملك»** ، ورغم هذا فأوديب لا تتفق وجميع هذه المواصفات بل انها لتخرج على مواصفات أخرى أتت بكتاب الشعر . زد على هذا ، ان أرسطو يناقض نفسه فجأة في هذه الجملة البسيطة التي تقول ان **يوريبيدس** هو اكثر كتاب المسرح تراجيدية . كما يقول ان احسن التراجيديات تلك التي تنتهي نهائية سعيدة ، ان التركيز الأساسي في البوطيقا ينصب على الحبكة (أو العقدة) Plot بيد ان كثيرا من المسرحيات اليونانية الباقية مسرحيات بلا حبكة شأنها في هذا شأن مسرحيات تشيكوف .

أما الزعم الذي يقول بأن البطل التراجيدي يعاني ضعفا في شخصه النبيل . وهذا الضعف يسمى عادة بال Hubris أى الكبرياء وهو الذي يودى به الى هوانة الشقاء والتعاسة — هذا الزعم لا ظل له عند أرسطو على الإطلاق ، وليس عنصرا مشتركا في عقد أغلب ما تحت إيدئنا من مسرحيات . وهل تثير الغالبية من التراجيديات لدى المتفرج احساسا بالخوف ، أو الرعب والشفقة

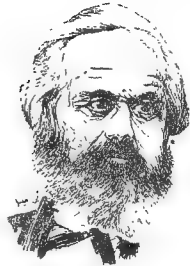
الى مستوى رفيع . وفي بعض الأعوام نجد أفلام رعاة البقر احسن بكثير من مثيلاتها من القصص السينمائية الأخرى الا ان مشكلة Hayek و Young تكمن في انهما كانا أرسطوطالين الى درجة التزمت . ولذا فقد انساقا وراء قوالب رتيبة متكررة .

ومن الصعوبة بمكان ان تصور أى لون آخر من القصص سواء اكان تمثيليا أو روائيا يمثل البوطيقا خير تمثيل غير هذا اللون لها . أما الكلاسيكية الجديدة في مسرح **مووني وراسمين** و **وين جونسون** فكانت كلاسيكية تحكمها قواعد أرسطو طالعية منتحلة Pseudo-Aristotalianism ابتدعها نقاد عصر النهضة الأوروبية .

ولو كنا على استعداد لتأويل البوطيقا ، وخلع ما شئنا من المعاني على مفاهيمها الرئيسية ، لأمكننا ان نجعلها معنى أى شيء ، ولأمكننا مثلا تطبيقها على رائعة **دستوفيسكي «الأخوة كارامازوف»** أو «محاكمة كافكا أو «ناديا «لأندره بويتون» . وهذا ما قد حدث بالفعل . وغير مثال يتناسب مع هذا الكتاب أكثر من غيره في أدب القصة الحديثة هو رائعة جويس «Ulysses» **يوليسيس** ولقد كان جويس يعرف هذا تماما ، وإن كانت رائعته تتدرج تحت كلاسيكية «أرسطو الجديدة» أى كانت أقرب الى **مووني** عما هي أقرب الى ما قال به أرسطو بالفعل .



هيجل



ماركس

التي نستطيع أن نستخلصها من هذا الكتاب تشابه والروايات التجارية التي نراها هذه الايام بسبب بسيط هو أنها اسقاط للذهن العادي ، الذي كان عندئذ مماثلا لما هو عليه هذه الايام . انها من هذا الضرب من المسرحيات التي كان بوسم أرسطو أن يكتبه لو توفرت له المواهب الواعية التي تتوفر لدى عامة الحرفيين ، لا عبقرية كمعبرة سوفوكليس وهي كذلك من هذا الضرب الذي يستطيع أن يكتبه أي باحث كفء ، سواء أكان فيلسوفا أكاديميا أو عالما في الطبيعة أو في علم الاحياء أو في علم النفس في أيامنا هذه .

لماذا إذن كتب أرسطو عن المأساة أصلا ؟ ان هذا يرجع الى ما كان لها من أهمية بالغة في المجتمع الذي كان يعيش فيه . فنحن نعلم أن مسرحيات يوريبديدس كانت تعرض عشية الحقبة المسيحية في أماكن نائية عن أثينا ، على مشارف حدود أفغانستان وعلى شواطئ إسبانيا ، لقد كانت التراجيديات هي الرياضة الشعبية عند اليونانيين ، مثلما كانت حلقات المصارعة والقتال رياضة الرومان المفضلة . وليس هناك من شك في أن التراجيديات أدت وظائف التربية الصحية الاجتماعية التي نسبها أرسطو إليها - وفي رأي الكثيرين أنها أدت هذه الوظائف على نفس النحو الذي قال أرسطو انها ستؤديها به ، ولكن غيرهم يرون أنها أدتها على أنحاء لم يكن في استطاعة أرسطو أن يصل الى فهمها .

وهل مشاهدة المتفرج للتراجيديات يظهره من أدران هذه الانفعالات التي لا تروق للجمهور ؟ من الجلي أن هذا لا ينطبق علينا . وعلى كل ، فلن يقيدها في شيء أن ندير لهذه الكلمات اليونانية من معان بعيدة .

ان ما يعنيه أرسطو بال Kathartisis هو نفس ما نعنيه نحن الآن عندما نقول Catharsis أي التنفيس أو التطهير . فلم يكن موقف أرسطو من الفنون موقف الذي يعتبرها أسما تعبير عن الإنسانية . وانما كان يرى أنها تستخدم كنوع من الدواء يقي العامة والفلاسفة من الانفعالات ، ومن ثم شر المواقف التي قد تغل بالتفكك الاجتماعي . فجماليات أرسطو جماليات طبية . والرأي الأخير الذي ينتهي اليه كتاب البوطيقا هو « ولسوف يشعر الحائزون والعاطفيون ومضطربو المواطن - بالتحسن ولسوف يستقيم سلوكهم بعد جلسة بكاء طويلة على مقاعد المسرح » . وهذا نوع من الجماليات يتفق وما يقول به اخصائيو الاطفال النفسانيون الذين يستأجرون لتبرير النزوات وجرائم القتل على شاشة التليفزيون . ولا توجد أية إشارة في كتاب أرسطو الى أن التراجيديات حقيقة .

لقد كان من الممكن أن تكتب البوطيقا دون تغيير أساسي لو لم يكن أرسطو قد رأى أية من التراجيديات اليونانية . والتراجيديات الخيالية

فرائس مارك

فنان

الرفضية السحرية

تأليفه مؤلف

لأن لتقنيات الذرة في نفسى
أثر يصنع دمار العالم كله .
ف . مارك



(وهي الشاعر الزرة لاسكرشولر) التي تعتبر خير مثال لشاعرية مارك واستعماله للون كأداة لاشباع الشكل .

الرمزية السحرية

كان اللون بالنسبة لمارك الينبوع الشعري الخصب الذي يستقي منه الخيال معينا لا ينضب وقد خصه مارك بدراسات متعددة وتناقش حوله كثيرا مع الفنان أوجست ماجه لدى كان يقوم بابحاث مشابهة في نفس الموضوع . . . والتقى الاثنان على رفض العودة الى الرمزية اللونية كما كانت تصورها العصور الوسطى . . . وضرورة اكتشاف الطريق « للرمزية السحرية » . . . التي لا تخص كل لون بصفة معينة وإنما تحاول أن توضح أين يقف هذا اللون أو ذاك من الارتباطات العقلية والروحية في الحياة والكون . . . والمقصود بهذا هو علم الألوان الرمزي الذي يسمح مثلا برسم فرس أزرق . . . وقد أصبح الفرس الأزرق بالفعل شعار مجبوة الفنانين التي كان يتزعمها الفنان كاندنسكي تحت اسم «الفارس الأزرق» . . . كما أن لمارك نفسه لوحة باسم « برج أخيون الزرقاء » رسمها سنة ١٩١٢ تعتبر من أقوى وأروع أعماله بفضل الجلال الذي أسبغ على أشكالها وقوة خياله في توزيع الألوان . . . ويعبر مارك في رسالة له في ديسمبر سنة ١٩١٠ عن رأيه في التأثيرات النفسية للألوان بأنه يعبد أولا الى تدوين ملاحظاته فيما يتعلق بمزج الألوان ثم يدرس التأثير النفسي لكل منها . . . ولكن علينا أن نحافظ في تطبيق طريقة تنسأله للرموز تطبيقا حريفا على أعماله . . . ويكفي أن نعتبر هذه الرسالة مؤشرا نحو الاتجاه الذي سارت فيه أبحاثه في سنة ١٩١٣ - أي قبل أقل من عام من نشوب الحرب التي لقي فيها حتفه في موقعة فردان سنة ١٩١٦ . . .

النزعة الى التجريد

وعلم الألوان الرمزي هذا ليس الا وجهها آخر من نزعة فرانس مارك الى التجريد . . . وهذه النزعة التي أخذت تدفع به الى استعمال تركيبات لونية شديدة الجراءة . . . وقد كانت محاولات كاندنسكي في هذا المجال قبل ذلك بسنوات خير

كان فرانس مارك في الفترة المبكرة من افاتجه بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ يرى في الفن النافذة التي يطل منها على أحلامه وسبيله الى الخلاص . . .

يقول في رسالة لأحد أصدقائه كتبها سنة ١٩٠٦ :

« اننى أنتظر من فن الرسم أن يعرودنى من الخوف الذى يملكنى . . . »

ويبدو أن الفن قد حقق له بغيته . فهو يقول في رسالة أخرى كتبها بعد تلك بعام :

« اننى الآن لا أرى الا أكثر الأشياء بساطة . . . ففيها وحدها يتمثل ما فى الطبيعة من عظمة ورمزية وأسرار . . . »

بهذا يسير مارك في نفس اتجاه الرومانتيكية الألمانية التي تبحث عن الكل في أبسط الأشياء . . . انه يتجه الى الغاية فيرى فيها ميدان سحر ومبعث الإلهام . . . وموطن الفوضى والسحر الذى يحيا فيه عالم الحسبون . . . وهو يعبر عن نظريته هذه بقوله :

« كنت منذ شبابي أرى القبح ماثلا في الانسان . . . بينما كان الحيوان يميل الى الجمال واننى

ولكن هذه النظرة الجمالية لم تكن وحدها سبب هذا الاتجاه للغاية وسدنها . . . بل يمكن أن يقال انه وجد أن الحيوان لا يزال محتفظا بتلك الخواص الأولية والعضوية التي حال العقل بين الانسان وبين الاحتفاظ بها . . . فقد كان هدف مارك أن يصور ما تمتع به الحيوان من صفات النقاء والقداسة . التي احتفظت بها كائنات الغاية لأنها لم تعرف الذنب ولم تدنسها الخطيئة . . . رأى مارك الطريق لنقل هذه الصفات الى الفن في العودة الى الأشكال الكبيرة الواضحة مثل الفرس والرنة والثور . . . لما تتميز به من ديناميكية أصيلة . . . كما أصبح صفات القداسة والطهارة على النبات أيضا . . . بل وأدرك فيها نوعا من التجانس الروسى والكيان المشترك حتى كان يرى الكل متجسدا في كل وحدة من وحدات الطبيعة . . . وهي نفس نظرة الرومانتيكية الألمانية كما سبق أن أشرنا . . . بهذا يصبح فن الرسم هو أداة التعبير عن هذه الوحدة التي حاول مارك اظهارها في لوحاته بمزج أشكال من الحيوان والنبات . . . كما في لوحته « الحيوان والقدس » سنة ١٩١٣ و « الفزال في الغابة » سنة ١٩١٤ . . . وكذلك في سلسلة اللوحات الموجهة « للأمير يوسف »

مدرسة لفنانى « الفارس الأزرق » ٠ حتى ان كثيرين منهم اتخذوا منه مثلاً أعلى لهم ٠٠ أما مارك فقد كان بجانب ذلك متأثراً كل التأثر بدلوئى ٠ وكان له مكانة البارز فى جماعة التجريديين التى كانت ذات نشاط وفعالية فى ذلك الحين ٠

اللون والزمن

وبمقارنة الاحساس بالكون عند مارك وعند كاندنسكى نجد أن فن الرسم يصبح عندهما نوعاً من الشفافية ٠٠ بل مجرد احتراز وتداخل بين بعض الألوان وبعضها الآخر ٠٠ وهذا ما كان يعنيه مارك بقوله ان كل ما يحدث ليس الا تحولاً أو تفاعلاً بين اللون والزمن ٠

وإذا كان مارك قد تأثر بتقديم الفكر الفنى أقل بكثير من كاندنسكى - الذى هزه مبدأ تحليل المادة وأولى محاولات تفتيت الذرة هزاً عنيفاً - فذلك لأنه كان يجد فى هذا التطور الطبيعى المحتوم الذى يماثل خطوات تطوره هو فى مجال الفن ٠٠ وأعماله الأخيرة التى أنجزها فى سنَى الحرب العالمية الأولى تمثل مرحلة تطور لها ما يقابلها فى التطور العلمى ٠

فالشكل الواضح يتوارى لتأخذ مكانه خطوط مجردة ليست بحال خطوطه الواقعية وان كانت فى الوقت ذاته تخضع لتيار حركة متواترة ومنظمة ٠٠ وأسماء لوحات هذه الفترة تدل على أن الحيوان وإن لم يكن قد اختفى تماماً من أعماله قد تحول الى نوع سام من المخلوقات ٠٠ فهو لا يظهر فى هذه اللوحات ككائن ذى أبعاد ثلاثة ، بل كقوة مجردة ، كما نرى فى لوحة « ترسانة لعالم جديد » أو « اللوحة الساحرة » أو « حياة نباتية » ٠٠ أما سحر الغابة وروعها فيظهران فى صورة أكثر شفافية وبعداً عن المادة ٠٠ وكل هذا

يدعونا الى التحسر على قمم الروحانية والابداع التى كان يمكن أن يصل إليها هذا الفنان الموهوب لو لم يرحل من عالمنا وهو دون السادسة والثلاثين من عمره ٠٠

وقد حاول مارك فى كتاب له يسمى «تخطيطات الجبهة» أن يبسط رسم الحيوان الى خطوط يمكن التعرف فيها عليه ، كما يأخذ فيها الحيوان ذلك الطابع المطلق غير المحدد الذى ينقل إلينا رائحة الغابة ويذكرنا بها ٠٠ وقد استمر مارك فى السير فى هذا الاتجاه حتى وصل الى درجة أصبح فيها الشكل مجرد نسمة عابرة ليس لها أى ارتباط بأصلها المادى ٠٠ وقد فعل مارك ذلك عن عمد ٠٠ وعبر عن هدفه من ذلك بقوله :

« يجب على الأشياء أن تصبح خالية من كل مقاومة تماماً مثل الأثر. ٠٠ »

وعندئذ تتحول الى مجرد قوة أو مادة روحية يكون منها العقل أشكالاً مختلفة ذات إبداعات مستمدة من أسمائها ٠٠ ويعترف مارك فى تلك الفترة بأنه قد تحول بفعل قوة غريزية من الحيوان الى التجريد ٠٠ ومع ذلك فقد بقي التجريد عنده كما كان عند كاندنسكى متحرراً من سيطرة العقل ، بل واعتبر أن تحرير الكائنات من الشكل المطلق المألوف يخلصها من ذلك السجن المادى ويجعل منها قوة مفتوحة على كل التيسارات ٠٠ وكان ذلك فى نظره هو الطريق الى التغلب على غموض المادة ٠٠ وقد عبر كاندنسكى عن هذه التغيرات بقوله :

« كان لتفتيت الذرة فى نفسى

أثر يضارع دمار العالم بأكمله ٠٠

ورأيت أعظم الأسوار تنهار فجأة ٠٠

وأصبح كل شيء فى نظرى مهتزاً ٠٠

ضعيفاً ٠٠ مضطرباً ٠٠ لم يكن ٠٠

ليدهشني في ذلك الوقت أن أدى جسرا
يلتوب أمامي في الهواء ويختفي عن عيني .. »

لفظ الطبيعة

لو تتبعنا تطور مارك الفني لوجدناه يتجه شيئا فشيئا الى اعتبار الطبيعة لفظا يحاول فهمه والتعرب اليه والنفاذ الى سره .. ولعلنا لا ننسى أنه كان يريد في البداية أن يصبح من رجال الدين .. ولقد وجد في الرسم وسيلة أخرى للاتصال بالقوى الالهية .. وحاول أن يجسد في لوحاته هذه القوى غير الملموسة وغير المنظورة ..

هذه المحاولات التي بذلها فرانس مارك « لتحويل غير المنظور الى منظور » - والتي تعتبر الباعث الحثيث للفن الخيالي عامة - تأخذ في فنه معنى أعمق وأكثر أصالة .. ولكن هذا التطور الذي صرفه عن الشكل ووجهه الى خدمة التعبير عن القوى غير المنظورة وتجسيدها والبحث عن الشفافية الكاملة فيها أدى الى خطر كبير أصبح يهدد الشكل .. فقد أعقبت المرحلة الطبيعية عنده مرحلة بنائية تحليلية (أي إعادة اكتشاف الخطوط

الأساسية) ثم تلتها مرحلة الشعر في اللون كان يمكن أن يصل اليها هذا الفنان الموهوب لو فرحلة اشباع الشكل بواسطة اللون : هكذا نعمت كل ما كان يحوط بالشكل ويشمله وأصبح اللون صاحب السيطرة بما يضيفه على الأشياء من رقة وشفافية .. هذا المظهر الذي تلبس فيه الغاية وقد تجرد من كل ماديتها .. وأصبح سكانها كائنات نورانية مشبعة أو قوى مادية أولية التركيب .. في مثل هذا المكان وجد فرانس مارك الاستقرار الذي بحث عنه طويلا .. وكان قد وصل في هذه المرحلة الى معرفة « المادة المتخيلة » كما وصل الى الاقتناع بضرورة اضفاء جسم نوراني عليها .. وبذلك احتفظ مارك بالشكل وأمن على الطبيعة وعلمنا من التحلل والاضمحلال ..

والغاية في لوحات مارك توحى دائما بانطباع المكان المقدس البعيد عن قوى الشر .. انها خالية

من الطابع الريفي على الرغم من وجود الحيوان فيها .. وأرواح الحيوانات على درجة كبيرة من النقاء والسمو .. ومع ذلك فهو لا يراها في تلك الصورة فوق الواقعية وإنما يحاول أن ينفذ ببصره الى نقطة الانطلاق بالنسبة للحيوان ذاته .. أي تلك النقطة التي يرى منها الحيوان نفسه ويتعرف منها على العالم المحيط به ..

ولكن حتى ينجح هذا الانتقال وهذا التوغل المادي والمعنوي داخل نفس الحيوان ينبغي على الانسان أن يعرف الطبيعة الحيوانية تماما ويدرسها بدقة وعناية .. وقد جاءت دراسة مارك التحليلية بلسم الحيوان وحركته بين عامي ١٩٠٤ و ١٩١٠ بدافع من هذا الاقتناع حتى وصل في النهاية الى درجة عالية من الكفاءة والدقة .. وبعد أن وصل الى هذه الدرجة من المعرفة العلمية أصبح في استطاعته أن يتجه الى تطوير معرفته الداخلية وأصبح من الممكن تحقيق حلمه في أن يتحد مع الطبيعة ويصبحا كيانا واحدا .. ولكنه لم يقف عند هذا الحد .. فكانت الخطوة التالية هي محاولة الوصول للمادة الى الشفافية .. حتى لا تكون ماديتها عائقا في وجه هذا التوغل العاطفي .. واستمر فرانس مارك في سعيه الى الغناء في روعة الخليفة والاتحاد بالروح الالهية التي تشمل الغاية وساكنها .. متتبعا التحليل الهندسي للكائنات - ربما تحت تأثير الهندسية - سائرا بالشكل الى تركيباته الأصلية ..

ولكن ماذا كان يعني مارك بقوله ان هدفه هو رسم الفرس أو الغابة كما هما في حقيقتهما ..

حما لا شك فيه أن هناك ثلاثة أنواع من الحقيقة هناك الحقيقة التي تنبعث من الإرادة ، والحقيقة التي تريف بحواسنا وهناك أخيرا الحقيقة كذات مستقلة .. هذه الحقيقة السحرية .. الألية المرتبطة بسر الكون .. هي التي عاش لها فرانس مارك وقضى كل دقيقة من عمره القصير في خدمتها ..

ماجدة جوهري

النتائج الاجتماعية لثورة التكنولوجيا

يمكننا أن نلاحظ بعضاً من أبرز السمات المميزة للثورة العلمية والتكنولوجية ، كما وكيفا ، عندما نقارن هذه الثورة بتطور العلم والتكنولوجيا في الماضي .

واعلم ، سمات الكيفية المميزة لهذه الثورة هي أن هذه أول مرة في التاريخ تحدث فيها على وجه التحديد ثورة علمية وتكنولوجية . وليس المقصود بهذا مجرد الاتفاق في الزمن بين اشورين العلمية والتكنولوجية ، إذ إن مثل هذا الاتفاق قد حدث في الماضي . أما الذي لم يحدث فهو تلك العلاقة المتبادلة الوثيقة والاعتماد المتبادل العميق بين التطور الحالي لكل من العلم والتكنولوجيا .

هذه العلاقات ذات شقين . فهي ، من ناحية ، تنجلي في أن كل الاجازات الكبرى التي حققها التكنولوجيا الحاضرة تقوم على كشف أساسية وثورية تمت في العلوم الطبيعية ، حيث يتسع باطراد مجال الموضوعات العلمية التي تجد تطبيقاً تكتيكياً ، ويقل الوقت اللازم للتطبيق التكتيكي للكشوف العلمية . والواقع أن العلم يقوم اليوم بتهيئة الأرض لمزيد من التطور التوسعي للتكنولوجيا ، وبشكل طرقاً جديدة لتقديم التكنولوجيا . ويمكن التعبير عن ارتفاع معدل تطور العلم بالنسبة الى تطور التكنولوجيا والانتساج ، من حيث هو سمة مميزة للثورة العلمية والتكنولوجية ، يمكن التعبير عن هذا

ف . ماركوف ، ي . المشتينكو
ترجمة : زكريا فهمي

● إن الثورة العلمية والتكنولوجية تمثل انتقالاً هاماً إلى مستوى جديد للحرية ، بمعنى الضرورة التي يتحكم فيها الإنسان وسيطر عليها ، على أنه الإنسان لا يزال حتى الآن غير حر في مواجهة كثير من النتائج الاجتماعية المترتبة على الثورة العلمية والتكنولوجية



ف . لينين

الفصل الثاني «.. فيدون عدد كبير من المنشآت الحديثة، كمججلات البروتونات والسيكلوترونات، والمفاعلات النووية، وغيرها، لا يمكن تطوير فيزياء الجسيمات الأولية، والفيزياء النووية، إلخ. والتجربة العلمية لا تقوم فقط على استخدام منشآت ضخمة ومعقدة، وهي منشآت لم تصبح أقامتها ممكنة إلا في المرحلة العالية للتطور الصناعي؛ بل تقوم أيضا على الصناعة. والواقع أن الحدود التي لا تستطيع المعامل أن تتعداها تقيد التجربة العلمية في حالات متزايدة العدد، ومن ثم فهي تحتاج في هذه الحالات إلى أن تجري على نطاق الصناعة، بل على نطاق الكون بأسره. وهكذا فعلى الرغم من أن العلم في تقدمه القوي السريع يسبق التكنولوجيا والانسان، فإنه أيضا يظل خاضعا في تطوره للسيطرة المباشرة لقتضيات الإنتاج والتكنولوجيا ويمكن التعبير رمزيا عن الدور الحاسم للإنتاج والتكنولوجيا بالنسبة إلى العلم على النحو التالي:

$$\left(\begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} < \begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} \right) \quad \left(\begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} < \begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} \right) \quad \text{حيث:}$$

تمثل الصفة الكمية للإنتاج، $\text{ت} = 1$ للتكنولوجيا، $\text{ز} = \text{العلم}$ ، $\text{و} = \text{الزمن}$ ، $\text{وت} = \text{التطور}$.

وقد يبدو أن هذه الصيغة تنفي الصيغة التي سبق ذكرها والتي قدمها «ج. دوبروف» ولكلها في الواقع لا ينفيان بعضهما البعض. فعلى حين أن الصيغة الأولى تكشف أن العامل الروحي متقدم على العوامل المادية، وأن الجانب

بالصفة التالية التي افترحها العالم السوفيتي

$$\left(\begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} < \begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} \right) \quad \left(\begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} < \begin{array}{l} \text{ت} \\ \text{ز} \end{array} \right) \quad \text{«ج. دوبروف» G. Dobrov}$$

حيث الرموز تبين صفات كمية هي: $\text{ت} = \text{تطور}$ ، $\text{ع} = \text{علم}$ ، $\text{ك} = \text{تكنولوجيا}$ ، $\text{ا} = \text{إنتاج}$ ، $\text{و} = \text{الزمن}$. على أن هذه الصيغة لا تحتوي إلا على جانب واحد من جوانب السمات المعيزة للثورة العلمية والتكنولوجية.

أما من الناحية الأخرى، فإن الروابط بين العلم والتكنولوجيا تجعل في أن التقدم العلمي يقوم على أساس القاعدة التكنولوجية للصناعة الآلات المعاصرة. وقد أشار «لينين» إلى أن «صناعة الآلات على نطاق واسع هي وحدها التي تؤدي إلى تغير جذري، وتضرب بالمهارة اليدوية عرض الحائط، وتحول الإنتاج على أسس علمية جديدة، وتطبق على نحو منظم المعطيات العلمية على الإنتاج».

وإذا لم نضع في اعتبارنا الدور الذي تلعبه صناعة الآلات وكذلك التسيير الذاتي (الأوتوميشن) للإنتاج وكهرته في التقدم الاجتماعي، فلن نفهم جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية، التي تولف التحولات الجذرية في العلم نفسه جزءا لا يتجزأ منها. والواقع أن من المهم بصفة خاصة أن نضع هذه النقطة في اعتبارنا، لأن التقدم الحديث يتميز بتصنيع العلم، حيث يتحول عمل العلماء، على نحو يزداد شيوعا باطراد، إلى «صور مختلفة من العمل

أما في المجال التكنولوجي ، فادن التغيرات الجذرية تشمل كل فروع وجوانبه ، وتميز بالآتي . (أ) تحول جذري في الأساس لمادى للأجهزة والأنظمة الفنية المرتبطة باستغلال مواد جديدة كل الجودة أو أحداث تغيير عميق في خواص المواد التقليدية ، (ب) واستغلال مصادر جديدة للطاقة ، وكذلك عمليات وأشكال جديدة لحركة المادة ، (ج) وتغير كيمي في عناصر وبناء الأنظمة التكنولوجية المرتبطة بإيجاد تكنولوجيا خالية من الآلات ، وإبتكار واستغلال أجهزة تحكمية وقياسية ، (د) وتغيرات جذرية في الوظائف التي تؤديها الآلات : تشمل ادخال نظام التسيير الذاتي (الأتوميشن) وتحويل الوظائف ذات الطابع العقلي ، بدرجة تزداد دوما ، الى عمليات آلية .

ان الثورة العلمية والتكنولوجية قد شملت فعلا جميع المجالات الرئيسية للحياة الاجتماعية - كالإنتاج ، والنقل ووسائل الإعلام والمواصلات ، وصحة الناس وظروف معيشتهم ، وهي تقوم ، ناشطه ، باقتحام مجال الثقافة ، الفن ، الخ . على أنها أحدثت ، في المقام الأول ، تغيرات جذرية في طبيعة ، ومعدلات ، واتجاهات تطور العنصرين المكونين لها ، وهما العلم والتكنولوجيا .

ولقد حدثت ، في العشرين أو الثلاثين سنة الماضية ، طفره كيمي في تغير الطفرة العلمية الكاملة للمجتمع . هذه الطفرة لا تتجلى فقط في الارتفاع المفرد في عدد الباحثين العلميين ، والمهندسين ، الزراعيين ، الخ ، بل تتجلى أيضا في العلاقة المتغيرة بوضوح بين العنات السابقة الذكر وبقيّة المستغلين في الإنتاج . فعلى حين أن عدد الباحثين العلميين في الاتحاد السوفيتي قد زاد في الفترة من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٥٠ من ١٨٣٠٠ الى ١٦٢٥٠٠ شخص ، أى أقل من الضعف ، فإن عددهم خلال العقد التالي تضاعف أكثر من مرتين ، حيث وصل الى ٣٥٤٢٠٠ شخص . أما التضاعف التالي في عدد الباحثين العلميين فقد تم فعلا في ظرف ست سنوات ، فوصل بحلول عام ١٩٦٦ الى ٧١٤٢٠٠ شخص . ومن الصعب أن نتنبأ الى أى زمن سوف يستمر هذا المعدل الذي يزيد به عدد الباحثين العلميين . على أن من الواضح أن هذه الزيادة لا يمكن أن تستمر ، والا لتعين أن تضاعف عدد العلماء في خلال فترات تزداد قصرا بإطراد ، مما يؤدي ، سريعا ، الى استيعاب جميع سكان الدولة في مجال الأنشطة العلمية .

الروحي مرتبط بالوظيفة المنتجة البناءة التي يقوم بها العقل الذي لا يفكر فقط في العالم ، بل « يبدعه أيضا على نحو مثالي » . شأن الصيغة الثانية تكشف الدور الحاسم الذي تلعبه العوامل المادية (الإنتاج والتكنولوجيا) بالنسبة الى المعامل الروحي (العلم) . فكلا الصيغتين صحيح في آن واحد وفي نفس الوقت ، وإنما هما يكشفان فقط عن جوانب مختلفة لتفاعل العوامل المادية والروحية . أما استبعاد كل من الصيغتين للأخرى فهو أمر ظاهري فحسب

والواقع ان الاعتراف بأن هذه المفارقة صحيحة هو أمر له أهمية في تشكيل التقدم العلمي والتكنولوجي وفي فهم جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية .

ومن البديهي أن عملية التفاعل بين العلم والتكنولوجيا لا تحدث على نحو منعزل ، بحيث تكون بمنأى عن تأثير العوامل الاجتماعية الأخرى . بل هي تخضع لتأثير النظام الاجتماعي ، والدوافع الاقتصادية ، والحروب ، الخ . على أن من المسلم به أن العمليات الثورية التي تحدث اليوم في العلم والتكنولوجيا متداخلة وتؤلف عملية واحدة تعرف باسم الثورة العلمية والتكنولوجية .

هذه الثورة عملية عامة يسهم فيها ، على نحو أو آخر ، نظام العلم والتكنولوجيا بأسره . ومن الأوفق أن نمنع النظر في هذه الخاصية عن طريق بحث عنصرها المكونين ، أعني بحث العلم والتكنولوجيا كل على حده ، لأنه على الرغم من وحدة تطورهما الثوري الراهن ، فإن تغيراتهما الكيفية ذات طابع مميز .

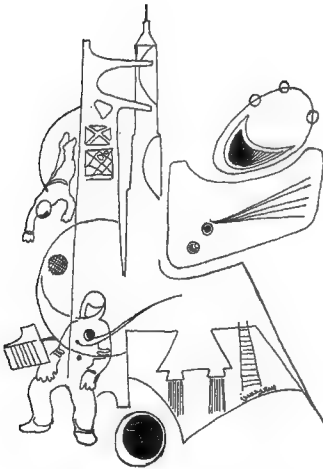
فبالنسبة الى العلم ، يتجلى هذا الطابع في الأمور التالية : (أ) تتجدد مستمر لوقائع والمعلومات التي تتألف منها مادة العلم ، (ب) واقتحام مجالات جديدة كل الجودة ، والكشف عن قوانين الطبيعة ، والوعي بالجنس على مستويات جديدة للمعرفة ، (ج) وتغيرات جذرية في منهجية البحث العلمي تتعلق باستخدام الأساليب الرياضية والسيرنطيقية على نطاق واسع ، (د) وتضاعف معدل عمليات تفاضل وتكامل العلم ، وإقامة نظام موحد للمعرفة العلمية ، (هـ) وتوسيع العلم ، وتغير قاعدته التكنولوجية . وهكذا ، فإن الثورة العلمية والتكنولوجية الحالية تشمل كل جوانب العلم ، وهذا ما يحدث فعلا في كل فروع المعرفة العلمية .

والتقدم العلمى والتكنولوجى يؤدى الى اختفاء بعض المهن وظهور مهن جديدة . فقد تميزت العقود الزمنية التى تلت الحرب بزيادة كبيرة فى عدد التخصصين فى السيرى نطيقاءوالصناعات الدرية ، وتصميم ونتاج أجهزة الفضاء ، وصناعة الصواريخ ، ومولدات الاشعاع المغنطيسى الكهريى ، الخ . وقد أدى التسيير الدانى للانساج ، وحده ، الى ظهور أكثر من عشرين تخصص جديد . كل ذلك سبب زيادة لم يسبق لها متيل فى الحاجة الى الافراد العلميين والفنيين .

وقد أدت الثورة العلمية والتكنولوجية الى وعى عميق بالدور المتزايد الذى يلعبه العلم فى المجتمع ، فارتفع بذلك توجيه العلم وتعليم الافراد العلميين الى مستوى سياسة الدولة . وفى هذا الصدد قال رئيس اكاديمية العلوم السوفيتية : **ان العلم يتحول فى ارجحة العلم الى جانب من جوانب نشاط الدولة . وهذه هى السمة الجديدة التى اكنهل ظهورها بعد الحرب العالمية الثانية . .** وعلى حين أن الاقتصاد السوفيتى كان الدولة الاولى التى ظهر فيها تنظيم الدولة للعلم ، فإن جميع الدول حدث حذوه تدريجيا ، ليس فقط الدول الاشتراكية ، بل أيضا الدول الرأسمالية المتطورة .»

ومما له دلالة ان احتياجات الثورة العلمية والتكنولوجية من المشتغلين بالأعمال الذهنية تواجه فى ظل النظام الرأسمالى على نحو متناقض . فالدول الرأسمالية تعمل ، من ناحية . على الاسراع بتكوين رصيد من الخبراء من بين أبنائها ، وتقوم ، من ناحية أخرى ، باستغلال موارد الثورة العقلية للدول الأخرى . وقد أصبحت الولايات المتحدة مقرا لشكل غريب من أشكال الاستعمار فى مجال التقدم العلمى والتكنولوجى - ففى الفترة من عام ١٩٦٢ الى عام ١٩٦٤ وحدها ، هاجر الى الولايات المتحدة من أوروبا الغربية ٦٥٢٩ مهندسا وباحثا علميا ، منهم ٢٦٦٩ من بريطانيا ، و ١١٣٠ من ألمانيا الاتحادية ، و ٣٩٨ من سويسرا ، الخ .

وتوضح البيانات فىم الكاملة ان ٥٠٪ من العلماء والمهندسين المستخدمين حاليا فى الولايات المتحدة ، و ١٧٪ من أعضاء أكاديمية العلوم القومية الأمريكية ، تلقوا تعليمهم خارج الولايات المتحدة . ولم تلاحظ « هجرة للمقول » على هذا النطاق من أوروبا الى الولايات المتحدة الا خلال الحكم النازى فى ألمانيا .



الهندسية في الاتحاد السوفيتي ، فقد أصبح يوجد في هذا البلد بحلول عام ١٩٦٧ ، حوالي ٥٠٠.٠٠٠ خط تحويل مجهز بالمعدات الميكانيكية وذاتي التسيير ، كما أن ما يربو على ٦٠٠.٠٠٠ خط من هذه الخطوط يجري إنشاؤها سنويا . ويجري ، في نفس الوقت ، إدخال تحسينات على حوالي ١٠٪ من الخطوط العاملة لتتشي مع مقتضيات العمليات التكنولوجية الحديثة في الإنتاج .

والواقع أن توافق الناس مع الظروف الجديدة التي نعرضها الثورة العلمية والتكنولوجية - وأعني بها ميكنة الإنتاج وتسييره ذاتيا - عمل هام . هذا العمل يؤدي في الاتحاد السوفيتي على أساس خطط التنمية الاقتصادية التي تضمها الدولة ، والتي تقضي بتعليم أخصائيين جدد عن طريق نظام المؤسسات التعليمية العليا والثانوية ، وتوسيع نطاق التعليم الفني النوع في المدارس ، والتدريب المهني ، إلخ . ومن العوامل الرئيسية في نجاح هذا العمل ، وضع خطة تطوير اجتماعي للأفراد العاملين في كل مشروع على حدة . هذا التخطيط يحدد الشروط اللازمة لإزالة الفروق الضخمة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية (ميكنة العمليات المستنفدة للجهد ، واستبعاد العمل اليدوي الشاق ، وتحسين التدريب الفني والتعليم العام ، إلخ) . وهذا يجعل في الأمكان مراعاة خصائص التقدم الفني في كل مشروع على حدة . وقد وضعت بالفعل خطط للتطوير الاجتماعي ، ويجري تطبيقها في عدد كبير من المشروعات القائمة في أرجاء الاتحاد السوفيتي .

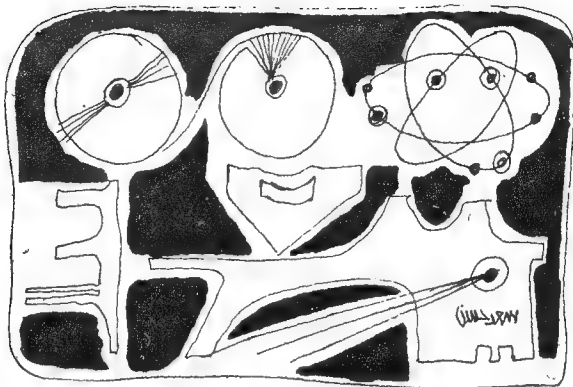
لقد أصبحت نظرية « الثورة الصناعية الثانية » واسعة الانتشار بين الأيديولوجيين الغربيين في الخمسينات من هذا القرن . وزعم هذه النظرية أن الثورة العلمية والتكنولوجية تقوم ، تلقائيا ، بتحويل الرأسمالية إلى مجتمع جديد خال من تناقضاته السابقة ، وتؤدي إلى خلق حضارة جديدة فعلا ، يعتقد « هيربرت ماركيسوز » أن الثورة التكنولوجية ، باستغنائها عن العمل المسير بالآلات والقوى البشرية والاستعاضة عنه بالعمل المسير ذاتيا ، تؤدي حتما إلى « قلب المجتمع بأكمله » ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حضارة جديدة . كذلك فأن نظرية « المجتمع السفلي الواحد » (ر . آرثون R. Aron ، و . و . روستو

وهكذا ، فإن استغلال موارد إحدى الدول بواسطة دولة أخرى تخضع للنظام الرأسمالي يؤدي أيضا إلى صور جديدة من التناقضات الاجتماعية . وقد لاحظ لينين ذلك عندما كتب من تطور المجتمع البورجوازي في ظل التقدم التكنولوجي ، فقال : « أن هذا التقدم ، شأنه شأن التقدم الذي تعرضه الرأسمالية في كل ميدان آخر ، يكون مصحوبا ، بتقدم ، التناقضات . أعني رسوخها واتساعها » .

أما في ظل النظام الاشتراكي فإن الاقتصاد المخطط يراعي التحكم في التغير التي تحدث في نمط الأفراد المشتغلين بالعمل والتكنولوجيا بحيث يكون من مهام هذا الاقتصاد المخطط الاستفادة على أحسن وجه من الزايا التي تتفوق بها الاشتراكية على الرأسمالية .

إن بناء العناصر الدائمة المكونة للقوى المنتجة بتغير بفعل الثورة العلمية والتكنولوجية ، أعني أن هناك تغييرا في التركيب الاجتماعي للأفراد المرتبطين بالإنتاج ، كما أن هناك ، كما رأينا ، زيادة مطلقة ونسبية في عدد المشتغلين بالأعمال الذهنية في مجال الإنتاج (من علماء ، ومهندسين ، وفنيين ، وفزارعين ، وخبراء في تربية الحيوان ، إلخ) . وهكذا نجد ، في الاقتصاد القرومي السوفيتي ، أن عدد العاملين المشتغلين أساسا بالعمل الذهني قد ارتفع من ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ في عام ١٩٢٦ ، إلى ١.٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ في عام ١٩٦٩ ، فألى ٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ في عام ١٩٥٩ ، ثم إلى ٢.٧٠٠.٠٠٠.٠٠٠ شخص في عام ١٩٦٧ . كذلك حدث تغير واضح في النسبة بين المهندسين وغيرهم من الأفراد الفنيين من ناحية ، وبين العمال من ناحية أخرى ، حيث تزايدت نسبة الفئة الأولى . كما أن عدد العاملين في حرف جديدة تقتضي مهارة عالية يزداد باستمرار . هذا فضلا عن أن مستوى التعليم العام للطبقة العاملة يرتفع باطراد .

إن التغيير في القاعدة التكنيكية للإنتاج ، وفي طبيعة العمال ، والمهارة الحرفية ، إلخ ، شرط ضروري لإزالة الفروق الضخمة الموجودة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية ، والناتجة عن التسيير الذاتي للإنتاج . فعلى حين أنه لم يكن يوجد في سنوات ما قبل الحرب البضعة خطوط تحويل ذاتية (أوتوماتيكية) وشبه ذاتية في فروع معدودة من فروع الصناعة



ان « I. Dvorkin ديفوركين » يرى أن الثورة الصناعية تدل على انقلاب في علاقات الإنتاج ، على حين أن التكنولوجيا الجديدة ليست الا شرطا ضروريا واساسا لهذا الانقلاب .

كذلك تعرض الثورة الصناعية في المؤلفات الشائعة على انها آخر مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية ، والمقصود بذلك الحالة التي يبدأ فيها الانتاج المسير ذاتيا في الطول ، كفيما ، محل الانتاج المصنعي المسير بالالات . وتؤكد هذه المؤلفات في نفس الوقت أن الانقلاب العلمي والتكنولوجي سوف يتبعه انقلاب انتاجي مقترن بانفصام على أكبر درجة من العمق للعلاقات الاجتماعية في الانتاج ، كذلك سوف يتبعه اندماج نهائي لمختلف الأفراد الذين يسهمون في الانتاج ، واستبعاد لكل العمال غير المهرة ، واقامة مساواة اجتماعية كاملة لجميع أفراد المجتمع .

وثمة رأى آخر يقدم على أساس أن الثورة العلمية والتكنولوجية هي ، في نفس الوقت ، ثورة صناعية . وعلى الرغم من أن هذه المفاهيم

W. Rostow ، وآخرون) تقترب من هذا الرأى . هذه النظرية يلجأ اليها للتدليل على وجود تقارب بل « وحدة في الاتجاه » بين الرأسمالية والاشتراكية . ويمكن المشور على وجهات نظر مشابهة في مؤلفات « جان فوراستيه » Jean Fourasté . وهو عالم اقتصاد فرنسي يزعم أن « الدول الشرقية والدول القريبة تبني نفس البيت » .

هذه المفاهيم التي انتقدها بتفصيل عدد من الباحثين الماركسيين تنظر الى الدور الذي يلعبه التقدم التكنولوجي نظرة من جانب واحد بطريقة مبالغ فيها ، فتجعله مرادفا للتقدم الاجتماعي . فهي تتجاهل السمات المميزة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، وتنفي الحاجة الى تحول ثوري للمجتمع ، وأخيرا ، تؤيد الفكرة القائلة أن النظام الرأسمالي منيع ولا يمكن هلمه .

أما المؤلفون السوفيت فاتهم يبحثون العلاقة بين الثورة العلمية والتكنولوجية والثورة الصناعية بطريقة ايجابية . فهم يرون أن الأمر يتعلق أولا بمفهوم الثورة الصناعية ذاتها . من هذا ، مثلا ،

ليست متطابقة ، فانها يمكن مع ذلك أن تعدد من نفس المرتبة ، إذ أنها تمكس الانقلاّب في الأساس التكنولوجي لعملية الإنتاج . ونذكر على سبيل للمثال أن العالم السوفيتي « ج . ييسنكو يوسف » • Yepiskopov

لا يدرج ضمن الثورة الصناعية الانقلاب في نظام العلاقات الاجتماعية في الإنتاج .

والمعروف بصفة عامة أن نقطة بدايه الثورة الصناعية التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت خروج إنتاج الآلات الى حيز الوجود . فقد أدى استخدام الآلات الى تغيير الأسلوب التكنولوجي الخاص بربط الإنسان بوسيلة العمل ، وأدى في نفس الوقت الى ادبيات اجتماعية جديدة خاصة بعمليات الإنتاج ، وإلى تغيير البناء الطبقي للمجتمع ، وتقسيم العمل وفصم جدر العلاقات الاجتماعية في الإنتاج . وقد أشار لينين في كتابته من السمات المعيزة للثورة الصناعية الأولى الى أنه في عهد جان ميسموني « بدأ ذلك التغيير الشديد والفجائي لكل العلاقات الاجتماعية بفعل الآلات (لاحظ أنه يقول : بفعل صناعة الآلات ، لا بفعل الرأسمالية بصفة عامة ، وهو التغيير الذي يعرف في علم الاقتصاد باسم الثورة الصناعية » .

والثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تغير الأساس التكنولوجي للإنتاج وكذلك تعدد القوى المنتجة للمجتمع . هذا التحول يربط قبل كل شيء بالتفسير الذاتي ، مؤدياً ، على نحو ما ، الى تحرير الإنسان والآلة معا من القيود التي تفرضها قدرات الإنسان السيكلوجية والفسيولوجية . ولا تنفصم الروابط بين الإنسان والآلة ، الناتجة من التفسير الذاتي للإنتاج ، بل تكتسب اشكالا أكثر مرونة ، أعني أن تغيرات تحدث في الأسلوب التكنولوجي لربط الإنسان بوسيلة العمل . هذه التغيرات تقتزن ، بدورها ، بتغيرات في الترابط الاجتماعي الخاص بعمليات الإنتاج ، وتؤدي الى تحول قاطع في تقسيم العمل ، كما تؤدي الى عناصر جديدة في الناحية الكيفية في العلاقات الاجتماعية في الإنتاج . هذه التغيرات تتجاوز نطاق الثورة العلمية والتكنولوجية ، ولا يمكن أن تعد مظاهر ثانوية لها ، ولعل من المناسب هنا أن نشير الى أن

التغيرات التي تحدث في الأساليب التكنولوجية للإنتاج ، والتي تتجاوز نطاق الثورة العلمية والتكنولوجية ، إنما هي أحد العناصر الحاسمة في الثورة الصناعية التي تحدث حدوث انقلاب جذري في نظام العلاقات الاجتماعية في الإنتاج .

وعندما نتحدث عن حدوث انقلاب جذري في العلاقات الاجتماعية في الإنتاج ينبغي أن نضع في أذهاننا أن حجم هذا انقلاب يحدد ، الى مدى كبير ، وفقا لنظام العلاقات الاجتماعية القائمة يرمته . ومن هنا فإن الثورة الصناعية الأولى بدأت بعد الثورة الاجتماعية ، ففي بريطانيا ، مثلا ، نجد أن الثورة البورجوازية التي حدثت في القرن الثامن عشر قد وقعت قبل ظهور الثورة الصناعية ، ولهذا ينبغي أن نسلّم بظهور علاقات الإنتاج الرأسمالي بصفة عامة نتيجة الانقسام الجذري للعلاقات الاجتماعية في الإنتاج خلال فترة الثورة الصناعية التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ذلك لأن ظهور هذه العلاقات يربط بتغيير أسلوب الإنتاج ، ويعني ، قبل كل شيء ، تعجيل التحول الاشتراكي للإنتاج ، ويخضع لتأثير انتشار تكنولوجيا الآلات ، وفصم العلاقات الاقتصادية التي كانت لا تزال قائمة الى حد معين بعد الثورة البورجوازية ، والتي كانت ، حسب تفسير **ماركس** ، متفقه مع قاعدة الانتاج التكنيكية المحافظة ، ومع إنتاج الصناعات التحويلية ، وكذلك مع الإنتاج في مراكز منعزلة نسبيا ومركزة على اقتصاد طبيعي . وقد أدى فصم العلاقات الاجتماعية في الإنتاج الى تمكين الثورة الصناعية الأولى من المساعدة على حدوث المزيد من التغيرات في الرأسمالية .

وفي رايانا أن الثورة الصناعية المعاصرة ، على خلاف الثورة الصناعية الأولى التي بدأت عملية التحول الاشتراكي للإنتاج ، تقوم بخلق الظروف اللازمة لانعام هذه العملية . وهذا يؤدي الى زيادة حدة التناقض الأساسي المميز للرأسمالية ، أعني التناقض بين الطبيعة الاشتراكية للإنتاج واسلوب التملك الخاص . ومع ذلك ، فإما البناء الاجتماعي الاقتصادي والبناء الطبقي للمجتمع يتعرضان ، حتى في ظل النظام الرأسمالي ذاته ، لتغيرات تتبع التغيرات في العلاقات التكنولوجية للإنتاج وتعميق الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة . وتتجلى الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة في أمور من بينها تركيز

رأس المال المالي ، وإقامة احتكرات ، واتحادات كبرى ، الخ . وهذا هو السبب الذي نعتقد من أجله أن من الصواب أن نتحدث عن الثورة الصناعية تحدث أيضاً في الدول الرأسمالية المتطورة .

على أن الثورة الصناعية لا تسير في ظل
أرأسمالية حتى تنتهاها ، ولا تؤدي إلا إلى
تمهيد الظروف المادية والتكنيكية لانتصار
الاشتراكية . أما في ظل النظام الاشتراكي ، فإن تغيير الأسلوب التكنولوجي للإنتاج القائم على الثورة العلمية والتكنولوجية لا يصادف مقاومة من جانب العلاقات الانتاج الجديدة ، ويؤدي إلى تكوين نمط جديد للقوى المنتجة ، وتحول كفي لنظام العلاقات الاجتماعية في الإنتاج بأسره ، ويؤدي في النهاية إلى الأسلوب الاشتراكي للإنتاج .

ومن النتائج الأساسية للثورة العلمية والتكنولوجية ذلك التناقض ، الذي يلاحظ في الوقت الحاضر ، بين البنية المصطنعة التي أوجدها المجتمع لمنفعة الإنسان ، والبيئة الطبيعية التي لم يوجدها الإنسان ولكنه يستغل مواردها المادية . فهناك ، من ناحية ، القدرة المتزايدة للقوى المنتجة الناتجة من الثورة العلمية والتكنولوجية التي تهيب الظروف اللازمة لإيجاد مستوى عالٍ للراحة واليسر في حياة الإنسان اليومية (من أسكان مربع ، وملابس أنيقة وأثاث فاخر ، ومرافق نقل سريعة ، ووسائل عامة للمواصلات ، الخ) . ومن ناحية أخرى ، فإن نفس القدرة المتزايدة للقوى المنتجة تزيد دورة المادة والطاقة بين الطبيعة والمجتمع ، وتسهل استغلال وتغيير سطح القشرة الأرضية على نحو أكثر فعالية ، وكذلك استغلال الأوساط المائية والهوائية ، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى اختلال التوازن المستقر بين العمليات الطبيعية التي تهيب الظروف المثلى لحياة المجتمع البشري ، والانشطة الحيوية للسكان البشري . وثمة ناتج ثانوي جديد للثورة العلمية والتكنولوجية هو التلوث الإشعاعي للجو ، وبعض أجزاء الأرض ، والبحار والمحيطات ، وهو التلوث الذي يتكرر بين الحين والحين . ولهذا كانت الحاجة ماسة ، في المرحلة الحالية للثورة العلمية والتكنولوجية ، إلى اتخاذ تدابير معوضه ، تبطل تأثير النواتج الثانوية

لنقدم التكنولوجي في الظروف الطبيعية . لذلك فإن وقاية الموارد الطبيعية ينبغي ألا تصبح فقط مبدأ لتدبير الاقتصاد على نطاق قومي ، بل ينبغي أيضاً أن تصبح موضوعاً لتعاون دولي واسع النطاق .

والى جانب التفاؤل بالنسبة إلى ما يرجى في مجال التحولات الاشتراكية ، وما تهيبه هذه التحولات من فيض من القيم المادية والروحية ، تظهر أيضاً مخاوف تتعلق بطرق استخدام منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية . ذلك لأن الاستغلال الطائش لقوى الطبيعة ، بعد السيطرة عليها ، يمكن أن يؤدي إلى دمار لا نظير له . وهذا يعني أن الأمم والحكومات تقع على عاتقها اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، مسئولية أكبر بالنسبة إلى مصر الأرض ، واستخدام الكشوف العلمية والتكنولوجية التي تحققت نتيجة عبقرية الإنسان .

إن الثورة العلمية والتكنولوجية تمثل انتقالاً
حاسماً إلى مستوى جديد الحرية بمعنى
الضرورة التي يتحكم فيها الإنسان ويسيطر عليها
على أن الإنسان لا يزال حتى الآن غير حر في
مواجهة كثير من افتتات الاجتماعية المترتبة على
الثورة العلمية والتكنولوجية . وهذا يدل على أن سمات التقدم العلمي والتكنولوجي (بما فيها نتائجه السلبية) لم تدخل بعد كلها في نطاق تحكم الإنسان . وهذه النتائج السلبية تصبح أسباباً تؤثر ، بدورها ، في التقدم العلمي والتكنولوجي ، وكذلك في الظروف الاجتماعية والمعيشية للناس . على أن تحكم المجتمع في هذه الأسباب لم يتعد بعد أولى مراحل معرفه هذه الأسباب .

إن الحرية الكاملة لا تنشأ إلا عندما تصبح جميع نتائج التاريخ الاجتماعي وأسبابه خاضعة لسيطرة الإنسان . هذه الحالة الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق في ظل الرأسمالية . ذلك لأن الاشتراكية هي وحدها التي تفتح الأبواب على مصراعيها لتمكن السيطرة الكاملة ، ليس فقط على تطور الثورة العلمية والتكنولوجية ، بل أيضاً على النتائج الاجتماعية المترتبة على هذه الثورة . هذه السيطرة تعني قفزة للحرية من عالم الضرورة إلى عالم الحرية .

الحركة الفكرية المعاصرة في

كاليفورنيا

د. جمال الدين الرمادي

قرأت في مجلة الفكر المعاصر ترجمة الدكتور أمين العيوطي لهذا البحث القيم الذي كتبه السيدة عفاف لطفي السيد عن الحركة الفكرية في القرن الماضي ، والبحث يدل على جهد كبير وإطلاع واسع في الكتب والمراجع العلمية عن هذه الحقبة من التاريخ كما أن الترجمة تدل على قدرة وبراعة :

والسيدة عفاف لطفي السيد هي كريمة أستاذ الجليل أحمد لطفي السيد وتقوم بالتدريس في جامعة كوليفورنيا ببلوس انجلوس حيث يحظى والدها رحمه الله برعاية خاصة في الدراسة والبحث والمحاورة .

والسيدة عفاف هي إحدى الباحثات في ميادين الثقافة العربية في كاليفورنيا ، وهي تنتمي إلى مركز دراسات الشرق الأدنى في الجامعة المذكورة ويشرف على المركز الصلاة الكبير الدكتور جوستاف فون جريسيوم وهو مستشرق نمساوي الأصل كان يعمل أستاذاً بجامعة شيكاغو ثم استقضى لتأسيس المركز في جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٧ ، حيث بذل جهوداً عظيمة في تدعيم



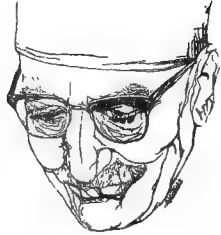


توفيق الحكيم

والجميع الخطابية الكاذبة والأساليب السفسطانية المنقبة ، كما ذكر الدكتور جوستاف جرينيوم **ان الحياة في نظر الاسلام غدت وسيلة الى الدار الاخرى ، ولم تعد غاية في ذاتها ولن تزر وازرة وزر اخرى ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، والاسلام بعد هذا كله بل قبل هذا كله يعمل على تطوير المجتمع واصلاحه وهذه فضيلة كبرى من فضائله ، وحسنة عظمى من حسناته ، فهو لا يتعارض مع التطور ولا يتناقض مع الاصلاح .**

وليسست مؤلفات العلامة جوستاف فون جرينيوم هي كل حصيله الفكر العربي في كاليفورنيا انما هيمن جرينيوم على حركة فكرية واسعة النطاق في مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا واشرف على اصدار مجموعة من الابحاث النافعة في هذا الميدان ، ومن ذلك البحث الذي نشره الدكتور **اسسكندر بنوي** عن خطط الهندسة المعمارية الفرعونية والدكتور بدوي فقه استوطن كاليفورنيا منذ فترة طويلة حيث يساهم في نشر بعض المؤلفات عن تاريخ مصر القديم وحضارة الفراعنة باللغة الانجليزية كما أصدر

بنيانه وتوطيد اركانه ومساهمته في ميادين الفكر العالمي ، ونش رعدة مؤلفات عن الاسلام والاعباد المعمدية كما ناقش فكرة العروبة في كتبه ودعوة القومية العربية ، وتعرض للحركة الفكرية في العالم العربي ومؤلفات طه **حسين والفساد وتوفيق الحكيم** ، وقد تعرض لثراث العرب الفكري وناقش قيمة هذا التراث في حصيله الفكر العالمي ، ووضع اثر **الجاحظ والكتني وابن المقفع** وغيرهم في اجراء جداول جديدة تخصصب الثروة الفكرية العربية ، كما وضع اثر الفكر الفارسي على الادب العربي في العصور العباسية ، وكيف ظهر تيار الحكمة الفارسية ، وتيار الحكمة الهندية ، وتيار الفكر اليوناني والروماني وكيف التقت هذه التيارات المختلفة مع تيار الفكر العربي الاصيل فنشأ عن ذلك كله نهر عذب سلسبيل يروي العقول والقلوب جميعا . ولم يلق **جوستاف فون جرينيوم** العالم الكبير صفحا عن اثر الاسلام في تكوين الفكر العربي فقد استطاع الانسان أن يحيا به حياة صحيحة واستطاع أن يفكر به الانسان تفكير سليما واستطاع أن يحيا به الانسان حياة نظيفة قويمة ، فهو دين يخاطب العقول والقلوب جميعا ولا يلجأ الى الاستهواء



ع . العقاد

تخصص قسما منها للدراسات باللغة الانجليزية وقسما آخر للدراسات باللغة الفرنسية ، وهي مع اهتمامها بالفنون من نقش ورسم وتصوير ، ونحت ، وفنون مكتبية تهتم بالدراسات الادبية وقد نشرت عدة بحوث عن السينما في مصر كما نشرت عدة ترجمات من روايات الشعر الافريقي .

والرسائل الجامعية التي اضطلع بها مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا تحت اشراف الدكتور جرينيوم عديدة ومتنوعة ، ومن ذلك البحث الذي قدمته السيدة **كلود تراسي** **أودوت** عن أسلوب الدكتور طه حسين ، وقد قدمت رسالتها للحصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٢ وأشرف على الرسالة الجامعية الدكتور جرينيوم ، وتناولت فيها الباحثة أسلوب أدبيها الكبير بالبحث والتحليل وقارنته بأساليب الأدباء العالميين ، وبينت وجوه الجمال في أسلوبه ووجوه الروعة في بيانها ، وقد قدمت رسالتها بالفلسفة الفرنسية وصاحبة الرسالة تعمل الآن في وظيفة أستاذ مساعد بجامعة «كس» في جنوب فرنسا ، وقدم الأستاذ **دوجلاس رودى** رسالة عن نظام الملكية الريفية في الجزائر بين عامي (١٨٣٠-١٨٥١) وحصل الأستاذ رودى على درجة الدكتوراه بهذا البحث كما حصلت السيدة **سيرة يوسف** وهي سيدة فلسطينية المولد برسالته الجامعية عن الحكيم « ابن بطالان » على درجة الدكتوراه ، ويقبول

المركز كتاب **والتر فيششل** Walter Fischel عن ابن خلدون في مصر ، وقد وضع في هذا الكتاب اتصالاته الفكرية وارتباطاته السياسية وأعماله لتاريخية ، (١٣٨٢ - ١٤٠٦ م) وكتاب **تقيمونت هنرى مور** عن تونس منذ الاستقلال وقد نشره المركز عام ١٩٦٥ كما نشر المركز كتاب : الدورة السادسة في الدولة الزهرية **لمحمد بن محمود ابن سمرى** (١٣٨٩ - ١٣٩٧ م) باللغة العربية في مجلد وانترجمة الانجليزية في مجلد آخر ، كما نشر المركز كتابا عن الحركة الشيوعية في إيران بقلم **شفرزاييه** Sepher Zabih كما نشر كتابا عن الدين والسياسة في إيران ، وكتاب آخر عن العرب بقلم **أرنولد هوتنجر** Arnold Hottinger وكتاب عن الإصلاح الاسلامي كما تزعمه **الامام محمد غزالي** وروحية وعما وغيرهما من اعلام الفكر الاسلامي أمامؤلف الكتاب **فوهما كوكوم** **مير** Malcolm Ker ونشر المركز أيضا كتابا عن الثورة الارمنية كما نشر كتابا عن القومية العربية جمعتها **Sylvia Haim** وغير ذلك من الكتب والبحوث والدراسات التي تتناول الشرق الأدنى ودول افريقيا ، غير أن دول افريقيا لأن أصبحت ذات وضع خاص ، وانشئ مركز للدراسات الافريقية في جامعة كاليفورنيا ، يقوم بعمل محاضرات متنوعة عن القارة الافريقية وقد استدعى للمحاضرة فيه عدد كبير من أدباء وعلماء الجزائر وتونس والمغرب كما يصدر المركز مجلة أنيقة قيمة تسمى فنون افريقيا . حيث



ن . محفوظ

لك حمد 'الجاسر الأدبي: المبرز في البحث والتحقيق كما يذكر لك مؤلفاته «مدينة الرياض عبر التاريخ» و«بلاد ينح» وبلاد العرب «للأصفهاني» كما يذكر لك عبد القدوس الانصاري ودوره في انشاء مجلة «المهل» التي اصدها منذ ربع قرن ولا تزال حتى الآن تساهم في تنمية الحركة الفكرية في المملكة العربية السعودية - كما يذكر لك كتيبه آثار المدينة المنورة واصلاحات في لغة الكتابة والأدب ونحوها ، ويذكر لك أحمد السباعي وكتابه عن الأدب في السعودية حديثا مستفيضا ويذكر تاريخ مكة وقصة فكرة وقال وقتل وغيرها ويذكر لك لقمان يونس وأحمد قنديل وغيرها من أعلام الفكر السعودي مما قد يغيب انتاجهم عن مخيلة الفكر المصري الذي يشاركون في العروبة والوطن العربي ، حتى اذا ما تعرض الحديث عن انتاج الأدباء في افريقيا ذكر لك محسن المستنق وأعماله الأدبية ألا وهي تلك القصة التي اصدها منذ سنوات وكتب عنها الدكتور طه حسين دراسة قيمة اعتقد أنه نشرها في جريدة الجمهورية آنذاك ولعله ضمها الى أحد كتيبه الحديثة ، كما ذكر لك «مولد النسيان» للأدب نفسه ومدى ما ساهم به المسعودي في حقل الفكر العربي المتأثر بالثقافة الأوروبية الحديثة ، ثم يذكر لك الدكتور جرينيسوم أدبيا آخر يثير الرغبة الى تتبع آثاره الفكرية وهو الأديب التونسي «السيرت ميمي» المولود عام ١٩٢٠ الذي ألف كتابا عن تونس كما تجلت في كتابات الأدباء الفرنسيين .

الدكتور جوستاف أن صاحبة هذه الرسالة وصفت فيها الطب لمن لا يحضره حكيم كالحيسان الذين يعيشون في أماكن نائية بعيدة عن العمران ، أما الدكتور صلاح الدين سليم حسن فانه قدم رسالته الجامعية عام ١٩٦٤ عن بعثة «كرين» الى فلسطين ، وكرين هذا كان سياسيا أمريكيا رأس البعثة الدولية الى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى كما قدم ، «مردين جافيتس» رسالته عن السلطان عبد الحميد ١٨٨٠ - ١٨٩٦ وهناك عدد كبير من الرسائل الجامعية التي نوقشت ولا يزال بعضها الآخر تحت الفحص والدراسة .

والدكتور جوستاف فون جرينيسوم أديب ذواقه قرأ الأدب العربي الحديث ، كما يطلع على شتى المجلات الثقافية ومنها مجلة «الفكر المعاصر» وهو عليم بالحركة الفكرية في العالم العربي جميعا ، ولا في الجمهورية العربية المتحدة فحسب ، وإذا جلست اليه ناقشك في الحركة الأدبية في لبنان ومقالات مجلة الأدب والأدب والرسالة ونحوها ، ومؤلفات سهيل إدريس ويوسف نجم وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ، كما يناقشك في الحركة الفكرية في العراق وأشمار البياتي ودراسات جميل سعيد وغيرها ، كما انتقل بك الى الحديث عن الحركة الفكرية في الكويت ونتاج عبد الله البصير وأدياب مجلة الكويت والمحافل الأدبية في الأحمدى والكويت وغيرها ، ثم حدثك عن الأدب في السعودية حديثا مستفيضا ويذكر

من التاريخ كما أن ثلاثيته تصور انطلاقات فكرية متنوعة ، وأجبالا متعاقبة متنوعة التفكير متباينة التصور والشعور .

ثم ترتسم ابتسامة عريضة على وجه جرينيوم ويقول : لا تنس العقاد ؟ فأننى لن أنسى عبقرياته ومدى مساهمتها فى الفكر الإسلامى اننى لم ألتق بالعقاد فى حياتى مثل ما التقيت بطله حسين غير انى أكن له التقدير كما أكن التقدير للمفكرة المتحررة الأدبية الدكتوروة سهر القلماوى التى أسعدنى أن أعرف أنها تشرف على الحركة الفكرية والثقافية فى قطاع كبير من الدولة .

ويأتى البريد الى الدكتور جرينيوم فاذا بدعوة من جمعية دراسات الشرق الأدنى لنى تعقد دورتها فى جامعة تورنتو فى كندة فى منتصف هذا الشهر فأسأله عن هذا المؤتمر فيقول انه سوف يتناول القضايا الفكرية والثقافية التى تشغل العالم وتهم الباحثين فى هذه المنطقة الحساسة من العالم . وسوف يحضره عدد كبير من العلماء والباحثين فذكر منهم وليم شروجر مدير مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة ميتشجن ودون بيرتز عميد دراسات الشرق الأدنى والدراسات الأفريقية فى جامعة نيويورك والدكتور جون مريام الأستاذ بجامعة بولنج جرين ولاية ايسايو مع زوجته كافلين هوارد كريمة الدكتور ورث هوارد Worth Howard مدير كلية ريكز Riekers فى ولاية مين Maine ومدير الجامعة الأمريكية بالقاهرة سابقا .

ومما يذكر أن الملك فيصل قد منح هذه الجامعة عشرة آلاف دولار لإنشاء قسم خاص بالدراسات العربية والإسلامية ، وقد بدأت الدراسة فى كلية ريكز وأقبل عليها عدد من الأمريكيين ومن المنتظر أن تتشعب الدراسات العربية والإسلامية فى العام الجامعى المقبل حيث يشرف على هذا المركز الدكتور عبد النعم شاكرو الذى حصل على الدكتوراه فى العام الماضى من جامعة ميتشجن .

لوس أنجلوس

جمال الدين الرمادى

والعجب أن جوستاف جرينيوم يحيط علما بكل هذه الحركة الفكرية فى العالم العربى قاطبة ، حتى انه يحثك عن أدباء امارات الخليج العربى والأحوال السياسية والثقافية والتعليمية فيها حديث الخبير العالم الذى يثير الدهشة والعجب والاعجاب جميعا .

وهو يرى أن طه حسين بلغ القمة فى الناحية الأسلوبية ، حيث يمتاز أسلوبه برئى خاص ، ووقع معين لا تلاحظه فى الأساليب الكتاب الآخرين وهو أحيانا يمدد الى السجع أو التلوين اللفظى ولكن هذا السجع يأتى على غير افتعال أو اصطناع مما يحدث فى النفس أثرا طيبا ، ويس شفاف القلوب ، وهو يمثل تطور الفكر العربى بعد لطفى السيد الذى نقل آراء اليونان الى الفكر العربى الحديث ، وكانت مجلة « الجريدة » لسان حال دعواته التحررية الكبرى وتخليص الفكر العربى من الأساليب العتيقة والموانع التى حالت دون تقدمه وانصاره .

أما توفيق الحكيم فبى العلامة جوستاف فون جرينيوم أنه يمثل الروح الشرقية الصميمة وقد قرأ له كتاب « عصفور من الشرق » فلمس فيه تمسكه بروح الشرق التى يرى أنها المصدر الأول للفكر والثقافة والمعرفة ، كما أنها مصدر الإشعاع الفكرى للعالم فى الفنون والآداب ، سواء كانت فنونا جميلة كالوسيقى والرسم أو فنونا ناعمة تطبيقية ، وروح التمسك بالشرق تجلت واضحة فى كتاب الحكيم «عصفور من الشرق» كما أن قصة «أهل الكهف» تمثل تجربة فنية رائعة مستمدة من التاريخ ، أما دراساته فى «التعادلية» وفن الأدب ونحوها فهي عطاء جديد للفكر العربى ، ومسرحيات الحكيم فى نظر المستشرق الكبير « جوستاف فون جرينيوم » تمتاز بالخصوبة والمهارة . وقد نشرت له حديثا مسرحية « يا طالع الشجرة » باللغة الانجليزية وهى محاولة مبتكرة فضلا عن أن كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » قد ترجم الى اللغة الانجليزية تحت عنوان « حيرة ال Maze of Justice » أما الكاتب الرائع الذى يعجب به جوستاف فون جرينيوم أعجابا عظيما فهو الأديب «نجيب محفوظ» الذى يرى أن قصصه وثائق أدبية رائعة عن الحياة الاجتماعية والفكرية فى مصر فى تلك الحقبة

ندوة الفكر حول كتاب حقيقة في يد مسافر

للأستاذ يحيى حقي

شارك في الندوة

د . حسين فوزي • يحيى حقي • د . فؤاد زكريا
أعدتها : إبراهيم الصيرفي

● لا اجتهاد قبل فتح باب الجهاد ، باعتبار أنه الجهاد هو
القوة الدافعة ، هو الحركة الديناميكية للدين أو العقيدة
التي بمقتضاها وبفضلها تتحرك هذه الأمة . يحيى حقي

ابراهيم الصيرفي : في بداية الندوة نستمع الى كلمة الأستاذ يحيى حقي عن كتابه •

يحيى حقي : أرجو ، قبل أن أعرض لهذا الكتاب ، ان تسمحوا لي أن أدور حوله من الخارج قليلا ،
لأن لدى بعض الملاحظات التي أوردتها لأن لها جانبا عاما • الكتاب كما هو بين يدي الآن
انما جاء على مسودة لم أشأها له في الأصل ، جاء في شكل تجريب في ميدانين :
أولهما تجريب في اللغة • لقد حاول هذا الكتاب دون قصد أو ارادة مني أن يقيم
جسرا بين الفصحى والعامية • وواضح منذ البداية اني قد استعملت كلمات عامية
مثل كلمة « تستيف » وغيرها • لكنني أريد أن أؤكد انني حين اكتب لا أحاول ذلك ،
واهتمامي الوحيد ان أبين للقارئ وان أقدم له صورة أمينة أحس بها • هذا التجريب
لم يأت ، حقيقة ، على سبيل «الغنظية» ، وإنما اهتف به الى تحقيق أمل في نفسي ، هو أن
نصل في هذا العصر الى أسلوب يستحق ان يسمى أسلوب العصر • لانني أضييق جدا حين
اكتب في عام ١٩٧٠ بنفس أسلوب عام ١٩٣٠ • للعصر مقتضيات ومطالب من حيث
الاسلوب • وأنا في شوق ، حقيقة ، الى أن أرى في كتابتنا دلائل ما يسمى بأسلوب
العصر •

وملاحظتي الشخصية التي أريد أن أقولها هي انني لم أكن لاتصور ان حريتي في التعبير
مقيدة بشيء غريب جدا اسمه المطبعة ، مقيدة بحروف اللينوتيب ، لأن علامة « الشدة » حين
توضع فوق الحرف تجعل الكلام واضحا وسهلا وأنا حين اكتب أضع في ذهني ان اصل الى

● إذا كنت تريد الحرب ، فيجب أنه تحمّد كل طاقاك للحرب
وإذا كنت تريد أنه يتجه إلى السلام فيجب أنه يتجه كل طاقاك
إلى السلام ، ولا عيب علينا إذا لم نتجه طاقانا إلى إهماله
الحق في الأرض المقدسة .
حسين فوزي

القارىء ، وإن اصل إليه بوضوح تام . ولذلك حين أكتب فصلا بعنوان « أحب أجدادى الى » أقول فى نفس « الى » هذه بدون الشدة تقرأ الى ، وبذلك لا يفهم القارىء ، ولهذا أكتب بدلا منها « عندي » . الحق انى ضيق الصدر جدا بهذا الوضع ، وأحب ان أقول للدكتور حسين فوزي اننى أحيانا أجد صعوبة كبيرة جدا من مقالاته فى الإهرام لهذا السبب . هذه مشكلة كبيرة ينبغى ان نوجه اهتمامنا إليها .

د . حسين فوزي : الحروف « مفصصة » ! اختار لنا الإهرام اصغف بنط نكتب به . أنا نفسى لا أستطيع ان أقرأها .
يعني حقى : وكيف تسكتون على ذلك ؟
د حسين فوزي : قل انت لهم هذا .

يعني حقى : هذه ملاحظتي الأولى . الملاحظة الثانية هي اقامة جسر بين الكلام فى مقالة أدبية فى صحيفه يومية وبين الكلام فى قالب متصل فى كتاب . المقال فى الصحيفة الأدبية اليومية التي تموت فى نفس اليوم ، يتطلب الاستقلال والانفصال ؛ والفصل فى كتاب يراد له البقاء والاستمرار . وهذا الكتاب صادر فى شكل مقالات صدرت فى (جرنال) اسبوعى هو صحيفة التعاون . وانتم حين تتاملون هذا الكتاب تجدونه مقالات متتابعة ، ومع ذلك يربطه خيط يصل للقارىء من فكرة الى فكرة . وأنا أحيانا أسأل نفسى : هل هذا يا ترى نوع من الكتابة التي يراد لها البقاء والاستمرار . ان يكون الكتاب وسسلا بين المقالات الصحفية الأدبية وبين شكل كتاب تحتاج فصوله الى ترابط وتناسق ؟
ابراهيم الصيرفى : هذا حول الكتاب .

يعني حقى : أما عن الكتاب فقد كان اهتمامى ان أقدم للقارىء نصا أدبيا ، يحتاج الى العناية بالتعبير وجماله . ومن النصول بنتى أحب أن تضرب بها مثلا على ذلك « أحب أجدادى عندي » و « الأثرى والبرج » ، فهما من الصور الأدبية التي كان فى ذهنى أن أكتبها .

أما من حيث المضمون فتلك هي النقطة التي أنا مشتاق الى أن أسبع فيها رأى الدكتور فؤاد زكريا والدكتور حسين فوزي . لأن الكتاب ، كما ترون ، يحاول أن يجدد الاهتمام بقضية كبيرة جدا كانت تشغل المثقفين من أيام الجبرتي والأفصاني والطهطاوى . الخ : هي قضية اللقاء بين الحضارة الشرقية العربية الإسلامية والحضارة الغربية . هذه الاهتمامات كانت محصورة فى دائرة المثقفين . وقد كان اهتمامى فى هذا الكتاب ان أقول ان هذا لا يكفى ، وانما يجب نقل هذه المشكلة الى وجدان الشعب ، يجب ان يحس بها . ولقد عبرت عن هذا فى فصل بعنوان « ترجمة كلام صعب الى كلام سهل » . لاننى أرى اننا لن نتقدم فى هذه لسبيل أبدا الا اذا اعدنا الاهتمام به والا اذا عملنا على نحو ما الى توصيل هذا الكلام لى وجدان لشعب . فلا تصبح المشكلة مشكلة مثقفين فحسب .

والكتاب ، على العموم ، نتيجة رحلة لى الى فرنسا ، وجدت نفسى منساقا الى أن أتأمل ما هي الحضارة الأوروبية وما هي الأحوال عندنا . ثم بدأت أكتب هذه الفصول المتتابعة ، التي اسميتها فى نهاية الامر « حقبة فى يد مسافر » .

● لوقارنا بيت حياتنا وحياة الغرب لوجهنا انه القم مايجب انه ننجزه لكي نأصح بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمفكر ليسوا في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة. فؤاد زكريا

د . حسين فوزي : يا استاذ يحيى ماذا تركت لنا من الكلام ؟ هل تركت لنا ما نقوله عن اسلوبك ؟ جديد أم قديم ؟ كان ينبغي أن تترك لنا الفرصة . أما عن العامة فانت تعرف اننا جميعا نشجع هذه الاجيال الطالعة على الشغف بتحرر اللغة . وأنا امتدح لك شجاعتك لأنك دائما كنت متفعل . وقد دخلت مجال التعمق عندما قابلتك في باريس . اذ وجدتك وقد احضرت ميزان الذهب ، واخذت ترز به الكلمات والجمل . وانت الآن قد تحررت وأنا أهنتك على هذا .

أما عن حكاية المقالة ! فانا أريد ان أقول لك شيئا هو انك اذا كنت أدبيا فليس في الصحافة مكان لك . واذا فرضنا ان الصحافة تحب ان ترقى اليك ، الى مستوى الاديب ، فانها تأتي بك زينة وتضسمك على تاجها لتكتب أدبا لا لتكتب صحافة . الصحافة أخبار . والمقالة الصحفية مقالة سياسية . أما عندما ترقى الصحافة فان الصحف تفرد اجزاء منها للادب وللعلوم . فاذا كتبت فصولك كان من اسوأ الأمور ان تفكر في ان تجعلها كتابا . اعرف ادباء يفعلون هذا ، فيكون عملهم كزائفة دودية في الصحافة . يكتبون الفصل الطويل وفي ذهنهم ، بداية ، ان يكون فصلا في كتاب . وهذه علم امانة في الصحيفة التي يكتب فيها هؤلاء . أنا بالصدفة اقرأ كتابا انجليزيا من كتب المقالات نشرته « بنجوين » في عدة مجلدات ، حين تقرأها تشعر انها صحافة ، ولكنها صحافة راقية جدا . صحافة أدبية فاذا كانت المقالات التي تكتبها ذات ارتباط معين وترى انت ان تجمعها في كتاب لان موضوعها واحد ، في الفلكلور أو في الرحلات مثلا ، فهذا شأنك . ولكنني أرى ان تجمع المقالات بعد موت كاتبها .

د . فؤاد زكريا : أنا أيضا احب ان اتكلم قليلا حول الهامش . فحساسة ان أضيع الفرصة دون ان أبن المزايا العامة للكتاب كما أنارتها في قراءته . لقد استمتعت كل الاستمتاع بقراءة هذا الكتاب . وربما كان أكبر مصدر لمتعتي هذه هو شعوري ، الذي أعنيه أشد الوعي ، بعجزى التام امام المقدرة الفائقة على الوصف التفصيلي التحليلي العجيب لأدق الواقع . أنا شخص أعتبر نفسي مفرقا قليلا في المشاكل الفكرية . ولذلك . حين أقف امام هذا النوع من الكتابة احس فعلا بالتساؤل امام هذه المقدرة الغضة على التحليل . لا مجرد وصف المنظر من خارجه وإنما النفاذ الى اعماقه . عين لائحة تصل الى درجة الفراسة الفريية فمثلا منظر الدليل والقطيع من خلفه . يسك بالواحد اثر الواحد من الماشين خلفه وهو يصحبهم في مشاهدته المتحف . صحيح ان ذلك من قبيل الخيال . ولكن اى فرد منا شاهد هذا المنظر لابد ان يعترف للأستاذ يحيى . حتى بالمقدرة الفائقة على التعمق من وراء مظاهر النسياس الى ما يخفونه في باطنهم أو ما يحاولون اخفاه .

لهذا السبب اعتبر هذا الكتاب وامثاله لا مجرد كتاب في الادب أو النقد الأدبي ، بل اعتبره كتابا يحتوي بداخله ثروة كبيرة جسدا حتى من المعلومات السيكولوجية . ولذلك أريد ان أضيف جسرا ثالثا الى الجسور التي اقامها استاذنا يحيى حتى ، هو الجسر ما بين الادب والتحليل النفسي . وجسرا آخر بين التقصافة البسيطة والثقافة العبيقة . واذا سمحتم لي ان اورد جزءا من الكتاب ، سطورا قليلة منه ، وأنا كرجل مرت بى مسائل من هذا النوع أقول ان هذه السطور لم يكن من الممكن ان تكتب الا بعد قراءة عشرات الكتب . في الجزء الذي يتكلم فيه الاستاذ يحيى حتى عن اتهام الفريين بقصور حضارتنا ، انظر ماذا يقول . انه يتكلم عن العربي ويقول انهم يصفونه بأنه رجل مشرد رجالة . فكرة الانتماء الى الوطن معدومة عنده (ص ٧٦

و ٧٧ من الكتاب) ؛ فهل هذا ممكن ؟؟ ثم يقول بعد كلام قليل عن اللغة والعقلية العربية « هي عقلية صف خيام لا إقامة هرم ، ان أى مظهر من مظاهر البحث العلمى - حتى فى نحو اللغة العربية ذتها - جاء من الاغريق ، التصوف ورد من الهند ، جميع جهابذتها تقريبا لا ينتمون الى الجنس العربى ، حتى فى ميدان اللغة ، ما أضافها من حضارة ، ليس عندها مسرح ، بل حكايات سمر . . ليس عندها تصوير ، بل زخارف لا تنفك عن التدخل الا للتدخل من جديد ، ليس عندها نحت ، حتى الشعر ما هو الا فتافيت ، ليس للقصيد وحدة عضوية ، الغزل فى هذا الشعر غارق فى الحسية . المرأة عنده كتلة من اللحم واللحم ، الخ كل سطر من هذا الجزء حصيلة كتاب عديدة . والحق انى لا استهين بهذا النوع من الكتاب ، وانما أكن له كل احترام . هو من البداية ، وان اتخذ شكل مقالات ، من البذور التى ترشحه وتؤهلها لأن يكون عملا أدبيا وفكريا كبيرا . »

ابراهيم الصيرفى : ربما كانت المقالات التى ناقشها هنا ، اذا كان الأستاذ الدكتور حسين فوزى يعترض على أن يكون فى ذهن الكاتب ، بداية . . .

د - حسين فوزى : أنا لا أقصد الأستاذ يحيى حتى أبدا . . أنا أقصد شخصا معينا .
ابراهيم الصيرفى : أريد أن أقول ان المقالات هنا قد استطاعت أن تجمع بين استقلالها كوجبة تقدم فى صحيفة للقارئ العادى ثم استطاعت بعد ذلك أن تجمع فى كتاب لتكوين هذه الوحدة التى تؤلف الكتاب الذى تتكلم عنه الآن سيادتكم والدكتور فؤاد .
يحيى حقي : الحق انى حين بدأت اكتب الكتاب لم تكن لى فكرة عن كيف سيسير قلت فى نفسى فلاكتب عن هذه الرحلة . وقادنى فصل الى آخر . وبعد مدة طويلة وجدت ان هذا الموضوع يمكن أن يخرج للناس فى كتاب . ولذلك أريد أن أقول للدكتور فؤاد والدكتور حسين فوزى اننى كلما تقدمت فى هذا الكتاب ، وجدت نفسى أسير من سهوة الى صعوبة . الشرح . والوصف سهل . وصف الخلاف بين الحضارتين سهل . لكن حين جئت الى باب . . ما هو الحل ؟ . . أحسست . حقيقة ، انى تعبت ، أحسست انى لست على مستوى القمة بحيث أقول لنفسي انى سوف تجد حلا . ولكننى وجدت نفسى منساقا الى أن أتى بحل . فمن أين جئت به ؟ الحل كما قلت ، لا بد أن يأتي من وجدان هذا الشعب . وهنا انتقل ذهنى الى العقيدة . ولهذا لم أتصور الا أن يكون هذا هو الحل : **لا اجتهد قبل فتح باب الجهاد ، باعتبار أن الجهاد هو القوة الدافعة ، هو الحركة الديناميكية للدين والعقيدة التى بمقتضاها وبفضلها تتحرك هذه الأمة .**

هذه هى النقطة التى أحب أن أعرف : هل أخطأت فيها ، أم كنت فيها على صواب ؟ هذا الكلام قد يفضىب أناسا لا يجوز الحديث فى العقيدة . أعترف لكم أن هذا الحل ، ولو انه يرضينى ، انما وصلت اليه بصعوبة بعد أن ساقتنى الفصول السابقة عليه قليلا قليلا الى هذا الركن الذى لم أجد سواء . فهل هناك ركن سواء ؟

د . فؤاد زكريا : هناك خوف من أن يكون فى هذا الحل ما يسمى بالحلقة المفرغة . أى أن الحل لا يكون الا بالجهاد ، ومن ثم الاجتهاد ولكن الجهاد لا يمكن أن يكون سليما الا اذا وصلت الى الحل . هذه مسألة تخيل الى أن فى الجانب الايجابى فيها شيء من الدور كما يقولون فى المنطق .

يحيى حقي : ولكن يا دكتور فوزى هذه هى المشكلة الحيوية التى واجهها الجبرتي وغيره .
د - حسين فوزى : لا تهرب . لاننى سارد عليك فى هذه النقطة . أعطوني أولا فرصة أتكلم فيها عن خبر الكتاب . انتم تريدون أن تبدأوا النقطة التى اعترضت ان أعاجمه فيها .
يحيى حقي : أريد أن أسألك أولا . . هل يرضيك أن نتناسى هذه القضية الحيوية أم يجب ان نتثار ؟

د - حسين فوزى : تقول انك وصلت الى حل . لقد بدأت بآخر الكتاب مع الأسف . فلنترك كل الكلام عن هذا متى يأتي دوره . هذا الحل ينطبق عليه بيت الشعر الذى يقول :
وداؤنى بالتى كانت هى الداء

نحن في عام ١٩٧٠ كما يقول الأستاذ يحيى حقي . وفي عام ١٩٧٠ لا تكون الحلول بالطريقة التي يقترحها ، إذا كان كل كتابه دفاعا عن الحضارة ودفاعا مجيدا ، ولا تنسوا أن يحيى حقي رجس دبلوماسي ، ودبلوماسي من أرق الدبلوماسيين ، ومن أرق الناس أخلاقا . ومع ذلك استطاع بشجاعة نادرة لا نجد لها في أي كتاب سابق له . استطاع أن يتكلم . . **فصحنا وكشف عيوبنا** . . كمشفى في مواجهة الغرب المتحضر . قالها بكل صراحة .

لقد سعدت بهذا الكتاب . جلست اليه جلسة لم أحجب أن أقطعا قيل اتسامه ، وأنا من أسعد الناس به . وبعد أن انتهيت من قراءته اتصلت تليفونيا بيحيى حقي لأقول له إن هذا الكتاب نظير جدا ، وكلم أود أن يقرأه كل قارئ . ويحيى حقي محق إذ يكتب تلك اللغة الجميلة البسيطة ، وهذا أسلوبه عامة . وهو أسلوب ضروري جدا في هذه القضية . أضف إلى ذلك سميتك الطيبة واسمك ودبلوماسيتك . الكتاب من أعظم كتب يحيى حقي . **وأنا أصلا لا أحترم القصص كثيرا** . أحترم الكاتب حين يكون مفكرا . كاتب القصة صديق ، لكنه لا يرتفع في ذهني إلى أن يكون من كبار المباحرة . عندي أن كتاب يحيى حقي كتاب يساوي انقلا من الذهب وأحالا من القيم الانسانية الكبرى . هذا ما أريد أن أقوله عن الكتاب ، ولأرجي حسابته حتى يحين وقت ذلك .

ابراهيم الصيرفي : ذكر الأستاذ يحيى حقي أن عملية الوصف والمقارنة بين حضارتين مسألة لا تتطلب الجهد يسيرا . ويخيل إلى أن هذا النتاج ليس وليد جهد يسير أبدا . . فما رأى الدكتور فؤاد زكريا في هذه الملاحظة ؟

د . فؤاد زكريا : أرى أن أقيم ما في الكتاب هو هذا . أنا مع الدكتور حسين فوزي في أن الحل الإيجابي حل ساءختلف فيه مع الأستاذ يحيى حقي . لحل الجزء النقدي الذي يشمل معظم فصول الكتاب هو في نظري أقيم ما في الكتاب ، لانه جزء نقدي نابع من القلب حقيقة . فيه عنصر الاخلاص الذي تكلم عنه الدكتور حسين فوزي ، وفيه بالإضافة إلى ذلك عنصر قد نحس به من بين سطور الكتاب ، هو عنصر المرأة الساجدة عن الظروف الخاصة ، الفترة الزمنية الخاصة التي يكتب فيها مثل هذا الكتاب . حين يسافر أحد المصريين أو العرب إلى الغرب في هذه الفترة التي تعاني فيها من الشعور بالغربة في التغلب على الهزيمة التي وقعت فيها . هذا العنصر موجود ولكن الانسان يحس أنه مخسوم على جو الكتاب باستمرار . المشكلة التي عالها الكتاب هي ماذا جعل الغرب يصبح على ما هو عليه ؟ ؟ يحيى حقي : أوكيف ندرسه .

د . فؤاد زكريا : لهذا السبب أقول . كيف نصبح كالغرب ؟ هذا في الحقيقة سؤال ثانوي . أولا ، كيف نفهم لماذا أصبح الغرب على هذا النحو . فإذا فهمنا هذا واستقر في أذهاننا ربما جاء الحل الإيجابي تلقائيا . المشكلة أننا لا نفهم هذه المسألة ، ببغلي أننا نتصور أن حضارة الغرب هذه حضارة متخللة عن حضارتنا نوعيا وكليا . وهذا في نظري تزييف كبير . ربما كان في الحضارة الغربية اختلاف نوعي ، ولكن هذا الاختلاف جانبي . أهم ما في الأمر أن في هذه الحضارة جانبها عالميا هو الطاغى فيها . وربما كانت الجوانب التي يختص بها الغرب نفسه ليست أهم جوانب هذه الحضارة . فما الذي يمثله هذا الجانب العالمي ؟ يمثل ما ميصير إليه الانسان عندما يتقدم ، أي انسان لا الانسان الغربي بالذات . نحن ، للأسف الشديد نخلط .

ابراهيم الصيرفي : هذا في مجالات الحضارة المختلفة من الناحية العلمية والعملية والفكرية . د . فؤاد زكريا : في كل مجالات الحضارة .

ابراهيم الصيرفي : هذا يعني أن الادب الرفيع للعالم كله : لا نقول هذا للغرب . الموسيقى الرفيعة للعالم كله وليست للغرب فقط . وهكذا حتى في مجال العلم أيضا .

د . فؤاد زكريا : هذا أوضح في مجال العلم والتكنولوجيا . هي حضارة الانسان المتقدم ببساطة ، هي حضارة الانسان عندما يبلغ مرحلة معينة من التقدم . وهنا لا نقول أنها نوع ونحن نوع ، لأننا لو قلنا هذا لظللنا طوال عمرنا نقول أن لنا مزاياها ولهم مزاياهم . لنا مزاياها ، كما أن حضارتهم في بعض جوانبها تصطبغ بالطابع المحلي . لكن الأهم من الكتاب يبينها إلى هذه الحقيقة ويوضح . وهذا هو الجانب الممتع فيه .

يحيى حتى : كان غرضي ، عندما تقدمت قليلا في الكتاب توضيح الرؤية • اعني كانت لدينا افكار خاطئة عن الحضارة العربية احببت ان ازيلها ، كذلك كانت لدى الحضارة القبرية افكار خاطئة عن الحضارة العربية احببت ان افسرها وان اقول لاصحابها لا ... ليس الامر هكذا ، ولسنا كما تروننا • نحن كلا وكلا • هذا ما اقول لهم • واقول لاهلي ولأهل بلدي : هؤلاء الناس ليسوا كما تظنونهم • وكنت بذلك اهدف الى اقامة جسر كما يقول الدكتور فؤاد زكريا •

كيف نصل الا اذا فهم كل منا الآخر حتى الفهم حاولت ان ابدد ما لديهم من افكار خاطئة عنا وان ابدد ما لدينا من افكار خاطئة عنهم •

ابراهيم الصيرفي : كان نفس تاريخ التقائنا بالحضارة الغربية هو نفس تاريخ التقاء اليابان بتلك الحضارة ... وما نحن نرى الفرق •

د • حسين فوزي : هذا بسبب الحلول التي يقدمها يحيى حتى ! هذا هو السبب !!

د • فؤاد زكريا : اخذت اليابان الجانب العام من الحضارة الغربية ، الذي تحدثت عنه •

د • حسين فوزي : منذ مائة سنة دخلت اليابان الحضارة الغربية ، ونحن دخلناها منذ أكثر من مائة سنة • ومع ذلك أصبحت اليابان اليوم من أكبر الدول في العالم • هزمت في الحرب اسوأ هزيمة ، ومع ذلك خرجت قوية تبني نفسها ، لان فيها الحضارة بلا رجعة • أما عندنا فإن حبلا من مسد أو من حديد أو من صلب ، لا أدرى ، تشدنا الى الماضي دائما • ولذلك نجد عندنا طبعاً عجيباً ، هو اننا نتحرك خطوة الى الامام وثلاث خطوات الى الوراء •

أسف ان اسالكم : عن أى شيء تتكلمون ؟ لقد كنا نحيا وسط أوروبا لقد ربى جيلنا على ان يتجه الى أوروبا ، وان يكون مثل أوروبا • وكنا في هذا الطريق • • وتقولون اليوم أننا متخلفون ؟ ما حدث هو انزلنا عن أوروبا • وعندما انزلت هذه الأجيال عن أوروبا بدأ التفهقر العقلي • هذه هي المسألة وكنا مائلين على اتصال بأوروبا • الاستاذ يحيى حتى يقول في كتابه ان الاجريبي حين يفتح مخبراً تجده نظيفاً يرتدى البالط الابيض ، وترى كل محله نظيفاً ، بالكروم ، بالتيكل ، لان الاسكندرية أقرب الى الحضارة منا •

كنا كطليبة أو كموظفين أو رجال اختصاص ، المهندسين أو الطبيب الذي لم تتح له بعثة الى أوروبا ، كان الواحد منا يدخر بعض المال ويذهب الى أوروبا • الاطباء يذهبون الى المستشفيات هناك المهندسون يشاهدون المشروعات • بهذا نعيش وسط أوروبا ، كنا نتقدم • هذا كل ما أريد ان اقله •

الاستاذ يحيى حتى يبحث عن السبب وراء تخلفنا ... لا تخلف • وقد قال الدكتور فؤاد زكريا قولاً عظيماً جداً ، قال ان للميوب عندنا ما يقابلها في أوروبا ، ولو اردنا ان نجد في أوروبا من العيوب التي خلعتها الاستاذ يحيى حتى على شعبنا لأنينا بالكثير عن أوروبا • لقد جاء بالفنائل التي تبدو عندنا تخلفية • لكن اذا رأيت تحركاتنا ، حقيقة ، تجد اننا في طريق التقدم • فما الذي حدث ؟ حدث نوع من التخلف لأسباب خارجة عن نطاقنا • جاءت الحرب العالمية • وبعد الحرب العالمية لا ننسوا فلسفة فلسطين ، لأنها خلفت مشكلاً عجيباً جداً • انت اليوم في موقف • اذا كنت تريد الحرب فيجب ان تتخلى عن طاقاتك للخرب • واذا كنت تريد ان تتجه الى السلام فيجب ان تتجه الى طاقاتك الى السلام • ولا عيب علينا أبداً اذا كانت طاقاتنا تتجه الى احقاق الحق في الارض المقدسة •

ابراهيم الصيرفي : نحن نريد لهذه الطاقات ان تتجه ووراءها هذا الثقل الحضاري وهذا الوعي وتلك الرؤية الواضحة التي نتكلم فيها الآن • يعنى اننى ارى ان الندوة يمكن ، في مناقشتنا لهذا الكتاب ، ان تعطينا ارضية وجودنا ، لان الكتاب يمسك بجوهر المشكلة •

د • حسين فوزي : جوهر المشكلة ان يحيى حتى ، وهذا ما أريد ان ارد عليه فيه ، يعتبر الحضارة الغربية ليست حضارتنا • يقول في ص ٧٣ : (اما نحن فاذا ذهبنا الى روما أو اثينا ففى جعبتنا تراث عريق ، اصيل ، متميز ، له تعاليمه الخاصة به ، يكفينا اعتزازاً ان بلادنا هي مهبط الاديان المساوية ،) أى ان كل ما وجده حضرة اثنا مهبط الاديان السماوي •

من مسيحية ويهودية وإسلامية ، ونسى أن مصر هي ، عند كل أوربي وكل أمريكي ، مهبط الحضارات . مصر مهبط الحضارات وكل أوربي يعترف بذلك . ما هي حضارة اليوم ؟ أ. ضائع في هذه الحضارة ثلاث مرات في تاريخي . المرة الأولى هي الحضارة المصرية القديمة ، وقد اعترفت اليونان بأنها من أصول حضارتها . المرة الثانية في مصر المسيحية . والمسيحيين في أوروبا تعترف بما كان للرهبنة المصرية في العصر المسيحي من أثر عظيم جدا في الدين المسيحي . وربما لا يعرف ذلك المسيحيون في مصر . والمرة الثالثة نحن ضالعون في هذه الحضارة عندما دخل الاسلام مصر ، وأصبحت مصر في العالم الاسلامي قطبا من اقطابه . فما ينسبونه الى الحضارة العربية وما ادته لعهد الاحياء في أوروبا ، أرجوكم أن تنسوا مصر ، لأن مصر جزء من هذا العالم العربي الذي أضاف واحتفظ بعلوم اليونان .

الاستاذ يحيى حتى ينسب الى الاوربيين ان الذين صنعوا الحضارة العربية ليسوا عربا ، مع ان هذا صحيح . الذين صنعوها هم المسلمون ، ولذلك اذا قلت حضارة اسلامية كنت محقا ، لأن الرجل الذي عمل لك الاجرومية وأدب اللغة أما فارسي أو رومي أو تركي . في عيد ابن سينا اختلفت ثلاث دول . العرب والفرس والأتراك كل منها يدعيه لنفسه ، وبذلك تحقق في عظمة ابن سينا ما قيل عن هومروس من أن سبعة مدن اختلفت وادعت نسبته اليها ، وأنه ولد فيها . هذا ما أريد أن أقوله . حضارة أوروبا أنا ضالع فيها أكثر من الإسكندراني . اذا كان الإسكندراني صنع فيها شيئا في القرنين الآخرين ، فانا منذ أول التاريخ . هذه الحضارة التي تقول عليها انها الحضارة الغربية ، هي حضارتي أكثر منها حضارة أي انسان . هذه هي المسألة .

الاستاذ يحيى حتى يقول : « هؤلاء العرب القادمون من الشمال » الى آخر تلك الفقرة بصنعة ٧٣ . ثم يتهم شخصا بفعل الحضارة اليونانية انه لا يمكن الا أن يكون دعيا . بأي حق يا سيدي تقول هذا ؟ كيف تقول ان انسانا يفعل بالباتنيون ويفعل بمايكل أنجلو دعي وانت الرجل الذي قابلته في روما ورأيتته يسجد ويركع أمام تلك الفنون . هذه حضارتي ، كالحضارة المصرية ، كالحضارة الاسلامية . ميزة حضارة اليوم انها أخذت كل الحضارات وانها تتحرك أمام كل الحضارات ، وانها تعترف بانها تأخذ من كل الحضارات ، وتعترف بانها جاءت من كل الحضارات . تعترف للإسلام وتعترف للعرب وللمصريين وتعترف للمسيحية ، وقد خرجت من أرضنا . تقول اني ناتجة من كل هذا : من العهد القديم من الانجيل والتوراة ، من الاسلام ، ومن اليونان .

ابراهيم الصيرفي : واضح ان سيادتكم متفق تماما مع الدكتور فؤاد ذكريا في هذه الاتجاه . يحيى حتى : الحق انني في هذا الفصل ؛ بالذات الذي اشار اليه الدكتور حسين فوزي كنت شاهد صدق . نقلت في الكتاب ما أحسسته في نفسي وما رأيته في غيري من المصريين . عندما كنت في روما - كما يقول فوزي - كان يأتيني كثير من المصريين من اصقالي ، فكنت اصحبهم الى كنيسة سان بيتر ، القديس بطرس ، وأريهم آثار روما القديمة . لم أحس لدى أي واحد منهم أية هزة روحية ، وأنه انتقل من الظلام الى النور . لكنني عندما قرأت ما قاله جسوتة عن كيف كان الانتقال عبر الالب من بلاد الضباب الى بلاد النور ، اكبر حدث في حياته ، وعن المصورين الفرنسيين والهولنديين الذين يخرجون من بلادهم الى الشمس . . . انما طبعا شهدت للمقاريه انه لا توجد هزة روحية للقادمين من الجنوب ، من بلاد الشرق الى روما ، كالهزة الروحية التي تصيب القادمين من بلاد الشمال . هذه شهادة صدق .

د . فؤاد ذكريا : ربما نكون قد ابتعدنا قليلا عن روح الكتاب وعن هدفه اذا اختلفنا كثيرا في مسألة الأصول . الكلام عن الأصول كلام يمكن أن يأخذ منا ساعات طوال . ولكن المشكلة التي يتصدى لها لكتاب ويمالجها ، والتي كانت تقلق مؤلف الكتاب ، ونحس في كل سطره انه بالفعل مهوم بها في الوقت الحاضر ، أي ما فات فات ، فما الذي نفعله الآن .

يحيى حتى : بالضبط . . . بالضبط . . . لو سألنا السؤال : فيم تختلف الآن مهما كانت د فؤاد ذكريا : تلك هي المشكلة العاجلة . الحق ان هناك كلمة لم تات في الكتاب ، مسألة الأصول ؟ فيم تختلف الآن عن الغربيين ؟ الحق ان هناك كلمة لم تات في الكتاب ،

وان كان الكتاب يشير اليها من قريب ومن بعيد ، تلك الكلمة هي العقلانية • انا ارى ان ما يلخص حضارة الغرب ، كما وردت في هذا الكتاب ، هو صفة العقلانية • ولو اخذنا هذه الصفة كمحور لوجدنا ان جميع الملاحظات الدقيقة الجميلة التي وردت في هذا الكتاب انما تدخل في اطار كلمة العقلانية • انهم مثلا قوم لا يبدون الوقت ، كما هو الحال عندنا ، لكل دقيقه عندهم حساب ، ولها قيمتها ، وكذلك نلاحظ عندهم عسدم الخلط بين العلاقات الشخصية والعلاقات اللابشخصية • وكذلك تجرد الغربي من الانفعالات الحادة المفرطة • لا يفعلون اكثر من اللازم ، ولا يهدأون ، ان انفعلو ، سريعا •

يحيى حقى : كما قلت في فصل « الاشتغال والانطفاء » •

د • فؤاد زكريا : فصل جميل للغاية ، ويدخل في نظرى تحت باب العقلانية • كذلك التقدم التكنولوجى • عندهم النظام والدقة • كل شىء يأتى فى وقته ، لا تبديد للطاقات ، سواء كانت طاقات الآلات أو طاقات البشر • لا تجد موطئا يقرأ « الجرنال » ويشرب القهوة ويستقبل زواره طول النهار • ليس عندهم شىء من هذا • كل ذلك يدخل في نظرى في باب العقلانية • لدرجه ان الكلمة المستخدمة في مجال الاقتصاد و« ترشيد الانتاج وتنظيمه » وهي كلمة Rationalization في الانجليزية هي اصلا مشتقة من كلمة Ratio اللاتينية وتعنى العقل ، أى تنظيم العقل والافادة منه الى أقصى حد ، وعدم تبديد أى طاقة • الكلمة مستمدة من العقل •

لو قارنا بين حياتنا وحياة الغرب في هذا لوجدنا ان اهم ما يجب ان ننجزه لكى نلحق بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمعقولة سواء في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة •

ابراهيم الصيرفى : بطريقة نظرية ؟؟

د • فؤاد زكريا : اضرب مثلا • • • يخيل الى ان الفنون في الغرب قد تاثرت بهذه العقلانية • انا مثلا عندما ارى الفرقة الموسيقية ، الدقة الكاملة التي تؤدي بها هذه الفرقة « الاسكور » الذي تعزفه ، حركة الكينجيات المنظمة ، الاقواس في صعودها وهبوطها • • • الهمس الخافت ثم الصمخ العالي • كل هذا ليس الا عملية ترشيد كالتى تراها فى المصنوع فى سيرة المنتظم ، ومع ذلك فانها لا تتعارض مع الحساسية ولا مع الذوق ولا مع الجمال ، بل لقد زادته • هذا ما يميز الغرب عنا •

ابراهيم الصيرفى : كنت اريد ان اقول لسيادتكم ما السبيل الى هذه الترشيديات وهذه المعقلانية ؟ ما السبيل الى اكتسابها كحل من الحلول التي تتلمس ؟ هل تاتى بزييد من الدراسة ؟ ام من الدراسة مقترنة بالعمل ايضا ومنعكسة عليه في حياتنا ؟

يحيى حقى : هذا اهم سؤال حقيقة • •

د • حسين فوزى : تحبوا اجابو عليه ؟

الجميع : اتفضل يا دكتور فوزى • •

د • حسين فوزى : انا اصلى • • • يحيى لا يعرف انى باحث عن تلك الحضارة طول عمرى ، والى الآن ، وداثما يستمر هذا البحث • اريد ان اقول لك انه ما زالت عندنا فكرة هي ان الذى يخلق الحضارة شخص واحد عبقري • كيف تتقدم اوربا ؟ هذه هي المانيا مهدمة بعدد الحرب • كل بلد اوروبى يجيا مع البلاد الاوربية الاخرى • الاتصال كامل • ما على الفرد الا ان يجهز عربته لينتقل في اوربا من بلد لآخر ، من اقصى اوربا الى اقصاها • النابغة العبقري يكتشف اكتشافا فيقوم احد الحسان بتطبيقه فى بلد ما ، فاذا هو مطبق فى الناحية الاخرى من اوربا ، وبطريقة افضل •

د • فؤاد زكريا : الان نجد في الحضارة الاوربية جوانب سلبية ايضا • • صحيح لا ينبغي ان نخلط بين الجانب الشخصى والجانب اللاشخصى • لكن عندنا الجانب الانسانى • يقع احد الناس على الارض فيجتمع حوله ثلاثون شخصا • اما هناك فلا احد • • حتى ياتى الاسعاف وكذلك الجادة عندما يمكن ان تعنى بآبن الجيران •

د • حسين فوزى : هؤلاء الذين يلتفون حومه عندنا يخفون • • في البلد المتحضر يجسبل الشرطى تليفونا لاسلكيا في جيبه • يتصل • فيأتى الاسعاف •

د • **فؤاد زكريا** : والله رايتهم يهملونه • عندنا جوانب انسانية ..
ابراهيم الصيرفي : اذا سمحت لي .. هل هذه الجوانب وليدة اختلاف خلقى نوعى ابدى فى
الانسان عندنا • ام اننا حين نتحضر .. د • **فؤاد زكريا** : هذا ما كنت سأقوله بالضبط •
كنت اريد ان اقول : ليس من الجائز ان قوة هذه الروابط عندنا نتيجة بقايا روابط

مجتمع ريفى ؟

د • **حسين فوزى** : فى القرى الاوربية نجد ما قد يتفق مع روحنا .. الانسانيه كما يقول الدكتور
فؤاد زكريا ان ازورك فتقدم لى فنجالا من القهوة واعطك عن عملك • هذه انسانية •
جاءنى ذات مرة صديق من لندرة وانا فى تولوز وحكى لى كيف انفق فى بنك تولوز وقتا
طويلا كى يصرف نقوده • وقال لى لو ان الامور تجري على هذا النحو فى لندرة لتعطلت
وتوقفت كل حركة فيها • وعلى فكرة يا استاذ يحيى .. مصطفى كامل تخرج فى
جامعة تولوز وليس فى جامعة مونيبلية •

يحيى حقى : نعم ..

د • **حسين فوزى** : وانا افخر الى كنت فى جامعة تولوز • وكثير من زملائه يذكرونه بالخير •
ابراهيم الصيرفي : لا شك ان هناك فرقا بين المدينة والقرية فى كل بلاد الدنيا •
د • **فؤاد زكريا** : الحق انى لم اقل ما قلته على انه ميزة • انما اخشى ان اقول ان هذه الانسانية
عندنا وليدة نوع من التخلف •

يحيى حقى : السؤال الاخير : هذه الهموم المصورة فى هذه الندوة او فى طبقات المثقفين .. كيف
نقلها الى وجدان الشعب ؟

ابراهيم الصيرفي : هذا هو السؤال !!

يحيى حقى : ماذا نفعل ؟ قلت نعمل ندوة فى الحى الذى يقع فيه القرن ونجمع سكان الحى ونجلس
معهم ، نقول لهم انتم ابناء الحى وتلك ظروفه • فماذا نفعل ؟

د • **حسين فوزى** : نغير طقم وزارة التربية والتعليم كلية • لان المدوس فى المدرسة الابتدائية
ليس عنده الا الحطة والا الكتاب يدرسه، ولكنه لا يقول للتلميذ الزم شارات المروى فى
عبورك الشارع • التربية مفتقدة • لا بد من تربية الاولاد فى المدارس • ليست
المدرسة عملية برامج وتحفيظ ، المدرسة الى ذلك وفوق ذلك سلوك • لا انس وانا فى
المدرسة الابتدائية انى ذهبت ذات يوم بارد فى الشتاء وكنت ارتدى بالطو ، فخلعوه عنى
وقالوا لى : يا ولد اتلبس بالطو فى هذه السن ؟ فماذا تفعل حين تغدو شيخا ؟ ودخلت
ارتعد من البرد • ووقفت فى الطابور • هذه تربية لا انسانها وقد وجدت من عائلتى من
يربئى نفس التربية • ووجدت فيها شيئا من الاسبرطية فى تربيتى • المدرسة تخلق
الشخص •

يحيى حقى : ووسائل الاعلام ؟

د • **فؤاد زكريا** : لها هى الاخرى ولا شك دورها فى التربية • واضح ان اجهزة الاعلام تشجع قيم
التكامل والاهمال والبطلية .. الخ • يجب ان يراعى اختيار ما يعرض على الناس بكل
دقة ، من تيشيلات وأفلام .. الخ •

يحيى حقى : لا تزال المهمة موكولة الى المثقفين • لا بد من التحاجم على هذه القضية حتى تتبلور
وتأخذ مكانها •

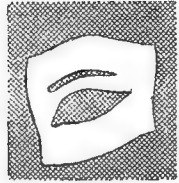
ابراهيم الصيرفي : والله انى لآتمنى ان يقوم المهتمون بهذه القضية بحملة اعلانات كحملة
سائفو ، يشغلون بها الراى العام بطريقة مقصودة ومعينة فى سبيل بلدنا •

د • **حسين فوزى** : يا سيسىدى الاوربى المتحضر تربى فى بيته ومدرسته على الحياة • يعلمونهم
فى المدارس الابتدائية حركة المرور فى الشوارع •

د • **فؤاد زكريا** : ولا تنس ان هذا الكتاب جهد فردى ، ولا يمكن ان يأتى الحل على يدى فرد •
الفرد يتكلم بضميره واحلامه شكل الاستاذ يحيى حقى • لكن الحل انما يأتى على يد
شعب كامل • وما لم يعمل الشعب ، ويبذل مزيدا من الجهد والعمل ، خلا امل •

د • **حسين فوزى** : فى النهاية .. الاستاذ يحيى حقى صديقى وانا استعمل صداقتى لى حرية
النقد • لكننى احب ان اؤكد ان هذا الكتاب عبارة عن حجر هام جدا فى طريق

الاصلاح



مجلة
الفكر المعاصر
فهرس

نوفمبر ١٩٦٩ - فبراير ١٩٧٠

فهرس الكتاب

العدد - صفحة

المقار

المؤلف



١٠٣ - ٩٩ : ٥٥	بابلو نيرودا .. واحد من شعراء المقاومة (ترجمة)	ابراهيم الصيرفي
	تأليف : روبرت بلاي	
٦٨ - ٦٣ : ٥٧	واي جديد في اللغة والشعر	ابراهيم عامر
٣٣ - ٢٨ : ٥٠	مصر النهرية	د . ابراهيم مذكور
١١ - ٦ : ٥١	القاهرة مدينة ثقافية	د . أبو الوفا التفتازاني
٢٣ - ١٦ : ٥٢	مصطفى حلمي ودراسات التصوف الاسلامي	احمد ابراهيم الشريف
٢٠ - ١٤ : ٥٥	هل يؤثر القمر في حضارة الأرض ؟	احمد السعدني
٩٣ - ٨٥ : ٥٥	تجارب توينبي في التاريخ والحياة	
٣١ - ٢٤ : ٥٨	هربرت ماركيوز والانسان ذو البعد الواحد	احمد فؤاد بلبع
١٩ - ١٣ : ٥٧	البرت لوتول بعد عامين على مصرعه	
٦٩ - ٥٧ : ٥٥	بول باران .. اقتصادي اشتراكي في أمريكا	
٤١ - ٣٣ : ٥٨	هربرت ماركيوز .. ونظرية نقد المجتمع	
٢٧ - ١٩ : ٥٩	جسر بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية	د . اسامة الحقول
٩ - ٤ : ٥٣	وجه جديد للتقدم التكنولوجي	
٩٥ - ٨٦ : ٥٩	طبيعة الموضوعية في التفسير التحليل النفسي	د . احمد فائق
٥٦ - ٤٨ : ٥٨	عناصر الحرب النفسية	
٢٣ - ١٢ : ٥٨	المتقنون والسياسة في الولايات المتحدة	اسعد حليم
١٩ - ١٢ : ٥٤	هجرة العقول .. خطر يهدد الدول النامية	
١٥ - ١٢ : ٥٢	لبنين والمتقنون	
٨٠ - ٧٠ : ٥٩	الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الماركسي	ب . اكسييف
٢٧ - ١٢ : ٥٠	الطابع القومي للشخصية	ترجمة : رمزي جرجس
٣٣ - ٢٨ : ٥٧	نحو الدراسات الاجتماعية للظواهر الادبية	السيد ياسين
٤٩ - ٣٨ : ٥٥	الارادة والحرية عند الدكتور زكي نجيب محمود	
٣٤ - ٢٤ : ٥٢	الجبر الذاتي عند زكي نجيب محمود	امام عبد الفتاح امام
٦٠ - ٥١ : ٥٩	الجدل والعلوم الانسانية	
٨٥ - ٨١ : ٥٩	العلوم الانسانية بعد ان ذاب الجليد	مير انيسكندر
٣٦ - ٢٠ : ٥٤	الفلسفة المفتوحة والمجتمع المفتوح	
١٣١ - ١٢٤ : ٥٠	مفاهيمنا الاخلاقية والعودة الى النبع	
٨١ - ٧٤ : ٥٨	ه . ج . ويلز وأول رحلة الى القمر	د . انجيل بطرس سماعيل

ب

- حول مقال أزمة الشعر الجديد ٥٥ : ١٠٤ - ١٠٧
تأسيس القاهرة تعبير عن الرقي الإنساني . ٥١ : ٦٤ - ٦٨
بابلونيرودا واحد من شعراء المقاومة . . ٥٥ : ٩٩ - ١٠٣

بدر توفيق
بلاشير ، ريجيس
بلاي ، روبرت
ترجمة : ابراهيم الصيرفي

ج

- أزمة الشعر الجديد ٥٣ : ٧٠ - ٨١
حول مقال أزمة الشعر الجديد ٥٥ : ١٠٤ - ١٠٧
قاهرة الألف عام ٥١ : ٧٨ - ٣٦
القصة القصيرة من الأزمة الى القضية . ٥٢ : ٦٢ - ٧٥
حيرة الفن بين فلاسفة الفن ٥٧ : ٣٤ - ٤٠
دعوة الى التسلوق الفني ٤٩ : ٧٦ - ٨١

جلال العشري

جمال بدنان

ح

- شعرنا كيف يعبر عن شخصيتنا ٥٠ : ١٥١ - ١٥٩
الأفغانى باعث النهضة الفكرية ٥١ : ٣٧ - ٤٨
بين ياسيرز ونيتشه ٥٦ : ١٢ - ٢٣
التفكير الدينى وازدواجية الشخصية . . ٥٨ : ٥٨ - ٦٨
الغاهريات وأزمة العلوم الأوروبية . . ٥٩ : ٣٨ - ٥٠
كارل ياسيرز يرثى نفسه ٥٣ : ١٠ - ٢١
حول المهرجان الثقافى الافريقى . . . ٥٤ : ٣٤ - ٣٥
الفكر المعاصر وعصر القمر ٥٥ : ٢١ - ٣٧

حسن توفيق
د . حسن حنفي

حسين اللبودى

- نظرة جديدة الى فن الشعر (ترجمة) . . ٦٠ : ٧٢ - ٧٥
تأليف : كينيث روكسبروث

خ

د • خليل صابات

مصر الاستعمار والثورة • • • • • ٥١ : ٤٩ - ٥٧
 من تاريخ الحرب النفسية • • • • • ٥٧ : ١٩ - ٢٧
 العودة الى المنفى • • • • • ٥٥ : ٩٤ - ٩٨

خيري شلبي

ر

رشدي صالح
 وضوى عاشور
 د • رمسيس عوض

شخصيتنا في المأثورات الشعبية • • • • • ٥٠ : ١٣٢ - ١٣٨
 البياتي في تجربته الشعرية • • • • • ٥٤ : ٥٢ - ٥٥
 سالتجر • • والمراهق المتمرد • • • • • ٥٣ : ٦٣ - ٦٩

ز

زكريا فهمي

مكان العلم في المجتمع المعاصر • • • • • ٥٨ : ٦٦ - ٧٣

س

سامح كريم

مع د • احمد عزت عبد الكريم • • • • • ٥١ : ١٠٤ - ١٠٩
 مع خالد محيي الدين • • • • • ٥٣ : ٤٧ - ٥٤
 مع د • محمد حسن الزيات • • • • • ٥٥ : ٧٦ - ٨٤
 مع د • محمد عوض محمد • • • • • ٥٠ : ١٦٠ - ١٧٠
 موسيقانا الشعبية • • الى أين ؟ • • • • • ٥٠ : ١٣٩ - ١٤٥
 مولد فن جديد • • • • • ٥٤ : ٥٦ - ٦١
 النقد الأدبي بين العلم والفن • • • • • ٥٣ : ٥٥ - ٦٢
 النقد التحليلي عند شارل مورون • • • • • ٤٩ : ٥٣ - ٥٧
 الزمن التراجيدي عند جيمس جويس • • • • • ٥٦ : ٦٨ - ٧٥
 ما وراء فلسفة تاريخ الفن • • • • • ٥٣ : ٨٢ - ٨٩
 نزعة الابتعاد عن الواقع • • • • • ٥٠ : ٩٢ - ١٠٣

د • سامية أسعد احمد

سعد عبد العزيز

د • سعد المغربي

المؤلف	المقال	العدد - صفحة
عبد الخليم محمود السيد	أسلوب تحليل المضمون واستخداماته . . .	٥٩ : ٩٦ - ١٠٤
عبد الحميد فرحات	جينزبرج . . . أمريكي له قلب بونى . . .	٥٨ : ٤٢ - ٤٧
عبد العاطى جلال	أصواء جديدة على الحضارة العربية . . .	٥٨ : ٨٢ - ٨٧
عبد القفار مكواى	تأسيس القاهرة وتعبير عن الرقى الانسانى (ترجمة)	
	بقلم ريجيس بلاشير	٥١ : ٦٤ - ٦٨
	تحية لك	٥١ : ٤ - ٥
	خواطر في فلسفة التاريخ	٥٩ : ١١٧ - ١٢٧
عبد الفتاح الديبى	دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة . . .	٥٢ : ٥٩ - ٦١
	رد على نقد	٤٩ : ٥٠ - ٥٢
عبد المجيد شكرى	في مرض الفن الاسلامى	٥١ : ١١٤ - ١١٨
د . عبد المنعم تليمة	بين النظرية والمهتج في النقد الادبى . . .	٥٩ : ١٣٦ - ١٤٣
عبد الواحد الامبارى	التكنولوجيا وتوازن البيئة الانسانية . . .	٥٦ : ٧٦ - ٨٢
	ملاحم الفلسفة الافريقية	٤٩ : ٣٤ - ٣٩
د . عثمان أمين	جمال الدين الافغانى في القاهرة	٥١ : ٧٥ - ٧٩
د . عزت حجازى	الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية . . .	٥٠ : ٤٠ - ٤٩
غفاف لطفى السيد	الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلماء القاهرة . . .	٥١ : ٦٩ - ٧٤
علاء الدين وحيد	القوة السوداء واللاس سياسة اللا عنف . . .	٤٩ : ٧١ - ٧٥
على حسن فهمى	شخصيتنا بين القدريّة والتواكلية	٥٠ : ٨٠ - ٨٤



د . فؤاد زكريا	الاشتراكية والقيم الروحية	٥٦ : ٤ - ١١
	بين معرض ومؤتمر	٤٩ : ٤ - ١٠
	حول فكرة الاتصال في تاريخ الفلسفة . . .	٥٧ : ٤ - ١١
	الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القاهرة . . .	٥١ : ١٨ - ٢٧
	خواطر هادئة حول رحلة القمر	٥٥ : ٤ - ١٣
	شباب أمريكا وفلسفة التمرد	٥٨ : ٤ - ١١
	شخصيتنا القومية . . . محاولة في النقد الذاتى . . .	٥٠ : ٤ - ١١
	عقبات في طريق العلوم الانسانية	٥٩ : ٤ - ١٢
	علم جديد للشباب	٥٤ : ٤ - ١١
	كارل ياسبرز بين الفلسفة والسياسة	٥٢ : ٤ - ١١
	نحن والعلوم الانسانية	٥٩ : ١٠٥ - ١١٢
فؤاد مرسى	البعد الاجتماعى للشخصية المصرية	٥٠ : ٣٤ - ٣٩
فتحي العشرى	الفكر المعاصر وعصر القمر	٥٥ : ٢١ - ٢٧
	مستشرقان من الشرق والغرب	٥١ : ١١٠ - ١١٣



- ملاح من شخصية المرأة المصرية * * * ٥٠ : ١١٤ - ١٢٣
فننا بين المحلية والعالمية وروح العصر * * * ٥٠ : ١٤٦ - ١٥٠

كاميليا عبد الفتاح
كمال الجويلي



- الطب النفسي المعاصر * * * * ٥٩ : ١١٣ - ١١٦
الجنس ضد الجمال * * * * ٥٧ : ٨٠ - ٨٤
ترجمة : محمود عبد العزيز

لطفي فطيم
د ه * لورنس



- القصة العلمية الى أين ؟ (ترجمة * * * ٥٢ : ٧٦ - ٨٣
بقلم : دكتورى * هينجر
الاتجاه التحليلي في النقد المعاصر * * * ٥٢ : ٨٤ - ٩٠
الاتجاه الكلاسيكي عند ت ١٠ هيوم * * * ٥٧ : ٧٢ - ٧٩
ازدا باوند * * * أبو الشعر الحديث * * * ٥٤ : ٩٣ - ٩٨
النقد الأخلاقي عند ليفز * * * * ٤٩ : ٥٨ - ٦٦
الفلسفة أو هذا الجنون المعقول * * * * ٥٧ : ٥٧ - ٦٢
الوجودية الدينية وتحديات العصر * * * * ٥٣ : ٣٥ - ٤٣
اسهام الفاطميين في الفلسفة الإسلامية * * * ٥١ : ٩٧ - ١٠٣
مع د * حسين فوزي * * * * ٥٤ : ٧٩ - ٨١
الفكرة العربية في مصر * * * * ٥٠ : ١٠٤ - ١١٣
أثر القاهرة في نهضة اللغة العربية وآدابها * * * ٥١ : ٨٠ - ٨٨
البحث عن الشخصية المصرية في الفن * * * ٥٨ : ٨٨ - ٩٧
تجبة حليم * * * * والفن * * * ٥٤ : ٦٢ - ٧٣
روائع التصوير الفرنسي في القاهرة * * * ٤٩ : ٨٩ - ٩٣
محاولات جديدة لتفسير تراث ابن رشد * * * ٥٧ : ٤٨ - ٥٦
اليسار الأمريكي الجديد * * * * ٤٩ : ٦٧ - ٧٠

ماجدة جوهر

ماهر شفيق فريد

مجاهد عبد المنعم مجاهد

محبوب ابن ميلاد

محمد السيد شوشة

محمد العزب موسى

تأليف : أنيس صايغ

محمد خلف الله أحمد

محمد شفيق

محمد عاطف العراقي

محمد عاطف الفهرى

المؤلف	المقال	العدد - صفحة
محمد عبد الحميد فريح	الزنجية .. ملامحها .. قضاياها . . .	٤١ - ٣٦ : ٥٤
د . محمد عبد الرحمن يريج	هوشى منه .. بين الشعر والثورة . . .	٣٨ - ٣٣ : ٥٣
محمد علي بركات	التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية .	١٥ - ١١ : ٤٩
محمد كامل القليوبى	الجديد فى موضوع التساريخ	٧٨ - ٧٤ : ٥٤
د . محمد محمود الجوهري	ماذا جرى للتعلم الأمريكى ؟	٣٨ - ٣١ : ٥٦
محمود رجب	رؤى تشكيلية جديدة فى معرض الفنان سليم .	٩٨ - ٩٤ : ٤٩
محمود عبد العزيز	دراسة المجتمع بين الامبريقية والتنظير	٦٩ - ٦٠ : ٥٩
	نحن وظاهرة الاغتراب	٩١ - ٨٥ : ٥٠
	الجنس ضد الجمال (ترجمة)	٨٤ - ٨٠ : ٥٧
	بقلم : د . هـ لورنس	
محمود عودة	القروى المصرى بين التقليد والتجديد . .	٥٧ - ٥٠ : ٥٠
د . محمود فهمى حجازى	الحضارة الاسلامية كما يراها مستشرق معاصر	٥٨ - ٥٣ : ٥٣
محمود محمود	اللغة العربية فى ضوء البحث الحديث . .	١٤٩ - ١٤٤ : ٥٩
محي الدين خطاب	الكوميديا طريقة من طرق التفكير . . .	٤٩ - ٤٠ : ٤٩
مريم الخولى	روزا لوكسمبرج وحركة الفكر الاشتراكي .	٥٠ - ٣٩ : ٥٦
	كزانتزافي .. ذلك الكاتب السياسى (ترجمة) .	٥١ - ٤٨ : ٥٣



نجال، حامد	الحركة الوطنية فى مصر	٤٦ - ٣٩ : ٥٣
د . نعيم عطية	التشكيل الجديد عند موندرين	٨٨ - ٨٢ : ٤٩
	وينيه ماجريت والواقعية السعيرية . .	٩٨ - ٩٠ : ٥٣



دكتورى . هينجر	القصة المسلمية الحديثة الى أين ؟ . . .	٨٣ - ٧٦ : ٥٢
	ترجمة : ماجدة جوهر	



يحيى عبد الله	مشكلة الاعتقاد فى الفكر المعاصر . . .	٨٨ - ٨٢ : ٥٤
---------------	---------------------------------------	--------------

فهرس المقالات

العدد الصفحة

الكاتب

المقال



٨٠ - ٧٠ : ٥٩	السيد ياسين	الاتجاهات الحديثة في علم الاجتماع الماركسي
٩٠ - ٨٤ : ٥٢	ماهر شفيق فريد	الاتجاه التحليل في النقد المعاصر
٧٩ - ٧٢ : ٥٧	ماهر شفيق فريد	الاتجاه الكلاسيكي الجديد عند ت. هوم
٨٨ - ٨٠ : ٥١	محمد خلف الله أحمد	أثر القاهرة في نهضة اللغة العربية وآدابها
٤٩ - ٣٨ : ٥٥	امام عبد الفتاح امام	الارادة والحرية عند الدكتور ذكي نجيب محمود
٧٥ - ٧٠ : ٥٥	عاطف القمري	الأرض والفلاح والحركة الوطنية في مصر
٩٨ - ٩٣ : ٥٤	ماهر شفيق فريد	اذرا بلوند
٨١ - ٧٠ : ٥٣	جلال العشري	أزمة الشعر الجديد
١٠٤ - ٩٦ : ٥٩	عبد الحليم محمود السيد	أسلوب تحليل المضمون واستخداماته
١٠٣ - ٩٧ : ٥١	محجوب بن ميلاد	اسهام الفاطميين في الفلسفة والاسلام
١١ - ٤ : ٥٦	د. فؤاد زكريا	الاشتراكية والقيم الروحية
٥١ - ٤٢ : ٥٤	شوقي جلال	الاصوات والاشعارات
٨٧ - ٨٢ : ٥٨	عبد العاطي جلال	أصواء جديدة على الحضارة العربية
٤٨ - ٣٧ : ٥١	د. حسين حنفي	الأفصاني باعث النهضة الفكرية
١٨ - ١٢ : ٥٧	أحمد فؤاد بلبع	البرت لوتنولي بعد عامين على مصرعه



١٠٣ - ٩٩ : ٥٥	روبرت بلاي	بابلو نيرودا واحد من شعراء المقاومة
٩٧ - ٨٨ : ٥٨	ترجمة : ابراهيم الصيرفي	البحث عن الشخصية المصرية في الفن
٣٩ - ٣٤ : ٥٠	محمد شفيق	البعد الاجتماعي للشخصية المصرية الحاضرة
٦٩ - ٥٧ : ٥٥	د. فؤاد مرسى	بول باران
٥٥ - ٥٢ : ٥٤	أحمد فؤاد بلبع	البياتي في تجربته الشعرية
١٠ - ٤ : ٤٩	رضوى عاشور	بين معرض ومؤتمر
١٤٣ - ١٣٦ : ٥٩	د. فؤاد زكريا	بين النظرية والمنهج في النقد الأدبي
٢٣ - ١٢ : ٥٦	د. عبد المنعم تليمة	بين ياسبرز ونيشيسه
	د. عمنن حنفي	



- تاريخ الأزهر وتطوره د. سيد عبد الفتاح عاشور ٥١ : ١٢ - ١٧
- التاريخ الجديد ومستقبل الكتابة التاريخية . . . د. محمد عبد الرحمن برج ٤٩ : ١١ - ١٥
- تاريخ القاهرة الاقتصادية سليمان مصطفى زبيس ٥١ : ٨٩ - ٩٦
- تأسيس القاهرة وتعبيره عن الرقي الانساني د. نجيب بلاشير ،
ترجمة : عبد الغفار مكاوي ٥١ : ٦٤ - ٦٨
- تجارب توينبي في التاريخ والحياة احمد السعدني ٥٥ : ٨٥ - ٩٣
- تحية حليم . . . والمصرية في الفن محمد شفيق ٥٤ : ٦٢ - ٧٣
- تحية لك د. عبد الغفار مكاوي ٥١ : ٤ - ٥
- التخطيط التربوي في البلاد النامية د. سعيد اسماعيل علي ٥٦ : ٦٠ - ٦٧
- التشكيل الجديد عند موندريان د. نعيم عطية ٤٩ : ٨٢ - ٨٨
- التفسير الاجرائي في الفلسفة المعاصرة سعيد اسماعيل علي ٤٩ : ١٦ - ٢٦
- التفكير الديني وازدواجية الشخصية د. حسن حنفي ٥٠ : ٥٨ - ٦٨
- التكنولوجيا وتوازن البيئة الانسانية عبد الواحد الامبايي ٥٦ : ٧٦ - ٨٢



- جان جينيه . . . المهرج والشهيد سمير نفا ٥٤ : ٨٩ - ٩٢
- الجبر الذاتي عند الدكتور زكي نجيب محمود . . . امام عبد الفتاح امام ٥٢ : ٢٤ - ٣٤
- الجنس والعلم الانسانية امام عبد الفتاح امام ٥٩ : ٥١ - ٦٠
- الجديد في موضوع التاريخ د. محمد عبد الرحمن برج ٥٤ : ٧٤ - ٧٩
- جسر بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية . . . د. اسامه الحقوي ٥٩ : ١٩ - ٢٧
- جمال الدين الافغانى في القاهرة د. عثمان امين ٥١ : ٧٥ - ٧٩
- الجنس ضد الجمال د. ه. لورنس ،
ترجمة : محمود عبد العزيز ٥٧ : ٨٠ - ٨٤
- جينز برج . . . أمريكى له قلب يودى عبد الحميد فرحات ٥٨ : ٤٢ - ٤٧



- الحركة الوطنية في مصر نجلاء حامد ٥٣ : ٣٩ - ٤٦
- الحضارة الاسلامية كما يراها مستشرق معاصر . . . د. محمود فهمي حجازي ٥٢ : ٥٨ - ٥٨
- حول فكرة الاتصال في تاريخ الفلسفة د. فؤاد زكريا ٥٧ : ٤ - ١١

المجلد	الصفحة	الكاتب	المقال
٥٥ : ١٠٤ - ١٠٧		بلز توفيق ، جلال العشري	حول مقال أزمة الشعر الجديد
٥٤ : ٣٤ - ٣٥		حسين اللبودي	حول المهرجان الثقافي الافريقي
٥١ : ١٨ - ٢٧		د . غزاد زكريا	الحياة الاجتماعية والاقتصادية في القاهرة
٥١ : ٦٩ - ٧٤		عفاف لطفى السيد	الحياة الاجتماعية والاقتصادية لعلما القاهرة
٥٧ : ٣٤ - ٤٠		جمال بدران	حيرة الفن بين فلاسفة الفن



٥٩ : ١١٧ - ١٢٧	د . عبد الغفار مكاوي	خواطر في فلسفة التاريخ
٥٥ : ٤ - ١٣	د . غزاد زكريا	خواطر هادئة حول رحلة القمر



٥٢ : ٥٩ - ٦١	عبد الفتاح الدينى	دواست في الفلسفة الحديثة والمعاصرة
٥٩ : ٦٠ - ٦٩	د . محمد محمود الجوهري	دواست المجتمع بين الامبريقية والتنظير
٥٩ : ١٣ - ١٨	د . سمير نعيم احمد	دواست المجتمع علم ؟
٤٩ : ٧٦ - ٨١	جمال بدران	دعوة الى التدقيق الفني
٥٦ : ٢٤ - ٣٠	د . سمير حسين	دون الاعلان في مجتمعتنا الاشتراكي



٥٧ : ٦٣ - ٦٨	ابراهيم الصيرفي	واى جديد في الشعر واللفه
٤٩ : ٥٠ - ٥٢	عبد الفتاح الدينى	رد على نقد
٤٩ : ٨٩ - ٩٣	محمد شفيق	دواست التصوير الفرنسى في القاهرة
٥٦ : ٣٩ - ٥٠	محمي الدين خطاب	دواى لوكسمبرج وحركة الفكر الاشتراكي
٤٩ : ٩٤ - ٩٨	محمد كامل القليوبى	رؤى تشكيلية جديدة في معرض الفنان سليم
٥٣ : ٩٠ - ٩٨	د . نعيم عطية	رئيسه ماجريت والواقعية السحرية



٥٦ : ٦٨ - ٧٥	سعد عبد العزيز	الزمن التراجيلى عند جيمس جويس
٥٤ : ٣٦ - ٤١	محمد عبد الحميد فرح	الزنجية . . ملامحها . . قضايها

س

٦٩ - ٦٣ : ٥٣	د. رمسيس عوض	سالتجر ٠٠ والمراهق المتمرد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
- ٣٦ : ٥٠	عبادة كحيله	سنة كتب - عن الشخصية المصرية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٤٧ - ٤١ : ٥٧	سمير كرم	سقوط الفلسفة التشاؤمية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ش

١١ - ٤ : ٥٨	د. فؤاد زكريا	شباب أمريكا ٠٠ وفلسفة التمرد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٥٧ - ٥٠ : ٥٠	محمد عوده	الشخصية المصرية بين التقليد والتجديد ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٤٩ - ٤٠ : ٥٠	د. عزت حجازي	الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٨٤ - ٨٠ : ٥٠	علي حسن فهمي	شخصيتنا بين القدرية والتواكلية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١٣٨ - ١٣٢ : ٥٠	رشدى صالح	شخصيتنا في المأثورات الشعبية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١١ - ٤ : ٥٠	د. فؤاد زكريا	شخصيتنا القومية محاولة في النقد الذاتي ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١٥٩ - ١٥١ : ٥٠	حسن توفيق	شعرنا كيف يعبر عن شخصيتنا المصرية ؟ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ط

٣٧ - ١٢ : ٥٠	السيد يس	الطابع القومي للشخصية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١١٦ - ١١٣ : ٥٩	لطفي فطيم	الطب النفسي المعاصر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٩٥ - ٨٦ : ٥٩	د. أحمد فائق	طبيعة الموضوعية في التفسير التحليل النفسي ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ظ

٧٩ - ٦٩ : ٥٠	د. سيد عويس	ظاهرة الموت في حياة المصريين ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٥٠ - ٣٨ : ٥٩	د. حسن حنفي	الظاهريات وأزمة العلوم الأوروبية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ع

١٢ - ٤ : ٥٩	د. فؤاد زكريا	عقبات في طريق العلوم الانسانية ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١١٤ - ١٠٨ : ٥٥	صبحي الشاروني	علامات على طريق فن النحت المصري المعاصر ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
١١ - ٤ : ٥٤	د. فؤاد زكريا	علم جديد للشباب ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

العدد	الصفحة	المقال	الكاتب
٥٩ - ٥٦	٥٦ : ٥١	علم النفس الصناعي في حياتنا المعاصرة . .	د . سيد محمد غنيم
٨٥ - ٨١	٨١ : ٨٥	العلوم الانسانية . . بعد أن ذاب الجليد	أمير اسكندر
٥٦ - ٤٨	٤٨ : ٥٦	عناصر الحرب النفسية	د . أحمد فائق
٥٦ - ٥٠	٥٠ : ٥٦	عن اجترافيا ومحنة العصر : دراسة في فكر	عبادة كحيله
٩٨ - ٩٤	٩٤ : ٩٨	جمال حمدان	خيري شلبي
		العودة الى النفي	

ف

٧١ - ٦٩	٦٩ : ٧١	فايز صايغ . . بين الدبلوماسية والاعلام . .	عبادة كحيله
٣٧ - ٣١	٣١ : ٣٧	الفكر المعاصر وعصر القمر	حسين الليبودي ، فتحي العشري
١١٣ - ١٠٤	١٠٤ : ١١٣	الفكرة العربية في مصر	محمد العزب موسى
٦٢ - ٥٧	٥٧ : ٦٢	الفلسفة أو هذا الجنون العقول	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٦ - ٢٠	٢٠ : ٢٦	الفلسفة المفتوحة والمجتمع المفتوح	أمير اسكندر
١٥٠ - ١٤٦	١٤٦ : ١٥٠	فننا المعاصر بين المحلية والعالمية وروح العصر	كمال الجويلي
١١٨ - ١١٤	١١٤ : ١١٨	في معرض لفن لاسلامي	عبد المجيد شكرى

ق

٣٦ - ٢٨	٢٨ : ٣٦	قاهرة الألف عام	جلال العشري
١١ - ٦	٦ : ١١	القاهرة . . مدينة ثقافية	د . ابراهيم مدكور
٦٣ - ٥٨	٥٨ : ٦٣	القاهرة	صلاح المساوي
٨٣ - ٧٦	٧٦ : ٨٣	القصة العلمية الحديثة . . الى أين ؟	د . ي . هينجر ، ترجمة : ماجدة جوهر
٧٥ - ٦٢	٦٢ : ٧٥	القصة القصيرة من الازمة الى القضية	جلال العشري
٧٥ - ٧١	٧١ : ٧٥	القوة السوداء و افلاس سياسة العنف	علاء الدين وحيد
٣٧ - ٢٨	٢٨ : ٣٧	القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية	صلاح قنصوه

ك

١١ - ٤	٤ : ١١	كارل ياسبرز بين الفلسفة والسياسة	د . فؤاد زكريا
٢١ - ١٠	١٠ : ٢١	كارل ياسبرز يرقى نفسه	د . حسن حنفي
٦٥ - ٥٧	٥٧ : ٦٥	كتابات مارتن هيدجر السياسية	سمير عوض
٥١ - ٤٨	٤٨ : ٥١	كزانتزاكي . . ذلك الكاتب السياسي	ترجمة : مريم الحوي
٤٩ - ٤٠	٤٠ : ٤٩	الكويديا طريقة من طرق التفكير	محمود محمود



- اللفظة في ضوء البحث الحديث د . محمود فهمي حجازي
ب . أكسياف ،
لينين والمتفقون ترجمة : رمزي جرجس ٥٢ : ١٢ - ١٥



- ماذا جرى للحلم الأمريكي محمد علي بركات
ما وراء فلسفة تاريخ الفن سعد عبد العزيز
المتفقون والسياسة في الولايات المتحدة أسعد حليم
محاولات جديدة لتفسير تراث ابن رشد د . محمد عاطف العراقي
مستشرقان من الشرق والغرب فتحي العشري
مشكلات منهجية في دراسة السلوك الاجرامى صلاح عبد المتعال
مشكلة الاعتقاد في الأدب المعاصر يحيى عبد الله
مشكلة الاغتراب بين ماركس ولينين سمير كرم
مشكلة اللاشعور في الفن سمير كرم
مصر الاستعمار والثورة د . خليل صابات
مصر النهرية ابراهيم عامر
مصطفى حلمي ودراسات التصوف الاسلامي د . أبو الوفا التفنازاني
مع احمد عزت عبد الكريم سامح كريم
مع برتراند رسل شيخ الفلاسفة المعاصرين ترجمة : سليم الأسيوطي
مع الدكتور حسين فوزي محمد السيد شوشه
مع خالده محيي الدين سامح كرم
مع الدكتور محمد حسن الزيات سامح كرم
مع الدكتور محمد عوض محمد سامح كرم
المعرض العام للفنون التشكيلية صبحر الشاويحي
مفاهيمنا الأخلاقية والعودة الى النبع امر اسكندر
المقاومة الفلسطينية والكفاح المسلح د . عاطف القمص
مكارينكو . . من فلاسفة التربية الماركسية سعد اسماعيل علي
مكان العلم في المجتمع المعاصر زكريا فهمي
ملاحم الفلسفة الافريقية عبد الواحد الامام
ملاحم من شخصية المرأة المصرية د . كاميليا عبد الفتاح
من تاريخ الحرب النفسية د . خليل صابات
موسيقانا الشعبية . . الى أين ؟ د . سمحة الحقوي
مولود فن جسد د . سمحة الحقوي ٥٤ : ٥٦ - ٦١



٩١ - ٨٥ : ٥٠	محمود رجب	• • • • •	نحن وظاهرة الاغتراب
١١٢ - ١٠٥ : ٥٩	د • فؤاد زكريا	• • • • •	نحن والعلوم الانسانية
٣٣ - ٢٨ : ٥٧	السيد ياسين	• • • • •	نحو الدراسات الاجتماعية للظواهر الأدبية
١٠٣ - ٩٢ : ٥٠	د • سعد المقرئ	• • • • •	نزعة الابتعاد عن الواقع
٦٦ - ٥٨ : ٤٩	ماهر شفيق فريد	• • • • •	النقد الأخلاقي عند ليفز
٦٢ - ٥٥ : ٥٣	د • سامية أسعد أحمد	• • • • •	النقد الأدبي بين العلم والفن
٥٧ - ٥٣ : ٤٩	د • سامية أسعد أحمد	• • • • •	النقد التحليلي عند شارل مورون



١٩ - ١٢ : ٥٤	أسعد حليم	• • • • •	هجرة العقول خطر يهدد الدول النامية
٣١ - ٢٤ : ٥٨	أحمد السعدني	• • • • •	هربرت ماركيز • • • • • والانسان ذو البعد الواحد
٤١ - ٣٢ : ٥٨	أحمد فؤاد بليح	• • • • •	هربرت ماركيز ونظرية نقد المجتمع
٢٠ - ١٤ : ٥٥	أحمد إبراهيم الشريف	• • • • •	هل يؤثر القمر في حضارة الأرض
٣٨ - ٣٣ : ٥٣	محمد عبد الحميد فرح	• • • • •	هوشي • • • • • بين الشعب والثورة



٩ - ٤ : ٥٣	د • أسامة الحوي	• • • • •	وجه جديد للتقدم التكنولوجي
٤٣ - ٣٥ : ٥٢	مجاهد عبد المنعم مجاهد	• • • • •	الوجودية الدينية وتحديات العصر
٨١ - ٧٤ : ٥٨	د • أنجيل بطرس سمعان	• • • • •	ج • • • • • ويلز وأول رحلة الى القمر



٧٠ - ٦٧ : ٤٩	محمد عاطف القمري	• • • • •	اليسار الأمريكي الجديد
--------------	------------------	-----------	------------------------

لوحتا الخفاف :

للخنان التشكيلي المعاصر بول كلي (١٨٧٩ - ١٩٤٥) الذي يعد واحدا من رواد الفن التمييزي الألباني ، وواحدا من طليعة رواد الفن التشكيلي الحديث ، ولقبد ولد بالقرب من مدينة برن بسويسرا ، ولكنه نشأ نشأة اللاتية خالصة . تتميز أعماله بروعة اللون وبراعة التكوين ، وقد أثر على لفته التشكيلية الخاصة مبكرا ، ولكنه حث على رموزه الفكرية جديرا . . . عندما لجأ إلى الأسهم واستخدمها رموزا تشير إلى عالم الإنسان . . . النفسي والاجتماعي والميتافيزيقي . . . ويعد كلي الفنان التشكيلي الكبير الذي ظل ينافس بيكاسو طويلا على زعامة الفن الحديث ، حتى اضطره الموت إلى التخلي عن تلك المنافسة لزميله الفنان العظيم .

المجلات الثقافية

تصدرها المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

المجلة

مجلة الثقافة الرفيعة
رئيس التحرير
يحيى عفت

تصدر يوم ٥ من كل شهر
العدد ١٠ قروش

الفكر المعاصر

مكتشف لكل التجارب
رئيس التحرير
قوان زكريا
تصدر يوم ٣ من كل شهر
العدد ١٥ قروش

الكتاب

رئيس التحرير
احمد عباس صالح
تصدر أول كل شهر
العدد ١٠ قروش

المسرح

كل جديد في فنون المسرح
رئيس التحرير
صالح عبدالصبور
تصدر يوم ١٥ من كل شهر
العدد ١٠ قروش

الكتاب العربي

أول مجلة ببلوغرافية
في العالم العربي
رئيس التحرير
أحمد عيسى

تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

السينما

كل جديد في فنون السينما
رئيس التحرير

سعد الدين وهبة

تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

الفنون الشعبية

ولدت من الفنون الشعبية
رئيس التحرير
د. محمد محمد يوسف
تصدر كل ٣ شهور
العدد ١٠ قروش

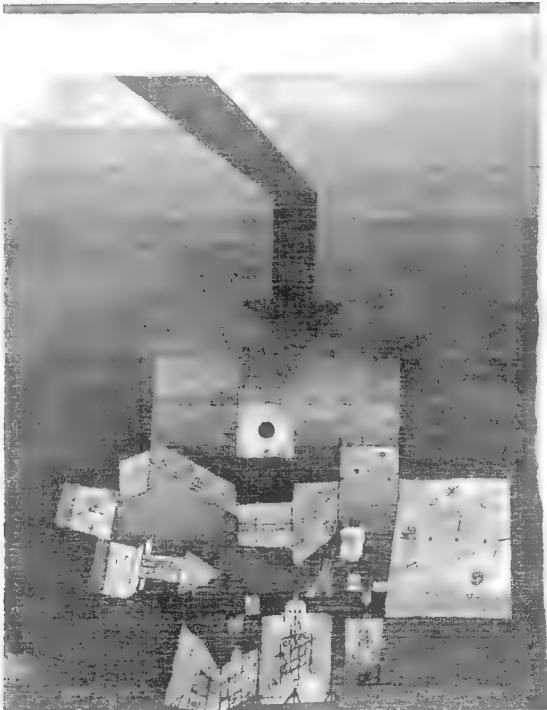
اشتراكات منخفضة لطيف الجامعات والمعاهد العليا ومنظمة كشابات
الاشتراكات والإعلانات: إدارة المجلات: ٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة

الفكر المعاصر

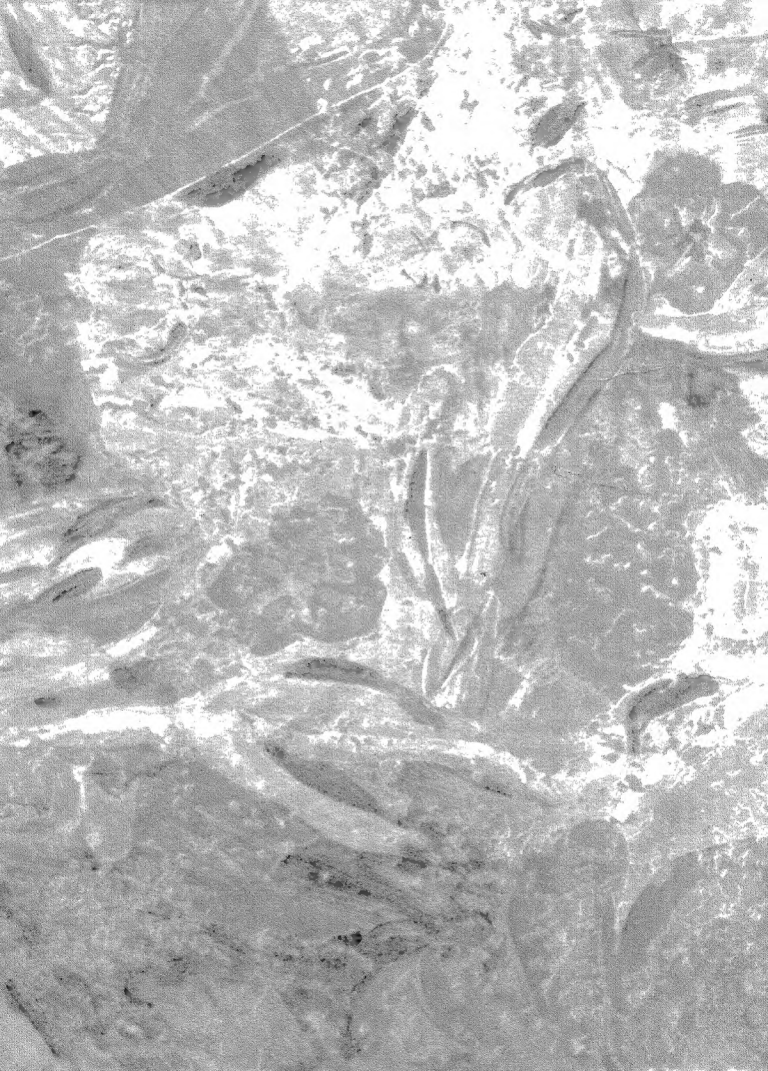
• الاشتراك السنوي عن ١٢ عددًا ١٠٠ قرش في الجمهورية العربية المتحدة و١٥٠ قرشًا في البلاد العربية و٩٠٠ قرش في الخارج • الاشتراك عن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٠ قرشًا في الجمهورية العربية المتحدة و٨٠ قرشًا في البلاد العربية و١٢٥ قرشًا في الخارج • ترسل الاشتراكات باسم قسم الاشتراكات المجلة الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة • الإعلانات تنشر عليها مع قسم الإعلانات المجلة الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة .

الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر
دار الكتاب العربي

. الثمن ١٠ قروش









Bibliothek Alexandrina



0535604